جرجيس فتح الله

نظرات
في
القومية العربية مدًا وجزرًا
حتى العام ١٩٧٠

تاريخًا وتحليلاً

أضواء
على القضية الآشورية
(منابع آب ١٩٣٣)

الجزء الثالث

إنقلابات ودكتاتوريات عسكرية

اسم الكتاب: نظارات في القومية العربية مداً وجزراً حى العام ١٩٧٠ تاريخاً وتحليلاً - أضواء على القضية الآشورية (مذابح آب ١٩٣٣)
الجزء الثالث: إنقلاب ودكتاتوريات عسكرية
تأليف: جرجيس فتح الله
من منشورات ئاراس رقم: ٢٦٦
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
التنضيد: نسار عبدالله
التصحيح: عبدالرزاق عبدالله - شاخوان كركوكي
الغلاف: آراس أكرم
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة الأولى: اربيل - ٢٠٠٤
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٤/٢٠١

الفصل السابع والعشرون

قيام إنقلاب ١٤ تموز . أثورة أم انقلاب عسكري ؟ رد الفعل الأول عند عبدالناصر . هيئة الضباط الثوريين العليا . أهداف ضباط الرابع عشر من تموز . أهناك خطط مسبقة ؟ عودة الى الوراء . فشل المحاولات الدستورية الاصلاحية والانتفاضات الشعبية السابقة في تحويل الحكم الملكي عن خطه المجافي للدستور . عدم تجانس القائمين بالانقلاب . اتجاهاتهم العقائدية والفكرية . بدء الصراع والخلاف حول الأهداف والنوايا . المنافسة على الزعامة . ظروف مقتل الأسرة المالكة . قوانين الثورة . شذوذ بعضها عن الخطوط والمباديء الدستورية والقانونية الصحيحة . قانون الاصلاح الزراعي . جبهة الاتحاد الوطني وصلتها بالضباط الانقلابيين . الاحزاب . التيار العروبي يحتل الميدان . التصدي الشيوعي في الإعلام وفي الشارع . موقف (ج .ع .م) . التدخل الخفي والسافر باتجاه الوحدة الاندماجية . (قاسم) والحزب الشيوعي . مواكب ومسيرات . سيطرة الحزب على الاذاعة وعالم الصحف . الپارتي (الحزب الديمقراطي الكردستاني) . شعار الوحدة الفورية ازاء الحقوق السياسية الكردية . فصائل المقاومة الشعبية . الحكم الفردي المطلق . دكتاتورية عسكرية . انفراد قاسم بالحكم بعد ازاحة عبدالسلام عارف . تضاؤل نداءات الوحدة . الشيوعيون يخوضون المعركة الاعلامية . حكومة تمثل الأحزاب . الوعود بالإصلاحات . التقرب من الكتلة الشرقية(*)

لو جاز لنا إصدار حكم أوليّ على إتجاه ضباط إنقلاب تموز بهيئتهم العليا وإحتياطيها وخلاياها بمختلف رتبهم. فلا سبيل لنا غير الإقرار بصواب ما أكده القوميون العروبيون في سائر البلدان الناطقة بالعربية. بأن هذا الإنقلاب كان قومي الأهداف. أو على أقل تقدير: عملية هدم تام للنظام الملكي غلب عليها الطابع القومي العروبي.

لكنه لم يكن إنقلاباً ناصرياً ولا وحدوياً كما صوّره بعضهم، بإقرار وشهادة كثير من الضباط المشرفين على التنظيمات السرية داخل المؤسسة العسكرية، أو من الذين رئسوها.

(*) للمزيد من التفاصيل حول مواد هذا الفصل. يوصى القاريء بمراجعة كتابنا "العراق في عهد قاسم: ستوكهولم ١٩٨٩" بجزئيه، المترجم عن أوريل دان والموضوع من قبلنا.

وهم متفقون في هذا تقريباً، رغم دبيب الخلاف بينهم. ذلك الخلاف الذي أدى بهم الى محاولات إنقلابية مماثلة للرابع عشر من تموز، بعضهم ضد بعض، والى أن يفتك الغالب منهم بالمغلوب بغلاظة ووحشية فاقت ما أنزلوه هم برؤوس مختارة من ساسة النظام الذي هدموه.

كان (عبدالناصر) في زيارة لصديقه المارشال تيتو عندما بلغه النبأ. وكعادته عند سماعه بقيام أي نظام ثوري في العالم العربي أمر القاهرة بالإسراع بالإعتراف بالحكم الجديد. وكان على وشك العودة الى القاهرة لما أُعلم بنبأ نزول مشاة الأسطول السادس الأمريكي برّ لبنان في عين الوقت الذي أُبلغ بشائعة إحتمال قيام الملك حسين، بوصفه رئيس الإتحاد الهاشمي، بطلب إنزال قوات بريطانية في بلاده.

كان قائد ثورة يوليو على ثقة بأن ما حصل في العراق هو جزء من ثورته القومية العروبية ومن وحي تعاليمه، وإقتداءً به. كيف لا؟ وقد سبق للضباط المؤتمرين أن أودعوا ثقتهم به بأن طلبوا مشورته أكثر من مرة، بل مراراً، بالذات[١] وبالواسطة. وبوقوع هذين الحدثين متزامنين

(١) نوّهنا سابقاً باجتماع لقاسم (آمر اللواء التاسع عشر) بعبدالحميد السرّاج وبمحضر من شريكه (عارف) في تشرين الثاني ١٩٥٦ (بالرمثا) على الحدود السورية الأردنية وإعلامه بوجود تنظيم عسكري سرّي يرمي الى الإطاحة بنظام الحكم في العراق "وهم يودون معرفة رأي عبدالناصر"، وقد لحقت بهذه الصلة صلتان أخريان على الأقل. ففي تموز ١٩٥٧ كُلّف حسين جميل (من الحزب الوطني الديمقراطي) بالشخوص الى مصر ومقابلة عبدالناصر فتم له ذلك وظفر بوعد منه يتضمن تأييده لـ"الثورة" حال نجاحها، واستعداده لتقديم كل ما تحتاج اليه من مساعدة. وفي حالة فشلها فسوف يستقبل القائمين بها ويمنحهم اللجوء السياسي. كما أنه سيستخدم دالّته على الإتحاد السوفياتي لتأييد الثورة.
وكُلف في ١٢ من شباط ١٩٥٨ محمد صديق شنشل (وهو كما مرّ من زعماء حزب الإستقلال، والقوميين المعروفين – مدير الدعاية العام في حركة رشيد عالي (مايس)) بعين المهمة. فواجه الرئيس المصري وظفر منه بعين الوعود وطمأنه بأن موقف الإتحاد السوفياتي سيكون شبيهاً بموقفه من العدوان الثلاثي، وكان جوابه على طلب النصيحة أن القائمين بالمهمة هم أدرى بظروفهم وأحوالهم وإمكاناتهم. وطلب شنشل فضلاً عن ذلك تكديس السلاح عند الحدود العراقية فقد يكون الإنقلابيون بحاجة اليه. في يوم ١٥ من تموز حطت طائرات نقل عسكرية مصرية في مطار بغداد فأفرغت حمولة من الأسلحة والأعتدة. ويطيب لي هنا أن أنقل وصفاً دقيقاً كتبه الصحافي الألماني أدلبرت ڤاينشتاين Edlbert Feinstein في كتابه مكة الجديدة الرابضة على النيل Das Neue Mekkoliegtom Nil طبع ڤيينا. قال: "حطّت في ١٩ من تموز أول طائرة عسكرية مصرية مع الوفد العراقي الذي عاد من دمشق بعد لقائه بعبدالناصر، وما إن توضّح الجنود علامة الأبيض والأحمر والأسود المرسومة على جناح الطائرة ذات المحركين حتى سرت فيهم شرارة كهربائية، فإندفعوا كالمجانين وراء الطائرة التي كانت تجري بسرعة ١٠٠ ميل في الساعة فوق المدرج وهم يلوّحون ببندقياتهم ويرقصون. وعند وقوفها تجمع حوالي ٥٠٠ أو ٦٠٠ منهم حول الطائرة. عشرات من المغنين إنطلقت حناجرهم بالغناء وهم يرقصون فرحين وإنضم إليهم الباقون وجردت الحراب من أغمادها وركّبت. وصفّقت المئات وهتفت وإشتبك آخرون في عناق. فجأة سمعت صرخة وحّدت مرة =

تقريباً، انصرف ذهنه الى أمر واحد، وهو أن الغرب قد عقد العزم على سحق ثورة عروبية تقدمية ذات طابع ناصري بعملية غزو مشابهة لما حصل في حرب السويس. وأن الرئيس اللبناني و(الحسين) هما في سبيل تنظيم حملة مشتركة بمساعدة قوات تركية للزحف على

= أخرى الجموع المتقاطرة، وهي تتجمع وتقفز وتتحرك بإيقاع راقص. هتف جمعهم معاً بما يشبه وحدة عسكرية متراصّة "ناصر... ناصر" وعقب ذلك هتاف حماسيّ "نحن جنودك يا جمال". كان ضباطهم ايضاً يهتفون مع الآخرين. بلغت درجة الحرارة في المطار ١١٥ فهرنهايت في الظل و١٣٨ درجة في الشمس. قمصان الجنود المهتاجين تبللت كلها بالعرق كأنها نقعت بماء. إلا أن الهياج عند رؤية الطائرة الحربية من دمشق تغلّب عصر ذلك اليوم على الإرهاق البدني". وينقل الزبيدي (المرجع السالف: الصحيفة ذاتها) تصريحاً أدلى به الى جريدة "المنار" الدمشقية [عدد ١٨ تموز ١٩٥٨] الدكتور معروف الدواليبي (وهو كما مرّ رئيس وزراء سوري سابق عرف بميله نحو اليسار) وخلاصته "أن ضابطين عراقيين وصلا دمشق في زمن سابق للوحدة. فاتصلا به وطلبا منه تسهيل مقابلة مع السفير السوفيتي فكان لهما ذلك. وكان جواب السفير مشجعاً بحسب تصريح الدواليبي، إذ قال بعد المشاورة مع حكومته أن الإتحاد السوفيتي سيبارك الثورة" آه. لم يحاول الزبيدي التحري عن هوية الضابطين كما لم يعز أحد من الضباط لنفسه مثل هذا المسعى في الوقت الذي انطلق الضباط في مباراة حول إسناد أدوار هامة كل لنفسه. وأرغب أن أشير هنا ايضاً الى مقال كتبه اللواء عفيف البرزي لجريدة "النصر" الدمشقية منشور في عدد ١ تموز ١٩٦٢ (أي بعد الإنفصال) أيّد فيه اجتماعه (بقاسم وعارف) في العام ١٩٥٦ داخل خيمة بالقرب من مطار المفرق في الأردن. وذكر أن "المفاوضات" تولاها السرّاج فيما بعد "الذي يعمل لعبدالناصر من وراء ظهر الحكومة السورية ويقدم تقاريره له كي لاتدري الحكومة السورية حقيقة الموقف في العراق وكي يبقى الموقف السوري محفوفاً بالخطر دائماً، فتلجأ الى طلب الوحدة مع مصر كما وقع فعلاً" آه. [بقي اللواء البرزي قائداً للجيش الأول في الإقليم الشمالي بعد الوحدة فترة قصيرة ثم استبدل بالفريق جمال فيصل وقضي عليه بالإقامة الجبرية في القاهرة بشكل تعيينه عضواً في "مجلس التخطيط الأعلى" وهو كما وصفه بنفسه مجلس وهميّ لا وجود له ثم لجأ الى العراق. وقد أستدعي للشهادة في محاكمة (عارف) وسئل عن علاقة المتهم وقاسم بعبدالناصر، فأجاب أنهما كانا قد اجتمعا بقائد الجيش الأول لوضع أسس التعاون. (المحاكمات)

وعن المصادر المصرية أن عبدالناصر فور سماعه بالإنقلاب في الساعة السادسة والدقيقة السابعة عشرة صباحاً من الراديو إتصل بنائبه عبدالحكيم عامر. فقام هذا بدوره بإصدار هذا الأمر للفريق جمال فيصل قائد الجيش الأول: "حاول أن تتصل بالجيش الثوري (كذا) في بغداد ومن المستحسن أن تدعهم يعرفون بشكل ما أننا نساند أي حركة هدفها تحرير الشعب العراقي. ونحن ننتظر أوامر محددة من الرئيس" وبعد خمس دقائق (أي في ٢٢ :٦) إتصل برج المراقبة في مطار دمشق بمثيله في بغداد لكن الإتصال إنقطع. ثم تجدد بعد قليل عن طريق جهاز لاسلكي شرطة الموصل في الثامنة والدقيقة الثلاثين، وبعدها بقليل وجّه (عامر) أمراً آخر لـ(فيصل) قال فيه "تلقيت أمراً من الرئيس في (بريوني) لبذل أية مساعدة ممكنة للثورة". وعندها بعث فيصل بضابطين برتبة مقدم الى بغداد.

قلنا: هذان الضابطان ومن تلاهما عززوا بتقاريرهم إنطباع عبدالناصر بأن الإندماج بـ(ج.ع.م) وشيك ولا معدل عنه. ونقلت صحف القاهرة تعليقاً سياسياً أذيع من راديو بغداد في ١٦ تموز وُصفت فيه الثورة بأنها جزء من ثورة الأمة العربية العظمى التي قادها الرئيس عبدالناصر، وحررها من الظلم والفساد. كما نقلت بأحرف بارزة وصف الراديو لكيفية خروج أهالي بغداد كافة الى الشارع وهم يهتفون: "شعب عربي واحد، جيش واحد، نضال واحد".

بغداد.

كان اعتقاده ناجماً عن إيمانه الجديد الذي بشّر به – وملك عليه مذاهبه وهو أن الثورة العربية وحدة لاتتجزء، وأنه اذا فشلت في واحدة من الدول الناطقة بالعربية فقد يزيد فشلها في كل مكان بالنتيجة. وبسبب من هذا المنحى الفكري، وقبل اطلاعه على هويات الضباط القائمين بالحركة وبفقر معلوماته عن تاريخ العراق السياسي والإجتماعي والإثنوغرافي (كما ظهر ذلك فيما بعد) – وجد وتحقيقاً لما وعد به – ألا سبيل له إلا الشخوص الى موسكو لإقناع الكرملين كما أشيع بالوقوف الى جانب إنقلابيي بغداد بإصدار تصريح إنذاريّ. وتضاعفت هواجسه عندما وجّه (الحسين) نداءً الى الشعب العراقي يدعوه فيه الى سحق الثورة. ثم أشفعه بمؤتمر صحفي قال فيه أنه يعتزم الزحف على بغداد بمساندة المظليين البريطانيين للقضاء على الحركة.

لكن حكام الكرملين في العام ١٩٥٨ لم يكونوا مستعدين للمخاطرة بمواجهة مع الولايات المتحدة، سيّما وأنهم كانوا يشكون كثيراً في اعتزامها التدخل استجابة لرغبة الحسين. ولذلك لم يكونوا عند حسن ظن عبدالناصر وإكتفوا بالإعتراف الفوري بالنظام الجديد في العراق. وحذّروا الدول المجاورة للحدود السوفيتية: (إيران وتركيا) الشريكتين في حلف المعاهدة المركزية من التدخل.

وكان على عبدالناصر أن يقنع بهذا. سيما بعد أن تبين له أن تهديدات "الحسين" جوفاء وأن بريطانيا تدرس مسألة الإعتراف بالوضع الجديد. كما أن (روبرت مورفي) مبعوث آيزنهاور الخاص الى الشرق الأوسط، خف اليه ليؤكد بمهارته السياسية وحذقه الدبلوماسي المعروف أن الولايات المتحدة لا شأن لها بالعراق وأن قواتها المتواجدة في لبنان لن تتحرك قيد أنملة نحو الشرق. ويظهر أن الموقف الأمريكي الواضح هو الذي قضى على حماسة الحسين وعلى كل فكرة خطرت بباله في التصدي لأولئك الضباط الذين قضوا بوحشية وبرودة دم على أبناء وبنات عمومته وقبروا معهم إتحاده الهاشمي مع مهندسه الأعظم نوري السعيد الذي قضى على حياته بيده حارماً مطارديه لذة الظفر به وقتله[٢].

(٢) بتّ في مصير الأسرة المالكة من المبدء. كان قراراً ثلاثياً آنياً لقاسم وعارف وعبداللطيف الدراجي. في حين أتخذ قرار جماعي في أثناء اجتماعات اللجنة العليا على قتل الملك وعبدالإله ونوري السعيد فحسب. وحاول قاسم وعدد من زملائه التنصل بشكل ما، في المبدء لم يحاول قاسم شيئاً لنفي المسؤولية عن شريكه، بل حاول إبعاد نفسه وزملائه عنها عندما أثار مقتل الأسرة المالكة ضجة نفور واشمئزاز في أوساط خارجية ومحلية وكانت المقارنة بين تصرفات ثوار يوليو مع الملك فاروق وأسرته وما حصل في بغداد لا مناص منها. لذلك دأب عارف من جانبه كما فعل شريكه على إنكار إعطائه الأمر. إلا أن =

حقاً أن الضباط العراقيين طلبوا من الزعيم المصري المشورة والنصح والهداية. وقد كان ذلك في أولى مراحل تنظيمهم ومن الطبيعي أن يستهدي التلميذ المستجد بالمعلم والمجرب. لكنهم

= قاسماً بعد تخلصه من شريكه هذا شجّع الشائعة ووضع مسؤولية الجريمة على عاتقه، سيما عندما جدد علاقاته الدبلوماسية مع الأردن في تشرين الثاني ١٩٦٠ وكان إذذاك قد فقد بقية صغيرة له باقية من بكارته العسكرية ليتعوض عنها بفن الكذب الدبلوماسي. إذ أوعز لوزير خارجيته هاشم جواد أن ينقل للملك الأردني أثناء إجتماعات الأمم المتحدة في أيلول – أسفه العظيم لمقتل الأسرة المالكة وبأنه لم يأمر قط بقتلهم، وأنهم قتلوا بطريق الخطأ وقد تعذر عليه صيانة حياتهم لأنه كان بعيداً عن بغداد عند إرتكاب الجريمة. مستشهداً بالتدابير التي أتخذت فيما بعد لتسفير أصوليّ لبديعة، شقيقة عبدالإله، وأسرتها. وتظاهر الحسين بالتصديق لحاجته الى حليف بمواجهة (ج.ع.م) أذ ذاك. كانت الوحدات المرسلة الى قصر الرحاب مزودة بأوامر صريحة تقضي التخلص من الملك وولي عهده فوراً. وهذا ما صرح به الرائد الطيار محمد سبع البياتي عضو اللجنة العليا للضباط الثوريين لوكالة أنباء الشرق الأوسط في ٢١ تموز ١٩٥٨. [إخفى إسم هذا الضابط نهائياً من الساحة السياسية، وعثر عليه بعد ١٩٥٩ وهو صاحب دكان لبيع الألعاب في الأعظمية]. ومن ذلك ايضاً ما أدلى به النقيب عبدالجواد حميد الصائغ قائد السرية التي أرسلت الى قصر الرحاب – في أثناء مقابلة له مع مجلة "Quick" الألمانية في ١٦ من آب ١٩٥٨ [تم على إثره نقله الى اللواء الخامس المرابط في الموصل – وقتل في إرهاصات محاولة الشوّاف الإنقلابية] وفي حينه كان (قاسم) صاحب فكرة إستكتاب القاتل الفعلي إعترافاً غامض العبارة ملتوي الأسلوب قصد أن يفهم منه أن حالة من الجنون واللاوعي إنتابته ففعل ما فعل. ولم يتعمد قاسم إخفاء هذه الوثيقة ولم يحاول إذاعتها على الملأ، بل وضعها في يد الإستخبارات العسكرية ليؤمن إنتشارها "بصورة سرية".
وبخلاف ذلك فليس هناك أي دليل يشير الى حسن نية الضباط بل سوءها بالأحرى كإقتياد أفراد الأسرة الى أرض مكشوفة خارج البناية ووضعهم صفاً واحداً كما يوضع المحكومون بالموت أمام فصيلة الرماة بمواجهة الضباط المنتصرين، يتطلع أحدهم الى الآخر ليكون البادىء. إذ كان أدعى الى السلامة، أو أريد لهم ذلك، إبقاؤهم داخل القصر تحت الحراسة لو لم تكن النية مبيّتة. [نجت من المذبحة "بديعة" شقيقة عبدالإله. وزوجها الشريف حسين مع أطفالهما الثلاثة بلجوئهم الى السفارة السعودية، ثم السماح لهم بعد فترة بترك البلاد. ومن هؤلاء الأطفال "عليّ" الذي يطمح الى إستعادة العرش الهاشمي في أيامنا هذه].
إن الجهود التي بذلها الكتاب والباحثون في التحري عن المسؤول في إصدار حكم الموت لم تكن من غير طائل سيما بعد أن شرع ضباط الثورة بتصفية بعضهم بعضاً وبعد أن طوى الخمول والنسيان والموت الطبيعي والأدبي بقاياهم. أكدت بشكل لايأتيه ريب أن قرار تصفية الأسرة المالكة كان قد أتخذ منذ المحاولات الأولى للإنقلاب. [أنظر الزبيدي: المرجع السالف ص ١٢٧]. وبخلاف هؤلاء وضباط في الحرس وجندي وخادم قتلوا معهم ، كانت حصيلة القتلى خارج القصر: محاسب السفارة البريطانية، ورجل أعمال بريطاني أعتقل بطريق الخطأ. والأردنيين الأربعة: إبراهيم هاشم نائب رئيس الإتحاد الهاشمي، وسليمان طوقان وزير دفاع الإتحاد، ودبلوماسي وضابط، كانت مفرزة عسكرية قد ألقت القبض عليهم وإقتادتهم الى وزارة الدفاع فتغلبت الغوغاء وإنتزعتهم من يد حراسهم وقضي عليهم "بطريق الوهم" إعتقاداً منهم أنهم من رجال العهد البائد. [هكذا كان التفسير للحادث]. كما قتل "صباح" وهو الإبن الوحيد لنوري السعيد في اليوم التالي فضلاً عن إثنين من الألمان وإثنين من الأمريكان ثبتت هوياتهم. وكان ثمّ أحد عشر قتيلاً آخرين غير هؤلاء. إن العراقيين كتمت هوياتهم عمداً وسكت أهلهم عن المطالبة بهم ولم يعرف بأمرهم إلا بعد زمن.
وكتم نبأ مقتل الملك فيصل الثاني. ولم يذع إلا بعد مرور ثلاثة أيام وعن طريق الراديو، وربما كان =

والحق يقال لم يطلبوا منه رسمياً، وبعد نجاحهم العظيم بذل مجهودات رسمية على الصعيد الخارجي والدولي. إلا أن عبدالناصر كان يجد تلك المجهودات واجباً مفروضاً عليه لإعتباره الزعيم القومي العروبي غير المنازع. وبإعتباره ما حصل في العراق جزءً من النضال العروبي في سبيل وحدة الأمة الشاملة. وكل ما وقع بعد ذلك كان يشير الى أن هذا الزعيم لن يكتفي بإحتجاز مقعد في قاعة الرابع عشر من تموز. بل كان يطمح من المبدء الى إعتلاء المنصة.

ومن كل ما كتب عن "الثورة" أو "الإنقلاب" إن شئت. ومن كل ما دوّن عن صفات وشيات وعقائد وإتجاهات لأعضاء اللجنة العليا ولمئتين أو ثلاثمائة ضابط من مجموعات وتكتلات سرية للضباط الثوريين معهم، لا يُبقي مجالاً للشك في طبيعة الثورة وأهدافها. وقد عرف عن الطابع الغالب على اللجنة العليا هو القومية العروبية. وفوق هذا هم كذلك سنيّون خلا إثنين من الشيعة، وليس بينهم كردي أو مسيحي واحد. وهو إجراء لايخلو من حكمة، قدر ما يمليه الواقع، فالضباط المسيحيون هم مهنيون محترفون لا شأن لهم بالسياسة والضباط الكرد محترفون مثلهم ولا شأن لهم بالقومية العربية إن كان بينهم سياسيون وربما غلب الشعور القومي على بعضهم.

لكن فات عبدالناصر شيء واحد وهو أن رأس الإنقلاب ومنفّذ خطته لم يكن مستعداً في أي وقت لمقاسمة أحد ثمار نصره. وكان عليه أن يدرك ذلك، من تجربته الخاصة مع اللواء محمد نجيب الذي حاول منازعته المقام الأول في حركة ٢٣ يوليو. فضلاً عن أن العراقيين لايريدون الوحدة.

والحاصل؛ إنهار النظام الملكي على رؤوس أتباعه وطبقته الحاكمة، بومضة خاطفة من عين التاريخ. وبثمانٍ وعشرين إطلاقة أرسلتها أصبع واحدة بمجرد ضغط على زناد آلة صمّاء بضع ثوان. ذلك النظام الذي كلّف بناة الإمبراطورية البريطانية الكثير من المال والرجال والقلق ووجع الرأس عندما قرر الـ(وايت هول) أن يخلق دولة جديدة سماها بـ"العراق". وأن يجلب لها

= مبعث هذا التأخير الشعور بالعار والخجل أو الخوف من حصول رد فعل سيء في الرأي العام. أو كما أرجح، كان للحيلولة دون أن يتولى الملك (حسين) منصبه كرئيس للإتحاد العربي الهاشمي في الوقت الذي كانت هناك قطعات عسكرية عراقية في بلاده وعندما لم يكن الموقف الدولي واضحاً. كانت كتب التاريخ الموضوعة بيد طلاب المدارس العراقيين، وكلها من تآليف قوميين، تؤكد بصورة خاصة على أن الحكام العرب ولاسيما الخلفاء العباسيين كانوا يقتلون أو تسمل أعينهم بأيدي الأتراك المتسلطين على الحكم وليس بيد القواد العرب. لكن ما حصل في ١٤ تموز ١٩٥٨ هو أن حاكماً عربياً قتل بيد ضباط عرب بأمر صادر من قواد عرب وإن من الضحايا نساءً وأطفالاً كان القواد الأتراك عادة يتعففون عن إيذائهم. والمقارنة هنا لابد منها ما دمنا نتحدث عن القومية.

ملكاً وأسرة مالكة من الحجاز، قبل ثمانية وثلاثين عاماً بالضبط.

كان ونستون تشرشل في ١٤ تموز ١٩٥٨ – بين الأحياء وقد ناهز الرابعة والثمانين. وهو كما يذكر القاريء، رئيس مؤتمر القاهرة الذي هندس الكيان السياسي العراقي المنهار، وهو الذي صانه ووقاه بعمل عسكري جريء في ١٩٤١ عندما بات تحت خطر وقوعه بيد النازية عن طريق القوميين العروبيين.

حاولت جاهداً أن أجد لهذا السياسي العجوز تصريحاً أو تعقيباً على ما حصل في ذلك اليوم المشهود فأخفقت. إلا أن حكومة بلاده كانت أسرع من غيرها في الإعتراف بالوضع الجديد.

لم يلق الإنقلاب مقاومة جدية، فبظرف ساعتين فقط إنتهى كل شيء وإنشغلت الغوغاء بسحل جثة عبدالإله والبحث عن نوري السعيد وأقطاب رجال العهد البائد، وتحطيم تماثيل الملك فيصل الأول والجنرال مود. ومحاولة هدم بناء السفارة البريطانية على رؤوس شاغليها وقد حيل دون ذلك في آخر لحظة[٣].

(٣) تم بإغضاء من السلطة الثورية الجديدة وبموافقة منها إحياء عادة أو تقليد جرى في بغداد وألفه أهلها وشاركوا فيه أحياناً، بدءً بالسنة الرابعة عشرة بعد بنائها في ٧٦٢م. عندما إستجاب الضابط المكلّف بنقل جثث مقتلة قصر الرحاب لرغبة الجماهير فسلمهم جثة عبدالإله لسحلها ثم تعليقها مقطعة الأوصال مقابل بناية وزارة الدفاع، مثلما تم بمبادرة "وطنية" باركها بيان الحكم العسكري، عين العمل بجثة نوري السعيد. توالت هذه السُنة الشنعاء في بغداد بدءً بجثة الثائر (يوسف إبن إبراهيم المعروف بالبرم) بعد تقطيع أوصالها والتشهير بها في العام ٧٧٧م، وبعدها بسبعة عشر عاماً بالوزير جعفر بن يحيى البرمكي "نصب رأسه على جسر وقطع بدنه قطعتين نصبت كل واحدة على جسر" [إبن الأثير ج٦ السنة١٨٧هـ]. وبإستقراء ما كتبه وسجله المؤرخون العرب والإسلام بهذا الصدد [إبن الأثير، الطبري، اليعقوبي، المسعودي، إبن الفوطي، عباس العزاوي وغيرهم وغيرهم] ومتابعتهم يتعذّر علينا أن نجد جيلاً واحداً من البغداديين لم يشاهد أو يشارك في عملية واحدة أو إثنتين أو أكثر من عمليات التمثيل العلني بجثث المغضوب عليهم الذين قضى السلطان، أياً كان، بإعدامهم الحياة تطبيقاً للآية: "إنما جزاءُ الذين يحاربون اللهَ ورسولَه ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف...". وتبقى الجثث والرؤوس المقطّعة أياماً وأشهراً وقد تمتد لأكثر من سنة، تشخص اليها أعين السابلة لتغدو من المناظر المألوفة التي لاتثير قرفاً. وإنفردت هذه المدينة التي كانت لزمن ما عاصمة الدنيا، بمتحف فريد من نوعه بفظاعته وساديته لم يقم مثله في تاريخ البشرية عرفه المؤرخون العرب والمسلمون بـ"خزانة الرؤوس" كانت تحفظ فيه الرؤوس المقطوعة بعد تحنيطها وتنظيفها مع الأيدي والأرجل المقطعة مصنفة مرتبة مع تعريف كامل بأصحابها على نحو ما يشاهده اليوم زوّار المتاحف الأركيولوجية. [وللأستاذ الباحث ميخائيل عواد مقالة طريفة عن هذا المتحف بعنوان "خزانة الرؤوس"]. كان هذا المتحف يضم فضلاً عن أعضاء من قتل في بغداد، الرؤوس المقطوعة الهامة للزعماء والثائرين والقواد والوزراء الذين قتلوا خارج العاصمة. الى جانب هذه الحفلات الشيطانية، كانت هناك الإشتباكات والحروب الدموية داخل المدينة متواصلة لايعرف لها نهاية بين الأتراك والديالمة (الفرس) أحياناً، وبين العرب والأتراك آناً، وبين =

كانت هناك محاولة من قائد الفرقة الأولى، وهو ضابط لامع تركماني الأصل من كركوك، يدعى (عمر علي). أراد أن يؤكد إخلاصه للعرش بإستنخاء قطعاته للزحف على بغداد إلا أن ضباطه إعتقلوه فوراً. وفي كركوك خنقت محاولة تظاهرة إحتجاج وإستنكار. وفي الموصل إنقلبت المظاهرة الضعيفة التي أخرجها بعض الوجهاء بله إبتلعتها مظاهرة صاخبة هادرة بتأييد الثورة نظمها القوميون بإختلاف إنتماءاتهم والشيوعيون والوطنيون الديمقراطيون تأييداً للثورة. وكان لهم علم بقرب وقوع إنقلاب نتيجة الإتصالات السريعة بزعمائهم في بغداد. وفي بغداد ومن خلال مئات الألوف المتظاهرة في الشوارع بتأييد الإنقلاب سمعت هتافات في أحياء يسكنها مسيحيون ويهود بشعارات غوغائية معروفة "لا مسيحيون ولا يهود، لا حدود مصطنعة بعد اليوم" ألجأت هؤلاء الى ملازمة بيوتهم. إلا أنّ هذه النداءات ما لبثت أن إختفت في جو الإستبشار العام والترحيب غير المتحفظ بالحكام الجدد.

الجماهير المحرومة في البلدان الناطقة بالعربية لاتتردد في منح تأييدها المطلق غير المتحفظ

= الشيعة والسنية تارة أخرى، بل بين الشافعية والحنابلة من السنية، بكل ما يتخللها من قتول ونهب وحرائق، وسبحان من أبدل هذه بالإصطدامات الدموية أحياناً بعد ثورة ١٤ تموز بين "القوميين" وتكتلاتهم وبين الديمقراطيين (الشيوعيين) وأنصارهم بكل مظاهره الشنعاء، وبتشجيع السلطة الجديدة الذي تمثّل في التحريض على مشاهدة الإعدامات التشهيرية العلنية بحق الضباط زملاء الأمس، حصيلة الصراع الدموي على السلطة. ويكفيني هنا الإستشهاد ببيان الحاكم العسكري العام الصادر في ١٧ من تموز حول جثة نوري السعيد: [نشر في جميع الصحف البغدادية – وأذيع من الراديو مراراً]
"لنتانة جثة الخائن نوري السعيد فقد تم دفنها ليلاً لئلا تدنّس أيادي الجمهور الكريم. وبما أن العمل خير من التهريج. وأن التظاهرات والتجمعات تسيء الى سمعة الثورة وتوقّف سير الأعمال وتسبب الإزدحام في الشوارع فيرجى منكم الإنصراف الى أعمالكم والله وليّ التوفيق" [التوقيع] (فما أعجب هذا)
ويطيب لي هنا أن أورد هذه الفقرة التي وردت في كتابي (العراق في عهد قاسم ج٢: الص ٥٤٤–٥٤٥) قلت: "إن سكوت حكومة الثورة في حين حقَّ الكلام عليها ورفضها إستخدام سلطتها في وأد هذه الظاهرة الهمجية ببيانٍ صغيرٍ حازم تعلن فيه شجبها أو إستنكارها فسّرته الدهماء بالرضا. وما من شك في أن الإشادة العموميةَ بموقف الشعب العراقي النبيل وعواطفه الصميمة بتجاوبه مع الثورة، كما وردت من الإذاعة مراراً وتكراراً خلال الأيام الأولى دون الإشارة بإستهجان أو تقبيح لما حصل في شوارع بغداد ثم خروج الصحف بعدها تصف الأحداث عموماً بأنها أعمال وطنية وليدة الضغط الذي إنفجر فجأة لسنوات من القمع والإضطهاد وردّ فعل طبيعي لمعاناة الشعب العراقي على يد الحكم الجائر، ونشرها صوراً بشعة للجثث معلقة مقطوعة الرؤوس والأيدي والأرجل أمام بوابة وزارة الدفاع. كل ذلك كان كفيلاً بإطلاق العنان لأحطّ الغرائز البشرية ومقدمة لما حصل في الموصل والديوانية والبصرة وكركوك وبغداد فيما بعد.
في يوم ١٤ تموز صدع أهالي بغداد بأمر منع التجول الذي أصدره الحاكم العسكري وطبق فوراً... كانت سلطة الثائرين مطاعة والجمهور على إستعداد للإمتثال بأوامر حكومته الجديدة... إلا أن سكوتها عما جرى في ذلك اليوم أكد للدهماء ولذوي الأحقاد والثأرات الخاصة أن هذه الفظائع تستمد شرعيتها بمجرد إرتكابها من الفريق الذي يقف الى جانب الحكومة ضد الفريق الذي أفترض بأنه من معارضيها وشانئيها... فمن هو المسؤول الحقيقي عن هذه الأعمال الوحشية؟

لأي تغيير سياسي فجائي في نظام الحكم. وتمنح ولاءها بعين القدر للقائمين بالتغيير من دون أن يكون لها سبق معرفة بهم وبهوياتهم، يحدوها في ذلك الأمل في حصول تغيير في الأوضاع الى الأفضل. وفي العراق كانت تلك الجماهير في ذلك اليوم المشهود على إستعداد لإحتضان الإنقلاب العسكري وتسييجه لا بالتأييد وحده بل بالرعاية والحدب.

ومنذ زمن طويل، قد يعود الى مفتتح النصف الثاني من القرن العشرين كان معارضو الحكم شيعاً وأحزاباً وشخصيات بارزة وطنية، قد أدركها نوع من اليأس في تعبئة جماهيرية تستظهر بها على الحكم المستبد خانق الحريات، والعابث بالأسس الديمقراطية التي بنيت عليها الدولة، فبرهنت على قلة حيلتها وعجزها بالتوجه نحو الجيش وضباطه، وعقدت الآمال عليهما في إحداث التغيير المنشود، ولم يكتموا ذلك بل كانوا يصرحون به في كل مناسبة ومناسبة. وإتخذت الأحزاب السياسية خطة التغلغل بين ضباط الجيش عقائدياً. فوجد بينهم ضباط بعثيون وناصريون وقوميون وشيوعيون وكل منهم كان يهدف أو يخطط لثورة عسكرية أو إنقلاب وفق مبادئه الخاصة. وكانت هناك تنظيمات سرية منهم شيوعية وبعثية وقومية ديمقراطية إجتمعت بالأخير تحت خيمة ما دعي بـ(اللجنة العليا للضباط الأحرار) ورُفست هذه اللجنة بضربة أقدام ضابطين مغمورين نصبا نفسيهما على رأس الحكم الجديد بمعزل عن الآخرين، ثم بدأ بعضهم يذبح بعضاً إثر سلسلة من التآمر وإرهاصات الصراع على السلطة[٤] وكذلك من عقابيل التدخل الخارجي العروبي الطمّاع.

★★★

(٤) دأبت شقيقة لي في تذكير السامعين لها خلال الأزمات التي مرّ بها الحكم، وتعليقاً على ما عانيته شخصياً – بما قلتُه صبيحة الرابع عشر من تموز. فقد أيقظتني لأسمع البيان الأول وصراخ عبدالسلام محمد عارف، وتردد إسم الجيش البطل في القضاء على أوكار الخيانة والطغيان. فلحظت الشقيقة وجومي وصمتي وسألتني ذاهلة "أليس هذا ما كنتم تعملون لأجله؟" وكان جوابي "كلا يا أخت، فلا عاقل منا كان يرغب في أن يقتحم الجيش ميدان السياسة لنقوم بالتغيير الديمقراطي المنشود. الجيش لا طاقة له ولا نية في تحقيق ما نريده للوطن. ولدينا تجارب مرة." هذا ما كانت تذكرني به لتخز به في صدري وخزاً أليماً. وأقر أني إستعجلت في العدول عن هذا الرأي إثر سماعي بأسماء أعضاء الوزارة الجديدة ولاح لي بصيص أمل في أن الجيش ولأول مرة في تاريخ العراق لن يلبث أن يعود الى ثكناته ليترك الأمر للمدنيين. فلم أتردد في الموافقة على إصدار جريدتي "الرائد" في ذلك اليوم عينه مرحّبة بما حصل. [والشيء بالشيء يُذكر، كنت حينذاك قد وضعت جريدتي هذه في خدمة جبهة الإتحاد الوطني: غربي الحاج أحمد المحامي ممثلاً لحزب الإستقلال وعبدالغني الملاح ممثلاً للحزب الوطني الديمقراطي، وشاذل طاقة ممثلاً للبعث ويوسف الصائغ ممثلاً للحزب الشيوعي. وقد علمت فيما بعد إنها الجريدة الوحيدة في العراق التي صدرت ذلك اليوم حيث إحتجبت سائر صحف القطر].

في السنوات الخمس التي سبقت هذا الحدث التاريخي، كانت شخصية نوري السعيد تهيمن على حياة البلاد السياسية بشكل غير مسبوق. أكان هو في دست الحكم أو خارجه، مبقياً بذلك تلك اللعنة الموروثة التي كانت تُعجِز من يخلفه في الحكم عن إتباع سياسة خاصة، وليس لي ولا لغيري أن يحكم في هذا اليوم وبمنظار هذا اليوم على القدر السليم والصحيح الذي إحتوته سياسة هذا العجوز في الميدان الخارجي – وقد بان بعد ثلاثين عاماً مرت على إرغامه على قتل نفسه وسحل جثته في المدينة التي عشقها– فالعالم إذ ذاك كان في حرب باردة مستعرة بين الشرق والغرب. وكان على دوله وحكوماته أن "تنحاز" الى هذا الجانب أو ذاك إن لم يكن يومها ففي غدها. وكذلك كان الأمر بتلك الدول التي أطلقت على نفسها إسم "دول عدم الإنحياز" أو العالم الثالث، فقد وجب عليها بحكم الظروف أن "تنحاز" ايضاً. إلا أن تجسيم نوري الخطر الشيوعي[٥] وإتخاذه أقسى الإجراءات والتحوطات ضد هذا "الغول" الموهوم الذي بات يطارده حتى في نومه، أدى به الى إعتبار كل معارضة دستورية في الداخل هي إما شيوعية أو موحاة من الشيوعيين. ولذلك بدا الحكم إستبدادياً، وبدا الحاكم طاغية يعبث بالقانون ما شاء له العبث. وينتهك الحريات الديمقراطية التي ضمنها الدستور شرّ إنتهاك ويزدري بحقوق المواطنين في التعبير وإختيار مندوبيهم، بشكل غير مسبوق في تلك

(٥) عندما إجتمع نوري السعيد بعبدالناصر في القاهرة بتاريخ ١٥ أيلول ١٩٥٤ – ذلك الإجتماع الطريف الذي نقله محمد حسنين هيكل، لو صدقناه، في كتابه [سنوات الغليان: الص ٣١٨–٣٢١] كان يفكر بعقلية اليوزباشي العثماني (النقيب) في الجيش السادس مستعيداً الى ذهنه، كما يبدو، ذكرى الفزع الذي إستحوذ على قيادته عندما بلغت طلائع الجيش الروسي (خانقين) وإحتلت الخيالة القيصرية (راوندوز). ولذلك حاول إقناع عبدالناصر بالخطر المباشر الذي يتهدد العراق عند نشوب حرب عالمية أخرى، غير مدرك بأن طبيعة الحروب قد تغيرت كما لم يكن عبدالناصر يدرك أن القضية ليست مسألة راوندوز والكيلومترات الثلاثين، بل هي مسألة خلاف عميق بين زعيمين عربيين كل منهما يرى العروبة والقومية من زاوية تختلف تمام الإختلاف:

"قال عبدالناصر في رأيي ورأي الشعب المصري إن الخطر علينا والتهديد المحتمل مصدره إسرائيل. فقاطعه نوري مسائلاً: والروس؟ فردّ عبدالناصر: الروس ليسوا خطراً حالاً فهم بعيدون عنا وليس بيننا وبينهم حدود. واذا إقتربوا منا خطوة واحدة فمعنى ذلك حرب عالمية أكبر منا فضلاً عن أننا لانملك أسلحتها لأنها ستكون ذرية. أجاب نوري: قد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة لمصر لكنه ليس صحيحاً بالنسبة الى العراق، فإن بيننا وبين الحدود الروسية جبال راوندوز وهي حوالى ٣٠ كيلومتراً عبر الأراضي الإيرانية. وقال نوري (بعد أن كرر عبدالناصر قوله) أنت لاتصدقني؟ إنها ٣٠ كيلومتراً فقط، سوف أجيئك بخريطة لترى المسألة بنفسك، (بعد أن جيء بالخريطة) هبّ نوري واقفاً ثم ركع على الأرض وفرش الخريطة الكبيرة على البساط وهو يصيح بالسكرتير طالباً نظارته ثم راح يحبو فوق الخريطة باحثاً عن موقع يريده وعثر عليه أخيراً، فصاح ها هي راوندوز، ها هي راوندوز، ثم دعا عبدالناصر أن ينزل معه على الخريطة، وإستجاب عبدالناصر وكان منظر الرئيسين وهما يحبوان على الخريطة ويدققان موقع راوندوز مشهداً غريباً" آه. (بإختصار)

السنوات. لم يكن نوري السعيد يعبأ بالتقدم الفكري والإجتماعي، وهو يخطو الى أمام رغم أنفه وظل بعقليته العثمانية يرى أن شبع البطون كافٍ للجم اللسان وإستئصال النقمة على مصادرته الغاشمة للحريات العامة. لذلك وفي نطاق السياسة المحلية أولى إهتمامه الى هذه الجهة وتميزت تلك السنوات برفاه إقتصادي بفضل تدفق عوائد النفط بشكل غير مسبوق لتفتح آفاقاً واسعة في مشاريع إعمار صناعية وزراعية وعمرانية كادت تقضي على البطالة قضاءً تاماً. وإرتفعت أجور العمال إرتفاعاً لا نظير له وطبق قانون العمل والعمال العصري الذي أهملت أحكامه وخرقت منذ صدوره في أوائل الأربعينات. لم يكن يدور في خلده كما يبدو أن من شأن هذه الثورة الإقتصادية التي رفعت مستوى الطبقة العاملة مادياً – زادت في وعيها الإجتماعي، وعززت مقاومتها لكل ما من شأنه أن يعتدي على مكاسبها بفضل يقظة نقاباتها. ولم يدر أن هذه النقابات رغم الملاحقة البوليسية ستظل حتماً ميدان كرّ وفرّ تتسابق في رحابه العقائد السياسية، ومصنعاً لتفريخ أعضاء جلدين متحمّسين لتلك العقائد وأحزابها التي أهدرت دمها مراسيمه وقوانينه العقابية، وأرغمتها على العمل السرّي.

وزاد الإحساس بفقدان الحريات العامة تبعاً لذلك. فكانت هناك نقمة عامة تحدّت حالة الرفاه الإقتصادي.

وإعتمد نوري السعيد في إجراءاته القمعية وعملية مصادرة الحريات المبرمجة على دعم الجيش وخبرة رجال الأمن. وخُدع بالولاء الشديد الذي يتظاهر له به ضباط الجيش كلّما إجتمع بهم. بدا له الجيش هادئاً مطواعاً ينعم ضباطه بالرعاية والرواتب الضخمة والتسهيلات السكنية والإمتيازات التي حرم منها الموظفون المدنيون. لقد أكدت له أعوام ١٩٤٥ و١٩٤٨ و١٩٥٢ و١٩٥٦ أن روح الثورة قد خمدت في ضباطه. وشاءت المقادير أن تبتليه بالصمم العقلي إضافة الى الصمم الفسلجي الذي كان يزحف على أذنيه حثيثاً وإزداد تحجّره العقلي بإزدياد نفوذه، وسيطرته على المعارضة في الداخل، ومقدرته في تمرير سياسته الخاصة عبر الزحف العشوائي القومي والهجمة العروبية الكاسحة المتمثلة في الناصرية من جهة وفي البعث السوري من جهة. وبدلاً من أن يلين هذا النجاح عريكته ويلطّف من طبعه المتحكم فيسمح بالمزيد من الحرية، ويرخي قبضته على المعارضة كما هو متوقع من أي سياسي في نظام دستوري ديمقراطي الصيغة، وجدناه في حالات كهذه يزداد تصلباً وضغطاً على الأوداج الشعبية متجاهلاً زخم التيارات السياسية.

ورفض حميّةً منه، بل إستنكاراً صحة التقارير التي كانت تشير الى وجود براعم حركات

إنقلابية سرية بين الضباط. وقد بدوا أطوع له وأشد هدوءً من المتوقع عندما إجتاحت البلاد موجة السخط الشديد أيام العدوان الثلاثي. ولم ينتبه الى تحوّل إهتمام المعارضة بهم، لتبدأ أحزابها في التقرب منهم أو ضمهم الى صفوفها كما سبق بيانه. بقيت نسبة هؤلاء الضباط الثوريين قليلة جداً بين المجموع العام. إلا أن عامل المباغتة كان حاسماً وقد سنحت[٦].

كانوا واثقين من سهولة القضاء على النظام بسبب تجارب سابقة. وعندما إستعادوا تلك الثقة راحوا يتطلعون بأعين حاسدة الى أمثالهم من الضباط في سورية ومصر عندما أصعدتهم الإنقلابات الى مراكز القيادة السياسية والى التحكم في مصائر الزعماء المدنيين الكبار. وفي مصر خصوصاً كيف تسنّى لضابط برتبة مقدم أصعده عمله الجريء الى أعظم منصب. وعملت ثورته من زملائه ذوي الرتب الصغيرة وزراء ودبلوماسيين يُخطب ودّهم ويُحسب لأقوالهم ألف حساب وتهتف لهم الجماهير ويتسابق السفراء وموفدو الدول الكبرى الى التقرب منهم بالدعوات الرسمية والزيارات بكل ما يتخلل ذلك من مظاهر الأبهة والتغطية الصاخبة في وسائل الإعلام.

كان ضباط العراق الثوريون قد قرأوا الكثير عن أسلافهم الذين حققوا للجيش العراقي إنتصاراته في الأيام الأولى من الإستقلال على "العصاة" الكرد وعلى الزمرة الآشورية التي هددت كيان الوطن وبتحريض من البريطانيين الذين كانوا يقفون وراء كل واحدة منها. كما شُحنوا شحناً منظماً بما خلّفه لهم الكتّاب عن إنقلاب بكر صدقي، وبالإنقلابات المتتالية التي إنتهت بحركة مايس القومية "المجيدة" ١٩٤١، وبروح الشهادة التي يبثها فيهم مصير قادتها الأليم وضحاياها. وفي كل هذه المآثر الرائعة البطولية كان الجيش قد صُوّر لهم وكأنه يقف ضد المستعمر البريطاني محبطاً محاولاته الشريرة ضد رسالة القومية الخالدة.

وبقي (السعيد) والسلطة عموماً يكذّبان الأنباء المتواترة عن وجود حركة تمرد واسعة ونسي هذا السياسي العجوز أنه كان قادراً قبل عشرين عاماً على إحداث إنقلاب في الحكم بسبعة ضباط فقط، أو أقل.

وأسلوب الترقية في الجيش العراقي لم يكن يعتمد على حاجة الملاك وسدّ النقص كما جرت

(٦) بالمقارنة: كان عدد الضباط الذين تحقق بهم إنقلاب يوليو في مصر لايزيد عن تسعين. وبالمناسبة يثبت الزبيدي [المرجع السالف ص ١١٣] بعد بحث وإستقصاء كما يزعم – عدد الضباط المنتظمين في الخلايا السرية بالأسماء والرتب برقم ٢٠٣ معتمداً على تقديرات بعض أعضاء اللجنة العليا لاسيما سكرتيرها العقيد رجب عبدلامجيد. ولو نحن أضفنا الى هذا العدد مثله من أولئك الضباط غير المنتظمين المستعدين ذهنياً للترحيب بأي إنقلاب والإنضمام اليه شريطة أن تتم المباداة بالآخرين. لجاز لنا التقدير بأن مجموعهم قد لاتتجاوز نسبته ٩ بالمائة من ملاك ضباط الجيش العامل.

القاعدة في معظم الجيوش الحديثة زمن السلم (وكما كان الأمر مثلاً في سورية ومصر)[٧] بل كاد يكون روتينياً تقريباً يتم بقضاء الضابط مدة محدودة من الزمن، وبخلو إضبارته الشخصية من أي عقوبة أو تقرير سيّء مع نجاح في إمتحان ترقية صوري تقريباً تجريه لجنة من زملاء له حسني النية يكرهون أن يكونوا سبباً في "قطع رزقه". وكان من نتيجة ذلك ومع مرور الزمن أن أتخم الجيش العراقي بذوي الرتب الكبيرة (مقدم فما فوق) وبشكل كان يلجيء السلطة الى تقيء دفعات منهم بإحالتهم الى التقاعد في سن مبكرة. وكثيراً ما كنت ترى ضابطاً برتبة مقدم وهو آمر سرية في حين أن رتبته كانت تؤهله لآمرية فوج، وكثيراً ما كنت ترى نقيباً وهو آمر فصيل في حين كان ذلك لملازم أو لملازم أول. وأخترعت للضباط مناصب في الوحدات العسكرية لا ضرورة لها على الإطلاق، بل لجأت وزارة الدفاع الى ضم أكثر من ضابط في الملحقيات الدبلوماسية تخلصاً من الفائض فيهم لديها. وتهافت الضباط وتنافسوا على الفوز بمقعد من المقاعد المحدودة في كلية الأركان لأن النجاح فيها يضمن لهم ثلاثة إمتيازات، قدمية في الجيش وسهولة للترفيع قدرها سنتان، شارة حمراء تحت الرتبة تميّزهم عن سائر الضباط، ضمان بالحصول على قيادات أو آمريات، فضلاً عن أمان لهم من إحالة مبكرة الى التقاعد.

وراقب الضباط الصغار (الأعوان) ذلك بعين يقظة وبخوف غامض من المستقبل مثلما كانوا يراقبون ويتابعون سلسلة الإنقلابات العسكرية في الشقيقة سورية – كيف يغدو الضابط برتبة نقيب قائداً في ظرف ساعات معدودة.

والى عامل الشهادة والتضحية الذي نوّهنا به، علينا أن لانغفل عامل الشعور القومي عند الضباط القوميين. والوطنيّ عند غير القوميين منهم بصرف النظر عن مأتاه ومبعثه، سيما عند أولئك الذين إنتسبوا أو نسبوا أنفسهم لأحزاب سياسية أو عقائدية.

وللقِدميّة في في المؤسسة العسكرية أهمية تعادل الرتبة عند التساوي فيها. فيكفي

(٧) مثلاً: بقي آيزنهاور رئيس الولايات المتحدة، برتبة عقيد منذ ١٩١٩ حتى العام ١٩٤٢. وعندما وقع عليه الإختيار ليكون القائد العام لجيوش الحلفاء منح أربع ترقيات، وقبيل عملية الإنزال في نورماندي (١٩٤٤) أضطرت الحكومة الأمريكية الى تعديل قانون الرتب العسكرية فأضافت رتبة الجنرال الأعلى ذات النجوم الخمسة، لمساواة رتبة (آيزنهاور) برتبة نائبه الفيلد مارشال مونتگومري. وبختام الحرب الأهلية الأمريكية وجدت الحكومة ضباطاً كثيرين برتبة (جنرال) يزيدون عن الحاجة فخيّرتهم بين التسريح وبين البقاء في الخدمة برتب أدنى. ومصر نفسها في العهد الملكي متبعة النظام الإنگليزي الصارم في الترقيات لم تكن تتم إلا بدافع الضرورة والحاجة، وكثيراً ما قضى الضابط المصري برتبة نقيب عشر سنوات أو أكثر قبل أن تتاح له فرصته في الترقية!

الضابط أن يكون إسمه مقدماً على ضابط آخر في قائمة ترقية أو نجاح أو بفاصل زمني مهما قلّ ليكون آمراً للأخير. ولذلك حرص (قاسم) بعد ساعتين فقط من وصوله الى وزارة الدفاع وقبل إذاعة بيان تأليف الحكومة – على نشر القرار الذي أعدّه مسبقاً بعناية شديدة – ليجعل من نفسه أقدم ضابط في الجيش، فأحال الى التقاعد كل من فاقه رتبة وقدمية، واستثنى زميله (عارف) الذي فرض نفسه نائباً له في قيادة القوات المسلحة وبعلم منه أن ذلك المنصب لن يدوم له[٨] ولم يعمد الى أسلوب الترقية العشوائي الذي جرى في سورية ولشخص واحد في مصر، لعلمه بأنه سيثير حفيظة الضباط الآخرين لاسيما أولئك الذين إعتبروا أنفسهم من الضباط الأحرار وإنضموا الى الخلايا السرية.

كان تدبيراً محكماً في الظاهر يؤمّن السلطة لفاتحي بغداد من جهة ويضمن ولاء أكثرية الضباط الكاثرة في الجيش العراقي بالقضاء على عامل التحاسد والحقد.

إلا أنه أغفل جانباً هاماً.

ماذا عن الضباط الصغار المائة والتسعين الذين إنتظموا في الخلايا السرية[٩]؟ اذا كان "الأجر على قدر المشقة" كما جاء في المثل السائر. فهؤلاء – ومعظمهم بين رائد ونقيب وملازم كان يتوقع تحقيق شيء من الأهداف التي راودت أحلامه عندما ألقى بحظوظه في لجة هذه المغامرة التي قد تكلفه مستقبله. واذا كان الغنم بقدر الغرم، فماذا كسبوا؟ ها هم يعودون الآن الى وحداتهم وكأن شيئاً لم يحدث ينتظرون كسِواهم قوائم الترقية وإمتحاناتها كالعادة.

(٨) بخلاف الفريق الركن رئيس أركان الجيش ضمت قائمة الإحالة الى التقاعد إثني عشر برتبة أمير لواء (ميجر جنرال) وخمسة وثلاثين برتبة عميد (زعيم = بريگادير جنرال) وشملت ايضاً إحالة أربعة وستين ضابطاً برتبة عقيد فما دون وكان بين أولئك المحالين الى التقاعد أصدقاء له فأسند اليهم مناصب مدنية رفيعة كما كان هناك خصوم له ولنائبه ألقي القبض على بعضهم وترك الآخرون لشأنهم. ورفض كلاهما أن يكون هناك ما يدعى بـ"مجلس قيادة ثورة" يضم أعضاء اللجنة العليا حيث لايكون فيه لقاسم أكثر من صوت واحد، أو بأفضل الأحوال أن يعدّ الأول بين الأقران بحسب الإصطلاح القانوني Primus Inter Pares. هؤلاء الذين قال عنهم عارف: إنهم كانوا يغطون نوماً مع زوجاتهم عندما قام بإنقلابه.

(٩) أعضاء اللجنة العليا بحسب الرتبة والقدمية حين تشكيلها: من رتبة عميد (زعيم) عبدالكريم قاسم رئيسها، ومحي الدين عبدالحميد نائباً أول، وناجي طالب نائباً ثانياً. ومن رتبة عقيد: رجب عبدالمجيد (سكرتيرها) وعبدالوهاب أمين ومحسن حسين الحبيب، والمتقاعد طاهر يحيى وعبدالسلام عارف وعبدالرحمن عارف وإسماعيل العارف. ومن رتبة مقدم المتقاعد رفعت الحاج سرّي وعبدالكريم فرحان وعبدالوهاب الشوّاف ووصفي طاهر. ومن رتبة رائد صبيح علي غالب، والمتقاعد الطيار محمد سبع. وفي عين الوقت: كان هناك تنظيم سري بديل من الضباط الأدنى رتبة، رئسه المقدم محمد مجيد، وأعضاؤه من رتبة رائد: خالد مكّي الهاشمي وعبدالستار عبداللطيف وجاسم العزاوي وصبحي عبدالحميد وحسن مصطفى النقيب وإبراهيم جاسم التكريتي وطه الدوري وعيسى الشاوي، وكل هؤلاء قوميون عروبيون.

وأوامر النقل والتنسيب وكأن شيئاً لم يحصل.

يتطلعون بأنظارهم الخائبة الى ما حصل في سورية ومصر، كيف قفزت الى المناصب الرفيعة رتب صغيرة[١٠] كرتبهم.

تجلّت آثار الخيبة المرة في تلك القسوة التي مارسها جلادو العهد الجديد بالمتهمين والمدانين منذ ساعة إعتقالهم حتى تصفيتهم جسدياً. وهي القاعدة التي لم يحد عنها أي نظام جديد وفي أعقاب كل إنقلاب أو محاولة إنقلاب وينصب الحقد بصورة خاصة على الضباط من الضباط دون أن تأخذ رحمة أو مراعاة لزمالة ورفقة سلاح. وبكل ما يتخلل تلك القتول والإعدام من مظاهر التحقير والشماتة والتشفّي[١١].

(١٠) أصبح الرائد عبدالحكيم عامر فليدمارشال (مهيب)، والنقيب عفيف البرزي وعدنان المالكي (كذلك) أميري لواء. ورفّعت ثورة يوليو (السرّاج) الى مقام الرجل القوي في سورية وهو برتبة رائد. كما كافأت ضباطها المتآمرين بمناصب وزارية. ولم يرتفع خلق قاسم وعارف عن الخصومات والنزاعات الشخصية التي كانت تحصل بين أفراد الهيئة أثناء إجتماعاتها السرية. فمثلاً أسند للعقيد (رجب عبدالحميد) الذي كان في خلاف شديد مع قاسم وعارف – منصب تحقيري واضح ليرغماه على الإعتزال. وأبو التنظيمات السرية (رفعت الحاج سرّي) أبعد عمداً عن دائرة صنع القرار السياسي بإسناد منصب مهنيّ صرف له. وعيّن (عبدالوهاب أمين) ملحقاً عسكرياً. كما قذف (عارف) عدوّه الشوّاف بحيلة دنيئة الى منصبه الخامل في الموصل.

(١١) تم إعدام الوجبة الكبرى من المدانين في محاولة إنقلاب الموصل وكلهم تقريباً من الضباط الأحرار المنتظمين في خلايا الجيش ومن بينهم العميد الطبقچلي والعقيد الحاج سرّي، بشكل يثير القرف والإشمئزاز في ساحة الرمي القريبة من بغداد والمعروفة بموقع "أم الطبول" ودعي البغداديون للحضور في هذا "المهرجان الشعبي" فلبّوا، كما كان أسلافهم يلبون دعوة خلفاء بني العباس والسلاطين الى عمليات التشهير بالمحكومين قبل إعدامهم والمشاركة في سحل الجثث وتعليقها. وقال لي من أثق بقوله أن (قاسماً) رأى أن تؤخذ لهم صورة جماعية قبل ربطهم بأقطاب الإعدام. كما سبقت أوامر خاصة من وزارة الدفاع الى السجن المركزي تقضي بمعاملة "خاصة جداً" لهم عند نقلهم بعد الحكم فأستقبلوا من جوقة سجناء عاديين بالضرب والشتم وإلقاء القاذورات، وحلقت رؤوسهم وألبسوا خرقة الإعدام الحمراء ووضعت السلاسل الثقيلة في معاصمهم وكواحلهم في حين كان قاسم قد أصدر مرسوماً بعد أسبوع من دخوله الظافر بإلغاء تكبيل السجناء بالسلاسل إطلاقاً.

يطيب لي أن أنقل هنا حكاية أثبتها السيد خليل كَنّه نقلاً عن نوري السعيد وهو واحد من وزرائه المقربين [راجع المذكرات، ط بيروت ١٩٦٧ الص ٣١٢–٣١٣] قال: كثرت الشائعات والتقارير حول تورط المقدم (رفعت) في تنظيم خلايا سرية ترمي الى تغيير نظام الحكم فإستدعاه. وفي منزل خاله (جميل المدفعي) وبمحضر منه سأله عن صحة ما نُمي إليه عن نشاطه – وكان نوري السعيد فضلاً عن علاقته بجميل المدفعي، صديقاً وزميلاً للحاج سرّي الموصلي والد رفعت – قال له: هناك تقارير تشير الى نشاطك في تنظيم تآمري على الحكم. فنفى رفعت ذلك قائلاً إنها شائعات لا أساس لها من الصحة. لكن نوري لم يقنع وقال:

– إصغ إليّ وخذها نصيحة منّي. لو كتب لمؤامرتكم النجاح فسينشأ بينكم نزاع دموي لاينتهي إلا بشنق بعضكم بعضاً، وستتأرجح أجسادكم بين الباب الشرقي وباب المعظم". ثم إكتفى بنقله. ولم تكذب =

ونجح الى حد كبير في إبعاد معظم أعضاء الهيئة العليا من الضباط الأحرار عن مراكز صنع القرار قدر ما نجح في كسب سخطهم وعدائهم. وكل واحد منهم ولا أستثني، كان يدعي صدقاً أو كذباً بدور في إنجاح الحركة. هذا يزعم لنفسه فضل توفير العتاد للقطعات الزاحفة ولولا ذلك ما كان القيام بها ممكناً. وآخر شارك في حركات إنقلاب سابقة، وآخر سرّب موعد حركة اللوائين الى الأردن قبل صدور الأمر بها وغيره أحبط محاولة عسكرية مضادة و... و... وكل من هؤلاء كان يتوقع مكافأة. و"الأجر على قدر المشقة" جميعهم خاطروا بمستقبلهم وبحياتهم وللمخاطرة ثمنها.

بدا قاسم مخططاً بارعاً، وداهية في اللعب بالعواطف. إلا أنه كان جاهلاً بالطبيعة البشرية وهوى النفس يغلب عليه طبعه الازدواجي في أحيان كثيرة.

بإعدام هؤلاء أراد أن يلقّن درساً لضباط الجيش وأن يشيع في النفوس الخوف من مصير مماثل لرفاق لهم ووضع حد لمزيد من التآمر. من غير أن يدري بأن عامل الثأر والإنتقام كثيراً ما تغلّب على عامل الخوف والتردد. ودليلنا على جهله وغفلته هذه هو تسليم نفسه لجلاديه في آخر المطاف مؤملاً عطفاً منهم، على أن هذا سيأتي في موضعه.

★★★

رجعت نادماً الى حكمي الأول على طبيعة ما حصل في الرابع عشر من تموز بعد وقت قصير. فمن الدستور المؤقت الذي نشر في ٢٧ من تموز ومن المراسيم والقوانين الجزائية التي أقرها النظام الجديد أو إشترعها لم يكن عسيراً أن يستخلص الفكر الناقد بأن هذا النظام يهتم بإقامة سياج أمنيّ حوله وبناء أبراج مراقبة في السور الذي شيده لنفسه.

ذكر قاسم عند إعلان الدستور المؤقت أنه سيُعمل به الى أن يتم تشريع الدستور الدائم بإستفتاء يعرب فيه الشعب بحرية تامة عن رأيه في أسلوب الحكم الديمقراطي الذي يختار.

لكن، فلنتذكر بأن الحكام المستبدين، لايرون عادةً أن الشعب أهل لممارسة جميع حقوقه دفعة واحدة. وقد يسلّم أفضلهم بطريقة منحها بالتقسيط، لكن بالقدر الذي يضمن له يده العليا ممسكة بالصمام، كقاسم.

وبدا الإضطراب والتناقض من خلال ما دعي بمحاولة القضاء على آثار العهد القديم. أزيل

= نبوءة نوري – وهو أبو الإنقلابات والخبير المتمرس، إلا في أسلوب التصفية الجسدية. وهنا علينا الإقرار بأن عبدالناصر كان أكثر حصافة وبعد نظر عندما واجه إنقلاباً عسكرياً من الضباط الأحرار بقيادة خالد محي الدين واللواء نجيب.

الدستور السابق، إلا أن الحكم الجديد بقي يستمد سلطانه منه، لاسيما ما يتعلق بأمور الأمن. ففي الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين من يوم ١٤ تموز صدر البيان المرقم (٣) بتوقيع القائد العام للقوات المسلحة، معلناً سريان الأحكام العرفية في جميع أنحاء العراق "إستناداً الى مرسوم الإدارة العرفية المرقم ١٨ للسنة ١٩٣٥". ونسب فيه الزعيم أحمد صالح العبدي حاكماً عسكرياً عاماً وشكلت بموجبه محكمتان عسكريتان عرفيتان. وهكذا غدت البلاد بعد ثماني ساعات مشمولة بحكم عسكري صرف تماماً مثلما كان يحصل في الزمن القديم[١٢].

وليلاحظ هنا أن المادة ٢٧ من الدستور المؤقت ضمنت للمؤسسة العسكرية حق البقاء والإشراف والعمل بصريح العبارة.

وفي ١٤ آب وجهت لطمة أخرى الى المباديء الديمقراطية بسنّ قانون "معاقبة المتآمرين على سلامة الوطن ومفسدي نظام الحكم"[١٣] وبموجبه شكلت "المحكمة العسكرية العليا الخاصة"

(١٢) تنص الفقرة (٣) من المادة ٢٦ من القانون الأساسي الملغى على حق الحكومة في "إصدار مراسيم يكون لها قوة القانون لإتخاذ التدابير اللازمة اذا ظهرت أثناء عطلة المجلس النيابي ضرورة لإتخاذ تدابير مستعجلة لحفظ النظام والأمن..."
بقي هذا المرسوم سوطاً لاهباً تهوي به الحكومات المتعاقبة على ظهور المعارضين والفئات الوطنية وأداة باطشة لقمع الثورات والإنتفاضات الشعبية، إنصبّت لعنته بصورة خاصة على الشيوعيين وأنصارهم، وعلى الثورات والإنتفاضات الكردية. وكان إلغاؤه من ضمن المطالب الشعبية دوماً. سلاح فتّاك بكل من دعا الى الديمقراطية. سألت في حينه أحد الشيوعيين البارزين من رجال القانون عن رأيه فيما فعله قاسم فأجاب: المهم هو اليد التي تحمل السلاح. قلت لكن بقاءه لايستقيم والمباديء الديمقراطية التي إدعاها ثوار تموز. فتولّى عني مغضباً.

(١٣) تضمن هذا القانون فصلين. حدد في أولهما الجرائم التي تدخل دائرة إختصاصه. وشمل ثانيهما صلاحيات المحكمة التي ستتولى تطبيقه والأصول والإجراءات والعقوبات التي ستفرض "على كل من إستخدم نفوذه أو شارك في توجيه سياسة البلاد لغير المصلحة العراقية... أو تعريضها الى خطر حرب أو زجها في حرب بإستخدام القوات المسلحة ضد الدول العربية الشقيقة أو هدد بإستخدامها لهذا الغرض ليدفع الدول الخارجية الى ما يهدد السلامة الوطنية." و"على كل من يتدخل في شؤون تلك البلاد الداخلية ويأوى المتآمرين عليها. وكل متآمر لقلب نظام الحكم في تلك البلاد. وكل من يشوّه سمعة رؤساء تلك الدول في المحافل الدولية أو يشهّر بهم أو يوجه الإهانة إليهم بإحدى طرق النشر. هؤلاء يعتبرون متآمرين على سلامة الوطن". كما أوجب القانون العقاب على كل من صادر أو قيّد الحريات الأساسية المقررة في القانون الأساسي "الملغى!" عن طريق إصدار قوانين ومراسيم وأوامر وتعليمات وبيانات مخالفة للمواد الأساسية التي قررها ذلك القانون. وكل من يستخدم القانون لمصلحة أشخاص أو مجموعة من الأشخاص على حساب المصلحة العامة أو يتدخل في شؤون القضاء والسلطة التنفيذية وفي الإنتخابات العامة. أو من يقوم بالتأثير على معنويات الشعب ليضعف من قدرته على النهوض بمسؤولياته في ممارسة حقوقه أو يحول دون تطبيق القوانين الهادفة الى تحقيق العدالة الإجتماعية والمساواة بين المواطنين، وكل من يبدد أموال الدولة بإهماله جباية الواردات وكل من يقبل أموالاً خلافاً لمقتضيات المصلحة العامة. هؤلاء يعتبرون بموجب القانون، مفسدين لنظام الحكم، ومن تثبت إدانته يعتبر متآمراً على سلامة الوطن ويعاقب =

التي عرفت عموماً بمحكمة المهداوي "نسبة" الى رئيسها العقيد (فاضل عباس المهداوي) وهو إبن خالة (قاسم) ثم شرّفها الشيوعيون العراقيون وصحف العالم الإشتراكي بلقب محكمة

= بالأشغال الشاقة المؤبدة.
وأطلق القانون للمحكمة الحرية للنظر في الجرائم المنصوص عليها في قوانين العقوبات الأخرى [وهو ما يتيح لها فرض عقوبة الموت].
وإحتفظ (قاسم) لنفسه مرة بوصفه القائد العام للقوات المسلحة بالحق في "سحب أي قضية جزائية في أي محكمة أخرى وإيداعها الى هذه المحكمة. وإحتفظ لنفسه مرة أخرى بوصفه وكيل وزير الدفاع بالحق في تخفيض الحكم الذي تصدره أو إلغائه أو الأمر بتنفيذه!
يتجلى شذوذ هذا القانون وخروجه الفاضح على مباديء العدالة والديمقراطية، بإعتماده على تلك المباديء والمفاهيم التي سادت القرون المظلمة وعصور الإستبداد؛ من ذلك إعتباره جرائم ما أرتكب في زمن لم يكن هناك قانون يعدها من قبيل الجرائم، وهو ما نسميه نحن القانونيين بـ"الأثر الرجعي" وهو مبدء لفظه الفقهاء والقانونيون المشترعون منذ قرنين من الزمن، وبنتيجة الآثار المدمرة والندوب العميقة التي خلّفها "عهد الإرهاب" خلال السنوات الأولى للثورة الفرنسية – في الضمير العالمي. حتى تلك المراسيم الشاذة المقيدة لحرية المعتقد التي إستنّها نوري السعيد في العام ١٩٥٤ بله التعديل الذي أجري على قانون العقوبات بخصوص معاقبة حملة الأفكار الشيوعية فقد روعي فيها أنها لاتنسحب على الماضي.
وفي القانون ايضاً ظاهرة طريفة لايمكن إغفالها. هي الإهتمام الذي خصّ به القومية العربية. فهو يربط بشكل صريح سائر الأعمال الموجهة ضد "البلاد العربية الشقيقة" [أي حكامها] بجريمة التآمر على سلامة الوطن. ويستخلص من التهم ووقائع المحاكمات التي جرت بأن المقصود بالعبارة هو "الجمهورية العربية المتحدة" وهذا هو المقصود وليس غيره. فهناك مثلاً عدد من رؤساء الحكومات والوزراء السابقين كانوا أكثر إفساداً لنظام الحكم من أولئك الذين حوكموا وأدينوا لم تطلهم يد الثورة. سيما أولئك الذين شاركوا في سن المراسيم المقيدة للحريات العامة المناقضة للمباديء الديمقراطية ولاسبيل لي هنا إلا الى المقارنة. فتوفيق السويدي وهو رئيس الحكومة التي أطلقت الحياة الحزبية من عقالها في العام ١٩٤٦ بإجازتها ثلاثة أحزاب يسارية المنحى من أصل خمسة، لم يكن أكثر "إجراماً" وأدعى للمؤاخذة من جميل المدفعي وهو الذي أصدر في فترة رئاسته الحكومة القانون السيّء الصيت المعروف بقانون "مكافحة الآراء الهدّامة". وفي الوقت الذي حظي هذا السياسي بزيارة مجاملة خاصة من (قاسم) الذي وجدناه يأمر بتنفيذ أحكام الموت على ثلاثة من الموظفين وعلى وزير ألمعيّ لأنهم طبقوا أحكام هذا القانون. هناك ايضاً (أحمد مختار بابان) آخر رئيس حكومة، أدين وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، ذلك القاضي الضليع العفّ اليد الذي لم ينزل قط الى مستوى رشيد عالي الگيلاني وحكمت سليمان وعلي جودت الأيوبي ومصطفى العمري من رؤساء الحكومات السابقين الذين لم يتعففوا عن إنتهاب الأراضي الأميرية وإستغلال النفوذ للإثراء غير المشروع. ولا طالت يد هذه المحكمة أولئك القضاة المدنيين والعسكريين في المجالس العرفية ولا الحكام العسكريين الذين إستخدموا تلك القوانين وحكموا بموجبها. وعنصر المفارقة هنا – وهو الذي ذكّرنا بمقولة الفيلسوف اليوناني– أن من بين أعضاء الحكومة الجديدة التي ألّفها قاسم ثلاثة ممن كان نوري السعيد قد ضمهم الى وزاراته وزاولوا مهامهم في ظل تلك القوانين والمراسيم. ووضعوا تواقيعهم عليها. ومنهم واحد على الأقل شارك في صياغة بعضها مثلما شارك في صياغة الدستور المؤقت. [لاحظنا في حينه ونحن نتابع أحكام محكمة الثورة التي أقامها ثوار يوليو في مصر أن معظم من حوكم أمامها كان متهماً بجرائم يعاقب عليها قانون العقوبات المصري. ولم يصدر عنها حكم بالموت على أي شخصية سياسية من رجال العهد الملكي].

الشعب. وهو لا أبا لك، اللقب الذي حملته بجدارة المحاكم الستالينية في الإتحاد السوفياتي لمحاكمة أعدائه وخصومه بتهم التخريب في الإقتصاد الوطني والتآمر مع دول أجنبية وما الى ذلك. فضلاً عن كونه نسخة لقانون مماثل أصدره إنقلابيو (يوليو) وطبقوه فترة قصيرة وبشكل محدود ثم أهملوه.

وكانت الثورة قد إعتقلت حوالى مائة من رؤساء الوزارات والوزراء وكبار الموظفين والقادة العسكريين قدم معظمهم للمحاكمة أمام ضباط خمسة لا خبرة قانونية ولا ممارسة قضائية سابقة لهم.

أكد أرسطو قبل ثلاثة وعشرين قرناً في كتابه "السياسة" مغبة دعوة أعوان الطاغية المستبد للحساب جنائياً عن أفعال أقدموا عليها بإيعاز من الطاغية أيام كان حاكماً مطلقاً. أو تطبيقاً لسياسة رسمها، قال "فما إن تبدأ بالقصاص حتى تجد نفسك أمام قائمة لاتنتهي من أعوان الطاغية وجلاديه، إن حاولت قطعها ووضع حد لها أخللت بميزان العدالة وإن واصلتها أفضت بك الى كثير من أولئك الذين شاركوا في القضاء على حكم الطاغية".

لكن صاحبت هذا القانون جراحات تجميل بهرت بصورة خاصة عيون الحزب الشيوعي، فأفقدت صانعي سياسته كل حصافة وإتزان في بناء أسطورة الزعيم الأوحد. أخليت السجون والمعتقلات من السجناء والمتهمين بقضايا سياسية، وأعيد الإعتبار للمحكومين "ضحايا" حكومات العهد الملكي[١٤] وأعيد كذلك الموظفون والمعلمون والمدرسون الذين فصلوا وطردوا خلال تلك الفترة الى وظائفهم وإمتدت الجراحة التجميلية الى القشور فقد كان من مقتضى العهد الجمهوري أن تزال مظاهر العهد الملكي وتهاويله الظاهرة للعين، إبتداءً بتحطيم تمثالي

(١٤) كان عدد الموقوفين وكاد كلهم يكون شيوعياً – حوالى ٦٨، فضلاً عن عشرات قليلة من المبعدين. وليس بينهم قومي أو بعثي. كما كان ثم قلة من القوميين الكرد. وقد أكد لي مصدر ثقة من الشيوعيين أن عدد السجناء المفرج عنهم بقدر ما يتعلق الأمر بهم هو ١٦٤ أو أقل قليلاً، على أن فيهم عدداً كبيراً من القياديين أعضاء لجان مركزية سابقة. وأحدث بهجة عند القوميين الكرد إطلاق سراح المحكومين جراء ثورة ١٩٤٥ الكردية التي قادها ملا مصطفى البارزاني، مقترنة بالسماح بعودة هذا الزعيم الكردي ورفاقه الذين لجأوا الى الإتحاد السوفياتي. مثلما أعيدت الجنسية العراقية للمبعدين والهاربين الذين أسقطت عنهم وصاحب ذلك ضجة إعلامية كبيرة. وصدر في الرابع من أيلول قانون العفو عن المحكومين السياسيين رقم ٣٣ وبموجبه شطبت الأفعال الجرمية التي عوقب عنها فاعلوها للفترة الممتدة من الأول من شهر أيلول ١٩٣٩ حتى الثالث عشر من تموز ١٩٥٨. والى جانب من ذكرناهم في المتن، أعيد الإعتبار الى كل من حكم عليه في أعقاب حركة مايس [ألغي حكم الإعدام والمصادرة عن رشيد عالي بمقتضاه. كما أبطل عن حكمت سليمان. وأعيد الضباط المحالون الى التقاعد في أعقاب الحركتين بمنحهم رتبتين إضافيتين!!]

الملك فيصل والجنرال مود بالفؤوس والأقدام، وإنتهاءً بالشعار والعلم[١٥] وألغي لحن السلام الملكي (ولم يكن للعهد الملكي نشيد وطني) وحلّ محله لحن أغنية مصرية دينية – سياسية غنتها مطربة معروفة أثناء العدوان الثلاثي وعرفت بنشيد "الله أكبر". راح راديو بغداد يفتتح بها برامجه ويختمها، ثم غابت وعفي عنها إثر محاولة الشواف الإنقلابية.

كل هذا وغيره – لاسيما قرار مجلس الوزراء بالإنسحاب من الإتحاد العربي الهاشمي– كان إشارة واضحة لعبدالناصر بأن الضباط الثوريين في العراق إن لم يكونوا سائرين في سبيل الوحدة فعلى أقل تقدير يتبنّون خطة واضحة في سياسة عدم الإنحياز. وما من شك في أن فؤاده كان يزخر بالآمال الكبار عندما وصله وهو في دمشق وفد حكومي بعد خمسة أيام من فتح بغداد، برئاسة الرجل الثاني، وعضوية محمد حديد ومحمد صديق شنشل وعبدالجبار الجومرد – وأوعز بإستقباله بتظاهرة شعبية لا نظير لها، خطب فيها كل من عبدالسلام وعبدالناصر. وختمت الزيارة بتوقيع إتفاق تعاون بين الدولتين في السياستين الخارجية والداخلية. في الواقع لاتخرج عن مثيلاتها من الإتفاقات العربية التي تعقدها الحماسة الآنية

(١٥) قام (قاسم) يعاونه بعض الرسامين بهندستهما. وأكد لي ضابط مقرب أن قاسماً كان يُرى وهو مشتغل بالمسطرة والقلم. وقد حظي – والحق يقال – تمثيل القوميتين العربية والكردية في كليهما بإهتمام خاص. فوضع في شعاره سيفاً عربياً بمقابل خنجر كردي غير مراعٍ الفرق بين طول السيف وقصر الخنجر إذ جعلهما متساويين. وفي العلم أبقى على الألوان التي إستنسبها البريطانيون للعلم العراقي (الشريفي) في العام ١٩١٥ إلا أنه "نكاية بهم" جعلها عمودية وأبقى الأحمر بمثابة أشعة تحيط بدارة صفراء اللون. فقد عرف بأن الأصفر هو اللون "الوطني" الكردي. [رفع العلم الجديد لأول مرة في الذكرى الأولى للثورة] ووقع على عاتق المتصرفيات والبلديات في أنحاء القطر مهمة إستحداث أسماء جديدة لبعض المدارس.
رغم ذلك كله بقي التاج الملكي على كتافتي (قاسم) وغيره من ضباط الجيش طوال ثمانية أشهر أو تزيد، وهي مسألة كانت شغله الشاغل. ثم جاءه الفرج من حيث لايدري ولهذا حكاية يرى كاتب هذه السطور أن يذيع سرها وخلاصتها أن صديقاً له يدعى محمد صديق (أفندي) كان يشغل وظيفة في بلدية الموصل عرف ببراعة فذة في كتابة الخطوط العربية وفنونها وعمل زخارف منها على شكل طغراء ولوحات جمالية ولطالما إستعنت به في خط عناوين كتب أصدرتها. كان لهذا الفنان الرفيع الخلق إبن ضابط برتبة ملازم، أعتقل إثر فشل إنقلاب الشوّاف كغيره من ضباط اللواء الخامس وأرسل معهم الى بغداد. بعد شهرين أو نحوهما زارني صاحبي هذا وبشّرني بعودته من بغداد مع إبنه مطلق السراح ومعاداً الى الخدمة. وقصّ عليّ تفاصيل الصفقة التي عقدها مع قاسم. قال أنه كان على معرفة أو ربما صلة قربى بضابط موصلي عالي الرتبة مقرب من قاسم [وأظنه العميد خليل سعيد] وكان في الظاهر يعلم بحيرة زعيمه في إختراع رمز جديد بديلاً للتاج. فقدّمه له وشرح قاسم فكرته العامة وهي أن تكون الرتبة شبيهة بالتاج وفيها الرموز التي ثبتت في شعار الدولة الجديد. فعمل له نموذجاً على شكل طغراء عثمانية حازت رضاه وكان الثمن إخلاء سبيل الإبن. هذه الشارة بديء بإستبدالها بالتاج لضباط الجيش والشرطة، من رتبة رائد فما فوق وفي أوائل الشهر الخامس من العام ١٩٥٩ على ما أتذكر. وأستنتج من هذا بأن (قاسماً) لم تكن له أية نية في التقرب من (ج.ع.م) عن سبيل إستعارة النسر الذي جعل بديلاً للتاج المصري في الجيش.

والمجاملة وحب الإرضاء ولاتعني شيئاً في الواقع العملي إلا أنها هامة وضرورية للدعاية والكسب الشعبي. كان الجو يعبق بعطر الوحدة وأمرها يثار يومياً في الخطب الهستيرية العارفية، وفي راديو دمشق والقاهرة وبغداد (أحياناً) فضلاً عن صحف هذه العواصم. وبدا الإعلام العالمي متوقعاً إندماجاً بين يوم وآخر.

كان مسيحيّو العراق يتطيّرون من كل دعوة عروبية. وها هي ذي قضية الوحدة والقومية تثار بشكل صارخ مرتبطة كالعادة بالدين الإسلامي وقد علّمتهم التجارب الأليمة الماضية، ولاسيما ذكريات العام ١٩٣٣ دروساً قاسية، كما كانوا يرقبون ويتابعون ما يجري في مصر لإخوانهم الأقباط هناك في جو الدعوة العروبية المحمومة. لذلك كان طبيعياً أن يميلوا الى المعسكر الثاني، الذي عرف بالمعسكر الديمقراطي التقدمي، وأن يفارقهم تخوفهم من المشاركة الفعلية في الحياة السياسية العامة التي أطلقتها ثورة تموز من عقالها. وقد بدا هذا يماشي الخط الحكومي لاسيما بعد أن أوضح قاسم هويته، وكذلك بطرده (عارفاً) زعيم القومية والوحدة والإسلام. وبدا هذا الإنقسام ظاهراً في الموصل حيث ينتشر القسم الأكبر من الأقلية المسيحية في المناطق الإدارية وفيها.

يصوّر الطبقچلي في دفاعه أمام محكمة المهداوي هذه الظاهرة ببعض مبالغة لا تخلو من حقيقة وبالشكل الذي أراده لها فيقول:

"إمتد الصراع بين القومية والشيوعية الى إثارة النعرات الدينية والطائفية في هذه المدينة. فقد سرت الدعايات وبثت الأضاليل لخلق جو التفرقة... وإجتاحت الموصل موجة عارمة من الخوف والرهبة والرعب بين المسيحيين والمسلمين".

في هذه المرة كان للأقلية المسيحية حلفاء فوراءهم الزعيم وحكومته والحزب الشيوعي واليسار في عين المسار، وهناك الكرد ايضاً وهم اليوم أصحاب قضية.

لم يكن عسيراً على القوميين الكرد إدراك ما سيكون المصير الإثنوغرافي لشعبهم في وحدة ثلاثية كتلك التي كان القوميون العروبيون يسعون اليها، هم يؤلفون من مجموع العراق السكاني ربعه تقريباً، وفي وحدة عروبية كهذه لن تزيد نسبتهم عن (٥) بالمائة! أقلية تافهة ضائعة لا حول لها ولا طول. فالدفاع عن كيان العراق الحالي هو عندهم مسألة حياة وموت.

وقت أن إحتدم الصراع، كان (قاسم) قد عبر الخط الذي حجبه حيناً عن الجمهور. فبدا قادراً على وضع أفكاره وصياغة عباراته التي يضمنها المقصود، وصار يتقن إخفاء ذلك المقصود بالتكنية ذات دلالات يفهمها الأعداء والأصدقاء من دون حاجة الى الإفصاح التام. وربما عاد

بعض هذا الى طبعه الإنزوائي وحياته الانطوائية وهو بهذا يختلف عن عبدالناصر بخطبه الواضحة المفصحة عن أفكاره وما يجول في خلده دون تغطية أو تكنية.

في ٢٦ من تشرين الثاني ألقى قاسم خطاباً تضمن تأكيداً وإصراراً حول التصميم على إبقاء العراق بعيداً عن أي شكل من أشكال الوحدة، كياناً سياسياً مستقلاً غير مرتبط بأي جهة وسمع العراقيون وغيرهم صوته المعدني الرنان بتلك الوقفات الإيقاعية عند كل عبارة:

"إن دستورنا المؤقت، تمت صياغته بعد تفكير عميق، وبدقة تامة. المادة الأولى تنص بأن العراق جمهورية مستقلة ذات سيادة كاملة... إن تعاوننا مع إخوتنا (كذا) الدول العربية يقوم على أساس المصالح المشتركة الخاصة بتلك الدول، نحن نسير مع كل الدول..."

وأخفى عبدالناصر خيبته وإستياءه في أن يكون شخص ك(عبدالسلام عارف) مروّجاً له وداعية لأهدافه القومية ولم يجده لائقاً بحمل رسالته، لكنه أضطر الى مظاهرته إعلامياً عندما أكدت له تقارير سفارته في بغداد بأن العروبيين والإسلاميين يستقطبون حول هذا الذي وصفه عبدالناصر "بالطفل"(١٦)، وبدا عبدالسلام أشبه بالحصان الجامح، مطلقاً العنان لنفسه في جولات سريعة متتالية للمدن العراقية يقطع فيها البلاد طولاً وعرضاً بمصاحبة طاقم من الإذاعيين والفنيين لإلتقاط أفلام له وتسجيل خطب هستيرية رقيعة كثيراً ما تحفل بألفاظ سوقية بذيئة، ليسمعها العراقيون من خلال الراديو والتلفزيون مع صور إجتماعات جماهيرية في الهواء الطلق والساحات العامة، يجنّد لها العروبيون ما وسعهم من الهتّافين والمصفقين ويدفع الشيوعيون بأنصارهم وأعضائهم للتشويش والمقاطعة بهتافات مضادة وفقاً لخطة وتعليمات صادرة من مركز الحزب، بقصد إستفزاز الخطيب ودفعه الى مزيد من الشتائم وبذيء القول؛ لينثني مستشهداً بآيات قرآنية غير دقيقة وفي غير محلّها المناسب غالباً، وهو يتقلب من الحض على التمسك بشعائر الدين والتقوى الى الإشادة بالأخ جمال عبدالناصر، والوحدة والعروبة. وبدا الفرق عظيماً بين هذا الرجل وبين رئيسه الذي حرص أثناء ذلك على أن لايبدو للجمهور إلا وهو ذلك الإنسان الرؤوف البعيد النظر المتزن المستعد لكل تضحية في سبيل

(١٦) ذكر العقيد الركن (عبدالوهاب أمين) في شهادته بمناسبة محاكمة عارف ما سمعه عن فائق السامرائي السفير العراقي في مصر. كان هذا قد سأل عبدالناصر عن رأيه في (عارف) فأجابه انه لا أكثر من طفل. ويعزى رأيه هذا الى أنه كان قد ذكر الدكتور فاضل الجمالي عرضاً أثناء تناوله العشاء مع الوفد العراقي في دمشق (١٩ تموز) فإندفع عارف ليقول بحدة وهو يرمي الشوكة والسكين بقوة: "أتريد أن أقضي عليه؟ إطلاقة واحدة بعشرين فلساً، لا أكثر!" ولم ينكر القوميون صحة الرواية لكنهم أوّلوا المقصود هنا هو كل من يحول دون قيام الوحدة بين العراق و(ج.ع.م).

إسعاد الشعب وكرامته وحريته ولخدمته ولم يكن بعسير على الجمهور عامة أن يتبيّن الفرق.

نقل أرسطو طاليس عن (ديونسيوس) طاغية (سيراكوز[١٧]) أنه وجّه لواحد من أبنائه تعنيفاً قاسياً لإساءته السلوك وتطاوله على واحد من أبناء الشعب قائلاً له: "إني ما تصرفت قط بهذا الشكل مع الناس بل كنت براً بهم وخادماً". فأجاب الإبن: "طبعاً لأن أباك لم يكن طاغية". فرد عليه دينوسيوس قائلاً: "كلا. وإن أنت تصرفت بمثل هذا فلن يكون لك إبن طاغية".

لم يكن في تصرف (قاسم) شذوذ على قاعدة عامة عهدها التاريخ في من سبقه من الحكام المتفرّدين، إلا أنه كان يتحيّن الفرص للتخلص من مزاحمه المزعج الذي نجح أكثر منه في كسب نفرة زملائه العسكريين بتعاليه وسماجته، وخفي عن القوميين العروبيين أو ربما تغابوا أو غفلوا عن الضرر الذي يلحقه هذا السلوك الأحمق بقضيتهم. وإن نفر بعض عقلائهم وضاقوا ذرعاً، فقد كان معظمهم متحمساً له مباهياً به وبأقواله، منزلاً ما ينطق به منزلة الآيات البيّنات[١٨].

كان منظراً فريدا، فيه من الطرافة ما فيه، يطالعك كل يوم على لوح التلفزيون. ما إن يبدو رسول القومية الجديد وحوله مرافقوه حاملو الغدّارات حتى يعلو ضجيج يصمّ الآذان بعضه من الطائفة التي أوكل إليها الحزب الشيوعي مهمة تخريب الإجتماع وبعضه تلقائي مخلص، ويرتفع رسول الثورة على أجنحة الهتافات الهستيرية بحياته وحياة العروبة والثورة وعبدالناصر، والنبيّ الأكرم عند اللزوم. وأحياناً يتنازل ليذكر إسم زميله (قاسم) بشكل يوحي للسامع بأن الفضل في نجاح الإنقلاب يعود له في الحقيقة[١٩].

(١٧) ويعرف بالكبير (٤٠٥-٣٦٧ ق.م) قيل عنه أنه لم ينم ليلة في سرير واحد تحفظاً على حياته. وعرف إبنه الطاغية الآخر بديونسيوس الأصغر، الذي خلفه. إلا أن الصقليين ثاروا عليه وطردوه في ٣٥٧ ق.م لكن ما لبث أن عاد بجيش، وبعد بضع سنوات. (في ٣٤٣ ق.م) نجح الأهالي في طرده نهائياً.

(١٨) كلّفني الجهل بهذا الواقع إلغاء إمتياز صحيفتي "الرائد". كان قد ألقى خطاباً في مطار الموصل. وجاءني مراسل الجريدة بخطابه مسجلاً على شريط. فرأيت أن أحذف منه عبارات سمجة وبعض الكلمات الخشنة الزقاقية، قبل دفعه الى المطبعة محافظة على مستوى الجريدة وصوناً لسمعة الخطيب، وسمعت من جهات قومية إستنكاراً لما فعلته فلم أحمله محمل جدّ. وبعد أيام قلائل حمل إليّ البريد إنذاراً رسمياً من المديرية التابعة لوزارة الداخلية يشير الى أن جريدتي، وهي بالأصل أدبية، خرجت عن خطها وراحت تعالج أموراً سياسية. فكتبت رداً عنيفاً، وما مرت أسابيع قلائل حتى بُلّغت بقرار إلغاء الإمتياز، إستناداً الى قانون المطبوعات رقم ٢٤ للسنة ١٩٥٤ وهذا القانون السيّء الصيت كان قد أصدره (نوري السعيد)! وأغلق في حينه أكثر من ٤٠٠ مطبوع دوري.

(١٩) كان لوسائل الإعلام القاهرية دورها في تقديم (عارف) ممثل الدور الأساس في نجاح الإنقلاب. وهذا جانب من حديث له مع راديو القاهرة جرى في يوم ٢٦ من تموز ١٩٥٨ ببغداد: [لاحظ كيف إستدرجه =

لم يكن بالعسير بعد إنكشاف ما خفي في حينه. إن العلاقة التي شدّت ما بين (عارف) و(قاسم) بقيت من أولها الى ختامها أشبه بالعلاقة بين الحصان وسائسه. عرف (قاسم) جوانب فيه قلّ أن عرفها غيره فاستثمرها بأبدع ما يكون. وبدا من الساعات الأولى أنهما مصرّان على أن يكون الأمر بيدهما وحدهما بما في ذلك السيطرة على مصائر زملائهما في الهيئة العليا. ورفضا بشك قاطع إقامة مجلس قيادة منهم ووقفا يحرسان الباب ضنينين بما جمعته راحتاهما من السلطة.

ومع أنه ليس مهماً للمؤرخ أن يعين الجهة التي كان لها القدر الأوفى أو الفعال في إنجاز حدث تاريخيّ. إلا أن الخلاف الذي إتخذ تعلّة وتبريراً للصراع الدموي بين الضباط المؤتمرين فيما بعد - ظل قائماً وموضع جدال صاخب. كان الخائبون في قاسم يقللون من دوره على سبيل الكيد له، الى حد وصفه بالإنتهازية. في حين يُجمع أعداؤه بحماسة وتبريراً لتآمرهم عليه - بأن (عارفاً) هو الأصل وإليه المنتهى. وأن (قاسماً) دخل بغداد وقد تم كل شيء.

قبل أربعة وعشرين قرناً، وفي أثناء الحروب التي نشبت بين سپارطة وأثينا، أقبل (أرسطارخوس) على صديقه (سقراط) طالباً النصيحة وكان غنياً إلا أن أمواله أحتجزت في القسم المحتل - "قال لسقراط أن هناك أربع عشرة إمرأة من أقربائه، هربن من أمام العدو وهو لايعرف كيف يقوم بإعالتهن. قال سقراط: إذهب فإبتع لهم صوفاً ودعهن يحكن منه ثياباً، ففعل. وبعد مدة جاء الى سقراط شاكياً منهن قولهن له: إنك لاتفعل شيئاً وتعيش عاطلاً. قال سقراط: آه، إذهب فقص عليهن قصة الغنم التي تشكو بأن كلب الحراسة لايفعل شيئاً." وقاسم عند عارف كان كلب حراسة لا غير.

وأصر الضباط الأعوان إزاء تجاهلهم في عملية توزيع الغنيمة - على روابطهم وإجتماعاتهم السرية، وبينهم الناقم والخائب والثائر. كما جدد الضباط الكبار الذين لم يسمح لهم بولوج

= المراسل]
سؤال: ممكن تتحدث سيادتك عن كيفية قيام الثورة؟
عارف: بإختصار. بعض الوحدات كان قد تقرر أن تمر من بغداد. رسمياً كنت آمراً لإحداها. وروحياً بعون الله تمكنت من قيادة تلك الوحدات. وباغتناهم فجراً والصبح كان طيباً وإستقبل الشعب صباحاً طيباً.
سؤال: هل لسيادتك أن يعرّفنا بأول من أذاع النبأ لأبناء العراق والعالم؟
عارف: هذا سؤال محرج، إني...
المراسل [يقاطعه]: نحن نعرف الجواب، سيادتك.
عارف: على أية حال إنه أول مذيع. وإسمح لي بالقول إنه رئيس القيادة... إنه أخوكم عبدالسلام.

باب السلطة صلاتهم بعضهم ببعض، ومع الخلايا التي نشطت من جديد، كانت هناك تكتلات عسكرية عقائدية. وبدا فريق كبير من الضباط بحلل وقمصان جديدة، فيها الأحمر والأصفر والأسود والأخضر[٢٠].

لم يكن لحركة ضباط يوليو في مصر أثر عملي مباشر لما حصل في العراق. ففكرة إستخدام الجيش لإسقاط الأنظمة والحكومات في العراق هي قديمة، وما حصل هو إمتداد للروح التآمرية فيه. ولم يكن غريباً "سنية" غالبية الضباط المؤتمرين، فأهل السنة – والعروبة طليعته – كانوا القائد بلا نزاع. وقد بقيت السنية الطبقة الحاكمة لهذه البلاد أكثر من أربعة قرون وقيام دولتها الحديثة لم يغير من هذا الواقع. أعني أن الصلة بين سنية العراق وعربه وبين بقية البلاد الناطقة بالعربية – جعلتهم وبفضل موقعهم الجغرافي والأواصر الثقافية التقليدية – العمود الفقري لدعوى القومية العروبية الوحدوية، ولهذا كان عبدالناصر مصيباً في تقدير القيمة العظمى لوضع العراق على عتبة باب الوحدة. وقد جاهد في سبيل هذه الغاية ولم يتحرّج في سلوك كل سبيل لتحقيقها. إلا أنه لم يقدِّر بأي قدر من الحذق السياسي– القوى المضادة. كما كان عظيم الجهل بتاريخ العراق وتكوينه التحتي كما ذكرنا.

★★★

حظي موضوع الإتصال بالأحزاب السياسية السرية – بموافقة أعضاء الهيئة العليا العامة. تلك الفصائل التي كونت جبهة الإتحاد الوطني، مدركة أهمية موقفها وإمكاناتها في تعبئة الجمهور وتأليب الشارع بمسيرات وتظاهرات كفيلة بشلّ أي حركة مضادة للثورة المرتقبة. وكان لهذه الصلات فائدة أخرى في ضمان بقاء السيطرة المطلقة في يد الجيش. ويظهر أن الإتصال لم يجرِ على نطاق جمعيّ، بل بشكل فردي. فبدا لكل حزب أو كتلة سياسية وكأنها الوحيدة التي خُصّت بسرّ الإنقلاب المرتقب، وراح كل من جانبه يُناقل الخبر (همساً طبعاً) ويبثه بين أنصاره حتى بدا سراً مفضوحاً يعرفه الجميع بما فيهم السلطة التي أبت تصديقه الى

(٢٠) شهد الجيش العراقي بعد الحرب العامة الثانية جيلاً جديداً من الضباط لايشعر بأي ولاء للأسرة الهاشمية جاء معظمهم من الطبقة دون المتوسطة، أو بالأحرى الطبقات الإجتماعية التحتية. وكثير منهم وقع تحت تأثير "الماركة" المتطرفة من القومية وبعضهم كان يسارياً ماركسياً. والجميع كان يتصور وجود الإمبريالية تحت كل صخرة ووراء كل شجرة. لم يكفّ آمروهم ومعلموهم قط في تقديم حركة مايس ١٩٤١ لهم فوق طبق من ذهب. ملمّحين بأن عميد تلك الأسرة الحاكمة كان السبب في القضاء عليها، وها نحن نجد مثلاً مرسوماً يصدره قادة إنقلاب ١٩٥٨ ذكروا فيه صراحة "إن الرابع عشر من تموز ما هو إلا إمتداد لحركة مايس... الوطنية!" فيا للعجب العجاب!

الأخير[٢١].

لم يكن لتلك الفئات السياسية كيان رسمي، إلا أنها واصلت نشاطها في الخفاء وبدا من الصعب جداً معرفة مدى جماهيريتها ومقدار تغلغلها في الوسط الشعبي، لكن ثبت من فشلها المتكرر في وقفة مؤثرة أمام السلطة الحاكمة، ومن ضعفها وإستحذائها لقاسم أنها كانت أكبر إسماً من جسمها بكثير.

من حجم القوميين البارزين الذين أسندت إليهم مناصب ذات مسؤولية في الحكم الجديد وبوجود يد العروبي الوحدوي (عارف) فوق دفة السفينة بدا لعبدالناصر كما بدا لجميع القوميين والوحدويين في العالم العربي أن الوحدة الثلاثية–ثم الكبرى، لم تعد مجرد أمنية أو حلماً بعيداً. كان التمثيل القومي في الحكومة الجديدة أكبر من تمثيل التيارات السياسية والعقائدية الأخرى مجتمعة.

الى جانب حزب البعث، كان هناك التجمع القومي، وحزب الإستقلال، ما لبث أن إنضم الى قائمتها بعد شهر واحد من الثورة تنظيم رابع عرف بإسم "الرابطة القومية"، قال منشئوها في بيانهم الأول:

"إنها منظمة قومية لا حزبية تدعو الى لمّ أطراف القوى القومية وتعمل في سبيل بناء مجتمع إشتراكي موحد على الأسس الإشتراكية الديمقراطية التعاونية وتؤمن بالوحدة العربية الشاملة وتعمل لها".

وجاء في أدبياتهم "إن وحدة العراق مع (ج.ع.م) هي الخطوة العظمى في سبيل تحقيق الوحدة الشاملة"، ورفعت شعار "شعب عربي واحد، دولة عربية واحدة"[٢٢].

(٢١) أذكر مثلاً، أن أحد الحزبيين البارزين المحليين قال لي في ختام زيارة قبل ١٤ تموز بأسابيع قليلة وهو يغمز بعينه وقد إرتسمت على وجهه إبتسامة المطمئن العارف "بعد أيام قلائل سينتهي كل شيء، سيقضى على النظام". وأصدقك القول أني لم أحفل بما قاله في حينه ولم آخذ قوله مأخذاً "جدياً" وإعتبرته من قبيل الأمنيات العزيزة الموغلة في الخيال.

(٢٢) إتضح فيما بعد أن المخابرات المصرية كانت توجّه هذا التنظيم وتسنده مادياً ودعائياً، ومن زعمائه عدنان الراوي وهشام الشاوي وفارس ناصر الحسن [هذا الأخير كان ملازماً في الجيش من دورة عبدالسلام عارف وأحمد حسن التكريتي (البكر)] وقد مثّل التجمع القومي الدكتور جابر عمر بإسناد وزارة التربية والتعليم إليه، وكان قد فصل من منصب عميد كلية الحقوق العراقية أيام العهد الملكي فإختار السكن في سورية وعيّن هناك أستاذاً في الجامعة فأستدعي من دمشق لتولي منصبه الجديد. وكان فؤاد الركابي سكرتيراً للقيادة القطرية لحزب البعث أسند إليه منصب وزارة الإعمار. محمد صديق شنشل ومدير دعايته غربي الحاج أحمد المحامي فضلاً عن السيد محمد مهدي كبّه ممثلين لحزب الإستقلال =

ولم يكن الحزب الوطني الديمقراطي – بإستثناء رئيسه – ضد أي نوع من رابطة قومية وثيقة مع (ج.ع.م) على أن لاتكون شبيهة بالوحدة مع سورية. إلا أنه كان حزباً ضعيفاً يستمد سمعته وشهرته في أغلب الأحيان من مواقف رئيسه الحدية البعيدة عن المساومة، وقد مُثّل بوزيرين.

ولم يمثل الحزب الديمقراطي الكوردستاني بطبيعة الحال، فقد كان بالأصل كمية مهملة في السلة الحزبية العراقية. عدته الأحزاب القومية متقحماً غريباً ورفضت دخوله الجبهة الوطنية عضواً أصيلاً فيها وليس بين أي منها من يدانيه شعبية[٢٣] وتغلغلاً في الوسط الكردي.

في متنصف العام ١٩٥٦ نجحت قيادة شيوعية في تحقيق مصالحة عامة بين جميع الفصائل والكتل بعد تمزق وإحتراب صبياني على الزعامات والتخطئات النظرية المتبادلة. لتظهر بحزب واحد[٢٤] ولم تعد لأعضائه بعد حاجة الى "التقية" وصاروا يجاهرون بإنتمائهم دون خوف من عقاب مع أن الحكم الجديد لم يعلن عن إلغاء قوانين مكافحة الشيوعية رسمياً. وإعتبروا إسناد منصب وزارة الإقتصاد الى يساري ماركسي العقيدة تمثيلاً لهم. كما وجد (البارتي) في ضم الشيخ باباعلي إبن الشيخ محمود الحفيد الى الحكومة إقراراً غير مباشر بإحترام الثوار العمل السياسي الكردي.

وفي آخر المجموعة يأتي الحزبان الإسلاميان: الإخوان المسلمون وحزب التحرير، ولهما أشياع

= والدكتور عبدالجبار الجومرد وهو قومي معروف من المستقلين. فضلاً عن العميد الركن ناجي طالب، كان للتجمع القومي جماهير يُعتدّ بها تتحمس للوحدة ولرسول العروبة الجديد. وهي حصيلة ست سنين من دعاية هادرة صاخبة لراديو القاهرة. وخطب عبدالناصر الحماسية التي كانت تهرّب الى العراق بشرائط تسجيل، وصحف ومطبوعات مصرية عجزت حكومات العهد الملكي عن وقفها.

(٢٣) رضيت قيادة الپارتي بحل وسط. وهو أن يتم تمثيله في الجبهة عن طريق الحزب الشيوعي العراقي، وهو تدبير مهين لكرامة أي حزب قومي لولا أن قيادته في العام ١٩٥٧ كانت ماركسية وبعض أعضائها كحمزة عبدالله السكرتير العام كان عضواً في الحزب الشيوعي كما تبيّن بعد عامين.

(٢٤) لم يمثل الحزب الشيوعي في حكومة قاسم ايضاً. إلا أنه كان في غاية من السعادة بما نال من الشرعية وحرية العمل فرحاً بخروج كوادره العليا من السجون وعودتهم من المنافي، وهم في صفاء ووئام مخلفين نزاعاتهم الصبيانية وراء الحدود وفي زنزانات الحبوس، وكلهم كان مدركاً أن حزبه مقبل على خوض معركة ضارية دموية أحياناً مع العروبيين الوحدويين. وإن عليه أن يستعد لها. بذلت محاولات ومجهودات كثيفة من الداخل والخارج في سبيل توحيد كتل شيوعية رئيسة هي: وحدة الشيوعيين وراية الشغيلة والحزب الشيوعي. شاركت فيها موسكو وحزب توده الإيراني والحزب الشيوعي السوري [في تلك الفترة كان الشيوعيون العراقيون يعيشون فترة نقاهة عصيبة جداً داخل السجون والمنافي والبيوت السرية وفي العراء، إثر خطاب خروشجوف الشهير أمام المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في ١٩٥٦، الذي هدم به الأسطورة الستالينية ومبدأ عبادة الشخصية بسوءات إنعكاسه على سياسات الأحزاب الشيوعية.

وقواعد، وكلاهما كان يدعو الى وحدة عربية تحت ظل الإسلام وبتطبيق شريعته لا غير، رافضاً أي نوع آخر من أنواع الوحدة بصورة مطلقة[٢٥].

منذ العام ١٩٥٦ كان التيار العروبي في العراق يتجه حول القومية الناصرية، ووجوب الإرتباط بها ولذلك قيس ولاء القوميين العروبيين للنظام الجديد بمقدار موقفه من الوحدة، وفي عين الوقت الذي راحت صحف القاهرة وإذاعتها تروّج للفكرة بصخب وضجة بشكل خرج عن مألوف الذوق. وتصك الأسماع خلال البرامج ردّة من أغنية "وطنية" مراراً وتكراراً: "وحدة ما يغلبها غلاّب".

(٢٥) تعرّف العراق على حركة الإخوان المسلمين من مجلتهم التي كانت ترد البلاد لاسيما مدينة الموصل وتباع في المكتبات بعد القضاء على حركة مايس ١٩٤١ وبشجيع من البريطانيين، بسبب ما تظهره المجلة والحركة من العداء للنازيين. وبدء النشاط التنظيمي للإخوان في الموصل إثر عودة محمد محمود الصواف إليها من القاهرة بعد إكمال تحصيله العلمي في الأزهر وكان قد تسلم أمر الدعوة لها من أستاذه حسن الهضيبي الذي آثره وخصّه بالود. والصواف هو من أسرة موصلية متوسطة الحال أرسل الى كلية الشريعة للدراسة على نفقة الثري الكبير مصطفى چلبي الصابونجي، كان شاباً وسيماً أشقر فارع القامة يشد عمامته على الطريقة المصرية، لبث في الموصل فترة لا تزيد عن سنة واحدة وإجتمع حوله عدد من الشبان المتدينين وبعض المعلمين ونشط داخل فرع الموصل لجمعية إنقاذ فلسطين. رحل الى بغداد منسّباً للتدريس في كلية الشريعة (مدرسة الإمام أبي حنيفة) وكان يدعى لإلقاء خطب الجمعة في جامع الأزبك والإجتماعات الدينية. ونشط للدعوة من وراء جمعية إنقاذ فلسطين التي رئسها الشيخ أمجد الزهاوي وكان هو سكرتيرها العام ومنح إمتياز مجلة أسبوعية إسمها (الأخوة الإسلامية) بعين الأبواب والمواضيع التي كانت تضمها سميّتها لسان حال الإخوان في القاهرة، إلا أنها ألغيت في ١٩٥٤ مع الصحف الأخرى ولم يجدد إمتيازها. كما حلّت الجمعية في العام ١٩٥٥ بعد أن تعاظم خطر الحركة وهددت الأمن العام بنظر السلطات.

والى جانب الإخوان كان الحزب الإسلامي الآخر (التحرير) يدعو الى الوحدة العربية في ظل الإسلام. أنشأ هذا الحزبَ في الأردن (تقي الدين النبهاني) وأوضح برنامجه وأهدافه في كتاب عنوانه "إنقاذ فلسطين" جاء فيه أنه لايمكن تحرير فلسطين إلا عبر الوحدة العربية وعلى أسس ومباديء إسلامية صرفة. جاء بأفكار هذا الحزب ومبادئه طلاب عراقيون قادمون من الأردن. وفي العام ١٩٥٥ قدم لفيف من الموصليين والبغداديين السنيين [حسين الحاج صالح، عبدالله أحمد سامي الدبوني، عبدالجبار الحاج بكر والشيخ عبدالعزيز البدري (إغتاله البعثيون في أواخر الستينات) وغيرهم] طلباً للحصول على رخصة عمل فرفضت السلطة الطلب وألقت القبض على الموقعين ثم أطلقت سراحهم بعد أشهر.

هاجم الإخوان المسلمون هذا الحزب بعنف وقسوة وتراشق الطرفان بالتهم وأبرزها الجاسوسية والعمالة للبريطانيين. وإعتمد حزب التحرير في هذا على نشرات سرية، وهو كالإخوان لم يحظَ بأي تجاوب من الشيعة. وفي ١٩٥٦ حصل الشقاق بين فرع العراق وفرع الأصل الأردني على أثر خلاف بين مسؤوله العراقي (حسين أبو علي الحاج صالح) وبين مؤسسه وعلى إثره أنيطت مسؤوليته بعبدالعزيز البدري وبقي محدود النشاط حتى ١٤ تموز حين بادر الشيخ البدري فأرسل برقية تهنئة لعبدالكريم قاسم ففصل من الحزب وأختير في محله عبدالرزاق شنداله وهو موصلي.

لم يحاول أي من الحزبين التقرب من أي حزب علماني ووقفا موقف العداء من جبهة الإتحاد الوطني حتى الرابع عشر من تموز.

ونشرت صحف القاهرة بعناوين ضخمة نبأ إستبدال إسم شارع الملك فيصل وتسميته بـ"شارع عبدالناصر"[٢٦] كما نشرت بعناوين بارزة خبراً لا أثر له من الصحة حول "قرب إجتماع لقاسم بالزعيم المصري... للمداولة في شؤون عربية مصيرية..."

وأكد (أحمد سعيد) كبير إذاعيي "صوت العرب من القاهرة" لأخيه العربي[٢٧] في ١٧ تموز "أن الوحدة العربية الكاملة كانت الهدف المحدد لثوار تموز". وسارت في العاصمة تظاهرات ومواكب ضخمة، ترفع صور عبدالناصر مع لافتات تطالب بالوحدة الفورية، طوال أسابيع بعد تموز.

كان كل تفسير لنوايا الثائرين، ولرغبات الرأي العام العراقي في تلك الفترة الثملة مقبولاً. فما جرى صبيحة ذلك اليوم المشهود لم يكن متأتياً من خطر آنيّ محدق بالوطن، ولا رد فعل إستشراء الفساد والتفسخ في بنية المجتمع بشكل فائق للعادة، ولا نتيجة شلل في النظام ضاعت فيه المسؤولية، ولا بسبب ضائقة إقتصادية خانقة يعانيها الشعب، أو حالة شغب أو إضطراب أدى الى فوضى عامة. بل جرى بتأثير عوامل خارجية أكثر منها داخلية وبتخطيط وتآمر كلاسيّ تجد مثله كثيراً في بطون سجلات التاريخ، إستغل القائمون به مطامح التيارات السياسية الحزبية والعقائدية، وإعتمدوا على مساندتها فيما سيقومون به ويقدمون عليه.

كان القوميون العروبيون واليسار العروبي الذي يمثله حزب البعث، واليسار المركزي الذي يقوده الحزب الشيوعي، والديمقراطيون الليبراليون الذين يمثلهم الحزب الوطني الديمقراطي، والدينيون الذين يمثلهم الإخوان المسلمون، حتى الحزب الديمقراطي الكردستاني (بإنحداره المطّرد نحو اليسار الإشتراكي) يعملون للوصول الى السلطة، إما إستئثاراً بها أو مشاركة. لتحقيق أهدافهم وفي مقدمتها، وربما أهمها، تغيير الإتجاه الذي سلكته الحكومات السالفة في إنحيازها غير المتحفظ أو المقتصد الى الغرب الإستعماري والى إمبرياليته التي ألحقت بهم الخزي والعار في إبعاد العراق عن ركب التحرر، وفي التضحية بالمثل القومية من أجل كسب صداقة الغرب.

فبالنسبة الى القوميين العروبيين هو مطلب لا رجوع عنه، وبالنسبة الى الديمقراطيين الدستوريين الحلّ الوحيد بعد حالة يأس من تحول متدرج وفق المباديء الديمقراطية وقيام نظام

(٢٦) ألغي الإسم الجديد بعد شهرين فقط!

(٢٧) كان يبدء حديثه بعبارة "أخي العربي" ويشفعها أحياناً بعبارة "في كل مكان"!

برلماني صحيح.

والحزب الذي مثّل التطلعات القومية الكردية كان يأمل من هذا التغيير إعترافاً عملياً بشرعيته وحريته في العمل للأهداف المسطرة في منهاجه.

وفي الوقت الذي بدا أن أقصى ما كان يتطلع إليه الشيوعيون وقتذاك - إعتراف رسميّ بوجودهم قوة سياسية، يكفل لهم حرية النشاط الفكري وحرية العمل في النقابات والمنظمات المهنية. وفي الميدان الإعلامي عن طريق إصدار الصحف والكتب - أشارت الدلائل الأولى الى موعد لهم لخوض معركة المصير العراقي، وقد عدّوا بلاءهم فيها ومساندتهم مسيرة (قاسم) مبرراً لهم فيما بعد لطلب إشراكهم عملاً في الحكم.

ووقف عموم الرأي العام الشيعي ضد كل ما من شأنه ربط العراق بالعجلة الوحدوية. وكان نتيجة منطقية ومتحصلة طبيعية من مواقف سياسية وتاريخية ماضية، فهم في العراق الأغلبية العددية المطلقة، وفي وحدة ثلاثية لن يكونوا أكثر من أقلية دينية لا يؤبه بها في عالم سنيّ غالب. وهذا القول يصدق في الأقلية الكردية وفي الأقلية المسيحية أصدق منه في الأولى. فالأنباء تتسرب رغم الغطاء الكثيف الذي أسدلته الدعاية الناصرية على حقيقة الوضع المسيحيّ في سورية بعد قيام الوحدة. وأصوات الإستغاثة الضعيفة التي تطلقها حناجر القبط النازحين الى الغرب جماعات وزمراً، لاتضيع حتى في ضجة عالم منشغل بإرهاصات الحرب الباردة.

وكما إتضح فيما بعد، كان الزعيم القومي الجديد يجهل الكثير والكثير عن تاريخ بلاد ما بين النهرين التي سمّاها الإستعمار البريطاني بالعراق. بل ربما فاق جهله جهل مؤرخه (هيكل) الذي عرّف مرة مدينة كركوك بعاصمة "الموصل"[٢٨] وزاد على جهله هذا إيمانه بالتقارير التي يرفعها اليه القوميون العراقيون، ورجال مخابراته الذين ملأوا المناصب الدبلوماسية في السفارة المصرية ببغداد. ثم إيمانه بدعايته هو نفسه. فبعد ساعات قلائل من النصر، أرسل العقيد عبدالمجيد فريد ملحقاً عسكرياً بالسفارة مع مساعده المقدم (طلعت صدقي) السوري، وكلاهما ضابط مخابرات - فقابلا (قاسماً) فور وصولهما. جاءا ومعهما جهازا لاسلكي، ولم يجدا أي حرج في مرافقتهما (عارفاً) أثناء جولاته الصاخبة والظهور معه على المنصة. وكانت

(٢٨) يراجع بهذا الشأن كتاب هيكل "ناصر: الوثائق القاهرية Nasser: The Cairo Documents" لندن، الطبعة الثالثة ص ١٣٠. وهذه هي العبارة نصاً: "The Communists then took over Karkuk the capital of Musul" [لم يترجم هذا الكتاب الى العربية بمدى علمنا].

واجباتهما محصورة في إسناد وتشجيع العناصر القومية الوحدوية وتزويدها بالمال والسلاح عند الحاجة[٢٩].

في المراحل الأولى من العمل القومي على خط الوحدة، وجدت قيادة البعث القطرية اللحاق بركب (عارف) أفضل وسيلة لستر ضعف حزبها جماهيرياً، إذ لم يقم أي دليل على تغيير هام طرأ عليه كمّاً منذ إنشاء قيادة قطرية للحزب في العراق، خلا أن زيادة ملحوظة في عدد أعضائه لوحظت في المعاهد الدراسية. وعُلم ايضاً أنه نجح في إقامة جناح شبه عسكري رأسه الرائد الركن صالح مهدي عمّاش[٣٠]. وقام (عارف) بتسليم جريدة "الجمهورية" وهو صاحبها ومالكها - لحزبهم بعد أسبوع واحد من صدورها، فصدرت يزيّنها شعارهم "الوحدة والحرية والإشتراكية". وساندوا (عارفاً) من دون تحفظ في مبدء الأمر، ثم تراجعوا بإطّراد ضعف مركزه، ونبذوه بشكلٍ مزرٍ عندما تخلّص منه (قاسم).

بعد عشرة أيام، قدم (ميشيل عفلق) بغداد، ولم تحفل السلطة به ولم يُقم لتصريحاته وزن، وقد شدد فيها على وجوب الوحدة الفورية - ولعله كان يريد بهذا أن يخطب ودّ (عبدالناصر) ويدفعه الى مؤازرة حزبه في معركة الشعارات الضارية التي بدأت تنشب في الشارع، لكنه فشل كشأنه دوماً في جلب إنتباه عبدالناصر الى تصريحاته - أثناء جولاته، فلم يتنازل إعلام (ج.ع.م) حتى الى التنويه بها.

وإتخذ أعضاء الحكومة الجديدة موقفاً موحّداً بخصوص الوحدة ينسجم مع موقف (قاسم) في التأكيد فحسب على عروبة العراق، والأخوة الجامعة، والرابطة الدينية والمشاركة التاريخية، بإستثناء (عارف) والدكتور (جابر عمر) النصيرين الوحيدين للوحدة الفورية، وهذا الأخير ما كان يترك فرصة تفوته لينفّس عن كربه ببعض التصريحات الناشزة عن الخط العام التي عجّلت بأجله في الوزارة[٣١].

(٢٩) هذا ما كشفت عنه محاكمات القائمين بمحاولة إنقلاب الشوّاف. وقد طرد كلاهما من العراق في ٢ نيسان ١٩٥٩.

(٣٠) هذا الجناح كان يتألف من مجرد عصابات شارع ذات إتجاه قومي، شكلت من أجل التصدي لتنظيم المقاومة الشعبية التي سيطر عليها الشيوعيون، وكمثلها كان قد إنتظم فيها أراذل البشر وأسافلهم ومن ذوي السوابق الذين عرفوا بـ"الشقاوات".

(٣١) يصعب أن نجد تعليلاً منطقياً لضم هذا الرجل الى "وزارة الثورة، لم يكن محسوباً على أي تنظيم سياسي سابق أو لاحق. ولم يعرف بأي صلة معينة مع الزعيم المصري. وفي حينه رسم إندفاعه علائم إستنكار وإستهجان عند كثير من القوميين المعتدلين. مثلاً في (٥) من آب صرح لجريدة الزمان بإعتزامه إختيار الدكتور (سليمان حزين) المصري الجنسية رئيساً لجامعة بغداد. وفي ٥ أيلول نشرت الجريدة نفسها الأهداف التي قصدها من الإتفاقية الثقافية مع (ج.ع.م)، ومن مقتضاها توحيد مناهج التعليم =

في مناسبات عديدة سبقت القضاء على محاولة الشوّاف الإنقلابية، دأب عبدالناصر على إنكار ممارسته أي ضغط على الحكام الجدد من أجل الإندماج بـ(ج.ع.م). ونقل مؤرخه هيكل عن لسانه محاولة قوله:

"يجب على شعب العراق أن يبلغ درجة كافية من الوعي في كيفية إستخدامه حريته، من أجل تقرير مصيره بعد عهود طويلة من القمع - سبقت ممارسته تلك الحرية."[٣٢]

على أنه كان يرغب، من دون شك، فيها ويعمل لها. واذا نجح الى حد ما في إخفاء رغبته فقد عجز بالأخير إثر محاولة الشوّاف الإنقلابية، التي ساهم فيها مساهمة فعالة فإنفجرت براكين حنقه بسعار نار الخيبة. توقع في بداية الأمر أن يتم إنضمام العراق طبق "السيناريو"

= وتشكيل مجلس أعلى مختلط "بهدف بناء جيل عربي واعٍ مستنير يؤمن بالله، مخلص للوطن العربي مدرك لرسالة القومية والإنسانية، واثق بنفسه وبأمته، ويستلهم المثل العليا في السلوك الفردي والإجتماعي، ويتمسك بالخير ويملك إرادة النضال وأسباب القوة والعمل الإيجابي، مسلّح بالعلم ونبل الخلق من أجل إثبات مكانة الأمة العربية المجيدة وتأمين حقها في الحرية والأمن والحياة الكريمة" آه.
وبعد عشرة أيام من هذا التصريح، نشرت له صحف بغداد القومية نص رسالة بعث بها الى مؤتمر الطلاب العرب المنعقد في ولاية (إلينوي) بالولايات المتحدة، جاء فيها "وبعد، فنحن العرب المسلمين فينا والنصارى (إقحام المسيحيين هنا كان ضرورة أوجبها واقع إنعقاد المؤتمر في بلد غالبيته مسيحيون) قوم نؤمن بالله، وهذا الإيمان جعلنا نحطم أصنام الحجارة في الماضي البعيد والأصنام البشرية في العصر الحديث... ذلك لأننا قوم نهوى الحرية ونعشق الإستقلال "وأمرهم شورى بينهم" صدق الله العظيم. أما لغتنا فخالدة في القرآن الكريم، إنتقلت الينا من الأجداد وسنورثها للأحفاد... وبها نتفاهم مع إبن العراق وإبن المغرب ومصلحتنا المشتركة هذه هي التي تتمثل بالجغرافية الطبيعية والبشرية والإقتصادية للمنطقة التي تحتضن البحر المتوسط، وإنها ضرورة لوجود الكيان العربي موحداً في زراعة وصناعة وتجارة وخطوط مواصلاته البحرية والبرية والجوية... ونحن عرب الغد لنا فلسفتنا القومية الواقعية وخلاصتها بناء مجتمع عربي أفضل على أسس من المثل الإسلامية العليا، وعلى خير ما في العلم والصناعة. وخطتنا مع العالم الخارجي حياد إيجابي مبنيّ على التعاون مع الشعوب شرقيّها وغربيّها... نحن نضع المصلحة العربية فوق كل إعتبار وسنناضل من أجل وحدة العرب وإنقاذهم من الصهيونية ومن الإستعمار في الجزائر وإمارات الخليج..."
وبعد أسبوع من نشر قانون تشكيل فصائل المقاومة الشعبية السيئة الصيت (في الأول من آب) صرّح هذا الوزير بإعتزام وزارته إعادة نظام (الفتوة) وتشكيل فصائل منها، وأنها ستنسق عملها مع المقاومة الشعبية. [لم يتح له إحياء نظام الدكتور سامي شوكت، وكان القصد منه خلق تنظيم مقابل ومضاد لتصاعد النفوذ الشيوعي بين فتيان المدارس. فبعد إثني عشر يوماً من إدلائه بهذا التصريح أخرج من الوزارة وعاد الى دمشق ليلفه ضباب الخمول.]

(٣٢) الأهرام: ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦١. لكن (في ٢١ آذار (مارس) ١٩٥٩) كتب رئيس تحرير "أخبار اليوم" مصطفى أمين: "لو جرى إستفتاء حرّ في العراق في الأيام الأولى من تموز (يوليو) ١٩٥٨ لصوّت ٩٩ بالمائة من العراقيين الى جانب الوحدة". والشواهد أكثر من أن تحصى.

السوري أو شبيها به، أي أن يصدر العرض من العراقيين فيتنازل وبكثير من التردد الى القبول، ليبدو ذلك منه فضلاً ومنّة. إلا أن هذه الرغبة إصطدمت بجدار أعلى وأعرض من أسوار بابل، شاركت في إقامته بوجهه قوى عديدة ذات قدرة تفوق ما تصوّره أو صوروها له. وكما نوّهنا به قبل هذا- كان من أجهل الساسة المعاصرين بالإتجاهات العقائدية السائدة في العراق وبالتكوين الإثني بتاريخ البلاد قديماً وحديثاً وليس أقلها شأناً بمنازع الأغلبية الكبيرة من ضباط الجيش العراقي ورئيسهم الحالي الذي أصرّ منذ الساعات الأولى على أن لايشاركه أحد السلطة. ولا أحد كان أكثر معرفة من (قاسم) بمواضع الثقوب التي تتخلل درع (عارف). ولم يكن (عارف) طفلاً تماماً كما وصفه عبدالناصر. إلا أن إندفاعاته الغوغائية كانت دوماً تبطن حيلة ومكراً تجلّيا في مواقف معينة من فترتي إرتفاعه وسقوطه. وأقربها إلينا إشادته بزعيم يبعد عنه ثلاثة آلاف كيلومتر لا خطر منه عليه. وإهماله ذكر زعيم آخر قريب منه – هو مظهر تأكيد لمركزه المساوي لقاسم. الزعيم البعيد لا خطر منه على مركزه في حين أن الزعيم القريب – يجعله تابعاً ثانوياً في نظر الآخرين.

والى حينٍ موقوت، ترك قاسم لتلميذه الحبل على الغارب "ليلتف حول عنقه" فلايحتاج لغير حَزْقة وجذبة. ولم تضيّع عنجهية (عارف) دقيقة واحدة في كسب نفرة الوزراء أعضاء الحكومة والضباط الآخرين، وتذمر القوميين منهم، وكلهم يفوقه تهذيباً وثقافة ورصانة. وراح الجميع يقارن بين الخشونة والإستصغار الذي طبع أسلوبه معهم بتأكيده بأن الفضل في مناصبهم يعود لضربته الموفقة، وبين الأسلوب المهذّب الرقيق الذي كان (قاسم) يتعمده معهم. وتظاهر قاسم بالوقوف بعيداً عما بات مصدر شكوى من (عارف)، فحيثما كان وزير أو قائد يغرض عليه سوء تصرف من نائبه وجد جواباً واحداً: "هو زميل لكم، فحلّوا مشاكلكم معه". ووجد فيه الوزيران القوميان الجومرد وشنشل عنصراً فوضوياً يسيء الى السمعة القومية ومفاهيمها ولم يكتما مشاعرهما. وفي تلك الفترة حرص (قاسم) ككل الزعماء العرب في المنطقة أن يبدو عروبياً لا غبار على سلوكه القومي، إذ راح من جانبه يشيد بمثاليات الأمة العربية وتطلعاتها وتصديها للإستعمار، مستنهضاً القوة العربية الخلاقة.

وشجع عارف من جهة أخرى سخط الضباط الذين ساووه رتبة وفاتوه قدماً فضلاً عن القادة، بتشكيله بالإتفاق مع (قاسم) عشية يوم تموز مجلس الدفاع الأعلى، ولم يكن يضم سواه إلاّ من يفوقه قدمية ورتبة[٣٣]، ولطالما أضطر بعض هؤلاء الى الخروج لإستقباله أثناء جولاته،

(٣٣) تألف بمرسوم جمهوري منه ومن الحاكم العسكري العام ونائبه وقادة الفرق الأربعة وقائد القوة الجوية ونائب القائد العام للقوات المسلحة (عارف).

والتنازل له والظهور بمظهر التابع بكل الآثار المسلكية السيئة في نفوس الضباط الآخرين، فضلاً عن المشاكل المحلية التي كانت خطبه تخلفها لهم[٣٤]. وعندما أنزل (قاسم) ضربته بزميله هذا كان متأكداً بأن يداً واحدة لن ترتفع لنصرته ولا صوتاً يحتج حتى من أقرب خلصائه وأعوانه الذين عاونوه على فتح بغداد. فضلاً عمّن ذكرناهم[٣٥].

ولم يعين قاسم خلفاً له، وإعتبر منصب نائب القائد العام بحكم الملغى. وتعيّن على (عارف) أن يخلع البزة العسكرية بحكم منصبيه المدنيين؛ لابد كانت ضربة موجعة لذلك الذي كان يردد دائماً في خطبه "نعيش في الحاكي، ونموت في الحاكي". لاندري بأي أسلوب تمكن (قاسم) من تخفيف وقعها عليه.

★★★

بدا بُعْد العراق عن عملية إندماج بـ(ج.ع.م) خطأً حيوياً لكل الفرقاء الذين يهمهم بقاؤه مستقلاً. وبصورة خاصة للحزب الشيوعي العراقي وللكرد.

ليس بمقدور أحد أن يتكهّن أو يقدر بحدٍّ أدنى من الصواب – قوة هذا الحزب المذهلة التي بدا بها بعد أسابيع قليلة من الإنقلاب، على ضوء عدد المنتسبين إليه وسيبقى عدد أعضائه سراً مغلقاً يتحدى الإدعاءات والتقديرات من أي جانب. علّمته التجارب السابقة مغبة الإحتفاظ بأيّ سجل بأسماء أعضائه. وطبيعة عمله السري حتّمت عليه أن لايحمل العضو فيه أي وثيقة تؤيد عضويته. والتعرف على الأعضاء إنما يتم بالشهادات المتسلسلة لقياداتهم الصغرى والكبرى، وكثيراً ما تظاهر آخرون بإنتمائهم إليه وهو في أوج قوته. وكثيراً ما تباعد عنه المنتسبون وهو في محنة بمواجهة السلطة. لكنه كان يملك في كل الأحوال نواته الحيوية الخلاقة. وما يشهد على ذلك أن أعداءه لم يكونوا يقفون عند قص جناحيه أو نتف ريشهما

(٣٤) مما ورد في وقائع محاكمة عارف: أن العميد الركن قائد الفرقة الثالثة خليل سعيد، جاء قاسماً يشكو ما خلّفته خطبة (عارف) في بعقوبة من آثار سيئة فبادره بإطلاعه على مسودة مرسوم يقضي بإعفاء عارف من منصب نائب القائد العام [تم ذلك في ١١ من أيلول] ، وعلّق راديو القاهرة على هذا العزل بتفسير بارع، فقال إنه يرمي الى إعانة عارف على التفرغ الى واجبه الأصلي وزارة الداخلية.

(٣٥) الزبيدي: المرجع السالف ص ٣٤٥ [من مقابلة شخصية للمؤلف مع صديق شنشل] "تحدث شنشل مع قاسم حول خطب عارف المرتجلة، تلك الخطب التي كانت تسبب مشاكل داخلية وخارجية في غنى عنها، وطلب من قاسم أن يحدث عبدالسلام بذلك أو يمنعه إن إقتضى الأمر من إلقاء الخطب المرتجلة، فكان جواب قاسم "دع الحبل يلتف حول عنقه". [نقول لم يزد الزبيدي على هذا ولم يزوّدنا بما كان ردّ فعل شنشل عندما تلقى هذا الجواب. أنظر كذلك إنطباعات الجومرد للمؤلف عن عارف في ج٢ الص ٧١٢-٧١٦ من كتابنا "العراق في عهد قاسم".]

بل بالعمل الدائب على إستئصاله وتصفيته.

إن المظهر الخادع الغلاب الذي ظهر به القوميون للرأي العام العراقي أوجب على الحزب سرعة العمل. ووجد الشيوعيون في الحركة القومية الكردية والأقلية المسيحية والأوساط السياسية والدينية الشيعية، بل وأهم من هؤلاء – في (قاسم) بالذات حليفاً في نضالهم اللاقومي وبعد أن وجّه هذا لكمة موجعة للدعوة الوحدوية. بات من الثابت أن العراق سيبقى مستقلاً، وهذا يعني أن لن يتعرض الى المصير الذي آل إليه شقيقاه في كل من سورية ومصر. ومن أجل المحافظة على "الوضع الراهن status quo" بدا الخط الواجب إتباعه تعبئة الطاقات كلها لدعم (قاسم) ونظامه كيفما كان وبأي وجه سيبدو، ومع أن النظام كان يسير بخطى ثابتة نحو الدكتاتورية والحكم المطلق، فهذا لم يكن مصدر قلق للحزب. والمعادلة عندهم هي من البساطة بمكان:

في تقويم طبيعة هذا النظام وإنحداره نحو الحكم الفردي المطلق، أسرع حزب البعث للبحث عن تعاليل في إطار النظرية الديالكتية وتخريجات فلاسفتها ومفكريها، فحكم على نظام قاسم بأنه حكم البرجاسية (البرجوازية) الوطنية. وهو مرحلة تتقدم الإشتراكية حتماً. فهو إذن حكم تقدمي ينبغي وضعه تحت الرقابة الجماهيرية وحمايته من ذات نفسه الميّالة الى التقلب والتذبذب وسهولة وقوعه في أحضان الإمبريالية. ولم يكن المقصود بالرقابة الجماهيرية غير الحزب[٣٦] طبعاً.

ومضى الحزب في سياسة "تعبئة الجماهير" كما وصفها– وراء النظام الجديد، أي وراء نفسه... التغلغل في نقابات العمال والمنظمات المهنية وطلاب المدارس، التقرب من علماء الدين "التقدميين"، إنشاء تنظيمات شعبية بقيادتهم، وكان الطريق سهلاً. فالكرد في معسكرهم بأقليتهم الكبيرة التي تتراوح بين ٢٢ و٢٥ بالمائة وطموحهم السياسي في التمتع بحقوقهم القومية السليبة منذ قيام الدولة العراقية، ليس من صالحهم قط أن تنخفض نسبتهم الى (٥) بالمائة في نظام قومي عروبي لايعترف دستوره بحقوق قومية، بل بأي هوية عنصرية

(٣٦) هناك مثلاً قول لـ(لينين) في ثورة شباط ١٩١٧ الروسية بقيادة (كرنسكي) "يزعم السياسيون التافهون من معسكر العاملين على تصفية الثورة، أنه لما كانت ثورتنا ثورة برجاسية، فمن الواجب على الطبقة العاملة مساندة البرجاسية. أما نحن الماركسيين فنعلن جهاراً قولنا: لما كانت ثورتنا برجاسية فمن الواجب على العمال الدأب في تبصير الشعب وتنبيهه الى مكامن الخداع والتضليل اللذين يمارسهما السياسيون البرجاسيون. عليهم أن يعلّموا الشعب بألا يثق بالأقوال بل يقصر ثقته وإعتماده على قواه الخاصة، على تنظيمه ووحدته وأسلحته..." [المجموعة الكاملة لآثاره. ط موسكو ١٩٦٨، ج٩– رسائل من بعيد]. (إستخدمنا لفظة برجاسية هنا بدلاً من برجوازية لأن الكتاب العرب نحتوها من الكلمة الأصل قبل أكثر من ثمانية قرون).

أو دينية، تفضلاً على دستور أقرّ بقوميتهم وبشراكتهم في الوطن الواحد صراحة. ولم يكونوا مغمضي الأعين قط عن أساليب القمع التي يتبعها النظام الوحدوي في سورية ضد الحركات القومية الكردية. والمسيحيون الكلداشوريون بفترة الهدوء النسبي التي عاشوها بعد مذابح العام ١٩٣٣، وبالإنفتاح الذي جاء به العهد الجديد على النشاط السياسي، شعروا ولأول مرة بعد إنتهاء الإنتداب بأنهم مواطنون حقيقيون أمام الدولة[٣٧]، ولذلك بدا حرصهم على تأييد النظام الجديد بدافع مصير مماثل مأساوي قد ينتظرهم كقبط مصر ومسيحيي سورية في حالة قيام الإندماج ولم تكن أعينهم مغمضة عمّا حصل في لبنان.

على أن (قاسماً) كان يدرك بأن الحزب الشيوعي يبدو دائماً أكبر من حجمه الحقيقي بكثير بفضل شعاراته وطروحاته الجماهيرية المحببة التي تمكنه دائماً من تعبئة شعبية ضخمة في الشارع كما كان يراهم عملاء للاتحاد السوفياتي في مواقف كثيرة ولايتحرج عن إعلان رؤيته.

ومن تاكتيك الظهور بمظهر القوة والإعتداد بالنفس، بادرت قيادة الحزب المركزية الى توجيه برقية "تحذير ونصح وإرشاد" لأعلى سلطة في النظام الجديد، فيها من الخيلاء والمكابرة ما فاق كل تصور. وربما كانوا يتوقعون ما ستثيره فإستبقوا الآخرين بالقول "إن الحزب على بيّنة من الإستخفاف والإستنكار اللذين سيستهدف لهما بسبب هذا التحذير"[٣٨].

(٣٧) الزبيدي [المرجع السالف، ص ٣٤٤] من مقابلة شخصية له مع الوزير القاسمي (هديب الحاج حمود) في ٢١ حزيران ١٩٧٧. قال إن ضابطاً من الضباط الأحرار الذين كانوا في فوج (عارف) ليلة ١٤/١٣ تموز، سمع عارفاً يقول إنهم سينفذون الثورة وأن هناك ثلاث جماعات يجب تصفيتها وهم الأكراد والمسيحيون والشيعة.

(٣٨) في ١٨ تموز ١٩٥٩ نشر الحزب في جريدة إتحاد الشعب نص هذه البرقية العجيبة بعد مرور أكثر من عام واحد على الثورة: افتتحت البرقية بالتحذير وإلتزام الحيطة "فإنه لأسهل عليك أن تحرز نصراً من المحافظة عليه". وذكّرت قاسماً وحكومته بما حلّ بالدكتور مصدّق في إيران والنابلسي في الأردن! ثم راحت ترشد الحكم الجديد الى ما يجب عمله: "إنتهاج سياسة وطنية خاصة وواضحة (؟) الخروج من حلف بغداد، إلغاء المعاهدة العراقية–البريطانية (لم يكن هناك وجود لأية معاهدة) إتباع سياسة خارجية مستقلة وإقامة علاقات دبلوماسية مع المعسكر الإشتراكي. ضمان الحريات العامة: حرية الإجتماع، حرية التنظيم السياسي، حرية النشر، إطلاق سراح السجناء السياسيين، ، دعم لجان صيانة الجمهورية، تشكيل المقاومة الشعبية وتسليحها، وضع اليد على شركات النفط وغيرها من المشاريع الإقتصادية الكبيرة..." وأكدت البرقية بصورة خاصة "ضرورة تغذية مديرية الإعلام والإرشاد بعناصر "وطنية ديمقراطية" حفظاً لوحدة الصف، وهذا ما يجب أن يهتم به بنوع خاص لأن "وسائل الإعلام الرسمية تجاهلت الشعب الكردي من الأول ولم تذع المئات من البرقيات ذات الصبغة الوطنية والديمقراطية" [منذ ذلك الحين بات للفظة "وطني" في القاموس اليساري مدلول ينعت به غير القوميين. وصفة "ديمقراطي" تطلق على الشيوعي الذي يفضل إخفاء هويته السياسية أو بصورة عامة على رفاق الطريق كالپارتيين =

قلنا، في الأيام من وحدة القطرين ظهرت تعاليل ماركسيّة تبريراً لقيامها. وجاء الحكم عليها من موسكو فوراً إذ وجدت فيها "خطوة تقدمية بسبب أهدافها المعادية للإمبريالية والإقطاع، وسيرها على طريق الإشتراكية"[٣٩]. وبيّنا كذلك أن الحزب الشيوعي السوري قبل بها كارهاً مرغماً، وأرغم بعد تحقيقها على حلّ نفسه راضخاً لقرار سحب الشرعية منه، وبكل ما عقب ذلك من تعرّض أعضائه وقياديّيه الى الملاحقة والسجن والتعذيب والموت.

وعلى ضوء ما حصل، إختار الحزب الشيوعي العراقي حلاً وسطاً لايخلو من براعة برفعه شعار (الإتحاد الفدرالي) ضد مطلب الوحدة الفورية، وغدا صرخة المسيرات والمواكب (الديمقراطية[٤٠]). إلا أنه مع مؤيديه من (الپارتي) وغيرهما لم يجرأوا على الإنتقاص علناً من شعار الوحدة الفورية الشاملة. وعلى سبيل المثال، صدر بيان من الحزب الشيوعي العراقي في ٢٦ من تشرين الأول ١٩٥٨ نقلته إذاعات وصحف أجنبية ووكالات أنباء أوروبية، جاء فيه:

"...يؤكد الحزب تأييده لمبدء الوحدة العربية الشاملة من المحيط الى الخليج، إلا أن الشعب العراقي الذي يفتقد الحريات الديمقراطية (يرى) أن نيلها وممارستها غير ممكن في حالة الإندماج بـ(ج.ع.م)، لأن النشاط الحزبيّ هناك محرّم".

وأصيبت العروبية العراقية بضربة موجعة عند خروج (عارف) من الصورة، كما أمّنت تشكيلات "المقاومة الشعبية" السيطرة الحزبية على الشارع[٤١]. وبدا صوت رئيس الحزب

= والوطنيين الديمقراطيين ومن إليهم.]

(٣٩) من مقال لمجلة العالم الماركسي World Marxist Review [أيلول ١٩٥٨–ص ٤١]، وهي مجلة تصدر في موسكو.

(٤٠) هنا نموذج من أساليب الحزب في حرب الدعوة الى الوحدة– رواه لي صديق موثوق الخبر كان قد سيق جندياً بعد قضائه فترة حكم وإبعاد أيام العهد الملكي. قال صدرت تعليمات لأعضاء الحزب وأنصاره ونحن في البصرة بحشد ما أمكن والذهاب بهم الى محلّ الإجتماع الذي رتب أن يلقي فيه (عارف) خطابه. وأوصي هؤلاء أن يؤلفوا كتلة متراصة قريبة من المنصة ومن أجهزة التسجيل ومكبرات الصوت ليُسمع جيداً من خلالها مقاطعاتهم الإستفزازية للخطيب بغية إخراجه عن طوره وإرغامه على إستخدام عباراته السوقية وشتائمه. قال الراوي: لم يخيّب (عارف) الظن به ولم يطق صبراً على ضجيجنا وهتافنا المضاد بالوحدة الفدرالية، ففقد كل سيطرة على لسانه، وإنثنى شاتماً لاعناً ووصفنا "بالسرسرية" وأولاد القـ..بة. كان بعض هذا يسمع من الإذاعة رغم الجهود الفنية التي تبذل لحذفه. ليغدو موضع سخر وتعليق "جماهيري".

(٤١) كان (قاسم) في ١٧ من تموز، قد أصدر بوصفه القائد العام للقوات المسلحة بياناً عن قرار الحكومة بتشكيل المقاومة الشعبية، وصدر بها قانون في الأول من شهر آب. كان من مهام الحزب الشيوعي وحليفه الپارتي، وأنصارهما بذل جهود كثيفة لتعلو صرخة "الإتحاد الفدرالي" على "الوحدة الفورية الشاملة" =

الوطني الديمقراطي وفئة شجاعة صغيرة من الديمقراطيين الدستوريين – ضائعاً بين الهتاف لـ(الزعيم المنقذ) وهو ينذر ويحذر من عودة الى حكم عسكريّ مماثل لما حصل قبل عشرين عاماً– مقنّع بإصلاحات إجتماعية وإقتصادية وسياسية قِشرية[٤٢].

كانت الدلائل كلها تشير الى نيّة إنفراد (قاسم) بالسلطة دون زملائه العسكريين، ومن دون الإعتماد الكامل على الجيش. بدا بصياغة الدستور المؤقت وكان يرمي في سبيل ذلك – الى تحقيق موازنة بين مشايعيه في الجمهور والجيش وبين خصومه فيهما، وهم غير قليلين، سيّما بعد تمزيقه شمل هيئة الضباط الأحرار العليا وتشتيتهم، بل وبتعمّد تحقيرهم عن طريق إسناد مناصب ثانوية لبعضهم.

وبدت نية (قاسم) في التخلص من عصبة الضباط المؤتمرين المشكوك في ولائهم له، بتعيينه في منصب (عارف) ضابطاً مسلكياً متقاعداً، و"الداخلية" في العراق أخطر الوزارات وأهمها[٤٣] طراً، وأردف مذيع بيان الإقالة في عين الساعة خبر صدور قانون الإصلاح

= إعلامياً. ودفع الجانبان بمسيراتهما ومواكبهما المختلطة والمنفردة، وبدت أول أمرها هادئة لايعكرها حادث عنيف. إلا أن الحرارة إرتفعت عند الجانبين وأول أعراضها مبادلة الشتائم، التي إنقلبت الى إشتباكات بالأيدي، ثم بالأسلحة الراضّة والقاطعة وتعدّى نطاقها بغداد، كالرمادي والموصل والبصرة. مثال ما حصل في ٢٥ من تشرين الأول، عندما حشّد القوميون قواهم وتوجّهوا الى مطار العاصمة لإستقبال الوفد الوزاري القادم من القاهرة، ليواجهوا مظاهرة كبيرة أخرى تنادي بالإتحاد الفدرالي. وتُنوسيَ الغرض الأصلي وهو الإستقبال– وإشتبك الجانبان في عراك ووقف القادمون أمام ما يجري ذاهلين.

(٤٢) أذكر بهذه المناسبة أن آخر عدد من صحيفتي "الرائد" صُدّر بتصريحات الچادرچي كاملة. فقد إتصل بي السيد عبدالغني الملاّح معتمد الحزب الوطني الديمقراطي في الموصل، الذي أنَبتُه عنّي في رعاية شؤون الجريدة– وأنا في بغداد أتهيّأ للسفر الى أوروپا– محبذاً إعادة نشر تصريحات رئيسه الچادرچي المنشورة في [الأهالي] فإستحسنت ذلك، وكان آخر عدد منها وفيه ختام حياتها. [راجع حكاية لقاء كاتب هذه السطور بالچادرچي في القاهرة في (العراق في عهد قاسم، ج١ ص ١٨٢) المرجع السالف]. كان الچادرچي قد رحل إليها للقاء (عبدالناصر) والإدلاء بنظره حول الوحدة.

(٤٣) الزعيم الركن أحمد محمد يحيى الموصلّي، عيّن بعد تموز سفيراً إثر إحالته الى التقاعد، عرفته شخصياً وهو برتبة رائد معلماً للتعبئة في الكلية الحربية (١٩٤٦–١٩٤٧)؛ ضابط متتبع كثير المطالعة. بقي يحتل هذا المنصب حتى النهاية. وعدّ إسناد منصب وزارة الشؤون الإجتماعية لـ(ناجي طالب) تحقيراً مقصوداً (وكان، كما إدعى القوميون، مرشحاً لتولي القيادة) بوصفها وزارة ثانوية جداً. وكما رأينا كان إسناد منصب مديرية الإستخبارات لمن أعتبر بحق أباً للتنظيمات السرية بمثابة إبعاد مهنيّ لرفعت الحاج سرّي عن مركز صنع القرار. وأبعد العقيد الركن عبدالوهاب أمين مدير الحركات قبل تموز، بوظيفة الملحق العسكري المهنية (أكد لي هذا الضابط بأنه هو الذي أعلم قاسم بأمر حركة اللواءين، ولولاه لما كان ١٤ تموز، ولم أجد من ينفي زعمه هذا). وأُبعد كل من محي الدين عبدالحميد وإسماعيل عارف وعبدالوهاب الشوّاف وعبدالرحمن عارف بإسناد قيادات عسكرية صرفة. وإبتعد (محمد السبع) وإنزوى في داره =

الزراعي بتوقيت مقصود يرمي الى دفن أي أثر جانبي للنبأ الأول. وقد أصبح هذا واحداً من أساليب العمل عنده وطريقاً يتبعها modus operandi التي يَطْلع بها بين حين وآخر على العراقيين. إلا أنه كان مفرطاً في حذره من جهة، ومخطئاً في حسابه من جهة أخرى.

لم يرتفع صوت واحد بالإحتجاج على إزاحة هذا الظل البغيض، حتى أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالإنتصار له أو الرهان عليه، فإنه خيّب ظنهم فيه خلال فترة إستعلائه والإدلالة عليهم وتذكيرهم بما حققت شجاعته لهم من شهرة. لكن (قاسماً) كان مخطئاً في حسابه هذا بإطلاقه قوى التآمر السرّي عليه، وإتحاد القوى القومية بهدف إحداث إنقلاب مشابه.

لم يكن صدور قانون الإصلاح الزراعي بالنتيجة عملية إحتواء فعّالة لأول صدع كبير في قوى الإنقلاب(٤٤).

ذكروا أن إنحدار (قاسم) الى الحكم الفردي المطلق كان متدرّجاً. بل تمادى بعضهم ليقول أنه أضطر إليه إضطراراً، وجرّت قدمه نحوه جراً تلك القوى المتصارعة التي أساءت تفسير الحرية السياسية المفاجئة المنطلقة بلا ضابط أو عنان يوم الرابع عشر من تموز، وبسبب التي تعرض لها والمعارك التوفيقية التي خاضها.

هناك من الدلائل ما يجعلني أشك كثيراً في هذا التعليل الذي يؤدي بالنتيجة الى الإعتذار التام عن المسلك الدكتاتوري والتسليم الى حدٍّ ما بشرعيته.

وجدت نيّته العاقدة على إستئثاره بالحكم المطلقة، أو بالأحرى نطفتها الكامنة في مجموعة

= مشمئزاً على ما قيل، ليبدو بعد حين صاحب دكان لبيع ألعاب أطفال في الأعظمية... هذا بالنسبة الى أعضاء الهيئة العليا للضباط المؤتمرين. وتطول القائمة لو عمدت الى تتبع مصائر الآخرين الأدنى من هؤلاء درجة.

(٤٤) بصرف النظر عن بعض عيوب في هذا القانون– لو طبّق تطبيقاً أميناً حيادياً مدعماً بقوانين أخرى لاحقة تضمن الفوائد المتوخاة منه لجاز لنا بحق أن نضع ما حصل يوم ١٤ تموز في مصافّ كبريات الثورات العالمية الإجتماعية، رغم أنه يعتبر قانوناً معتدلاً (غير إنقلابيّ) نسبة الى قوانين الثورة الفرنسية الخاصة بالأرض، والى قانون الإصلاح الزراعي الياباني الصادر بعد الحرب العالمية الثانية. فقد قضى ببضعة أسطر على حالة من الرق والعبودية التي كبّلت بسلاسلها الفلاح العراقي الأجير لفترة إمتدت الى أبعد ما سجّله تاريخ بلاد الرافدين عن العلاقة بينه وبين مالك الأرض. نقول رغم النواقص والهفوات التي تورط بها واضعوه نتيجة إستيحائهم قانون الإصلاح الزراعي الذي إشترعه عبدالناصر– فهو ينمّ عن تفهّم إجتماعي وإقتصادي لثورة ما، إلاّ أنه لم يكن كافياً لإحداث ثورة من دون "ضمانات وحرس وحاشية" سيما صيانته من العبث الإداري وإنشاء التعاونيات لضمان الإستغلال الزراعي بالطرق الحديثة، وغير ذلك. [رأينا كيف إستخدمه قاسم وسيلة لعقاب الفلاحين المستحقين المنتمين الى أحزاب سياسية مثلاً. وكيف كان واحداً من الأسباب التي أدت الى الثورة الكردية في العام ١٩٦١ [أنظر مزيداً عن القانون في (العراق في عهد قاسم، ج١–الص ٧٦–٨١)] المرجع السالف].

الأوامر والمراسيم والقوانين التي هيّأها قبل دخوله بغداد. وبعد إستتباب الأمر له فيها مباشرة، بحيلته في التخلص من تكوين ما دعي بمجلس قيادة الثورة، وجدنا بعظيم أسىً تسخيره قانونيين معروفين بنزعاتهم الديمقراطية وإيمانهم بالحياة البرلمانية والدستورية لصياغة قوانين مجافية للمباديء الديمقراطية. وبالشكل الذي أصر فيه أن يجعل من نفسه فوراً ومباشرةً المرجع الأعلى والنهائيّ للسلطات الإشتراعية والقضائية والتنفيذية.

ومن غير نفي فضيلة الإخلاص وصدق النية وحب الخير لعامة الشعب، فإن كل هذه الميزات الخلقية يعتريها الشلل التام عند الإستئثار بأسلوب التحقيق العملي لها وإصطدامها بشهوة التفرد بالحكم والتحكم في المصائر والرقاب، وهي من مكوّنات شخصية الحاكم الفرد.

ومن الغليان السياسي الذي يعقب كل تغيير فجائي لنظام الحكم والخروج عن حدود القيم الأخلاقية والسلوك العام في ممارسة الحريات، وجد الزعيم الحسنَ فيما يقدّره هو حسناً. وبالنتيجة إن العراقيين غير مؤهّلين لممارسة سائر الحريات والحقوق دفعة واحدة، بل يجب عليه أن يدفع بها أقساطاً وعلى شكل منحٍ وهبات في مناسبات يختارها هو ويوقّتها كما يوقّت الآباء مواعيد الهدايا للأبناء.

ولم يكن هناك خيار أمام تلك القلّة المثقفة من الديمقراطيين الليبراليين بوقفاتهم الماضية المشهودة في الدفاع عن الدستور والحريات. فقد إختنقت أصواتهم المنفردة الضعيفة في جلبة وصخب العروبيين الناصريين والقوميين غير الناصريين، وحاروا في كيفية إيصال تحذيرهم للناس مما يستبطنه دعوى "الديمقراطية" التي ينادي بها الحزب الشيوعي ويطلبها بمفاهيمه الخاصة عنها. والنظام الجديد أمامهم يحتثّ الخطى نحو الحكم الفرديّ المطلق.

لم يجد هؤلاء مندوحة من المجاهرة بإسناد الزعيم إزاء الهجمات العروبية في الداخل والتآمر القوميّ من الخارج، سيّما بعد المحاولة المأساوية الناصرية الفاشلة في الموصل. وتشبثوا بذلك الحكم عندما هددت موجات الحزب الشيوعي العاتية إبتلاع سفينتهم في خضم هدير الشارع.

وأولئك الذين أطلق "الشارع" عليهم "أيتام العهد البائد" أو "الرجعية"، وجدوا هم ايضاً فيه "ملاذاً" يحول بينهم وبين ملاحقة اليسار الشديدة الأذى، وسداً واقياً من هجمة الإشتراكية العروبية الناصرية. والى فترة طويلة نسبياً بدت الأمور موضع رضا وإرتياح من سائر الأطراف بإستثناء القوميين.

ملحق أول

النصّ الحرفي للاعتراف الخطي[1]

أقسم بالله العظيم وبرسوله الكريم بان كل كلمة في هذا التقرير صحيحة ودقيقة وقد توخيت من هذا التقرير ان اذكر دوري والاشخاص الذين قاموا باعمال أخرى لم اصادفهم في طريقي. لذلك اقترح ان يكتب كلّ شخص عن دوره لكي تكون القصة كاملة.

(١) ذكروا ان هذا الضابط قضى على حياته باطلاقة في رأسه من مسدسه في العام ١٩٦٠ بعد ان بلغت به الترقيات دون عائق – رتبة عقيد ركن وفسح له المجال الى كلية الاركان وهي موئل الضباط الممتازين المجندين واسندت اليه مناصب هامة لاينالها الا المقربون المحظوظون منها منصب الملحق العسكري لسفارة العراق في موسكو. وكل هذا لايؤيد ما علل به سبب انتحاره اعني الندم وتبكيت الضمير والرؤى والكوابيس المزعجة التي كانت تنتابه ليلاً. ولاتستقيم مع لحظة الجنون التي دفعته الى الضغط على الزناد. اذ لم يشر احدٌ الى انه أخضع لعلاج نفساني طوال الاحدى عشرة سنة أو عولج طبياً. وعلي في هذه الحالة ان ارجح اسباباً شخصية أو سياسية دفعته الى اختصار حياته لاتمت الى فعلته بصلة. «يذكر الزبيدي: المرجع السالف، ص١٨٨. نقلاً عن العميد محمد علي سعيد العبوسي أي الفاعل انه تذكر حوادث حركة مايس ١٩٤١ وما لاقاه الضباط الأحرار من اعدام وتشريد وتنكيل فاراد ان لاتتكرر المأساة مرة أخرى ويعود عبدالاله ليشنق ضباط الثورة».

نقلنا نص الاعتراف عن الجزء الثاني من كتابنا [العراق في عهد قاسم، الص ٦٤٥ وما بعدها. ستوكهولم ١٩٨٩. وكما ورد حرفياً في الجزء الأول من [موسوعة اسرار ١٤ تموز] ذات الاجزاء السبعة بصحائفها الألفين والخمسمائة لمصنفها «العميد خليل ابراهيم حسين» ط. بغداد ١٩٨٧–١٩٩٠. وهي مجموعة ضخمة من الرسائل والتقارير والوثائق والمقابلات والاستجوابات حصل عليها العميد خليل بفضل دأب متواصل على المتابعة، وبفضل توليه منصب معاون مدير الاستخبارات العسكرية طوال عهد قاسم، ولحماسة وايمان قويين بالقومية العربية وبالوحدة وتشيعه للناصرية: لاتفوته فرصة في موسوعته الا ينتهزها للمجاهرة بعقيدته التي اتقن اخفاءها طوال فترة الاضطهاد الذي شنه قاسم على القوميين فضمنت له البقاء في مركزه الى الأخير. جاء ذكر هذه الموسوعة في آخر لقاء لي مع صديق العمر والصبا (سليم الفخري). فعلق بقوله ان العميد خليل كان قد أشتهر بين الضباط بلقب «خليل رويتر» بسبب حرصه الشديد ودقته في تعقيب الوثائق وتحري الوقائع، ان هذه الموسوعة رغم انحياز صاحبها الواضح هي مرجع هام ومنهل ثرّ للمؤرخ. ولايقلل من قيمتها التاريخية انتهاز صاحبها كل فرصة للانتقاص من أولئك الذين يصنفهم في عداد خصوم القومية العربية بما يخرج احياناً عن الحدود المرسومة ادبياً للكاتب والمؤلف، وبعضها بحق وأكثرها بباطل. على انه أوقع نفسه في الورطة التي يقع فيها عادة المؤلف الذي تغلب حماسته على حجاه ورزانته. فأعطى صوراً سيئة لاتشرق لابطاله القوميين الذين استكتبهم وقابلهم ما اظنه كان يقصدها. كيف يبعدون أنفسهم عن تهمة التآمر القومي عند وقوعهم بيد السلطة، وكيف كانوا يتبارون في اظهار ادوارهم والبروز بها بعد سقوط قاسم. وما اظنه أسدى خدمة للقومية العربية بهذا ولا لشهدائها ولا العاملين في حقلها. وكان أحرى به ان يخفي نقاط الضعف فيهم.

كنت آمر لدورة تدريب المشاة الاساسية في مدرسة المشاة وكان موجود دورتي ١٨ ضابط و ٦٨ ضابط صف وكانوا منتخبين من وحدات الجيش المختلفة. وكان وقت التدريب مبكراً حيث تبدأ ساعة التدريب الاولى بالساعة السادسة صباحاً وكنت ضابط خفر ليوم ١٩٥٨/٧/١٣. وفي صباح يوم ١٩٥٨/٧/١٤ حوالي الخامسة والنصف حضر احد الضباط المعلمين واخبرني بوجود انقلاب في بغداد. أمرت بجمع الدورة ضباطاً وضباط صف وطلبت منهم ان يستلموا البنادق العائدة لهم رغم ان التدريب في ذلك اليوم كان تدريب على العصا. وقبل الساعة السادسة سمعتُ اصوات رمي مستمر من ناحية قصر الرحاب وأخبرت الرئيس حميد السراج والرئيس محمد علي سعيد، وطلبت رأيهم ورأي الضباط التلاميذ الباقين حول مساندة القوة القائمة بالهجوم على القصر فأخبرا ضباط الدورة بالموضوع لمعرفة رأيهم ومقدار تأييدهم للثورة بحضوري فأيد الضباط كافة عدا ضابط واحد وهو الملازم فالح زكي. وطلبتُ منهم استلام غدارات استرلنگ واخبرتهم بأنني سأذهب مع الرئيس محمد علي سعيد الى قصر الرحاب لمعرفة احتياج القوة القائمة بالهجوم. وعند وصولنا شاهدنا جنوداً ممتدين على الرصيف وقسم منهم امام السياج المحاذي للرصيف وكانوا منبطحين من الباب الوسطي للقصر حتى الجهة الغربية من بغداد. الاّ انني لم اعرف كافة مواضع القوة في المجالات الأخرى فسألتُ الجنود المنبطحين عن احتياجهم لانني لم اشاهد معهم ضابط. فقالوا: بأننا نحتاج الى عتاد لأن عتادنا على وشك النفاذ. هذا حسب قول الجنود. فاستصحبت معي احد نواب الضباط الذين صادفتهم بسيارتيْ حمل كبيرة. وعند وصولي المدرسة كسرتُ مستودع ضابط الاعاشة الخاصّ بالعتاد لعدم وجود المفتاح لدي وطلبتُ من ضباط صف دورة ١٠٦ ملم اخراج عتاد ١٠٦ ملم وتحميل مدافع ١٠٦ ملم في احد سيارات الجيب باقصى سرعة ممكنة لضيق الوقت كما طلبتُ من ضباط صف آخرين اخراج عتاد الغدارات اولاً وتهيئة عشرة مخازن مملوءة فوراً واخراج بقية العتاد للبنادق.

تناولت الغدارة المرقمة ٥٣٨٤ من مشجب جناح ضباط الصف كما استلمت ثلاث مخازن مملوءة وسلمت (٣) غدارات لضباط الصف كانوا بقربي وتوجهت الى رحبة المدافع بعد ان القيتُ كلمة قصيرة في ضباط صف الدورة بغية تشجيعهم على القيام بعمل فعال. وطلبت من الرئيس سامي مجيد ان يشرف على العتاد وعلى اركاب ضباط الصف وارسالهم خلفي وثبتُ في سيارة اللاندروفر مع المدفع مع ضابط الصف عدد (٢) من ١٠٦ ملمتر وثلاثة ضباط صف حاملي غدارات واربع طلقات من ١٠٦ ملمتر وتقدمنا باقصى سرعة. وعند وصولنا الى الرحاب وضعنا المدفع على الرصيف مقابل الباب الرئيسية يسار الجنود الممتدين على

الرصيف ووضعنا الاربعة اطلاقات التي معنا بجانب المدفع. كنتُ اسمع اصوات الرمي من جهات مختلفة مما اضطر ضباط صفي على الامتداد على الشارع المبلط العام كما تراجع الجنود الى نفس المحل وقد طلبتُ من ضباط صفي ان يملأ احدهم المدفع فلم اسمع الا صياحهم «سيدي امتد، لاتموت» وظلوا في اماكنهم فاضطررت الى ان اخرج احدى الاطلاقات بنفسي من غلافها وملأت المدفع وتحولت الى الجهة اليسرى بغية الرمي وكانت امنيتي الوحيدة ان اكمل رمي الاطلاقة ثم بعدها مرحباً بالموت لكثرة ما كنت اسمعه من دوي الرصاص. فصوبت على الطابق العلوي ورميت الاطلاقة فاختفى القصر كله عن انظاري لكثرة الغبار والدخان. وقد ملأت الاطلاقة الثانية فوراً بالاستفادة من ذلك وانتظرت لحظة فشاهدت الرئيس ثابت يونس يخرج من الباب وبيده علامة بيضاء محاولاً التقرب نحو جنودنا فتناولت الغدارة التي اندثرت في التراب ووجهتها نحوه وطلبت منه ان يقف والا كان الموت جزاءه وقلت اني لا أريد منك ان تستسلم بل اريد استسلام القوة كلها واني آمرك بالرجوع فوراً لانني كنت أخشى ان يؤثر على الجنود القريبين مني فرجع فوراً الى الداخل وعدتُ الى مدفعي ووجهت الى الطابق العلوي ايضاً ورميتُ الاطلاقة الثانية وملأت الثالثة فوراً فشاهدت بعدها العقيد (طه البامرني)[٢] آمر اللواء يخرج من الباب الوسطية ويصيح اننا مستعدين للتسليم فقلت نحن حاضرين لاستلامكم تفضلوا. فعاد الى الدخول ليجلب الجنود وقد انتظرت بعض الوقت وظننت انه لم يكن جاداً في قوله فرميتُ الاطلاقة الثالثة على الطابق الأسفل وملأت الاطلاقة الرابعة وعوّلت ان لا ارميها لأنها الأخيرة وانتظرت وبعد قليل شاهدت من ناحية اليسار العقيد طه البامرني وخلفه رتل من الجنود يحملون اسلحتهم بوضع افقي وكانوا يسيرون على الشارع المحاذي لسور (الرحاب) فأخذت غدارتي واثنين من ضباط صفي وسرت باتجاههم فطلبت من آمر اللواء ان ينزع مسدسه وأخذت منه العتاد وطلبت من الجنود ان يلقوا بسلاحهم وعتادهم على الارض فوراً ويتجمعوا بالقرب من السور المحاذي للجدار وأخرجت ثمانية جنود منهم وطلبت منهم ان يجمعوا العتاد في قطع القماش الكبيرة التي كانوا يحملونها وبعد ذلك طلبتُ من ضباط صفي ان يأخذ هؤلاء ويوزعوا العتاد على سرية المشاة القريبة منّا والتي اتت الى الرحاب لاحتلاله وطلبتُ من باقي الجنود ان يتحركوا الى الحديقة المحاذية للشارع العام ووضعتُ عليهم بعض الجنود حرساً عليهم وفي هذه الاثناء شاهدت مدرعتين تتقدم على الشارع المحاذي للسور باتجاه الباب فطلبت من احدى المدرعتين ان تدخل من باب السور وتقوم

(٢) نسب مديراً للعقود والمبايعات في وزارة الدفاع بعد ذلك ثم عين في ما بعد قائداً للمقاومة الشعبية. ثم عزل. وكان محسوباً على اليسار. في شباط ١٩٦٣ هرب الى كردستان ولبث مقرباً من البارزاني ومشاركاً في فعاليات الثورة الكردية حتى العام ١٩٦٦. حيث آثر الابتعاد.

بالرمي وتتقدم بغية الاستتار خلفها وعند وصول المدرعة الى الباب الداخلية فشاهدت الرئيس (ثابت يونس) وسألته عن الملك وعبدالاله فأقسم لي انه لايعرف شيئاً عنهم وكنت متأكداً انه كاذب في قسمه. وفي هذه الاثناء شاهدت الرئيس سامي مجيد ومحمد علي سعيد والرئيس حميد السراج والرئيس عبدالله حديثي والرئيس مصطفى عبدالله والملازم الاول عبدالكريم رفعت والملازم الاول حبيب شبيب وكان لوجودهم اثر كبير في تقوية معنوياتنا وقد عدتُ الى الباب الرئيسية لاني كنت أشعر بوجود خدعة تدبر ضدنا وبينما كنت اسير واذا باحدهم يصيح (جَوْ. جَوْ، جَوْ) [باللهجة الدارجة تعني جاؤا، جاؤا، جاؤا] فالتفت فجأة الى الخلف فشاهدت عبدالاله والى يساره امرأة عجوز تلبس نظارة والى يسارها الملك وكان الى يمين عبدالاله والى الخلف امراة تلبس فستاناً أخضر وكانت بيضاء تميل الى السمرة وشعرها اصفر وكان خلفهم عدد من حاشيتهم وخلفهم بعض الضباط وبينما تقربوا مني سمعت اطلاقات نارية تجاهي فأجبت عليها بالمثل بصورة غير ارادية وعلى اثر ذلك سقط عبدالاله والملك والامرأة العجوز على الارض[٣] وطلبتُ من العقيد البامرني ان يتقدم معي للذهاب الى فوج الحرس الملكي في قصر الزهور فأخبرني انه توجد ثلاثة سرايا بكاملها اعتدتها واسلحتها وآلياتها فمن المستحسن ان تسمح لي ان اتصل بالمساعد لكي يستلم الاسلحة لكي لاتحدث مذبحة فوافقت على ذلك بعد ان هددته بالقتل اذا امر عكس ذلك فاقسم بشرفه العسكري (!) بانه سيعمل لمساعدتنا. فاتصل بالمساعد من غرفة حرس الرحاب فأخذ المساعد يتسلم السرايا والاسلحة والعتاد. ثم طلبت منه ان يصعد بسيارة اللاندروفر، ثم صادفت المقدم العمري[٤] فزودني بمدرعتين وكان الملازم الثاني محمد جواد غصيبة يرافق هذه المدرعات ووعدني بارسال غيرها خلفي بعد حركتنا. وركبت سيارة اللاندروفر في الخلف مع بعض ضباط الصف حاملي الغدارات ووجهت غدارتي صوب العقيد (طه) وتقدمنا الى قصر الزهور وخلفي إحدى

(٣) من نساء الاسرة المالكة قتلت عابدية أخت الملك ونفيسة ام عبدالاله وزوج الملك علي واصيبت هيام بنت امير ربيعة وزوج عبدالاله فحملت الى المستشفى وعولجت. وقتل ثلاثة من الخدم. فضلاً عن النقيب ثابت يونس. ويتفق الملازم فالح حنظل [اسرار مقتل العائلة المالكة في العراق، لبنان ١٩٧١، الص ١٠٩-١٣٢] بصورة عامة على تفاصيل ما جاء في اعتراف عبدالستار سبع لكنه يعود فيؤكد ان النقيب مصطفى عبدالله اصلى الضحايا بنار غدارته بعد سقوط الجميع قتلى.
ثم يذكر في حاشية ص١٣٧-١٣٨ ان القاتل لم يكن منضماً بصورة فعالة في حركة الضباط وقد ورد في التقرير الذي رفعه الى عبدالكريم قاسم بانه سمع نبأ الثورة من الراديو. وشارك باندفاع شخصي منه... واضاف المؤلف يقول انه انقطع عن الحياة العامة فلم يعد يسمع له نبأ أو تروى عنه حكاية... وانهى حياته بيده في العام ١٩٦٩ عندما أطلق النار على رأسه بظروف لم تعرف اسبابها حتى الآن.

(٤) لعله المقدم الركن عبدالله العمري، ولى معه صلة. بلغ رتبة عميد وكان لفترة رئيس كلية الاركان. وهو من اسرة العمري الموصلية.

المدرعات واعتقد انها المدرعة الثانية ذهبت من الشارع الثاني المؤدي الى الفوج وعندما وصلنا الى منتصف الطريق شاهدت احدى الدبابات قد عقبت المدرعة فطلبتُ من سائق السيارة اللاندروفر ان يقف حتى تصل الدبابة. اجتازت الدبابة المدرعة حتى وصلت امام المدرعة ووقفت على مسافة (٥٠) يارد من سيارتي. فاستغربتُ من وقوفها ونزلتُ من السيارة لأرى السبب فشاهدت ضابطاً برتبة رئيس اول (رائد) في الدبابة فسألته عن عدم تقدمه فهمس في أذني عند صعودي الدبابة، بانه ليس عنده عتاد وانه ينتظر وصول العتاد الآن فقلت له تقدم للهيبة وتقدمت بسيارتي وعقبتني الدبابة والمدرعة وعند وصولنا الى مسافة ١٠٠ يارد شاهدت حرس قصر الزهور يصوبون بنادقهم نحونا فاقترح العقيد ان يترجل هو بنفسه اليهم وكنت اسير على مسافة عشرة ياردات منه فأخذ يصفر اليهم ويطلب منهم القاء سلاحهم فتقدمت مع ضباط الصف وجردتُ الحرس من اسلحتهم وعتادهم وابدلتهم بحرس من ضباط صف مدرسة المشاة ثم دخلت الفوج بعد ان دخلت امامي الدبابة واستلمت المشاجب ومفاتيحها ووضعت جماعة حرس عليها وبعد قليل حضر العقيد نوري الراوي آمر اللواء الجديد واسلمته المفاتيح والفوج ورجعت الى المدرسة ثم الى الاذاعة وأخبرتُ العقيد عبدالسلام محمد عارف بما حدث فأجابني عافرم! زين سويت [بارك الله فيك حسن ما فعلت].

وفي الختام اود ان أضيف بان ضباط وضباط صف دورة تدريب المشاة وبعض مراتب مدرسة المشاة كان لهم اثر كبير في انجاح الهجوم على الرحاب واستلام لواء الحرس.

التوقيع م. اول عبدالستار العبوسي

ملاحظة: مابين قوسين من وضعنا.

ملحق ثان

أمثلة من التاريخ العراقي

من «الجرائم» التي دأب المؤرخون العراقيون عروبيين وغير عروبيين إلصاقها بالاحتلال البريطاني، استيراد أسرة مالكة غريبة عن تربة العراق.

هذه العلّة قُدمت بكثير من الصخب والجعجعة تبريراً للجناية التي ارتكبها «الضباط الاحرار» صبيحة الرابع عشر من تموز، بقتلهم عمداً مع سبق اصرار خمسة من اعضاء هذه الأسرة. عميدها عبد الاله ابن علي وفيصل الثاني ونساء ثلاث. وقبل التعليل والتبرير وغداً جزءً من تاريخ الثوار العراقيين العسكريين المجيد إن لم يكن فللسبب الذي اوردناه ليس الاّ.

إن كاتب هذه السطور لقي من أجهزة القمع والتجسس في العهد الملكي الكثير من العنت والاضطهاد. فقد حورب في رزقه، ولوحق واحيل الى المحاكم العسكرية العرفية بتهم ملفقة وسجن، إلاّ انه لايستطيع مطلقاً أن يُحضر صورة تلك الايام السود بلياليها وهو يحاول إصلاح ما افسده السابقون من الكتاب عند تدوينهم وقائع التاريخ العراقي وإصدار أحكامهم فيها. وان بدا ذلك مني في نظر العروبيين والوطنيين دفاعاً عن اسرة مالكة بغيضة أو خُيّل لاحدهم بأني من دعاة عودة النظام الملكي حالياً.

وابدأ بالتساؤل: إن كانت الأسرة الهاشمية التي حكمت العراق «أجنبيّة» فأي حاكم للعراق، واي أُسرة حكمت العراق، كانت عراقية النجاد منذ القضاء على دولة آخر الحكام الوطنيين في العام ٤٣٩ ق.م، عندما قوضّ المحتّل أركان دولة الكلدانيين، أو بالأحرى في العام ٦١٣ ق.م عندما دالت دولة الأسرة المالكة الآشورية؟

بلاد الرافدين التي عرفت باسم «العراق» كانت طوال اثنين وعشرين قرناً بل اكثر؛ ترضح لحكّام أجانب. ومن بينهم طبعاً الامام الأول والخليفة علي ابن طالب الذي جعل الكوفة قاعدة ملكه، ومنهم الخلفاء العباسيون السبعة والثلاثون الذين حكموه من عاصمتهم بغداد.

وفي تبرير الجناية لم ينجح الانقلابيون أو الكتاب الذين أشادوا بهم ورفعوا من قدر انقلابهم ليضعوه في قائمة الثورات الوطنية. في أثبات صحة ما نسب الى المجنيّ عليه «عبدالاله» من حياة تبذّل فائقة العادة. ومن تصرفات تجافي مكارم الأخلاق.

انه لم يُعرف عنه كونه خليعاً فاسقاً كالملك فاروق بمصر. ولم يجمع لا هو ولا الملك ولا بقية اعضاء الأسرة ثروات طائلة كتلك التي جمعتها اسرة الخديوي. ولا جعلوا خزينة الدولة خزينتهم كما فعل أئمة اليمن. وملوك السعودية وزعماء جنوب جزيرة العرب. ولم يحيطوا أنفسهم بمظاهر الترف والابهة التي كان يحياها الرئيس اليوغوسلافي تيتو مثلاً. وضاعت محاولات لجنة جرد وتصفية اموال الاسرة المالكة التي شكّلها العهد الجمهوري بعد الرابع عشر من تموز في أن تثبت بان أملاكها من الأراضي والاموال يزيد او يساوي ما يملك عدد من الشيوخ ورؤساء العشائر وأسرهم. بل كان هناك من رؤساء الوزارات والوزراء من ضاهي أو فاق الأسرة المالكة في حيازة الاراضي الاميرية[1].

وان لم يكن بعض هؤلاء يكتفي بتسخير القوانين لحيازتها كما كان الأمر بالنسبة للأسرة المالكة. بل كان يستلها عنوة واقتداراً وبطرق غير مشروعة. وقد جاء معظم هؤلاء الساسة الى الحكم وهم اشدّ فقراً من جُرذ الكنيسة.

منذ ان استورد البريطانيون الأسرة الهاشمية ونصبوها، وهي هدفٌ للشعراء والكتاب العراقيين (الأحرار!) قومييهم ووطنييهم يتناولون بالقذف والتشهير المبتذل الذي يبلغ أحياناً مرتبة الفحش والبذاءة. كقول الشاعر معروف الرصافي مثلاً:

«ليت شعري أبلاطٌ أم ملاط[2] أم مليك بالمخانيثِ مُحاط!!

وصعق اولئك الذين كانوا يأملون ان تطلع لجنة التصفية عليهم بمفاجآت عن غنى الأسرة المالكة الفاحش والاساليب غير المشروعة التي جمعوا بها اموالهم الطائلة – مصداقاً للشائعات التي دارت طوال سنين وترددت في الاوساط الشعبية حتى رقيت في عين المواطنين الى مرتبة المسلّمات. فآثروا كتمان تقارير تلك اللجنة ولم يتح لها الظهور إلاّ بعد اكثر من اربعة عقود. وكذلك لم تفلح الانظمة القوميّة الثورية في اثبات واقعة واحدة من الوقائع التي تثبت ما عزي الى عبدالاله من لا أخلاقية، بل لم تجر محاولة بالاصل.

(١) راجع النتائج التي توصلت اليها لجنة جرد وتصفية املاك الأسرة المالكة التي شكلت بالمرسوم الجمهوري المرقم ٢٣ للسنة ١٩٥٨، في كتاب العميد خليل ابراهيم حسين [موسوعة ١٤ تموز ج٧ الص ٢٥٠–٢٨٨ بغداد– ١٩٩٠] ان النتائج المتعلقة بمساحات الأراضي التي يملكها سبعة من اعضاء الأسرة. (١٧٧٥٦٦ دونماً) تجعلها في الدرجة العاشرة في الجدول الذي اثبته حنا بطاطو في كتاب الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية العراقية: ط. جامعة نيوجرسي. بالولايات المتحدة في ١٩٧٨– الص ٥٨–٥٩, [عنوانه:.The Old Social Classes and the Revolutionary Movement of Iraq] الرقم الذي اورده هذا المؤلف يقل عن الرقم الذي ورده في (خليل ابراهيم حسين) بـ ٥٦٦ دونماً فقط. لم تعثر اللجنة من النقد غير نصف مليون دولار مودعة في بنك امريكي باسم الملك.

(٢) اي محل أو الموضع للواطة.

ليس من العدالة في شيء ولا من الحياد المنصف ان ينطلق المؤرخ الحالي في تحديد المسؤوليات او تقويم الاشخاص بحساب ومقاييس الزمن الذي يكتب فيه او الجو المحيط به أو الاتجاه العام الذي ينحوه عصره. ولقطعة النقد وجهان فقط. ولا يمكنك ان تضع في جيبك او تنشر فوق مكتبك مسكوكاتك المعدنية على وجه واحد إلاّ اذا بذلت جهداً معيناً في رصفها وجعلها بالشكل الذي تريده.

مع هذا، وحتى لو وزن حكام الأسرة بمقاييس زمننا هذا لخرجنا بنتيجة تصم بالعار كُلّ اولئك الذين حلّوا محلهم ولا استثني اولّهم الذي ثل عرشهم باسم الديمقراطية والحرية لينصب نفسه بعد ساعة واحدة حاكماً مطلقاً تجمع يمينه كل ما تمكنّه منه السلطات الاشتراعية والتنفيذية وسلطات القضاء معاً.

ويلذّ لكثير من المؤرخين وكتاب السير حين يسردون وقائع معينة يتعذر تكرارها على مرسح الحياة ان يتساءلوا: ماذا سيحصل لو...؟

لم يخطر ببالي ان افترض سؤالاً كهذا قط قبل هذا. لكن سأفعل الآن ولمرة واحدة لا تكرار لها.

إنها تتعلق بالوجه الآخر من قطعة النقد الذي لم يشأ الكتاب والمؤرخون الكشف عنه من حياة عبدالاله ابن علي. فاتساءل: ماذا كان سيحلّ بالعراق وباهل العراق لو لم يخاطر هذا الحاكم بحياته ليحول دون وقوع البلاد في قبضة النازيين ايام الحرب العالمية الثانية. وقتما كان انقلابيو حركة مايس ١٩٤١، مستعدين لتسليم كلّ مقداراتهم ومستقبل وطنهم الى الخاسر.

ماذا سيحصل لو نجح «القوميون». وفشل هو؟

بأقرب تصورٍ وبالحساب الستراتيجي والخطط التي وضعتها القيادة الألمانية العليا، كان العراق سيغدو حتماً ساحةً من ساحات الحرب وميدان كَرّ وفَرّ للقوى المتصارعة مثلما غدا شمال أفريقيا والبلاد الاوروبية وآسيا والپاسفيك بخسائر في الاموال والأنفس لايمكن تقدير حجمها إلاّ بتقدير ما عانته البلاد الأخرى خلال عمليات الإستعادة والتحرير.

في العام ١٩٥٨ لم يكن هذا الحاكم يملك من العزم والشجاعة ما ملك قبل سبع عشرة سنة وهو موطن العجب. كيف آثر عدم المقاومة والاستسلام لاولئك الذين كانوا جزءً من هزيمة العام ١٩٤١. هؤلاء الضباط الصغار الذين اصبحوا كباراً دأبوا على تذكير طلابهم العسكريين بدروسهم وكتبهم التي الفوها في تمجيد حركة مايس وكيف ان هذا الرجل العميل! (كذا)

أحبط حركة تحررية «رائعة ووّقع بيده حكم الموت بقادتها العسكريين.

كم من رحمةٍ كان عبدالاله يتوقع من هؤلاء عندما أمر قائد حرسه بالتسليم؟ للتاريخ منعطفات حادة غريبة: فكرة واحدة، أمرٌ مقتضب، خاطرة فجائية، قد تحول مسرى التاريخ ووقائعه الى جبهة مضادة غير متوقعة لتعمل في حياة الملايين خفضاً ورفعة وتبدل من مصائر اجيال متعاقبة من البشر.

ماذا سيكون من أمر محاصريه والقوات الزاحفة على بغداد يوم الرابع عشر من تموز. لو اصدر امره بالرد بالنار على المهاجمين الذي فرغ عتادهم؟

سأترك لقارئي تقدير ذلك لأوجه الانتباه الى موقف آخر من مواقف هؤلاء الحكام «الأجانب» وبالضبط الى معالجة مؤسس تلك الأسرة للصراع الدائم المحموم على الحكم بين رجال الطبقة الحاكمة، ذلك الصراع الذي إتخذ أكثر من مرة طابعاً دموياً وكم ارغمه هذا على الحيلة والخداع والجأه احياناً الى الافتئات على احكام الدستور واظهره بمظهر العاهل المستبد المستخفّ بالرّأي العام. وكم اوقعته تصرفات الحكومات الرعناء في ورطات ومآزق. واضطرته كارهاً إلى الدفاع عنها. وانا لا اجد الآن مثلاً أضربه أبلغ من تعامله مع احداث آب ١٩٣٣ الدموية. ففي الباب الرابع من هذا الكتاب سيجد القاريء نصوص برقيات هذا الملك التي بعث بها من اوروبا ينصح بها ذوى الرؤوس الحارة في الحكومة الگيلانية القومية باخلاء سبيل البطريرك واجتناب المواجهة ملحفاً بحرارة بوجوب تحاشي الاصطدام وسفك الدماء بأي ثمنٍ كان. وفي عين هذا الباب في موضع آخر تجده وفي عين الوقت يدافع في تصريح صحفي عن ذلك التصرف امام ضجّة الرأي العام العالمي، واستنكار الصحافة الاوروبيّة. مبرراً وهو على فراش الموت الذي قضى عليه لجوئها الى العنف، كما يُرغم أيّ عاهل يحرص على سمعة حكومته وسمعة بلاده!!

ولا يمكن أن نلقي مسؤولية على الملك غازي الذي كان في حينه وصيّاً ونائباً عن والده. فهذا الشاب غير المجرّب شاءت الاقدار والطبيعة أن لا تورثه دهاء والده وحنكته وابتلي منذ صغرع بعلّة قصور عقليّ لم تكن مجهولة من احدٍ، وقطع به الاطباء وكلّ من عرفه عن قرب، فاستغلها فيه رشيد عالي وغيره ووجدوها هُمْ والعسكريون فرصة لاطلاق العنان لصراعاتهم على الحكم دون كابح.

وكما قدّمنا تخللتْ حكمهُ خمسة انقلابات عسكرية. انتهت بالكارثة العظمى. كارثة حركة مايس الموالية للمحور.

كما شهد العراق خلالها أيضاً ثورات دموية في كردستان العراق وفي جنوبه بعضها كان من تدبير رجال الطبقة الحاكمة المتصارعة. وبعضها بسبب فساد الحكومات. افتقدت حكمة أبيه وقوة شخصيته فراح ضحيتها ارواح البريئة واتلفت أموال.

★★★

وببركة وتشجيع ثوار الرابع عشر من تموز، جرى التمثيل بجثة عبدالاله بعد سحلها وعلقت بعد قطع اطرافها كما حصل بجثة نوري السعيد وتهافت الناس وهي تسحل في الشوارع عليها بسكاكينهم يقطعون افلاذاً منها. ثم اشفق الحاكم العسكري العام على المواطنين بسبب نتانة الجثة فاستخلصها منهم ظنّا بصحتهم![٣] كما جاء في بيانه المذاع!

واذا كان عهد تموز الجمهوري قد احيا بهذا سُنّه كريهة لأسلافهم الخلفاء العباسيين، فان هؤلاء الخلفاء قصروها على عاصمتهم في حين شجع تسامح الثورة فيها وممارستها في عدد من المدن العراقية «دفاعاً عن الثورة واقتصاصاً من المؤمرين بها» ولم تقتصر على الموصل وكركوك والبصرة، أكبر ثلاث مدن عراقية بل تعدّتها.

وأمامي الآن كتاب الكامل لابن الأثير. سأستعرض للقارئ منه مشاهد بربريّة مماثلة شهدها البغداديون أو شاركوا فيها – طوال قرنين من الزمن فحسب، بدءً من بناء المدينة واتخاذها عاصمة للعباسيين:

في ١٦٠هـ = ٧٧٦م: جيء من خراسان بالثائر يوسف ابن ابراهيم المعروف «بالبرم» مع نفر من اصحابه فاركبوا على بعير بالمقلوب وطيف بهم ثم قطعت أيديهم وارجلهم علنا وسحلوا وعلقت جثثهم على الجسر.

في ١٨٦ = ٨٠٢: قطع رأس جعفر ابن يحيى ابن برمك. وقطع بدنه قطعتين ونصب الرأس على جسر ونصب كل قطعة على جسر في آخرين

في ١٩٧ = ٨١٢: سُحلت جثة الأمين وربطوها بحبل. ثم قطع رأسه ونصب على برج «وخرج أهل بغداد للنظر».

في ٢١٠ = ٨٢٤: قتل ابراهيم بن محمد الامام العبّاسيّ ومثل بجثته ثم صلب [في بعض

(٣) ذكر ماجد محمد امين المدعي العام في المحكمة العسكرية العليا الخاصة ج١١ ص٣٧٠ «ان الشعب العراقي ابتكر طريقة حديثة هي السحل في الشوارع. وستهدى جثث هؤلاء الى دمشق العزيزة والى القاهرة». وعنصر الخطأ هو انه لم يكن يدري بان الطريقة ليست حديثة. وان الشعب لم يبتكرها بل أملتها عليه السلطات.

المصادر سُلخ جلده وحشي بالتبن] وعُلّق.

في ٢٢٢ = ٨٣٦: مُثّل بعبدالله ابن اسحاق الخرّمي (شقيق بابك الثائر) وقطعت يداه ورجلاه علناً ثم رأسه وعلقت جثتة «في الجانب الشرقي (اي الرصافة) بين الجسرين.

في ٢٣١ = ٨٤٠: سحلتُ جثة أحمد ابن نصر الخزاعي الذي تزعم في بغداد انتفاضة ضدّ القائلين بخلق القرآن. ثم قطع رأسهُ وثقبت اذنه وشدّ اليها رقعة كتب عليها «هذا رأس المشرك الضال الكافر احمد ابن نصر. وصلبت جثته. وقبض على اصحابه وقتلوا صبراً وسحلت جثثهم في شوارع بغداد.

في ٢٥٣ = ٨٦٦: قتل «وصيف» الحاجب واخذوا رأسه ونبصوه على محراك تنوّر وسحلوا جثته ومثلوا بها.

في ٢٥٤ = ٨٦٧: قتل بُغا «الحاجب» وسحلُ في شوارع بغداد ثم في سامراء ومثلوا بجثته ثم قطع رأسه في بغداد واحرقت جثته للعامة وطيف بها.

في ٢٧٠ = ٨٧٣: حُمل رأس صاحب الزنج الى بغداد وطيف به وعُلّق .

في ٢٧٩ = ٨٩١: جيء برأس رافع ابن هرثمة عامل خراسان الى بغداد وطيف به ونصب في احد ميادين المدينة.

في ٢٨٣ = ٨٩٥: جيء بالثائر هرون بن عبدالله الخارجي الى بغداد فاركبوه الفيل. وقطعوا اوصاله علنا ثم صلبوا جذعه.

في ٣٠٩ = ٩٢٠: قتل الصوفي الشهير الحسين ابن منصور الحلاج في اجتماع علني «جُلد اولاً ثم قطعت يده ثم رجله ثم يده ثم رأسه الذي نصب في ميدان ببغداد. واحرقت جثته وذرّ رمادها في دجلة.

٣١٢ = ٩٢٣: قُتل الوزير ابن الفرات، وولده وسحلتُ جثتاهما في شوارع بغداد وقطع رأساهما ونصب، ثم اغرقت الجثتان.

٣١٧ = ٩٢٣: قتل القائد التركي نازوك وحاجبه «عجيب» أثر فشل محاولته خلع الخليفة «المقتدر بالله» وتولية «القاهر» وسحلت جثتاهما بعد ربطهما بالحبال. «... وصلبوا نازوك وعجيباً بحيث يراهما من على شاطيء دجلة. واخرج رأساهما وشهراً»

٣٢٠ = ٩٣١: قتل الخليفة المقتدر والقيت جثته عاريةً اياماً في ساحة من ساحات بغداد.

«ورُفع رأسه على خشبة وطيف به ثم دفن في قبر غير معروف».

٣٢١ = ٩٣٢: اقدم الخليفة «القاهر» على قتل وزيره مؤنس المظفرّ الملّقب بالخادم وعلى ابنه عَليّ » و«بليق». سحل مؤنس اولاً ثم ذبح «وطيف بالرؤوس في جانبي بغداد ونودي عليهما: هذا جزاء من يخون الامام ويسعى في فساد دولته ثم اعيدتْ الرؤوس وجُعلت في خزانة الرؤوس كما جرت العادة».

٣٢٢ = ٩٣٣: قتل عامل الكوفة «هرون ابن غريب» وهو ابن خال الخليفة «القاهر» في معركة بخانقين. فحمل رأسه ورؤوس جماعة من قوّاده وطيف بها ثم نصبت في بغداد.

٢٢٣ = ٩٣٣: اعدم ابو جعفر ابن محمد ابن علي الشلمغاني المعروف بإبن ابي القرار وتلميذه ابن ابي عون. وكان «قد احدث مذهباً فعالياً في التشيع والتناسخ وحلول الالوهية فيه. ثم صلبا وعُلق رأساهما وسحلت جثتاهما من قبل العامة ثم احرقتا.

٣٢٩ = ٩٤٠: في معركة بالرّي في طبرستان. قُتل «ما كان ابن كالي» احد قوّاد بني بويه ايام المستظهر. فحمل الرأس الى بغداد وطيف به «وعلّق والسهم فيه والخوذة».

٣٢٩ = ٩٤٠: راقب جمهور البغداديين عملية سمل عيني الأمير «عدل اليحكي» والطواف به مشهراً في شوارع المدينة.

٣٣٣ = ٩٤٤: أحَلّ الفقهاء والقضاة دم «ابي الحسن البريدي». فضربت عنقه في دار الخليفة «المستكفي» ثم صلبت جثته وبقي مدة ثم انزل واحرقت داره بعد ان نهبت.

٣٦٦ = ٩٧٦: قطع انف الوزير ابن العميد «وسملت احدى عينيه وشهرّ به ونهب بيته.

٣٦٧ = ٩٧٧: القيَ الوزير «محمد ابن بقيّة» بين قوائم الفيلة فسحق وطيف به ثم صلب على رأس الجسر وبقي مصلوباً مدة سنتين وهو الذي يقول فيه الشاعر ابو الحسين الانباري قصيدته الشهيرة وجثته معلقة ومطلعها:

علوّ في الحياة وفي الممات لحقّ تلك احدى المعجزات

٣٦٧ = ٩٧٧: أسر السلطان عزّ الدولة بختيار حاكم بغداد فقتله عضد الدولة – بعد معركة بالقرب من تكريت. وحملت جثته الى بغداد وشهّر بها ثم قطع رأسه وعلّق.

★★★

في غضون هذه الفترة المبتدئة بالعام ١٩٥٨ عرف كاتب هذه السطور عدداً كبيراً من كتاب تاريخ العراق ومتناولي سير صانعيه، بعضهم قضى نحبه وبعضهم مازال في قيد الحياة ناشطاً منتجاً. عرفهم يشاركونه في السرّ آراءه هذه التي بسطها في الكتاب عموماً وفي هذا الفصل وملحقه خصوصاً، إلاّ ان الشجاعة كانت تخونهم أبداً كما خانت الموتى منهم. وجريرتهم في سكوتهم على محاولة التزوير، تعادل في نظري اولئك الذين عمدوا بضميرٍ ميّت الى التشويه وقلب الحقائق فيه قصداً مع سبق اصرارٍ.

الفصل الثامن والعشرون

تمثيلية ازاحة "عارف" ، المرسم : وزارة الدفاع . عارف متهماً بالتآمر على قتل "قاسم" أمام المهداوي . التكييف القانوني المزيف . الحكم عليه بالموت . قصة عبدالسلام الكاذبة بعد القضاء على قاسم . الحزب الديمقراطي الكردستاني ورئيسه البارزاني يدعم حكم قاسم . حكمه واتجاهاته على الصعيد الدولي مع الشرق والغرب والبلاد الناطقة بالعربية . تدخل (ج .ع .م) في شؤون العراق . تغلّب شعارات الحزب الشيوعي في الشارع والصحافة . مؤامرة (ج .ع .م) وضلوع رشيد عالي . محاكمته والمشاركين والحكم عليه بالموت . التراشق بالتهم والشتائم والفضائح عبر الأثير . مشروع انقلاب عسكري تتبناه (ج .ع .م) بإسناد الضباط القوميين في الموصل وكركوك وبغداد . اتصال المؤتمرين بسورية . الوعد بالمساندة . ساعة الصفر . أنصار السلم واجتماعهم في الموصل . مبالغات كبيرة في عدد الحاضرين . سورية ترسل جهاز بث اذاعي وأسلحة وتهيّء لإرسال قوات مطوعة . اصطدامات مسلحة في معسكر الغزلاني بين الموالين ومناصري الحركة . العقيد الشواف يبخم نفسه برصاصة في المستشفى . جمال عبدالناصر ينفي الهزيمة ويعدّ البيانات بنفسه لتذاع من محطة الغوطة بظاهر دمشق . مذكرات عبداللطيف البغدادي . قرار عبدالناصر بالتدخل المسلم العشائري . العدول عن المحاولة الى الهجوم الاعلامي الشديد . تقرير السفير اللبناني عن الوضع في العراق . خرشجوف يهاجم عبدالناصر

من المتعذر التكهن بمقدار ما كان (عارف) مؤمناً بما تعهد له به (قاسم) من قرب الاذن بعودته. فقد أخذ قوله مأخذ جدٍ وعاد بعد انقضاء الأسابيع الثلاثة بالضبط. وكأي مسافرٍ عادي واستقلّ سيارة أجرة نقلته الى داره.

كان (قاسم) يدري ان وجود عارف سيغدو محور تآمر قوميّ خطير مبعثه تكتُّل حديث جَمَع الضباط القوميين الى الاحزاب والفئات القوميّة الناصريّة في جبهة واهية مقابل جبهة أخرى «للديمقراطية» تضمّ احزاب اليسار والديمقراطيين الوطنيين والحزب الديمقراطي الكردستاني» ويمثلها في الجيش ضباط عقائديون. إلاّ ان الفرق بين التّكتُلين العسكريين هذين

انما هو في ميدان العمل والتأثير السياسي. وقد كان كبيراً. فالضباط القوميون كانوا العنصر المركزي ولهم الزعامة على الكتل القومية في حين كانت العناصر العسكرية الأخرى خاضعةً بشكل ما او بغيره للقيادات الحزبيّة وفي طبيعة العناصر القوميّة التآمر والروح الانقلابية متأصلات في حين قضت سياسات الاحزاب الديمقراطية تأييد الحكم ومساندة (قاسم).

وعلى نحو ما نقلته لنا كتب ومؤلفات وابحاث عديدة لتلك الفترة العاصفة من تاريخ العراق. جرت في غرفة (قاسم) بوزارة الدفاع دراما هازلة كشفت لأول مرّةٍ عن جانب لم يكن معروفاً لدكتاتور المستقبل.

لبىّ (عارف) دعوة معلّمه لكنه جاء مسلحاً بمسدس. والظاهر انه أشهره عندما كانا وحيدين. قال قاسم للذين هرعوا اليهما «انه اراد قتلي» وقال عارف: "كنت اريد أن اقتل نفسي" وكلاهما كان كاذباً.

فلا عارف اراد ان ينتحر ولا هو قصد قتل (قاسم) وقاسم أدرى من غيره بأنها واحدةٌ من تمثيليات عارف الصبيانية. مجرد تظاهرة يائسة لاستجلاب العطف يعمد اليها من وجد نفسه ضحية غبن او غدر في موقف ضعفٍ. إلاّ ان قاسماً استغلّها للتخلص نهائياً من شوكة تخز خاصرته. فجعلها محاولةً عمدية لقتله، تستدعي محاكمة مقترنة بحكم إدانة[1].

(١) لم يُنشر قط اي محضر للتحقيق الابتدائي الذي يحتمه قانون اصول المحاكمات الجَزائية. في كل قضية جرميّة ولم يشر اليه في المحاكمة قط. (ج٥ من المحاكمات). وقد كان من أسهل الأمور لأي محقق أوتي الاقل من الذكاء ان يتبين بأن سحب مسدس واطلاقه من مسافة قريبة لايقتضي اكثر من خمس ثوانٍ. [انظر ج٢ من كتابنا: العراق في عهد قاسم الص٦٣٠-٥٣٦] ووجه الصفاقة والغرابة ان عبدالسلام عارف الذي طلّ ينكر بحرارة وحرقة قلب في المرافعة اي قصد له في قتل (قاسم)، عاد بعد سبع سنوات وهو رئيس جمهورية ليؤكد بأنه جاء وزارة الدفاع وهو ينوي قتل قاسم؛ جرى ذلك خلال حديث أو مذكرات نشرتها له مجلة [روزاليوسف] المصرية في العدد المرقم ١٩٨١ والمؤرخ في ٣٠ من أيار قال «... زارني فؤاد عارف وطاهر يحيى. وفهمتُ ان انّ (قاسم) يرغب في مقابلتي... تركتهم لاأرتدي ملابسي. وداخل غرفتي كانت الفكرة قد اختمرت في ذهني... وضعت مسدسي بمكان امين في سترتي... ووقف (قاسم) يحدثني محاولاً اقناعي بالعدول عن قراري فقلت ان مجرد خروجي من بغداد لا ارتضيه ولا يمكن ان ارضخ لارادة حفنةٍ من الشعوبيين... وعندما يئس من محاولته انهى المقابلة وذهب الى باب الغرفة ليفتحه لي وفي هذه اللحظةً تقدمت يدي نحو المسدس واخرجته من ممكنه بحذر بينما قاسم يحاول فتح الباب ودخل الى مكتب قاسم عدد من الضباط فعدتُ اضع مسدسي في مكانه وكان لابُدّ من حَلّ آخر»
ويقابل هذا، شهادة العميد فؤاد عارف التي ادلى بها في المحكمة قال «حينما انفرد (عارف) بسيادته وكنتُ متشاغلاً في جانب من الغرفة. استغلّ الموما أليه انشغال الزعيم في التفتيش عن اوراق موضوعة تحت ساعةٍ فوق المنضدة فمدّ يده الى مسدسه خلسةً فسارع الزعيم بعد ان رآه صدفةً وامسك بيده وصرخ بوجهه: ماذا تريدان تعمل فاجابه اني لا اريد قتلك بل اريد ان انتحر فردّ عليه الزعيم لماذا لا تنتحر في بيتك؟ وهجمتُ عليه وانتزعت المسدس من يده وافرغتُ مخزنه من الاطلاقات...». كان صديقي =

وهكذا شاءت ارادته.

لم يكن (عارف) يملك ذلك القدر من بعد النظرٍ للتسليم بالهزيمة كما سلّم بمثلها (خالد محي الدين) في مصر. والقياس طبعاً مع الفارق ففي مصر واجه عبدالناصر قوى عسكرية تظاهي قوته وشعبيّة منظّمة كادت تطوّح به فعلاً. في حين كُلّ ما استطاع عارف ان يكسبه خلال الأشهر الثلاثة من السلطة زيادةٌ في كره الضباط له ومنهم خصوم قاسم. كذلك لم يكن بين عارف وقاسم مواجهة ميدانية كما حصل في القاهرة. ولا مايحتمل ان ينتهى الصراع بمثل هذا.

وغدا (قاسم) بعدها الزعيم الأوحد عَملاً.

فأيتام العهد البائد (باستخدامنا المصطلح الشيوعي). او الرجعية المحلية كما اطلقته عليهم جرائد اليسار – وجدوا فيه سداً يحول بينهم وبين «الوحدة» المرعبة. مثلما وجدوا فيه كابحاً

= فواد عارف امدّ الله في عمره زائري اليومي عندما جمعتنا ارض كردستان في ١٩٧٤–١٩٧٥. وقد استذكرته الأحداث المتعلقة بالقضية وهو شاهد العيان الوحيد وطاب لي ان استوضحه بل اناقشه بلغة المحقق العدلي ودقته في الكشف عن الحادث موقعياً. من قياس المسافات وضبط اوقات الحركة (يلاحظ ان المدعي العام كان ضابطاً حقوقياً، يعاونه طاقم قضائي مدني). فلم يقطع بشيء.
كان أدعى مشهد الى الضحك اثناء المحاكمة سماع شهادة اللواء الطبيب محمد الشواف الذي استدعي بوصفه «خبيراً طبّياً!». جيء به لتنفيد ادّعاء عارف فأدلى بهذا الرأي وقال: "ان عملية الانتحار تتمّ دائماً في غرفة موصدة والمنتحر فيها وحيدٌ!"
وختمت هذه المهزلة القضائية بالتطبيق الجزائي العجيب في قرار الادانة. فقد احيل عارف للمحاكمة وفق المادة الـ ٨٠ من قانون العقوبات البغدادي، والمادة ٢١٤ فق ٦ منه وهي تقضي بالاعدام في حالة القتل العمد مع سبق الاصرار. في حين ان المادة ٨٠ تحكم بعقوبة الموت على كلّ من ترأس عصابةً ترمي الى قلب نظام الحكم بالسلاح. فلم يحكم بأيٍّ منهما بل طبقّ بحقه المادة الحادية عشرة من مرسوم الادارة العرفية الصادر في العام ١٩٣٥ ونصها «يحكم بالإعدام كل من ثبت حمله السلاح ضدّ الحكومة أوايّاً من قواتها المسلحة او شرطتها او استخدم السلاح ضده اي موظف عمومي». هذا المرسوم وهنا موطن العجب – بات في حكم الملغى دستورياً بالغاء القانون الاساسي العراقي الذي استند اليه المرسوم فضلاً عن استحالة تطبيق هذه المادة بالذات على ضوء الوقائع.
كانت المحاكمة هزلية. والجدير بالملاحظة هنا ان الحكم صدر قبل اعلان العقيد الشوّاف عن محاولته الانقلابية الفاشلة باربعة ايام فقط وعلقت وسائل الاعلام في [ج. ع. م.]على الحكم بقولها (وقد تسربت اليها وقائع المحكمة) انّ (عارفاً) لم يكن وحده في قفص الإتهام بل كان معه شخصٌ آخر هو جمال عبدالناصر وان الحكم صدر بأدانة الوحدة العربية لا بادانة فرد. وصحب ذلك جملة منتخبة من النوادر والتعليقات الفكهة التي طبع عليها المصريون لاسيما باستخدام الوقائع السياسية مادة للهزل واظهر ما علق بذهن كاتب السطور هذه الفكاهة: قالوا، في غرفة الاعدام التقى عبدالسلام عارف بالمحكوم مثله الدكتور فاضل الجمالى أحد رؤساء الوزارات السابقين فسأله: من الذي جاء بك الى هنا وما السبب؟ اجاب الجمالي جاء بي عبدالكريم قاسم لأني خاصمت جمال عبدالناصر. وانت؟من جاء بك وما السبب؟ أجاب (عارف) جاء بي عبدالكريم قاسم لأني ايّدتُ جمال عبدالناصر.

يحول دون طغيان المدّ الشيوعي. ثمّ ان ملاحقة اليسار التالية المتثلة بالحزب الشيوعي اكسبه الى حدٍّ كبير سكوت ورضا القوميين العروبين ورجال الدين وبين الاثنين كما سيتبين حلفٌ تاكتيكي قلق. وربما عزز هذا فيه ثقة كاذبة بأن العروبيين سيخلصون له الودّ بل سيعتبرونه حامياً لهم فيعدلون عن التآمر ضدّه. ولم يكن يشوب ولاء الحزب الديمقراطي الكردستاني ورئيسه شائبة. فكردستان مازالت ثملةً بعودة المنفيين وأسرهم والسخاء الذي رافق تأهيلهم والعناية بمستقبلهم بعد عيشة ذل وخصاصة وتهجير وملاحقة وتشريد طوال السنوات الاثنين عشرة في الاتحاد السوفياتي. وبرهن الحزب ورئيسه على هذا الولاء وصدق النية بمناسبتين جديرتين بالذكر: تلبية نداء (قاسم) في المشاركة بالقضاء على محاولة الشوّاف الانقلابية بتحشيد قوى الحزب والعشائر الموالية المسلّحة وزحفها على الموصل، وثانيتها قيام ملا مصطفى بقيادة القوات العشائرية وقوات الحزب مساندةً لقطعات الجيش في مطاردة (رشيد لولان) واتباعه: في برادوست وسحق تمردهم المسلّح وارغامهم على عبور الحدود الى ايران[٢].

ويبدو أنّ سياسة (قاسم) ازاء العروبية والوحدة ألفّت قلوب الاغلبيّة الشيعيّة حوله. الى الحَد الذي أسكتَ أوساط المرجعيّات الدينية الى حين عن التصدي نشاط الحزب الشيوعي في منطقتين الفرات الاوسط والأدنى في تجنيد القوى الفلاحية وطبقة المثقفين والمتعلمين في الحواضر، فهو كذلك يعمل جاهداً في خطّ النائي عن الوحدة والحيلولة دون اي ارتباط قوميّ للعراق بـ(ج.ع.م).

وعلى صعيد الموقف الدّولي منه، بدا نظام (قاسم) أدعى الى الاطمئنان مما هو على الصعيد المحلّي وحقق نصراً سياسياً بارعاً في لهيب الحرب الباردة بنأيه بالعراق عن عبدالناصر. فكلا المعسكرين كان يكره ويتطير من قيام الدولة عروبيّة عظمى في الشرق الأوسط. لاسيّما الاتحاد السوفياتي الذي كان يودّ دائماً أن يتعامل مع الدول الناطقة بالعربية كُلاً على انفراد، لا مجتمعاً بزعامة واحدة كزعامة عبدالناصر الذي أكدّت للسوفييت تجاربها السابقة واللاحقة معه بأنه زبون صعب القياد لا يقبل التضحية ولا يرضى بأقل من التعامل على قدم المساواة ولا يهادن الشيوعية كانت مشكلة الكبرى ضباط الجيش.

لم يكن بحاجةٍ الى كثير من الذكاء، وهو بعدُ أحد ابناء انقلاب بكر صديق ليدرك بأن استتّ

(٢) اذكر بهذا الصدد تعليقاً طريفاً لملا مصطفى حول مساهمته شخصياً بقيادة حملة البارزانيين على برادوست قال: ماكان يدور في أوسع خيالي أني وانا على ابواب الستين سأعود لاضع (الگيوه) في رجليّ واخوض قتالاً في جبال كردستان. هذه المرّة الى جانب الجيش العراقي! (الگيوه هو الحذاء اللين المصنوع محلياً ويشيع استعماله عند الكرد الجبليين).

طريقة للوصول الى الحكم سَتُغري كثيراً من الضباط الحاسدين أو الناقمين او العقائديين أو كتلاً مجتمعة منهم بتقليد حركته لازاحته كما ازاح هو النظام الملكي – وبعين السهولة وربما كانت فرصهم في النجاح اكثر من فرصه لأن التآمر هذه المرّة سيكون مدعماً من (ج.ع.م) بقوةٍ وفي وضح النهار. وان عبدالناصر لن يكتفي هذه المرّة بالدعم الأدبي – كما حصل في انقلابه هو. لم يكن له من مندوحة والحالة هذه غير الاعتماد على الشارع. والشارع معناه الحزب الشيوعي العراقي وأنصاره من اليسار ولم ينجح كثيراً في تكوين جبهة عسكرية قاسميّة من الضبّاط بمواجهة الضباط العروبيين المتآمرين تدين له بالولاء اكثر مما تدين لحزبيتها.

ورَحبَّ الحزب الشيوعي بالتعاون اللامحدود وكان يصبواليه لأنه يؤمن له الحركة والنشاط تحت الخيمة الحكوميّة. ولانَّ ذلك كان ينسجم تماماً مع السياسة التي اتخذتها موسكو بدعمه، رغم كّل الملاحقات والاهانات التي الحقها قاسم بالحزب وقيادته في ما بعد. ماكان اشبهم وقتذاك وهم يرفعون اكفهم بالدعاء له وتنبحّ اصواتهم بالهتاف ماكان أشبههم بالمصارعين الرومان في ملاعب روما – بهتافهم التقليدي وهم سائرون الى حتوفهم "عشت ايها الامبراطور ولك التحية من هؤلاء الذين سيموتون وشيكاً"[٣] إلاّ ان ساعة هؤلاء لم تحن آنذاك.

بعد اجهاض المؤامرة رشيد عالي الطفولية والقضاء على محاولة الشواف الانقلابيّة في الموصل. وقد مضى على الانقلاب أو الثورة زهاء نصف العام باتت سياسة قاسم الداخلية واضحة. سياسة الموازنة بين الفئات السياسية المتصارعة مدعمة بتاكتيك الجزرة والعصا، مع الاستئثار التّام بالحكم لاسيما في الأمور الخطيرة حيث يقوم اعضاء مجلس الوزراء مقام هيئة استشارية. ،مجلس السيادة الثلاثي مقام «ختم مطاط» مهمته فحسب التوقيع على القوانين التي يصدرها «الزعيم».

(٣) العبارة نصاً باللاتينية: Aer imperator, morituri te salutant! ومن مقتضى المباراة ان يطلق الواحد منهم على الآخر مسلحاً ليقتل خصمه. لم تكن الحيل التي لجأ اليها قاسم في تدجين اليسار العراقيّ وابقائه في قبضة – تعرف حدوداً. ومما اذكره وقد غاب أمره عن الحزب الشيوعي وفيه طبقة من رجال القانون ممتازة – أنّ قاسماً أصدر في العام ١٩٦٠ تعديلاً لقانون العقوبات (البغدادي) الساري المفعول ألغى به البابين الثاني عشر والثالث عشر منه ويتعلقان بأمن الدولة الداخلي والخارجي. واحَلّ محلها باباً جديداً. تم بهذا الالغاء، القضاء على التعديل السيء الصيت المرقم ٥١ للسنة ١٩٣٨ المعروف بقانون مكافحة الاراء الهدامّة الذي كان يُحكم على الشيوعيين العراقيين بموجبه إلاّ انه أحلّ محله مادة جديدة هي المادة (٣١) وبفضلها، بات كل نشاط سياسي او يعبّر عن رأي سياسي لايقره النظام الجديد في وقت من الاوقات – جناية عادية تبلغ عقوبتها عشر سنوات. وقد صيغت باسلوب سيّال مطاط صالح لكلّ شيء مثلما يصلح الملح لكل الطعام. وقد زجّ بفضلها مئات من الشيوعيين عندما انتفى الفرض منهم واصبحوا مصدر ازعاج. واذكر منهم مثلاً اولئك الذين حكموا بتهمة جمع التواقيع على عرائض الدعوة إلى السلام في كردستان (١٩٦٢).

وفي هذا النظام يكون من العبث مناقشة اعماله على ضوء مباديء العدالة وسيادة القانون، بل وتطبيقه السليم رغم شذوذه او تقويمه على أدنى حَدٍّ من حدود ديمقراطية الحكم. او ان يكون مدعاة فخر لاولئك الذين طرحوا في محفل المزايدات السياسية هتاف:

«عاش الديمقراطي، عبدالكريم قاسم».

في العام ٣٩٩ق.م اي قبل اربعة وعشرين قرناً بالضبط وقف الفيلسوف الاغريقي سقراط متهماً بجريمة اشاعة الإستهانة بمقام آلهة اليونان ليقول دفاعاً عن نفسه:

«إذا كان المدافع الحقيقي عن العدالة يقصد حفظ حياته ولو لفترة وجيزة «لوجب عليه ان يقنع بحياته الخصوصية ويترك السياسة لشأنها».

في حمى الصراع على السلطة. قلّما وجدت العدالة أو الرحمة، مكاناً لهما في النفوس ومن الصعب جداً والحقّ يقال محاولة تصوّر ما كان يجول في رأس (قاسم) او النفوذ الى أعماق ماكان يصطخب في نفسه من مشاعر وهو يعيش لحظاته الأخيرة امام جلاديه في بناية دار الاذاعة بالكرخ – اولئك الذين اطلقوا على انفسهم اسم «محكمة» وليس بينها وبين المحاكم التي انشأها هو كبير فرق بل كان في هذه الاخيرة الوصيّ على احكامها والمرجع النهائي لقراراتها.

واقرب الامثلة. محاكمة رشيد عالي الگيلاني ومعاونيْه.

هذا السياسي العتيق بطل مذابح آب. وزعيم تلك الحركة الهوجاء التي طحنت تحت عجلاتها زهرة من شباب العراق، والآمر باشدّ الاجراءات اللانسانية على ثوار العشائر في الجنوب. العابث بالقانون وهو من صانعيه وفقهائه، هذا الرجل الذي وضعت محاكمه العرفية العسكرية حبل المنشقة في اعناق العدد الكبير منهم – وجدناه يقف امام محكمة مماثلة طالباً تطبيق حرفية القانون بروح العدالة التي ضنّ بها على ضحاياه!

بماذا كان يشعر وهو يساق الى السجن محكوماً بالموت؟[٤]

ايّ شعور كان ينتاب هذا الرجل وهو جالس في غرفة الاعدام ينتظر توقيعاً صغيراً على

(٤) تنقل لنا كتب التاريخ حكاية عن قيصر روسيا الكساندر الثاني (١٨١٨–١٨٨١) وهو ذلك العاهل المطلق السلطة الذي اقترن اسمه بصدور قانون تحرير الفلاح الروسي والغاء القنانة في ١٨٦١. وكذلك بنجاته من ستّ محاولات اغتيال. ففي واحدة من المرّات التي كان يتفقد خلالها السجونَ زار سجن «شپّالارمينايا» حيث يودع الموقوفون. فأمر ان يوضع في غرفة الحبس الانفرادي [المرقمة ٣٣٧] ويغلق عليه بابها وبقي فيها اكثر من ساعة محاولاً ان يستحضر لنفسه الحالة العقلية التي تنتاب الموقوفين فيها.

قرار موته او حياته تضعه يد ضابط من اولئك الضباط الذين صفقوا له وهتفوا واسترخصوا حياتهم في سبيل تحقيق نصر دعوته القومية على الاستعمار البريطاني قبل سبعة عشر عاماً؟

بعد غياب عبدالسلام عارف. راهنت الوحدة العربيّة هذه المرّة على هذا الحصانٍ الهَرِم.

ففي مساء ٨ من كانون الأول ١٩٥٨ اصدر القائد العام للقوات المسلّحة (اي قاسم) بياناً يعلن:

«عن اكتشاف مؤامرة خطيرة كان مقدراً لتنفيذها يوم ٩ من تشرين الأول، تهدف الى تعريض وحدة جمهورتينا للخطر بتدبير عناصر فاسدة مدعمة من جانب خارج العراق.»

وخرجت الصحف «الديمقراطية» في الأيام التالية فضلاً عن الراديو يشجبان المؤامرات الرجعية التي ترعاها الامبريالية، ويحملان على «ايتام العهد المباد» ويُنددان بالشعارات «ذات الطابع القومي المزيف».

ازاء هذه الحملة الكاسحة لازمت الصحافة القومية الصمت[٥] على انها حاولت تغطية موقفها هذا بالمضي في تمجيد الزعيم ناصحة بالتروّي والاعتدال اثناء المسيرة في طريق تحقيق المباديء التي قامت عليها الثورة.

ومع ان الجهات الرسميّة تكاتمت وحبست التفاصيل ولم تذع اسماء المتهمين بها. إلاّ ان الاوساط القوميّة ووكالات الانباء العالمية كانت اكثر اطلاعاً على التفاصيل فنوّهت برشيد عالي متهماً اوّل الى جانب بعض المدنيين وعدد من ضباط الجيش العاملين والمتقاعدين وأيدّت ضلوع (ج.ع.م) في المؤامرة[٦].

كان المقصود بالمحاكمة شخص الگيلاني. فقدم متهما مع اثنين فقط من اصل عددٍ كبير وردت اسماؤهم وثبت نشاطهم في التحقيق الأولي. واذا كان السبب يعود الى ضعف الادلة

(٥) من الصحف ذات الاتجاه القوميّ التي كانت تصدر وقتذاك جريدة (الفجر الجديد) و(بغداد) الى جانب جريدة «الحرية» لصاحبها قاسم حمودي المحامي و«اليقظة لصاحب امتيازها محمد صديق شنشل. ورئيس تحريرها تسلمان الصفواني وثلاثتهم من اقطاب حزب الاستقلال.

(٦) ابرز من ورد له ذكرٌ في التحقيق العقيد طاهر يحيى مدير الشرطة العام وأحد اعضاء الهيئة العليا للضباط الأحرار كذلك رفعت الحاج سِرّى والعقيد عبداللطيف الدّراجي أمر اللواء العشرين والزعيم (العميد) الركن شاكر محمود شكري مَعاون رئيس اركان الجيش والزعيم الركن ناظم الطبقجاي قائد الفرقة الثانية والعقيد الركن عبدالوهاب الشواف آمر اللواء الخامي، والعقيد المتقاعد رجب عبدالمجيد. ومن المدنيين ورد ذكر محمد محمود الصواف مرشد الإخوان المسلمين وفائق السامرائي السفير العراقي في (ج.ع.م).

على العسكريين إلاّ انه يعود لواقع ان معظمهم من القادة وأمراء القطعات والناشطين في الثورة. ولم تكن الظروف بعد مهيأة لفضيحة عسكرية كبيرة لا يبدو فيها مركز (قاسم) في أوساط الجيش بالشكل الذي دأبت دعاية الحكومة على تأكيده. وفي حين كان من السهولة بمكان التخلص منهم باحالتهم الى التقاعد بهدوء ومن غير صخبٍ قضائي بل ولم تكن الظروف موآتية لمؤامرة عسكرية ذات طابع قومي، بالاخصّ، يبدو فيها فريق هام من ضباط الجيش ميّالاً للوحدة. وبقاسم وكأنه يقف من القومية العربيّة موقف عداء.

وايدّت الوقائع والادلة ضلوع (ج.ع.م) فيها

وبغرام قاسم المأثور بالتوفيق بين المفارقات، والجمع بين المناسبات لم يكن محض صدفة ان تبدء محاكمة المتهمين الثلاثة في عين اليوم الذي اعتمده المؤتمرون للتنفيذ وهو العاشر من شهر كانون الأول. ووجه الغرابة أنه كان ثمّ محاكمتان لا محاكمة واحدة في عين الوقت. وقد تمّتا في السّرٍ وكمحاكمة (عبدالسلام) لم تنشر وقائعهما إلاّ بعد القضاء على محاولة الشوّاف الانقلابيّة، ونشوب الحرب الاعلاميّة المخجلة بين العراق و(ج.ع.م).

بالنظر الى وقائع تلكما المحاكمتين المثبة بدقةٍ وأمانة في الجزء الخامس في موسوعة (محكمة الشعب) يبدو واضحاً ان هذه المؤامرة لم تخرج قطّ الى حيزّ التنفيذ، وبخلاف احاديث عن خطط معينة، ومبالغ ثبت ارسالها من (ج.ع.م) للمتآمرين - لم يقم احد من الضالعين بعمل تحضيريّ. ولم يكن اندساس رجال الأمن فيها عاملاً في فشلها. إلاّ ان تسللهم الى قلبها زوّد السلطة بدلائل دامغة ووسائل إثبات لم تترك للدفاع ثغرة واحدة لنفي وجودها ولم يكن هناك مجال لإلصاق اي عيبٍ قضائي في مسراها القانوني لكن كان كلّ العيب في التطبيق القضائي والإدانة والمفارقات العجيبة التي صحبت الأحكام وطبقاً للمحاضر بدت المؤامرة اشبه بحلم من احلام اليقظة. بالغة حداً من السخف والسذاجة لا يصدق. وبجملتها نسخة طبق الاصل من تلك المؤامرات التي كان ينسجها رجال الطبقة الحاكمة القديمة بعضهم ضدّ بعض خلال سنوات ١٩٣٤-١٩٤١ في مجرى تنافسهم ولم يحسب فيها الگيلاني حساباً لعامل الزمن ومتغيرات الظروف. فتلك المؤامرات كانت تعتمد على اثارة زعماء عشائر الجنوب، وبدت هذه تعتمد ايضاً على انتفاضة عشائرية مماثلة ولا اكثر.

وقد شهد العام ١٩٥٨ القضاء على سلطة زعماء العشائر في الجنوب صانعي تلك المؤامرات واختفى عن الانظار قسمٌ وطردُ قسمٌ وطردُ قسمُ، وهرب قسم الخارج، وشهد العام همينة الحزبيّة على الشارع في الحواضر والمدن. وسيطرة النقابات والجمعيات الفلاحيّة المنبثقة

من اعمق اعماق تربة الفرات الأوسط.

وكُلّ هذا وهو أعجب العجاب – كان خفياً عن اولياء الأمر في (ج.ع.م). لم يكن بالامكان قطّ تغطية دورهم في تمويل المؤامرة واسنادها بالسلاح فقد عرضت صكوك وتحاويل مالية صادرة عن دمشق والقاهرة. وثبت صلة المتآمرين بالسفارة في بغداد.

إلاّ ان ضلوع (ج.ع.م) في هذا لم يكن له غير تفسير واحدٍ، حُمّى القومية والوحدة العربيّة الثلاثية بضمّ العراق وكانت في تلك الفترة قد ملكت على نبيها الجديد مذاهبه، فبدا مستعداً للتعاون الفعلي لكلّ من بعده بتحقيق ذلك غير مبال بالعواقب.

اصدرت المحكمة في عين اليوم قراراً بتبرئة الگيلاني لكنها أوصت بنفيه خارج العراق لمدة خمسة اعوام «كي يوضع حدّ للمؤتمرات على جمهوريتنا الخالدة، والحيلولة دون استغلال فكرة القومية استغلالاً سيئاً». وادانت رفيقيه مبدر الگيلاني ابن اخ رشيد عالي وعبدالرحيم الراوي المحامي وحكمت عليهما بالموت.

كان (قاسم) بغية التستر على اسماء الضباط الذين ورد ذكرهم في الاشرطة المسجلة قد حبس عن المحكمة كما يبدو – كثيراً من المستمسكات والدلائل والبينات التي تؤيد اختيار الگيلاني رأساً للمؤامرة فضلاً عن ضلوعه فيها. كما ساءه أن يبعد الى الخارج ليلتف حوله القوميّون والخصوم، فينشط ضد نظامه ويزيد من الصلات سوءً بين الدولتين.

وكان تدبير تهمة أخرى له مماثلة من السهولة بمكانٍ. وفي هذه المرّة جيء بالمحكومين بالموت شاهدين اضافيين عليه. ليخرج رشيد عالي في ١٥ من الشهر عينهُ مصفداً بالحديد الى غرفة الاعدام[٧].

★★★

(٧) راجع [سيرة الگيلاني] في الباب الثالث من هذا الكتاب. وكذلك وقائع المحاكمتين في ج٥ ص٦٠ وما بعدها في «محكمة الشعب». وايضاً الفصل العاشر الص ١٦١–١٧١ من ترجمتنا كتاب اوريل دان الموسوم [العراق في عهد قاسم] ط ستوكهولم ,١٩٨٩ يلاحظ هنا العبث القانوني في الأصول الجزائية وتغلّب ارادة قاسم عليها في المحاكمة الثانية كانت التهمة الموجهة للگيلاني وفق المادة ٢ من الباب ١٢ من قانون العقوبات ونصها مترجماً عن الأصل الانگليزي «يعاقب بالموت كل من اقدم على تحريض دولة اجنبية للقيام باعمال عدوان ضد الدولة العراقية اوحملها على اعلان الحرب على العراق او امدّ تلك الدولة بوسائل لها القيام بذلك بالتآمر مع تلك الدولة او الاتصال بها او بايّ ممثل لها وتفرض العقوبة سواء أتمّ العدوان ام لم يتم]. في حين جرت محاكمة الأولى وفقا للمادة (٨٠) من قانون العقوبات التي تحكم بعقوبة الموت على كلّ من ترأس عصابة... ترمي الى تغيير نظام الحكم بالقوة...» وهي عين المادة التي اسندت لعبد السلام عارف (وهي عين المادة التي كانت ستطبق على قاسم وصحبه لو فشل انقلاب تموز). في هذه =

لم تقبل انتماء الضباط اليساريين والديمقراطيين إلاّ في وقت متأخر[٨] وكانوا عشية يوم ١٤ تموز يتمكون قلة في كلّ المجموعات. وعلى هؤلاء وبعض المقربين الحقيقيين منه كان يضع اعتماده لتحقيق الموازنة.

وبالرغم من انكار عبدالناصر اي رغبة أو نية في ضمّ العراق الى (ج.ع.م)[٩] فانه ترك الاعتقاد سائداً بان هذه الوحدة ستتم بنجاح الثورة. بل نوّه بعضهم بانّ سِرّ اهتمام الرئيس المصري بسورية هو الأمل في الوصول منها الى العراق والكويت والسيطرة على ثروتهما النفطية مثلما كان سبب اهتمامه بعدها باليمن توصلاً الى النفط السعودي[١٠].

في هذه الأونة كان عفلق النبيّ القوميّ الآخر قد وقع في غرام بطل القومية العربيَّة الجديدة وبهره نجمه اللامع وفي اثناء زيارته الأولى بغداد، دأب على تذكير زوّاره في الفندق بأن...

«اولئك الذين يريدون ما هو أقّل من الوحدة الكاملة. او الذين يكتفون باتحاد فدرالي بين العراق و(ج.ع.م)، ماهم الاّ خونة بحقّ القضية العربية."[١١]

في أيام الثورة الأولى شحنت الى العراق كميات كبيرة من مواد الدعاية المصرية منها صور عبدالناصر[١٢] وزعت مجاناً بالآلاف وبدت تطلّ على المارة في بغداد من واجهات المكتبات

= المرّة زوّد قاسم المحكمة بالادلة والبينات التي كان قد حبسها عنها في السابق ومن بينها قائمة طويلة من شهود الاثبات وعلى رأسها الاثنان المحكومات بالموت. فالثابت انه استدعاهما قبيل التنفيذ الى وزارة الدفاع. وساومهما على حياتهما متعهداً باطلاق سراحهما إن كشفا للمحكمة دور الگيلاني وقد برّ بوعده والحق يقال، وكاتب هذه السطور يذكر انه لقي احدهما وهو (عبدالرحيم) زميل الدراسة. في العام ١٩٦١، يجلس لوحده في غرفة المحامين. لا يبادله أحدٌ حديثاً ولا يحاول التقرب منه أحد، كمن به جَرَب.

(٨) روى العميد حسن عبود آمر اللواء الخامس لكاتب هذه السطور – وكان من الضباط اليساريين الماركسيين ان صديقه وصفي طاهر رتبّ في العام ١٩٥٦و١٩٥٧ لقاءً معه خارج بغداد على طريق المحمودية ليبلغه بأن قراراً اتخذته اللجنة العليا لقبول الضباط «الديمقراطيين» في التنظيم السرّي.

(٩) مثلاً خطابه في دمشق (٢٢ اذار ١٩٥٩) اثر فشل محاولة الشواف الانقلابية (انظر مابعده) ومقالات محمد حسنين هيكل في جريدة الاهرام تاريخ ٢ و٣ و٤ من نيسان ١٩٥٩

(١٠) افاضت الصحف السوريّة في هذا الموضوع بعد الانفصال. ويضيق بنا المقام عن الاستشهاد.

(١١) انظر هاني الفكيكي [اوكار الهزيمة ص١٥٥] «مرّتان زرتُ عفلق كان فيهما عائداً لتوه من لقاءٍ بعبدالناصر. وفي المرتين بدا متفائلاً وشعرت وهو يتحدث الينا بعمق – بالاعجاب الذي يكنه للرئيس المصري. الأمر الذي اثار في نفي تساؤلات حول القائد الحزبي الذي يطرح الافكار الكبرى حول الامة والرسالة والانقلاب والبعث ويبقى اسيراً لفكرة البطل الفرد. مع هذا لم اجرء على مساءلته في هذا (كان الفكيكي عضو القيادة القطرية للبعث في انقلاب شباط ١٩٦٣].

(١٢) امين النفوري. من تصريح ادلى به الى وكالة انباء الشرق العربي. ونقلته عنها جريدة «النصر» الدمشقية في عددها المؤرخ ٢٠ اب ١٩٦٢

ودكاكين الوراقين فضلاً عن المحبيّن والمشايعين من اصحاب المحلات التجارية وعلى الارصفة بين عشرات من صور الشخصيات الثورية.

الى جانب انكار عبدالناصر الشديد ممارسته ضغوطاً على العراق[١٣] للاندماج الوحدوي. هناك دلائل يصعب دحضها على الجهود المضنية التي بذلت في هذه السبيل.

وبصرف النظر عن الباعث الشخصّي. كان قاسم مطمئناً مؤمناً بحقّ أنّ الاغلبيّة الساحقة من شعب العراق لاتريد وحدةً ايا كان شكلها ولاتؤمن بها. الشيعة سيصبحون اقليّة والكرد سيصبحون أقلية لاتذكر، والأقليتان المسيحية والتركمانية ستضيعان في زخم الضجة العروبية او للصهر والاذابة وإن لم يكن فللاضطهاد العنصري والديني.

وقد عبّر (قاسم) عن ذلك في مؤتمره الصحفي المنشور في جريدة الزمان بعد اثني عشر يوماً من دخوله وزارة الدفاع ظافراً واجاب عن سؤال بهذا الخصوص

«ان العلاقات بين العراق و(ج.ع.م) ستبنى على اساس المصالح المشتركة ومنفعة الشعبين. وأحبّ ان اوكد اكثر من هذا ان هذا الوطن هو شراكة بين العرب والاكراد».

وسأله صحافي مصري: الا يتمنى ان يتحد العرب تحت راية واحدة ورئيس واحد؟ فاجاب: اذا تحررت الشعوب العربيّة كلّ في منطقتها فمعناه اتحاد عام. والاتحاد لايُقرّه شخصٌ واحدٌ وانما تقرره الشعوب العربيّة...»

وقال لروبرت مورفي مبعوث الرئيس الامريكي ايزنهاور. وكان وكيلاً لوزارة الخارجية لشؤون الشرق الاوسط في اثناء مقابلة له بتاريخ الأول من آب: انه لم يجازف بالقيام بالثورة

(١٣) تحدث اللواء «البزّي» عن حمولة طائرتين [النصر في ١ تموز ١٩٦٢] وذكر امين النفوري حمولة شاحنتين [النصر عدد ٣٠ آب ١٩٦٢] وكتب هيكل في جريدة الأهرام (١٧ تشرين الثاني ١٩٦١) منكراً اي رغبة لعبدالناصر في ضم العراق الى (ج.ع.م). وعزا اليه هذا التصريح:
«الشعب العربي يجب ان يبلغ درجة كافية من الادراك لكيفية استخدام حربية في تقرير مصيره بعد عهود طويلة من القمع قبل ممارسة تلك الحرية». وعلينا أن نأخذ اقوال هذا الرجل بتحفيظ شديد فهو ذو خيال واسع، كثيراً ما يخترع قصصاً لا حقيقة لها عندما تخونه الحقائق اثباتاً لوجهة نظر له. وعلى سبيل المثال رفض خياله أن يقرّ بأن (قاسماً) هو الذي اطلق سراح (عارف) بعد الحكك عليه، وعن الفضل بذلك الى القوميين. اذ جاء في كتابه: : الوثائق القاهرية. الذي الفه الانكليزية في ١٩٧٢ بعنوان :Nasser The Cairo Documents مايلي نصاً :
«... بالاخير اعتقل قاسم عارفاً وبقي اشهراً عدة في السجن ولم ينجه من الموت الاّ قيام رجاله باقتحام السجن وانقاذه!».

بقصد تسليم العراق الى الاتحاد السوفياتي. وانه وزملاؤه لم يجازفوا بحياتهم ليجعلوا العراق خاضعاً لمصر قال مورفي: «تكلم قاسم بلهجة قاطعة هادئة ولم اشك في انه كان مصمماً تصميماً قاطعاً على صيانة استقلال العراق... مؤكداً على الطابع المحلّي للثورة وانها قامت لاسباب وطنية لا ايديولوجية[١٤].

لم يكن (قاسم) كما صوره القوميون العروبيون لعبدالناصر يضمر اي عداء للفكرة القوميّة وللعروبة. لكنه ابى ان يجعل العراق بؤرة او مرتعاً للمبشرين بالوحدة الشاملة. ولم يكن بحاجة الى كثير من الذكاء وبعد النظر (حتى باغفالنا حبه لذاته وحرصه على التفرد بالزعامة) ليدرك انّ اي نوع من الالتصاق اكثر مما حصل في ١٩ تموز بدمشق غير ممكن.

وزاد من جهل عبدالناصر واعوانه ومستشاريه بطبيعة التكوين الاثنوغرافي للعراق الحديث الذي لم يمضِ على وضعه في خارطة العالم اربعون عاماً – تلك التقارير الحماسيّة التي كان يكتبها له دبلوماسيوه ورجال مخابراته في بغداد ومصدرها الفئات القوميّة المحليّة، واطلاعه على ما ينشر في الصحف العالمية من امثال ما كتبه ذلك الصحافي الألماني عن التظاهرة العسكرية الصفَويّة بمناسبة استقبال طائرة (ج.ع.م) في مطار بغداد وقد مَرّ ذكرها. ولعلّه كان يتوقع بدل وفد التاسع عشر من تموز وفداً كذلك الذي جاء من سورية ليطرح البلاد وشعبها تحت قدميه.

في الواقع كانت الفئات القوميّة شبه معزولة ميدانياً، لاتستطيع ان تمتلك اي زاوية مستقلّة لها من الشارع العراقي. ولم تجد بالأخير سبيلاً للاعلان عن نفسها لاسيما بعد فشل المحاولة القومية الثالثة المسلحة. إلا باعمال عنفٍ فرديّة موضعية قابلتها اعمال عنفٍ مماثلة، دأبت وسائل الاعلام في (ج.ع.م) على تضخيمهما والمبالغة فيهما لتبدو صراعاً واسع النطاق متكافئاً. مالبث ان بدءَ القوميون البارزون يتسللون هاربين ولم تتردد سلطات (ج.ع.م) في تقديم شتىّ الخدمات لهم وفسحت لهم المجال للانضمام الى طاقم الدعاية هناك ولم تكن هذه الأمور تجري من وراء ظهر الزعيم المصري، الذي طالما وصف ببرود دم وصبرٍ وتأنٍ والمقدرة الفذة على كظم الغيظ.

وإن كان ما عزي الى الزعيم القومي من امثال هذه الصفات صحيحاً فليس بوسع أحدٍ ان ينكر عليه لحظات فشل كان يفقد فيها صبره وتفارقه برودة دمه ويعجز تماماً عن التحكم على

(١٤) المذكرات. Robert Murphy: Diplomat Among Warriors: London 1964 دبلوماسي بين محاربين. [ترجم الاستاذ نجدت فتحي صفوت ثبت المقابلة في الص ٢٦٧–٢١٧ من كتابه (العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب)].

لسانه. وأقربُها الى الذهن وألصقُها بما نحن فيه فشل محاولة العقيد الشوّاف الانقلابيّة في الموصل. وقد تميزت عن غيرها بحرب أهليّة صغيرة موضعيّة وقسوة متناهية في عِقاب القائمين بها.

سأحيد قليلاً عن السياق لأضع حَدّاً لتساؤل بعض القراء حول تقويمي الاجمالي لثورة او انقلاب الرابع عشر من تموز. على ضوء التطلعات الى مستقبل ديمقراطي أصيل للمجتمع العراقي. فعلى ضوئه يمكن ان ترى محاولة الشواف ودور عبدالناصر فيها بمنظارٍ لا يشوبه ضباب اوقذى.

سبق أن اعربت عن الحذر والتشاؤم الذي أستولى علّي وانا أصغي إلى بيانات الثورة الأولى، الأمر الذي لم يمنعني بعد ساعات من العزم على اصدار صحيفتي موشحةً بأنبْائها وداعياً الى مساندتها[١٥] رغم تحفظاتي. فقد وجدت فيها رغم كل شيء حدثاً عنيفاً اعترض مسيرة سياسية – اجتماعية تتعثر في خطاها نحو الديمقراطية. إلاّ انها لاتقف متبعةً سنّة التطور المتدرج المظاهر الحياة السياسية في دولة حديثة التكوين ولشعب لم يذق طعم الحريّة. وينعم بحكامٍ وطنيين نابعين من تربته فمنذ ان قوض صرح الامبراطورية الآشورية في العام ٦١٣ق.م. وهي أبداً تحكمها يد أجنبية.

وبصرف النظر عن نبل مقاصد العسكريين الذين احدثوا التغيير، وبافتراض تجردهم من انانية التسلط والاستئثار بالحكم كما ثبت ذلك فيما بعد. فهؤلاء هم اول «أسرة حاكمة» وطنية نبطت من تربة الوطن. بعد ستة وعشرين قرناً من سيادة اسرٍ حاكمة أجنبية.

وخلافاً لهذا، وجدنا تلك الطبقة الحاكمة المزاحة ومعظمها من ضباط الجيش العثماني وموظفي الامبراطورية البائدة باحتكارها الحكم لما زاد عن ربع قرن. لم تفلح بكل انانيتها ووسائل فسادها – في القضاء على المعارضة الشعبية وكتم الاصوات المطالبة بالحريات الديمقراطية رغم ضعف هذه الاصوات. كما لم تجرء على الاستغناء تماماً عن الشكلية والهيكلية الديمقراطية التي أرسي عليها القانون الأساسي العراقي رغم تطاولها عليه والاستهانة به. وكثيراً ما ارغمتها الانفجارات الجماهيرية على تقديم التنازلات[١٦].

ومن المبدء لم يكن ضباط تموز يملكون القدرة على تقهم طبيعة المسيرة نحو الديمقراطية. على

(١٥) تبيّن فيما بعد انها الجريدة الوحيدة التي صدرت في العراق تحمل تاريخ الرابع عشر من تموز.

(١٦) أقرب الامثلة الغاء قانون الانتخابات العامة على درجتين، وجعلها على درجة واحدة في ١٩٥٢ وابعدها قليلاً اجازة الاحزاب السياسية بالنشاط العلني في ١٩٤٧. (رغم التلاعب والتزوير في اولها. وإلغاء الاجازات بسرعة في ثانيها أو ارغامها على التقوقع أو التوقف عن النشاط العلني.

أنهم كانوا مطمئنين بان انقلابهم سيحظى فوراً بحماية الشعب العراقي قاطبةً. ولذلك اتصلوا بزعماء الاحزاب (باستثناء الحزب الديمقراطي الكردستاني) بل اعلموهم بساعة الانقضاض ورحب هؤلاء القادة إذ سبق لم واقرّوا بعجزهم عن احداث اي تغيير واودعوا ثقتهم بالقوة المجرّدة اي الجيش القادر على التغيير غير متعظين بتجارب الماضي. فما لبثوا قليلاً حتى اضطروا الى مراجعة حساباتهم. بهرتم الإصلاحات القشرية التي أقدم عليها النظام وقد جئنا الى ذكر اهمها فسكتوا.

ان ما دعي «بفترة الانتقال» لم يكن قطّ ليصلح بديلاً عن السير حالاً على طريق الديمقراطية. فالنظام الديمقراطي أيّاً كان مبعثه يجب أن يبدو بتجربة مبادئه ومحاولة تطبيقها رأساً.

إلا ان ضباط تموز اهتموا بحصر السلطة في ايديهم، ثم انشغلوا في الاحتراب عليها. يسهل على المرء الذي شارك بدورٍ رئيسٍ في حركة سياسية انقلابية، مثلما يسهل على اي كاتب او مؤرخ او مراقب مناصر لها مهما بلغ من استعداد ذهني – دراسة عوامل نجاحها وكم كان احتمال فشلها – عند نجاحها. بقدر ما يسهل عليهم جميعاً ان يدرسوا عوامل فشلها واحتمالات نجاحها إن هي اجهضت او آلت الى الفشل.

وفي حالة النجاح تميل النفس البشرية الى التقليل كثيراً من احتمالات الفشل وتختفي النقائص والنقائض والعيوب ويغطى الجانب السّيء بقناع الظفر والنجاح بل وتعتبر احتمالات الفشل نفسها من عوامل النجاح.

وفي مجال الحكم على الثورة التموزيّة العسكرية، والنظام الذي انبثق منها رأيتني افتقد من يتحدى هذا المنطق بواقع ما جرى بعدها وبسببها. لم اجد طوال اربعين عاماً مرَت عليها من حاول التصدي الصريح الجريء للآثار السلبيّة التي خلفتها على المسيرة الديمقراطية، ولا في الندوب التاريخية التي حفرتها على ادَمة الاحداث السياسية التالية. ولا عن العلاقة السببية بينها وبين انظمة الحكم التالية التي عقبتها ولا فضلها الكبير في تخريج طائفة عجيبة من الحكّام العابثين المستبدين التيّاهين بقدراتهم الخارقة، الخارقين في أنانيتهم العمياء، المبددين ثروات الوطن وارواح ابنائه في العاب الحروب الخاسرة والمشاريع الخائبة.

واولئك الذين دافعوا بحزم وصدق عن المثل الديمقراطية أيام العهد الملكي ولا أقصد طبعاً تلك الفئات التي عارضت النظام باسم المثل والمباديء الديمقراطية، وهي غير مؤمنة بالشكل الأصيل لها. ألم تكفيهم نظرة واحدة الى البيضة «بعد ازالة كسرةٍ من قشرها ليتضح لهم

فسادها ؟

كان جورج كليمانصو[١٧] في مفتح القرن الحالي يصدر جريدة «الإنسان الحرّ L´ homme Libre» وحمل له البريد يوماً مقالة بعشر صفحات فلم ينشرها فراح كاتبها يمطره برسائل ملحّة حتى افقده صبره فكتب له «مقالتك لا تصلح للنشر». إلاّ ان الكاتب العظيم الحيلة كما يبدو كتب له يقول: «انت تكذب. لم تقرأ المقالة اصلاً. ولو قرأتها لتبين لك اني اغفلتُ إرسال صحيفة كاملة منها عمداً». ردَ عليه كليمانصو بهذا: «سيدي: عندما اتناول فطوري لا أحتاج الى اكل البيضة كلها لأتأكد من فسادها».

الدلائل في العراق كلها كانت تشير منذ البداية الى دكتاتورية عسكريّة.

وكان على الديمقراطيين ان يمرّوا بمآزق الإختيار بين الدكتاتورية المحلية وبين الدكتاتورية القادمة من القاهرة باسم العروبة والوحدة. ولم يكن هناك مجال تردد عندما اقدم عبدالناصر على محاولة يائسة أخيرة «لاعادة العراق الى الصفّ العربي» بدفع وتشجيع ومساندة الانتفاضة العسكرية التي تفجرت في الموصل، بزعامة الشواف.

★★★

ووضع عبدالناصر أمله في هذه المحاولة وبسخاء مفرط. ومن ردود الفعل العنيفة والتصرف الأهوج الذي صدر منه في اعقاب فشلها سيقدر القاريء مقدار الخيبة والمرارة اللتين استوليتا عليه.

كانت المؤامرةَ واسعة النطاق. شملت كلّ الضباط القوميين والناقمين. كل خصوم قاسم ونظامه ومن يدعمه واستهدفت تقويض صرح البناء الجديد والقضاء على من يقف في سبيل الوحدة الفوريّة.

في العام ١٩٥٧ اصدر الحزب الشيوعي العراقي بياناً لم يعارض فيه فكرة الوحدة العربيّة إلاّ انه استدرك فربط تحقيق الوحدة الشاملة بشرط زوال النفوذ الاميريالي من العالم العربي والقيام بتغييرات جذرية تستهدف النهج الديمقراطي.

وهذا هو عين الخط الذي انتجه الحزب الشيوعي السوري في بيان له بتاريخ ٧ ايار ١٩٥٦.

على هذا الأساس تمّ قبول الحزب الشيوعي العراقي في جبهة الاتحاد الوطني ليحرز موقعاً

(١٧) Gearge Clemenceau (1814 - 1929) (سبق التنويه به) رئيس الحكومة الفرنسية. كان قطب مؤتمر ڤرساي الذي انعقد في ١٩١٩ لتقسيم الاسلاب واعادة النظر في خريطة اوروبا والعالم.

من المعارضة العراقية أخيراً.

وبهذا الشكل ظهر بعد الرابع عشر من تموز. وبالمقابل:

حتى العام ١٩٥٤ والى اواخر العام ١٩٥٧ ظلّ حزب البعث العربي الاشتراكي والقوميون الآخرون كحزب الاستقلال يدعون الى فكرة الاتحاد الفدرالي ويقاومون فكرة الوحدة الشاملة. في الوقت الذي كان الشيوعيون السوريون لايعارضون في اي نوع من انواع الوحدة حتى الشاملة منها (كما تبيّن فيما بعد) شريطة ضمان الحريات الديمقراطية. على ان القوميين سورييهم وعراقييهم وعلى رأسهم البعث راحوا في اواخر العام ١٩٥٨ يطالبون ضباط ١٤ تموز بالوحدة الفورية الكاملة الشاملة حين اسرع الشيوعيون العراقيون فانقلبوا على رأيهم الأول ليتبنوا فكرة البعث الأولى وهي الاتحاد الفدرالي. البعث الذي وجدناه في اوائل العام ١٩٥٩ يهتف بلجاجة بشعار الوحدة الفورية الشاملة وفي الإقليم الشمالي (سورية) من (ج.ع.م) شنت على الشيوعيين حملة اعلاميّة ضارية، تزامنت مع خطاب عبدالناصر في ٢٣ من كانون الأول ضَدّ الاحزاب الشيوعية في الشرق الاوسط، الذي اتم بعنفٍ غير مسبوق. فبادر الحزب الشيوعي العراقي الى اصدار بيانين جاء في احدهما:

«... ان الاحزاب البرجسيّة اليمنية التي تتستّر وراء شعار الوحدة القومية تحاول ارغام العراق على الاندماج بالجمهورية العربية المتحدة وتعمل بشكل محموم على تبنيّ نظام الحزب الواحد كما هو الحال في مصر ونحن بطبيعة الحال نشعر بقلقٍ عظيم على مستقبل حقوقنا الديمقراطية لعلمنا بالاً وجود لحرية الاحزاب والمنظمات الشعبيّة في (ج.ع.م) ولا لوجود حرية القول أيضاً... إن مهمة الحكم الديقراطي هنا هي تثبيت المكاسب الثورية وتوطيد اسس النظام الثوري.»

وبطبيعة الحال آثر الحزب الشيوعي أن ينسى بان نظام الحزب الواحد مطبق في سائر بلدان المعسكر الاشتراكي.

في ٢٤ من اذار ١٩٥٩ بعد اسبوعين عن قمع محاولة الشواف الانقلابية قال قاسم في مؤتمره الصُحفي انه كان على علم سابق بالمؤامرة وان وقوعها كان لا مفرّ منه وانه تركها «لتنضج وليدرك كل مواطن مركزه ويقدر الأمور حق قدرها».

مما لاشك فيه إن قاسماً كان يريد ان يخلّف انطباعاً بنباهة فيه وسعة حيلة وخصائص أخرى يحاولها الحكام المتفردون زرعها عادةً في عقول الجمهور ليبدوا كأنهم يملكون قوى خارقة وبعد نظر وهو ما يُطلق عليه الكتاب تعبير «خارزما Charisma» على ان قاسماً كان على علم

بوجود مؤامرة عسكريّة واسعة ولا يجهل اسماء بارزة فيها[١٨].

ومع سعة الدائرة التي انداح اليها التآمر، فقد في كُلّ مركز من مراكز قواها يعمل لوحده دون تنسيق. واستغلّ الجميع اندفاعات عاطفية وخيبة مرة خلقت حقداً على النظام ورأسه – في نفس العقيد الركن عبدالوهاب الشواف آمر اللواء الخامس في الموصل.

وهذا بدوره كان قد وقع تحت تأثير تكتل قومي من صفار ضباط اللواء يقوم على رأسه مقدّم اللواء (محمود عزيز سيف) وهو برتبة رائد ركن. كان كما تبيّن فيما بعد محور الحركة التنفيذي، فنسب ان يكون انطلاق الحركة من لوائه هذا على ان تكون متزامنة مع تحرك آخر في بغداد وكركوك وغيرهامن المناطق التي يسيطر على قطعات الجيش فيها ضباط قوميون مشاركون.

ليس هناك دليل على القوة الهائلة التي كانت اذ ذاك تدفع عبدالناصر لضم العراق الى الوحدة القائمة اعظم من ذلك الخليط العجيب المتنافر الذي ساهم عملياً في هذه المحاولة. ضباط قوميون لايطيقون رشيد عالي وقوميه، بعثيون لا يطيقون عبدالناصر. ممثلون كبار

(١٨) يذكر العميد خليل ابراهيم [المرجع السالف، ج٢ الص ٨٦–٨٧ و٤٤–٤٥] ان السفير البريطاني قام بنفسه بتحذير قاسم من قيام الجيش بحركة انقلابية ضدّه في مقابلة مفاجئة بقوله ان الخبراء في سفارته فكوا جفرة برقية بعثت بها سفارة (ج.ع.م) من بغداد الى دمشق. وان ما احتوته البرقية يؤكد معلومات بلغت سفارة بلد اسلامي عضو في حلف بغداد.
إلاّ ان السفير البريطاني سرهمفري تريفيليان. ينفي ذلك في كتابه «الشرق الاوسط في ثورة» بنصّ هذه الترجمة: «سمعنا عن تذمرّ علني من كبار ضباط الجيش مصدره الموصل وعن انقلاب وشيك. بل حتى سمعنا عن تاريخ قيامه. ومما لاشك فيه ان (قاسماً) كان على علمٍ به ولكن ليس منّاً بالتاكيد. فقد ابعدنا انفسنا تماماً عن التدخل في شؤون العراق الداخلية». [ماكميلان: The Middll East in Revolution 1970 الص ١٤٧–١٤٨]. إني اميل الى الأخذ برواية خليل ابراهيم. فبالشكل الذي اكدّ تريفيليان عدم تدخل بلاده بدا وكأنه ينفي امراً واقعاً اذ لم يكن هناك ايّ حاجة لاقحام المسألة في كتابه بالاصل. لاسيما وان الأمر يتعلق بـ(ج.ع.م) من جهة ثانية لم يكن قاسم بحاجة الى كثير من الذكاء ليدرك بان الحركة المنتواة لابُدّ تستقطب حول مدير استخباراته رفعت. واستناداً الى المصدر الأول (ص٤٤) ان قاسماً، استدعى رفعت في ٤ من اذار وصارحه بما انبأه السفير مقترحاً له منصب ملحق عسكري في واشنطن ثم كلّف رئيس الاركان بعرض المنصب عليه ثانيةً فرفض. ويستوقفني تعامل قاسم من ابي التنظيمات السرية هذا ورأسها المدبّر، بعد ثلاثة ايام مرت على فشل الحركة فقد عاد يعرض عليه المنصب نفسه اثناء جولة ليليّة معه في انحاء بغداد دامت كما يذكر المؤلف – خمس ساعات لاشك في ان قاسماً الذي وضع اذذاك يده على خيوط التآمر وعرف دور رفعت المركزي فيه، بدا يفضل تجربة تحطيم هذا الرجل المستقيم عقائدياً – تحطيماً أدبيّاً ليبدو أمام رفاقه الذين وضعوا فيه ثقتهم مفضلاً حياة الذلّ والعار على الموت بشرف. ومن هذا ومن موقف قاسم نفسه في ساعاته الأخيرة بدا عبدالكريم قاسم هنا قليل المعرفة بصناديد الرجال.

للعهد الملكي من رجال الاقطاع، أسرٌ معروفة من الطبقة الحاكمة، ممثلون بارزون لحركة الاخوان المسلمين وكل هؤلاء الأخيرين هم خصوم بعضهم لبعض ولعبدالناصر، ومعارضون لكل وحدة. مع كلّ هذا خطبت بتأييد كل الضباط القوميين وذجه المفارقة هنا ان الضابط الذي اعلن العصيان باسمه لم يكن قومياً عروبيّاً بل كان محسوباً على المعسكر الدّيمقراطي رغم كل الضجة الاعلامية التي آثارتها (ج.ع.م) حول قوميته وعروبته[١٩] فيما بعد. والعامل المشترك الذي كان يجمع هؤلاء الخطر الأحمر، وقوع البلاد في قبضة الشيوعيين وشيكاً.

ليس في الامكان ابداً التقليل من مجهود الحزب الشيوعي في تأمين هذه الورقة الرّابحة لخصوم النظّام ووضعها في يدهم بسلوكه.

وجد الشواف نفسه مغبوناً في صفقة التغيير السياسي الذي جاء به يوم ١٤ تموز. وكان فريسة سهلة للرائد محمود عزيز الذي وجد نفسه رأساً لعدد من خلايا صغار الضباط في لوائه، اضافةً الى عدد آخر من امثالهم. كانوا من مرتبات اللواء العشرين الذي وجهه (عارف) الى بغداد، وانيط بهم قيادة الوحدات التي طوّقت قصر الرحاب والاذاعة والمؤسسات الحكومية الأخرى. عمد قاسم الى تشتيت شملهم وابعادهم عن العاصمة مركز التآمر.

والخلاصة وضباط الجيش الكبار يعرف بعضهم بعضاً – كان في حلقة التآمر كلّ من اعتبر

(١٩) اصيب الشيوعيون (لاسيما الموصليون) والوطنيون الديمقراطيون بصدمة وذهول عندما سمعوا بيان اعلان الانقلاب موقعاً باسمه ولم يكتم الجادرجي استغرابه. فقد اعتاد شيوعيو الموصل الالتفاف حوله وكان دائم الاجتماع بهم يناظرهم ويقترح عليهم ما يصلح لهم وقد ركنوا اليه. كانت نية قاسم صباح ١٤ تموز تتجه الى تعيينه حاكماً عسكرياً عاماً. الاّ ان عارفاً الذي كان شديد المقت له عارض في هذا وهدد وتوعد. فارتؤي ان تسند اليه آمرية اللواء الخامس عشر في البصرة كَحلّ وسط. إلاّ ان ذلك لم يكن يشفي غليل (عارف) فبادر خفية ومسح رقم (١) من (١٥) ليجد الشواف نفسه آمراً للواء (٥) بدلاً من اللواء (١٥). وعلم الشواف بتزوير عارف فيما بعد. في الواقع كان الشواف في ايار ١٩٥٨ قد خطط باللواء الخامس عشر الذي يقوده آنذاك. للقيام بواحدة من المحاولات الانقلابية العديدة التي سبقت تموز. روى للكاتب وهو معه ضمن اسرى الشواف في الثكنة الحجرية (وكان الشخص الذي اعتمدته اللجنة المحلية للحزب الشيوعي ليكون ضابط اتصال مع الشواف وكان دائم الزيارة له في النادي العسكري) انه وجده منشرح الخاطر وفي أصفى حالاته النفسية إثر اقالة (عارف) وتعيينه سفيراً. وابتدره بالقول ان ساعاته في الموصل باتت معدودة وانه سيودعهم كما سيودّع بّزته العسكريّة. فقد كان يتوقع ان يخلف (عارفاً) في وزارة الداخلية إلاّ ان (قاسماً) تخطاه الى ضابط مسلكي. فقذف به الى احضان المؤتمرين.
أنحدر الشواف من اسرة دينية عريقة بغدادية تولى بعض افرادها مناصب دينية في ولاية بغداد ايام العثمانيين ووالده كان الى حين رئيساً لحكمة التمييز الشرعية في العهد الملكي. واخوه (محمد) وهو طبيب برتبة لواء كان من مقربي قاسم وقد بادر الى اسناد منصب وزارة الصحة اليه في ١٠ من شباط اي قبل ٢٠ يوماً من اعلان الانقلاب وبمعرفة اسلوب قاسم في معالجة المشاكل والامزجة لايستبعد ان يكون هذا اليقين علاقة بمعرفته بما يدبره اخوه في الموصل.

نفسه صنواً لقاسم او متفوقاً عليه عقلياً ومسلكيّان. وان الحظ والحيلة فحسب هما صاحباً الفضل فيما ناله هذا الضابط من مجدٍ. ولم يكن امتعاض وخيبة الطبقچلي بأقل من حنق الشوافّ وخيبته. وكانا غيرهما من ضباط الفرقة الثانية سريعي الاستجابة الى الوعود المقطوعة بالمساعدة العسكرية من جانب (ج.ع.م). وخلال زيارات عِدّة لبعض الموفدين الى سورية ومن بغداد كان الاتصال عن طريق العقيد عبدالمجيد فريد الملحق العسكري في السفارة. في حين كانت صلات الموفدين الى سورية بالعقيد عبدالحميد السّراج رئيس المخابرات في الاقليم الشمالي. وكان محمود عزيز سخيّاً في كشفه له التنظيمات القومية السرية بين الضباط بالاسماء ووعده السراج بان (ج.ع.م) ستزودهم بالسلاح والميليشا وبجهاز اذاعة. كما وعَدَ احمد العجيل الياور بخمسمائة مسلح من (شمر).

وبالشكل الذي بدت به صفحات الانقلاب، ماكان له ايّ خطّ من النجاح. عنصر المفاجأة كان مفقوداً. فقدان ضباط الجيش خلال الاشهر السبعة المنصرمة كثيراً من سيطرتهم على ضباط الصف والجنود، ومبادرة قاسم الى رفع رواتب هؤلاء بما فيهم الجنود المطوّعة والمجندة بمقدار ثلاثمائة او اربعمائة[٢٠]. في حين لم يطرأ زيادة على رواتب الضباط باكثر من نسبة ١٣-٦٧ بالمائة. كما حقق الحزبان الشيوعيّ والپارتي نجاحاً كبيراً في كسب اعداد كبيرة من الجنود وضباط الصفّ الى جانبهما وهو ما لم يحققه القوميون في أي وقت من الأوقات[٢١].

كما ادرك المؤتمرون ان ايّ حركة انتقاض على الحكم لن يكتب لها حظ من النجاح ان لم يكن مركزها بغداد. لذلك قرّ القرار على ان تكون حركة الموصل متزامنة مع حركة بغداد التي قضت باقتناص (قاسم) في وزارة الدفاع والقضاء عليه ثم اذاعة النبأ لتشجيع الآخرين[٢٢].

(١٩) ذكر لي السيد عبدالغني الملاح معتمد الحزب الوطني الديمقراطي في الموصل. أنهم (اي وقد الجبهة الوطنيّة. لقوا صعوبة كبيرة في إقناع الطبقچلي آمر اللواء الخامس آنذاك بالالتحاق بالمنصب الجديد اي قيادة الفرقة الثانية في كركوك ولم يذكر لي أسباب عزوفه وتردده. ولايصعب كثيراً تخمين السبب في برودِ الطبقچلي وتردده وهو يصغي الى بيان يقضي بنصب من كان قبل مدّة واحداً من ضباط اللواء الذيً يقوده الادنى مرتبةً منه نائباً للقائد العام للقوات المسلحة ونائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية.

(٢١) يراجع بشأن التفاصيل العراق في عهد قاسم ج١ الص١٨٩-١٩٠

(٢٢) «كان الجميع يحسّون في صباح ٩ آذار ان الفاجعة الدامية قد نفذت. كنا نحسّ في تلك اللحظات بثقل حركتنا وصعوبته ولكننا عزمنا رغم ذلك ان ننتزع اقدامنا من الأرض انتزاعاً وفعلاً خرجنا عصر ذلك اليوم بمظاهرة من جانب الكرخ في محاولة أخيرة لدعم الثورة لكن من المؤسف ان الثورة لفظت انفاسها الأخيرة... وبات من المؤكد انذاك ان القوى المنتظر تحركها في بغداد وفي وزارة الدفاع بالذات هي الأخرى كانت اقدامها مشدودة الى الأرض... كانت قد فقدت القدرة على التحرك في اللحظة الحاسمة... [فؤاد =

وقد اجلتْ ساعة الصفر مرات عديدة. كان آخرها ذلك التأجيل الذي تجاهله الشواف مؤثراً استباق الاحداث وارغام الأخرين على الإقدام غير مصغٍ للمحاذير التي اطلقتها بغداد وكركوك. ولما وقعت الواقعة راح كثير من المؤتمرين يتخذ اجراءات لابعاد انفسهم عنها بشتّى العلل. وبكل احتمالات تدخل (ج.ع.م) عسكرياً. ونشوب حرب اهليه واسعة النطاق غير مضمونة النتيجة.

وما من شك في ان يكون لاختيار الحزب الشيوعي مدينة الموصل محلّاً لاجتماع انصار السلم الجماهيري علاقة وثيقة بالتقارير المتواترة التي انبأته عن حركة انقلاب قومية وشيكة، ولا غرابة في ان يبادر (قاسم) الى مباركة هذا القرار وابدائه كلّ الاستعداد والتسهيل لعقده، فقد وجد فيه مخرجاً لحيرته في اتخاذ قرار قطعي بكيفية معالجته الأمر. ربما كان يأمل جَرّاه ان يستعجل الانقلابيون في التنفيذ خشية ان يفسد هذا الاجتماع خططهم. أو ان يكون سبباً في تثبيط الهمم والعدول نهائياً عما انتووه.

كان الاجتماع الذي نظمه الحزب الشيوعي مجرّد استعراض قوة وترهيب.

إلاّ ان القوميين والمتآمرين اتخذوه علّة لقيامهم بالانقلاب.

وكما تبين فيما بعد ان الجهات الثلاث كانت تبالغ كثيراً في اهمية هذا الاجتماع وخطورته واليك القصّة معرّاة خالية من التهويل كما صورها الكتاّب المتأخرون وكما ارادوا أن تثبت في سجل تاريخ العراق الحديث:

اعلنت اتحاد الشعب لسان الحزب الشيوعي بتاريخ ٢٣ من شباط عن يوم ٦ من اذار موعداً لانعقاد المهرجان ويوافق نهار جمعة، ليتاح لاكبر عدد المشاركة فيه. وبهذا الاعلان بدأت عملية «جر الحبل» فالشوّاف ينذر بغداد وقاسم بالذات بالشرّ المستطير من احتكاك قد يؤدي الى اراقة دماء. ووفدٌ من المدنيين الرؤساء الضالعين في المؤامرة يقصد كركوك لتحذير الطبقچلي من مغبة عقد الاجتماع والعمل على الحيلولة دونه بايّ شكل وهذا القائد يقوم بدوره بالاستنجاد برئيس اركان الجيش مناشداً الغاءه. وزاد تخوف المتآمرين منه اعتقاداً بما

= الركابي: الحَلّ الاوحد. ط القاهرة ١٩٦٣- ص٢٤».
نقول: مصادر قاسم الكثيرة حول تكتل انقلابيّ واسع النطاق تدعمه ج. ع. م، لم تفتح عليه فيما يظهر - خطّة إجهاض له واضحة. وعلينا ان نتصور حيرته في معالجة الكارثة الوشيكة وتردده بين الحيلولة دون انفجارها وبين «تركها تنضج» كما اَدّعى فيما بعد. وربما ادرك عدم جدوى المحاولة عندما فشل في ابعاد رأس الحركة. ليستسلم أخيراً للمقدور معتمداً على المساندة الجماهيرية ويقظة أنصاره وولائهم؟
على انه ما كان يتصور ان القضاء عليها سيتم بمثل هذه السهولة وبالأقل من الخسائر.

سيخلفه من زخم كبير واحباط في نفوس المتحمسين بما في ذلك افساد خططهم. يقابل ذلك إصرار قاسم ومحاولات الحزب الشيوعي المستميتة دفع اكبر عدد من الأتباع والانصار في «رحلة شتاءٍ» الى الموصل.

واعلنت مديرية السكك الحديد العامة عن اسعار نقل مخفضة جداً ووضع مقطورات خاصة (او قطارات؟) لنقل القادمين لكن تبين أن أكثرية الغيورين الملتزمين آثر ان يستمتع بعطلة الجمعة بدلاً من قضاء ليلتين في قطار بطيء لاتزيد سرعته عن ٦٠ كيلومتراً في الساعة ليقطع ٤١١ كيلومتراً بالضبط بين بغداد والموصل وبسبب ساعتين او ثلاثة من اجتماع تلقى فيه خطبٌ روتينية مملة.

ثم وبسبب قلة الاقبال – تبين ان القطارات الخاصة المعدّة لنقل الألوف – كانت عملاً قطاراً واحداً يجرّ وارءه ثماني عشرة عربة لايمكن أن تستوعب ما يزيد عن الفٍ. وربما كان بانتظار هذا العدد ضعفه من الموصليين إما ممن دفعت به لجنة الحزب المحلية والمنظمات الديمقراطية أو ممن حدا به الفضول وحبّ الاستطلاع أو مجرد قضاء الوقت[٢٣]. وكان هناك مسألة الطعام ومصاريف أخرى. وما من شَك في أن كثيراً من انصار واعضاء الحزب وموالي النظام يحرص على حبيبه ووقت عطلته اكثر من حرصه على الاستجابة الى نداء الحزب. والجميع كان يعلم أن لا ضيافة تنظرهم هناك.

وكان من مصلحة الطرفين أن يُبالغا في التقدير. الجانب القومي المهيء للانقلاب اراد التاكيد به على خطورة وقوع البلاد بيد الشيوعيين. والطرف الحكومي والجماهيري الموالي وعلى رأسه الحزب الشيوعي كان قصده من المبدء أن يستعرض به قواه وربما أدخل في حسابه احتمال وأد الحركة الانقلابيّة بهذه التظاهرة.

وتبارت وسائل الإعلام في تصعيد الأرقام. حتى وجدناها في ما لدينا من اسانيد ومراجع معتبرة تزيد عن عدد نفوس مدينة الموصل نفسها[٢٤] احيانا.

(٢٣) الملعب (الستاديوم) الذي جرى فيه الإجتماع هو من ملاعب الدرجة الثانية بمواصفات لعبة كرة القدم ليس فيه غير منصة واحدة تتسع لمئات، وقد خصصت للخطباء. كان كاتب هذا السطور قد اختلط بين القادمين المنتشرين في الساحة ليتأكد العدد بنفسه كما يستطيع ان يؤكد بأنّ تلك المجموعة التي وصفتها جرائد اليسار في حينة بعشرات الالوف لا تشغل اكثر من ثلث الملعب وقوفاً. وهو عملاً لايستوعب اكثرمن عشرة آلاف على فرض امتلاء ساحته. لذلك لايمكن تقدير الحاضرين بما يزيد عن الثلاثة آلاف على اغلب الاحتمال.

(٢٤) مثلاً: حنا بطاطو [المرجع السالف ص٨٨٠] يثبت الحضور بربع مليون! [مرآة الشرق الاوسط –جريدة الاهرام– اذاعات القاهرة ودمشق]

ودبّ الخلاف بين الضالعين في الاتفاق على توقيتٍ للشروع (ساعة الصفر) وتغلّب طيش وتهور الشواف ونزق محمود عزيز[٢٥].

انقضى يوم انصار السلم بسلام ولم يقع حادث. واقل القطار الصاعد الى بغداد مساءً كُلّ من حضره. إلاّ نفر قليلٌ.

في اليوم التالي دبّر القوميّون هجوماً على مقهى يختلف اليه (الديمقراطيون) عادةً فاحرقوه واتخذت من هذا حجَّة لتطبيق ما دعي بخطّة امن الموصل. وتقضي بانزال قطعات الجيش الى المدينة واحتلال مفارق الطرق واعلان منع التجوال.

وفي الليلة التي سبقت اذاعة بيان الانقلاب[٢٦] انيط بالضباط الصغار الرتبة الضالعين مهمة اعتقال الموالين للنظام وللتغطية اعتقل عددٌ مماثل من القوميين المشاركين الذين لم يلبثوا أن سُرِّحوا فجر اليوم بعد تزويدهم بالأوامر والتعليمات[٢٧].

(٢٥) يظن كاتب هذه السطور – وقد توصل الى هذا بعد استقراء وبحث مضن – ان كلاً من رفعت الحاج سري (بغداد) وناظم الطبقچلي (كركوك)قد توصّلا اولهما بحكم منصبه وبمحاولات قاسم ابعاده، وثانيهما لادراكه بأنه محاط بضباط «ديمقراطيين» في مقرّ الفرقة يحصون عليه حركاته، الى انهما لايستطيعان مساندة اية حركة في الموصل بحسب التوقيت الذي قرره الشواف. فتمارض ثانيهما وادخل نفسه المستشفى قبل قيام الحركة بثلاثة ايام. وبدا كلّ من وضع نفسه تحت تصرف الانقلابيين يراقب احدهما الآخر ويخشى ان يكون الباديء. وصار الجميع ينتظر ما سيسفر عنه اعتصاب اللواء الخامس في الموصل وما سيحققه من نجاح.
ولم يكن هناك حبّ مفقود بين الطبقجلي والشواف الذي لم يقبل بأقل من القيادة العليا رافضا في (بيانه) المذاع التسليم برئاسة الطبقجلي [راجع: محمود الدرة ثورة الموصل – ط بغداد ١٩٨٧. ص١٢٩].

(٢٦) كتب البيان محمود الدرة. الذي اقحم نفسه مدّعياً انه رسول رفعت الحاج سرّي. [رجع في كتابه فادعى انه رسول رئيس مجلس السيادة (الربيعي). انظر: ثورة الموصل المرجع السالف].

(٢٧) ظفر هؤلاء ببعض اعضاء اللجنة المحلية للحزب الشيوعي وافلتت البقية وشمل الاعتقال انصار الحزب وبعض كوادره وعدداً من المستقلين المعروفين (باللاقومية) وقلة من اعضاء الحزب الوطني الديمقراطي. اضيف اليهم اعضاء من الحزب الديمقراطي الكردستاني تمّ تسفيرهم من عقره. وتراوح العدد بين اربعين وخمسين مدنياً او دعوا غرفتين في الطابق الأرضي. مع بضعة عشر ضباط صفّ. واعتقل اربعة عشر ضابطاً قاسمياً ويسارياً وبارتياً وشيوعياً (بينهم مسيحيّان مسلكيان) واضيف الى هؤلاء الإستاذ الراحل (كامل قزانجي) في يوم ٩. وأودع الطابق العلوي معهم. أختار محمود عزيز هذه الشخصية الوطنية وهو مسيحيّ كلدانيّ من دون الآخرين ضحيّةً قبيل هروبه. أخذه الى دورة المياه وأمر عريف انضباط كان برفقته يدعى مال الله فصرعه هذا برصاصات من رشاشته. لم يكن كامل قزانجي شيوعياً في اي وقت كما وصفته وسائل الاعلام في (ج.ع.م). ولا من انصار السّلم. بل هو عضو بارز في الحزب الوطني الديمقراطي كان قد ترأس جناحاً تقدميّاً فيه ففصل. سبق اجتماع انصار السلم بالقدوم الى الموصل لزيارة شقيقة له بعد اسقاط الجنسية عنه في ١٩٥٤ ونفيه الى تركيا. لقد فقد كاتب هذه السطور صديقاً عزيزاً ومُعلّماً وزميلاً عَزّ مثيله.

ما حصل يوم ٨ و٩ من اذار كان اشبه بفلم سينمائي عنيف متسارع المشاهد، يصعب جداً وصفه ببضع صحائف دعك بسطور قلائل[٢٨]. وما يفي بالغرض هنا القول:

انقسمت وحدات اللواء على نفسها وتمردت اغلبيتها على زمرة الشوّاف ورفضت المشاركة وشقّت عصا الطاعة بقيادة ضباط صفٍّ وجنودٍ منظّمين سياسيّاً ضباطهم معتقلون.

في صبيحة اليوم الثامن بدأت تظهر تجمّعات معادية في شوارع المدينة حشدّها الحزب الشيوعي. في حين اهاب الحزب الشيوعي والپارتي باعضائهما وانصارهما من القبائل الكردية. فاندفعت الى الموصل بكل وسائل النقل الميسورة وعسكرت بسلاحها على الضفة اليسرى من دجلة.

وبدأ الاصطدام في معسكر الغزلاني. ولم يفلح المؤتمرون في صدّ هجمة كتيبة الهندسة. بتجريد الفوج الثالث. فقد انفلتت وتركت المعسكر متجهةً الى الثكنة الحجرية. وكان آمرها (المقدم عبد الله الشاوي) قد سبقهما بمفرده اليها محاولاً اخلاء سبيل ضباطه المعتقلين. فاراده قتيلاً الملازم الأول (خيرالله عسكر) احد الضباط الموكل اليهم حراسة المعتقلين[٢٩].

ثم جرت مكالمات تلفونية بين بغداد والموصل باشرها (قاسم) بنفسه والعبدي رئيس الأركان والعميد طه الشيخ أحمد بالمناوبة. ومع بعض الضباط القوميين الثائرين وبينهم محمود عزيز نفسه أهين فيها [الزعيم الأوحد] وأُسمع قارص القول[٣٠]. وبقي صدى الأذاعة المحلية التي جلبت الى الموصل من سورية غير مسموع من البغداديين وظلّ سائر العراق يجهل ما يحصل. حتى تولّت اذاعة دمشق تلاوة بيان الشواف بالثورة[٣١] بعد اعلانها بسبع ساعات. وفي ذات

(٢٨) يعكف كاتب هذه السطور على جمع الوثائق والاسانيد والمعلومات لتأليف كتاب خاص عن هذه المحاولة الفاشلة. وقد كان واحداً من مشاهديها وضحاياها في آن واحد. وهو لايجد في ما كتب حولها او ألّف فيها ما ينقع الفلّة ويفيها حقها. وجلّ ما كتب كان ينقصه الحياد. أو يعكس الجانب القوميّ منها ووجهة نظر القوميين العروبيين فقط.

(٢٩) كان القاتل بين الضباط الهاربين الى سورية. ووجد في الثمانينات وهو برتبة فريق ركن في الجيش العراقي. قيل انه كان يمت بصلة قرابة مع قتيله.

(٣٠) سجّلت تلك المكالمات في حينه واودعت ارشيف الاستخبارات. ونقل العميد خليل ابراهيم (موسوعة ١٤ تموز–ج ٤ الص ١٨٦ وما بعدها) نماذج طريفة منها. واغربها هو المكالمة التي جرت بين محمود عزيز وعبدالكريم. وفيها طلب هذا منه ان يعتقل الشواف. وفي مكالمة أخرى بين محمود عزيز والعميد طه الشيخ أحمد قال الأول «نحن قمنا بثورة ضد اعمال الشيوعيين، قمنا بثورة حتى نحفظ عروبتنا وبيتنا وقوميتنا...».

(٣١) تكررت اذاعة البيان، مراراً حتى بعد القضاء على جيوب المقاومة بمدةٍ. وكان يتخللها نداءات تشجيع وحثٍ وبيانات كاذبة حول نجاحها وبرقيات تأييد.

الوقت انطلقت اربع طائرات بقيادة الرائد الطيار [خالد جرجيس سارة]. فاصابت بأحد صواريخها غرفة الشواف اصابة مباشرة احدثت فيها فجوة قطرها حوالي قدمين فاصيب هو ومحمود عزيز بجراح سطحية فأنطلق اولهما الى مستشفى اللواء والظاهر انه أطلق الرصاص على صدغه مفضلاً الانتحار على الوقوع بايدي الجنود الذين احاطوا بغرفة التضميد يهتفون ويتوعدون. والقياس هنا مع الفارق:

في تأريخ الحرب العظمى الثانية إنّ ستة من ألمع القادة العسكريين الكبار في الجيش الألماني أنهوا حياتهم بأيديهم بعد فشل مؤامرة القضاء على هتلر في ٢٠ من تموز ١٩٤٤. اولهم الفيلدمارشال رومل وثانيهم الفيلد مارشال فون كلوغه القائد العام بجبهة الغرب. ثم الكولونيل جنرال بيك رئيس أركان الجيش الألماني السابق. والجنرال هننگ فون ترسكوف قائد الجيش الحادي عشر في الشرق وهو روح العملية ومدبّرها فقد زحف الى الأرض الحرام وسحب مسمار أمان قنبلة يدوية نسفت رأسه. وخامسهم الجنرال ادوارد ڤاكنر قائد العينة والتسليح وآخرهم الجنرال فون شتولبناگل الحاكم العسكري العام لفرنسا المحتلة.

وعلينا الاقرار والحالة هذه أن العقيد الشواف كان أشجع كل من سبقه من ضباط الجيش الثوريين أو القوميين الذين لم يؤثروا الموت بأيديهم وفضّلوا الوقوع بيد اعدائهم. وهذا هو الموت المشرِّف مهما اختلفت الدواعي اليه[٣٢] أو اهداف المنتحرين فيما انتوه.

واذاع راديو بغداد نبأ مقتله وهو مايزال حيّاً.

في حين توجّه الرائد محمود عزيز الى الثكنة الحجرية بُغية القضاء على ارواح المعتقلين المدنيين والعسكريين.

كانت الموصل لم يكن هناك سلطة. اندفعت تظاهرة مدنيّة ضخمة أولاً فطوقت مديرية الشرطة وقد عُلم أن فيها ضباطاً قوميين. وتمّ اقتحامها دون اطلاق نار بصدفةٍ غريبة[٣٣].

(٣٢) ايد شاهد عيان واحد على الاقل مصرعه. «قال المقدم فيصل صادق الخوجة مساعد وحدة الميدان الطبيّة: جاء الشواف جريحاً ومعه النقيب عبدالمنعم حميد ودخل غرفة الآمر وبعد علاجه اجتمع جنود الهندسة الشيوعيون ومعهم جنود آخرون يهتفون ضد الشواف وبحياة (قاسم) خرج الشواف على الجنود مهدداً بمسدسه واطلق بعض العيارات النازية عليهم وبعدها اطلق النار على نفسه»العميد خليل ابراهيم المصدر السابق ج٤ الص ٢٠٢–٣٠٢. مع هذا حكم المجلس العرفي العسكري في الموصل بعد انقلاب رمضان على نائب عريف يدعى جميل بالاعدام ونفذ فيه – بتهمة تحريض الشواف على قتل نفسه!!

(٣٣) اتفق ان (د.ك) المهندس الموصلي ومن طائفة السريان الارثدكس – ان خرج من داره وهو ببزة ضابط احتياط. فوجدت الجموع التي تطوق بناية الشرطة واسرع احدهم يناوله مسدساً عتيقاً ودفعت به الجموع الى الامام وبإقدامه تم اقتحام المديرية. واستسلم له الضباط المحاصرون. مازال هذا الرجل =

وحاولت كوادر من الحزب الشيوعي السيطرة على الموقف. ودخلت العشائر الكردية المدينة من الضفة اليسرى. ثم انضم الى الحشود جنود وضباط الصّف الموالون باسلحتهم. وانتشر بين هؤلاء كثيرٌ من الرعاع ذوو الثأرات. وتحصّن بعض المتآمرين. وصارت تسمع اصداء العيارات النارية في انحاء كثيرة من المدينة. وكانت صرخة واحدة تصدر مرفقةً بكلمة «متآمر» تكفي للقضاء على مقبوض عليه ولم يتردد بعض ضباط الصف في قتل ضابط معين عرفوه مشاركاً. وترجم بيان قاسم الذي اهدر دم المتآمرين وأمر «بالقضاء» عليهم ترجمة حرفيّة احياناً ومطاطّة احياناً أخرى تبعاً للمزاج وفورة الدم. ووجه الغرابة ان العدد كان قليلاً جداً.

كان عبدالناصر في دمشق يتابع وقائع الانقلاب. كما انتقل عبدالحميد السّراج وزير الداخلية (اذ ذاك) الى حلب ليكون قريباً جداً مما يحصل.

كان [عبداللطيف بغدادي] نائب رئيس الجمهورية العربيّة المتحدة برفقة عبدالناصر خلال هذه الفترة. وقد خصص لها في الجزء الثاني من مذكراته فصلاً كاملاً بعنوان «ثورة الموصل ودور (ج.ع.م) فيها[٣٤]. قال:

«وحلّ شهر مارس ١٩٥٩ وكان جمال في ذلك الوقت في سورية في زيارة لها مع ضيفه المرشال تيتو. وكنتُ متواجداً بها أيضاً ولم يكن جمال قد عاد الى القاهرة بعد سفر ضيفه... عندما علمنا بتحرك بعض وحدات من الجيش العراقي في مدينة الموصل ضدّ قاسم والشيوعيين وقد اطلق على هذا التحرك في ذلك الوقت: ثورة الموصل او الشوّاف نسبةً الى اسم قائد قوات الموصل الذي كان وراء هذا التحرك.

وكانت المعلومات عن هذا التحرك وكذلك تطور الاحداث تصل الينا من دمشق وكنت قد عملت على تدوينها في يومياتي كعادتي. وارى حفاظاً مني على التاريخ ان اوردها هنا كما جاءت بتلك اليوميات:

... في يوم الاثنين ٢ مارس ١٩٥٩ حضر الينا ملحقنا العسكري في العراق الضابط عبدالمجيد فريد وقام بابلاغ جمال ان هناك تحركاً في الجيش العراقي بهدف القيام بانقلاب عسكري ضد قاسم للقضاء عليه وعلى نظامه وانه موفد من

= حيّا لكنه يفضل كتم اسمه وقد اجبناه.

(٣٤) «شهادتي للتاريخ» ط القاهرة – دون تاريخ الص ٧٧ وما بعدها. الفصل يستغرق ٢٤ صحيفة من المذكرات.

قبل قائد هذا التحرك لمعرفة موقف (ج.ع.م) من طلبهم في المساعدة لتحقيق هذا الهدف واشار الى ان هذا القائد هو الضابط رفعت الحاج سِرّي. وكان السّراج قد سبق وابلغ جمال كذلك اثناء تواجدنا في حلب... ان الزعيم حازم (ناظم) الطبقشلي. طلب هو الآخر مساعدته للقيام بثورة ضد قاسم وانه بحاجة الى مدّه بقوات عسكرية من (ج.ع.م) بالاضافة الى بعض الاسلحة ومحطة ارسال متنقلة. وقد وافق جمال على مدّهم بما يحتاجون لكنه ابدى تعذّر امدادهم بقوات عسكرية... ولكن لم يتضح لنا من هذه الاتصالات مدى العلاقة بين الطبقشلي وقواته ورفعت وقواته ببغداد... ولوحظ ان طلب كلّ منهما في المساعدة يختلف عن طلب الآخر. وكان عبدالمجيد فريد قد ذكر في حديثه انهم لاينوون الدخول في وحدة مع (ج.ع.م) واعتقدنا انه يقصد ان ليس في نيتهّم التقدم بطلب قيامها فور نجاح الانقلاب المزعوم.»

ثم يستتلي ليقول:

«في صباح الأحد ٨ مارس علمتُ من جمال ان الثورة قامت في منتصف ليلة السبت وان محطة الارسال المتنقلة قد ارسلتْ اليهم وكذا بعض الاسلحة الخفيفة وأجابني بالايجاب عندما استفسرت منه عما اذا كان هناك توقيت للتحرك متفق عليه بين قوات الموصل وقوات بغداد فذكر من المفروض ان تكون قوات بغداد قد تحركت ايضاً...

... وتبين لنا ان محطة الإرسال التي أرسلت للثائرين كانت ضعيفة الارسال وان اذاعتها غير مسموعة إلاّ لمسافات قصيرة... لذلك رؤيَ استخدام محطة ارسال اخرى سريّة لتذيع باسم ثوار الموصل. وقد وضِعت هذه المحطة في منطقة الغوطة القريبة من دمشق واخذت تبث على أنها هي نفسها محطّة ارسال الموصل.

... وارسل جمال بيان الشواف كاملاً. الى وكالة انباء الشرق الاوسط في بيروت والقاهرة لتعمل على نشره في صحف اليوم التالي. كما اضطِرتْ اذاعة كلّ من القاهرة ودمشق للقيام باذاعة جزء اكبر من البيان وقد حدده لهما جمال نفسه.

وكان جمال في حالة ضيقٍ شديد لتدهور الموقف السريع في الموصل واعتبر ما يجري هناك معركةً شخصية بينه وبين (قاسم). وقد وصلتنا برقية من (فريد) في

بغداد ، ذكر فيها ان الشيوعيين العراقيين يتظاهرون في شوارع المدينة ويهتفون ضدّ (ج.ع.م) وبسقوط جمال وقدّرا عددهم بالآلاف وانهم يتزايدون باستمرار. ولم يُشر الى وجود اي نشاط عسكري ضدّ قاسم من الذين كانوا يدّعون انهم مستعدون للقيام بثورة وقد قصد بذلك رفعت الحاج سِرّي.

وقامت اذاعة بغداد بالاعلان عن مقتل الشوّاف وتساءل جمال بعد وصول تلك المعلومات عمّا يمكن اذاعته.

... ورأى انه ربما يساعد في تحقيق رفع الروح المعنوية بعد تدهور الحالة في الموصل ان نعمل على تكذيب ما يذاع من محطة بغداد وان نواصل اذاعة ان ثوار الموصل مازالوا مسيطرين على الموقف وان الشواف حيّ ولم يقتل كما ادعت اذاعة بغداد.

وقام جمال بإعداد ما يذاع. واذيع بعد ذلك بيان وكأنه عن لسان الشواف من المحطة السرّية بالغوطة.

... وفي المساء لاحظنا ان اذاعة بغداد بدأت تذيع برنامجها العادّي ومن دون ان تعلن فيه عن ايّ برقيات تأييد لقاسم من مرسليها كما دأبت من قبل. كما اعلنت ايضاً عن سير القطارات بين بغداد والموصل، وفهم من ذلك انهم يحاولون إبراز أنّ ما حصل في الموصل قد انتهى وانّ الأمور عادت الى حالتها الطبيعيّة كما فوجئنا من اذاعة بغداد بان محكمة الشعب ستعقد لمحاكمة (خليل كنّه) وزير المعارف الاسبق... واستنتج ان الغرض من ذلك هو محاولة استغلال انعقادها ذلك اليوم في ابراز فوزهم واعلان انتصارهم للشعب العراقي... كانت جلسة المحاكمة مذاعة مباشرةً على الهواء وسمعنا فيها من البذاءة ما لا حَدَّ له... وقد وجهت هذه البذاءة والاهانات الى (ج.ع.م) ورئيسها جمال... وجاء عن لسان المهداوي اثناء تهجمّه ان محطة ثوار الموصل السريّة تقع داخل الأراضي السورية واذاعت لندن واسرائيل ذلك أيضاً مساءَ عين اليوم. ولم يكن جمال قد استمع معنا ما دار في المحكمة وتساءل عَمّا دار بها ولم نشأ ابلاغه بالحقيقة لكنه اصرّ على معرفتها. ،قدّم اليه محمود الجيّار احد سكرتيرية مذكرة فيها فحوى مادار في المحكمة. وظهر عليه الألم الشديد بعد قراءتها ولم يشأ ان نراه على هذه الصورة فاستاذن ودخل غرفته وظلّ فيها فترة ثم عاد الينا بعد أن سكنت نفسهُ وهدأ غضبه... كان متألماً لمقتل

الشواف... وكنا في حنق أيضاً على الذين اتفق معهم ولكنهم تخلّوا عنه كرفعت وناظم الطبقشلي. »

ويصف (البغدادي) بعد ذلك إصرار جمال على تشييع شعبي للمقدم محمد سعيد شهاب الذي وصل سورية جريحاً ونفط آخر أنفاسه فيها:

«حاولنا اقناع جمال بالعدول عن هذا خشية ان يصبح ذلك دليلاً على ارتباط (ج.ع.م) بما جرى وان يلصق بها الفشل الذي حدث هناك والضحايا التي ذهبت ارواحهم اثناء القتال وتجنباً كذلك للوّم الذي سيقع من الشعب العراقي على (ج.ع.م). وعلى عاتق جمال شخصياً لتلك الخسائر. الاّ ان جمال تمسّك باقتراحه وعبّر عن اقتناعه به بمعنى جميل له وجاهته وهو ان كلّ عربيّ يستشهد في سبيل القومية العربيّة موطنه البلاد العربيّة جمعاء.

وقال جمال في نفس الليلة (١٠ اذار) باتخاذ العدّة لإعداد ما يلزم وكتب بنفسه عدة أخبار لتنشر في الصحف وكانت كلها تهدف الى اثارة الشعب العراقي ضدّ قاسم وذلك عن تجسيم الخسائر التي حصلت في الموصل. ومحاولة إثارة العطف أيضاً على الثوار بالتنديد بالاجراءات التي اتخذها (قاسم) هناك، وادّعى انه قام باعدام ستين ضابطاً كما اعدم ايضاً كل شخص مدنيّ شك في انه تعاون مع الثوار. وأن ذلك تمّ دون محاكمة. لكننا تخوفنا من المبالغة في هذا الأمر، فربما يأتي بنتيجة غير ما نرجو ونتمنّى، وتجعل الشعب العراقي يحمِّل جمال مسؤولية هذه الضحايا وما حدث هناك او أن يَعرف الحقيقة وهي غير ماذكرنا ويعلم اننا نغالي فيما ننشر من أخبار فيفقد ثقته فيما نعلنهُ. لكن جمال ظلّ مقتنعاً بما يفعله.

وكان واضحاً غضب جمال وضيفه من كلّ من نجيب الربيعي رئيس مجلس السيادة في العراق ورفعت الحاج سِرّي لأنهما لم ينفّذا ما كانا قد وعدا به. »

ويضيف [البغدادي] مفصلاً وقائع المحاولة الانقلابيّة بدقّة وتسلسل كاشفاً نيّات الضباط المؤثرين في مصائر أعدائهم الايديولوجين وكيفية محاولة عبدالناصر انقاذ الموقف باستعداء عشائر شمّر وبعض القبائل الأخرى المجاورة استناداً إلى اقوال الضباط الفارين[٣٥] الذين

(٣٥) مثل ما جاء في (ص٩٢): «وعندما رأى الثوار ان موقفهم اصبح ضعيفاً وحرجاً وانهم وحيدون في المعركة وليس هناك من يساندهم أو يشدّ ازرهم – لذا قرروا القيام بقتل الزعماء الشيوعيين في =

قابلهم شخصيّاً بكل حقائقها وزيفها وتشويه معالم فيها معينة:

وابدى البغدادي شكّه في ادعاءات الضباط الفارين الذين ذكروا له «ان جميع الضباط القوميين في الموصل قد قتلوا وان عدداً كبيراً من الشيوعيين قد قتل كذلك وان نسبة عدد قتلى من ضباط اللواء لاتقل عن ٨٠ بالمائة من قوتهم وان عدد القتلى من الجنود لايقلّ عن ٦٠٠ او ٧٠٠ وربما يكون في هذه الارقام مغالات ومبالغة[٣٦].

وعن تدابير التي اتخذها (جمال) لمعالجة الموقف قال:

«عقد جمال اجتماعاً يوم الأحد ١٥ مارس. وقد حضره كلّ من (اكرم الحوراني) و(عبدالحميد السرّاج) و(مصطفى حمدون) و(طعمه) وأنا وتكلم جمال فيه عن اهميّة المعركة الدائرة بين العراق و(ج.ع.م).

وذكر انه لابُدّ لاحداهما من ان تقضي على الأخرى وهو لذلك يرى ان تنقل المعركة الى ارض العراق نفسها بغَرَض ارهاق (قاسم) وان يتمّ ذلك عن طريق تشجيع بعض القبائل على شنّ غارات لاشاعة الفوضى في ارض العراق ويأمل أيضاً ان يدفع هذا الموقف بعض ضباط الجيش العراقي الى القيام بثورة أخرى ضدّ (قاسم) او ان يندفع أحد الاشخاص من العراقيين المتحمسين ويقضي (يعتدي) عليه... وكان جمال يرى ضرورة توزيع السلاح وبسرعة على قبائل شمر لاشتباكهم القائم مع حكومة بغداد والشيوعيين حتى يضمن بذلك استمرار المعركة وذكر مصطفى حمدون انه قد قام بتوزيع الف ومائتي بندقية على افراد تلك القبيلة عندما كان في (تل كوچك)... واجتمعنا مساء يوم الاربعاء ١٨ مارس للاستماع الى نتيجة الدراسة التي قام بها مصطفى حمدون والسرّاج (حول الخطة المعدّة ضدّ العراق) وكان قد حضر قبل اجتماعنا بمشايخ قبائل منطقة الجزيرة بسورية لمقابلة

= الموصل. وبدأ الضابط محمود عزيز الساعد الايمن للشواف بقتل زعيم الشيوعيين (كذا!) وهو محامٍ اسمه كامل القازنجي وقيل انه قام بادخاله الى محّل لازالة الضرورة ثم اطلق عليه الرصاص من مسدسه، كما قتل ضابط شيوعي آخر اسمه (عبدالله الشاوي) قائد فوج المهندسين. ويقال ان هذا الضابط الشيوعيّ حاول إخراج مسدسه فعاجله أحد اقرباء محمود عزيز وهو ملازم برصاصة من مسدسه فقتله. وذكروا أن هذا الملازم كان أحد الذين هربوا الى سورية. وذكُر كذلك ان الشيوعيين عندما راؤا هذا المصير الذي سيصيبهم، اخذوا يستعطفونهم ويرجونهم في عقد هدنة بينهما حتى يعملا على ايقاف تلك المذبحة التي كانت جارية بالموصل، وقد تأثر الثوار بهذا العرض منهم غير مقدرين خطورته عليهم... فاوقفوا ماكانوا قد بداؤا في تنفيذه من قتل الزعماء الشيوعيين...» أه.

(٣٦) المصدر السالف ص٩٢.

جمال ولم يستمر لقاؤهم به اكثر من ربع ساعة وكان عددهم تسعة. وعرض السرّاج ومصطفى حمدون علينا (وقائع) الاتصال الذي تمّ بينهما وبين مشايخ الجزيرة والخطوات اللازم اتخاذها لتنفيذ خطه اثارة الشعب داخل الأراضي العراقية والتي حددّت بمنطقتين: لواء الموصل في الشمال ولواء الدليم في الجنوب. واقترح انشاء قيادة مركزية وقيادة لكلّ من المنطقتين والعمل على تدريب أفراد العشائر على استخدام الاسلحة الصغيرة المختلفة تحت ستار تدريبهم على المقاومة الشعبية...»[٣٧]

وهكذا ترى – العُملة الناصرّية لاتكلف اليد التي تقلبها على ظهرها جهداً كبيراً ولا اغماضة عين خاطفة. ففي هذا الوقت بالذات الذي تجده يلوذ بعباءة زعماء العشائر ورجال الاقطاع للقضاء على نظام وصفه قبل اشهر قليلة بالثورة التي قضت على الرجعيّة المتمثلة في الاقطاع والسيادة القبلية والتبعيّة في العراق كنتَ تسمع من اذاعات دمشق والقاهرة وصحافتها وسائر وسائل اعلامها هجوماً كاسحاً على النظام السعودّي الأقطاعي القبائلي الرجعيّ. ولا تراه يتردد مطلقاً في إرسال جيوشه الى اليمن بعد سنتين ليزج مصر وابناءها في حرب ضدّ النظام القبائلي الاقطاعي الدفاع عن الجمهورية الجديدة.

اذن فالمسألة مسألة ظرف ولكلّ مقام مقال، وليست مسألة مبدأ او ايديولوجية، أو ثوريّة او تقدميّة.

واتخذت محاولة الشواف بعداً دوليّاً بعد فشلها وافتصاح دور (ج.ع.م) فيها.

★★★

اخرج هذا الفشل عبدالناصر عن طوره ففي خطب متتالية ابرزها الخطبتان اللتان القاهما في دمشق يومي ١١ و١٢ بعد ان ثبت له مصرع الشواف وفشل محاولة الانقلاب[٣٨]: قال في

(٣٧) ويذكر البغدادي أيضاً ان عبدالناصر اصدر في ١٢ آذار قراراً بطرد خالد محي الدين من رئاسة تحرير المساء لاعتقاده بإنه كان متعاطفاً مع الشيوعيين في العراق ولانه لم يلتزم بالتوجيهات الخاصة بوسائل اعلامنا التي ظلت ترد وان الثوار مازالوا يقاتلون رغم اندحارهم وهروبهم.

(٣٨) عبر عبدالناصر عن رأيه في القوميّة والوحدة العربيّة بخطبة كان قد القاها في مدينة المنيا بمصر في ١٣ من تشرين الثاني ١٩٥٨ دامت ساعتين كاملتين سانقل هنا للمقارنة وبالمناسبة – الجزء الهام منها بعد تنقيحها وحذف الحشو والترديد والإطناب: «القومية العربيّة هي كفاح من اجل الوصول الى الاستقلال التام والحرية والوحدة للأمة العربيّة... وان ناضلت هذه الأمّة بشكل موحّد فلابُدّ من انتصارها وان انقسمت على نفسها فان الاستعمار سيتغلب عليها. قلنا وأعلنا مراراً باننا نرى في القومية العربية الضمانة الوحيدة لكيان كل قطر عربي وهي رؤية يشارك فيها العرب في كل مكان. القومية العربية =

اولاهما وهو يواجه جموعاً من الطلبة المتظاهرين بتلك المناسبة معرضاً بقاسم:

«قاومنا الضغط، والأحلاف العسكرية وحاربنا حلف بغداد حتى لا ندخل ضمن مناطق النفوذ ولازال حلف بغداد حتى اليوم يضم بغداد وقد سقط من اجلهُ شهداء ويسقط من اجله الذين كافحوا ليخرج العراق من مناطق النفوذ...»

ومضى يضرب على النغمة عينها في خطابه الثاني:

«شعب العراق الذي قاسى، وحارب نوري السعيد ليتخلص من التبعية ويتخلصّ من حلف بغداد ولا زال اليوم يحاول مرةً اخرى ليتخلص من التبعية...»

ولأول مرّة استخدم (عبدالناصر) تعبير (قاسم العراق) ووصفه بأنه عميل للاستعمار يدعمه الشعوبيون الذين يعملون لصالح الاجنبي وبوحي من الخارج وفي الخامس عشر منه القى خطاباً في القاهرة عاد يتناول فيه شخصية قاسم بشكل غير لائق برائد الأمة العربيّة في تلك الساعات القلائل التي لايقوى على ضبط نفسه ليبدو فيها عصبياً. قال نصّاً:

ان عقدة قاسم العراق انه كان يشعر ان الشعب العربي يعرف دور قاسم العراق في ثورة العراق. لانَّ... لأنَّ دور قاسم العراق في ثورة العراق كان يتلخصّ في ان يدخل بغداد بعد ان يستولي عليها (كذا) عبدالسلام عارف. فاذا نجح عبدالسلام فينصب قاسم العراق زعيماً أوحداً (كذا) رحمانا رحيماً [ضحك وتصفيق] او يدخل بعد هذا الى بغداد اذا كانت ثورة العراق فشلت واذا كان عبدالسلام فشل، لينهي ثورة العراق ويعلن ولاءه لعبدالاله ونوري السعيد.»[٣٩]

واشار الى الاهانات التي مسّته ومسّت (ج.ع.م) من «محكمة التهريج والتسفّل» لايحق لنا ان نغضب لأنّ لنا رسالة ونحن قد آمنا بها.

واليك رأياً غريباً آخر لعبدالناصر عن النظام العراقي:

= قديمة قدم الأمّة. انتصرت على ناپوليون بعد اخضاعه مصر. ولهذا الجيل من الأمة موعده مع القَدَر... والاتحاد الذي تمّ بين سورية ومصر كان ثمرة كفاحهما وتشوّقهما معاً... النضال المتواصل.. ان علم القومية العربية سيرتفع لابيد (جمال) بل بيد الشعب العربي في كلّ بلد بل بيد الشعب العربي في كلّ بلد عربي والقيادة يجب ان تكون واحدة وعبدالناصر وإن لم يكن غير جندي من جنود القومية العربيّة الاّ انه مستعد الآن اكثر من اي وقت لحمل الرسالة نيابة عنكم، نيابةً عن هذه الأمة.

(٣٩) بشكل ما علم عبدالناصر أنّ النظام العراقي لم يعلن عن انسحابه من حلف بغداد رسمياً. فكان كمن نبّه غافلاً او ربما تعمد (قاسم) السهو فبادر في ٢٤ من اذار الى الاعلان عن الانسحاب رسمياً من حلف مات فعلاً بموت النظام الملكي. [عبدالناصر نحن والعراق والشيوعية. دار النشر العربية، بيروت ١٩٥٩، الص ٩٥-١١٩].

كتب [جوزيف ابو خاطر] سفير لبنان في القاهرة تقريراً لحكومته مؤرخاً في ١٠ من نيسان ١٩٥٩ حول اجتماعه بعبدالناصر جاء فيه هذا:

«وقال عبدالناصر انّ الشيوعيّة تتوغل في العراق يوماً بعد يوم. واد ذاك سألته اذا كان يرى انَّ الحكومة القائمة في العراق هي شيوعية فأجاب انها أشبه بحكومة كيرنسكي في روسيا ١٩١٧ التي قامت على اثرها ثورة اكتوبر ومهدت للحكم البُلشفي. وتبسّط الرئيس عبدالناصر في ايضاح الموقف في العراق وايضاً في اهداف الشيوعية ومراميها القريبة والبعيدة. وقال ان الهدف الأقرب والأهمّ هو سورية التي تعمل الشيوعية على تطويقها ابتداءً من الاردن. فالمعركة اذن هي معركة سورية لا مصر وانّ العراق والعالم الشيوعيّ ينظران الى مصر على انها خارج الدول العربيّة الآسيويّة. وقال: ان النشاط الشيوعي ابتداء من بغداد يتّجه رأساً ومِن دوله شطر دمشق...»[٤٠]

اذن فالقومية العربيّة التي يمثلها عبدالناصر و(ج.ع.م) هي الآن بنظر الزعيم المصري في خطرٍ شديدٍ من جهة الشرق. (العراق) والشمال (البلدان الاشتراكية) وانّ مساندته لحركة الشواف لم تكن إلاّ لدرءالخطر الشيوعي عن سورية والعالم العربي.

وانتهز نيكيتا خرو شجوف فرصته في المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي في ١٦ من اذار فراح يندد في خطبته بسياسة عبدالناصر ازاء العراق ويهاجمه بعنفٍ. راداً على الخطبتين اللتين القاهما الرئيس المصري في دمشق اثر فشل انقلاب الموصل. وبهما حمل على الشيوعية والشيوعيين حملةً قاسيّة نفث فيها كلّ ما اعتمل في جوانبه من مرارة الخيبة. قال خروشجوف معّرضاً به:

«انَّ اولئك الذين يهاجمون الشيوعيين لايمكن ان يكونوا قوميين حقيقيين... عبدالناصر شاب انفعاليّ لا قدرة له على فرض ارادته على العالم العربي... المصريون يتحدثون عن الاشتراكية إلاّ ان الاشتراكية هي اولى الخطوات نحو الشيوعيّة، والرئيس المصري في هذا الموقف لم يحلّل بل لم يفهم حتميّة التاريخ في هذه المرحلة.

... والوحدة العربيّة التي يدعو لها لايمكن ان تتحقق قطّ دون ان تسبقها وحدة

(٤٠) تراجع (مذكرات) ابو خاطر بيروت ١٩٧١ ص٧٦. وعبدالناصر هنا يشير الى الكساندر كيرنسكي (١٨٨١-١٩٧٠) رئيس الحزب الاشتراكي الروسي الذي حقق ثورة شباط في روسيا (١٩١٧) حاول متابعه الحرب وقضى على حكومته ثورة اكتوبر بقيادة لنين (الحزب الشيوعي).

أخرى هي وحدة الطبقة العاملة... وان اية وحدة تقوم دون سبق تهيئة الظروف السياسية والاقتصادية سيكون مآلها الفشل الذريع بمرور الزمن، ولأن الشعب في ايّ من البلاد المنتظمة في تلك الوحدة سيستولي عليه شعور بفقدان استقلاله، وسيصاب زعماؤه بمضاضة ويعزّ عليهم أن يكونوا مجرد تابعين...»

واستبد الغيظ بعبدالناصر حتى اخرجه عن طوره فألقى في ٢١ من آذار على جموع حاشدة امام شرفة قصر الرئاسة بدمشق خطبة جارحة غير مقتصدٍ فيها ولا محاذر على الاتحاد السوفياتي وسيد الكرملين:

«انهم (يقصد السوفييت) لم يتدخلوا في المعركة التي كانت دائرة معنا ان تحركهم جاء يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦ بارسال الانذار المعروف بعد ان اتضح لهم ان القتال سيتوقف...».

ثمَ اشار الى «الموقف السلبي الذي وقفه الاتحاد السوفياتي عندما نزل مشاة الاسطول السادس الامريكي على سواحل لبنان. ونزول القوات البريطانية في شرق الاردن (في تموز ١٩٥٨) عندما قامت الثورة في العراق. رغم ذهابي الى موسكو اليهم وطلبي منهم اتخاذ موقف ايجابي ازاء هذه التحركات...»[٤١]

وخيل اثر ذلك لمتابعي شؤون السياسة ان القطيعة التامة بين البلدين باتت وشيكة.

لكنّ عبدالناصر ما لبث ان شعر بأنه مضى بعيداً، وقد بات مهدداً بالعزلة فلم يمرّ شهر او بعضه حتى أستأنف حواره مع الكرملين برسائل ملطفة بعض الشيء الى خرشجوف ولم يكن هذا الزعيم الشيوعي مقتصداً ولا مواراباً في ردّه. قال له في رسالة مؤرخة في ١٥ من نيسان:

«... في اثناء واحدة من محادثاتنا اثناء وجودك في موسكو، تتذكر انكّ عبرت عن سخطك واستيائك من الحكومات في البلاد العربية المجاورة، وسألتني ما الذي يمكن عمله لتغيير الوضع الداخلي في البلاد التي تناصب (ج.ع.م) العداء، وما هي المساعدة التي يمكن ان يقدّمها الاتحاد السوفياتي في هذا الباب. وكما تتذكر

(٤١) نقل (كسيليف) السفير السوفييتي في مصر، الحديث الذي جرى له مع عبدالناصر قبيل سفره لحضور المؤتمر الحادي والعشرين. قال له عبدالناصر: اننا نعتبر مصير العراق ذا تأثير علينا. ولن ندع الشيوعيين يحكمونه بايّ ثمن كان. لكننا لانريد ان يكون هذا سبباً في خصومةٍ. وعليكم انتم وحدكم ان تقرروا فيما كنتم تريدون التعامل مع الأمّة العربية او مع احزاب شيوعية قليلة معزولة [هيكل: وثائق قاهرية (لم يترجم الى العربية)، المرجع السالف، ص١٣٢].

ان جوابي كان: يجب ان يُراعى التسامح والاعتدال. ويجب عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى. وانَّ هذه البلاد يجب أن تترك لتتأثر بالمثل الصالح المضروب من جمهوريتكم، برفع المستوى الاقتصادي والثقافي والصحيّ لشعب جمهوريتكم الى اظهار المبادرات الخلاّقة. انا انصح بالعمل على ان تقيم في (ج.ع.م) شكلاً من الاقتصاد والتنظيم الذي يثير اعجاب البلاد العربية الأخرى ويجتذبها لتفوز بالمحبة والولاء الشعبيين بهذا المثل الايجابي.

إلاّ انك ابتسمتَ وقلت عنيّ اني لستُ واقعيّاً في تقويمي للموقف في البلاد العربيّة. ثم اضفتَ تقول: انه لايمكن تحقيق ايّ تغيير من دون مداخلةٍ عسكريّة. وان المسألة تتطلب اجراءات اكثر حزماً وشدّة. فاجبتك على هذا بقولي: ان تدخلاً عسكرياً أو أيّ تدخل آخر في الشؤون الداخلية للدول العربيّة الأخرى هو أمرٌ في غاية من الخطورة ولن يؤدي الى الوحدة، بالعكس فانه سيؤدي الى انفصام وتبديد جهود الدول والبلاد العربيّة. على اني كما يبدو فشلت في اقناعك...»[٤٢]

بقي عبدالناصر الى النهاية ينفي ضلوع (ج.ع.م) في محاولة الشواف الانقلابية. وظلّ يردد في كلّ خطبه انه لم يحرض على ايّ انقلاب وانه لكذبة مخجلة ان يلصق بـ (ج.ع.م) تهمة التحريض على انقلاب الشواف او الاضطرابات التي سبقته وان ذلك الانقلاب انما كان ردّ فعل صريح وصحيح للقومية العربيّة على الخراب الذي احدثه قاسم وشيوعيوه في العراق وانه انقلاب تلقائي محض.

وسائل اعلام وصحافة (ج.ع.م) أخرجته وكأن المحاولة داخلية صرفة وانها لم تكن بحاجة الى دعمٍ خارجي مادّي[٤٣] إلا انها اخفقت في هذا تماماً اذ كان تدخل (ج.ع.م) فيها من

(٤٢) تأمل كيف حاول عبدالناصر التنصل مما ذكرّه به خرشجوف هنا. وذلك في رسالة جوابيّة: «يدهشني منكَ انك توهّمت بأني طلبت مساعدتك في مغامرة عسكرية ضدّ البلاد العربيّة. كيف يتسق هذا ويستقيم عندما نعتبر كلّ تهديد لايّ بلد عربي مهما كانت ظروفه تهديداً لنا؟» [هيكل المرجع السالف ص١٣٨].

(٤٣) محمود جميل هو موصليّ، كان سائق سيارة عبدالمجيد فريد في السفارة المصرية ببغداد. ارسل وهو مقيمٌ ببيروت – اثناء محاكمة الضباط الضالعين في المحاولة – برقيةً لقاسم وللمحكمة العسكرية العليا ذكر فيها ان لديه شهادة هامة حول مساهمة (ج.ع.م) وصلاتها بالقائمين بالحركة وبيّن استعداده للمثول امام المحكمة للادلاء بها. وشاءت سذاجة المهداوي او قل غباؤه أن أسرع يعلن ذلك من منصته في احدى الجلسات – بدلاً من ان يكتم الأمر. منوهّا «بالمعلومات الخطيرة التي سيدلي بها سائق سيارة الملحق العسكري وكيفية مراقبته الاجتماعات السرية مع المتآمرين...».
واتخذت التدابير لتسفيره بوساطة الملحقية العسكرية في بيروت في حين تدخلت حكومة (ج.ع.م) مطالبة لبنان بتسليمه باكذوبة تفيد بأنه يحمل الجنسيّة المصرية. وحاولت الحكومة اللبنانية التخلص من المأزق =

اولها حتى نهايتها سِراً مفضوحاً.

اتخذت هذه المحاولة ابعاداً دولية كما جاء بيانه. مفصلاً عن المشادّة وشبه القطيعة التي احدثتها بين موسكو والقاهرة.

كان هناك المحافل السياسيّة الغربية واجهزه الإعلام فيها وقد طربت للنتيجة التي اكت اليها المحاولة كالعالم الشرقي. لكن عمرها كان قصيراً جداً حال دون تغطية خارجية، من صحافيين أجانب وتقارير صحافية موقعيّة. على ان نتائجها وذيولها اشغلت الصحافة العالمية ردحاً من الزمن لاسيما وقائع المحاكمات. وقد اتحدت جميعها في المبالغة والتهويل بجسامة الخسائر البشرية وفي الممتلكات وجرى سباق في هذا مع اعلام (ج.ع.م). وان كان الغرض يختلف عند ايّ منهما. كان اعلام عبدالناصر يهدف الى ابراز قوّة القوميين العراقيين واستماتتهم ومقاومتهم بالتهويل في ارقام الخسائر. في حين كان الاعلام الغربي يريد أنْ يبرهن على مدى ما يحدثه تدخّل عبدالناصر في شؤون البلاد العربية من دمار في الاموال والارواح.

واقبل صحافيون من الشرق والغرب فيما بعد إلاّ أنّ اي واحدٍ منهم لم يُعن بالتحقيق عن صحة الأرقام التي نشرتها وسائل أعلامهم لتنقل الى كتب المؤرخين كحقائق.

واتفقت الأطراف أيضاً على التهويل في دور الشيوعيين العراقيين في القضاء على الحركة. والمسألة هي ان الموصل لم تكن دائماً «قلعة القوميّة العربيّة» كما وصفت. ولا ان (قاسماً) كان (نائماً) كما ارادت جهات يسارية وصفه. مما لاشك فيه أنّه كان للشيوعين دور مركزي، ولكن ماذا عن القطعات العسكرية الموالية؟ ماذا عن الاربعة آلاف مسلح من الكرد المنظمين في حزبهم وغير المنظمّين الذي وقفوا بالمرصاد للعشائر العربيّة التي جندّها المؤتمرون؟ ماذا عن الاقليّة الهامة المسيحيّة داخل المدينة وفي القصبات والقرى المجاورة بكل خشيتها من قيام وحدة عربيّة ومصير مشابه لمصير اخوانهم في مصر وسورية؟

خدم تهويل الدور الشيوعي قيامه بتسلّم السلطة حين لم يكن هناك اي سلطة حكومية وبذله

= باعلانه شخصاً غير مرغوب فيه وخيرته بتسفيره الى الجهة التي يريدها. وفي ٨ من ايلول ١٩٥٩ فيما هو يهم بركوب الطائرة الى تركيا من مطار بيروت، لحق به مسلحون ستة وحاولوا خطفه الاّ انه قاومهم فامسك به احدهم واسمه (محمود وهبة) وامر احدهم وهو (عدنان ياسين) بقتله بقوله (قوّصه: اي اردِه بالرصاص) فرماه باربع اطلاقات وجندله امام اسماع وابصار مئات الناس وشرع المهاجمون في اطلاق النار في الهواء ارهاباً وترويعاً حتى غابوا وهربوا الى سورية [عرفت هوياتهم واصدرت محكمة لبنانية حكماً غيابياً بالاعدام على اثنين وعلى البقية بعشر سنوات لكل منهم، ولم ينفذ القرار قط].

الجهد في اعادة الهدؤ والسكينة ووضع حَدّ للفوضى.

وكأن محكمة الشعب كانت على موعد، كأنها كانت تنتظر الفشل المخجل المصري في المحاولة الانقلابية، لتنطلق حنجرة رئيسها بكل ما تساعفه سعة حيلة قاصرة من الهجوم على رئيس (ج.ع.م) لاسيما في محاولة مقابلة الأوصاف التي كان يخلعها الرئيس المصري على الزعيم الأوحد. وفي اعتقادي أن المهداوي لم يكن موفقاً حين حاول مقابلة «قاسم العراق» بوصف «ناصر الاستعمار».

ملحق

ترجمة من كتاب "ابو الهول والقوميسار" من تأليف محمد حسنين هيكل بالانكليزية

«بهذا الشكل كانت الدعاية المصرية تقدم للغرب ما يحصل في العراق»

«وفي العراق بدأ الخلاف بين عبدالناصر وخروشجوف حول دور الاحزاب الشيوعية يوضع على المحك. في بداية العام ١٩٥٩ اخذ الحزب الشيوعي العراقي يزداد عتواً باطراد، وأسلوب الأحزاب الشيوعية في كل مكان من العالم الثالث هو أنه ماتبدو اول فرصة حتى تراها تندفع بعنف وتهور جاهدة لاستغلال الظرف الى اقصى حد وكمثل الحزب الشيوعي السوري شعر الشيوعيون العراقيون، وبعضهم لاسباب وجيهة، بان الاوضاع ستكون ضدهم على الزمن الطويل وأن فرصتهم الوحيدة في النجاح هو الاستيلاء فوراً على السلطة ولذلك حاولوا أن يجعلوا من (قاسم) أسيرهم بالاعتماد عليهم اعتماداً كلياً، ضماناً لبقائه. واصعدوا من دعاياتهم في سائر انحاء البلاد، حتى انهم عمدوا الى تزوير وثائق ونشرها في جريدتهم الحزبية. واظهر تلك الوثائق ما افترض انه أمر لعبدالناصر موجه الى جميع صفوف ومراتب الجيش المصري وبضمنه خطبة له. وهذا هو نصاً:

القائد العام للقوات المسلحة

دائرة القائد العام

أمر خاص مرقم ٤٤ صادر عن الرئيس عبدالناصر. نجتمع في هذا اليوم لاستعراض خططنا التي ستمكن مصر من تحقيق اهدافها في اقامة بلد واحد من الخليج الى المحيط. ان الطائرات القادرة على بلوغ تل ابيب في ساعة واحدة هي ايضاً قادرة على بلوغ طرابلس والخرطوم والرياض. والأمل هو ان لا أرغم على تحقيق اهدافنا بالقوة. لكن وكما تعلمون أننا بنينا قواتنا المسلحة ووضعنا كل امكاناتنا سنداً لها لتكون الاداة في تحقيق الوحدة العربية الشاملة بزعامة مصر. ان قواتنا المسلحة لم تُبن لمجرد استعراضها خلال شوارع القاهرة. وان اولئك الذين يظنون بان الوحدة يمكن أن تتحقق بمجرد الكلمات ووسائل الاقناع هم على خطأ بيّن. وعلى كل من يتوهم هذا أن يفتح عينه ويفكر بحَوْل قوات مصر المسلحة وانا متأكد بان البلاد العربية الأخرى وزعماءها سيعتادون بمرور الايام رؤية قواتنا المسلحة السلاح الذي سيتم به قيام الوحدة. وانها ستكون بهذه الوسيلة قادرة على فرض حمايتها على الاراضي الخارجة عن حدودنا».

ربما قام بتزوير هذه الوثيقة المخابرات الاسرائيلية او البريطانية. فقد سبق ظهورها في الاردن عندما كانت علاقات مصر بتلك الدولة في ادنى مستوى. والآن اذاعها راديو بغداد. واعيد نشرها في جريدة (ترود) جريدة نقابات العمال السوفيتية.

وادرك الشيوعيون العراقيون بان العقبة الرئيسة التي تحول دون نجاح خططهم هو الجيش. ومع انهم حققوا بعض نجاح في التغلغل خلاله إلا ان الغالبية العظمى من ضباطه وهم قوميون اما يريدون ان يتمتع العراق باستقلال حقيقي وإما أن يروه ضمن وحدة عربية.

ولم يكن موقف القوات المتواجدة في بغداد وحواليها مصدر تخوف الشيوعيين قدر ما كان تخوفهم من الأقاليم. وفي ٢٣ من كانون الأول ذاك اليوم الذي فيه خطب عبدالناصر في پور سعيد بمناسبة ذكرى انتصار ١٩٥٦، اختار (كامل قزانچي) السكرتير المحلي للحزب الشيوعي في الموصل تلك المناسبة لتوزيع منشورات هاجمت مصر. إلا ان الانضباط العسكري اوقف سيارته وصادر منشوراته. فما كان منه إلاّ ان عرج على النادي العسكري محتجاً. واتفق ان لقي هناك العقيدة عبدالوهاب الشواف أخ وزير الصحة وآمر اللواء الخامس وهذا جزء من الفرقة الثانية...

القى العقيد الشواف نظرة على المنشورات التي كانت تدعو الى الوحدة الفدرالية بين مصر وسورية بديلاً عن الوحدة القائمة حالياً – وسأله: "أتريد أن تفكك الجمهورية العربية المتحدة؟ أهذا ماتريد؟"

فأكد (قزانچي) ذلك. وعندها قام الضباط بطرده [في ايام الفوضى التي عقبت، عمد ضابط صف الى قتله في المرحاض. قال له سآخذك الى الموضع اللائق بك].

كان الشيوعيون في الموصل فضلاً عن رفاقهم في بغداد يبذلون كل جهودهم في التغلغل داخل المنظمات كاتحادات الطلبة، ومجموعات السلام ومنظمات تطلق على نفسها «الشباب الديمقراطي» و«عصبة الدفاع عن حقوق العمال» و«العصبة الديمقراطية الدستورية» وراح الشيوعيون الآن يهاجمون ما وصفوه «بعسكرية الشمال». ويذكرونها باسمي «الفرقة الثانية واللواء الخامس. وطلبت من (قاسم) رسالةٌ مفتوحة نُشرت في الجريدة الشيوعية القيام بتطهير غير الموالين في تلكما الوحدتين.

ثم وفي نهاية شهر شباط ١٩٥٩ أعلن بأن استعراضاً لأنصار السلم سيقام في الموصل بتاريخ ٦ من آذار بإشراف الحزب الشيوعي. وخرجت اربعة قطارات من بغداد تعززها حافلات استؤجرت من شركة الرافدين للباصات متوجهة الى الموصل بما اطلق عليه «مسيرة السلام» الا

انها كانت مملوءة بالاسلحة كما اكدت التقارير الواردة من الموصل. كما ان الشيوعيين انفسهم كانوا يتحدثون عن غزو الموصل. واتصل قائد الفرقة الثانية بالاستخبارات وطلب عبثاً مكالمة (قاسم) لينذره بوخامة الموقف المهدد بالإنفجار.

ومن جهته توصل العقيد الشواف الى انه قد يضطر الى العمل، فاتصل بالعقيد السراج في دمشق وسأله أن يرسل جنوداً سوريين عن طريق دير الزور فأوضح السراج له بان هذا غير ممكن. وعندها طلب الشواف جهاز اذاعة متنقل فأجابه الى ذلك. وفي ٧ من آذار اذيع البيان الأول معلناً عدم شرعية النظام القائم ببغداد ومطالباً بتشكيل مجلس قيادة ثورة آخر جديد. على انه اخطأ الحساب. فقد ظن انه لن يلقى مقاومة من اية وحدة عسكرية. ونسي ان قائد القوة الجوية هو شيوعي. أمر (قاسم) القوة الجوية بحملة، ويشاء حسن حظه ان واحدة من القنابل التي اسقطت حققت اصابة مباشرة في مقر قيادته واصيب الشواف بجراح فنقل الى المستشفى وهناك قضى عليه مضمد عسكري شيوعي طعناً بالحربة.

ودبت الفوضى في القوات القومية في الشمال. وهرب فريق، واستسلم فريق. ولم يكن بوسع الجمهورية العربية ان تفعل شيئاً لمساعدتهم. وراح الشيوعيون يصبون جام انتقامهم. وارخى العنان لكل قوى العنف التي لم تكن قط بعيدة كثيراً عن الطباع العراقية.

وقدر ان عدداً يتراوح بين ستة آلاف وثمانية آلاف لقوا حتفهم في الموصل. تم قتل بعضهم بشكل تنفر منه النفس البشرية فقد ارغموا على حفر قبورهم ثم اطلق عليهم الرصاص»[١].

(١) The Sphinx and the Commissar انكلترا. ط كولنز ١٩٧٢. الص ١٠٤–١٠٧. [هذه القصة الخيالية تماماً وهي من اختراع المؤلف كعادته دوماً. لاتجد لها مثالاً ولا شبهاً في اي كتاب من كتب هيكل العربية اللغة.]

الفصل التاسع والعشرون

التزييف والكذب . حرب الأرقام بين الحقيقة والخيال وإذاعة صوت العرب ومحمد حسنين هيكل والإعلام العربي كافة حول عدد الضحايا الذين هلكوا اثر فشل محاولة انقلاب العقيد الشواف . القوميون يعودون بعد فترة لإدانة أنفسهم بسوء التخطيط للمحاولة . السكوت القاسمي يفسح المجال لإطلاق المبالغات . موقف الحزب الشيوعي من المؤامرة . الإرهاب في الموصل . قاسم يطلق يد القتلة والمجرمين لقتل الضحايا الأبرياء بحجة تنظيف الموصل من الشيوعيين وأنصارهم توخياً لإحلال "الموازنة" . مذبحته القضائية بالضباط القوميين القائمين بالحركة والمؤازرين وعدد من أعدائه . تفاصيل عن الأحكام الصادرة بحقهم . حصة المسيحيين من ضحايا الإرهاب في الموصل تدفعهم الى النزوح الجماعي . التعذيب في المعتقلات القاسمية . الحزب الشيوعي الحاكم الفعلي في الرأي العام والشارع . مشروع اغتيال "الزعيم" . فشل المحاولة . أحكام الإعدام . صدع كبير في كيان حزب البعث بسبب العملية . الحزب الديمقراطي الكردستاني : نشاطه . وصول اللاجئين الكرد من الاتحاد السوفياتي . التخوف الكبير من وجودهم . تغيّر قاسم . محاكمة رئيس تحرير (خَبات) أمام المجلس العرفي . تبرئته . غليان في كردستان . الجيش العراقي يحتل مواقع ستراتيجية في كردستان . بدء العدوان . القصف الجوي . اتصال القيادة الكردية بالمتآمرين على نظام قاسم . الحكم على نوايا الثورة الكردية وأهدافها بين الشيوعيين والبعثيين . استخدام المرتزقة . تقرب قاسم من القوميين العروبيين وإطلاق سراح العديد منهم . مؤتمره الصحفي

كتب لي الدكتور خليل عبدالعزيز وهو ابن بلدي وواحد ممن كان ضباط الشواف قد اعتقلهم معنا عشية يوم ٧ آذار واودعهم القلعة الحجرية، يقول:

«ابعث اليك بنصّ الحديث الذي جرى بَين أحمد حسن البكر وبيني في مكتبه بالقصر الجمهوري. وقد زرتُ العراق بناءً على دعوةٍ خاصّة منه بوصفي عضو اللجنة التحضيرية للاحتفال بالذكرى الألفية لميلاد الفارابي[١].

(١) ابو عبدالله محمد بن طرخان أوْزَلغ (٨٧٠–٩٥٠م) التركماني المولود في (فاراب) من اعمال كازخستان الحالية. هو واحد من اعظم الفلاسفة والعبقريات الاسلامية في كلّ زمان ومكان. وقد اطبقت على =

كان واقفاً وسط المكتب يقلبّ بعض الاوراق اثر اجتماعٍ لمجلس قيادة الثورة. رفع رأسه ونظر اليّ وقال: «أأنت الدكتور خليل عبدالعزيز؟ ظننت اني سألتقي شخصاً عجوزاً يتوكأ على عصا. لكنك تبدو وانت امامي شاباً في مقتبل العمر. كم كان عمرك – سألتك بالله – عندما قُمتَ مع رفاقك بقتل الألوف من القوميين والبعثين في ثورة الشواف؟» فوجئت بهذا السؤال والاستقبال. إلاّ اني سألته: "سيادة الرئيس اريد ان اسألك كم قتلتم انتم إثر مؤامرة الشواف من المواطنين و..."

فقاطعني بقولهِ: "اني اكبرُ منكَ سِنّاً وانا الذي سألتُ اولاً. قل لي كم قتلتم؟"

اجبته: "انتم قتلتم بعد مؤامرة الشوّاف اكثر من ٣٢٠[٢] مواطناً مسالماً. ونحن قتلنا حوالي ٣٢ شخصاً خلال المؤامرة واثناء القتال بين الطرفين. لكنكم تتهموننا بقتل اكثر من (١٠٠٠٠) ومازلتم ترددون ذلك. اذاعة صوت العرب تردد هذا الزعم دائماً وإعلامكم يعيد هذا باستمرار. وأنا اتحدّى أن تأتوا باسم شخصٍ واحدٍ خلافاً لاولئك الذين قررتم منح ذويهم راتباً تقاعدياً مدى الحياة، ونشرتم قراركم هذا في الوقائع العراقية (جريدة الحكومة الرسمية). هذا واقع لايمكن نكرانه. نحن قتلنا ٣٢ خلال القتال وانتم قتلتم اكثر من ٣٢٠ بعد المؤامرة وفي فترة السلم".

وهنا تبدلت لهجة احمد حسن البكر وسأل: "اسالك لمصلحة من كان ذلك؟"

قلت: "بالطبع كل هذا كان لمصلحة الرجعية."

★★★

إنّ اجماع الكتابّ العروبيين القوميين في آخر المطاف على نعت تلك المحاولة بالتهور والصبيانية، وهدراً للطاقات القومية بعمل لم يكن له ايّ حظ من النجاح – لايقتضي منّا

= تركمانيته كلّ الاسانيد العربية والاسلامية (كابن خلكان. وفيات الاعيان، ج٦، ص١٥٣. وابن النديم: الفهرست ص٢٦٣. وابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص٢٧٧. وطبقات الأمم للقاضي صاعد الاندلسي ص٥٣. وابن العبري في تاريخه ص١٧٠ وغيرها. حطّ في بغداد زمناً وبلغت به قدَمَه الاندلس. وتوفي في دمشق وقبره فيها. وما يسلمني هنا الى حيرة هو اختيار الدوائر العلمية في ايران والاتحاد السوفياتي والعراق العام ١٩٧٥، موعداً للاحتفاء بألفيّته. فهذا التاريخ لايستقيم قط لا مع سنة وفاته ولا تاريخ ميلاده غير المتحقق. ثم تلك المنافسة على اصوله العرقية التي بلغت حداً من الفجاجة بادعاء بغداد ودمشق حينذاك بأنه عربيّ. واصرار الحكم العراقي ان يقام مهرجانه في بغداد؟!

(٢) يشير صاحب القول هنا إلى عدد ضحايا الاغتيالات القومية خلال فترة الاغتيالات [١٩٦٠–١٩٦٣] في الموصل وسيأتي الحديث عنها في موضعه. [راجع التفاصيل عنها في كتابنا: العراق في عهد قاسم ج٢ الص٧٩٣–٨٤٠. ط ستوكهولم ١٩٨٩.

ايراد الشواهد من المؤلفات التي صدرت بعد ان هدأت النفوس واستنفدت وسائل الاعلام القوميّة آخر ما في كنانتها من سهام التجريح والاتهام واستوفت حظها من التأثير بها على الرأي العام العروبي.

على ان التهويل في حجم الخسائر في الارواح. وبما ارتكبه شيوعيو الموصل من قتولٍ بقي حيّاً يشهّر به ويرفع في كلّ مناسبة تعنّ كما رفع (معاوية) قميص (الخليفة عثمان).

ومما زاد في هذا كلّه ان النظام القاسمي حرص على ان لاينشر احصاءً لا بقتلى الجانب المتآمر، ولا بقتلى الطرف الموالي. لاسيما القتلى بين الجنود وضباط الصفّ. فهؤلاء هم كميّة مهملة في حساب الجيوش والحكومات العربيّة[٣].

وبخلاف ذلك سُجّل مقتل المقدم عبدالله الشاوي من العسكريين والاستاذ كامل قزانجي من المدنيين.

بدأت جريدة الاهرام القاهرية وإذاعة دمشق والقاهرة بتقدير عدد القتلى من القوميين العروبيين المدنيين والعسكريين ببضعة ألوف. ثم أرستْ جريدة «الأهرام» على رقم (٥٠٠٠) بالضبط لا (١٠١٣) ولا (٤٩٩٨)![٤]. في حين كانت جريدة [الحياة] البيروتية أكثر حكمةً فذكرت رقم ٢٤٢٦[٥] ولم يسألها أحد كيف تسنىّ لها أن تحصل عليه ولم يمرّ على اخماد الحركة غير اربعة أيام ومن اين جاءها الخبر اليقين بالعدد الدقيق.

إلاّ ان رئيس تحرير الاهرام محمد حسنين هيكل وجد بعد عشرين سنة أن تقدير جريدته في حينه كان متواضعاً جداً. فاستدرك خطأه في واحد من كتبه ورفع الرقم الى ما يتراوح بين ٦٠٠٠ و٨٠٠٠. وبطبيعة الحال لم يذكر عدد الجرحى[٦] وابتلع عددٌ كبير من المؤرخين

(٣) تثبت استمارات تشريح دائرة الطبّ العدلي في مستشفى الموصل الجمهوري ارقام اكثر من خمسين جندياً وضابط صفّ نقلت جثثهم. [كان مؤلف هذا الكتاب يملك صورة من القائمة الكلّية التي نظمتها تلك الدائرة في حينه ومما يتذكره انها حوت ١١٨ او١١٣ رقماً.

(٤) الأهرام العدد المؤرخ في ١٥-٣-١٩٥٩. (عادتْ في ٢٥ إيلول لتصحيح الرقم إلى ٣٦٠٠)

(٥) الحياة ١٤ من اذار ١٩٥٩.

(٦) محمد حسنين هيكل: «ابو الهول والقوميسار (بالانگليزية): لندن ١٩٧٨ Sphinx and Commisar ص١٠٧. [راجع الملحق بهذا الفصل]. ويكتفي آخرون من الكتاب القوميين بالوصف الذي يبعث الرعدة الى البدن. كالذي كتبه محمود الدّرة في مجلة [دراسات عربية في ٦ نيسان ١٩٦٥] قال «قامت فصائل من ضباط الصف والجنود بالعصيان على الثورة (كذا!) فجرى اشتباك دموي بين قطعات الجيش المرابط وسرعان ما انتشر الاشتباك فعم الموصل باجمعها واستمرت الحرب الاهلية بين القوى القومية وبين القوى المؤيدة لقاسم طيلة اربعة ايام بلياليها استحالت فيها مدينة الموصل الى ساحة حرب وقتال تحوّل الى مجزرة بشرية مروّعة حصدت فيها الارواح حصداً وصبّ البترول على الاحياء واحرقوا وسُحل =

المحترمين والكتابّ المعروفين هذه «السمكة» القاهريّة الضخمة كالمؤرخ جورج حداد الاستاذ في جامعة كاليفورنيا بقوله:

«عُلق الألوف أو سحلوا في الشوارع أو أردوا بالرصاص خارج المدينة حين وقف الجنود او الشرطة عن كثب يتفرّجون[٧]»

ويبدو الكاتب بطاطو اكثر واقعيّة باعطائه هذه الأرقام:

«يعطي الشيوعيون رقم ١١٠ قتيلاً و٣٠٠ جريح ثلاثون من اتباع الشواف الاوائل وعشرون من اتباعه الاواخر. والبقية جنودٌ وافراد الشعب (نقلا عن جريدة اتحاد الشعب) وكان بإمكان القوميين ان يحصوا ٤٨ قتيلاً من صفوفهم وحلفائهم وهم كذلك يحددون مجموع عدد قتلى الكلي بحوالي مائتين.»[٨]

خلافاً لكل هذا اثبتَ العميد خليل ابراهيم حسين في مؤلفه الكبير[٩] ثلاث قوائم بمن اطلق

= بالحبال من سُحل ونصبت في الشوارع محاكم قصّابية تقليداً لمحاكم ثورة اكتوبر السوفيتية (لايذكر أي مصدر تاريخي قيام شيء من هذا القبيل اثناءها) فكانت تصدر احكام الموت على القوميين بالجملة وتنفذ احكام الموت عليهم بالجملة فوراً بالدملماجة وزج في السجون والمعتقلات والمنافي عشرات الألوف من القوميين المناؤين لحكم قاسم حتى بلغ عدد المعتقلين في العام ١٩٥٩ [١٣٥٠٠٠] معتقلاً في شتىّ انحاء العراق»

(٧) جورج حداد: الثورات والحكم العسكري في الشرق الاوسط خ٢ ص١١٣ Revolutions and Military Rule in the Middle East. ط. نيويورك. ١٩٧١.

(٨) المرجع السالف ص٨٨٩. ينقل المؤلف عن كلّ من محمد حديد نائب رئيس الحزب الوطني الديمقراطي وأحد وزراء قاسم المقربين. وعن احمد صالح العلي وهو قومي واستاذ في دار المعلمين العالية. ثم رئيس للمجمع العلمي العراقي. [قلنا: يذكر الزبيدي المرجع السالف ص٣٧٢ ان ٣٠ شخصاً سحلوا في شوارع الموصل من المدنيين والعسكريين وسبعة عشر قتلوا في الدملماجة] وبلغ من طغيان هذا التهويل على العقول الراجحة مبلغاً يدعو الى التساؤل الحاد عن قابلية المرء على الاستهواء والانسياق وراء الكذبة الكبيرة. فمع كلّ ما توخاه هانيء الفكيكي من صدق وصراحة في ايراد الوقائع ونقد الذات وسياسة الحزب الذي كان احد اقطابه. وجدناه يبتلع السمكة القاهرية. الدمشقية مع عظامها وشوكها. فبعد ان يصف الموصل «بالمدينة الصّافية عربياً». يذكر هذا نصّاً:

«وبعد فشل الحركة، استبيحت المدينة على ايدي المسلحين الشيوعيين والاكراد والجنود المؤيدين لقاسم. وكان مما ساهم في تردي العلاقات وتراكم الاحقاد بين جماعات الوطن العراقي ان الاكراد هم الذين زودوا الشيوعيين القادمين الى الموصل في قطارات السلام (كذا) بالسلاح. وبعد قتال شوارع ضار بدءَ في اليوم الثاني بتمشيط المدينة وبيوتها فسحب الرجال والاطفال والنساء من منازلهم واعدموا وعلقوا على اعمدة الكهرباء وشكلت محاكم شعبيّة في الشوارع والاسواق لمحاكمة المعارضين واعدامهم وبينما تفاوتت التقديرات بصدد الضحايا والقتلى بين ٣٠٠٠ و٥٠٠٠...». [الص٩٣-٩٤]

(٩) موسوعة ١٤ تموز - المرجع السالف ج٤ الص٣٠٦-٣١٢. ط بغداد ١٩٨٨. والمؤلف قومي العقيدة يفصح عنها جهاراً وبحماسة في مؤلفه. وقد وجدناه والحقّ يقال يتحري الدقّة والأمانة فيما ينقله من شهادات =

عليهم «شهداء ثورة الموصل» بعد مرور قرابة ثلاثين عاماً تقريباً على تلك الاحداث. اولاهما تتضمن اسماء ٧٢ مدنيّاً تحت عنوان «الشهداء ثورة المدنيّون الذين قتلهم الشيوعيون وحلفاؤهم اثناء الثورة». وثانيتهما تتضمن اسماء ١٧ ضابطاً وثالثتهما تحتوي على اسماء اربعة من ضباط الصّف. إلا أنه لم يعين من بينهم اولئك الذين شاركوا فعلياً في المحاولة، من المدنيين الذين قتلوا بمحض الصدفة اثناء الاشتباكات أو نتيجة ثأرات شخصيّة او الذين قتلوا خارج المدينة بانتهاز القتلة فرصة الفوض وغياب السلطة.

والمؤلف الذي لا يدعنا قطّ نشك في انتمائه القوميّ وحرارته في الدفاع عن المحاولة الانقلابيّة يكاد لا يفّرق بين هذا وذاك الذي وضعته الاقدار على خطّ النار ولا يستخلص منهم قتلى الطرف المقابل ومن هذين الصنفين يخرج اكثر من نصف هذا العدد الذي اثبته مؤلف موسوعة تموز.

والزبيدي[١٠] الذي ينقل عن مصدر ثقةٍ ذكر ان مجموع القتلى من القوميين لايزيد عن ٧٦. ويدخل في هؤلاء السبعة عشر الذين انتقاهم للتصفية الجسدية بعض اعضاء في اللجنة المحلية للحزب الشيوعي وبحضور ممثلّ عن لجنته المركزية وهم من بين الذين اعتقلوا فأخذوا بوجبتين الى موقع خارج المدينة بحجّة اخذهم إلى بغداد وقتلوهم رمياً بالرصاص بعد هدؤ الحال واستتباب الأمن وسيطرة الجيش. تلك الجريمة التي عرفت «بمذبحة الدملماجة» نسبة » الى اسم الموقع.

كانت جريمة بشعة من أيّ ناحيةٍ نظرت اليها لم يهتمّ مرتكبوها بإخفاء معالمها او التكتم عليها. وسرعان ما شاع أمرها[١١] وذاع بنشر وقائع المحاكمة التي جرت للمتهمين بها.

= الآخرين ويثبته من الوثائق الصديق المأسوف عليه «سليم الفخري» عنه انه بسبب من امانته ودقته أطلق عليه رفاقه الضباط لقب «خليل رويتر». وكان معاوناً لرفعت الحاج سرّي في الاستخبارات. وضالعاً في المحاولة الانقلابيّة متستراً على بعض المشاركين فيها. ولم يعتقل اكثر من ساعات معدودات واعيد الى منصبه وبقي فيه حريصاً على جمع المعلومات وتدوينها. وكتابه ذو المجلدات السبعة رغم خلوّه من الفهارس وعدم الاعتناء بالتبويب والتنسيق – هو منجم فريد المعلومات لايستغني عنه مؤرخ تلك الفترة.

(١٠) الزبيدي، المرجع السالف، ص٤٤٣. نقلا عن العقيد شمس الدين عبدالله رئيس المجلس العرفي العسكري الذي حاكم المتهمين بالقتول في العام ١٩٦٠.

(١١) مثلاً استطاع واحد من الضحايا الذي أُصيب برصاصةٍ غير قاتلة الوصول الى المستشفى فسمع بأمره القتله وارسلوا من أجهز عليه. تقول: هذه الجريمة وضعت بيد القوميين ورقةً رابحة قدر ما افادت قاسماً في تنكيله بالحزب الشيوعي العراقيّ. كما حملت رجل الشارع واولئك الذين قدروا تضحيات اعظائه وتجردهم ومقدار ما تحملوه – على التساؤل المرير: دانت لهم السلطة بضعة أيام فقط. وجدوا =

وسيبقى الغموض يكتنف دور القيادة المركزية للحزب الشيوعي في هذه الجناية. أكان قتل هؤلاء بأمر مباشر او غير مباشر منها أمّ انّها مجردّ مبادرة شخصية من بعض اعضاء لجنة الموصل المحليّة. على أن التظاهرات الضخمة التي اطلقها الحزب في بغداد والمقالات الناريّة التي خرجت بها جريدته المركزية «مطالبة» بضرب اعناق الخونة، والقضاء عليهم اينما وُجدوا ربما اعتبرت بمثابة إجازةٍ للتخلص جسدياً من ذوي الخطر؟ هذه الحادثة البشعة التي تجد من امثالها في بطون التاريخ ما يفوقها جسامةً وبشاعةً ما لايحصى في ظروف الحروب الاهليّة، آذت سمعة الحزب الشيوعي العراقي كثيراً. وسلمّت لقاسم مبرراً واحداً على الأقل لهجومه المخجل على هذا الحزب كما تركت الحزب نفسه في مأزقٍ وحيرة بين الدفاع عن سمعة المتهمين او تركهم للجلاّد.

ويضيق المقام هنا عن إيراد نماذج وللأكاذيب الإعلاميّة التي حفلت بها ادبيات القوميين العروبين في تلك الفترة وتدركك الحيرة أمام بعضها بين ترجيح سذاجتها وسخفها على إسفافها وسوقيتها على اني ساشرك القاريء باثنين او ثلاثة:

كتبت جريدة «الصفاء» وهي صحيفة قوميّة تصدر في بيروت:

«ارسلتْ بكين شخصيّة صينية شيوعيّة بارزة تدعى [برهان شهيدي] المُسلم لمعاونة الشيوعيين في العراق على تسلّم السلطة وقد قام هذا بدور كبير في مذابح الموصل."[١٢]

= فيها حرية مطلقة في التحكم على المصائر فكيف سيكون الحال لو تسلموا كل السلطة في البلاد؟ وتزامنت الورقة الرابحة وحملة عبدالناصر الكاسحة على الشيوعيين والشيوعية في البلاد العربيّة كما مرّ بيانه. وسارعت الاقلام العروبية باختراعٍ مادعته بمحكمة البروليتاريا او بالوصف الاكثر شيوعاً «المحكمة القصابية» نسبةً الى عبدالرحمن الحاج سلطان (القصّاب حرفياً) والعضو البارز في لجنة محليّة الموصل. لم يكن هذا المسكين السليم النيّة بين اولئك الذين أرسلوا السبعة عشر الى حتوفهم. وكان عليه وهو عضو في قيادة جماعيّة» أن يسكت عنها ويتحمل وزرها طوال عمره لينضو عنه لباسه العقائدي بعد فترة وجيزة، توارى خلالها عند الانظار وكأن الأرض ابتلعته ولم ير احد وجهه بعدها.

(١٢) العدد المؤرخ ١٢ شباط ١٩٦٣ من تقرير لمراسلها في بغداد «سليم نصّار». انّ ماكان يحمل على الاعتقاد بأن لقيادة الحزب يداً في التشجيع والتحريض على الأقل هو الاسلوب العنيف الذي خرجت به جريدة الحزب الرسميّة. مثلاً في ٩ آذار كتبت افتتاحية جاء فيها هذه العبارة: «قلنا والمحنا مراراً ان العناصر في المراكز الحساسة في الجيش امرٌ بالغ الخطورة على سلامة جمهوريتنا وطالبنا بضرب اعناق الخونة ليكونوا عبرةً للغائبين بسلامة الجمهورية». وبعدها بثلاثة ايام (١٢ آذار) كتبت: وجاء يوم الثلاثاء دور الآخرين، فبدأت الجماهير الغاضبة منذ المساء تسحل جثثهم في الشوارع ليكونوا عبرة... وامتدت يد الشعب الى جحور الخونة العصاة فانتزعتهم منها لتنزل بهم العقاب الصارم...». وكان تحريض المهداوي جنود الجمهورية على ضباط أبلغ فقد قال «اذا وجدت هناك بعض الخلايا للضباط المتآمرين فلابّد سيكون مصيرهم السحّل من قبل الجنود.

وكأن جريدتي الأهرام[١٣] واخبار اليوم[١٤] كانتا على موعدٍ في تجريد الشيوعيين من عروبتهم وقوميتهم فذكرتا بنَفَس واحدٍ:

«إنهم... لا تجري في عروقهم قطرة دمٍ عربيّة واحدة، فهَمْ أما كرد او اتراك او ايرانيوّن أو يهود.»

ورددت الصحف الموالية هذه النغمة ثم اضافت وصْفاً آخر لهم ونعتتهم بالعنصريين الفاشيست.

وسمعتُ بالمناسبة كما سمع غيري مهازل وفجاجات في اذاعة «صوت العرب» أسابيعَ وأشهراً![١٥]

ودخل راديو بغداد والقاضي المهداوي في مباراة ومعركة حامية الوطيس فضلاً عن الصحافة القومية في دمشق والصحافة الشيوعية واليسارية في العراق بدتْ صبيانيتها في مسابقة استنباط النعوت القبيحة المضحكة. فبين عُمْلَتيْ [قاسم العراق] و[ناصر الاستعمار] فتح باب الاوصاف الشائنة والأعمال المشينه. والقيت على عتبة مسكن عبدالناصر بمنشية الكبرى تبعة اغتيال الديمقراطية في سورية. كما نبشت القاهرة في قبور التاريخ العربي لتستخرج رمة لاتشرفه. باطلاقها اسم «الشعوبيّة» على الشيوعية وانصار قاسم في العراق. وكان ثم مسيرات وتظاهرات في العواصم الثلاث تخللتها شعارات بذيئة واحراق الصور ووطء رموز اشخاص بالاقدام في الشوارع العامّة.

★★★

لم يكن لدى القائمين بالحركة الانقلابيّة شك في موقف مسيحييّ الموصل وبقيّة قرى وقصبات المحافظة. قد ووضعهم القوميون منذ فجر الرابع عشر من تموز في قائمة الأعداء المغضوب عليهم. وان كان بين اهالي المدينة نفر قليل يحمل بطاقة الحزب الشيوعي فانّ

(١٣) في العدد المؤرخ في ٢٣ من آذار ١٩٥٩

(١٤) في العدد المؤرخ في ٢٤ آذار ١٩٥٩

(١٥) كانت «صوت العرب» مستعدّة لاذاعة كُلّ خبر يشين المنتصرين في معركة الشواف، ويرفع من قدر القوميين العروبيين دون تمحيص او تدقيق فبادر أحد الخبثاء الموصليين بالكتابة للاذاعة عن مظاهرة قومية نسائية خيالية خرجت في الموصل بتاريخ ٢٩ من آذار تتقدمها المجاهدة العربيّة «حسنة ملَصْ» وخرج (احمد سعيد) بمرتبة للشهيدة مستشهَداً بأيات قرآنية وابيات شعريّة تأبينية بليغة واذاعها مكررةً عدة ايام وسامعوها في الموصل وانحائها يضحكون ويتبادلون التعليقات الفكهة والقوميون فيها يحرقون الإرم غيظاً وقهراً. فحسنة ملص هي صاحبة بيت للدعارة مشهور في الموصل. وهي كردية المبنت تكاد لاتفقه من العربيّة اكثر من العبارات التي تعينها على مزاولة حرفتها في هذا البلد العربي.

الاغلبيّة الساحقة من المسيحيين كانت كشأنها دوماً - لا انتمائية، وربما كان التظاهر بالانتمائية الحزبيّة لهذه القلة عاملا لتبرير ادّعاء العروبيين بان معظم المسيحيين هناك هم شيوعيون إن لم يكونوا كلهم.

في مساء السابع من آذار وصباح اليوم التالي. امسك بقلوب هذه الاقليّة رعبٌ حقيقي عندما شاهد بعضهم علامات بالصبغة الحمراء مرسومة على أبواب منازلهم. ويذكرّ اولئك الذين عاشوا أيام مذابح آب ١٩٣٣ بجوّها المشحون ثم سمعوا بيان الشواف بالثورة، وبادراك منهم ما يهددهم من مصير أسرعوا يستنجدون برؤسائهم الروحانيين[١٦] لوضع تأكيده لرؤساء الطوائف المسيحيية الروحانيين بالأمان والحماية موضع امتحان. على ان ساعة الحساب بسبب وقوفهم الى جانب النظام كانت وشيكة وليس بينها وبين (آذار) غير بضعة أشهر.

واهالي الموصل بتركيبهم وعجينتهم العرقية العجيبة حصيلة أجيال إثر اجيال من انسال مختلف الأقوام التي سكنتها. وبتراثها الهائل من ظلم الحكام المستبدين - كانوا خير من حفظ وطبّق الامثولة العربيّة الشهيرة: «اليد التي لاتستطيع قَطْعَها، قبّلهْا»[١٧]

وفي اي وقتٍ، كان القوميون العروبيون فيها قلة، كما كان الشيوعيون واليسار قلّة. وفي كلّ وقتٍ كان للوجاهة وعراقة الأسرة حقوقها وقيمتها يتقاضاها اصحابهما ضريبةً حتمية من سائر القوم في ظروف معينة مرسومة. ولكل حدوده بحسب مركزه الاجتماعي يحاذر ان يتعداه.

إلاّ ان الشيوعيين بتركيبهم البلوريتاري وبعد النصر الذي حققوه. وجدوا أن عدداً كبيراً من افراد تلك الأسر كان باقل تقدير قد تحمسّ للحركة ان لم يشارك فيها عملاً. وفي ذلك الوقت لم تعد سِراً هويات[١٨] القيادة الشيوعية في الموصل ولا مقامهم الاجتماعي وهم الى حين مركز السلطة خلال الاشهر الثلاثة التي تلت وبدت في عجلة لتحويل المدينة الى قلعة لليسار

(١٦) روى لي احد الذين عاشوا تلك الساعات أنه ونفرٌ ممن وجد تلك العلامة المخيفة على باب داره، قصدوا مطران طائفة السريان الارثوذكس بولص بهنام فاتصل من فوره بالعقيد الشواف واخذ منه عهداً قاطعاً بالأمان. وذكر لي ايضاً ان وفداً مماثلا قصد دار بطريركية الكلدان وثالث مطرانية السريان الكاثوليك للغرض نفسه.

(١٧) ربط احد الموصليين صورتي عبدالناصر وعبدالكريم قاسم كّلاً بحبل وصعد الى سطح منزله ايام الاشتباكات. وانشأ يراقب المجموعات التي تمر بالشارع فان سمع هتافاً بحياة الأول انزل صورته قبل وصول الهاتفين وان سمع هتافات بحياة الزعيم انزل صورته...

(١٨) سكرتير اللجنة المحلية هو فراش في ثانوية الموصل. واعضاؤها: عريف مطرود من القوة الجوية وقصّاب وعامل ميكانيك وتلميذ لم يكمل دراسته الثانوية (وهو الوحيد الذي ينتمي الى اسرة وجيهة). لم يسلم واحدهم من فترة سجن قضاها بكل قسوتها ومرارتها في سجون العهد الملكي.

الماركسي اللينيني ونزعها من أخضان القوميين الذين كانوا قد شرفوها في الماضي بلقب «قلعة العروبة» عن طريق استخدام النفوذ والسلطات التي اودعت المقاومة الشعبيّة ذراع اللجنة المحليّة الباطش، وبالشروع بجملة اعتقالات واسعة شملت عدداً كبيراً من الوجهاء والشخصيات البارزة إرهاباً «للرجعيّة» أولصلتها بالمزعومة بالمتآمرين. عهدت بأمرهم في سجن الموصل الى فريق برئسه محكوم سابق بجريمة قتل مزدوجة تمّ ترشيحه وقبوله عضواً في الحزب اثناء وجوده في السجن. ونقلت حكايات فيها كثير من الصحة عن التعذيب الذي لاقاه هؤلاء المستقلون هناك على يده وايدي معاونيه.

وبدا المستقبل كالحاضر مشرقاً وضّاءً والجوّ السياسيّ اكثر صفاء من أن يدع كبار الشيوعيين في الظلام اذ سرعان مانضوا عنهم لباس السريّة الواقي وخرجوا ليتصدروا الحفلات العامة والاجتماعات الجماهيريّة[١٩] بديلاً عن الطاقم القديم وليحلوا محلّه عنوةً واقتداراً. وليغدو مقرهم مرجعاً لذوي الحاجات وطالبي الوساطة. واودعت مقدرات اكثر من سبعمائة مدرس ومدرسة ومعلم ومعلّمة في اللواء (المحافظة) والمدينة بيد لجنة ثلاثية من صغار المدرسين يحملون بطاقة الحزب. فكانوا من الحكمة وبعد النظر ان اقتصر تطهيرهم على طائفة محدودة جداً عرفت. بمحاربتها للديمقراطيين ونشاطها القومي. إلاّ ان الرهبة والنفرة التي اشاعها في اسرة التعليم هناك كان فيها الكفاية.

ولم يَطُل ربيع الحزب كطول ربيع الموصل.

الشيوعيون في الحكم. وإنْ على سبيل المكافأة. وبدا كادره الاعلى وصانع سياسته المثقف جداً. فهو اجهل الناس بطباع الدكتاتور وشراسته حين يطالب بسهم مما يعده الدكتاتور حكرا له وحصراً به وان كان المطلب صغيراً، صفَر ملء مغرفة من الشوربا التي تجرأ (اوليفر تويست) على طلبها بكل براءة اليتم وضغط الجوع[٢٠] غير مدرك بأن ما طلبه هو الحماقة بعينها.

(١٩) مشهد لايبرح مخيلتي قط. كنت جلستُ في شرفة مكتبي المطلّة على الشارع العام، اتابع بانظاري المسيرة الضخمة بمناسبة الاوّل من ايار عيد العمال الدولي – التي نظمها واشرف عليها الحزب وقاد مواكبها وزوّدها بالشعارات والهتافات المناسبة. مرَّ من أمامي موكب زملائي المحامين مع بعض القضاة وتلاه موكب الاطباء ثم الصيادلة ثم غرفة التجارة بعدد من كبار التجار والملاكين ضمن مواكب طلاب المدارس والمدرسين والمعلمين والمدرسات والمعلمات. وصرت اتصفح الوجوه واصغي الى الهتافات واقرأ اللافتات لأعود اتحرّى الوجوه محاولاً النفوذ الى خلفية ما يرتسم عليها من مشاعر الحنق والذلّة، لمقارنتها بما جاشت به نفسي من مشاعر مشابهة فاشمأزت نفسي وليعلم القاريء بالمناسبة أني كنت الوحيد بين المحامين بالموصل الذي تبرع للدفاع عن الشيوعيين في العهد الملكي.

(٢٠) بطل رواية بهذا الاسم للقصصي الانكليزي الشهير چارلس ديكنز [١٨١٢–١٨٧٠].

اقدم (قاسم) على مذبحة قضائية في ضباط الجيش العراقي لا مثيل لها بهولها وحجمها بين كل المذابح العسكرية في سائر البلاد الناطقة بالعربيّة من قبلُ أو من بعدُ.

وقولي مذبحة قضائية ليس فيه غلوٌّ وافتئات كبير على الحقيقة[٢١]، بوضع التطبيق القانوني الصحيح موضع اعتبار في كلّ في قراري الادانة والحكم وفي مسار المرافعات. لاسيما بخصوص اولئك الضباط الذين لم يكونوا في الموصل وعقرة ولم يشاركوا فعلاً في الانقلاب. ولدينا الوقائع التي دوّنت اثناء المحاكمة بأمانة دليلاً. زادها وضوحاً وقوة نشر تفاصيل عنها بتصريحات ورسائل واعترافات للمشاركين عندما لم يبق ثم داع للتخوف والكتمان بعد زوال حكم قاسم. ومن كلّ هذا بدا ان الضباط المؤتمرين في كلّ من بغداد وكركوك واربيل (الى حدٍّ ما) عدلوا عن المشاركة وابعدوا أنفسهم عن عملية الشوّاف قبل الاعلان عنها واثناءها وبعدها. والقوانين العقابيّة المعتبرة وبينها القانون العراقي لايحاسب على النيّة ولا على الاعمال التحضيريّة التي يعقبها العدول عن التنفيذ مهما كان سببه.

ثم هناك الاعترافات المنتزعة بالاكراه والتعذيب البدني. وهو ماثبت فعلاً. وبدت هيئة المحكمة رغم صلافة رئيسها ولسانه السليط عاجزةً فعلاً عن دحض ادعاءات الشهود المتهمين الذين وقفوا اثناء المحاكمات ينكرون ما ادلوا به في التحقيق بسبب مما وقع عليهم من اعتداء[٢٢]. اننا لا نستطيع التسليم بسلامة قرارات الحكم والادانة من الناحية القانونية.

(٢١) تمّ اعدام ثمانية وثلاثين ضابطاً في ثلاث دفعْات [يوم ٧ من آذار، ويوم ٢٥ من آب ويوم ٢٠ من أيلول ١٩٥٩] ولا يدخل في هؤلاء من حكم بالموت غياباً] واحد برتبة عميد، وثلاثة برتبة عقيد وثلاثة برتبة مقدّم واثنان برتبة رائد. وخمسة برتبة نقيب. والبقية برتبة ملازم وملازم اول. وحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة (خفضت أحكام اعدام من بعضها) على سبعة آخرين بالاعدام وخفض الى الاشغال الشاقة المؤبدة منهم ثلاثة برتبة مقدم واربعة برتبة نقيب. وقتل اثناء الاشتباكات بايدي الجنود وضباط الصفّ في الموصل ستة عشر ضابطاً (خلافاً للعقيد الشواف الذي انتحر). منهم ثلاثة برتبة مقدم. واربعة برتبة رائد واثنان برتبة نقيب والباقي برتبة ملازم وملازم اول.

(٢٢) لاشك في ان المعتقلين تعرضوا لأبشه تعذيب واهانة وتحقير وسوء معاملة وانهم ارغموا على الادلاء بشهادات بعضاً ضد بعض. وانا اجتزي بهذه المناسبة فقرة من كتاب الاستقالة الذي رفعه الاستاذ عبدالرحمن البزاز عضو محكمة تمييز العراق الى وزير العدل بعد قضائه عدة اشهر معتقلاً في تلك الايام «لم يحل منصبي القضائي الرفيع يا سيادة الوزير دون احتجاز حريتي ولم يمنع وقوع التعذيب والاهانة بي... ولست اذكر هذا لأني اجهل حياة المعتقلات فلقد اعتقلت في العهد البائد اكثر من مرة واعتقلت بعد ثورة الكيلاني في ١٩٤١. واعتقلت بعد حرب الروسي وتنقلت في معتقلات الفاو والعمارة ونقرة السلمان وبنجوين وغيرها. لكني اسجل هنا للحقيقة والتاريخ بأني لم الق في معتقلات العهد البائد كلها على طول مدتها عشر معشار مالقيت في اعتقالي في هذا العهد السعيد».
نقول: أقدم قاسم نفسه على خطوات في تعقيب الموضوع بعد ان افتضح أمره فاقال عدداً من اعضاء =

والمحاكمات كلّها كانت ذات طابع سياسيّ؛ وان هناك رؤوساً معينة مختارة للجلاّد سلفاً. كان قاسم يخشى بقاء هؤلاء احياء وإن في السجن يذكر «الزبيديّ»[٢٣] نقلاً عن مقابلات وتحقيقات ان عدد الضباط الذين ضمتهم الخلايا السرّية عشية ١٤ من تموز لايتجاوزون ٢٠٣ ضابطاً. عرّف بالاسماء ١٤٤ منهم. وفي محاولة الشواف الانقلابية قتل واعدم ٥٥. واودع السجن ٢٧. وتمّ اعتقال ٣٠ تقريباً طرد معظمهم واغلبيّة هؤلاء الذين يبلغ مجموعهم ١١٢ ان لم نقل كلهم هم من الضباط الاعضاء في تلك الخلايا السرّية. فيكون (قاسم) قد تخلّص والحالة هذه باكثر من نصف المجموع الكلّي، من الضباط «الأحرار».

كثيراً ما يحاول بعض المؤرخين النفوذ الي اعماق ضمائر الحكام المستبدين المطلقي السلطة من اجل الخروج بتعاليل مقنعة او منطقيّة لقرارات مفاجئة حاسمة يقدم عليها هؤلاء الزعماء المتفردين. ولاسيما تلك القرارات التي تتعلق بمصائر الافراد والجماعات وحقها في الحياة، وبكلّ تصميم وادراك منهم بأن توقيعاً واحداً على ورقة لا يستغرق اكثر من ثانيتين من الزمن كاف لايراد هؤلاء حتوفهم. والمؤرخون والكتبة في اثناء مجهودهم هذا هم اشبه بالاطباء النفسانيين Psychiatrist الذين تنتدبهم المحاكم في القضايا الجنائية لتقرير مسؤولية المتهم عن الجريمة بالنظر إلى درجة ادراكه. ومن النادر ان اتفق بعضهم مع بعض في التحليل والتعليل وكثيراً ما وجد هؤلاء من يختلف معهم في الرّأي حول تقدير مسؤوليّة الشخص عينه. وتلك لُعبة يجيدها رجال القانون في ساحات المحاكم بين الدفاع والإدعاء في البلاد المتقدمة حضارياً.

واني ارى ذلك من جانب المؤرخ عبثاً وتبديداً للوقت ولا اظنّ واحداً منهم اتفق مع آخر او كان هناك شبه اجماع – على البواعث والأسباب التي حملت قاسماً على ايقاع هذه المذبحة الكبرى «بالضباط الاحرار» زملائه القدماء ودراستها على ضوء عفوه عن سائر الضباط المعتقلين الآخرين الذين لم يكن دور بعضهم في مؤامرة الشواف بأقل من دور الذين ارسلهم الى ساحة إعدام أم الطبول[٢٤] او لامع اولئك الذين ترصدوا له بنيّة القضاء على حياته في

= هيئة التحقيق العسكرية بينهم صديقه العميد الركن هاشم عبدالجبار وهو شيوعي. كما أحال اربعة من القضاة المدنيين الى هيئة تحقيق مؤلفة من قضاة مدنيين وشرعيين. ثم عدل عن اتخاذ اية اجراءات أخرى وتنوسي الأمر.

(٢٣) المرجع السالف الص ١١٢–١١٧.

(٢٤) بسبب تشعب المؤامرة استفرقت اجراءات التحقيق اشهراً وانداحت الى مختلف انحاء العراق لاسيما في بغداد والموصل وجرى مزيد من الاعتقالات وزاد عدد الضباط المعتقلين على المائة وصدرت قوائم من وزارة الدفاع باحالة عشرات منهم على التقاعد ونشرت قرارات ثلاثة بحجز اموالهم واحوال بعض المدنيين من =

تشرين الثاني من السنة نفسها فاصابوه بعاهة مستديمة وقتلوا سائقه – فابى ان يصادق على وثيقة اعدامهم.

وقاسم كغيره وكصنوه في مصر هو بتقويم نفسه رجل الأقدار، يتحرك بقوى خارقة يفهمها هو دون سائر البشر، اختير لأجل خلق (اثيوبيا) للناس الذين بُعث اليهم وبرهانه هو نجاحه في الوصول الى السلطة المطلقة. وهو بهذا القياس ينضوي تحت قائمة اولئك المتعصبين لأنفسهم كهتلر ونابوليون ولينين، والى حدٍّ ما للزعماء المتعصبين لعقيدتهم كفرويْد وماركس والخميني، وقد يبدو مزيجاً من الصنفين.

منذ اكثر من تسعين عاماً اخترعتْ صحيفة انكليزية شخصيةً خياليةً اطلقتْ عليها اسم «ميستر دوولي» الذي نسب عمل الخوارق الى نفسهِ ووصفته الجريدة بذلك الذي يرى نفسه فاعلاً ما يفعله الله، لو ملكَ الله الحقائق والوقائع».

ومن العبث والحالة هذه أن تجد تعليلاً منطقيا لتلك التصرفات التلقائية التي يطلع بها الدكتاتور بين الفينة والفينة ويخرجها كما يخرج الساحر ارنباً أو أفعى من قبعته وسط التصفيق والهتاف[٢٥].

= دائرة الحاكم العسكري العام شملت ٨٧ مدنياً بارزاً. واقتيد عشرات من كبار القوميين الى مناف وطرد من الوظائف عدد كبير. وتواصلت الاعتقالات دون انقطاع وازداد العدد بعد محاولة الاغتيال البعثيّة حتى متنصّف العام ١٩٦٠ حين اصدر (قاسم) فجأة ومن دون سبق اعداد او تمهيد او انذار – أمراً باطلاق سراح جميع من تبقى من المتهمين بالمشاركة في محاولة انتقاض الشواف وبينهم كبار الضباط الذين شاركوا في هدم نظامه وقتلهُ فيما بعد اذكر منهم على سبيل المثال: عارف عبدالرزاق. صالح مهدي عماش نهاد فخري. عبداللطيف الدراجي. محمود شيت خطّاب منذر الونداوي حردان عبدالغفار. سعيد صليبي. احمد ابو الجبن. علي محمود عريم. عبدالكريم فرحان... واعاد بعضهم الى الخدمة. واصدر اوامر قضت باحتلالهم المواقع التي كانت للضباط الشيوعيين المزاحين. فعين مثلاً المقدم الركن خالد مكي الهاشمي آمراً لكتيبة الدبابات الرابعة في ابي غريب والرائد الركن خالد حسن فريد معاوناً لأمر كتيبة دبابات المثنى في ابي غريب والرائد الركن ابراهيم جاسم التكريتي آمراً للكتيبة الاولى في معسكر الرشيد والمقدم الركن محمد مجيد آمراً لكتيبة الدبابات في الوشاش والمقدم الركن عدنان عبدالجليل آمراً لمدرسة الدروع. وهؤلاء هم الذين زحفوا بدباباتهم عليه في وزارة الدفاع يوم ٨ شباط وأسروه.

(٢٥) من اعجب التعاليل التي وقفت عليها في هذا الصدد هو التفسير الذي قدمه (اكرم الحوراني) الذي كان آنذاك بمنصب نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة.

قال [المسلسل المرقم ٨٨ من مذكراته في جريدة القدس ٢ حزيران ١٩٩٩] قبل ان يخبرنا عبدالناصر عن محطة الاذاعة التي كانت توجّه من قرية [خرابو] في غوطة دمشق بدلاً من اذاعة الشوّاف اخبرني عنها نهاد الغادري الذي كان يعمل فيها مع بعض محرري الصحف في سورية. والذي اثار دهشتي واستغرابي هو ما نشرته صحف الجمهورية من صور الضابطين (ناظم ورفعت) والى مجموعة الضباط باسمائهم الكاملة من اذاعة الغوطة والطبقچلي كان قائداً للفرقة الثانية ورفعت رئيس مخابرات الجيش... اثرت الموضوع اثناء احد الاجتماعات التي كان يعقدها عبدالناصر كل ليلة في قصر الضيافة الى ما بعد =

ومع ذلك فالحيرة تتملكنا ونحن نوازن بين التطرف في القسوة والتطرف في الرحمة ويتعذر علينا ايجاد علاقة سببية بينهما ويحق لنا التساؤل: كيف كان قاسم يتصور بأن هؤلاء الذين اطلقهم واعادهم الى مراكزهم ينسون التعذيب الذي كابدوه في سجونه فضلاً عن دماء رفاقهم وشركائهم المراق؟ وانهم لابد سيبحثون عمن ياخذون بالثأر منه؟

وفي نهاية شهر أيار، اصدر (قاسم) أمراً للعقيد حسن عبود آمر اللواء الخامس الجديد. بالذهاب الى سجن الموصل واطلاق سراح بضع عشرات من الموقوفين الذين اعتقلتهم المقاومة الشعبيّة وهم رهن التحقيق وطرد المشرفين عليهم ولم يخطر المقاومة الشعّبيّة بذلك وتجاهلها.

كانت ضربةً موجعة حاولت المقاومة والحزب في الموصل تداركها، بمراجعة قيادة الفرقة الثانية لاصدار اوامر توقيف بمن تقرر توقيفه ولم تطل هذه الموجة الجديدة الصغيرة كثيراً. واعيد الموقوفون السفرون الى كركوك مطلقي السراح وكلفت هذه الخطوة الحمقاء قائد الفرقة داود الجنابي وهو شيوعي – منصبه فقد أقيل فوراً[٢٦].

= السحور. وكان يحضر هذه الاجتماعات عبدالحميد السرّاج وطعمة العودة الله ومصطفى حمدون وزكريا محي الدين وعبداللطيف البغدادي. ولم اكن اعلم شيئاً عن تفاصيل الاتصالات السابقة التي اجراها عبدالمجيد فريد والسرّاج مع المذكورين. قلت للسرّاج محتجاً أمام عبدالناصر. هل تقصد يا عبدالحميد بنداء انك المتكررة من محطة (خرابو) للطبقچلي والحاج سرّي ان تشي بهم لعبدالكريم قاسم ليلقي القبض عليهم ويعدمهم مع رفاقهم الآخرين؟ كيف يجوز لك ذلك؟ اجاب السرّاج: «ان هؤلاء يجب ان يعدموا. نعم اني اقصد ذلك. ان الطبقچلي لم يزحف بفرقته لمساعدة الشواف في الموصل وان عبدالكريم قاسم كان في قبضة يدي لأنيّ كنتُ على اتصال مع حرسه الخاص. فلماذا لم يتحرك الحاج سرّي في بغداد؟» قلت للسرّاج كيف يجوز لك ان تبدء الثورة في الموصل طالما ان عبدالكريم قاسم في قبضة يدك في بغداد؟ الم يكن من البديهي ان يُقضى على قاسم بواسطة حرسه في بغداد اولاً؟»
وكان عبدالناصر يستمع الى هذا النقاش فلم يتدخل وظلّ صامتا [لاتجد اثراً لهذا النقاش في مذكرات عبداللطيف البغدادي. وقد سبق لنا في فصُولٍ أخرى ان تعرضنا لشخصية الحوراني. وللقارىء ان يقدر مدى صحة ما دوّنه هذا السياسي هنا من تعليلٍ] كما جاء في المسلسل ايضاً هذا: وقد اكدت الاحصاءات التي نشرتها الحكومة العراقية! ان عدد شهداء الموصل بلغ ٢٤٢٦ قتيلا والف جريح.

(٢٦) ممن طالتهم يد الاعتقال الأخير، الصديقان تحسين الشيخ سعيد أمير الطائفة اليزيدية، والسيد عبدالله نشأت رئيس بلدية الموصل وقد كنت محاميهما فقصدت مقر المقاومة الشعبية وطلبت من رئيسها (مهدي حميد) معرفة التهمة الموجهة لهما بحكم وكالتي عنهما. أول لقاء لي بهذا الضابط كان في مكتبي قبل قيام الشواف ببضعة أسابيع إذ جاء بصحبة أحد موكلي (فاتح داود جباري) الذي كان متهماً بست قضايا ارتشاء أيام وجوده في الموصل مديراً للإعاشة وقد اثبت في مركزه بعد محاولة الانقلاب واعيد الى الخدمة العسكرية – أصغى مهدي حميد اليّ ثم قال لي بلهجة تهديد لا تخفى. «انك يافلان تعتمد كثيراً على رصيدك الديمقراطي، بدفاعك عن المتآمرين. عد الى مكتبك ومنزلك وحافظ على سمعتك». واذكر اني اجبت وانا أخرج: تذكر انت وغيرك ان رصيدي الديمقراطي لم يكن كافياً ولا مقبولاً عندما كنت اقف في المحاكم مدافعاً متبرعاً عن رفاقك من المتهمين الشيوعيين.

انزاحت يد الشيوعيين الثقيلة عن الموصل. ومرت بفترة هدوء منذرة بشرّ مستطير. تمّ خلالها تجميع القوى القوميّة والتهيئة لفترة ارهاب وتقتيل لم تشهده اي مدينة عراقيّة في العهد الجمهوري.

وكان تقرير اللجنة المركزية للحزب بادانة نفسها في شهر آب ١٩٥٩. إثر مقاتل كركوك في تموز، واحداً من عوامل القضاء على مظاهر السطوة التي مارسها الشيوعيون بعد محاولة الشواف. كما كان التقرير ايضاً ينطوي على نوع من التعهد الضمني بان اعضاء الحزب لن يستخدموا حقهم في الدفاع الشرعي الشخصي ايّ الرد على العنف بالعنف بوضعه الثقة التامة بالسلطة. وكلّ هذا وبأوامر صريحة من الحزب بعدم الردّ لم يعد هناك من سبيل لشيوعيي الموصل إلاّ الهرب او الاختفاء، لاسيما بعد ان سقط منهم ستة او سبعة ليس بينهم من عُزي اليه عملٌ معين ذو طابع جنائي اثناء القضاء على المحاولة الانقلابيّة. وكذلك كان الضحايا غير الشيوعيين الذين سقطوا ببضع مئات عندما استبيحت المدينة باسم القومية والدين والثأر للشهداء الذين سقطوا في اثناء الاشتباكات واعدموا الحياة في ساحة «امّ الطبول».

منذ متنصف العام ١٩٦٠ حتى نهاية حكم قاسم جرت الاغتيالات[٢٧] في الموصل بشكل استباحةٍ مطلقة. القتول تتمّ في وضح النهار، في الشوارع وفي مجالّ العمل وفي المنازل وفي المدارس. والقاتل لم يكن يخشى تدخّلاً لا من المارة ولا من الشرطة. وكان هناك لجان سرِيّة في مبدء الأمر، تقوم باستئجار القتلة المحترفين ومعظمهم من الاوباش المعروفين والجانحين وذوي السوابق فتضع بيدهم اداة الجريمة (والمسدس هو السلاح الاعتيادي) وتزوّدهم بالاسم وبعنوان الضحيّة، وبالثمن المقررّ للدم المسفوح. ولا يتخذ القاتل مطلقاً – أيّ احتياط لنفسه. فهو على ثقةٍ تامة بأن لا احد من عابري السبيل الكثيرين يجرء على الشهادة ضده وان ليس هناك تحقيق قضائي جدّي. فكل القتول تسجلّ ضدّ فاعلٍ مجهول. ويبقى ملّف القضية فترة من الزمن ليختم عادة بغلق التحقيق ومرت فترة كانت لجان الاغتيال السرية صاحبة الأمر والنهي.

ثم وجد بعض بان يتلقى الطلبات رأساً من كلّ ذي حاجة الى تصفية حساب شخصي مع عدو أوخصم. او التخلص من منازعة قضائية او منافس في عمل تجاري أو شريك مزعج في

(٢٧) انظر الفصل (٢٨) من كتابنا العراق في عهد قاسم: الص ٧٩٣–٨٤٠ ج٢ ط ستوكهولم ١٩٨٩ (الإرهاب الاعظم في الموصل ١٩٦٠–١٩٦٣)، وقد اتينا فيه الى ذكر حوالي ٤٠ ضحية بالاسماء من اصل ١٥٨ كنت قد احصيتها شخصياً الاّ ان العدد الحقيقي يزيد عن ضعف ما احصيته. وجاء فيه ايضاً ذكر اسماء للقتلة المأجورين.

عقار او المال. أو لمجرد سلب أو سرقة لا غير. وبدا وكأن الأمر قد خرج من يد اللجان القوميّة السرية إذ بقي القتلة يرتكبون جناياتهم باسم القوميّة والدين ومكافحة الشيوعية والشيوعيين[٢٨].

وبتأتي حرص القتلة على التنفيذ في وضح النهار علنا وامام سمع المارة وابصارهم – من قصدهم اشاعة الرهبة والهلع في النفوس وشل القدرة على التفكير. وبمرور الزمن تفشت الأمراض العصبيّة بين السكان وزادت الحاجة الى العقاقير المهدئة والمسكنات. وبلغت مقادير استيرادها حداً لا يصدق. روى لي صاحب مذخر طبيّ اضطر بالاخير الى الانتقال الى بغداد. ان مقدار ما استورده من الادوية المسكنة والمهدئة للاعصاب بلغ ٧٥ بالمائة من سائر الادوية الأخرى التي طلبها حتى ان مذاخر بغداد عجزت عن تلبية طلبات الصيدليات الموصلية من عقاقير اللبيزيوم والڤاليوم. والمورفين والاسبيرين ومشتقاته.

ليس هناك من كارثةٍ يصاب بها مجتمع ما أعظم أثراً واشدّ هولاً، من الخوف. الخوف العام أو عقدة الخوف كما يسميها النفسانيون، تشل قابليات الانسان الخلاّقة وتنسيه اهميته لنفسه ولذويه ولمجتمعه. والمسألة هنا لم تعد مسألة عدد الضحايا: مائة او مائتان أو ثلاثمائة وفي مدينة كانت تضم اكثر من ربع مليون ولا يراعي سكانها مبدأ تحديد النسل، في ظرف سنتين ونيفّ. لهو أقلّ بكثير من حصيلة أيّ كارثة او نازلة من نوازل الطبيعية. أو وباء منتشر.

هذه المدينة وقعت بيد عشرين من القتلة والمنتقمين، فريسةً سهلة تحميهم السلطة وتتستّر عليهم. وفيها ضرب الاهلون على انفسهم «منع تجوّل». فلا ترى في الشوارع او الازقّة إلاّ ذلك الفريق الجاني وانصاره يشقون غيهب الظلام ويهتكون حجاب السكون بعربداتهم وسكرهم.

وافقدت حالة الخوف الجماعي القدر على التفكير المتزن. فصار الفرد يتخبط في تيه من فحص الذات ومراجعة السلوك. وظهر على الكثيرين اعراض مرض الشعور بالذنب الموهوم، الذي ادّى بالآلاف الى هجرة جماعيّة لم يسجّل تاريخ المدينة المدوّن لها مثيلاً[٢٩].

(٢٨) ترصد القتلة الساحب او المودع بعد التاكيد من وجود مبالغ عنده حتى اذا كان على مسافة من البنك عوجل برصاصة قاتلة واستلب ما يحمله من مال. ويترك القاتل او القتلة موضع الجريمة هاتفاً "تحيا القومية العربيّة. هذا مصير الشيوعيين الخونة" [راجع: العراق في عهد قاسم. ج٢ ص٨٢٩. المصدر السابق].

(٢٩) عرفت انساناً متزناً راجح العقل. ابعد الناس عن السياسة والارهاصات الأخيرة. كان قبل نزوحه واسرته عن المدينة. يقضي معظم ليالية ساهراً مفتشاً في ذات نفسه عن تصرفات معينة ظهرت في غفلةٍ منه اثناء الفتنة قد نجعله مرشحاً للتصفية او هدفاً لرصاصة. وضمن ذلك الفحص استعراضٌ شامل =

في العام ١٩٣٣ اقتصرت حالة الهلع هذه على المسيحيين فيها بعد مذابح آب. لكنها لم تدم كثيراً ولم يسقط قتيل واحد منهم فيها.

وكما مَرّ بيانه سجلت اوراقي ١٥٨ إسماً من الضحايا – اسماء عمال وشغيلة وكسبة ومهنيين وتجاراً ومعلمين وطلاب مدارس ليس بينهم امرأة واحدة. مجرد اسماء عابرة لو لم اسجلها لضاعت وطواها النسيان. انها لم تسجل على شواهد قبور فمعظم الضحايا لم تعلم قبورهم لأن ذويهم والاقربين كانوا يتحاشون العلنية ويستغنون عن مراسم الدفن خوفاً على انفسهم. وعندما غدت الاغتيالات جزءً من الحياة اليومية استغني عن المراسيم التقليدية من تشييع ومجلس عزاء وصلاة وهي من العنعنات التي تعتز بها المدينة وجزءٌ لا يتجرأ من مكانة الأسرة.

ان هذه الاسماء التي جمعتُها لاتمثل مطلقاً المجموع الحقيقي. فالعدد اكثر مما تنسىّ لي جمعه كثير وبشيء من التحفظ والحذر من المبالغة يمكن تقديره بثلاثمائة ونيفّ. لكن بعضهم ظلّ يصّر على ان العدد يتجاوز الستمائة وهذا ما لايمكن التثبت منه قطّ لعدم وجود سجلات رسمية باقية لا في دوائر الأمن والقضاء ولا في دائرة الطب العدلي. فكلها تتلف بعد مرور مدةٍ معينة قانوناً.

وربما بولغ أيضاً في حجم النزوح العام عن المدينة. وقد قدر بتحفظ في حينه بعدد يتراوح بين الفيْ أسرة وألفٍ وخمسمائة، فضلاً عن هجرة افراد. وكانت الضربة ثقيلة على المسيحيين بنوع خاصّ.

ما من شكّ في ان عدد القتلى من المسلمين يزيد كثيراً عن عدد المسيحيين إلا ان الحصة المسيحيّة لم تكن تتناسب قط من مجموع السكان الكلي وكذلك كانت نسبة الهجرة من المدينة فقد تناولت مما تناولت أعرق الأسر. وبدت مقدمة لهجرة المسيحيين العراقيين الكبرى الى خارج العراق – وهي هجرة امتدت الى يومنا هذا تعيد الى الى الذهن ما حصل لليهود عندما صدر قانون اسقاط الجنسية عنهم في ١٩٥٠. وعندما عانى الاقباط في مصر بعد ثورة يوليو. وكان النازحون يتخلصون من عقاراتهم وممتلكاتهم بيعاً وبابخس الاثمان او يتركونها عندما يعزّ الشاري، ويقطعون علاقاتهم التجاريّة أحياناً دون تعويض عندما يفقدون الأمل بالعودة.

والقيت «تهمة» الشيوعية على رأس كلّ مسيحييّ المدينة. وكانت جدران الكنائس أحد

= لعلاقة له او حادث مهما صغر فيه اساءة لأحد من ذوي العلاقة بالاغتيالات قد تدفع الى عقد صفقة قتل عليه أو تبررها بشكل ما.

الاهداف التي توجه تلك السهام اليها. فترى هذه العبارات مصورةً باحرف كبيرة: لا مسيحية بعد اليوم، لا شيوعية بعد اليوم، الموت لعملاء موسكو. الويل لاعداء العروبة والاسلام. ولا يجرء احدٌ على ازالتها. وقد حاول احدهم فكان جزاؤه رصاصة في مقتل[٣٠].

لم يفعل القوميون الحقيقيون (المعقولون) شيئاً لوقف هذه الصبيانيات الاستفزازية ولم يقدروا خطورتها على السمعة بل كانوا يشجعونها. وقد بدوا في حرب سلاحها الشعارات. كان ثمَّ مثلاً مساجد معينة مغلقة لليسار يختلف اليها الشيوعيون وانصارهم. بل يعقدون فيها اجتماعات. وقد بقيت جدرانها نظيفة خالية من اي شعار استفزازي. في حين لم يُعقد في اي كنيسة وفي اي وقت، اي اجتماعٍ ذي صفة سياسية او عقائدية.

في اثناء هذه الفترة كان الحزب الشيوعي قد فقد كثيراً من أسنانه جرّاء اللكمات التي اصابته دِراكاً من (قاسم). وبدا ولاسيما بعد ضجّة قتول كركوك (١٤ تموز ١٩٥٩) يهتز ويكاد يهوى تحتها.

وبدا استسلامه لدكتاتور ساهم في نحت تمثاله – استسلاماً كاملاً باعترافه النادم الكامل باخطائه في تقريره الموسع الذي نشره في ٢٩ من شهر آب ١٩٥٩. كما يعيد اى الذهن تلك الاعترافات السيئة الصيت التي كان قادة ثورة اكتوبر ١٩١٧ وصانعوها يتبارون فيها خلال محاكمات ١٩٣٦–١٩٣٨ الصورية التي نظمها ستالين لهم. وقد وجد من الحصافة ودقّة الموقف ان يبعد نفسه ما استطاع عن الانتصار للضحايا بالشكل الصارخ العنيف الذي اعتاده حتى بالمغامرة بفقدانه شعبيته وجماهيريته. بدا الحزب مقرّاً اقراراً شاملاً بذنوب ارتكبها ولم يرتكبها كما كان تقريره هذا ينطوي على نوع من التعهد الضمني بان الحزب لن يستخدم حقّ الدفاع الشرعي عن اعضائه وانصاره باطلاق ذراعه الضاربة على القتلة الجناة. ورفض اعطاء إجازة بالرّد على القتول. اذ كان يخشى أن يجعل قاسم من القتلة الجدد تعلّة لانزال المزيد من العقاب بالحزب[٣١].

ولذلك استخدمت لسان الحزب «اتحاد الشعب» وللفترة القصيرة مهما تبقى من عمرها اخفّ اللهجات في تذكرة (قاسم) بما يحصل في الموصل.

(٣٠) قتل (هاني متّى يعقوب) السائق في مطرانية الكلدان اثناء سيره في شارع التجفي وقد عُرف بهوسٍ ولجاجةٍ في مسح وازالة الشعارات المعاديّة التي كانت تكتب على جدران كنيستيْ الطاهرة ومسكنتا.

(٣١) أكد لي من لا اشك في قوله وفي مقدرته على تنفيذ ما يعنيه ولم يكن من اعضاء الحزب بل من مؤيديه قال انه وزمرة من اصحابه «القبضايات» راجعوا الحزب مراراً وتكراراً طالبين الأذن لهم بالردّ على القتول: «كُنا نعرف هؤلاء القتلة واحداً واحداً. وكنا على ثقة من امكاننا وضع حَدّ لهذه الاستباحة لو سلّمنا القانون بايدينا وصرعنا اثنين فحسب من هؤلاء. إلاّ ان موقف الحزب الشيوعي كان ضدّ ذلك».

وناشدته باسلوب المعاتب – وقف النزف «لايقتضي الأمر الاّ اجراءات بسيطة منك...» وجارتها في هذا السلوك سائر الصحف السائرة في ركاب اليسار، بنشرها بين الفينة والفينة اسماء بعض الضحايا مع تعليقات من امثال «قتل بسبب إخلاصه للجمهورية والزعيم...» مع التسآل المألوف «لمصلحة مَنْ تستمر هذه الـ...».

في اواخر العام ١٩٦١ شجعّ الحزب الشيوعي الموصليين الثاكلين منهم والمتضررين الذين نزحوا الى بغداد – على رفع عريضة الى (قاسم) مذيلة بمئات عدة من التواقيع، تتضمن اسماء وهويات ما ناهز المائة من الضحايا. إلاّ ان الدكتاتور الذي لم تفارقه سورة غضبهُ على الحزب، لم يكن مستعداً للاستجابة ووقف النزف. ولم تكن اي صحيفة يسارية المنحى (ولم يبق منها غير القليل) مستعدة للمخاطرة بنشر ايّ عريضة مشابهة.

وتعاونت القوى السياسية جميعها على طمس هذا الفصل المأساوي من تاريخ العراق والمنطقة. فالباحث لايجد أثراً يعينه على تقصّي ما وقع خلال تلك الفترة – في سائر المراجع العراقية او الاجنبيّة. كما انك لاتجد نبأ واحداً عن الحوادث والقتول نقلته في حينه عن العراق اية وكالة من وكالات الانباء التي تعمل في العراق. وقصارى ما وجدتُ في تعقيبي المضني هو هذه العبارة المقتضبة للكاتب الاسرائيلي اوريل دان[٣٢]...

«تصاعد الارهاب ضد (الشيوعين) منذ بداية ١٩٦٠... وما عتم هذه الارهاب ان حقق غايته في مرجل بغداد البشري الواسع... ووصلت حالات الاغتيال الى درجة من الكثرة بحيث لم يعد في مدينة الموصل شيوعيّ واحد. ولم يكن ثم ما يدل على وقوع القتلة في يد العدالة. ولم يتخذ الشيوعيون تمشياً مع السياسة التي استقروا عليها اي اجراء يهدف الى حماية انفسهم بوسائل عمليّة عنيفة».

لكن هناك فقرة في كتاب «ثورة الموصل القوميّة» تستوقف النظر فيها حاول المؤلف أن يتخطىّ تلك الفترة يالقفز بها من فوق السياج القاسمي مبتعداً بتاريخها الى ماجرى اثر انقلاب الثامن من شباط ١٩٦٣:

«ما ان قضي على حكم عبدالكريم قاسم. إلاّ وقام ابناء الموصل ينتقمون لشهدائهم الابرياء من القتلة والمجرمين، عدا من فرّ منهم الى خارج العراق

(٣٢) Uriel Dann. المرجع السالف ط. اورشليم ١٩٦٩. من ترجمتنا الص: ٣٩٣–٣٩٤. ج١ [على سبيل المثال كتاب حنا بطاطو الكبير يحلو من تنوية بهذا رغم انه عقد فصلاً كاملاً عن المحاولة في الموصل الص ٨٦٠–٨٨٩. كذلك موسوعة العميد خليل ابراهيم (المرجع السالف) ذو الاجزاء السبعة وغيرها.

واللجوء الى بعض الدول الشيوعيّة التي حمتهم وانقذت حياتهم من العقاب الذي يستحقون. »[٣٣]

صحيح ان ما تمّ بعد زوال حكم قاسم كان امتداداً لفترة الارهاب تلك الا ان السلطة الجديدة كانت هذه المرّة تتولاه بنفسها.

وقد قام حكم البعث في الموصل فوراً بتصفية كلّ القتلة جسدياً ومحليّاً إمّا اخفاءً لسلوك بعضهم الضالعين أو تاكيداً لقبضه على زمام الأمور وبزعم سيادة القانون بجعل القتول والتصفية الجسدية حقاً له واحتكاراً. فلم يؤثر أم سقط قتيل واحد في المدينة برصاصة قاتل مأجور بعد استيلاء الانقلابيين البعثيين على الحكم.

ويطيب لي وانا اودّع هذا الفصل المأساوي أن اثبت تحليلاً لصاحب كتاب ثورة الموصل القومية ذاك. كما جاء في مقدمته:

«فجّرت ثورة الموصل الصراع بين القوميّة العربية والشيوعية والشعوبية والاستعمار الغربي. وقد وقفت جميعها الى جانب حكم عبدالكريم قاسم تؤيده وتدعمه وتناصره لتحقيق اهدافها المتناقضة المتنافرة في العراق بافظع وسائل القتل والسحل والتدمير. وكشفت ثورة الموصل القوميّة ايضاً الجوانب السلبيّة للزعامة القومية العربيّة التي خيل لها انها قادرة على التغلّب على القوى المعادية لها بالشعارات المثيرة وبصحب الاذاعات المدوّي وبالخطب الرّنانة التي تلهب مشاعر الجماهير. »[٣٤]

والمعنيّ بهذا هو عبدالناصر وإعلامه بطبيعة الحال. «فالدرّة» وهو قومي عتيق وكاتبٌ مكثر شارك عمليّاً في عملية الشوّاف كان واحداً من كثير من القوميين الذين ادانوا الزعيم المصري

(٣٣) محمود الدرة. المرجع المثبت. بغداد ١٩٨٧ ص٣٩٢. حاول مؤلف «اوكار الهزيمة» التنويه بفترة الاغتيالات محاولة صادقة وربما أخطأته المعلومات الدقيقة وعذره التعتيم المتعمد الذي سعت اليه السلطة على ما يبدو قال: بدأت فترة اواخر ١٩٥٩ واوائل ١٩٦٠ تشهد تفشي عمليات اغتيال فردي تطال الشيوعيين في سائر انحاء العراق ولاسيما في الموصل وكركوك. وهذه العمليات جاءت في معظمها ثأرية وعفوية وجد منفذوها ان تخلّى الحكم عن الحزب الشيوعي خلق لهم الفرصة السانحة لا بل هناك من يردّ الكثير منها الى اجهزة السلطة نفسها التي ارادت تحجيم الحزب الشيوعي وتصفية بعض الحسابات معه... ولا اذكر ان حزب البعث شجب هذه الاغتيالات أو حاول الوقوف في وجهها. بل يمكنني القول اننا في بعض المناطق والاحياء شجعناها ورعيناها من دون ان يكون ثمة دور مكشوف او مباشر للحزب الذي ادان الاغتيال السياسي سابقاً [هاني الفكيكي. لندن ١٩٩٣. ص١٩٧].

(٣٤) المرجع السالف ص١١.

لموقفه الضعيف منها. ولعلهم كانوا يتوقعون تدخلاً عسكرياً واسع الحجم.

في المعركة الكلامية الرعناء، بدا (قاسم) وكأن الأمر لا يعنيه في شيء - هدؤ ووقار ربّاني وتعفف متعمد عن النزول الى مستوى ذلك الرجل. هذا وقد لاحظنا انه طوال حياته السياسية وفي سائر تصريحاته ومؤتمراته الصحيفة لم يذكر اسم خصمة هذا مرةً واحدة لا بالاسم ولا بالضمير ولا بالإشارة رغم التحدي المباشر الذي لقيه منه وربما امكن تفسير ذلك سيكولوجيا، بأنه محاولة منه لإظهار تفوقه على خصمه من ضبط الاعصاب والترفع عن هجر القول[٣٥].

في غمار تصعيد الحرب الاعلاميّة تلقّى السراج رجل سورية القوي نبأ تصميم قيادة قطر العراق على خطّة جريئة لانهاء حياة قاسم ولم يعارض عبدالناصر لكنه اشترط ان لا يكون لـ (ج.ع.م) دور ظاهر فيها واتضح فيما بعد ان قيادة القومية كانت على علم تام بالقرار، وإن لجأت الى انكار ذلك فيما بعد. وتاكيدها بأن الحزب لا يؤمن بالاغتيالات السياسية وسيلةً للوصول الى السلطة.

والبعث في عراق مابعد آذار ١٩٥٩ بدا وكأنه يخوض معركة بقاء بسيطرة اليسار على الشارع. كان قادة البعث العراقيون شباناً في مقتل العمر لم تطحنهم التجارب السياسيّة يحاولون تغطية النقص بحماستهم واندفاعاتهم المتفانية. ومن فرط تلك الاندفاعات العاطفية وفي مقدمتها الثأر للقتلى القوميين قصرت عيونهم عن رؤية مابدا واضحاً من تلك الخطّة التي اعتمدها قاسم للقضاء على النفوذ الشيوعي بضربات متتالية متلاحقة. كانوا في عجلة من أمرهم ولم يتركوا لقاسم هذا «الواجب» بحسب تحديد احد قادتهم:

«باتت تصفية الشيوعيين واجباً قومياً، كل من يتحفظ عليه او يتردد فيه يعد جباناً، بعد ان كان من قبل واجباً اسلاميّاً. »[٣٦]

(٣٥) باء كل محاولة من وليم ماكّيل مراسل مجلة التايم الأمريكية لاستدارج قاسم الى ذكر اسم عبدالناصر بالفشل التام [مقابلة ٢١ آذار ١٩٥٩]

س: ما رايك في الاسباب التي دعت عبدالناصر الى توجيه هجومه على الجمهورية العراقية وقيادتها؟

ج: انا شخصياً لم اهاجم احداً. ولعلهم هم أنفسهم يعرفون اسباب هذا الهجوم السافر على العراق.

س: بوجود عبدالناصر على رأس النظام المصري هل بإمكان هل بإمكان العراق اقامة علاقات صداقة مع (ج.ع.م)؟

ج: الشعبان المصري والسوري شقيقان ولن نتركهما والمعتدي سيعود الى رشده ونحن لا تحمل شيئاً على احد وعلاقتنا ستكون جيدة حتماً مع كل البلاد التي تضمر لنا سوءاً.

س: اهناك أمل في لقاء بينك وبين عبدالناصر لتسوية الخلافات؟

ج: بدأنا في بناء مجتمع وانت الآن تشاهد النتائج سواء تمت المقابلة التي تعنيهااولم تتم فنحن نواصل عملنا.

(٣٦) الفكيكي المرجع السالف ص٩٥.

كانت المعادلة عندهم بهذه البساطة: هناك ارتباط مصيري بين قاسم والشيوعيين وليس في نية قاسم التفريط بهم ونفض يده منهم تماماً. فالقضاء على شخص قاسم سيرفع مظلّة الحماية عن هؤلاء الشيوعيين الواقفين بالمرصاد لكل محاولة تحقيق للوحدة العربيّة. تلك الغاية السامية التي ارغمت حزبهم قبل سنتين على التضحية بتنظيماتهم في سبيلها عندما اشترط عليهم عبدالناصر حلّها لقبول الاندماج الوحدوي. وها هم الأن يتخلون عن مبدء حزبي آخر بتبنيّ خطّه الاغتيال:

هناك من يزعم ان قيادة البعث القوميّة كانت على علم بالمحاولة. فلم تعلن رأيها بشجب مبدء الاغتيال وتصدر اوامر قاطعة بالكفّ عنها. وفي ذلك الحين كان الركابي أمين سرّ قطر العراق على صلة وثيقة بالزعامة المصريّة[٣٧].

تمّ امداد قيادة القطر بالسلاح عن طريق منظمات الحزب السرية في البوكمال ودير الزور[٣٨] وشكلت لجنة التنفيذ لهذا الغرض رئسها اياد سعيد ثابت وهو والشيء بالشيء يذكر الأبن الوحيد لذلك النائب القوميّ في العهد الملكي الذي طالب الحكومة الگيلانية بخطاب ناريّ له في مجلس النوّاب باتخاذ اشدّ الاجراءات صرامة ضدّ الاشوريين في العام ١٩٣٣[٣٩]. وقامت تلك اللجنة بالتدريب على الرمي في منطقة الحصوة الصحراوية. ثم استأجروا مَحلاً مطلاً على شارع الرشيد برأس القرية وادعوا فيه اسلحتهم. وكذلك اعلموا عدداً من الضباط القوميين بالأمر ليستعدّوا بالسيطرة على القطعات العسكرية وكانت الخطة تتلخص في ان يقوموا بمهاجمة سيارة قاسم اثناء مرورها في الشارع بعد إعلامهم بخروجها من وزارة الدفاع. وبعد ان ترغمها سيارة لهم معترضة على ايقافها ثم فتح النار عليها من

(٣٧) من مظاهر تلك الصلة. التكريم الخاص الذي حظي به فؤاد الركابي عند عقد زيجته بإبنة محمود الدرة في القاهرة. فقد كان عبدالناصر احد شاهدي القران. ويذكر الفكيكي [المرجع السالف ص١٠٠] «ان الرعب سيطر على ميشيل عفلق بسبب صلة الركابي والريماوي (امين سرّ القطر في الاردن) بعبدالناصر. وخاصة بعد علمه ان قيادة الحزب في العراق كانت تخطط لاغتيال عبدالكريم قاسم بالتنسيق مع قيادة العربية المتحدة. وكان مصدر رعب عفلق وهلعه، رغبة عبدالناصر في سرقة فروع الحزب». بينما يذكر الركابي [الحلّ الاوحد. المرجع السالف الص٥٣-٥٤] انه حصل على موافقة ميشيل عفلق والدكتور صلاح البيطار في القاهرة في كانون الأول ١٩٥٨. وقال انه اتصل بالقادة العسكريين العروبيين انصار الوحدة الفورية واخذ موافقة رئيس مجلس السيادة الربيعي الذي ابدى استعداده ليكون رئيساً للجمهورية على ان لايلح البعث في اتحاد سريع مع (ج.ع.م).
والزبيدي: المرجع السالف ص٤١٧. اقرار محمد صديق شنشل امين السرّ العام لحزب الاستقلال بانه دفع مبلغ الف دينار (زهاء ٤٠٠٠ دولار) لتغطية النفقات.

(٣٨) كان العقيد امين الحافظ وهو عضو في حزب البعث قائداً للمنطقة العسكرية اذ ذاك.

(٣٩) عن هذا النائب راجع الكتاب الرابع من هذا السفر.

جهةٍ واحدة.

في الخامسة من يوم ٧ تشرين الأول ١٩٥٩ وردت الإشارة المنتظرة بخروج سيارة قاسم في طريقها الى حضور حفلة استقبال في دار ممثلية ألمانيا الديمقراطية من رئيس الأول الركن صالح مهدي عماش وهو احد الواقفين على الخطة. فهرعت المجموعة برشاشاتها الى الشارع. إلاّ ان السيارة التي كان مقرراً ان توضع حاجزاً السيارة قاسم تعطلّت واوشك المنفذون على التأجيل لكن سيارة قاسم لاحت لهم اثناء ذلك فقرروا التنفيذ وكانوا على جانبي الشارع واطلقوا النار فقتل السائق وجرح مرافق قاسم امّاهو فقد تهاوي على معقد السيارة الخلفي مصاباً بعدد من العيارات النارية في كتفه اليسرى فظنوه قتيلاً. وصرع احد المنفذين بيد اصحابه واصيب آخران أيضاً بنار رفاقهم[٤٠] وتمكن الجميع من الفرار واللجوء في بيت حزبي بحيّ العلوية بقوافيه مدّة حتى تمّ اعتقال بعضهم في حين نجح آخرون في اجتياز الحدود.

سارع احد سوّاق التاكسي المار بمحض الصدفة – الى قاسم ونقله الى المستشفى. وفي وزارة الدفاع اقبل (نجيب الربيعي) بكامل بزته العسكريّة وبحسب الاتفاق ليتولى زمام الأمور. تماماً مثلما اقبل الفيلد مارشال (ڤيتزليبن) على دار المستشارية ببرلين لتسلم مقاليد الحكم في العام ١٩٤٤ اثر انفجار قنبلة المتآمرين على حياة هتلر في مقره بالجبهة الشرقية أقبل بكامل بزته العسكرية أيضاً. إلاّ أن (الربيعي) لم يلق مصير نظيره الألماني الذي دفع حياته ثمناً للرحلة المشؤومة اذ عاد من مغامرته خائباً. بعد أنْ فشل في اقناع رئيس اركان الجيش بعمل سياسيّ أو عسكريّ. وما من ريب في أنّ الاستنفار الشعبي، والتلقائي ونداءات الحزب الشيوعي بالخروج الى الشارع كان له اثره البارز في احجام الضباط القوميين عن محاولة تالية قرر أن تجري في وزارة الدفاع لانتزاع المبادرة.

اذ ما مرت سويعات حتى غضبّت الشوارع بحشود ضخمة وهي تهتف بحياة الدكتاتور وتهنيء نفسها بنجاته.

أحيط (قاسم) من فوره بدور نجيب الربيعي، فتجاهل الأمركله ثم اصدر أمره باستبعاد اسمه من التحقيقات تماماً ولم يشأ ان يضعه امام المهداوي أو أن يفعل به كما فعّل عبدالناصر بسميّه اللواء نجيب. وقبل زعمه بأنه انما جاء لمعالجة الموقف بصفته الرسمية.

مع ما ابدينا من عجزٍ عن تفسير منطقي لكثير من إجراءات قاسم الصفوية الجائحة، فقد

(٤٠) القتيل عبدالوهاب الغريري والجريحان سمير عزيز النجم وصدام حسين التكريتي [انظر التفاصيل في اسماعيل العارف: المرجع السالف الص: ٣٨٥-٣٩٠. ذكر انه وبوصفه آمر اللواء العشرون، تمكن خلال مدة قصيرة جداً من نشر وحدات لوائه في ارجاء العاصمة وسيطر على الموقف تماماً].

تستطيع هنا تفسير سكوته عن هذا الذي نصبه رأساً لنظامه، بأنه مجرد اعتزاز بالنفس والرفض في ان يبدو مخطئاً أمام الملأ بسوء اختياره شخصاً يشارك في التآمر عليه ويعمل على قتله وقد وجدناه يؤكد دوماً في خطبه عصمته من الخطأ في اتخاذ القرارات المصيرية ليترك في السامع اثراً واحداً لا ثاني له: انه يعمل بالهامٍ سماوي ووحي من الله.

من الناحية السياسيّة المجردة وباستقراء الوضع الذي ساد العالم الناطق بالعربيّة فيما يتعلق باماني القوميين العروبيين في الوحدة الكبرى بدا القوميون العراقيون بلهفتهم في القضاء على قاسم ونظامه في عجلةٍ رعناء لا مبررّ لها. فمنذ متنصّف العام ١٩٦٠ وبعد قاصمة الظهر التي انزلها الدكتاتور بالحزب الشيوعي العراقي[٤١]. بدا واضحاً ان عبدالناصر رغم مباركته مشروع الاغتيال، كان قليل الأمل في نهاية قريبة له. وتضاءلت هجمات الاعلام كَمّاً وكيفاً. وقد يكون معقولاً الاستنتاج بأن مبعث ذلك مرور الوحدة الثنائية في أزمةٍ. كان هناك تذمرّ عام وغليان يجيش في نفوس السوريين وبدت الوحدة حتى لتلك الاطراف التي تحمست لها وهرعت الى عبدالناصر متوسلة به لابرامها مجرد خيبةٍ وسوء تقدير كبيرين.

لك تعد (ج.ع.م) كدأبها في الماضي الى وضع العراقيل أمام مشاركة الوفود العراقية في المؤتمرات العربيّة. ثم عادت لتمثيل العراق في اجتماعات مماثلة. وكان عبدالناصر وقتذاك قد اصلح جسوره مع الاتحاد السوفياتي وما عاد يردد تخوفّه من الخطر الأحمر الآتي من «شرق (ج.ع.م)» سيّما بعد الضربات القاسميّة. وتمّ التوصل الى وصفةٍ طبيّة مسكّنة بدت في مؤتمر وزراء خارجيّة الدول العربيّة المنعقد ببغداد في ٣٠ من كانون الثاني ١٩٦١[٤٢] وسمح للمنظمات القوميّة العروبيّة في العاصمة العراقية بالهتاف بشعار الوحدة، وباسم زعيمها عبدالناصر. واذن للصحف القوميّة بالصدور مقابل غلق معظم صحف اليسار وملاحقة الشيوعيين والمناصرين قضائياً. كما تراخت قبضة اجهزة الأمن عن اعناق القوميين لتشدّ على أوردة الخصُوم وتلك هي سياسة الموازنة التي اعتمدها قاسم وبدت بوادرها واضحةً بعد احداث كركوك مباشرة بسلسلة متوالية من العقوبات الموجعة[٤٣].

(٤١) ضنّ (قاسم) على الحزب بالشرعية عند رفض طلبه بالاجازة الرسمية لمزاولة نشاطه علناً وفق قانون الجمعيات الصادر في كانون الثاني ١٩٦٠. وبمنحها لأحد المطرودين منه ثم تزويده بالمال اللازم لاصدار صحيفة، ومساعدته بجمع التواقيع المشروطة على الطلب وفق القانون [راجع عنها: العراق في عهد قاسم الص ٣٣٨-٣٥٢].

(٤٢) تمّ خلال ذلك استقبال قاسم الدكتور محمد فوزي وزير خارجية (ج.ع.م).

(٤٣) خلافاً للاجراءت التي سبق ذكرها. اوعز قاسم لقائد الفرقة الثالثة في الفرات الاوسط بمنع توزيع =

ومثلما كان المعسكر القومي العروبي مستعجلاً في القضاء على شخص (قاسم) كذلك اساء قادة الحزب الشيوعي، التقدير في قوة حزبهم وامكانهم فرض ايّ مطلب مهما صغر عليه. واخطأهم أيضاً بعد النظر حين غفلوا عن حقيقة واحدة، وهي ان حزبهم لم يعارض في اي موقف سياسي واحدٍ له ازاء اي قضيّة عامة هامة يمكن بها امتحان جماهيريتهم قبالة سلطته. كان بوسعهم ان يتبينوا ودروس موسكو في ١٩٥٦ لا تزال طريّة في الاذهان - انهم يتعاملون مع حاكم يزعجه كثيراً ان تملى عليه اية ارادة وينفر من محاولة تجربة اية نصيحة او مقترح يقدمان اليه علناً وفوق صحنة ليس فوقها غطاء. بعكس الحكام الذين نصبتهم الارادة الشعبية بانتخاب حرّ وفق المباديء الديمقراطي. وقد تكلم الحزب كثيراً عن الديمقراطية ووجوب تطبيق مبادئها على الثورة. إلاّ أنه كان يتحاشى تماماً المساس بالدكتاتور وطريقة حكمه، بل اراد المشاركة فيها عَلّى علاّتها[٤٤] في وقتٍ من الأوقات واخرج المسيرات الكبرى لها.

كان قاسم «يودّ دائماً ان يتمتع «بحقّ النصر». وهذا ما كان مصدر خيبة لاولئك الساسة الذين توقعوا عودة الحياة الدستورية الاعتيادية بعد تنقيتها من شوائبها الماضية. في اول مؤتمر صحفي له لـ ٢٦تموز] اعلن «ستكون انتخابات في المستقبل غير البعيد». وفي ا آيار ١٩٥٩ اكدّ الفكرة التي كان القوميون العسكريون وشركاؤهم يبيعونها في البلاد الناطقة بالعربيّة بقوله «ان الجيش والشعب قد اتحدا واصبح واحداً. وان حزبه هو حزب جميع الشعب. «وانا من حزب الشعب العراقي» كما كان مثل كلّ العسكرييّن يعتقد بان العراق لم ينضج بعد للحياة الديقراطية. ويتضح من دراسة بعض العبارات العفوية التي كانت تتسلل من خطبه الرتيبة بأنه كان مؤمنا بفوزه التام الكامل بولاء الشعب قاطبة، وأن هذا الولاء يشجب الولاء الحزبي الذي هو ولاء مصطنع. وان اضطلاعه وحده بمقدرات البلاد أمرٌ ضروري لأن ثورته كانت ضد الدكتاتورية وخدمة للمعارضة. في حين ان ثورة مصر كانت ضدّ الاحزاب القومية ولذلك مالت الى حزبٍ واحدٍ. وكما ذكرنا سابقاً. لم يكن قاسم يملك ايديولوجيّة نظام خاصّ. بل كانت تجول في ذهنه عمليّات اصلاح مؤقتة واساليب معالجة ذات طابع روائي

= صحيفة «اتحاد الشعب» هناك وفي ٣٠ أيلول ١٩٥٩ اغلقت الجريدة نهائياً بعد صدور الحكم بالسجن على صاحبها عبدالقادر اسماعيل.

(٤٤) كتبت الصغيرة (كريس بيدل) رسالة لابراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة «لو ارسلتَ لك لحية وعارضين لبدا وجهك ممتلئاً واصبحت مقبول النظر ولاختفى نحول وجهك». فسارع فوراً الى العمل بنصحها وغطى وجهه باللحية التي بدت في كل صوره وتماثيله. وظلّ يشيد بنصيحة بنت العاشرة في كل مناسبة بقوله «انها افضل نصيحة تلقيتها في حياتي» والتاريخ يذكر هذا الباقعة بأن أخطر قرار في تاريخ هذه البلاد كان قد رسا عليه ويقولون لولاه ما كانت الولايات المتحدة كما نراها اليوم.

استمده من قراءات له في ادبيات الاحزاب المعارضة. لذلك لم يكن لديه عقيدة سياسية او برنامج واضح: فمثلاً وجد كل الاحزاب مجمعة على انهاء حالة الاقطاع في البلاد فاسرع يسنّ قانون الاصلاح الزراعي الذي حددّ الملكية الزراعية مغفلاً الملكيّة العقارية وهي بعين الخطورة بطبيعة الحال. ووجد الأحزاب تجمع على ازالة اخر مظهر للنفوذ البريطاني باخلاء قاعدة الحبانية وخروج آخر جندي بريطاني منها ففعل، واجمعت الاحزاب المعارضة أيضاً على علاقات اوثق مع (ج.ع.م) والعالم الاشتراكي ففعل وعقد اتفاقاً وتعاوناً تجارياً مع الاتحاد السوفيتي. وفتح افقاً جديداً في التعامل مع اليسار والفكر الاشتراكي برفع الحظر عن ادبياتهما واعطاء الحزب الشيوعي الفرصة التي ظلّ يحلم بها طوال ربع قرن بالعمل والنشاط في صفوف الجمهور بحرية. ولم يعد اسم الحزب الشيوعي يثير ذلك الرعب. وقدّم للشعب الكردي هديته العظمى بالاقرار بحقه في تنظيم سياسيّ والسماح لثوار العام ١٩٤٥ بالعودة الى أرض الوطن فضلاً عن ذلك الاعتراف الرسمي بالقومية الكردية. واكرم الاقليّات المسيحيّة ببرنامج اذاعي بلغة الأمّ.

مما قوّى وجهة نظره في نفسه هو دفاعه الطبيعي عن «حقّ النصّر» هذا، ازاء عروبيّة عبدالناصر المتجسدة في (ج.ع.م) والنابعة عن رسالته وقد وجد في الرّأي العام الشيعي (الاغلبية) والكردي والديمقراطيين لليبراليين، والاقليات العُنصرية والدينية حلفاء طبيعيين له في الصراع.

ربما كان المحاولة الاغتيال هذه علاقة باستعجال قاسم في اصدار قانون الجمعيات كنوعٍ من اضفاء مسحة دستورية تغطية لحكمه المطلق. لقد بدا هذا القانون اثناء تنفيذه اشبه بحصان يمتطيه قاسم بمناسبة الاستعراضات العسكرية ممسكا بعنانه.

وسارعت موسكو فقدمت له سيارة لاتخترقها القذائف هديةً. وتمّ القاء القبض والاحالة الى المحكمة العسكرية العليا الخاصة ٥٧ منهما بينهم انثى واحدة برئت فيما بعد[٤٥].

لم يكن بين المتهمين ضابط واحدٌ او عسكري. ورغم خضوع اكثريتهم للتعذيب وسوء المعاملة لم ينمّ احدهم على الآخر كسباً لعطف او املاً بعفو وقد اقرّ معظم المشاركين بجرأة بلغت مبلغ التحدي والصلافة والفخر مبررين عملهم على ضوء عقيدتهم السياسيّة من دون ان يتذرعوا بان افادتهم اخذت باكراه. لم يكن في موقف اي منهم ادنى شبه بذلك الموقف الذليل

(٤٥) هي يسرى شقيقه اياد سعيد ثابت رئيس فرقة الاغتيال. وصدرت في ٢٦ من آذار ١٩٦٠ احكام بالموت وجاهية بحق ستة من المنفذين واحد عشر من الهاربين وبالاشغال الشاقة المؤبدة على ستّة وباحكام سجن مختلفة على ثلاثة وثلاثين وبرّأت سبعة.

المشبع بالتخاذل والاستعطاف الذي ظهر من شيخ القوميين العروبيين الگيلاني ولا البطل الثاني لها عبدالسلام عارف. وارغم سلوكهم هذا رئيس المحكمة على الاقتصاد في الشتائم او الخطب والتزام جادة الوقار مع ان بعضهم اسمعه مالم يسمع عشر معشاره من المائتين ونيف من المتهمين الذين مثلوا أمامه. وقد قال له احدهم في معرض دفاعه: «إنه لا يرجو الرحمة إلاّ من الله تعالى ولا يتوقع عدالة من محكمة أصبحت مهزلة المهازل[٤٦].

احدثت عملية الإغتيال صدعاً كبيراً في الحزب وطرد الركابي امين سرّ القطر. إلاّ ان القيادة القومية مع هذا اصدرت بيانا تنفي فيها اي دور لها في عملية الاغتيال مؤرخ في ١٣ من كانون الثاني ١٩٦٠:

> «القيادة القوميّة تنفي تنظيم الحزب لمحاولة الاغتيال وتعتبر تمادي قاسم في اغتيال قادة الشعب... هو الذي دفع قسماً من الشباب الوطني للدفاع عن النفس بهذا الاسلوب الذي فرضته الاوضاع الشاذة... ان موجة اعدامات قاسم قد دفعت بعض المواطنين المخلصين وبينهم بعض الاعضاء البعثيين تحت ضغط الحوادث الى محاولة الاغتيال من اجل ايقاف حملة التقتيل الجنونية... وفي الوقت الذي يحيّ حزب البعث اولئك الماثلين امام محكمة المهداوي... يؤكد ان قاسماً بجرائمه وتقتيله وتشريده هو المسؤول عن محاولة الاغتيال!!»[٤٧]

ثم وبعد مؤتمر القوميّ الرابع (تموز ١٩٦٠) راح الحزب يصدر بيانات ادانة للاغتيال السياسيّ. ويذكر الفكيكي تعليلاً لهذا التأخير انه نجم عن المواقف الشجاعة التي ابداها المتهمون والعطف الشعبي الذي نالوه بسبب ذلك «فلم تصدر القيادة القومية والقيادات القطرية بيانات الادانة إلاّ بعد انقضاء مدة غير قصيرة على صدور الأحكام القضائية»[٤٨].

***

منذ أن نشط الحزب الديمقراطي الكردستاني في نهاية الاربعينات. وزعامة الحزب معقودة لملاّ مصطفى البارزاني رغم وجوده في المنفى. إلاّ ان عودته أغضبت الحكومتين الايرانية والتركية[٤٩] وشنّت صحافتها حملةً ضدّ هذا العمل وتبودلتْ تهم بين الحكومات. من ذلك

(٤٦) المحاكمات: وقائع المحكمة العليا الخاصة ج٢٠ ص٤٠٦. [باستثناء سعيد قزاز طبعاً].
(٤٧) انظر البيان بكامله في نضال البعث ج٢ ص١٢٣. دار الطليعة بيروت١٩٧١
(٤٨) الفكيكي المرجع السالف ص١٠٥
(٤٩) ما دمنا نتحدث هنا عن كرد العراق في اطار الدعوة العروبيّة، رأينا من الضروري تزويد القاريء بفكرة مركزة جداً عن تاريخ صلة هذه القوميّة بالعرب والعروبة وبالاقوام الأخرى المجاورة. فمعارفنا عن الكرد =

تصريح للجنرال بختيار مدير جهاز الأمن الايراني وهو كردي قوله "ان الوضع في كردستان اصبح خطيراً وان ملا مصطفى الذي زار القاهرة والموجود حالياً في بغداد هو صنيعة للسوڤييت".

= باتت مؤكدة بابتداء الفتوح الاسلاميّة. مثلاً ينقل المسعودي (ت٩٤٣م) اخباراً وروايات لما قبل الاسلام حول معارك واشتباكات في فترات متقطعة بين امراء غسان العرب وبين الكرد. على ان الاحتكاك الاول بين الفاتحين العرب وبينهم حصل بعد احتلال تكريت وحلوان شمال شرق بغداد في العام ٦٣٧م فهناك اسانيد حول الحروب نشبت بين الطرفين عندما انحاز الكرد الى الهرمزان حاكم الاهواز الفارسي. واضطر الخليفة عمر بن الخطاب الى ارسال حملات عدة على كرد الاهواز ولم يتمّ اخضاع اقليم شهرزور الكردي من دون حروب دموية طاحنة. ولم يكن بالغريب ان ينتفض الكرد مراراً وتكراراً على حكم أخضعوا له بالقوة. كان الكرد قبل الفتح الاسلامي وعلى اغلب احتمال زردشتيين في اعالي الجبال والهضاب، ومسيحيين في السهول والكثبان وقد مال بعض الباحثين الى تصوير الكرد عبدة ظواهر طبيعية وانهم كانوا يضحون لالهة من نحاس وبرونز. لكن وبمرور الزمن بعد اسلام الاغلبيّة بدأ الكرد يفاخرون بصلة المصاهرة مع العرب وصار من عادة كبارهم ونبلائم ان يصلوا بسلالة نسبهم الى العترة النبوية. ووصل التمييز العنصري بالكرد الى حَدّ مفجع. وهو يقف على الركائز الثلاث [العرق والدين والتاريخ]. فهُم (عرقياً) اريون كالايرانيين ولغتهم وهي من المجموعة الهند اوروبيّة فصلتهم عن العرب والناطقين بالعربية قلب اللغات الساميّة النابض. كما فصلتهم عن المتكلمين بالتركية. لكن لغة الفرس وان كانت من عين الشجرة فهي غير مفهومة عند الكرد. ويختلف الكرد عن الايرانيين (مذهبيّاً) فالاغلبيّة منهم سنية وان كانت قلة منهم شيعية.

وفي ايران حيث التشيع دين الدولة الرسمي – وجدنا الكرد منفصلين رغم ان المنطق يقضي ان يكونوا على علاقة صميمة بالايرانيين المتصلين معهم عرقياً.

والأمر معكوس تماماً في العراق وهو من مفارقات التاريخ – فهنا الكرد على عين مذهب الحكام السنيين الاّ انهم اغراب بوصفْهم غير عرب.

وتركيا رغم سنيتها الغالبة فهي دولة علمانية اصلاً – لكنها دولة قومية. ولذلك فالاعتراف بهوية سياسية كردية ضمن حدودها رغم الواقع الصارخ وكذلك فاعتراف العراق بعد ١٤٥٨ في دستوره بوجود شعبين مختلفين فيه لا قيمة عملية له بواقع انفراد الاغلبية الناطقة بالعربية بالحكم. وميز الكرد (تاريخياً) بما نسب اليهم من عيوب واخطاء ماضية الصقت بهم عمداً. والشرق الاوسط وهو منطقة ثار متصل الحلقات موغل في القدم. وبواقع حيدة الكرد للعرب والترك والفرس والأرمن والاشوريين واليهود. فقد كان لهم سهمهم من العقاب والثأر على مرور الاحقاب. وفي الشرق الاوسط هذه الأمور يجب ان يدفع ثمنها والثمن تشويه التاريخ الكردي. ويطيب لي ان أنقل هنا ما قاله عنهم العالم الانثروبولوجي الشهير اندريه سنگر André Singer عملاً وواقعاً انهم (الكرد) المجموعة القوميّة الوحيدة في اسيا الوسطى التي بقيت غير ممتزجة او مهّجنة نتيجة اي اندفاع موجات الشعوب الأخرى او غزواتها... ومع ان الغزاة المغول والعرب والفرس والتركمان حتى المقدونيّين خَلّف كلّ منهم طابعه في شعوب أخرى خالصة النشأة فانّ الكرد بحماية جمالهم المنيعة كانوا قادرين على الاحتفاظ بأرومتهم القومية [من مقال عنوانه درويش كردستان The Deruish of Kurdistan مجلة الشؤون الآسيوية. حزيران ١٩٧٤ الص١٧٩].

كلّ الدول التي تقتسم كردستان تحاول التقليل من عدد الكرد وفي ايران هناك ما يبعث على الابتسام لمخالفته كل منطق وشريعة ولاسيما الشريعة الاسلامية التي يدعي حكامها انهم يسيرون على نهجها. فهي تنكر على الكرد أيّ حق قومي او اجتماعي رغم انهم اسلام كغيرهم ولا داع هناك لتميز كردي. بهذه الوسيلة ينتشر ضباب كثيف لايمكن اختراقه حول نسبة الكرد الى عدد السكان في كل هذه الاجزاء. =

وفي ٢٠ من تشرين الأول ١٩٥٨ شنّت صحيفة «ترقيّ» الايرانية حملة ضد العراق بسبب السماح للبارزانيين بالعودة الى العراق. ومما جاء في مقالها:

«وضع الروس قنبلةً موقوتة في العراق... من السذاجة ان يضع المرء افعى في طيات ثيابه. وانّ الايام المقبلة سترينا الحوادث التي تقع على يد هذه الافعى».

والمسألة واضحة فكما كان موقف الدولتين العضوين في حلف المعاهدة المركزية ذاتي الاقليتين الكرديتين في بلديهما موقفاً طبيعيّاً ومنطقياً، كذلك كان موقف عبدالناصر خصم تلك المعاهدة اللدود الذي كان وقتذاك يعيش مع العراق اعراس تموز – موقفاً طبيعيّاً ومنطقياً. فقد رأى ان يتخذ موقفاً مضاداً. واستقبل ملاّ مصطفى وهو في طريق العودة. مَصرّحاً في الوقت ذاته بأن من حقّ الكرد التمتع بحقوقهم المشروعة ضمن اطار الدولة العراقيّة، وتبعاً ضمن اطار الوحدة العربيّة الأوسع «ذلك لانّ للعرب عدّاً خطيراً واحداً يهدد مستقبلهم وامنهم ومصادر ثروتهم، وهو اسرائيل وانَّ عليهم ان يوجهوا قواهم العسكرية ومواردهم الاقتصادية كافّةً لدرء هذا الخطر.

ولم تطل اعراس تموز وحَلّ الفتور ثم الجمود ثم العداء – وكان للكرد حصتهم من هجمات إعلام (ج.ع.م) سيّما عند تأزم العلاقات بينها وبين موسكو. وبدأ راديو القاهرة يشنّ حملة موقوتة بوصول الثمانمائة ونيف من اللاجئين الكرد في الاتحاد السوڤياتي [وصل ملا مصطفى البارزاني في ٦ أيلول ١٩٥٨] فقال راديو صوت العرب:

«الكرد السوڤييت (كذا) الذين وصلوا العراق بكامل اسلحتهم وعدتهم الحربيّة والمدربين على حرب الانصار، هم الآن في طريقهم للانضمام الى قاسم وحلفائه الشيوعيين للتصدي للقومية العربيّة واعلان الحرب في سبيل القضاء التام على عروبة العراق وابعاده عن أشقائه».

في التاسع من نيسان ١٩٥٩ سُمح للحزب الديمقراطي الكردستاني[٥٠] باصدار جريدته الرسميّة (خهبات = النضال) واعلنت في عددها الأول منهاج الحزب: «الوقوف ضدّ الامپريالية والرجعيّة والاقطاع والنضال في سبيل الديمقراطية والسلام والتحرر القومي للشعب

= وفي سورية وان كان الاعتراف بالهوية الكرد حقيقة ثابتة الاّ ان الحديث عن أي حقوق قومية معينة لا يلاقي اذنا. ولذلك يصعب اعطاء رقم قريب من الواقع لعددهم وتنتاب الحيرة كتاب الغرب عندما يحاولون ذلك وتتفاوت تقديراتهم بالملايين.

(٥٠) سنرمز اليه فيما بعد بالاحرف الاولى من اسمه اختصاراً في الفسحة.

الكردي المضطهد الآن في كلّ من سورية وايران وتركيا. والمساندة بشكل مطلق لثورة ١٤ تموز وقائدها عبدالكريم قاسم، وانها ستتبع النهج الاشتراكي في نضالها.

ثم بيّنت في اعداد تالية موقفها من عبدالناصر ودعوته العروبيّة باشارتها الى محنة الشعب الكرديّ في سورية وما يلقاه في ظلّ دكتاتوريته. وقارنت بالتقدم الذي حصل في الاعتراف بالحقوق الثقافية للشعب الكردي في العراق[٥١] ونوّهت بان ذلك انما هو حدث بسيط يجاري ابسط منطوقٍ للشراكة القوميّة التي نصّ عليها الدستور المؤقت. إلاّ انه احدث هزّة عنيفة في كُلّ من هذه البلدان وكان بكلٍّ منها حزب مماثل وبهذا الإسم ينشط سِرّاً، كما ضمّ الحزب الشيوعي السوري المنحلّ كثيراً من المواطنين الكرد. وبدأت في سوريةَ حملة اعتقال طالت عدداً من الحزبيين والوطنيين الكرد وعبرت طائفة منهم الحدود السورية الى العراق وقبلوا الى جانب اعداد من «التقدميين» العرب لاجئين.

وتواصل التعاون بين الحزب الشيوعي العراقي وبين (ح.د.ك) الى الحدّ الذي بدت قيادته وكأنها تصدع بأوامر الأول من دون تحرّج، وبانسجام كاد يكون تاماً. حتى بدا للمراقبين وكأنه مجرد تابعٍ او واحدٍ من منظمات الحزب الشيوعي العديدة. فكانت تلك المبادرة التاريخية من رئيسه التي كفَّ بها يد معظم اعضاء قيادته وأبعدهم ثم سلم مقدرات (ح.د.ك) إثر مؤتمر حزبي عام الى عناصر قوميّة. إلاّ ان الموقف الذي كان على البارزاني ان يتخذه من (قاسم) بدا أصعب من هذا بكثير. كان وهو في السابعة والخمسين قد عانى من التجارب المريرة الكثير بوصفه زعيماً ثائراً – في تعامله مع كثير من حكام الدول التي تتقسم شعبه إلاّ ان الخبر والتجارب التي خرج بها من احد عشر عاماً في الاتحاد السوفياتي فاقتها جميعاً. ومنها بنوع خاصّ السنوات السبع الأولى من لجوئه والأخيرة من امتداد حكم مرعبٍ لم يسجلّ تاريخ البشرية له نظيراً للدماء التي اراقها كمّا وكيفاً ولا ما يدانيه بشاعة[٥٢] علمته كيفية التعامل مع امثال هؤلاء الحكام المنفردين ولم يكن بحاجة الى وقتٍ ليدرك بأن (قاسماً) لايطيق شركة في مظاهر التكريم والولاء الشعبيين مهما قلت نسبة هذه الشراكة. فبادر محاذراً أقصى درجات الحذر، غير زاهد ولا مقتصدٍ في إظهار امتنانه وولائه المطلق (لقاسم) في كل مناسبة تعنّ. وبدا لكثير من المثقفين الكرد وبعض قياديّ الحزب أنه لا يفرط فحسب

(٥١) في ٩ نيسان اعلن راديو بغداد عن استحداث مديرية عامة كردية في وزارة التعليم للعناية بالشؤون الفنية والادارية والثقافية الكردية وبتعيين المعلمين واعداد كتب دراسية باللغة الكردية.

(٥٢) لايجادل المؤرخون في تحديد عدد ضحايا الارهاب النازي بستةّ ملايين مثلما لايجادلون في انّ ضحايا فترة التصفية الجسدية للعهد الستاليني طوال ربع قرن تزيد عن خمسة اضعاف هذا العدد. والمقارنة لابُدْ منها هنا.

بمقامه الخاص وشخصيته الوطنيّة، بل يهين الحزب الذي يرئسه والشعب الذي يمثله بموقفه هذا الذي وصفوه بالتذلل والخنوع والمصانعة التي لا مبرر لها.

لكن البارزاني كان أخبر بما يمكن أن تبلغه غيرة الدكتاتور على مركزه من جموح كما أدرك بوقت قصير ان قاسماً يختلف تماماً عن رؤساء الحكومات العراقية السابقين الذين تعامل معهم وحرص بهذا على ان لايُشجعّ ايّ مظهر من مظاهر الولاء الشعبي له. وكثيراً ما أُحرِج بالهتاف له علنا، وكثيراً ما كان يلجأ الى التأنيب والشجب بعنفٍ وهو يعلم بانَّ هناك بين المحتفين به عيوناً تنقل «للزعيم» ما يجرى وبكثير من المبالغة. وكان الشباب الكردي المندفع يزيد في الحرج بمفاخرته به. وكثيراً ما سمعنا في كردستان وفي العاصمة عبارة «لكم زعيمكم ولنا زعيمنا». وتلك صورته لايخلو منها منزل في كردستان والى جنبها احيانا صورة الزعيم.

رغم التكريم والحفاوة التي نالها البارزانيون العائدون والافراج عن الزعيم الروحي الشيخ احمد وصحبه. وقد وجد ملا مصطفى وصحبه في هذا تكريماً خاصّاً مع هذا، وان كانت جزءً من السياسة العامة التي اتخذها النظام الجديد ولم يُفرد بها الكرد العراقيين إلاّ انهم عدّوها منةً وفضلاً خصوصيّاً لا واجباً وطنيّاً. لاسيما البارزاني الذي كان أشد شعوراً بها.

أمّا (قاسم) فقد ابى ان ينظر الى البارزاني زعيماً سياسياً ورئيس حزب خطير مؤثر على ميزان القوى في الداخل[٥٣] وتتوجّس اطراف سياسية من الشرارالذي يطلقه نشاطه في الخارج على الصعيدين القوميّ والدولي.

وبقي ينظر الى البارزاني لا كرئيس حزب سياسيّ له منهاجه واهدافه بل كذاك المتمرد على الحكومات. ذلك العاصي الذي شارك في قمع انتفاضة له قبل ثلاثة عشر عاماً. وسجّل لنفسه مأثرة عسكرية خاصّة[٥٤] بل وفي افضل الأحوال مجرد واحدٍ من رؤساء العشائر الكثار في كردستان.

(٥٣) قصد وفد كبير جاء العاصمة من محافظة الموصل والمدينة – دار البارزاني في اواخر ايار ١٩٥٩. وما ان ظهر لهم حتى دوّت القاعة بالتصفيق والهتاف بحياته. فبان عليه الاستياء والامتعاض الشديدين واسكتهم باشارة من يده قائلاً بلهجة صارمة «اني امنعكم من هذا. أنا لا استحق ذلك وعليكم ان تتوجهوا به الى الزعيم عبدالكريم»
قال هذا وخرج امام دهشة الزائرين وامتعاضهم فانبرى الشيخ احمد وكان حاضراً – مهدئا من حماستنا بقوله انتظروا قليلاً. سأذهب لاقناعه بالعودة» وانتظروا برهة حتى يئسوا من عودة الاثنين فغادروا المنزل.

(٥٤) في العام ١٩٤٥ كان الرائد الركن عبدالكريم قاسم مقدم اللواء للواء المجفل الثالث وهو احد لوائين جردتهما الحكومة ضد الثورة الكردية. وتمكن بمبادرة تلقائية من استعادة ربيئة كانت قد سقطت بيد الثوار. وبفضل معلومات خاصّة بلغته من صديقه (اسعد شيتنه) انتهز فرصة نية انسحاب الثوار من مواقعهم في جبل (نواخين) فاقنع آمره العقيد حسيب الربيعي بالسماح له باقتحامها والاستيلاء عليها =

وتعذّر التوفيق بين تحاشي الاصطدام بقاسم من جهة بين مصلحة الشعب الكردي واهداف الحزب الوطنية التي تصرّ عليها مجموعة المثقفين القياديين منه من جهة ثانية بل وبين محاولة النأي عن صخب الحزب الشيوعي منّ جهة ثالثة، وجدت صحيفة الحزب ان تفضح بلهجة عتاب عن خيبة أمل في موقف الحكومة من الاصلاح المنشود والمطالب الكردية. كان البارزاني رغم البرود بينه وبين القيادة متفقاً معها على اليأس من قاسم.

يضيق هذا الكتاب عن متابعة الاحداث التي انتهت بنشوب «الحرب الكردية» وهو الوصف الذي خلعه عليها كتاب الغرب – اثر الحملة «التأديبية» التي جردها قاسم. على اننا سنقف بالقاريء عند محطات رئيسة فيها. ولاسيما ما تعلق منها بموقف القوميين العروبيين(٥٥).

في ١٩ من تشرين الأوّل ١٩٦٠ نشرت «خهبات» مقالاً رئيساً بعنوان «الأمة الكردية والمادة الثانية من الدستور» اشارتْ فيه بقوة وتحدٍّ الى التناقض بين هذه المادة وتاليتها من الدستور الموقت. الواحدة تنصّ على ان العراق جزءٌ مَن الأمة العربيّة والأخرى تؤيد بان العرب والكرد شركاء في الوطن الواحد(٥٦). فاتهم صاحب الامتياز رئيس التحرير باثارة النعرات القومية وبث التفرقة واحيل الى المجلس العرفي العسكري فبرّيء(٥٧). واتهم ثانية بالتحريض على قتل احد رؤساء العشائر الموالين لقاسم فاختفى. ثم أُنذر البارزاني بأنه قد يكون مستهدفاً لمحاولة اغتيال، ونُصح بمغادرة العاصمة الى بارزان ففعل بعد تردد كثير، خشيةَ أن يثير رحيله هواجس في قاسم. وحينئذ رأى الدكتاتور أن يبدو البارزاني للرأي العام بالشكل الذي يراه هو فيه مجرد واحدٌ من رؤساء العشائر الكردية الكثار. عن طريق تقريبهم اليه

= مستبقاً بذلك الجحفل الرابع الذي كان بقيادة العقيد رفيق عارف وقد توقف في زحفه على (ميركه سور) بسببها. وقام قاسم بتسلق الجبل على رأس مجموعة مختارة واحتل الموقع وابرق بانه «فتح الطريق امام الجحفل الرابع». واستبد الغضب برفيق عارف فرد على برقيته متهكما «احتل الجحفل الثالث ميركه سور عاصمة الرايشتاغ». لم ينس قاسم الإهانة فاعتقل رفيق عارف يوم ١٤ تموز وهو رئيس اركان الجيش وحاكمه رغم معرفته التامّة بأن قائده هذا كان قد حال دون اجراءات صارمة ضدّ تنظيمات الضباط الاحرار السرية تتخذها الحكومة من شأنها ان تقضي على حركتهم [معلومات شخصية للمؤلف من احد ابناء عمومته الدكتور عبدالباقي رمو الذي كان آمر الوحدة الطبية في الحجفل الثالث مؤيدة لما جاء في موسوعة ١٤ تموز ج٦ الص ٢٣–٢٥.

(٥٥) للاستزادة: راجع كتابنا [زيارة للماضي القريب. ط. ستوكهولم ١٩٩٧] و[العراق في عهد قاسم ج١وج٢]. وترجمتنا لآدم شمدت: رحلة الى رجال شجعان: الطبعة الثانية: دار آراس للنشر اربيل ١٩٩٩].

(٥٦) تجد نصّ المقال في ملحق هذا الفصل.

(٥٧) لاوّل مرة وربما لآخرها روعيت الاصول القانونية في محاكمة الاستاذ ابراهيم احمد كاتب المقال. فقد احيل المقال الى لجنة خبراء من الأدباء والكتاب واخذت المحكمة برأيهم.

ودعوتهم لزيارته واستمالتهم بالمال والسلاح. عين الاسلوب الذي كانت الحكومات الملكية تأخذ به. لاسيما اولئك الذين عرفوا بخصومة وثأرات قبائلية ضد بارزان وحلفائها.

في تشرين الثاني ١٩٦١، اثناء ماكان البارزاني يزور الاتحاد السوفياتي نشب قتال عنيف بين الزيباريين والبارزانيين الذين خفّوا لنجدة اهالي القرى الآشورية والكردية الحليفة.

تمّ احراق بعض القرى وقتل عدد من الآشوريين ونهبت ممتلكاتهم وكان ثم ما يؤيد زعم الوطنيين الكرد بأن (قاسماً) افتعل الحادث بدليل انه لم يقم باجراءات تحقيق وعقاب المعتدي. وانه لم يتدخل بشرطته ودركه إلاّ بعد أن بدأت الدائرة تدور على المعتدي.

ووجه (ح.د.ك) في شهر حزيران نداءه الأخير لقاسم وقتما بدأت كردستان تموروتعج بالمسلحين من اتباع رؤساء العشائر الذين اضرّبهم قانون الإصلاح الزراعي – ونبّه الى الخطر الكامن من هذه الانتفاضة الغوغائية التي فوجيء بها الحزب مثلما فوجيء بها قاسم ولم يكن الحزب مستعداً لخوض معركة مسلحة معه. إلاّ ان قاسماً كان قد وضع خطته على تصفية المقاومة السياسيّة المنظمة المتمثلة بـ(ح.د.ك) وبادر بارسال قواته الى موطن التجمعات المسلحة واطلق طائراته الحربيّة بقصف عشوائي لمناطق عدة من كردستان ومنها قرية بارزان حيث يسكن البارزاني.

تفرقت التجمعات الكردية المسلّحة عند اوّل مواجهة لها مع الحملة العسكرية كانت مجموعات عشائرية ساخطة يقودها مبدئياً رؤساء تقليديون لاسباب شتّى لاتمتّ الى اهداف قوميّة واضحة بصلة. منها الرغبة في التخلص من قانون الاصلاح الزراعي المضطرب الصعب التطبيق. وقانون ضريبة الأرض السخيف الذي وحّد الشيوخ والاغوات مع الفلاحين ضدّ قاسم.

ووجد (ح.د.ك) انه سيفقد قاعدته الجماهيرية وسمعته الى الأبد ان ترك الأمر بيد الشيوخ والرؤساء العشائريين، أو إن افلح قاسم في وأد الانتفاضة وتصفيتها عسكرياً.فبعث بكوادره ومنظميه لإعادة لمّ شعث الجماعات المتفرقة التي لم تصمد أمام الاشتباك وخيل لقاسم ان هجومه الكاسح قضى على الغوغاء المسلحة نهائياً. وبشّر الإعلام العراقي في مؤتمره الصحفي في ٢٣ أيلول بذلك. غير ناسٍ قراءة بعض الرسائل التي كان يبعث بها البارزاني في العام ١٩٥٤ الى المسؤولين البريطانيين والموظفين الدبلوماسيين في السفارة البريطانية تدليلاً منه على ضلوع البريطانيين في التمرد الخياني الأخير وذكر ان السفارة البريطانية انفقت نصف مليون پاون لتمويل هذا التمرد الأخير(٥٨) وبسط خرائط وهو يشير متبجحا كيف انتشرت

(٥٨) يعلق السر همفري تريڤيليان السفير البريطاني في العراق آنذاك على هذا الزعم ننقله نصاً: =

الثورة فعمّت الشمال، وكيف انه سحقها في عشرة ايامٍ فقط في حين كان سيقتضي منه ذلك عامين لو اتبع عين الأساليب البريطانية.

ويعب علينا تعيين تاريخ ثابت لنشوب الثورة الكردية. وقد يبدو التاسع من ايلول مناسباً. إلاّ ان السادس عشر منه قد يكون انسب حين قامت القوة الجوية بالاغارة على قرية بارزان وقرر الحزب على اثرهاان يرمي بكل ثقله في المعركة[٥٩].

كانت اعظم غلطة ارتكبها (قاسم) وفي حسابه أن (ح.د.ك) قائد الحركة الوطنية الكردية هو كالحزب الشيوعي والقوميين العرب، والحزب الوطني الديمقراطي تلك الفضائل السياسيّة التي تمّ اخضاعها لارادته وشقهّا فدانت له وخرّت على قدميها مستسلمة.

ليس من اغراض هذا الكتاب متابعة منتظمة لمسيرة الحرب الكردية وَقدْنا منها ما يتعلق

= «ذكرت لواحدٍ من اشدّ المتعصبين لقاسم ان ملاّ مصطفى كان ضيفاً على حكومة الاتحاد السوفياتي سنيناً عدّة. وانهٍ قام مؤخراً بزيارة لموسكو، فأجاب: بلى إلاّ انه ذهب اليها كعميل بريطاني!. وبرأ قاسم الحكومة السوفياتية من اي دور لها في ثورة الكرد، وهي الحقيقة في اعتقادي فثورة كردية ليست في صالح السوفييت». ويستتلي السفير بخصوص مبلغ نصف المليون فيقول «قمْتُ باحتجاج رسمي الى وزارة الخارجية فرفض ولكن باسلوب لطيف، واغلقت القضية. لم أجد غير شخصٍ واحدٍ صَدّق هذه التهمة. ففي يوم ربيعٍ كُنا نحن الثلاثة قد امضينا زهاء خمس ساعات نصعد جبلاً في كُردستان. واعفينا الجندي الذي خصصٍ لمرافقتنا فاضطجع تحت شجرة ونام وهو عمل ينطوي على حكمة بلا ريب. وعند عودتنا التقانا بعض الموظفين المحليين وقالوا ساخطين اننا سببنا لهم قلقاً عظيماً فالجبل يعجّ بالذئاب والدببة والكرد المتوحشين. وانهم ارسلوا اربعة من المسلحين وراءنا. فاعتذرنا لهم وأجبنا: لم نشاهد ذئاباً ولا دببة والكرد الذين التقيناهم عرضوا ضيافتهم علينا طوال الليل. إنّ هذا الرجل الذي عينته قد يقر بأن اي شك لايداخله في اختراع (قاسم) هذه التهمة – قال انه يعرف بالضبط متى دفع لملا مصطفى نصف المليون. إنه في ذلك اليوم في الجبل بكردستان [الشرق الاوسط في ثورة The Middle East In Revolt الص ٢٠٢–٢٠٣ – لندن ماكميلان – ١٩٧٠.

(٥٩) بطبيعة الحال لم يقف (ح.د.ك) موقف حياد من الاوّل. فقيادته كانت مجمعة على ان قاسماً يعتزم انزال ضربته. لكن الحزب كان خلال الصيف منقسم الراي حول الموقف الواجب اتخاذه. الاغلبيّة ترى التريث في الاعمال العسكرية المكشوفة لأطول مدة ممكنة، توخيا لتجمع القوى وتعبئتها لان التفوق العددي كان بصالح قاسم وكل ما كان الحزب يملكه وقتذاك هو بضع مئات من البندقيات وفضلاً عن هذا فقد اعتقد هذا الفريق ان انتفاضة مسلحة كردية هي أمل قاسم الوحيد في جمع شتات الجيش المنقسم على نفسه ورصّ صفوفه حوله وربما ظن في خلفية ضميره ان (ح.د.ك) سوف ينحلّ ويتقوض لو طلب منه بذل مجهودٍ لم يؤهل له. إلاّ ان الاقليّة رأت استباق (قاسم) بهجوم كردي وان الدكتاتور لايستطيع الاعتماد على الجيش لا حربيّاً ولا سياسيّاً واتفق الفريقان بعد نقاش طويل الاحتكام الى البارزاني. وارسل جلال الطالباني اليه، فهو الوحيد في هذا الموقف الذي كان بوسعه تأمين قيادة موحدة للانتفاضة والحيلولة دون حصول انشقاق. واصرّ البارزاني على التحليّ بضبط النفس إلاّ اذا اقدم (قاسم) على استخدام العنف بصورة مكشوفة ضدّ البارزاني او قبيلة (اكو) من بشدر وهي قلعة من قلاع (ح.د.ك). [راجع اوريل دان. العراق في عهد قاسم. ج١ ص٤٢٠ من ترجمتنا].

باغراض بحثنا.

التحق بالثورة عدد كبير من الجنود وضباط الصف والشرطة. وفئة من الضباط الكرد والمسيحيين. كما انخرط في صفوف الثوار القرويون الآشوريون بمقتضى ذلك الحلف التاريخي مع البارزانيين وأحلافهم. وكونوا جميعاً ما عرف بفصائل البيشمرگه اي الفدائيين.

واستخدم (قاسم) المرتزفة الكرد والعرب القبائليين أسوةً بالحكومات الملكيّة. لمعاونة وحدات الجيش ولتكون طليعته. وراح يواصل تعزيز قواته دون انقطاع وقد بلغت يوم ختمت حياته ثمانية الوية محجفلة (زهاء عشرين الفاً) من اصل اثني عشر لواء كامل الملاك وهو كل الجيش العراقي.

ولم يتبع ايّ من الطرفين في الحرب ستراتيجية عسكرية خاصة. وقنع الثوار بتحكيم قبضتهم على ما في حوزتهم من الارض بتدمير قرى العشائر الموالية والمتعاونة مع الحكومة. ودفعوا بسكانها الى عمق الاراضي العراقية وتحاشوا الاستيلاء على المدن والقصبات او اقتحام معسكرات الجيش القليلة المحصنة ضمن منطقة نفوذهم. وعمدوا الى تخريب الطرق او غلقها بسدّ الخوانق بالصخور او نسف الجسور، ودعموها بنصب الكمائن للقوافل والنجدات العسكرية.

كانت حرب استنزاف او انهاك شلّت الحكومة وحالت بينها وبين القيام بهجوم شامل يهدف الى ابادة الثوار واحتلال مواقعهم بعد تجارب اليمة.

وظلّ (قاسم) يرفض بعناد السماع عن تسوية او ان يعرض اي اشكال التنازل. بل انزل عقاباً موجعاً ببادرة الشيوعيين في اطلاق شعار السلم في كردستان، وارسل عدداً منهم الى السجون باحكام ثقيلة.

في المرحلة الأولى لم يتقدم الكرد بمطلب الحكم الذاتي. لكنهم تحدثوا عن مطالب وطنية وقومية واصلاحات اجتماعية.

وادرك الثوار اليأس من اي تقارب او مفاوضة مع (قاسم) فبدأوا يبحثون عمن يمكن الاتفاق معه على ازاحته وبدا وكأنهم متفقون مع القوميين العروبيين في هذا. لم يكن هناك ايّ احتمال لقيام اتفاق مماثل مع الشيوعيين الذين لم يخطر ببالهم ان يمسّوا نظام قاسم بايّ ضرٍّ.

ليس هناك من خيار إلاّ أنّ التقرب من القوميين العروبيين كان أمراً صعباً. فهؤلاء كانوا يعتبرون (ح.د.ك) رفيق طريق للشيوعيّين.

فضلاً عن انَّ اغلب الفصائل القوميّة العروبية كان يتنكر للأماني القومية الكردية كلما طرحت على بساط البحث ولا يكنُّ لها ذرة من العطف. وقد وجدوا في الماضي انتفاضاتهم المسلحة ودعواتهم الى اقرار حقوقهم القومية مقدّمةً للانفصال وتوطئة لتجزئة الوطن العربي في افضل الأحوال. وفي اسوئها اعمالاً تخريبية بتحريض ودفع من الاجنبيّ الطامع.

بخاتمة المطاف تمّ لقاء الكرد بحزب البعث.

كان هذا الحزب في مؤتمره الرابع قد حررّ نفسه من سحر عبدالناصر ونجح في طرد اتباعه ومريديه، من قياداته (الركابي والريماوي وانصارهما) وباشر بسياسة قوميّة خاصة بمنأى عن التأثير الناصري. ووافقت قيادته العراقية على عمليّة اطاحة جديدة بمساندة الضباط الخصوم الذين وصفتهم بالمغامرين ونأت بنفسها عنهم بعد فشل حلفها معهم فيما دعي بالجبهة القومية التقدمية»[٦٠].

وعلى اثر ختام المؤتمر القوميّ الخامس. وجد البعث بين يديه دعوة صريحة مِن (ح.د.ك) للتنسيق والتعاون على الاطاحة بحكم (قاسم).

والجوّ يعبق برائحة التآمر، والمتآمرون منشغلون ابداً في وضع الخطط. واجهزة أمن وتجسس (قاسم) الجديدة منها والقديمة منشغلة بتعقيب المشتبه بهم واعتقالهم. ولايمر شهرٌ واحدٌ دون ان تصدر من رئاسة اركان الجيش لائحة باحالةٍعلى التقاعد.

و(قاسم) في الوقت ذاته ينفي بشدّة وغضبٍ مفتعلين ادعاءات الشيوعيين بوجود حقيقي لتلك المؤامرات. ويجيب بزيادة استخدام الضباط القوميين إنجازاً لخطّة الموازنة التي اعتمدها[٦١]. في عين الوقت وبعد ان فقد الولاء الكرديّ المتمثل بالحزب زين لقاسم أن يثبت

(٦٠) كان هدف البعثيين في إنشاء هذه الجبهة او الانضمام اليها بالأحرى هو تعبئة الضباط القوميين والناصريين تحت مظلتهم. وليس للمصالحة مع عبدالناصر. فقد وجدت تكتلات عسكرية من فلول الضباط الأحرار مثل كتلة الرائد الركن صبحي عبدالحميد وكتلة الرئيس جاسم العزاوي وجماعة الرائد رشيد محسن وكتلة عبدالكريم فرحان، وكتلة ناجي طالب وكتلة العقيد رجب عبدالمجيد فضلاً عن الضباط الموالين لعبدالسلام عارف. ذكر الفكيكي (المرجع السالف: ص١٨٠) ان الرائد الركن صالح مهدي عماش حاول تنسيب بعضهم الى الحزب... إلاّ انهم مالبثوا ان نزعوا عنهم هذه الصفة بسبب خلافهم مع الحزب لأسباب عدة. وخصوصاً إصرار البعث على تسمية (البكر) رئيساً للوزراء بدلاً من (ناجي طالب) و(طاهر يحيى) رئيساً لاركان الجيش بدلاً من (عبدالكريم فرحان) وكان لموقف القيادة القوميّة من فصم الوحدة وتوقيع (البيطار) على وثيقة الانفصال وبيانات الحزب الطافحة بالتجريح لعبدالناصر دور حاسم في ابعاد القوميين العرب من الجبهة.

(٦١) روى لنا الطيب الذكر جلال جعفر الاوقاتي قائد القوة الجوية أنّ (قاسماً) نسب صالح مهدي عماش مديراً للادارة عنده ليكون رقيباً عليه. لم تعد المسألة مسألة عقيدة ولا العمل لاهداف قومية بل كانت =

بأنه لا يقلّ عروبيّة عن عبدالناصر. فحاول مدّ يده فوق الفضاء المصري الى ماكان يعتبره الزعيم المصري ضمن مجاله الحيويّ. فساهم في دعم حركة الاستقلال الجزائرية. مالياً باكثر من مليون دينار (ثلاثة ملايين دولار). ودعا الملك المغربي لزيارة بغداد واستقبله استقبالاً «ملكياً» حافلاً. كان محمد الخامس قد ظفر باستقلال بلاده الكامل قبل الرابع عشر من تموز بسنة واحدة. فكتبت عنه الصحف العراقية وقدمه راديو بغداد بوصفه زعيماً وطنياً قاسى آلام النفي اكثر من سنتين. محاولة الخروج من المأزق الحكومي والإحراج الشعبيّ فقبل اقلّ من سنتين قضت ثورة تموز على الحكم الملكي وأوقعت بالأسرة الملكية مذبحةً لم يشهد القرن العشرون لها مثيلاً في اي بلدٍ آخر. وهدى التفكير بقاسم ان يطلق عليه عبارة «الملك الشعبيّ» فتلقفها الاعلام العراقي وعدّها مخرجاً للإحراج، كما اقدم (قاسم) على تزويد ثوار الجبل الأخضر (بعمان) بالسلاح والخبراء ونظمت زيارة للبطلة الجزائرية (جميلة بوحريد) واستقبلت استقبال رئيس حكومة[٦٢].

في عين الوقت بدأت الصحافة العراقية تبرز عراقة عروبيّة (قاسم) الى الحدّ الذي نسيت به نصفه الكردي. ووضعت سيماء وقسمات وجه عبدالناصر موضع بحثٍ انثروبولوجي دقيق ولوحظ شعر رأسه الأجعد وبشرته الضاربة الى السمرة بشدّة والى بروز فكيّه وعرض ذقنه وما

= مجرد منافسة وضيعة على المناصب. وإن نحن صدقنا رواية الفكيكي الغريبة (الص ١٨٢–١٨٣، المرجع السالف). فقد بلغ الأمر بالفصائل القوميّة حداً أن صار بعضها يكيد لبعض خشية استباقها إلى مؤامرة ناجحة تؤمن لها الاستئثار بالحكم دون الأخرى. قال الفكيكي: تجمعت لدى الحزب معلومات تفيد أن كتلتي (فرحان وعبدالحميد) تحاولان القيام بحركة عسكرية. فقررت القيادة (البعثية) الطلب من القوميين الناصريين تأجيل العمل لأنها غير مهيّأة للمشاركة، وفي الوقت نفسه قررت قيادة الحزب استنفار كلّ قواها العسكرية والحزبيّة اذا ما حصلت. كيما يكون للحزب دور وحصّة ومنعاً لرجحان الكفّة الناصريّة. وخلال اجتماع للمكتب العسكري اقترح صالح مهدي عماش مازحاً تسريب الخبر الى (قاسم)... وبعد ايام من الاجتماع التقى (عمّاش) عبدالمجيد جليل مدير الأمن العام في بناية وزارة الدفاع فاوحى اليه باسماء بعض الضباط القوميين وضلوعهم في التآمر. فما كان من الأخير الاّ ان نقل الخبر الى (قاسم) بحضور (جاسم العزاوي) احد الضباط القوميين فلم يتردد قاسم في اعتقال بعضهم واحالة بعضهم الآخر الى التقاعد او الى مناصب ادارية».

(٦٢) قدم (قاسم) للمغرب بالمناسبة ستّ طائرات مقاتلة من نوع (فيوري) البريطانية الصنع. على سبيل الهديّة. ولم تكن الهدية في الواقع ذات قيمة حقيقية. ففي بريطانيا بطل انتاجها والغي استخدامها في الجيش البريطاني. بسبب اخطاء فنيّة خطيرة في تركيبها. وقد ادى استخدامها في العراق الى مصرع اكثر من طيارٍ. واستقبل الاعلام العراقي البطلة الجزائرية والقوميّون العروبيون بكل مظاهر الاجلال ورتب لها برنامج يدور معظمه على زيارة المساجد الأثرية واضرحة الأئمة ما من شك إن خيبة المستقبلين والمحتفين كانت كبيرة عندما إكتشفوا والزيارة توشك على النهاية ان البطلة الجزائرية مسيحيّة. وأن زوجها محام فرنسيّ من اليسار ومن المدافعين عن استقلال الجزائر. [لم يعد يسمع عن هذه الانثى شيء بعد استقلال الجزائر].

الى ذلك من سمات وشيات. واضطر (قاسم) الى الدفاع عن اصوله العربيّة في خطبه اكثر من مَرّة. واكتشف الإعلام القاهري ان والدة (قاسم) شيعيّة المذهب وكان هذا كافياً بالنسبة للقوميين العروبيين للحكم على خُلاسيّة قاسم والشك في عروبته. فالشيعة عند معظم القوميين الغلاة هم فرس وليسوا عرباً.

وفي حربه التي شنها على الكرد، زاد على تقرّبه من القوميين العرب بالافراج عن الصحف القوميّة التي باشرتْ حملاتها مجدداً على الخطر الشيوعي ومرحبة بحماسة بعلائم الإنفراج في العلاقات مع (ج.ع.م). وكان يأمل منها شدّ ازره في حربه وخاب ظنّه فيها. وبادر الى تعطيلها واحدة إثر أخرى(٦٣).

في هذه الأجواء تمّ الإتصال بحزب البعث.

كان سكرتير الحزب ابراهيم احمد على معرفةٍ بطاهر يحيى. وهو في ذلك الحين الشخصية المركزية من الضباط العاملين والمتقاعدين الذين يعملون مع البعث، وكان «يفترض» وليس «يعرف» ان هذا الضابط لابُدَ مشارك في مؤامرة جديدة على(قاسم) فحقق صلته به عن طريق الضابط الكردي المتقاعد (كريم قرني).

وحصل على وعدٍ شفوي يضمن للكرد حكماً ذاتياً لكردستان يعلن عنه إثر ازاحة نظام قاسم.

ربما كان سكرتير الحزب يجهل أو ربّما لم يبلغه موقف لبعث الأوليّ من الانتفاضة.

في بيان يحمل تاريخ شهر ايلول أصدرته القيادة القومية والقطرية معاً وصفت الحركة الكردية بانها حركة تنسقّ مع مخططات الاستعمار في البلاد العربيّة:

«بالرغم عن موقفنا المبدئي من نظام قاسم الدكتاتوريّ فان الحركة المسلّحة في الشمال وموقف قاسم منها تفوح منها رائحة التواطؤ والتآمر مع الاستعمار. فقيادة الحركة المسلّحة بماضيها وحاضرها الملطخّ بالدماء والمتصف بالاعتداء ونياتها العدوانية التي أفصحت عنها مراراً وتعصبها الأعمى يجعلها موضعاً للشبهة والاتهام. وانَّ موقف تركيا وايران عضوي السنتو من الحركة ورعايتهما

(٦٣) منها جرائد [بغداد، الحرية، الشرق، الفجر الجديد] جرى تعطيل هذه الأخيرة في ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦١ بعد الانفصال. وكان من اسباب تعطيلها كما جاء في أمر الحاكم العسكري العام انها تثير الفتن والاحقاد بين الشقيقتين سورية ومصر!! وصاحب الجريدة سلمان الصفواني كان العضو البارز في حزب الاستقلال. وكان اذذاك في حلفٍ مع حركة الاخوان المسلمين. وكانت الجريدة قد دأبت بعد الانفصال على مهاجمة الانفصاليين السوريين ونعتتهم بخونة القومية العربيّة.

لها وتغذيتها بكل ما تحتاجه من مؤن وعتاد يحوّل هذا الإتهام الى يقين والى إدانة...»(٦٤)

كان هذا رأي البعث عند بدء الحركة. ثم تغيرّ بقدرة قادر. يقول الفكيكي:

«اجريت انتخابات (المؤتمر القومي الخامس) بنزاعين مستجدين وان لم يُعدَما المقدمات في الاشهر السابقة: احدهما بين (قاسم) والشيوعيين والآخر بينه وبين الحركة الكردية. وفي تلك الأثناء اتصل الكرد بالحزب عن طريق عسكريين من اصدقاء البعث. فعرضوا التعاون والتنسيق بهدف اطاحة الزعيم وحكمه. ولئن لم يتعدّ همهم ايقاف الاعمال العسكرية ضدّ الشعب الكردي وضمان الحكم الذاتي لكردستان في المستقبل. كان همنّا توثيق الصلة بالحركة الكردية وتمنيّ استمرار القتال في الشمال لاضعاف (قاسم) من جهة وضمان عدم تحرك الاكراد ضدّنا اذا ما نجحنا في تسلم السلطة من جهة أخرى. أمّا في حال الفشل فالعلاقة بالحركة الكردية تُتيح لنا الهروب الى الشمال! وهكذا وللمرّة الأولى في تاريخ الحزب في العراق تضمن تقرير القيادة اقراراً بالحقوق الثقافية للاكراد واشارات عامّة الى اللامركزية.»(٦٥)

ولم يتطرق قط الى الاسباب المبدأية التي حملت حزبه وهو من قياديّه على ابتلاع رأيهم الأول في الحركة الكرديّة.

كان الطرفان بحاجة الى حلف تاكتيكي مؤقّت وربما كان الكرد أحوج اليه في تلك الظروف العسيرة فهم يواجهون جيشاً مجهزا بسلاح عصريّ لا نصير لهم غير جبالهم وعزم لا يلين على خوض المعركة الى النهاية. بدول ثلاث تحيط بهم شرقاً وغرباً وشمالاً لاتكتم عداءها لحركتهم، وتتطير منها وتقلق خشية تسرّب ريحها الى كردهم.

ولم يكن من العسير على البعث ان يبدو بوجهين. وقد سبق له واتفق لعبة ليس الاقنعة.

وكان وعداً شفويّاً. ولم يكن يهمّ قيادة (ح.د.ك) إذ ذاك أن يكون مكتوباً. فهم على علم بحرص البعثيين على عدم ادراج ما يحتمل ان يدينهم في ورقة مكتوبة وموقعة.

قال سياسيّ امريكي لابراهام لنكن معرّضاً: "انت تتكلم بوجهين".

(٦٤) نص البيان الكامل في "نضال البعث" ج٧، الص ٢٥٥–٢٥٦، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٢.
(٦٥) المرجع السالف، ص١٩١.

فردّ الرئيس الامريكي ضاحكاً (وكان دميماً): "اتراني ارض بوجهي هذا لو كان لي وجهٌ آخر؟"

★★★

ما مرّت خمسة ايام على مؤتمر (قاسم) الصحفي الذي اعلن فيه موت الحركة الكردية المسلّحة على يد جيشه وبفضل خططه العسكرية حتى هبط عليه من حالقٍ نصرٌ حقيقي ما كان يسمو إليه اروع خياله أو يراه في ابعد احلامه. نصر لم يبذل فيه جهداً ولم تكن له فيه يد.

في ٢٨ أيلول ١٩٦١ هوى صرح الجمهورية العربيّة المتحدة وتم الانفصال بين سورية ومصر وباتت خبراً من أخبار التاريخ.

ملحق أول

نصّ المقال الرئيس الذي صدر في العدد ٣٣٩ من جريدة خهبات لسان الحزب الديمقراطي الكردستاني وبتاريخ ١٩ تشرين الاول ١٩٦٠

الأمة الكردية
والمادة الثانية من الدستور

اثيرت أخيراً – اثناء انعقاد المؤتمر السادس لاتحاد الطلبة العالمي في بغداد مناقشة حادة تناولت المادتين الثانية والثالثة من دستورنا العراقي المؤقت. وبما ان الموضوع قد اقحم فيه اسم حزبنا دون مبرر من جهةٍ وبسبب اهمية معرفة وجهة نظرنا حول مفهوم المادتين المذكورتين لتوطيد وترسيخ العلاقات العربية الكردية في ظل الجمهورية العراقية من جهةٍ أخرى، نرى من الضروري إلقاء بعض الاضواء على مفهومها لدى الشعب الكردي. حيث ان بعض الجهات قد تمسكت كما علمنا بنص المادة الثانية من الدستور لاثبات وجهة نظرها الهادفة الى انكار وجود الأمة الكردية ووطنها كردستان ولاعتبار الاكراد العائشين في ظل الدولة العراقية اقلية قومية على ارضٍ عربية كغيرها من الاقليات القومية المبعثرة هنا وهناك.

اننا قد شعرنا منذ اطلاعنا على مسودة الدستور المؤقت بوجود نقص في التعبير وتناقض في المادة الثانية من الدستور، كما ولاحظنا غموضاً في المادة الثالثة منه. غير ان المقام لم يكن يسمح بالمجادلة والمناقشة فواجب تعبئة جميع القوى وتوجيهها للدفاع عن كيان الجمهورية الفتية قد طغى في نظرنا على ماعداه. فتركنا الموضوع الى ظرف انسب ومجال اوسع ولم نكن نرى هذا الظرف إلاّ وقت عرض مسودة الدستور الدائم على المجلس الوطني. غير ان سوء التفسير الذي التجأ اليه البعض مؤخراً فيما يتعلق بموقفنا وتأخر الاجراءات اللازمة لانتخاب المجلس الوطني وسن لائحة الدستور في القريب العاجل ومطالبة الكثير من اعضاء حزبنا ومؤازريه إيانا ببيان وجهة نظرنا حول الموضوع، كلّ ذلك ادّى بنا الى الاسراع باعلان رأينا بصورة مجملة في مفهوم المادتين المذكورتين في هذه المناسبة ولكننا قبل ان نبدأ بذلك، نرى من الواجب ان نذكر بأن الصراحة التامة هي شرط اساس للتوصل الى كل حلّ مستديم ثابت عند معالجة جميع المشاكل المتعلقة باكثر من طرفٍ واحدٍ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نرى ان الوضوح وتجنب الغموض في النصوص الدستورية المتعلقة بالعلاقات بين القوميات العائشة في دولة ثنائية القومية أو متعددتها مما يوطد اسس التعايش والاتحاد بينها بعكس الغموض. ولذا فإننا نعالج الموضوع بما يتطلبه بكل صراحة:

ان المادة الثانية من الدستور المؤقت التي تنص على ان العراق جزءٌ من الامة العربية لم تلاحظ عند وضعها الدقة العلمية والصحة المنطقية بقدر ما لوحظت الناحية العاطفية. فالعراق كما هو معلوم كلمة لها في الوقت الحاضر مفهومان لا ثالث لهما: الاول اسم جغرافي تاريخي تضيق رقعة شموله كثيراً جداً عما هي عليه خارطة العراق الحالية. والثاني تعبير سياسي للدلالة على الدولة التي تكونت بعد الحرب العالمية الأولى من قسم كبير مما كان يدعى بالعراق تاريخياً ومن جزء من كردستان الجنوبية التي كانت تدعى بشهرزور حيناً وبولاية الموصل حيناً آخر بحسب التقسيمات الادارية للدولة العثمانية التي اسست الدولة العراقية على بعض انقاضها ولتحقيق مطامع الامبريالية البريطانية في السيطرة على منابع الثروة في المنطقة وخاصة النفط، وللتحكم بما كان يدعى بطريق الهند. فعبارة «العراق جزء من الامة العربية» هي اذن ليست صحيحة علمياً ولا منطقياً، لان العراق كما علمنا انما هو اسم سياسي للدولة المسماة حالياً «الجمهورية العراقية» أو اسم جغرافي تاريخي لجزءٍ من هذه الدولة. فبأي من هذين المفهومين لايمكن ان يكون جزءً من الامة العربية لأن الأمة كما هو معلوم ومعروف في علم السياسة لاتعني إلاّ جماعة معينة من الناس تكونت تاريخياً على ارضها الخاصة بها وتعيش حياة اقتصادية مشتركة، لها لغتها القومية الخاصة وذات نفسية مشتركة.

فالعراق كمفهوم سياسيّ، اي كدولة، لايصح اعتباره جزءً من الامة العربية، كما انه كمفهوم جغرافي لايصح ايضاً اعتباره جزءً من الأمة العربية. وقد يصح اعتبار جزء منه من ارض الأمة العربية اي البلاد العربية. اما اعتباره جزءً من الأمة العربية ذاتها فهو خطأ واضح.

قد يقول البعض ان المقصود من كلمة العراق، هو الشعب العراقي كله واننا نرد عليهم بان هذا الزعم غير صحيح اصلاً لأنه لم يسبق استعمال كلمة العراق للدلالة على الشعب. وان شعب الجمهورية العراقية المتكون من العرب والاكراد ومن بعض الاقليات القومية ليس جزءً من الأمة العربية المجيدة. اذ لا معنى مطلقاً لقولنا ان العرب والاكراد في العراق هما جزءٌ من الأمة العربية حيث ان مجرد ذكرنا «الاكراد» الذين هم جيلٌ من الناس عريق في القدم عراقة العرب، فيه دليل على عدم صحة العبارة من الناحية الواقعية. ولايمكن مطلقاً ان نسمح لانفسنا بان يذهب بنا سوء الظن الى تصوّر المشترع العراقي قد اراد اعتبار الاكراد عرباً جبليين كما ذهب التعصب القومي الاعمى بالمشترع التركي فاعتبرهم اتراكاً جبليين. وليس هذا فحسب بل ان المادة الثالثة التي تقرّ الحقوق القومية للشعب الكردي وتعترف بشراكته، تسدّ الباب على اي ظن آثم من هذا النوع. وعلاوة على ما تقدم، فلا يمكن الادعاء بان المقصود من هذه المادة هو كون العراق، اي جميع الأرض التي هي تحت سيادة الدولة العراقية

هي جزءٌ من الامة العربية، باعتبار ان الأمة العربية تعبير عن البلاد العربية اي الوطن العربي. اذ ان هذا التخريج علاوة على ما فيه من مغالطة فانه مخالف للحقيقة والواقع. اذ ان الدولة العراقية كما هو ثابت بوثائق لاتحصى - مكونة من جزئين احدهما هو العراق او ما كان يدعي ببلاد ما بين النهرين في السابق. وثانيهما هو جزءٌ من كردستان اي بلاد الاكراد والذي اقتطع من الجزء الواقع ضمن الدولة العثمانية عند انتهاء الحرب العالمية الأولى. وان ألوف الوثائق التي فحصت من قبل اللجنة الخاصة التي ألّفتها عصبة الامم لدراسة الوضع في ولاية الموصل اثناء النزاع حولها بين الدولة التركية من جهة والدولتين البريطانية والعراقية من الجهة الثانية، اثبتت بصورة اكيدة انه لم يسبق اطلاق اسم العراق على شهرزور بل ولا على ولاية الموصل في يومٍ من الايام لحين تشكيل الدولة العراقية بحدودها الحالية.

هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فانه لم يسبق اعتبار كردستان لا كلاً، ولا الجزء الداخل ضمن الدولة العراقية، جزءً من البلاد العربية في اي وقت من الاوقات. فقد حصل في مجرى التاريخ مراراً ان وقعت كردستان أو جزءٌ منها ضمن دولة اسلامية. غير انه لم يسبق اعتبارها جزءً من البلاد العربية قطعاً اذ انها ليست كذلك. هذا ونحن نرى من الواجب ان يصاغ المعنى المقصود من هذه المادة في الدستور الدائم بصورة صريحة وواضحة بحيث لايبقي مجالاً لتفسير الدساسين ومفرقي الصفوف ولتكون مطمئنة لنفوس الاكراد كما تكون محققة لرغبة ابناء الأمة العربية الشقيقة ومطامحها المشروعة. هذا واننا نعتقد بسهولة ايجاد مثل هذه الصيغة اذ أخذت بنظر الاعتبار الحقائق التاريخية والوقائع المادية التي تنطق بتكون الجمهورية العراقية الخالدة من جزء من الامة الكردية وبلادها كردستان. ومن جزءٍ من الامة العربية وبلادها الوطن العربي الكبير. واذا أخذت مصالح القوميتين العربية والكردية الحقيقية بنظر الاعتبار ووجهت العناية التامة اللازمة الى مسألة ترسيخ كيان الوحدة العراقية الصادقة.

واننا لانشك في ان الاعتراف بهذه الحقائق والوقائع ووضع النصوص والقرارات على ضوئها فضلاً عن كونها الحلّ الصحيح والمعقول للمسألة المنسجم مع روح العصر التحررية والمحقق لرغبات الشعبين المتآخيين، العربي والكردي، فهو ايضاً ولما مرّ بيانه، توطيد اكيد لصرح الكيان العراقي الحبيب والاخوة العربية الكردية والوحدة النضالية بينهما. وذلك بعكس ما يريد تصوره اعداء جمهوريتنا الذين تنحصر آمالهم كلّها في امكانية ترويج الافكار الاندماجية الالحاقية بين اخواننا العرب بغية خلق رد فعل قويّ بين الاكراد. وكل ذلك لتصديع وحدة الصف الوطني النضالي بين العرب والاكراد.

هذا ، وقبل ان نختتم مقالنا حول المادة الثانية من الدستور المؤقت والبدء في الكتابة عن المادة الثالثة منه، نرى من الضروري ان نؤكد مرة أخرى ما سبق وان كررناه مراراً وهو احترامنا الشديد وحبّ شعبنا الكردي العميق شقيقه الاكبر الشعب العربي واعتبار كل نصرٍ تحرزه الأمة العربية، نصراً للأمة الكردية ذاتها.

ان الشعب الكردي العائش على جزء من وطنه كردستان والذي يكوّن جزءً من شعب الجمهورية العراقية الخالدة راغب اشدّ الرغبة في ومصمم كل التصميم على الدفاع عن الوحدة العراقية الصادقة وعن الشراكة العربية الكردية المتساوية الحقوق والواجبات وانه حريص على صيانة استقلالنا الوطني ونهج جمهوريتنا الديمقراطي، حرصه على اعزّ ما يملك في الوجود.

خەبات

[م٣: يقوم الكيان العراقي على اساس من التعاون بين المواطنين كافة، باحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم. ويعتبر العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن ويقرّ هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية]

لانغالي اذا قلنا ان الفقرة الاخيرة من المادة الثالثة من الدستور العراقي الموقت المدون نصها اعلاه هي من أكثر فقراته ترديداً على الالسنة والاقلام العربية عامة والكردية بصورة خاصة منذ ان أعلن سيادة الزعيم عبدالكريم قاسم نصّ الدستور في ٢٧ تموز ١٩٥٨ ولا غرابة في ذلك، فالنص المذكور قد وضع لأول مرة في التاريخ، الأساس لبناء صرح العلاقات بيت الشعبين العربي والكردي ضمن الوحدة العراقية فحقق للشعب الكردي ما كان يطالب به من وجوب انشاء العلاقات بينه وبين شقيقه الشعب العربي على أسس متينة ثابتة ومباديء صريحة واضحة.

ان هذه الفقرة هي ثمرة جهاد طويل شاق قام به الديمقراطيون الاكراد ضد سياسة المستعمرين والحكومات العراقية الموالية لهم الرامية الى القاء العلاقات بين العرب والاكراد في غموض وترك بني قومنا في حالة قلق مستمر على مصيرهم بغية الاحتفاظ بالثغرات التي يستطيع المستعمر النفاذ منها الى صفوف الشعبين لتحقيق مآربه الاستعمارية بتطبيق سياسة «فرق تسد» البغيضة.

ان هذا النص قد ادخل اول ما ادخل كمادة في منهاج نظام - حزب المؤتمر الوطني - الذي طالب بتأسيسه بعض الاحزاب الوطنية والشخصيات المستقلة قبل الثورة بسنوات. وكان لحزبنا الديمقراطي الكردستاني شرف تمثيل الشعب الكردي في مفاوضات صياغة هذا النصّ كأحسن حلّ يلائم الظروف والاحوال المحلية والعالمية التي صيغت فيها. هذا ونرى من الواجب ان نذكر للحقيقة والتاريخ ان الحزبين الوطني الديمقراطي والاستقلال كان لهما الفضل عند وضعه في منهاج الحزب المشار اليه اعلاه.

وجاءت الثورة التي ابادت النظام الاستعماري الملكي الاقطاعي وطغمة العملاء الخونة من العرب والاكراد ووحدت جميع ابناء الشعب العراقي في وحدة كفاحية. وسدّت على المستعمرين طريق التفريق بين العرب والاكراد بقبولها هذا النصّ وادخاله في صلب الدستور كجزء من المادة الثالثة منه. مما كان له أكبر الاثر في التفاف الشعب الكردي ضمن الجمهورية العراقية وخارجها في سائر انحاء كردستان حول الجمهورية العراقية، جمهورية العرب

والاكراد.

اننا عندما نعيد النظر في هذا النصّ على ضوء الوقائع التي مرت خلال السنتين ونيف الماضيتين نرى انه يحتاج الى شيء من الايضاح والتعريف وذلك لاعتقادنا بان اتحاد الشعوب في ظل الدولة المتعددة القوميات تزداد قوة ورسوخاً كلما ازدادت علاقاتها المترابطة وضوحاً والحقوق القومية لكل واحدٍ منها تعييناً وتخصيصاً. فالنص المذكور يتضمن كما هو واضح أمرين: الأول الاعتراف بشراكة العرب والاكراد في هذا الوطن، والثاني الإقرار بحقوق الاكراد القومية ضمن الوحدة العراقية.

فالشراكة بين شعبين او اكثر في ظلّ دولة واحدة لها امثلة عديدة في مختلف انواع الانظمة في عصرنا الحاضر. فهناك سويسرا الديمقراطية المثال الخالد للدولة المتعددة القوميات والتفعيل الأخوي بين مختلف الشعوب وهناك الاتحاد السوفياتي المثل الرائع لتعدد القوميات المختلفة وتعايشها في ظل النظام الاشتراكي وهناك دولة جيكوسلوفاكيا الاشتراكية التي نصّ دستورها (على انها دولة متحدة متكونة من امتين متساويتين متآخيتين هما الجيك والسلوفاك) وهناك يوغسلافيا والهند والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الاميريكية. فقد يرد بالبال جميع هذه الاشكال للشراكة بين القوميات والشعوب المتآلفة ضمن مختلف الانظمة. عندما نذكر ان العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن فمن اي شكل من اشكال الشراكة هذه الشراكة العربية الكردية. اننا نرى ان هذا الأمر يجب ان يوضح ان لم يكن في الدستور الدائم بالذات ففي قانون خاص. ثم ان مختلف قوانين الدولة العراقية يجب ان تظهر فيها بوضوح آثار تلك الشراكة التي لا شك ان طرفيها يتمتعان بنفس الحقوق وعليها نفس الواجبات كعضوين في هذه الشركة الطوعية. اذ لايعقل تطبيق نظرية ربط مقدار حقوق الشركاء في الشراكة بين الشعوب بنسبتها العددية، فحقوق الشعب لاتقبل التجزئة والتقسيم مهما كان عدد نفوسه ولذا فقد اصبح من الحقائق البديهية مساواة الشعوب كبيرها وصغيرها.

هذا فيما يتعلق بالشراكة بين العرب والاكراد التي يجب ان تظهر آثارها بجلاء ووضوح على مختلف نواحي المجتمع الكردستاني خاصةً والعراقي عامةً، بل وكذلك في سياسة الجمهورية العراقية الداخلية والخارجية باعتبارها جمهورية العرب والاكراد. اما فيما يتعلق باقرار الدستور بحقوق الاكراد القومية ضمن الوحدة العراقية فاننا نرى في ذلك تأييداً لما ذهبنا اليه في ايضاح مفهوم الشراكة العربية الكردية مع انه من المفيد جداً ان لايقتصر الأمر على مجرد النصّ بان هذا الدستور يقرّ حقوقهم القومية، لأن المعتاد في النصوص الدستورية

من هذا النوع ايضاحها وتحديدها بقانون خاصّ لضمان تمتع الشعب الكردي بحقوقه القومية هذا مع العلم ان الحقوق القومية يمكن تحديدها بالرجوع الى المصادر القانونية الدستورية وشروحها العامة.

هذا وقبل ان نختم مقالنا، نعود فنكرر تثميننا العظيم لقبول المبدأين من قبل المشرّع العراقي في دستورنا الموقت، مبدأ الإقرار بشراكة الشعبين العربي والكردي في هذا الوطن ومبدأ الاقرار بحقوق الشعب الكردي القومية ضمن الجمهورية العراقية. ذينك المبدئين اللذين لايمكن ان تتحقق بدونهما اية وحدة صادقة بين الشعبين المتآخيين الأمر الذي يبشر مستقبل جمهوريتنا الخالدة بكل خير وتقدم وازدهار.

هذا ويجب ان لاننسى ان العبرة في القوانين والنصوص الدستورية انما هي بالتطبيق ولذلك فاننا لانستطيع ان نفصل بين النصّ والتطبيق بحال من الاحوال خاصة واننا في عهد ثورة فجرت للقضاء على جميع الاوضاع الفاسدة ومنها عدم تطبيق القوانين وتجميد مواد الدستور المتعلقة بحقوق الشعب. فمن البداهة بمكان اذن ان يكون كلنا أمل بان جميع النصوص الدستورية المتعلقة بحقوق الشعب العراقي عامة والشعب الكردي خاصّة تحظى بضمانات اكيدة عند وضع الدستور الدائم للعراق ويتمتع بها الشعب كحق مشروع له وكثمرة طيبة من ثمار نضاله الشاق الطويل التي لايرى للحياة طعماً بدونها ولن يقبل عنها بديلاً.

خەبات

ملحق ثان

شخصية عبدالكريم قاسم

كتب الكثير عن شخصيته وطبائعه. وليس بينهم من نفذ الى العمق ليقدموا تفسيراً منطقياً مقنعاً لاعماله واهوائه واختلفت على هذا الضابط اقوال كثيرة، وما من شك في انه قبل كل شيء نشر حكماً دكتاتورياًعلى العراق لا سابقة له. وانه وطأ لعهود حكم تالية اسوء من عهده بكثير. لكن اعتذر بعضهم عن سيئاته بأنها من أثر مرضٍ عصبي ألمّ به وعولج وانه انتقل الى لندن بسبب من هذا، ومروا بهذا المرحلة من حياته مروراً عابراً. وانقسم الكتاب عنه بين مادح يظهر اصلاحات له، وبين قادح يبحث جاهداً عن مواقف سيئة. ولم يخطر ببال احد ان يرجع الى ملفه الشخصي في وزارة الدفاع وقد ارتفع الحرج عنه واضحى بعد مقتله في متناول ايدي الباحثين. وربما خطر ذلك ببال احدهم فعاد خائباً، ولا استبعد ذلك، لأن رجال السياسة وحكام البلاد عوّدونا على «تنظيف» سجلهم الشخصي مما يدينهم دون ان يفلتوا الفرصة من ايديهم فيرفعوا ما يكرهون ابقاءه في ملفاتهم الشخصية التقارير السرية والكتب الرسمية. ولا اعتقد ان عبدالكريم قاسم قد ملك من الامانة على سرّه قدر ما ملك الآخرون، لذلك مما أظن الباحث والكاتب العزوم العنيد قد يظفر بشيء ذي قيمة من ملف (قاسم) الشخص في وزارة الدفاع، يكشف عن نوع المرض العصبي الذي حمله على طلب احالته الى اطباء مختصين في لندن، وما أظن المرض الذي شخصّ به انذاك قد بلغ فيه مرحلة جديّة خطيرة تستدعي اخراجه من الجيش.

لذلك كانت سبيلي الوحيدة اليه متابعة اعمال له وخطب وتصريحات ومؤتمرات صحفية وقرارات يتخذها بحق مصائر الناس وحيواتهم، ونحيتُ جانباً تلك الكتب التي الفت عنه بعد ملاحظتي مظاهر الاعياء التي تخللتها في تحليل نقائض هذا الرجل او قل مقررات عجيبة غير منطقية له، يخلص احدهم منها بوصمه بالجنون دون تقديم دليل.

اتيحت لي الفرصة للحديث عن الرجل عندما سئلت في مواجهات صحافية نشرت تباعاً في جريدة خهبات العربية لسان الحزب الديمقراطي الكردستاني ثم نشرت جملتها بكتاب عنوانه «رجال ووقائع في الميزان». [ط. اربيل ٢٠٠١ الص: ١٧٥ وما بعدها] ومما قلته عنه (في غياب الدليل

كان الاقوم بنظري ان تعطي الاولوية او المركزية لاقواله غير المعدّة سلفاً في الخطب المرتجلة

التي تدفعه اليها حماسة الجمهور وتصفيقه وهتافه. واغلب القرارات التي يتخذها خلال تلك الخطب عفوي يعبّر به لسانه فيعد فجأة ويتعهد بعهد يقطعه بمكانه ومصداقية توهمها لنفسه عند سامعيه، وهو في هذا يشارك معظم الحكام المستبدين والانقلابيين العسكريين. كان من جهة يريد ان يظهر بوجه الحاكم العطوف الرقيق المهتم بمصلحة الشعب بالدرجة الاولى والاخيرة. كما كان من جهة اخرى يريد ان يخلّف انطباعاً بانه شديد وقاسٍ على اعدائه والمتحينين به الفرص – الذين هم اعداء الشعب ايضاً. هذا عمل مقصود من شخصٍ واحدٍ ولايستدعي وقفه خاصة، نحن نلحظه في سائر من سبقه من الانقلابيين والا ان مالحظته منه بصورة خاصة هو نمو تلك الازدواجية في الشخصية ممتزجة باحساس لايحد «بالعظمة» «والسمو». تأمل هذا القول:

«ان الاستعمار قد يئس من استعادة السيطرة على بلادنا وان جمهوريتنا اصبحت راسخةً وكيانها ثابت. وانني شخصياً وابناء الشعب معي وانني شخصياً بالمرصاد. لدينا القوة الكافية للدفاع عن جمهوريتنا والدفاع عن كل شبر من اجزاء الوطن بجيشنا القوى المعزز الذي يتفانى في خدمة ابناء الشعب. والشعب مندمج بكيان هذه الجمهورية وان الحكومة الوطنية والرجال المسؤولين مندمجون بكيان هذا الشعب ويعملون لنصرته وفق اسس علمية. اننا لانعمل بخطط ارتجالية. ان الارتجال والطيش لايؤدي الى نتيجة ولكن الخطط البارعة المنسقة هي التي تخدم ابناء الشعب. فانتظروا ابناء شعبنا الكرام، انتظروا مدةً لاتزيد عن ثلاث سنوات سوف ترون المعامل والمصانع والمزارع والمشاريع والمدارس والجامعات والمستشفيات والمنازل والطرق والعمارات والانهر والقنوات. وكل امرٍ يؤمن ازدهار هذا البلد. اننا سنكون من أرفع العوالم والدول المتمدنة. اننا نسير قدماً الى الامام نحو مستقبل فاضل يؤمن العيش الرغيد والسعادة. وترون الكهرباء وترون وسائل المدنية الحديثة والمكتبات الشاملة البديعة المنسقة في كل بيت وتحت متناول كل يد.»

ألا دعك من هذا الخبط والهراء، فما من شك في ان من يقرأ (الان)! هذا ولم يكن مولوداً يوم القائه او بلع سنّ الادراك والفهم يوم ١٤ تموز سيظن ان شمس ذلك اليوم المشهود طلعت على بلدٍ غارق في ظلام القرون الوسطى حيث لا كهرباء ولا مستشفيات ولا معامل ولا طرق ولا مدارس ولا جامعات ولا منازل ولا عمارات ولا مكتبات. بلد محروم من كل وسائل حياة

العصر وانه كان ينتظر مخلصاً (كقاسم).

ثم انظر اليه كيف يرى الديمقراطية. قال في خطبة له في ٢٩ آذار ١٩٦١ وقد ظهرت فيه ملامح الازدواجية المرضية ولم يعد قادراً على اخفائها (وهذا وجه واحدٌ لها)

«اننا لو كنا ذَنَباً للدول الأخرى لاحتقرتنا هذه الدول. لكننا دولة حرّة ديمقراطية. حرة صديقة للعالم الصديق اننا دولة محايدة مسالمة لاتعتدي على احدٍ. اننا دولة نحبّ السلم ونحبّ ان نعيش بطمأنينة وامن وازدهار في بلدها ولاتعتدي على الآخرين... اننا دولة ديمقراطية حرة تضمن مصالح شعبها. ومعنى الديمقراطية ان الدولة تسير بالعدل والاستقامة والنبل ولاتعتدي على الاخرين»

وتأمل في كيفية تعريفه للديمقراطية في عين الخطبة:

«في كل دولة تنبثق من حاجتها. فكل دولة في العالم تقدر المقدار الذي يردها من الثروة. وتقدر كذلك مقدار نفوس شعبها واحتياجهم واحتياج الفرد وسدّ حاجته واحتياج المجموع وسدّ حاجته واحتياج الدولة وسَدّ حاجتها. وعلى هذا الاساس تنظم علاقاتها وتنظم مبادءها وتسير وفق اسس ومباديء تستوحيها من مصلحة وطنها هي. ان نفوسها كثيرة في اغلب الاحيان وموارردها قليلة ولذلك فان تلك المباديء تستهدف منها ان لايقضى على أحد جوعاً او عرياً او يبقى جاهلاً عاجزاً. هذا هو القصد من تلك المباديء ولتنظيم سيرها في مواكب الحرية مع العالم على اسس تراها ملائمة لها ولشعبه ان كل مبدأ عندما يفد الى بلدنا يجب ان يذوب في هذا البلد!!» آه

بكلمة مختصرة الديمقراطية عند قاسم هي الايمان به والسير وراءه ووجوب ذوبان وانصهار كل المفاهيم والمباديء فيه.

في هذه المرحلة اصبح هناك شخصيتان فيه تتصارعان، الشخصية التي اصرت على أن على شن حرب على تلك القومية لأنها ارادت ان يخرج هذا النص الى حيز التطبيق العملي. قالوا انه هو الذي اصرّ باخلاص وحسن نيّة منه على ادراج هذا النص في الدستور وهو الذين تحدّى الجميع بإصراره على شنّ الحرب.

ليس هناك تعاليل معقولة او منطقية لايجاد علاقات سببية بين ما كان يصدر عن (قاسم) الا بافتراض الازدواجية في شخصيته، تحاول احداهما استباق الأخرى والتغلب عليها. تأخذ هذه المنازعة بين الشخصيتين طابعاً جذاباً مضحكاً من خلال موقف صاحبهما من المعركة

الاعلامية التي نشبت بين الجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م) والاعلام العراقي بعد احباط محاولة العقيد الشواف الانقلابية. فقد أنطلق جمال عبدالناصر يهاجم (قاسماً) بالاسم المجرد – في خطبه الهستيرية من دمشق والقاهرة. وبدا (قاسم) امام هذا الهجوم وكأنه غير الشخص المقصود وان عبدالناصر يقصد شخصاً آخر غيره بالتزامه جانب الصمت المطبق ولم يبد عليه المجهود الذي بذله لينأى بنفسه عن الاسفاف والنزول الى مستوى الرد على الشتيمه بمثلها أو حتى باجتناب التلفظ باسم غريمه عبدالناصر. يريد الارتفاع بنفسه عن المعركة المحتدمة. والتفسير الوحيد الذي يعطينا إياه المحلل أو الطبيب النفساني انه محاولة لشخصية قاسم الثانية اظهار تفوقه العقلي والادبي ورزانته والظهور بمظهر القادر على ضبط النفس. ويغلب على ظني ان (وليم ماكيل) مراسل مجلة التايم الامريكية فطن بشكل ما الى اللعبة التي كان يلعبها قاسم في ٢١ آذار ١٩٥٩ عندما حاول جهده استدراج (قاسم) باسئلة ملحاحة الى ذكر عبدالناصر بالاسم او الاشارة اليه بالكنية ففشل. وقد أوردناها.

وتبدو الموازنة غير المنطقية مختلة بين الشخصيتين في مقررات متناقضة تاريخية. ففي ايلول اصدر قاسم القانون رقم (٣٣) بعنوان قانون العفو عن المحكومين السياسيين. وبه شطب الافعال الجرمية عن القائمين بحركة مايس ١٩٤١ الموالية للمحور. واعيد بموجبه اعتبار سائر الضباط الذين شاركوافي الحركة وفي مقدمتهم الضباط الاربعة الذين كانوا بين زمرة الضباط السبعة المتآمرين على حياة بكر صدقي فقضوا عليه ومعه صديقه آمر القوة الجوية محمد علي جواد الذي تشاء الصدف ان يكون ابن خالة (قاسم). فاصدر قانوناً مماثلاً للقانون الاول اعتبر فيه بكر صدقي وابن خالته من شهداء الوطن الذين يستحقون تقدير الوطن!!

وسواء في الامر اكان ذلك نتيجة استفحال المرض العقلي أو اختلال الموازين العقلانية بسبب السلطة اللامحدودة التي باتت طوع أمره فانه لم يعد بعدها يفكر لحظة واحدة برأي الجمهور بكيفية تمشية مقدرات البلاد أو حكمهم على تصرفاته فقد ظهرت عليه غلائم مرض الشيزوفرنيا بشكل واضح وسأضرب مثلاً لعجزه عن اخفاء هاتين الشخصيتين المتصارعتين فيه.

في ٣١ من آذار ١٩٦١ القى بياناً بصوته من دار الاذاعة معلناً عن تأجيل حكم الاعدام بحق اولئك الذين ادينوا بمحاولة اغتياله وهذا هو بالنصّ ومن دون تغيير كلمة واحدة فيه كما سمعته الملايين ونشرته الصحف المحلية كلها في اليوم التالي. أرجو الانتباه الى الصيغة بدقة:

«انني لاحظتُ قد صدر في هذا اليوم امرٌ بتنفيذ حكم الاعدام حتى الموت في الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم اي بعد ساعتين وربع تقريباً ساعتين وخمسة عشر دقيقة. وانني أقول واذا جاء اجلهم لايتأخرون (كذا!) ساعة ولايتقدمون (كذا). انا أعطف على جميع ابناء الشعب. وجدت ان هذا اليوم هو آخر يومٍ من ايام العيد. وهذا اليوم هو ليلة الجمعة والايام لدينا مقدسة (كذا) ولذلك قررت في هذه اللحظة ان ائتمر بأمر الباري عزّ وجل. واني قررتُ تأجيل تنفيذ حكم الاعدام حتى اشعار آخر.»

لاحظ كيف ان الشخصية الأخرى ارادت التنصل من التوقيع على الامر بتنفيذ الحكم باستعمال الماضي الغائب من الفصل (صَدَرَ). وكيف ان الشخص (الآخر) تغلب باستخدام قاسم الفعل الماضي المتكلم (إني قررتُ) في معرض تأجيل التنفيذ اني اترك تحليل ذلك للاطباء النفسانيين.

دونك مثلاً آخر لما يرى في امثال قاسم المرض بداء الازدواجية اعمالاً ناجحة عن تفكير سليم عميق، يبدو في ظاهره منطقياً، واقصد به عامل الموازنة الشاذّ.

فالناس الى الآن يحمدون لقاسم عبقريته في تأليفه مجلس السيادة وأن مشكلة الحكم في العراق قد تمّ حلها على افضل وجه. ذلك هو عامل الموازنة الجنوني الذي دفعه بعد بضعة اشهر الى ان يقدم للمشنقة مسلماً سنيّاً ومسلماً شيعياً ومسلماً كرديّاً بشخص بهجت العطية وعبدالجبار فهمي وسعيد القزاز، على التوالي. فعلها كما يعلم الجميع ارضاءً ومكافأة للشيوعيين الذين كانوا يشيعون الرضا والارتياح في كيانه عندما كانوا يهتفون له دائماً «ماكو زعيم الاّ كريم» في حين كانت الشخصية الثانية فيه تحتقرهم وتمتهنهم وتطعن في وطنيتهم ولايطيق اخفاء شعورها فيطلقها من عقالها في ساعة تحرر تام من قيود الشخصية الأولى ليكتب بخطه وتحت توقيعه «انهم عملاء»[1].

ويناقش المحللون والاطباء النفسانيون من مرضاهم لغرض التشخيص اصغر الوقائع من حياتهم اليومية للوصول الى تشخيص نوع المرض ومقدار تقدمه. ما من شك في انه لو حظي احدهم بجلسة مع (قاسم) لما فاته سؤاله عما حدا به الى رسم الخنجر في شعار دولته الذي كان من تصميمه وحده بطول وحجم السيف؟

(١) من تعليق له على مذكرة الحزب الشيوعي العراقي التي قدمها زكي خيري احد اعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي احتجاجاً على رقف وزارة الداخلية اجازة الحزب. واختيار جهة ثانية [انظر الزنكغراف في الجزء الخامس من «موسوعة ١٤ تموز» لمؤلفها العميد خليل ابراهيم حسين ص٤٨١. ط بغداد ١٩٨٩.

لانستطيع التكهن بالجواب الذي سيقدمه قاسم، لكننا ومن تجارب سابقة نستطيع ان نقول ان عامل الموازنة في شخصيته الأخرى المختفية هي التي جعلته يرسم الخنجر بطول السيف والى سقر بالواقع. فالناس ما عادوا يفكرون في الدرجة التي وصل اليها شذوذ حاكمهم العقلي. وأقربها وليس اقلها شأناً الافتتان بالنفس أو ما يطلق عليه النفسيون: دار النرجسية Narcisim كان كما يقول سرهمڤري تريڤيليان «عاشق نفسه، غرفته ملأى بصوره وتماثيله النصفية. حتى بدت وكانها متحف خصوصي له. اضيفت اليها فيما بعد بزته العسكرية الملطخة بالدماء اثر اصابته بطلق ناري في اثناء محاولة اغتياله وهي اول ما تطالع الزائرين وقد وضعت في اطار زجاجي».

ويقول زائروه ومقابلوه انه يقضي اوقاتاً طويلة وهو يصغي مسحوراً ساعة بعد ساعة الى خطبه وهي تذاع من الراديو مثنى وثلاثاً، لايكل ولا يكلّ.

ويصف العلماء السايكولوجيون امثال قاسم بالذكاء وسرعة الخاطر والحيلة في تغطية شذوذهم بعدد من الاعمال والمظاهر الذكية التي تستحق الاشادة الجماعية. فيذكر العراقيون له مثلاً حدبه على الفقراء والمساكين وسكان الصرائف. وموته وليس بجيبه فلسٌ واحدٌ، وتلك اشبه بالطلاء الزاهي على جدار متقوض، وهي من حيل اكثر من دكتاتور او حاكم مطلق.

مع ذلك كله، وبرغم شذوذه المرضي. فلا يسعنا الانكار بانه كان اهون حاكم مطلق جاء بعده.

الفصل الثلاثون

قصة الانفصال . وثيقة الوحدة والاستفتاء حولها . أوپرا الـ ٩٩,٩٩٪ بالموافقة . الوحدة من عمل الجيش . الفروق الاجتماعية بين سورية ومصر . السياسة الخرقاء بالتعامي عن الفروق . سورية تابع سياسي واقتصادي لمصر . أجهزة الأمن والمباحث . حكومة بوليسية . المجلس القومي . تأليه عبدالناصر في المناهج الدراسية . الاجراءات الاقتصادية الاشتراكية . حركة الانقلاب . استسلام المشير عامر . البيان الأول . خطاب عبدالناصر ، اتهامه الساسة المخضرمين (المدنيين) والقوى الأجنبية بفك عرى الوحدة . حكومة مأمون الكزبري . الدستور الموقت ذو المواد الثماني . المفتي الأكبر يحلّ السوريين من قسم الولاء لعبدالناصر . بيان الزعماء القوميين حول الانفصال . صدمة عبدالناصر العنيفة وردّ فعله . اللجوء الى التآمر . محاولات دبلوماسية وعسكرية فاشلة . موقف (قاسم) من الانقلاب . ازدواجية معلنة . وفد عسكري الى دمشق من بغداد . تآمر عبدالناصر بمساعدة الحكومة اللبنانية . صائب سلام يرفض الاعتراف بالانقلاب . اجتماع (قاسم) بالرئيس ناظم القدسي في الرطبة . التمويل الناصري للصحافة اللبنانية . خطب عبدالناصر ضد الانقلابيين . الخلاف بين العسكريين السوريين . انقلاب النحلاوي الثاني . النحلاوي رجل سورية القوي . فوضى وقتال في المدن بين العسكريين . استقالة الدواليبي . تكليف بشير العظمة . مؤتمر حمص العسكري . موقف الولايات المتحدة المساند لعبدالناصر . الشكوى السورية على مصر أمام جامعة الدول العربية . وثائق الادانة بالأرقام . تبادل الاتهام والعبارات السوقية الجارحة .

دور النحلاوي الأخير

في بيروت العام ١٩٧٢ كنت اختلف بانتظام الى بائع خضار وفاكهة بحيّ (رأس بيروت) لابتياع ما احتاج. وكان يختلف اليه مثلي رجل يصغرني عمراً بتقديري. وكثيراً ما اتفق وجودنا معاً. وقد صرنا بسبب من ذلك نتبادل التحية وملاحظات عابرة حول الطقس والمعروض من البضاعة. ثم نفترق فيبتعد هو بخطى وئيدة واسعة وبقدم عسكرية ثابتة رتيبة حاملاً كيسه الورقي المعبّأ بما ابتاعه.

كان يحييني بابتسامة باهتة من تحت شاربٍ كثّ واحييه بمثلها ، وقد علم ولا شك بعراقيتي من لهجتي او ربما سأل بائع الفاكهة. اما أنا فكنت بهمومي ومتاعبي في شغل شاغل عن الاستفسار والسؤال عن هويات طارئة جمعتني بهم الصدف لاغير.

ذات يوم، بعد ان إبتاع هذا المجهول حاجته وانصرف. بادرني البائع مشيراً الى الزبون بقوله: "أتعرف من هو؟"

اجبت بالنفي مستغرباً. فاستطرد: "هذا الذي كنت تتحدث اليه هو «النحلاوي» الليّ عمل الانفصال ودقّ ... في ... عبدالناصر". قالها بلهجة تشفٍّ وارتياح وحاولتُ عبثاً ان اكتم دهشتي ونفرتي من كلمتين حذفتهما مخففاً من وقع المفاجأة.

تذكرتُ فجأة صورة له في احدى الصحف قبل عشر سنوات. لكنه تغيّر وصعب ان اوفق بين سيمائه الآن وهو بزيه المدني وبين صورة الشاب وهو في زيه العسكري. فقد كان اذذاك في الخامسة والثلاثين. وما كنتُ أعلم انه استقرّ ببيروت بعد ان شُحن مع زملائه الانقلابيين الى سويسرا ، إثر الحركة العسكرية التالية.

كان واحداً من عشرات القادة والضباط السوريين الذين قذفت بهم الانقلابات العسكرية المتتالية سابقتها ولاحقتها. اسماؤهم تلمع في سماء سورية والشرق الاوسط برهةً وتتناقل أنباءهم المثيرة وسائل الاعلام العالمية لتحترق كالمذنب الساطع ثم تتلاشى وتخبو يتبعها مذنب آخر. ثم يغيبون فجأة ولايعود يسمع بهم أحدٌ ويلفهم ضباب النسيان.

وما قصّة الانفصال التي ستأخذ حيزاً كبيراً من هذا الفصل إلا مشهداً آخر من المشاهد الدرامية المثيرة، ممثلوها اولئك الضباط السوريون الذين تتقاذف أيديهم مصائر بلادهم وشعبهم، وبحرص وطموحٍ الى السلطة والقيادة أو باغراء ومكائد الساسة والعقائديين، وعقدوا لواء نصرها النهائي بإقامة الوحدة الشاملة للبلاد الناطقة بالعربية وراح الضباط السوريون يجرّون عربتها شوطاً، ليهووا بها وبسائقها بعد فترة قصيرة من الزمن – من حالق فتتحطم ولايقوم لها قائمة.

بعد اعلان الوحدة في الاوّل من شباط. قام الرئيس السوري شكري القوتلي وعبدالناصر بإعلان وثيقة الوحدة بسبع عشرة مادة. رسمت البناء الأساس للدولة الجديدة:

دولة واحدة. بحكومة ذات شكل رئاسي ديمقراطي بمجلس تنفيذي (مجلس وزراء) للإقليم الشمالي (سورية) وآخر للإقليم الجنوبي (مصر). يتضمن إلغاء الإسمين التاريخيين يختار أعضاءهما الرئيس (عبدالناصر). جمعية وطنية يؤخذ نصف اعضائها من الجمعيتين

الوطنيتين للاقليمين. دستور تتمّ صياغته فيما بعد يتضمن هذه المباديء.

وعلى هذا بادرت الجمعيتان الوطنيتان في كلّ من سورية ومصر بالمصادقة على قيام الجمهورية العربيّة المتحدة في الرابع من شهر شباط ١٩٥٩، ثم جرى استفتاء عام في ٢١ من الشهر عينه في كلّ من القطرين على هذه المباديء الوحدوية وعلى تسمية عبدالناصر رئيساً للدولة الجديدة. وفي مصر كانت نتيجة الاستفتاء بالموافقة بنسبة ٩٩,٩٩٪ من الناخبين وبنسبة ٩٨,٩٩٪ في سورية.

مَرّ بنا التفصيل في الدور الحاسم للجيش بفرض هذه الوحدة. هذا الدور اقرّ به الفريق «عبدالكريم زهرالدين» القائد العام للجيش السوري في ٢ من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦١ بعد الانفصال:

"كانت الوحدة من عمل الجيش. وممثلو الجيش هم الذين كتبوا بانفسهم كلمات الاعلان عنها."

وهناك شهادة أخرى لعبدالناصر بالذات جاءت اثناء مباحثات لوحدةٍ أخرى في آذار (مارس) ١٩٦٣ مع بعض البعثيين السوريين والعراقيين وغيرهم:

"لكن الوحدة؟ من عملها؟ الضباط عملوها. جاؤا قبل ان تعرف الوزارة".

أجاب عفلق والبيطار:

"إنهم قادة البعث هم الذين اقترحوا على الضباط الذهاب الى القاهرة".

كانت الشخصيات السياسية القيادية المصرية والسورية قد بقيت ساكتة في حينه إلاّ انها اقرّت بعد فترةٍ ولاسيما بعد تمام الانفصال بأن الوحدة كانت عملاً مبتسراً عشوائياً. قال السياسي السوري الكبير فارس الخوري "انّها تمت بدقيقةٍ، بدقيقة غبيّة"(١). لكن جريدة [النصر] الدمشقية قالتها بشكل صريح "تمت طبخة الوحدة بدرجةٍ من السرعة حتى بدت اشبه بعقد زواج بين رجل غنيّ وخادمة أو عاهرة بغرض إنقاذ سمعتها"(٢).

في ٢٨ ايلول ١٩٦١ حصل الانقلاب على الوحدة. فهي اطول عمر من وحدة أخرى عراقية – أردنيّة لم تدم غير بضعة اشهر وماتت بانقلاب عسكري أيضاً. حملت الوحدة الاولى نطفة موتها منذ ولادتها. خلقها ضباط عسكريون بوحي ودفع من حزب اتصف قياديوه بالنزق واللامسؤولية. حزب لم يملك اثناء الحكم الدستوري اكثر من تسعة بالمائة من الناخبين.

(١) باتريك سيل: النزاع على سورية لندن ١٩٦٥. ص٣٢٦: Patric Seale: the struggle for Syria
(٢) النصر العدد المؤرخ في ٢٤ من آب١٩٦٢.

واقيمت في جوّ من الخوف والمحاكمات بتهم الخيانة والانتهازية الصّرفة(٣). من الناحية الثانية فذلك الذي قبل [بالمواطن الاوّل] لقباً(٤)، وغيرهُ من الساسة والزعماء القوميين والكتل العروبيّة التي قبلت بالوحدة كانوا مدفوعين باهداف سلبية واغراض شخصيّة، متناقضة احياناً، انانيّة احياناً، مبنيّة على فرضيات خاطئة أحياناً. الاّ انهم اجمعوا كلٌّ بطريقته الخاصّة على الأمل بتكييف انفسهم للوضع الجديد ومحاولة تحويله كلّ الى منفعته الخاصّة.

الرئيس القوّتلي وجد في الوحدة شفاءً لصداع لازمه جراّء تدخل الجيش في السياسة، وتصرفات البعث والشيوعيين المتطرفة. وذكروا انه قال لعبدالناصر اثناء زيارته الأولى بعد قيام الوحدة:

"ستجد في سورية كثيراً من الأصول البشرية. ستجد جميع الاديان وجميع الطوائف وجميع الاقليّات. ستجد جميع المعتقدات السياسية والافكار والمباديء المستوردة. هذه الصورة الحقيقية الواضحة عن الشعب السوري يجب ان يكون فخامتكم على اطلاع بها وبواقعها. ومن الواجب بعد ان سلمتُ الأمانة لفخامتكم ان اصارحكم بحقيقة الأمر لتقفوا على وضع الترتيب السكاني في سورية."

بالنسبة الى عبدالناصر وحزب البعث والعسكريين القوميين كانت مناورة ناجحة في شق عباب الحرب الباردة ضدّ نوري السعيد والملكين الهاشميين وستراً وقائياً ضد ضغوط حلف السنتو. والبعث بصورة خاصّة اعتبرها نصراً على منافسيه في الداخل وكان يمنيّ النفس بوضعٍ ممتاز في الدولة الجديدة وان يكون الحاكم الفعلي في سورية. كان قادته يعتقدون بان حلّ الاحزاب الذي اشترطه عبدالناصر في الدولة الجديدة سيطبق فحسب على الحزب الشيوعي والاحزاب الأخرى المحافظة والمعتدلة. ولن استبق الأحداث هنا إن أوردت قولاً لواحدٍ من قياديهم المنقلبين عليهم:

"وشكلّت الوزارة الأولى في عهد الوحدة. ودخلها البعثيون القياديون. وعندها خفّت حماسة البعثيين الآخرين للوحدة من اولئك الطامعين بمقاعد في وزارة الوحدة.

(٣) مثلاً عفيف البرزي رئيس اركان الجيش آنذاك كان يمثل اليسار السوري. فقد كان بالأصل ضد الشروط التي وضعها عبدالناصر للوحدة، إلاّ انه قبل بالأخير ليرفع الى رتبة فريق ويعين قائداً عاماً للجيش الاوّل.
(٤) ذكر هذا اللقب في برقية ارسلها القوتلي نفسه الى الجمعيّة الوطنية في مصر بتاريخ ٥ شباط قائلاً انه يعتبر من واجبه ان يكون اول مواطن في الدولة الجديدة. ويقترح عبدالناصر رئيساً لها. [نقل النص صلاح المنجد في كتابه «سورية ومصر: بيان الوحدة والانفصال" بيروت ١٩٦٢. ص١٩».

وجردوا حملة عنيفة على قادة الحزب الثلاثة عفلق والبيطار والحوراني بحجّة او باخرى. واصاب نظام الوحدة والرئيس عبدالناصر بصورة خاصّة منها رشاش من الحملات اللاذعة. ثم سارع البعثيون خِفافاً وثقالاً للحصول على المغانم حتى سمّاهم الناس بـ(منتفعي الوحدة)."[٥]

كان قادته هؤلاء يعتقدون لاسيما عفلق بأن التنظيم السياسي الجديد الذي فرضه عبدالناصر باسم (الاتحاد القوميّ) سوف لايسير إلاّ على المباديء والاهداف البعثية واطلق قولته الشهيرة:[٦]

"جاء البعث ليعطي عبدالناصر فلسفة وآيديولوجية."

ولم يكن عبدالناصر مستعداً في أي وقت لمقاسمة البعث السلطة. ثم انتهى بالنأي عنهم عندما وجدهم يفتقرون الى الشعبيّة. واهتمام الزعيم المصري بالوحدة كان في الواقع وبالاساس لاتخاذها وسيلة دعائية لتثبيت نظامه في مصر ولإحراج منافسيه العرب والتمهيد للسيطرة على العالم الناطق بالعربية وسورية بسبب موقعها الستراتيجي اذ ستكون الحجر الأساس والقاعدة المثاليّة لتدبير المؤامرات ونصب الفخاخ وقد صارت كذلك فعلاً.

الوحدة عُقدت بين قطرين لا حدود مشتركة بينهما. ولكلّ نظامه السياسيّ والاقتصادي الخاص الشديد الاختلاف. ولكلٍّ مستوى معيشة وطابع شعبيّ اجتماعي متمايز. كانت سورية وقتذاك تمارس حكماً برلمانياً. واقتصادها مُبتنى على السوق الحرّ والمشاريع الخاصّة. واهلها عرفوا بالفردية وضيق الصدر واعتزاز بالرأي الى جانب حماسة لقضية العروبة تعود الى التاريخ الأموي عندما كانت سورية قلب امبراطورية العرب. والطبقة الوسطى فيها واسعة الرحاب ومرفهة جداً بعكس مصر، ومستوى المعيشة العام في سائر انحاء القطر هو المستوى بين الأعلى في الشرق الاوسط.

ظنّ السوريون ان الوحدة ستحترم حرية الفرد وستُبنى على المساواة والإخاء بين الشعبين المتحدين وقد جرفوا للوحدة بسبب التعلق السوري بفكرة وحدة العرب وعامل الحملة الدعائية الطاغية، التي صورت عبدالناصر المنقذ للعالم العربي وتحمسّ لها حتى رجال الاعمال الكبار رحبّوا بها مبدئياً لا بوصفهم عرباً قوميين بل بطمع في انشاء علاقات اقتصادية مثمرة ومربحة للقطرين.

(٥) سامي الجندي. البعث ص٧٨.
(٦) هذا التصريح نُشر ضمن مقابلة جريدة الأوريان البيروتية بالفرنسية في ٢٥ شباط ١٩٥٨.

كانت خيبة أملٍ سريعة. وعملت في البناء الوحدوي هدماً السياسةُ الخرقاء والاعتداءات التي اجترحها الشركاء المصريون على ابسط مصالح السوريين، وإهانتهم كراماتهم وعزتهم الوطنيّة. نقم السوريون على الدكتاتورية العسكرية التي جاءت ومعها الحكم البوليسي واجهزة الأمن التجسسية.

وبدت الخيبة الأولى في تلك المناقضة الدستورية الصريحة بالدستور المؤقت الصادر في ١٥ من آذار ١٩٥٨. فقد جاء في مادته الأولى ان (ج.ع.م) هي "جمهورية ديمقراطية" وفي هذه الجمهورية التي نعتت بالديمقراطية حُلت الاحزاب السياسية بمرسوم رئاسي بعد اسبوع من اعلان ذلك الدستور. وبقيت الدولة الجديدة تحكم بهذا الدستور المؤقت حتى ساعة الانفصال. وبقيت دون برلمان الى أن شكل المجلس القوميّ في ١٩ تموز ١٩٦٠ بالتعيين لا بالانتخاب. والتنظيم السياسي الوحيد كان نوعاً من منظمة حزبية سبقت اقامة الوحدة عرفت في مصر بالاتحاد القوميّ. والمجلس القومي هو نفسه لايمارس اي سلطة حقيقية لا في حق انتقاد الحكومة او حجب الثقة عنها.

وأدعى مظهر للنفرة من النظام الموحد، هو جهاز المباحث، شبكة من انظمة التجسس والشرطة السرية أوكل اليها مراقبة الاشخاص العاديين وموظفي الحكومة وضباط الجيش تطال يدها ذوي المناصب الوزارية. وكان هناك اكثر من سلطة واحدة مُخولة بالاعتقال والايداع في السجن حيث يمكن ان يتعرض المعتقل الى التعذيب والموت. او البقاء أشهراً وسنينا دون محاكمة[٧]. ونقم السوريون على المقدم عبدالحميد السرّاج الذي عين وزيراً للداخلية في المجلس التنفيذي السوري ليغدو بالاخير رئيسه. وقد ذكر وزير الداخلية عدنان القوّتلي، الذي تسلم الوزارة بعد الانفصال ان سلفه السراج استخدم للنظام ٦٥٠٠ جاسوس وعينٍ سريّة ووكيل استخبارات[٨].

ونقم السوريون أيضاً على مظاهر التحكم المصري والتعالي. وشاعت بينهم تعابير "التفرعن" و"التمصير" او "الاستعمار المصري". كانت هناك واجهة لحكم أوتونومي سوري عبّر عنه بالمجلس او المكتب التنفيذي الذي يقوم مقام مجلس وزراء. الاّ ان رئيسة واعضاءه

(٧) في اوائل العام ١٩٦٠ تم القاء القبض على فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي وقتل جراء التعذيب واذيبت جثته في حامض النتريك.
(٨) النصر: المرجع السالف ٤ تشرين الاول ١٩٦١. ذكرت مجلة الايكونومست اللندنية (١٥ اكتوبر ١٩٦٠) ان شرطة السراج تراوح عددها بين ١٢٠٠٠ و١٥٠٠٠. نظم السراج دائرة الاستخبارات العسكرية (الشعبة الثانية) ابتداء من العام ١٩٥٥ فصاعداً وضرب بها المثل حتى قيل على سبيل المبالغة انه كان يسمع دبيب النملة في اي جزءٍ من سورية.

يعينهم الرئيس عبدالناصر وهم مسؤولون امامه وله الحق في اقالتهم او استبدالهم. وفي الحكومة المركزية في القاهرة كان للرئيس أربعة نواب اثنان منهم سوريان هما صبري العسلي واكرم الحوراني. سمح لهما بالبقاء في سورية لكنهما كانا مجردين من اية صلاحية او سلطة فعلية. وفيها كان ثلاثة وزراء سوريين فحسب من اصل اربعة عشر. ومن ضمن هذه الثلاثة النائبان الاثنان السوريان لرئيس الجمهورية ذاتهما. والثالث وهو صلاح البيطار كان وزيراً بلا وزارة[٩].

على إثر ما حدث في العراق يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ اقدم عبدالناصر على اعادة تنظيم الحكومة. وكان حزب البعث قد خرج عن قراره بحلّ الحزب وأصر على مواصلة نشاطه السياسي. وكان غرضه اخراج ممثليه من الحكومة او تقليص ظلهّم فيها وابعاد قادة البعث عن سورية، والحيلولة بينهم وبين التماس المباشر مع قادة العراق الجدد. فكال عبدالناصر للحوراني رفسةً الى الاعلى بنقله الى القاهرة بعد نزاع مرير على السلطة مع السرّاج شريكه السابق في "الثنائية" التي خرج منها وهو الطرف الخاسر. كما سبق للعسلي ان استقال واعتزل السياسة. واقترنت نهاية نفوذ البعث بتعيين المشير عبدالحكيم عامير وزير الدفاع واحد نائبي الرئيس المصريين ممثلاً شخصياً لعبدالناصر في سورية، بعد تعاظم الشكوى السورية من الغطرسة البعثية.

وشعر الوزراء البعثيون بأنهم تحت المراقبة وانهم جردوا من كلّ صلاحية. فقدموا استقالاتهم في كلّ من القاهرة ودمشق بتاريخ ٢٣ من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٠، مقترنة بحملة عبدالناصر في ذات اليوم بخطبة له على الحزبية في بورسعيد، ووصم بالعمالة كلّ من يعمل لها خارج الاتحاد القومي او بأنه يعمل لمصلحة اجنبيّة. وصرح البيطار بعد الاستقالة واثر الخطبة:

"ان التعاون مع عبدالناصر اصبح في حكم الخيانة. بعد ان ثبت خيانته للوحدة العربية."

استخدم القوميّون لأعدائهم او منافسيهم من القوميين الآخرين كلمة "الخيانة" بقدر من الكثرة والفجاجة حتى فقدت كلّ معنى لها.

(٩) التقى قادة البعث بعبدالناصر بعد مرور فترة على الوحدة واقامة الحكومة وشكوا بانهّم لايشعرون بقدر مناسب في المساهمة بالحكومة على ارفع المستوى. وذكر البيطار انه اقترح على الرئيس هذا: "ثلاثة منّا (عفلق والبيطار والحوراني) وثلاثة منكم يؤلفون مجلس الدولة الاعلى". فرفض عبدالناصر الاقتراَح [هيكل: ما الذي جرى في سورية. القاهرة ١٩٦٢ ص٩٠].

وبتعيين المشير عامر بدأت تلك المنافسة الشرسة بينه وبين السرّاج. إلا أن هذا كان يتمتع بثقة عبدالناصر وقتها، وقد اصبح في ٢١ من أيلول (سبتمبر) رئيس المجلس التنفيذي للاقليم السوري. على أنّ اعادةً ثالثة للتنظيم في (ج.ع.م) ادّى بالأخيرة الى تعيين السراج نائباً لرئيس الجمهورية وانتقاله الى القاهرة.

وشعر الوزراء السوريون في القاهرة بضآلتهم إذ لم يكن لهم اي سلطة في وزاراتهم. ثم وفي شهر آب (آغسطس) ١٩٦١ قبل الانفصال بشهر واحد الغي نظام المجلس التنفيذي الاقليمي وبقيت الحكومة المركزية وحدها في القاهرة. واختفت بهذا واجهة الحكم الذاتي التي اشرنا اليها[١٠].

وفرض المصريون في وزارة التعليم مناهج في التاريخ تبرز اهمية ثورة يوليو وابطالها على حساب الشخصيات الوطنية السورية البارزة ومشاهير التاريخ العربيّ بصورة عامة. ونقموا على تأليه عبدالناصر وصحبه في الكتب الدراسية وفي كلّ مناسبة باسقاط ابطال الوطنيّة السورية منها. وزيد عدد المعلمين المصريين زيادة لا داعي لها ودون حاجة تدعو اليها بفائض كبير من المعلمين السوريين. وقد فسّرت الزيادة فيما بعد ان الوزارة عادلت الحصص الاسبوعية الدراسية وجعلتها ستاً وثلاثين بدلاً من ثماني وعشرين، فباتت المدارس السورية فجأة في حاجة الى ٢٥٪ من زيادةٍ في عدد المعلمين الموجودين[١١].

وكلّ هذا يتضاءل امام السياسة الاقتصادية والمالية المُعيبة والمهلكة التي فرضها حكام القاهرة. كانت سياستهم تقوم على خضوع الاقتصاد السوري الى نظيره المصري، وتخفيض مستوى المعيشة لينزل الى نظيره المصري. واقامة ما دعي بالمجتمع الديمقراطي الاشتراكي التعاوني بالهدف الأساس وهو ايجاد مجتمع لاطبقي. واتخذت القيود المفروضة على التجارة طابع امبريالية اقتصادية مصرية وضعت لغرض استيراد المنتوجات المصرية، والمصنوعات الاجنبية عبر شركات مصريّة. وكانت هناك ضغوط لتوحيد العملتين ادت الى استقالة محافظ البنك المركزي السوري[١٢].

(١٠) صرحّ الدكتور بشير العظمة وزير الصحة المركزي وهو صديق للبعث لجريدة النصر (١١ تشرين الاوّل ١٩٦٠) قال: "انه وزملائه السوريون يشبهون ممثلين على خشبة مرسح أو مديري تشريفات، او موظفي استقبال". وقدم استقالته كما مَرّ في ١٨ تشرين الأول ١٩٦٠. وذكر بعد انفصام الوحدة ان التصريحات المتعلقة بوزارته كانت تصدر باسمه دون ان تكون له فكرة عنها حتى تنشر في الصحف فتتسنى له قراءتُها.

(١١) صلاح المنجد المرجع السابق ص١٥٢. نقلاً عن تصريحات لـ(عزت النوسه) وزير التعليم بعد الانفصال.

(١٢) المرجع السالف ص١٨٥. نقلاً عن تصريحات المحافظ عزت الطرابلسي لجريدة الحياة في ١٤ من =

اوّل الاجراءات الاجتماعية – الاقتصادية الهامة. القضاء على الاقطاع وتفكيك الملكيات الكبيرة بتطبيق قانون الاصلاح الزراعي الصادر في ايلول ١٩٥٨. واستملكت بموجبه اراضي من ملك زيادة عن ٢٠٠ فدان. إلاّ ان البعثيين الذين كانوا يسيطرون على الحكم بعد الوحدة وفي غضون الثلاثين شهراً بعدها استغلوا القانون شرّ استغلال لمصالحهم خصوصاً بمصادرة الملكيات الزراعية الكبيرة كوسيلة للانتقام من خصومهم الشخصيين والسياسيين[١٣]. واتسمّ توزيع الأراضي المستملكة للفلاحين المعدمين بالبطء الشديد وكان دوماً يستغلّ لاظهار عبدالناصر بمظهر المانح المانع والمنقذ المهلك والحابس المعطي، الآخذ بيد الفلاح السوري والمخلّص من طغيان الملاّك في بلاد كانت علاقة الفلاح الأجير بالمالك ابداً تتسمّ بالديمقراطية والتعامل الطيّب الى حَدٍّ ملفت للنظر. إلا ان الحكام شجعوا النزاع الطبقي واشاعوا الكره بين الفلاح والمالك، بين العامل وربّ العمل، بين التاجر والمستهلك، بل بين المدنيّ والعسكري[١٤]. وصارت الصورة المبالغ فيها للفروق الاجتماعية تستخدم وسيلةً لنيل الشعبيّة واللعب بعواطف الجمهور. فوصف الصناعيون بالمستغلّين المجرمين وكانوا في الطليعة التي فتحت ابوابا واسعة لسوق العمل فوظفت آلافاً من العمّال والاداريين.

وكان على سورية ان تدفع ثمن الحرب الناصرية التي شنّت على الجيران العرب باستخدام وسائل إعلامها ابواقاً دعائية وجعلها منطلقاً للمؤامرات ووكرا للمعارضين. ففقدت مما فقدت اسواقها في تلك البلاد وباتت معزولة اقتصادياً.

وبلغ نفاد الصبر السوري اقصاه عندما اصدر عبدالناصر قراراته الاشتراكية. فقد قضت مراسيم تموز ١٩٦١ بتأميم عدد من الشركات التجارية والصناعية ومن بينها البنوك وشركات التأمين. كما فرضت شراكة الدولة على كثير من الأخريات. وبها فقد رجال الاعمال السوريون استقلاليتهم مع مبادراتهم الخلاّقة فضلاً عن ثمرة سنوات طوال من الكدح والتقتير. واصيب الاقتصاد بالكساح كما فقد العامل في عين الوقت ساعات العمل الاضافية في المشاريع التي

= تشرين الأول ١٩٦٠. احتبست الامطار خلال فصول شتاء سنوات الوحدة واضرتّ بالمزارعين قلة المحصول والغلّة واحدثت تلفاً عظيماً في الاقتصاد وسارع الجمهور ليعزو ذلك الى العقاب الالهي بسبب غطرسة عبدالناصر وخيلائه! جاء ذلك في اقوال للمفتي السوري الاكبر (ابو اليسر عابدين) المرجع نفسه ص١٦٩. نقلاً عن جريدة النصر في ٢ تشرين الأول ١٩٦١.

(١٣) بعد ان تصاعدت الشكاوي من سوء تصرف وزير الاصلاح الزراعي مصطفى حمدون تمَّ إثر وصول المشير عامر تمّ تعيين لجنة خماسية في تشرين الاول ١٩٥٩ للاشراف على تطبيق القانون. ورحبّ بها جميع الاطراف خلا البعث الناقم على تأليفها. وعلى اثرها قدم الوزير استقالته وتلاه اكرم حوراني.

(١٤) عزت الطرابلسي [نقل القول صلاح المنجد: المرجع السالف ص١٨٧].

قلصت انتاجها بسبب من ذلك. كما فقد حريته ليغدو كصنوه في البلاد الاشتراكية باوروبا عبداً للبيروقراطيّة الحكومية. وقد سبق لنقابات العمال أن سُلبتْ حقّ الإضراب والإعتصاب وَوُضِعت ادارتُها تحت رقابة البوليس السرّي.

نجح (تيتو) معلم عبدالناصر، فضلاً عن دروس الاتحاد السوفياتي في خداع حكام مصر بجدوى الاشتراكية نجاحاً كاملاً. وانتاب القوميين شبهُ جنون للتقليد، وبهرتهم الدعاية الشرقية وغرقوا في مظاهر الحفاوة والزيارات التي كان السوفيات يعدوّنها للحكام القوميين بإتقان لا مزيد عليه لغرض اطلاعهم على مظاهر التقدم التكنيّ في المضمار الاشتراكي.

على ان اعظم الفؤوس التي هوت على رأس الوحدة، كانت فأس اولئك الذين صنعوها وهم ضباط الجيش، اذا ما لبثت ان انقلبت حماستهم لها الى كره قتّال وحقد دفين بالوضع الذليل الذي وجدوا أنفسهم فيه نتيجة الخطط المصرية المطبقة على القوات العسكرية السورية.

تعوّد الضباط السوريون منذ ١٩٤٩ املاء اراداتهم على الحكومات – الى حدٍ ما بتشجيع مصري قُبيل الوحدة. وهاهم اليوم يشعرون بمرارة خيبة فقدانهم هذا الامتياز. كما حنقوا على اوامر النقل الجماعية الى مصر والى قطاع غزّة. والقصد منه تشتيتهم وعزلهم وتجريدهم من نفوذهم – في حين ملأ مكانهم ضباط مصريون، تبوّأوا في القطعات والمقرات قيادات ومناصب حساسة واستخدم بعضهم في جهاز المخابرات الذي طالت يده الضباط السوريين زملاءهم، كما كانوا يُجرون اتصالاتهم من فوق رؤوس آمريهم السوريين – مع القيادة العليا في القاهرة او مع الضباط المصريين الآخرين في سورية بتحد صفيق سافر لمبدء تسلسل المرجع[١٥].

(١٥) عبدالكريم زهرالدين: «مذكراتي عن فترة الانفصال» الص ١٢–١٧. ط. بيروت ١٩٦٨. نقول ان اوّل اصطدام بين المشير عامر وبين الفريق البزري قائد الجيش الأول كان سببه الخلاف حول تنقلات الضباط السوريين وتسريحهم من الخدمة. وقد ادى هذا الى استقالة البرزي في ٢٣ من آذار (مارس) ١٩٥٨. ثم لجوئه بالأخير الى العراق، وبخصوص معاملة الضباط السوريين أرى أن اورد هنا جزءً من المؤتمر الصحفي الذي عقده هذا العسكري لعدد من الصحافيين في ٢ تشرين الاول ١٩٦١، قال:

"إنّ الضباط العرب الذين رضعوا لبان الوحدة من المهد وترعرعوا في نورها وآمنوا بها كما امنوا بالله، هذه الروح كانت بعيدة جداً عن عقلية اخواننا الجنوبيين، تلك كانت بداية الاحداث التي اضرت بالوحدة وافسدت قدسيتها. بدأوا بما يتعلق بالجيش. من اول يوم اردنا أن نعلن الوحدة عن طريق تبادل الضباط بين سورية ومصر. فذهب شبابنا الى الجنوب (مصر) وهم ممتلئون نشاطاً ومفعمون بالشعور بالقضية العربية. فمن جاءنا من مصر؟ تلك هي نقطة الانحراف التي كشفت عن كل الأثام والفساد التي ارتكبت فيما بعد بإسم الوحدة. ارسلوا لنا ضباطاً تخصصوا في التجسس قبل ان يتعلموا اي نشاط آخر، بروح الشرطة السرية لا بروح القومية التي استقبلناهم بها ولا بشعور الاخوّة العربيّة التي تنمي الصداقة والثقة المتبادلة بين الرجال. بدأ هؤلاء ينتشرون ويمتدون كالاخطبوط في مختلف الدوائر ويحشرون مَجّساتهم =

أقدم عدد من الشخصيات السورية البارزة على انذار عبدالناصر أو مَن يمثله من المسؤولين – بالأثر السيّء الذي تخلفّه تلك السياسة الخاطئة في سورية وفي البلدان العربيّة الاخرى. يقول (شكري القوتلي): "كان لعبدالناصر الف عين، لكنه لم يكن قادراً على النظر ولو بعين واحدة. وحين كان بحاجةٍ الى صداقة الشعب، بدا من تصرفاته وكأنّه جلاّده"[١٦].

كما نصحه السياسي الوطني والقانوني الضليع (فارس الخوري) بالكف عن هجماته على البلاد العربية الأخرى، وان يحاول بالأحرى تشجيعهم على الإنضمام الى الوحدة[١٧] لكنه عمل بعكس ذلك.

كان صوت حزب البعث يسمع داوياً حُرّاً قويّاً في اجواء الانظمة شبه الديمقراطية في البلاد العربية. لاسيما باستنفار التلاميذ للتظاهر إلاّ انه فقد ذلك الصوت تماماً في حين غادر قائده عفلق ارض سورية وبقي مقيماً في بيروت حتى تمام الانفصال.

لا اعتقد ان عبدالناصر غفل عن ضيق الصدر السوري من الوحدة. فله اكثر من الف عين كما قال القوتلي. وهناك مكتب خاص له يحلل مئات التقارير التي ترد من وكلائه وعيونه ويرفع بها خلاصةً أمينة. هل كان هناك اجماع على مخادعته ورسم صورة مخالفة للحقيقة له؟ وان عرف بما يحدث فكيف تجاهل؟ ومصدر الحيرة انه بدل ذلك عمد الى تضييق الحبل على العنق وتشديد القبضة على ادارة سورية واقتصادها. وبالأخير لم يبق إلاّ السراج وشرطته السريّة مسانداً ومواليا، فضلاً عن اولاء النكرات الذين أحلّهم في مراكز هامة لايحلمون بها

= في كل شيء ويجعلون نفسهم المرجع الأخير في كل الأمور. القواعد والانظمة تقتضي المراعاة الدقيقة للرتبة والتعليمات العسكرية في أثناء العمل والتعيينات وإنشاء الروابط. إلا أن هؤلاء الرجال لم يراعوها. ان الحكام المصريين كانوا يتصلون بضباطهم مباشرةً بدلاً من اتصالهم بقيادة الجيش العليا او بالضباط الارفع منهم درجة، رغم حقيقة كون رتب الأخيرين وواجباتهم اقل من تلك المناطة بآمريهم. انهم احتلوا كل المناصب الحساسة في المقرات العامة للجيش الاوّل وفي قوات الوحدات. إلاّ ان ضباطنا الكبار الذين عينوا في مصر وجدوا انفسهم جالسين وراء مناضد خشبية دون سلطة ولا قوة... ثم بدأ الإخراج العام المخطط من سلك الخدمة وكان العدد يزداد بين يوم وآخر للمطرودين باشكال مختلفة بنقلهم الى وزارة الخارجية والادارة العسكرية او بالاحالة الى التقاعد. بهذه الطريقة زالت الثقة والصداقة بين الشماليين والجنوبيين كأن اخوتنا في الجنوب ارادوا هذا الكره ان ينتشر وينمو. الوضع كان يشبه الحالة التي سادت البلاد ايام فترة الانتداب، نوع من الامبريالية... بتوحيد القوانين يتطلب المنطق ان يختار احسن النصوص الاّ ان اخوتنا من الجنوب لم تكن لديهم اية نية في ذلك. انهم فرضوا قوانينهم بالقوة. ليس ثم احد من الجيش الاوّل ساهم في وضع القانون العسكري الذي نشر وطبع ووزع كما تم وضعه في الجنوب...].

(١٦) من تصريح له نشرته جريدة النصر في ٢٤ من تشرين الاوّل ١٩٦١. اي بعد الانفصال.

(١٧) الحياة في ٧ من تشرين الأول.

في نظام غير هذه الوحدة(١٨)، وكانت المناصب تخلق للاشخاص فحسب لابداعي الحاجة.

★★★

وجد ضباط الجيش الناقمون، فرصتهم في الخلاف العنيف الذي نشب بين المشير عامر والعقيد السرّاج فتحركوا في غفلةٍ من الرقابة.

في دمشق كان المقدّم (عبدالكريم النحلاوي) معاون مدير الشعبة الأولى (الإدارة) في القيادة العامة (الجيش الأول) أعرف بميول الضباط السياسية من غيره بحكم منصبه. فهيأ للإنقلاب بنقل الضباط الناقمين والمستعدين لعمل عسكريّ الى الوحدات القتاليّة تدريجاً. واستعان بزوج شقيقته المقدم (محبّ الهندي) ضابط ركن اللواء المعسكر في (قَطَنا) وآخرين من ضباط هذا اللواء وكلهم من محافظة دمشق.

في نهار الخميس الموافق للثامن والعشرين من ايلول بدأت بفتراتٍ بعد الثانية صباحاً قواتٌ الصحراء الآلية المتمركزة في (دْمير) شمال شرق دمشق بالحركة نحو دمشق بقيادة (حيدر الكزبري). كما تحركت الوحدات المصفحة بقيادة (محبّ الهندي) من معسكر (قَطَنا) نحو الهدف عينه. ودخلت هذه القطعات العاصمة في حدود الرابعة صباحاً. واسرعت حامية دمشق بحسب الاتفاق الى الانضمام والتعاون معها باتخاذ مواقعها المعينة في المدينة كما احتلتْ من جملة مواضع أخرى ومراكز هامة منها دار الاذاعة. وتوجهت وحدة صغيرة نحو مسكن المشير عامر في حيّ (ابو رّمانه) واشتبكت في قتال مع الحرس الذي استسلم بالأخير. وطوقت القوات مقر القيادة العام وكان المشير قد بقي فيه تلك الليلة.

وعندها شرع قادة الانقلاب بالمفاوضات مع (المشير) وقدموا عدداً من "المطالب التي سيرفع تحقيقها أسباب التذمر والشكوى والتوتر ويصون كيان الوحدة". فوافق المشير عليها ووعد

(١٨) نقل السراج كما ذكرنا – ليغدو في القاهرة واحداً من سبعة نواب لرئيس الجمهورية! ولم يسمع في اي زمان ومكان عن اي نظام جمهوري كان لرئيسة هذا العدد من النواب. وثار السراج على (ترفيعه) الأجوف لاسيما وانه شعر بالعزلة والتجاهل في القاهرة عندما عهد اليه بوزارة الداخلية وكالةً، فقد حيل بينه وبين مزاولة واجباته ومهام منصبه. كان في قرارة نفسه يطمح الى حكم سورية وانتزاع السلطة من غريمة المشير عامر، إلاّ ان عبدالناصر فضل صديقه ورفيق نضاله. وفي ١٥ ايلول عاد الى سورية وحاول بمساندة شرطته السرية وبعض اعضاء نقابات العمال وممثلي الاتحاد القومي ان يثير القلاقل والمتاعب ليرغم يد القاهرة بل زعموا انه فكرّ في تدبير انقلاب على الحكم المصري. لكن الجيش لم يكن يثق به ورفض التعاون معه وآل به الأمر الى ان يقدم استقالته في ٢١ ايلول ١٩٦١ بعد لقاءات عديدة غير ناجحة مع عبدالناصر وعاد الى دمشق وقد لفّه ضباب الخمول [راجع هيكل: المصدر السالف ص١١٣، وعبدالكريم زهرالدين: المصدر السابق ص٣١].

بإصدار بيان حول الاتفاق بعد الاتصال بالقاهرة، شريطة ان يبادر الضباط باعلان انهاء التمردّ. فاذاع هؤلاء بيانهم التاسع الذي بدا منه وكأن حركتهم قد انتهت. لكنهم ادركوا بعد ساعات قلائل ان المشير حاول ان يكسب وقتاً ليس إلاّ، وفي الوقت الذي أعدّ عبدالناصر قوات بقصد توجيه ضربةٍ ضدهم. وعندما اشتد ضغط الانقلابيين على المشير باصدار بيانه المرتقب قال لهم ان عبدالناصر رفض اي مساومة او تفاهم تحت الضغط، فتواصلت حركة الانقلاب[١٩].

اذيع البيان باعلان الانقلاب من راديو دمشق في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة صباح الخميس مذيلاً بتوقيع (القيادة العربية الثوريّة العليا للقوات المسلّحة). معلناً ان الغرض من قيام الجيش هو "ازالة الفساد والطغيان، واعادة الحقوق المشروعة للشعب". وتحدث البيان الثاني عن الشعبين في سورية ومصر واتحادها بمساندة الجيش للقضاء على الانحراف والمنحرفين. مندّداً بالزمرة الحاكمة وما دعته بقراراتها الثورية. واعلن عن تصميم الشعب العربي على مساندة الوحدة العربيّة وعلى مباديء المساواة والاخاء والحرية. ولما اعلن البلاغ رقم (٩) المذاع في حدود الواحدة والدقيقة الثلاثين ظهراً عن توصل الضباط الى تفاهمٍ مع المشير، راح الظن بان انقلاباً على الانقلاب قد وقع او ان نكسة حلت به. لكن البلاغ رقم (١٠) الذي اذيع في الخامسة بعدها، اعلن فشل المفاوضات واشار الى ان المشير سيترك سورية في المساء الباكر. في خلال تلك الفترة كان معظم حاميات القطر قد اعلن التفافه حول الانقلاب. وفي المساء اعلنت حلب انضمامها وتبعتها في ساعات الليل الأخيرة اللاذقية ومنطقة الساحل.

كانت حصيلة القتلى اثنان من حرس مسكن المشير. وحوالي الثلاثين في حلب إثر اشتباك جرى من بين المساندين والمعادين[٢٠].

مما وجبت الاشارة اليه ان الضباط الذين حققوا الانقلاب حرصوا على اخفاء هويّاتهم واصدروا بلاغاتهم بالعنوان الذي اثبتناه دون ذكر اسم سورية. فضربوا بذلك مثلاً للانقلابات التالية. كانوا بدون شك يهدفون إلى اجتناب الحسد والغيرة من رفاقهم. وكذلك ليحولوا دون أن ينتحل احدهم مركز الزعامة والقيادة، فضلاً عن كونه اجراءً وقائياً لهم ولإنقلابهم. على ان أسماء القائمين به ما لبثت ان عُرفت، عندما اصدر عبدالناصر أمراً باحالة خمسة منهم الى

(١٩) المرجع السالف خصوصاً ص٢٥.

(٢٠) وكالة رويتر. عبدالكريم زهرالدين المصدر السابق ص٩١. جريدة الحياة ٥ تشرين الاول تذكر ان العدد يتراوح بين ٢٠ و٢٥. وان عدد الجرحى ١٠٠ او اكثر.

التقاعد في خطاب له من راديو القاهرة مساء عين اليوم وبعد صدور البلاغ رقم (١٢) مباشرة. وهؤلاءهم: المقدّمان عبدالكريم النحلاوي وحيدر الكزبري. والعمداء عبدالغني رحمان وموفق عصاصّة وفيصل سرّي الحسيني. وكلهم في سنّ الشباب ومعظمهم في الثلاثين او مقتبل اربعين.

اراد عبدالناصر ان ينتقل الى دمشق فوراً إلاّ ان القيادة رأت ان يعدل. فتوجه الى دار الاذاعة والقى خطاباً طويلاً اجتزيء منه هذا:

"ايها المواطنون. اتحدث اليكم من دار الاذاعة في القاهرة. هذه اوّل مرّة انتقل فيها الى دار الاذاعة لأتحدث الى الشعب العربي... فرغم الظروف التي قابلتنا في سنة ١٩٥٦ عندما تعرضنا للعدوان الثلاثي ما انتقلتش الى الاذاعة. لكن حدث هذا اليوم في دمشق أخطر مما حدث في ١٩٥٦. ما حدث اليوم يؤثر على وحدتنا الوطنية. وعلى حاضرنا ومستقبلنا... دمشق كانت دائماً قلب العروبة النابض الليّ بينادي بالوحدة العربيّة على مرّ السنين وعلى مرّ الأيام، دمشق كانت دائماً هي القلعة الحصينة في وجه الاستعمار وفي وجه اعداء الأمّة العربيّة، وفي وجه اعداء وحدة الوطن العربي... اني اشعر بالأسف والأسى وانا اتحدث اليكم، لأني اشعر ولاوّل مرة بالوحدة الوطنيّة وهي تتأثر..." وهكذا هكذا.

وكالعادة اتهم عبدالناصر ومعه الإعلام القاهري – بأن وراء الانقلاب الساسة المدنيّين والدول الاجنبيّة(٢١) الاّ انهما لم يكونا موفّقين قط فقد بدا واضحاً ان هؤلاء الضباط كانوا يعبرون اصدق تعبير عن رغائب السوريين. ولذلك نجدهم يجهدون بعزم وحرارة للبرهان على خلاف ما ادعاه عبدالناصر في هذه الخطبة وفي الخطبة الأخرى التي تلتها. ولئلا يبقى هناك اي شك في ان للسرّاج ضلعاً. بادر ناطق باسم الجيش الى التصريح: بأن السراج لايمثل مصالح او رغبات ايّ كان وان خلافه مع المشير عامر هو شخصي[٢٢].

لم تذكر البلاغات الأولى اسم عبدالناصر بل ولم تشير اليه. لكن اللهجة مالبثت أن تغيرّت عندما اعلن عن طرد الضباط الخمسة واعتزامه سحق الانقلاب بارسال قواته الى سورية،

(٢١) بطبيعة الاختلاق والكذب التي عهدناها من (هيكل) لايسعنا الاّ الشك الكبير في زعمه (المرجع السالف ص١٢٧) ان اتصالات جرت بين النحلاوي والكزبري وبين الملك حسين والملك سعود الذي زوّد الانقلابيين بالمال. وقال إن الملك السعودي إثر سماعه بالانقلاب دعا بالسيف وطفق يرقص به الرقصة العربية التقليدية.

(٢٢) كان الانقلابيون قد اعتقلوا السراج في اليوم الرابع من الانقلاب لانتقاله من محل اقامته ومحاولته مع مساعديه استغلال الانقلاب لفائدته الخاصة.

وكانت النهاية لضبط النفس فبات عبدالناصر بعد البلاغ رقم (١٣) ينعت بالطاغية والدكتاتور...

"لقد استدان اشتراكية جملةً وتفصيلاً من بلادٍ (يوغوسلافيا) ورئيسها (تيتو) أُطلقتْ له الحريّة التامة، ليغدو قيماً ووصياً على الشعبين السوري والمصري. إننا نقول لشعب سورية ان عهد الطغيان قد وَلىّ الى الأبد. وقد حطمّ الجيش ذلك الصنم الذي غدر بكم واخضعكم للزمرة الباغية..."

والمظهر التقليدي لهذا الانقلاب هو عين المظاهر التي خرجت بها الانقلابات العسكرية السابقة منها واللاحقة: تعهدّ الضباط القائمين به وتصميمهم على تسليم السلطة للشعب. فقد صرح هؤلاء في بلاغهم الأول بانهم لايعتزمون تولي مسؤولية حكم البلاد، وكانوا صادقين لفترة قصيرة من الزمن فحسب.

في اليوم الذي تلا الانقلاب اعلنوا في البلاغات ١٧ و١٨ و١٩ بأنهم عهدوا الى الدكتور مأمون الكزبري بمهمة تأليف حكومة تدير شؤون البلاد وتهيء لعودة الدستوريّة.

وبادر الكزبري يوم تسميته باصدار مرسومٍ اوّل عيّن فيه أحد عشر وزيراً كلهم مدنيّ[٢٣] كما نصب اللواء عبدالكريم زهرالدين ترفيعاً الى رتبة فريق – رئيساً للاركان وقائداً عاماً بعد يومين اثنين من تأليف الحكومة.

في الحقيقة لم يكن النزاع بجوهره بين الانفصاليين وبين الوحدويين، ولا بين الاشتراكيين والرجعيين وانما كان وبأبسط عبارة نزاعاً بين السوريين وبين المصريين. فالوحيدون الذين تظاهروا في دمشق لمساندة (ج.ع.م)، وهتفوا لها هم اللاجئون الفلسطينيون. وقد اشار البلاغ رقم ٢١ الصادر في ١ من تشرين الاول الى هذا بقوله محذراً ومنذراً "الاجانب واللاجئين الذين شاركوا في التظاهر لغرض اسقاط سلطتنا" وهدد بالقاء القبض عليهم وطردهم من سورية. ثم ختم الانقلابيون بلاغاتهم بالرقم ٢٥ الصادر في الرابع من تشرين الأول معلناً عودة الجيش الى ثكناته.

واقدمت الوزارة الجديدة على خطوات تهدف الى اعادة الهوية الدولية السوريّة. فقررت انزال علم (ج.ع.م) ورفع العلم الوطني السوري، واعادة الشعار كما احيت النشيد الوطني القديم. ونشرت في ١٢ من تشرين الثاني (نوڤمبر) دستوراً مؤقتاً بثماني موادٍ فقط. نصّ فيه على

(٢٣) منهم سبعة ذوو شهادات دكتورية في القانون والطب والآداب والبقية مهندسون ومحامون. وبين الاعضاء هناك اربعة وزراء سابقون.

السيادة والاستقلال السوريين وفي اليوم التالي اعلنت تاريخ ١ كانون الاول موعداً لاجراء انتخابات الجمعية الوطنية (المجلس النيابي). وتمّ ذلك في الموعد المحدد ووقع على النواب الـ (١٧٢) الذين فازوا مهمة اشتراع دستور دائم للجمهورية السورية الثالثة[٢٤].

واكدّت الحكومة الجديدة كسابقتها الانتقالية إيمانها بما نعتته "بالاشتراكية البنّاءة" و"بالوحدة العربية السليمة". كما اكدت وعد الحكومة الانتقالية بأنها ستحترم الحقوق العمالية التي منحتها لهم القوانين الاشتراكية في تموز ١٩٦١. ومما هو جدير بالتنويه هنا انه وفي ١٦ من تشرين كانت الحكومة الانتقالية بالمشاركة مع القيادة الثورية (الانقلابيين) قد اصدرت بيانا فصلّت فيه السياسة التي ستتبعها الحكومة في المجال الاقتصادي ومحدداً دور الفرد والدولة في الاقتصاد الوطني. ومؤكداً الابقاء على الاصلاح الزراعي.

من متابعة صحافة ذلك الزمان واذاعات دمشق. فضلاً عن وكالات الانباء العالمية ووسائل اعلامها. ما كان يسع المرء إلاّ ان يقف حائراً ذاهلاً لردّ الفعل السوري الحماسي الهائل والجنون الذي أظهر السوريون به امتنانهم من الجيش بالمسيرات والتظاهر والقصائد الشعرية والخطب. كيف انطلقت اقلام الأدباء والكتاب – التي "صفدتها الوحدة بالأغلال" بإدعاء أحدهم. حتى بدا وكان غطاءٌ ازيح عن مرجل بخار. كيف يتحدثون عن الحرية والحاجة الماسة اليها. ويصبّون جام غضبهم على المحاولات المصريّة لطمس معالم الهوية السوريّة معربين عن اعتزازهم بالوطنيّة السورية حتى اولئك الذين آمنوا بالقومية العربية قولاً ومسعى فقد رأيتهم يجمعون على عدم إمكان تحقيق الوحدة العربية من دون الحريات الفردية والديمقراطية وكرامة الوطن. قال محام شاب:

"كنا نوشك ان نفقد شيئاً اهم من الوحدة. كنا سنفقد حريتنا."[٢٥]

(٢٤) تأسست الجمهورية الأولى في ١٩٣٠ وتواصلت حتى العام ١٩٤٩ بانقطاع اربع سنوات: ١٩٣٩–١٩٤٣ فيها حكم الفرنسيون حكماً مباشراً. واقيمت الثانية بدستور ١٩٥٠ عقب انقلابات العام ١٩٤٩. وختمت بانقلاب اديب الشيشكلي الذي سنّ دستوراً رئاسياً. إلاّ انها تواصلت اعتباراً من ١٩٥٤ حتى قضت عليها الوحدة.
انتخبت الجمعية الجديدة الدكتور ناظم القدسي رئيساً للجمهورية باغلبية (١٥٣) صوتاً. كما انتخبوا الدكتور مامون الكزبري رئيساً للمجلس. وكلّف الدكتور معروف الدواليبي بتأليف حكومة. وهو محارب جريء للدستورية والحكم البرلماني ومن الجناح اليساري لحزب الشعب. كانت فترة انتقالية خاطفة لا سابقة تاريخية لها في سائر الاقطار الناطقة بالعربيّة، وكان ثم انتخاب للنواب حرّ تماماً نأى الجيش بنفسه عنه ولم يتدخل فيه مطلقاً. جاء الى المجلس باغلبية ساحقة من اليمين المعتدل لايمكن مطلقاً نعتهم بالرجعيين ولا بالذين يقفون ضدّ العروبة والوحدة العربية.
(٢٥) نزار عرابي من مقالٍ له في جريدة النصر: ١٦ تشرين الأول.

واصدر المفتي الاكبر وهو يبارك «الثورة» فتواه بحلّ الشعب السوري من يمين الولاء لعبدالناصر. واصدر عدد كبير من الزعماء القوميين (ومنهم من وقع بيان الوحدة في ١٩٥٨) بياناً أعلنوا فيه موافقتهم ومساندتهم للقوات المسلحة. وهذا هو:

"عقد في دمشق اجتماع ضمّ عدداً من العاملين في الشؤون القوميّة. واستعرض المجتمعون الوضع العربي العام والوضع السوري الخاص والحالة الدولية بعد قيام الجيش العربي الأبي في سورية بعمله المجيد. فأجمع الرّأي على تأييد القوات المسلّحة السورية في ثورتها المباركة وعلى توجيه الشكر اليهم ضباطاً وضباط صفٍّ وجنوداً.

كما اجمع الرّاي على ان حكم الطغيان والتسلط والانحراف الذي اقامه الرئيس جمال عبدالناصر في كلّ من سورية ومصر هو الذي افقد الوحدة بينهما – معانيها السامية فابعدها عن ان تكون نواة للوحدة العربيّة الشاملة الصحيحة التي آمن بها وتاق اليها كله عربي، والتي لاتقوم إلاّ على المساواة والتكافؤ بين البلاد العربية.

كذلك اجمع الرّاي على ان هذا الحكم الذي استهدف تشويه الفكرة القومية العربيّة والوحدة العربية وخنق الحياة السياسية والديمقراطية ووأد الحريات العامة، بالرغم مما بُذل من نصح وتنبيه وتحذير، هو الذي دفع الى ثورة الجيش العربي في سورية تلبية لنقمة الشعب واستجابة لارادته بأقامة حياة ديمقراطية دستورية حرّة يمارس فيها سيادته ويتمتع بحرياته العامة في التنظيم السياسي والنقابي والثقافي والاجتماعي.

ويرى المجتمعون تحقيقاً لذلك ضرورة الإسراع باجراء انتخابات حيادية حُرّة وان يقتصر التشريع خلال الفترة الانتقالية على ما تقتضيه الفترة لتسيير الأمور.

إن الشعب العربي في سورية الذي دفعت عنه ثورة الجيش القوميّة، التسلط والطغيان، يمدّ يده الى الشعب العربي الشقيق في مصر، الرّاس في الاغلال ليتخلص من الحكم الدكتاتوري الذي اوجد التفرقة بين مصر وسورية. حتى يلتقي الشعب العربي في القطرين وفي كل قطر عربي – على صعيد العمل المجدي لبلوغ الوحدة العربيّة المنشودة. ويدعو الشعبُ العربي في سورية الامّةَ العربيةَ في جميع اقطارها الى ان تتبيّن موقفه وان تدرك اهدافه القومية السامية باقامة حكم

دستوري ديمقراطي صحيح يكفل للشعب سيادته وممارسته حرياته وتحقيق الديمقراطية السياسية والاجتماعية والاشتراكية الصحيحة والوحدة العربيّة الشاملة".

التواقيع:

احمد قنبر احمد الشراباتي اسعد هارون اكرم حوراني بشير العظمة
حامد الخوجة حسن مراد خالد العظم رشاد جبري سهيل الخوري
صبري العسلي صلاح البيطار فؤاد قدري محمد العايش نجيب الارمنازي
هاني السباعي

ولم تتخذ اية اجراءات انتقامية او عقابيّة ضدّ قادة النظام الوحدوي لا من الجيش ولا من جانب الساسة القدماء الذين دفعوا الى الخلف بحقارة وامتهنوا ووضعوا تحت المراقبة والتعقيب. حتى السرّاج والحوراني أساس كلّ الشرور فقد أمنا العقاب بله العِتاب(٢٦).

كانت صدمة عنيفة لعبدالناصر. لم يستفق منها قط. نالت منه صحيّاً وهوت بضربة صاعقة على زعامته من الداخل وعلى هيبته بصورة خاصّة خارج مصر، عالمياً وعربياً. وفي العالم الناطق بالعربيّة بدت فهي أدعى المناسبات الى الإحتفال واظهار الغبطة والبهجة وبقي هو عدّة سنوات يرفض بعنادٍ غريب أن يأخذ الانفصال مأخذاً حقيقياً محتفظاً بعنوانه (ج.ع.م) مثلما يحتفظ الصبي بلعبة أثيرة تهشمت من فرط تداولها. وبمحاولة منه للقضاء على الانقلاب وجدناه يستخدم كلّ ما تيسّر له من اسلحة. حاول ارسال حملة عسكرية من مصر وشرع فيها وأنزلها في مواضع لكنه اضطر الى اخلائها حال نزولها. وجرب ضرب الحصار الدبلوماسي بالحيلولة دون الاعتراف بالنظام الجديد، عن طريق المبادرة الى قطع علاقاته مع الدول التي اقدمت عليه. ففعل وأقدم في اوّل يوم على قطع علاقته مع الاردن وتركيا. لكن سرعان ما تبيّن له عقم ذلك. إذ بادرت الدول كبيرها وصغيرها الى الاعتراف بالحكم السوري الجديد...

وتلكأت الولايات المتحدة حتى العاشر من تشرين الأول مجاملةً لعبدالناصر ثم أقدمت وبعد المشاورة معه!

إلاّ ان موقف الحكومة اللبنانية كان يدعو إلى الخجل فعلاً. لكنه لايثير دهشة. (فصائب سلام) رئيس الحكومة الذي قاد انتفاضة ١٩٥٨ في لبنان على(كميل شمعون) كان صنيعة

(٢٦) تخلصاً من الحرج أنجح الجيش هروب السراج من معتقله في ٦ آذار ١٩٦٢ أو ربما بمسعى من حكومة ذلك الزمن.

عبدالناصر، وتسلّم امواله واسلحته وحليف المسلمين اللبنانيين. ولم يتمّ الاعتراف إلاّ بعد أن غدا لبنان موضع سخرية وتندرّ في سائر وسائل الاعلام العالمية باستثناء وسائل القاهرة[٢٧].

وعلى اية حال اضطر عبدالناصر الى اعلان وقوع الانفصال رسمياً في خطبة له يوم ٥ من تشرين الأول مبقياً عنوان مصر زمن الوحدة، رغم ان كثيراً من المصريين إحتجوا على ذلك وطالبوا بالرجوع الى اسم (مصر) التاريخي العربيّ اصلاً. وهو دليل على مقدار ازدرائه بالواقع رافضاً في الوقت عينه ان يعترف بايّ حكومة سوريّة "ان لم تمثل ارادة الشعب" على حدّ قوله في خطبته هذه. رفض الاقتناع إلاّ بأمر واحد: ان ينقلب السوريون على حكومتهم ويعيدوا رموز الوحدة. ففي عشية قيام الانتخابات العامة ناشد الشعب السوري مقاطعتها. ثم رفض الإيمان بنتائجها.

وبقي في يده سلاحٌ واحد. ذلك السلاح الذي بلغ في استخدامه واتقانه الذروة ضد سائر اعدائه من زعماء الدول العربيّة، ولاسيما العراق (قديمه وحديثه) التآمر والتآمر ثم التآمر ونصب الفخاخ والمكائد واستخدم الصحافة والراديو واغدق الأموال بسخاء على الوكلاء بهدف ابقاء سورية في حالة ضعف وانقسام وشلل. هذا السلوك الثأري املته عليه رغبته في انقاذ ماء وجهه واستعادة نفوذه، فقد بدت سورية "أشبه بعقب قدم آخيل" على حَدّ تشبيه أحد الكتاّب[٢٨].

حاول عبدالناصر في خطبة ٥ تشرين الأول تذكير مستمعيه بان السوريين هم الذين طرحوا بلادهم تحت قدميه، وانه قبلها مرغماً:

"تعلمون ان رأيي هو ان تلك الوحدة كانت عملية شاقّة، كان من رأيي ان الإعداد لها يجب ان تكون متدرجة على عدد من السنين. لكن كان عليَّ ان اخضع للادارة الشعبية السورية (كذا!)... في هذه اللحظة اشعر أنوّ ليس من الحتمية ان تبقى

(٢٧) تمّ الاعتراف في ١٣ من تشرين الاول اي بعد اكثر من اسبوعين وعن طريق مجلس النواب اللبناني، وبعدها باربعة عشر يوماً ارغم (سلام) على الاستقالة وكان موقفه هذا احد اسباب تنحيه كما ذكر حينذاك. وبصدد ذلك اشار الكاتب المعروف رفيق المعلوف بمقال في جريدة الزمان (١٣ تشرين الاول) بعنوان «حكومة لبنان والمندوب السامي» يقصد عبدالحميد غالب الذي كان وقتذاك سفيراً للقاهرة في لبنان ملمحاً بأنّ صائب سلام كان يتلقى منه اوامر عبدالناصر.

(٢٨) وفق (سيمون جرجي) في هذا التشبيه ايما توفيق. وقد ورد في مقال له بالأوريان عنوانه [الاقليم السوري (ج.ع.م) La Syrie Province de la republic Arab unie (العدد ١٨). واخيل هو بطل اسطوري من ابطال الياذة هوميروس في حروب طراوادة. تذكر الاسطورة انه ولد محصنا من الاصابة القاتلة الا في موضع من عقب قدمه. وفي ذلك الموضع بالذات اصابة غريمه هكتور بسهم فقضى عليه.

سورية جزءً من الجمهورية العربية المتحدة... الوحدة القوميّة في سورية هي تثبيت للوحدة العربيّة والإعدد الحقيقي للوصول اليها... إن الجمهورية العربية المتحدة ستستمّر..."

وحاول قصاراه تبرير سياسته واسلوب حكمه في سورية بتعداد ما انجزه خلال فترة الوحدة. وحشد كُتّابه للضرب على هذا الوتر. كم تدين سورية لمصر؟ وساهم المفكر المصري الكبير طه حسين وبكلّ اسف في المعركة والحملة فنوه "عميد الأدب العربي" هذا في مقالين له بجريدة الجمهورية بالأعمال الجليلة التي انجزها المصريون في سورية مما يفوق اوسع احلامهم.

وبادرت السلطات السورية الى الردّ بالوقائع والارقام على الادعاء. فأشارت الى ان الميزانية السورية كانت تدفع رواتب الضباط والموظفين المصريين في سورية. وان معظم هؤلاء لم تكن الحاجة تدعو اليهم، واوضحت ان المشاريع التي فخر بها عبدالناصر كانت مقررة وقد بوشر بها قبل الوحدة بمدة. وان الموظفين المصريين المسؤولين بتبذيرهم دمّروا الصرح المالي السوري.

ولم ينس عبدالناصر أن يجعل «لقاسم العراق» ضلعاً في مؤامرة الانفصال.

***

كان (قاسم) يعيش ساعات وهمه بالقضاء على الحركة الكردية المسلّحة وختامها بالمؤتمر الذي عقده في ٢٣ من أيلول عندما جاء من يزف اليه نبأ الانقلاب العسكري في سورية، والطلاق البائن بين القطرين الذي عقب ذلك بساعات.

ذكر لي من لا أشكّ بقوله وكان واحداً من المقربين المختلفين اليه، أنه نحّى جانباً كل ما كان يشغله. وجلس ينصت متابعاً الأنباء والبلاغات وتعمّد الوقار والإقتصاد في التعليق. كما اصدر أمراً للإذاعة بالمحافظة على الرزانة والإقتصار على الأقل مما يذاع حول الانقلاب من دون تعليق أو استفزاز. وبشيء من الحذر وعدم الاستعجال في استخلاص النتائج تجلت ازدواجية طبعه، إذ لم يكن قليل الإقتصاد في اظهار استبشاره للمقربين من الضباط اليساريين والقاسميين الموثوقين. في حين كان يصطنع الأسف أمام القوميين ولايبخل بتعابير الأسى على ما حلّ بأوّل وحدة عربيّة. كان يتقن منّ المرآءاة. حتى خدع به اسماعيل العارف صاحب كتاب [اسرار ١٤ تموز] وهو قومي وقاسمي[٢٩] في عين الوقت.

(٢٩) المرجع السالف ص٢٨٩ قال: "كنتُ ازور الزعيم عبدالكريم قاسم في مقره حيث وردت اليه انباء مستعجلة تفيد بان القيادة المصرية قررت انزال قوات في اللاذقية لإعادة الوضع الى ما كان عليه، =

وتبرّع بعد بضعة أيام أحد المتزلفين الذين يحيطون به، وكان يعرف مدى تعلق قاسم باستنباط النتائج من المصادفات وغرائب الاتفاق وكيف كان جاداً من تصديق ذلك الذي جاء ببيضة دجاجة حديثة الوضع واراه خطوطاً تشبه اسم قاسم فوق قشرتها. فلاحظ مشاركة قائد الانقلاب النحلاوي والقائد العام الجديد زهرالدين قاسماً باسم عبدالكريم[٣٠].

وكمثل قاسم سارت الحكومة السورية بحذر شديد في علاقاتها مع الدول العربيّة خشية اخراج عبدالناصر عن طوره. وحذراً من غضب عدد من الضباط القوميين الذين كانوا يكرهون بنوع خاص انشاء علاقات وثيقة بعراق قاسم من دون مصر.

إلاّ انها اسرعت إثر تصاعد التوتر على الجبهة الاسرائيلية بارسال وفدٍ عسكريّ واقتصادي الى بغداد في أواخر تشرين الأول ونشرت صحف دمشق وبغداد ملخصاً لما دار في اجتماع الوفدين بقاسم واقواله المتحفظة ونقل راديو طرفاً مما جرى. وكيف اخفى (قاسم) غبطته تحت عبارة أبرزها المذيع وخصّها بنبرةٍ عالية:

"نحن نعمل للقومية العربيّة كعقيدة وكأصالة تسري في دمائنا ولا نشتغل بها كواجهة سياسية. لا فرق بين بلدينا وكفاحنا مشترك."

وتمّ خلال الزيارة التوقيع على اتفاق اقتصاديّ في ٣ تشرين الاول ومما تضمنّه الغاء سمات المرور، والغاء القيود على الاقامة بين مواطني البلدين، واعفاءات كمركيّة كبيرة على المستورد.

وصدر اثر عودة الوفد – من وزير الداخلية السوري تصريحاً ضدّ ما علقّ عليه راديو صوت العرب وصحافة القاهرة:

"نحن طلابّ وحدة حقيقية كبرى. وقدمنا للدول العربية مشروعنا لهذا، ومما يؤسف له ان هناك من يحمل علينا واصفاً هذا المشروع بانه احياءٌ لمشروع الهلال

= ضرب الانفصاليين السوريين. وعندما قرأ احد المسؤولين المعلومات على اسماعنا انبرى ضابط كبير الرتبة وعلّق عليها موجهاً حديثه الى (قاسم) قائلاً: سيدي حان الوقت لإرسال الجيش العراقي الى سورية ومساعدة قادة الانفصال للدفاع عن استقلال سورية واعلان الوحدة بيننا وبينهما وكسر انفه. فأجابه عبدالكريم قاسم بغضب والانزعاج واضح على محيّاة. ارجوك اسكت، هذا خطأ. اني مستعد ان احرّك الجيش الآن إذا طلب منا (يقصد عبدالناصر) مساعدته. انا لا اوافق على هذا الرأي" فوجم الجميع اذ كانوا يتصورون ان عبدالكريم قاسم كان فرحاً ومستبشراً بالانفصال. ثم نهض وأومأ اليّ لكي اتبعه وحينما دخلنا الى مقره الخاص المجاور لغرفة المرافقين. تابع حديثه معي وهو لايزال غاضباً وقال ان ما حدث في سورية إهانة لا أرتضيها للرئيس عبدالناصر. المباديء يجب ان لاتتأثر بالخصومات الوقتية».

(٣٠) هذا بعض ما دونته في اوراقي في اوائل كانون الأول ١٩٦٢ وهو يستند الى معلومات خاصة موثوقة.

الخصيب الاستعماري. ما الضير في ان يكون هذا المشروع مشابها لمشروع الهلال الخصيب؟ أليس من العدل والمنطق أن تتحد سورية والعراق؟ اليس من المنطق ان تتحد سورية والاردن؟..."

وارسل قاسم وزير خارجيته (هاشم جواد) في ٢١ من كانون الثاني ١٩٦١ الى سورية. ثم صدر بيان حول قيام تنسيق عسكري بقصد "تعاون دفاعيّ بين البلدين من اجل سلامتهما وسلامة العالم العربيّ وتحرّره ولرغبتهما الاكيدة في ان تشارك معهما جميع الدول العربيّة المتحررة لتحقيق هذه الأهداف الخيّرة والمباديء العليا حرصاً منهما على "جمع الشمل ووحدة النضال في سبيل العروبة والإنسانية"[٣١].

وفي ٢٤ من شباط توجّه وفد عسكريّ عراقي الى دمشق، وأُخِذَ الى جبهة القتال وأُقيمَتْ له حفلات.

وبالضبط مثلما حصل يوم ١٤ تموز. بعد ان اطمأن (قاسم) على سلامة النظام الجديد في سورية فتح ابواب السفارة السورية مجدداً في بغداد وفوجيء العالم الناطق بالعربيّة بانباء اجتماعٍ تمّ على الحدود العراقية – السوريّة بين الدكتور ناظم القدسي وبين الزعيم العراقي[٣٢].

أخيراً رفع (قاسم) قناع التفجع على مصير الوحدة. واغتنم الفرصة ليسدد الى خاصرة غريمه سهماً نافذاً بجعل تعاونه الوثيق مع حكام سورية الجدد القوميين أيضاً – محوراً لتعامله العربي فيما بعد. تمّ اللقاء المقترح في بُلَيْدة (الرطبة) العراقية الحدودية وعرف اللقاء بمؤتمر الأيّام الثلاثة (بين ١٤ شباط و١٦منه) وجرى بغاية السرية ولم يعلم عنه شيء إلاّ بعد ختامه.

وبمواجهة الضجّة الكبيرة وحملة التشهير العنيفة التي شيعت بها القاهرة هذا الاجتماع. أنكر الطرفان بشكل قاطع أي بحث جرى بينهما حول وحدة سياسية على غرار مشروع الهلال الخصيب. وعبّر البيان المشترك الذي صدر على اثره عن آمال ونوايا وعواطف ومقترحات لجمع الشمل العربي ودرء اخطار الاستعمار واحباط مخططاته. واحدٌ من مئات البيانات المشتركة التي كانت تصدرها بين آن وآخر الدول الناطقة بالعربيّة فلاتخلّف آثراً وتجد طريقها لتطمر في

(٣١) «جمهوريتان وهدف واحد» دار الحياة للصحافة والنشر. دمشق ص٢٤

(٣٢) حضر صحبة قاسم وزير الخارجية وقائد القوة الجوية الأوقاتي، ومدير الاستخبارات العسكرية الرفيعي. ومن الجانب السوري رئيس الوزراء الدواليبي. (لم يحضره عبدالكريم زهرالدين الذي بدا من مذكراته انه كان معارضاً للاجتماع. لكنه أقر بان ضابطين ارسلا للمشاركة في الوفد لم يفصح عن هويتهما. المرجع السالف الص١٦٤ و١٧٦).

سجلّ الوثائق الميتة. تؤكد مصادر معينة ان البحث تمركز حول التهديد الاسرائيلي وما يمكن أن يقدّمه العراق في حالة اتسّاع نطاق الهجمات.

ففي ١٦ من آذار اقدم الجيش الاسرائيلي على شنّ هجوم عنيف استهدف مواقع السوريين شرق بحيرة طبرية. وكانت سورية قد جُردت من احدث اسلحة جيشها ونقلت الى الجيش المصري المرابط في غزّة. وقد حذّر الدواليبي في حينه الجامعة العربيّة من تحركات عسكرية اسرائيلية مشبوهة منذ نهاية العام ١٩٦١ وقال معقباً:

"دولة عربيّة معينة، سخرت منّا ومن تحذيرنا. ورفضت ان تعيد الينا طائراتنا وسلاحنا وقطعنا البحرية لذلك توجهنا نحو العراق."(٣٣)

واشتدت الحملة الاعلامية القاهرية عندما اقدم المجلس النيابي السوري على الغاء بعض القوانين الاشتراكية وتعديل بعضها مقترنة باقتراب موعد احياء ذكرى قيام الوحدة. وفي لبنان اجتمع بالمناسبة عدد كبيرٌ من انصار الناصريّة والوكلاء، وقد بات لبنان في عهد الرئيس فؤاد شهاب مركزاً للدسائس وطبخ المؤامرات على سورية وتلك مفارقة من مفارقات التاريخ. فقد كانت سورية مركزاً لمثل هذا ضدّ لبنان في عهد الرئيس كميل شمعون(٣٤).

كانت مصر تموّل قطاعاً هاماً من الصحافة اللبنانيّة. وتنفق على الاقلام بسخاءٍ لا حدود له. فشنت حملة تشنيع بالمناسبة اعادت الى الذهن تلك الحملة الشعواء التي شنتها صحف دمشق على العراق قبل سنتين إثر فشل محاولة الشواف الانقلابيّة – وخلقت في الاجواء السورية بلبلةً واضطرابا عظيمين(٣٥).

واتبع خطاب عبدالناصر في ٢٢ من شباط ضدّ القادة السوريين عين الاسلوب الكلاسي الذي اتبعه ضدّ كميل شمعون والملك حسين ونوري السعيد والملك سعود وعبدالكريم قاسم وغيرهم، ووصفهم بخدم الاميريالية واتهمهم بأخذ الأموال من مصادر اجنبيّة لقاء خيانتهم

(٣٣) الحياة عدد ٢٢ آذار ١٩٦٢.
(٣٤) راجع الفصل السابق.
(٣٥) ركز هجوم بنوع خاص على مأمون الكزبري رئيس المجلس النيابي وادّى الى قيام النائب الناصري الاتجاه راتب الحسيني مطالباً رجال الحكومة بالاجابة على التهم التي الصقها بهم عبدالناصر. وحصل اشتباك وعراك استخدمت فيه الايدي والأرجل والالسن وخرج صاحب السؤال منها بجراح. وبلغت وطأة تلك الحملات حّداً ارغم معه الحكومة على خطوة غير مسبوقة في عالم الدبلوماسية بمدى علمي – بعثت في ٢ من تشرين الثاني بوفد رسميّ سوري الى بيروت لمواجهة وزير الخارجيّة اللبنانية (فيليب تقلا) وتقديم احتجاج بسبب موقف الحكومة اللبنانية المعادي. ودعم احتجاجه بوقائع ثابتة حول نشاط معاد لسورية يباشره ويديره سفير مصر في لبنان [النهار ٢٢ شباط ١٩٦٢].

القضية العربية.

في حين ذلك بدء الرّاي العام السوري يشعر بالتوتر المتنامي بين القادة العسكريين من جهة وبين الحكومة والمجلس النيابي من جهة أخرى. فمنذ كانون الأول ١٩٦١ رجحت كفّة العناصر اليسارية التي يقوم على رأسها عبدالكريم النحلاوي مقترنة بإعتقال المقدم الكزبري قائد الجناح اليميني بتهمةٍ لا أساس لها قط. تهمة قبوله مبلغاً من الاردن في عهد مسبق للحركة وثمنا لمشاركته فيها وبتدخله في الانتخابات. ومع ان التحقيق اثبت براءته من التهمتين فقد ابقي رهن الاعتقال بأمرٍ من النحلاوي، الذي اصبح الآن رجل سورية القوّى – ثم سرّح من الجيش قبل اطلاق سراحه(٣٦).

لم توافق قيادة النحلاويّ اليسارية على القوانين الاقتصادية التي استنّها المجلس وبدت ممتعضة من ايّ تقارب وثيق مع العراق. كانت تفضلّ الناصرية بدون عبدالناصر. اعني نزع السلطة من المدنيين دون تسليمها لعبدالناصر. ففي شهر كانون الثاني ١٩٦٢. رضي عبدالناصر ان يقابل وفداً سورياً اقترح عليه عقد اتفاق عسكري وحلف سياسيّ. فرفض رفضاً قاطعاً ورفض اقامة علاقات دبلوماسية، قبل ازاحة النظام السوري المستحدث "بالكامل"(٣٧).

لم يعدّ هناك من شكّ في ان الرأس المدبر لحركة الانفصال هو النحلاوي وقد قيل أنه هو الذي كتب البلاغ رقم (٩). وبانتهازيّة منه تلفت النظر استغلّ هذا الضابط التهم التي الصقها عبدالناصر بالمدنيين الذين نصبتهم الانتخابات العامة حكاماً – لتحطيمهم. يدفعه هو وضباطه الدمشقيون مزيج من القلق على القوانين الاشتراكية والرغبة في الاستئثار بالسلطة ومقدرات البلاد.

في ٢٤ من آذار ١٩٦٢ قدمت اغلبيّة برلمانية مؤلفة من ١٣٢ نائباً اقتراحاً للمجلس بسنّ قانون يقضي باعادة محاكمة القادة السياسيين الذين ادينوا في محاكمات امام المجلس العسكري الذي رئسه وقتها العقيد عفيف البزري(٣٨) فاعترضت قيادة النحلاوي وطلبت سحب الاقتراح. وفي ذات اليوم القى رئيس الوزراء خطبة في المجلس اتهم الجيش بصراحة

(٣٦) الحياة ٣ نيسان ١٩٦٢. الزهراوي المرجع السالف ص١٤٤.
(٣٧) الصحف اللبنانية [النهار ثلاث مقالات مسلسلة في ١٩ و٢٠ و٢١ من شباط]. زهرالدين المرجع السالف ١٦٤. هيكل المرجع السالف ١٢٤. يقول ان عبدالناصر اقترح على الوفد اعادة النظام القديم بانقلاب عسكري.
(٣٨) راجع الفصل السابق.

بتدخله في شؤون الدولة. فكان جواب القادة تقديم عدد من المطالب للرئيس القدسي، منها إقالة حكومة الدواليبي وحلّ المجلس النيابي فرفض[٣٩].

في الساعات المبكرة من صباح الأربعاء ٢٨ آذار نفذ النحلاوي انقلابه دون اراقة دماء هذه المرّة. حُرِكّت الوحدات العسكرية بعد متنصّف الليل لإحتلال المواقع الستراتيجية في دمشق والقت القبض على زهاء مائة سياسيّ ورجل اعمال وبضمنهم رئيس مجلس النواب الكزبري وكلّ اعضاء الحكومة وعدد كبير من النوّاب وبعض كبار الصناعيين.

وأُعطي البلاغ الاوّل لهذا الانقلاب رقم (٢٦) اشارة الى انه استمرار لحركة ايلول الانفصالية لاغير. جاء في البلاغ:

"انّ القيادة العامة للقوات المسلحة من اجل تحقيق ما يصبو اليه الشعب وللمحافظة على المكاسب والأمن والاستقرار والحريات التي حققها الجيش في ثورة ٢٨ ايلول، تعلن بان الجيش قد تسلم زمام الحكم اعتباراً من صباح هذا اليوم، وان هذه الحركة انما هي استمرارية لثورة ايلول."

واعلن البلاغان ٢٨ و٢٩ عن حلّ المجلس النيابي واستقالة رئيس الدولة ولم يكشف الانقلابيون عن هويّاتهم كالعادة. لكنها اصبحت على كل شفة ولسان في اليوم التالي وهو عين الطاقم الذي قام بحركة ٢٨ ايلول ناقصاً العقيد حيدر الكزبري، وبزعامة النحلاوي الشاب ابن الخامسة والثلاثين. والى جانب البلاغ الاول (رقم ٢٦) نشرت هذه القيادة بياناً حاولت فيه تبرير حركتها هذه بجملة من التهم، وتحريف للحقائق وبمبالغات تعكس سخف الضباط وافتقارهم الى الشعور بالمسؤولية، عزوا الى النظام الدستوري كلّ نقيصة ورموا شخصياته بكل ما يصم. وبدا بعض مبالغاته اشبه بالشعارات التي كانت تطلقها الدعاية المصرية، استهدفت في الظاهر كسب مصر وعطف الطبقتين العمالية والفلاحيّة السوريتين. وختم البيان بتعداد اهداف الثورة:

"اقامة نظام عربي عادل بنّاء اشتراكيّ في جوهره يشجع القطاع الخاص والعمل لإقامة اتحاد عربي مبني على قواعد سليمة واضحة مع الاقطار العربيّة المتحررة لاسيما مع مصر الحبيبة والأخت العراق."

(٣٩) ذكر الفريق زهرالدين انه كان يعارض القيام بانقلاب وقد فضّل المفاوضة وممارسة ضغط على الرئيس القدسي. الاّ ان النحلاوي جاءه لينبئهُ بوقوع الانقلاب واقرّ بانه لم يعترض وان كان يدري ان معظم الضباط في القيادة هم على رأي مخالف.

كانت خيبة أمل لرجل الشارع ونكسة ومفاجأة لا أسوء منها سيّما لاولئك الذين تكهنوا بأن الجيش السوري سيكون عند كلمته في ابعاد نفسه عن السياسة بعد انتخابات كانون الأول. وان يسمح للشعب بالاستمتاع بفترة من الهدوء والاستقرار.

الحكومة الدستورية بكل صدق نياتها وبكل ما حققته في زمن قصير. لم تكن تملك الشجاعة لتقف بوجه المكائد الناصرية وقفة فعّالة. عندما حوصرت بالفخاخ والدسائس وشكوك العسكريين واخرجها عن طورها ضجيج مجموعة البعثيين التي كان يقودها اكرم حوراني. فقد واصلت نهجها السلبي المعرقل وساعدت على استنفار المعارضة بين الجماهير لقرارات الحكومة.

مالبث النحلاوي ورفاقه ان تبينوا عجزهم عن نيل الثقة الشعبية، فبدأوا في البحث عن ساسةٍ يقبلون التعاون معهم وخاب سيعهم وبقيت البلاد اسبوعين دون حكومة. وفي الجيش نفسه شجبت قيادات المناطق بعد شيء من التلكؤ ما جرى في دمشق ويدها على النبض الشعّبي المستاء.

ظلّ الانقلابيون ثلاثة ايام لايدرون ماذا يفعلون بالسلطة التي سلبوها وخلال هذه الفترة لمَّ اليمين في الجيش ومسلكيّوه اللاعقائديون المؤمنون بالدستورية – اطراف شجاعتهم وبالإتفاق مع الضباط الناصريين عقدوا العزم على التخلص من (النحلاوي) وزمرته، وفي هذا لم يكن قادة الحاميات والمناطق يخلون من الحسد والغيرة. وقد اطلقوا عليها عبارة "زمرة دمشق الانتهازية".

بالنسبة الى الضباط الناصريين كانت حركة النحلاوي الأخيرة تمهيداً واشارة انطلاق لانقلاب اعدوّا له وعينوا الاوّل من شهر نيسان (ابريل) للقيام به. بل قيل ان عبدالناصر شجعّ النحلاوي في اطاحته النظام الدستوري ووعده بالمساعدة والتعاون في حين هيّأ له في عين الوقت طعنة من خلف على شكل انقلاب آخر يعيد سورية الى احضان مصر ويتم به التخلص من النحلاوي[٤٠]. وهكذا بدأت الانقلابات تتداخل بشكل روائي.

تقرر ان تكون حلب قاعدة انطلاق الضباط الناصريين وكانوا قد اعدوّا لها سِراً بخلايا تنظيمية وصلات وثيقة وراء الحدود. ومعظمهم ضباط كانوا قد سرّحوا من الجيش تباعاً بعد

(٤٠) وجه اكرم الحوراني هذه التهمة في جريدة النهار [١٤ حزيران ١٩٦٢] وقال انه علم بالتخطيط للانقلاب، فحذر الضباط من نوايا عبدالناصر الحقيقية. ثم اتهم الرئيس المصري بانه اراد التستر على جريمته باطلاق يد اسرائيل في تحويل مياه الاردن [انظر ايضاً زهرالدين في دور عبدالناصر المزدوج واعترافات النحلاوي].

الانفصال[٤١] وقاد الحركة العقيد المتقاعد (جاسم علوان) من قاعدتيه في سورية ولبنان. وكان معهم ايضاً فئة قليلة من الضباط العاملين الشاعرين بالغبن درجةً ومركزاً، كالنقيب (حماد عبيد) الذي رأس اطاحة قيادة النحلاوي واعادة الضباط المسرّحين ومعهم الوحدة.

واجتمعت تحت معارضة النحلاوي برآسة العميد [بدر الأعسر] قائد المنطقة في مدينة حمص ليلة الجمعة من ٣٠ آذار ودام اجتماعهم حتى مساء السبت. وفي خلال ذلك انضمت قيادات الحاميات الأخرى اليهم ضد قيادة دمشق. وانتهز (جاسم علوان) الفرصة وحاول السيطرة على المعارضة باصدار امر الحركة لزملائه الضباط المسرّحين الذين تجمعوا في حمص. فحصّل شغب واشتبك الناصريون بخصومهم سقط خلاله ماقدّر باربعين قتيلاً. وعندها أمر العميد بدر الأعسر الضباط المسرحين بمغادرة حمص رافضاً ان يستغل الخلاف مع دمشق لمصلحة الناصريين.

وبدأت مشاورات بين مختلف القيادات في سائر انحاء القطر للحيلولة دون تأزم اكثر في الموقف. واستحصلت موافقة قيادة النحلاوي على عقد مؤتمر عسكري عام في الاوّل من نيسان لدراسة مطالب وشكاوى كلّ الكتل العسكرية. لم يكن الضباط الناصريون على ثقة من قيام المؤتمر باعلان الوحدة فوراً. فقرروا أن يتحركوا حالاً بالاستيلاء على حلب التي عادوا اليها بعد فشلهم المبدئي في حمص. اذ كانوا يتوقعون تلقي العون هناك من ضباط افواج المظليين وقوات الكومّاندو، التي أُمرت في ٢٧ من آذار بالحركة من ثكناتهما خارج حلب واحتلال المقر العام داخل المدينة تمهيداً للانقلاب في اليوم التالي. وباشر بالانقلاب زهاء خمسة عشر ضابطاً مسرّحاً كانوا يقيمون في لبنان.

كان لقائد موقع حلب العميد (هشام مدني) بعض فكرة مسبقة عن الانقلاب المزمع. فاصدر اموراً للمظليين بالعودة الى ثكناتهم في (رزم العبود) خارج حلب فعصوا. وفي ساعة الصفر (الثانية من صباح الاول نيسان) اقدم ملازمان مظليّان ناصريان مع عدد من ضباط الصفّ بإقتحام مقر القائد واعتقلوا العميد (مدني) ومع انهم لم يواجهوا اي مقاومة، فانهم وبكل وحشية صرعوا بنار رشاشاتهم أربعة ضباط بينهم النقيب آمر القوات المظلية واحد جنوده.

وفي تلك الاثناء وصل (جاسم علوان) الى حلب واعلن نفسه قائداً للمنطقة وانضّم اليه في ضحى اليوم العقيد (لؤي الأتاسي) قائد المنطقة الشرقيّة، اذ أقبل على رأس عددٍ من المصفحّات.

(٤١) استناداً الى مراسل ABC [الحياة ٥ نيسان] ان الـ٢٠٠ ضابط الناصريين الذين أحيلوا الى التقاعد خلال الاشهر الستة المنصرمة – انضموا كلهم الى مؤامرة حلب.

احتل القائد الجديد محطة الاذاعة وراح فيها يهيئ الجوّ للوحدة مع مصر هو وصحبه في انتظار ما سيسفر عنه مؤتمر حمص العسكري. وفي تلك الاثناء عمد أحد الضباط الثائرين الى رفع علم (ج.ع.م) فوق مقر القيادة ونظمت مظاهرات فورية بمساعدة الجنود المحمولين في شاحنات في حين وزعت على المتظاهرين اعلام (ج.ع.م) وصور عبدالناصر وكان قد جيء بها قبل أشهر من لبنان[٤٢].

وفي حمص عقد المؤتمر العسكري جلسةً في الثاني من نيسان دامت حتى الثانية صباحاً حضرها حوالي مائة ضابطٍ يمثلون سائر المناطق العسكرية والوحدات المقاتلة وتمّ التوصل الى مقررات لم تنشر قط واختلفت الاقوال فيها، لكن قراراً واحداً كان قد اكّده تنفيذه. ويقضي بابعاد الضباط السبعة[٤٣] وتأليف قيادة عسكرية جديدة. وأمّا عن الوحدة فقد جعلوها مشروطة باستفتاء عام بالنسبة الى مصر(؟) او باستفتاء على نوع من اتحاد مع الدول العربيّة المتحررة مصر والعراق. وتقرر أيضاً اقامة حكومة انتقال ودراسة قضايا الضباط المفصولين بعد ٢٨ من ايلول.

ونفذ قرار الابعاد على الفور بسبب ضغط الضباط الحياديين والناصريين والرّأي العام. فوضعوا في طائرة خاصّة بعد ظهر يوم الاثنين حملتهم الى سويسرا. وتولى الأمر في دمشق ضباط مسلكيون غير عقائديين وساد الهدوء البلاد باستثناء حلب، فقد تواصل العصيان ولعلّ القائمين به اخطاؤا الحساب اذ توهموا بان ابعاد الضباط السبعة يمهد طريقهم ويزيد من فرص نجاحهم عندما اعلنوا قيام الوحدة من دار اذاعة حلب. واذ ذاك ثارت ثائرة ضباط الحامية وسخطوا على عملهم فأُرغموا على الاذاعة التالية باسم الجمهورية العربية السورية.

في صباح اليوم التالي بدا الناصريون المنفعلون مسيطرين وواصلوا اذاعتهم باسم الاقليم السوري من (ج.ع.م). وحملت البلاغات اسم (جاسم علوان) بوصفه الناطق بلسان الجيش الأول. متهماً قيادة دمشق بالعصيان على قرارات مؤتمر حمص. وفي التاسعة صباحاً اتصل بالسفير المصري في لبنان طالبا مراجعة القاهرة لإرسال نجدات. وبعدها بربع ساعة اذيع نداءٌ موقّع من «قيادة الضباط الأحرار في حلب» الى:

(٤٢) شهد مدير شرطة حلب العقيد الداغستاني أمام المحكمة التي حاكمت الضباط القتلة في تشرين الاول – ان موظفي قنصلية الولايات المتحدة في حلب شاركوا في توزيع صور عبدالناصر [النصر في ٢٢ تشرين الاوّل]. ونوه بذلك المدعي العام العسكري في مطالعته (النصر: ٢١ تشرين الأول].

(٤٣) هم المقدم عبدالكريم النحلاوي والعميدان عبدالغني دحمان وهشام عبد ربه والمقدمون محب الهندي وفايز الرفاعي وبسّام علي وعادل حاج علي.

«القيادة العامة للجيش وللقوات المسلّحة في الاقليم الجنوبي (مصر) طائرات الانفصاليين تحاول قصف محطة الارسال في سراقب. لا نملك طائرات للدفاع. انجدونا.»

ولم تستجب مصر لعلمها ان القائمين بالحركة لايملكون رصيداً شعبياً شمال سورية. لكن (علوان) ظن انه قادر على الدفاع عن حلب. وتحركت قيادة دمشق في العاشرة والدقيقة الثلاثين من ٣ نيسان بتوجيه انذار للمعتصبين بالاستسلام ينتهي في الثانية عشرة. واطلقت من حمص اللواء المدّرع الخامس نحو حلب. وفي غضون ذلك تمكن لؤي الأتاسي من ممارسة مهام القيادة وما أن وجد العصيان في سبيله الى الانهيار بتقدم اللواء نحو حلب، حتى حاول الوساطة بعد ان ترك (جاسم علوان) وزملاؤه المسرحون حلب ولجاؤا الى لبنان.

دخل اللواء المدرع المدينة واعلنت دمشق نهاية الانقلاب وتمّ القاء القبض على البادئين قتلة الضباط الاربعة[٤٤].

من كل تاريخ الانقلابات العسكرية السورية، لم تشهد البلاد أسبوعاً مُذلاً فاضحاً كالإسبوع الذي ابتدأ في ٢٨ من آذار، تداخلت فيه انقلابات ومحاولات انقلاب أربع باشرها ضباط امتلأوا حسداً وغيرةً بعضهم من بعض، وتأثروا بدرجة متفاوتة بأفكار اشتراكية غامضة مبتورة، وبالإصلاح الزراعي والوحدة مع مصر.

اصابت انانية الضباط وقسوتهم وطموحهم السياسي سمعة الجيش الشعبية في الصميم وبدأ رجل الشارع يشبههم بانكشارية الامبراطورية العثمانية. وفي حلب مثلاً عندما سقط الضباط الاربعة قتلى بأيدي زملائهم هجم الجنود المظليون على جثثهم كالبواشق وجردوها من ساعاتهم وحافظات نقودهم واقلام حبرهم. وصدع الجنود بأمر ضباطهم فانزلوا العلم السوري ومسحوا به احذيتهم[٤٥].

ما من ريب في ان النتيجة كانت مخيبة للقاهرة. فقد انطلق راديو دمشق يصف ضباط

(٤٤) احيل المتهمون بالقتل الى محكمة الأمن العليا بتهمة القتل والخيانة العظمى والعصيان المسلح ومحاولة اقتطاع جزء من سورية واصدرت في ١٧ من كانون الثاني ١٩٦٣ على ثلاثة منهم حكماً بالموت. خفض عن احدهم الى الحبس المؤبد. وحكم على (جاسم علوان) غيابياً بالحبس المؤبد. وارسل لؤي الأتاسي ملحقاً عسكرياً في واشنطن لكنه اعتقل اثر استدعائه للشهادة في اوائل تشرين الثاني ١٩٦٢ بسبب دوره. واصرّ الجيش على تنفيذ حكم الموت بالمدانين، الا ان القدسي المعروف بلين العريكة وكرهه الاجراءات العنيفة أبى ودعمه (زهرالدين). وبقي الحكم في درج القدسي حتى الإنقلاب البعثي في ٨ آذار ١٩٦٣ الذي قام باطلاق سراحهم جميعاً.

(٤٥) من مطالعة المدعي العام (انظر ما سبق).

محاولة حلب بالخونة المارقين، خدم اسيادهم القاهريين[٤٦]. وعندما شيعت نعوش الضباط الأربعة القتلى في حلب بدمشق في الخامس من نيسان عقبت اذاعة دمشق:

"ليس هناك ما ينقع غلّة عبدالناصر الاّ الدم المراق."[٤٧]

وأُثبتَ عبدالكريم زهرالدين في منصبه. إلا أن القيادة الجديدة لم توفق في الإتيان بوزارة انتقالَ من تكنيين وإختصاصيين كما رغبت. إذ رفض المدنيون التعاون معهم أو بإشرافهم. وتحلى المواطنون السوريون بكثير من ضبط النفس الذي وقف حائلاً دون إشاعة الفوضى وآثرت الأحزاب لاسيما ذات الصوت العالي منها - كحزب البعث ان تخلد الى الهدوء وتلتزم الصمت لتأكدها من العواقب. بل دأبت منشوراتهم على إدانة المحاولات الناصرية. ولم يخف هؤلاء ولا الحزب الشيوعي غبطتهما من إنحسار ظل عبدالناصر.

أعطت الجماهير برهاناً رائعاً على المحافظة على إتزانها حين يفقد الحكام إتزانهم. وبقيت الحكومة تدار بالمدراء العامين ووكلاء الوزارات وأعلن عبدالكريم زهرالدين في ٧ نيسان بإسم الجيش انه لن يساهم في الحكومة المرتقبة وأنه يسعى الى المشاورة مع القادة السياسيين لتأليفها. وقد نصح بأن أول خطوة في هذا المضمار هو إعادة الرئيس القدسي. وفوتح بذلك وهو في المعتقل فأصر على عودة المجلس النيابي الذي انتخبه رئيساً وأبى إصدار مرسوم بحلّه. بالأخير وجد الحل الذي يحفظ ماء الوجه على الأقل. وإتفق على أن يعود المجلس الى الإنعقاد وأن يضمن القدسي استقالة جماعية لأعضائه بعد الإجتماع.

وفي ١٣ نيسان انتقل القدسي من السجن الى قصر الرئاسة. وقيل للصحافة ان الجيش والشعب رفضا استقالته. على ان النظام الدستوري لم يَعُد بعودة القدسي، وذلك الحَلّ الرقيع القاضي باستقالة مجلس النواب الجماعية لم يؤمن للحكومة الشرعية والقوة ولم يكن صحيحاً ادعاء القدسي بان معظم النواب قدم استقالته. والواقع هو ان قيادة الجيش و(رشيد برمدا) وزير الدفاع دارا على النواب بعريضة الاستقالة وكانت حصيلتهم من التواقيع حتى يوم ١٢ نيسان لاتزيد عن سبعين[٤٨]!

وفي ١٦ منه وقع ناظم القدسي مرسوماً بقبول استقالة الدواليبي واضعاً اليوم السابق على

(٤٦) نيويورك تايمز عن مراسلها من دمشق ٤ نيسان ١٩٦٢.

(٤٧) الحياة نيويورك تايمز ٨ نيسان: سارت تظاهرة ضخمة في تشييع الضحايا خلال دمشق وهي تهتف «لا اله الاّ الله ناصر عدو الله».

(٤٨) يدّعي زهرالدين (مذكراته ص٢٤٥) ان اكثر من نصف الاعضاء قد استقال. إلاّ ان وسائل الاعلام المختلفة اثبتت الرقم الذي اوردناه.

انقلاب الانفصال تاريخاً لها! واصدر في الوقت ذاته مرسوماً بتشكيل وزارة جديدة برئاسة بشير العظمة تضم أربعة عشر وزيراً[٤٩] لم يكن بينهم عضو واحد من اغلبية المجلس المنحل وكانوا إمّا بعثيين او تكنيين او مستقلين. وكوفيء البعث بثلاثة مقاعد على الأقل فضلاً عن الرئيس المتعاطف معهم. إلاّ انه لم يبد ذلك الحزب المتحدّ. فبعد الانفصال بفترة وجيزة انشعب الى جناحين بنتيجة انتخابات مؤتمره القوميّ الخامس المنعقد في كانون الأول ١٩٦١[٥٠]. وبضغط الظروف والشعور بالعزلة وفقدان المكانة والسمعة ابتعدت كتلة عفلق – البيطار عن كتلة الحوراني ودارت على عقبها بمائة وثمانين درجة اذ أصدرت في آيار ١٩٦٢ بياناً طالبت فيه اعادة الوحدة مع مصر، في حين راح الحوراني يشن هجومه ويقذف تهمه بوجه عبدالناصر. إلاّ ان ذلك لم يمنع (العظمة) من تمثيل الكتلتين في وزارته رغم انه كان يميل الى كتلة عفلق – البيطار.

بعد شهرين اعاد (العظمة) تشكيل وزارة ثانية في ٢٢ حزيران ١٩٦٢ بعد غربلة، وبقيت حتى متنصّف شهر أيلول من العام نفسه. كان الجيش يدعمها فضلاً عن اقلية ضئيلة آمنت باتحاد مشروط مع مصر، ومنها اولئك الذين كانوا يرغبون في تطبيق القوانين الاشتراكية[٥١] وهو ما انجزته تلك الوزارة ببعض تحفظ. إلاّ انها فشلت في تحقيق الفقرتين من المنهاج الذي وضعته لنفسها: اتحاد مشروط مع مصر، واعادة الحياة البرلمانية.

في تلك الاثناء حاولت فئة الضباط الضغط على الحكومة بهدف العودة إلى الوحدة. وبدت بوادر تمرّد عسكري لبعض ضباط اللواء السبعين المرابط في (درعا). اذ طلبوا في نيسان

(٤٩) طبيب كان استاذاً للامراض الصدرية في كلية الطب السورية. وقد أشرنا بأنه عين إثر الوحدة وزيراً للصحة في حكومة (ج.ع.م) المركزية الأولى.

(٥٠) بدأت البلبلة في صفوف البعث عشية الانفصال. ففي الوقت الذي قابلت القيادة القومية الحدث بصُمت الرضا والارتياح. اصدرت القيادة القطرية العراقية في ذات اليوم بيانا ادانت فيه الانفصال ورفعت راية الوحدة [يأتي الفكيكي احد الذين اعدوا البيان الى وصف المشاعر التي انتابتهم في ١٨٤ المرجع السالف: "كان الشعور مزيجاً من احاسيس متعددة. فمن جهة سقط واحدٌ من احلامنا القومية الكبيرة. ومن جهة طفا على السطح خوفنا من تأثير الانفصال على وضعنا في العراق ومشروعنا لتسلّم السلطة، كذلك انتابتنا مشاعر الندم ومراجعة النفس في صدد سياسة النقد السلبي التي اتبعناها حيال عبدالناصر من دون ان تكون هناك بدائل محكمة تبقى بها الوحدة وتستمر».

(٥١) أمم اتحاد الشركات الصناعية والتجارية (الشركات الخمس الكبرى المعروف الخماسية) ثم امت البنوك الاجنبية وشرطت امتلاك الدولة ٢٥٪ من رأسمال البنوك الوطنية وحدد قيمة اسهم المساهم بما لايزيد عن (١٧٥٠٠٠) ليرة سورية. واصدرت في آيار قراراً بنظام لتوزيع ٢٥٪ من ارباح الشركات على عمالها وموظفيها. وقامت بتوزيع القطع المستملكة على عدد من الفلاحين. كان عمل هذه الوزارة اشبه بمغازلة لعبدالناصر وتقرباً اليه سيما بعد اعلانه ما عرف في حينه «بالميثاق القومي للاشتراكية العربية» في ٢١ من آيار (مايس) ١٩٦٢.

تطبيق مقررات مؤتمر حمص العسكري. ناشدهم (القدسي) والقيادة بالتحليّ بالصبر الى مابعد عيد الاضحى، وما مرّ العيد إلاّ ووجدوا أنفسهم في سجن (المزّة). ورفض ضباط آخرون في حامية حمص الانصياع الى اوامر تعيينهم بملحقيات خارج البلاد، فأعتقلوا واودعوا السجن[٥٢]. واقدم بشير العظمة على خطوة ذليلة وجدها كثيرٌ من السياسيين السوريين اهانة لشرف بلادهم، خطوة فردية اقدم عليها بعد فشله التآم في تهيئة إسنادٍ جماعيّ لها. فطلع فجأة وفي السادس من حزيران بدعوةٍ الى اتحاد فدرالي سوري مصري، في الوقت الذي كانت القاهرة تواصل هجماتها الاعلامية الجائحة على النظام السوري. ولم يأبه عبدالناصر بدعوة (العظمة) وبدأ وكأنه لم يسمعها واهمل الردّ او التعليق زيادة في التحقير. وضاعت صرخة المسكين في اجواء التشهير. على ان الرئيس المصري أوعز الى محمد حسنين هيكل بالاجابة فكتب مقالة بتاريخ ٨ من حزيران (يونيو) في الاهرام عنوانها "جواب القاهرة لكل من يدعو الى الوحدة في دمشق". اوضح فيه ان ايّ بلد أكان سورية أو غيرها إن شاء الوحدة مع مصر فعليه اوّلاً ان يطبق برامجها الاشتراكية العربيّة. اوّلاً وقبل كل شيء".

وثارت ثورة رجال السياسة السوريين إثر الازدراء الذي واجهته مناشدة (العظمة) سيما بعد نشر مقالة هيكل وفي الوقت الذي كانت وسائل الاعلام الرسميّة منشغلة بالدفاع عن سمعة الوطن ازاء هجمات القاهرة وطعونها والمؤامرات المتواصلة التي تنسجها لإشاعة الفوض والبلبلة فيها. وقالوا ان الرجل خولط في عقله. ودعا بعض المتفكهين الى ايداعه مستشفى العصفورية (مستشفى المجانين) بدل مقعد رئاسة الحكومة.

في التاسع من حزيران اجتمع لفيف من كبار الساسة في منزل (خالد العظم) ثم قصدوا جميعاً دار الرئاسة وقدموا احتجاجاً للقدسي على اقتراح (العظمة) وعلى سياسته بصورة عامّة.

في ذلك الحين كانت اجهزة الأمن السورية تكافح كفاح المستميت في احباط الدسائس والمؤامرات التي تحبك للبلاد عبر الحدود. وقد اتخذت اجراءات حازمة للحيلولة دون تسرّب وكلاء عبدالناصر عبر لبنان ومنهم الضباط المسرحون الذين يقودهم (جاسم علوان) والانصار القوميون اللبنانيون، والمرتزقة ومثيرو الفتن الانتهازيون. كل هذه الفئات كانت عناصر تخريب ترمي إلى شلّ الحركة الاقتصادية والانتاج في قطاع العمل وخلق الفوضى والاحتراب المدني. مثلما جرى في لبنان ١٩٥٨. واعيد تمثيله في العراق في ١٩٥٨–١٩٦٠ والسودان في

(٥٢) البيان الرسمي الخاص نوه باعتقال ١٩ ضابطاً. في حين تحدثت الاشاعات عن اعتقال ٦٣ [الحياة ٢٦ نيسان ١٩٦٢].

١٩٥٦[٥٣].

وقع السوريون في حيرة من موقف الولايات المتحدة الغريب المريب في مساندتها عبدالناصر واستعصى عليهم تفهمّ سياستها هذه. كان الأحرى ان ندهش نحن لعجزهم عن تفهم موقفها. انها تعيد الى الذهن بالضبط مثلما حصل لمراسل جريدة (المورننگ پوست) في لندن اثناء مقابلة طريفة جرت لها مع السفير الفارسي ميرزا ابو الحسن الشهير قبل قرن ونصف قرن، ودونك الحكاية: عرف هذا السفير عندما جاء لندن في ١٨٠٩ بذكاء خارق وسرعة بديهة ساعدته على تعلم الانگليزية بزمن وجيز الى حَدّ التفاهم بها خلال اقامته. وعاد الى بلاده ومازالت معضلة واحدة تشغل باله استعصى عليه حلّها "لماذا يعمد سُراة الانگليز ونبلاؤهم الذين يسوقون عرباتهم بانفسهم – الى الاصرار على البقاء في مقعد القيادة المكشوف حتى وقت هطول المطر بدل التحول الى الداخل؟" لم تستطع جريدة المورننگ پوست اقناعه بأنها تلك الروح الرياضية روح تحدّي عناصر الطبيعية التي يتحلّى بها الانگليز.

رفض السوريون كالميرزا ابي الحسن وما اكثر الساسة والمفكرين الاذكياء فيهم أن يجدوا تعليلاً لهذه السياسة. وواصل كتابهم وصحافتهم التظلم من الموقف الامريكي بشدّة. في تلكؤها في الإعتراف بالنظام الجديد حتى اخذها الموافقة من عبدالناصر. ونعوا عليها سكوتها المطبق عن المؤامرات ومحاولات التخريب التي كانت تنقل الى الراي العام الامريكي عن طريق وكالات الانباء والمراسلين. وظهرت في صحف دمشق تعليقات حادة ومناشدات لتعديل تلك السياسة. ووجهت رسائل مفتوحة من كتاب ومواطنين سوريين الى السفير الامريكي في كلّ من بيروت ودمشق عبروا فيها وعن دهشتهم من التناقض الواضح بين تعلق الشعب الامريكي بالحريات وبين المساندة التي تخص حكومتهم بها هذا "الفرعون الصغير خانق الحريات ومغتصب الملكيات ومهدد أمن وسلامة البلاد الأخرى"[٥٤].

(٥٣) تصاعد نشاط الوكلاء الناصريين في سورية ولبنان اعتباراً من شهر تموز حتى ساد اعتقاد بان النظام المصري يعدّ عملاً تخريبياً واسع النطاق في سورية بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة لثورة يوليو. ففي ٢١ منه كشفت قوات الأمن خطة انقلاب ترمي الى اطاحة الحكومة والقت القبض على معظم المخططين الذين كانوا على صلة بالسفارة المصرية في بيروت. وشملت شخصيات بارزة مدنيّة وعسكرية بعثية وناصرية. كانت هناك خطة ثانية أيضاً لعين الغاية رسم لها التنفيذ ليلة ٢٨–٢٩ يوليو. لكنها كشفت والقي القبض على مدبّرها [يوسف مزاحم] الذي ادلى باعتراف تضمن تفاصيل الخطة. يتحدث عبدالكريم زهرالدين باسهاب عنها [المرجع السالف: الص ٢٨١ و٣٠٤. كذلك الحياة: ٢٢ تموز. والنصر ١٦ آب ١٩٦٢] اوردت الصحف السورية كافة تفاصيل عن المؤامرتين. كما سجلت حوادث انفلاق قنابر كتلك التي فجرت بمقهى في حماة يوم ٨ من ايلول فجرحت ٢٥ شخصاً.

(٥٤) النصر ١٣ تموز. كثيراً ما قرئت آنذاك في الصحف نعوت واوصاف معيبة للزعيم المصري. كتشبيهه =

كان الحَلّ أبسط من اي تعليل قد يقنع [ميرزا أبو الحسن] إزاء مشكلته. فالولايات المتحدة في اوج تصاعد الحرب الباردة حينذاك، كانت على استعداد للتضحية بالكثير ارضاءً لعبدالناصر الذي يشنّ حربه الشعواء على الاتحاد السوڤياتي وعلى الشيوعية والشيوعيين في الشرق الأوسط وقتذاك.

وقفت الحكومة العظمى مكتوفة اليدين وباعصاب منهارة تراقب عن كثب المعركة بين انصار عبدالناصر وخصومه. وقد نأى الجيش بنفسه عنها وابى ان يتدخل فيها. ونفخ الموقف في صدر عبدالناصر ريحاً جديدة فانتقل من حبك المؤامرات السرية الى التدخل والهجوم السافر[٥٥] ناعتاً حكامها بالرجعيين والانتهازيين مشيداً بالجيش السوريّ والشعب السوري في عين الوقت!:

"... ان الشعب السوري كان دائماً هو الذي حمل فكرة الوحدة. وان الجيش السوري كان دائماً الجندي المخلص الذي وقف ضد الامپريالية... إن انحلال الوحدة لايشير في الواقع الى الفشل... لقد قررنا ان لا نتدخل في سورية لاننا نثق بالشعب السوري وقد تعلّمنا درساً من الوحدة ولسنا بآسفين قط منها مادامت مصر تؤمن دائماً بالقومية العربيّة."

وكان على (العظمة) أن يستنجد ببقية شجاعةٍ ويعمل شيئاً[٥٦].

في ٢٩ من تموز طلبت الحكومة السورية عقد اجتماع لمجلس الجامعة العربية "لتقدير الموقف الذي نجم عن اقوال واعمال استفزازية صادرة من حكام القاهرة ضدّ الجمهورية العربيّة السورية، مما يشكلّ عدواناً صريحاً على سيادة سورية وكرامة شعبها".

= بمسيلمة الكذاب (اوائل الاسلام) وبكافور الاخشيدي وهو العبد الحبشي الذي حكم مصر في القرن العاشر وخلده هجاء المتنبي. كما اظهرت له رسوماً كاريكاتورية تمثله بشكل (دون كيخوتي) يطاعن طواحين الريح. او كطفل يجلس في احضان (العم سام). ولقبته بـ"مصاص الدماء" و"الطبل الاجوف" و"الخدعة الكبرى" و"محطّم القومية العربيّة". واتهم بتطبيقه على سورية سياسة الأرض المحروقة التي اتبعتها فرنسا في الجزائر. ونشرت جريدة النصر في ١٠ من تموز (يوليو) نداء الى الشعب موقع من مجموعة كبيرة من الادباء والفنانين والكتاب. بأن لايهادنوا ابداً الدكتاتورية التي تستعبد البشرية وتستغل مجهوداتها.

(٥٥) خطبته في القاهرة (٢٦ يوليو) وفي الاسكندرية (٢٧). اوحظ انه كان يذكر سورية وكأنها جزء من (ج.ع.م) بالاشارة اليها باسم الاقليم الشمالي.

(٥٦) مما يجدر ذكره بالمناسبة ان العظمة منح صديقه البيطار امتياز جريدة مالبث ان انقلبت بالاخير لتكون لسان المعارضة للعظمة ووسيلة دعاية لعبدالناصر. ولوحظ انها امسكت عن نشر اي نبأ او شيء من وقائع محاكمة الضباط الناصريين الذين اشعلوا نار الفتنة في حلب.

وفي ٢٢ من آب (اغسطس) التأم مجلس الجامعة في شتورة وعرض الوفد السوريّ سبع وثائق تدين مصر بالقيام بالتحريض على الثورة واشاعة الفوض وعلى إنفاق الاموال لإشاعة الارهاب وأعمال التخريب والتآمر على الكيان السوري. كرر المندوب السوري امين النفوري هذه التهمة مدعمة بالوثائق واضاف قائلاً:

"أُخرج من سلك الخدمة في الجيش طوال فترة الوحدة اكثر من ١١٠٠ ضابط و٣٠٠٠ ضابط صفّ. ونقل الى مصر ٥٠٠ ضابط لم يكن لديهم ما يعملونه هناك غير قراءة الجرائد في دوائر عملهم، وعيّن مكان الضباط السوريين اكثر من ٢٣٠٠ ضابط مصري يتقاضى اصغر ضابط رتبةً فيهم ٨٠٠ ليرة سورية. في حين يقلّ راتبه عن نصف هذا بالعملة المصرية وهو في مصر."

ومما ذكره ايضاً:

"ان مدرسة التدريب على الطيران الحربي في حمص نقلت الى مصر وكانت تخرّج ما بين ٢٠ و٣٠ طياراً سنوياً قبل الوحدة. في حين لم يُكمل التدريب في مصر غير خمسة طيارين مصريين طوال سنيّ الوحدة."

وقال:

"ان الضباط المصريين الذين اعتدوا على شرف الطالبات السوريات، لم يقدموا الى مجلس عسكري بعد انهاء التحقيق وانما إكتفي بنقلهم الى مصر..."

وتبودلت العبارات الحادة والاتهامات بين الوفدين السوري والمصري وكان واضحاً ان مندوبي الدول الناطقة بالعربية الأخرى يتعاطفون مع الشكوى السورية، لكن ظِلّ عبدالناصر كان يخيّم وينشر الرهبة في القلوب. فلم ينل مشروع القرار السوري بالادانة موافقةً وعصف الغضب بالوفد المصري فترك الاجتماع. ولم يجد المجلس في نفسه الشجاعة الكافية لفحص الادلة والوثائق التي عرضت عليه، وقرر حذف العبارات القاسية التي تبودلت اثناء الجلسة من محاضر المباحثات، ثم انفضّ الاجتماع تاركاً الموضوع دون اتخاذ ايّ قرار[٥٧].

وزارة خالد العظم التي عقبت استقاله العظمة[٥٨] في ١٧ من أيلول كانت كما وصفوها

(٥٧) اصدرت وزارة الخارجيّة السورية عقب مؤتمر الجامعة العربيّة في شتورة كرّاسة بعنوان [وثائق شكوى سورية من التدخل الناصري]. واسهبت الصحافة الدمشقية في التعليق على موقف الجامعة الذليل واعربت عن خيبتها في هذه المنظمّة بل وفي جدواها.

(٥٨) يخرج عن نطاق هذا الكتاب استعراض الوقائع والارهاصات السياسية التي ادت بالعظمة الى الاستقالة وهي كثيرة التعقيد ويكفي القول ان ارادة الجيش في ذلك لم تكن صغيرة التأثير. فقد اشترط ان =

«وزارة وحدة وطنيّة اذ تمثلّ فيها معظم الاحزاب. لكن ممثل الكتلة العفلقية من حزب البعث ابى المشاركة واستقال". قال خالد العظم متوّجها الى مجلس النواب القديم الذين جمع لآخر جلسة – ان وزارته ستعمل لتحقيق الوحدة العربيّة، واعلن عن تصميمه على اعادة الحياة البرلمانية وحرية العمل الحزبي "فلا ديمقراطية بدون تعددية حزبية". وقال انّ الشعب السوري بمجموعه لايتبع مجموعة معينة مهما بلغت من قوة، لذلك فان فكرة قيام الحزب الواحد لن يكتب لها نجاح وكان يقصد بدون شكّ حكم عبدالناصر او الحكم العسكري.

إلاّ ان حكومته لم تستمتع بفترة كافية من صفاء الذهن لتبدأ بتنفيذ ما تعهدت به أو لقياس مبلغ صدقه فيما وعد. فقد استغرقت اهتماماته الحملة الاعلامية المتواصلة من القاهرة وتعقيب المؤامرات الصغيرة منها والكبيرة. إذ حلفت القاهرة يميناً بأنْ لاتترك للنظام السوري راحة أو فرصة لالتقاط انفاسٍ. ثم واجهت الوزارة مزاج قادة البعث الزئبقي المتحول. فخلاف الضباط الناصريين المسرحين والموظفين الوحدويين المُقالين كانت هناك كتلة عفلق – البيطار التي رفعت شعار "الاخطاء التي رافقت الوحدة لاتبرر تحطيم الوحدة". ولم يكن للبعث حين رفع هذا الشعار ايّة فكرةٍ عن كيفية اقامة الوحدة مجدداً. ولم تتضمن بياناته وادبيّاته اقتراحات عملية لأُطرٍ معينة.

واشتد ضغط القاهرة خلال عمر هذه الوزارة القصير. وعمل البعث يداً بيد على نسف الحكومة والقضاء على السيادة السورية معها. وفي تشرين الاوّل (اكتوبر) دعا راديو القاهرة الطلاب السوريين الى التظاهر والاعتصاب والإضراب، وبث اشاعات كاذبة وأنباء ملفقة عن طرد العُمال من المعامل ودعا الى الاضراب والتظاهر. وحصلت تظاهرات في دمشق وبعض المدن الاخرى استخدمت فيها الاسلحة النارية والجارحة وقتل جرّاءها طالبان فضلاً عن عشرات من الجرحى.

وفي غضون ذلك واجهت الحكومة الفضيحة التي عرفت بـ"فضيحة الكتب الدراسيّة". فقد تبيّن ان بعض الكتب المقررة للتدريس مازالت تتضمن نصوصاً من خطب عبدالناصر ومقتبسات من أقوال حكامها. وكانت وزارة التعليم هي المسؤولة عن طبعها. وقد كتب عليها ما يشير الى ذلك (مديرية الكتب الدراسيّة) كما ابقي على الاسم القديم فيها (الاقليم

= يضطلع (زهرالدين) بصلاحية وسلطة وزير الدفاع وان يحتفظ العظمة بمنصب نائب رئيس الوزراء وسلمت القيادة العسكرية العَظمَ قائمةً باسماء من وجب عليه ان يختار منها اعضاء وزارته. ومع انه لم يتقيد واختار بعض زملائه من خارجها، الاّ انه اضطر الى احترام ڤيتو الجيش على بعض الشخصيات. وذكرت الحياة (١٨ أيلول) اسماء الدواليبي وليون زمريا ورشاد جبري من بين الذين شملهم ڤيتو الجيش [راجع ايضا زهرالدين الص٣٢٤–٣٢٥].

الشمالي للجمهورية العربية المتحدة) رغم اثبات عام الطبع (١٩٦٢) اي بعد تمام الانفصال بسنة واحدة. لم يكن لهذا غير معنى واحد، وهو ان عناصر في مركز المسؤولية بوزارة التعليم مازالت تعمل لحساب عبدالناصر[٥٩].

وبقيت وزارة خالد العظم ازاء الهجمات الناصريّة في وضع دفاعٍ لاتتخذ ايّ اجراء فعّال، إلا عندما يهدّد النشاط التخريبي الأمن العام تهديداً مباشراً. كما كانت تصدر تصريحات دفاعية من راديو دمشق جوابا على اذاعة «صوت العرب» ومقالات جريدتي «الاهرام» و«الجمهورية» القاهريتين وغيرها. واصدر بعض المؤلفين كتباً في فضح الخطط الناصرية. ولقي كتاب «الكتاب الاسود» رواجاً لم يلقه مؤلف آخر[٦٠]. وكتاب آخر عنوانه «بدأ عبدالناصر في دمشق وانتهى في شتورة». وإجترأ بعض الصحف فحمل على الزعيم المصري في فترات متقطعة[٦١] وظهرت مقالات في الغرض عينه باقلام سياسيين معروفين.

★★★

لم ينته دور النحلاوي كما يبدو. فقد قدرت له البطولة في مشهد انقلابيّ آخر يوم ١٣ من كانون الثاني ١٩٦٣.

كانت قيادة الجيش وراء وزارة العظم في وأد اعمال الشغب الناصريّة، إلاّ انها بقيت عاجزة عن السيطرة على الوضع. وبرهنت الاحداث بأنها مظهر فقط وليست واقعاً. وقد كشف زهرالدين نفسه بأنه كان ضحية خداع مدير الشعبة الثانية (الاستخبارات) المتآمر ضدّ النظام، وانه لم يكن هناك تعاون بين مسؤولي الأمن الداخلي وبين استخبارات الجيش[٦٢].

إلاّ ان محاولة القيام بانقلاب، لم تنشأ داخل القطر السوري. وكان قادتها وهم الضباط السبعة المبعدون قد عينوا في وظائف دبلوماسية إثرَ ابعادهم في شهر نيسان. وكان النحلاوي أيضاً رئيساً للمحاولة. وقد ظهر أن رجال عبدالناصر حققوا صلة بهم وهم في مراكز اعمالهم عندما علموا بأن هؤلاء الضباط تقدموا بمطالب ذات طابع سياسي وعسكري من حكومة العظمة، وبأن الحكومة قررت في الأول من شهر آذار (مارس) احالتهم على التقاعد ونقلهم الى ملاك وزارة الخارجية نهائياً. إلاّ ان انصارهم من صغار الضباط. احدثوا هرجاً ومرجاً عند

(٥٩) تم تمزيق الصحائف «السيئة فحسب». وجرى تحقيق سرّي لم تعلن نتيجته.
(٦٠) طبع طبعتين وبيع منه اكثر من ٢٥٠٠٠ نسخة.
(٦١) امين النفوري واكرم حوراني مثلاً.
(٦٢) المرجع السالف المذكرات الص ٣٤٣–٣٤٨.

علمهم بهذا، فرأت الحكومة ان تؤجل القرار. على انها نفذته فعلاً في اوائل كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٦٣. فما كان من الضباط السبعة إلاّ وتركوا محلاّت عملهم واجتمعوا في تركيا ثم في ٩ من الشهر عبروا الحدود وحاولوا استنفار الوحدات التي كانت في السابق بأمرتهم للقيام بانقلاب وهم على ثقةٍ من تجاوب فئة من صغار الضباط بوحداتهم القريبة من دمشق. وقيل ان العقيد (زياد الحريري) المهيء من جانبه لإنقلاب قد شجع مجموعة النحلاوي بغية زجّهم في محاولته، وبنيّة ازاحتهم بعد نجاحه. وعلى نحو مشابه لهذا ذكروا ان الفئات "اليمينية" من الضباط المساندين للحكومة ومن ابرزهم العقيد (مطيع السمّان) مدير الأمن، شجعت محاولة النحلاوي بهدف التخلص من عبدالكريم زهرالدين ثم التخلص من النحلاوي نفسه والقضاء على محاولته. وهذا يفسّر سهولة دخول النحلاوي الأراضي السورية من مخفر البوليس الحدودي بيسرٍ والبقاء في دمشق اسبوعاً دون حرج او خوف[٦٣].

كان زهرالدين قبل عودة النحلاوي قد انذر آمري الوحدات في قَطَنا وقبوّن والكسوة، بنشاط انصار النحلاوي بين صغار الضباط في وحداتهم، إلاّ انّ القيادة فوجئت بعد ظهر الثالث عشر من كانون الثاني بقيام هؤلاء الضباط الآخرين. وطلبهم من الحكومة إعادة النحلاوي وصحبه الى الخدمة الفعلية في الجيش، وتنفيذ مقررات مؤتمر حمص العسكري بما في ذلك من اجراء استفتاء عام حول الوحدة مع مصر. واجراء تغييرات بمناصب القيادة العليا. كان هؤلاء دون شك على علم بشروط عبدالناصر لقبول الوحدة مجدداً، وهي تبنيّ نظامه الاشتراكي. وانجاز الثورة الاشتراكية والسياسية في البلاد التي تريد الوحدة[٦٤].

وقبلها كان النحلاوي ورهطه قد قدموا مطالبهم للحكومة بعد عودتهم مباشرة. فوعد القدسي بدراستها بجدية كسباً للوقت. ثم ارسلت باقتراح من القدسي زمرة من الضباط لنصح المعتصبين بالكفّ. لكن ما ان علم (زهرالدين) ان عدداً من دباباتهم قد انطلقت من معسكري قَطَنا والكسوة نحو دمشق – حتى اصدر امراً لكتيبة مصفحات بالدفاع عن مقر القيادة العليا وسحق الهجوم.

يذكر زهرالدين انه ذهب الى القصر الجمهوري في اواخر عصر ذلك اليوم ليحتج للقدّسي على عدم اهتمام الحكومة بما يحصل وباهمالها اعتقال زمرة النحلاوي ولم يصدّق عينيه اذ رأى النحلاوي وجماعته بالذات وهم في معيّة القدسي وهو ينصحهم ويحاول ان يقنعهم بفساد

(٦٣) زهرالدين: المرجع السالف ص٣٤٨ وما بعدها.
(٦٤) اعلن عبدالناصر شروطه هذه في آذار ١٩٦٢. وكررها في كانون الثاني ١٩٦٣ ونقلتها جريدة النصر في ٢٠ منه.

مسعاهم. وشاركه زهرالدين وانذر النحلاوي بان قوات الجبهة الجنوبية فضلاً عن حاميات حمص واللاذقية وجبل الدروز في حالة انذار واستعداد لإسناد القيادة. ثم اتصل تلفونياً بالضباط القائمين بالحركة وانذرّهم بوجوب الاستسلام قبل فجر اليوم التالي.

لم يكن عددهم يتجاوز الثلاثين، وأرفعهم درجة برتبة نقيب. واسقط في يدهم عندما وجدوا تصميماً من قائدهم الاعلى على استخدام قوات موالية متفوقة وعندما خذلهم اولئك الذين وعدوهم بالاسناد كالعقيد [زياد الحريري] الذي اسرع فنأى بنفسه عنهم بل هددهم بالزحف نحو دمشق لردّهم. وتمّ استسلامهم في الثالثة صباحاً.

وختمت محاولة النحلاوي الأخيرة في املاء شروطه على الحكومة أو في اسقاطها. لم يُعتقل النحلاوي وصحبه ولم يحاكموا بل اعيدوا الى سفارات اوروبية بمنصب مستشارين بعد خمسة ايام فقط. امّا الضباط القائمون فعلاً بالاعتصاب فقد اطلق سراحهم جميعاً بعد قضائهم شهراً ونصف شهر رهن الإعتقال. وبدت الانقلابات بعدها مجرد لعبة لاتنطوي على خطر كبير.

الفصل الحادي والثلاثون

اليمن . المجتمع اليمني المتأخر حضارياً . الإمامة ونظام الإمام . الحكم المطلق . تاريخه واصوله . شرعيّته . الوضع السياسي . المعارضون في اليمن الجنوبي . محاولات انقلابية على حكم الإمام . استقلال البلاد التام بعد الحرب العامة الأولى . نشوء الطبقة المثقفة والوعي السياسي . مناقشة السلطة الإمامية المطلقة . الوضع الداخلي المزري . جيش الإمام القبائلي . منافسو الإمام والمنتقضون عليه . اليمن الجنوبي موئل المعارضة . تنظيم سياسي "الجمعية الوطنية العظمى" برنامج إصلاحي فحسب لايتعرض لنظام الإمامة . مطالبة بسن دستور للبلاد وتحديد سلطة الإمامة . المحاولة الانقلابية الأولى ومقتل الإمام يحيى . مبايعة الإمام إبراهيم . عبدالله الوزير . انقلاب معاكس يقوده الإمام أحمد . اقتحام صنعاء واستباحتها . إعدام الانقلابيين . انقلاب الثلايا وخلع الإمام . الفشل . دور (ج .ع .م) . البيضاني . إصلاحات ولي العهد (البدر) وزياراته الدول الاشتراكية ، فتحه البلاد للمشاريع العامة بوجه الأجانب . قصة الانقلاب الفاشل . وفاة الإمام واستخلاف البدر . انقلاب عبدالله السلال وهروب الإمام البدر ونشوب الحرب الأهلية . إعلان الجمهورية . النزاع الداخلي على المراكز والسلطة . برنامج السلال . التدخل المصري . القوات المصرية تنزل أرض اليمن . الموقف السعودي من الانتصار للبدر . تصاعد عدد الضحايا من الطرفين . اليمن واحدة من المشاكل الدولية

الحديث في اليمن هنا سيكون مركّزاً حول تورط القوميّة العربيّة الناصرية عسكرياً وعقائدياً في النزاع المسلّح الذي نشب عقب اطاحة نظام الإمامة واقامة النظام الجمهوري. ولكن قد لايكون خروجاً عن الصدد تزويدُ القاريء بشيء عن تاريخ الإمامة والالمام بالوضع الاجتماعي الذي سبق الانقلاب في تلك البلاد.

الانقلاب العسكري الذي تزعمه العقيد عبدالله السلاّل في ٢٦ من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٢ ضد الحكم الامامي التقليدي الاجتماعي، سبقته محاولتان مماثلتان فاشلتان أولاهما في ١٩٤٨ وثانيتهما في ١٩٥٥. وهو ما دعا بعض الكتاب اليمانيين المعاصرين الى الحديث عن

مراحل ثورةٍ ثلاثية[١].

على ان الانقلاب الأخير كان يختلف عن سائر الانقلابات العسكرية التي اجتاحت بعض البلاد الناطقة بالعربيّة، بان النظام الجمهوري المعلن إثرها لم يبق في سلام بل ظلّ موضع تحدٍّ من الإمام المخلوع ونجمت عنه حرب أهلية طويلة الأمد.

منذ العام ٨٩٨م = ٢٨٦هـ استقلّ بحكم اليمن إمام من نسل (الهادي يحيى العلوي) حفيد (القاسم الرّسي) وتعاقب من هذه الأسرة (٦٧) إماماً دون انقطاع كان آخرهم المنصور بالله (محمد البدر). وهؤلاء الائمّة استندوا في شرعية سلطانهم الديني والدنيوي بوصفهم الزعماء الروحانيين لطائفة "الزيدية" وهي من الشيعة المعتدلة[٢]. ومع ان القاعدة العامة في الإمامة عند هذه الطائفة تشترط اختيارها الامام لميزات خاصة يبرز فيها على غيره من طلاّبها بين افراد الأسرة. إلاّ انها مع هذا بقيت وراثية متعاقبة. رغم النزاع الدموي الذي تواصل في عهد أئمة أربعة بين العامين ١٨٥٣ و١٨٩٠م.

وقنعت الحكومة العثمانية من اليمن وأئمتهما بالسيادة الإسمية وتركت للامام الحكم الفعلي لقاء خراج معين يدفعه سنوياً. على ان [المتوكل بالله يحيى حميدالدين ١٩٠٤-١٩٤٨] وفقّ للفوز بحكم ذاتي بموجب اتفاق (مَرعان) في العام ١٩١١. ونالت اليمن استقلالها الكامل بعد الحرب العالمية الأولى وامتدّ حكم [الامام يحيى] ليشمل اوسع رقعة بلغتها سلطة ماقبله. واقدمت بريطانيا في العام ١٩٣٤ على الاعتراف باليمن المستقل وبإمامها ملكاً، ويعني هذا بالنسبة له كلّ اليمن ويدخل فيها ما اطلق عليه القوميون العروبيون اليمانيون "اليمن الجنوبي المحتل" ويقصدون (عدن) إلاّ ان اليمن بنظر بريطانيا بقيت تلك الرقعة من الأرض الى عَدّها العثمانيون ضمن امبراطوريتهم.

ورسمت معاهدة الطائف مع السعودية في العام نفسه (١٩٣٤) حدوداً واضحة بين الدولتين ووجب على الإمام يحيى بموجبها ان يعترف بالتوسع السعودي في (نجران) و(عسير) شرقاً وشمالاً على التوالي.

(١) احمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ. القاهرة ١٩٦٤ ص٥١٦ وما بعدها.

(٢) هم اتباع زيد ابن علي ابن الحسين الإمام الثالث. ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة الزهراء ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم. لكنهم اشترطوا على الامام ان يكون عالماً زاهداً، شجاعاً سخياً سواء أهو من اولاد الحسن أو الحسين. قضى زيد قتيلاً في عهد هشام ابن عبدالملك الأموي وصُلب بكناسة الكوفة في العام ٧٤٠م. كما قتل الهادي يحيى ابنه في خراسان. وأئمة اليمن ينتسبون اليه. [للمزيد من المعلومات راجع الشهرستاني: الملل والنحل ج١ الص ١٣١ وما بعدها. القاهرة ١٩٥٦ بتحقيق محمد فتح الله بدران.

إلاّ ان الوطنيين اليمانيين بعد زوال حكم الامامة عدواً المعاهدتين بمثابة استسلام لبريطانيا جنوباً وللسعودية شمالاً وعزوه الى ضعف الامام يحيى. وفي لغتهم عزوها "الى طبيعة الدولة الرجعيّة الاقطاعية الدينية التي تتسم بها الاماميّة. العاجزة عن فرض الوحدة بطريق التحرير الليبرالي[٣]".

نفاد الصبر العام من حكم الإمامة أخرج شِطْئَه في أثناء الحرب العالمية الثانية بتأثير طليعة من الشباب المثقف في اليمن الجنوبي التي كانت تتمتع بحرية واسعة حرم شباب اليمن منها نهائياً. فقد فسح الانتداب البريطاني وهو الاستعمار بلغة القوميين – المجال لإرتياد مناهل العلم بشتىّ فروعه، وسهل على كثيرين الدراسة العلمية في الخارج، وهو ما كان يفتقد أيامذاك في السعودية واليمن. كان الإمام يرى في الدراسة والتحصيل العلمي العام آفةً وبدعة من بدع الكفار. ولا عجب ففي عشية الإنقلاب كان ثم ما يزيد عن ٩٠ بالمائة من السكان أميّاً. واتبع الحكم سياسة العزلة التامة واغلق ابوابه في وجه الأجانب وقاوم مقاومة عنيدة اي تغيير في بناء المجتمع. وكان الاستبداد بالحكم مطلقاً. حتى وصفت اليمن بانها اكثر البلاد عزلةً على وجه الأرض[٤].

قام [رالف پانچ] مبعوث الأمم المتحدة بزيارة لليمن بعد انتهاء مهمته في الكونغو. وقال لبعض الساسة المصريين وهو في طريق العودة:

"ذهبت الى الكونغو ورأيت بعيني جرائم الامپريالية. لكن عندما جئت اليمن قلت لنفسي ياللخسارة العظيمة أن تُحرم هذه البلاد من شيء من الامپرياليّة."[٥]

واتيح لقلّة من التجار والموظفين والتلاميذ الاطلاع على العالم الخارجي وشعروا بالتأخر العظيم بالمقارنة مع البلاد الناطقة بالعربيّة بكل ما في مجتمعاتهم من نهضة ثقافية في مجال

(٣) محمد علي الشهري: طريق الثورة اليمنيّة. دار الهلال – القاهرة ١٩٦٦ ص٤٣.

(٤) هارولد إنگرامز: اليمن. الائمة، الحكام، الثورة. لندن ١٩٦٣ ص٦ وما بعدها Harold Ingrams: The Yemen: Imams, Rulers, Revolution.

٥– وثائق قاهرية. المرجع السالف ص١٨٩. «يقصّ عبدالناصر هذه الحكاية عن الله الذي نزل من السماء يرافقه رئيس الملائكة جبرائيل ليرى كم حصل من تطور على العالم منذ ان خلقه وتجولا في أفق الأرض على سحابة ونظر الله الى الاسفل وقال انا لا اعرف هذا المحلّ. فاجاب جبرائيل انه انگلترا «فاظهر الله عجبه بقوله لكم تغيرت لم اعرفها» ثم انتقل الى الولايات المتحدة وسأل الله «اين تكون هذه؟ اجاب جبرائيل «أنسيت؟ هاتان الجزيرتان الكبيرتان اللتان خلقتَهما في آخر المطاف. رد الله: لكنهما تغيرتا كثيراً انظر الى مابَنوه هناك؟» وحصل عين الشيء عندما لاحت لهما مصر وشاهدا الاهرام. وبالأخير بلغا بلاداً عرفها الله فوراً وقال: هذه هي اليمن. بقيت مثلما كانت في اليوم الأول الذي خلقتُها» المرجع نفسه ص١٨٨.

الصحافة ودور النشر والمعاهد التكنية، وبالاقتصاد المعقّد المتطور ومستوى المعيشة المرتفع، وحزّ في نفوسهم الجهل والتأخير في جوّ الحكم المطلق الخانق للحريات الذي تشيع في جوانبه ريح الاغتيال والاعتقال وقطع الرؤوس وتعليقها على اعضان الشجر. كان نسخة طبق الأصل من انظمة عصور القرون الوسطى الأولى بكل مظاهر اوتوقراطيته الدينية المقيتة.

وجيش الإمام الصغير بآلافه الأربعة على اكثر تقدير يتألف معظمه من الزيدية. وهو يعتمد على شيوخ القبائل في بسط حكمه المطلق ومعظمهم من الزيدية ايضاً. وهو يأمن غائلاتهم وكيدهم ويضمن ولاءهم باحتفاظه بأولادهم او أقاربهم الأدنين بمثابة رهائن. والقبائل اليمنية ليست قبائل بدوية بل هم قرويون فلاحون مستقرون في القرى. ناقمون مشبعون بروح العداء لسكان المدن المستغلين الذين احتكروا التجارة والمناصب وهم الطبقة العليا وليس هناك طبقة وسطى. هؤلاء الحضريون يدعون انحدارهم من العترة النبوية ويبلغ عدد هؤلاء السادة زهاء مائة ألف ومنهم العلماء والقضاة والولاة والجباة وضباط الشرطة وما شاكل.

وفي بلد لم يتجاوز عدد سكانه الملايين الستة نصفهم تقريباً من أهل السنة الشافعية. باقلية يهودية هي اكثر السكان تعرضاً للاضطهاد والاستغلال تليها الشافعية. والكل بصورة عامة يعاني استغلالاً وابتزازاً ويئن تحت ثقل الضرائب المرهقة. والرشوة شائعة يلجأ اليها كلّ ذي حاجة. وهناك احتكار تجاري تمسك بخناقه اسرة الإمام. دون تسترّ ولا حياء. الى جانب جهاز عدالة صديء العجلات بطيء كالسلحفاة.

كسب الإمام يحيى عداء طائفة من السادة الأمراء الطموحين عندما ضمن البيعة بولاية العهد لأبنه احمد في ١٩٣٦. وورث (احمد) هذا العداء عندما تسلم مقاليد الحكم بعد اغتيال والده.

واختلفت اراء الكتاب في تقويم شخصية الإمام أحمد. ففي حين يطريه بعضهم، ومنهم زعماء المستقبل وحكامه الجمهوريون. فيحمدون فيه بسالةً وسماحة وصبراً وحكمة وسخاء ومروءة[٦] وجد فيه آخرون طاغيةً بالغ القسوة، فظاً غليظاً أنانياً. أبغض للناس من إخوته الأربعة عشر.

من بين منافسيه البارزين السيد (عبدالله ابن احمد الوزير) وابن عمه [علي]. كان الاوّل منهما قد تولى مناصب خطيرة وحظي بمكانه خاصة عنده. لكن شكه فيه صار يتعاظم فأبقاه

(٦) احمد محمد الشامي: امام اليمن احمد حميدالدين. بيروت ١٩٦٥ الص ١١–١٢ [وهو يقتبس من احمد محمد النعمان كاتب مقدمة الكتاب. كذلك يثبت في الصحيفة ١٧٨ نصّ رسالة القاضي الزبيري الى النعمان نفسه بتاريخ ١٩٥٠ مادحاً فيها الامام أحمد. وكلاهما من الثوريين فيما بعد].

في صنعاء شبه محجور. وبدأ التآمر عليه بشكل نزاع على السلطة بين مجموعات من الطبقة الحاكمة كانت تخشى على مراكزها لما بدا في حكم (أحمد) من استهانة بهم، ومحاولة للحدّ من نفوذهم التقليدي وبينهم من كان يرى بخلوص نية انَّ البلاد بحاجة الى اصلاح اداريّ.

كان الإمام احمد قد ارسل الى المنفى عدداً كبيراً من الوجهاء البارزين والتجاّر لأسباب وجيهة وغير وجيهة. اجتمع اكثرهم في اليمن الجنوبي وشدّ بعضهم الى بعض خصومة شديدة له وانتظموا في الاربعينات في ما اطلقوا عليه "حركة اليمن الحرة" سرعان ما اتخذت شكل تنظيم سياسي عرف باسم "جمعية اليمن العظمى". واصدروا جريدة تنطق باسمها في عدن باسم "صوت الوطن"[٧] كما نشروا بعض الكراريس في شرح اوضاع اليمن السيئة والحاجة الماسّة الى الإصلاح ومنها كتيبّ عنوانه [اليمن المنهوبة والمنكوبة] قدّر له ان يمثل دوراً مركزياً في تنبيه الرأي العام الخارجي بوجود معارضة سياسية جديّة في الداخل. وفي العام ١٩٤٦، تعزز مركز الجمعيّة عندما انضمّ اليها (ابراهيم) ابن الإمام [التاسع من بين اربعة عشر ولداً] واتخذ لنفسه لقب (سيف الحقّ) بدلاً من لقب الأمراء التقليدي [سيف الإسلام].

ونشرت الحركة برنامجها السياسيّ في نقاط محددة: إقامة حكم ملكيّ مقيد، مجلس تأسيسيّ منتخب بحكومة مسوولة أمام مجلس نواب، اصلاح في الجهازين الاداري والقضائي، تعيين قضاة عدول نزيهين. اشتراع قوانين مستندة الى أحكام الشريعة. الفصْل بين السلطتين القضائية والتنفيذية، ميزانية عامّة واضحة، مصرفٌ وطني يصدر عملة وطنيّة، اصلاح نظام الضرائب. الأخذ بنظريات الاقتصاد الحديث، تحسين ظروف استغلال مصادر الثروة وتحديث الزراعة ومكننتها. مكافحة الأمية وتعميم التعليم، حرية التعبير، ارسال البعوث العلميّة لتلقي الدراسات العالية في الخارج، بناء المستشفيات وبرنامج لمكافحة الأمراض. وشدد البرنامج بنوع خاص على تحديث الجيش النظامي وانشاء علاقات دبلوماسية على اوسع نطاق ممكن. والتعاون الوثيق مع البلاد الناطقة بالعربية.

لم يتعرض هذا المنهاج الى الحكم الإمامي ولم يقترح ازالته، بل اكدّ ان النظام الدستوري المقترح لايتعارض مع الشريعة الإسلامية وليس القصد ان يحلّ محل احكام الشرع.

وبدا الأمير عبدالله الوزير مرشحاً للمعارضة لتولي رئاسة الدولة الذي وعد الحركة بان يحكم بموجب الدستور. وكان ثم منافسان له بعد قتل الامام يحيى هما [حسن] و[عبدالله]

(٧) تولى رئاسة تحريرها محمد محمود الزبيري. وهو شافعيّ المذهب.

أخوا الإمام الجديد.

قيل ان المؤامرة الانقلابية على الامام يحيى وهي حصيلة نشاط حركة اليمن الحُرّة تلقّت تشجيعاً من البريطانيين. وآيتهُ السماح لجمعية اليمن بالنشاط في عدن. ومهما يكن من أمرٍ، فان الإمام الجديد استغلّ شائعة المسؤولية البريطانية في تدبير الانقلاب ومصرع ابنيه للتنديد بعبدالله الوزير واتهامه بالعمالة للانكليز. كما تأكد في الوقت نفسه من ضلوع الاخوان المسلمين في اثارة الفتنة والسخط على حكم الإمامة. وكان لـ(الفاضل الورتلاني) وهو رجل اعمال جزائري الموطن اتخذ صنعْاء مركزاً لادارة شؤونه التجارية، صلة الوصل بين (الإخوان) وبين الحركة. وقد وصف في حينه بدماغ المعارضة المفكرّ. ووقع التنفيذ على عاتق الضابط العراقيّ الموصليّ الرائد [جمال جميل][٨] عضو البعثة العسكرية العراقية المرسلة لتدريب الجيش اليمني. كان هذا الضابط يطمح الى ان يكون الرجل القوي في النظام الجديد وراء عرش الإمام. وقبل التنفيذ بأيام قلائل اذاعت (صوت اليمن) من عدن أنباء مختلقة عن قيام ثورة في صنعاء، أسفرت عن مقتل الإمام [يحيى] ونوّهت باسم [عبدالله الوزير] إماماً جديداً. فأسرع الإمام فور سماعه باستدعاء الوزير وسأله ايضاحاً فأنكر إنكاراً قاطعاً علمه مؤكداً زيف التقرير، بل سارع فكتب مقالاً ضمّنه ولاءه واخلاصه له في جريدة صنعاء الوحيدة: "ذلك الولاء الذي لاتزعزعه العواصف" على حدّ قوله. واعترف بالامير احمد ولي العهد الذي "بايعته القلوب قبل الأيادي!". فاكتفى الامام بهدا وماتت الشائعة[٩].

إلاّ ان (عبدالله الوزير) وصحبه المؤتمرين الآخرين ملكهم الخوف من عقاب ينزله بهم الأمير احمد عندما سمعوا بأنه ترك (تعز) جنوب صنعاء لتولي الحكم بدل ابيه الذي كان وقتذاك قد بلغ الثمانين وهو يعاني شللاً جزئياً. فقرر المؤتمرون التعجيل بالتنفيذ في آخر اجتماع لهم بمنزل الوزير. وتمّ فيه اختيار الاشخاص الذين سيقومون بقتل الإمام في ١٧ من شباط ترك الإمام يحيى صنعاء متوجها الى قرية (زْيز) المجاورة التي لاتبعد اكثر من عشرة كيلومترات عن العاصمة – كما كانت عادته. وكان برفقته رئيس مشاوريه (رئيس الوزراء) عبدالله العمري

(٨) كان الرائد جمال جميل احد الضباط الاربعة الذين ارسلهم الفريق بكر صدقي لاعتراض سبيل جعفر العسكري وقتله [انظر الكتاب الثالث] ففعَل. وبعد مقتل بكر صدقي ومجيء وزارة المدفعي. احيل على التقاعد، لكنه اعيد الى الخدمة في ١٩٤١ اثناء حركة مايس وفي العام ١٩٤٥ طلب الامام يحيى ارسال بعثة عسكرية لتنظيم وتدريب جيشه على الاساليب العسكرية الحديثة. فارسلها العراق له وكانت برئاسة العقيد الركن اسماعيل صفوت الموصلي، ثم سحبت البعثة إلاّ ان جمال جميل تخلّف مع بضعة من الضباط الصغار وضباط الصفّ، وبقي مستخدما في جيش الامام برتبة عقيد.

(٩) جريدة «صنعاء» في ١٥ شباط ١٩٤٨.

مع اربعةٍ من احفاده. وكان القتلة له بالمرصاد. اعترضوا سبيلةُ بسيارة لوري جهزهم بها (الفاضل الورتلاني) وانقض القتلة الذين ارسلهم (جمال جميل) وجهزهم بالسلاح – على القافلة وامطروها بنار رشاشاتهم. وقّضى الإمام نحبه وهو يحاول حماية احفاده بجسمه، وقد نُخل نخلاً بخمسين اطلاقة. ثم أمر (جمال جميل) بقتل اثنين من اولاده [الحسين] و[المحسن] في صعدة. وتوجه مع لفيف من اتباعه الى القصر للاستيلاء على اموال الإمام وما يكتنز من ذهب.

بعد أن تأكد المؤتمرون من مقتل الإمام توجهوا الى صنعاء وقد اتخذوا لهم اسم "اليمنيون الأحرار" صحبة الأمير ابراهيم ابن الإمام القتيل، في حين اعلن نبأ تعيين [عبدالله الوزير] حاكما على صنعاء ونودي [بابراهيم] إماماً وتوافد الاشراف والسادة وكبار العلماء لإعلان بيعتهم وولائهم بل وشاركهم في ذلك عدد من الامراء وابناء الامام، وقد اسقط في يدهم[١٠].

واعلن «الميثاق الوطني المقدّس». الذي تم الاتفاق عليه بين الجمعيّة والمنفيين والقائمين بالحركة والحكام الجدد. وعين عبدالله الوزير مجلساً اشتراعياً من (٦٠) عضوا برئاسة الامام (ابراهيم) واختار حكومة برئاسة ابن عمّه (علي الوزير) واسند منصب وزارة الخارجية الى [حسين القبسي احد مشاوري الامام يحيى، و[محمد محمود الزبيري] وزير التعليم.

كان ولي العهد (احمد) في تعز وقت تنفيذ الانقلاب وهو أحد من قرر المؤتمرون إلحاقه بالوالد، وقيل إنه كان في ميناء (الحُدَيْدة) أو انه نجح في الوصول اليها، ثم انتقل منها الى قلعة (الحجّة) في الشمال بعد رحلة استغرقت خمسة ايام. وكان في معيته عدد من الجنود وكثير من المال[١١]. وهناك بدأ يؤلب القوات القبلية لاسيما قبائل (حاشد) و(البقيل) وهو بالاصل حلف قبائلي، وبذل لهم مالاً جمّاً. واعلن لمن التفّ حوله ان صنعاء ستكون حِلاً لهم عند دخولها يستبيحونها كما شاؤا سلباً ونهباً. وكان قد اعلن نفسه إماماً وهو في (حجّة)، وزحف على صنعاء بصحبة اخيه (الحسن) وقد وعده بولاية العهد. ولحق به أخٌ آخر هو العبّاس. وحاولت قوة ارسلها [عبدالله الوزير] صدَّه إلاّ انها هزمت وتفرقت.

توجّه [عبدالله الوزير] الى الجامعة العربيّة مناشداً العون، إلاّ ان الإمام الجديد انذرها وحذرها من التدّخل فنكصت ونأت بنفسها وانقضّ على صنعاء ودخلها في ١٣ من آذار بعد حصار دام ثلاثة ايام اسفر عن تفرق جنود الوزير والتحاق بعضهم بقوات احمد. واستبيحت

(١٠) من اوجه المفارقات أن الامير [محمد البدر ابن احمد وحفيد الامام القتيل كان من ضمْن المبايعين].
(١١) ذكروا انه كان يحمل ما يعادل مائة الف دولار وغرارة مملوءة بقطع النقد الذهبيّة من مختلف العملات.

المدينة المنكوبة وعلى رأسهم الامير (العباس) يعبثون فيها سلباً ونهباً ثلاثة ايام بلياليها. وانتقل الامام الجديد احمد الى (تعز) وجعلها عاصمة له. واعلن رسميّاً امامته واتخذ له لقب الناصر لدين الله.

ضرب المثل بالقسوة التي عومل بها الثوار المقبوض عليهم، قُطعت[١٢] رؤوس كثيرة تعذّر احصاؤها وارسلت اعداد مضاعفه الى سجون رهيبة صعب ان يخرج منها حيّ وهو بكامل قواه العقلية.

كان الانقلاب الفاشل شبه عسكري. وليس من اغراض كتابنا هذاالخوض في أسباب فشله ونجاح الإمام. ومما لا شك في ان عدم مبالاة العالم الخارجي بما يحصل في هذا البلد المنقطع عن الدنيا تقريباً. والصدمة جراء عملية اغتيال الامام الطاعن في السنّ مع بعض اولاده واحفاده قد كسب لنظامه عطفاً واحتراماً لاسيما من القوميين العروبيين في سائر البلاد الناطقة العربيّة، بتصديق الشائعات التي دارت حول ضلوع بريطانيا في المؤامرة، وبدا الامام احمد في نظرهم مدافعاً عن الحياض العربي واستقلاله. سيما وقد بدأت الحكايات تنتشر حول تضلعه العلمي وثقافته وانفتاحه الذهني ومتابعته الجديّة للتطورات السياسية في العالم.

واخيراً علينا ان لاننسى عامل المال والوعد بالغنائم في فشل الانقلاب. نقول، حكم (احمد) كأبيه حكماً اتوقراطياً مطلقاً. لكنْ ما كان بوسعه أنْ يُبقي اليمن في عزلتها. وكانت قد انخرطت عضواً في الأمم المتحدة فضلاً عن عضويتها في الجامعة العربيّة. كان يعيش في عصر متغيّرات عنيفة على النطاق العالمي وعلى نطاق البلاد الناطقة بالعربيّة. ومع إنه بتمام موافقة طبقة السادة كان شديد الحرص على سلطانه وكانوا أحرص منه على نفوذ طبقتهم بالابقاء على اصول الحكم وعدم اجراء ايّ تغيير. على انه وافق في العام ١٩٦١ على استخدام معلمين مصريين ومدربين عسكريين وخبراء سوفييت. وارسل عشرات من الطلبة للدراسة في مصر. وعندما عادوا بعد اكمال تحصيلهم لم تسند اليهم مناصب أو مهام تناسب استحقاقهم. وكانت لهم شكوى تفطر القلب عبّروا عنها بعرائض رقيقة، وبمقالات وقصائد.

(١٢) ممن قطعت رؤوسه بعد محاكمة علنية في حَجّة: عبدالله الوزير. والقبسي وزير خارجيته والعقيد جمال جميل ومعظم الضباط وضباط الصف العراقيين. وممن غُيّب في اعماق السجون (قدر لهم ان يكونوا قادة انقلاب ١٩٦٢ الذي حّطم الإمامة واقام النظام الجمهوري) العميد حمود الجايفي، والعقيد حسن العَمْري. والقاضي عبدالرحمن الايرياني. واحمد محمود نعمان. والأمير ابراهيم أخ احمد [توفي في السجن بنوبة قلبية ربما بأمرٍ من الامام] والعقيد عبدالله السلال. [يذكر هذا انه قضى خمس سنوات سجينا مربوطاً بسلسلة في جبٍّ محفورٍ والطعام يقذف اليه من فوق. وقضاء حاجته محدود بطول المسافة التي تسمح له السلسلة بها]. ونجا بعضهم بانفسهم كالزبيري، والورتلاني وعلي بن عبدالله الوزير.

ووافق الإمام على منح امتيازات بالتنقيب عن مصادر الثروة الطبيعية لكنه لم يُقدم على خطوة واحدة لوضع التقارير ونتائج المسح موضع تطبيق اذ كان يتردد كثيراً في الانفاق على المشاريع او البحوث. وكلّ المشاريع الكبرى التي تمتّ فعلاً كانت باموال أجنبية مثل ميناء الحُديدة العصري فقد كان هديّة السوفييت. وطريق مخا – تعز كان بأموال الولايات المتحدة. وطريق صنعاء – الحديدة الذين شقّ باموال صينيّة وكلها ثمرة منافسة الحرب الباردة. والتقارب المصري – اليمني الذي بدأ في العام ١٩٥٤ كان سببه الخلاف المزمن مع البريطانيين بخصوص عدن والمناطق المحمية الأخرى، مما سمّي باليمن الجنوبي. اذ كان الأمل يراود ائمة اليمن باستعادتها. وفي كانون الأول من ذلك العام جرت مداولات بين زعماء الجنوب العرب وبين السلطات البريطانية ونجم عنها إتحاد عُرف بإتحاد الجنوب العربي.

نقم (احمد) على هذه العملية وقدم شكوى الى الجامعة العربية في العام ١٩٥٥. وبها بات مستقبل هذا الجزء من جزيرة العرب، واحداً من قضايا العرب الاساسيّة. مالبثت العروبة الناصرية أن تبنته واستغلته دعاية القاهرة اعظم استغلال للغمز في قناة بريطانيا. وادان عبدالناصر هذا الاتفاق واعتبره طعنة في خاصرة البلاد العربية وواحدة من المكائد التي يدبّرها الاستعمارلتفريق كلمة العرب وضربهم الواحد بالآخر، واظهر نفسه صديقاً ونصيراً لليمن. واذا به يغدو البطل الذي يخوض غمار حرب تحرير جنوب الجزيرة العربية. وفي اليمن نفسها صارت المعارضة بنوع خاص – تنظر اليه كمرجع انقاذٍ للبلاد من حكم الإمام الاوتوقراطي. فضلاً عن كسبه عطف الإمام نفسه وهو اعجب العجاب! حتى ان الإمام قام بزيارة رسميّة لمصر وكان موضع حفاوة عبدالناصر[١٣]. كان ذلك بعد القضاء على انقلاب ١٩٥٥.

وبدأ التدخل المصري بتنبي شعار "التحرير القوميّ للجنوب العربي المحتل". وأُرسل الدعاة الناصريون العروبيون الى اليمن بهذه التعلّة او تلك. ولم يلبثوا الاّ وحققوا رابطة بالحركة القوميّة في عدن وبمن اطلق على نفسه اسم " اليمنييّن الأحرار" خارج اليمن. ووجدت السفارة المصرية سبيلها الى قلب الحكم فتدخل اعضاؤها في المنازعات والخلافات بين الإمام واخوته بل ساهموا في بعض المؤامرات الصغيرة ضدّه، لتتوج بمؤامرة العام ١٩٥٥ الكبرى وهي اخطر

(١٣) بحسب وصف هيكل الذي جالسه اثناء زيارته: «كان انساناً عجيباً، شخصية خيالية جاءت من القرون الوسطى. سحق يد عبدالناصر عندما صافحه في مقابلته الأولى، متعاملاً معه كما يتعامل مع واحد من زعماء القبائل التي اخضعتها قبضته القويّة. لم يكن هناك عنده صحافة ولا حرية صحافة. إلاّ انه تعودّ قراءة المجلاّت المصرية التي تنقل اخبار المجتمع. وكان اول سؤال له عبدالناصر: «هل ان تلك الممثلة تزوجت عمر الشريف؟ [وثائق قاهرية المرجع السالف ص١٨٨] نميل الى التصديق هيكل هنا فلا غرض له فيه يحمله على الاختلاق.

واحدة من مؤامرات عدة لم تبلغ مراحل التنفيذ، واليك حكايتها:

كان الأمير (عبدالله) أخ الإمام السابع والمقدم احمد الثلايا (أو الثلاثّي) على رأسها يساندهما ستة من الضباط وستمائة جندي.

والأمير في حينه هو وزير الدفاع وحاكم الحُديدة، كثرت أسفاره الى الاقطار العربيّة والأوروبية وزار الولايات المتحدة، لكنه لم يكن محبوباً لما أثر عنه من جشع وحبّ لجمع المال بكل الطرق. وقيل انه ثروته بلغت ٨ ملايين پاون سترليني. وبدا لفترة من الزمن الشخصية المركزية في المنازعات العائلية وحَكَما في خصوماتها لاغنى عنه[١٤]. إلاّ ان حركة اليمن الحرّة التي اتخذت القاهرة لها مركزاً، ومعها حكام مصر لم يكونوا يرغبون فيه بسبب ثنائه على الامريكان وتمجيده البريطانيين وميله الى عقد معاهدة دفاعية معهم[١٥].

وفضلّت حركة اليمن الحرّة عليه (محمد البدر) وكان قد اجتمع بهم في القاهرة ووعدهم بتطبيق برنامجهم عندما تؤول اليه الإمامه مشترطاً عليهم الكف عن تدبير المؤامرات. ووافق على صياغة دستورٍ للبلاد، والغاء نظام الرهائن واطلاق الحريات وانهاء العزلة السياسية وما الى ذلك.

وحقق [عبدالله] تنسيقاً مع الضباط الثوريين. وكان (أحمد الثلاّيا) أعلاهم رتبة[١٦].

هناك عدة روايات لما حصل بدايةً ونهايةً وهذه اقربها الى الحقيقة:[١٧]

في ٢٨ من آذار (مارس) حصل نزاعٌ بين بعض القرويين والجنود في قرية شمال (تعز) قتل خلاله جنديّ واحدٌ والتزم الإمام جانب القرويين بعد قناعة بان الجنود كانوا المسببين والبادئين. وقبل انزاله العقاب بالمعتدين تدخل (الثلايا) قائد حامية تعز وامر باجراء تحقيق. وبأمر منه كما يبدو توجه الجنود الى القرية فنهبوا وقتلوا. واستغل (الثلايا) خوفهم من عقاب صارم. فخطب فيهم واقنعهم بضرورة خلع الإمام بالقوة ونصب أخيه (عبدالله) في محلّه. ثم زحف بهم مع بقية الحامية على صنعاء والقى عليها الحصار. وارغم الامام على كتابة صك تنازل

(١٤) شرف الدين. المرجع السالف ص٣٦٦. إنكرامز المرجع السالف ص٢٤.

(١٥) احمد محمد زين السقاف: «انا اعود من اليمن» الطبقة الثالثة. بيروت ١٩٦٢ الص٢١-٢٤ [صدرت الطبعة الأولى في ١٩٥٥ بعد القضاء على الأنقلاب مباشرةً].

(١٦) كان الثلايا زميلاً لعبدالله السلال في الكلية العسكرية ببغداد. ارسلا معاً في ١٩٣٤. وتخرجا وقت قيام انقلاب بكر صدقي العسكري.

(١٧) منها ما أثبته (هيكل) عنها في (سنوات الغليان ص٣٥٨) نقلها كما زعم عن الامام نفسه وهو يرويها لعبدالناصر. ومنها رواية (شرف الدين) الذي ادعى بانه شاهد عيان (ص٣٦٦ المرجع السالف) كذلك رواية السّقاف: المرجع السالف ص٣٠.

موجّه الى (عبدالله) تتضمن فحسب تخويلاً بممارسة سلطاته الاجرائية بهذه الصيغة"... وقد امرنا ان يعود كل شخص لمزاوله عمله وأنه اخانا سيف الاسلام عبدالله حفظه الله سيأتي ويتسلم الامور" ولم يكن ما يشير الى تنازل رسمي عن الامامة. فخلق بلبلة واضطرابا بين الثوار والقبائل الموالية سواء بسواء.

ورفض الإمام بعد اعطائه كتاب التخويل مغادرة القطر والترحيل الى مصر. فقطع المحاصرون عنه الماء والقوة الكهربائية ثم قصفوه بالمدفعية مدة ثلاثة أيام.

في عين الوقت تهيّأ (البدر) للقيام بعمل حاسمٍ ضدّ الانقلابيين فجمع الانصار من قبائل حاشد والبقيل وزحف على صنعاء. وفي اثناء ذلك دبّ الخور في نفوس الانقلابيين وبدأ ينفرط عقدهم فترك الحصار عدد كبيرٌ منهم. وكان عبدالله بعيداً ولم يصله كتاب التخويل عندما بلغ (البدر) مشارف صنعاء وطوق فلول المحاصرين. واذ ذاك اندفع الإمام احمد من القصر وهو على صهوة جواده شاهراً سيفه وشق صفوف الوحدات التي طوقت قصره دون أن يتصدى له أحدٌ إذ ملكها خوف وانهارت معنوياتها فلاذت بالفرار. وتمّ القضاء على المحاولة في الخامس من نيسان.

القي القبض على (عبدالله) في ٧ نيسان وهو يحاول الفرار الى السعودية كما القي القبض على الثلايا والامير سيف الاسلام العباس الذي ساند (عبدالله) والضباط الستة الآخرين.

وقطعت رؤوسهم جميعاً وعلّقت على الاشجار في (الحجّة) بعد تسعة ايام[١٨] وبقيت اياماً.

كانت محاولة انقلاب عسكريّة. يعود فشلها الوحيد والرئيس الى عجز الجيش والعصبيّة القبائلية وعدم المبالاة الجماهيرية بما يحصل. ومما يلفت النظر ان فشل الانقلاب قوبل في عاصمة الجنوب عدن بإرتياح عظيم. وشوهد العلم اليمني مرفوعاً في أماكن عديدة بأغضاء السلطات البريطانية المتعمد. ولأن الإمام كان يعتبر المحميّة البريطانية هذه جزءً من اليمن لايتجزء.

(١٨) باستثناء (الثلايا) فقد اجريت له محاكمة علنية تبعاً للعرف القبائلي وباسلوب الإمام الخاص، احضر في ساحة العرض بالقرب من القصر بحضور قادة الجيش والعلماء والسادة والاشراف وجمهور كبير. وراح الإمام يذكره بالماضي وكيف انه أمر باطلاق سراحه من السجن مرتين واعاده الى الخدمة. ثم راح يؤنبه لأنه منع عنه طبيبه اثناء الحصار من بين تصرفات لاإنسانية أخرى ثم ختم توبيخه بالسؤال: "أكان هذا جزائي عن كل العطف والاكرام الذي خصصتك به؟" ثم توجه الى المجتمعين قائلاً: "يشهد الله عليّ، ان اعتبرتم هذا الضابط غير مستحق للموت فاني ساعفو عنه". إلاّ ان انصار الامام هتفوا قائلين: "كلاّ انه يستحق الموت" فأمر به فقطع رأسه وعلّق.

في حينه لم يكن دور (ج.ع.م) في هذه المحاولة واضحاً عند الإمام او لعله كان على علم به فآثر التغاضي والسكوت. إلاّ ان الموقف البريطاني المتعاطف مع الإمام صح ان يؤخذ دليلاً على معرفة البريطانيين على الأقل بجهود (ج.ع.م) في قيام الإنقلاب، وبالضبط على اضطلاع بدور (عبدالرحمن البيضاني) المركزي فيه، وقد شارك في الاعداد للإنقلاب وزود الجنود بالمال والسلاح اثناء القاء الحصار على صنعاء[١٩].

وكأبيه، ارتكب الإمام أحمد عين الغلطة عندما أمّن البيعة في ولاية العهد لإبنه (محمد البدر). خلافاً لمبدأ الامامية عند الزيدية وكما قدمنا هي اصلاً انتقائية لا وراثية. وكان كثير من اعلام الزيدية يرون في ابنه سيف الاسلام (الحسن) مرشحاً افضل على ان هذا الأمير فضّل أن يبقى بعيداً عن المؤامرات والمشاكل مثار النقع ممثلاً لبلاده في الأمم المتحدة.

إلاّ انّ البدر كان محبوباً. وعرف بأنه عسكريّ جيد. لكنه كان ضعيف الرأي ساذجاً قابلاً للاستهواء. مالبث ان وقع تحت تأثير (البيضاني) المطلق في دوره المزدوج العجيب وصار يأخذ بنصائحه ومقترحاته الاصلاحية في ظاهرها. لاسيما بسياسة عبدالناصر وبفائدة تعاون يمني – مصري وثيق. وفي البداية أقنع (البدر) أباه بالانضمام الى ميثاق (جدّة) للدفاع المشترك مع مصر والعربية السعودية في ٢٠ نيسان ١٩٥٦ بناءً على نصيحته[٢٠].

(١٩) انظر J. Heywirth - Dunne: Temoignage Sur Le Yemen ج: هيورث دن: شهادة عن اليمن (الص٥٩–٦٠. ط. نيويورك ١٩٦١). [كان دور البيضاني يتسم بالخبث والدناءة من اي وجه نظرته. ولد هذا الذي اصبح بعد انقلاب ١٩٦٢ نائباً لرئيس الوزراء – في مصر لأبوين يمنيين شافعيين وغدا صديقاً لعبدالناصر ولأنور السادات وتزوج بشقيقة الأخير. وارسل في رحلات عديدة الى اليمن وكيلاً وعميلاً تحت مصالح تجارية. وفي الوقت الذي كان يشارك في التآمر على الامام – وجدناه يحرز ثقته المطلقة الى الحد الذي بقي الامام يعتقد بانه واحد من جواسيسه وعيونه على معارضيه والمؤتمرين به ولم يَشّك فيه قط، حتى أنه اقنع الامام بارساله وزيراً مفوضاً لليمن في (بون) وبقي حتى اعلان الجمهورية صديقاً حميماً للبدر وموضع ثقة الإمام.

(٢٠) انتهز عبدالناصر في العام ١٩٥٤ وجوده في السعودية حاجّاً وفاوض الملك (سعود) في عقد اتفاق ثنائي وهذا هو من جملة تلك الاتفاقات الثنائية العسكرية التي حصر جهوده في عقدها مع سائر البلدان العربيّة تطويقاً واحباطاً لحلف السنتو. وايد الملك سعود جهود مصر في هذا الصدد لما اثار فيه انضمام بغداد وطهران الى ذلك الحلف من مخاوف. لانستطيع مطلقاً ان ننسى العامل الشخصي في هذا العداء القاتل الذي واجهه الحلف من عبدالناصر واستبعاد الكثير من الاخطار المحتملة منه كما صورتها الدعاية المصرية على كيانات الدول الناطقة بالعربية كان عليه. وهو في طريقه الى توقل سلم الزعامة العربيّة أن يزيل تلك العقبة المتمثلة بنوري السعيد المدافع الكبير عن ذلك الحلف والداعية له. ولما كانت الأمور مرهونة بظروفها كما يقال، ففي فترة قيام عبدالناصر بشن هجومه الكاسح على الحلف ما كان يدور في خلده قط انه وبعد اقّل من سنتين سيشنُّ هجوماً كاسحاً مماثلاً على الشيوعية العالمية والشيوعيين في العالم العربي وان الحلف اذ ذاك سيكون منسجماً مع سياسته الجديدة وتلك هي عواقب قصر النظر.

في تموز من السنة نفسها زار البدر الاتحاد السوفياتي وغيرها من الدول الاشتراكية بموافقة ابيه وتشجيع عبدالناصر. وفي كانون الثاني ١٩٥٥ زار الصين وعقد خلال زياراته عدّة اتفاقات للتعاون الاقتصادي ووعده السوفييت بالسلاح، وتبع ذلك وصول خبراء روس وچيكيين وبلغار فضلاً عن المصريين للعمل في المشاريع وللتدريب العسكري.

في الثامن من آذار ١٩٥٨ فوجيء العالم العربي بنبأ غير مستعدّ له قط. فقد اعلن انضمام اليمن الى (ج.ع.م) التي لم يمضِ على قيامها اسابيع بما عرف بميثاق «اتحاد الدول العربية».

لم يكن الامام أحمد غبيّاً رغم سذاجته فتقربه بهذا الشكل من عبدالناصر نابع من طمع بعونه ضدّ البريطانيين في استعادة اليمن الجنوبي وكذلك ليأمن منه ويخطب ود اليمنيين الأحرار خارج الوطن وليضع حداً للتآمر عليه ومهاجمته.

أمّا عبدالناصر فكان يرمي من هذا الى فتح باب بقي موصداً في وجهه ووجه حركة الوعي القومي بهدف خلاصهاً من التبعية البريطانية. إلاّ انها وبغضّ النظر عن مراميه السياسية البحتة كان بداية لابدّ منها لاصلاح اجتماعي جذريّ عام في بلاد لم تتقدم خطوة واحدة بعدُ للاندماج في مجتمع القرن العشرين الدولي منذ الحركة التقدميّة الاجتماعية التي جاء بها الاسلام قبل أربعة عشر قرناً.

نصّ [الميثاق الاتحادي]. على استحداث مجلس دفاع ومجلس اقتصادي ومجلس ثقافي بمندوبين فيها من الاطراف الثلاثة. كان اتحاداً رسميّاً صرفاً حددت صلاحيات مجالسه تحديداً صرفاً. كان واحداً من عشرات الاتفاقات والمعاهدات والمواثيق التي اعتاد رؤساء الدول الناطقة بالعربيّة اخذها بعضهم من بعض لتهمل بعد التوقيع عليها وبعد ان تستوفي حظها من الضجّة الاعلاميّة ثم لتدفن في ارشيفات وزارات الخارجية. ولايعود احدٌ يسمع بها او يتحسس آثاراً لها بعد مدّة وجيزة ولاتستأهل ذكراً واهتماماً من المؤرخين والكتاب.

واستبد القلق بالإمام لكثرة ورود الخبراء الأجانب. من شيوعيين اوروپيين ومصريين عروبيين. وتعاظم قلقه حين علم ان الايدي تتداول سراً كُنّاشاً مذيلاً بتوقيع «الضباط اليمنيون الأحرار». كان هو فيه هدف الانتقاد والهجوم. الأمر الذي اشعره بمؤامرة وشيكة.

في ٩ من نيسان (اپريل) ١٩٥٩ الجأه مرضه الى السفر للمعالجة في (روما) فأناب عنه ابنه وولي عهده. وعمت فوضى في البلاد مصطنعة بعد رحيله ودامت اشهراً. فعاد فجأةً من دون ان يعلن عودته او يتوقعه أحد وباشر عمليّة قطع الرؤوس واثقال السجناء بالحديد. وكان

رأس (عبدالله الأحمر) شيخ مشايخ (حاشد) ابرز الرؤوس التي علقت على الشجر. اعلنتْ هذه القبيلة عصياناً فاستقدم زعيمها هذا وقطع رأسه ولم يعد من الاسرار ان تكتلاً عسكرياً كان في طريقه الى التكوين وان اعضاءه كانوا يلتفون حول (البدر) ويشجعونه على اقامة علاقة وثيقة بـ (ج.ع.م) ورئيسها وعلى متابعة برنامجه في تطوير البلاد وتحديثها. وكثرت زياراته للقاهرة. وخيل له انه قادر على القفز باليمن الى العصر الحديث مع الاحتفاظ بالامامة ونظام حكمها. وبدا وكأن عبدالناصر مرشده الروحي ورأت الزيدية انه بات اداة طيعة بيد الرئيس المصري. ولاح الخطر عندهم حين اقدم البدر على اناطة مديرية الامن العامة بضابط مصري. وفي ٢٦ آذار جرت المحاولة الثانية لإغتيال الإمام، ونجا منها بحضور بديهة منه. ولم تدلِ المصادر الرسميّة بتفاصيل عنها خلا قولها انها حيكت وموّلت من اليَمنيين المعارضين في عدنَ بالتعاون مع الكولونياليين![٢١]

ولم يبرأ الامام أحمد من الجراح التي اصابته تمام برءٍ. وايدت الشائعات بانه بات يعجزّ جّراها عن ادارة البلاد وان اعتماده على (البدر) قد زاد. وليلاحظ هنا ان مصر التي كانت تعمل للتغيير وتتوق له، لم تكن تستطيع مساندة الانقلابين علناً كما دأبت عليه في العراق ولبنان والاردن وسورية. فالميثاق الاتحادي بينها وبين الامام مازال قائماً. إلاّ ان الإمام – مالبث أن القى بجانب الحذر مجترئاً بعد انفصام الوحدة مع سورية. فاعلن العداء علناً لنظام عبدالناصر الجديد المعلن باسم (الاشتراكية العربية). وفي منتصف شهر كانون الاول ١٩٦١ ظهرت للإمام ارجوزة من نظمه[٢٢] تتألف من أربعة وستين بيتاً[٢٣] موجّهة "الى كلّ العرب"

(٢١) خرج الامام من قصره يتقدمه الحرس متوجها الى مستشفى الحديدة للتصوير بالاشعة، وبلغه ضحىً وكان يصحبه بعض الامراء ودخل ومعه اربعة من الحرس. كان الملازم محمد الالفي ضابط أمن المستشفى واحداً من المتآمرين المنفذين فمنع الحرس من مرافقة الإمام محتجاً بأن ذلك يزعج المرضى. وللتوّ انضم اليه الضابطان (عبدالله اللقيا ومحسن الهندوان) وفتح الالفي النار عليه من جهة، كما فتح الآخران النار عليه من الجهة الأخرى. وما انقذه إلاّ حضور ذهنه. فقد القى بنفسه على الأرض فظن القتلة انهم قضوا عليه وخرجوا. اصابت الإمام خمس اطلاقات على الأقل وجرح بعض مرافقيه وعقب الحرس الهاربين وأمطروهم برصاصهم وقتل الألفي نفسه عندما طوّق. والقي القبض على الملازمين الآخرين وقطع رأساهما مع رؤوس خمسة آخرين ثبتت مشاركتهم [شرف الدين: المرجع السالف الص ٢٧٣ و٣٤٤. إنگرامز: المرجع السالف الص ١١٢–١١٣]. كتمت تفاصيل المؤامرة حتى زوال النظام وعندها علم ان عدداً كبيراً من العسكريين والمدنيين كان ضالعاً فيها ومن بينهم العقيد عبدالله السلال. (نقل على اثرها من قيادة الحديدة الى صنعاء) والنقيب محمد الرويني مدير مطار الحديدة. وحسن المقدمي مدير المستشفى (زج في السجن حتى اطلق الانقلاب سراحه).

(٢٢) اشاعت المعارضة وراديو صوت العرب بان الإمام كلف أحد الشعراء الشبان بنظمها ووضع عليها اسمه [سبق للإمام ان نشر قصائد من نظمه].

(٢٣) اثبتناها بالنص في ملحق بهذا الفصل وهي قصيدة ضعيفة متكلفة.

اتنقد فيها "اولئك الذين يصرخون عبر الميكروفونات بأنكر الأصوات" ودعا العرب الى وحدة مبنيّة على المباديء التي قررتها الشريعة الاسلامية مقدسةً في قضائها ومفاهيمها، حرة من شوائب وعقابيل البدع التي تبيح ما حرّمه الاسلام، مثل مصادرة ممتلكات الناس وما حصلوا عليه شرعاً بدعوى التأميم والمساواة. فهذ ما لايقرّه الشرع ولايسمح به المنطق السليم «هذا ما جاء في صدر الارجوزة»(٢٤).

اذيعت القصيدة الامامية من الراديو ونشرت في الجرائد. وكانت اجابة عبدالناصر سريعة: اعلن من جانبٍ واحد في ٢٧ من الشهر عينه انهاء الرابطة الفدرالية مع اليمن [اتحاد الدول العربية]. واليك ما جاء في ديباجة البيان:

"قررت حكومة الجمهورية العربية المتحدة (لم يكن لها وجود وقتذاك) ان تُنهي أعمال اتحاد الدول العربيّة الذي كان يجمعها مع حكومة حضرة صاحب الجلالة الملك أحمد حميدالدين امام اليمن. وترى حكومة الجمهورية العربيّة المتحدة وهي تتخذ هذا القرار ان تعلن للرأي العام العربي حقيقة الدوافع التي حدت بها الى هذه الخطوة."

واتى البيان إلى شرح الأسباب التي تجعل مثل هذا الاتحاد عقيماً وغير مجدٍ. واولها

"عدم وجود في طبيعة ايّ من الحكومتين ما يجعل قيام مثل هذا الاتحاد كأداة سياسية فعّالة... خاصّة وان (ج.ع.م) تشعر بالتزامها العميق امام حركة الجماهير العربيّة سعياً للعدل الاجتماعي."

وكذلك فان(ج.ع.م) تعتقد ان الوحدة او الاتحاد لايمكن ان يقوما على اسس سليمة الاّ اذا اتفق الاطراف المعنيون على حلّ مشاكل التغيير الاجتماعي. وكانت (ج.ع.م) تأمل بان الاتحاد سيكون اداةً

"لخدمة الشعب اليمني وقضيته العادلة. الاّ أن تجربة السنوات الماضيّة اثبت بما لايقبل الشك بان الشعب اليمني لم يستفد من التجربة..."

بعد هذا بيومين دعا راديو القاهرة وصوت العرب، الشعب اليمني الى الثورة. وتواصل التحريض والحثّ دون انقطاع وبانتظام الساعة. ووُصِف الإمام بكل ما سبق ان وصف به حكام السعودية والعراق والاردن وسورية ونوشد الشعب العربي في اليمن:

"الانضمام الى معركة التحرر العربي والوحدة والاشتراكية."

(٢٤) صدرت بهذه المقدمة عند انتهاء اذاعتها ونشرها.

واستخدم الزعماء الجمهوريون اليمنيون "صوت العرب" لإعلان برامجهم الثورية ولشن هجوم ناريّ على الإمام ونظامه(٢٥).

★★★

لم يكن (السلاّل) الرجل الذي أعدته القاهرة لزعامة الثورة. وبدا انقلابه مفاجأة غير سارة لها.

فقد ارتهن عبدالناصر حظوظه بشخص عبدالرحمن البيضاني الذي قدمته وسائل الإعلام القاهرية بوصفه الزعيم اليمني المقبل.

ففي الثاني من شهر آيار ١٩٦٢ اذاع البيضاني الذي ترك منصبه في (بون) من راديو "صوت العرب" خطةً لتغيير كامل في الجهاز الاداري وافاض في شرح تفاصيل اقامة جمهورية يمنيّة. وبعدها صار يذيع احاديث مسلسلة بعنوان «اسرار اليمن» ضمن برنامج لراديو القاهرة عنوانه "اعداء اللّه" واصفاً الاهداف العامة للثورة اليمنية المقبلة. وضمنّها هجوماً عنيفاً على الإمام.

للتأكد من وصول هذه الاذاعات الى آذان الجمهور اليمني، اعتمدت القاهرة خطة فعّالة كلّفت خزينة الدولة مالاً طائلاً. فقد عمدَت الى تزويد أنصارها بآلاف من راديوات الترانزستر الصغيرة الحجم ووزعتها على الجمهور مَجاناً!

كانت دعاية القاهرة فعّالة حقّاً. وقعّت في اذان مستعدة لها وفي تربةٍ ليس ثم أخصب منها. وقابلتها عمليّات قمع وحشية. كان الإمام يدمّر قرى بكاملها بسبب ايوائها المحرضين او المطلوبين ويسلم اعناق اصحاب اجهزة الترانزستورات الى سيف الجلاّد. وفي عين الوقت يحاول مهادنة الجيش بمناشدته بالتمسك بتعاليم الإسلام واحترام شعائر الدين.

ثم بث راديو القاهرة اشاعة مؤداها أن الإمام يعتزم اقامة قواعد امريكية في اليمن. فقدحت مظاهرة لطلاّب مدارس صنعاء، شوهدت فيها صورة عبدالناصر مرفوعة وعلم (ج.ع.م) الملغى ملوّحاً به. وفتح رجال الأمن النار على المتظاهرين فقتل عدداً منهم ابلغته اذاعة صوت العرب الى الخمسين فضلاً عن مائتي جريح. وفي تظاهرة أخرى طلابيّة شوهدت صورتا الإمام وولي عهده تمزقان وتداسان بالنعال.

(٢٥) شارك في البرامج: محمد محمود الزيدي الذي قدمه المذيع بوصفه «قائد حركة التحرير اليمنية في القاهرة. ومحسن اليمني الذي كان قد نفي من (عدن) لدوره في اثارة النقابات وتحريضها على الاعتصاب فضلاً عن البيضاني نفسه.

وعندما بدأ راديو صوت العرب في ١٩ من ايلول يتحدث كالعادة عن الثورة المرتقبة في اليمن وينذر الإمام بما ينتظره، كان الإمام قد اسلم الروح قبلها بساعات. واعلن راديو صنعاء تسلّم البدر مقاليد الإمامة باسم "المنصور باللّه".

شرح الإمام الجديد اهدافه وبرنامجه في اشاعة الرفاء والطمأنينة، وبرفع مستوى البلاد الاقتصادي والسياسي والثقافي. ووعد بضمان حريات المواطنين بالسير بنسق روح العصر وبالشكل الذي يمارسه الآخرون في سائر انحاء العالم. ولم يقتصد في ادانة حكم والده القمعي الاوتوقراطي وتعهّد بأن يكون حكمه مختلفاً تماماً. مؤكداً بأنه سيقود البلاد في طريق الإصلاح فعلاً وخلافاً لما تعوّد الحكام العرب "أن يعدوا فلايفوا".

وكان أميناً على وعده وافتتح عهده باجراءات تدلّ على انه يعني ما يقول. فاجأ مصر واليمنيين الأحرار والقوميين العروبيين الثوريين في عدن بتعيين [عبدالله السلال][٢٦] رئيساً لأركان الجيش ورفع رتبته والغى نظام الرهائن، واعلن عفواً عاماً واطلق سراح جميع السجناء السياسيين وأباح عودة المنفيين مع تعويضهم. والغى قوانين الارتهان الاقطاعية ورفع رواتب الجنود والضباط والموظفين. واصدر مرسوماً بتعيين مجلس شورى يتألف من ٤٠ عضوا يجري انتخاب نصفهم بالاقتراع العام. واصدر مرسوماً آخر بتأسيس مجالس بلدية يتمّ انتخابها محليّاً بالاقتراع مسنداً لنفسه منصب رئيس الوزراء للتسريع في تنفيذ مراسيمه ومقرراته[٢٧].

واطلقت حصاة البدر المقذوفة في بحيرة الرأي العام العربي حلقات متباينة وارسلت تنبؤات متناقضة. فكان هناك اعتقاد عند اوساط يمنية واسعة بان اليمن تقف الآن على مفترق الطرق.

(٢٦) عندما أرسل الإمامُ السلالَ ضمن بعثة تلاميذ – الى الكلية العسكرية ببغداد ايام بكر صدقي. كان مطمئناً منه بوصفه زيّدياً وابن حدّاد نكرة بسيط لا طموح له. عاش السلال عهد اول انقلاب عراقي واعجب بشخصية قائده اعجاباً لاحد له اثناء زيارة هذا الأخير للكلية. وتشرب بالروح العسكرية الطاغية آنذاك وهو في العام ١٩٣٦ ابن التاسعة عشرة. وعاد في العام ١٩٣٨ وهو متشبع بعين الروح ولم يعتم ان اودع السجن لمدة عامين بسبب توزيعه نشرات ضد الامام يحيى. وفي ١٩٤٨ اودع السجن بسبب صلته بالمقدم جمال جميل (انظر ماقبله) وقضى في جُبّ الحَجّة سبع سنوات مكبلاً بالحديد وكان فيه عند قيام الثورة في ١٩٥٥. بعدها اطلق سراحه بتوسط البدر وعينه رئيساً لحرسه الشخصي. وفي ١٩٥٩ عين قائداً لميناء الحديدة وطرد من الجيش على اثر محاولة ١٩٥٩ الانقلابيّة. إلاّ ان الثقة البدرية لم يعتورها ضعف فقد عينه مفتشاً لمطار صنعاء العسكري. [يرى محمد سعيد العطار: التخلّف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن: بيروت ١٩٦٥ انّ البيضاني اعتقد بان ازاحة السلاّل ستكون سهلة لكنه كان مخطئاً].

(٢٧) شرف الدين: المرجع السالف ٣٧٨–٣٨٠.

وانها في سبيل تجربة دراميّة وتغيير عظيم. لكن حين شككّت اوساط أخرى في إمكان تطبيق تلك الاجراءات لما عرفت عن الإمام الجديد من ضَعْفٍ، وعن الطبقة السادة الزيدية المحافظين من قوةٍ. في حين رأي المراقبون والمحللون السياسيون ان ذلك يعبرّ تعبيراً حقيقياً عن رأي اليمنيين عامةً في انهم تعبوا من حكم الفرد وان الطبقة الحاكمة بما فيها الإمام نفسه يحاول بانفتاحه السياسي هذا انقاذ ذلك الحكم.

إلاّ أن القاهرة قررت ان لاتتيح للبدر فرصةً مما قلت لرؤية جديته في تطبيق برنامجه وسلوك السبيل الذي إعتزمه. ففي عين اليوم الذي بعث عبدالناصر ببرقية تعزيته للبدر بوفاة ابيه – وكان آخر المعزين – اذاع راديو القاهرة على مابدا حملة هجوميّة على الملك سعود والملك حسين واصفاً اياهما "بالموتى مثل الامام احمد. إلاّ انهما لايعتبران بمصيره" في حين صعدّ [البيضاني] حملته من خلال سلسلته "اسرار اليمن" غير مقتصد في هجومه على صديقه ووليّ نعمته (البدر) وختم آخر اذاعته بهذه العبارة المنذرة المهددة "حان الموعد مع القدر"[٢٨] وهي من تعابير احمد سعيد المأثورة.

لم يدع عبدالناصر للبدر فترة للحكم غير ثمانية ايامّ. وأنهى أمره الانقلاب العسكريّ الذي تزعمه السّلال بمشاركة سبعة ضباط آخرين[٢٩].

تكررت هنا عملية قصر الرحاب في بغداد صبيحة ١٤ تموز، وعملية سراي عابدين في القاهرة فجر يوم ٢٢ يوليو. احيط قصر الإمام بالمدرعات والجند وطلب من (البدر) الاستسلام. ولم تدم المقاومة غير بضع ساعات فقد فتحت المدفعية نارها وصُدّر البيان الثوري الأول بعبارة

"... ودفن الطاغية تحت انقاض قصره وتمّ القاء القبض على عدد من رموز العهد المباد وغيرهم من الرجعيين".

صدر البيان رقم (١) بتوقيع القيادة العامة للجيش منوها باسبابه المعروفة المبررة للثورة ومذكراً الثوريين في مختلف انحاء اليمن، والجنود والتجار والمبعدين بطغيان الإماميّة واطماعها وجرائمها. والذلّ والمعاناة الشعبيّة وبأن الثورة هي لجميع الشعب وهي تؤمن باللّه،

(٢٨) عين المرجع.

(٢٩) محمد سعيد العطار المرجع السالف ص٢٩٩. يذكر الى جانبه اسماء الضباط السبعة وهم العقيد حمْود الجايفي والرائد عبدالله جزيلان، والنقيب عبداللطيف ضيف الله والنقيب محمد قائد سيف والنقيب محمد المخيدي والملازمان علي عبدالمغني ومحمد مفرح وهو رئاسة ما دعي باللجنة الثورية وقوامها اربعون ضابطاً فقط من اصل ٤٠٠ وهم كل ملاك الجيش من الضباط البالغ عدده عشرة آلاف.

وبالقومية العربية والوحدة العربيّة، وانها تدين الفرقة والخلاف بين الزيدية والشافعية وبين الهاشمية والقحطانية[٣٠] معلنة رسمياً القضاء على دولة الإمامة وقيام الجمهورية.

ظلّت اذاعة صنعاء وإعلام القاهرة مصرّين بعناد على موت البدر تحت الانقاض. وعندما بدأت مصادر الانباء المحايدة تؤكد نجاته وبأن القصر لم يدمرّ تماماً. اضطرت القاهرة في ١٧ من تشرين الاول الى التراجع وعللت وهمها بان "سقف احد الغرف انهار عليه اثناء ما كان يحاول الفرار. ثم اجرت تعْديلاً آخر بعد بضعة أيام فادّعت ان جنديين فتكا به. ثم أوردت بعدها قصّة هروب نوري السعيد بالنصّ! فقالت انه حاول الفرار بزيّ امرأة وفشل! ولم يسعها بعد تاكد نجاته إلاّ ان تختم حياته في احد مستشفيات السعودية متأثراً بجراحه[٣١].

في اثناء تخبط القاهرة بمصير البدر أصدر هو في ١٥ تشرين الأول رسائل الى رؤساء الدول العربيّة مؤكداً لهم بأنه حيّ[٣٢] وانه ينظم مقاومة لمواجهة الانقلابيين.

لم يكن واقع نجاته وهروبه أمراً هيّنا بالنسبة للانقلابيين وخوفهم لايتأتى فحسب من بقائه على قيد الحياة، بل من اجتماع المعارضة المرتبطة بالإمامة نفسها ومنهم آلاف مؤلفة من السادة الزيدية، لايتوقع منهم ان يتركوا الميدان دون مقاومة. كان الزيدية اشدّ تعصباً وتمسكاً بالتقليد من أن يسكتوا والضباط وبعضهم زيديّة، كانوا ادرى بالتاريخ الطويل لدولة الإمامية وكل سيدّ فيهم يَعتبر حماية الإمامة واجباً دينياً.

ماعتم الثوار أن وجدوا أنفسهم يزاولون عين الاسلوب الهمجي الذي درجت عليه دولة الإمام بتصفية المعارضة. بادروا فوضعوا السيف في رقاب عدد كبير من افراد الأسرة المالكة الادنَيَيْن واختلفت الأرقام في عدد الضحايا الذين صرعوا في اولى ايام الثورة. حتى قيل ان القصد كان استئصال هذه الاسرة بالتمام.

وما حصل بعدها ان سيف الاسلام الحسن احد ابناء عّم البدر تمكن عن طريق عدن من

(٣٠) يعني بالهاشميين المنحدرين من آل هاشم عشيرة النبي. وبالقحطانيين عرب الجنوب وسكان اليمن الأصائل إلاّ انهم كانوا في ذلك الزمن فئة تخضع لنفود وتحكّم الهاشميّين.

(٣١) انكرامز المرجع السالف ص١٣١.

(٣٢) اختلفت الروايات في كيفية نجاته وتخلصه من الطوق المضروب حول القصر. واصدق الروايات قد يكون ما رواه هو نفسه وهو المعوّل عليه عموما: قال انه كان في القصر مجتمعاً بوزرائه حتى الحادية عشرة. وعندما انفض الاجتماع هجم عليه احد افراد حرسه محاولاً قتله وهو في طريقة الى مخدعه فالقي القبض عليه وبعدها بنصف ساعة اقبل جندي ليخبره بأنه سمع قعقعة سرفات المدرعات ثم قطعت القوة الكهربائية وبدء القصف طوال الليل. وفي صبيحة اليوم التالي قرر الخروج بثيابه العادية وغادر القصر ولم يكن جريحاً. فتعرفت عليه امرأة زيدية واعطته ثياب جندي وترك صنعاء ليلاً بخمسة من اتباعه وفي صبح اليوم التالي اصبحوا الفاً وخمسمائة وزاد عددهم وهو يتجه شمالاً.

الوصول الى لندن في ١٤ من تشرين الأول ليعلن نفسه اماماً على انه عاد ليقرّ بإمامية البدر بعد ثبوت نجاته. وأضاف في تصريح له بأنه سيعود لينضم الى قوات البدر في الشمال. فبادر البدر الى تعيينه رئيساً للحكومة وبات يقود مجموعة من القوات الاماميّة.

واعلن السلاّل عن نفسه قائداً عاماً للقوات المسلّحة. ورفّع نفسه الى رتبة مشير (فيلد مارشال) ومارس الحكم على رأس مجلس قيادة الثورة المؤلف من الضباط السبعة الذين قاموا بالانقلاب. وفي ٢٨ من ايلول عهد الى نفسه برئاسة الوزارة واختار [عبدالرحمن البيضاني] نائباً له ومحسن اليمني وزير خارجية ومحمد محمود الزيدي وزيراً للتعليم وقد نقل كل هؤلاء على عجل بالطائرة من القاهرة الى اليمن.

سرعان ما ادرك جماعة القاهرة ان السلال لاينوي ان يشارك احداً فيما خاطر بحياته في سبيله. وتضاءل أمل (البيضاني) وآل به الأمر إلى الاستنجاد بالوسائل التي مارسها من قبل في محاولة ازاحة (السلاّل). إلاّ ان الظرف لم يكن بعدُ مناسباً.

وفي ٢٧ من أيلول اعلن مجلس قيادة الثورة سياسة الحكومة الجديدة ببرنامج ضخم يتألف من فصلين[٣٣] اوّله خصص للاصلاحات الداخلية وثانية اختصّ بمعالجة مسألة القومية العربيّة وطموحاتها بالنسبة الى اليمن.

في نهاية شهر تشرين الأوّل بعث عبدالناصر المشير عامر في زيارة لليمن. وعلى أثر ذلك تم تعديل في مجلس قيادة الثورة فبات يضمّ ثمانية عشر عضوا بينهم عدد من المدنيين. منهم البيضاني والزيدي والعيني. وفي اثناء قيامه اعلن المجلس الجديد بتاريخ ٣١ تشرين الأول

(٣٣) تألف الفصل الأول من نقاط ثمان: (١) إعلان اليمن جمهورية عربية. (٢) التمسك بمباديء الشريعة الاسلامية القومية بعد ان افقدها الحكام الطغاة المتفسخون أثرها والعمل على ازالة كل اسباب الفرقة والاحقاد العرقية والدينية والعشائرية. (٣) تنظيم الجماهير في كتلة شعبيّة موحدة لتساهم في اقامة بناء ثوريّ والسيطرة على اجهزة الثورة. (٥) تحقيق العدالة الاجتماعية من خلال نظام إجتماعي يتفق مع اوضاع الوطن وروح الشريعة الاسلامية. (٦) البدء بثورة ثقافية – تعليمية تهدف الى تدمير ومحو آثار النظام القديم الذي اشاع الجهل وكان السبب في التأخر الثقافي. (٧) تشجيع رأس المال الوطني شريطة ان لايؤدي الى الاحتكار او الاستغلال. (٨) مناشدة المبعدين للعودة والاستفادة من تجاربهم وثرواتهم.
وفي الفصل الثاني وهو الميدان القومي العروبي وضعت هذه الاهداف:
(١) الايمان بالقومية العربية وبذل الجهود لتحقيق الوحدة الكاملة في دولة عربية واحدة. تبنى على المباديء الديمقراطية والشعبية (٢) التضامن الكامل مع سائر الدول العربيّة وفق ما تتطلبه المصلحة القومية. (٣) مساندة الجامعة العربيّة. والعمل على زيادة فعاليتها. (٤) تقوية العلاقات مع الدول العربية المتحررة بهدف بلوغ الوحدة. (٥) تحسْين العلاقات الاقتصادية مع الدول العربيّة. (٦) اتباع سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز واحترام ميثاق الامم المتحدة واقامة علاقات مع الدول التي تحترم حريتنا واستقلالنا. (٧) قبول المساعدات الخارجية والقروض غير المشروطة والتي لاتمس استقلالنا وحرية بلادنا.

دستوراً مؤقتاً يتألف من ١١ مادة. نصّ آخرها على تعيين السلاّل رئيساً للجمهورية ورئيس وزارة وقائداً عاماً لجميع القوات المسلّحة.

كانت الانجازات القلمية الورقية التي نشرها الثّوار محطّ اعجابٍ ومنها:

تأسيس بنك الإنشاء والاعمار الوطني لتمويل المشاريع الصناعية والتجارية. مضاعفة رواتب الجنود وضباط الصفّ والضباط بسن قانون التجنيد واقامة مجلس اعلى للشؤون القبلية. وفي المجال الاجتماعي والاداري أزال النظام الجديد حكم السادة من كلّ الادارات. والغى بعض الضرائب المجحفة وأبطل قاعدة فرض سكنى الجنود وايوائهم على القرى. ومصادرة الأراضي الزراعيّة المترامية التي يملكها الإمام واعضاء اسرته وايداع المحاكم الى الممثلين عن الشعب.

وبهذا نقلت اليمن الى مصاف الدول المتطورة ورقّن اسمها من قيود وقوائم الدول الرجعيّة المتأخرة.

على ان حكومة الانقلاب لم تجد بداً من الرجوع إلى عين الاسلوب الامامي الوحشي في تصفية المشتبه بهم من الاضداد والمعارضين. وتعاقب تنفيذ احكام الإعدام بعد محاكمات سريعة لاتزيد احياناً عن بضع ساعات في محاكم جديدة اطلق عليها اسم [محاكم الشعب]. بفارق بسيط هو التنفيذ فقد رأت الثورة ان قطع الرأس بالسيف هو عمل همجي واستبدلته بالرصاص لأنه أليق بالثورة وانسانيتها. وانشغل راديو صنعاء كلّ يوم تقريباً باذاعة اسماء موظفين بارزين في نظام الامام تمّ اعدامهم الحياة بعد ادانتهم بتهمة "خدمة الاقطاع والرجعيّة والطغيان"[٣٤] فقط.

وبدا الحكم الجديد ضعيفاً في فشله ببسط السيطرة الكاملة على المرافق العامة. وعلى رصّ الصفوف خلفه. الجيش كان صغيراً وضعيفاً، ازاء القبائل المسلّحة. وضباطه المسلكيون لايملكون وعياً سياسياً ولا قدراً كافياً من الثقافة ولا فهماً لمدلول المصلحة العامة، ولاتجارب

(٣٤) في اليومين التاليين على الثورة اعدم الحياة ٢٢ شخصيّة بارزة. من بينهم حسن ابراهيم وزير الخارجية، والمندوب الاسبق للامم المتحدة عبدالرحمن ابو طالب. وفي اوائل شهر تشرين الثاني تمّ اعدام ٣٢ من السادة الشريفيين ومن رجال الدين والعلماء. واعدم حاكم صنعاء عبدالله الشامي بعد ادانته بتوقيع معاهدة مع بريطانيا وتآمره على أمن الدولة. وتبعه الى الأبدية احمد ابراهيم الذي كان رئيساً لأركان الجيش لمدة اربعين عاما. وعمرهُ ثمانون عاماً بتهمة الخيانة العظمى والفسّاد. وفي تشرين الثاني اعلن راديو صنعاء عن اكتشاف مؤامرة لاسقاط الحكم الجمهوري وتم اعدام اكثر من اربعين خارج سجن الحّجة ادينوا بالمشاركة فيها [المراجع السالفة].

في التعامل مع الرجل العاديّ.

انها ثورة قامت في مجتمع عشائري مسلّح. مستعدّ للقتال بعضه ضدّ بعض لا دخل للعروبيّة والشعور القومي فيه على الاطلاق. احلال النظام الجمهوري بدل النظام الإمامي كان أشبه بمبضع جراحيّ ماضي الحدين لم يكن المريض مستعداً له.

وبالبدر والقبائل في شمال البلاد، بدت الحرب الاهلية لامناص منها. والدور الذي نهضت به مصر في تهيئة الانقلاب وبحكم الدوافع التي حملتها عليه بات التدخل المباشر في حكم المؤكد. بل كات التخطيط له قد تمّ قبل إعلان الثورة. وبدءَ التنفيذ قبل التأكد من سيطرة الانقلابيين، بل قبل أن تتاكد القاهرة من نجاة (البدر) ومن دون أن تضع في الحساب احتمال نشوب حرب اهليّة. كان عبدالناصر يحلم بالفرصة الذهبيّة في تواجد قويّ له داخل جزيرة العرب وقد حانت، وهو الآن بتماسٍ مثلاً مع المملكة العربية السعودية من الشمال والشرق يُبقي حكامها في حالة قلق وتوفز دائمين، ومن الجنوب لتصفية حساب قديم مع غزاة القناة البريطانيين بخلق المتاعب لهم في عدن والمحميات[٣٥].

وسواءٌ في الأمر، أعلمت القاهرة بنجاة (البدر) فعلاً فموّهتْ لشد أزر الانقلابيين وشلّ اي مقاومة محملة لهم في الداخل، أم انها كانت حقاً تجهل ذلك، فإنها كانت مهيّأة للتدخل العسكري. إذ لم تمض ثماني عشرة ساعة على صدور البيان الأول. حتى رست في ميناءالحُديدة سفينة مصريّة وأفرغت حمولتها من الخبراء المدنيين والعسكريين والمواد الطبيّة والاسلحة. وبعد أسبوع واحد رست ثلاث سفن حربيّة أُخرى وافرغت حمولة من الدبابات ومدافع الهاون وكميات من القنابل فضلا عن وحدات عسكريّة مصرية راحت تتزايد بإطراد. وذكر أن البدر قال في تصريح له موجهاً القول لعبدالناصر إن الطريق الى إسرائيل هو سيناء لا اليمن. وفي ٢٠ من تشرين الأول ١٩٦٢ اعلن السلاّل بأن:

"اخانا الرئيس جمال عبدالناصر قد أمر قبل دقائق قليلة بإرسال قوات ضاربة كبيرة لإسنادنا."

(٣٥) في هذا الصدد يذكر تريفيليان (المرجع السالف الص٢٠٩-٢١٠) مانصبه في العام ١٩٦٢ صرحت الورقة البيضاء للدفاع Defence White Paper بان الجيش البريطاني سيتخذ من عدن قاعدة دائمة وتمّ تعزيزها وتوسيعها. وفي اليوم الذي تلا التصويت على انضمام عدن الى اتحاد دول المحميات الغربية (تمّ تأسيسه في ١٩٥٩) سقطت دولة الإمام الذي كان في نزاع دائم على حدود اليمن الجنوبي. وطلبت الجمهورية الجديدة العون من مصر. ولم تعترف بريطانيا بالنظام اليمني الجديد... وتصاعدت الأعمال التخريبية في كلّ من المحمية وعدن بإحتثاث ومساعدة من المصريين واليمنيين. وفي كانون الاول ١٩٦٢ اصيب حاكم عدن العام الذي كان ايضاً مندوباً سامياً للمحميات بجراح اثر انفجار قنبلة وقُتل نائبه".

وببدء شهر تشرين الثاني كانت ستّ عشر دولة قد اعترفت بالجمهورية العربية اليمنية[٣٦].

وزاد حجم القوات المصريّة باحتدام الصراع ودخول السعوديّة طرفاً.

كان الانقلاب حدثاً خطيراً ونذيراً للاسرة السعودية المالكة. فبادرت ورحبت (بالبدر) حين التجأ إليها وتجمع في المناطق المتاخمة كبار انصار نظام الإمام ورؤساء القبائل والسادة والسعودية تزودهم بالمال والسلاح وتقذف الأموال الطائلة على القبائل اليمنية التي رفَعَت راية العصيان على الجمهورية الفتية، بل ساندت الحركات التخريبية داخل اليمن. وفي ٥ من تشرين الاول سمحت السعودية للملكيين اليمنين بتشكيل حكومة منفى في جدّة وبعدها بستة أيام فقط صرح (البيضاني) الذي اصبح نائب الرئيس الجمهورية بحكم الدستور المؤقت. ان بلاده هي في حالة حرب مع السعودية[٣٧].

ارسل المشاة المصريون الى ميدان القتال فوراً ثم تبعتها الآليات ثم القوة الجوية. كانت قوات السلال ضعيفة ومحدودة للغاية حتى أنه شرع يجند احياناً تلاميذ المدارس في المدن باعمار تتراوح بين الاربعة عشرة والسادسة عشرة[٣٨] وذكرت التقارير الصحفية ان القوات التي شرعت في الهجوم على (مأرب) شرق اليمن في ٢٣ من تشرين الثاني كانت مصرية خالصة. وتلك التي احتلت (صعدة) كان بينها ١٥٠٠ جندي وضابط مصريين من المظليين[٣٩].

وأرسلت مصر أيضاً افواجاً من الاطباء والمعلمين والمهندسين والاداريين وزوّد كلّ وزير يمني بمستشار مصري ومعاونين. وعاد الوفد اليمني الذي ارسل الى موسكو في ٢٦ من تشرين الثاني جذلاً وهو يحمل موافقة الحكومة السوفياتية على تزويد النظام الجديد بالسلاح. وارسلت اسراب من الطائرات الحربيّة المصرية تقصف تجمعات الملكيين شمال غرب البلاد

(٣٦) بضمنها سورية والعراق. ولم تعترف لا الاردن ولا السعودية.

(٣٧) مع هذا يذكر الصحافي دانا ادم شمدت في كتابه: اليمن الحرب المجهولة: نيويورك ١٩٦٨ ص٦٣ D. A. Schmidt: Yemen: the Unknown War ان الطبقة العليا في السعودية كانت منقسمة على نفسها حول ما يجب عمله أتعترف بلادها بالنظام الجديد إم تمضي في تأييد البدر ومده بالعون. وقدم ستة من اعضاء الوزارة من الطبقة المتوسطة مذكرة للملك يقترحون الاعتراف بالوضع الجديد. إلاّ ان الاغلبية بزعامة الامير خالد كانت قد بدأت بمساعدة الملكيين وكالعادة كان الملك سعود مذبذبا لايستقر على رأي ثم القى بحظوظه مع الملكيين اليمنيين.

(٣٨) دانا آدم شمدت من تقرير نشر في نيويورك تايمز ١٥ كانون الاول ١٩٦٢.

(٣٩) قدر عدد القوات التي وصلت من مصر حتى ١٥ من تشرين الثاني ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف. ومامرّ شهر واحدٌ حتى ارتفع العدد الى(١٣٠٠٠). [المرجع السالف] وفي آخر المطاف كان على الحكام المصريين ان يزجّوا في المعركة (٧٠٠٠٠) من مختلف الصفوف. وقدروا باكثر من هذا عندما بدأت عملية اخلائهم في النهاية.

فدمرّت وأحرقت قرى عديدة ودفن تحت انقاضها سكّانها العزّل بالمئات إن لم يكن بالالوف حسب إدّعاء الملكيين.

ومع تدفق النجدات المصرية فقد بقي نفوذ الجمهوريين في نهاية العام ١٩٦٢ قاصراً على مدينتي صنعاء والحديدة وعلى جزءٍ من الوسط و(تعز) واقسام من الغرب والجنوب في حين سيطرت قوات البدر على نصْف البلاد لاسيما شمالها.

كره المواطنون المصريون التدخل العسكري وكان الكره يزداد بازدياد عدد الضحايا ووصول الجرحى والمعوّقين. وانتشرت اشاعات حول عصيان على الاوامر لبعض الضباط وعن الكمائن القتّالة التي كان الملكيون ينصبونها للدوريات المصرية وعن إبادة وحدات كاملة في معركتي (مأرب) و(سرواح) وعن جدع أنوف الجنود الأسرى وصلم آذانهم. ولم يعد من قبل الاسرار قيام سلاح الجوّ المصري بقصف القرى والتجمعات السكنية بالناپالم المحرم دولياً.

تبرير التدخل كان في غاية البساطة: انه استجابة لنداء السلال بقصد حماية الجمهورية ضدّ اعدائها الذين يتلقون المساعدة والتشجيع من السعودية والاردن في الشمال والشرق ومن بريطانيا في الجنوب. لكن كان هناك ايضاً تبرير عقائدي نابع من المفهوم القومي العروبي أملته مركزية مصر في زعامة البلاد العربيّة الثورية التحررية. وايمانها بضرورة اسناد النضال العربي في الاستقلال والتحرر. وقد اعتبرت الانقلاب اليمني حركة تحرر عربيّة من التأخر والطغيان. فتدخلها لايعني غير تطبيقها بامانة واخلاص – الميثاق الاشتراكي العربي الذي نصت مادته الحادية عشرة على ان الجمهورية العربيّة التي هي جزء من الأمّة العربيّة ترى نفسها ملزمة بنشر مفاهيمها ومبادئها ووضعها في خدمة كل مواطن عربي. ولاترى من الضروري وهي في سبيلها هذا أن تتقيد بالحجّة القديمة البالية التي تنزل هذا العمل منزلة التدخل من جانبها في شؤون الآخرين»[٤٠].

سيكون سابقاً للأوان بسط صورة مجملة لما حصل بعد ذلك بمتابعة مسيرة التدخل العسكري المصري والعمليات الحربيّة الطويلة وبكل ما تخللها من الكوارث والخطوب وعقبها من حمامات دم ونزاعٍ قتّال على السلطة. وبأكداس من المحاضر والسجلاّت في لقاءات ومداولات ووساطات واتفاقات ومواثيق تمضى وتوّقع لتخرق او تهمل قبل ان يجفّ الحبر منها. ادّت كلها بالأخير الى انسحابٍ غير مشرّف لقواتٍ مهشمّة منهوكة ضائعة الرشد والمعنويات. كان سيقع عليها بعد سنتين وبعض سنة ان تخوض حرباً غير متكافئة لتتمزق بقية اشلاء لها شر ممزق.

(٤٠) عن النص الكامل في الجرائد المصرية.

فلولها تهيم في مجاهل القفر اليباب حافيةً عارية جائعة لاغبة في صحراء سيناء.

تركت هذه القوات بلاداً عربيّة خالصة النشأة في فوضى فكرية واجتماعيّة إلاّ انها سجلّت لمرسلِها مأثرة تحرير هذا الجزء من الأمّة العربيّة. وانقاذه من مظالم حكم اوتوقراطي رجعيّ استبدادي بقي جيلاً كاملاً ميدان صراع دمويّ قتال بين جماعات وارهاط محتربة على الزعامة وحبّ الاستئثار بالسلطة.

لم يعط الثوريون العروبيّون فرصةً مهما صغرت للإمام الجديد كي يحقق الاصلاحات التي وعد بها... كانوا مستعجلين! لكن كان هناك نجاح احرزه التدّخل العروبيّ المصري، كسب لليمن عنوانا دولياً جديداً، أدخلت فيه لفظة «عربيّة» ولفظة «جمهورية».

ملحق

الى العرب
«الأرجوزه الأحمدية في حقيقة الاشتراكية الناصرية»
من نظم الإمام يحيى حميدالدين

نصيحة تُهدى الى كل العرب ... ذوي البطولات العظام والحسب
نصيحة تحرك الضمائرا ... وتوقظ القلوب والمشاعرا
وتستثير نخوة الأجداد ... وشِيَم المكارم الامجاد
من شرفوا ألسُنهم عن الخنا ... وللحِمى والعِرْض كانوا أصونا
نصيحة ازفها إليهمو ... عسى أرى قبولها لديهمو
ان يذكروا ما جاء في القرآن ... من حكم معجزة البيان
تدعوهمُ لألفة القلوب ... ووحدة الصفوف في الخطوب
وان يكونوا كالبنا المرصوص ... فيسلموا مذمة النكوص
ويرفعوا في قمة المجد علم ... وينصروا الحق اذا الخطب ادلهمّ
وينشروا مباديء الاسلام ... والعدل والسلام في الأنام
فقد اتى في محكم التنزيل ... ما لا مجال فيه للتأويل
كونوا على عدوكم أعوانا ... ورحماء بينكم إخوانا
اعزة عند اشتداد البأس ... لايستلين عزمكم لليأس
واتبعوا ما انزل الله لكم ... وأخلصوا لوجهه أعمالكم
واعتصموا بحبله جميعا ... واجتنبوا الفرقة والتشنيعا
وكم اتى على لسان احمد ... من الهدى الى السبيل الأرشد
كم حثنا لوحدة الصفوف ... ونبذ كل مبدءٍ سخيف
وكم دعانا للإخا والحب ... والبعد عن قول الخنا والعُجْب
هذي التعاليم التى علمنا ... خير رسول جاء رحمةً لنا
فما دعاكم يابني العُرب الى ... هذا النزاع والخصام والقِلى؟
ومالكم حدتم عن الطريق ... وعبثت فيكم يد التمزيق؟
واصبحت قلوبكم اشتاتا ... ليست تعير رشدها التفاتا
فأدرك العدو منكم امله ... وفتّ زندكم وهز مفصله

★★★

مـــالي اراكم تملاؤن الأرضـــا ... قـولاً يفـيض حسـداً وبغـضـا
وتفـعـمـون الجـو بالشـتـائم ... وتصـفـعـون جـبـهـة المكارم
وتصـــرخـــون من فم المذياع ... بكل صـــوت ناشـــز الايقـــاع
كم تشتمون بعضكم بعضاً وكم ... هتكتـمـو ياقـوم جـانب الحُـرَم
اقلقـــتم مـــضـــاجع الآباء ... ولم تصـــونوا ذمـــة الوفـــاء
واستحيَت الامجاد منكم والشرف ... وسَـخّـرت منكم عناوين الصـحف
وابتسم العَدو بسـمـة الظفـر ... كـأنما احـتل حـمـاكم وانتـصـر
نسـيـتـمـو عـدونا المشـتـركـا ... وصـرتمو بعـضـاً لبـعض شَـركـا
شننتـمـو الحـروب فـيـمـا بينكم ... ودسـتم العـهـد الذي يصـونكم
ولم تراعـو حـرمـة الإسـلام ... ولا شـعـار القـادة العظام
فـصـرتمو عـاراً على الآباء ... ولعنةً في شـفـة السـمـاء
وصـيَّـرتْكم شـهـوة الأطمـاع ... سـفـيـنةً تاهت بلا شـراع
فـهـل تعـودون الى الرشـاد ؟ ... وتغـسـلون دَرَنَ الأحـقـاد ؟
وتقطعـون ألسن السـبـاب ... وتغـلـقـون عنه كـل بـاب
وتنبـذون الكيـد والخـداعـا ... والعُـجْب والغـرور والأطمـاعـا
مـتى تكفّـرون عن اخطائكم ... وتـأخـذون الدرس عـن آبـائكم
وتجـمـعـون صـفكم كي تضـربوا ... اعـداءكم وتعـمـروا مـا خـرّبوا
هيـا فـقـد آن الاوان وانتـهـت ... عـصـور ذلٍّ سـيطرت واسـتـحكمت
خـضـعـتم فـيـهـا لأمـر الاجنبي ... وذاب فـيـكم كل عـرق عـربي
هيـا بنا نبني صـروح الوحـدة ... ونرتقي للمـجـد اعلى قـمـة
فـينتـشي تاريخنا افـتـخـاراً ... وتركع الدنيـا لنا إكـبـارا
هيـا بنا لوحـدة مـبنيـة ... على اصـولٍ بيننا مَـرضـيـة
قـانونهـا شـريعـة الإسـلام ... قـدسـيـة الأوصـاف والأحكام
ليس بهـا شـائبـة من البـدع ... تجـيـز مـا الاسـلام عنه قـد منع
مِن أخْـذ مـا للناس من امـوال ... ومـا تكسّـبـوا من الحـلال
بحـجـة التـأمـيم والمعـادلة ... بين ذوي المال ومن لا مـال له
لأن هـذا مـالـه دلـيـل ... في الدين أو تجـيـزه العـقـول
فـأخـذ مـال الناس بالإرغـام ... جـريمة في شـرعـة الاسـلام
ولايجـوز اخـذ مـال الغـيـر ... إلا بان يرضى بدون ضَـيْـر

والدين قـد سن الزكـاة فـينا ... طهـارةً لما حـوت أيدينا
يعـيش منهـا العـاجـز المحـروم ... ويسـعـد الحـاكم والمحكوم
وليس في مـقـدارها احـجـاف ... ولا خـلا من امـرها الإنصـاف
وممكنٌ اصـلاح مـا قـد كـانا ... ومـحـو مـا قـد غـيـر الأذهانا
وعـودة الماء الى مـجـراه ... فـينعم الشـعب بما يهـواه
ويسـتـتب الأمن في البـلاد ... وينـزل الخـصـب بكـل وادي
وليس في العَـوْد الى الصـواب ... مـذمـة لدى اولي الألبـاب
فـالحـسنات نقـتل الآثامـا ... وتُذهِب الاحـقـاد والاوهامـا
والبـعض قـد يغـدو الى وئام ... إذا مَـحـوت الذنب بالاكـرام
فـإن وعـيـتم ياولاة الأمـر ... نصـحي أمنتم غـائلات الدهر
وسـدتم الدنيـا بكل فـخـر ... وجـتـمـئـوا الأخـرى بكل أجـر
والله يهـديكم الى الرشـاد ... ويبـسط الخـيـر على العـبـاد

يحيى حميد الدين

الفصل الثاني والثلاثون

العناصر القومية النشطة تنزح عن العراق الى سورية أولاً ثم الى مصر . عودة لفحص مبالغات الإعلام العربي في قتلى أحداث الموصل وكركوك . حملات "صوت العرب" والصحف العربية . مساعي قاسم لكسب الرأي العام السوري بعد الانفصال . لقاؤه مع ناظم القدسي . الشكوى السورية من عبدالناصر . فشل عبدالناصر في الجامعة العربية . متاعب قاسم . تعامله الغريب مع أعدائه والمؤتمرين به . ادعاؤه بالكويت وتكتمه في نواياه حيال الدولة الجديدة . إعلانه عن عدم استخدام القوة . اتفاقية ١٩ حزيران بين بريطانيا والكويت . الثورة الكردية . إعلان الانتفاضة وتسلم الحزب الديمقراطي الكردستاني قيادتها . إنزال قطعات بريطانية ثم عربية في أرض دولة الكويت الجديدة . انتباه العالم الخارجي الى الثورة الكردية . تأييد معنوي لعبدالناصر للثورة . محاولة الشاه في التدخل الى جانب الثورة ومساعدتها . تفاقم الوضع الداخلي في العراق . تكتل الضباط القوميين ضد قاسم . منافسة بين قيادة البعث والضباط القوميين على تزعم حركة انقلابية ضد قاسم . سباق محموم في المبادأة ثم التعاون . بيان الانقلابيين الأول . بيانات متعاقبة بالفصل والتعيين والإحالة الى التقاعد ، وتنفيذ أحكام الموت . مؤسسة الحرس القومي . استباحة دماء الشيوعيين . حيرة العالم الخارجي من تشكيلة الحكم الجديدة . برقية الاعتراف بالحكم من عبدالناصر وجوابها . استمرار سياسة الأخذ بالثأر . الإرهاب الأعظم والخوف . جلادون محترفون . موقف الإعلام العربي من التصفيات الجسدية وحمامات الدم

في غضون الأعوام ١٩٦٠-١٩٦٢ هجر العراق عددٌ كبير من القوميين الناشطين الى (ج.ع.م). سيما اولئك الذين شاركوا في محاولة العقيد الشواف الانقلابية بصورة مباشرة او غير مباشرة او من كان يخشى الوقوع في قبضة السلطة وتبعهم اولئك الذين شاركوا أو نفذوا عملية محاولة اغتيال قاسم. فامنت لهم حكومة (ج.ع.م) في سورية خفض العيش وحرية العمل بما في ذلك حرية النشر فملأوا الصحف والراديو بأنباء مثيرة معظمها مختلق او مبالغ فيه عما يعانيه القوميون في العراق في ظل نظام قمعي يسيطر عليه الشيوعيون والبلوغ به

الى حد الفجاجة بوصف أفانين التعذيب التي يلقاها معتقلو محاولة الشواف الإنقلابية في معسكر أبي غريب ومعتقل الدبابات.

ونشر راديو القاهرة خبر موت فلان من أثر التعذيب ليظهروا بعد قليل في المحاكمات التي جرت لهم. بولغ فيها كما ذكرنا في فصل سابق.

سمحت السلطة السورية الجديدة لمن أراد من هؤلاء بعد الانفصال بالانتقال الى القاهرة ولم تحاول المقايضة بهم على حساب التقرب من حكم قاسم.

استخدمهم الإعلام المصري أبرع استغلال وفتحت لهم دور النشر وكلها حكومي - ابوابها لتقذف بأسخف واكذب الأدبيات تشنيعاً بقاسم ونظامه. وللاعلام المصري الناصري هيبته ومقامه في الاقطار الناطقة بالعربية فمن لم يكن من حكامها عدواً لعبدالناصر لم يكن كذلك صديقاً لقاسم ونظامه الذي لم يكن مستعداً اوربما كفؤاً لممارسة تاكتيك الدعاية المضادة. فلم تتعدّ حربه حدود العراق وفضاءه، لم يكترث قاسم في اي وقت بمحاولة اعطاء صورة خارجية لنظامه رداً على الاعلام المصري ولا حفل بنقل حربه الدعائية الداخلية الى وسائل الاعلام الخارجية وبقيت مبالغات واكاذيب «صوت العرب من القاهرة».

والمطبوع الذي يجاريها سيد الميدان والمصدر الرئيس الذي يمتار منه الكتاب الاجانب والصحافيون ويعتمدون عليه في كتابة احداث العراق وسقط كثير من هؤلاء في شراك مطابخ القاهرة دون تحقيق ولاسيما ارتكازهم إلى اهم دعامة قامت عليها صولة القاهرة وهي ما حصل في اعقاب فشل إنقلاب الشواف. ومن فوضى وقتول بكركوك (آذار وتموز ١٩٥٩ على التوالي). طال الـ٢٥ او الـ٤٠ او ٦٧ الذي لاقوا حتوفهم في الموصل. والـ٣١ الذين قتلوا في كركوك أصبحوا مئات عديدة وآلافاً، وكانت هذه المبالغات- والظاهر المقصود بها الشيوعيون- تتفق ونوايا قاسم في تحجيم الحزب الشيوعي العراقي[1] ولم يجدها موجهة ضد

(١) من بين الكتاب المحترفين الذين خدعوا بها جورج حداد-George. M. Haddad: Revolutions and Milli tary Rule in the Middle East: the Arab state. ج٢: ص ١١٣. نيويورك ١٩٧١ قال: «آلاف شنقوا وسجلوا في شوارع الموصل أو قتلوا بمجموعات رمياً بالرصاص خارج المدينة. في حين وقفت وحدات الشرطة والجيش تتفرج...». كذلك الدكتور مجيد خدوري. العراق الجمهوري. Dr. Majid Khaduri: the Republican Iraq. «شكل الشيوعيون محاكمهم الخاصة واصدروا أحكاماً سريعة نفذت فوراً... اما الذين حكمت عليهم المحاكم الشعبية بالاعدام فقد علقوا على اعمدة الكهرباء في الشوارع ولايذكر احد ان الموصل قاست من الاهوال في تاريخها ما قاسته خلال الايام الاربعة الأولى من مذابح مروعة...» واشنطن: ١٩٧٠. ص ١٥١. وعن كركوك: «كان تطهير الشوعيون لكركوك أعنف واشرس من الموصل... واسفرت المعركة التي حصلت عن قتل ٧٩ شخصاً ودفن ٤٠ شخصاً وهم احياء... وقد يكون عدد القتلى اكثر من هذا بكثير. وكان هذا التطهير من الوحشية والفظاعة بحيث شجبه قاسم ووصفه بالوحشية... والاكراد =

حكمه أو شخصه، رغم انها كانت الفرصة التي اقتنصتها القاهرة للنيل منه والتشينع على نظامه. كان ردّه من خلال رئيس المحكمة العليا الخاصة العسكرية. ومن خلال اذاعة بغداد وخطبه ذات العبارات الغامضة الغامزة اللامزة التي فتحت الباب للمبالغات المخجلة.

العداء الناصري القديم لنوري السعيد يتوجه الآن ضد قاسم بشكل فاق اولهما عنفاً. ها هي المنافسة التاريخية القديمة بين بغداد والقاهرة تبعث الآن من جديد، وتدفعها وتؤجج نارها الخيبة الكبرى من رفض رجل بغداد الزعامة القاهرية، وقد صورت بالخيانة للقومية العربية، وهي بالتالي خدمة مجانية للصهيونية والاستعمار والامبريالية والشيوعية.

وبذل (قاسم) المساعي لكسب الرأي العام السوري بعد الانفصال. وتحدث عن المصير المؤسف الذي آل اليه شعب سورية اثناء الوحدة. وذكّر عبدالناصر بالدور المصري المخزي في حرب العام ١٩٤٨ ضد اسرائيل وفي العام ١٩٥٦ وغيره بقبول مرابطة القوات الدولية على حدوده. وزاد على هذا أنه تبنى شعارات عبدالناصر وخط دعايته بتقليد نفسه زعامة القومية العربية.

والملاحظ هنا ان كلاً من قاسم وعبدالناصر. اعطيا الفرصة في وقت معين لسادة الكرملين باستخدامهما الواحد ضدّ الآخر. ويذكر ان موسكو استخدمت مصر ضد العراق اثناء الدعوة

= شعب محارب الا انه شرس وفظ أعملوا السيف في المدينة وسحلوا وقتلوا الى حد لم تعد معه مجزرة الموصل شيئاً مذكوراً.» اما اكرم الحوراني (المرجع السالف – المسلسل) فقد ضاعف عدد القتلى سبعاً وعشرين مرة بقوله «وفي تاريخ ١٤ تموز ١٩٥٩ الذي كان الذكرى الاولى للثورة قام الشيوعيون في كركوك بمجزرة رهيبة دامت عدة ايام ذهب ضحيتها ٨٥٠ قتيلاً... وكنت اظن قبل ذلك ان ما يذاع عن جرائم الشيوعيين في العراق فيه شيء من المبالغة لكن مجازر كركوك فاقت كل ما يذاع عن جرائمهم». جاء في مذكرات بهاء الدين نوري ص ١١١. حول حصيلة الخسائر البشرية التي نجمت عن محاولة الشواف. وبضمنها تلك الجناية الوحشية الحمقاء التي ارتكبها الحزب الشيوعي في الموصل بعد نهاية الانقلاب بقتلهم ١٧ شخصاً أعزل «كان عدد الضحايا من الشيوعيين وسائر مؤيدي السلطة قرابة مائة شخص مقابل ٤٠ شخصاً من ضحايا الطرف الآخر. وقد طغت نزعة الثأر على سلوك المسؤولين المحليين للحزب الشيوعي فقتلوا (١٧) وهم من ضمن الاربعين قتيلاً من أبرز الخصوم السياسيين المؤيدين لمحاولة الانقلاب وفي وقت كانت المحاولة قد قمعت. وحين التقيت بعضو اللجنة المركزية لحزبنا المحامي (حمزه سلمان) الذي كانَ قد اوفد من بغداد الى الموصل كمشرف حزبي إبان الاحداث، وجهت اليه اللوم بخصوص (محمد حسين ابو العيس وزكي خيري وجورج تللو) بسبب قتل هؤلاء الاشخاص السبعة عشر بعد ان كان التمرد قد اخمد. فمد يده الى جيب سترته واخرج رسالة وقدمها اليّ وقال: "كنت اتوقع هذا اللوم منك ومن رفاق آخرين ولهذا احتفظت بهذه الرسالة لأدافع بها عن نفسي. ارجو ان تقرأها الآن وتعيدها إليّ". قرأت الرسالة وكانت بخط جمال الحيدري ومذيلة بتوقيع المكتب السياسي. كانت التوجيهات المدونة متطرفة اذ امرت باستثمار الموقف لتصفية الرؤوس المعادية. ولم اعرف ما اذا كان الحيدري قد كتب هذه الرسالة بالاتفاق مع سلام عادل ام مع غيره ايضاً».

لحلف بغداد. وهي الآن تستخدم العراق ضد مصر عندما ساءت العلاقات الناصرية بالاتحاد السوفياتي. وفي ١٩٥٥-١٩٥٨ كان شيوعيو سورية يساندون عبدالناصر ضدّ العراق، باتوا الآن يساندون قاسماً مع شيوعيي العراق.

وبالعودة الى الوراء قليلاً، من المفيد تذكرة القاريء ان عبدالناصر دعا في ١٩٥٩ الى اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية لبحث «الوضع الخطير في العراق» وكان القصد منه اذلال قاسم. فاجتمع وزراء خارجية الدول العربية ببيروت في اوائل نيسان. إلا ان وزراء العراق والاردن وتونس ارسلوا مندوبين عنهم. ورفض الحاضرون بعد مناقشات دامت اسبوعاً واحداً – الموافقة على اي نوع من التدخل او ادانةٍ للعراق وهو ما طلبته (ج.ع.م) وانتهى المؤتمر بفشل لعبدالناصر.

وكان نصراً معنوياً لقاسم، رغم ضآلته. لكنه على ما يبدو تضخم في مخيلة هذا الرجل وزاد اعجابه بنفسه. ولم يكن يعاب عليه صدق نية الا ان تلك الخيلاء اضعفت من صدق النية والتجرد. وبرغم اضطراره المستمر الى انشغاله بمعالجة التناحر الداخلي الشرس على السلطة بضربات متواصلة للضباط الناقمين المتآمرين حيناً وبالعفو والتكريم حيناً، بدا بمظهر الحاكم المتفرد الذي حلت كلمته محل القانون. وبهذا الشكل وبالمكائد تنصب له في كل زاوية وعطفة طريق، وجدناه مدفوعاً وبصدق نيةٍ طبعاً الى اضافة نزاعه مع شركات النفط على متاعبه ثم وباندفاع خالٍ من أية حكمة أضاف ادعاءه بالكويت التي باتت دولة مستقلة في ١٩ من حزيران (يونيو ١٩٦١) فكسب عداء بريطانيا في هاتين القضيتين. وكانت سياستها دعم حكمه.

وفي قضية الكويت عزل نفسه عن الدول الناطقة بالعربية والدول الاجنبية الأخرى التي قبلت التمثيل الدبوماسي مع الدولة الجديدة بسحبه سفراءه من سائر الدول التي اعترفت باستقلالها فبادرت تلك الدول الى سحب سفرائها ايضاً.

ما من شك في ان (قاسماً) كان على نحوٍ ما يؤمن بان الكويت هي جزءٌ من العراق وأنّ البريطانيين تعمّدوا عندما رسموا الحدود العراقية في ١٩١٨ و١٩٢٣ على اخراج قضاء الكويت من ولاية البصرة. (مثلما وافقوا على اخراج قضاء ديرالزور مثلاً من ولاية بغداد وضمه الى سورية[٢] ربما كان يختفي وراء المطالبة خلق الضجة والدوي الذي يحن اليه

(٢) ما اظن (قاسماً) كان على علم بهذا الواقع. وبأن فصل قضاء او متصرفية في ولاية وضمها الى اخرى في العهد العثماني كان شائعاً وسريعاً ومتواصلاً بحيث يتعذر على المؤرخ المتقصي متابعة ذلك [راجع كتابنا: مغامرة الكويت: الوجه والخلفية. جزآن. ستوكهولم ١٩٩٢]. ان الرد القانوني السياسي البسيط =

الدكتاتور عادةً حين يجد اسمه يختفي تدريجاً من موضع الصدارة في سماء الصحف والانباء العالمية.

ووجد نفسه مع الضجة المنشودة - يخوض معركته حول الكويت وحيداً عندما اعتبر مرسومه الجمهوري الكويت قضاءً تابعاً لمحافظة البصرة، لم يكن هذا مجرد ادعاء بل هو اعلان بان الكويت لم تعد دولةً قائمة وانما هي جزءٌ من العراق. ولم يكن هناك شبهة في ان المتابعة ستكون بوسائل سلمية. بالعكس فالافتراض الاكيد هو انه مادامت الكويت جزءً من العراق فبوسع الجيش العراقي ان يدخلها في أي وقتٍ يشاء كإجراء إعتيادي أي بمشروعية وجوده في اي جزءٍ آخر من العراق[٣].

لم يكن أحد يدري ما كان يبيت قاسم في ضميره. قادة الجيش وقعوا في حيرة والدبلوماسيون في وزارة الخارجية صعقوا، والوزراء في حكومته بهتوا وقصارى ما تمكن هؤلاء من عمله هو حصولهم على وعد منه بعدم استخدام القوة ولم يجرء احد منهم على مناقشة صحة الادعاء. ومع انه امر بحركة عسكرية، الاّ انه لم يدفع باية وحدة الى حدود الدولتين لم يستطع احد ان المرض العقلي في عبدالكريم كان يحول دون تفسير منطقي لاجراءاته، يقول تريڤليان[٤]:

«على ضوء المعلومات التي اجتمعت لدنيا، قمنا بهذا التقويم: على اغلب الاحتمال كان (قاسم) ينوي ضم الكويت بانقلاب وُقِّت تنفيذه في يوم ١٤ تموز وهو الذكرى الثالثة للثورة. ويبدو ان بعضهم قال له ما عليه إلا ان يعلن ضم الكويت ليجد اغلبية الكويتيين الى جانبه وخطط بأن ينشيء قوته الخاصة وينشرها تحت غطاء التدريب على استعراض ١٤ تموز. وربما كان إعادة نشر قواته الخاصة قد قصد منه غطاءً على حركة الجيش اذ ان تكون القطعات في المواقع

= والمفحم على هذا الادعاء. هو ان معاهدات الصلح (مؤتمر ڤرساي) خلقت دولاً جديدة من اراض واقاليم ملحقة بدول لم يكن لها وجود قبلها إن كان في اوروپا او في منطقة الشرق الاوسط. خلقت عراقاً جديداً من ولايات وأقضية ورسمت له حدوداً. كما فعلت في ولايات واقضية اخرى لتخلق منها دولة سورية. ودولة لبنان. ودولة الحجاز وكل هذه الدول مع امارة الكويت لم يكن لها وجود على الخرائط السياسية. لكن من كان يستطيع ان يقول للدكتاتور انك مخطيء؟

(٣) يحضرني ما انبأني به موظف كبير الشأن في وزارة الخارجية العراقية إنه هيأ يوم اعلان استقلال الكويت برقية تهنئة لأميرها وذهب بها الى قاسم وكان وزيراً بالوكالة نظراً لغياب الوزير هاشم جواد. فمزقها وكتب بقلمه صورة برقية يهنيء فيها امير الكويت على خلاصه من «معاهدة ١٨٩٩ المزيفة مع بريطانيا». ولم يقل فيها شيئاً حول الاستقلال الأمر الذي كان فعلاً يبيت النية ويعد لها وان المطالبة بها لم تكن بنت الساعة.

(٤) المرجع السالف ص ١٦٦.

المخصصة لها في نهاية حزيران حتى يعلن الضم. ثم يرسل قواته الخاصة بزعمٍ ما لإكمال العملية. وربما وضع في حسابه أنه قادر على البقاء ما ان يكون داخل الكويت وان البريطانيين بتجربتهم في السويس لن يحاولوا اخراجه.»

إلا ان اتفاقية ١٩ حزيران بين بريطانيا والدولة الجديدة اخذته على حين غرة. وما مرت ايام قلائل على اصداره المرسوم حتى ادرك ان القاعدة السياسية لعمله قد نسفت نسفاً باعتراف الدول العربية بالكويت وبنزول قطعات عسكرية انگليزية. واعتراف الجامعة العربية بها مع سبق اتفاق لها مع بريطانيا على ارسال قوات عربية لحماية استقلالها بدلاً من القوات الانگليزية التي ابدت استعدادها للانسحاب.

كانت ضربة سياسية أليمة لقاسم، فعاد ليصرح انه لم يعتزم قط استخدام القوة. وكان على قوله بأنه سيعتمد الطرق السلمية لاستعادة الكويت[٥].

شاءت المقادير ان يكون ادعاء «قاسم» سبباً في أن يطفو على سطح المقدرات السياسية العروبية - كل الصراعات على المصالح بين الدول الناطقة بالعربية، ولاسيما مسألة الوحدة. فقد بدت بعيدة عن الفكر العروبي بعد القمر عن الشمس، إلا انها بقيت في يد عبدالناصر والبعث مثلما بقي قميص عثمان في يد معاوية.

وتألفت القوات العربية ونزلت الكويت وانسحبت القوات البريطانية وهي «قوات الاستعمار» التي اشار اليها في مؤتمره الصحفي فجردت اعلامه من حجته الكبرى[٦].

وبدا للمتابع كما اتضح للعالم في الخارج أن رجل الشارع العراقي لم يكن مهتماً قط. فلا تظاهرت مؤيدة ولا مسيرات شعبية. وبقيت الاذاعة وحدها ناشطة في ميدان الحملة السلمية. وبدأت صورة قاسم التي رسمتها ريشة الحزب الشيوعي العراقي تنصل الوانها ونزعها كثيرون

(٥) اكد (قاسم) ذلك في ٢٥ حزيران خلال مؤتمره الصحفي. إلا انني لم أقع على طريق سلمي معيّن باشره في هذا المجال. إلا اذا اعتد بالحجج الضعيفة المتهافتة التي ادلى بها مندوب العراق في الجامعة العربية والمؤتمر الصحفي الذي عقبها، من جملة الوسائل السلمية. وكذلك حشده الفنانين والفنانات والمطربين والمطربات في دار الاذاعة واصدار الأمر اليهم بتسجيل تلك «الاغاني الوطنية» حول ضم الكويت الى العراق. تلك الأغاني الفجة التي فاقت بسخفها ورقاعتها الاناشيد والاغاني القومية المصرية المذاعة يومياً من دار الاذاعة القاهرية تمجيداً بثورة يوليو وبصانعها. بقيت تلك الاغاني تصكّ اذان العراقيين ثم تضاءل بثها باطراد، وماجاء العام ١٩٦٣ حتى كانت قد اختفت تماماً من برامج اذاعة بغداد.

(٦) انزلت قوات مختلطة للسودان والأردن و(ج.ع.م) قوامها يتراوح بين ٢٣٠٠ و ٢٥٠٠ جندي بناء على قرار اتخذته الجامعة العربية في تموز (يوليو) ١٩٦١ باقتراح المندوب السوداني. وعلى اثر ذلك انسحب المندوب العراقي من الاجتماع احتجاجاً. وشرح في مؤتمر صحفي أحقية العراق بضم الكويت بوصفها جزءً تاريخياً منه. لكنه لم يكن موفقاً كما اسلفنا.

من فوق صدورهم. وتخلف انطباع بأن الرجل أنوَك. وطمع به المتآمرون وتشجعوا وراحوا يتكتلون بما يقرب من العلن الا انهم باتوا يدركون جيداً بأن انقلاباً عسكرياً مدبراً هو الوسيلة الوحيدة لازاحته عن السلطة. يقول تريڤيليان:

«كان علينا ان نؤمن الرادع المؤثر، لكن وبعين الوقت ان نظهر النزاع وكأنه مسألة عربية داخلية خالصة. وبالطبع لم يكن انزالنا القطعات العسكرية صعباً. لكن المشكلة هي كيفية اخلائهم. وفي لندن قدروا أن القوات العربية لن تبلغ القدر الكافي من القوة لردع العراق. وفي بغداد كان اعتقادنا بان الرادع السياسي كافٍ. بحيث يكون في رفضنا القوة العربية والنأي بانفسنا- القضاء على سمعتنا، إلا ان أمير الكويت بت في الأمر بتفضيله الرادع العربي على الرادع البريطاني.»[٧]

★★★

وبقدر ما كانت الثورة الكردية تزداد رسوخاً وصلابة وتفتح لمناهجها آفاقاً واسعة في ذهن الشعب الكردي، كان (قاسم) يزداد عزماً وعناداً على استخدام القوة والتعامل مع الثورة على أساس كونها حركة عصيانٍ تحركه قوى خارجية اجنبية أضرّ بها التحول السياسي الذي حققته ثورته.

كانت انباؤها قد اخترقت الحصار الاعلامي ووجدت سبيلها الى وسائل الاعلام العالمية. وبدأت ايران ومصر كل من جانبه يلعبان بورقتها ضدّ قاسم. لم يبخل عبدالناصر عليها بالتفاتة عطف ودأب الإعلام القاهري يضرب على نغمة «التخبط القاسمي» في معالجة مشاكله الداخلية واختياره الحل العسكري متخذاً من فشله في القضاء عليها مادةً للسخرية ودليلاً على عجزه. ثم سمح باقامة ممثل للثورة في القاهرة.

في حين بدأت حكومة الشاه بمحاولات للتقرب من قيادة الثورة نكاية بقاسم فأغمضت عيناً عن التبادل التجاري عبر الحدود. وفتحت عيناً لاستقبال الجرحى من الأنصار بشكل محدود ومعالجتهم في مستشفياتها والمساعدة على اخلائهم. تلك العلاقة التي كانت ستتوثق كثيراً وتأخذ أبعاداً كبيرة فيما بعد وتدخل في صميم سياسة الشاه الخليجية. اي تحقيق سيطرة ايران على الخليج الفارسي ومن اهم بنودها اضعاف البلدان الساحلية والعراق كان اقواها لحدوده الطويلة معها.

(٧) تريڤيليان: المرجع السالف ص ١٦٩.

وكان انعطاف الريف المسيحي الى الثورة واضحاً بحمل سكانه السلاح الى جانب الثورة[٨].

القوات التي واجهت الانتفاضة وبعين عقلية العسكري الذي يتوق الى إظهار جدارة وشجاعة مهتبلاً اي فرصةً تعنّ له[٩] وتتيح له فرصة التقدم المسلكي والشهرة بالشجاعة والكفاءة.

وقر رأي (قاسم) على ان يخوض معركته الأخيرة مع ضباط الجيش وحلفائهم الناصريين والبعثيين بمفرده، برفضه تسليم السلاح الوفير في وزارة الدفاع لأولئك الذين هبوا لنصرته والمحافظة على نظامه كتلاً متراصة تملأ شارع الرشيد وتهتف له وهو في طريقه الى وزارة الدفاع مطالبةً بالسلاح بإلحاح وعناد.

(٨) مثلاً اثار التحاق الفتاة الآشورية (مرغريت جورج) بالفصائل المسلحة (البشمركه) ومشاركتها الفعلية في القتال حماسة واندفاعاً في نفوس المقاتلين الا ان ذلك يتضاءل ازاء ما كسبت للحركة الكردية من شهرة في الاعلام الاوروبي فهذا ان اغفل كتاب ألّفه صحافي غربي عن الثورة ذكراً لها (مثلا دانا شمدت: ص ١٩٩ من ترجمتنا كتابه رحلة الى رجال شجعان. كتب «كثير من البشمركة الكرد يحتفظون بصورتها في محافظهم» (ورينيه موريس) يتحدث عنها باسهاب انظر ٩٣-٩٦ من ترجمتنا كتابه: كردستان او الموت. «سرعان ما اسفرت عن وجه مقاتل ممتاز يتحلى بكثير من الجرأة والاقدام... ان بسالتها حققت عجائب نسبة الى بنات جنسها...». وفي كل ما كتب عناصر مبالغة ونسج خيال كثير الاّ انها كانت مادة دعائية ثمينة.

(٩) كان اذذاك بمنصب (مقدم اللواء) لواحدٍ من اثنين من الألوية التي اوكل اليها أمر العمليات العسكرية. وهو اللواء الثالث. ذكر لنا وكما جاء في ص١١٩٣ الدكتور عبدالباقي رمو وكان آمراً لمستشفى الميدان وقتذاك وعلى صلة (بقاسم)، إن قاسماً كان قد اصطفى لنفسه احد رؤساء المنطقة الموالين واسمه (أسعد شيتنه) الذي استخدمه لتزويده بأنباء تحركات الثوار. وقد علم منه أن البارزاني يعتزم سحب مقاتليه من جبل نواخين والذرى الأخرى المشرفة على الطريق المؤدية إلى (ميركه سور) وهي من ضمن اهداف اللواء الرابع وهو بقيادة العقيد الركن رفيق عارف (رئيس اركان الجيش قبل ١٤ تموز). بشكل ما اقنع قاسم آمره العقيد حسيب الربيعي بان يسمح له باستباق اللواء الرابع الى إشغال هذه المواقع قبل أن يفطن اللواء الرابع الى انسحاب الثوار منها فتم له ذلك. وطبق ما دوّنه العقيد حسين (موسوعة ١٤ تموز. ج٦. الص ٢٤-٢٥ «ان الرائد الركن قاسم تحرك مع جماعة مختارة ليلاً وتسلق (نواخين) وباغت العصاة واحتل اهدافه وفتح الطريق الى مركه صور امام جحفل اللواء الرابع. وابرق الى مقر قيادته «امنت الجماعة المختارة اهدافها» ثم انه هيأ حرساً لتحية الجحفل المذكور عند مروره من ميركه صور وهو يريد بهذه العملية ان يقول لهم: انكم احتللتم اهدافكم بفضل جنود جحفلنا». يقول صاحب موسوعة تموز: ان آمر الجحفل الرابع اغتاظ من تصرف قاسم وابرق برقية تهكمية رداً على برقية قاسم للتقليل من شأن العمل جاء فيها: «لقد احتل جحفل اللواء الثالث ميركه صور عاصمة الرايشتاغ» آه. مهما يكن من أمر فالحكم على موقف قاسم من ثورة ايلول الكردية يبقى معلقاً ومؤرجحاً بين من يسلم بمشروعية الثورة وبين من يرى ان قاسماً كان مصيباً في الاصرار على الحل العسكري بهدف القضاء عليها. لكن ليس هناك من يجادل في أن ديمومتها وأصالة مقاصدها كانت من اهم العوامل التي ادت الى سقوطه.

كانت معركة غير متكافئة بدون هذه الجماهير. وذكر أحدهم قوله أنه رفض اشراك الشعب في معركته بعلة تحاشي سفك المزيد من الدماء وقوله «لا ارغب في قيام حرب اهلية»[١٠] واعتمد على قادة القطعات المرابطة في بغداد الذين اختارهم بنفسه. وبينهم قريب له. وكان يفترض فيه ذلك الذكاء والخبرة والتجربة التي تؤهله الى ادراك سرعة تغير ولاء ضباط الجيش العراقي وتربصهم باول اشارة نصرٍ تبدو في نزاع غريمين. وتجربة الرابع عشر من تموز لم تكن بعيدة.

إن كان حقاً ما عزي اليه من مثل هذه المقولة. فما هو الوصف الذي يمكن اطلاقه على تلك الحرب التي كانت تدور رحاها في جبال كردستان طوال ثمانية عشر شهراً؟

أقرّ كثيرون من قادة البعث فيما بعد ان تسليح الجموع الحاشدة المناصرة لقاسم كان كفيلاً بأن يخلق للانقلابين مشكلة عظمى واعترف بعضهم بأن حركتهم كانت ستوضع في كفة القدر. وان حرسهم القومي بأفراده القلائل كانوا سيكتسحون اكتساحاً بالجموع الغفيرة الهادرة التي اندفعت من تلقاء نفسها وبالدعاة الشيوعيين الذين وضعوا أنفسهم على رأس تلك الجموع بيقين لاشائبة فيه بأنهم يخوضون معركة موت وحياة[١١].

(١٠) ذكر العبارة النقيب قاسم الجنابي مرافق قاسم، في رسالة موجهة لمؤلف موسوعة ١٤ تموز: (المرجع السالف. ج٥. ص٤٠٢). وهو الوحيد من الخمسة الذين اقتيدوا الى الاذاعة ليقتلوا – فنجا وحده. وانا لا اميل الى تصديقها لكنها شهادة ستبقى ابداً فلا سبيل الى تأييدها أو نفيها إلا ان الظروف والخلفيات تكاد تؤيد شكي. كان (قاسم) يؤكد ويؤمن بان الشعب معه وان المتآمرين في كل زمان ومكان هم فئة محدودة العدد جداً لاتتمتع بقاعدة شعبية حقيقية وظنه كان هنا قريباً من الحقيقة. وقد بقي يتعامل مع الانقلاب الى آخر ساعة بهذا التصور – سيتصل بهذه القطعات وتلك ويترك الاوامر الى القادة الذين نصبهم على رأسها فلاتلبى ولاتطاع. كان عليه وبالذكاء وبعد النظر الذي عزاه لنفسه وعزاه كل انصاره اليه تسرعاً وغفلةً أن يتعظ بتجربة الرابع عشر من تموز فمن بين الضباط الخمسة آلاف الذين اقسموا كل بدوره يمين الولاء للنظام الملكي والدفاع عنه لم ترتفع يمين واحدة انتصاراً له عندما انطلق صوت مذيع البيان الأول – إلا يد واحدة (واقصد اللواء الركن عمر علي قائد الفرقة الثالثة) وقد عوقب على محاولة البر بقسمه بالاشغال الشاقة المؤبدة). كان على قاسم أن يدرك هذه الحقيقة قبل محاولة الاستنجاد بهم لذلك فإني استبعد جداً ان يتصور قاسم نشوب حرب اهلية نتيجة تسليح الجموع المحتشدة. اذ لم تكن هناك جموع محتشدة معادية مسلحة بالاصل.

(١١) تحدث طالب شبيب (د. علي كريم سعيد «من حوار المفاهيم الى حوار الدم، مراجعات في ذاكرة طالب شبيب» بيروت ١٩٩٩– الص ٨٣–٨٤) قال: «احاط المتظاهرون بالدبابات الأولى (المتجهة الى وزارة الدفاع) وصعدوا فوقها وفتحوا اغطيتها واخرجوا قادتها الضباط (الاربعة) وقتلوهم بالخناجر والسكاكين... ووصل بعد ذلك رتل آخر من الدبابات يقوده العقيد الركن المظلي عبدالكريم مصطفى نصرت الذي اخبرني قائلاً: ادخلت دبابتي وسط جموع تهتف بحياة عبدالكريم قاسم ورغم ان واجبي هو مهاجمة وزارة الدفاع الا اني وجدت نفسي ودبابتي وكل الرتل اسرى وسط تلك الجموع وسيكون مصيري القتل اذا ما وجهت مدفعي لمهاجمة وزارة الدفاع. ولذلك فتحت بوابة الدبابة وخرجت محيياً الجماهير ورددت =

اصاب المتآمرون في تقديرهم بأن القطعات العسكرية المرابطة في بغداد لن تتحرك لنصرته وان عليهم أن يواجهوا فحسب الجموع التي ستهب لنصرته وقد حسبوا لها حسابها ايضاً وكان تقديرهم صائباً لقدر ما يمكن أن تفعله.

★★★

استقل (قاسم) كالعادة باختيار الوسائل واتخاذ التدابير لحماية جمهوريته من القوميين المتآمرين. وكان على علم بما يبيت له ولها[١٢] ولعله كان يدري ايضاً بأن هؤلاء وفقوا الى تحييد الثورة في كردستان بوعودٍ قولية عبر لقاءات. كانت خطة ساذجة جداً.

ففي مناسبة ما واظنها مناسبة السادس من كانون الثاني وهو يوم الجيش. القى (قاسم) خطاباً ضمنه انذاراً مبطناً للمتآمرين يهدف الى ان يلقي في روعهم بأنه على معرفة تامة بما يبيّتون وانه اتخذ الحيطة. قال: «لقد قسمنا بغداد الى قطاعات عسكرية بعيون ساهرة يقظة وبحسب خطة رسمناها لتوجيه الضربة القاضية بكل من تسول نفسه... الخ». وشدد القول على هذا مراراً. ثم انثنى فجأة ليعلن وقف اطلاق النار من جانب واحد «وقد اصدرنا الاوامر الى القوات المرابطة في شمالنا بالتوقف عن الحركات ضدّ المتمردين لنتيح لهم الفرصة للعودة الى الحياة الطبيعية وليكونوا مواطنين صالحين وعفا الله عما سلف».

سمع كاتب هذه السطور هذه العبارة فجزم بأن يكون لقاسم علم بالمفاوضات التي تجري بين الپارتي والمتآمرين.

ثم اعقب خطبته بايام قلائل باصدار قائمتين بالإحالة الى التقاعد بلغ مجموع ضباطها ١١١ من ضمنهم اثنان برتبة لواء و٣٢ برتبة عميد و٢٥ برتبة عقيد و١٢ برتبة مقدم. واغلق دون انذار نادي المنصور (موضع لقاء كثير من القوميين المعادين) ونواديَ أخرى وعلل بيان الحكم العسكري سبب اغلاقها بأنها من اوكار التآمر.

= معهم نداءهم المعروف «ماكو زعيم الا كريم» واذذاك مررتُ بدبابتي تتبعني الدبابات الاخرى يكرر قادتها ما فعلته. وما ان وصلنا على مقربة من النادي الاولمپي حتى استدرنا ثانية نحو مبنى وزارة الدفاع وبدأنا حال اقرابنا من المتظاهرين باطلاق النار فوق الرؤوس».

(١٢) معرفة الحزب الشيوعي بما يجري في السر اكيدة. وينقل الفكيكي (المرجع السالف الص: ٢١٤–٢١٥) عين التفاصيل التي سمعتها من عضو بارز في الحزب الشيوعي. يقول: «حين تسرب خبر حركة البعث وموعدها الى قيادته حاولت استثمارها لاعادة التحالف بينها وبين قاسم وطلبت اللقاء به فوراً غير انه بدلاً من استقبالها انتدب مرافقه الاقدم وصفي طاهر. فعرض عليه اعضاء القيادة أخبار الحركة وتفاصيلها وطلبوا التعاون وتوزيع السلاح لسحقها الأمر الذي رفضه قاسم... وحين احاطوا بموكبه مقابل وزارة الدفاع صبيحة ٨ شباط مطالبين بالسلاح، رفض مجدداً واعداً اياهم بسحق الحركة».

كان معظم الضباط من ذوي الرتب العسكرية الكبيرة الذين أحالهم الى التقاعد على رأس التآمر. إلا ان الذين نفذوا خطة الاستيلاء على الحكم واحتلال النقاط الرئيسة في العاصمة والهجوم على مبنى وزارة الدفاع كانوا من ذوى الرتب الصغيرة. حتى ان راديو القاهرة كان يتحدث عن «ثورة الملازمين»[١٣].

كانت قيادة حزب البعث في العراق قد اعيد تنظيمها وارسل علي صالح السعدي من دمشق في نيسان ١٩٦٠ ليكون امين السرّ القطري بدلاً من فؤاد الركابي وزمرته. وسرعان مابدا الحزب في ١٩٦٢ القطب الذي تلتف حوله الفئات القومية أو ما دعي بالجبهة القومية، ومنها جماعة الضباط القوميين الناصريين واتحاد الطلاب القومي وبقايا من حزب الاستقلال. وحركة القوميين العرب. والرابطة القومية.

كان البعث يخشى من ذلك، أن يستبقه القوميون الى الحركة فتكون بيدهم المبادأة في كل الأمور ومنها احتكار السلطة.

ويصر طالب شبيب والفكيكي وغيرهم على ان القرار باسقاط قاسم ونظامه قد اتخذ في اجتماع لقيادتهم القطرية في شهر شباط ١٩٦٢. ويقول اولهما متباهيا:

«اني اشعر بالسخرية من اولئك الذين ينسبون قرار الثورة الى هذه الجهة او تلك. فهذا القرار الذي وافق عليه المؤتمر القومي الخامس (دمشق) ولم يعلم به لا عبدالناصر ولا القيادة القومية. وفي مرحلة الصراع (الداخلي البعثي) والتحضير. فوجئنا بمحاولات للتطبيع من قبل مصر مع حكومة قاسم تحت شعار التضامن العربي وادركنا ان ذلك سيكون على حساب التيار القومي في العراق. وذلك يعني أيضاً ان عبدالناصر قد بدأ يقتنع بنهاية (ج.ع.م) كاداةٍ للوحدة ويتقبل قاسماً حاكماً للعراق.»[١٤]

(١٣) الطيارون الثلاثة الذين اقلعوا من الحبانية وانقضوا على وزارة الدفاع: إثنان منهم برتبة ملازم وثالثهم برتبة نقيب. والضباط الاقدمون الذين اطلق سراحهم واحالهم الى التقاعد امثال احمد حسن البكر وطاهر يحيى وعبدالغني الراوي ارتدوا ثيابهم العسكرية وبقوا يمتثلون لأوامر اعضاء القيادة القطرية البعثية.
كانت ساعة الصفر اي البدء بالحركة قتل قائد القوة الجوية العميد الركن جلال جعفر الاوقاتي. فتم ذلك لهم في الساعة ٩,٣٠ صباحاً واختلفت الروايات في مكان مصرعه. وفي عين الوقت وباتصال تلفوني من بغداد اقلعت الطائرات من كركوك والحبانية. وانطلقت الدبابات مع فصائل صغيرة نحو وزارة الدفاع من ابي غريب ومعسكر الرشيد. وفي الساعة ٥,٣٠ عصراً استسلم فوج حماية وزارة الدفاع المؤلف من ٦٠٠ ضابط وجندي.
(١٤) المصدر السالف الص ٤٨-٤٩. كان هذا تقديراً خاطئاً او ربما متقصداً وآية ذلك الهجوم الكاسح الذي شنه الإعلام المصري على العراق إثر لقاء قاسم بالدكتور القدسي الرئيس السوري في البوكمال. =

ويردف د. على كريم سعيد. نقلاً عن رسالة خاصة له من احمد الحبوبي:

«ان القائمين على ١٤ رمضان لم يبلغوا القوميين (بساعة الصفر) لأنهم كانوا يريدون الانفراد بالسلطة وقد وشى (صالح مهدي عماش) قبل ذلك لقاسم بهم، وبنية القوميين القيام بانقلاب وكان هدفه ان لايسبق القوميون البعثيين بالحركة وان البعثيين ما جاؤا بعبدالسلام رئيسا للدولة إلا لكسب تأييد عبدالناصر والضباط القوميين.»[١٥]

ويؤيد الفكيكي قيام (عماش) بالوشاية فيقول إنهّ:

«اطلع القيادة القومية على قرار تأجيل يوم الانقلاب (وكان قد تعين في الاول من كانون الثاني ١٩٦٣). الا ان (عفلق) اكد ان تأجيل الانقلاب سيعني تسلم عبدالناصر العراق وسيطرته وأن ذلك سيكون كارثة على الحزب في العراق وفي سورية وفي كل مكان وانه طلب مني القفول الى بغداد بسرعة لابلاغ القيادة مخاطر التأجيل.»[١٦]

انه على ما يبدو شبيه بحلبة سباق خيل بين القوميين لا عملاً عقائدياً نابع عن مصلحة قومية، وبكل ما تستبطنه سباقات الخيل المشبوهة من غدرٍ ودسائس ووقيعة.

ليس بوسعي ان اجد تعليلاً عقلانياً لموقف الدفاع الرقيع الذي اتخذه للمحافظة على نظامه وعلى حياته في حين كان لديه كل مستلزمات الهجوم وعدة الكاسح: أي الشارع والجماهير وكيف فضل اسوء خطة عسكرية يقدم عليها ضابط صغير غير مجرب وربما كان مرضه العصبي الذي كثر الحديث والشائعات عنه السبب في انزوائه بوزارة الدفاع كما كان السبب المعقول الوحيد لتفسير قراراته وتصرفاته الشاذة[١٧].

= واتهامه بالتآمر على الوحدة.
(١٥) شبيب: المرجع السالف. الص ٤٨-٤٩.
(١٦) الفكيكي: المرجع السالف ص ٢٧٧.
(١٧) اوردت في كتابي «رجال ووقائع في الميزان» (اربيل ٢٠٠١. الص) أمثلة من تصرفات قاسم المتناقضة الشاذة. واليك ما اثبته الجواهري الشاعر الكبير في ذكرياته (ص ١٦٥-ج٢) حول هذا المرض الذي لم يسمه بتسميته: «عودة الى حياة قاسم ومدى مفارقاتها وانفعالاتها- فلربما اكون قد اتيت بالشيء الجديد الذي لا اتذكر احداً قد تطرق اليه. فضلاً عما ينبغي من ان يشدد عليه لما له من خطورة واهمية. وهو المرض شبه العضال الذي شاءت الصدف ان اكون اول الشاهدين عليه في لقاءاتي معه بلندن قبل اكثر من عشر سنوات من ثورته حين كان يستعرض معي فحوص الاطباء وكشوفاتهم وهو في معرض التشكي من وزارة الدفاع التي لاتريد ان تتحمل نفقاتها. واكثر من هذا وذاك عندما قام وفد الاطباء الكبار الذي استحضروا له من الاتحاد السوفياتي وطبعاً بكل سرية وتحفظ... هذا المرض نفسه حتى =

لا ادري كم كان يتوقع من صيادين خرجوا لقتله ليس بينهم من لايتمنى ان يجعل منه وليمة بعد حفلة قنصٍ ناجحة.

ويدركني العجب الشديد وأنا أسأل نفسي فلا أجد جواباً او تعليلاً مقبولاً لاستسلامه وتفضيله الوقوع بيد جلاديه على ان يموت بيده منتحراً او مستقبلاً رصاص مهاجميه بصدره في طليعة من بقي الى جانبه وفياً الى الأخير، دفاعاً عن نظامه وشعبه الذي هتف له فخذله.

اترك ذلك يائساً، لاولئك الذين مازالوا يرون فيه بطلاً وزعيماً شعبياً منزها عن الخطأ.

وبعين هذه الحيرة تساءلت كم كان يؤمن بتحقيق طلبه الأخير أي بوضعه بطائرة تنقله الى الخارج.

كانوا قد قرروا قتله قبل الظفر به حياً، وكل من يدعي بعكس ذلك يكذب. لم تكن هناك محاكمة او شبه محاكمة فهؤلاء لم يكونوا قضاة بل جلادين جرت محاورة صبيانية طريفة بينه وبين رئيس الجمهورية الجديد الذي رفع الى رتبة الفيلدمارشال – حول مَن كتب البيان الأول للثورة محاولاً ارغامه على قسم فوق نسخة من القرآن. مثله في ذلك مثل ذلك الذي ربح المليون وانشغل بالبحث عن عملةٍ صغيرة سقطت من جيبه. وقد حلا لبعض الكتبة ان يخلعوا صفة القضاء على مجموعة من القتلة أعماهم الحقد والغضب والخوف. وركبتهم خيلاء الاعتداد بما حققوا من فوز فما وجدت السنتهم شيئاً تنطق به غير العتاب المشبع بالتشفي واللوم المثقل بالسباب والاهانة ولا جديد عندي اضيف الى هذه الدراما التي سبقني لروايتها والتفصيل فيها كثيرون وسبقت فيها كثيرين[١٨] وليس بين رواية ورواية غير فروق سهى عنها بعضهم وتذكرها عنهم بعضهم. ومشاهد اتيحت لهذا دون ذاك.

تابعت عيناي يد الجندي وهو ممسك بشعر رأس الزعيم الأوحد يهزه ويميل به يمنة ويسرة ليؤكد للناظرين في لوحة التلفزة بأنه بات جثة هامدة. فتذكرت به ولا ادري ماذا زخرت به نفس اديب فرنسا العظيم ڤكتور هوگو وهو يرقب من شرفة النافذة بپاريس الموكب المهيب الذي كان يمر من امامه لجثمان ناپوليون بوناپرت المنقول من منفاه بجزيرة سنت هيلينا لدفنه في مقبرة العظماء (الانڤاليد) تلك المرثية الرائعة التي عدت من عيون الأدب الفرنسي الرفيع. وقد قضى جل حياته يقارع الاستبداد ويهاجم حكم الفرد ويدافع عن الحريات الديمقراطية فطورد وابعد عن وطنه سنوات.

= بعد ان شفي منه كما هو مفترض، ظل ينعكس على طباعه الغامضة المتقلبة احياناً وهذا ما غفل عن ذكره الكثيرون».

(١٨) مثلاً راجع كتابنا «العراق في عهد قاسم: آراء وخواطر». ج٢ الص ٨٨٧–٩٠٦. ستوكهولم ١٩٨٩.

وكڤكتور هوگو ذابت امام عيني كما يذوب تمثال من الثلج كل ما ذقته من آلام ومطاردة وسجن في عهده. وغابت متراكمات جرائم واخطاء فظيعة جرتها على البلاد واهلها دكتاتوريته المطلقة. ولم تبق امامي إلا صورة بائسة لاولئك الذين هرعوا لنجدته وآمنوا به وبقوا مخلصين له الى الأخير فسقطوا معه صرعى برصاص اعدائه.

ووجدته وهو مسجى على كرسي اعدامه يكتب بدمه فصلاً مخجلاً ويلطخ بالعار مجموعة أخرى من الضباط القتلة السفاكين الذين اغرقوا شعاراتهم القومية في الوحدة والحرية والاشتراكية وما اليها في بركة من الدماء بدأت تتسع وتنداح رقعتها بدماء بعضهم بعضاً في مسيرة معاركهم القومية.

ومن الخيال أعود الى الواقع لأفكر بجوابٍ على اسئلةٍ معينة:

ماذا سيكون حكم التاريخ على قاسم؟ وباي شكل سيرسي عليه؟

أي منحى من التفكير سيتخذ في اصدار الحكم على دكتاتورية قاسم العسكرية ذات الاربعة والخمسين شهراً بالمقارنة بالانظمة التي عقبته؟

كم كانت لآرائه وتطبيقاته صلة وثيقة بمشاكل الشعب العراقي وتطلعاته؟

واخيراً هل كانت ثورة الرابع عشر من تموز ضرورية؟ لمسيرة الديمقراطية في البلاد؟ في احداث انقلاب اجتماعي خطير للعراقيين جميعاً؟

وهذه الحرب على جزءٍ من الوطن في كردستان. أما كان بامكانه انقاذ الشعب العراقي من ويلاتها؟

إن الحكم على سمعة الشخصيات السياسية المسهمة بدورٍ رئيس في حياة مجتمع من المجتمعات. او شعبٍ من الشعوب. تشبه الى حد كبير سمعة كبار الفنانين والأدباء الذين يخطئهم التقدير وتفوتهم الشهرة الحرية بهم اثناء حياتهم. تختفي في ضباب الخمول حيناً ثم تخرق حجابه فتغدو الشغل الشاغل وحديث الناس ثم يلفها النسيان ثم تبعث من القبر ويدب فيها دبيب الحياة في جيل تالٍ من البشر عند يتضاءل او يختفي نهائياً الشعور بالألم المتأتي من مظالم او اعمال عنف ارتكبها هؤلاء الحكام. او عندما تقرأ المشاكل والمتاعب التي واجهوها بشكل اوضح.

وليس بعجيب ان يكون الخمول او اضمحلال الشعور بالمعاناة صحيحاً جداً وبنوع خاص عند الدكتاتور القادر على خنق الانتقاد وقتل الادراك العام للاخطاء التي وقعوا فيها وترويج

صورهم المثالية، واعجابهم بانفسهم اللامتناهي خلال فترة حياتهم وتسلطهم.

★★★

عد المتآمرون المنتصرون أنفسهم حكومةً حال صدور بيانهم الأول وقبل أن تفكر أية دولة بالاعتراف بالتغيير، ليسبغوا صفة الشرعية والقانونية على كل اعمالهم.

اذيع البيان الأول (ملح الطعام) في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة عشرة من صباح يوم ٩ شباط في حين ارخ في الثامن وبشّر العراقيين بالقضاء على (عدو الشعب) ولم يكن قد قضي عليه بعد. واذيع ونشر أيضاً مُصدّراً بالبسملة[١٩].

وخُصص البيان رقم (٢) لإحالة ١٨ ضابطاً على التقاعد بينهم ثلاثة برتبة لواء وعشرة برتبة عميد، وعقيد واحدٍ ومقدمان وملازم. ودعاهم الى تسليم انفسهم «حمايةً لهم من غضبة الشعب» الى أقرب مركز للشرطة.

وتلاه البيان رقم (٣) في تشكيل مؤسسة الحرس القومي. داعياً «ابناء الشعب البواسل»

(١٩) اليك مقاطع من البيان:
باسم الله الرحمن الرحيم:
ايها الشعب العراقي الكريم
لقد تم بعون الله القضاء على حكم عدو الشعب عبدالكريم قاسم وزمرته المستهترة التي سخرت موارد البلاد لتطمين شهواتها وتأمين مصالحها. فصادرت الحريات وداست الكرامات وخانت الأمانة وعطلت القوانين واضطهدت المواطنين... قامت ثورة ١٤ تموز لتحرير وطننا من الاوضاع الاستعمارية المتمثلة في الحكم الملكي وسيطرة الاقطاع وسياسة التبعية وتحقيق اوضاع ديمقراطية ينعم منها الشعب بحياة كريمة. لكن عدو الله (كذا) وعدوكم المجرم الخداع استغل منصبه واندفع بكل الوسائل الدنيئة والاساليب الاجرامية لإقامة حكمه الاسود الذي افقر البلاد وصدع الوحدة الوطنية وعزل العراق عن ركب العروبة المتحررة وطعن أماني شعبنا القومية... ان هذه الانتفاضة التي قام بها الشعب والجيش... من اجل مواصلة المسيرة الظافرة لثورة ١٤ تموز المجيدة لابد لها من انجاز هدفين: الاول تحقيق وحدة الشعب الوطنية والثاني تحقيق المشاركة الجماهيرية في توجيه الحكم وادارته. ولابد لانجاز هذين الهدفين الاثنين من اطلاق الحريات. وتعزيز مبدء سيادة القانون.
ان قيادة الثورة المتمثلة بالمجلس الوطني لقيادة الثورة... تأمل ان يترفع المواطنون في هذا اليوم المبارك من الضغائن والاحقاد وان يعملوا جميعاً على ترسيخ وحدتهم الوطنية وتقوية التضامن... ان المجلس الوطني يعمل على اقامة حكومة وطنية من المخلصين من أبناء الشعب ومن المخلصين من ابناء الوطن... وستعمل هذه الحكومة على إطلاق الحريات الديمقراطية وتعزيز مبدأ سيادة القانون وتحقيق وحدة الشعب الوطنية بما يتطلب لها من تعزيز الاخوة العربية الكردية وبما يضمن مصالحهما القومية ويقوي نضالهما المشترك ضد الاستعمار واحترام حقوق الاقليات وتمكنيها من المساهمة في الحياة الوطنية... كما ان قيادة الثورة تعاهد الشعب على استكمال الوحدة العربية وتحقيق وحدة كفاح عربي ضد الاستعمار والاوضاع الاستعمارية في الوطن العربي والعمل على استرجاع فلسطين المحتلة...»

الى مساندتها والجيش والشرطة «الى التعاون معها في تأدية واجبها المقدس». واعقبه البيان رقم (٤) معلناً إسناد قيادة الحرس القومي للعقيد الركن عبدالكريم مصطفى نصرت مع ستة معاونين. واعلن البيان الخامس قرار مجلس قيادة الثورة تعيين الزعيم عبدالغني الراوي قائداً للقوات العسكرية في منطقة الرمادي. وأمر البيان السادس باغلاق الحدود والمطارات. وفي البيان السابع قرر منع اي حركة للقطعات العسكرية إلا بأمر من المجلس الوطني لقيادة الثورة وفي البيان التاسع قرر منع التجوال اعتباراً من الثالثة بعد الظهر.

وتوالت اربعة بيانات ادارية الصبغة ثم اذيع البيان الثالث عشر المشهور. بوجوب الارشاد الى الشيوعيين وابادتهم بهذا النص:

«نظراً لقيام الشيوعيين عملاء وشركاء عبدالكريم قاسم في تعاونه بمحاولات يائسة لاحداث البلبلة بين صفوف الشعب وعدم الانصياع للأوامر والتعليمات الرسمية. وعليه تقرر تخويل القطعات العسكرية وقوات الشرطة والحرس القومي بإبادة كل من يتصدى للإخلال بالأمن. واننا ندعو جميع ابناء الشعب المخلصين بالتعاون مع السلطة الوطنية بالارشاد عن هؤلاء المجرمين والقضاء عليهم».

بمعنى أن لكل انسان الحق في قتل انسان آخر لاي سبب كان بزعمه فقط (دون حاجة الى اثبات) بأنّ ضحيته شيوعي او انه كان يقاوم الانقلاب. اي ان السلطة الجديدة لن تطالبه باي اثبات وانها تكتفي بمجرد قوله.

ثم صدر قرار برقم ١٥ بتأليف «المجلس الوطني لقيادة الثورة» وتخويل ممارسة السلطة العليا لجمهورية العراق بما فيها السلطة التشريعية وصلاحيات القائد العام للقوات المسلحة فضلاً عن السلطة التنفيذية والقضائية.

وصدر قرار برقم ١٦ معلناً حل مجلس السيادة واعفاء رئيس واعضاء المجلس من مناصبهم. وتلاه البيان رقم ١٧ معلناً اختيار عبدالسلام محمد عارف رئيساً للجمهورية العراقية من بين اعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة.

واعلن البيان رقم ١٨ تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة العميد احمد حسن البكر وتليت اسماء اعضائها الواحد والعشرين وسماها البيان بالحكومة المؤقتة.

واذيع بيان بنصب العقيد الركن عبدالكريم فرحان قائداً لموقع بغداد.

وتوالت التعيينات والاحالات على التقاعد. ثم تلا المذيع مباشرة تلك البرقية التي وجهها

صالح اليوسفي وفؤاد عارف لمجلس الثورة. فأثارت لغطاً واستنكاراً شديدين من جهات وطنية كردية ومن جهات في قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني[٢٠] وكان يتخلل البيانات وبرقيات التهنئة والتأييد المزور معظمها لاسيما عن قادة القطعات مقاطع من ذلك النشيد الشهير المصري:

الله اكبر فوق كيد المعتدي

الله اكبر للمظلوم خير مؤيد

قولوا معي: الله اكبر... الخ...

وجعل البيان رقم ٢١ اليوم الثامن من شباط الموافق للرابع عشر من رمضان عطلة رسمية.

وارسل المنتصرون من يأتيهم (بحسين جميل)[٢١] ليقوم لهم بصياغة قانون «المجلس الوطني لقيادة الثورة» وفق المباديء والضوابط التي اعتمدوها فأنجز ما كلف به خلال ساعات معدودات وهو وقت قياسي مقارنةً بالوقت الذي اقتضاه لصياغة مواد دستور عبدالكريم قاسم المؤقت.

★★★

بصرف النظر ورغم أنف كل التفسيرات والشروح والتعاليل التي تقدم بها اكثر من مسؤول كبير واحدٍ أو مؤرخ متعاطف مع البعث وقيادته القطرية العراقية، وكل محاولة منهم لرسم صورة لقيادة جماعية تخطط وتنفذ بأناة، وتتخذ قرارات رزينة بعد المداولة والمناقشة. فقد ظل حكمهم هذا الذي دام بضعة اشهر حكماً صبيانياً تتنازعه الاهواء والعواطف والمبادرات الفردية التي رقيت الى درجة الجنايات. تتخللها صراعات جانبية بين فئة المدنيين فيه والعسكريين. وتتزيا احياناً بأكسيةٍ طائفية صارخة اللون. كما هيمنت عليه اجواء القتل والتصفيات الجسدية.

(٢٠) قال لي في حينه شوكت عقراوي المهندس (صلة الحزب الديمقراطي الكردستاني بالمتآمرين) انه هو الذي كتبها. وهذه هي بسخفها وحماستها ان ضربات الشعب الكردي تلاحمت بالثورة المجيدة على العدو اللدود للقوميتين العربية والكردية وبقية الشعب العراقي وعلى الجلاد الاوحد لشعبنا الكردي المسالم وعلى اوكار الخيانة الملطخة بعار دماء شهداء الشعب وقواته المسلحة وكوارثهم وويلاتهم... نهنيء مجلس الوطني لقيادة الثورة الخ...

(٢١) تجمع المصادر كلها. ومنها قيادات الانقلاب انفسها بأنهم استعانوا بالاستاذ وهو القائد البارز في الحزب الوطني الديمقراطي. فقام بالصياغة (طالب شبيب: المرجع السالف. ص٤١٢٩ «وصاغ حسين جميل بقلمه وبتكليف من حازم جواد قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة بعد ان وضعنا خطوطه العامة».

كان «البعث» العراقي اول حزبٍ ذي ايديولوجية يمارس الحكم في اي بلد عربي. وحكمت عليه الاقدار ان يخرج من حكمه هذا بأسوأ النتائج والعواقب لاي تجربة سياسية جديدة على الصعيد القومي العربي او الانقلابات السياسية العنيفة. على ان سلطته كانت تعتمد أولاً وآخراً على القوة العسكرية لا على اي درجةٍ من القاعدة الشعبية. وقد انتهت دولته عندما سحب العسكر مساندته. كانت كحكومة قاسم: دكتاتورية عسكرية، مثلما كانت ايضاً في سورية.

لم يكن بوسع حزب البعث اقامة حكم ديمقراطي. لم يكن بوسعهم قط مواجهة حكومة برلمانية ذات مجلس نيابي. وكان الخوف الاعظم من ردة الفعل الشعبي من اصرارهم على كتم اسماء وهويات ذلك المجلس الذي ألّفوه من ثمانية عشر ليمارسوا من خلاله سلطة دكتاتورية. وقد تبين ان لهذه السرية فائدة كبيرة لستر تلك الجنايات والقتول الجماعية والفردية التي ارتكبت خلال فترة حكمهم وغطيت بقرارات حكم قضائية صدرت من تلك الهيئة المجهولة الحاكمة. كما اتاحت الفرص لهم بعد زوال حكمهم لالقاء تهمة ارتكابها بعضهم على بعضٍ، لاسيما الموتى منهم.

وبقي الشارع والاعلام والصحف والعالم الخارجي حائراً في أمر هذه الهيئة الحاكمة التي دعت نفسها بمجلس قيادة الثورة.

ثم صارت الهويات تعرف بالتدريج. ثم علم أخيراً وبعد زوال حكمهم في تشرين الثاني بان عددهم ثمانية عشر وكلهم بعثيون خلا اثنين: رئيسهم (عارف) وصديقه العقيد عبدالغني الراوي وهو اسلامي عروبي[٢٢].

(٢٢) وها هم اولاء: (علي صالح السعدي) امين سر القيادة القطرية خريج كلية التجارة كردي فيلي الأصل عمره ٣٥ سنة وقت الانقلاب و(حازم جواد) عربي شيعي عمره ٢٨ عاماً طرد من دار المعلمين العالية لاسباب سياسية و(طالب شبيب) عمره ٢٨ عاماً عربي شيعي لم يكمل دراسته (الهندسة) في لندن. وكان عضوا في الحزب الشيوعي العراقي لفترة (١٩٤٨-١٩٥١). و(حمدي عبدالمجيد) عربي سني عمره ٣٤ عاماً مدرس خريج دار المعلمين العالية. و(كريم شنتاف) عربي سني عمره ٢٩ عاماً. طرد من كلية الطب لاسباب سياسية. و(حميد خانحال) مدرس ثانوية عربي شيعي عمره ٣١ عاماً. و(هاني الفكيكي) عمره ٢٧ عاماً فصل من الدراسة في كلية الملك فيصل لأسباب سياسية شيعي الأب سني الأم. وهؤلاء هم الاعضاء المدنيون.
وبخلاف عبدالسلام عارف والراوي. كان ثم (احمد حسن البكر) عمره ٤٩ سنة عربي سني من تكريت انتمى الى الحزب في ١٩٦٠ ورفع بعد الانقلاب الى رتبة عميد. والرائد الركن (صالح مهدي عماش) عمره ٣٨ سنة عربي سني رفع بعد الانقلاب الى رتبة فريق. بعثي منذ ١٩٥٢. المقدم الركن (عبدالستار عبداللطيف) عربي سني عمره ٣٧ سنة. العقيد (طاهر يحيى) سني عربي عمره ٤٩ انتمى الى الحزب في ١٩٦١ رفع الى رتبة لواء بعد الانقلاب. العقيد الركن (عبدالكريم مصطفى نصرت) عربي سني، ٣٩ سنة. العقيد الركن (خالد مكي الهاشمي) عربي سني ٣٧ سنة. المقدم الركن (حردان عبدالغفار) سني عربي. =

والّفوا وزارة معظم اعضائها من البعثيين. وفيها قوميون معروفون واعطي الحليف الكردي مقعدين وزاريين هامشيين.

وذكر بيان نبأ قرار المجلس الوطني لقيادة الثورة تعيين العقيد عبدالسلام محمد عارف رئيساً للجمهورية (بعد ترقيته الى رتبة فيلدمارشال أي مهيب) لأجل غير مسمى «طوال فترة الانتقال» بعبارة البيان.

وكان الرئيس المصري اول المهنئين والمعترفين بالنظام الجديد ببرقية وجهها الى رئيس الجمهورية الجديد. وبدا وهو لايدري بأن صاحبه هذا كان وقتذاك شبه محجور عليه لايقوى على نقل ضابط صغير. فقد كان استحداث وزارة باسم «وزارة شؤون الجمهورية» واناطتها بحازم جواد وهو من أبرز العناصر القيادية البعثية اجراءً متعمداً يرمي الى وضع هذا الرئيس تحت رقابة الحزب الصارمة. والحد من اعماله وتصريحاته. وبالتأمل في البرقية الجوابية الجافة المقتضبة على برقية تهنئة الرئيس المصري[٢٤] واصرارها الواضح بان الانقلاب هو بعثي. وبتلميحها بأن القوة والسلطة الحقيقية هي ليست الآن بيد «اخيه الأصغر» بل بيد القيادة البعثية كان عبدالناصر سعيداً مع ذلك بزوال «قاسم» من الصورة، بعد ان بقيت شخصيته تنشر ظلالاً قاتمة من القلق والتحسب على زعامته العربية، وبالاخص عند استذكار الاحباط الذي مني به في سورية. لكن لم يطل الأمر به ليدرك بأن الانقلاب الجديد ليس ناصرياً وأن حكام بغداد يرفعون شعاراً جديداً «وحدة حرية اشتراكية». ومع ذلك فقد كان هناك تمثيل

= ٣٨ سنة رفع بعد الثورة الى رتبة عميد. الرائد الركن انور عبد القادر الحديثي، عربي سني. ٣٦ سنة.

(٢٤) نص برقية عبدالناصر وجوابها:

«لقد تابع شعب الجمهورية العربية المتحدة بقلبٍ صافٍ متجه الى العلي القدير احداث يوم ضخم كبير عاشه شعب العراق الباسل وحاول طواله بعزم وايمان ان يعيد تصحيح ثورته العظيمة ويجعلها حيث اراد لها ان تكون في خدمة وطنه وعروبته واني لأشعر ان شعب الجمهورية العربية المتحدة وصل الى نهاية هذا اليوم الحافل وهو يحمد الله من اعماقه أنْ أعلى ارادة شعب العراق وكتب النصر لها ومكن لهذا الشعب العظيم من ان يصبح سيد أقداره مرة أخرى ليكون كما هو حق له – طليعة النضال العربي وعزاً للأمة العربية. واني اهنئكم بثقة المجلس الوطني لقيادة الثورة في العراق واختياركم منه لرئاسة الجمهورية العراقية. ابعث اليكم في نفس الوقت بكل اماني التوفيق» (جمال عبدالناصر)

نص البرقية الجوابية:

«اشكركم اعمق الشكر على تهنئتكم لجيشنا وشعبنا بثورته الظافرة. ونقدر ونثمن مساندة وتأييد الجمهورية العربية المتحدة حكومة وشعباً ثورة العراق. ان المجلس الوطني لقيادة الثورة إذ يقدر اعظم تقدير شعوركم الأخوي وتضامنكم مع جيشنا وشعبنا يدعو الباري عز وجل ان يوفقنا جميعاً لخدمة امتنا العربية المجيدة ويحقق اهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية» (عبدالسلام محمد عارف)

(بلغ عدد كلمات برقية عبدالناصر خلافاً للعنوان والتوقيع ١١٢ كلمة في حين كان الجواب عنها لايتعدى ٥٣ كلمة وهو اقل من نصف عدد كلمات برقية عبدالناصر.)

صغير حظي به أنصاره في الحكومة الجديدة. وللعالم بدا وكأنه نصر عظيم لفكرة الوحدة العربية التي يدعو اليها، لاسيما رد الفعل عند الدول العربية المصنفة في قائمته الرجعية آنذاك كالمملكة العربية السعودية والاردن وخصوصاً سورية ذات النظام العدو وكبعض دول شمال افريقيا التي لاتعترف باي زعامةٍ له مثل تونس.

ولذلك استقبل الاعلام القاهري هذا الحدث بما يليق فظهرت بالمناسبة عناوين مثيرة صاخبة في صحفها:

«فجر الغد المشرق للشعب العراقي والجيش الظافر»

«بداية الثورة لجميع البلاد العربية» وغيرها.

لم يطل به الأمر بطبيعة الحال ليدرك ان مفاهيم للقومية والوحدة التي ستطرح في ميدان التعامل السياسي تختلف تماماً عن مفاهيمه فيها، وانها قد لاتعترف به بالضرورة زعيماً لتلك الوحدة. فقد وقف «اخوه الاصغر» يعلن في بغداد من خلال مؤتمر صحفي بتاريخ ١٤ من شباط بأنه هو وزملاؤه جميعاً يعملون لتحقيق الحرية والاشتراكية والوحدة.

واطلق البعثيون قوى الشر من عقالها في الداخل وبدا وكأنهم انما جاؤا ليتحكموا بل لينتقموا من كل من ناصبهم العداء وان هذا هو الهدف من انقلابهم.

في المجموعة الاحصائية السنوية العامة للسنة ١٩٦٤[٢٥] نجد في الفصل الخاص بالسجون والمواقف والمعتقلات رقم ١٢٠٨٤١[٢٦] سجيناً ومعتقلاً صرفت لهم جرايات ومخصصات للعام ١٩٦٣ وهو رقم يرتفع باكثر من مائة ألفٍ عن الرقم الذي سجلته المجموعة الاحصائية السابقة للعام ١٩٦٢ بصورة فجائية. وليس لهذا غير تفسير واحدٍ. كان ثم اكثر من مائة ألفٍ معتقل يشتبه النظام الجديد في موقفهم السياسي منه. دعنا الآن نلجأ الى عملية حسابية بسيطة بالمعطيات الآتية:

* اغلبية هؤلاء الساحقة سكان مدن وقصبات.

* اغلبيتهم الساحقة من الطبقة المتعلمة والمثقفة والناضجة او الواعية سياسياً.

* أغلبية هؤلاء ممن لايدين لنظام البعث او الايديولوجية القومية بكثيرٍ او قليل[٢٧].

(٢٥) تصدرها دائرة الاحصاء العامة في وزارة الاقتصاد.

(٢٦) قد يكون اكثر قليلاً او اقل بالعشرات او ربما بالمئات القليلة. فهذا هو الرقم الذي رسخ في ذهني.

(٢٧) في فوضى الاعتقالات. احصى الحزب الديمقراطي الكردستاني (الحليف!) ٤٧١٢ معتقلاً من اعضائه وانصاره. لم يمر على الانقلاب ثمانية ايام حتى بدأ الحزب يقدم مذكرات بطلب الافراج عنهم (اول مذكرة قدمت للسلطة الجديدة كانت بقلم كاتب هذه السطور قبل إلقاء القبض عليه بايام قليلة).

واذا اضفنا الى هؤلاء بضعة آلاف من المختفين المطلوبين وبضع مئات من القتلى والجرحى في معركة الاستيلاء على السلطة ومثلهم من الهاربين الى مناطق الثورة الكردية، ثم احتسبنا لكل واحدٍ من هذه المجموعات عشرة مواطنين على الأقل من الاقربين والاصدقاء الذين يشق عليهم مصيرهم ويحزنهم مصيرهم. وبعلمنا ان عدد سكان العراق لم يكن يزيد اذذاك عن سبعة ملايين وستمائة ألف فأعتقد ان نسبة الثلث من سكان القطر واكثر من النصف من سكان الحواضر هي نسبة مخفضة لمن شملتهم بلوى الانقلاب وشروره او أحسوا بوطأته وشره، يدخل في هذا من كان قد كوّن فكرته عن طبيعة الحكم والحزب الذي يمارس السلطة وهم الواقفون على الرصيف كما يقال. وبينهم من نقم على العهد القاسمي وتمنوا ازالته لعين الاسباب التي كانوا سينقمون على الحكم الجديد فما بعد ولايدخل طبعاً في حسابي تلك الاكثرية الصامتة التي لاتهتم بتبدل الأيدي على السلطة. في رأي اولئك الذين نعتهم بالواقفين على الرصيف، أن الانقلابيين خرقوا كل الحدود في اعمالهم الوحشية بباعث الانتقام او بداعي التدابير الوقائية.

والاخذ بالثار والانتصاف من خصوم الأمس السياسيين كان الأمر اليومي، والسمة الأظهر في الاجراءات الهمجية، لم يترفع عنها حتى اعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة وبعض الوزراء وقادة الجيش الجدد[٢٨] فقد كانوا يقتلون ضحاياهم بايديهم ويمتعون انظارهم بمشاهد تعذيبهم وتقطيع أوصالهم.

إضطر البعث الى انشاء تشكيل شبه عسكري من بين الاعضاء والانصار لقلة ما كان لديهم من ضباط بعثيين في الجيش نسبة الى الضباط القوميين فيه إحلالاً لنوع من المعادلة. فوضعت السلطة كما ذكرنا ثقتها بتنظيم اطلقت عليه اسم «الحرس القومي» واناطت قيادته بالملازم منذر الونداوي الذي رفع الى رتبة مقدم وهو احد الطيارين الذي قصفوا وزارة الدفاع.

كان بين افراد هذا الحرس عدد لايستهان به من الشبان الجانحين والمتعطلين وذوي السوابق الذين تبناهم القوميون والبعثيون في عهد قاسم لخوض معارك الشوارع والمقاهي مع نظرائهم الشيوعيين. صار هؤلاء يتذكرون من الذي شتمهم او لطمهم او ضربهم بعصا ليبحث عن الشاتم واللاطم والضارب. وقد قتل الكثير بنتيجة ذلك.

ومصدر الإرهاب والخوف الأعظم هو «مكتب التحقيق الخاص» الجهاز الذي استحدثه

(٢٨) راجع: هاني الفكيكي وطالب شبيب: حوار د. علي كريم سعيد (المرجع السالف) وكتاب «المنحرفون» لنعمان ماهر الكنعاني. وهناك كتب كثيرة أخرى الفت مؤخراً حول الموضوع بالذات واظهرها كتاب حسن العلوي.

الحكام الجدد وأناطوا مسؤوليته بمدير الأمن العام الجديد (ناظم كزار). مالبث اسم هذا الغول البشري أن اصبح يشيع الرعدة والرعب في نفس كل مواطن عراقي «مخلوق تجرد من كل القيم الانسانية وقطع كل صلة له بالبشر السوي. كان رئيس مدرسة القتل والتعذيب التي اسسها انقلابيو الثامن من شباط في قصر النهاية وغيرها من معاهد القتل والتعذيب»[٢٩].

لم يلبث الحرس القومي ليغدو «دولةً داخل دولة» بتعبير عدد كبير من قادة البعث. ثم صار دملة تجمع قيحها بعد فترة لتنفجر في اوجه منشئيها اثناء صراعهم الداخلي على السلطة بعد بضعة أشهر ولتكون عاملاً من عوامل سقوط النظام بعد بضعة اشهر كما سيأتي بيانه.

وسكت الاعلام العربي كافة – ولاسيما الاعلام المصري عن القتول واعمال التعذيب والانتهاكات الوحشية لحقوق الانسان العراقي وجاراها صمت مماثل من الغرب، وقد انخرط هذا في موجة ارتياح سادت اوساطاً حكومية في أوروبا بسبب ميل حكم قاسم للتعامل مع المعسكر الاشتراكي في الوقت الذي لم يحرك المعسكر الاشتراكي في هذا المجال ساكناً طمعاً في علاقة طيبة مستقبلية مع النظام الجديد. إلا ان اعلام البلدان الاشتراكية بدأ يتحدث عن الانتهاكات ومقاتل الرفاق بعد يأسه من اقامة علاقة مماثلة كعلاقته مع قاسم. وكان قاسم قد أثار غضب الوايت هول بموقفه المتعنت من مفاوضات النفط وتهديده الكويت. حتى ذكروا أن حكومة الكويت منحت الحكم الجديد قرضاً دون فائدة انقلب الى هديةٍ – بقيمة ثلاثين مليون دولار لقاء تعهد الانقلابيين الاعتراف بدولة الكويت واحترام استقلالها.

ولم يخف «علي صالح السعدي» الرجل القوي في النظام الجديد بعد الاطاحة به اعتقاده بأنهم (اي البعثيين) انما جاؤا بقطار أمريكي. وهو اعتراف متأخر[٣٠] جاء بعد خروجه من العراق مهزوماً واعتزاله العمل السياسي.

(٢٩) مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية. ج ٣– ثورة ايلول ١٩٦١–١٩٧٥ الص ٨٩ و٢٨٥. ويضيف قائلاً: «كان من اولئك العصابيين الساديين الذين يجدون لذتهم ونشوتهم الكبرى في نشر الاحياء بالمنشار وكسر اطرافهم وعظام جماجمهم بالمطارق».

(٣٠) علي كريم سعيد (المرجع السالف ص٢٩١. الحاشية) عن السعدي «انه وبعد مرور دقائق من ثورة رمضان اكتشف هو وجماعته انهم يسيرون دون ارادتهم بقطار تسحبه ماكنة امريكية». ويضيف الكاتب نقلاً عن يونس الطائي ان السعدي قال له في ١٩٦٧ «انهم جاؤا دون قصد بقطار ماكنته امريكية». وجاء في كتاب اسماعيل علاف (المرجع السالف) انه قابل السعدي في لبنان وسأله، كيف راحت السلطة من ايديكم فاجاب انهم «جاؤا في القطار الامريكي وكانت جماعة امريكا اقوى من أي جماعة أخرى». ايمكن ان نعزو هذا الاصرار الغريب من اقوى رجال الانقلاب – نكاية بزملائه الذين استطاعوا التخلص منه وطرده؟ كتبت جريدة الاهرام في ٢٧ ايلول ١٩٦٣ تصريحاً لحسين ملك الاردن قال فيه «هو على ثقة بان الانقلاب الذي وقع في العراق في الثامن من فبراير (شباط) كان يلقى التأييد من وكالة المخابرات الامريكية CIA».

في بريطانيا كتبت بعض الصحف حول أفانين القتول والتعذيب وكتب الفيلسوف الشهير برتراند رسل رسالته الشهيرة لرئيس الجمهورية الجديد. إلا ان ردّ الفعل الرسمي كان مشوباً بكثير من الارتياح. ولم يسأل احد عن مصير عشرات الألوف من المعتقلين والمسجونين او يتأتى لأحد وصف لحالة الرعب والذعر العامة التي كان يعيشها الشعب العراقي. الاّ ان الصحف الإمريكية أتت الى وصف قتال الشوارع في العاصمة العراقية خلال الأيام الثلاثة مؤيداً بأرقام تقريبية فمثلاً قدرت صحيفة نيويورك تايمس عدد الضحايا الذين سقطوا خلال هذه الفترة «بما يتراوح بين ألفٍ وبين خمسة آلاف. وان الخسائر في الارواح بسبب المقاومة المسلحة في قتال (البصرة) الدموي كان بحدود ٤٠٠»[٣١]. ونقل بعض الصحف الخارجية الصور التي عرضها تلفزيون بغداد لجثة قاسم ورفاقه وعكست السخط العظيم والاستنكار عند من شاهدها من العراقيين[٣٢]. كما شاع بين الناس وتنوقل بما يشبه الهمس ان الانقلابيين شحنوا بالقطار ثمانمائة ضابط من انصار قاسم واخذوهم الى منطقة صحراوية حيث اجهزوا عليهم ودفنوهم في موضع سري الخ...[٣٣]

(٣١) نيويورك تايمس ١١ شباط ١٩٦٣ «... بضمنهم الذين قتلوا في المعارك الفعلية فضلاً عن الشيوعيين المدنيين والضباط الذين اعدموا دون محاكمة».

(٣٢) المرجع السالف: برر البعثيون عرض الجثث (صرعوا في الساعة الحادية والدقيقة الثلاثين من بعد ظهر التاسع من شباط) إنهم كانوا يريدون اشاعة اليأس في المقاومة المسلحة التي كانت قائمة فعلاً ووقف المزيد من اراقة الدماء. وكذلك لازالة اي شك حول موته تجنباً للمناقشات والتساؤلات التي عقبت انقلاب اليمن في ايلول ١٩٦٢ حول مصير الامام البدر (انظر ما سبق).

(٣٣) راجع ملحق هذا الفصل للمقارنة بشرح الفكيكي (الص ٢٧٩–٢٨٠) حول السبب الذي حدا بهم الى شحن الضباط بالقطار الى نقرة السلمان في اعقاب فشل محاولة الثالث من تموز ١٩٦٣ الشيوعية في معسكر الرشيد. قال: «في اجتماع المجلس الوطني لقيادة الثورة اصر العسكريون وفي مقدمتهم عبدالسلام عارف واحمد حسن البكر على اعدام ٤٥٠ ضابطاً قاسمياً وشيوعياً بتهمة تواطئهم مع محاولة (حسن سريع) ورفاقه ومشاركتهم في تلك الحركة المسلحة فضلاً عن ان بقاءهم على قيد الحياة سيغري الآخرين بالتآمر... وفجأة اندفع العميد الراكن عبدالغني الراوي وقدم الى عارف وريقات. ما ان اطلع عليها حتى هتف، ماذا تريدون اكثر من هذا؟ وتصورنا للحظات ان امراً خطيراً وقع وان تمرداً آخر حصل. وواصل عارف: ها هم الشيخ قاسم القيسي والمفتي نجم الدين الواعظ والسيد محسن الحكيم قد أفتوا بجواز قتل الشيوعيين. فماذا تنتظرون؟ تحركنا بسرعة لتهريب هؤلاء الضباط المعتقلين، الى سجن السلمان في تلك الليلة إن إمكن خوف ان يتكرر ما حدث سابقاً في قصر النهاية، خصوصاً وان (عبدالسلام) طلب الى (عبدالغني) عند مغادرتنا القاعة التحضير لاعدام ١٥٠ ضابطاً شيوعياً الأمر الذي رفضه عبدالغني بسبب قلة العدد وتواضعه!! وبعد المداولة مع حازم (جواد) وعلي (صالح السعدي) تقرر تهريب الضباط المعتقلين الى سجن السلمان في تلك الليلة إن امكن. وتمت تهيئة ما امكن من عربات السكك الحديد. وبسبب الحر الشديد وقلة الماء وصعوبة التنفس في عربات الشحن توفي احد المعتقلين وعانى الآخرون عذاباً شديداً. ولو عرف هؤلاء سر القطار الذي أسرى بهم ليلاً الى السلمان لبحثوا له عن اسم آخر غير قطار الموت» آه. ولطالب شبيب (المرجع السالف، الص ٣٠٢–٣٠٣) ذكريات مماثلة: «ان ما سمي بقطار الموت =

وفي رأيي، أنّ النصر الذي حققه تحالف البعث مع العناصر القومية العسكرية في الثامن من شباط. كان شبيها جداً بانتزاع العسكريين ثورة الرابع عشر من تموز من يد الطبقة المثقفة العراقية الديمقراطية المنحى والاتجاه بسبب انقسامها الحاد منذ الاربعينات وعجزها عن ايجاد ارضية مشتركة. كانت دائماً منقسمة على نفسها. وهو عامل الفشل الذريع للتقدم نحو الديمقراطية والحيلولة دون دخول المغامرين العسكريين الحلبة بهذه الحجة أو تلك وهذا هو عامل الفشل الذريع للتقدم نحو المفاهم الديمقراطية.

كل واحدٍ منهم يعتقد باخلاص بجدية العمل على نمو تعاوني فيقعون في خلافٍ عندما يتجاوزون تلك الحدود التي وجب على الواقعي المحافظة عليها. ليؤدي بهم الى مثاليات خاصة متناقضة. يحدث بها الفشل الذريع والفرقة في آخر المطاف. إن كانت المثالية حصيلةً رائعة في مناخ زاهر بالحياة المنتظمة فهي غير صالحة للحياة السياسية وتحيد بالرأي العام المتطلع الى الاصلاح الاجتماعي الى مسارات خاطئة، خير ما يمكننا لتعبير عنها بالشعار المضلل الذي طرحه بعضهم ايام حكم قاسم «عاش الديمقراطي عبدالكريم قاسم».

= لاتذكر كل شيء حوله وما اتذكره الآن هو اننا فكرنا بأن مجرد وجود مثل ذلك العدد الكبير من الضباط الشيوعيين معتقلين قرب الدبابات والطائرات ومركز السلطة سيظل مصدر قلقٍ وخطر كبيرين. وسيسعى جنود مغامرون لتحريرهم والاستفادة منهم وان أهم عامل في فشل حركة حسنٍ السريع كان عدم تمكنها من اطلاق سراح اولئك الضباط وايضاً لعدم وجود ضباط في قيادة الحركة وباستخدام هذا التحليل تمكن عبدالسلام وغيره من «الصقور» من ادخال فكرة «ضرورة القضاء عليهم» في ذهن احمد حسن البكر وذلك من اجل قطع الأمل امام أي مغامر قد يحاول مستقبلاً اخراجهم من السجن واستخدامهم في عمل عسكري ضد السلطة. وعلى هذا الأساس نقل السجناء الى سجن نقرة السلمان... وما اعرفه ان احمد حسن البكر استدعى عبدالغني الراوي (عضو مجلس الثورة وهو قومي) وطلب منه ان يذهب الى نقرة السلمان وهناك يُجري تنفيذ اعدام بعض الضباط بعيداً عن بغداد. وكنا نحن الذين أسرنا المتمردين وتعرضت حياتنا للخطر اشدّ الاعضاء اعتراضاً على روح الانتقام التي سيطرت على اجواء كبار الضباط ولقي موقفنا دعماً من بعض العسكريين واذكر منهم على وجه التحديد سكرتير مجلس قيادة الثورة انور عبدالقادر الحديثي. سعينا نحن المدنيين ومعنا انور الحديثي الى ايقاف دعوة الموت المندفعة الصادرة عن ثورة من الانفعال الشديد وروح التأثر التي يمكن من وسطها تمرير وتنفيذ اية قرارات فيها قتل او اعدام. وقد ساعدتنا عصبية عبدالغني الراوي الذي رفض التنفيذ لان عدد المطلوب قتلهم قليل جداً بالنسبة له!! فطالب باعدام المئات في حين أبلغ بتنفيذ الاعدام بحق ثلاثين فقط فتدخلنا وبعد جدال طويل اقنعنا احمد حسن البكر بان لاينفذ حكم الاعدام سوى بثلاثين اسماً. يحددون بالاسم ويتم التنفيذ في نقرة السلمان. وبعد اقتناع البكر اعتبرنا تلك خطوة اولى طيبة نحو اقناعه بالتخلي نهائياً عن فكرة الانتقام واعدام ضباط كانوا سجناء عندما حصل التمرد. وكان رفض عبدالغني المدعوم من عبدالسلام (بسبب قلة المرشحين للاعدام) جعلنا نكسب وقتاً وكان تبريره بأن الأمر لايتطلب سفره لأن قتل ثلاثين معتقلاً فقط يمكن ترتيبه مع ادارة السجن ولايستأهل تكليف نفسه مشاق السفرة. قررنا قضاء الليلة مع البكر في مقرّ المجلس انا وحازم وانور لاقناعه بالغاء احكام الاعدام... وتم ذلك في الساعة الرابعة صباحاً وبذلك توقف أسوأ مشروع للموت في تلك الحقبة القاسية من تاريخ العراق المعاصر». إني أميل الى الأخذ بهذا التعليل.

ملحق

من مذكرات ضابط معتقل في تلك الفترة

هذا مجمل دونته كما سمعته من ضابطٍ كتبت له الحياة بما يشبه المعجزة. لا اريد الإفصاح عن اسمه فربما كان على قيد الحياة وقد دونته في العام ١٩٦٧. ربما في سجن الحلة. صاحبه كان عضوا في هيئة تحقيق معتقل الدبابات الذي اودع فيه المتهمون بالضلوع في محاولة الشواف الانقلابية. تأخر اعتقاله بضعة أيام بعد نجاح انقلاب الثامن من شباط، وكان على سبق معرفة بالاحداث التي مهدت له. لاسيما بالخدعة التي استغفل بها قاسم. ثم شاهد عن كثب صفحات المعركة عند التنفيذ والقي القبض عليه وكان شاهد عيان لأعمال التعذيب والقتل في المعسكر رقم (١) وفي قصر النهاية. كما كان ايضاً من جملة الضباط الذين سفروا الى السماوة بالقطار المغلق الذي عرف فيما بعد بقطار الموت.

كتب الكثير عن هذا إلا اني اثبت هذا من اجل المقارنة سيما بعد ان بدأ المسؤولون البعثيون الباقون يتبادلون التهم في هذا واحدهم على الآخر، ويعزونها احياناً الى من مات منهم. يقول صاحبنا:

استخدمت الى حد ما خطة أمن بغداد وبدأت في معسكر الرشيد. اقبلت طائرتان من نوع (هاوكر هنتر) من الحبانية ودمرت اثنتي عشرة طائرة ميك كانت تنوي الاقلاع واربع طائرات اخرى جاثمة وهي من طراز (١٩) قامت الطائرتان بعدها بضرب مدرج الطيران. ووضع المتآمرون في المعسكر العوائق على ارض المطار واحرقوا عنبر البنزين وسعته خمسة آلاف گالون. بعدها عرجت الطائرتان على وزارة الدفاع فاسقطت المقاومات واحدة منها وظلت الباقية تحلق في سماء بغداد ارهاباً للناس وتنزل على ارتفاع لتطلق الرصاص على المتجمهرين. ان ضرب معسكر الرشيد منع طياري القوة الجوية الموالين من التحليق وتعذر عليهم تلقي أوامر فقد كان مقتل آمر القوة الجوية هو ساعة الصفر.

بدأت الجماهير تحتشد في الشوارع مطالبة بالسلاح من قاسم الذي نزل الى الشارع من داره منطلقاً الى معسكر الرشيد ولايعلم لماذا غير فكره واتجه الى وزارة الدفاع. في طريقه صار يطمئن الجماهير بأنه سيقضي على الحركة ولا حاجة تدعو الى تسليحهم معتقداً بان اغلبية الجيش تقف الى صفه في حين كان اقرب ضباطه اليه ضالعين في المؤامرة. حتى العميد الركن عبدالكريم محمود قائد الفرقة الثالثة كان منهم وحتى فاضل عباس حلمي آمر اللواء التاسع عشر في معسكر الرشيد كان من بينهم.

في الوقت نفسه خرج الحرس القومي الى الشارع كقوة منظمة وهم مسلحون بالرشاشات التي تم تهريبها تباعاً من الخارج وقد قدرناها في حينه بحوالى ٥٠٠٠ قطعة. بدأت القوات العسكرية الموالية للإنقلابيين تحتل ابنية المعسكرات فقبل موعد البدء بالمؤامرة اتفقوا على ان يكون ضباط الخفر منهم لتكون مفاتيح المشاجب ومخازن العتاد بايديهم. كما استطاعوا التخلص من ضباط الصف المشبوهين باعطائهم اجازات. وأقاموا احتلال المدخل الشمالي والجنوبي بست دبابات على كل مدخل واخرجوا دوريات مستمرة حول المعكسر. ثم ارسل عدد من السيارات واللوريات الى الزعفرانية حيث مخازن العتاد لنقلها الى المعسكر كما نهبوا ما وجد منها في معسكر التاجي والوشاش ووزعوها بجنون على كل ما يدعي بأنه منهم وانه موال لهم بحيث كدست (كما رأيتها) أكواماً واكواماً في ساحة الشهداء بالقرب من الجسر القديم وكان الحرس القومي يتزود بعتاده من هذا المكان اذ كانوا حتى ذلك الوقت لايملكون عتاداً.

الضباط الذين طردهم قاسم او احالهم على التقاعد قبل المؤامرة بايام قليلة خرجوا الى الشارع ببزاتهم العسكرية وانطلقوا كل الى الدور المخصص له.

كان (قاسم) على علم لا بالمؤامرة فقط بل بتفاصيلها. ولديه الخطة كلها بدقائقها إلا انه احتفظ بها لنفسه ولم يطلع عليها احداً. اما حكاية حصوله عليها فهي كما يلي:

العقيد الركن جابر علي كاظم كان من عيون قاسم المدسوسة على المتآمرين فزوده بكل التفاصيل ومنها باسماء الضباط الكبار. وزوده أيضا بموعد التنفيذ الذي تقرر في العاشر من شهر شباط. كان يوجد بين حاشية (قاسم) ودائرته الضيقة متآمرون كالمقدم الركن جاسم العزاوي. والعميد سعدون المدفعي والعقيد محسن الرفيعي وامير اللواء العبدي.

بشكلٍ ما شعر المتآمرون بان الخطة وقعت بيد قاسم فقاموا بتغطية بارعة جداً. اذ تقدم واحد منهم وهو العقيد الركن خالد مكي الهاشمي فكشف لقاسم ابعاد مؤامرةٍ يقودها عدد من الضباط وقدم له اسماء بضباط ثانويين ساتراً اسماء الضباط الكبار او الفعالين. فهؤلاء كانوا سيعودون حال نجاح الانقلاب أو يحررون إن جرى إعتقالهم. فما كان من قاسم إلا واصدر قائمة بطرد هؤلاء من الجيش وشكر الواشي معتبراً كتيبة المثنى الرابعة في ابي غريب التي يقودها خالد مكي الهاشمي- موالية له.

واعاد المتآمرون النظر في خطتهم فغيروا ساعة الصفر وزادوا في الاحتياط والسرية. إن آخر قائمة بالضباط المحالين على التقاعد ظهرت قبل اسبوع من موعد الانقلاب وهؤلاء الذي كانوا

في الموصل وكركوك والديوانية وغيرها من المدن استدعوا الى بغداد حالاً فجاؤا.

في اليوم السادس من شباط. بعث علي صالح السعدي الموقوف في مديرية الأمن العامة رسالته الى القيادة القطرية لحزب البعث يستعجلهم في التنفيذ لأنه تعهد لمدير الأمن العام بان يقدم له اعترافاً بكل شيء في يوم ٩ شباط. لذلك يجب أن يقدم المتآمرون على التنفيذ قبل ذلك وبالضبط في الثامن شباط. وبالفعل صدرت الاوامر للعسكريين والمدنيين بهذا التغيير. واخذ الضباط المتقاعدون بزاتهم العسكرية والتحقوا بوحدات معينة تم الاتفاق عليها في ليلة ٨/٧ وكانوا في ثيابٍ مدنية اخذوها معهم في حقائب ولم يكونوا يخشون شيئاً لأن ضباط الخفر في تلك الوحدات كانوا منهم.

وفي صباح الثامن من شهر شباط ارتدوا بزاتهم وتسلحوا بالرشاشات وساهموا في احتلال معسكر الرشيد اهم موقع عسكري في بغداد وكان واجبهم الحيلولة دون دخول اي شخصٍ اليه إلاّ اذا كان يحمل بطاقة خاصة تفصح عن هويته.

كما ذكرت ادرك قاسم في الساعة العاشرة صباحاً بأن عليه أن يقصد معسكر الرشيد فانطلق اليها بسيارة مجهزة بجهاز لاسلكي بمعية (جاسم العزاوي) وفي الطريق استوقفه بعض الضباط المتآمرين متظاهرين بالولاء له ونصحوه بان لايذهب الى المعسكر فربما تعرضت حياته الى الخطر ومن الاوفق ان يعود الى وزارة الدفاع ليقود المعركة من هناك، فابتلع الطعم وعاد، ومنها بدأ يتصل تلفونياً بالوحدات التي كان يظنها موالية ولم يحصل على اجوبة مرضية. وبالأخير وجد نفسه معتمداً فحسب على الوحدات المتواجدة في الوزارة. وفي حين كانت الالوف المتظاهرة في الخارج تصرخ مطالبة بالسلاح، تصور هو انهم يريدون السلاح لاستخدامه ضده وبنية اسقاطه وقد قالها فعلاً للذين كانوا حوله إذ لم يكن يؤمن بالجمهور. وكانت الطائرات تضرب الوزارة وتصلي حاميتها بالمدافع الرشاشة. في الواقع كان ينتظر معجزة كتلك التي جاءت به في الرابع عشر من تموز – لإنقاذه. ولم يدر ان ساعاته باتت محدودة.

في حوالي الحادية عشرة وصلت اعداد من الدبابات من معسكر الوشاش ومعسكر الرشيد وخرجت الوزارة بالقنابل وفتحت نار رشاشاتها على المتجمهرين والحامية. لايعلم عدد الضحايا هناك من المدنيين فقط لكنه قدر بحوالي ٦٠٠ في هذه المنطقة فقط.

في الوقت ذاته انطلقت دبابتان الى السجن رقم (١) وأصلته بنار الرشاشات واطلقت سراح المعتقلين من القوميين والبعثيين وطلاب المدارس المضربين وجماعة من الاكراد المنتمين الى

الحزب الديمقراطي الكردستاني. وكانوا حوالي ١٦٠ مدنياً وعسكرياً وبينهم صالح مهدي عماش وعبداللطيف البدري وعبدالكريم الشيخلي ولقمان ابن ملا مصطفى البارزاني وعبدالحسين الفيلي.

كان من المعروف بأن القيادة القطرية قد اعدت اعتباراً من ١٩٥٩ على اثر فشل محاولة الشواف قائمةً كاملة باسماء العناصر الديمقراطية واليسارية والشيوعية من المدنيين والعسكريين. قاموا بطبعها بكراسة في السنة ١٩٦١ ووزعت بشكل واسع النطاق بمعرفة حكومة قاسم، فغض الطرف عنها إذ لم يكن اسمه بينهم ولا اسماء المقربين جداً منه. وحمل الكتاب عنوان «الطريق الى ام الطبول» وفيه اسماء عديدة نظمت بشكل يدعو إلى اعتبارها شبيهة بلفظ حكم الموت عليهم. وكان اسمي بينهم باعتباري عضوا في هيئة تحقيق معتقل الدبابات في ابي غريب. حيث كان يضم كل المتهمين بالمشاركة في محاولة الشواف الانقلابية الفاشلة وكيفية معاملة المتهمين:

كانت مؤامرة الشواف من اوسع المؤامرات شارك فيها القطاع المدني والقطاع العسكري. على وجه التقريب قادة جميع الوحدات العسكرية. ذريعة هذه المحاولة هي ان الهيئة العليا للضباط الأحرار كان اول قرار لها هو الانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة كسورية. وقد ادعت الجهات القومية ان نظام قاسم غدر بها ولم يحقق الوحدة.

كانوا افراداً عسكريين لايسندهم حزب جماهيري ولاتدعمهم إلا رتبهم العسكرية فجمعوا انفسهم بمساعدة وتشجيع العربية المتحدة.

بعد فشل المحاولة واعتقال المتآمرين والمشتبه بهم وجلبهم الى معتقل الدبابات بابي غريب اقدم معظمهم على الاعتراف كل بدوره بصراحة وشجاعة دون استخدام اي وسيلة من وسائل التعذيب. لكن كان هناك بضعة عشر نفراً اصروا بعنادٍ واخذوا يستفزون المحققين. باجابات هازئة وتعليقات وقحة. فهؤلاء ضربوا بالايدي والارجل بالصفعات واللكمات واحيانا باستخدام العصي عندما يتلفظ المتهمون بعبارات جارحة وشتائم. ويتخذون مواقف متعالية ومتغطرسة اثناء التحقيق. لم يتجاوز عدد النزلاء المتهمين ٣١٦ منهم ٢٦٧ عسكرياً. اطلق قاسم سراح أغلبيتهم رغم الاعترافات التي ادلوا بها والشهادات التي تدين معظمهم. ولم يقدم الى المحاكمة الاّ الاقلية واغلقت قضايا الباقين. إنّ اعظم فترة قضاها معتقل منهم لاتتجاوز مائة وخمسين يوماً.

فمثلاً الزعيم شاكر محمود شكري ضابط الارتباط في حلف بغداد ١٩٥٤ الذي اعترف

بصلته بالمتآمرين، لم يقض غير ١٢ يوماً في التوقيف. وصرف للجميع متراكم تقاعدهم واعيد بعضهم الى الخدمة. ولم تكن الا خطة قاسم لكسبهم لكنها بدت فاشلة من المبدء ولم تفعل اكثر من إنماء حقدهم واكسبتهم جرأة اكثر لشعورهم بأن ما فعله قاسم ليس شفقة عليهم ورحمة وانما خوفاً منهم. وتوهمهم بعد ذلك بأن الرأي العام معهم وان قاسم خضع لضغط الرأي العام فأطلق سراحهم. وهذا مما ادى الى جمع قواهم فما عتم ان بدا ذلك في محاولة القضاء عليه في شارع الرشيد.

كانوا عموماً يعيشون عيشة مرفهة وناعمة جداً في المعتقل كل شيء كان يأتيهم اما من البيت واما من المطاعم ويتقاضون من الحكومة ٢٥٠ وهي الدرجة الأولى للمعتقل السياسي.

عود الى اعتقالات البعث والتعذيب

بعد نجاح الانقلاب بدأت الاعتقالات بحسب القائمة التي سبق ذكرها. واتسعت بالاقتراحات التي كانت ترد الى الحاكم العسكري من الأفراد. في يوم ١١ بدأوا يعتقلون الضباط الذين كانوا يأتون الى المعسكر لمحاولة احباط الانقلاب وكان المتآمرون لهم بالمرصاد واخذوا يقبضون عليهم تباعاً ويقودونهم الى السجن رقم (١). ما ان غابت شمس ذلك اليوم حتى كان فيه حوالي ٣٠٠٠ معتقل من اعلى الشخصيات العراقية ومثقفيها. من اطباء ومهندسين واساتذة ومحامين وسياسيين وادباء وشعراء وعلماء. الغرفة الواحدة بطول أربعة امتار وعرض ثلاثة كان يحشر فيها مابين ٥٠ و٧٠ شخصاً لايستطيعون حركة ودعك من النوم او الجلوس.

قيل لنا في اليوم التالي ان المعتقلين ارتفع عددهم الى عشرة آلاف في هذا السجن فقط. احيط السجن بسياج حديد. كانوا يغلقون ابوابه من الساعة الحادية عشرة صباحاً حيث تفتح لمدة عشر دقائق فقط للذهاب الى دورة المياه وقد تقصدوا ان يحدثوا فيها انواعاً من العطب لمنع الداخلين إليها من قضاء حاجتهم. وفي مثل هذا الجو المرعب يرفع الحرس القومي بندقياتهم الأتوماتية مهددين المعتقلين لمنعهم من التحدث إلا همساً. وكنا نحن نسمع بصورة مستمرة اطلاق النار في الخارج. لم يسمحوا بادخال اي طعام. وكانوا يوزعون رغيفاً صغيراً من الخبز مع بصلة وهو غذاء يوم كامل. وبما ان الابواب لم تكن تفتح إلا مرة واحدة كل ٢٤ ساعة فانهم يضعون تنكة ذات سعة اربعة غالونات في كل غرفة لقضاء الحاجة الطارئة. وعندما تمتلىء هذه التنكة يضطر المعتقلون الى قضاء حاجاتهم في اكياس نايلون او في مناشفهم او مناديلهم واولئك الذين يشكون الاسهال او الزحار كانوا يضطرون الى القيام بذلك

عدة مرات وكثرت حالات الغثيان والقيء. النوم الطبيعي مستحيل بسبب ضيق المكان والحالة النفسية واولئك الذين كان يغالبهم الارهاق والاعياء ينامون وهم وقوف الواحد منهم مسند ظهره الى الآخر.

ثم تبدأ المأساة في الليل حيث يبدأ التعذيب. ينادون من اختاروه للتعذيب بحجة القيام بالتحقيق. يسحبونه الى الهيئة ليوجهوا اليه اي تهمة تخطر ببالهم في تلك اللحظة. وباي علة متصورة. منتظرين الإنكار الذي لابد منه كاشارة للبدء في تعذيبه وبكل ما يخطر بالبال من الاساليب التي تتفتق عنها الذهنية الشريرة. وكان هذا يقع على عدد يتراوح بين ٢٥ و٣٥ معتقلاً كل ليلة. بعد هذا يأتون بضحيتهم محمولاً ببطانية والدماء تنزف منه وهو غائب عن الوعي في اغلب الاحيان. الرعب كان شاملاً يقيد الالسن.

كان هناك معتقلون قيدت ايديهم من الخلف طول الوقت يتجاوز عددهم المئات فيقوم الباقون باطعامهم ومساعدتهم في قضاء حاجتهم. وقد قطع الاتصال بالعالم الخارجي تماماً ولم يعد احد من المعتقلين يعرف شيئاً عن مصير عائلته على الاطلاق. فالحرس القومي جعل السجن رقم (١) معزولاً تماماً عن العالم الخارجي وكأنه في جرم شمس آخر غير الأرض.

ان شعر احد بالمرض فعليه ان يحتفظ لنفسه بمرضه سراً اذ ليس من احدٍ يستجيب له او يصغي اليه.

الشهر الأول. لم ينقطع فيه اطلاق النار في الخارج ليلاً او نهاراً. والاعدامات تجري باستمرار دون محاكمة يأخذون شخصاً ولايعيدونه. وفي العيد وهو عيد الفطر الذي وقع بعد أسبوعين من الانقلاب بقي الحال مثلما كان ولم يسمح للأهل بزيارة ولم يعطوهم اي معلومات عن المعتقل أهو ميت أم مازال حياً. هؤلاء صبيان الحرس القومي تجردوا من كل شعور انساني. مهما ارتفع قدر المعتقل او رتبته العسكرية فكل ما يناله منهم زيادة في الشتائم والكلام البذيء والركل والبصاق.

اذكر بعض الامثلة. في يوم ١٤ نادوا ٢٦ معتقلاً باسم (فتاح حسن) وجماعته. قيدوهم من الخلف وحشروهم في لوري واخذوهم الى موضع يدعى بسماية من محل ما على طريق بغداد – الكوت وهناك قضوا عليهم رمياً بالرصاص ودفنوهم. وبعد يومين صدر بيان من الحكومة معلناً أن حكماً بالاعدام صدر عليهم من المحكمة العسكرية العليا الخاصة ونفذ فيهم. وفي اليوم التالي أخذوا مجموعة أخرى من العسكريين بينهم العقيد (حسين خضر الدوري) عضو المحكمة العسكرية العليا الخاصة والزعيم (داود الجنابي) قائد الفرقة الثانية

والعقيد (مجيد جليل) مدير الأمن العام والرئيس الاول (خزعل السعدي) والمقدم (ابراهيم الموسوي) بعد تعذيب وحشي عصبوا اعينهم واوثقوهم من خلف والدماء تسيل منهم ونقلوهم الى عين المحل واعدموهم ودفنوا جثثهم هناك ثم اصدروا بيانات مماثلة بحقهم. اي محاكمات واحكام وتنفيذ.

بعد هذا بدأوا يأخذون افراداً افراداً تحت زعم التحقيق فلايعيدونهم وكنا على علم تام بانهم يقتلونهم. ذلك لأن أفرشتهم واشياءهم تبقى في محلها ولا احد يسأل عنها. بعضهم كان يعاد وقد سمرت جبهته ببعض الكلبسات Clips ويدعى الاطباء اثناء التحقيق لغرض واحد. وهو الاشارة للجلادين الى اي حد يجب ان يقفوا في التعذيب وكم يستطيع المعتقل ان يتحمل. وطبيبهم لايكترث بالحالات الطارئة في الغرف كالنزف وما اشبه.

بقينا ثلاثة اشهر، ثم سمحوا لنا بأن نستحم. وتم ذلك في كابينة من الجنفاص وهو حمام بخاري يؤخذ اليه عشرون عشرون كل دفعة. واصيب معظمنا بالنزلة الصدرية لأن نزع الثياب ثم ارتداءها كان يتم في العراء قبل الاستحمام وبعده. بعد شهرين من وجبة الخبز والبصل اليومية، غيروه الى جراية الجنود ومن اقذر واحقر نوعية. كانوا في بعض الاحيان يخلطون شحم السيارات (گريز) بالرز ويمزجون ماء الصابون او مسحوقه في الشوربا ء.

وفي اواسط شهر نيسان وازاء الضغوط الخارجية وثورة الرأي العام العالمي على ما يحصل بدأوا يسمحون لنا بادخال الطعام الذي تجلبه عوائلنا بعد مصادرة ٦٥٪ منه. فالمعلبات والسيگاير وفرش الأسنان والثياب الجديدة كلها كانت تصادر ثم يعاد بيعها لنا فيما بعد باسعار خيالية!!

كانوا يسلبون الأشياء الثمينة كاقلام الحبر والساعات والخواتم وحلقات الزواج الذهبية اثناء التعذيب. في بداية حزيران باشروا باطلاق سراح الذين اعتقلوا بطريق الخطأ كاشتباه في الإسم بعد القبض على المطلوب الحقيقي. أو مجرد شكٍ خامرهم فيه كالاتيان بحركة مشبوهة او القاء نظرة أسيء تفسيرها من قبلهم وما شاكل... وقد اتخذوا من هذا العمل دعاية لهم رغم قلة من اخلي سبيله بالنسبة الى عشرات الألوف الذين احتوتهم معتقلات البعث في العراق.

السجن رقم (١) هو واحد من ثلاثة سجون مشابهة في عين معسكر الرشيد وبلغ عدد معتقليها ثلاثين ألفاً في حين بلغ عدد المعتقلين في سجون أخرى في بغداد مع السجون الرسمية ٩٧ ألفاً[١] خلافاً للسجناء «الخصوصيين» الذين لاتسجل أسماؤهم في المقرات

(١) يطابق هذا العدد تقريباً الرقم الذي اوردته نقلاً عن المجموعة الاحصائية السنوية للعام ١٩٦٤، التي تصدرها مديرية الاحصاء العامة.

العديدة لنقابات العمال والسينمات والبيوت المصادرة والمستأجرة ومراكز الشرطة وساحات الالعاب الرياضية فضلاً عن مقرات الحرس القومي. وقد استخدمت عيادات بعض الاطباء المقبوض عليهم.

والتعذيب في تلك السجون المرتجلة او الموروثة رسمياً كان جزءً من الروتين اليومي. وبحسب سمعته من السجناء الذين جيء بهم من تلك الاقبية والساديب احياءً يستخلص ان الاسلوب واحد لا فرق بين ممارسة او اخرى ولايمتاز بتفنن شخصي بل يكاد يكون برنامجاً ثابتاً.

بعض الأمر الذي يحمل على الاعتقاد ان اسلوب التعذيب كان من ضمن برنامج الانقلابيين كجزءٍ هام لإنجاح الانقلاب وضمان سلامته من انقلابٍ مضاد. وقد تم تطبيق البرنامج فيما بعد على الاكراد بعد ان تقرر استيناف القتال. وتمت ممارسته في الجبهة والخطوط الأمامية وفي المدن والقرى كما اكد لي بعضهم على نفسٍ واحدٍ.

قطار الموت

يعود فشل حركة الثالث من تموز ١٩٦٣ الى خيانة اربعة من الضالعين فيها واعترافاتهم من أمثال سائق الدبابة (خلف رحيمة) في اللواء الجمهوري الذي كان من واجبه ان يأتي بدبابته الى السجن رقم (١) لتحرير آلاف المعتقلين هناك الا انه بدل ذلك قام بحماية عبدالسلام عارف.

عندما انتهت مقاومة الثوار في الساعة العاشرة صباحاً شاع الهلع والرعب في نفوس المعتقلين فقد جاؤا ليقولوا لنا ان عبدالسلام عارف اصدر اوامره بتفجير السجن رقم (١) بالديناميت وبالصواريخ ومقذوفات الدبابات بكل مَن فيه. لكن عُدل عن ذلك فيما يبدو في آخر لحظة واستبدل بنقل جميع السجناء العسكريين ذوي الرتب والمهمين الى سجن نقرة السلمان بقطار خاص وهو يتألف من قاطرات (عربات) بضاعة مقفولة. ربما كانوا يفكرون ان قلة الهواء في العربات المقفلة ستتكفل بالقضاء على المعتقلين جميعاً او على اغلبهم اختناقاً وبالحرارة التي تزيد على ٤٥ درجة مئوية في الصحراء.

في الساعة الخامسة من بعد الظهر ابلغنا بذلك بالاسلوب الهجمي المألوف. اقتحموا غرفنا فجأة وقد ركبوا حرابهم على بندقياتهم السريعة ووجهوها إلينا واخذوا يقرأون الاسماء التي اختيرت وامرونا بحزم فراشنا للنقل وكنا نعتقد بان هؤلاء المختارين سيتم اعدامهم انتقاماً للمحاولة الفاشلة. وفي الساعة العاشرة ليلاً اخرجونا جميعاً وجعلونا نصطف بصفوفٍ عدد افرادها خمسة وشرعوا يوثقون ايدينا من الخلف بحبال خشنة غليظة وهم يصبون الشتائم علينا

مصحوبة بالركلات والصفعات.

كنا ٥٣٤ ضابطاً بالتمام من رتبة زعيم (عميد) فما دون. وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً جلبوا سيارات مدنية وكدسونا داخلها فانطلقت بنا. الاّ ان بعض الجنود الحراس اعلمونا بوجهتنا الحقيقية فشاعت الراحة فينا وتنفسنا الصعداء.

وتحركت السيارات بعد حلول حظر التجوال بساعة واحدة خشية ان يفطن الناس الينا. وبلغنا السكة الحديد حوالي الواحدة صباحاً وشاهدنا عربات الحمل المخصصة لنقلنا. وفي المحطة وجدنا وتعرفنا على المشرفين على العملية. وهم طاهر يحيى رئيس الاركان. ومدير الحركات صبحي عبدالحميد الذي كان يحمل شارة عقيد ركن. وعلي صالح السعدي وزير الداخلية ونائب رئيس الوزراء. رأيناهم بأم أعيننا هناك. كان طاهر يحيى جالساً في سيارة والاثنان الآخران في سيارة ولمحنا في سيارة ثالثة اشخاصاً مدنيين شخصهم زملاؤنا بأنهم من قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي. ولكي لايثيروا انتباهاً كانوا يفرغون سيارة واحدة وينزلون حمولتها منا ويفتحون عربة ويدخلونهم فيها ثم يقفلونها وهكذا على التوالي. ومنع الكلام حتى الهمس.

لم نكن نتوقع تسفيرنا في عربات الحمل وكنا نأمل على الأقل بعربات مسافرين من الدرجة الثالثة. كانت العربات كريهة الرائحة يغطي ارضيتها روث الابقار. وبعضها بمادة القير السوداء ولم يكن هناك قطرة ماءٍ ولم نعط كسرة خبز طوال يومنا بل لم يسمح لنا بقضاء حاجاتنا في دورات المياه قبل نقلنا وبدأت الحقيقة تتكشف لنا. ما ينتظرنا هو الموت المحتوم. وفي الحال اطلقنا عليه اسم (قطار الموت) كانت القاطرة تسحب مابين ١٥ و١٨ عربة. وضعونا فيها جميعاً ثم أقفلوا الابواب وختموها دون ان يهتموا بفك وثاقنا. كان في العربة الواحدة حوالي الثلاثين.

في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين صباحاً تحرك القطار والعربات القديمة تهتز بنا وتزكمنا برائحتها الكريهة التي تفوق الاحتمال واصاب معظمنا الغثيان وبعدم وجود الماء. وبعد ساعتين اصبح الجو لايطاق وبدأ البعض يتقيأ. عدد كبير منا كان ضعيفاً مرهقاً بسبب التعذيب والمرض. وعندما بدأ حديد العربة يسخن علمنا ان الشمس قد بزغت في الخارج وان ارواحنا باتت في كف القدر. قدرت درجة الحرارة داخل العربة بالستين مئوي وعندما وصلنا السماوة كانت الساعة تشير الى الثالثة من بعد الظهر اعني اننا قطعنا بحدود ثلاث عشرة ساعة مسافة يقطعها القطار عادة بست ساعات والتأخير متعمد طبعاً وقصد سجانينا من

مضاعفة الوقت القضاء علينا جميعاً او معظمنا على الأقل بدليل اختيار الاسماء بعناية.

كان القطار بحراسة فصيل انضباط من الجنود مزود بالرشاشات ومن وظائفه النزول في كل محطة وقوف والاحاطة بالعربات لمنع الناس من الاقتراب والتعرف على البضاعة.

لاشك في ان الانسان العادي سيرفض الاستنتاج بأن هذا العدد من الجنود انما كان للحماية او الحراسة. فالجميع داخل العربات كان موثق اليدين من الخلف. والعربات مقفلة بقفل حديدي وقضيب عرضاني غليظ. من هذه التدابير الاحترازية القصوى ومن البائعين الجوالين الذين كانوا يسكنون حول القطار في المحطات عادة. ادرك الناس بصدور الصرخات والانين وبعض الهتافات ونداء الاستغاثة المقصود بها تنبيه الناس الينا.

ولم يكن بوسعنا أن نرى شيئاً مما يجري في الخارج إلا اننا كثيراً ما كنا نسمع صيحات الاحداث والصغار الخائفة التي استولى عليها الخوف من البضاعة التي تحملها العربات.

تم حل وثاقنا اثناء الرحلة اولاً باستخدام الاسنان ثم بحلها باليد فيما بعد. على ان الحقيقة كما علمنا بدأت ترحل وتنتشر قبل وصولنا السماوة. كان عدد كبير منا قبل الوصول بساعتين قد فقد وعيه واصيب بعضنا بتخثر في الدم بسبب فقدان السوائل. كانت آخر جرعة من الماء تناولناها قبل ٢٦ ساعة.

وقف القطار في محطة السماوة لتفريقنا وفتحت ابواب العربات فحملنا المغمى عليهم والمصابين الى الخارج ووجدنا جما غفيراً من اهالي المدينة خرجوا يحملون اوعية الماء وراحوا يرشونه على أوجه المغمى عليهم الذين نقلوا وأسجوا في المحطة. ابدى اهالي السماوة عطفاً لا مزيد عليه وجاؤا بالماء ممزوجاً بملح. وبعض الاشربة المنعشة وزودونا بالطعام دون ان يطلبوا اي ثمن.

أخرجنا جثة الرائد (نادر) وهو كردي. كما نقل ضابط آخر برتبة (عقيد) الى المستشفى وهو يدنو من حالة احتضار فأُنقذ في آخر لحظة.

السماوة هي آخر محطة بالنسبة الينا ونحن في طريقنا الى سجن نقرة السليمان لذلك كانوا مضطرين الى عرضنا على الملأ تمهيداً لقطع الطريق عبر الصحراء الى القلعة بالسيارات.

كان المنظر مريعاً. مأساة تتجلى فيها الوحشية عندما نزل المعتقلون من العربات واجسامهم تنضح عرقاً عصر منه على ثيابهم عصراً. سقط حوالي ٢٥٠ منا على الارض احياءً واستلقى آخرون على اسفلت المحطة وجلس آخرون ولم يبق واحدٌ منا واقفاً من فرط الاعياء. بعد حوالي الساعة اصبح بوسعنا ان نتنفس اعني التنفس بانتظام، ثم الكلام. منظرنا كان فريداً في بابه

ربما يُرى مثيله في افلام الرعب. المنظر كان شبيهاً بأحياء غريبة جاءت من عالم آخر.

وجاء الحرس القومي والشرطة الذين ضربوا أنطقةً حول المحطة باثنتي عشرة حافلة (باص) كبيرة. الا انهم لم يمنعوا القوت والماء الذي جلبه الاهالي عنا ووضعنا في الحافلات وانطلقنا الى سجن (النقرة) بحراسة ثماني سيارات مسلحة وقطعنا المسافة بحوالي خمس ساعات لنبلغها في التاسعة ليلاً. وعاجلنا النوم في ساحة السجن وليس تحتنا فراش ولا فوقنا غطاء. كان نوماً عميقاً تحت السماء التي افتقدناها منذ يوم اعتقالنا وفي صباح اليوم وجدنا اشياءنا اكواماً مكدسةً في زاوية فأخذنا ما أبقوه لنا منها او ما وجدناه.

بقينا ١٥ شهراً لاندري ما حل بافراد أسرنا ولا هم يدرون ما حل بنا.

قصر النهاية

أخذوني اليه ايام كنت في السجن رقم (١) للتحقيق وهو قصر الرحاب. اختاروه لأنه بعيد عن الشارع العام بمسافة كبيرة ولأنه بعيد عن العاصمة. تم افتتاحه في ١٢ من شباط اي بعد الانقلاب باربعة ايام. وفيه شرعت الهيئة التحقيقية برئاسة (مدحت ابراهيم جمعة) عضو القيادة القطرية باعمالها. ولم يمر اسبوع على مباشرتها ولا اكثر حتى انقلب القصر الى مسلخ أو دار قصابة. كان يرسل اليه كل سياسي او شخصية بارزة في المجتمع المدني او العسكري عارضهم حيناً او خالفهم في الرأي، أو عضو معروف في حزب مناوئ، بحسب الظروف السياسية. او بناءً على طلبٍ من شخصٍ متنفذ بداعي الانتقام الشخصي. او اي شخص ترى هيئة تحقيق أخرى ادنى درجةً وجوب ارساله لانتزاع اعتراف منه او لغرض «إلقاء درس» عليه او لقتله عند اللزوم.

في الواقع ليس هناك اي علاقة تربط هذه الهيئة باي قانون. ولذلك فإن طريقة استجواب المعتقل تخالف كل شريعة او عرف عمل به في اي زمان ومكان إنها لا أكثر من عملية ثأرية دنسة ضد منافسين سابقين او محتملين مهما علت منزلتهم وقعوا بين ايديهم.

التحقيق بالتعذيب النفسي والبدني لم يكن معروفاً في العراق معرفة منهجية. عرفنا مثلاً ان دائرة التحقيقات الجنائية ايام العهد الملكي واحداً معيناً قد مارس اسلوب الشدة ضد بعض الشيوعيين ممارسة محدودة. ولم يدع احد منهم بعد الرابع عشر من تموز على تعذيبٍ منظم لجهاز حكومي أمني. ووردت مع هذا عن عدد محدود من الاشخاص افادات حول استخدام الشدة والكلام البذيء والتهديد لغرض حمل المتهم على الاعتراف ببعض المعلومات الحزبية.

اصبح الأمر مختلفاً بعد انقلاب شباط بفتح مؤسسة رسمية خاصة لانتزاع الاعتراف

بالتعذيب. او بالتعذيب من اجل التعذيب فقط.

الزمن الاعتيادي في قصر النهاية كما سماه قاسم وقصد بالتسمية نهاية العهد الملكي. ليغدو في الواقع نهاية حياة المئات من الضحايا. ونهاية الالوف من آدمية الباقين احياء بعد التجربة الجسدية عليه. الزمن الاعتيادي للعمل هنا يبدأ في الساعة الثالثة ظهراً وينتهي في الساعة الثالثة صباحاً. وتستخدم اجهزة للتعذيب بعضها معروف وبعضها ثم اختراعه بفضل التجربة واثنائها او بالاستعانة بخبرات خارجية. وهي تستخدم على الجنسين سواء بسواء. خلال هذه الفترة من النهار والليل تسمع في ابهاء القصر ومن غرفه تأوهات وصرخات ونداءات استغاثة وتوسلات ممتزجة بأصداء اطلاق الرصاص. الشخص الذي يدخل القصر يواجه منظراً يشبه الى حد كبير محطة اخلاء خسائر او مستشفى ميدان أثناء دوران معركة كبيرة. سيجد بركاً من الدماء بعضها متجمد في كل مكان. على الارضية وعلى الحيطان وعلى افرشة وبطانيات فوقها أجسام دامية باطراف مكسرة وجماجم مهشمة وجروح تنزف وجروح فوقها ضمادات.

وعندما يترتب القيام بعملية قتل منهم يطلقون من مسجّلٍ أغنية صاخبة بأعلى صوت. فيكون بمثابة إعلان آني بان جريمة قتل ستحصل بعد ثوانٍ. والذي يموت اثناء التعذيب او يقتل بالرصاص تؤخذ جثته سراً بالسيارة في الليل ويدفن في حفرة تحفر على وجه السرعة في الصحراء. والحفر كبيرة واسعة بحيث تتسع لجثث كثيرة وامكنتها تحفظ سراً. فيما بعد اكتشف بعضها بوساطة كلاب پوليسية مدربة لأنها ليست عميقة كما أن بعض المتصلين والقريبين من المواقع بدأوا يتكلمون. الا ان اغلبيتها بقيت سراً وبقي اقرباء القتلى حتى يومنا هذا يجهلون مصائر ذويهم.

من الوسائل المستحدثة في عالم التعذيب وضع الضحية في سرداب مليء بالماء الى ارتفاع متر واحدٍ، يقذفون به في هذه البركة ويبقونه فيها اسبوعاً او ربما عشرة ايام وهو معصوب العينين مشدود الوثاق من الخلف. كل ذلك مصحوب بشتام وكلام بذيء وسباب في كل ساعةٍ. ويعطى رغيفاً وقطعة جبن كل اربع وعشرين ساعة.

وهناك اسلوب آخر هو تعليق الانسان من رجليه متدلياً من مروحة كهربائية سقفية تدور به ليتلقى ضربات على جسمه اثناء الدوران. هناك ايضاً الطرق الكلاسيّة القديمة من العصور الوسطى كقلع اظافر اليدين والرجلين وقلع الاسنان بكلابة النجارين. ويستخدمون مع النساء الحرق الكهربائي أو الشواء بالمعدن المسخن الى درجة الاحمرار، وحلق رؤوسهن وصب الماء

المثلج على اجسادهن العارية. وتهديدهن بالمواقعة الجبرية. او ممارسة اعمال جنسية شاذة وتطبيق ذلك فعلاً.

ومن هذا القبيل صب الماء في الفم الى حد الاغماء ونفخ المعدة والامعاء من الدبر مثلما ينفخ اطار السيارة بالمنفاخ. والعادة هو الابتداء بالضرب بمختلف الادوات من العصا الاعتيادية حتى السوط والمقرعة[1].

(١) حاول من كتب أو تحدث عن هذه الوقائع من قياديي البعث العربي الاشتراكي التنصل من هذه الجرائم بطرق ثلاثة: التقليل من حجمها مع الاعتراف بوقوعها، وقذفها على عتبة الضباط القوميين والبعثيين، ثم قذفها بالأخير كل على عتبة باب الآخر لاسيما بالأعضاء القياديين الموتى الذين لايمكن ان يقوموا بعملية تحويلها الى زملائهم من أعماق القبر. هناك نماذج كثيرة. لكني سأختار منها كتاب عضو القيادة القطرية هاني الفكيكي «اوكار الهزيمة: تجربتي في حزب البعث العراقي» (لاحظ انه لم يذكر اسم الحزب الكامل في العنوان) وقد مر ذكره. وكتاب دكتور علي كريم سعيد: «عراق ٨ شباط من حوار المفاهيم الى حوار الدم» وهو مجمل ذكريات عضو القيادة القطرية الآخر طالب شبيب. مع تعليقات المؤلف ط. بيروت ١٩٩٩.
جاء في الكتاب الأول حول التعذيب وقصر النهاية (الص ٢٥٨–٢٥٩): «كنا نتردد على مراكز اعتقال الشيوعيين وعلى قصر النهاية مركز التحقيق الرئيس. وكنا نعلم ان هذه الاعترافات لم تكن فقط بسبب تعاون هادي هاشم (احد اعضاء لجنة الحزب الشيوعي المركزية) وغيره معنا بل ايضاً بسبب التعذيب الذي كان يمارس على المعتقلين. وبرغم ان القيادة القطرية لم تعط أمراً بالتعذيب إلا انها لم تعترض عليه ولم تشجبه إلا بعد فترة متأخرة. بعد أن كشفت جميع تنظيمات الحزب الشيوعي وبعد ان تصاعدت محلياً وعربياً واوروبياً ودولياً ضدنا. كان التعذيب يجري بأكثر اشكاله بدائية وثأرية في بعض الاحيان لم يكن بقصد انتزاع المزيد من المعلومات بقدر ماكان تكراراً ثأرياً للتعذيب الذي تعرضت له القوى القومية في ١٩٥٩ و١٩٦٠. في ذلك التعذيب كانوا يستخدمون العصي والانابيب المطاطة والتهديد بالقتل عن طريق عصب اعين المتهم واخراجه الى الساحة لتنفيذ حكم الاعدام. ثم يطلقون في الهواء بضعة عيارات نارية لحمل الآخرين على الاعتراف. وسمعت قصصاً عن التعليق بالمراوح السقفية وغيرها من الاساليب التي ربما استخدمت ولم نكن على بينة منها خاصة ان اعضاء القيادة القطرية من دون استثناء لم يمارسوا او يشاركوا في اي تعذيب»
وعن السبب في شحن الضباط الى نقرة السلمان (الص ٢٧٩–٢٨٠) عقب فشل محاولة الاستيلاء على معسكر الرشيد في ٣ تموز يقول: «في اجتماع قيادة الثورة اصر العسكريون وفي مقدمتهم عبدالسلام عارف واحمد حسن البكر على اعدام ٤٥٠ ضابطاً قاسمياً وشيوعياً بتهمة تواطئهم مع حسن سريع ورفاقه ومشاركتهم في تلك الحركة المسلحة وان ابقاءهم على قيد الحياة سيغري الآخرين بالتآمر. وفجأة اندفع عبدالغني الراوي وقدم الى عارف وريقات ما ان اطلع عليها حتى هتف ماذا تريدون اكثر من هذا؟ وتصورنا للحظات ان امراً خطيراً وقع وان تمرداً آخر حدث. وواصل عارف: هاهم الشيخ قاسم القيسي والمفتي نجم الدين الواعظ والسيد محسن الحكيم قد افتوا بجواز قتل الشيوعيين. فماذا تنتظرون؟ تحركنا بسرعة لتهريب هؤلاء الضباط المعتقلين الى سجن السلمان في تلك الليلة إنْ امكن، خوف ان يتكرر ما حدث سابقاً في قصر النهاية. خصوصاً ان عبدالسلام طُلب الى عبدالغني عند مغادرتنا القاعة. التحضير لاعدام ١٥٠ ضابطاً شيوعياً الأمر الذي رفضه عبدالغني بسبب قلة العدد وتواضعه!. بعد المداولة مع (حازم جواد) و(علي صالح السعدي) تقرر تهريب الضباط الى سجن السلمان في تلك الليلة ان امكن وتمت تهيئة ما امكن من عربات السكك الحديد. وبسبب الحر الشديد وقلة الماء وصعوبة =

والكلام يمنع منعاً باتاً بين السجناء وينقطع الاتصال بينهم وبين العالم الخارجي. الشخص الذي يؤتى به الى هنا لايسمع غير العويل والصراخ وبكاء النساء. وكان هناك اطفال ايضاً. النور في القصر وهاج ساطع يزيغ البصر فالستائر مرخاة والنوافذ مغلقة ولا احد يميز بين ليلٍ أو نهار. وتسمع الحراس احياناً يتندرون على السجناء بقولهم: «جئنا بكم هنا لنأخذ منكم ثأر الملك».

= التنفس في عربات الشحن توفي احد المعتلقين وعانى الآخرون عذاباً شديداً. ولو عرف هؤلاء سر القطار الذي اسرى بهم ليلاً الى السلمان لبحثوا له عن اسم آخر غير قطار الموت.» [راجع ص١٣٢٠ قبلها].
في ص٣٠١ في من الكتاب تجد طالب شبيب يؤيده في ذلك. جاء في ص ١٧٦ من المصدر عينه:
«استغل صالح مهدي عماش فرصة غيابنا أنا والسعدي في القاهرة للتحضير لمحادثات الوحدة فذهب الى قصر النهاية ومعتقل ابي غريب ومعتقلات التحقيق الاخرى وطلب تسليمه حوالي ٢٥ شيوعياً معتقلاً بينهم ١٨ من المتعاونين المزدوجي الولاء. وأمر بإعدامهم وبعد تنفيذ الاعدام ذهب الى مجلس قيادة الثورة وحصل على قرار المصادقة على قتلهم رغم معارضة حازم جواد ومحسن الشيخ راضي وهاني الفكيكي وحميد خلخال وآخرين لأن غيابنا رجح كفة العسكريين داخل مجلس قيادة الثورة... ان جميع الاحكام التي صادق عليها المجلس قد جاءت بعد التنفيذ اي بعد ان صارت واقعاً مفروضاً!!»
وفي ص ١٩٤ حول الضباط القوميين ومنهم البعثيون قال (شبيب): «هؤلاء لم يكونوا بحاجة الى تحريض وبحسب علمي أنهم قاموا باعمالهم دون العودة لأحد ودون علم القيادة وارتكبوا ما ارتكبوه لأسباب ودوافع كثيرة ومختلفة. ولا اكشف سراً ان قلت ان عبدالسلام (عارف) كان واحداً منهم. اراد الفتك باكبر عدد من الشيوعيين لكن باسم حزب البعث. وعلى سبيل المثال كانت محاكم عبدالكريم قاسم قد حكمت على ٣٧ شيوعياً بالاعدام بسبب تورطهم باعمال قتل في الموصل وكركوك... لكن عبدالسلام وبعد استلامنا السلطة نبش الأمر وجاء بملفهم الى مجلس الثورة وطلب الإذن بتنفيذ الحكم بهم قائلاً: هذه الاحكام لم تصدر عنكم (يقول طالب انه هب واقفاً وطلب موقف رفض موحد لقيادة الحزب الا انه لايذكر شيئاً حول النتيجة وكيف آل الآمر الى تنفيذ الحكم فعلاً بهم جميعاً. ثم يعود ليذكر قيام عماش باعدام وجبات في غيابهم... طبعاً). كان عبدالسلام حاقداً يطلب ثأراً شخصياً واعتقد انه اخذ شتائم الشيوعيين له في عهد قاسم على محمل شخصي ولم يستوعب الصفة السياسية للأمر. في حين كان عماش في تعامله معهم دموياً.»

الفصل الثالث والثلاثون

تونس . التكوين العرقي . الكفاح ضد الفرنسيين . التآمر الناصري وحكاية خالد النقشبندي . انسحاب تونس من الجامعة بعد مهاجمة الحبيب الشطّي عبدالناصر واتهامه بالتآمر على حياة بورقيبة . طبيعة النفوذ العروبي . نشاط المثقفين والأدباء . الاحتلال الفرنسي والمفاوضات . الأوضاع الادارية والحماية الفرنسية والأحزاب السياسية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية . حزب بورقيبة ، نشاطه ضد الفرنسيين . صالح ابن يوسف الرجل الثاني في الحزب الحر الدستوري . أول حكومة تونسية برئاسة صالح ابن يوسف . هياج وتظاهرات عامة . اعتقال بورقيبة ونقله الى الجنوب ثم الى جزيرة (جالطه) . خلاف بين صالح ابن يوسف وبورقيبة . طرد صالح من الحزب . انتقاله الى القاهرة وليبيا . استخدام المنشقين لاغتيال بورقيبة . الكتاب الأبيض والتحقيق مع المتهمين . معارك مع قوات الاحتلال في شوارع العاصمة . معركة كلامية عنيفة في جلسات الجامعة العربية . تونس تتهم عبدالناصر بارسال من سيقوم باغتيال بورقيبة . تونس والعروبة في الميزان ، وعدم الإيمان بقيام وحدة شاملة . اغتيال صالح ابن يوسف . البارزاني وأحزاب المعارضة القومية لحكم عبدالكريم قاسم . الاتفاق . وفد كردي الى بغداد لتأكيد الاتفاق على الحكم الذاتي . وفد رسمي عراقي بخصوص الوحدة الى القاهرة من أعضائه كرديان . اتفاق ٢٢ نيسان ١٩٦٣ . محاولة انقلابية شيوعية . تجميد قانون الإصلاح الزراعي . إيقاف تنفيذ القانون رقم (٨٠) الخاص بالنفط . تدهور الوضع الاقتصادي . استئناف القتال في كردستان

اذكر اني كنت بين زوار المرحوم خالد النقشبندي[1] عضو مجلس السيادة مساء أحد أواخر ايام شهر آذار ١٩٥٩. وكان الحديث يدور حول مدى ضلوع عبدالناصر في محاولة الشواف

(١) تعود معرفتي به الى أيام ما كان ضابطاً في الجيش العراقي برتبة رائد ركن. والفضل في تعريفي به يعود الى قريبه المرحوم صديقي علي ابن غياث الدين النقشبندي. وكان اذا اسعفتني الذاكرة – يروم الاستقالة من الجيش. وأظنه كان يشغل منصب متصرف (محافظ) لواء اربيل عندما اختاره (قاسم) صبيحة يوم ١٤ تموز العضو الكردي في مجلس السيادة. واما عن الوفد الذي ترأسه الى تونس فقد غادر في ٢٦ من تشرين الأول ١٩٥٨ وضم اربعة وزراء هم الشيخ بابا علي الشيخ محمود ومصطفى علي ومحمد صديق شنشل وفؤاد الركابي مع آخرين.

الانقلابية. وعندها روى النقشبندي حكاية زيارة الوفد العراقي برئاسته في تشرين الأول ١٩٥٨ بهدف محاولة تسوية الخلاف الناشب بين تونس وبين الجمهورية العربية المتحدة. والعمل على اقناع بورقيبة وحكومته على انهاء مقاطعتها الجامعة العربية.

قال النقشبندي: «أحسن الحبيب بورقيبة استقبالنا. إلاّ أن علائم الانفعال كانت بادية عليه عندما جاءنا ضحى اليوم التالي لتوديعنا وهو يحمل ملفاً ضخماً، دفعه الينا وهو يقول بشيء من العصبية والاعتذار.

– تحسبون اننا نفتري على جمال عبدالناصر وان ما تكتبه الصحافة حول عملية الاغتيال التي دبرها لي هي من نسج الخيال؟ هذا الملف يتضمن الدلائل الكافية حول تآمره على حياتي وعلى نظامنا الجمهوري. انا لاأستطيع المشاركة في منظمة عربية يسيطر عليها. واني أقدم هذا الملف هدية لرئيسكم وليحذر لنفسه[2].

ثمّ غادرنا. ولم نبق بعدها كثيراً ولم ينفسح لنا المجال للحديث فيما جئنا من أجله وكان تفكير التونسيين مبدئياً أننا من معسكر جمال عبدالناصر».

★★★

في ١١ تشرين الأول ١٩٥٨ اجتمع مجلس جامعة الدول العربية وقرّر قبول (تونس) عضواً فيها. وفي الخطاب الذي ألقاه (الحبيب الشطيّ) مندوب تونس وردت هذه العبارة:

«من الواجب على الجامعة العربية أن تتجنب فرض أحد اعضائها على بقية الاعضاء هيمنته ووجهة نظره.»

(٢) العميد الركن جاسم العزاوي في [ثورة ١٤ تموز. اسرارها. أحداثها. رجالها حتى نهاية قاسم. بغداد ١٩٩٠ – شركة المعرفة، الص ١٨١–١٨٢] كان واحداً من أعضاء الوفد. وهو من القوميين يشغل اذذاك منصب سكرتير قاسم. لم ينوه بهذه الحادثة الاّ انه يورد حكاية أثارت اشمئزازه، قال: كان السيد حسين الشافعي (من ضباط مصر الاحرار) وفائق السامرائي وعبدالوهاب الامين في استقبال الوفد في مطار القاهرة. واستأنف الوفد رحلته بعد توقف هناك – الى تونس... وجدنا الحبيب بورقيبه والوزراء وكبار رجال الدولة في استقبال الوفد والعشاء جاهز. وفي اثناء الترتيبات لإعداد المائدة ظهر أمر بالغ الخطورة وهو وجود اثنين من الصحفيين المصريين أحدهما على ما أذكر (زكريا نيل) ركبا مع الوفد العراقي في مطار القاهرة دون جواز سفر وتأشيرة دخول في وقت كانت العلاقات بين مصر وتونس مقطوعة وكان (بورقيبه) يتهم عبدالناصر بتدبير المؤامرات لاغتياله. فلنتصور الموقف الخطير عندما يكتشف بورقيبه وجود شخصين مصريين في قصره بل وفي غرفته دون علمه وعلم دولته. كان من حقه أن يغضب فيلوم الوفد العراقي بالمشاركة في مؤامرة اغتياله. لكنه تصرف بكياسةٍ وبدبلوماسية لتسوية الأمر وعدم اثارة غضب الوفد العراقي فسكت على مضض. كان هذا الحادث من تدبير السيدين صديق شنشل وفائق السامرائي. فهما اللذان سمحا للصحفيين بمرافقة الوفد دون علمنا.

قال هذا وانسحب بعد تسديده هذه الطعنة التي لم تفت المجتمعين المعني بها ونهض المندوب المصري ليعلن صراحةً بان (ج.ع.م) هي المقصودة «وإن الجمهورية التونسية تردد فحسب تلك الشائعات التي انتشرت حول هيمنة (ج.ع.م) على الجامعة والتأثير على قراراتها. وإن المندوب التونسي انما يؤكد نوايا تونس في التآمر على (ج.ع.م) من داخل الجامعة».

في عين تلك الجلسة حاول (الحبيب الشطي) عرض الاسباب الحقيقية التي نشأ عنها الخلاف بين تونس وبين (ج.ع.م) المتمثلة في التدخل الصريح في شؤون تونس المستقلة عن طريق مساندة «صالح ابن يوسف» المقيم في القاهرة بحماية ورعاية (ج.ع.م) والتعاون معه على إعداد وتنفيذ مؤامرات القاهرة بمشاركة رجال الحكم. وبنيّة الاطاحة بنظام الحبيب بورقيبة واغتياله.

قاطع رئيس الجلسة المندوب التونسي ولم يسمح له بإكمال أقواله فانسحب، وعقد في ذات اليوم مؤتمراً صحفياً وعرض وشرح ما لم يتح له عرضه وشرحه، كما عرض بعض الوثائق التي ادّعى انها تدين القاهرة بوضع الخطط لاغتيال رئيس الجمهورية وقلب نظام الحكم وفرض نظام آخر يقوم على رأسه صالح ابن يوسف خصم الحبيب بورقيبة الحالي، ورفيقه في النضال ضد الهيمنة الفرنسية على البلاد التونسية.

البربر سكانها الاصليون. جاءها الفينقيون تونس في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد وأسسوا فيها مستعمرات وامبراطورية عاصمتها قرطاجة التي نافست امبراطورية الرومان. وفي العام ١٤٦ ق.م أتمّ الرومان احتلالها بعد قتال دام أكثر من قرنٍ من الزمن وأسسوا مستعمرة أفريقيا الرومانية فيها وتواصلت هجرة الرومان اليها وامتزجوا بسكانها الاصليين. وفي العام ٤١١ ق.م غزتها قبائل القنرال من اسپانيا ومكثوا فيها قرناً من الزمن واختلطوا بسكانها. وفي حدود العام ٥٨٠م استعادها الروم البيزنطيون ونشروا المسيحيّة فيها. وفي العام ٦٧٠م أدخلها عقبة ابن نافع في املاك الامويين.

اصل سكان تونس من البربر كما قلنا. إلا أنها استقبلت خلال تاريخها الطويل موجات من الهجرات الكبيرة. كالموجة الفينيقية، وموجة افارقة الجنوب السود. وموجة يهودية وموجة رومانية ثم ڤندالية ثم عربية فضلاً عن موجة المهَجَّرين المسلمين الصقليين[٣].

وأهم الهجرات اليها عشرات الآلاف من أسر الاسپان الموريسكيين[٤].

(٣) جرى ذلك عقب احتلال الملوك النورمان جزيرة صقلية في العام ١٠٩١م.

(٤) بدأت هذه الهجرة إثر سقوط مدينة اشبيلية (سيڤيل) بيد الاسپان في العام ١٢٨٤. وفي مطلع القرن السابع عشر اندفعت اعظم وأكبر هجرة من المسلمين الاسپان (الموريسكيين) عندما أشهرت محاكم =

ثم أعقبتها هجرات متعاقبة من الاتراك بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر فيها عناصر مختلفة من أصول آسيوية وأوروپية (قفقاسية وسلاڤية).

هذه الخلائط العرقية المتنوعة التي تألفت منها عجينة الشعب التونسي، تشهد عليها اسماء الأسر التونسية المختلفة غير المتجانسة الغريبة الاشتقاق.

في العام ٧٠٣م بنى عقبة ابن نافع مدينة القيروان لتكون مَسْلَحةً للفاتح اي مدينة عسكرية وهو نهاية ثلاثة عقود تقريباً من مقاومة بربر قسطنطينة والبيزنطيين للغازي العربي. وفي ذلك الحين أطلق عليها المؤرخون العرب اسم افريقية. وكانت عملية التحول الى الاسلام سريعة. إلاّ ان مجموعات يهودية ومسيحيّة بقيت وتركت لها حرية ممارسة شعائرها الدينية. ولم يكن الاستعراب سهلاً بل كان بطيئاً جداً رغم أن البلاد استوعبت عدداً كبيراً من الجنود والمهاجرين من الشرق.

وحكم تونس طوال القرون التسعة التالية على الفتح عدد من الأسر الحاكمة وأولاها الأغالبة وهم من الخوارج كما تمكّنت اسرة فاطمية حاكمة فتح مصر واقامة الدولة الفاطمية.

بدأ التدخل الانكليزي والفرنسي والايطالي في شؤون تونس بعيد نصف القرن التاسع عشر. كان التنافس على اشده بين هذه الدول لحيازة أكبر عدد ممكن من القواعد في حوض البحر الابيض المتوسط على ساحله الافريقي[٤].

في العام ١٨٨١ اغتنمت فرنسا الفرصة بمبادرة من وزير خارجيتها (جول فيري) وخوفاً من ادعاء ايطاليا المتزايد بتونس - فأرسلت حملة تأديب مؤلفة من ثلاثين ألف جندي بزعم مطاردتها لعشيرة (الخميري) الجزائرية الغازية. فأسرع (باي) تونس بعقد معاهدة (قصر سعيد باردو Bardo) في ١١ من أيار ١٨٨١ مع الفرنسيين معطياً الشرعية لاحتلالهم ثم وبعد أن أتمت فرنسا قمع ثورات في صفاقس والقيروان وقفصة قررت اعلان تونس محميةً.

= التفتيش والسلطة سيف الارهاب عليهم وختمت هذه الهجرة المتواصلة التي دامت اربعة قرون بخروج عدد ضخم قدر باربع وخمسين الف اسرة (٢٠٠٠٠٠) اسپاني مسلم. استقروا جميعاً في (وادي مجردة) وفي (كاب بون) الى الشمال.

(٤) في العام ١٥٧٤ وقعت تونس تحت حكم الترك. بدعوة كبير قراصنتها (خيرالدين بربروسه). وظلت تدار من قبل پاشا (داي = باي) ينتخبه الجنود الينچرية. ثم وفي ١٧١٠ تغلب رجل يدعى (حسين) فألّف اسرة حاكمة تداول خلفاؤه الحكم باسم (باي) تحت الحماية التركية حتى اعلان الجمهورية. هذا ويمكن أن يعتبر التعريب الثقافي قد اكتمل بصورة رئيسة في القرن الثاني عشر الميلادي. والآن ليس هناك من يتكلم اللغة البربرية في البلاد الا مجموعات قليلة في أقصى الجنوب لايؤلفون أكثر من واحدٍ بالمائة من مجموع السكان.

وفي العام ١٨٨٣ وقعت مع الباي معاهدة لامرس وأول بنودها:

«من اجل تسهيل قيام الحكومة الفرنسية بممارسة حمايتها يتعهد صاحب الرفعة باي تونس بانجاز سائر الاصلاحات الادارية والمالية والقضائية التي تجدها الحكومة الفرنسية ذات نفع.»

وتنازل باي تونس بموجب مادة أخرى لفرنسا عن التمثيل الخارجي وأناط بها مهمة الدفاع والأمن العسكريين.

وأصبح المقيم الفرنسي هو الحاكم الفعلي وانقطعت كلّ صلة سياسية بالامبراطورية العثمانية.

وسرعان ما زاد عدد الفرنسيين المستعمرين في تونس وتضخم لتبوء مركز المتحكم في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية. رغم قوة واصالة التعريب الثقافي فقد بقيت العربية اللغة الرسمية. إلاّ أن اللغة الفرنسية احتلت مقاماً بارزاً في عالم الصحافة والثقافة العامة واستخدمت في الدوائر الحكومية لتطرد العربيّة منها. كما لم تشجع اللغة في المدارس العمومية. واقتصر تعلم اللغة على القطاع الديني بالدرجة الكبيرة.

وسلطة (الباي) تمت تصفيتها نهائياً من خلال المؤسسات البلديّة. وعلى أثر تأسيس ما عرف بالمجلس الكبير Le Grand Conceil وهو مجلس استشاري مختلط يتألف من فرنسيين وتونسيين. تخضع قراراته لمصادقة المقيم العام الفرنسي فقط. وليغدو (الباي) مثل رئيس دولة تشريفاتي.

كان ذلك مصدر حنق فئات من الشباب التونسي الطموح. وفي العام ١٨٩٥ وبنتيجة ذلك نشأ تكتل شبه سياسي باسم (جمعيّة الخلدونية) نسبة الى المؤرخ الشهير ابن خلدون. ومن أهداف الجمعيّة: «فتح أبواب المدنية الجديدة في وجه المسلمين وبعث تراث الحضارة الاسلامية».

وفي العام ١٩٠٥ أنشيء ما عرف بـ(جمعية التلاميذ القدماء لكلية صادقي) وغرضها كالاولى - ثقافي بحت: «العمل على ادخال الثقافة العصرية الى تونس».

كانت ثم أيضاً ما عرف بـ(جمعية صداقة الشباب التونسي) وفي العام ١٩٠٧ انقلبت هاتان الجمعيتان الى حركتين سياسيتين اتفق رئيساهما (علي باش حنبه) و(بشير صقر) على دمجهما في حزب عرف باسم حزب الشباب التونسي Le fairtie de jeunes Tunisiens.

في العام ١٩٠٩ انضم الى هذا الحزب شخصية علمية ذات نفوذ ادبي كبير هو (الشيخ عبدالعزيز الثعالبي) الذي تولى اصدار جريدتهم (تونس) باللغة العربية بدلاً من اللغة الفرنسية التي كانت تستخدمها.

من منهاج هذا الحزب «الدعوة الى الاستقلال. الى أن تقوم تونس بادارة شؤونها بنفسها». وأسرعت السلطات الفرنسية فأغلقت الحزب. إلاّ انه بقي يعمل في الخفاء طوال ست سنوات لاسيما في سنوات الحرب العظمى الأولى.

بعد نهاية الحرب وفي العام ١٩٢٠، تأسس حزب جديد أطلق عليه مؤسسوه اسم (الدستور) ترأسه السيد عبدالرحمن الثعالبي سليل واحدة من الأسر العربية الشهيرة في البلاد.

إتخذ هذا الحزب تحرير تونس واستقلالها هدفاً وشعاراً ووقف ضدّ الاجراءات التعسفية التي كانت تمارسها السلطة الفرنسية بحقّ الوطنيين، من اعتقال الى غلق الصحف والتصدي للاجتماعات العامة والجماهيرية.

نال (الدستور) شعبية كبيرة وزاد نفوذه بين الجماهير ثم وعلى أثر اضطرابات العام ١٩٢٢ ووقوف السلطة الفرنسية منها. هدد (الباي سيدي النصر) بالتنازل عن الحكم مساندةً للمطالب الوطنية. إلاّ أن المقيم العام الفرنسي لوسيين سانت Lucien Saint قابل ذلك من جهة باجراءات قمعيّة مشددة مصحوبة من جهة اخرى وبعين الوقت ببعض الاصلاحات كرفع بعض القيود والغاء بعض الضرائب، بهدف تهدئة المشاعر.

الظاهر أن سياسة (حزب الدستور) وأسلوب تعامله لم يعودا في ١٩٣٤ يعبران عن طموحات عدد من الوطنيين الشبان وبلغ استياؤهم من تصرف زعامته حد فصل انفسهم عنه وتأسيس حزب جديد باسم الحزب الدستوري الجديد Neo - destour واختير له محام شاب لم يتخط الثلاثين اسمه (الحبيب بورقيبة) امين سرّ عام له. هذا الحزب اصطدم منذ تشكيله مع السلطة الفرنسية. إلاّ انه تعاون لفترة من الزمن (١٩٣٥-١٩٣٦) أثناء قيام الجبهة الشعبية في فرنسا المعروفة بـ Front Populaire. إلاّ انه خاض في العام ١٩٣٧ نضالاً قصيراً داخلياً عنيفاً ادّى الى سيطرته على ساحة النضال الوطني وازاحة الحزب القديم من الميدان. وشدد النكير على الحكم الفرنسي ونادى بالاستقلال التام وجلاء الفرنسيين عن البلاد. فأقدمت السلطة على اعتقال بورقيبة وكبار مساعديه ومن بينهم امين سرّ الحزب العام الذي يليه في القيادة صديقه الحميم (صالح ابن يوسف) وسيقوا الى قلعةٍ فرنسية ليبقوا فيها معتقلين دون تقديمهم لمحاكمة حتى العام ١٩٤٢ عندما قام الالمان النازيون باحتلال الجزء الباقي من فرنسا

الذي كان تحت حكم حكومة ڤيشي فنقلهم النازيون الى ايطاليا وسلموا الى حكومتها.

بذلت الحكومة الايطالية أقصى الجهود وحاولت المستحيل لحمل بورقيبة وأعوانه على اعلان تضامنهم مع دول المحور ومنّتهم بحكم ذاتي (محلي) واسع لتونس بعد الحرب، فأبوا وفشلت المساعي الاّ أن السلطة الايطالية مع ذلك تركت لهم الخيار بالبقاء أو العودة الى تونس في آذار ١٩٤٣، وكانت تونس آنذاك تحت سيطرة القوات الالمانية.

وفشلت ايطاليا ثانيةً في حمل الوطنيين التونسيين و(الباي) بالذات على عقد معاهدة جماعية. وباتت تونس طوال أشهر ستة ميدان كرٍّ وفرّ وساحة قتال ضار بين قوات الحلفاء وقوات المحور. وجرت للاستيلاء على ممرّ (فايد) وخط (ماريت) الدفاعي و(مجاز الباب) أعنف المعارك في تاريخ الحرب وأشدّها هولاً. وانهارت مقاومة الالمان والطليان في آذار ١٩٤٣ وبدخول الحلفاء العاصمة تونس سارع (الحبيب بورقيبة) ليتصل بحركة فرنسا الحرة بزعامة الجنرال (ديغول) مقترحاً الشروع في الدخول بمفاوضات باتجاه اقامة حكومة وطنية محلية. إلاّ انه لم يلق تجاوباً. وعادت قوات فرنسية تابعة للحلفاء لاحتلال تونس وممارسة السلطة. وقامت بعزل (الباي) المتعاطف مع الوطنيين والحركة الوطنية في تشرين الثاني ١٩٤٣ بحجة تعاونه مع المحور.

واشتدّ الضغط على (الحبيب بورقيبة) وفي العام ١٩٤٥ تمكن من الهروب الى مصر، تاركاً شؤون الحزب وإدارته بيد رفيق نضاله (صالح ابن يوسف) امين السرّ العام. في أوائل العام ١٩٤٦ حصل تطور جديد على الصعيد الرسميّ. فقد أقدم الشخصية المحترمة المعتدلة (طاهر ابن عمار) رئيس القسم التونسي من (المجلس الكبير) مع ثمانين من أعيان تونس – على طلب عودة تونس الى ممارسة نظام الحكم الذاتي الوطني. إلاّ أن السلطات الفرنسية رفضت الطلب. فدعي الى اجتماع جماهيري عام في ايلول ١٩٤٦ وتقرر من خلاله النضال حتى حصول البلاد على الاستقلال التام.

في العام ١٩٥٠ توصل بورقيبة وحزبه الى نوع من المهادنة والتفاهم مع حكومة (روبرت شومان) الذي وعد بتطبيق نظام الحكم الذاتي من خلال مراحل مفاوضات. كانت خطة الحزب بتعبير بورقيبة نفسه: «المرونة والاعتدال في الشكليات والتصلب والثبات على الأمور المبدئية. واجتناب العنف كلما كان ذلك ممكناً. وخوض المعارك مهما بلغت شدّتها إذا ما تطلب الأمر»[٥].

(٥) «كتاب أبيض في الخلاف بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتحدة» [اصدرته كتابة الدولة للشؤون الخارجية للجمهورية التونسية. ديسمبر ١٩٥٨. المطبعة الرسمية. ص ١٨.

بالنظر الى المصادر الرسميّة الفرنسية، التي أيدّتها السلطة التونسية فيما بعد. أن الرجل الثاني (صالح ابن يوسف) كان مؤمناً بهذه السياسة الى الحَدّ الذي حمل المكتب السياسي للحزب الحرّ الدستوري التونسي على اختياره ليمثل الحزب في أول حكومة تونسية خالصة شكلت في ١٧ من آب ١٩٥٠ من أجل الشروع في المفاوضات الرامية الى إجراء تعديلات على أسس الحكم تكسب لتونس نوعاً من الاستقلال الداخلي فحسب لا لمفاوضات من أجل الحصول على الاستقلال التام الناجز كما زعم (صالح ابن يوسف) فيما بعد، إثر لجوئه الى القاهرة بسبب خلافه مع بورقيبة.

هذا ما تمّ الاتفاق عليه فعلاً، وانطلاقاً من هذا السبيل بعثت حكومة (شومان) مقيماً فرنسياً عاماً للشروع في التفاوض على البرنامج المقترح اسمه لوي پرييه Louis Perillier وطلبت من (الباي) تأليف وزارة مفاوضات تونسية، كان (صالح ابن يوسف) من أبرز أعضائها كما أسلفنا. إلاّ أن المفاوضات مالبثت أن انقطعت بسبب إصرار الجانب التونسي على اقامة پرلمان منتخب وفي ١٥ من كانون الاول ١٩٥١ أبلغت الحكومة الفرنسية التونسيين بأنها غير مستعدة للنزول عن سلطات واصلاحات أكثر مما منحت في شباط ١٩٥١.

يقول (بورقيبة) أن زميله (ابن يوسف) كان مؤمناً بهذه السياسة الى أبعد حَدّ وانه كان موافقاً على الامتيازات والاصلاحات «الطفيفة» التي تمت في شباط.

في ٥ من شباط ١٩٥١ وضع الفرنسيون الوزارة التونسية أمام أحد أمرين: إمّا القبول بما منح من اصلاح وجعله ضماناً لبقاء الوزارة التونسية المفاوِضة ومواصلة السعي للحصول على صلاحيات أكبر على طريق الاستقلال، وإمّا رفضها وعندها تنتهي مهمة الوزارة المفاوضة وتُقال فتفوت فرصة مواصلة السعي للتقدم على طريق الاستقلال بالطرق السلمية.

في ٨ من شباط ١٩٥١ قبلت الاصلاحات وواصلت الحكومة التونسية المفاوضة بتقديم مذكرة بالمطالب التونسية فرفضت جملةً وتفصيلاً. وانقطعت المفاوضات.

في تلك الاثناء كان (بورقيبة) يقوم بجولة في الدولة الآسيوية والغربية داعياً للانتصار للقضية التونسية. وتمهيداً لعرض قضية البلاد على الأمم المتحدة على أثر اتخاذ الحزب قراراً باللجوء اليها وقطع المفاوضات.

وعم الاضطراب والهياج البلاد وانطلقت تظاهرات جماهيرية صاخبة في تونس وغيرها من المدن الكبيرة. كان الحزب الدستوري الحرّ يسيطر على الشارع تماماً. وأسرعت فرنسا لإرسال

مقيم عام جديد عرف بالصلابة والميل الى استخدام الشدّة يدعى جان دي هوتيلوك Jean de Houtiloque. عاد بورقيبة من جولته في ١٨ من كانون الثاني ١٩٥٢ ولم تكد قدماه تطآن أرض بلاده حتى ألقي القبض عليه وأقتيد مخفوراً هو وأعضاء الحكومة المفاوضة الى بلدة (طبرقه) وفيها وضعوا تحت الاقامة الجبرية.

في تلك الفترة كان (صالح ابن يوسف) يبذل المجهودات في الخارج لوضع قضية مستقبل بلاده في جدول اعمال الأمم المتحدة. وكان قد تمكن من الإفلات وأمن الاعتقال. وزادت الاضطرابات والأعمال العنيفة ضدّ المحتل قدر ما تصاعدت اجراءات القمع.

تبيّن للسلطة الفرنسية أن المعتقلين كانوا على صلة بقوات المقاومة في الخارج وأنهم يبعثون بالتعليمات اليها. فقامت السلطة بنقل الحبيب بورقيبة وقيادة حزبه وأعضاء الحكومة المفاوضة الى معتقل (رماده) في أقصى الجنوب كما أبعدت مئات الى جهات أخرى. واذذاك ساد عهد ارهابٍ وشكلت فرق مقاومة مسلّحة لجأت الى المرتفعات وبدأت بحرب عصابات دامت سنتين ونصف سنة تقريباً في اشتباكات ومعارك. ولم يكن بمقدور الفرنسيين وقف نشاط بورقيبة وهو محتجز وبقي يوجه الانصار المسلحين رغم الحراسة المشددة. فنقل الى جزيرة (جالطة)[٦].

بقي بورقيبة وصحبه سنتين وبضعة ايام سجيناً في هذه الجزيرة في حين بقيت الثورة مشتعلة في تونس، وتغير الموقف بمجيء حكومة (پيير منديس فرانس).

في ٣١ من تموز ١٩٥٤ وصل منديس فرانس قرطاجة وأعلن في خطابه الشهير منها – حق تونس في حكم ذاتي كامل مقترحاً في عين الوقت استئناف المفاوضات. وتمّ اطلاق سراح بورقيبة ورفاقه. ونشرت له الصحف تصريحاً يتضمن تعليقه على خطاب رئيس الحكومة الفرنسية:

«إن المقترحات التي عرضها رئيس الحكومة الفرنسية إنما هي مرحلة ضامنة حاسمة في الطريق المؤدية الى بعث السيادة التونسية الكاملة. إلاّ أن الاستقلال سيبقى الهدف الاسمى للشعب التونسي لكن السير نحو هذا الهدف لن يكتسي منذ الآن برداء الكفاح المسلح بين الحكومتين الفرنسية والتونسية بل سيكون السير

(٦) هذه جزيرة صغيرة في البحر المتوسط لاتبدو حتى في الخرائط المفصلة يصفها «كتاب ابيض» (المرجع السالف) بأنها جزيرة نائية ذات طقس قاسٍ بعيدة عن السواحل التونسية لايسكنها غير اربعين أسرة ايطالية تحترف صيد السرطان البحري. لاتتصل بتونس إلاّ بباخرة صغيرة تأتيها مرةً واحدة في الاسبوع حاملة مواد تموينية.

على نهج التنقيح والتعديل وتبادل وجهات النظر بين الحكومتين في كنف الثقة المتبادلة والصداقة الدائمة وسيتمثل في التعاون الوثيق بين شعبين مؤكدين لما بينهما من تضامن وهو تعاون لاتشوبه شائبة السيطرة.»

وصار بورقيبة يدير المفاوضات من وراء ستار وكانت قد تشكلت حكومة مفاوضة ثانية سافرت الى پاريس. وتوقف القتال وأعمال العنف تماماً.

في الثالث من حزيران ١٩٥٥ وبنتيجة مفاوضات دامت أشهراً وقعت الاتفاقية في پاريس ودخل بورقيبة تونس دخول الظافر. وتم تشكيل حكومة جديدة اعضاؤها من الحزب الدستوري الحرّ. بعد إعلان الاستقلال الذاتي الذي توصلت اليه الاتفاقية.

مرّت ثلاثة أشهر وعاد صالح ابن يوسف بعدها الى تونس من القاهرة وأعلن فور وصوله رفضه بنود الاتفاق وعدم قبوله بها لأنها تحدّ كثيراً من سلطة الحكومة التونسية ودعا الى استيناف النضال المسلح ورفض الاتفاقية جملة وتفصيلاً ورفض الحزب من جانبه هذه الدعوة بأغلبية ساحقة مدّعياً بأن أمين سره العام (صالح ابن يوسف) كان قد أعطى موافقته المبدأية على الاتفاقيه الموقعة في الثالث من حزيران. كما كان موافقاً على اعلان الاستقلال الذاتي في ٣١ تموز ١٩٥٤. ونظم انقلاباً مسلحاً تم قمعه بسهولة فهرب الى القاهرة.

كان (صالح ابن يوسف) مع جمال عبدالناصر في مؤتمر باندونغ وقد وقع تحت تأثير الرئيس المصري الذي كان يبذل جهوداً خاصة لقبول ممثل لتونس في المؤتمر رغم عدم استكمال سيادتها.

عاد صالح ابن يوسف الى القاهرة عن طريق طرابلس وصرح بمعارضته للاتفاقية وندد بها وقاد حملة دعائية صحفية واعلامية ضدّ بورقيبة ووصفه بالعمالة وطالب بإلغاء المعاهدة والعودة الى النضال المسلح وقال انه كان يحمل عند عودته الى تونس وعوداً من عبدالناصر لمساندة ثورة تونسية في سبيل الاستقلال التام عسكرياً ومادياً واعلامياً.

كان صالح ابن يوسف متأثراً بجو القاهرة الثوريّ ودروس ثورة [٢٣ يوليو] فانقلب يردد آراء عبدالناصر ويكتب الى حزبه مخطئاً «النهج الاستسلامي» الذي انتهجه مستنهضاً همم أتباعه ومشايعيه على مواصلة اعمال العنف من أجل الاستقلال التام ورفض مقررات الحزب.

أعلن بورقيبة مع هذا – عن دعوة خصمه (ابن يوسف) من القاهرة لحضور مؤتمر صفاقس في ١٥ تشرين الثاني ١٩٥٥، الذي حضره مندوبون عدة من البلاد العربية وكان الوفد المصري برئاسة الشيخ (أحمد حسن الباقوري) وزير الاوقاف. وضم (أحمد سعيد) مدير اذاعة

صوت العرب. المعروف جيداً في البلاد الناطقة بالعربية.

لكن (صالح ابن يوسف) اسرع قبل انعقاد المؤتمر بوصفه أمين سرّ الحزب الدستوري الحرّ الى رفض مقررات المكتب السياسي. وأصدر قراراً بتجريد اعضائه ومنهم بورقيبة. من مسؤولياتهم الحزبيّة ونعتهم بالخونة. وعقد اجتماعاً حضره (الباقوري) وأعضاء الوفد المصري وفيه حث التونسيين على رفض شكل الحكم الذي تمّ التوصل اليه في اتفاقية ١٩٥٤، ودعا الى المقاومة المسلحة حتى الاستقلال. وقامت اذاعة صوت العرب بتغطية هذا الاجتماع اعلامياً معطية صورة تختلف تمام اختلاف عن طبيعة الرّأي العام التونسي الذي كان مرتاحاً لنتائج المفاوضات. وصورت تونس وكأنها ميدان معارك شاملة بين القوات الفرنسية والثوار انصار صالح ابن يوسف. ووصم بورقيبة بالخيانة والتعاون مع الأجنبي وحزبه بالعمالة والتنكر لحقوق «الشعب العربي في تونس» ومصالحه.

قدّر لتونس أن تكون فترة نضال أبنائها في سبيل التخلص من التبعية الأجنبية. هي في عين الوقت فترة تحوّل رئيس في اهداف ثورة ٢٣ يوليو المصرية وفلسفتها بإخراجها من إطارها المصريّ الضيق، الى فضاء القومية العربية الرحيب. لذلك كان اهتمام قادة مصر الثوريين بالمصير التونسي طبيعياً. وكان لكفاح التونسيين ضد الاحتلال الفرنسي مغزى خاص لاسيما بسبب وقوع البلاد على طريق الساحل الغربي المؤدي الى المحيط وهو الحدّ الغربي للوحدة العربية التي كان يطمح عبدالناصر الى تحقيقها اذذاك.

مع هذا أمكن احتواء الوضع بعد قيام انصار (صالح ابن يوسف) بأعمال شغب ذات طابع ارهابي، مع اضطرابات شملت ارجاء القطر لفترة وجيزة.

وانتهى مؤتمر الحزب الدستوري في صفاقس بإدانة صالح ابن يوسف وطرده وطرد انصاره من الحزب من الحزب كما تقرر اعتقاله وإحالته الى القضاء لكنه تمكن من الفرار الى طرابلس ومنها الى مصر.

وأصبح بورقيبة وحزبه هدفاً للإعلام المصري وكان الشارع القومي العربي مستعداً في ١٩٥٥ للايمان بايّ شيء تذيعه القاهرة وتردّت سمعة بورقيبة وأوذيت كثيراً، والأمر لم يقف عند هذا الحد فقد تكررت محاولات تسلل لأتباع صالح ابن يوسف، وأرسلت القاهرة كميات كبيرة من الاسلحة مع محرضين على الفتنة. وفي هذا الجوّ الساخن كانت الحكومة الوطنية في تونس تغذ الخطى نحو الاستقلال والسيادة الكاملة.

في تشرين الثاني ١٩٥٥، اعترفت فرنسا من ناحية المبدء باستقلال المغرب (مراكش) الأمر

الذي أعان التونسيين على الاعتراف الفرنسي باستقلال تونس التام في العشرين من شهر آذار ١٩٥٦. وكانت مفاجأة لمصر وللاعلام المصري غير متوقعة[٧] ووجب عليه أن يدور على نفسه بمائة وثمانين درجة! عندما ابتدرت الحكومة المصرية فكانت أول من اعترف بالدولة التونسية التامة السيادة وأول من عرض عليها التبادل الدبلوماسي.

مع هذا بقي التعاون والصلات مع فرنسا وثيقة طوال المرحلة الانتقالية الحرجة من التبعية السياسية الى الاستقلال التام. ولاسيما عندما كانت الجيوش الفرنسية تغزو قناة السويس بعد تمام تأميمها في ٢٣ من تموز ١٩٥٦.

نقم عبدالناصر على الموقف التونسي من تلك الحرب. وصبر حتى إذا فرغ من الغزو وآثاره – تحوّل الى الساسة العرب الذين اتهمهم بالانحياز الى جانب الغزاة كنوري السعيد والملك سعود. وتناولت الصحف المصرية واذاعاتها بورقيبة بالقدح ووصفته بصنيعة الفرنسيين وراحت تقدم (صالح ابن يوسف) بوصفه الزعيم الوطني الحقيقي الذي اغتصب منه بورقيبة السلطة بمعاونة السلطات الفرنسية المحتلة. وركزت على أن الاستقلال المزعوم هو غير حقيقي مادامت القوات المسلحة الفرنسية باقية وزعمت أنّ عصابات فرنسية ارهابية قد انتشرت في البلاد لتشيع الرهبة وأنها تشتبك في معارك حقيقية مع المجاهدين التونسيين وتقصد انصار صالح ابن يوسف.

عمدت السلطات المصرية الى الالقاء بكل ثقلها على صالح ابن يوسف وعقدت آمالها على إمكان احلاله محل بورقيبة.

أقام (صالح ابن يوسف) مكتباً له في ليبيا واتخذ له عنوان «القيادة العليا لجيش التحرير الوطني التونسي» ونصب نفسه قائداً أعلى وكان يصدر الى أنصاره التعليمات بهذا العنوان من مقره في القاهرة «مكتب تونس المتفرع من لجنة تحرير المغرب العربي» وأفسح للمكتب فترة معينة من اذاعة «صوت العرب» في القاهرة[٨].

(٧) كلف بورقيبه في اجتماع المجلس التأسيسي بتأليف الوزارة من حزب الدستور الحرّ. وأعيد الأمن الى نصابه وأقيمت علاقات دبلوماسية مع الدول الكبرى وشكل جيش وسُنّت قوانين جديدة على الخطوط والمباديء الديمقراطية لاسيما ما تعلق بحقوق المرأة والعلاقات الزوجية والعمل. ثم وفي ٢٥ من تموز ألغي نظام حكم (الباي) واستبدل بنظام جمهوري وأصبح بورقيبه رئيساً للجمهورية مع بقائه رئيساً للوزراء. وسن دستور ذكر فيه أن الاسلام هو دين الدولة الرسمي وأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية. إلاّ أن الدستور لم يحدد انتمائية عرقية أو قومية.

(٨) في ٢٨ من شباط ١٩٥٦ أحال الادعاء العام صالح ابن يوسف وزمرة من أتباعه الى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى والعمل على قلب نظام الحكم بالقوة المجردة وصدر عليه حكم بالموت غيابياً وعلى رفاقه. =

طلب السفير التونسي في مصر من السلطة وقف نشاطه وعدم إفساح المجال الواسع له للتهجم على النظام التونسي. وذكر السفير «الصادق المقدم» في مذكرة له الى وزارة الخارجية المصرية أن مكتباً كهذا لم يعد له أيّ وجه حقيقي أو قانوني لأنه:

«تأسس في عهد الاستعمار الفرنسي ليقوم مقام سفارةٍ ونظراً لأن تونس أصبحت دولة مستقلة لها سفارتها في القاهرة فلا موجب للابقاء على هذا المكتب. خصوصاً وأن المغرب (مراكش) أغلق مكتبه. وإن الجزائريين ابدلوه بمكتب خاص بهم هو جبهة التحرير الوطني الجزائري.»

واحتجّ السفير على شنّ الحملات الصحفية والاذاعية.

تركّز الهجوم الاعلامي المصري على تفريط الحكومة التونسية بمصالح الشعب وعمالة الحبيب بورقيبة وحكومته وحزبه بالرضا باتفاقات الثالث من حزيران. وانثنت بعد اعلان الاستقلال للتركيز على انه استقلال صوري بوجود قواعد عسكرية فرنسية وقوات فرنسية في تونس. وركز الهجوم على شخص بورقيبة الذي تعرّض بزعم الصحافة التونسية الى أكثر من ست محاولات اغتيال:

«ووعد المسؤولون المصريون جواباً على احتجاج السفير (الدكتور الصادق المقدم) وفي طليعتهم عبدالناصر شخصياً بغلق المكتب وايقاف نشاط صالح ابن يوسف وايقاف الحملات الاذاعية لكن لم يتمّ أيّ شيء من ذلك.»[٩]

وازداد غضب عبدالناصر من الموقف العاطفي الذي وقفته الحكومة التونسية من ثورة ١٤

= وهم حوالي خمسين بأحكام تتراوح بين عشرين عاماً وبين سنتين. ولم يذكر في قرار الحكم اسم الدولة التي كانت تمدّ المتآمرين بالمال والسلاح ولم يشر اليها.

(٩) الكتاب الأبيض: المرجع السالف ص٣١: «في ٢٠ آذار ١٩٥٧ دعت الحكومة التونسية الحكومة المصرية لحضور العيد الاول لاستقلال تونس فأوفدت السيدين حسين الشافعي وأنور السادات، فاقتُبل الوفد المصري بحفاوة بالغة من طرف الرئيس بورقيبه... وبهذه المناسبة قلدت الحكومة المصرية الرئيس الحبيب بورقيبه وسام قلادة النيل... كما قلدّ الرئيس بورقيبه السيدين حسين الشافعي وأنور السادات وسام الاستقلال. وكان التونسيون يعتقدون بعد هذه الزيارة... إن ما شاهده الوفد المصري وما سمعه سيقنع الحكومة المصرية بوجوب التخلي عن حركة صالح ابن يوسف وتمتين الصلة بالجمهورية التونسية وتوثيق التعاون معها. لكن شيئاً من هذا لم يتمّ. اذ بعد عودة الوفد المصري الى القاهرة استمر صالح ابن يوسف في نشاطه كالعادة». وجاء في ص٣٣: «وفي شباط ١٩٥٨ سلم وزير الخارجية التونسي جمال عبدالناصر شخصياً ملفاً كاملاً يحتوي على وثائق تدين صالح ابن يوسف ومنها رسائل بخطه يحض فيها التونسيين على الثورة والفتك برئيس الجمهورية. وتطالب أن تفرض الحكومة المصرية عليه الالتزام بالحقوق والواجبات التي يفرضها حق اللجوء السياسي والتقيد بها».

تموز في العراق ومن عبدالكريم قاسم – وبعدت الشقّة سيما بعد أن خلعت الصحافة التونسية على (قاسم) اوصافاً اعتبرها الزعيم المصري تعريضاً به. كانت الصحافة التونسية ومعظمهما باللغة الفرنسية وقتذاك – تتمتع بحرّية عزّت على الصحافة المصرية. فراح بعضها يقارن ويعدد اوجه التفضيل بين حكومة قاسم وحكومة عبدالناصر.

وأرادت الحكومة العراقية الجديدة تأكيداً لوجهها «العروبي» أن تقوم بدورٍ قوميّ حميد في هذا المجال فأوفدت في ايلول ١٩٥٨ وزير خارجيتها الدكتور عبدالجبار الجومرد وهو من القوميين المستقلين ليحث بورقيبة على الاسراع في الانضمام الى جامعة الدول العربيّة. وانتهز بورقيبة الفرصه وشرح له اطوار الخلاف القائم بين تونس وبين مصر وقال مما قال:

«إنني أشك في الفائدة التي يمكن أن تجنى من انضمام تونس الجامعة العربية في الوقت الذي أجد المؤامرات تحاك في الجمهورية العربية المتحدة ضد تونس وضديّ وفي الوقت الذي كادت هيمنة (ج.ع.م) على الجامعة تكون كاملة.»

بالتالي أوفدت تونس (الحبيب الشطي) سفيرها في بيروت على رأس وفدٍ للمشاركة في دورة الجامعة العربية وكلف بإثارة قضية التدخل المصري في شؤون تونس.

لم يرد في الخطاب الذي ألقاه (الشطي)[١٠] ذكر لـ(ج.ع.م) ولم يعرض بها إلاّ أن رئيس الوفد المصري (عبدالحميد غالب) ثارت اعصابه وغادر القاعة إحتجاجاً سيما بعد اشادة

(١٠) تأمل هذه المقاطع من الخطاب:

«هل نؤاخذ اذا ما جاهرنا بأننا كنّا نشعر قبل الأشهر الثلاثة الأخيرة إن وجودنا في الجامعة لاينسجم مع ما كنا بصدده من الاحداث والانشاء؟ بل هل نلام إذا ما قلنا إننا كنا نتجافى الجامعة اذ رأيناها مأوى يأوي اناس بلا قلوبهم. وتجتمع فيه اشخاص تفرقت مشاربهم واتجاهاتهم، يتلاقون وكأنهم لايدرون لماذا يتلاقون. أو قل يتلاقون حتى يقال عنهم انهم تلاقوا، ثم يفترقون وقد حمل البعض منهم حقداً جديداً على أخيه أو احتقاراً أو بغضاء أو فكرة في أن الجامعة أصبحت ذات اتجاه واحد تعمل لصالح شق واحدٍ وتأتمر بأوامر عضو واحد...

كثيراً ما قيل لنا إن دخولكم الجامعة قد يرجح كفّة على أخرى، وهذا ما كان يخيفنا في الواقع. إذ نحن لانريد أن نرجح كفة على كفة إذ في ذلك الهزيمة للبعض والنشوة للبعض الآخر وبلاء القطيعة للجميع... على أن ثورة العراق المباركة كانت فجراً يبشر بالخير ويبعث في النفوس الأمل ونرجو من الله أن يكون فاتحة عهد من اليمن والحرية والازدهار لكافة البلاد العربية ولقد كانت هذه الثورة مبعث أملٍ في نفوسنا نحنُ بصفة خاصّة اذ نراءى لنا عهد انبعاث الجامعة من الكابوس الذي أرهقتها به العهود البائدة وهذا الأمل هو الذّي حدا بنا الى طلب الانضمام الى صفوف الجامعة...

إن الجامعة العربيّة هي المسؤولة عن إحلال التفاهم بين اعضائها محلّ الخصام. والتصافي محل التجافي... وهي المطالبة باجتناب وقوع أحد اعضائها في خف الهيمنة والاستبداد بالرأي...». المرجع السالف الص ٢٦٢-٢٦٤.

المندوب التونسي بثورة الرابع عشر من تموز. عندها لم يعد رئيس وفد (ج.ع.م) قادراً على ضبط انفعالاته فبادر يردّ رداً عنيفاً[١١] ببضع جمل ثم غادر قاعة الاجتماع مع اعضاء الوفد احتجاجاً.

بعد خروج الوفد أراد رئيس الوفد التونسي تلاوة بيان اتهام لـ(ج.ع.م) في التدخل السافر بشؤون تونس وتنظيم المؤامرات لإحداث انقلاب فمنعه الرئيس من تلاوته كاملاً وأوقفه لكن الصحف التونسية نشرته في حينه[١٢].

★★★

في شهر تشرين الثاني ١٩٥٨ أعلنت السلطات التونسيّة نبأ إلقاء القبض على العريف الفدائي المصري (محمد فؤاد السيد عبدالحميد) الذي استجوب قضائياً بمحضر من مراسلي الصحف فاعترف بأنه سلح ودخل بجواز سفر مصري اعتيادي لاغتيال رئيس الجمهورية التونسية بأمر من عقيد المخابرات (حسين محمود لبيب)[١٣]. وقبلها في شهر شباط ١٩٥٨

(١١) ردّ السيد عبدالحميد غالب رئيس وفد (ج.ع.م) بخطاب قصير ختمه بهذه العبارة:
«لقد تكلم السيد رئيس وفد تونس الشقيقة عن الصراحة ونحن نقولها صريحة وواضحة. إننا نرفض ما تردد في جوانب هذه القاعة هذا الصباح موجهّاً الى (ج.ع.م) وهذه هي الصراحة التي درجنا عليها. إننا نرفض هذا ونشعر بأنه لايبشر بالخير. إن ما سمعناه اليوم يبعث على الاعتقاد بأن الجامعة العربية أصبحت أو أوشكت أن تكون اداة للهدم لا للبناء ولتفريق الكلمة لا لجمعها. وحتى لايشعر السيد رئيس وفد الجمهورية التونسية الشقيقة باي اتجاه أو حب للهيمنة أو الاستبداد بالرأي فان وفد (ج.ع.م) لايسعه إلاّ الانسحاب. [المرجع السالف ص ٢٦٥].

(١٢) قرأ المندوب عدة فقرات حتى وصل الى هذه العبارة:
«تدخلّ الجمهورية المصرية، ثم الجمهورية العربية المتحدة في الشؤون التونسية البحتة باحتضانها لجماعة تناصب العداء للنظام الجمهوري بتونس وتكيد للقائمين عليها. وفي هذه الحالة كانت حكومة القاهرة تستخدم عملاء وعلى رأسهم مجرم الخ...» ولم يدع رئيس الجلسة المندوب يكمل بيانه هذا.

(١٣) نشر في الكتاب الأبيض محضر الاستجواب الكامل (الص ٢٨٢–٢٩١). وهذه مقاطع منه:
– ما هو سبب دخولك الى تونس؟
– كنت كلفتُ بمأمورية عملية وهي اغتيال السيد الحبيب بورقيبه رئيس الجمهورية التونسية.
– من كلّفك بهذه المهمة؟
– سيادة القائمقام (العقيد) حسين محمود لبيب. طلب مني أن ادخل الجمهورية التونسية وأغتال بورقيبه.
– بأيّ وسيلة؟
– أعطاني طبعاً مسدس (بريتا). إن تذهب لتغتاله بأي وسيلة كانت. اثناء التجمهر أو أثناء اجتماع أو باي وسيلة أخرى.
– بماذا مدّوك؟ باي شيء؟
– جاءني سيادة القائمقام يوم ٢٣ وقال عندنا مأموريتين إحداهما في تونس والأخرى في السودان فطلب مني هل أحب أن أذهب لتنفيذهما معاً فأجبت بأن أذهب الى تونس لأن بشرتي بيضاء مثلهم في ٢٤. =

اتهمت تونس المخابرات المصرية بتدبير محاولة اغتيال رئيس الجمهورية بارسال (صالح النجار) الذي قبض عليه في ١٢ من شباط عند الحدود فوجدوا في حوزته عند التفتيش رزمة من الرسائل الى عدد من أشياع صالح ابن يوسف مع قذيفة يدوية. إلاّ انه تمكن من الفرار واجتاز الحدود عائداً الى ليبيا بعد أن ترك رسائله وسلاحه في يد كمرك الحدود. وادعت الحكومة التونسية بعد تحقيقات أجرتها مع الأشخاص الذين وجهت اليهم الرسائل المضبوطة انها كشفت مؤامرة مصرية – يوسفية ذات ابعاد واسعة.

وازداد الضغط الاعلامي على تونس بعد الاعلان عن محاولة الاغتيال التي نفتها الاوساط الرسمية في (ج.ع.م) نفياً قاطعاً ببيان رسميّ. وانشغلت الحكومتان طوال سنتين أو ثلاث في حرب اعلامية هجوميّة دفاعية ومهاترات والقاء التهم المتبادلة. واستُهْدِف شخص بورقيبة فبدا للقوميين العرب في كلّ البلاد الناطقة بالعربية انساناً متنكراً للقومية العربية متحالفاً مع الاستعمار والامبريالية المتمثلين في فرنسا وبريطانيا، وفي بعض الأحيان الولايات المتحدة[١٤]. وأحياناً أيضاً بالتحالف مع الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني. فتقوم الحكومة التونسية لتدافع عن عروبة تونس وعن عروبة رئيسها وتتهم رئيس (ج.ع.م) بالتآمر على كيان الدولة التونسية.

= – ٢٤ من أي شهر؟
– ٢٤ من الشهر الماضي أكتوبر ١٩٥٨. واتاني بخرائط مصر وليبيا وتونس وبين لي مناطق الحدود وكل ما يمكن أن يعترضني في الطريق وما الى ذلك.
– طيب لما خرجت ما هي الاماكن والبلدان التي مررت بها؟
– خرجت من مصر وعندما وصلتُ الى الاسكندرية ركبتُ الى مرسى مطروح ومنها الى السلوم أي حوالي ٢٤٠كم الى السلوم وعندما تبدأ منطقة الحدود المصرية ومنها الى الحدود الليبية توجد مسافة ١٢كم قطعتها مشياً وتوجد بداية (حاجز) بعد الحدود بسبعة كم تقريباً فاضطررت أن أمشي ايضاً ثم ركبتُ الى جوانب (كسيوط) وقبلها نزلت وقطعت المسافة مشياً الى طبرق ثم مررت ببنغازي ومسراطة وطرابلس الغرب والحدود الليبية ووصلت الحدود التونسية.
– هل تعرف الرئيس بورقيبه؟
– لا طبعاً بل عرضوا علي صورة له.
– هل حدد لك القائمقام مدة تنفيذ الاغتيال؟
– طبعاً حددها لي بمدة ثلاثة أشهر تبتديء من ١٩٥٨/١٠/٢٥.
– هل وعدك بجائزة؟
– لا لأنها داخلة في نطاق أعمالنا ويجوز انهم كانوا سيرقونني بعدها.
[عجزت عن معرفة ما آل اليه مصير هذا الفدائي. هل قدم للمحاكمة؟ أم بقي محتجزا؟ ثم أطلق سراحه؟]

(١٤) كنت قد وجدت مقالة عن حياة الحبيب بورقيبه في المجلة الشهيرة ريدر دايجست فترجمتها ونشرتها في جريدتي «الرائد». وعلمت فيما بعد بأن المقالة كانت واحداً من أسباب قيام عبدالسلام عارف بإلغاء اجازتها ايام ولايته كان وزيراً للداخلية.

وهاجم عبدالناصر الحبيب بورقيبة في خطاب له بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩٥٨ القاه بمناسبة زيارة لمعامل السكك الحديد في القاهرة:

«إن الجمهورية العربية المتحدة واجهت اتهامات من الاستعمار ومن أعوان الاستعمار. والايام أظهرت كيف كانت هذه الاتهامات، اتهامات باطلة لا هدف لها الا بعث التفرقة في النفوس وبث الشك في القلوب. والتفرقة بين أبناء الأمة العربية ليجعلوا البعض منها ركيزة للاستعمار ورأس جسر للاستعمار. ومنذ عشرين يوماً وقف الحبيب بورقيبة في تونس ليعلن انه اعتقل ضباطاً من مصر ووضعهم في السجون وسيحاكمهم لأنهم جاؤا لاغتياله وأعلنا في هذا اليوم كذب الادعاء والافتراء وكنا نعتقد أن الحبيب بورقيبة سيوجه قوة شعبية ليحرر بلاده من الجنود الفرنسيين الذين يعيثون فيها فساداً. وحينما يخرج بورقيبة ليلهي شعب تونس عن الاحتلال وعن جنود فرنسا وعن قواعد فرنسا ويوجه انتباههم الى شقيقتهم الجمهورية العربية المتحدة ويوجه ضدّها الاتهامات والافتراءات. ويستثير شفقة شعب تونس بأن يدعي بأن الجمهورية العربية المتحدة أرسلت ضباطاً مصريين ليقتلوه... وانهم في غياهب السجن ينتظرون محاكمتهم. إننا نشعر بأنّ هذا تضليل لايهدف الا الى إلهاء شعب تونس عن الاحتلال الفرنسي الذي يسري في ارجائه.»

بهذا وببعض التصريحات الرسمية فتح عبدالناصر باب المزايدة بينه وبين الرئيس التونسي في مجال القومية العربية وعروبة تونس وكانت تلك المباراة التي استغرقت أكثر من عامين سبباً لادعاء بورقيبة بالتلاد العربي والانتماء العربي دون الاعتراف بزعامة عربيّة لعبدالناصر. جاء في خطاب له ألقي في جامع (عقبة ابن نافع) بمدينة القيروان في ٢٦ من ايلول ١٩٥٨:

«ما القيروان الا مستودع شرف العروبة ودار عزّة الاسلام... إن مدينةً أسست على القومية العربية وارتضعت في مهدها لبان الحب والاخلاص والحنين لشقيقاتها من أقطار الوطن العربي الكبير في الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر والسودان وليبيا، لجديرة بأن توحي ذكرياتها الماجدة بابراز عروبة الوطن التونسي في معرض العيان...»

وكان قد ذكرّ مستميعه في مؤتمر الاطباء العرب بتونس في ٢٦ من حزيران ١٩٥٨:

«إنكم لا محالة أحق الناس بأن تدركوا أن العروبة ليست وليدة الظروف السياسية ولارهينة الأوضاع الدولية لكنها شعور صادق منبثق من صميم قوميتنا. بذلك الشعور صمدنا ومن اجله استهنّا بالسجون والمنافي وفي سبيله سقط شهداؤنا الأبرار...»

كان بورقيبة مستعداً ليقول أو يبحث في أي شيء حول عروبته وعروبة تونس إلاّ شيئاً واحداً وهو مسألة الوحدة من المحيط الى الخليج بزعامة عبدالناصر.

في ١٤ تموز ١٩٥٧ نشرت جريدة [المساء] القاهرية التي كان يرأس تحريرها [خالد محي الدين] تصريحاً للرئيس التونسي حول ما يرى من وحدةٍ للبلاد الناطقة بالعربية. قال مجيباً:

«إن موقفنا من الدول العربيّة هو موقف الشقيق من الشقيق يسانده ويؤازره ويتعاون معه لما فيه الخير والصلاح للجميع على أساس المصالح المشتركة والاهداف التحريرية الموحدة. على أن الواقع الخاص بكل قطر عربي والملابسات الخاصة التي تحيط بظروفه تفرض عليه أن يرسم خططه السياسية بإيحاء من هذا الواقع وباعتبار هذه الملابسات الخاصّة فليس من الضروري ان تمّ التلاقي في ضرورة توحيد الاهداف القوميّة أن تطبق خطة واحدة في كلّ الاقطار العربية. بل ينبغي أن تترك لكلّ حكومة حرية وتقدير ظروفها الخاصّة وتسطير خططها السياسية على ضوء ظروفها وامكانياتها الخاصّة التي هي ادرى بها.»

عبارة لفتت نظري في بحث كتبه الحبيب بورقيبة فأسرعت الى تدوينها دون أن يخطر ببالي يوماً اني سأستخدمها في كتابةٍ لكتاب حول القومية العربية.

عنوان البحث [حول الذاتية الثقافية والضمير القومي داخل المجتمع التونسي] منشور في مسلسل يصدره مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية لسنة ١٩٧٤ ص ٨. قال الحبيب بورقيبة فيها:

«تونس من أقدم العصور كانت دائماً شديدة الحفاظ على شخصيتها، حتى في العهود التي تفرض عليها لغةٌ جديدة وتحمل على اعتناق دين الدخلاء عليها.

وأكبر تغيير طرأ عليها كان عند احتكاكها بالعرب والاسلام فبعد أن قاوم البربر كتائب الفتح الاسلامي مقاومة عنيدة أقبلوا على الدين الجديد واعتبروه جزءً لايتجزأ من شخصيتهم.»

ثم استرعى نظري بعد حوالي سنتين مقالة للاستاذ البشر بن سلامه التونسي في مجلة الفكر (العدد السابع. ص ٧ للسنة ١٩٧٦) بعنوان الاخوة العربية الاسلامية:

«نحن إذا قلنا الشخصية التونسية فإننا نعني ضمنيا انتسابنا الى امة هي الامة التونسية... ويحق لنا القول بكل موضوعية الثقافة التونسية... كما نقول الثقافة المصرية والجزائرية والمغربية والعراقية واللبنانية والسورية وغيرها».

كثرت قراءاتي لامثال هذه الافكار حتى عدت لا اعبأ بتسجيلها.

ولم يكن بوسع الرئيس التونسي أن يبقي غريمه (صالح ابن يوسف) اداة في يد عبدالناصر ونجح في اغتياله في آب ١٩٦١. ثم تنفس الصعداء عندما أقدم العسكريون السوريون على انقلابهم في ٢٨ من ايلول من السنة عينها.

★★★

تحركت القوى البعثية والقومية في الخفاء لإزاحة قاسم ولم تقصر اعتمادها على (ج.ع.م) واستعانت بقوى الغرب ولاسيما بريطانيا التي افزعتها سياسة قاسم النفطية. نقول دبت فيها حركة قوية سيما بعد أن ضمنت حياد الثورة الكردية التي كانت قد سلخت شهرها الثامن عشر. يتحدث البارزاني زعيم الثورة عن قيام هذه القوى المتآمرة بارسالها من يسأله مساندة انقلاب ضد قاسم. فحصلت على موافقته شريطة أن يكون ثم اقرار بحقوق الكرد مصحوباً بتنفيذ فوري، فتعهد المندوبون له بذلك تعهداً شفاهياً ولم يحرر التعهد بوثيقة[١٥].

لايدري أحد كم كان ملا مصطفى يتوقع لهؤلاء من النجاح في حينه. إلاّ أنه كان يقدر حق تقدير ما أصيبت قواته من انهاك ومن حاجة الى الراحة قدر ما كان تواقاً الى حلّ عادل للمشكلة الكردية يؤدي الى انهاء حالة قتال أكره عليها.

وما أظنّ السبب في سرعة موافقة هؤلاء المؤتمرين وكلهم من القوميين المتعصبين للعروبة – على اعطاء ضمان قولي لتأمين الحقوق الكردية القومية، نابعاً عن ايمانهم بعدالة المطلب الكردي. والسبب الحقيقي هو أن نجاح انقلابهم لم يكن بقتال الكرد بل باستتباب الأمر لهم في العاصمة والمدن الهامة، وهذا ما كان يتمّ الاّ بسحب قطعات موالية من جيش الجبهة.

وأعلن وقف القتال بعد نجاح الانقلاب. وشخص وفد كردي الى بغداد للمفاوضة. وتحدث باسم البارزاني عن حكم ذاتي. وهدد بعد حصول تلكؤ مقصود باعلان الاستقلال والقتال من

(١٥) في مبدأ الأمر أوفد المتآمرون طاهر يحيى الذي كان واسطة اتصاله بالكرد صديق له يدعى كريم قرني. ضابط متقاعد حقق له اتصالاً بابراهيم احمد امين سر الحزب الديمقراطي الكردستاني.

أجله إن أبى الحكام الجدد الرضى بالحكم الذاتي – ولم يكن تهديده جدّياً – وادعى أن الثورة الكردية هي التي سددت الى قاسم اللكمات التمهيدية المنهكة. ولولاها لما استطاع الانقلابيون توجيه الضربة القاضية[١٦].

هؤلاء القابضون الجدد على زمام الحكم وهم خليط متحالف غير متجانس: قومي بلا انتماء وقومي ناصري، وبعثي، واشتراكي قومي وما اليها – وجدوا أن منح الكرد حكماً ذاتياً سيكون مساومة خطيرة مع أقلية محاربة. مساومة لم تجرء حكومة عراقية سابقة ولا حكومات عربية أخرى على ما يماثلها. وبقوا مدة طويلة غافلين بأنهم يواجهون قتالاً وحرباً واقعيةً مع قومية مسلّحة وبوعي قومي وعزيمة بامكانها أن تتمسك بوجهة نظرها وتقاوم وتصمد.

وكان هناك عبدالناصر، والشكل الذي ينعكس طابع الانقلاب القومي على العالم العربي. بكلمة أخرى الموقف الذي سيتخذه الحكم الجديد من عبدالناصر وشعار الوحدة العربيّة.

ما من شك في أن هذا الانقلاب كان يُعد نصراً له من أوجه عدة، وسواء في الأمر أكانت له يدٌ مباشرة فيه أو غير مباشرة. إن الجناح العفلقي للبعث الذي انتصر هنا كان قد حقق علاقات وثيقة بالنظام الناصري بعد الانفصال وشجعه عبدالناصر نكاية بالآخرين في سورية إلاّ أن بعث العراق تعلم من التجربة السورية بأن يلتزم جانب الحذر في أي محاولة وحدة جديدة مع مصر.

وهؤلاء البعثيون العراقيون الذين احتفظوا لأنفسهم بأهم المراكز الحساسة في الحكم – لم يكونوا متلهفين الى فقدان مراكزهم بوصفهم الحزب الحاكم – بوقوعهم تحت سيطرة القاهرة مثلما فعل اخوانهم السوريون في ١٩٥٨. إلاّ أنهم كانوا في عين الوقت بحاجة الى نوع من الوحدة – على الأقل إشباعاً لرغبة شركائهم القوميين الناصريين، واسكاتهم عن محاولة لانتزاع الحكم منهم.

الخوف متبادل والحذر متبادل. وعدم الثقة يسود الجميع ويظهر مما لدينا من المراجع أن عبدالناصر هو الذي بدأ الحوار مدلاً بما كان يلقاه رجال الحزب الهاربين واللاجئين والمتآمرين من حدبٍ ورعاية في مصر وذكروا أن عبدالناصر بعث برسالة ثانية غير رسالة التهنئة التي اثبتنا نصها – حمّلها عفلق وفيها يعرب عن اهتمامه بوحدة تتمّ بعد دراسة عميقة لأوضاع كلا البلدين[١٧].

(١٦) دانا شمدت. نيويورك تايمس عدد ٢ آذار ١٩٦٣. راجع ايضاً ترجمتنا لكتابه «رحلة الى رجال شجعان». و«البارزاني والحركة التحررية الكردية»: مسعود البارزاني ج٣. ص٨١ وما بعدها. أربيل ٢٠٠٢.

(١٧) نيويورك تايمس – شمدت، ٢٠ شباط ١٩٦٣ يظهر أن المصادر التي نملكها لاتتحدث بشكلٍ صريح عن =

على أثر ذلك تألف وفد رسمي عراقي وشخص الى مصر بمناسبة الذكرى الخامسة لقيام (ج.ع.م) في ٢٢ من شباط. وهي المناسبة التي ظلّت مصر تحتفل بها حتى انسحاب سورية منها. كالعادة دليل وإشارة الى رفض حكام العرب الاقرار بالواقع.

وفي الخطاب الذي القاه رئيس الوفد ونائب رئيس الوزراء «علي صالح السعدي» وصف (ج.ع.م) بـ«الجمهورية الأم». ولقى الوفد حفاوة واهتماماً خاصّاً من الزعيم المصري. وجرت محادثات تمهيدية حول الوحدة. وأعلم الوفد عبدالناصر بأنهم يتوقعون إنقلاباً بعثياً وشيكاً في سورية و«عندها ستجري المحادثات الثلاثية الجديّة لاقامة الوحدة».

ثم وبحيلة مكشوفة دفع بعثيو بغداد ممثلين كرديين لمرافقة وفدهم هذا «لبحث القضية الكردية ومطالب الكرد – مع عبدالناصر باعتباره المرجع الذي لايمكن تجاهله في هذه القضية وسمح للممثلين هذين بمقابلة لعبدالناصر خاصّة لم تكن موفقة اذ أعلن لهما عدم موافقته على أي شكل من أشكال الحكم الذاتي بعد أن عرضا الأمر عليه. إلا أنهما لم ينسيا الاشادة علناً بموقف الزعيم المصري المشرف من المطالب الكردية[١٨].

كان حزب البعث أول تنظيم سياسي ايديولوجي يؤلف حكومة ويحتكر السلطة من بين سائر البلاد الناطقة بالعربية. من سوء حظ العراق أن يكون الاول في أي شيء سيء في العمل القومي رغم حداثة دولته. إلاّ أن هيمنة البعث كانت تعتمد اعتماداً كلياً على القوة العسكرية وقد زالت عندما سحب العسكر مساندته. وهي مثل حكومة قاسم دكتاتورية عسكرية. ومثلما كانت في سورية أيضاً. لم يكن بوسع البعثيين قط اقامة حكومة ديمقراطية تتبنى مبدأ الانتخاب لم يكن بوسعهم مطلقاً مواجهة نوابٍ في اية حكومة پرلمانية.

= المساعدات المالية التي كانت (ج.ع.م) تزود البعث العراقي بها سرّاً. إلاّ أن «الفكيكي» المرجع السالف ص١٦١ يؤكد نزوله هو ورفاق له من نشطاء البعث ضيوفاً على (ج.ع.م) ويتحدث بتفصيل عن تسليمه بمحضر من عبدالناصر نفسه مبلغ ٣٠٠٠٠ دينار عراقي (حوالي مائة ألف دولار وقتذاك) كمساعدة للحزب واعضائه. بإعتبارها واحدة من دفعات مالية عديدة.

(١٨) العقيد حسين سامي الغمراوي: «قصة الأكراد في شمال العراق» دار النهضة العربية القاهرة، (الص ٤٠٤–٤٠٨) – وقائع اجتماع الرئيس المصري بالوفد الكردي نقلاً عن المحضر الرسمي كما يؤكد المؤلف:
(صالح مهدي عماشي): انهم (اي الكرد) يهدفون الى الاستقلال الذاتي وقد حاولنا إقناعهم بأننا سنحقق مطالبهم في المستقبل إلاّ أنهم طلبوا ضمانات كما أبلغناهم بأننا نعلن حقوق الشعب الكردي وإننا على استعداد لنعقد معهم اتفاقاً سرّياً على أننا سنمنحهم الكيان الذاتي عندما يتم الاتحاد مع (ج.ع.م). ياسيادة الرئيس هذه قضية عربية وليست محلية كما اننا لسنا سياسيين. كذلك فان استئناف القتال معهم قد يثير تحرك الانگليز والشيوعيين في المنطقة؛ لذا رأينا أن نعرض عليكم المشكلة.
(جمال عبدالناصر) لاشك أن مبدء الحكم الذاتي خطر كما انه قد يجرّ على سورية نفس المشكلة. والذي اتخيله بانه حلّ معقول هو الحكم المحلي أو بمعنى أدق الادارة المحلية.

كانت مواجهة الشعب وهو خوفهم الأعظم يفصح عنه اصرارهم على كتمان اسماء وهويات الاعضاء الواحد والعشرين الذين قبضوا على أزمة الحكم ودانت لهم السلطة العليا[١٩] وبقي الخوف مستولياً عليهم كما ترجمته الاساليب البربرّية التي عاملوا بها مصادر الخوف الثلاثة: محاولات انتقاض للشيوعيين والقاسميين، محاولات وثوب العناصر الموالية لعبدالناصر، وأخيراً الصراع الايديولوجي فيما بينهم. ثم هناك أيضاً تخبطهم في التعامل مع الثورة الكردية مع اخطاء جسام أدت كلّها وبعد تسعة أشهر الى سقوطهم.

مفاوضات السابع عشر من نيسان ١٩٦٣ التي جرت في القاهرة بعد الانقلاب السوري في الثامن من آذار. انتهت بتوقيع اتفاق ٢٢ من نيسان الذي اتخذوا له عنوان الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة! كان كما سنفصل فيما بعد – اتفاقاً ميتاً قبل جفاف حبر التواقيع عليه. لم يتخذ الاتحاد السالف شكلاً عملياً بسبب الشكّ وعدم الثقة بين نظام عبدالناصر والايديولوجية البعثية وكان الصدام محتوماً بينهم وبين الناصريين وغيرهم من العناصر القومية الذين كانوا شديدي الالحاح على ابرام الوحدة الاندماجية مع مصر.

في الوقت الذي أمن الحكم الجديد جانب الشيوعيين بعد تمزيقهم شذر مذر خلال أشهر قلائل من سقوط قاسم. أخذت معركته مع الناصريين تشتد وتكشر عن اسنانٍ قبيحة رغم وثيقة نيسان. ففي أوائل شهر أيار طرد من الجيش اعداد من الضباط القوميين ونقل عدد آخر الى وحدات بعيدة خارج العاصمة. كما اعتقل عشرات من الناصريين المدنيين في كلّ من العاصمة والموصل. وبعث سورية كما سنرى كان يعاني عين المشاكل معهم هناك.

وبلغ السيل الزبى عندما قدّم (احمد حسن التكريتي) رئيس الوزراء استقالة وزارته بعد انسحاب خمسة وزراء غير بعثيين. وثلاثة ضباط كبار من مجلس قيادة الثورة. وقبلها بساعات قلائل كان صلاح البيطار رئيس الوزارة السورية قد قدم استقالته لعين السبب وفي عين الظروف وذكر أحد الوزراء الناصريين في كتاب استقالته ما مؤداه أن حزب البعث خرق الاتفاق الذي تم التوصل اليه بين مختلف الفئات القومية قبل سقوط قاسم. وكانت تقضي باقامة قيادة جماعية لكل العناصر والاحزاب العراقية في حكومة مقبلة وانتبه البعث بعد لأي الى أن وسائل الاعلام التي أودعت القوميين تروج شعارات وحدوية ومفاهيم تختلف عن

(١٩) بالأول لم يعلم عدد وهويات ما أطلقوا عليه «المجلس الوطني لقيادة الثورة» وبدت في الواقع أفضل ستار للجرائم الفردية والجماعية التي ارتكبت باسمه وتمّ إسدال الغطاء عليها بقرارات صادرة من هذا المجلس الذي تسلم كما بينا السلطات الثلاث. ثم علم بالتدريج اسماء اعضائه وانتماءاتهم. وكان عددهم ثمانية عشر كلهم بعثي عدا إثنين هما عبدالسلام محمد عارف وصديقه العقيد عبدالغني الراوي وهو اسلاميّ تشوبه مسحة من العروبة فضلاً عن ثلاثة قوميين آخرين.

مفاهيمهم الحزبية فأجروا عملية تطهير شرسة[٢٠] شعر بها المواطن العراقي.

كان هناك تجاوب وتنسيق بين البعثيين الحاكمين. ففي ١٣ من أيار ١٩٦٣، شكل أحمد حسن البكر وزارة جديدة ليس فيها ناصري واحد وحذا الدكتور صلاح البيطار حذوه في سورية وبات البعثيون العراقيون يملكون زمام الحكم بلا منازع. ولكنهم احتفظوا بعبدالسلام عارف رئيساً شكلياً وحجروا عليه حتى نهاية عهدهم ولم يدعوه ينطق بالهراء الذي اعتاده.

وكالعادة شرع القوميون المطرودون مدنيين وعسكريين بالتآمر والإعداد لانقلاب فاعلن المجلس الوطني لقيادة الثورة في ٢٥ من أيار ١٩٦٣ عن إجهاض مؤامرة تزعمها ضباط ومدنيون قوميون ناصريون، وبأنه تمّ اعتقال ثمانية عشر ضابطاً وثمانية مدنيين وأعلن عن جائزة لمن يسهل القبض على عدد آخر من الهاربين الرؤوس أمثال «عبدالاله النصراوي» ثم نشرت رويترز خبراً مفاده انه تمّ اعدام أحد عشر ضابطاً رمياً بالرصاص[٢١] والحكم على طائفة باحكام سجن ثقيلة.

الظاهر أن المؤامرة كانت في مراحلها الأولية وانها كانت في مرحلة التخطيط حين انكشف أمرها. بعدها بثلاثة ايام إدّعت حكومة البعث السوري انها اكتشفت مؤامرة ناصرية ترمي الى اسقاط حكومة البعث.

وفي الثالث من تموز حصلت محاولة شيوعيّة انقلابية تولاها جنود في معسكر الرشيد. كانت مغامرة لم تخطط بمهارة. من مراحلها الأولى الاستيلاء على المعسكر تمّ احباطها[٢٢]

(٢٠) كنت تسمع من دار الاذاعة تقريراً حول تظاهرة مثلاً تدس فيها شعارات قومية مدروسة مثل «نحن جنودك يا جمال» أو «الوحدة باكرْ باكرْ. معْ الاسمر عبدالناصر».

(٢١) نيويورك تايمس أيضاً: عدد ٢٧ أيار. الحياة البيروتية ٢٦ أيار. وتحدثت وكالة انباء الشرق الأوسط القاهرية عن اعتقال ستين ضابطاً قومياً و١٢٠ مدنياً وأنه تمّ اعدام عشرة ضباط متقاعدين واثنين من المدنيين وأن هؤلاء الضباط من مختلف الرتب كانوا على ملاك الكتيبة المدرعة الخامسة والعشرين المرابطة بالقرب من بغداد وأن من بين المعتقلين العقيد الركن عارف عبدالرزاق (الذي قام فيما بعد بأكثر من محاولة انقلابية ناصرية). وذكرت الصحف أن من بين الاجراءات هي مصادرة ممتلكات الموقوفين المدنيين وأنهم ينتمون الى الاحزاب والتكتلات التالية: الناصريون من حزب الاستقلال القديم. وحركة القوميين العرب (الحركيون) والعصبة القومية والحزب العربي الاشتراكي (الذي أسسه عبدالرزاق شبيب المحامي وسمى فيه عبدالناصر رئيساً للحزب مدى الحياة!).

(٢٢) أعطى المجلس الوطني لقيادة الثورة وصفاً مركزاً للمحاولة ولفشلها نشر في الجرائد المحلية وهو باختصار أن الحكومة اكتشفت خلية شيوعية علمت من الاعترافات التي أدلى بها أعضاؤها أن الشيوعيين يستعدون لحركة انتحارية (يائسة) في معسكر الرشيد يوم ٥ من تموز، تعتمد على إطلاق سراح بعض الضباط الشيوعيين المعتقلين في السجن هناك. والعودة الى وحداتهم لتنفيذ الصفحات التالية من العملية إلا أنّ تاريخ العملية قدم الى الثالث من تموز. حيث قام فجر ذلك اليوم عدد من الجنود وضباط الصفّ =

ثم أعلن الحاكم العسكري عن اكتشاف مؤامرة أخرى في ١٧ من تشرين الاول. وتمّ بسببها اعتقال عددٍ من كبار الضباط مع بعض ساسة[٢٣] العهد المباد. إلاّ انها لم تكن بخطورة المؤامرتين السالفتين.

تغير الموقف الناصري الايديولوجي عقب انقلاب الثامن من شباط وانقلاب آذار السوري فبدأ عبدالناصر بعد زيارة الوفدين المفاوضين على اقامة الوحدة والتمهيدات التي سبقت المفاوضات الثلاثية – يضرب على نغمة جديدة، نغمة «الدول العربية المتحررة» تفريقاً لها عن الدول الرجعية. وأدخل في الأولى تلك الدول التي تتولى السلطة فيها «أنظمة ثورية» عسكرية الطابع تنحو منحى اشتراكياً، مدخلاً في ذلك مصر والعراق وسورية واليمن والجزائر. ومن خلال هذا التصنيف بعثت الحياة مجدداً في حلم الوحدة العربية بزعامته. وقد وجدناه في ٢٢ من شباط ١٩٦٣ يوم ذكرى الانفصال وبوجود الوفد العراقي البعثي يطرح شعار «الوحدة والحرية والاشتراكية» وهو شعار البعث لكنه وضعه بشكل مقلوب، فقال «اشتراكية. حرية. وحدة» بهذا الترتيب الزمني. اذ كان في حينه مفتوناً بالاشتراكية. وسمى شعاره هذا «وحدة

= يرتدون بزات ضباط برتب مزيفة. استطاعوا شق طريقهم الى مركز التدريب ومركز الحراسة في المعسكر واستولوا على الاسلحة ثم اعتقلوا وزير الداخلية الذي كان قد قصد المعسكر فضلاً عن وزير شؤون الجمهورية. رئيس اركان الجيش طاهر (يحيى) وصل على رأس مدرعات وهاجم الثائرين الذي كانوا قد طوقوا السجن العسكري (رقم واحد) ثم قامت وحدة مشاة باعتقال معظم الثوار وأطلقوا سراح الوزيرين ثم ذكر البيان أن التمرد قضي عليه خلال نصف ساعة من بدئه وادعى أن «المتمردين» كانوا قد أعدوا ثمانية بيانات موجهة الى الشعب العراقي موقعة مما سموه «القيادة الثورية للجبهة الشعبية» وان أحد البيانات تضمن «اعادة المقاومة الشعبية. وحل حزب البعث وحرسه القومي. وبيان آخر يتضمن اعتقال عدد من رجال الحكم. واعادة تعيين الضباط الذين أخرجوا من الجيش بعد سقوط نظام قاسم واقامة نظامٍ شيوعي في العراق» تلي هذا البيان من دار الاذاعة في الرابع من تموز. وفي نهاية هذا الشهر كملت محاكمة هؤلاء الجنود وضباط الصف بزعيمهم العريف حسن سريع. ونفذ حكم الاعدام بواحد وعشرين من الجنود المشاركين في الحركة في الوجبة الأولى وأشفعوا بتسعة عشر آخرين. وصرح مدير الأمن العام بأن السكرتير الأول في السفارة البلغارية المدعو (قسطنطين نوكولوف) كان المشرف على هذا التمرد. وقد تمّ طرده مع أربعة موظفين بلغار. قالت جريدة الحياة التي نقلت هذا النبأ (عدد ٢٨ تموز ١٩٦٣) إن شركة بلغارية كانت في تلك الاثناء تبني المطار الدولي في بغداد.

(٢٣) الحياة (المصدر السالف في ١٣ من شباط ١٩٦٤ و٢٥ و٢٧ تشرين الثاني) ذكرت أن الاحكام التي صدرت لم تكن قاسية ربما لأنها صدرت بعد أن ازيح البعثيون عن الحكم. ففي كانون الثاني حكم على العميد رشيد الجنابي واللواء صالح مهدي السامرائي بسنة واحدة للأول وبثلاث للثاني إلاّ أن عفواً صدر عنهما بعد شهر واحد والملاحظ هو انه بعد أن اجهضت الحركة خرج عبدالناصر عن صمته. وهاجم في ٢٢ تشرين الاول ١٩٦٣ حزب البعث بخطاب عنيف واصفاً اياه باللاأخلاقية وبالخطر الجاثم على القومية العربية. نقله تصويراً محمد حسنين هيكل في كتابه «سنوات الغليان» خشية التشكيك في صحته فليراجع.

القصد » وكان بالاصل تاكتيكاً يقصد به التمهيد للوحدة الثلاثية.

ليس بوسعنا القول أن هؤلاء الذين حاولوا هذا الانقلاب باسمه قد استشاروه مقدماً أو انه اعطاهم الضوء الأخضر ويغلب الظن على انه كان تلقائياً. وبأفضل ما يمكن تقويم انطباع عبدالناصر عن حكام العراق الجدد هو الرسالة التي كتبها بخطه لعبدالحكيم عامر في ٢٣ من شباط إثر زيارتهم الأولى[٢٤].

في رسالته هذه يتحدث عن الفصائل القومية العراقية من غير البعثيين وكأنهم هم الذين قاموا بانقلاب الثامن من شباط وقد أوهم بهذا. فالفصائل القومية التي كانت عشية الانقلاب ناشطةً متعددة يصعب علينا احصاؤها وكانت كلها تعمل في الخفاء للقضاء على حكم قاسم. لكنها كانت هزيلة ضعيفة لا جذور شعبيّة لها قط. يتعذر كثيراً تقدير حجمها ومقدار ما كانت تتصور انها قادرة بما لديها على زعزعة حكم قاسم. كما كان من المستحيل تحديد مقدار تغلغلها جماهيرياً اذ كانت سرية، والاسماء التي تتزعمها وهي اسماء معروفة ومستدانة الى حدّ ما – تعطي بعضها حجوماً لاتتناسب قط مع قوتها الحقيقية. وكان يقتضي مرور زمن مع عمل علني لمعرفة موقفها وسعتها ومقدار ما تحظى به من اهتمام أو تجاوب جماهيري. وفي الجوّ الحرّ الخالي من الملاحقات الحكومية قد يكبر حجمها بما ينضمّ اليها من الوصوليين والمصلحيين والإنتهازين جرياً على العادة. ولم يتسنَّ لها هذا الجوّ الاّ بعد خروجها الى العلن ايام عبدالسلام عارف اي بعد انقلاب تشرين الثاني. فاذا بها هياكل عظمية ليس فيها ظاهرٌ غير الرؤوس. امّا في فترة حكم البعث القصير. فكان العداء ظاهراً بعد نجاح الانقلاب مباشرة.

المعسكر المضاد أو المعسكر القومي كان يتألف من بقايا حزب الاستقلال القديم (اجيز في ١٩٤٦) والناصريون عموماً. ومنهم الحركيون والحزب العربي الاشتراكي كما أسلفنا. بقي هؤلاء يشكون لمدة من الزمن مضايقة البعث ومنعهم من حرية العمل وفي شهر نيسان تحدثت جريدة الحرية البيروتية وهي جريدة القوميين عن اشتباكات دموية في الموصل والكرخ وغيرهما بين اتباعهم وبين الحرس القومي. وفي ٢٥ من أيار صدر بيان من المجلس الوطني لقيادة الثورة اتهم فيه «الحركيين والرجعيين والذيليين أو الانتهازيين» [وهذه الصفات التي كان البعثيون يطلقونها على غيرهم من القوميين] وغيرها من العناصر الحاقدة بتنظيم «المؤامرة السوداء» ضدّ الدولة. وبادر الحركيون فوراً الى وصف ما جاء في البيان بالتهم الزائفة المرفوضة جملةً وتفصيلاً وقالوا أنها مجرد محاولة لتغطية خطة معدّة سابقاً لتصفية العناصر

(٢٤) نصّ الخطاب في آخر الفصل.

الوحدوية داخل الجيش وخارجه وهي عناصر عرفت بصلابتها القومية ونضالها[٢٥].

وسيطالبني القاريء بعد أن فصلت في علاقة البعث مع الفصائل القومية بذكر ما أقدم عليه خلال فترة حكمه القصيرة.

بدا للجميع وكأن الحكام الجدد يريدون القضاء على كل شيء جيد في حكم قاسم. سارعوا اولاً بالغاء القانون رقم ١٨٨ المتعلق بالاحوال الشخصية الذي ساوى بين شخصيتي الذكر والانثى المدنية من ناحية الميراث والعلاقة الزوجيّة. تمّ إلغاء ذلك في ١٨ من آذار باصرار ومبادرة[٢٦] من أحمد حسن التكريتي وعبدالسلام عارف، بحسب ادعاء البعثيين الآخرين وبغفلة منهم. كما أوقف العمل بالقانون رقم ٨٠ بخصوص تأميم أراضي امتياز النفط. وجمّد تماماً قانون الاصلاح الزراعي. وتم ايقاف جميع الاعمال الانشائية في البلاد بسبب التوقف عن الدفع للشركات والعبث باموال الدولة وانفاقه في المخصصات السرية على الحزبيين. كان الاقتصاد العراقي على عتبة الانهيار عندما انطفأ لهب شمعة البعث في ١٨ من تشرين الثاني في ريح الحرب الكردية اللاهبة التي تفجرت براكينها في تموز من العام نفسه.

(٢٥) يحسن بنا هنا أن نعطي وصفاً سريعاً للقوى البعثية التي شاركت في القضاء على حكم قاسم. قيل أن العضوية في الحزب لم تكن سهلة ولذلك كان المشاركون الفعليون منهم في انقلاب ٨ شباط لايتجاوز الألف في كلّ العراق. كان على البعثي أن يمرّ قبل العضوية بخمس مراحل هي (مؤيد) ثم (نصير) من الدرجة الثانية ثم (نصير) من الدرجة الأولى ثم (مرشح) ثم (عضو مدرّب) ومن هذه الاصناف كان يوجد في ٨ شباط حوالي ١٦ ألفاً. بينهم ٨٣٠ عضواً كامل العضوية [انظر بطاطو ص١٠١٠ من حديث له مع هاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي] يؤيد هذا ما قاله عفلق في دمشق عن حزب البعث في العراق اثناء المؤتمر القومي الاستثنائي لقيادة القطر في ١٩٦٤. (تأتي نصائح عفلق وانتقاداته عادةً بعد النكسات) قال «إن الحزب في العراق ضم آلافاً من المناضلين العروبيين المجربين. إلاّ انهم مع ذلك حرموا من حق العضوية التي اقتصرت على حدّ قول البعض على حوالي ثمانمائة عضو وقول بعضهم على ما يزيد قليلاً عن سبعمائة. هذه المئات وزعت على مختلف المحافظات... عشرات في كلّ محافظة تحكم ملايين العراقيين. من مثل هذه المجموعة السرية لن تخرج ارادة أصيلة ولايتفق أبداً مع مباديء الحزب». وأراد الحزب تغطية شفافيّة تمثيله في الجيش عن طريق خلق مؤسسة عسكرية حزبيّة داخل قطعات الجيش تقف بمواجهة الضباط الخصوم عند اللزوم. وإن لم يكن فخارجه وبمواجهته. ولم ينجح في الأولى مطلقاً. إلاّ أن النواة الخارجية بدأت من الساعات الأولى للانقلاب بخروج ما بلغ تعداده خمسة آلاف من التلاميذ (معظمهم من الصفوف الثانوية والمتوسطة تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة مع اعداد وافرة من الاوباش والانتهازيين وشقاة بغداد المعروفين الذين اتخذوا الجانب القومي اثناء صراع الشارع ضد الشيوعيين). وما جاء ايار حتى كان عدد هؤلاء قد بلغ ٢١ ألفاً. وفي آب بلغوا ٣١ ألفاً (بطاطو المرجع السالف نتيجة احاديثه مع أقطاب البعث).

(٢٦) قال علي صالح السعدي لحنا بطاطو (ص١٠١٠ المرجع السالف). اتخذوا هذه الخطوة في غيابي أثناء وجودي في القاهرة. مع اني انذرت مجلس قيادة الثورة بأن هذه الخطوة ستؤدي الى انشقاق. ولو قمنا بها فكيف سينظر الينا باعتبارنا حزباً تقدميّاً؟ [كرر ذلك في كتيبه (حزب البعث: ملاحظات للرفيق علي صالح السعدي – ص٤) نقول: ماذا عن الاعضاء الخمسة عشر الباقين الذين وافقوا على الالغاء؟

ملحق

خطاب عبدالناصر لعبدالحكيم عامر - ٢٣ شباط ١٩٦٣
(من سنوات الغليان الص٩٣٢-٩٣٦)

«وصل وفد العراق أول أمس، وهو مكون من (السعدي) أمين عام حزب البعث ونائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية. وهو صريح مغرور مندفع، كان في السجن وقت قيام الثورة. وأظنك لاحظت انه لم يذكر في خطابه اسم عبدالسلام عارف بل تجاهله كلية، كما تجاهله في المباحثات. لكن انطباعي بالنسبة له انه وطني مخلص. والفريق علي صالح عماشة (يقصد صالح مهدي عماش) وزير الدفاع، كان أيضاً في السجن. وهو هادىء ذكي وقد ارتحتُ جداً اليه. وهو من جماعة الحاج سري لكنه انضمّ أخيراً الى حزب البعث. و(طالب شبيب) وزير الخارجية وهو بعثي ذكي لبق متحدث وقد استرحت اليه.

عمر الأول ٣٠ سنة والثاني حوالي ٣٨، والثالث حوالي ٢٨ سنة. وضمّ الوفد ضابطين من مجلس الثورة. وقد تكلمتُ معهم بصراحة في جلسة أول أمسٍ بعد الفطار الى الساعة الواحدة والنصف. وأمس بعد الصلاة الى موعد الافطار.

ويظهر من كلامهم أنهم يقدرون المتاعب. يريدون علاقة وثيقة مع (ج.ع.م). وقد قلتُ لهم اننا لانريد منهم أي شيء سوى وحدة الهدف. حتى اننا لانمانع اذا تحررت سورية في أن تتحدّ مع العراق. بل سنؤيد ذلك. وقد قال عماشة (عماش) أن سورية يجب أن تتحدّ مع مصر اولاً. وإن أي اتحاد بين سورية والعراق معناه منافسة بين بغداد والقاهرة. أو مظهر منافسة وبعد ذلك يتحد العراق. وقد تكلمتُ معهم بصراحة عن الاخطاء، أخطاء حزب البعث. وان اي ممارسة وتطبيق لايّ هدف لابُدّ من التعرض لأخطاء.

اما الاكراد، وزيرٌ وممثل للبارزاني فقد طلبوا أن يقابلوني على انفراد منفصلين عن الآخرين. وقد وافق الوفد على ذلك وقالوا لي في المقابلة انهم لايثقوا (كذا) في أي وعود من الحكومة إلاّ إذا ضمنتُ أنا شخصياً تطبيق هذه الوعود وهم يطالبون بالحكم الذاتي وقد أوقفوا القتال بعد قيام الثورة وكان لهم اتصال مع رجال الثورة قبل قيامها وأخذوا وعوداً والملاحظ أنّ الحكومة تتهرب.

عموماً المشاكل التي تجابه ثورة العراق كبيرة جداً. قال عماشه (عماش) ان المجلس الوطني قرر أنْ لابُدّ من موافقتنا على ايّ حلّ لمشكلة الاكراد. كذلك لمشكلة الكويت حيث أن هذه الأمور تتعلق بالوحدة التي هي الهدف النهائي للثورة. وقال (عماشه) انه يوجد سبعة ألوية

تحارب في المناطق الكردية وهم في حاجة الى ذخيرة وقنابل طائرات، وأسلحة. وطلبوا أن يحصلوا على الذخيرة من عندنا. لأن الاتحاد السوفياتي موقفه عدائي جداً. ذخيرة الدبابات والمدفعية الخ.. وإنه يطلب إحياء الإتفاقية العسكرية والحصول على طائرات من انتاجنا ورشاشات بورسعيد وبنادق (بندقيات). وقال (عماشه) انهم اعتقلوا ثمانمائة ٨٠٠ ضابط شيوعي منهم مائة وخمسون (١٥٠) طيار لدرجة أن الاسراب الآن بدون طيارين. وقد دمروا سرب [ميك ١٩] موالي (موالٍ) لقاسم واعتقلوا أربعة آلاف شيوعي وقتلوا عدداً كبيراً منهم بدون محاكمة في أول يوم.

عموماً، الموقف أيضاً في الجيش وبين الفئات القومية لايدعوا (يدعو) الى الارتياح. فمجلس الثورة أغلبه من البعثيين. و(عارف عبدالرزاق) ليس من ضمن المجلس. قائد الطيران. والثورة، قام بما يقرب من تسعين بالمائة منها (الضباط) القوميون في الجيش من غير البعثيين وعشرة بالمائة بعثيين. وقد اعتمد البعثيون على الحرس القومي مائة بالمائة بعثيين (كذا) وفي رأيي أن الكل متربص بالآخر. البعث يريد السيطرة الكاملة والكل متخوف من البعث ومتربص. وقد تكلمتُ معهم أمس في ضرورة جمع كل الفئات القومية حتى لايُعزلوا. وان اي نكسة لن تكون لصالح القوميين بل لصالح الرجعيين أو الشيوعيين. وكان الرّد انهم يتجهون الى المستقبل وينسون الماضي ويعملون على تجميع كل القوميين.

لكن رغم ذلك فان (عماشه) قال أمس (لطلعت صدقي) في (الاوبرج) انّ أمام (عبدالسلام عارف) ثلاثة أشهر فقط. يفهم أن البعث يعتبر هذا التحالف مرحلةً. كما أن (السعدي) قال (لطلعت) في (الاوبرج) بعد أن شرب ١٤ كأس ويسكي، إننا لانريد أن نقابل الرئيس مرة أخرى لأنه بلشف الجميع بكلامه وتحليله. ورغم ذلك فسأتقابل معهم أوّل يوم العيد بعد عودتهم من الجزائر وقبل سفرهم. وفي رأيي أنهم شباب يحتاج الى رعاية وتوصية. وقد لاحظت أنهم في شدة من التعب لدرجة أن (السعدي) نام في اول جلسة. عموماً أعتقد رغم اخطاء البعث أن واجبنا أن نحافظ على ثورة العراق. وليس امامهم إلاّ اللقاء معنا.

اما صديق شنشل فيقول إن عبدالسلام عارف يترك لهم الأمور في هذه المرحلة التي سترتكب فيها أخطاء كثيرة وأن هناك تجمعٌ قويّ (تجمعاً قوياً) في الجيش والفئات القومية الأخرى.

جمال عبدالناصر

الفصل الرابع والثلاثون

سورية . انقلابات سبعة متوالية . سحق المعارضة . حكومة خالد العظم . مذكرة الساسة الى رئيس الجمهورية . التدخل الناصري والضباط الناصريون . انقلاب على (زياد الحريري) باستخدام قوات الجبهة السورية الاسرائيلية . تفاصيل الحركة . الإشتباك . البيان الأول . استيلاء البعث على السلطة وانفراده بها بالأخير . إنذار مصري بعدم التدخل . إجراءات التطهير . حملة اعتقالات واسعة وقرارات بحرمان رجال الحكم السابقين من الحقوق السياسية وممارسة النشاط السياسي . وزارة البيطار الثانية . الترويج لإحياء الأهداف القومية العروبية . تنظيم جديد للإتحاد القومي في القاهرة . الاتجاه الى الاشتراكية . أجهزة القمع الناصرية ومؤسسات التجسس المحلي والمخابرات . توجيه الإعلام لخدمة الدولة كلية . تسخير الجمهور للدعاية وإخراج التظاهرات المؤيدة عند الحاجة . الوفدان العراقي والسوري في القاهرة لبحث الوحدة . إجتماعات لاتؤدي الى نتيجة والخروج باتفاقية نيسان ١٩٦٣ التي لم يكن أحد من الأطراف الثلاثة ينوي تطبيقها . صدمة البعث . نهاية الهدنة بين البعث والثورة الكردية . البارزاني يدعو الى الاجتماع الذي عرف باجتماع كويسنجق لبلورة المطاليب النهائية . الرفض البات لها . عبدالناصر يسحب بلاده رسمياً من اتفاقية نيسان . المؤتمر البعثي القطري السادس . الصراع الدموي بين جناحي البعث المدني والعسكري . إحتلال الحرس القومي بغداد . تدخل الجيش والضباط القوميين . انقلاب قومي بزعامة عبدالسلام عارف . تمام طرد البعث من الحكم . مواصلة القتال مع الكرد

بعد شهر واحد من انقلاب الثامن من شباط في العراق حصل الانقلاب البعثي السوري.

لم يفلح حزب سوري كما أفلح حزب البعث في فرض حكمه المطلق بمعاونة ضباطه العسكريين في سورية طوال تاريخها.

وبالأخير بدأ الحكم يهيمن عليه الضباط الذين جاؤا به. في مبدأ الأمر باشروا في سحق المجموعات المعارضة للحزب – من خلال ثلاثة انقلابات متوالية. وبعدها انشغلوا فيما بينهم بتصفية حسابات شخصية ادّت الى أربعة انقلابات عسكرية أخرى. وفرضوا بالتالي نظاماً

إشتراكياً بغيضاً أدّى الى انتفاضات شعبية دموية. وأبلغ البلاد حافة الخراب الاقتصادي. وأضعفوا البنية الاجتماعية التحتية المؤدية الى الفوضى والبلبلة بمظاهر التناحر الداخلي والحكم الاستبدادي الذي أدّى الى اللامبالاة العامة وفقدان الامن وانتهى بالهزيمة والاحتلال الاسرائيلي لجزءٍ من أراضي الوطن السوري كما سيأتي بيانه.

استمرت حكومة خالد العظم ثمانية اسابيع بعيد اعمال الشغب في (درعا) ومحاولة (النحلاوي) الانقلابية الفاشلة. وكانت الحكومة مدعمة بعناصر قوية معادية للناصرية ولم تكن مستعدة للاستقالة. فأغفلت بعد احداث (درعا) حدود سورية مع لبنان، المنفذ الذي تهبّ من خلاله «رياح المؤامرات» ويعبر وكلاء عبدالناصر منه الى القطر وفي السادس من شباط ١٩٦٣ قامت قوات سورية بتفجير مبنى وأجهزة اذاعة سرية ناصرية مقامة في قرية (دير العشائر) اللبنانية الحدودية وظيفتها بث برامج عدائية وتحريضية ضدّ الحكم السوري وأعقب رئيس الحكومة هذا بتصريح فيه كثير من التفاؤل مقللاً من خطورة خصومه البعثيين والناصريين بقوله انهم «شلّة لايعتد بها ويعملون بالاجرة... يبيعون ضمائرهم للآخرين» وقال متكهناً «إن شهر شباط هذا الذي اعتاد عبدالناصر استغلاله لأثارة القلائل والاضطرابات بمناسبة حلول ذكرى الانفصال سيمرّ خلافاً للعادة بهدوء وسلام». وكان صادقاً في نبوءته فقد مرّ الشهر عندهم بهدوء وسلام الاّ انه لم يكن كذلك في العراق كما رأينا. فوجود حكومة ثورية في العراق صديقة لعبدالناصر. زود المعارضة السورية بالمساندة والقوى المطلوبة ولفظت الحكم بالاعدام على حكومة العظم.

استطاعت التشبث بالحكم شهراً آخر. ثم وفي اوائل آذار خرجت الجرائد اللبنانية الموالية لعبدالناصر ببيان يحمل توقيع «القيادة المركزية للحركة الوحدوية». ناشدت فيه انصارها «بالعمل على تدمير اوكار الخيانة والرجعية والتبعية والانتهازية والانفصالية في سورية...»[1]

وفي جوّ الفوضى واشارات التهديد والوعيد والدسائس والتآمر وقفت الحكومة مكتوفة اليدين حائرة. كانت الخلافات والمنافسات السياسية من اشتراكيي (الحوراني) المتطرفين وبين الاخوان المسلمين المتشددين داخل الحكومة وخارجها قد بلغت أوجها وخلقت للحكومة مشكلة كبرى. فقد وجه إشتراكيو الحوراني كل جهودهم للنجاح في الانتخابات المقبلة وأعدّوا لها كل ما استطاعوا وهدفهم هو إبعاد خصومهم من سائر المراكز الحساسة في الادارة. أدى ذلك الى

(١) (الحياة. النهار) وسائر الجرائد الناصرية ٤ آذار.

أزمة حادة في نهاية شهر كانون الثاني ١٩٦٣. استقال على أثرها ثلاثة وزراء (حورانيون) ولحق بهم وزيران (إخوانيان) وكان وزير التربية الذي هو من حزب الشعب قد قدم استقالته قبلها إلاّ انها لم تقبل إلاّ في ١٦ من شباط. مع كل هذه الاستقالات قررت حكومة العظم البقاء بوصفها حكومة حيادية لا حكومة ائتلاف وطني وحاولت أثناء ذلك احلال نوع من التفاهم مع الجناح العفلقي من البعث بصرف تقاعدٍ لزعمائهم عن السنوات القلائل بل حتى الأشهر من الخدمة في دوائر الحكومة. وعرض رئيس الحكومة مناصب وزارية عليهم.

قبل رجال البعث الرواتب التقاعدية ورفضوا المشاركة في الحكومة. وحاولت الحكومة في الوقت ذاته التفاهم مع نظام البعث في العراق والتقارب في محاولة منها الحيلولة دون قيام ائتلاف معادٍ من العراق ومصر والبعث السوري. إلاّ أن الوفد السوري الذي شدّ الرجال قاصداً بغداد لم يصلها وطلب منه تأجيل الزيارة «لحين انجلاء الوضع في العراق»[٢].

كان ثَمّ ردّ فعل للنخبة السياسية التقليدية السورية (الساسة المخضرمون). إلاّ أن حركتها جاءت متأخرة جداً فهؤلاء قدموا في ١٦ من شباط مذكرة لرئيس الجمهورية ناظم القدسي شرحوا فيها حاجة البلاد الى الاستقرار والوحدة الوطنية. وضرورة احترام الدستور وحمايته باجراء انتخابات عاجلة. حملت هذه المذكرة تواقيع الزعماء الروحانيين والاقتصاديين ورجال القانون فضلاً عن السياسيين التقليديين وقام ثلاثة من كبار الساسة بتقديمها للرئيس. والهدف تأليف حركة شعبيّة منظمة تناهض العمل الناصري والنشاط البعثي وتساعد على إعادة الثقة الجماهيرية بالحكومة والعودة الى أحكام الدستور. ساند رئيس الحكومة هذه الاقتراحات إلاّ انها لم تحظ بتشجيع (القدسي) وبقيت الحكومة مشلولة لا بسبب الخلافات الداخلية بين الوزراء وحده بل بسبب الخلاف بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة. بلغ عمر الوزارة ستة أشهر عندما اكتسحها انقلاب الثامن من آذار. إن ما حصل في ذلك اليوم هو «انقلاب بسبب الإهمال»[٣]! نجم عن اصابة كل القوى التي كان يمكن أن تقف في سبيله وتحبطه – بالاعياء التام لكل القوى التي يمكن أن تتحداه وتحبطه. هكذا كان يبدو. الاّ أن الحقيقة غير هذه فالقوى التي كان بوسعها الحيلولة دون الانقلاب لم تكن بمثل هذه الدرجة من الوهن – قدر ما اعتراها من التفسخ والانشقاق بعامل التآمر والدسائس والاستعداءات من الداخل ومن الخارج تسربت

(٢) عبدالكريم زهرالدين. المرجع السالف ص ٣٨١.

(٣) وداعاً للانقلابات السورية: هـ. ل. جانسن J. H. Jansen: A Farewell to Syrian Coups, in Middle East Forum. بتاريخ أيار ١٩٦٣ – ص١٣. (تنبأ جانسن بانه سيكون آخر انقلاب لأن الوحدة ستعاد مع مصر] وكان مخطئاً.

الى الجيش وخلقت فيه اسباب الغدر المتقابل وأضعفت معنويات الوزارة فاستسلمت وبدا الانقلاب أمراً محتوماً وعاشت دمشق في فترة ترقب تدخل عسكري لأنّ ضباط منطقة دمشق الذين كان بوسعهم الدفاع عن الحكومة كانوا جزءً من المؤامرة. أمّا الاحزاب التي شاركت وساهمت فهي حزب البعث العربي الاشتراكي والناصريون والحركة القومية العربية والوحدويون الاشتراكيون. إلاّ أن البعث كان أفضلهم تنظيماً وساهم في أكثر التخطيط له رغم قلة ما لديهم من ضباط في الخدمة الفعلية بسبب التطهير اثناء الوحدة وعقب الانفصال مباشرة.

يؤكد الرزاز انه كان انقلاباً عسكرياً صرفاً وان البعث وهو التنظيم القومي المدني لم يخطط له ولم يكن له يد في تنفيذه[٤].

من بين المجموعات الأربع التي ذكرناها كان للناصريين العدد الأوفر من الضباط وهم يهدفون الى الوحدة مع مصر لكنهم لم يملكوا تنظيماً أو خطة. إلاّ أن مطالب كل مجموعة كانت تتحد في نقطتي «الوحدة والاشتراكية». على انها كانت تختلف في الكيفية بعد نجاح الانقلاب. وكثيراً ما كان انتساب الضباط الى هذه المجموعة أو تلك بالمنافسة الشخصية والولاء لضباط كبار. أو بعامل اقليمي أو طائفي وكثير ما تبدلت تلك الولاءات وجرى القفز من هذه المجموعة الى تلك وبالعكس.

ومن ضباط الانقلاب عدد من الانتهازيين والنفعيين يدفعهم الطموح الى السلطة أو الأمل في جرّ مغنم إلاّ انهم كانوا ينادون بالوحدوية. ويذكر بنوع خاص العميد زياد الحريري قائد قوات الجبهة الجنوبية الذي قام بالانقلاب على أكثر الاحتمال وكما رددته الشائعات، باختيار الناصريين له بسبب روح المغامرة فيه والزهو بنفسه والرغبة الشديدة فيه لممارسة السلطة وهو من مواليد حماه. وكان هناك مدير الأمن الداخلي في دمشق العميد مطيع السمان بطل اللاوحدويين الذي أعطى الحكومة صورة مخالفة للواقع بتأكيده بأن لا حظ من النجاح لأيّ محاولة انقلاب[٥]. وكذلك اختار المخططون (الحريري) بسبب صداقةٍ شدّت بينه وبين رئيس المخابرات العسكرية العقيد (عدنان عقيل) ومعاونه العقيد (مروان گيلاني) وعدد من قادة الكتائب في منطقة دمشق وهم من رفاق الكلية العسكرية[٦]. إلاّ أن (الحريري) لم يكن

(٤) منيف الرزاز: التجربة المرّة. بيروت ١٩٦٧. الص ٨٦–٩٠. قال ان انقلاب آذار ١٩٦٣ كان انقلاباً عسكرياً صرفاً وأوضح بان تنظيم البعث في الجيش. أو بالاحرى لجنته العسكرية عملت مستقلة؛ معادلة لحزب بعث آخر. وإن هذا كان مصدراً لمشكلة خطيرة فيما بعد بين القيادة القومية والضباط البعثيين.

(٥) زهرالدين: المرجع السالف الص ٣٨٩–٣٩٣.

(٦) المرجع عينه ص ٤١٨: «كان زياد الحريري عديلاً لاكرم الحوراني وقد تزوجا أختين. ويذكر زهرالدين أيضاً أن العقيد عدنان عقيل رئيس المخابرات خدعه عندما أرسل للتحقيق الى الوحدات المرابطة في =

يخفي آراءه ويقتصر على التآمر السرّي هو وأنصاره بل كانوا بين آن وآخر يعرضون مطاليب بصراحة على الحكومة حول الوحدة والعلاقة مع عبدالناصر.

في ليلة ٢١ من شباط عندما كان المتوقع أن يزحف الحريري على دمشق بحسب الشائعات – تبين انه فحسب قدم مطالب معينة للحكومة فاتخذت على أثرها الحيطة وأبقيت المدارس مغلقة رغم انتهاء العطلة الربيعيّة. تحسباً من تظاهرات ونشرت المدرعات والدبابات في شوارع دمشق ذاهبةً آيبة. ونقلت القيادة العليا الضباط المشبوهين الى الجبهة متوهمة بأن واجباتهم على الحدود الاسرائيلية ستصرفهم عن التفكير بمحاولة انقلاب. إلاّ أن تركيز الضباط المعارضين في محلّ واحد سهل عليهم مهمة التخطيط والتنسيق.

قرر الانقلابيون استخدام الوحدات المرابطة على جبهة اسرائيل بمثابة القوة الضاربة. ولم تكن القيادة العليا في دمشق تتصور أن تصل الاستهانة بالقيم الوطنية وخيانة الواجب العسكري بالضباط الى حَدّ ترك الجبهة ضدّ العدو مفتوحة له، ليتركوها ويزحفوا على عدوهم في دمشق. يعرفون جيداً أن اسرائيل لن تنتهز مثل هذه الفرص لتزحف داخل الأراضي السورية فخير لسلامتها وأمنها أن يذبح السوريون بعضهم وينشغلوا بحفر قبور مواطنيهم. ولست أدري من قال هذا: في أثناء بحثهم عن هوياتهم القومية والعمل لصياغتها قتل العرب فيما بينهم أضعاف أضعاف ما قتله الأجنبي منهم. وجد اللواء زهرالدين الساذج من الصعوبة بمكان أن يقدم الحريري على انقلاب وهو يقصد دمشق قادماً من الجبهة بسبب وجود نقاط شرطة وجيش على طول الطريق. وأكد له ذلك مجيء رئيس قوى الامن الداخلي وقادة المخافر والكتائب في منطقة دمشق ليلاً فأكدوا له أن الوضع عادي ومستقر[٧].

وفي أواسط شهر شباط وجدت القيادة العليا مدعومة بلجنة من الضباط أن تبعد (الحريري) عن البلاد وتقوم بتنقلات تشمل اليمين واليسار منهم. وفي ٢٢ منه نشرت القائمة وعين (الحريري) بموجبها ملحقاً عسكرياً في سفارة بغداد. والعميد (راشد قطيني) رئيساً للمخابرات بدلاً من العقيد عدنان عقل الذي أثبت معاوناً له نقل من ملحق في الأردن ورفض مجموعة من الضباط اليمينيين نقل العقيد السمان كما أصرّ القصر الجمهوري والحكومة على ابقائه مديراً للأمن الداخلي. ورفض الضباط الوحدويون الذين كانوا ينظمون الانقلاب فكرة نقل (الحريري). على أن الأمر المهم الذي خدم الانقلابيين هو أن العميد (قطيني) رئيس

= الجبهة عن صحة الشائعات حول الحريري وعاد ليقول انها ملفقة والقصد منها اقلاق الحكومة» (جريدة العمل. بيروت ٢٧ حزيران ١٩٦٣).

(٧) زهرالدين، المرجع السالف، ص ٤١٨.

المخابرات الجديد الذي تسلم مهام منصبه في الأول من آذار كان من المتعاونين مع رؤوس الانقلاب[٨] واعتبر محمد الصوفي قائد حامية حمص واحداً من أهم قادة الانقلاب.

تقابل المتآمرون في الجبهة الجنوبية مع ضباط منطقة دمشق في قرية شبه خالية اسمها (كفر نفح) للاتفاق على اللمسات الأخيرة وعينوا السابع من آذار ساعة الصفر. ثم أجل الموعد الى اليوم التالي لأن العقيد (هيثم مهياني) قائد القوة الجوية لمنطقة دمشق ابى التعاون معهم كما أبت وحدات مصفحة بل قيل أن قوات الحريري اضطرت الى العودة بعد أن بدأت زحفها على دمشق[٩].

في الساعات الأولى من نهار الجمعة ٨ آذار تحركت قوات الجبهة نحو دمشق هي تبعد ستين ميلاً عن الجبهة تقدمت إليها من ثلاثة اتجاهات. أكبرها بمعداتها الثقيلة دبابات ومدافع ضدّ الجوّ محمولة على عجلات شبه مجنزرة، يقودها العميد (توفيق الشوّا) كان لهذه القوات أهميتها في الخطة بسبب التخوف من احتمال تدخل القوة الجوية التي كانت بقيادة العميد (عصاصّة) الذي عارض في الانقلاب. ثم انضم الى القوات الزاحفة العميد (جميل فياض) قائد منطقة دمشق والمقدّم (عثمان الجيرودي) قائد البوليس الحربي الذي قام باعتقال الساسة والوزراء في منازلهم.

يظهر أن القوة الزاحفة لم تلق اية مقاومة ووصلت دمشق في الرابعة صباحاً. لأن رئيس المخابرات (المكتب الثاني) في وزارة الدفاع أمرها على مايبدو بعدم اعتراض سبيل القوات الزاحفة التي كان عددها يقدر بألفٍ وثمانمائة ضابط وجندي. وأنيط ببعض الوحدات غلق مداخل دمشق وببعضها احتلال وزارة الدفاع (المقر العام) ودار الاذاعة ومديرية الشرطة العامة وغيرها من المباني الحكومية وجرى اشتباك قصير سقط بسببه ثلاثة جنود قتلى[١٠].

بعد ساعتين فقط انتهى احتلال دمشق وأعلن في الساعة السادسة والثلاثين دقيقة صباحاً من الراديو البيان الاول مذيلاً بتوقيع «المجلس القومي في المقر الثوري». بيان عجيب في صياغته:

(٨) زهرالدين، المرجع السالف، ص٣٩٧.

(٩) نيويورك تايمز ١١ آذار ١٩٦٣. جريدة العمل، بيروت ٢٧ حزيران ١٩٦٣. زهرالدين: المرجع السالف ص ٤٢٨.

(١٠) نيويورك تايمس ١١ آذار. مجلة المصور المصرية ١٥ آذار ١٩٦٣، تدعي مقتل خمسة جنود أو حراس اعترضوا زحف القوات. وإن القاعدة الجوية لم تستسلم بقيادة (مهياني) بالاول لكنها استسلمت بعد ظهر اليوم نفسه عندما وجد القائد أن قاعدة (دمير) الجوية بالقرب من دمشق قد طوقت. وجرت مقاومة طفيفة في (قَطَنا) بالقرب من الحدود ثم انضمت الى الانقلابيين.

«باسم الله والعروبة... منذ فجر التاريخ وسورية تلعب دورها النضالي الايجابي تحت راية العروبة والوحدة العربية... إن سورية العربية وشعبها الأبيّ لم يعترفا على الاطلاق بحدود البلاد. وهي لاتعترف بحدود غير حدود الوطن العربي الكبير... حتى النشيد الوطني السوري فانه لايتضمن كلمة (سورية) وإنما يتغنى بمجد العروبة والنضال البطولي للعرب جميعاً...»[١١]

وسمي الانقلاب على الفور بـ(ثورة الثامن من آذار). ولم يرد في البيان الأول ذكر للبعث أو الاشتراكية. واقتصر الكلام على الجيش قائلاً انه أعاد سورية الى مكانها في موكب الدول التقدمية تحت علم الوحدة. وإن قائدها الحريري وعدداً كبيراً من الضباط المساندين ليسوا بعثيين ولا أنصاراً لهم وإن الثورة ليست قاصرة على حزبٍ أو فئة معينة. إلاّ أن الاذاعة بعد ظهر اليوم عينه راحت تتحدث عن البعث وزعمائه وعن الاشتراكية وفي الحال بدأ الجدل حول من كان له شرف القيام بالثورة ونجاحها. وفي ١٤ آذار أعلن العميد (قطيني) من القاهرة أن الجيش وحده استأثر بوضع خطة الثورة وانه هو الذي قادها الى النجاح. ولم يكن بين الجيش وبين أي جهة مدنية أخرى أي تعاون[١٢]. إلا أن ميشيل عفلق ذكر من خلال حديث له في جريدة لوموند الفرنسية في عدد الحادي والعشرين من آذار ١٩٦٣ بأنه قام بدور الاعداد لها، وان حزب البعث هو الذي أشرف على التخطيط والتنظيم وعهد للبيطار تشكيل الحكومة. فضمت اثنين فقط من الضباط. أولهما المقدم سامي الجندي الذي رفع الى رتبة عميد وأسند اليه منصب وزير الدفاع. والرئيس محمد عمران الذي رفع الى رتبة عقيد وضم الى مجلس قيادة الثورة وهو البعثي الوحيد فيه. وعلى أية حال وكما يقول الحريري «إن الضباط البعثيين في الجنوب سبقوا الضباط الناصريين في الشمال بشوطٍ واحدٍ» واحتلوا دمشق قبل أن يصلها الضباط الناصريون. ولذلك بدت الارجحية لهم والمتعاطفين معهم عند تشكيل «المجلس

(١١) يدعي اللواء زهرالدين (الص ٤٣٠-٤٤٢) بأنه لم يتعاون مع قادة الانقلاب بل كان ضحية خداع وخيانة وغدر مرؤوسيه. ويزعم أن أي كتيبة من الجيش في دمشق كان بوسعها سحق هجوم الحريري. وذكر ان واحدة من أقوى الكتائب كانت بقيادة نورالدين گنج وهو درزي كزهرالدين اشتراه الحريري. وقال زهرالدين انه لم يعلم بالانقلاب إلاّ في الخامسة صباحاً فحاول الاتصال برئيس المخابرات الجديد ولم ينجح في العثور عليه. وزعم المقدم صالح آغا امر الانضباط (البوليس) العسكري انه أبلغ اللواء نامق كمال رئيس الاركان بالانقلاب إلاّ انه لم يبلغ القائد العام. ويذكر زهرالدين أن الانقلابيين صنفوه في عداد الانفصاليين ومن زمرة الرئيس القدسي وأبقوه سجيناً أكثر من تسعة أشهر (الص ٤٤٢-٤٤٣) كما الحقوا به عديله اكرم الحوراني بوصفه من دعاة الانفصال.

(١٢) بصراحة: محاضر محادثات الوحدة – القاهرة ص ١١. ١٩٦٣. تصريح الحريري لعبدالناصر في أواسط آذار أثناء جلسات المفاوضات حول الوحدة الص ٢٧٣-٢٧٤ و٨٠) المرجع السالف.

الوطني لقيادة الثورة» الجديد. كذلك في الوزارة التي تمّ تشكيلها في اليوم التالي. وبدأ نفوذهم يعلو الجميع من تكرار شعارهم بالوحدة والحرية والاشتراكية في دار الاذاعة.

هذا الانقلاب كان الثالث من نظرائه في ظرف ستة أشهر فقد جاء بعد انقلاب ٢٦ ايلول ١٩٦٢ اليمني وبعد انقلاب ٨ شباط في العراق. وقد نجحت في اسقاط الانظمة التي حاول عبدالناصر بكل عناد وقسوة اسقاطها بنفسه. مع هذا فليس هناك من شك في أن القاهرة كانت تعلم بتفاصيل ضافية عن مراحل الإعداد له في سورية. حتى قيل أن أوامر أعطيت القوة الجوية المصرية والقوة البحرية بانذار المساعدة حالما ترد الانباء عن وقوع الانقلاب وفي حالة وقوع الطلب من الانقلابيين[١٣]. وكان العراق أول المعترفين بالنظام الجديد فور تأليف الحكومة. وفي عين الوقت أعلنت مصر كالعادة انذاراً لكلّ من المملكتين الاردنية والسعودية واسرائيل بعدم التدخل وبان اي عدوان خارجي على سورية هو عدوان على الجمهورية العربية المتحدة». واعتبرت الدوائر المصرية السياسية والحاكمة نصراً مصرياً وبرهاناً قاطعاً على نجاح عبدالناصر وسياسته الاشتراكية وخصصت صحافتها المؤممة صفحات كاملة لاعلانات تهنئة من الشركات والمؤسسات والصناعات المؤممة للانقلاب السوري، بلهجات حماسية مهووسة تتضمن تلك الشعارات المألوفة حول ما سمي بنهاية «الإنفصال والرجعية»[١٤].

وكما كان الشأن في العراق، لم يعلن عن أسماء وهويات وعدد اعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة وكان يوقع البيانات قبل تشكيل الحكومة والمعتقد انه كان يتألف من أحد عشر عضواً. وذكرت مصادر أخرى انه تألف من عدد يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين وان نصفهم مدنيون ونصفهم عسكريون بأغلبية بعثية. ولم يعلن بأن (لؤي الاناسي) هو رئيس المجلس إلاّ في ٢٤ من آذار. وكان قد أعلن فور الانقلاب قائداً ورقي فوراً من رتبة عقيد الى رتبة فريق اول ورقي العقيد زياد الحريري قائد الانقلاب الى رتبة امير لواء وعين رئيساً

(١٣) مجلة التايم في ٢٩ آذار ١٩٦٣. بلغت القاذفات بالاستعداد وكذلك المقاتلات. وصدرت الاوامر للقطع البحرية التوجه الى الشمال انتظاراً للأوامر.

(١٤) مظاهر حماسية تضحك الثكلى. منها مجلة المصور القاهرية في ١٥ آذار خصصت احدى عشرة صحيفة كاملة من أصل صفحاتها الاثنتين والسبعين لاعلانات التهاني بالمناسبة. ودبجت اقلام مشاهير الكتاب المصريين من أمثال احسان عبدالقدوس وفكري اباظه وحبيب جاماتي مقالات عن ثورة «لم يكن هناك بدٌ من حصولها» ووصفوا كيف أن سورية قد ردت اعتبارها. واستعادت وجهها العربي الاصيل في مقال كتبه في المصور بتاريخ ١٥ آذار عنوانه «الجيش الاردني جاء دوره». (ص ٤٧). ونشرت مجلة روز اليوسف في غلاف عددها المؤرخ في ١٨ آذار صور خمسة ملوك عرب ورؤساء حكومات الى جانب عربي ممسك بندقية موجهة الى الاثنين الباقيين الملك سعود بن عبدالعزيز والحسين ابن طلال. بعد ان صرع الثلاثة الآخرين: الامام احمد وقاسم وخالد العظم!

لاركان الجيش وأعطي العقيد راشد قطيني رتبة مماثلة وعين معاوناً له.

كان مجلس قيادة الثورة يتولى رسم السياسة الداخلية والخارجية ويصدر المراسيم الاشتراعية والوزارة ذراعه التنفيذي. أسندت الوزارة في صبيحة اليوم التالي الى القائد البعثي صلاح البيطار فألف حكومته من عشرين وزيراً بينهم كما اسلفنا الفريق محمد صوفي وهو ناصري والعقيد امين الحافظ وهو بعثي استدعي من الارجنتين حيث كان ملحقاً عسكرياً لتسند اليه وزارة الداخلية.

كان يجب أن تبدو الوزارة نتيجة لاتفاق مساومة بين ثلاثة احزاب أو مجموعات وحدوية. إلاّ ان البعث نال التمثيل الاقوى وخرج بحوالي أحد عشر مقعداً وزارياً. وكان هناك الجبهة العربية المتحدة ويشار الى اعضائها بالناصريين الغلاة لأنهم كانوا يريدون عودة الوحدة مع مصر بشروط معينة وقد مثلهم في الوزارة (هاني هندي) الذي أسندت اليه وزارة التخطيط ومثل المجموعة الثالثة وهي الجبهة الوحدوية الاشتراكية – عبدالحليم سويدان أستاذ الطبيعيات في الجامعة السورية حين أسندت اليه وزارة الزراعة.

لم تحتو الوزارة على خصم لعبدالناصر صريح العداء. ولا معارض للوحدة مع مصر. وتبنى الجميع شعار البعث في الوحدة والحرية والاشتراكية بعثيين وغير بعثيين. إلاّ انه ما مرت فترة حتى بدا هذا الائتلاف مهتزاً يكاد يتصدع. لم ير تاريخ سورية الحديث حكومة بادارة بلغت مثل هذا الهزال والتفكك والفوضى بحيث لم تصمد أكثر من شهرين تخللتها حوادث شغب ودسائس وفوضى ومحاولات انقلاب عديدة عسكرية في ظلّ نظام البعث المهيمن.

جاء بحزب البعث مجموعة من الضباط بينهم عددٌ من البعثيين إلاّ ان القلة البعثية فيهم كانت منقسمةً على نفسها بعامل المنافسة الشخصية أو اهداف أخرى. كما ان البعث جاء كالعراق – بمساندة وتعاون مجموعات وحدوية وبسبب ادانته الصريحة الصارخة «للانفصاليين» وتنديده «بكارثة الانفصال» ومصرّحاً باستعداده لاعادة الوحدة مع مصر.

إلاّ أن ما بدا واضحاً منهم في الايام الثلاثة الأولى من مجيئهم بأنهم كانوا يكذبون على أنفسهم وعلى الآخرين وأنهم ماكرهوا قط ذلك «الطلاق البائن» بين سورية ومصر وانهم لاينوون التحرك قيد أنملة للاعلان عن «عودة الزوجين الى بيت الزوجيّة». وشعبيّة عبدالناصر التي استغلها البعثيون في معركتهم ضدّ حكومة العظم باتت الآن موضع قلق وتخوف. كما بات واضحاً من المحادثات الثلاثية التي سيأتي الحديث عنها – حول نوع من اتحاد كونفدرالي – ان هناك خلافات جوهرية حادة بينهم وبين عبدالناصر وانصاره في سورية وما إن شعر هؤلاء

حتى تلبدت سماء سورية بغيوم التآمر وأعمال الشغب وجرت محاولات انقلاب عسكرية لاسقاط البعث، قوبلت باجراءات تطهير متوالية في صفوف الضباط المعارضين.

مأساة حزب البعث المزمنة الطموح الذي لا حدود له الى السلطة والعمل المتفاني لبقائه في السلطة مهما فقد من ثقةٍ جماهيرية. وكان هذا يؤدي به دائماً الى التآمر والاعمال التخريبية ونشدان العون من الطغمة العسكرية لا من صناديق الاقتراع الكريهة المخيفة. ولذلك بقي حكم البعث مزعزعاً ممقوتاً ليلجئه دائماً الى اجراءات قمع وحشية لا مثيل لها في عصره.

نتيجة أخرى هي استناده الدائم الى عبدالناصر ومشاريع الوحدة مع مصر بغية الوصول الى الحكم كسباً لاشياعهما. إلاّ انه كان في كل مرّة يكتشف بان الوحدة مع عبدالناصر لاتعني غير الخضوع البائس له وانكشاف ضعف شعبيتهم. وان التسليم لعبدالناصر بالقيادة معناه الانتحار.

نتيجة ثالثة: مفارقة لاتخفى عن أحد. كلما حاول البعث الحكم على الأسس الديمقراطية و«الحرية» التي هي أحد اركان اهدافه. كلما وجد نفسه يبتعد عنها ليلجأ الى أساليب القمع الوحشي وسوق الجمهور بالعصا.

وكبعث العراق شنّ الحكم الجديد حملة اعتقالات واسعة جداً للشيوعيين والناصريين وغيرهم من معارضي حكمهم[١٥]. وألفت محاكم ثورية لمحاكمة رجال العهد السابق وأسندت اليهم

(١٥) التجأ خالد العظم رئيس الوزراء الى السفارة التركية في دمشق. في حين اختفى عدد من الوزراء السابقين أو نجحوا في ترك البلاد. وزج الباقون في السجن. والغي أمتياز سبع عشرة صحيفة بقرار من مجلس قيادة الثورة. ورفض حق طلب تعويض اصحابها وبعد شهرين فقط عندما تأزمت العلاقات مع عبدالناصر أصدرت الحكومة في ٨ أيار قرارها بتعطيل صحيفتين مواليتين له وزج رئيسا تحريرهما في السجن. هذه الاجراءات القاسية غير المسبوقة ضد الصحافة في سورية لحقتها اجراءات صارمة غير مسبوقة ضدّ السياسيين وضباط الجيش. (عين السياسة التي تبعها عبدالناصر في مصر خلال ١٩٥٢–١٩٥٤). فجردت أكثر من مائة وأربعين شخصية سياسة وعسكرية بارزة من حقوقهم المدنية خلال شهر واحد فقط (نيسان) وحظرت عليهم النشاط السياسيّ لفترة تتراوح بين خمس سنين وعشر. وفي عين الوقت أحالت إثنين وعشرين شخصية سياسية الى المحاكمة بينهم رئيس الجمهورية السابق. وثلاثة رؤساء وزارة سابقين مع أكثر من إثني عشر ضابطاً ممن قام بانقلاب ٨ ايلول ١٩٦١ الانفصالي باعتبارهم «اعداء الشعب». لقيامهم بفصم عرى الوحدة مع مصر واساءة استخدام السلطة، والفساد. وشكلت محكمة خاصّة لمحاكمتهم عرفت باسم «محكمة الأمن القوميّ». وفي الثالث من تشرين الاول طلب المدعي العسكري العام فرض عقوبة الموت على رئيس الوزراء السابق الدكتور (مأمون الكزبري) (غيابياً) وعلى ثلاثة عشر ضابطاً متقاعداً بينهم (حيدر الكزبري) طلبه باسم «الرسالة العربية الخالدة، والتاريخ العربي والشعب العربي». كانت محاكمة الضباط الذين قاموا بعملية انفصال ايلول مهزلة المهازل وواحدة من الفكاهات الشعبية لأنها كانت تجري وقتما كان عبدالناصر واعلامه يصفان قادة البعث الحاكمين بالانفصاليين ونظامهم بالنظام الفاشيّ واللاأخلاقية واللاآدمية. في الوقت الذي كان قادة البعث هؤلاء =

تهم شتى بلغت حداً من السخف أن صارت موضع تندر حتى من الصحف المصرية المؤممة. وأغلقت الجرائد كلها ولم يبق الا صحيفة واحدة هي جريدة «البعث» لسان حال البعث.

على أن جرائم البعث السوري لم ترق الى حدّ ازهاق الارواح والتعذيب الهمجي والقضاء على الخصوم ودفنهم في قبور جماعية.

اراد البعث فرض حكم الحزب على سورية ليس فحسب عن طريق مصادرة حرية القول والتعبير والاجتماع والمحاضرة. بل كذلك بعمليات تطهير متواصلة في الجهازين الاداري المدني والعسكري. واعتماد زيادة عدد الضباط البعثيين الذين أخرجتهم الانقلابات السابقة من الجيش بإعادتهم الى الخدمة ثانية وانيطت بهم مناصب هامة وحساسة. ولأنهم مع ذلك قلة فقد استدعوا الضباط الاحتياط البعثيين للخدمة ولبعض هؤلاء صلة قرابة عائلية أو رابطة عشائرية أو طائفية بضباط بعثيين كبار ومعظمهم من الأرياف[١٦].

وحاولوا ايضاً توجيه التنظيم طلابي لاهدافه وشجعوا اساليب فاشستية لتنظيمات بعثية شبه عسكرية (ميليشيات) وهو ما دعي بالحرس القومي أسوةً بالعراق. اسناداً للحزب في اعمال عسكرية عند الحاجة. مع كل هذه التحوطات فقد بقي حكمهم مهزوزاً مزعزعاً. وبدأ بالاول بالتبديل الوزاري المتكرر ثم بالفوضى والمحاولات الانقلابية وما يرافقها من مذابح وسفك دماء. فقد تألفت اربع وزارات خلال حكمهم في ظرف الأشهر السبعة التي عقبت انقلابهم. ثلاث منها ألفها القائد البعثي صلاح الدين البيطار والرابعة ألفها اللواء أمين حافظ

= من جانبهم وهم يحاكمون الآخرين بتهم الانفصال – يهاجمون دكتاتورية عبدالناصر، وينشرون القصص والادلة على سوء حكمه في سورية بوصفه «السبب الاصلي» للانفصال على أقلّ تقدير. واحدٌ فقط من رؤساء التحرير تحدث عن رقاعة تلك المحاكمات ونعتها بـ«محاكمات المهداوي في سورية».
ذكر اللواء زهرالدين (المرجع السالف ص ٧٠) نقلاً عن مقال افتتاحي كتبه سليم نصار في جريدة الصفاء (بيروت ١٠ تموز ١٩٦٣) إن رئيس محكمة الأمن القومي، الضابط (صلاح دلّي) شوهد وهو يرقص فرحاً على ظهر السفينة التي أقلته مع الضباط السوريين الآخرين من مصر بعد وقوع الانفصال. [نشرت جريدة الحياة وغيرها تقارير مفصلة عن سير المحاكمات في حينه].
واما في مصر فقد وصفت محاكمة الانفصاليين، وعملية تأميم البنوك بأنها عمليات نفاق وتظاهر كاذب، وهي لا أكثر من تغطية لخطوات جدية هدفها تصفية الضباط القادة والكبار المعارضين. وذهب اللواء زهرالدين (المرجع السالف) أن فترة سجنه الطويلة وسجن الرئيس القدسي الذي دام حتى ايلول ١٩٦٣ كان نتيجة هجوم القاهرة المتواصل ضدّ نظام البعث الذي «يعامل الانفصاليين المسجونين معاملة طيبة». وانتقدت مجلة التايم (عدد ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٣) عملية البعث الحاكم لعمليات غسل الدماغ لمعتقليه السياسيين. وكتخصيص ساعتين يومياً للجنود لتلقينهم مباديء الحزب السياسية باعتبارها جزءً من التدريب اليومي.
(١٦) الرزاز: المرجع السالف ص١٥٨. وزهرالدين: المرجع السالف، ص٤٢٣.

في ١٤ من تشرين الثاني .

الصراع العسكري الحزبي، ذرّ قرنه فجأة في الأول من شهر شباط وكان ذا علاقة بطرد ٧٤ ضابطاً ناصرياً من الجيش. ونشأت أزمة حادة مع (زياد الحريري) القائد العام ثم بلغ الخلاف الأوج على أثر محاولة انقلاب ناصرية دمويّة في ١٨ من تموز قادها المقدم (جاسم علوان). وكان يصاحب كل تبديل وزاري في مجلس قيادة الثورة وآمريات الجيش ومعها، ما لابدّ منه من اعتقالات وأعمال تطهير وتحقيق قضائي ومحاكمة.

استقالت وزارة البيطار الأولى في ١١ من أيار بسبب الخلاف المتزايد خلال الاسابيع الفائتة بين الاغلبية البعثية والاقلية الناصرية – حول موضوع الوحدة مع مصر. فبعد نجاح الانقلاب مباشرة تقدم كل من (نهاد القاسم) و(عبدالوهاب حمود) من الاعضاء في مجلس قيادة الثورة ومن غلاة الناصرية مذكرةً للبيطار بالحضّ على الاسراع في اقامة الوحدة الفورية مع مصر «دون تلكؤ ودون مضيعة للوقت أو شكليات عقيمة». لم تسمح السلطة بنشر هذه المذكرة إلاّ انها نشرت في القاهرة ولم تلق معارضة أو انتقاداً لأن البعث في الواقع كان إذذاك بحاجة الى نوع من الوحدة. أو على الأقل الى اتخاذ خطوات عملية نحوها. أو الحديث عنها. فإنقلاب آذار وصف بانه «نصرٌ على منطق الانفصال والانفصالية». كان الحزب في كل من سورية والعراق بحاجةٍ الى ضمانة عبدالناصر. وفي ١٤ آذار شرع في محادثات حول اقامة وحدة فدرالية – على أثر شخوص وفدٍ عراقي – سوري الى القاهرة فجأة ومن غير تمهيد.

★★★

لكن ما الذي حَلّ من تغيير في دعوى القومية الناصرية خلال فترة الانفصال؟

نصّ الدستور المؤقت المصري الثاني الصادر في ١٦ من كانون الثاني ١٩٥٦[١٧] على انشاء مايدعى بالاتحاد القومي. هذا التنظيم ورث حقّ احتكار العمل والتنظيم السياسي الرسميين في مصر. ودُفِع مباشرة الى يد «الضباط الأحرار» وبواسطتهم تمتّ الهيمنة على كلّ مرافق الدولة وعلى الرأي العام بتأميم الصحافة ووسائل الاعلام.

عندما لفظت الوحدة انفاسها في ايلول ١٩٦١ بادر الزعيم المصري مباشرة بحل مجلس

(١٧) تم الغاء تنظيم الاتحاد القومي في مصر إثر اعلان الوحدة مع سورية بغية اقامة تنظيم جديد موحد للدولة الجديدة وما أن اكتمل ذلك في تموز ١٩٦٠ حتى أعيد حله بسبب الانفصال ومات الاتحاد القومي فعلاً قبل الوقوف على قدميه وقبل أن يشيعيه عبدالناصر بخطبته. وهذه هي تواريخ الدساتير المصرية المؤقتة: الاول في ١٥ شباط ١٩٥٣. الثاني في ١٣ حزيران ١٩٥٣ الثالث في ١٦ كانون الثاني ١٩٥٦ الرابع في ١٥ آذار ١٩٥٨.

الاتحاد القومي. وأعلن في خطبة له في ٢١ من تشرين الأول ١٩٦١ بانه ارتكب خطأ بتركه القوى الرجعية تتسلل الى الاتحاد القومي وتنجح في شله وفشله. وقال إن النظام بحاجة الى مساندة شعبية أقوى. وأن على الشعب أن ينتظم في اتحاد جديد سيكون في يد الجماهير الشعبية فقط. وعلى هذا الأساس تمّ اختيار ٢٥٠ شخصاً ليكونوا بمثابة لجنة تحضيرية. تقوم باختيار ١٥٠٠ مندوب يمثلون مختلف طبقات المجتمع وفئاته بهذه النسبة:

٣٧٩ من الفلاحين

٣٠٠ من العمال

١٥٠ ممثلون عن رأس المال الوطني

٤٦١ ممثلون عن موظفي الدولة والنقابات الحرفية والصناعية

٢١٠ ممثلون عن الاساتذة والطلاب

وتمّ الاختيار بحسب البرنامج واجتمع هذا (البرلمان) العجيب أو ربّما صح أن يدعى بالمؤتمر.

وفي الحادي والعشرين من شهر ايار ١٩٦٢، نهض عبدالناصر ليتلو فصول مسودة ميثاق «العمل الوطني» والاتحاد الاشتراكي العربي. واستغرقت قراءته فيه أربع ساعات، في حين استغرقت المصادقة التامة عليه أربع دقائق.

وكان فيه شرح وتفصيل للأهداف القومية بالنسق المتدرج «الحرية – الاشتراكية – الوحدة» وصاحب ذلك شرح للايديولوجية الجديدة «الديمقراطية الشعبيّة» و«الاشتراكية العملية» التي ستسير عليها دولة الجمهورية العربية المتحدة.

في الفصل الخامس وعنوانه «الديمقراطية السليمة» بدأ الميثاق المصادق عليه بالهجوم أو بالاحرى بالتهجم على الديمقراطيات البرلمانية واصفاً اياها «ديمقراطية الرجعية» لاستنادها الى «تحالف الرأسمالية والإقطاع». في حين أن الديمقراطية الجديدة تقوم على التحالف بين «قوى الشعب العاملة المؤلفة من الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين، وبين رأس المال القومي».

بعد مصادقة الأعضاء الألف والخمسمائة بالهتاف ورفع الأيدي والقيام. أعلن بموجب الميثاق في ٢٧ ايلول ١٩٦٢ عن دستور (غير موقت) جديد متحدث عن اقامة قيادة جماعية على شكل مجلس استشاري للرئاسة يتألف من إثني عشر عضواً عشرة منهم ضباط سابقون تكون فيه الرئاسة لرئيس الجمهورية يشارك المجلس بمقدار معين من الصلاحيات. كما اشترط الدستور الجديد قيام ما دعاه بالمجلس التنفيذي (يعادل مجلس الوزراء) ذلكم هو الدستور

الذي رسمت فيه الخطوط العريضة الرئيسة لقيام (الإتحاد العربي الاشتراكي) الذي أسند اليه مهمة اقامة تنظيم حزبي واحد في ظلّ نظام اشتراكي وضرورة انتقاء لجانه المختلفة بشكل يؤمّن «عدم تسلل العناصر الرجعية اليه».

وبطبيعة الحال وقع الاتحاد العربي الاشتراكي كسلفه الاتحاد القومي في أيدي ضباط يوليو الأحرار. فضمر وتقلص ليغدو في النهاية فرعاً آخر من دوائر الحكومة وفي وقت قصير جداً. فطبيعة تكوينه الفوقية الفضفاضة مع سيطرة الضباط السابقين الكاملة على طبقته العليا قضت على كل أمل في صيرورة هذا الاتحاد تنظيماً سياسياً فعالاً[١٨].

كانت تنظيماته وعضوية أجهزته المركزية تتحدد بمراسيم خاصة يصدرها رئيس الجمهورية رئيس الاتحاد. وتم ميلاده طبعاً بمرسوم جمهوري صادر في السابع من كانون الأول ١٩٦٢. وظلّ يستخدم لمسايرة النظام السياسي – الاجتماعي – الاقتصادي الذي اخترعه عبدالناصر وهو حصيلة الدروس التي كان يلقيها عليه صديقه جوزف بروزتيتو في يوغوسلافيا وشو إن لاي في الصين والى حدّ ما سادة الكرملين. مبرزُ كلّ من جانبه انجازات الاشتراكية بعرضٍ مغرٍ خلاب تتخلله مشاهدات ومدارسات مزيفة لمصانع ومعامل تدار بالطرق الاشتراكية. ولم يتغير الأمر فالذي انيط به أمر هذا الاتحاد الجديد هم جماعة الاتحاد القديم من الضباط الثوريين بزيادة عدد كبير من الاقرباء والمحسوبين والمقربين كلهم بدوا بثيابهم المدنية بديل الطبقة الحاكمة القديمة الارستقراطية. وفي أحيان كثيرة فاقوا افراد تلك الطبقة والسلف في جشعهم ووسائلهم في التلاعب بعواطف الجماهير ليس غير. ورفضوا أن يقاسمهم الشعب السلطة مستندين الى الحجّة التي أجملها أنور السادات باقتباسه قول ماوتزدونگ تبريراً لدكتاتورية طبقة أو صنف من أصناف الشعب على صنف آخر:

«إن قيادة الثورة. هي التي تحدد ما تراه في مصلحة الشعب وما هي حاجته.»[١٩]

(١٨) د. أسعد عبدالرحمن: الناصرية: ثورة بيروقراطية ام بيروقراطية ثورة. منشورات جامعة الكويت. ١٩٧٧ ص ٩١: «ادى تشكيل الاتحاد الاشتراكي العربي بقرار من «فوق». وتنظيمه السائب وسيطرة العسكريين عليه الى منع الاتحاد من أداء مهمته كحزب سياسيّ فعال. كما أن الأجهزة المركزية في «الاتحاد» لم تعمل بشكلٍ مناسب لأنَّ تنظيم الاتحاد العربي الاشتراكي بكلمات عبدالناصر بذاته «لم يكن مبنيّاً على انتخابات حرة من القاعدة الى القمة». ويضيف هيكل (الاهرام ٢٨ ايار ١٩٧١) ان عبدالناصر لم يأخذ قيادة الاتحاد الاشتراكي في العام ١٩٦٨ محمل الجد وكان يدعو لعقد اللجنة التنفيذية العليا واللجنة المركزية فقط للحفاظ على الشكل والمظهر وبكلمة أخرى إذا كان الاتحاد الاشتراكي العربي شيئاً فهو بالتأكيد لم يكن اتحاداً حقيقياً أو فعالاً.

(١٩) أنور السادات: قصة الثورة كاملة. القاهرة ١٩٥٦. ص ٣٠.

ويتمّ تجاهل الفضائح ولايعطى لها مجالٌ لتعلن على نفسها وتفتضح وعبدالناصر كان يرفض اتخاذ اية خطوة تأديبية ضد زملائه بل يعمد الى تغطية سوء ادارتهم واختلاساتهم[٢٠] ويُقال أو يُطرد اساتذة في الجامعات لأنهم لايسيرون في خطّ الحكومة. كما وضعت المدارس الخصوصية والرسمية تحت الرقابة المشددة ضماناً لحماية التلاميذ من آراء «انحراف ديني أو قومي أو سياسي». وأعيد النظر في جميع مناهج الدراسة وكتب التدريس وحشرت فيها مواد دعائية للنظام الثوري.

وانسياقاً بزعم القادة والحكومات المتعاقبة – انهم في حالة ثورة دائمة في محاولة اقامة «مجتمع الكفاية والعدل» للمضطَهَدين والمستَغَلين السابقين ضد مستغليهم ومضطهِديهم. جردوا الطبقة البرجوازية العليا القديمة بكل مثقفيها ومفكريها من قدرتها على التعاون وتحت ستار النضال الوطني أو القومي المشترك ضد الاحتلال ففقدت من الحرية ما كسبته طوال سبعين عاماً نضالياً تلك الحريات المدنية التي لايمكن أن يوجد مجتمع ديمقراطي حقيقي بدونها. وقد اصاب فقدانُها الجمهورَ بشعور عام بعدم الأمان لا لأشخاصهم أو مقتناهم بل لأخلاقهم وتعاملهم فيما بينهم بالأحرى. فبعد موجات متعاقبة من قرارات التأميم والمصادرة وبعد محاكمات بقوانين شاذة أو ذات أثر رجعيّ، اتخذ العامة وضعاً شبيهاً بوضع اجدادهم واسلافهم في أيام حكم المماليك[٢١]. حيث كانوا يتجنبون التظاهر بالنعمة ويمتنعون عن الانفاق عن سعة خوفاً من أن يجلب هذا الانتباه اليهم فيصيبهم المكروه والأذى العظيم.

أخضعت الكتابة الى قيود جديدة كما أخضع السماع والرؤية (الراديو والتلفزيون). فأي تعليق على سياسة الحكومة يجب أن يحفّ به الحذر. وأي حديث سياسي يجب أن يصحبه استراق النظر والالتفات المستمر الى الوراء خشية وجود رقيب أو مخبر متلصص. وصارت رسائل المشبوهين (المسجلين في قوائم مخصوصة) ومراسلاتهم تفتح وتقرأ وتستنسخ أحياناً

(٢٠) مثل حلقة التهريب التي كانت عملياتها تخطط في دائرة عبدالحكيم عامر. أو قضية الضباط الذين اختلسوا جانباً من التعويضات المصروفة لعوائل قتلى الجنود في حرب اليمن ١٩٦٦.

(٢١) بالأصل وكما يدل عليه الاسم عبيد ثم شراؤهم وهم أطفال وتربوا في منزل صاحب الرقبة سيد الدار وعرفوا باسم (الخشذاشية) وأصلهم اتراك وجراكسة منهوبون. يربون كابناء وكمسلمين احرار ويدربون على الفروسية والقتال. تمكنوا من الوصول الى الحكم في مصر وسورية بعد نهاية الحكم الأيوبي. وأسسوا في مصر سلالتين عرفتا باسم المماليك البحرية (١٢٥٣–١٣٨٢) دعوا بالبحريين لاقامتهم في جزيرة الروضه على النيل والمماليك البرجية (١٣٨٢–١٥١٧) نسبة الى البرج لأنهم أقاموا في برج قلعة القاهرة. ويلقبون بالسلاطين ويتم اختيار السلطان منهم إمّا بالموافقة العامة أو بالتغلّب. دخلوا طاعة السلطان العثماني بعد هزيمتهم في ١٥١٧ وضم مصر الى الاملاك العثمانية إلاّ انهم بقوا حكاماً فعليين لها الى أن قضى عليهم محمد علي الكبير في مذبحة القلعة ١٨١١ الكبرى.

قبل وصولها الى أصحابها بل لم يعد هناك من يؤكد وصول بعضها الى أصحابها[٢٢].

وكانت مسؤولية مراقبة خطب الجمعة تقع على مكتب الرئيس (الجهاز الخاصّ) فتدقق خطب

(٢٢) الناصرية. د. أسعد عبدالرحمن المرجع السالف: «تكونت شبكة الأمن والاستخبارات من خمس دوائر رئيسة هي: (١) الجهاز الخاص وهو مرتبط بعبدالناصر مباشرة ومسؤول امامه ومسؤوليته في ١٩٦٣ كانت منوطة بعلي صبري ومساعده كمال رفعت من ضباط يوليو. له التأثير حاسم بسبب قربه من عبدالناصر. وتتلخص مهمته جمع المعلومات الخاصة التي قد تثير اهتمام الرئيس في الداخل أو الخارج. فهو عين الرئيس. ويناط بالجهاز أحياناً مهامُ خاصة ومن الامثلة الانقلاب الذي حاوله جاسم علوان في سورية (تموز ١٩٦٣) ومحاولتا الانقلاب الفاشلتين اللتين قام بهما عارف عبدالرزاق في العراق (٢٤ ايلول ١٩٦٥ و٣٠ حزيران ١٩٦٦). وعمل الجهاز من خلال عدة مكاتب مختصة مثل «مكتب الشؤون العربية» و«مكتب الشؤون الافريقية» و«مكتب اللاجئين السياسيين» وغيرها. (٢) هيئة الاستخبارات العامة: أنشيء بعد انقلاب ١٩٥٢ مباشرةً ومهندساه الفعليان هما عبدالناصر وزكريا محي الدين الذي ترأسه أولاً ثم ومنذ ١٩٥٧ أصبح صلاح نصر رئيسه وبقي حتى عزله واعتقاله في ١٣ ايلول ١٩٦٧. وتولى أمره في السنوات الثلاث التالية ضابطان انقلابيان آخران هما أمين هويدي وحافظ اسماعيل. وأنيط به مسؤوليه تنفيذ سياسة الدولة محلياً وخارجياً. فعلى الصعيد الأول كان هناك «مكتب الأمن الداخلي» و«مكتب الرأي العام» و«مكتب الاشراف على القطاع العام». وقد نُسقت نشاطات هذه المكاتب الثلاثة بواسطة «مكتب التيسير» وعلى الصعيد الثاني (الخارجي) نفذت هذه الهيئة عمليات تجسس ومكافحة تجسس وكان ما سمي «بهيئة الخدمة السرّية» الذراع التنفيذي الضارب (الاعتقال والقتل في الداخل والاغتيال في الخارج) كان لهذه الدائرة أدوار حاسمة في سياسات الدول المجاورة. (٣) المخابرات العسكرية وهو جزء من المؤسسة العسكرية بدءً من العام ١٩٥٥ وقعت مسؤوليته بالأول على زكريا محي الدين بوصفه مديراً للمخابرات العامة. ثم تداول ضباط آخرون على رئاسته وحددت مسؤولياته بحماية وضمان ولاء القوات المسلحة. وجمع المعلومات عن العدو إسرائيل وغيرها. والحصول على المعلومات السياسية والعسكرية عن طريق الملحقين العسكريين في السفارات المصرية. (٤) مديرية المباحث الجنائية العسكرية. المفروض في هذه الدائرة أن تلاحق الجريمة في صفوف الجيش إلاّ انها بالاخير زودت بصلاحيات واسعة تجيز لها اعتقال كل عسكري مشتبه باخلاصه للنظام أو التآمر عليه. (٥) المباحث العامة، ويمكن تتبع جذور هذه المؤسسة الى ما كان يعرف «بالقلم السياسيّ» الذي كان مسؤولاً عن ملاحقة وقمع الاحزاب المناهضة للحكم الملكي. أعاد عبدالناصر تنظيم هذا الجهاز عندما تولى وزارة الداخلية في ١٨ حزيران ١٩٥٣. وقام بصقله خلفه زكريا محي الدين واهتم بأمره كثيراً. أوكل لهذا المكتب أمور في غاية الأهمية منها كبح النشاطات السياسية وقمع جميع الأحزاب من خلال مكاتبه المتعددة «مكتب الشؤون العربيّة» «مكتب الهيئات السياسية» «مكتب مكافحة الشيوعية» «مكتب النشاط المعادي» «مكتب العمال» «مكتب الطلاب». كان جهازاً ضخماً للغاية وفعالاً بسبب الاموال التي تغدق على موظفيه فبالاضافة الى قوات البوليس الخاضعة له تمّ تجنيد عشرات الالوف من فقراء المدينة والمتعطلين لاقامة شبكة مراقبة واسعة عرفت باسم (عين المدينة) كان يطلب من المجندين بالجملة أو بالقطعة فتح اعينهم وابلاغ رجال المباحث عن أي شخص مثار ريبة. أو تعقيب أفراد معينين وإخضاعهم لمراقبة مستمرة. حرص هذا الجهاز على تزويد نفسه بأحدث المعدات التكنية ومن بينها تسجيل المكالمات التلفونية سرّاً وزرع الميكروفونات. والتصوير من مسافات بعيدة واستراق السمع وغير ذلك. وانشأ شعراوي جمعةَ الذي أصبح وزيراً للداخلية في ١٩٦٦ جهازاً ملحقاً عرف «بجهاز الأمن المركزي» قام بتوزيع وحدات مسلحة مدربة على مختلف الاحياء والمناطق في العاصمة مستعدة للتصرف فوراً. وقد علم المؤلف أن بناء وتدريب ذلك الجهاز تمّ على أيدي خبراء =

ائمة صلاة الجمعة وتمحّص قبل القائها[٢٣] وفي عالم الصحافة بات رؤساء التحرير بعد التأميم أشبه بموظفين حكوميين يتلقون تعليمات دورية رسمية من أجهزة الدولة المختصة تعين لهم خطوط سيرهم. وكثيراً ما كان يجري تعتيم كامل على انباء محلية هامّة حتى لكأن ذلك لم يقع بأمر مباشر من السلطة. في حين كثيراً ما كانت تنشر أنباء مختلقة أو محرفة. وتحبس قصداً تقارير المراسلين الأجانب واشتدت القبضة على عنق هذا المصدر من الانباء بشكل يجلّ عن الوصف عندما وقع الانفصال فقد بقي عامة المصريين يجهلون حقيقة دور الحكام المصريين فيه ومقدار اللوم الذي يمكن توجيهه اليهم. اذ كانت الصحافة هناك قد أممت منذ شهر ايار ١٩٦٠ ووضعت تحت اشراف الاتحاد القومي مباشرة. وقد برر العمل بهذا في وقته بعبارة وردت في ميثاق العمل «إن الصحافة فقدت حريتها (كذا) في ظلّ النظام القديم وأصبحت في خدمة الرأسمالية والإقطاع وقد هيمنا عليها ووجهاها من خلال الاعلانات».

يصف توفيق الحكيم[٢٤] بعض مظاهر الاتحاد العربي الاشتراكي على الساحة المصرية. قال:

«مرّةً لقيتُ فلاحاً اعرفه. وسألته لماذا هو في القاهرة؟ فأجاب: الأمر متعلق بلجنة الإتحاد العربي الاشتراكي في قريته، جاؤوا به وبزملائه بالقطار بعد تزويدهم بوثائق السفر ليجتمعوا معاً في استقبال عبدالناصر عند عودته الى مصر من سفرةٍ، وأسكنوا وأطعموا على حساب الدولة. وكان عليهم أن يخرجوا ويهتفوا له بشعارات معينة طبعت ووزعت عليهم. مثلاً [هتاف عام: ناصر ناصر ناصر] [هتاف مجموعات: عاش عبدالناصر للعروبة] [هتاف عام: عاش بطل الثورة القائد عبدالناصر] الخ...»

ولهذا استقبل الوفد السوري من الرأي العام كما استقبل الابن العاق الذي جاء نادماً يطلب الغفران والتجاوز على ما أقدم عليه.

★★★

= استدعوا خصيصاً من المانيا الشرقية ودرب شعراوي جمعة جهازاً بوليسياً آخر عرف باسم «جهاز امناء الشرطة» درب ليكون قادراً على احتواء اعمال الشغب والمظاهرات والاضرابات حتى قبل أن تبدأ (الص ٩٧–١٠١) ببعض اختصار.

(٢٣) اتهم الشيخ حسن الباقوري وزير الاوقاف (١٩٥٢–١٩٥٨) بانه كان يملي خطب الجمعة على الائمة كاملة. [الوقائع المصرية ٦ تشرين الاول ص ١١٥٤] راجع مقال دانيال كرسيليوس Daniel Creceluis الموسوم (الدين في خدمة الدولة) مترجماً.

(٢٤) من أعاظم الكتاب والروائيين المصريين (١٨٩٨–١٩٨٧) من كتابه (عودة الوعي) المرجع السالف ص١٧.

بعد الزيارة التي قام بها أقطاب البعث السوري للتهنئة بـ«الذكرى السادسة للوحدة». راحوا يتهيأون لتنظيم وفد المفاوضات حول الوحدة. لكن وهذا موطن العجب، لم يبد من رفاقهم القوميين الآخرين في الحكم أي حماسة ملحوظة أو استعجال في امرهم رغم حاجتهم بصورة خاصة الى نوع من الوحدة.

في دمشق كانت تظاهرات ناصرية ذات طابع عدائي للبعث في نيسان بمناسبة زيارة هواري بومدين وزير الدفاع الجزائري دمشق وعندما أجهضت التظاهرات وتم قمعها. عاد الناصريون يطالبون بصراحة أن تكون لهم مقاعد متساوية في كل من مجلس قيادة الثورة والوزارة ورفض البعثيون ذلك لكنهم أعطوهم عدداً متساوياً من الممثلين في الوفد السوري الذي نظم بعد أيام قلائل من أجل المساهمة في محادثات الوحدة.

وكان البعثيون العراقيون يواجهون في عين الوقت مشاكل[٢٥] مشابهة مع الفصائل القومية التي شاركتهم في الحكم والانقلاب كالحركيين والقوميين الاشتراكيين والناصريين وبقايا حزب الاستقلال وسبقت محادثات نيسان، مشادة اعلامية عنيفة بين صحف القاهرة وصحيفة دمشق الوحيدة (البعث) حول مفاهيم البعث للوحدة ونقدها الشديد لمواقف القوى الناصرية في سورية التي كانت تشكك بصدق (وحدوية) البعث وتعرض بمفاهيمهم له تعريضاً استفزازياً. وردّت جريدة الأهرام المؤممة بمقالات قام (احمد سعيد) مذيع صوت العرب بتلاوتها. وفيها هوجم ميشيل عفلق والبيطار واتهما بأنهما يكيدان لمصر ويستهدفانها من الحملة.

لي أن أقول: إن الوفود التي اجتمعت في القاهرة لإقامة الوحدة الاتحادية في ١٧ من نيسان كان كل منها مصمماً على قتل أي فكرة حول قيام وحدة حقيقية بأي درجة كانت. وهمُّ كل منهم أن يعود ليخدع الرأي العام بأنه استطاع على الأقل تحقيق الأقل من أهدافه بنية الخروج بورقة تحمل تواقيعهم وتشهد على نجاح المفاوضات. وهو أسلوب من أساليب خداع النفس. ومحاولة النوم ليلاً ساعاتٍ خالية من الكوابيس. لاأدري كم كانت تلك الملايين من الشعوب

(٢٥) د. علي كريم سعيد (مراجعات في ذاكرة طالب شبيب) ينقل الكاتب عن شبيب في (ص٢١٧، المرجع السالف) قوله: "مثلما حوصر عبدالكريم قاسم بمطالب غير قابلة التحقيق، واجهتنا وواجهت عبدالناصر موجة عظيمة من المزايدات في كل مكان في الوطن العربي. وكان الضغط يستهدف عبدالناصر أكثر من غيره فأثقلت الساحة العربية بشعارات وأفكار يسارية متطرفة سببت لنا وله الخذلان وجعلت المشاريع حتى في حدها الأدنى تفشل وتنسحب. وكانت مفاجأة للمواطن العربي اكتشافه عدم قدرة عبدالناصر على توحيد الأمة العربية تحت قيادة واحدة كما كان يحلم، أو كما كانت تضغط عليه وتصوره له عواطفه الملتهبة. وقد اكتشفنا ونحن في السلطة هذا ايضاً. لكننا قدّرنا أنه حلم جميل يجب المحافظة عليه وعلى ديمومته حتى تأتي الفرصة المناسبة".

العربية أو الناطقة بالعربية تهتمّ بما سيسفر عنه اجتماع «لصوص الديمقراطية» هؤلاء في محاولة واحدة من محاولات عديدة لشطب اسمائهم من قائمة ذوي السوابق والجانحين لم يكونوا يدرون بأنهم ينامون في سرير واحد، وكلّ منهم يحلم أحلاماً مختلفة.

والوفدُ السوري كان في الحقيقة يمثل بعث العراق أيضاً. وقد تألف من ١٧ مندوباً برئاسة الفريق لؤي الأتاسي رئيس مجلس قيادة الثورة. قصدوا القاهرة قبل تسوية خلافاتهم حول مباديء الحكم الاساسية في سورية. وبعبارة أخرى أن البعثين السوري والعراقي اسرعا لبحث مسألة الوحدة مع بلد آخر قبل توطيد وحدة داخل سورية أو داخل العراق. أي قبل ترتيب أثاث البيت ووضعه في مكانه. والهدف من هذا واضح هو استمرار الحوار حول الوحدة العربية من دون التنازل عن السلطة لعبدالناصر:

«التظاهرات في الشارع التي نظمها الناصريون، أرغمت الحكومة على ارسال موفدين الى القاهرة وان قادة البعث العسكريين لم يسهموا في هذا الوفد بل ارسلوا ضباطاً غير بعثيين كالأتاسي والحريري. في حين بقوا هم في دمشق يهيئون لطرد الضباط الناصريين من الجيش.»[٢٦]

واجتمع الوفد الثلاثي في قصر القبّة في السادس من شهر نيسان. وبعد عشرة ايام من المحادثات والمناقشات اتفقت الوفود الثلاثة على اقامة «دولة اتحاديّة» مع احتفاظها بالاسم القديم «الجمهورية العربية المتحدة (ج.ع.م)». وأن تكون القاهرة عاصمةً لها. ووقع الميثاق في ١٧ منه بخمسة آلاف كلمة، أشغل اربعين صحيفة تقريباً من الحجم المتوسط.

كان ميثاقاً متناقضاً متخبطا غير قابل للتطبيق مطلقاً – لفدرالية غريبة هي خليط عجيب من مباديء وأصول جمهورية مستمدة من مصادر متنافرة ابتداءً من اشتراكية كارل ماركس وانتهاء بمفاهيم صاغة دستور الولايات المتحدة الامريكية[٢٧] وزف النبأ قبل التوقيع على

(٢٦) منيف الرزاز: المرجع السالف ص١٥٨.

(٢٧) مما جاء فيه: الدولة الفيدرالية ستؤسس في نهاية خمسة أشهر من تاريخ التوقيع (أي في ١٧ من أيلول) بصياغة دستور جديد فدرالي، يقام على مبدأ الاشتراكية العربيّة والديمقراطية الغربية. الاسلام هو الدين الرسمي للاتحاد. الرئيس ينتخب بالاقتراع العام المباشر. ويتبع ذلك فترة انتقالية مدتها عشرون شهراً يتم خلالها بناء الصرح الجمهوري دستورياً. تتوحد القوات العسكرية. يتوحد التخطيط الاقتصادي والتمثيل الخارجي. التفاصيل الادارية والاجهزة العاملة الأخرى تقوم بتنظيمها لجان خاصة. الحكومة ستكون برلمانية لارئاسية تبنى على مبدأ المجلسين التشريعيين لا على مجلس واحد. لرئيس الجمهورية حق تسمية الوزراء ايضاً وليس قاصراً على تسمية رئيس الوزراء. [قيل ان الوفد البعثي أصرّ على فترة الخمسة أشهر ونجح في تضمينها ليتاح لهما مهمة استتباب السلطة الكاملة لهما كل في قطره. كما أعطي البعث في الميثاق حقاً غامضاً – لبقاء حزب البعث ناشطاً الى جانب الاتحادات الاشتراكية التقدمية» [تراجع =

الميثاق بهذه الكلمة المذاعة من صوت العرب من القاهرة:

«تمّ باسم الله وباسم الشعب العربي توقيع البيان التاريخي في الساعة الواحدة من صباح يوم الاربعاء ١٧ اپريل ١٩٦٣ وذلك في الاجتماع الذي عقدته وفود الجمهورية العربية المتحدة وسورية والعراق في مباحثات الوحدة. وفي بداية الاجتماع امسك الرئيس جمال عبدالناصر بالقلم وقال: باسم الله الرحمن الرحيم. وباسم الأمة العربية، ندعو الله سبحانه وتعالى بالتوفيق لهذه الوحدة واننا نرجو سبحانه وتعالى أن يجعلها وحدة مباركة. وحدة دائمة قوية. وحدة متينة يعتز بها الشعب العربي. وإن شاء الله ستكون هذه الوحدة هي الوحدة الامّ لجميع البلاد العربية والله يوفقنا الى ما فيه خير الشعب العربي...»

إلاّ انه سبحانه وتعالى لم يجب سؤل عبدالناصر وأبى أن يحقق رجاءه لأسباب لاتعرفها إلاّ حكمته ورعايته لهذا الفريق من البشر. فالميثاق كان وثيقة ميتة. ولد ولفظ انفاسه الأخيرة لحظة التوقيع عليه[٢٨].

لم يدم التفاؤل أكثر من شهر واحدٍ. وما أن بدأ التراشق بالتهم، وغدا الميثاق أثراً من آثار الماضي السحيق حتى اقدمت القاهرة على نشر نصوص محاضر الجلسات المعقودة – على صفحات جريدة الاهرام كما جرت تلاوتها بصورة تهكمية ساخرة من اذاعة صوت العرب ووزعت بآلاف النشرات. وكان القصد من التشهير: اظهار قصور البعثيين الذهني مقابل ذكاء عبدالناصر ووعيه ونضوجه السياسي واظهار محدودية عقول قادة البعث بشكل يرثى له. وليت المقام يتسع لأكثره. لكني سأقدم نموذجاً وسيكون حول مفاهيم الحريات والديمقراطية والاشتراكية:

عبدالناصر: حزب البعث طول الخمسة عشرة سنة اللي فاتت أو عمره (طول عمره) لم يعرّف الحريّة تعريفاً واضحاً. قريت (قرأت) كل حاجة انتو كاتبينها في الكتب. دورتُ (فتشتُ) على تعريف الحرية بحيث أن حَد (واحد) يأخذ عليكو هذا التعريف

= ابحاث ومقالات وتعليقات عديدة حول ما كتب عنه. وأشير بالأخص الى تعليق الصحافي جاي والز Juy Walz في عدد ١٨ نيسان من نيويورك تايمس.

(٢٨) في ٢٨ أيار ١٩٦٣ كتب هيكل في الاهرام مقالاً افتتاحياً جاء فيه «ان الميثاق ليس وحدة، ولا مشروع وحدة. بل هو خطة عمل نحو الوحدة». إلاّ أن الميثاق كما يبدو رفع من هيبة ومكانة عبدالناصر. ومن نتائجه إسراع الأردن والعربية السعودية الى تطبيع علاقاتها مع القاهرة. ففي الأردن مثلاً أطلق الملك حسين ٥٧ ناصرياً وبعثياً محكوماً. وفي العربية السعودية أمر الملك فيصل ابن سعود (وكان رئيس وزراء إذذاك) بتحرير وتعويض اصحابهم مالياً لقاء ذلك (انظر التايم. نيسان ١٩٦٣).

ويمسكه مالقيتوش ابداً. مافيش في كل الكتب الليّ (التي) كتبها عفلق أو الليّ كتبها الآخرين من البعث. مفيش حاجة أبداً. فما هو تعريفكم بالنسبة للحرية؟ هل الحرية (حرية) أحزاب؟ هل حتفضل (ستكون) أحزاب؟ أو يعني مفيش أحزاب؟ قلتم وقت الانفصال إن الوحدة سنة ١٩٥٨ هي وحدة دكتاتورية وأنتم عايزين (تريدون) وحدة ديمقراطية. سمعنا منكم آراء مختلفة غير واضحة.

البيطار: بتبقى فيه أحزاب اللي لها اتجاه واحد...

عفلق: حزب واحد – لكنه عاد يصحح: يبقى فيه تأليف جبهة.

[مقتبس من جلسة أخرى]

عفلق متسائلاً: إشتراكية بدون ديمقراطية؟

عبدالناصر: بتبقى اشتراكية مزيفة. شعار فقط... الليّ كانوا يسموّها "الاشتراكية الوطنية" في المانيا ايام هتلر. ايه هي الديمقراطية؟ هل عندكم تعريف لها؟

البيطار: الحكم بالشعب يا سيادة الرئيس هذا الليّ بدنا نصل اليه.

عبدالناصر: من هو الشعب في تعريفك؟ مين هو الشعب يا أستاذ ميشيل؟

عفلق: الشعب العامل بالطبع.

عبدالناصر: ومين؟

عفلق: الشعب العامل، يعني الفلاح والعامل موجود في الحزب.

عبدالناصر: بتقول هوده (هوذا) الشعب؟ وبكرة تعمل انتخابات وتقول هوده حكم الشعب. لكن حكم الشعب هو حكم ثلاثين، أربعين مثلاً بيقصدوا يتكلموا في أوضة (غرفة) وتقول هوده حكم الشعب؟ أبداً. غلط اذا أفتكرتو كده (كذا) لأنّ ذلك معناه عزل الشعب كلّه واحتكار العمل السياسي للقلّة. انه المناداة بالديمقراطية الغربية البرجوازية.

شبلي العيسمي: منذ نشأة الحزب سنة ١٩٤٣. وهي غير ما عليه الآن وفيها تطوير.

عبدالناصر: أنا ما حسستش (لم أشعر) بهذا التطوير. امتى حصل؟ ازاي (كيف) هل أعلن هذا الكلام مثلاً بوضوح وصراحة في أي جريدة؟ وفي أي منشور؟ أنتم غيرتوا مفهومكم للديمقراطية؟ لم يعلن. بدليل اني ما أعرفوش... جايب معايا دستور حزب البعث. انه بيؤمن بالديمقراطية البرجوازية حسبما كنتم تنادوا وحسب الشعارات والكتابات. النهارده (هذا النهار) بتقول ان ده (هذا) تغير. طيّب. والناس؟

والقواعد الشعبية بتاعتك؟ (الخاصة بك) وقواعد النضال؟ وجذور النضال. مجموع الشعب هل عرفت هذا الكلام؟ أبداً لا. بدليل أنا حتى بأشوف تصميماتكم وماشفتوش. ماشفتش هذا التعبير. ماشفتش هذا الايضاح.

شبلي العيسمي: امّا الآن وقد أصبحت القوى الثورية والمنظمات الثورية قادرة. وفعلاً وصلت الى الحكم فيمكن حينئذ أن يبحث موضوع الحريات. هل تعطى لجميع الفئات؟ للقوى الرجعية والرأسمالية؟ الاتجاه الآن هو أن لاتعطى الحريات لأعداء المنظمات الثورية الاشتراكية...[٢٩]

★★★

الهدنة بين حكومة البعث والثورة الكردية دامت حتى العاشر من حزيران ١٩٦٣. بالتالي رفضت مبدأ منح الكرد الحكم الذاتي الذي وعدت به. القى البعثيون في روع المندوبين الكرد بأنهم يخشون اي خطوة سياسيّة كهذه الخطوة دون موافقه عبدالناصر. واقنعوهم كما اسلفنا بمرافقتهم في ٢٢ من شباط الى القاهرة ضمن وفد التهنئة لعرض القضية عليه. لاأدري كيف وافقوا على هذا. فعبدالناصر ليس من السذاجة في شيء لإعطاء حكم سياسي مستقبلي هام ليس من صلاحياته ولايتفق مع رأي وفد البعث العراقي. على انه نصح الطرفين باجتناب الحرب والحرص على وحدة العراق وأعلن شجبه لأيّ دعوة انفصالية. إلاّ أن ذلك لم يمنع الثوار الكرد من تقديمهم مذكرة لمندوبي العراق في اجتماعات الاتحاد في القاهرة بتاريخ السادس من نيسان أجملوا فيها مطالبهم وهي بعنوان «مذكرة الوفد الكردي الى السادة رئيس وأعضاء

(٢٩) لم يقع في حينه اعتراض وجيه أو جدي من الجهات البعثية حول الأمانة في نقل المحاضر. لكن قادة البعث صدموا وكان وقع ذلك شديداً لاسيما بسبب الطريقة التهكمية التي كانت اجوبة عفلق تتلى فيها. واظهار اللازمة التي كانت تتخلل كلامه (يعني). إلاّ أن طالب شبيب يذكر لسائله د. علي كريم: (المرجع السالف الص ٢١٩–٢٢٠) وكان من أعضاء الوفد العراقي. إن أموراً كثيراً تغيرت في المحاضر... وإنها كانت تحتاج الى شيء من الدقة. وأرى فيها شيئاً من التغيير... عندما ذهبت انا وحازم (جواد) مع عبدالسلام عارف لزيارة القاهرة سافرنا رفقة عبدالناصر في رحلة الى الاسكندرية بالقطار. قال لي ناصر امام الوفدين: انت ساهمت بمفاوضات الوحدة كمفاوض رئيسي فما رأيك بالمحاضر المطبوعة؟ فعلاً لم تكن هناك فروق كثيرة أو جوهرية بين أكثر مضامين الجلسات وما نشر عنها. لكن ما جلب انتباهي وشكي ليس مضمون ما نشر وإنما اللغة التي لم تعكس الروحية التي تحدثنا بها هناك اخطاء وتداخلات متعمدة جرى تغييرها أو إدخالها داخل المحاضر رغم قلتها وتناثرها لكن بعضها لم يخل من أهمية. مثلاً في احدى الجلسات وكان الحديث يدور حول الاعلام والصحافة قال علي صالح السعدي نحن لانشتري ولانرغب أن نشتري أي صحف في لبنان أو غير لبنان. فردّ عبدالناصر: لا. نحن نشتري الصحف. فهذه المحادثة قلبت في المحاضر المنشورة رأسا على عقب وجعل السعدي يقول نحن نشتري الصحف وعبدالناصر هو الرافض لهذا العمل.

الوفد العراقي في مفاوضات القاهرة». أوردت الفقرة الثالث من المذكرة هذا:

"تفادياً لأيّ إشكال محتمل في المستقبل ورفعاً لأي تعارض بين المقررات التي قد تتمخض بها اجتماعات القاهرة وبين الحقوق القومية للشعب الكردي في العراق نلخص فيما يلي رأيه المنبثق عن طبيعة وجوده ومركزه في العراق وعبر كفاحه وتجاربه خلال التاريخ في كيفية تنظيم العلائق بينه وبين الشعب العربي في الأحوال المختلفة:

أولاً: فيما إذا بقي العراق بدون تغيير في كيانه. يقتصر مطلب الشعب الكردي في العراق على تنفيذ البيان الصادر من الجمهورية العراقية بشأن الحقوق القومية للشعب الكردي على أساس اللامركزية. ثانياً: إذا انضم العراق الى اتحاد فدرالي. يجب منح الكرد في العراق حكماً ذاتياً بمفهومه المعروف غير المتأول ولا المضيق عليه. ثالثاً: فيما اذا اندمج العراق في وحدة كاملة مع دول عربية أخرى. يكون الشعب الكردي في العراق اقليماً مرتبطاً بالدولة الموحدة. وعلى نحو يحقق الابقاء على العلاقات الوثيقة بين الشعبين الشقيقين نحو مستقبل أفضل"[٣٠].

وكانت حكومة البعث قد نشرت في ١٩ آذار بياناً اعترفت فيه للشعب الكردي في العراق بالحقوق القومية وتمتعه بها على أساس اللامركزية هذه البادرة لاقت في حينه ترحيباً متفاوتاً بسبب غموضها أولاً. ولأنها لم تلبث أن بدت وعداً أجوف. وأيدت الاحداث أن الغموض كان متقصداً هدفه كسب الوقت ليس غير. وإن وزير الدفاع (صالح عماش) كان يخطط للقضاء التام على الثورة. وكما رأينا - كانت واحدة من أولى طلباته عند لقائه الزعيم المصري في ٢٥ شباط تزويد الجيش الالعراقي بحاجته الى السلاح والعتاد[٣١].

(٣٠) الفكيكي: المرجع السالف، ص ٢٨٩. يذكر أن «قيادة الحزب شرعت تهيء الاجواء في الأوساط الحزبية والعسكرية ومع الأكراد لقبول فكرة الوحدة. وفي هذا المجال أكد حازم جواد أمين سرّ القيادة القطرية لرئيس الوفد جلال الطالباني معنا. بأن الحزب يؤمن بحق تقرير المصير للشعب الكردي وبأن قيادة الحزب تؤيد الحكم الذاتي للأكراد وتمتعهم بكامل حقوقهم القومية. ومن هذا المنطلق ومن خلال ضمانات عبدالناصر سوف لاتشكل الوحدة الثلاثية أي تهديد لمصالح الأكراد». أقول وبعد مجهود متواصل في بحث مضنٍ عن أية وثيقة بعثية تؤيد إدعاء الفكيكي بتهيئة فكرية بين البعثيين لقبول فكرة الحكم الذاتي. لم يجد ما يؤيد قوله هذا.

(٣١) لم يقم رجال البعث الحاكمين. بل بين كلّ من حكم في العراق شخصية كصالح مهدي عماش. إنه مثال لايضارع للمثقف الساديّ الذي يستخدم ثقافته للتغطية على أبشع ما يقدم عليه من الجرائم ويسترخص كلّ قاعدة أخلاقية وفي مقدمتها الصدق والأمانة ليستخدمها بعبقرية مذهلة للظهور بمظهر الانسان المستقيم المليء بالنوازع الانسانية تميز بقسوة لا نظير لها وبمقدرة على التنصل منها لاتضارع حين =

ولم يمنح الحكم الذاتي للكرد وأصر البعثيون على مشروع اللامركزية وجاء حزيران وليس في الجوّ ما ينبيء بأنّ البعث قد يستجيب للمطالب الكردية ورأى البارزاني أن لايستقل لا هو ولا

= تهفو نفسه الى ارتكابها بنفسه. رجل مجرّد عن السلوك البشري ومكارم الاخلاق لايهتم مطلقاً بالمحافظة على مباديء سياسية طالما كان ذلك يخدم اغراضه. لم يتفق اني عرفته. لكني سمعت الصديق المأسوف عليه جلال جعفر الأوقاتي آمر القوة الجوية العراقية في عهد عبدالكريم قاسم - يقول ضجراً ساخراً تعقيباً على تعيين صالح مهدي عماش الرائد الركن مدير ادارة في القوة الجوية: «وضعه قاسم للتجسس عليّ وإحصاء تنقلاتي». اعنى انه لم يتعفف عن التجسس لقاسم والتآمر عليه في عين الوقت. استطاع هذا الرجل اخفاء جرائمه الشنعاء التي ارتكبها بحق الشيوعيين الى آخر يوم من حياته ولطالما سمعت من شيوعيين بارزين مديحاً به وثناء عليه ايام كان سفيراً في أوروبا فقد سعى الى أن يكون له اصدقاء مخلصين له منهم يدافعون عن سمعته بعد وفاته. استطاع (عماش) حيناً من الزمن اخفاء عمليات القتل التي ارتكبها بنفسه أو أمر بها في أيام الانقلاب الأولى وعندما علموا بها واستنكروها خافوا الفضيحة واضطروا الى التستر عليها. مستغلاً ضعف زملائه الخلقي واستغلاله اعمالهم والتستر عليها بالمقابل. كل ذلك كان يختفي تحت رداء الشاعر الأديب الذي انتحله ومعالجته النظم السخيف له ومصاحبته الأدباء والكتاب. الى أن فضحه رفاقه بعد موته وأوردوا بعض الحكايات التي تبعث الرعدة الى البدن ومن ذلك ما تحدث به طالب شبيب عنه قبل موته مؤكداً روايات الفكيكي التي وردت باختصار (وانظر كذلك الى اسماعيل العارف: اسرار ١٤ تموز). مما قال شبيب: «إن حوادث الاعدام الفوضوية وبشكل خاص مجزرة معسكر الرشيد بضباط لم تكن سمعاتهم سيئة، فقد تمت بأمر من صالح مهدي عماش وبحضور علي صالح السعدي. اذ جيء بهؤلاء في الليلة الثانية للثورة وجرى ضربهم وإهانتهم وإدانتهم باعمال مختلفة ثم قتلهم ولم نكن اذذاك في حاجةٍ الى اجتماع لنقرر أو نصادق على تلك الاحكام التي نفذت. لكننا عندما سمعنا بما حصل لم نعلق أو نعترض. واكتفيت شخصياً بعدم التصويت وأسدل الستار على هذه القضية بعد أن أصدرنا في اليوم التالي أحكاماً رسمية باعدام أولئك القتلى وغيرهم وبررنا قرارنا استناداً الى مسؤولياتهم في جوانب من القمع خلال عهد قاسم فصادقنا على ما أقدم عليه عماش وسكت عنه السعدي...» وقال في موضع آخر «لم تكن أجهزة التعذيب قادرة على الاستمرار لولا الخلافات التي بدأت تتفاقم وتحطم وحدة الموقف داخل قيادة الحزب وتجعلها غير قادرة على ردع تلك العناصر الدموية التي اعتادت أن تحصل على دعم وإسناد بعض الضباط وأهمهم من حيث المركز والفعالية صالح مهدي عماش وطاهر يحيى التكريتي ورشيد مصلح التكريتي وبدرجة أقل أحمد حسن التكريتي وهؤلاء وغيرهم جهزوا مراكز التعذيب الرئيسية في بغداد بالمال والسلاح وكان صالح مهدي عماش وزير الدفاع يستغل الفرصة في كل مرة نسافر فيها الى خارج البلاد فيقوم باعدام مجموعة جديدة من الشيوعيين ولم يسلم منه حتى النادمون والمعترفون والمتعاونون. ويقوم بعد ذلك باحراج مجلس الثورة للمصادقة على أعماله» الفكيكي ص ٢٩٨ المرجع السالف. «امام رفض السوفييت تجهيز العراق بأي سلاح أو عتادٍ أو قطع غيار. لجأ العسكريون الى سياسة الأرض المحروقة. واستنجدوا بمصر لتلبية حاجات الجيشٍ وأعلمني الدكتور فؤاد شاكر مصطفى بعد سنوات... ان اجتماعات عديدة كان يعقدها طاهر يحيى وقادة عسكريون كبار مع ضباط اتراك وايرانيين في كركوك للتنسيق العسكري ضد الأكراد وان طائرات ايرانية كانت تنقل العتاد الثقيل وغيره الى قاعدة كركوك الجوّية. وانه كان يخاف من اعلام الحزب بذلك. وعند اشتداد المعارك ضد الشعب الكردي التي بدأت في حزيران (يونيو) وفي إحدى جلسات المجلس الوطني لقيادة الثورة عرض صالح مهدي عماش إقتراحاً امريكياً قدمه اليه الملحق العسكري (الامريكي) بتجهيز العراق بما يحتاجه من سلاح وعتاد لقاء السماح لخبرائهم بالإطلاع على الدبابات الروسية T54 وطائرات الميگ ٢١ ودراسة خصائصها الفنية...»

الحزب الذي يترأسه بقرار حاسمٍ كما وجد حاجة تدعو الى ما يشبه مؤتمراً شعبياً موسعاً يعبر تعبيراً حقيقياً عن الرأي العام الكردي على النطاق القومي. وكان أن انعقد هذا المؤتمر في الثامن عشر من آذار ودام أربعة ايام وحضره ألفان من المندوبين. مسلمين ومسيحيين ويزيديين. واختاروا أربعة عشر مندوباً للمفاوضة مع الحكومة حول المطالب الكردية وعهد البارزاني الى الطالباني برئاسة الوفد[٣٢].

لست أريد الدخول في تفاصيل ما وقع. لكن عليّ الاقرار هنا بأن الموفدين الكرد انزلوا ميثاق ١٧ نيسان في القاهرة منزلة الحكم البات بالقضاء على آمال الكرد وأخذوه مأخذاً جدياً. وتوهموا أن عبدالناصر بات فعلاً الزعيم الفعلي لهذا الاتحاد الورقي[٣٣]. لكن سرعان ماتبينوا الحقيقة وعادوا الى بغداد وقد انكشفت لهم خدعة البعث. وأطلقوا آخر أملٍ في الحصول على ما املوه في أوائل حزيران لاسيما بعد أن تقدم البارزاني بآخر مطالب الثورة. وشعر الاعضاء انهم مراقبون بل تحت الاقامة الجبرية في الفندق وبعثوا برسالة الى الطالباني وكان في بيروت يحذرونه من العودة. وفي الثاني من حزيران دخل رجال الأمن فندق سميراميس حيث هم نازلون وكانت امام الفندق سيارتا شرطة. واحتج الوفد لأحمد حسن البكر فسحب قسم من رجال الأمن، وخفّت الرقابة.

كان الوفد على علم بأن الحكومة بدأت ترسل التعزيزات الى الجبهة وحصلت الاستخبارات العسكرية الكردية على نسخة منشور مطبوع في مطبعة الحكومة يعد بمائة ألف دينار جائزة لمن يقبض على البارزاني حيّاً أو ميتاً. هذا البيان بعينه وزع بعد العاشر من حزيران.

في ٧ من حزيران (الجمعة) علم الوفد الكردي إن ضباطاً سوريين قاموا بزيارة القاعدتين الجويتين في كلّ من كركوك والحبانية. وإن عفلق قام بزيارة بعد ذلك واستنتج الكرد بأنه لم يجهل ما كان يجري بل استشير. وفي الخامس والسادس من حزيران جرى استعراض عسكري في كلّ من كركوك وسليمانية. وفي السادس منه فتحت المدفعية نارها على مواقع الثوار في

(٣٢) البارزاني، مسعود: «البارزاني والحركة التحريرية الكردية» ج٣ ص٨٣ وما بعدها والوثائق الملحقة. [هناك تفاصيل ضافية].

(٣٣) دانا شمدت (المرجع السالف. من ترجمتنا ص٣٨٢) «لم ينطق عبدالناصر بشيء كأعوانه. إلا انهم لم يترددوا في أن يظهروا للممثلين الكرد كل حفاوة وقدراً كبيراً من العطف وقالوا انهم يرون مطالب الكرد معقولة. وانهم يعتبرون أية محاولة لحلّ القضية بالقوة محض حماقة. وهم لايوافقون على الانفصال ولايعتقدون أن الكرد يريدون انفصالاً». نستطيع أن نقول: لم يظهر شيء في الاعلام الناصري عن الوفادة. وفشل بعثيو العراق في ايقاع عبدالناصر في شركهم ولم يستطيعوا تبرير استينافهم القتال في العاشر من حزيران.

جبل (أزمر) القريب من السليمانية. وزحف فوج مشاة من اللواء العشرين المرابط نحو الجبل في محاولة للاستيلاء على مواقع هامة بهجوم مباغت فردّ على أعقابه متكبداً خسائر.

وفي بغداد طلب الوفد الكردي مواجهة أحمد حسن البكر رئيس الوزراء الذي أسرع باستقبالهم وطمأنتهم وسلمهم مشروعاً معدّلاً للامركزية لايغير فيه شيئاً جوهرياً. وأصرّ الحكوميون الموجودون مع البكر على أن تحمل المقترحات الجديدة للبارزاني. فأجاب صالح اليوسفي: لا ضرورة تستدعي ذلك لأن الوفد مخول حق رفض المشروع القديم وان الحكومة لم تجر تعديلاً ذا قيمة.

وانتحى بعض الحكوميين بالكرد جانباً ورجوهم التحلي بالصبر «لانَّ هناك شيئاً أفضل سيجري تقديمه» واتفق على لقاء آخر في الخامسة من مساء الثامن من حزيران على ان صالح اليوسفي رئيس الوفد بالوكالة. طلب الاذن بالسفر جواً للمشاورة مع البارزاني. وفي صباح الأحد التاسع من حزيران كان أعضاء الوفد قد تهيأوا للسفر وجاء في وداعهم الوزيران الشيخ بابا علي الشيخ محمود وفؤاد عارف. والعقيد آمر الانضباط العسكري (سعيد صليبي) وفي الساعة العاشرة اقبل ضابط ليعلم العقيد صليبي «بأن السيارات جاهزة لتقل افراد الوفد الى المطار». إلاّ ان السيارات اخذتهم الى معسكر الرشيد ليودعوا في السجن رقم (١) بدلاً من المطار. وانتشر رجال الحرس القومي في أحياء بغداد وضواحيها ليلقوا القبض على حوالي سبعمائة من انصار الحزب واعضائه. وبدأت الجهات العسكرية بفصل الجنود الكرد عن وحداتهم وضمهم الى وحدات أخرى غير مشاركة في القتال. وتم الاستغناء عن الموظفين الكرد الذين يشتبه في اتجاهاتهم القومية وجرى نقل بعضهم الى الجنوب.

ثم عقد علي صالح السعدي الرجل القوي في الدولة وهو كردي أمّا واباً، مؤتمراً صحفياً كان في الواقع بمثابة اعلان حرب. ثم اتبعه صالح مهدي عماش باجابة صحفية عما يتوقع من الحركات التي يقوم بها الجيش فقال «انها ليست حركات في الواقع، ويمكنكم أن تعدوها بمثابة نزهة».

كان ثم فوضى واضطراب : ففي الوقت الذي راح (علي حيدر سليمان) وهو كردي ووزير سابق يقوم بدور الوسيط ويسلم المقترحات الجديدة. كان الجيش قد أكمل تطويق مدينتي كركوك وأربيل وفرض منع التجوال والقى القبض على حوالي ثلاثة آلاف من أهالي سليمانية. وباشر حملات تهجير جماعية في كركوك وأطلق الجرارات والبولدوزرات تدك البيوت الكردية في الضواحي وتسويها بالأرض.

ثم أصدرت الحكومة بياناً مطوّلاً موقوتاً ببدء الحركات العسكرية عنوانه «بيان الحكومة العراقية بقيام الحركات العسكرية» جاء فيه تعداد «الانجازات العظيمة التي حققها انقلاب شباط وتعنت الأكراد وتقديمهم مطالب تعجيزية...» ثم ختمه بالفقرة التالية:

«وبالنظر لما تقدم وحرصاً منّا على حماية المواطنين واعادة الأمن والاستقرار الى ربوع الوطن قررنا المباشرة بتطهير المناطق الشمالية من فلول البارزانيين واتباعهم اعتباراً من هذا اليوم. كما قررنا اعتبار كافة المناطق الشمالية منطقة حركات فعلية. ان المجلس الوطني لقيادة الثورة ينذر هذه الزمرة الخائنة الخارجة عن ارادة الشعب ووحدته الوطنيّة أن تلقي السلاح خلال ٢٤ ساعة تبتديء من اذاعة هذا الانذار وتعلن تأييدها للحكم الوطني الشعبي الديمقراطي وإلاّ فان المجلس يحمل هذه الزمرة كافة النتائج على مواقفها الخيانية. عاشت ثورة رمضان المباركة والموت للخونة الانفصاليين أعداء الشعب.»

التوقيع: المجلس الوطني لقيادة الثورة

إلاّ انها لم تكن نزهة كما تكهن الفريق عماش. رغم الهجوم الوحشي الكاسح الذي خططه ووقعت معارك ضارية كبدت الجيش خسائر فادحة لا عهد له بمثلها من قبل.

وبدا وكان اليأس والقنوط المستولي على البعث حرك فيه الروح الهمجية التي عرفتها ايام شباط الأولى. فاستدار بالجيش نحو المواطنين الكرد العزل يحقق به ما عجز عن تحقيقه في ميادين القتال. واعتمد في مرحلة تالية احراق القرى بقصفها بالاسلحة الحارقة. وهجر آلافاً من السكان واباد المزروعات والماشية قدر ما وسعه.

وتواصلت الحرب كراً وفراً دون أن يحقق البعث نصراً واحداً في الجبهة وبدأ الاعياء ينخر فيه وكان سبباً من أسباب سقوط النظام، فضلاً عن بوادر التمرد والغضب الشديد لاعطاء الحرس القومي سلطات تخصّ الجيش. وبلغ الأمر حدّ ثورة الضباط البعثيين على الفوضى والتدخل والاعمال الإجرامية التي يأتيها هذا التشكيل العسكري الحزبي. فقد انتشروا على هواهم ومن دون سببٍ يتعرضون للناس ويعتقلون بالجملة ويعذّبون وقد اعتبره (السعدي) الى حين جيشه اي جيش البعث الخاص وبسط عليه حمايته وخوله العمل من فوق رأس الحكومة والقوات النظامية المسلحة. وبسبب من هذا وغيره بدا الشقاق تاماً في نهاية صيف ١٩٦٣ بين رئيس الحكومة (احمد حسن التكريتي) وبين نائبه السعدي[٣٤].

(٣٤) رغم أن استئناف القتال في كردستان ارغم قادة البعث على نسيان خلافاتهم الحادة داخل مجلس =

بعد أن أعلن عبدالناصر انسحاب مصر رسمياً من الاتحاد الذي نصّ عليه الميثاق بخطبةٍ قاهرية في ٢٢ يوليو ١٩٦٣. شرع البعثان السوري والعراقي في محادثات اتحادٍ جدية وأعلنت خطة الاتحاد في ٢٨ من ايلول على أساس تمامها بمراحل وخطوات. أولاها صدور ميثاق «الوحدة العسكرية» في ٨ من تشرين الأول، وتشكل بناء على ذلك ما عرف بمجلس الدفاع الأعلى. وعين (عماش) القائد العام للجيشين المتحدين وفي عين ذلك اليوم وكإجراء يثبت بأن ميثاق دمج العسكرين حقيقة وليس مجرد توقيع. دخلت العراق قوة من الجيش السوري بحجم لواء مجحفل للمعاونة في حرب الكرد.

وكان عبدالناصر في ذلك الحين قد ركز هجومه الاعلامي وخطبه على البعث السوري يأمل كسب البعث العراقي الى صفه إلاّ انه فقد امله بعد قيام الوحدة السورية – العراقية وتوجه بكل قواته الاعلامية لإسقاط البعث العراقي وتخلى عن السوريين إلاّ أن الصراع الداخلي هو الذي انهاهم في العراق كما سنرى.

كتب الكثير عن تفاصيل سقوط البعث في ١٩٦٣. ولن آتي بشيء جديد أو مثير وأنا أتطرق اليه الآن لضرورة السياق إلاّ اني سأعمد الى الاختصار دون ان أحرم القاريء بعض مشاهده الدرامية الفكاهية.

نقول: تقرّر في المؤتمر القومي السادس المنعقد في دمشق خلال ٥ حتى ٢٢ من تشرين الأول. بتطبيق النظم الاشتراكية في القطرين، وبحسب دستور البعث. فنشأت عن ذلك خلافات بين قيادة العراق حول تطبيقها وحول الموقف من الرأسمالية والغرب. وعاد السعدي الى بغداد ليصرح بالحاجة الى تأميم الشركات واقامة نظام اشتراكي ماركسي. إلاّ أن البكر وبعض الضباط من جانبهم كانوا قد قدموا تأكيدات لرجال المال والاعمال بأنّ مصالحهم لن تمسّ في حين تمادى السعدي في التاكيد على اتباع النهج الاشتراكي الماركسي. وحاول المعتدلون الوقوف ضدّ المحاولة خشية إغضاب علماء الدين والطبقة الوسطى في حين كان

= قيادتهم وخارجه إلاّ أن الصراع تفجرت براكينه في مؤتمر للقيادة القطرية ببغداد في ١٣ من ايلول. حين بدأ علي صالح السعدي المسيطر فعلاً عندما انتخب هو وثلاثة من جماعته (حمدي عبدالمجيد ومحسن الشيخ راضي وهاني الفكيكي) أعضاء للقيادة القطرية. وهُزم (طالب شبيب) إلاّ أن (حازم جواد) احتفظ بمقعده فيها إذ صوت له ٢٦ مندوباً من أصل ٤٥. وتبودلت اتهامات استخدمت فيها كلمات ذات مدلول خطير «يمين ويسار». حين أطلق السعدي على منافسيه الكلمة الأولى معلنا في الوقت عينه بأنه ينزع الى الماركسية. وقبلها قال في تصريح له «نحن لسنا ماركسيين. اننا فحسب نعمل للديمقراطية القومية! [صحيفة الجريدة البيروتية في ٢٠ شباط] «الآن تغدو تلك الديمقراطية مثالية برجوازية!» وكالعادة انبرى عفلق مؤنباً منتقداً بقوله: «بدأت نغمة جديدة الآن تسمع في الحزب: نغمة اليمين ونغمة اليسار!».

السعدي وزملاؤه يروجون لخطتهم الرامية الى «تحطيم الطبقة البرجوازية» كانت فوضى فكرية لم يشهد العراق لها مثيلاً نابعة عن الحكومة وحدها. وقررت جماعة (البكر) ومنهم حازم جواد وطالب شبيب العمل فدعوا في الحادي عشر من تشرين الثاني الى عقد اجتماع استثنائي للقيادة القطرية. وفيه تمت ازاحة القيادة القديمة (علي السعدي ورفاقه) ونصب قيادة جديدة من خمسة عسكريين وأربعة مدنيين. تطبيقاً في الظاهر للتعديل الذي اجراه المؤتمر القومي السادس الذي قضى بانتخاب ثمانية أعضاء جدد[٣٥].

ما كاد المجتمعون يتهيأون للاقتراع. إلاّ واقتحم القاعة عشرات الضباط والجنود المدججين بالسلاح، يتقدمهم المقدم محمد المهداوي شاهراً رشاشته[٣٦]. وهم يهتفون بشعارات الحزب. تم الانقلاب ووضع السعدي مع نصرائه الاربعة في طائرة عسكرية عراقية أقلتهم الى اسپانيا.

(٣٥) يذكر الفكيكي انتخاب ٥ أعضاء فقط لملء الشواغر. المرجع السالف ص٣٢٥ في حين يؤيد بطاطو (المرجع السالف) انتخاب ثمانية. ص ١٠٢٢.

(٣٦) الفكيكي ص ٣٤٦: «فيما كنا نسجل اسماء المرشحين اندفع الى قاعة الاجتماع عشرات الضباط... كان مشهداً مضحكاً أن أرى العميد (رشيد مصلح) ملوّحاً برشاشته ومردداً الشعار «امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». والى جانب المهداوي ورشيد مصلح الذي أعدمه البعثيون في أوائل السبعينات بتهمة التجسس لحساب CIA. كان هناك المقدمون على عريم وفهد جواد الميره وصلاح الطبقچلي ومحي محمود وزكريا السامرائي وحميد السراج ومنعم حميد (قاتل عبدالكريم قاسم) والطيار حسين حياوي وجميل صبري وحميد التكريتي (مرافق البكر الأقدم) والعقيد سعيد صليبي والرائد عبدالله مجيد والنقيب عزيز شهاب وآخرون كثيرون بلغوا ٤٠ ضابطاً. انتشر الجنود في ارجاء القاعة على اتم الاستعداد الميداني. ثم تقدم المهداوي الى وسط القاعة قائلاً: «جئت من دمشق واتفقت مع عفلق على ضرورة اقتلاع بؤر الفساد والانحراف وما يجري هنا يجري مثيله في دمشق». وقبل أن يسترسل قاطعته باعتباري رئيساً للمؤتمر طالبا اياه وبقية الضباط والجنود مغادرة القاعة فوراً فما يفعلونه هو مؤامرة على الحزب. لكن المقدم حميد التكريتي طلب مني مغادرة منصة الرئاسة وصوب رشاشته نحوي مهدداً باطلاق النار وبحماسة تلك الايام وتقاليدها الدموية رددت على التحدي وطلبت اليه المباشرة باطلاق النار ان كان رجلاً حقّاً. فاحت في اجواء القاعة للحظات رائحةُ الموت وكنت أرى الحقد الأسود في عيون بعض الضباط الحزبيين. بحركة سريعة ومتوترة قفز عليّ صالح السعدي باتجاه المنصة وسحبني صارخاً: «انه انقلاب عسكري، أنزل» [طالب شبيب المرجع السالف الص ٣٢٨–٣٢٩] رواية تزيد من الموقف هزلاً وفكاهة وهي تخالف رواية الفكيكي قال: بعد توجيه حميد التكريتي رشاشته الى الفكيكي وقال له انزل. ولم أكن أتصور ان هاني يمتلك القدرة الرياضية الكافية ليقفز بحركة اكروباتيكية واحدة فيدور دورة كاملة في الهواء. ويأتي على رجليه واقفاً. كما انتقل علي صالح السعدي من مكانه ليجلس الى جانب (البكر) ويحتمي به» ويستطرد شبيب قائلاً: بعد إعلان اسماء القيادة الجديدة انتقل الفائزون الى غرفة صغيرة مجاورة لعلها غرفة البكر الذي ترأس الاجتماع باعتباره أكبر الاعضاء سنا: وقال (وكان طالب بينهم) بدلاً من ابعاد عشرة نقوم بابعاد ثمانية. وبدلاً من ثمانية ستة وكلما قل عدد المبعدين يكون أفضل لنا. وعندها تقرر ابعاد السعدي والشيخ راضي وحمدي عبدالمجيد وهاني الفكيكي، وأبو طالب الهاشمي. وتقرر تشكيل حكومة جديدة برئاسة البكر. وعدم اذاعة تفاصيل ما حصل في قاعة المؤتمر باعتباره شأناً من شؤون الدولة وأسرارها. على أن يتمّ بعد ستة أشهر اجراء انتخابات حزبية جديدة في جميع انحاء القطر.

الفتنة في الحزب. لكن ترحيل الاعضاء الخمسة القياديين الى (مدريد) قدح الشرارة. في صباح ١٣ منه خرج الحرس القومي وانصار الحزب والموالين يتدفقون كالسيل الى الشوارع بقيادة فرع بغداد ووضعوا الحواجز والمتاريس واقتحموا مراكز الشرطة واحتلوا دائرة البرق والبريد وبدالة التلفونات المركزية ودار الاذاعة. وحلّق منذر الونداوي قائد الحرس القومي – بطائرته هو وطيار بعثي آخر فقصفا قاعدة معسكر الرشيد الجوية ودمرا خمس طائرات ميك على الارض وأطلق صاروخاً باتجاه القصر الجمهوري على سبيل الانذار. وفي حدود الحادية عشرة صباحاً قريء من دار الاذاعة بيان لوزير الدفاع (عماش) حول «قيام الرفيق البعثي بقتل رفيقه البعثي الأمر الذي لايفيد منه غير أعداء الحزب واعداء الشعب.» مناشداً الحشود بالعودة الى العلاقة الرفاقية الصحيحة والى المحبة والأخوة.

في هذه الساعات كان معظم أحياء بغداد ومناطقها في يد الحرس القومي. ورفض (عماش) و(البكر) توجيه الأوامر بتدخل الجيش وطلبت لجنة بغداد التي أخذت بيدها زمام المبادرة السياسية عودة (السعدي) ورفاقه الأربعة إلاّ انها رضيت بالأخير بايداع المسألة الى القيادة القومية. وفي مساء ذلك اليوم وبعد ساعات من نداء عاجل من (البكر) وصل بغداد كلّ من عفلق وأمين الحافظ رئيس الدولة واللواء صلاح جديد وجبران مجدلاني وخالد العلي. والتحق بهم حمود الشوقي أمين سرّ القيادة القطرية السورية وفي ١٤ منه عقدت اجتماعات مع اعضاء القيادة القومية العراقيين. تقرر بموجبها الغاء القيادتين القديمة والجديدة ورضي طالب شبيب وقياديون آخرون ثلاثة أن يتركوا بغداد الى بيروت. وأعلنت القيادة القومية تسلمها «مؤقتاً» صلاحيات القيادة القطرية. وفي عين الوقت بدأت الرابطة الرفاقية بين الضباط والمدنيين البعثيين تنحل تدريجياً. كان وضعاً سياسياً عجيباً. السلطة العليا في البلاد يتقاسمها السوريون واللبنانيون والاردنيون والعراقيون!.

كان الموقف مثار تعليقات الصحف العربية. وصدرت جريدة النهار البيروتية في ١٥ تشرين الثاني وعلى صدر صحيفتها الأولى هذا العنوان الكبير: «عفلق يحكم العراق حكماً مباشراً ويطرد الفئتين المتنازعتين».

وفي الوقت الذي كانت هذه القيادة تحاول احتواء الموقف والقضاء على الفتنة داخل الحزب. وجه ضباط الجيش بموافقة عبدالسلام عارف انذاراً للقيادة القومية الحاكمة بوجوب حَلّ الحرس القومي، فرفضت فانصرف الضباط الى وحداتهم ووضعوها في الانذار ثم انزلوها الى شوارع بغداد وكانوا قلقين من عودة السعدي ووصول تعزيزات الى الحرس القومي. لكن وبعد أن وثق

عبدالسلام وجماعته من مساندة الضباط البعثيين المعتدلين الذين كانوا يرون وجوب حلّ الحرس القومي (من أبرزهم العميد الركن حردان عبدالغفار التكريتي آمر القوة الجوية واللواء طاهر يحيى رئيس اركان الجيش. والعميد رشيد مصلح الحاكم العسكري العام). بدأ الانقلاب قبيل فجر الثامن عشر من تشرين الثاني بتحرك بضعة أفواج من معسكر الرشيد تعززها الدبابات والمدفعية وبحماية غطاء جوي. وزحف (عبدالرحمن) شقيق عبدالسلام بالفرقة الخامسة من بعقوبة. كما استدعي فوج مجحفل من أربيل. كل هذه القوات فتحت نارها على الحرس القومي الذي قاتل قتال جنون اليائس المعاند من وراء المتاريس في عرض الشوارع وأرصفته ووجهت المدفعية نارها في الشوارع الضيقة. وأطلقت نيران الرشاشات على النوافذ العليا من جانبي الشارع ومن كل زاوية يحتمل تحصن افراد الحرس فيها.

ما أن انصرم القسم الأكبر من النهار حتى نظفت الشوارع وأصبح الحرس القومي أثراً بعد عين. وفي الموصل وهي المدينة الوحيدة التي حاول الحرس فيها وقفة تم القضاء عليهم بساعة من الزمن وأودع المستسلمون منهم المعتقلات.

قضي على حكم البعث بأسرع من إقامته ودوىّ صوت المذيع ببيان «الثورة الجديدة» الأول:

«باسم الله الرحمن الرحيم

ايها الشعب العراقي العظيم.

ايها المواطنون، يا ابناء العروبة والاسلام ان ما قام به العابثون والشعوبيون وسفاحو الحرس اللاقومي، من اعتداء على الحريات وانتهاك الحرمات ومخالفة القانون وإضرار عام للدولة والشعب والأمة وآخرها التمرد المسلح يوم ١٣ تشرين الثاني، أصبح أمراً لايطاق ويندى له الجبين، بل وأصبحت الحالة تنذر بالخطر الجسيم على مستقبل هذا الشعب الذي هو جزءٌ من امته العربية. فتحملنا ما تحملناه صبراً على المكاره والأيام وتجنباً لأراقة الدماء وحفظاً لوحدة هذا الشعب النبيل تيمناً بقوله تعالى «إدفع بالتي هي أحسن». ولكننا كلما زدنا صبراً وايماناً ازداد هؤلاء العابثون الشعوبيون وأقزام الحرس اللاقومي تعنتاً واستكباراً وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم. فبلغ السيل الزبى بل لقد تجاوزه. فنادى الشعب جيشه وقواته المسلحة فلبى النداء وتلاحمت القوى الخيرة لإنقاذ هذا الشعب العزيز من عبث العابثين وخيانة الخائنين.

وعليه فقد قرر المجلس الوطني لقيادة الثورة (تلا ذلك تعيينات) أعلن فيها (انتخاب!)

رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف رئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة. وقائداً عاماً للقوات المسلحة. وزعيم الجوّ حردان عبدالغفار نائباً له. ثم تلت تعيينات أخرى عديدة[٣٧] بين الضباط القائمين بالحركة وحلّ الحرس القومي وتقديم المجرمين منه للمحاكم. وحلّ المجلس الوطني لقيادة الثورة المشكل في ٨ شباط[٣٨].

(٣٧) يمكن تقسيم رجال الحكم الجديد انتمائياً الى ثلاثة أقسام أولها جماعة عبدالسلام عارف هو وشقيقه عبدالرحمن والعقيد سعيد صليبي الذي أصبح قائداً لموقع بغداد، وكلهم من الرمادي. وثانيها جماعة البعث: حردان عبدالغفار نائب القائد العام ووزير الدفاع. واللواء طاهر يحيى رئيس الوزراء. والعميد رشيد مصلح وزيراً للداخلية إضافة الى وظيفة الحاكم العسكري العام. واللواء احمد حسن التكريتي نائباً لرئيس الجمهورية. وهؤلاء كلهم تكارتة وبعثيون جدد. وثالثها وهم الناصريون. العميد محمد مجيد مديراً للخطط العسكرية والعميد الركن عبدالكريم فرحان وزيراً للارشاد قائد الفرقة الأولى. والعقيد الركن الطيار عارف عبدالرزاق قائداً للقوة الجويّة. والعقيد الركن هادي خماس رئيساً للاستخبارات العسكرية. والمقدم الركن صبحي عبدالحميد وزيراً للخارجية والعقيد الركن رشيد محمود مديراً للأمن العام. نقول بالنسبة الى الفريق الثالث. إنه في الحقيقة لايدين بولاء كامل لعبدالناصر. فهم يعملون في نجوةٍ عن القومية «الاسلامية» التي يدعيها عبدالسلام. بل يسيرون على خط الوحدة الفورية والخطوات التي تتبعها (ج.ع.م). لكنهم لايتلقون الأوامر من القاهرة. وهذا الفريق عرف بارتباطه الوثيق بالحركة القومية العربية (الحركيين).

(٣٨) الغريب صدور هذا البيان بتوقيع عبدالسلام باعتباره رئيساً لمجلس قيادة ثورة جديد، لا القديم في حين جاء تشكيله الجديد في صلب البيان يعني انه لم يكن هناك غير المجلس الوطني القديم عندما وقع عبدالسلام بيانه الأول..

الفصل الخامس والثلاثون

انقلاب قومي على البعث في العراق . ردود الفعل . في سورية ، استقالات وإحالات على التقاعد وتعاقب وزارات . ظهور أمين الحافظ . تجدد المعركة بين إعلامي القاهرة ودمشق . محاولة جاسم علوان الوحدوية الانقلابية . تكرار المحاولات ووقوع قتلى ومحاكمات . انسحاب سورية من ميثاق الوحدة (ميثاق نيسان ١٩٦٣) . انهيار الوحدة . انقلاب تشرين الدموي بقيادة عبدالسلام عارف وضباط ناصريين . القطعات العسكرية السورية تنسحب من العراق . مجلس قيادة ثورة جديد في بغداد . تسريح أفراد الحرس القومي وإلغاء تشكيلاته . دستور مؤقت جديد عراقي . موقف الحكام الجدد من الثورة الكردية . بيان ٢٩ حزيران . التآمر البعثي على الحكم يتجدد . مؤامرة فاشلة وحدوية . لقاء طريف بين نيكيتا خرشجوف وعبدالسلام عارف . الاعلان عن قيام قيادة سياسية موحدة بين بغداد والقاهرة . تشكيل مجلس رئاسي مختلط للتخطيط والتنسيق . وحدة التنظيم الحزبي "الاتحاد القومي الإشتراكي" في العراق . إجراءات إشتراكية . تأميم المصارف المحلية والأجنبية وشركات التأمين وعدد من الشركات الخاصة التجارية والصناعية . عقاب نفطي سوري على العراق . ضغوط البعث على حكم عارف . قوة عسكرية مصرية في العراق . فكرة الوحدة الشاملة تدفع الى الخلف . مساعدات مالية عراقية لمصر . مؤامرة عارف عبدالرزاق لإزاحة عبدالسلام . عودة الحزب الشيوعي الى النشاط . استئناف القتال ضد الكرد . مقتل عبدالسلام بحادث سقوط مروحية . استخلافه بأخيه عبدالرحمن . فشل مؤامرة أخرى ضد عارف . الهزيمة الكبرى في (هندرين) يُمنى بها الجيش العراقي . حكومة البزاز

في اليوم التالي ١٩ تشرين الثاني. أركب اعضاء القيادة القومية (عفلق ورهطه) طائرة واعيدوا الى دمشق. وكما كان متوقعاً كان ردّ الفعل السوري عنيفاً جداً فقد شجبوا الانقلاب العسكري ونعتوه «بالانقلاب المشبوه» وانه مسند من قبل الرجعية والاحتكارات النفطية. والانحرافيين والامبيريالية. ثم بادر مجلس قيادة الثورة بالتهيؤ لعملٍ ما «بان وضع جميع الامكانات السورية بتصرف قيادة البعث القومية» لكنه لم يقم بأي عمل ضد الانقلاب في الوقت الذي اصدرت القاهرة بياناً حال وقوع الانقلاب محذرة من اي تدخل خارجي في شؤون

العراق الداخلية والقصد به البعث السوري.

عدّ انقلاب تشرين في تاريخ حزب البعث الذي انهى حكمهم نكسة خطيرة مثلما عدّ انقلاب الثامن من شباط ضد قاسم نصراً عظيماً[١]. على ان وجود عدد كبير من المعتدلين البعثيين في الحكم الجديد خفف الى حد ما من الصدمة. وفي ٢٠ من تشرين شكلت حكومة جديدة ائتلافية من ٢١ وزيراً. فالى جانب المقاعد الثلاثة الهامة جداً التي اعطيت للبعثيين - كما اسلفنا كان هناك ناصريون فضلاً عن ثمانية ضباط قوميين.

قلنا ان أحلام الوحدة العربية المنبثقة من ميثاق ١٧ نيسان اخذت تتبدد بعد ثلاثة اسابيع من عودة المندوبين كل بلده. كان سوء الظن متبادلاً بين الناصريين والبعثيين وليس بالامكان صياغة وحدة بوجود الشك وعوامل التفرقة والتحول الخاطف من طبع القبلة على الخد الى وضع السكين في العنق.

يقول سامي الجندي عن محادثات الوحدة (وكان عضواً فيها):

«لولا خجل الرئيس عبدالناصر، وعظم المهمة التي جئنا من أجلها لكنا بحاجة الى الشرطة المصرية حتى تحل المشكلات والخلافات بيننا. لم يكن الجو العام مخلصاً بل لم يكن وحدوياً رغم كل ما قيل. كان الوفد العراقي يريد وحدةً بلا وحدة، كلّ مَن فيها حر التصرف. وكان الوفد السوري ثلاثة اقسام: قسم يريد الوحدة المباشرة. وثانٍ لايريد وحدة ابداً. وثالث مؤمن بضرورة الوحدة الثلاثية. لكن الجو العام لدى البعثيين عدم الجدية في وحدةٍ بظل عبدالناصر»[٢]

وتشاتم الطرفان وتلاعنا ماطاب لهما التشاتم والملاعنة. وبقي راديواهما ينشران الفضائح والمثالب ويهيلها واحدهم على رأس الآخر. ليلاً ونهاراً. وكنا نتابعهما ونحن في السجن. ومرةً سألني أحد المسجونين عن رأيي فيما يسمع فقلت «كلاهما صادق».

في أوائل أيار انتشرت شائعات حول التهيئة لانقلاب عسكري ناصري في دمشق. فاسرع رئيس الأركان (زياد الحريري) بمساندة البعث الحاكم باخراج ٤٧ ضابطاً ناصرياً بالاحالة الى التقاعد أو الاقالة أو النقل الى الخدمة الخارجية. فقام ستة من الوزراء الناصريين بتقديم استقالاتهم وبينهم وزير الدفاع اللواء (الصوفي) قبلت في الثالث منه. وانسحب من عضوية مجلس قيادة الثورة اللواء قطيني مع عدد وموورست ضغوط بشكل تظاهرات متفرقة وحوادث

(١) منيف الرزاز: المرجع السالف، الص ٧٦-٨٣.
(٢) سامي الجندي: المرجع السالف، ص٦٧.

عنف وشغب واعتصاب ضد البعث بغرض إعادة الضباط المستغنى عنهم وافساح المجال للعناصر الناصرية في الحكومة.

وصمدت حكومة البعث لهذه الضغوط التي امتدت بحوادث العنف فيها طوال أسبوع وساندها كلُّ مَنْ كَرِه ناصر وكل من كان يخشى عودته من المدنيين أو العسكريين سواء بسواء واكثريتهم لم يدفعها الى هذا حبها بالبعث أو حرصاً على حكمه لكنها كانت تجده أهون الشرّيْن[٣]. ويبدو ان البعث شعر بالحاجة الى انهاء هذا التوتر ربما ادرك المخاطر التي تحيق بمركز قيادته الانعزالي فارتأوا (قبل حوادث الشغب الحلبية) ان يبعثوا الى القاهرة بوفد من اربعة منهم برئاسة لؤي الاتاسي في ٨ من أيار لبحث الطرق الكفيلة بفض النزاع. الا ان الوفد عاد بعد يومين يجرر اذيال الخيبة[٤].

بعد مرور ثلاثة ايام على احداث حلب، استقالت وزارة البيطار على اثر انسحاب وزيرين آخرين يمثلان تنظيم «الجبهة الإشتراكية المتحدة». واتفق ان أحمد البكر قدم استقالته في عين اليوم وبعد ساعات قلائل من استقالته وكنتيجة مماثلة في بغداد لخلاف مع الناصريين. كلف مجلس القيادة السوري (سامي الجندي) وهو مركب اسنان يبلغ الثانية والاربعين من العمر كان يتولى منصب وزير الثقافة في وزارة البيطار المستقيلة بتأليف وزارة متنصف الطريق كما وصفت إلا انه لم ينجح لان البعثيين رفضوا الشروط التي وضعها الناصريون لمشاركتهم. وكان البعث وهذا موطن الغرابة يريد وحدةً مع عبدالناصر من دون مقاسمة السلطة المحلية مع

(٣) أظهر حوادث الشعب الدموية كان ما حصل في حلب يوم ٨ من أيار، وبدأت في حي الفقراء المعروف بحي (الكلاّسي) قبل انه كان بتخطيط وتمويل ضباط ناصريين متقاعدين (ذكرت جريدة الحياة في ١٩ تشرين الاول ١٩٦٣ ان اتهاماً وجه الى عبدالله جسومي الذي اقبل من دمشق وقام خطيباً في حي الكلاسي يحث الناس باسم رئيسه أحمد عوني على الاعتصاب) ووضع المسلحون من الدهماء المتاريس في الطرق وراحوا يطلقون النار على الشرطة برشاشات ومسدسات. وكادوا يسيطرون على المدينة. لكن انتهى العصيان بعد معركة دامت ساعتين وقتل فيها خمسون وبدأت الانظار تتجه الى الحاكم العسكري اللواء حافظ الذي نجح في قمعها بوصفه رجل البعث القوي.

(٤) كان عبدالناصر آنذاك في الجزائر. فاستقبلهم المشير عبدالحكيم عامر وقيل انه دخل على الوفد فجأة وهتف بهم قائلاً مؤنباً: هل الناصرية هي الآن جريمة في سورية؟ ان كانت كذلك فكيف يتسنى لنا مواجهة المستقبل معاً (مجلة التايم تقرير صحفي ١٧ أيار) (في ذلك الوقت كانت انباء الانتفاضة قد وصلت القاهرة). والغرض الحقيقي هو مناشدة ناصر عدم الغاء ميثاق ١٧ نيسان. ومع علمهم بما يجري في دمشق فقد واصلوا السفر الى الاسكندرية حيث ناصر يقضي صيفه وعند ختام محادثاتهم في ١٩ من تموز. رفض عبدالناصر طلبهم كما رفض اصدار بيان مشترك. وفي ٢٢ يوليو (ذكرى الثورة) ألقى خطبته المنتظرة معلناً انسحابه من الاتحاد الثلاثي. وملقياً اللوم على البعث الذي حطم آمال الامة العربية في الوحدة العربية. ووصف حكومته في سورية بحكومة فاشستية. بسجن المزة وفرق الاعدام وحضر التجوال والارهاب.»

الناصريين المحليين، ومن أجل الوقوف بوجه عبدالناصر وهيمنته من خلال الوحدة المقترحة كان البعث يبسط سلطة مطلقة على سورية والعراق لايشاطره فيها احدٌ.

وعاد المجلس ليطلب من البيطار في ١٣ منه تشكيل حكومة جديدة بدت جاهزةً بعد ساعات قلائل من قيام البكر بتأليف وزارته الجديدة في العراق وكان قد تخلى عن بعثيته. ولم يكن في وزارة البيطار أو وزارة البكر ناصريون. وفي سورية قلد اللواء أمين الحافظ منصب نائب رئيس الوزراء، فضلاً عن إسناد وزارة الداخلية اليه كما عين زياد الحريري (مستقل) وزيراً للدفاع.

وبدأت المعركة الاعلامية مجدداً بين القاهرة ودمشق وكان شعار المعركة في مصر: ان مصر تريد الوحدة مع الشعب السوري، لا مع سورية التي يحكمها البعثيون[٥]. في حين اتهم البعثيون الحكامَ المصريين بأنهم تنصلوا من الاتحاد الفدرالي الذي جاء به الميثاق، قبل ولادته برفضهم التعاون مع الحكومة السورية الجديدة.

وحفلت الصحف السورية بأنباء المؤامرات المكتشفة التي كان يتم احباطها تباعاً[٦] وعزتها الى القاهرة وعملائها.

وتواصلت الحرب البادرة بين الناصريين والبعثيين في سورية وحرص بعث العراق على ألاّ تمتد اليه، الا انه لم يضحّ بأي مقدار من علاقته الرفاقية والايديولوجية والسياسية مع البعث السوري. وحرصاً على ان يبقيا خلافاتها لوقت ما ضمن حدود قيادتيهما القطريتين.

الاّ ان البعث السوري بادر الى اكمال تصفية[٧] المنظمات والموظفين الذين لايعترفون بسلطة البعث العليا. وكانوا يظنون أنهم سيكسبون الشعب السوري بدفاعهم عن فكرة السلطة المتساوية مع مصر ضمن الوحدة المنشودة. لكن سرعان ما اتضح بأنه انما يفعل هذا لمصلحته

(٥) كتب هيكل (الناطق غير الرسمي بلسان عبدالناصر) في عدد ١٤ حزيران ١٩٦٣ مقالاً افتتاحياً قال فيه «ان قيادة البعث لم تكن في اية لحظة مخلصة منذ ٨ أيار بطلب الوحدة».

(٦) في ١٩ من أيار اصدر المجلس بياناً ينذر فيه الساسة المخضرمين بعدم التدخل في شؤون الجيش وابقائه بعيداً عن خصوماتهم. واتهم معارضي البعث بحبك المؤامرات واعلن بعد اربعة ايام من بيانه السالف انه اكتشف مؤامرة ضد النظام. (في ٢٥ أيار اعلن مجلس الثورة العراقي انه أحبط مؤامرة مماثلة قام بها ضباط ومجموعات قومية موالية لعبدالناصر).

(٧) في خلال شهر نيسان حتى تموز ١٩٦٣. استغني عن عدد من المدراء العامين وعين بعثيون في مكانهم. واصدر المجلس قانون تعديل لقانون الاصلاح الزراعي يقلل من مساحة الارض الممنوحة للمالك المقررة في قانون ١٩٥٨. والهدف هو الاستفادة من المناطق الزراعية في جبل الدروز ومناطق العلويين. بالقصد الانتهازي جر ضباط هذين الاقليمين الى المعسكر البعثي. (من مقال لجريدة الحياة بتاريخ ٧ تموز ١٩٦٣ عنوانه «سورية بدون شعرة معاوية: بقلم سياسي عتيق»).

الذاتية فحسب. وانه بات حكماً استبدادياً مطلقا كالنظام المصري الذي يحاول البعث ان لايقع في أحبولته والخضوع له.

ثم قرروا إحداث تطهير جذري يشمل الضباط الذين ساندوه ضد الكتلة العسكرية الناصرية. ويعارضون في الوقت نفسه قيام دولة بعثية خالصة. أبرزهم: اللواء زياد الحريري. واظهروا في عملية التطهير المتوالي قسوة شديدة وواقعية. فقد علمتهم التجارب السالفة ان الانقلابات تتم عادة بالضباط المعارضين، لذلك قرروا انه لايبقى في الجيش الا الضباط البعثيين والموالين وبدأوا بالضباط الانفصاليين فور انقلاب الثامن من آذار. ثم وبالتعاون مع اللواء الحريري سرحوا في السادس من أيار أو احالوا الى التقاعد كل الضباط الناصريين.

وفي التطهير الثالث تم التخلص من زياد الحريري وجماعته بوقائع لاتخلو من طرافة[٨].

(٨) بدأت المعركة بين الحريري وبين النجم البعثي الصاعد اللواء أمين الحافظ في الثلث الأخير من شهر حزيران وانتهت في ٨ من تموز بإبعاد الحريري الى باريس. وتعطي تفاصيل المعركة صورة دقيقة للتدني المطرد للقيم الخلقية العسكرية والى اي حد بلغ مستوى الضبط والربط فيه خلال حكم البعث.
درس أمين الحافظ في الاتحاد السوفياتي (١٩٦١) وتولى بعد فترة قصيرة إثر الانفصال منصب رئيس قسم التدريب العسكري. وبعد خلافات حادة بينه وبين القيادة نقل بوظيفة ملحق عسكري في الاتحاد السوفياتي ثم في الارجنتين. أصله من عائلة فقيرة حلبية. وهو عضو بعثي قديم. في العشرين من حزيران انتهز هو والعقيد محمد عمران البعثي قائد كتيبة الدبابات السبعين فرصة غياب الحريري في زيارة للجزائر فأقدما على تسريح ٢١ ضابطاً من مشايعيه في مختلف القيادات. وكان ضباط الحريري في عرف البعث الفريق الأكثر خطورة عليهم لاحتمال قيامهم بانقلاب ضد البعث في اية ساعة. تم تسريح هؤلاء دون اخذ موافقة الحريري وهو وزير دفاع ورئيس اركان، بل سرت الاشاعة ان الحريري نفسه سيتم تسريحه حال عودته ويعين ملحقاً عسكرياً اسوة بالضباط الآخرين الذين تم تسريحهم. على انه تجاهل ما حصل وعاد الى دمشق ورفض تصديق الأوامر بتسريح الضباط ونقلهم بل راح يبحث لنفسه عن حلفاء بين الضباط المناوئين للبعث. وبهذا استقطب الجيش في معسكرين يواجهان بعضهما بعضاً ويناوران. الا انهما لم يشتبكا الا بعد فترة. ثم عقدت اجتماعات عدة على مستوى مجلس الثورة والوزارة لإقناع الحريري بتنفيذ تلك المراسيم لكنه رفض رفضاً قاطعاً. واظهر معارضة واضحة لسياسة البعث (انظر: Bernard Vernier: Arme et Politiques au Moy-Orient. باريس ١٩٦٦ ص ١٣٨).
وفي أوائل تموز ذكرت الصحف اللبنانية (بنوع خاص) ان الحريري قدم لمجلس قيادة الثورة المطاليب التالية: (١) اعفاء الفريق الأتاسي وطرده من المجلس وطرد أمين الحافظ وتجريده من منصبيه الوزاري والعسكري. (٢) عودة الضباط المسرحين الى الخدمة ووقف اعمال التطهير في الجيش والشرطة والسلك المدني. (٣) إلغاء قرار حرمان ستين سياسياً على الأقل من الحقوق السياسية. (٤) اجراء انتخابات عامة خلال ثلاثة اشهر. (٥) تطبيق الاهداف الاصلية لانقلاب الثامن من آذار. (الحياة. في عددي ٤ و ٥ من تموز). ثم اقدم على جولات للجبهة في الجنوب بقصد تأكيد دعمه لاصدقاء في الجيش وضمان مساندتهم ورافقت جولتيه في الثاني والثالث من تموز اشاعات حول اعتزامه الزحف على دمشق. إلاّ أنه كان يعود الى دمشق بمفرده كل مرة. في ٤ تموز بدأت الحكومة البعثية مرحلتها الأولى من انقلابها على =

في النهاية تمكن البعثيون منه وجرت ازاحته بما وصف في حينه «بمظهر يتسق وروح الانقلابات المضادة السورية. إذ قصد داره وفد حكومي رفيع المستوى من أعضائه الفريق الأتاسي والبيطار وسلّمه المرسوم. فقبل ما هيء له دون احتجاج أو مقاومة[٩] تفادياً (كما قال) لانقسام في الجيش وحفظاً لوحدته وبدأ قادة البعث يتحدثون عن المؤامرة التي كشفت وكان الحريري محورها. وذكر وزير الإعلام البعثي في حديث له نشرته جريدة الحياة. انه تم تسريح ثمانمائة ضابط من ضباط الجيش وتعيين تسعمائة بديل لهم[١٠].

وفي ٢٩ من حزيران اصدر مجلس قيادة الثورة المرسوم الاشتراعي المرقم ٨٩ الذي يقضي بإنشاء منظمة الحرس القومي عرّفها القانون بانها منظمة شعبية – عسكرية ترتبط بالمجلس الوطني لقيادة الثورة وتتألف من المطّوعين والمطّوعات. وجنود وضباط صف وضباط احتياط غير المطلوبين للخدمة في القوات المسلحة. ووضع على رأس هذا التنظيم الشبيه بأخيه في العراق. المقدم (احمد عبيد) الذي سبق الحكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة لقيادته حركة عصيان حلب في العام الماضي.

ثم حاول البعث تحويل الجيش الى اداة حزبية واقترح يمنياً بالولاء يحلفه الضباط للمباديء البعثية الثلاثية «الوحدة والحرية والإشتراكية» ثم وبعد شهر تموز اصبح شعار «الجيش العقائدي» شعاراً رسمياً ويعني في التطبيق الاستبعاد الكامل للضباط غير البعثيين، أو للبعثيين الذين يؤيدون اجنحة أو مفاهيم غير مفاهيم الحزب الحاكم! وبمقتضى هذا الشعار اصبح الضباط البعثيون يحتكرون القيادات كلها في الجيش[١١] الا ان الأمر لم يتم كما

= الحريري، اذ طوقت دمشق بوحدات من الجيش. ونشرت وحدات قوية اخرى حول مقر القيادة العامة ودار الاذاعة. المرحلة الثانية كانت في السادس منه اي نهار السبت. فقد سحب الحرس الخاص من منزل الحريري وهو من انصاره وابدل بوحدة من جنود الكوماندو (الصاعقة) وبهذا اصبح الحريري فعلاً رهن الاعتقال المنزلي. في المرحلة الثالثة اصدر المجلس الوطني لقيادة الثورة قراراً بإعفاء الحريري من منصب وزير الدفاع ورئيس الاركان.
(٩) في اليوم التالي وضع في طائرة ركاب عادية تعود لشركة إير فرانس Air France مع رئيس استخباراته. وكان في وداعه البيطار ووزير التخطيط العميد غسان حداد. ووجهته باريس. ثم وبعد مرور شهرين تقريباً. تم تجريده من رتبته العسكرية ونقله الى السلك الخارجي وتعيينه سفيراً. وبهذا برهن البعث بانه اقوى من الرجل الذي جاء بهم. في حين برهنوا في العراق بأنهم أضعف من الرجل الذي جاؤا به ونصبوه رئيساً لجمهوريتهم.
(١٠) من حديث له مع جريدة الحياة في ٢٨ حزيران ١٩٦٣.
(١١) والنتيجة: كل قائد لم يكن بعثياً، صار بعثياً من أجل المحافظة على منصبه القيادي وإلاّ خاطر بمستقبله العسكري. كان هناك الضباط السياسيون الذين اتجهوا فعلاً الى العضوية في حزب البعث لكن كان هناك ضباط من الاقلية الطائفية والقومية. كان ثم علويون ودروز وأكراد وأكراد يزيدية ومسيحيون ونسبتهم في الجيش تزيد كثيراً عن نسبة قوميتهم الى مجموع السكان العام.

أرادوه وبالسهولة التي قدروها.

افسحت ازاحة الحريري السبيل لأمين الحافظ السبيل الى المزيد من المناصب. فورث عنه منصب رئاسة الأركان ووزارة الدفاع ورقّع الى رتبة لواء وبعدها بقليل الى رتبة فريق[١٢] وتحقق حلمه في السيطرة على مقدرات سورية بمدة تكاد لاتزيد عن اربعة اشهر. لكن علينا الإقرار بان زياداً الحريري في انقلابه اتخذ موقفاً غامضاً خدّاعاً وهو على رأس مجموعة من الضباط المحترفين دون لون سياسي لهم.

خدع الناصريين بجعلهم يعتقدون انه ناصري العقيدة والغاية. وخدع البعثيين بإيهامهم انه منهم. بل خدع الانفصاليين والمحافظين وجعلهم يعتقدون في آنٍ واحدٍ بأنه واحد منهم. وفي أوائل شهر آذار وجدناه يساند البعثيين ضد الناصريين بسبب خشية الضباط التقليديين من سيطرة خارجية. ثم فكر بعد فترة في ان يقلب ظهر المجن للبعثيين ليغدو عقبةً في سبيل سعيهم الى الاستئثار بالحكم. إلا ان معركته مع البعث جاءت متأخرة جداً، اي بعد ان رص البعث صفوفه وعزز مواقعه بزرع رجاله في نقاط ستراتيجية ويجب القول هنا انه لم يكن يتوقع ان يحظى باي مساندة من خصوم البعث فالانفصاليون لم يغتفروا له قط انقلاب ٨ آذار والناصريون فقدوا ثقتهم به.

لم يشعر بعث سورية بالأمن رغم كل هذه التحوطات وفي ١٨ من تموز تألف وفد سوري برئاسة لؤي الأتاسي الى مصر لاجراء محادثات مع عبدالناصر. وذكروا ان الأتاسي جاء وهو مستعد لتنازلات حول اعادة الناصريين الضباط الى الخدمة واقامة جبهة قومية سياسية تدعم المجموعات الناصرية بحزب البعث. الا ان القوى الناصرية شرعت والوفد في طريقه الى القاهرة بمشروع انقلاب القصد منه اسقاط البعث ومدّ واقامة حكم قومي وحدوي. وقد هيء له سيكولوجياً بمعارك الدعاية المتواصلة من القاهرة وكان من شأنها ان تزيد من حدة العداء ضد عبدالناصر عند الضباط المتشددين عقائدياً ضد الناصرية بل حتى عند من اتاح لهم اتهام البعثيين الوحدويين لهم بالانتصار لعبدالناصر[١٣].

هذا الانقلاب الفاشل الذي وقع نهار الثلاثاء في ١٨ تموز كان يفوق الانقلابات الثلاثة عشرة التي سبقته منذ ١٩٤٩ عنفاً ودموية. محاولة وحدوية يائسة ركزت في دمشق فكان

(١٢) تمنح الرتب العسكرية للضباط السياسيين عقب كل انقلاب أو أثناءه أو انهم يمنحونها لأنفسهم كما يجري الإنعام على الاطفال من هدايا في ايام اعيادهم أو في المناسبات.

(١٣) الرزاز: المرجع السالف، الص ٩٩-١٠١.

الفشل الذريع حليفها[١٤].

وانتهت المقاومة الرئيسة بعد اربع ساعات. وشلت الطائرات الاربع المعادية بثلاث عشرة طائرة ارغمتها على الهبوط وعدم التحليق مجدداً. ونجحت كتيبة الدبابات في إجلاء محتلي مقر القيادة العامة وكان اللواء المسرح محمد الجراح يقود العناصر الشعبية من الانقلابيين وقد نجح لفترة من الزمن في جعل (الغوطة) خارج دمشق معقلاً ناصرياً. وكان (علوان) يتولى القيادة العامة مالبثا كلاهما ان تواريا عن الانظار عندما أيقنا بالفشل. واستخدم رجل البعث القوي اللواء أمين الحافظ اقصى درجة من القسوة بحق المساهمين والضالعين. «قسوة لا

(١٤) عمل الانقلابيون في وضح النهار. في العاشرة والدقيقة الثلاثين قامت اربع طائرات من نوع (ميك) بالاغارة على مقر القيادة العام وقذفته بالصواريخ. وبعدها بدقائق نجحت وحدات صغيرة من صنف مشاة الاشارة والپوليس الحربي بالاستيلاء على مقر القيادة ودار الاذاعة المقابلة وفي عين الوقت توقف البث الاذاعي بعامل تخريب متعمد احدثه فنيون وحدويون وتلقى الانقلابيون دعماً من المدنيين الذين ضاقوا ذرعاً بحكم البعث ومن الضباط وضباط الصف الذي فصلوا سياسياً وجاءهم افضل الدعم من اللاجئين الفلسطينيين المسلحين الذين احتلوا معسكر (قطبون) بالقرب من دمشق. وزعم الحركة (جاسم علوان) مع اللواء المسرح (محمد الجراح) مدير الأمن ايام الوحدة والمدني الوحيد المشارك. والعقيد المسرح أكرم صفري مرافق عبدالناصر ايام الوحدة. ويوسف مزاحم وزير الاوقاف ايام الوحدة ورائف المعرّي. وكانوا يتوقعون تدخلاً مصرياً. وحقق الانقلابيون في الاول درجة كبيرة من النجاح بحيث ان الضابط الرائد المكلف بحراسة مقر القيادة اصدر أوامره لرجاله بالانسحاب إلا ان ضباط المقر وعلى رأسهم أمين الحافظ حملوا على الانقلابيين برشاشاتهم وقاموا اثناء ذلك باستقدام قوات موالية للسيطرة على مراكز ستراتيجية في العاصمة ثم اعلنوا حظر التجوال وتواصل القتال في شوارع دمشق حتى الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين ظهراً. وادى قصف الدبابات والمدفعية والغارات الجوية الى وقوع خسائر في الارواح كبيرة قدرت في دمشق وحدها ما بين ١٧٠ و٨٠٠ قتيل. [تراجع الحياة: عدد ١٩ تموز ومركز انباء كيسنگ Kessing Contemporay Review 1963: مادة سورية] (الا ان العدد الذي اعطي رسمياً كان ١٩ قتيلاً و ٤٥ جريحاً) وكان يسمع لمدة خمسة ايام بعد القضاء على المحاولة اصوات اطلاق الرصاص متقطع في انحاء دمشق وبقيت جيوب للمقاومة ثم سحقها بقسوة، لاسيما في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. وجرت في ٢٤ من تموز محاولة أخرى يائسة للاستيلاء على الاذاعة ومقر القيادة العامة. وفي عين اليوم (١٨ تموز) جرى تنفيذ حكم الموت بعشرين بينهم ثمانية عسكريين رمياً بالرصاص بعد محاكمة صورية سريعة في سجن المزة. وبعدها بيومين نفذ حكم الموت بخمسة من العسكريين واثنين من المدنيين بينهم امرأة. واعدم الحياة العقيد هشام شبيب وسبعة من ضباط الصف وتم إلقاء القبض على ثلاثة من قادة الانقلاب المجهض خلال الايام العشرة التالية (اللواء الجراح. والنقيب جاسم علوان والعقيد رائف المعري) وآخرين وكانوا قد حكموا بالموت غياباً إلا ان محاكمهم الوجاهية بدأت في التاسع من أيلول والتهمة الموجهة إليهم: قيادة هجوم على مقر القايدة العامة. ومحاولة اغتصاب السلطة بالقوة. والتآمر على اسقاط الحكومة والاتصال بدولة اجنبية للقيام بعدوان على الحكومة. وفي ١٧ من تشرين الأول. ثبتت احكام الموت بحقهم وحكم على ثلاثة عشر بالموت وعلى ثلاثة بالحبس المؤبد وعلى عشرين آخرين بمدد سجن تتراوح بين السنة الواحدة والعشرين. فاودعوا السجن حيناً حتى صدر عفو عنهم في ١٩٦٤ وسمح للقياديين منهم بالسفر الى مصر.

سورية» اي غير معهودة من السوريين[١٥] من قبل أثناء التعامل مع الانقلابيين اذ جرت العادة ان يعتقلوا ويقدموا الى محاكمات مطولة ثم يتم اخلاء سبيلهم إثر انقلاب ناجح آخر. أو يرسل الخاسرون احيانا الى الخارج في مناصب دبلوماسية. الا ان أمين الحافظ آثر التجديد.

في صباح يوم ١٩ من تموز الباكر تحدث بنفسه من الراديو قائلاً بحزمٍ وثبات معيداً الى الاذهان خطبة الحجاج ابن يوسف في الكوفة قبله باثني عشر قرناً ونصف قرن في الكوفة «رؤوس المتآمرين ستحسق، يد التآمر ستقطع».

في أثناء تلك المحاكمات السريعة. انتشرت شائعة تفيد بان اعضاءً من المجلس العرفي العسكري كانوا ميّالين الى اعدام عدد من المسجونين الانفصاليين بعد محاكمة صورية لمجرد البرهان للقاهرة بأن حكم البعث ليس منحازاً الى جانب الانفصاليين وانه لايفرق بينهم وبين وحدويي انقلاب تموز الفاشل[١٦].

التفسير الوحيد الرئيس للبطش وقسوة المحاكمات وتنفيذ احكام الاعدام لابد وانه يعود الى خطورة التحدي الذي يواجه سلطة البعث وكرد فعل للعنف الذي استخدمه الانقلابيون، فنجاحهم لم يكن يعني الا القضاء التام على البعث ونهاية الأمل بعودته الى الحكم بل نهاية البعث. والوحدويون هذه المرة اداروا عملية عسكرية مخططاً لها لأول مرة في تاريخ الانقلابات السورية. الا أن البعثيين كانوا بمحض صدفة يملكون قائداً شجاعاً سبّاقاً - كان عليهم ان يواجهوا الانقلابيين بتوجيه ضربة صاعقة. الخوف لم يتسرب الى أمين الحافظ ولم يؤخذ على حين غرة بعكس العسكريين القادة في حكومة (القدسي) لم يكن فحسب يعرف ما سيأتي به المستقبل بل كان كما يبدو مستعداً له. وكان الحزم واليقظة اللذين تحلى بهما السبب الرئيس لهزيمة الناصريين. ثم لايمكن ايضاً ان يبخس موقف الوحدات والضباط في رفض الانضمام الى الوحدويين. لأنهم وبطبيعة الحال كانوا يخشون عودة الوحدة الاندماجية غير المشروطة مع مصر

(١٥) نيويورك تايمس. مقال رئيس. عدد ٢٢ تموز ١٩٦٣.

(١٦) زهرالدين: المرجع السالف، الص ٤٧١-٤٧٣: كان اللواء عبدالكريم زهرالدين في مستشفى سجن المزة العسكري حيث يودع عادة السجناء السياسيون الممتازون بصرف النظر عن كونهم مرضى أو أصحاء ليلقوا معاملة خاصة. فجأة وفي ٢١ من تموز اعيد الى السجن الاعتيادي كما صدرت أوامر مماثلة بحق الرئيس ناظم القدسي. كانت هذه الاعادة تعني محكمة أو اعداماً. وقيل ان القدسي هاج هائجه وأبى ان ينقل خطوة واحدة الا بالقوة. واخيراً سمح له بالبقاء. وبعد مرور ثلاثة ايام - يقول زهرالدين بانه اعيد الى المستشفى. وتم انقاذ الانفصاليين الآخرين ومنهم العقداء السابقون الكزبري ومهياني والعميد عصاصة لان معاون مدير السجن رفض تنفيذ أمر شفوي من المحكمة العسكرية العرفية بعقد محاكمة صورية لهم واعدامهم في الحال. ولأن احد اعضاء المحكمة وهو النقيب سليم حاطوم وقف معارضاً هذا القرار.

بكل مصائبها وويلاتها وذكرياتها الأليمة. فعادوا ليساندوا البعث ولم يكن معظمهم يرغب في بقاء البعث وبدا رد فعل عبدالناصر ضد البعث واستخدامهم فرق الاعدام عنيفاً جداً والأمر لايدعو الى الاستغراب. فلأول مرة في حياته السياسية يجد انصاره ووكلاءه في سورية يقتلون في المعارك أو يقادون الى ميدان الرمي وأن ذلك يتم على يد عين القادة الذين كانوا في وقتٍ ما يعدون من أنصاره ومشايعيه[١٧]. ومدرسة العنف كانت فعلاً من مستنبطات وادوات عبدالناصر. واستحق وصف رشيد المعلوف له في مقال طريف «بشيخ الطريقة» طريقة العنف في العالم الناطق بالعربية[١٨].

وتواصلت حملات التشهير المصرية وبلغ الأمر غايته القصوى ولم تسكت دمشق هذه المرة إلا لتتخير ارذل التعابير السوقية على لسان رجلها الأوحد القوي أمين الحافظ فقد قال بالنص في تصريح له بتاريخ ٢١ من تشرين الثاني:

> «وجدنا انفسنا مكرهين (على الردّ) هل كان زعماء القاهرة على علم بما تفعل اجهزة اعلامهم؟ إن كانوا على علم فتلك مصيبة. وان لم يعلموا فالمصيبة اعظم... ان لم يكفوا عن هذا فانا مضطر على القول ان حذاء أصغر جندي سوري هو اغلى من رؤوس كثير من اولئك الجبناء. وان هذا الحذاء قادر على سحق رؤوسهم اذا اهانوا شرفه وكرامته»[١٩]

اشار عبدالناصر في خطبة ٢٢ يوليو التي نوهنا بها. الى استحالة الاتفاق مع السوريين «فمعظم المخلصين الذين وقّعوا بالأمس ميثاق ١٧ نيسان هم الآن في السجن ونحن لانستطيع أن ننشيء اي صلة أو اي حلف أو اي وحدة قصدٍ مع دولة فاشية في سورية».

وبدأت صحف معينة كالأهرام في القاهرة تدعو بعد خطاب عبدالناصر الى شعار جديد

(١٧) في المحاولتين اللتين سبقنا هذه (محاولة ٢٨ آذار ١٩٦٢ و١ نيسان) تلتهما محاكمات امتدت اشهراً بطولها وختمت باحكام لم يجر تنفيذها اطلاقاً وهذا ما جرأ عبدالناصر على ابقاء ثقته بضباط الجيش ومحاولاتهم الانقلابية لاسقاط (القدسي). مادام لا هناك خطر على النفس، والتضحية الوحيدة هي مالية فقط. لكن الموقف اختلف في عهد حكم البعث فهؤلاء «ثوريون» ايضاً وهم على ادراك وتفهم تامّين بأساليب عبدالناصر. لذلك فعندما اتهمت القاهرة حكومة البعث باغراق سورية في بحر من الدماء أثناء قمعها مؤامرة ١٨ تموز، كان عليها ان تلوم نفسها ولا احد غيرها لأنها كانت مصدراً بل حتى بالفخر والتباهي بالانتفاضات الدموية العنيفة التي قام بها حلفاؤها ومنهم البعثيون في العراق وفي لبنان وفي الاردن وفي اليمن منذ العام ١٩٥٥ فصاعداً كما اسلفنا.

(١٨) رشيد المعلوف. مقال رئيس في جريدة الصفاء الدمشقية في عدد ٢٥ تموز ١٩٦٣. عنوانه شيخ الطريقة.

(١٩) نشره في حينه سائر الجرائد السورية واللبنانية. انظر ايضاً الوثائق العربية السياسية، بيروت ١٩٦٤. الص ٤٨٠-٤٨١) Arab Political Documents

«وحدة التنظيم» كمبدأ يرشد الى الوحدة العربية بديلاً عن الشعار القديم «وحدة القصد». والشعار الجديد يعني كما شرح ان ايديولوجية واحدة - والإشتراكية خصوصاً - لاتكفي كشرط يجب توفره لاقامة اتحاد فدرالي. وان تنظيماً سياسياً موحداً يجب حضوره كالاتحاد الإشتراكي المصري - قبل انجاز الوحدة.

ومما يدعو الى الانتباه هنا انه وفي الاسابيع القلائل الأولى التي تلت المحاولة الانقلابية الفاشلة ورغم خيبة الوفد من الزيارة القاهرية. فقد لازم حكومة البعث الحذر من إلقاء اللوم على عبدالناصر بصورة علنية. بل انها صرحت حتى بعد إعدامها ٢٧ من الناصريين الثائرين بعزمها على التمسك بالميثاق وطلبت منه بعد يومين من اعلان انسحابه اعادة النظر في قراره هذا. ولعل غرض البعث هو إلقاء التهمة على عبدالناصر بقضائه على الأمل في الوحدة. ولغرض تبرئة نفسه. وكان الهجوم الاعلامي المتقابل مركزاً على مسألتين: تبعة هدم الوحدة. وأساليب وأهداف حكومتي البلدين.

وفي ٢٤ تموز على اثر الطلب السوري هاجم البيطار في تصريح له «مبدء عبادة الشخصية وحكم الرجل القوي» وفي ١٦ من آب اتهم السوريون لأول مرة قيام القاهرة بتمويل المؤامرة الناصرية في ١٨ تموز وقال أمين الحافظ في سياق ذلك «ان عبدالناصر يبدد الاموال المصرية بالانفاق على هذه المؤامرات في البلاد العربية الأخرى بدلاً من انفاقها على رفع مستوى معيشة الشعب المصري».

أكانت طريق اللاعودة؟ كلاّ.

***

حاول عبدالناصر لفترة من الزمن كسب بعث العراق وبدت علاقته تتسم بالسياسة والوقار، حتى انه وجه الدعوة لعبدالسلام بزيارة للقاهرة[٢٠] ولم ينجم عن الزيارة شيء.

كان عبدالناصر مع هذا يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن البعث إنما يريد أن يحكم وان يعمل لقيام دولة بعثية لا دولة وحدة عربية. لكن وهنا موطن غرابة - ما الذي جعل بعثيي سورية يلاحقون عبدالناصر باستمرار لانشاء «وحدة تنظيم» بدلاً من عمل وحدة مع العراق؟

(٢٠) بالاول لم يسمح له البعثيون بها. ثم وافقوا في أواخر آب على ان يرافقه وفد ولم ينجم عن المحادثات شيء.

(٢١) وردت الصيغة في بيان المجلس الوطني لقيادة الثورة ونشر في معظم الصحف المحلية (انظر عددي الحياة البيروتية المؤرخين في ٢٨ و٢٩ من أيلول).

ربما التعليل الأقرب الى المنطق (وقلما كان المنطق الوسيلة التي نملكها في تفسير مفاجآت هؤلاء المغامرين) هو ان البعث كان بحاجة الى وقتٍ لتوطيد دعائم حكمه ومركزه ولانجاز عمليات التطهير الضرورية وكذلك اتباعاً للعقيدة البعثية فيما سموه «بتفاعل الثورتين» الثورة المصرية في ٢٢ يوليو وثورة ١٨ آذار البعثية في سورية[٢١].

فقبيل حلول ذكرى الانفصال (٢٨ من أيلول) اعلن بعث سورية أنه وبقدر ما يرى الوحدة العربية علة وجوده الا أنه لايستطيع التوقف في نضاله في سبيلها منتظراً رغبات عبدالناصر. لذلك قرر اقامة الوحدة بين سورية والعراق بشكل «دولة إشتراكية ديمقراطية شعبية» وعلى خطوات متدرجة تبدأ بانشاء وحدة عسكرية ثقافية اقتصادية. وتليها بالأخير الوحدة السياسية.

بوشر بانجاز الخطوة الأولى في ٨ من تشرين الاول ١٩٦٣ بالتوقيع على ميثاق الوحدة العسكرية. وبموجبه استحدث مجلس الدفاع الأعلى المتكون من ثلاثة اعضاء لكل جانب، مع قائد اعلى للجيش الموحد[٢٢].

وبطبيعة الحال لم يرق هذا لعبدالناصر الذي بقي رغم كل شيء يجانب المس بمشاعر بعث العراق على أمل سحبهم الى صفه. اما الآن وقد ارتبط الجانبان بميثاق عسكري ومواثيق وحدوية أخرى، فقد قرر توجيه مدافعه الى العراق واطلاق قدائفه بهدف إسقاط حكومته المهتزة وعزل سورية.

وما مرّ شهر واحد على هجومه الاعلامي حتى تسارعت الاحداث في العراق دون مجهود منه وبأسرع مما كان يتوقع في ابعد احلامه خيالاً. أسبوع واحد من الصراع والتلاحي بين قادة البعث هناك انتهت بانقلاب قومي دموي تزعمه عبدالسلام عارف ضد البعث. وتحقق ما تمنى من زيادة عزلة سورية. وفي ١٧ من كانون الأول لم يبق جندي سوري واحد على أرض العراق.

رغم احتفاظ انقلاب تشرين الثاني بشيء من المظاهر البعثية إلا ان ذلك تم التخلص منه بشكل تدريجي ونظفت الحكومة الجديدة من قادة بعثيين بهدوء ودون ضوضاء[٢٣].

(٢٢) اسند هذا المنصب للفريق الركن (الرائد قبل سنة واحدة) صالح مهدي عماش. وجُعلت دمشق مركزاً للقيادة الموحدة. وفي عين يوم التوقيع على الميثاق دخلت العراق من الشمال قوة سورية بحجم لواء (لواء اليرموك) بقيادة اللواء فهد الشاعر وانضمت الى القوات العراقية في حرب كردستان.

(٢٣) اقام عبدالسلام بديلاً لمجلس قيادة الثورة البعثي مجلساً جديداً كله عسكريون تقريباً. والبكر وضع على الرف فعلاً بتعيينه نائباً لرئيس الجمهورية ثم ألغي المنصب ونقل الى الخارجية بدرجة سفير فرفض التعيين واعتزل في بيته يرعى ابقاره. وفي أوائل ١٩٦٤ جرى لحردان التكريتي ما جرى للبكر فنقل من منصبه وزيراً للدفاع الى ديوان وزارة الخارجية. وتنصل طاهر يحيى من عضويته فأبقي عليه. كذلك ابقي على =

كما تم تسريح افراد الحرس القومي المستسلمين والأسرى وأحيل بعض من قاوم الجيش الى محاكم عسكرية بتهم القتل. ونشرت الحكومة كتباً تتحدث عن اعمالهم الجرمية واعتداءاتهم على الابرياء ونوشدت العائلات التي تجهل مصائر أبنائها بالاخبار عن معلومات تؤدي الى القبض على الجناة وعقابهم. وطلبت من الذين عذبوا بأيدي الحرس القومي ان يدلوا بشهاداتهم لمكاتب تحقيق خاصة شكلت لهذا الغرض.

وهذه بالطبع من الفكاهات المرة. فمعظم القتول جرت في ايام الانقلاب الخمس عشرة الأولى ايام كان اعضاء وقادة الحكم الجديد هم الآمرون بها أو الموافقون عليها وعلى رأسهم عبدالسلام عارف نفسه الذي كان اكثرهم رغبة في قتل اكبر عدد ممكن من الضباط الشيوعيين والقاسميين ثم من كان يجرؤ على التقدم بالشكوى في حين ماتزال ألوف من هؤلاء في السجون والمعتقلات والمحاكم العرفية العسكرية تشتغل باقصى طاقتها. ثم ان عمليات الاعتقال والتعذيب والمحاكمات العسكرية كانت مستمرة لم يعترها وهن. وتَواصَلَ تنفيذ احكام الموت التي صدرت ايام البعث لكن بشكل متقطع وغير منهجي.

كان المواطنون العراقيون بصورة عامة يتوقعون نوعاً من الانفراج والتحول الى الديمقراطية أو إرخاء القبضة الحكومية الممسكة بخناق الشعب وبدأ بعضهم وبعد ما لقوا خلال هذه السنوات الست يحنون الى ايام نوري السعيد والى ما فيه وجه شبه بها في الحكم الجديد. الا ان (عارفاً) لم يكن اكثر ميلاً من (قاسم) أو البعث في وضع نظامه على ركائز ديمقراطية. وكان ان اعلن دستوراً (مؤقتاً) ثالثاً وفي الثالث من آذار ١٩٦٤ رأى العراقيون وجه طاهر يحيى في جهاز التلفزة يتلو المواد الخمسة والمائة من الدستور الجديد وفيه ان الجمهورية العراقية هي دولة ديمقراطية إشتراكية تستمد ديمقراطيتها وإشتراكيتها من الاسلام وان الاسلام هو دين الدولة الرسمي. ومنع الدستور اي تنظيم. او تشكيل اي نمطٍ من وحدات عسكرية أو شبه عسكرية وحظر على الجيش التدخل في السياسة أو تعاطيها. واعطي رئيس الجمهورية حق اقالة رئيس الوزراء والوزراء وتعيينهم كما سمح لرئيس الجمهورية الحالي بالبقاء مدة غير محددة الى ان يتم انتخاب رئيس جمهورية جديد بموجب دستور «دائم» بعد انقضاء فترة الانتقال غير المحددة زمنياً. وصرح بان هدف الشعب العراقي هو «الوحدة العربية الكاملة ابتداء» بالجمهورية العربية المتحدة. وهي محاولة صبيانية مفضوحة لابقاء عبدالسلام رئيساً للدولة لاطول مدة ممكنة.

= رشيد مصلح بعد تنصله من العضوية ايضاً ومهاجمتهم بالبذاءة التي كلفته حياته.

ولم يكن للحكم الجديد مندوحة من البحث عن مخرج لوقف القتال مع الثورة الكردية. وكان يشعر بضعفٍ حقيقي رغم انتصاره الكبير في انتزاع الحكم من يد البعث. فمع انتصاره هذا مازالت عناصر بعثية وغير بعثية قوية تتربص به داخل الحكم وخارجه.

لم يُقضَ على خلايا الحزب قضاء تاماً لا في جناحه العسكري ولا المدني. ومازال كثير من الضباط البعثيين الصغار يتلقون الحماية من ضباط كبار لهم في الجيش ومن واقع وجود حكم بعثي خالص في سورية التي اصبحت مصدر خطر كبير على الحكم القومي العراقي الجديد. وسرعان ما نشبت المعارك الاعلامية المبتذلة بين البلدين كل يفضح سوءات الآخر وهم اخبر بها من غيرهم. وحاولوا التآمر في الثاني من آذار ١٩٦٤ فافتضح أمرهم وبها فقد حردان عبدالغفار منصبه وعيّن سفيراً للعراق في السويد[٢٤].

وفي أيلول أقدم البعثيون على تنفيذ مؤامرتهم الكبيرة بقصد انهاء عارف جسدياً مع حكمه. وحدد لها الرابع من أيلول بقيام سرب من ست مقاتلات من نوع ميك بهجوم جوي على مطار بغداد المدني بعد ظهر ذلك اليوم وقت مغادرة عبدالسلام البلاد لحضور اجتماع القمة الثاني للجامعة العربية في الاسكندرية. هذه الطائرات كانت معدة لمرافقة طائرة عارف وطياروها اعضاء في خلية بعثية اتفقوا على تفجير طائرة الڤيكونت التي كانت ستحمله وهي تبدأ طيرانها. وفي الوقت عينه تقوم الكتيبة الرابعة المدرعة يقودها الضابط البعثي المقدم احمد الجبوري بالاندفاع نحو المدينة من معسكر الرشيد لاحتلال دار الاذاعة ودوائر حكومية ووزارات بمساندة بقايا من افراد الحرس القومي. تم كشف المؤامرة قبل تنفيذها بساعات بافشاء احد الطيارين الستة السر. وكان قد دُسّ على المتآمرين بوصفه عضواً في الحزب. قامت قبيل تنفيذ الخطة وحدات موالية من الجيش مع رجال الأمن باقتحام مفاجيء لمعسكر الرشيد واعتقلت المنفذين واحيل عشرة ضباط بينهم الطيارون الخمسة الى محكمة عسكرية ونفذ فيهم جميعاً حكم الموت بعد إدانتهم. ثم شنت على أثر ذلك حملة اعتقالات واسعة شملت مئات البعثيين وعلى رأسهم رئيس الوزراء السابق احمد حسن التكريتي الذي أقر بمسؤوليته فيها[٢٥] وفي ٢١ أيلول عين اللواء عبدالرحمن عارف وكيلاً لرئيس أركان الجيش.

(٢٤) مجلة التايم ٢ تشرين الاول ١٩٦٤: في اجتماع عقده حردان في ڤيينا للبعثيين المبعدين في اوروپا حلف خلاله بهذه اليمين «قسماً بلحية النبي الطاهرة سأسقط هذا الخائن عارف».

(٢٥) دانا شمدت. نيويورك تايمس، عدد ٢٣ أيلول ١٩٦٤. التايم في ٢ تشرين الأول ١٩٦٤. (لم يقدم احمد حسن التكريتي الى المحاكمة. وانما اوقف اشهراً قلائل).
نقول: سبقها في ١٨ تموز الكشف عن مؤامرة جديدة وجرى توقيف عشرة بينهم ضباط جيش وضباط شرطة. وانتهز عارف يوم عيد المولد النبوي في ٢٠ من تموز لشن هجوم عنيف على البعثيين واتهمت =

كان عبدالسلام بحاجة الى دعم الناصريين المحليين كعاملٍ لتخفيف ضغط البعث التآمري وكذلك للوقاية من الشيوعيين الذين عادوا لرص صفوفهم وبناء تنظيماتهم رغم الأساليب القمعية التي مارسها ضدهم. بل كان بحاجة الى عبدالناصر بالذات مثلما كان عبدالناصر بحاجة اليه لمساندته في القضاء على اية محاولة بعثية أخرى تنوي استعادة سيطرتها بها.

وعلى هذا، وقع الطرفان في ٢٦ من أيار في القاهرة ميثاقاً جديداً وصفته الصحافة القاهرية «بالخطوة الأولى نحو الوحدة العربية الكاملة». ومن نصوصه اقامة قيادة عسكرية موحدة أثناء الحرب. واقامه مجلس رئاسي مشترك فوراً ينعقد دون إخطار مرة واحدة كل اربعة اشهر لتنسيق سياسة البلدين.

جرت المحادثات التي سبقت هذا الاتفاق أثناء زيارة (عارف) مصر بمناسبة المشاركة في احتفال الانتهاء من المرحلة الأولى من بناء سد أسوان العالي وكان (خروشجوف) الزعيم السوفياتي ضيف الشرف. وجرت محاولات تضحك الثكلى من عبدالناصر لانشاء علاقة بين حليفه الجديد وبين سيد الكرملين باءت بالفشل والاخفاق الذريع[٢٦] تخللها مناسبات ومواقف

= الصحف العراقية السوريين والايرانيين بالمشاركة وجاء اتهام ايران لأن المؤامرة كانت مركزة بنوع خاص على الجنوب ومن خطتها اثارة قبائل الجنوب.

(٢٦) تطرقت الى هذه المقابلة المسلية الصحيفة الروسية (اركومنت اي فاكت) الصادرة في موسكو بعددها المرقم ٤١ للسنة ١٩٩٧. ضمن مقال كتبه الصحافي الكساندر مورزوروف . قال: «من بين ضيوف عبدالناصر كان الرئيس العراقي السابق عبدالسلام عارف الذي عرف بممارسة أعمال القسوة على الشيوعيين العراقيين فنال منها كره موسكو وسخطها. ويبدو انه حاول المساومة على تعديل موقفه من الشيوعيين العراقيين مقابل الحصول على المساعدات السوفيتية فجلس بالقرب من (اوليغ كفتونوفتش) المترجم الخاص للزعيم السوفيتي وابلغه برغبته في التحدث الى رئيسه فأنهى المترجم الرغبة. وانتبه خروشجوف متذكراً وبادر يقول متسائلاً «أليس هو عارف الذي قتّل في الشيوعيين؟» اجاب المترجم «انه هو بعينه». قال خروشجوف: «إذن فأبلغه بأني لست مستعد للحديث معه فحسب بل لست مستعداً ايضا للتغوط الى جانبه لو ضمنا كنيف واحد!». قال هذا وراح يتفرس برضا وانشراح في وجه (عارف) ليرى اثر قوله هذا ومنتظراً ردّ الفعل.

بالنسبة الى المترجم المسكين كان موقفاً في غاية الحراجة. أن يكلف بترجمة عبارات خروشجوف المهينة لرئيس دولة ونصها هذا؟ في النهاية قرر في ذات نفسه ان لايفعل وان يعتاض عنها بعبارات من عنده، رسمت على وجه الرئيس العراقي علائم الرضا والارتياح. وادرك خروشجوف ان شيئاً قد حصل خلاف ما توقع فتوجه الى مترجمه سائلاً «هل نقلت له كلامي بالنص؟» اجاب المترجم: «ابلغته بأنك مشغول ولا وقت لديك للتحدث اليه الآن» وعصف الغضب بخرشجوف وطرد المترجم فوراً.

هذه الحادثة تناولها (هيكل) بتفاصيل طريفة أخرى في كتابه المطبوع باللغة الانكليزية في ١٩٧٣ بعنوان Naser: The Cairo Documents ناصر: الوثائق القاهرية.

ومما يذكره في هذا الصدد انه أي الزعيم السوفيتي التفت الى عبدالناصر وهما في السيارة وقال له «ياصديقي الرئيس الى متى ستحاول فرض هذه العنزة علي؟» فسأله عبدالناصر «اي عنزة؟» اجاب =

فكاهية.

وهكذا وجدنا (عارفاً) يكرر عين التاكتيك البعثي ليقذف بتهورٍ وطيش صبياني مقدرات العراق في سلة شراكة مع مصر دون انه يرى لزوماً لاستفتاء الشعب. والظاهر انه بالاخير – وبالاخير فقط أفاد من درس البعثيين الذين ماكتشفوا بأن عبدالناصر ماقبل الوحدة الا عندما بات أكيداً عنده بانه سيتولى السلطة بكاملها. وعارف واصحابه الضباط القوميون قدموا بهذا خدمة زائفة للوحدة العربية. لكنهم بالتأكيد ماكانوا يريدون ان ينزلوا عن امتيازاتهم أو ان تتقلص أدوارهم ضمن حدود بلادهم. إلا ان فكرة واحدة كانت تلازم هؤلاء وتملك عليهم مذاهبهم وهي الحصول على مزيد من السلطة والسمعة بمعونة عبدالناصر. بسبب وضعهم غير المستقر في العراق. ولذلك اعلن في كل من بغداد والقاهرة يوم ١٦ تشرين الأول ١٩٦٤ عن «قيام قيادة سياسية موحدة» لكن لم يتم الاجتماع الأول لهذه «القيادة» الا بعد مرور اكثر من نصف عام في (١٩ أيار ١٩٦٥)[٢٧].

ذكرنا آنفاً ان الدستور العارفي الموقت الذي وضع في ٣ من أيار ١٩٦٤ كان قد نص على ان يكون نظام الحكم العراقي إشتراكياً ديمقراطياً. وعلى اثر اتفاقية ٢٦ من أيار ١٩٦٤ وفي اليوم عينه اعلن في كل من العاصمتين عن تشكيل مجلس مختلط رئاسي للتخطيط والتنسيق. ودراسة ما لا غنى عنه من الخطوات المؤدية الى الوحدة الدستورية ومن مضمون الاتفاق وحدة التنظيم الحزبي وهو في مصر التنظيم السياسي الوحيد المسمى «الاتحاد القومي الإشتراكي» باختراع نموذج مماثل في العراق تشرف عليه الدولة ايضا. وقد اعلن عن تشكيله في ١٤ من تموز ١٩٦٤ وضم فضلاً عن الحركيين مجموعة الفصائل القومية القليلة الاهمية[٢٨] وبعض المستقلين والبعثيين السابقين الذين اصبحوا ناصريين وفي عين هذا اليوم

= خروشجوف بصوت عال «عارف عارف عارف» ثم تناول جريدة نشرت صورة عارف وقال الا يبدو شبيهاً بالعنزة». (تتمة حديث هيكل تجده في الص ٨١–٨٢ من كتابي «زيارة للماضي القريب ستوكهولم ١٩٩٨.») ومما يذكر في هذا الصدد ان عبدالناصر اطلق بمناسبة الزيارة سراح ٨٠٠ سجين ومعتقل شيوعي. واعيد الرائد الشيوعي خالد محي الدين المبعد ليرأس تحرير جريدة شيوعية مسائية. وبالمناسبة منح خروشجوف كلاً من عبدالناصر وعبدالحكيم عامر لقب «بطل الاتحاد السوفياتي» وقلد عبدالناصر وسام اللجنة الذهبية ودسام لنين وهما ارفع الاوسمة السوفياتية.

(٢٧) تألفت من رئيسي الدولتين. وستة اعضاء من كل دولة وكان المتوقع ان تتخذ خطوات وصفت بـ «العملية» لإنجاز ما سمي بالوحدة الدستورية. ودراسة وتطبيق ما لا غنى عنه من الخطوات المؤدية لتلك الوحدة الدستورية. كان عارف يرمي الى كسب عبدالناصر بوضع العراق على طريق إشتراكيته رغم معارضته ذلك ايام حكم البعث!

(٢٨) لم يكن للحركيين شأن يذكر في العراق قبل ١٤ تموز إلاّ ان نشاطاً ملحوظاً دب فيهم بعدها ولاسيما بين الطلاب. كانت هذه الحركة قد نشأت في اعقاب الفشل العسكري في العام ١٩٤٨ بتشجيع ورعاية =

وهو يوم الذكرى السادسة للانقلاب في العراق فاجأ طاهر يحيى رئيس الوزراء الشعب العراقي من دار الاذاعة بالإعلان عن الاجراءات الإشتراكية التي قضت بتأميم جميع المصارف المحلية والاجنبية وكل شركات التأمين وثلاثين مصلحة وشركة تجارية وصناعية. كما اعلن بان الشركات المؤممة سوف تديرها مؤسسات حكومية.

وتقرر كما هو الحال في مصر – ان يتقاضى عمال وموظف تلك الشركات ٢٥ بالمائة من الأرباح وأن يرسلوا الى مجلس الادارة أو المديرين ممثلين عنهم.

ولم تمس قرارات التأميم هذه شركات النفط الاجنبية فقد كان يخشى مضاعفاتها ومازالت تجربة قاسم المرة معها ماثلة. كيف انها كانت واحدة من اسباب سقوطه. إلا ان البعث السوري سدد طعنته الكبرى اثناء نزاعه مع شركة نفط العراق IPC خلال كانون الاول ١٩٦٦ أو أوائل آذار ١٩٦٧. حيث آلت النتيجة الى الاستيلاء على موجودات الشركة في سورية وأوقفت ضخ النفط العراقي من خط الانابيب المار بالارض السورية. فضلاً عن منع تحميل النفط من ميناء (بانياس) السوري. وكان الضرر العراقي جراء هذا العمل عظيماً جداً. لأن ٨٠ بالمائة من دخله القومي كان يأتي من عائدات نفطه المصدر. والذي استهدفه بعث سورية من ضغوطه ليس مجرد حمل الشركات على مضاعفة ما تدفعه من اجور لها لقاء مرور النفط من اراضيها. بل هو بالحقيقة ممارسة ضغط عراقي للسماح بنشاط سياسي بعثي. وبتعيين وزراء

= الدكتور قسطنطين زريق الاستاذ في الجامعة الامريكية ببيروت (انظر ما سبق) وفي أوائل العام ١٩٥٣ اندمجت في حركة عرفت باسم «كتائب الفداء العربي» وقد جمع الاثنين عداؤهما للصهيونية والانظمة العربية الرجعية والغرب وهي التي سببت نكبة فلسطين. واتجهت الى اسلوب النضال المسلح «للاقتصاص من اولئك الذين تسببوا في قيام دولة اسرائيل». وخططوا لاغتيال زعماء تلك الدول كنوري السعيد والملك عبدالله ابن الحسين والعقيد أديب الشيشكلي وانكشف التنظيم عند اغتيال الأخير منهم. ووجد على رأس الحركة (جورج حبش) وهو فلسطيني و(هادي هندي) سوري مولود في العراق. و(جهاد الضاحي) سوري. و(حسين توفيق) مصري اتهم قبل ذلك مع انور السادات باغتيال الوزير المصري (أمين عثمان). وانبثقت من هذه الجمعية جمعية ادبية اطلق عليها (العروة الوثقى) التي احتلت تدريجياً مكان المنظمة الاصلية (كتائب الفداء) وتزعمها (جورج حبش ووديع حداد، والعراقي حامد الجبوري) اصبح جورج حبش رئيس لجنتها التنفيذية وحولها بالنتيجة الى منظمة سياسية عربية باسم «حركة القوميين العرب» وثبت الشعار الذي عرفت به «وحدة. تحرير. ثأر: بالدم والحديد والنار». بالاول وقفت الحركة موقفاً معادياً من ثورة يوليو لعدم ايمانها بالانقلابات العسكرية. ولأن ضباط يوليو لايؤمنون بالحياة الحزبية فقد اسرعوا بالانقضاض عليها ومنازلتها. وفي العام ١٩٥٢ انشطرت الحركة على نفسها بظهور تيار محافظ يؤيد الغرب ويدعم بعض الدول السائرة في ركابه. وانفصل (جورج حبش) أخيراً عن الحركة انفصالاً تاماً ليؤلف تنظيماً فلسطينياً خالصاً كما هو معروف. وفي ١٤ تموز ١٩٥٨ لم يكن عدد اعضاء الحركة يتجاوز المائتين وبقي التنظيم العراقي ضعيفاً خلال العهود التي تلت الا انه الآن كان يتمتع بعطف عدد من الضباط القياديين في حكومة عارف.

بعثيين في حكومتهم. ثم وبخلقهم ازمة اقتصادية في العراق سيرغمون حكومته على الانحياز اليهم والى من يعتبرونه من الانظمة الثورية في البلاد الناطقة بالعربية.

بحث (ابراهيم ماخوس) وزير الخارجية السوري الأزمة مع العراقيين بشكل لايتصف بالمسؤولية حقاً حين عرض أن يُوجِد اسواقاً لنفط العراق لو قام العراق بتأميم النفط!

نقول: رحب الشيوعيون والناصريون بالاجراءات الإشتراكية وبقي موقف البعث العراقي غامضاً بسبب العداء بين البعث السوري ونظام عارف. اما دوائر الصناعة والاعمال في العراق فقد وجدوها مسخرةً، وعملية نفاق ظاهر لم تكن البلاد في حاجة اليها وتساءلوا عما اذا كان لديهم رئيس دولة سليم العقل أو انه اصيب فجأة بلوثة من الجنون على خفة عقله المعروفة. فقبلها بأسبوعين فقط (بالضبط في ٣٠ من حزيران) تحدث للصحف عن تلك الاشاعات حول التأميم ووصفها بالمناورات الخبيثة والافتراءات المغرضة وان «اعداء الشعب واعداء العروبة والامبرياليين هم الذين يروجونها». كما نفيت في ٨ تموز مثل هذه الشائعات على لسان وزير الاعلام. ونفاها في ١٣ منه رئيس الوزراء ثالثةً!

والعراقيون الشاعرون بالمسؤولية والحريصون على ما بنوه من الاقتصاد العراقي بجهود بطولية خلال السنوات الهوج الحافلة بالوقائع الدموية كانوا على ثقة تامة بأن حكومتهم ليست مؤهلة قط لادارة مشاريعهم الصناعية والتجارية. وان التأميم سيلحق الضرر العظيم بالاقتصادوالعراقي. وقيل الكثير عن الاسباب التي دعت الى هذه الحركة الهوجاء التي تزعمها وتحمّس لها القوميان الاقتصاديان عبدالله حسيب وأديب الجادر. قالوا إنها نتيجة رفض رجال الاعمال والتجار الشيعة الكبار التعاون مع عارف وموقفهم العدائي من اعتماد عارف على القاهرة اعني عقاب اعداء النظام بالدرجة الأولى. وزاد عداء الشيعة للنظام بعد التأميم وبعث علماء النجف وفداً (لعارف) يشكون من هذا الانحدار الجديد نحو التطرف الإشتراكي. الذي اصاب تجارهم وصناعييهم وبصورة خاصة مَن كان يتعاطى استيراد السكر والشاي وغيرها من البضائع الشرقية إحتكاراً[٢٩] الى جانب صناعات صغيرة تعتمد عليها.

ولم يجد رجال الأعمال والصناعيون مشجعاً على استحداث مشاريع خاصة جديدة لأنهم ظلوا يشككون في تأكيدات الحكومة بأنها لن تلجأ الى عمليات تأميم أخرى زيادة عما جرى

(٢٩) اكد تجار هذه المواد انه وبعد مرور ستة أشهر على تطبيق المقررات الإشتراكية الجديدة ان مبيعاتها هبطت بنحو ستين بالمائة. وشكا مديرو الشركات من التدخل الحكومي ومن سوء الادارة. بل حتى عمال المصانع المؤممة، فقد اتهموا الحكومة بان ما يحصلون عليه من اجور تناقصت رغم خطة مشاركتهم في الارباح (نيويورك تايمس عدد ٣ كانون الثاني ١٩٦٥).

في ١٤ من تموز.

وكان عبدالناصر عند حسن ظن النظام العارفي. فمن جهة أرسل قوة عسكرية بناء على طلب الحكومة قيل انها كانت تبلغ خمسة آلاف ضابط وجندي استقرت في معسكر التاجي وهي ضاحية لبغداد[٣٠]. كما بعث بما قدر في حينه بألف خبير وتكنولوجي مصري. إلا ان النظرة الدولية عند بعض الاوساط الحذرة من عبدالناصر. نظرت الى الإتفاق العسكري العراقي الإيراني في ٢٦ من أيار ١٩٦٤ بمنظار شؤم واعتبرته حركة كماشة ناصرية ذراعها الشمالي العراق وذراعها الجنوبي اليمن غرضها الاندفاع نحو الخليج ودوله العربية. او كأداة للضغط على الكويت للفوز منها بقروضٍ. وكذلك بمثابة ضمان لابقاء العراق تابعاً فاعلاً في سياسة المنطقة العروبية[٣١].

ولم يتقدم الاتحاد المفتوح بين العراق ومصر خطوة ابعد من «القيادة السياسية الموحدة» مع ان الدافع الذي حدا بنظام عارف الى هذا هو الخوف من البعث السوري. فالظاهر وكما تبين من

(٣٠) أمين هويدي «كنت سفيراً في العراق ١٩٦٣–١٩٦٥» دار المستقبل العربي القاهرة ١٩٨٣. ص٢٣ «في النصف الاول من شهر كانون الاول ١٩٦٣ زار صبحي عبدالحميد (وزير الخارجية) القاهرة وطلب من عبدالناصر بحضور عامر (المشير) قوات مصرية في بغداد وقال انه جاد في ذلك لأن مجرد تواجد هذه القوة ولو كانت بحجم كتيبة أو كتيبتين سوف يحقق لهم اغراضاً متعددة. فهو يؤمن الوضع في بغداد ويؤثر على الاوضاع السياسية في دمشق. ويلين من عناد الاكراد ويقنعهم بضرورة الوصول الى الحل السلمي. ووافق الاثنان على ارسال كتيبة أو اثنتين على ان يكون واضحاً ان لاتشترك هذه القوات في اي قتال باي حال. وان تقوم الحكومة العراقية بتدبير نقل القوات. وعرض (صبحي) ان تدفع الخزينة العراقية رواتبها فرفض ثم تمت الموافقة على ان تقوم الحكومة العراقية بتحمل الاجور الاضافية علاوة على تكاليف التموين والامداد». ويذكر هويدي ص٢٣٣ انه وقبل وصول القوات المصرية: «زارني العقيد الركن محمد مجيد معاون رئيس أركان الجيش وفوجئت يخبرني بانهم سيدفعون بقواتنا فور وصولها الى الشمال للعمل على احدى القطاعات في الجبهة. وكنت قد لمست هذا الاتجاه ولكن بصورة مبهمة من عارف قبل ذلك». ويذكر ايضا، ص٢٤٥: «وصلت القوات بقيادة العقيد ابراهيم العرابي في شباط (فبراير) ١٩٦٤. لكن وبعد أزمة (مايو) أيار ١٩٦٥ انتابني القلق فقد تجبرنا الظروف الضاغطة والتي اصبحت تتغير بسرعة كبيرة كل يوم – على عدم الالتزام بهذه السياسة الحيادية ولذلك عقدت مؤتمراً يوم ١٨ يوليو ١٩٦٥ في مكتبي بالسفارة حضره قائد الكتيبة والعقيد علي فهمي الشريف الملحق العسكري. وقررت ان اكتب للرئيس (عبدالناصر) بسحب القوة. وذلك بعد الشق في الصف القومي الذي يتولى السلطة في اعقاب الاحداث الأخيرة زاد الاحتمال بقيام الاطراف المختلفة بالتخلص من بعضها البعض والكل يسعى الى السلطة التي يسيطر عليها عارف حالياً».

(٣١) قام طاهر يحيى بتعديل وزاري في ١٤ من تشرين الثاني ليتخلص من رشيد مصلح وزير الداخلية والحاكم العسكري العام. وقد اعتبرت ازاحة هذا الرجل كسباً للناصريين لأنه لم يكن يحبذ اتحاداً مع مصر وكان يبدي تخوفه من «ان يسيطر عبدالناصر على مصادر الثروة في بلادنا» (دانا شمدت من تقرير له نشرته النيويورك تايمس في ٢٢ من تشرين الاول و١٥ من كانون الثاني ١٩٦٥).

التجربة ان النظام العراقي لم يكن قادراً على تطبيق نسخة النظام المصري. فضلاً عن ان عارفاً بات يكره كرهاً قتّالاً محاولات الناصريين العراقيين الحد من صلاحياته وسلطاته. وقد قال معبراً في ٤ من تشرين الأول ١٩٦٥ عن تبرمه وضيقه:

«ان الطريق الى الوحدة العربية ليس سهلاً وان بداية الطريق بالنسبة الى العراق هي تقوية وحدته الوطنية»[٣٢]

في العام ١٩٦٥ لم يعد لقضية الوحدة العربية الشاملة من المحيط الى الخليج، بل حتى الوحدة بين قطرين عربيين اية اهمية. لم يعد حتى اشد المتحمسين لها يبالي بإشغال حيّز من افكاره على اساس اعتبارها من المطالب الآنية الملحة بعد سبع سنوات فقط من اعتبارها المطلب الملح الأول للعالم العربي. وبوصفه السبب الرئيس في تدبير الانقلابات. وكان السؤال الذي يتحيّر على الشفاه ترى كم سيمر من الوقت قبل ان ينضم العراق والاردن الى الجمهورية العربية المتحدة (سورية ومصر)؟ تحطم كل شيء في ١٩٦٥ واصبحت القضية قضية صفقات وفوائد خاصة ومطالبة بديون وايادٍ مستحقة[٣٣]. ذلكم هو ابلغ دليل على فشل الفكرات التي تأتي من فوق ولا سند لها من تحت ولا جذور تقيها العواصف وغوائل الزمن. وهذا ما كان مقدراً لفكرة الوحدة العربية التي تتجسد منها فلسفة القومية العربية. لأنها كانت ابداً ثمرة فجة غير ناضجة لافكار نصف مطبوخة كانت تجول في رؤوس مغامرين من الساسة والضباط تلمع اسماؤهم وتخر كالشهاب الثاقب وتملأ تصريحاتهم وتنقلاتهم واعمالهم اعمدة الصحف وتصبح شغلها الشاغل ثم تخبو فجأة ولايلمح لها أثر أو يعود يسمع بها أحد، وتزول من الاذهان كالحلم البغيض.

وتأتي مؤتمرات القمة العربية للملوك والرؤساء في سنوات ١٩٦٣ و١٩٦٤ و١٩٦٥و ١٩٦٦، لتعيد التأكيد مرة بعد مرة على استقلال كل دولة عربية. وعلى سيادتها وحرصها على كيانها السياسي لتدفع بالوحدة الى زوايا النسيان ويظهر أن عبدالناصر في تلك الفترة

(٣٢) مرآة الشرق الأوسط. في ٤ من تشرين الثاني ١٩٦٥.

(٣٣) من ذلك: ان القاهرة احتاجت الى رصيد من العملة الصعبة فبادرت بغداد بايداع خمسة ملايين ونصف المليون من الدنانير تحت تصرفها في البنك المركزي (تعادل في ذلك الوقت حوالي سبعة عشر مليون دولار) ويرجع الفضل في ذلك الى الدكتور خيرالدين حسيب محافظ البنك المركزي... ولم يطالب العراق ابداً برد هذا المبلغ إلا بعد ان تولى شكري صالح زكي وزارة المالية في وزارة عبدالرحمن البزاز. واحتاجت القاهرة الى ٥٠٠٠٠ طن من القمح فلبي الطلب بمجرد ان فاتحت طاهر يحيى رئيس الوزراء وقتذاك ومن دون انتظار للاتفاق على الأسعار وعلى طريقة السداد بل بادر الرجل بفتح سايلوات البصرة على مصراعيها (أمين هويدي المرجع السالف ص ٢٣٩).

التي سبقت حرب ١٩٦٧ كان يقنع على مضض بالمظهر المحدود للوحدة المظهرية الوهمية مع العراق طالما بقي هذا القطر الى جانبه في اجواء السياسة العربية. ولعله كما يتراءى لي كان اذذاك أقل تحمساً لوحدة رصينة أو كاملة من كثير من الناصريين العراقيين. بدليل ان هؤلاء حاولوا باكثر من انقلاب فاشل اسقاط النظام واعلان الوحدة الفورية مع (ج.ع.م). فإن عبدالناصر كان ينجح دوماً في اجتناب ازمةٍ مع النظام الذي تآمر عليه انصاره. وان يبقى على علاقات ودية معه. كما كان يسعى بحرص وحذر شديدين على ابقاء نفسه بعيداً عن الخصومات القومية والوحدوية التي كانت تحصل كثيراً بين رجال السلطة العراقيين[٣٤].

في السادس من أيلول بعد كثير الخصومات داخل الوزارة والمجلس قبل عارف استقالة طاهر يحيى. وعين قائد القوة الجوية العميد عارف عبدالرزاق رئيساً للوزارة. يظهر من إسناد الوزارة الى قومي ناصري يميل الى الحركيين[٣٥]. ان عبدالسلام كان يريد تبديد الشكوك حول ما اشيع عن عدائه لناصريي العراق والخوف المَرَضي المزمن الذي انتابه من احتمال اغتياله[٣٦] صور له ان عارف عبدالرزاق هذا بوصفه متآمراً ناصرياً سيكون أقل خطراً عليه

(٣٤) في يوم ١٨ نيسان ١٩٦٥. كان ثم اجتماع للمجلس الوطني لقيادة الثورة لغرض بحث الموقف المتأزم في كردستان وضرورة ادخال تعديلات على الخطط الراهنة. وانتقل الموضوع فجأة الى بحث اقتراح لعبدالرحمن عارف بنقل العقيد فاروق صبري معاون مدير الاستخبارات العسكرية الى استخبارات قوة الميدان. وتكهرب الجو وخرج كل من عضوي القيادة محمد مجيد وهادي خماس. ثم ارسلا استقالتهما الى (عبدالسلام عارف) أثناء غدائه. وقام صبحي عبدالحميد وعارف عبدالرزاق بتقديم استقالتيهما أيضاً. وفي اجتماع في اليوم التالي بين صبحي عبدالحميد وبين عبدالسلام عارف انقلب الجدال إلى منازعة كلامية سوقية تبودلت فيها الشتائم الرخيصة والاتهامات الخطيرة. ومع ان الجماعة سحبوا استقالاتهم الا ان كل فريق منهم راح يحشد قواه للمعركة القادمة. وعندما اسند عبدالسلام أمر تشكيل الوزارة الى عارف عبدالرزاق شعر هذا الأخير بأنه يستخدم كمخلب قط في لعبة كبيرة لعبدالسلام، يريد ان يجعله فيها اداة لضرب كتلة صبحي عبدالحميد ثم يصبح التخلص منه فيما بعد من السهولة بمكان ولذلك اختمرت في ذهنه فكرة الانقلاب على عبدالسلام بغية ازاحته.

(٣٥) كان يقود الحركيين في تلك الفترة (باسل الكبيسي) وهو ابن عم لعارف عبدالرزاق.

(٣٦) هويدي، المرجع السالف، ص٢٦٥: «كان لهذه الازمات المتلاحقة تأثيرها الشديد على صحة الرئيس عارف وعلى حالته النفسية. فأخذ يفقد الكثير من وزنه بعد ان عافت شهيته الطعام وعز عليه النوم فما كان يأكل الا لماماً، وماكان يذهب الى فراشه إلا بعد صلاة الفجر. بعد ان امضى الليل كله ساهرا يفتش الحرس في القصر الجمهوري. وذهبت به الوساوس الى الحد الذي لمسته بنفسي عند زيارتي اياه في الليل والنهار. اذ ماتكاد حجرة مكتبه تحتوينا حتى يقوم بنفسه بقفل الحجرة بالمفتاح والمزلاج خوفاً من اقتحام مفاجيء يقوم به خصومه. ولم يكتف بهذا بل تولى بنفسه تعيين خدمة الضباط في الحراسة دون سابق انذار واكثر من تغيير وحدات الحرس خوفاً من ترتيبات تدبر من وراء ظهره». قلنا يصعب تعداد المؤامرات التي دبرت لهذا الرجل سواء على حياته أو نظامه. فقد تواصلت مؤامرات الناصريين والبعثيين وذكر انه احبط في ٢٩ من تشرين الأول ١٩٦٤ محاولة انقلاب واعتقل ٣٠ ضابطاً لكن افتضح امرهم في الوقت المناسب واستسلموا دون مقاومة جدية وهم ممن كان يريد الوحدة الفورية (الحياة ٤ تشرين الثاني =

كرئيس حكومة من كونه قائداً للقوة الجوية. وطاهر يحيى كان في الواقع آخر بعثي منقلب – بقي خلال التغييرات الحكومة. عرف بالليونة والاعتدال، ويحتمل ان اصبح خطراً على عبدالسلام بحرص هذا الأخير على مركزه وشكه الدائم في الجميع.

واحتفظ عارف عبدالرزاق لنفسه بوزارة الدفاع الا انه اودع وزارة الداخلية (عبداللطيف الدراجي) صديقه الشخصي كما جعل الدكتور عبدالرحمن البزاز وهو من قوميي الاربعينيات نائباً له. وهو مدني كان عميداً لكلية الحقوق في السابق وسفيراً للعراق في بريطانيا وبعد تأليف الوزارة بأسبوع واحد ترك (عبدالسلام) بغداد الى مؤتمر القمة العربي الثالث في الدار البيضاء بمراكش. وألّف على سبيل الإحتياط من انقلاب محتمل لجنة دفاع تتألف من شقيقه ورئيس الوزراء ووزير الداخلية لمزاولة سلطاته أثناء غيابه وكان واثقاً من ولاء مدير الشرطة العام وحاميات بغداد والحرس الجمهوري. الى جانب رئيس الوزراء كان ثم مدير الأمن العام ومدير الاستخبارات العسكرية وآمر الكلية العسكرية وهم ناصريون.

كانت الخطة ان يقوم عارف عبدالرزاق باذاعة بيان يتضمن تنحية عبدالسلام في يوم ١٤ أيلول وإلغاء منصب رئيس الجمهورية وتشكيل مجلس قيادة ثورة ووزارة قومية جديدة برئاسته. إلا ان تلكؤه ووثوقه بكلمة الشرف التي اعطاها إياه انصار عبدالسلام لقاء تركهم مطلقي السراح وامور أخرى تتعلق بعدم تجاوب للحركة وتشتت كلمة المؤتمرين، احبط المؤامرة واضطر رئيسها الى ترك بغداد[٣٧].

= ١٩٦٥) بعدها بأسبوعين (١٤ تشرين الثاني) احيل الى محكمة امن الدولة ٢٦٨ شخصاً من العسكريين والمدنيين بتهمة التخطيط بانقلاب شيوعي يقوده المقدم الركن سليم الفخري (مدير الاذاعة والتلفزيون ايام قاسم) جرت محاكمة ٥١ منهم حضورياً والباقي غياباً ولم يصدر حكم فيها وفي اواسط كانون الثاني ١٩٦٥ جرت محاكمة اخرى لواحدٍ وثمانين متآمراً على النظام بمساندة الحزب الشيوعي وبهدف وضع الحكم في ايدي القاسميين وقادة الحزب الوطني الديمقراطي. وفي عين الوقت تابعت دوائر الأمن نشاطاً جديداً للحزب الشيوعي في الفرات الاوسط يرمي الى الاعتصاب المسلح فألقي القبض في ٨ من كانون الاول ١٩٦٥ على حوالي خمسين من الشيوعيين (تراجع مرآة الشرق الاوسط عدد ١٨ كانون الاول والحياة عدد ٩ كانون الأول). ولم ترق هذه الى المؤامرة الخطيرة البعثية في آذار ١٩٦٦ التي شجع عليها الانقلاب البعثي المتطرف في سورية في شهر شباط وعاونتهم فيها عناصر معادية للناصرية مع انصار طاهر يحيى وتم ابعاد واحالة الى التقاعد زهاء اثني عشر من كبار الضباط الموالين للبعث ومن بينهم العقيد سعيد جلبي قائد موقع بغداد الذي احبط مؤامرة عارف عبدالرزاق في أيلول ١٩٦٥ مع مدير الأمن العام وهو من انصار طاهر يحيى (نيويورك تايمس ٣٠ آذار ١٩٦٦).

(٣٧) هذا بعض دقائق من التفاصيل في الخامسة عصر ذلك اليوم استدعى عارف عبدالرزاق مدير الشرطة العام (حميد قادر) وهو صديق للعقيد سعيد صليبي آمر موقع بغداد إلا انهما كانا من جماعة عبدالسلام وصارحه بانه يباشر انقلاباً وطلب منه اما مشاركته واما ان يبقى على الحياد. فتظاهر مدير الشرطة باختيار الوقوف الى جانبه متحمساً وتعهد له باقناع (سعيد صليبي) إلا ان هذا ما ان سمع بالانقلاب =

كانت الخطة بالاصل تقضي باحتلال بغداد بكتيبة مدرعات يقودها العميد محمد مجيد مدير الحركات بوزارة الدفاع. وان يتحرك العقيد الركن عرفان وجدي بتلاميذ الكلية العسكرية. وفي الوقت عينه استدعي المقدم بشير الطالب آمر احد افواج الحرس الجمهوري لاعتقاله الا انه جاء متأخراً قليلاً وشعر بما يجري فاسرع الى معسكره واعلن رئيس الأركان حالة التأهب القصوى وخرج بشير الطالب بدباباته لتطويق قوة ابي غريب وتم له ذلك واستسلمت بعد تبادل اطلاق نار لفترة قصيرة. ولم يحل عبدالرحمن عارف دون فرار عارف عبدالرزاق[٣٨] ربما بقصد إحراج مركز القاهرة.

كانت المحاولة بتفاصيلها موضع سخرية وتندر اعلامي عام ووصفت بالاوبرا الهزلية (اوبرا كوميك) وسميت انقلاباً بالتلفون، واطلق عليها بعضهم «انقلاب على النفس» وانتشرت الشائعة بان رئيس الوزراء تلفن باسلوب مؤدب جنتلماني للموظفين الكبار بوجوب تسليم دوائرهم للانقلابيين وهكذا. وعلم بعد أسبوع ان ١٦ ضابطاً و٢٩ مدنياً تم اعتقالهم فضلاً عن ثلاثين تركوا البلاد.

أحرج المصريون فعلاً. وراحوا يؤكدون لعبدالسلام بحرارة، أن لا علاقة لهم مطلقاً وبأي وجه

= حتى اسرع باندار كل قطعات بغداد الموالية لعبدالسلام. في عين الوقت تلقى العقيد (هادي خماس) الذي كان يعاون عارف عبدالرزاق في قيادة الانقلاب – تلقى في الغرفة المجاورة محادثة تلفونية من مجهول (ربما كان صليبي) مفادها ان الضابط عبدالأمير الربيعي فشل في السيطرة على معسكر ابي غريب وقد تم اعتقاله هو والضباط المشاركون معه. ولم يكن هذا صحيحاً فان السيطرة الفعلية على المعسكر كانت قد تمت واصطفت الدبابات للزحف على بغداد ولم يكن ممكناً التحقق من الأمر لأن الربيعي كان قد قطع أسلاك تلفونات المعسكر بعد استيلائه عليه. ولم يفكر احد في ارسال من يتأكد من الخبر رغم قرب المسافة. واعتبرت المكالمة التلفونية حقيقة لا ريب فيها. وعندها أصدر عارف عبدالرزاق أمراً بتأجيل العملية، وبدا سعيد صليبي في مقره بالانضباط العسكري سيد الموقف. قصده مدير الأمن رشيد محسن يعرض عليه منصب رئاسة الجمهورية ان هو انضم الى الحركة فهزأ به. وفي صباح اليوم التالي عقد اجتماع في منزل عارف عبدالرزاق لتدارس الموقف. وبالنتيجة قرر مغادرة البلاد واتجه بأسرته الى مطار بغداد مع عدد من الضباط المتآمرين واستقلوا طائرات حربية اقلتهم الى القاهرة. وتفرق شمل الضباط القوميين الآخرين المشاركين فمنهم من نجح بعد لأي في الوصول الى القاهرة. ومنهم من تم إلقاء القبض عليه ومنهم من وضع تحت الاقامة الجبرية في منزله ومنهم من استقبل الصحراء بوجهه في طريقه الى الكويت. وجه الغرابة ان القاهرة لم تكن تعلم ان عارف عبدالرزاق جاء لاجئاً اذ انه استقبل بوصفه رئيس حكومة وانزل مع صحبه في قصر الطاهرة. ثم ولما انجلى الموقف طلب منه بأدب ان يخلي القصر وحل ضيفاً في شيرد. يقول (هويدي: الص ٢٦٠–٢٦٦) يبدو ان صليبي اشار على صديقه عارف عبدالرزاق بالرحيل وانه سهل له الأمر وكان قادراً على منعه. فقد بقي مقدار ساعتين في المطار حتى جهزت له طائرة. ثم اكتشف بانها غير صالحة فاستبدلت بأخرى».

(٣٨) الحياة، مرآة الشرق الاوسط. ١٦–١٨ من أيلول. ينزروز– المرجع السالف ص٦١، ج٢ «سخر عبدالناصر من عارف عبدالرزاق بوصفه رئيس الحكومة الذي «فشل بالانقلاب على نفسه».

كان بالانقلاب، وسماها هيكل صحفي عبدالناصر في جريدة الأهرام باعظم مفاجأة لمؤتمر الدار البيضاء. وترك عبدالسلام المؤتمر في ١٨ من أيلول وتوقف في القاهرة. واستقل طائرة أخرى لأنه أنذر باحتمال قيام احد انصار عارف عبدالرزاق بالتعرض له في الجو. وكان البديل طائرة عسكرية مصرية خاصة يقودها الملازم (حسين عبدالناصر) أخو الزعيم المصري.

واعرب عند وصوله بغداد عن امتنانه وتقديره للقوات العسكرية العراقية «التي تحبط اعمال الاشرار الساعية الى التفرقة» داعياً من الله ان «يحمي البلاد من الاشرار ومفرقي الصفوف».

وتلا فشل المحاولة تأليف حكومة عبدالرحمن البزاز. اول رئيس حكومة مدني منذ انقلاب ١٤ تموز يتحدث عن التعاون مع مصر «مع الأخذ بنظر الاعتبار ظروفنا الخاصة» مقترحاً العمل الجاد الحثيث لإقامة اتحاد فدرالي وأعرب عن امنيته في بناء عراق زاهر ليست فيه مجالس عرفية عسكرية ولا انقلابات ولا دبابات في الشوارع. وهاجم الماركسية. ودافع عن إشتراكية حكيمة أو إشتراكية رشيدة غير مستوردة تشجع القطاع الخاص».

★★★

تفاصيل عودة الحياة الى الحزب الشيوعي العراقي بعد الضربة القاضية التي انزلها به البعثيون ليست من مجال بحثنا إلا بقدر ما يتعلق بوجهة نظره الجديدة في الوحدة العربية والاتجاه القومي بصورة عامة.

ويمكن القول ان القيادة الجديدة تألفت من سائر من نجا من نطع الجلاد وسجونه بوجوده في الخارج أو نجح في اللجوء الى كردستان المحررة.

وفي الخارج كانت لديهم– اذاعة صوت الشعب العراقي من العاصمة الچيكية (پراغ) تشرف عليها وتديرها «اللجنة العليا لحركة الدفاع عن الشعب العراقي في الخارج». كانت تهاجم الحكم البعثي العارفي وتدينه بالخيانة وتصفه بالدكتاتورية الرجعية العسكرية». وتواصلت هذه السياسة فترة بعد انقلاب ١٨ تشرين ثم حصل الانقلاب المفاجيء للجميع. ونزلوا عند طلب موسكو عندما أمرتهم بتغيير نهجهم ونظرتهم الى حكم عبدالسلام والى تطلعات القومية العربية على النمط الناصري[٣٩].

(٣٩) هناك اسباب كثيرة لاعتماد الخط الجديد: هناك هدنة العاشر من شباط ١٩٦٤ مع الكرد التي حياها خروشجوف ووصفها بالخطوة المدروسة لتحسين مكانة الجمهورية العراقية في عيون شعوب العالم (النداء البيروتية. جريدة الحزب في ١٦ شباط وغيرها) وهناك ايضاً تشديد الرابطة بين القاهرة وبين موسكو =

قالت لهم موسكو: حان الوقت لتبديل الخط. فأسرعوا يعيدون النظر في سياستهم المعادية لعارف. ثم جمعوا كونفرانساً في بغداد بحثوا خلاله ملياً في كيفية التنسيق مع سياسة الاتحاد السوفياتي الجديدة وعلاقتها بمصر والعراق وتكررت المأساة ثانية واستذكر المتتبعون به موقف الحزب في اعترافه بذنوبه ايام قاسم. عندما خرج الكونفرانس بخط سياسي جديد عرف بخط آب. واليك مقاطع من بيانه الختامي:

«مرحلة جديدة، مرحلة متغيرات اجتماعية هامة وضعت (ج.ع.م) على طريق التطور اللارسمألي نحو الإشتراكية... ان انجازات الثورتين المصرية والجزائرية كانت ذات تأثير مطرد، ومصدر وحي لنضال الشعوب العربية والافريقية – وقد وضعتا جمهوريتين شقيقتين في طليعة العالم العربي.

تمسكنا نحن الشيوعيين العراقيين بالموقف الانعزالي في الماضي ازاء حاملي شعار الوحدة العربية وكانت الصيغة التي قدمناها بعد ثورة تموز خاطئة... ماكان يجب علينا أن نرفع الشعار الجماهيري الذي يناقض شعار الوحدة.

انه لمن الخطأ ان يظل الشيوعيون يتمسكون بالديمقراطية السياسية كشرط لمساندة اية وحدة عربية... ان مشكلة الديمقراطية وبضمنها اجازة الحياة الحزبية يمكن حلها في مسار عملية الوحدة، بنضال الجماهير والأخذ بأسباب الإقناع والتأثير المتواصل للمعسكر الإشتراكي على زعماء العرب أنفسهم[٤٠]. ان الكونفرانس ينظر الى قضية الوحدة العربية على ضوء الظاهرة الجديدة التي ترى في العراق. ظاهرة التطور اللارأسمالي والتقدم الإشتراكي الذي يغني المحتوى التقدمي للوحدة العربية ويطلقها حركة تهدف الى التحرر القومي والاجتماعي معاً.

ان الكونفرانس ينظر الى انقلاب ١٨ تشرين الثاني كحركة أزاحت كابوس النظام الفاشي والحرس القومي من فوق ظهور الشعب وخلقت شروطاً افضل للنضال مع القوى المناهضة للامبريالية من أجل المحافظة على الاستقلال الوطني والسياسة

= وزيارة خروشجوف ولقاؤه بعبدالسلام. واطلاق سراح عدد كبير من مسجوني عبدالناصر الشيوعيين. واستئناف تزويده بالسلاح السوفياتي ثم الاتجاه الناصري في بغداد لعمليات التأميم الإشتراكية التي اتينا الى وصفها.

(٤٠) معنى هذا. وارجو ان يعذرني القاريء ان أخطأت – ان المعسكر الإشتراكي الذي لاتسمح دوله بنشاط اي حزب غير الحزب الشيوعي الحاكم – سوف يدافع عن التعددية الحزبية في البلدان العربية متى ما وَجدَت تلك الأحزاب فرصة للعمل!

العراقية الرسمية في عودة البلاد الى ركب التحرر العربي.»

في الوسط الناصري الوحدوي العراقي كان هذا البيان «صوتاً ضائعاً في صحراء» لم يعبأ به أحد أو يثير في القوميين انتباها. وبقي نعتهم للشيوعيين بـ(الذيليين) لاصقاً الى جانب الإسم المحبب الآخر (الشعوبيين). في حين كانت المجالس العرفية العسكرية تواصل ارسال الشيوعيين والديمقراطيين بالمئات الى السجون. وعشرات من المحكومين بالموت يتلهى عبدالسلام عارف بتعليق آحاد منهم على سبيل التسلية حينما يخطر ذلك بباله.

كان (عارف) قد توصل مع الزعيم الكردي البارزاني الى وقف لاطلاق النار بعد ثلاثة اشهر من قتال عقيم واقدم في شهر شباط على بذل تعهدات شفوية حول منح الكرد قدراً من الحكم الذاتي. إلا ان البارزاني رفض العروض التي قدمتها حكومة بغداد في حزيران لأنها لم تكن تحقق الحد الأدنى مما أمله الكرد وبالاخص لأنها لاتستبطن حكماً ذاتياً.

وهو ما الجأ البارزاني الى اقامة حكم ذاتي واقعي de facto في الاراضي التي تسيطر عليها قواته ونظم لها ادارة واجهزة حكومية ثم راحت وفود وجاءت وفود. وفي أواخر شهر آذار ١٩٦٥ عندما تقدم البارزاني بمطالبه الأخيرة لحكومة بغداد تلقى من رئيسها طاهر يحيى رداً عنيفاً. اذ علق عليها بقوله «انها دعوة خطيرة للانفصال من مجنون فقد عقله»[٤١]. وما اشرف الشهر على نهايته حتى تم للحكومة حشد خمسين ألف جندي بمواجهة الكرد واستؤنف القتال ولم يكن يعرف أين سيقف لو لم يمت عبدالسلام عارف في الثالث عشر من نيسان ١٩٦٦ بسقوط طائرته المروحية بفعل عاصفة رملية جنوب العراق وهي في طريقها الى (البصرة) من (القرنة) واحتراق كل من كان فيها.

واسرع البارزاني ينفي بشدة قاطعة اي دخل له في هذا الحدث الرباني بعد قيام بعض القوميين الحاقدين بمحاولة نشر اشاعة في هذا المآل. واذيع ذلك بحسب علمي من راديو الثورة. لكن مازال هناك بعض الكتاب يزعمون بان موت عارف كان من تدبير خصومه[٤٢] السياسيين. لكن وبعد ساعات من تشييعه أختير رئيساً للجمهورية شقيقه عبدالرحمن عارف في جلسة عاصفة مشتركة من اعضاء الوزارة ومجلس الدفاع القومي[٤٣].

(٤١) مرآة الشرق الاوسط ٣ نيسان ١٩٦٥. تقرير كتبه دانا شمدت للنيويورك تايمس بعنوان حكومة كردية اتونومية Autonomous Kurdish Government

(٤٢) انظر مسعود البارزاني: المرجع السالف، ص١٧٣ الحاشية «سألت عماش بعد آذار هل سقوط طائرة عبدالسلام كان نتيجة عمل تخريبي قام به البعث فانكر بشدة وقال ان الطيار الذي كان يقودها طائرته وهو الرائد نوري هو من خيرة الضباط البعثيين وقد مات معهم».

(٤٣) قيل ان عبدالرحمن كان يميل الى رفض المنصب، وان المشير عبدالحكيم عامر الذي حضر تشييع =

ثم عهد لعبدالرحمن البزاز تشكيل الوزارة في ١٨ من نيسان ١٩٦٦ على اساس تعهده بحل المشكلة الكردية والقضاء على الاوضاع الاستثنائية.

وخرج في ١٨ من أيار بان حكومته مستعدة لقبول اي شيء لايعني قيام كيان إنفصالي في كردستان. واعلن في ٢٩ من حزيران من دار الاذاعة عن خطته لانهاء القتال وصدر من البارزاني ما ينم على موافقته. وقد اقترح البيان اعطاء نوع من الادارة المحلية على اساس قانون اللامركزية الذي قال انه في طريقة الى الصياغة. وجرى ذلك على اثر هزيمة ساحقة منيت بها القوات العراقية في جبلي هندرين وزوزك. جعلت الجيش فاقداً المعنويات وبحاجة ماسة الى مهمات واسلحة تعويضاً لما فقده بسبب تلك الهزيمة.

وفي أثناء وجود الوفد الكردي في بغداد الذي جاء للمداولة حول محتوى بيان ٢٩ من حزيران. اقدم عارف عبدالرزاق على محاولته الانقلابية الثانية الفاشلة.

قلنا اعطي حق اللجوء في مصر بعد انقلاب أيلول الفاشل.

عاد الى العراق بموجب العفو الذي اصدره عبدالرحمن عارف عند اختياره رئيساً للجمهورية (وقيل انه عاد متسللاً). كان الهدف من الانقلاب كالسابق فرض نظام إشتراكي واعلان الوحدة الفورية مع مصر. وفي مبدأ الأمر استولى الانقلابيون على مطار الموصل بتعاون قائد الفرقة الرابعة يونس عطار باشي[٤٤] احد قادة الحركة. ثم بعثوا بطائرات عسكرية لقصف القصر الجمهوري بدفعات نصف ساعة، ولأكثر من اربع ساعات. وانجزوا الاستيلاء على مبنى الاذاعة وناشدوا من خلالها ولفترة قصيرة الرئيس عارف باسم المجلس الثوري - بالاستسلام بهدوء اجتناباً لاراقة الدماء واتهموا حكومته باعادة العراق الى عهود النظام البائد قبل ثورة الرابع عشر من تموز. إلا ان الحكومة اعادت سيطرتها على دار الاذاعة بعد ساعات قلائل والقي القبض على عارف عبدالرزاق حال نزوله من الطائرة وتمكنت القوات الموالية من التغلب على المتآمرين وجعلتهم «يتراكضون كالجرذان» بتعبير رئيس الجمهورية في اليوم التالي[٤٥].

= جنازة الميت نيابةً عن عبدالناصر اقنعه بقبول الترشيح ضماناً لاستمرارية النهج السياسي. وجرى الاجتماع وكان مؤلفاً من ٢٥ شخصاً ورشح الى جانبه كل من عبدالرحمن البزاز واللواء الركن عبدالعزيز العقيلي وكان قادة الجيش قد وعدوه بانهم سيصوتون له لكن ونتيجة فرز الاصوات حصل كل من عبدالرحمن عارف وعبدالرحمن البزاز على اثني عشر صوتاً ولم يحصل العقيلي الا على صوته فخرج غاضباً ينعى خذلانه بقارص اللوم على من وعده فنكل (قال عبدالرحمن البزاز: سمعت التهديد وتجنباً لسفك الدماء سحبت ترشيحي متوخياً إبعاد البلاد عن شبح انقلاب عسكري: (نقل لي هذا رجل ثقة كان سجيناً مع البزاز في قصر النهاية).

(٤٤) هو العميد الركن الذي اطلق سراحه من السجن اثر انقلاب الثامن من شباط ١٩٦٣. بعد ان حكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة بتهمة تعاونه مع محاولة انقلاب الشواف واعيد الى الخدمة وهو زميل دراسة.

فشلت المؤامرة برفض تعاون حامية الموصل ووحدات معسكر الرشيد وقوات الحرس الجمهوري في بغداد. ونوه (عارف) بسقوط ثمانية قتلى من الضباط والجنود و١٤ جريحاً. ثم عقب يقول:

«هذه المرة لن يكون هناك عفو للمتآمرين وسوف يقدمون للعدالة ويحاكمون بموجب القانون».

ووصف قائد الحركة بالخائن الجبان وكان قد القى القبض عليه مع سبعة عشر من المشاركين ومن بينهم صبحي عبدالحميد والعميد الركن عبدالكريم فرحان. احد اعضاء الهيئة العليا التي قامت بانقلاب ١٤ من تموز مع ثلاثة ضباط آخرين برتبة عقيد. الى جانب قادة من الحركيين بعد فشل المحاولة اخذت برقيات التهاني تنهال على دار الاذاعة بعد اعلانها الفشل في الساعة السابعة والدقيقة الخمسين.

راح الناس في اليوم التالي يتساءلون هل كانت القاهرة ضالعة؟ هل غادر عارف عبدالرزاق مصر دون علم القاهرة أو موافقتها؟ في الواقع ان القوات المصرية في معسكر التاجي بقيت في مواضعها ولو كان الأمر برضى مصر لتدخلت. ثم انه من غير المنطقي ان يختار عبدالناصر ضابطاً فاشلاً كعارف عبدالرزاق ليضعه على رأس انقلاب.

في اليوم التالي اكد عبدالرحمن البزاز. بان لا علاقة لمصر بهذه المحاولة وقال في مؤتمره الصحفي:

«حتى لو كان بين المتمردين بعض العناصر البعثية التي نجحت في الهروب بالرغم من الرقابة الصارمة التي تفرضها مصر عليهم.»[٤٦]

لكن الاعتقالات لم تعقبها محاكمات بفضل مرسوم اصدره رئيس الوزراء الجديد ناجي طالب في ٩ آذار ١٩٦٧.

★★★

كان بيان وقف اطلاق النار ثم صدور بيان ٢٩ حزيران قد ضمن فائدة للطرفين المتحاربين. اتاح للثوار فرصتهم للاستجمام ولعق جراحهم كما اعطى الحكومة فرصة لتثبيت مواقعها والبدء بتطبيق برنامجها الاصلاحي. الا ان العسكرية العراقية لم تمهل وزارة البزاز للبرهنة

(٤٥) لوس انجلس تايم. نيويورك تايمس، رويترز في الاول والثاني من تموز ١٩٦٦.
(٤٦) راديو بغداد - في ٢ تموز ١٩٦٦.

على صدقٍ في تطبيق بيانه[٤٧] واثارت غضب العسكريين رغم تفاهتها. وارغمته على الاستقالة في آب ١٩٦٦. ووقع الاختيار على «ناجي طالب» الذي وعد بتنفيذ البيان ولم يكن جدياً. وقام «رئيس الجمهورية رغماً عنه» كما لقب حينذاك بزيارة للبارزاني مطمئنة في كردستان الا ان الزعيم الكردي لم يُخفِ استياءه من النكث بالوعود. وعبر عن نفاد صبر عظيم بالاحتجاجات المتتالية لعدم تنفيذ الحكومة الجديدة مواد البيان.

الا ان القتال لم يستأنف وروعيت الهدنة ووقف اطلاق النار حتى سقوط عارف الثاني بانقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ وكان أقل حماسة بكثير من شقيقه لفكرة وحدة عربية. كما كان هو والقومي الآخر البزاز. اكثر حذراً من (قاسم) من شروط الوحدة مع مصر. ويظهر ان الجميع ادرك خلال هذه السنوات السبب: ان اي وحدة مع مصر ستؤدي الى اقتسام عوائد النفط العراقي وسَتَقذف بكل المُقْدمين عليها الى موارد حتوفهم. رغم كل الانقلابات ومحاولات الانقلاب الوحدوية التي اتينا الى ذكرها. وليس بينها واحدٌ يعتمد على قوى شعبية.

***

ختاماً لهذا الفصل أرى ان اقول شيئاً حول إشتراكية العراق المؤقتة التي هندستها وزارة طاهر يحيى تقرباً الى النظام المصري.

بالاصل لم يحذُ العراق حذو السوريين والمصريين في مسألة التأميم فقد تم الابقاء على معظم الادارات السابقة وفشلت مقاسمة العامل الارباح فشلاً ذريعاً بل رفضت عموماً من جانب النقابات وفضل الاحتفاظ بالنظام القديم للرواتب والمشاهرات والترفيعات والأجور الاضافية. الا ان الحكومة استخدمت قرارات التأميم لممارسة المزيد من الضغوط على حرية القول فسحبت امتيازات الصحف الست عشرة التي كان يملكها الاشخاص واحلت محلها ست صحف يومية يديرها ويرأس تحريرها موظفون حكوميون.

ولم تتعرض قرارات التأميم للمشاريع الصغيرة. ولذلك بقي العراقي لايشعر بوطأتها

(٤٧) اعطى البيان حقاً للكرد في ملء بعض المناصب الحكومية الهامة ووعد بتمثيل لهم في البرلمان (القادم) يناسب حجمهم الى مجموع السكان العام. وحريتهم في الاستمتاع بكل ما يبرز هويتهم القومية والثقافية ومنها حقهم في استخدام لغتهم على الصعيدين الرسمي والشعبي واصدار الصحف والكتب بها والاعتراف بنشاط الحزب الديمقراطي الكردستاني كما وعد باعادة اعمار ما خرّبته الحرب وانشاء مشاريع اقتصادية للتطوير ولرفع المستوى المعاشي. واصدار عفو عن الضباط والعسكريين الملتحقين بالثورة. الى غير ذلك من التعهدات والمطالب التي لم تنفذ. (راجع الفصل العاشر ص١٨٣ وما بعدها – ط اربيل ٢٠٠٢ مسعود البارزاني «البارزاني والحركة التحررية الكردية»).

كشعور المصري والسوري بها خصوصاً.

وبقيت العلاقات العراقية السورية متوترة ولم يدخر الحكام السوريون جهداً في مناصبة العراقيين العداء السافر واحراجه في كل صغيرة وكبيرة[٤٨].

(٤٨) مثلاً عندما جرت مؤامرة الثلاثين من حزيران ١٩٦٦ الفاشلة وصفت جريدة الثورة الدمشقية الرسمية تعقيباً – النظام العراقي« بالنظام المؤقت الذي لايصلح للبقاء». وقالت الجريدة عن اتفاق وقف اطلاق النار وبيان ٢٩ حزيران «بانه اتفاق خطير مع الانفصاليين» ووصفت زيارة البزاز الرسمية لتركيا «بالزيارة المشبوهة» وما اشبه.

الفصل السادس والثلاثون

البعث سيد الحكم في سورية . احتكار وظائف الدولة وتسريح القوميين الناصريين وغيرهم . صراع ايديولوجي داخلي وفوضى فكرية ضمن القيادات . تأجيج الصراع بالانتماءات الطائفية والمذهبية في القيادات . وزارة البيطار . إرغامه على الاستقالة . السوريون يضيقون ذرعا بممارسات السلطة . اللجوء الى العنف . صدامات دموية في (حمص) ومحاكمات عسكرية . اشتباكات في (بانياس) . قتال ضار في (حماه) . المدافع توجه مقذوفاتها نحو المساجد . تظاهرات عنيفة صاخبة . محاكمات عسكرية . التأميم . مراسيم متلاحقة تشل الحياة الاقتصادية تماماً . صراع بعثي قيادي داخلي تعذر احتواؤه . استقالة أخرى لوزارة البيطار . وزارة أمين الحافظ . اليمين واليسار في القيادة . اضراب شامل ضد إجراءات البعث الاقتصادية ومقاومة عمليات التأميم . ظهور أمين الحافظ وصلاح جديد ويوسف زعين . تعيين الأخيرين في المجلس الرئاسي . عفلق : الحزب أصبح مجرد عصابة . صراع بين (الحافظ وجديد) . التجسس الإسرائيلي والياهو كوهين وتورط قياديين بعثيين معه . محاولة الخلاص من التفسخ الإداري . ظهور حافظ الأسد ، محاولته رأب الصدع . الخلاف الداخلي يؤدي الى مواجهة . معركة عنيفة في دمشق والهجوم على منزل أمين الحافظ . الانقلاب يوصف بالحركة التصحيحية . إيقاف العمل بالدستور . مؤتمر قطري . اتفاقية اقتصادية مع الاتحاد السوفياتي . سليم حاطوم على رأس مؤامرة فاشلة . الدستور المصري السادس المؤقت . أحوال الأقلية القبطية . التفرقة الطائفية

أصبح البعث في سورية السيد غير المنازع بعد إجهاض الانقلاب الناصري في ١٨ من تموز ١٩٦٣. ومع أن السلطة أعلنت تقيدها بمنهاج الحزب ونظامه في عملية اختيار الموظفين والاداريين والهيئات الحاكمة. إلاّ أن هذا كان وجهاً من أوجه الخداع لكسب ثقة الناس. لأنّ السلطة الحقيقية بقيت في يد الضباط بعد الغلبة التي حققها هؤلاء في صراعهم الحادّ المستديم بين الأجنحة العسكرية والمدنية في الحزب. وبين المعتدلين والمتطرفين من أعضائه وبين القيادتين القومية والقطرية. ولم يكن في ضروب هذه الأشكال من النزاع شيء يمت الى

اختلافٍ في وجهات النظر في الأهداف القومية أو المستقبل العربي الوحدوي[١]. أحياناً يتخذ الصراع شكل شدّ وجذبٍ على الحكم بين ضباط أقوياء مع أنصار مدنيين وحلفاء يختلفون فحسب على مدى التعاون الواجب مع مختلف البلدان العربية ولاسيما مصر، ومع مختلف الفصائل والشخصيات السياسية البارزة والأحزاب السورية. وكان ثمّ خلاف شكلي أو سطحي يستخدمه المتنازعون لتغطية منافستهم على الزعامة. في كيفية تطبيق الإشتراكية وتعيين أعضاء الحزب في أجهزة الدولة المستحدثة وإشغالهم المناصب الرفيعة. كان الحزب في الظاهر يحكم لكن الذي يحكم فعلاً هو مراكز القوى فيه لفترة معينة خلال هذا الصراع لم يكن هناك مرجع أعلى. إن ذلك يذكرني بما كتبه السيد داسكو درودر Dasko Droder[٢] قال:

> أذكر أني قرأت في كتاب مدرسيّ للتاريخ أثناء دراستي في روسيا ما اكتشفتُ منه بأن الاتحاد السوفياتي بقي بدون قائد أو زعيم بعد وفاة لنين في ١٩٢٤ حتى مجيء برجنيف في ١٩٦٤! والتعليل في غاية البساطة. فستالين الذي اغتصب السلطة في ١٩٢٤ رسمه خروشجوف غولاً ووحشاً ومجرماً فتاكاً. وخروشجوف واجه المصير عينه حين أطاحه برجنيف!

وما جرى في سورية حتى انقلاب حافظ في ١٩٧٠ لايختلف. كان أساس الصراع والفوضى الفكرية عند بعث سورية هو في رأيي عجزه عن تحديد العلاقة بين التنظيم البعثي في الجيش أو ما دعي باللجنة العسكرية التي ساهمت في قمع انقلاب ١٨ آذار ١٩٦٣ والسماح لها بالمشاركة في القيادة والاشراف على التنظيم المدني. في حين لم يسمح للقيادتين القطرية

(١) ليس ثم وجه غرابة. تشير دفاتر ملحوظاتي الى وقائع معينة دونتها في أوقات متباعدة نقلاً من هذا المصدر وذاك – حول تحول عبدالناصر من القومية الى الإشتراكية. في أيار ١٩٦٣ شرح عمله هذا لزعماء سوريين بقوله «إكتشفنا أشياء جديدة. فكرنا بأن تحقيق الإشتراكية هو أصعب من الوصول الى هدفنا في الوحدة إلاّ أننا نعتقد الآن أنّ الوصول الى الوحدة هو أصعب هدف من أهداف الأمة العربية». وفي ٢٢ تموز ١٩٦٣ أكد «اننا شعبٌ عربي نؤمن بالقومية العربية والوحدة وسنواصل العمل للقومية والوحدة». وبعد أقل من سنة واحدة (١٩٦٤) القى خطاباً قصيراً إثر التهانيء والتحيات من زعماء افارقة حضروا مؤتمراً في القاهرة. لم يجد عبدالناصر حاجة لذكر القومية العربية قط. وفي ٢٢ شباط بمناسبة الذكرى السادسة للوحدة. لم يظهر مصطلح «القومية العربية» في خطابه المكرس برمته للشؤون العربية. وفي الخطاب غير المرتجل المعد سلفاً بمناسبة إفتتاح المجلس الوطني في ٢٦ من آذار ١٩٦٤ لم تظهر عبارة القومية العربية مطلقاً. ومما يدعو الى أعظم الإستغراب أن الدستور المؤقت الصادر في آذار ١٩٦٤ لم نجد في باب الشروط التي يجب توفرها في رئيس الجمهورية أن يكون عربياً. بل نصّ فحسب على أن يكون «من أبوين مصريين».

(٢) من مقال كتبه في مجلة ناشنال جيوگرافيك National Geographic الأمريكية. تشرين الأول ١٩٩٢.

والقومية بالسيطرة أو الاشراف على التنظيم العسكري رغم انهما تضمان أعضاء عسكريين.

هذه الحالة كما يقول منيف الرزاز أمين سرّ القيادة القومية لفترة ما – تفسر فشل حزب البعث في كل من سورية والعراق[٣].

والتنظيم العسكري هذا بإجماع المصادر البعثية، نشأ منذ أيام الوحدة ومن قادته المتأخرين ثلاثة ضباط علويون هم (محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد) ثم انضم إليه فيما بعد الضابط السنّي (أمين الحافظ) أثر عودته من الأرجنتين.

بقي هؤلاء الضباط في الخندق المعادي لعبدالناصر حتى بعد الانفصال، لكنهم كانوا أيضاً ضدّ النظام الذي أقامه الانفصاليون لأنه ألغى الاجراءات الإشتراكية. وهم في موقفهم المرتاب المتحفظ من الوحدة مع عبدالناصر كانوا على اتفاق مع أولئك البعثيين الذين يحمّلون عفلق والبيطار مسؤولية القبول بالوحدة من دون ضمانات. وكانوا يدعون دائماً الى اعادة تنظيم الحزب وغربلته والمدنيون وهم أصحاب النفوذ الأكبر في القيادة القطرية السورية وكانت هذه بدورها تضمّ عدداً من الضباط وكانوا أقل ميلاً من القيادة القومية لاقامة الوحدة وأكثر معارضة للتعاون مع عبدالناصر كما كانت تفضل الاسراع بدل التدرج والاعتدال في تطبيق الإشتراكية. هذا بخصوص شعاري الوحدة والإشتراكية. امّا بخصوص الشعار الثالث «الحرية» فلم يكن موضع بحث قط بين الأطراف ومن كل أوجه الخلاف!

وهكذا بقي الجناح العسكري أقرب فكرياً الى القيادة القطرية منه الى القيادة القومية حتى بوجود عدد من أعضاء التنظيم في القيادة القومية.

الصراع بين التنظيم العسكري والقيادة القومية يمكن أن ينظر اليه من زاوية عوامل الانتماء الطائفي والديني والجغرافي والاجتماعي. هناك مجموعات الأقلية الاسلامية من العلويين والاسماعيلية والدروز. لاسيما الأولى منها التي كان لها الأكثرية العددية في الجيش بعد تطهير العام ١٩٦٣. هذه الطائفة كانت تكره التقارب من عبدالناصر وتتوجس منه خيفة وتخشى أن تعطي العودة الى الوحدة الأرجحية والقيادة للسنية كان ثم أيضاً الوضع المعاشي البائس الذي يحياه ريفيو وجبليو المناطق العليا والفقر المدقع الذي حمل العلويين على التصميم المطلق على تطبيق الإشتراكية بهدف إضعاف وإفقار الطبقة الوسطى السنية التي تعيش في المدن. ومما زاد في تأزم الحال المسلك الانتهازي الذي سلكه بعض أقطاب البعث بمنح عضوية الحزب مئات من أولئك الذين نزلوا الميدان يتزاحمون ويقتتلون على المناصب الخطيرة والمربحة.

(٣) الرزاز، المرجع السالف، الص ٩٢-٩٤.

والقصد كسب المزيد من المحاسيب والأنصار بهدف تقوية مراكز بعض القياديين.

في بحران هذا التحزب العشائري والطائفي والانتهازي وبكل التخريب الذي عمله في بناء الحزب بقي الضباط البعثيون يؤلفون مجموعة أو طبقة خاصة ذات امتياز. وباتت مدن معينة أو مناطق أو حتى دوائر وقطعات في الجيش وفي الأجهزة الادارية بمثابة مناطق نفوذ قاصرة على ضباط معروفين جداً.

بعد مرور أسبوع واحد على فشل الانقلاب الناصري. قدم الفريق لؤي الأتاسي استقالته من رئاسة المجلس الوطني لقيادة الثورة ومن منصب القائد العام للقوات المسلحة. ولم يكن ينظر اليه بوصفه بعثياً صميماً. وأختير أمين الحافظ لاشغال المنصبين[٤]. فأصبح بهذا المعيار في مقام رئيس الدولة الرسمي مع انه ظلّ محتفظاً بوزارتي الدفاع والداخلية. ثم بدا من الضروري اعادة توزيع المقاعد الوزارية لاسيما بعد انسحاب الوزراء الموالين لزياد الحريري كما تقدم بيانه.

وفي ١٥ من شهر آب ألّف صلاح البيطار وزارته الثالثة المؤلفة من ١٨ وزيراً وتنازل (أمين الحافظ) عن منصبيه الوزاريين. وسرعان ما نشب خلاف بينه وبين زميله اللواء محمد عمران. كان أمين الحافظ يرى وجوب وضع نهاية لعزلة سورية البعثية وتصفية الأجواء مع الدول الناطقة بالعربيّة واعادة العلاقات الطيبة مع الفئات والأحزاب والشخصيات السياسية السورية. وكان اللواء محمد عمران قائد كتيبة الدبابات السبعين يرى أن يتفرد البعث في الحكم وأن يمدّ يد الصداقة لعبدالناصر وكان غافلاً عَمّا يدبّر له. إذ فوجيء في ١٤ أيلول بقرار من المجلس الوطني لقيادة الثورة بتعيينه في منصب دبلوماسي فرفض الانصياع وقالوا إن الجانبين وضعا قواتهما الموالية في الانذار وعلى خط المواجهة. إلاّ أن القضية حُلت بإلغاء القرار وبقاء محمد عمران في منصبه العسكري، ولم يعلم قط اسباب صدور ذلك القرار ولا كيف تم تلافيه داخلياً.

في أوائل شهر تشرين الأول. عرض البيطار استقالته فرفضها المجلس. وذكر أن اسبابها تعود الى عدم انتخابه لعضوية القيادة القوميّة وخلافه مع أمين الحافظ والعسكريين الآخرين، وقلقه من زيادتهم عدداً وثقلاً على عدد القادة المدنيين في الحزب. وفي تلك الأثناء. أكتشفت مؤامرة ناصرية من خطتها السيطرة على راديو حمص ومناشدة عبدالناصر ارسال قوات محمولة جوّاً بعد الاعلان عن استيناف الوحدة مع مصر. وذكر أن حوالي ٢٠٠ ضابط

(٤) علق علي صالح السعدي على تعيين الحافظ بقوله «انسان طيب لكنّه مشوّش لايصلح لقيادة ثورة عربية. [من مقابلة له في مجلة منبر الشرق الأوسط Middle East Forum. تشرين الثاني ١٩٦٣].

مسرّح ومُقال تم اعتقالهم لعلاقتهم بالمؤامرة[٥].

وفي الخامس من تشرين الأول عقد حزب البعث مؤتمره القومي السادس في دمشق وحضره مندوبون عن بعث العراق والأردن ولبنان والسودان بل وبمندوبين عن دول الخليج وشمال افريقيا. ودام ١٧ يوماً وثبت عفلق أمين سرّ القيادة القومية العام وأقصي البيطار. وفي ١٢ من الشهر باتت استقالة وزارته رسمية وشكلت بعد يومين وزارة جديدة برئاسة أمين الحافظ جامعاً بذلك اليها رئاسة المجلس وثبت اللواء عمران نائباً له. كما تسلّم (صلاح جديد) العضو في القيادة القومية رئاسة الأركان العامة بعد ترقيته الى رتبة لواء.

لم يمض على تولي أمين الحافظ مهام الوزارة غير أربعة أيام عندما حصل انقلاب الثامن عشر من تشرين في العراق وتشتّت شمل البعث. وبدا وكأن لا حيلة له بعد أن فقد النصير القوي أن يبحث عن تقوية مركزه محلياً أي من الداخل. فبادر الى إخلاء سبيل «القدسي» وسمح لرئيس وزارته «العظم» بترك ملجأه السياسي في السفارة التركية. كما ذكروا انه كان يميل الى مصالحة (أكرم الحوراني) زعيم الجناح الآخر للحزب الذي ساند عملية الانفصال. إلاّ انه عدل عن الفكرة لأنه شعر بأن زملاءه العسكريين لايحبذون ذلك. وانتبه السوريون في أوائل كانون الأول ١٩٦٤ إلى هزلية تدور حول هذه الشخصية الغريبة الأطوار، سيما عن سلسلة من الأوامر والأوامر المضادة والأوامر الملغاة باعتقال الحوراني ثم بإلغاء الأمر ثم باعتقاله! وفي العاشر من هذا الشهر أقدمت الوزارة على إلغاء قرارات تجريد الشخصيات السياسية من الحقوق المدنية التي صدرت بعد مؤامرة الثامن من آذار. ثم أعلن مجلس قيادة الثورة عفواً عاماً شمل الأشخاص المحكومين والمتهمين بمختلف الجرائم ضد سلامة الدولة. ومن بين المشمولين بالعفو زعماء مؤامرة ٢٨ أيلول ١٩٦١ الانفصالية الموقوفين من أمثال حيدر الكزبري وموفق عصاصة.

في القرارات التي اتخذها مؤتمر حزب البعث السادس أعلن أنه الحاكم الاوحد الذي لا شريك له في سورية[٦] وانه اتخذ مقررات إشتراكية تقدمية ستكون دستوراً لدولتيه في العراق

(٥) نيويورك تايمس، ٧ تشرين الأول ١٩٦٣.

(٦) أُرجّح أن القرارات المتطرفة التي اتخذوها إنما كانت بسبب وقوعهم تحت تأثير القرارات والإجراءات الإشتراكية التي اعتمدها عبدالناصر والرغبة لا في مجاراته بل في سبقه بالأحرى بعد اقامته الاتحاد العربي الإشتراكي [يراجع النص في الوثائق العربية للعام ١٩٦٣ الص ٤٣٨-٤٤٤] لكنها أصبحت في الواقع مصدر مشاعر معادية للبعث وسبباً للشقاق داخل الحزب. واليك ثبتاً مختصراً لأهم تلك القرارات: البعث هو القائد الموجه لسياسة الدولة العامة وليس هناك مجال للتسامح بوجود أي حزب آخر. الحرس القومي هو عماد حماية الثورة. نشر الثقافة العقائدية في الجيش بغية إعطاء معنى ثوري جديد =

وسورية.

هذه المقررات كما ترى تضمنت جرعة ماركسية كبيرة تزيد كثيراً عما يمكن أن تتحمله المعدة السورية. وكانوا كما نوهنا يريدون استباق عبدالناصر بالركض وراء الإشتراكية بحيث نسوا كما نسي هو قضية العروبة المركزية «الوحدة» كانوا يريدون أن يظهروا بأنهم لايقلوّن إشتراكية عن عبدالناصر ولا أقل ثوريةً. وقد وجدوا أن محاولة تطبيقها في العراق كانت سبباً لإنهاء حكمهم. وتجاهلوا الفرق بين المجتمع العراقي والمجتمع السوري. والفرق بينهما وبين مصر. وبقوا لايدركون مطلقاً انّ سمعة عبدالناصر وشعبيته لم تتأت من خطط اقتصادية سليمة أو من سياسة إجتماعية ذكيّة. بل بنجاح ما حققه لمصر في عالم المناورات السياسية الدولية والعربية في خلال فترة عصره الذهبي بين ١٩٥٥ و١٩٥٨. تواصلت الحرب الباردة بين سورية ومصر على نحو ما ألمعنا اليه حتى العام ١٩٦٦. عندما استخدم رئيس الوزراء السوفياتي ألكساي كوسيگن نفوذه أثناء زيارة قام بها للقاهرة – لعقد هدنةٍ بين الطرفين وايقاف الحملات الصحفية والاذاعية ثم نجاحه في إنجاز عقد ميثاق عسكري بين الدولتين. وسعد البعث الحاكم بمساندة الأغلبية السورية عندما وضع العسكريون السوريون أمام الشعب أحد الخيارين: البعث أو الناصرية، وهم يعرفون النتيجة رغم أنهم يدركون بأن أغلبية الشعب السوري الساحقة لاتريدهم... وانهم ليسوا موضع إعجاب أو احترام لديه.

من نتائج خصومة بعث سورية مع عبدالناصر، تقارب بين مصر وبين الأردن في خريف العام ١٩٦٣ كما انجرت كذلك الى خصومات مع لبنان فأدت الى قيام الحكومة اللبنانية بوقف نشاط حزب البعث وإلغاء إجازته[٧].

= للانضباط العسكري. الانتقال من مرحلة الايمان بالإشتراكية الى العمل على تطبيق الإشتراكية. التحول الإشتراكي يجب ارساؤه على أسس ديمقراطية والمشاركة الجماهيرية. وعن الطبقة المتوسطة البرجوازية يرى المؤتمر انها لم تعد قادرة على النهوض بدور ايجابي مهما قلّ في الحقل الاقتصادي. وإن معارضتها للاجراءات الإشتراكية ومقاومتها لها جعلها حليفاً جديداً للامپريالية! واعتبر المؤتمر العمال والفلاحين والثوريين والمثقفين من المدنيين والعسكريين والبرجوازيين الصغار باعتبارهم القوة التي ستقوم ببناء الثورة الإشتراكية في مرحلتها الأولى وأكد على أهمية سيطرة العمال على وسائل الانتاج لتخطي مرحلة الرأسمالية الحكومية التي مرّ بها معظم التجارب الإشتراكية «ومنها التجربة المصرية». استمرار الثورة الزراعية. المزارع الجماعية يجب أن يتولى الفلاحون إدارتها في الأراضي المشمولة بقانون الاصلاح الزراعي. وجوب ادارة الحكومة على أسس ديمقراطية وثورية الخ... الخ...

(٧) المحادثات التي جرت بمبادرة من الملك حسين مع هيكل (الناطق غير الرسمي بلسان عبدالناصر) في فندق (كريلون) بپاريس في ٢٦ من أيلول. وباسم الزعيم المصري، أنهت حالة العداء بين البلدين (مجلة التايم ١ تشرين الاول. ونيويورك تايمس عدد ١٥ تشرين الأول). بعد ثلاثة ايام من الاتفاق، بدأ راديو دمشق يشير بصراحة الى انه تحالف يرمي الى اسقاطهم. وفي لبنان انقلبت الصحف الناصرية التي كانت تعضدهم =

كانت هزلية ممتعة تمثل إذذاك على خشبة المرسح القومي العروبي: البعث يتهم عبدالناصر بأنه دكتاتور يحكم بلاده حكماً استبدادياً توتاليتارياً. ويوجه كلّ وسائل إعلامه على نظامه. وسورية تتهم لبنان. والاردن من جانبه يلاحق البعثيين المتآمرين ويعتقلهم في بلاده. ومصر تبعث بوكلائها الى سورية لإحداث انقلاب[٨] والجميع يتهم الباقين باللاديمقراطية ومصادرة الحريات العامة.

بقيت سورية سنة واحدة بعد الثامن من آذار – لايجد حكامها حاجة الى دستور جديد – خلا منهاج حزب البعث ومقررات مؤتمراته. وظلوا حتى العام ١٩٧٠ وهي السنة التي جعلناها نهايةً لكتابنا. لايفكرون بسن دستور دائم. أخضعوا سورية لنظام حكم الحزب الواحد وطردوا مئات بل آلافاً من الموظفين المسلكيين المتمرسين وأحلوا محلهم أعضاء حزبيين تنقصهم الخبرة والتجربة وفرضوا على كلّ مكلف بخدمة عامة القسم بشعارهم «امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» والايمان بالهدف المتمم «وحدة حرية إشتراكية». وأخضعت النقابات للحزب وفرضوا في مجال التعليم وبضمنها التعليم العسكري مناهج خاصة ذات رؤى وايديولوجية بعثية تمجد أشخاصاً كعدنان المالكي ويسرى سعيد ثابت[٩] بوصفهم شهداء أو مناضلين في سبيل القومية العربية. وجعلوا الثامن من آذار عطلة رسمية.

وكان ثمّ انفجار. ضجّ السوريون وهم يسمعون ليل نهار شعارات البعث تتلى في كل مكان وتقرأ على الحيطان والملصقات في الشوارع وفي الصحف ودورات المياه ومعامل تفريخ الدجاج. فضلاً عن الاجراءات القمعية ومداهمة البيوت الليلية. والأدبيات التافهة التي تخرجها المطابع ومحاولات تطبيق القرارات الإشتراكية التي تصدر بسرعةٍ وبشكل متواصل، والكساد التجاري العام الذي نجم عن ذلك.

ونما الاحتجاج ليتخذ شكل العنف اذ وقعت صدامات عملية في حمص في أوائل شباط أدى الى حملة اعتقالات واسعة وأدين خمسة من مثيري الاضطراب أمام محكمة عسكرية

= عليهم وأنهت شهر العسل بينهما واتهمت حكومة البعث لبنان بتركه عناصر ناصرية تتسلل الى سورية عبر الحدود بقصد العمل على تقويض حكمهم.

(٨) في التاسع من تشرين الأول قتل على الحدود أربعة جنود لبنانيون إثر صدام مسلح. وأدى بالأخير الى قيام كمال جنبلاط وزير الداخلية في كانون الأول الى إلغاء إجازة الحزب. ومما يدعو الى الدهشة أن هذا الزعيم السياسي كان في وقت ما أحد المعجبين والمساندين للبعث ايام تعاونه مع الناصريين في محاولة إسقاط كميل شمعون!

(٩) الأخت الشقيقة لاياد سعيد ثابت قائد محاولة اغتيال عبدالكريم قاسم وهي الأنثى الوحيدة التي مثلت امام المهداوي في تلك المحاكمة وبرئت.

وحكم عليهم بمدد تتراوح بين عشر سنوات وعشرين[١٠] وبقي الناصريون ناشطين يتحدَّوْن السلطة. ففي الثامن من هذا الشهر نظموا في (بانياس) على الساحل السوري تظاهرة احتفالاً بالذكرى الأولى لنجاح انقلاب الثامن من شباط في العراق تصدّى لها أهل السنّة هناك وكانت حصيلة الاشتباكات خمسة من القتلى واعتقال المئات من الناصريين. إلاّ أن المصادر الرسمية نوهت باعتقال خمسين «على أثر مؤامرة تهدف الى القيام بأعمال تخريبية تهدد أمن سورية».

وفي آذار ١٩٦٤ هوجمت مخافر شرطة خارج مدينة حلب، وحوكم المهاجمون وكانوا من ضباط الصف المتقاعدين مع مدنيين أربعة. وحكم على تسعتهم بالموت في شهر نيسان. ثم خفض الحكم بعد أسبوع الى الحبس المؤبد وادّعت الحكومة انهم من عملاء مصر[١١].

إلاّ أن وقعة (حماه) في أواسط نيسان ١٩٦٤ كانت أعنف وأشدّ تعبير عن السخط العام من حكومة البعث وقد بدأت بتظاهرة طلابيّة احتجاجاً وعلى أثر محاكمة طالب في مدرسة عثمان صوراني الثانوية بتهمة مسحه من فوق سبورة صفه شعاراً لحزب البعث. فأخبر عنه المعلم الذي كتب الشعار وسيق الطالب متهما. وحكم عليه بالحبس لمدة سنةٍ واحدة. كانت أول تظاهرة تخرج ضد البعث بعد سنة واحدة من مجيئه. وتلت المظاهرة حوادث شغب واشتباكات مع قوات الجيش التي حُرّكت الى المدينة من معسكرات في ضواحي (حمص) أسرع أمين الحافظ الى حماه، وأصدر أمراً بحظر التجوال بعد لقاء بينه وبين شخصيات بارزة في المدينة. ثم عاد الى دمشق بعد يومين للإحتفال بيوم (الجلاء) مقسماً في الخطاب الذي ألقاه بالمناسبة بأنه سيسحق المؤامرة المدبرة ورؤوسها مدعياً بأن الإقطاع كان وراءها ووراء حوادث الشغب بدافع الخوف من الاجراءات الإشتراكية.

وفي العاشر من نيسان هاجم خطيب الجمعة في مسجد حماه حزب البعث بشدة. وكان من جماعة الاخوان وهم في حماه أكبر حجماً من الناصريين وأكثر نشاطاً. وفي اليوم التالي تجددت المظاهرات ووقعت اشتباكات قتل فيها طالب واحدٌ على الأقل وتواصل إضراب المدينة وأغلقت المحال أبوابها وفي يوم الأحد آضت (حماه) مدينة موتى لايرى فيها إلا أشباح جنودٍ مدججين بالسلاح يجوبون شوارع المدينة وما أمر أمين الحافظ برفع حظر التجوال حتى انطلقت التظاهرات بأعنف مما جرى قبلها فأسرع الى المدينة وأمر بقصف الاحياء المعتصمة بالمدفعية الثقيلة واستمر القتال وأصيبت مئات المباني بالتلف الكلي أو الجزئي. وقام بالإفراج عن

(١٠) ذكر راديو بغداد (مبالغاً) أن ٢٥ شخصاً قتل نتيجة الصدام بين المعتصبين وبين رجال الأمن.

(١١) مرآة الشرق الأوسط، عدد ٩ أيار ١٩٦٤.

الطالب المحكوم. وأمر بصرف تعويض لأهل الطالب الذي قتل نهار الاثنين. إلاّ أن الاشتباكات تجددت نهار الإثنين وأطلقت زخات من الرصاص على الجنود من مسجد السلطان فسقط عدد منهم قتلى ووجهت المدافع الثقيلة قذائفها الى المسجد فانهار جزء من منارته. وادعت مصادر معادية للبعث أن عدد القتلى تجاوز الثلاثمائة إلاّ أن العدد الحقيقي لايمكن أن يقلّ عن السبعين من الجانبين بأيّ حال ولم تقدر مصادر خارجية عدد الجرحى. إلاّ أن أمين الحافظ قال في مؤتمره الصحفي الذي عقده بتاريخ ٢٥ نيسان في دمشق: «انه ما رفع حظر التجوال في حماه حتى اندفع المسلحون الى الشوارع وباشروا بأعمال القتل وارتكاب المجازر بحق قوى الأمن والحرس القومي في الشوارع الجانبية والأزقة وعمدوا الى تشويه جثثهم وركزوا مدفعاً رشاشاً على المنارة وعندما طُوِّق المسجد وأُمر المعتصمون بالاستسلام أرسلوا شباناً وأحداثاً في سن الأربعة عشرة والسابعة عشرة ليسترحموا لهم. وعندما دخل رجال الأمن المسجد أوقعوهم في كمين وقتل بسبب من ذلك عدد من الجنود وهو ما جعلنا نأمر بقصف المسجد والمدينة».

وأجاب على سؤال صحافي بأن عدد القتلى من الجنود كان خمسة مع ١٥ جريحاً. ومن بين المدنيين المتمردين حوالي ١٤٠ أو ١٥٠ أو ١٦٠ على الأكثر بين قتيل وجريح[١٢].

في الثاني من أيار أصدرت محكمة الثورة المنعقدة في حماه الحكم بالموت على ٢١ مداناً بالمشاركة بالانتفاضة وأعمال القتل. وفي اليوم التالي قرر مجلس قيادة الثورة إبدال العقوبة بالسجن المؤبد «بناءً على وساطة كبار علماء الدين والمنظمات الشعبية البعثية» وأنزلت كذلك من عقوبات خمسة محكومين بالحبس المؤبد. وعلى عدد كبير من المحكومين بمدد تتراوح بين سبعة أعوامٍ وخمسة عشر عاماً[١٣].

(١٢) لم نعثر على نصّ التصريح. لكننا نقلنا ما احتجنا اليه من نيويورك تايمس أعداد ١٦–٢٠ نيسان ١٩٦٤. أمر أمين الحافظ في ٢٠ من نيسان بتوزيع نصف مليون ليرة (ما يعادل مائة وعشرين ألف دولار) على فقراء حماه الذين هدمت دورهم أو أصابها التلف. كما أرصد مبالغ كافية لإعادة تشييد ما هدمه القصف المدفعي من بناءٍ في المسجد والمنارة. وقال عن المعتصبين إنهم لقوا العون من السفارة المصرية في بيروت ومن عبدالسلام عارف في بغداد الذي دفع مبالغ كبيرة من المال للمتآمرين والمشعوذين باسم الدين والإخوان المسلمين الذي تم شراؤهم بالمال وانطلق راديو دمشق ليشبه عبدالسلام عارف بنوري السعيد واتهمه بالتآمر لإحياء حلف بغداد (الحياة. في ٢٥ نيسان ١٩٦٤).

(١٣) تراجع الجريدة الرسمية (الوقائع السورية: ٣٠ نيسان ١٩٦٤ للتفاصيل). إلاّ أن حركات الاحتجاجات والاضطرابات في مدن سورية لم تقف عند حدّ. ففي ١٨ من نيسان كان في حمص اضراب عام. وأغلقت في دمشق يومي ١٩ و٢٠ منه المتاجر والدكاكين والقي القبض على عشرة تجار وصودرت متاجرهم ومحتوياتها. (كانت المتاجر قد فتحت في الحادي والعشرين منه لمدة أربعة ايام بمناسبة عيد الأضحى لكنها أغلقت بعدها) وتواصل الاضراب. إلاّ أن الحاكم العسكري العام أصدر في ٣٠ من نيسان بياناً عُرفياً مرقماً ٨٣، ينذر فيه بتقديم المضربين الى محكمة عسكرية ومصادرة جميع ممتلكاتهم. وقال إن =

ثم تلاحقت مراسيم التأميم تأخذ بعضها بحُجزِ بعض في فترة وزارة البيطار الرابعة التي استقالت في أوائل تشرين الأول ١٩٦٤ بضغط اللجنة العسكرية التي نوهنا بها. وأسندت لأمين الحافظ رئاسة الوزارة. وكان هناك صراع داخلي فشل البعثيون في احتوائه وبدا حديث أوساط خارجية. كان هناك صراع على السلطة بين القيادة القطرية وبين القيادة القومية. وفي أوائل العام ١٩٦٥ ادعى القطريون بمساندة اللجنة العسكرية المسيطرة على القيادة بأن خلافهم الرئيس مع القيادة القومية هو موقفهما المختلف من الإشتراكية وأنهم يساريون في حين أن القيادة القومية يمينيّة المسار[١٤].

ومع أن هذا الخلاف تسربت أنباؤه الى الشارع السوريّ إلا أن الجمهور على أكثر تقدير وبقدر قلّة اهتمامه بما يجري أدرك أن صراعاً عنيفاً يدور بين القيادتين لاسيما بعد مراسيم التأميم الكاسحة التي صدرت في أوائل كانون الثاني ١٩٦٥ في فترة حكم أمين الحافظ لتبرهن على يسارية القطريين ويمينية القيادة القومية[١٥]. وعلى أثر صدور قوانين التأميم هذه شكلت محكمة عسكرية من خمسة قضاة للنظر في الجرائم التي ترتكب ضد النظام الإشتراكي وضد الثورة وضد التأميم وتهريب الأموال الى الخارج وأعطيت صلاحية فرض عقوبة الموت أو الحبس المؤبد على المدانين بها. وكانوا على علم تامٍ بأن الإرادة الشعبية ستتحداهم رغم ذلك وأنها سترفض العمل بقرارات التأميم لذلك هيأوا قواتهم لمواجهة التحدي ووضعت دبابات وجنود على مداخل المصانع المؤممة. وحاولوا لعبةً خسيسة بقدر ما هي ساذجة: قالوا للتجار إن سياسة الحكومة هي إشتراكية، إلاّ أنها كذَّبتْ رسمياً الإشاعة بأن التجارة الخارجية والبنايات الخاصّة ستؤمم. وسياسة البعث هي صدور بيانات رسمية تؤكد للناس بأنها لن تعمد الى اجراءات تأميم بعد ما أنجرت منها. في حين لا نيّة لها للوفاء بقولها،

= التهمة التي ستوجه اليهم هي الإخلال بالأمن وإضعاف الثقة بالحكومة وهي جريمة تصل عقوبتها الى الموت. على أن القسوة البهيمية غير المسبوقة في تاريخ سورية الحديث في التعامل مع الاضراب أثارت ردود فعل عنيفة جداً منها المذكرة التي قدمتها نقابة المحامين السوريين الى السلطة محتجة على الاجراءات غير المسبوقة في معالجة الموقف. وناشدت «الجبهة الوطنية الديمقراطية الدستورية» المؤلفة من مختلف الاحزاب في تصريح نشرته – الشعب لتوحيد الصفوف وبذل الجهود لإنقاذ البلاد من الزمرة الحاكمة المجنونة».

(١٤) من الأمثلة: أسْهَمَ أصحابُ سبعة آلاف شخص في رأسمال مصنع للسمنت في حماه أغلبيتهم من ذوي الدخل الواطيء وتم تأميمه تحت زعم المحافظة على مصالح ٢٠٠ عامل يشتغلون فيه ويعيشون عيشة أعلى مستوى بكثير من أغلبية أصحاب الاسهم فيه [يراجع فصل التأميمات الجديدة في سورية من كتاب «جبران شاميّة» الموسوم «يا عقلاء العرب اتحدوا» ج ٢ – بيروت ١٩٦٥ الص ٢٤٥–٢٥٨].

(١٥) الرزار: المرجع السالف الص ١٠٤–١٠٥ و١١٦.

وغرضها ابقاء الناس في حالة توتر وقلق دائمي[١٦].

في يومي ٢٥ و٢٦ من كانون الأول أعلن رجال الأعمال الحرّة اضراباً في دمشق. وكان الرد الحكومي عنيفاً. اذ القي القبض على عدد كبير من التجار وأحيلوا الى المحكمة العسكرية فحكم على ثمانية منهم بالاعدام وأثقل ثمانية عشر باحكام سجن طويلة وصودرت محتويات ٦٩ متجراً. واستخدمت المطارق لكسر الاقفال وتحطيم الابواب وفي ٢٦ من الشهر ألقى أمين الحافظ خطاباً في اجتماع نظمته الحكومة لمحاولة كسر الاضراب استخدم فيه عبارات تهديد سوقيّة:

«أولئك الذين أضربوا. سنسحق رؤوسهم. سنقضي عليهم عَمّا قريب سنعمل السيف في رقابهم. هؤلاء المستغلون امتصوا دماء الشعب. انهم هرّبوا أكثر من ثلاثمائة مليون ليرة الى الخارج. أقسم بالله أن هذه الاموال ستعود. وإلاّ فانهم سيبقون في السجن حتى يموتوا فيه مثل الكلاب.»

وفتح السوق في ٢٧ منه عنوة وعلى أثر الأحكام والاعتقالات وبدأت بعد شباط بتأميم التجارة الخارجية[١٧] وظنّ الحزب الحاكم أن بوسعه كسب الاحزاب اليسارية والإشتراكية الى صفه بعد مراسيم التأميم فلم يحظوا بغير الحزب الشيوعي السوري. وأرسل في ١٩ كانون الثاني خالد بكداش أمين سرّه العام من براغ برقية تأييد لأمين الحافظ معرباً عن مساندة حزبه للإجراءات الإشتراكية. إلا أن البقية وهي «الاحزاب الناصرية الإشتراكية» والحزب العربي الإشتراكي ورئيسه الحوراني امتنعت عن التأييد. وظفر النظام بطبيعة الحال بصداقة الاتحاد السوفياتي والدول الإشتراكية. وتمّ التعبير عن ذلك بتصريحات رسمية وتبادل الزيارات واتفاقات التعاون الفني والتكنولوجي[١٨].

(١٦) نيويورك تايمس ٩ كانون الثاني ١٩٦٥ نقلاً عن «الحياة»: وَجَدَ تاجرٌ في نفسه الشجاعة ليسأل وزير الداخلية عن الفرق بين الإشتراكية والشيوعية فأجاب الوزير «إشتراكيتنا لن تكون شيوعية لأنها تنبع من واقعنا العربي».

(١٧) من ذلك تأميم ٣٩ شركة استيراد أدوية و٦ شركات لإستيراد الحاجات الكمالية. وفي ٤ آذار أممت تسع شركات توزيع للنفط. وبعدها بشهرين استولت الحكومة على ٥٥ محلجاً ومؤسسة تصدير للقطن والقمح والشعير. وفي أوائل تموز أعيدت ٢٧ شركة استيراد أدوية الى أصحابها. وفي خلال الاشهر الأولى من العام ١٩٦٥ أمّم العديد من المشاريع الصناعية تأميماً كاملاً أو جزئياً بنسبة تتراوح بين ٧٥ و٩٥ بالمائة من رأس المال. وبضمنها عدد من الصناعات الصغيرة. أحدها مصنع للصابون يعمل فيه ثلاثة عمال [الاوريان. المرجع السالف، الرقم ٣٤ للسنة ١٩٦٥ (الص ٩٧–٩٨)].

(١٨) جاء في مقررات المؤتمر القومي الثامن لحزب البعث المنعقد في نيسان ١٩٦٥: «إن البعث حركة إشتراكية وحركة تحررية وهذا هو الذي يقرر موقفنا من المعسكر الإشتراكي. فكتبت جريدة البراقدا =

كان الصراع الداخلي وتبرير المكائد ونصب الكمائن بين زعماء البعث وأجنحته يأخذ جزءً هاماً من وقت الحكام ونشاطهم وفي مجرى هذا التناحر والمنافسة فيما بينهم وبين معارضيهم حاولت مجموعة بعثية خلق مؤسسات في الحكومة تمكنها من ضمان حكم بعثي خالص إلاّ أن العضوية والنفوذ في هذه المؤسسات كانا يتغيرات بتقلبات ورجحان الصراع الداخلي من أجل السلطة داخل الدولة.

أصدر حكم البعث في ٢٥ من نيسان الدستور المؤقت الاول له أصدره بعد نشر عبدالناصر دستوره المؤقت بأقل من شهر. ولوحظ فيه أنهم كانوا في صياغته يتأثرون خطى النظام المصري في تبنيهم مباديء معينة وبدوا كأنهم لايملكون الشجاعة ولا القدرة الخلاقة المبدعة في رسم سياسة ما. فانتظروا الوحي يأتيهم من مصر وقد سبق للإشتراكية والتأميم هناك أن قطعا أشواطاً في ميدان التطبيق[١٩].

في شهر آب ١٩٦٤ أقدم اشتراكيو أكرم الحوراني على نشر بيان ضدّ البعث اتهموه فيه بأنه فرض جواً إرهابياً على البلاد وشوه وجه الإشتراكية وعزل سورية خارجياً. وقد سبقهم جلال السيد والشيء بالشيء يذكر[٢٠] فأرسل من بلدة ديرالزور رسالة مفتوحة الى المجلس

= (٢١ تموز ١٩٦٥) تثني على خطوة حكومة البعث في اطلاق سراح جميع التقدميين من السجون وتحقيقها الشروط الضرورية لتقدم سورية في طريق الإشتراكية من خلال الاصلاحات الاجتماعية والسيطرة على القطاع العام في المجال الصناعي [عن جريدة الميزان، السنة ٨، العدد ٨ أيلول ١٩٦٥. كذلك مرآة الشرق الأوسط، ٨ أيار ١٩٦٥].

(١٩) عُرّفت سورية في الدستور بـ(القطر السوري) وبأنها جمهورية ديمقراطية شعبية إشتراكية. والشريعة الاسلامية هي المصدر الرئيس لتشريعاتها. والاسلام هو دين الدولة الرسمي (مثلما جاء في الدستور الملغى). ونصّ على أن حقوق المواطنين (؟) مضمونة باحكام القانون إلاّ أنه لايمكن ممارستها إلاّ عندما لايتأتى من ذلك ضررٌ بالأهداف الشعبية للثورة والإشتراكية. وشرحت المادة الثامنة عشرة منه معنى الإشتراكية والمقصود بها «أن تؤمّن الدولة عملاً للجميع وتضمن للجميع بناء إقتصاد قومي إشتراكي». وقسمت المادتان ٢٣ و٢٩ الملكية الجماعية لوسائل الانتاج بين ملكية الدولة وملكية المُنتجين التعاونيين والملكية الخاصة وأعطيت الدولة الحق في تأميم أية مؤسسة أو مشروع يتمثل فيه النفع العام. وأعطي المجلس القومي الثوري الذي كان يعرف قبله «بالمجلس الوطني لقيادة الثورة» حق ممارسة السلطة الاشتراعية والاشراف على أعمال السلطة التنفيذية وضبط أمورها وتتألف عضويته من الأعضاء الحاليين وممثلين من القطاع الشعبي يحدد عددهم بمرسوم إشتراعي (كان العدد في شهر أيار ١٩٦٤ قد رفع الى ٤٥٠. لكنه لم يكن منتخباً. بل هو أشبه ببرلمان سري لاتعرف هوية أعضائه. إلاّ انه بعثي القوام [باختصار عن روندو: بعض ملاحظات حول البعث. مجلة الاوريان عدد ٣١، ١٩٦٤ بعض الملحوظات حول البعث Rondot: Ouelque Remarques Sur le Ba`ath] لم يهتم السوريون بصدور الدستور الموقت اذ كانوا منشغلين بأحداث حماه. إلاّ أن أهل المعرفة والقانونيين قالوا انه عمل أخرق صنفه أناس لايتمتعون بمستوى عقلي كاف. ومن أمر به وأجازه هم سواء مع المصنفين في درجة إدراكهم العقلي.

(٢٠) واحد من مؤسسي حزب البعث وقادته الأوائل.

الرئاسي الثوري في حوالي ٤٠ صحيفة. عدد فيها مختلف الانحرافات البعثية والمساءات والخروق والاخطاء وطلب اعلان العفو العام عن المحكومين والمتهمين السياسيين وانسحاب الجيش من الميدان السياسي وتأليف وزارة حيادية من جميع الميول والاتجاهات تشرع في الاعداد لإنتخابات مجلس نيابي بحرية ودون تدخل، وطرد كل الموظفين غير الكفوئين الذين تمّ تعيينهم بعد الثامن من آذار ١٩٦٣. وتجميد كل القوانين التي صدرت بعده. باستثناء القوانين التي يشترعها المجلس النيابي المنتخب[٢١].

بعد استقالة البيطار وصديقه «الأطرش» من المجلس الرئاسي أثبت محلهما صلاح جديد رئيس أركان الجيش وهو علوي. ويوسف زعين حليف الجيش الشاب[٢٢]. ثم بادرت حكومة الحافظ الى اصدار عفو عام في ١٥ من تشرين الثاني عن المحكومين السياسيين. ولكنها عجزت عن اتباع سياسة مصانعة لعبدالناصر. كما لم توفق الى تطويع صغار الضباط الناصريين الذين يقودون سلاح المدرعات وبقي مجموعهم شوكة في خاصرة النظام.

بعد عودة عفلق من (بون) بألمانيا تقرر أن يجرى إجتماع للقيادتين القومية والقطرية في كانون الأول ١٩٦٤. كانت القيادة القطرية كما أسلفنا تسيطر على الحكومة. وكان ثم خلافات بين القيادتين وبرز اللواء عمران منحازاً الى كتلة عفلق - البيطار ربما بدافع طموح شخصي للرئاسة فبادر الى كشف الخطط العسكرية لتصفية قادة البعث القدماء والسيطرة على حزب البعث. وأعلن معارضته للجنة العسكرية ولدكتاتورية أمين الحافظ كما وصفها. كما أنه كان يفضل علاقات أوثق مع عبدالناصر. وألفى نفسه فجأة معزولاً وأنكرته اللجنة العسكرية العظيمة الحول والطول وقررت التخلص منه بإبعاده من سورية وحصلت على موافقة القيادة القطرية. وفرضت عليه الإستقالة من عضويتيه في القيادتين القومية والقطرية. وأرغم على ركوب أول طائرة الى (مدريد) بعد تعيينه في منصب دبلوماسي. وكان ردّ فعل القيادة القومية تبنيّ عدة قرارات تحدد فيها صلاحيات اللجنة العسكرية في كلّ من الحزب والحكومة، وحَلّ القيادة القطرية. واعتبر هذا تهديداً للقادة العسكريين وأرغمت على ابتلاع قراراتها

(٢١) طبعت مذكرته في كراسة بعنوان «مقالات وذكريات» بيروت ١٩٦٥. ونشرت في عدة جرائد لبنانية.

(٢٢) أصبح المجلس الرئاسي بعد هذا مكوناً طائفياً من ثلاثة سنيين وإثنين علويين (عمران وجديد). وجه الغرابة في النظام الجديد أن (أمين الحافظ) فاق كل سياسي يخطر ببالي بمقدار ما جمع في شخصه من مناصب ووظائف فهو رئيس المجلس الرئاسي (يعني رئيس دولة) ورئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس المجلس القومي الثوري (السلطة الإشتراعية) وأمين السرّ العام لقيادة البعث القطرية وعضو بارز في القيادة القومية. قال (قرنييه) إن هذه المناصب والسلطات عملت انصهاراً للدولة والجيش والحزب الحاكم في شخص واحد (Bernard Vernier: Arme et Polilique au Moyen Osienl) برنار قرنييه: السلاح والسياسة في الشرق الأوسط. باريس ١٩٦٦. ص١٤٤.

لاسيما قرار حل القيادة القطرية.

كانت هناك محاولات «الرزاز» الأمين العام الجديد للقيادة القومية، تقليص الظل العسكري الذي ينشره على الحكم وإبعاد الجيش عن السياسة وتحديد علاقة أعضاء الحزب بالحكومة تبديداً للانطباع العام الذي خلفه سلوك الأعضاء الانتهازيين.

كيف استبدل الرزاز بعفلق؟ كان ذلك ما تمخض به المؤتمر الثامن فقد جرت محاولات فيه لتحديد العلاقة بين الحزب والحكومة ولقصر سلطات اللجنة العسكرية على الشؤون العسكرية فحسب وإلغاء دورها العسكري والحزبي باستثناء حقها في تمثيل الجناح العسكري في المجلس الثوري وقبلت اللجنة هذا لأنها كانت متأكدة من منزلتها السلطوية في القيادة القطرية التي تحكم سورية عملاً. في هذه المرحلة شعر عفلق بأنه أصبح في القيادة شخصاً غير مرغوب فيه persona non grata فقرر الانسحاب من امانة سرّ القيادة القوميّة[٢٣] وأختير منيف الرزاز في محله ولم يتجاوز السادسة والأربعين في حين نطح القائد المستقيل الخامسة والخمسين - يقول الرزاز حول تلك الفترة:

«أصبح الحزب مجرد عصابة تهتمّ فحسب بتوزيع المناصب. وبات الفوز ببطاقة العضوية في الحزب أضمن السبل وأفضلها للحصول على عمل.»[٢٤]

بقي أمين الحافظ حتى تموز ١٩٦٥ يساند اللجنة العسكرية والقيادة القطرية من أجل الهيمنة على البعث السوري وإضعاف سلطة القيادة القومية وقادتها من المدنيين القدماء. وتعاون مع صلاح جديد الماكر الطموح رئيس الأركان العامة في مواجهته مع اللواء محمد عمران في كانون الأول ١٩٦٤، بعد أن تبين بأن تحالف محمد عمران مع القيادة القومية يهدد مركزه بوصفه رجل سورية القوي. على أن أمين الحافظ الذي أصبح الآن يحمل رتبة (فريق) مال بعدها ليغدو حليفاً للقيادة القومية ومساندة محاولتها ابعاد الجيش عن السياسة. عندما

(٢٣) شرح عفلق وجهة نظره في حديث مطول لجريدة الحياة البيروتية نشر في العدد المؤرخ في ٢٥ من شباط ومما جاء فيه قوله مشيراً الى «هؤلاء القياديين القوميين الذين تفاخروا بالتطرف كانوا يمينيين أثناء عهد الانفصال (١٩٦١-١٩٦٣) وهم سبعة من المدنيين التسعة في القيادة القطرية. هؤلاء لم ينضموا الى البعث إلاّ بعد الثامن من آذار ١٩٦٣ وقد بلغوا مناصبهم في القيادة لا لتضحيات بذلوها بل لأنّ زمرة العسكريين رفعتهم اليها لتعمل منهم واجهة مدنية للهيمنة العسكرية على الحزب. وفي المؤتمر الثامن جرت محاولات لتحديد العلاقة بين الحزب وبين الحكومة لاسيما بخصوص صلاحيات اللجنة العسكرية ففشلت وعندها قررت الانسحاب من القيادة» آه باختصار [وصفت صحيفة الجريدة البيروتية إستقالته «بالثورة البيضاء» وفيها عقد لواء النصر لأمين الحافظ وأعطي عفلق العنوان التشريفي «القائد المؤسس»].

(٢٤) المرجع السالف. الرزاز ص ١٣٠.

بدأ اللواء صلاح جديد يتحدى سلطاته بمعونة القيادة القطرية التي كان أمين سرّها. ولذلك لقي (الرزاز) مساندة الحافظ الذي أصدر بناء على اقتراحه أمراً بوصفه رئيس وزراء يمنع فيه أعضاء الحزب من الاتصال بالوزراء والمديرين العامين مباشرة أو بالواسطة. وبدأ (صلاح جديد) يتحدى سلطان الحافظ بمساندة القيادة القطرية التي كان يتولى أمانة سرّها. هذا الصراع تمخض بانقلابين في كانون الأول ١٩٦٥ ضد (جديد) والقيادة القطرية. وفي شباط ١٩٦٦ وهو الانقلاب الحاسم الدموي ضد (حافظ) والقيادة القومية. لم تنته المعركة إلا بعد هزيمة واحدٍ من الفرعين لانه وبالحكم العسكري لايمكن أن يوجد أكثر من رجلٍ قويٍ واحد [عبدالكريم قاسم وعبدالسلام، محمد نجيب وعبدالناصر. أحمد بن بللا وبومدين الخ...] ويغنينا الرزاز عن الشرح إذ يقول:

«بقينا طوال شهرين ولا عمل لنا غير عقد اجتماعات متوالية بهدف الوصول الى تسوية النزاع دون جدوى. ففي كلّ مرة نجتمع كان الخلاف يزداد عمقاً وخطورة بسبب التهم التي يتبادلها الجانبان أثناء الجلسة.»[٢٥]

شبه بعضهم (صلاح جديد) بستالين. وشبهه آخرون بـ(روبسپير) وقد كان شخصاً أريباً ماكراً يعرف كيف يخلق تحالفاً وكيف يجرّ أنصار خصمه الى صفه. وكان يملك بلا مراء أفكاراً ماركسية وقيل انه كان صلب الرأي طاهر السريرة في غاية النزاهة غير قابل للافساد حتى انه قطع صلته تماماً بشقيقه المقدم غسان جديد[٢٦] في صراعه مع (محمد عمران) وكان يسانده ضابطان درزيان هما حمد عبيد وسليم حاطوم[٢٧].

بعد إزاحة محمد عمران كما تقدم بات الغريمان الطموحان يواجه بعضهما بعضاً وادعى (جديد) أنه فحسب يهاجم حكم الفرد المتمثل بدكتاتورية (الحافظ) وكان بمقدوره ان يبني كتلة رصينة من الاتباع في الحزب وفي الجيش بقابلية نادرة في التأثير على انصاره عن طريق

(٢٥) المرجع السالف: التجربة المرة، ص ١٤٩. ڤرنييه: المرجع السالف، ص١٤٥.

(٢٦) حَلّ محلّ زعيم الحزب القومي السوري الاجتماعي بعد اغتيال زعيمه في ١٩٥٥. وقاطعه شقيقه صلاح وكان إذذاك برتبة رائد، ورقي تباعاً بين انقلاب آذار وتشرين الثاني الى رتبة لواء وأصبح رئيساً لأركان الجيش (كان برتبة عقيد متقاعد فأعيد الى الجيش بعد الانقلاب).

(٢٧) كان قد حكم على أولهما بالسجن عشر سنوات لمشاركته في اعتصاب حلب المسلح في آذار ١٩٦٢ وتمّ الافراج عنه في ١٩٦٣ وبدأ يصعد سلم الترقية الخيالي ليغدو أولاً قائد الحرس القومي بمرتبة عقيد. ثم أسندت اليه قيادة اللواء المدرع في (قطنه). اما (حاطوم) فكان قائداً لقوات الصاعقة المكلفة بحراسة مقرّ قيادة الجيش العامة ودار الاذاعة. ومع أن صلاح جديد ومحمد عمران علويان إلاّ انهما كانا ينتسبان الى عشيرتين مختلفتين. (فعمران) من عشيرة (الخياطيه) وقريته الاصلية (المخرم) شرقي حمص. في حين أن غريمه (جديد) من عشيرة الحدادية تسكن ضواحي اللاذقية.

توجيه التهم أحياناً بالانفصالية وأحياناً بالناصرية. وباليمينية عند اللزوم. في حين اتهمه (حافظ) باستغلال العنعنات الطائفية لفائدة انصاره من الضباط العلويين وببنائه حزباً داخل حزب. وأخيراً اقترح أن لايحتفظ (صلاح) بمنصب رئاسة الأركان وعضوية المجلس الرئاسي في وقت واحد وأن يتخلى عن منصبه الأول. وبالمقابل تعهد الحافظ بالتخلي عن منصب القائد العام للقوات المسلحة وأن يحتفظ فحسب برئاسة المجلس الرئاسي.

ونجح أمين الحافظ مبدئياً بإقصاء صلاح جديد لا عن منصب واحدٍ بل عن إثنين وفي أوائل شهر أيلول ١٩٦٥ لم يعد حافظ يتولى منصب القائد العام وارتبط المنصب بوزير الدفاع على أثر المناورات التي اعتمدها معارضوه في الاجتماع الاستثنائي للمؤتمر القطري بين ٨ و١٤ من آب. ولم يعد (حافظ) رئيساً للمجلس القومي للقيادة الثورية (المجلس الاشتراعي) الذي كان مؤلفاً من ٩٥ عضواً بنتيجة انتخابات آب. إلاّ أن هذا المجلس أعاد انتخابه رئيساً للمجلس الرئاسي (اي رئيس الدولة في الثاني من أيلول)[٢٨] واختار نورالدين الأتاسي نائباً له. وأبعد صلاح جديد في الظاهر فقد بذل الحافظ كل مجهوده كيلا ينتخب الى جانبه عسكري في المجلس الرئاسي. بعدها باشر بعملية اخراج صلاح جديد من منصب رئاسة الأركان العامة. وتمّ له ذلك في ٤ من أيلول واحل محله العقيد (محمد شيناوي) الذي رفع فوراً الى رتبة لواء.

مع ذلك بقي (صلاح جديد) خصماً يحسب له ألف حساب لأنصارٍ يعضدونه في المجلس الرئاسي وعدد من قادة وحدات هامّة في الجيش وتأتى الكثير من سلطته من منصبه في القيادة القطرية الجديدة التي انتخبت في أواسط آب، وفيها ستة من أصل سبعة أعضاء عسكريين هم من أعضاء اللجنة العسكرية المنحلّة وهم محسوبون عليه وبعضهم من انصار (الحافظ). وبقيت المناقشات في جلساتهم تكاد تنحصر بتعيينات للوظائف والخدمات العامة، وندر أن تكون هادئة فهي أبداً حامية انفعالية والجانبان كل يحاول مسعوراً في اختيار مرشحه لملء هذا المنصب أو ذاك.

وجد (أمين الحافظ) نفسه بعد عودته من مؤتمر القمة العربية في الدار البيضاء. مقصى عن رئاسة الوزارة وكان (صلاح جديد) قد استغل فرصة غيابه ليقنع القيادة بخطأ جمع منصب رئيس الدولة ورئيس الحكومة في شخصٍ واحدٍ. فأعفي (الحافظ) وتمّ تعيين (يوسف زعين) رئيساً لحكومة جديدة وهو طبيب من محافظة الجزيرة يبلغ الخامسة والثلاثين[٢٩] على أن (صلاح جديد) نجح فوق هذا في جعل القيادة القطرية مصدراً للسلطة العليا بدلاً من المجلس

(٢٨) كان يرئسه منصور الاطرش صديق أمين الحافظ.

(٢٩) تألفت في ٢٣ أيلول ١٩٦٥ من ٢١ وزيراً كلهم من وزارة الحافظ خلا ثلاثة.

الرئاسي والوزارة والقيادة القومية الثوري في ١٧ من تشرين الأول إلاّ أن إثنين وعشرين عضواً من أصل ٩٥ أعربوا عن معارضتهم بغيابهم أثناء التصويت على الثقة ومن بينهم عفلق والحافظ والبيطار[٣٠].

وراح (جديد) يتهم (الحافظ) ببيع سورية لعبدالناصر والتخلي عن الخط الثوري والقضية الفلسطينية على أثر انفضاض مؤتمر القمة الثالث. من جهة أخرى بدأ بعملية استبدال المحافظين في المحافظات السورية بالموالين للقياديين القطريين وبنقل ضباط معينين بالتعاون مع وزير الدفاع (حمد عبيد) وأحمد سويداني رئيس مكتب شؤون الضباط.

أعرب (الحافظ) عن معارضته لإجراءات الوزارة والقيادة القطرية بانسحابه إحتجاجاً من الحياة السياسية وسفره الى حماه في أواسط تشرين الأول «للافادة من مياهها المعدنية». والمعروف أن مرضه المصطنع وانسحابه المؤقت قوى من مركزه في الجيش والقيادة بدل إضعافه.

على أن اعتقال (أكرم حوراني) و١٨ من أنصاره في ٢٥ من تشرين الاول. بقرار من جناح (جديد) في القيادة أغاظ (الحافظ) كثيراً وأصاب خطته بالارباك فقد كان يعمل في توسيع رقعة القاعدة المدنية المساندة لنظام البعث بالتعاون مع الحورانيين[٣١] ولهذا اعتبر الحافظ هذه الاعتقالات تمهيداً لانقلاب عليه يرمي الى هيمنة (جديد) على الحزب وهو عملٌ مقصود هو به. وكان ردّ (الحافظ) والقيادة القومية سريعاً. من حيث أن حادثة حمص في ١٩ كانون الأول كشفت فعلاً عن نية (جديد) في إزاحة الحافظ بإنقلاب عسكري. إذ كان قد ضمن تعاون كتيبة المدرعات في حمص وطلب من نصيريه وزير الدفاع اللواء عبيد ورئيس ركن اللواء المقدم (مصطفى طلاس) نقل ثلاثة من الضباط الذين لايطمئن اليهم من الكتيبة لكنهم رفضوا الأمر عندما بلغوا به وربما كان الحافظ وراء تشجيعهم عليه[٣٢]. ثم اعترضت رسالة

(٣٠) الرزاز: المرجع السالف. ص ١٤٤ و١٥٢. نيويورك تايمس: ١٩ تشرين الاول ١٩٦٥.

(٣١) في عرف أكرم الحوراني إن سبب الهجوم الذي يشنّه عليه حزب البعث عن صحافته وشائعاته هو انتقاده الشديد للنظام الذي أقامه البعث وتصريحاته الانتقادية لاتفاق النفط مع مجموعة شركات النفط البريطانية (الكونسورتيوم) حول بناء خط الانابيب من حقول النفط في الجزيرة الى طرسوس على الساحل. وكذلك أغاظهم – بحسب زعمه – الاستقبال الشعبي الذي كان يلقاه به أهالي حماه كلما عاد اليها. وكانت الصحافة البعثية وما أظنها مخطئة كثيراً ما تصفه بالرجل الذي يعيش على الشعوذة السياسية والذي يستخدم الإشتراكية فحسب سلاحاً ضد خصومه ووصفوه أيام كان معهم بالرجل الذي استخدم الضباط لتهديد البرلمان خلال فترة ١٩٥٤–١٩٥٨. في أوائل تموز ١٩٦٥ أجرت مرآة الشرق الأوسط مقابلة معه في منزله بدمشق. وطلب منه المراسل التعليق على حكم البعث في سورية. بعد محاولات للزيغ عن السؤال قال «تريدني أن أقول شيئاً عن الحكم في سورية أنه حكم التتر» [راجع مجلة الصياد عدد ٨ تموز ١٩٦٥].

(٣٢) ذكرت الصحف البيروتية أن أمراً صادراً من مصطفى طلاس بالسيطرة على الكتيبة والفتك بقائدها =

من (مصطفى طلاس) الى (جديد) يعلمه فيه تمام السيطرة على اللواء وأن إعتقال قائدها مع ضابط آخر كان آخر ما قام به في هذا المجال وقد أرسلهما معتقلين الى دمشق[٣٣].

تلك هي مقدمة انقلاب ١٩ كانون الثاني أو السبب المباشر له. ولم تؤخذ القيادة القومية على حين غرة أو بمباغتة إذ قام أمين الحافظ بحشد قواته المسلحة الموالية. وأعلنت القيادة القومية حَلّ القيادة القطرية واضطلاعها مؤقتاً بمسؤولياتها لحين اختيار قيادة جديدة. واخلي سبيل الضباط المعتقلين من كتيبة المدرعات وصدر أمر بإلقاء القبض على (احمد المير) قائد الكتيبة السبعين في ضواحي دمشق مع ضابطين موالين لصلاح جديد واعتقل وزير الدفاع وأمر (مصطفى طلاس) بالقدوم الى العاصمة فوراً.

كانت القيادة القومية تخشى حصول اشتباك بين القوات السورية ولذلك لجأت الى هذه الاجراءات التحفظية. وأضيف الى القيادة القومية بعد إلغاء القيادة القطرية خمسة من المدنيين السوريين منهم (البيطار) لتمكينها من القيام بواجبات القيادتين معاً. وفي ٢١ كانون الأول أرغمت وزارة (الزعين) على الاستقالة وكلف (صلاح البيطار) بتشكيل وزارته الخامسة. فألفها من ٢٦ وزيراً. وقبلت استقالة ثلاثة خصوم لأمين الحافظ من المجلس الرئاسي وحلّ محلهم آخرون متعاونون[٣٤].

في هذه الانتقالات الفجائية من معسكر الى آخر بلمح البصر أو الركون الى هذه الجهة دون تلك حرصاً على المنصب. لاتجد العروبة والقضية العربية بل الوحدة العربية لها مكاناً بل الاهتمام بالمصير العربي أية زاوية مهما صغرت في تفكير الانقلابيين. تراهم يبدلون ولاءاتهم ويغامرون بحياتهم ومستقبل ذويهم للوصول الى السلطة والاستمتاع بشهوة الحكم مهما قصر أمده. ترى أحدهم يوماً مشايعاً متحمساً (لصلاح جديد) لتجده في اليوم التالي من أشدّ انصار (الحافظ) ولاءً[٣٥]. وبلغت سورية في وزارة الزعين الغاية القصوى في اراءة الجدّ الذي يمكن أن تصل سورية به الى منافسة الدول العربية الثورية بتظاهرها بالتطرف. لتنجح على أثره في تحقيق عزلة سياسية شبه تامة لم تجد لها البلاد مثيلاً من قبل سواء أعلى صعيد الشرق الأوسط أو الغرب[٣٦].

= وقع بيد أمين الحافظ.

(٣٣) الرزاز: المرجع السالف. ص ١٦٢ وما بعدها.

(٣٤) بينهم شبلي العيسمي وهو درزيّ. حلّ محل نورالدين الأتاسي نائباً للمجلس.

(٣٥) كان المقدم مصطفى طلاس واللواء حمد عبيد من أنصار (الحافظ) وبعد أشهر قلائل وجدناهما من أنصار (جديد).

(٣٦) نوه رئيس الوزراء الجديد في بيانه الوزاري بخوزستان أو عربستان بوصفها أرضاً عربية مغصوبة. =

إلاّ أن قضية التجسس الكبرى وهي قضية حقيقية لا غبار عليها هي التي وجهت الضربة القاضية على سمعة بعث سورية وفجرت ضجيجاً داوياً في العالم العربي والغرب. واستخدمتها الدعاية المصرية والعراقية وغيرها من الدول التي لاتكن عطفاً للنظام السوري. واتخذت دليلاً دامغاً على الفوضى التي غرق فيها وعلى فقدان الشعور بالمسؤولية والتسيب الذي كان يعم دوائر الدولة. تلك هي قضية الجاسوس الاسرائيلي (الياهو كوهين) أو ايلي كوهين الذي قدّم نفسه كمغترب سوري عائد من الارجنتين. سرعان ما حمل بطاقة الحزب وبرز عضواً هاماً بفضل صداقات أنشأها بحذق وسخاء مع عدد من كبار ضباط الجيش السوري وأعضاء في الوزارة. وفي مقدمتهم (أمين الحافظ) نفسه الذي سمح له بالقيام بعدة زيارات تفقدية للجبهة السورية[٣٧]. وجرت محاكمات له ولبعض معارفه وشنق الاّ انه زوّد اسرائيل

= وفي اليوم التالي ٩ من تشرين الأول سحب شاه ايران سفيره من دمشق. وفي ٦ كانون الثاني قطعت مراكش علاقاتها الدبلوماسية مع سورية معلنة أن بعثتها الدبلوماسية اليها لم تعد مرغوباً فيها بسبب التدخل السافر في الشؤون الداخلية والتغلغل في الاحزاب. وشجعت حكومة دمشق ميليشيات وحدات الصاعقة شبه العسكرية على القيام بعمليات عسكرية ضدّ اسرائيل من أرض لبنان إحراجاً لموقفها وابتزازاً. وفي شهر شباط في عهد وزارة الحافظ القي القبض على حلقة تجسس زعمت انهم مجندون من قبل الملحق الثاني في السفارة الامريكية. وبينهم سوري مغترب يحمل الجنسية الامريكية يدعى فرحان الاتاسي. ونفت السفارة التهمة بشدة. إلا ان الاتاسي مع ابن عم له ضابط في الجيش أدينا وشنقا في ٢٣ من شباط. وسحب الملحق الامريكي. وتردت إثر ذلك العلاقات مع الولايات المتحدة ووصفت بأنها أسوء ممثل للرأسمالية والامبريالية والصهيونية وانها خير مساند للرجعية العربية. كانت حملة تشهير عنيفة معادية طويلة حتى بدا وكأن عدم استحسان امريكا للإشتراكية ضروري لسورية سيكولوجياً. أو أن الوطن العربي كان بحاجة الى مظهر الصلابة البعثية في التعامل مع الحزب. في عين الوقت كانت صلات البعث تزداد وثوقاً بالمعسكر الإشتراكي. ولاسيما بالصين الشعبية وقيل أنّ جناح (صلاح جديد) كان يفضل الصين في حين كان جناح (أمين الحافظ) يفضل ابقاء التعامل مع الاتحاد السوفياتي على غرار ما تفعله مصر. وذكرت الصحف وصول حوالي ٢٠٠ خبير صيني دمشق في أواسط تشرين الثاني ١٩٦٥. وحصلت سورية على تسهيلات مصرفية لشراء معدات صينية.

(٣٧) في حينه جرى تكتم شديد في المحاكمات على الشخصيات الكبيرة في الحزب من مدنيين وعسكريين. وهذا هو السبب في فرض احكام سجن خفيفة على بعض معارفه خلا شيخ عشائر غير بعثي حكم بالحبس المؤبد. واذاع راديو دمشق جوانب من تلك المحاكمات لموظفين صغار ليس بينهم ضابط واحد. وتمّ تنفيذ حكم الاعدام به شنقاً في ١٨ من أيار ١٩٦٥.

بعد عدة سنين (ربما كان في ١٩٧٧) قرأت ترجمة عربيّة لكتاب ألفه اسرائيلي عن إيلي كوهين هذا الذي اعتبرته إسرائيل بطلاً قومياً وأشيد له تمثال اعترافاً بجميله وخدماته ومما علق بذهني منه. إنه كان مواطناً مصرياً هاجر الى اسرائيل وضمه (الموساد) اليه لما توسم فيه من نباهة وتلقى تدريباً صارماً ثم بعثوا به الى الأرجنتين فأنشأ مؤسسة تجارية واختلط بالجالية السورية ولاسيما عناصر وثيقة الصلة بالبعث وبعض أعضاء في السفارة وتعرّف الى أمين الحافظ ايام كان ملحقاً عسكرياً. وهؤلاء جميعاً ابدوا استعدادهم بتزويده بكتب توصية عندما أبلغهم باعتزامه زيارة دمشق مسقط رأسه. وحمل معه الى دمشق في سفرته الأولى هدايا ثمينة لأصدقاء المستقبل من ضباط الجيش. وفي السفرة الثانية جاء بجهاز =

بمعلومات عسكرية خطيرة للغاية ساعدتهم على إلحاق الهزيمة بالقوات السورية في حرب الايام الستّة مساعدةً جوهرية.

وأقامت حكومة (يوسف زعين) جداراً حاجزاً بين السوريين وبين الدبلوماسيين الأجانب اشتهر باسم (الستار الدمشقي) تشبهاً (بالستار الحديدي) الذي كان تشرشل قد أطلقه على الحاجز الذي اقامه (ستالين) بين الدول الدائرة في فلكه وبين الغرب. ومؤداه أنّ الحكومة أبلغت في أواسط كانون الأول كل السفارات والقنصليات بعدم توجيه الدعوات للشخصيات البارزة والأحزاب السياسية إلا عن طريق رئيس التشريفات في وزارة الخارجية. وأبلغ الموظفون السوريون بالامتناع عن استقبال أي دبلوماسي إلاّ بموعد يتم تحديده عن طريق مديرية البروتوكول في وزارة الخارجية.

وكانت السلطة في التاسع من آب ١٩٦٥ قد أغلقت المحافل الماسونية ونادي الروتري. وهددت اعضاءها بمحاكمات عسكرية بتهم قيامهم بنشاط يتعلق بجمعيات سرية أجنبية. كان الخوف من الجواسيس والتجسس بعد فضيحة الجاسوس الاسرائيلي قد بلغ بالسلطة حداً الى أن ترى شبح جاسوس في كل زاوية مظلمة أو عطفة طريق وخصصت جانباً كبيراً من وقتها في تعقيب الجواسيس والمتآمرين ومحاولة اصطيادهم.

★★★

لم تبق وزارة البيطار الخامسة التي تألفت في الاول من كانون الثاني ١٩٦٦ غير خمسة وثلاثين يوماً. ليكتسحها ذلك الاعصار الذي أودى بالقيادة القومية وبرجل الدولة القوي أمين الحافظ. كان ذلك نتيجة عجز هؤلاء عن إزاحة قادة الجيش المسيطرين الذين ساندوا اللواء صلاح جديد وقيادته القطرية المنحلة وكان البيطار يريد ابعادهم الى الخارج كشرط لتأليف وزارته لكنه أبلغ بأن ما يطلبه غير معقول مادام وزير الدفاع في منصبه وهو اللواء عمران الذي وقف الى جانب القيادة القومية.

= إرسال واستقبال لاسلكي أحكم اخفاءه في شقته التي شاء سوء حظه أن تكون مجاورة لوزارة الدفاع. إلاّ أن السلطة بقيت غافلة عن مراسلاته العديدة أشهراً طوالاً كان خلالها يقوم بزيارات خاطفة للارجنتين لتلقي التعليمات وشاءت الصدف أن رئاسة الأركان وقفت على تدخل مشوش في أجهزة ارسالها وتكرر ذلك فبدأت تترصد وتتابع المنبع بأجهزة المتابعة الخاصة وحصرت المنطقة ثم المنزل الذي يشغله كوهين فداهمته وقبضت عليه متلبساً. وحاولت اسرائيل المستحيل لإنقاذ جاسوسها الثمين من حبل المشنقة باغراءات مالية تبلغ الملايين إلاّ أن السوريين رفضوا ونفذوا الحكم فيه (يخطر ببالي أن سليم حاطوم رئيس المحكمة التي حاكمته كان أحد أصدقائه المقربين).

ورحب السوريون بهذه الحكومة التي لم يَضمّ أعضاؤها الواحد والعشرون غير عسكريين[٣٨] إثنين وتنفسوا الصعداء عندما انزاح عنهم شبح القيادة القطرية وصاروا قادرين على التحادث بشيء من الحرية. وتجرأوا قليلاً على الشكوى من سلوك أعضاء الحزب المحليين في القصبات والقرى والحواضر. وبدا البيطار ممثل الاتجاه القومي الوحدوي أكثر إعتدالاً وتعصباً من خصومه الذين عرفوه باسم «اليميني» لانتقاده مظاهر الإشتراكية في سورية وقد سمّاها «بالإشتراكية البوليسية!» وسمّاها ايضاً «بالإشتراكية المرتجلة»[٣٩].

بعد تشكيل وزارته أعلن جهاراً عن ضيق صدره من التدخل العسكري وأعلن في حديث له اذاعيّ بأنه «يفرق ما بين الجيش العقائدي المرتبط بعقيدة قوميّة ثورية. والجيش السياسيّ الذي يتدخل تدخلاً مباشراً في إدارة شؤون الدولة» وهو يرى أن الجيش السياسي لايجوز له أن يتقحم الميدان السياسي إلاّ عندما لاتكون السياسة الراهنة موالية للثورة. لكن أي تدخل يجب أن يقف عندما يكون عنصر تهديد للثورة بالذات[٤٠].

وأعرب غيره من أقطاب البعث في القيادة القوميّة عن آراء مشابهة في الصحف والندوات. ففي الوقت الذي أقروا بوجود تلك الرابطة المتينة بين إشتراكية البعث أو الإشتراكية الماركسية فإنهم شكو مثل عفلق والرزاز بأن تلك الإشتراكية التي طبقها الحكام العسكريون البعثيون كانت بجملتها أوامر تصدر بتعيين أعضاء نقابات عمالية. ونشر وكلاء مخابرات في المعامل... وكان الآباء المؤسسون في القيادة القطرية العسكرية بقدر معارضتهم الإشتراكية الماركسية الدولية وكانوا يرون ضرورة لوجود الجيش العقائدي الذي يبسط على الثورة حمايةً ويستمد عقائديته واتجاهاته من التنظيم الحزبي. لكنهم ارادوا الحيلولة دون أن يجمع الضباط في أنفسهم الصفة العسكرية والزعامة في الحزب أو الحكومة وأكد عفلق على هذا قبيل سقوط البيطار بقوله: [وكالعادة تأتي أقواله وأحكامه متأخرة بعد خراب البصرة]:

«ليس هناك حزبٌ ثوري في العالم تضمّ قيادته ضباطاً عسكريين مازالوا يقودون

(٣٨) الضابط الوحيد الآخر في الحكومة هو اللواء ممدوح جابر.

(٣٩) كتب البيطار قبل استيزاره بشهرين في جريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ٢٧ تشرين الاول ١٩٦٥ مقالاً عنوانه «القومية والإشتراكية»: إن المنطق الماركسي قد أثر على نفسية بعثيين وثوريين عروبيين آخرين لعجزهم عن قراءة الآثار الماركسية بلغاتها الأصلية بل بترجماتها العربية الميسورة. وبالأخير وجدوا انفسهم ضحية تناقض بين رغبتهم في أن يكونوا عرباً وماركسيين في آنٍ واحدٍ. فاذا بهم أشبه بالغراب الذي أراد تقليد مشية الحجل فانتهى بأن ضيع المشيتين.

(٤٠) من حديث له اذيع بالراديو والتلفزيون في ٤ من كانون الثاني ١٩٦٦ نقلته Middil East Mirror مرآة للشرق الأوسط في عدد ٨ كانون الثاني ١٩٦٦.

وحداتهم إلاّ عندنا. فهناك بعض الرفاق العسكريين هم في قيادة الحزب وفي الوزارة وفي الجيش في عين الوقت.»[٤١]

لاأدري كم كان عفلق يؤمن بهذه الحكمة عندما كان الجيش وضباطه يؤمّنون لحزبه الحكم دائماً ولولا الجيش ما حلم البعث بالوصول الى الحكم. يشك كثيراً بسلامة عقل عفلق أو بخلوص نيته عندما يطلق مثل هذه الأحكام بعد كلّ سقطةٍ يمنى بها البعث. انه لمن المحال على العسكري البعثي إن تم تنظيمه عقائدياً واستخدم لتحقيق الأهداف السياسية التي يسعى اليها الحزب بالعناصر المختلفة والمتصارعة فيما بينها أن يبقى حيادياً في النزاعات والتناحر الداخليين. أو أن يقاوم رغبته في المشاركة في السلطة والنفوذ عندما يسعى المدنيون اليها ويتكالبون عليها ويحتربون. وفضلاً عن هذا فقد كان ضباط البعث على أتمّ الادراك بأن وزن الحزب فوق القَبّان السياسي ووزن معظم قادته هو من الخفّة بمكان. وإن شخصياتهم هي من الفهاهة وأن جماهير الحزب هي من القلة العددية وخمول الشأن بحيث لايمكن الاعتداد بها. كما كانوا يدركون أن سيادة الحزب وسياسته المفروضة بالقوة (كالإشتراكية وكحكومة الحزب الواحد) بقيت مكروهة من سائر ابناء الشعب بحيث وجب أن يبقى ذلك الحكم محمياً بالسلاح دائماً من صولةٍ شعبية كاسحة أو معارضين عسكريين ولذلك فان الصورة الوحيدة التي يمكن أن تعكس حقيقة الموقف في سورية البعث هو حكومة يمسك العسكر بزمامها. حكم البعث العربي الإشتراكي يجب أن يكون حكماً عسكرياً وإلاّ لا حكم للبعث في أي مكان.

وبالمقابل: «إنفرط عقد النظام والانضباط في الجيش بالتدخل اليومي في شؤون الحكم والادارة. لاسيما ببروز القادة المسيطرين الذين كانوا يعتبرون وحداتهم العسكرية من أملاكهم الخاصة»[٤٢].

وأضعف من اجراءات القيادة القومية ذلك الشقاق والشك المتبادل والعداوات بين أعضائها: أمين الحافظ في خلاف دائم مع اللواء الطيار (حافظ الأسد) الذي كان مع (ابراهيم ماخوس) يمثلان القيادة القطرية في القيادة القومية. والمناقشات تدور ساعات دون الوصول الى اتفاق أو قرار. وكان كلّ من (أمين الحافظ) و(حافظ الأسد) يأتي الى الإجتماعات تخفره ثلة مهيبة من الحرس: «الحافظ بأربعين، والأسد بعشرين» هذه العبارة ذهبت مثلاً. مما يجعل الجوّ ثقيلاً بعبارات التهديد والوعيد.

وزير الدفاع (محمد عمران) كان يجري وراء مصلحته التي أضرّت بالقيادة القومية كثيراً.

(٤١) الحياة: في ٢٥ شباط ١٩٦٦.

(٤٢) الرزاز: المرجع السالف ص ١٨٣ وما بعدها.

من ذلك تردده وبطئه في القيام باجراءات التنقلات الضرورية وابعاد من يخشى منه[٤٣].

وبطبيعة الحال استغل صلاح جديد ويوسف زعين زعيما القيادة القطرية الوضع العام والاخطاء التي ارتكبتها القيادة القومية. من جهة أخرى اعتبر القطريون قيام القيادة القطرية بتعيين وزراء البيطار عملاً غير قانوني لأنه من صلاحية القيادة القطرية.

كان هناك سبب مباشر آخر الى جانب نقل الضباط للانقلاب القطري في ٢٣ من شباط على القيادة القومية. هو المفاوضات مع عبدالناصر.

قي ١٧ من شباط شخص اللواء عمران مع خمسة من الضباط الى القاهرة للتفاهم حول إعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر وابرام إتفاق مصالحة أو هدنة بين الطرفين. وهو ما لم يقع موقع رضى من القيادة القطرية (المنحلة) بل حتى قيل أن (حافظ الأسد) آمر القوة الجوية، سارع فجأة وبصورة باتة الى التزام جانب (صلاح جديد) بسبب قيام تلك التظاهرة الموالية لعبدالناصر في ٢١ من شباط برضا السلطة وتشجيعها. بذلك تغير ميزان القوى لصلاح جديد. وبدأ الغريمان كلٌ يعبيء قواه في وضح نهار الأحد العصيب الموافق العشرين من شباط عندما قرر (الحافظ) تأجيل انتخابات القيادة القومية التي رسم اجراؤها في هذا اليوم لأنه شعر بأن مرشحي (جديد) سيفوزون[٤٤].

عقدت القيادة القومية آخر اجتماعاتها في مساء ذلك اليوم ودام حتى صباح الحادي والعشرين. وخرجت بعد تردد شهرين اثنين بقرار ينصّ على نقل كلّ من (عزت جديد وسليم حاطوم وأحمد سويداني) أهم وأخطر أنصار (جديد) وإثنين من جماعة ضباط (الحافظ) تخفيفاً للوقع وكنوع من المعادلة[٤٥].

ورفض الضباط قرارات النقل وقرروا المقاومة بالقوة ان اقتضى الأمر رغم مناشدة الرزاز لهم بالانصياع «انقاذاً للبلاد والحزب من حرب أهلية».

(٤٣) على سبيل المثال نقل (عزت جديد) الذي يقود الوحدات المدرعة. وسليم حاطوم الذي يقود قوات الصاعقة المرابطة في ضواحي دمشق. ثم وعندما صدرت أوامر النقل أخيراً في ٢١ من شباط ١٩٦٦. لم يسبقها أي حركة تأهب وانذار للضباط ذوي الرتب الصغيرة في منطقة دمشق لتجعل أي مقاومة تبدر من القائدين المنقولين صعبة. ثم عندما اقترح في القيادة القومية حشد بعض الوحدات الموثوقة تثبيطاً لهمة مقاومي التنقلات. لم يوافق أمين الحافظ لأنه كان يخشى أن يستخدمها وزير الدفاع عمران لاسقاطه!

(٤٤) ينوه الرزاز المرجع السالف ص ١٩٦ ان مؤتمراً قطرياً كانت جماعة صلاح جديد تزمع عقده في ٢٥ شباط بغرض ازاحة القيادة القومية.

(٤٥) يذكر الرزاز (المرجع السالف ص ١٩٦) إن قرار النقل كان قاصراً على هؤلاء الضباط. في حين ذكرت صحيفة الحياة (عدد ٢٦ شباط) إن القرار صدر بتسريح ثلاثين ضابطاً وإبعادهم الى الخارج.

كان انقلاباً وحشياً – معركة عنيفة في (ابو رمانه) أجمل أحياء دمشق حول مسكن الحافظ في ٢٣ من شباط. قاده المقدم عزت جديد والرائد سليم حاطوم. استدعيت قوات من قطعات الصحراء خلال الليل لحراسة منزل أمين الحافظ قدر عددها بمائة وعشرين جندياً وانطلقت الشائعات حول القتال خلال الليل. حينما جاء هذان الضابطان كلّ بقواته. الكوماندو والمظليون من (حَرَستا) والمقدم (عزت جديد) بمدرعاته من (قبون) جنوب دمشق قاما باحتلال مقر القيادة العامة ودار الاذاعة بستمائة رجلٍ في الساعات الأولى من فجر الاربعاء ٢٣ شباط. وفي حدود الرابعة بدأ الهجوم على منزل أمين الحافظ بعد ان حوصر وانذر بالاستسلام. استخدمت الرمانات والرشاشات في البداية دون جدوى. فجيء بالدبابات لسحق المقاومة العنيدة التي أبدتها قوات الصحراء وتمّ اقتحام المنزل بعد نفاد ذخيرة المدافعين. واستسلم أمين الحافظ وهو مصاب برصاصة في ساقه وكان يقود الدفاع بنفسه وبرشاشة في يده طوال أربع ساعات. واعتقل معه عدد من القياديين بينهم (شبلي العيسمي) إلاّ أن (عفلقاً) تمكن من الفرار. وسقط عدد كبير من الجنود صرعى وجرحى[٤٦]. ثم أذيع بيان الانقلاب باسم القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث العربي الإشتراكي. وتوالت بيانات. منها ما أشار الى اعتقال أمين الحافظ ومحمد عمران والرزاز والبيطار وعفلق وغيرهم من قادة البعث القوميين. ونال إثنان من الضباط الذين اسهموا بدور هام في الانقلاب مكافأتهما فوراً إذ صدر مرسوم (قبل تشكيل الحكومة!) في ٢٣ شباط بتعيين اللواء الطيار (حافظ الأسد) وزيراً للدفاع ورئيس الاستخبارات السابق (السويداني) رفع من رتبة عقيد الى لواء وانيط به منصب رئاسة الأركان وأذاعت القيادة القطرية المؤقتة بياناً طويلاً بررت فيه عملها فاتهمت القادة المعتقلين والمطرودين بالأنانية والصلف والضعف واليمينيّة. وقالت إن القوى الرجعية قد تسللت الى الحزب وحاولت الانحراف بالثورة عن طريقها المحتوم. هذه القوى ساندتها فردية أمين الحافظ وضعف شخصية عمران. ويمينيّة البيطار وأنانية ميشيل عفلق وفرط حبّه للذات. وقالت ان القيادة القطرية الجديدة طلبت من هؤلاء الانحرافيين عقد مؤتمرٍ قطري أو مؤتمر قومي لمناقشة قراراتهم فرفضوا ولم يوافقوا أيضاً على جلسة خاصّة للمجلس القومي للقيادة الثورية، ولذلك كان لابدّ من خوض معركة معهم وسحقهم نهائياً وجعلهم عبرة لمن تسول نفسه شق صفوف الحزب أو بث الإلغاء على ثورته من الداخل والخارج.

(٤٦) شاعت تقديرات للقتلى تتراوح بين ٣٠٠ و١٠٠٠ إلاّ أن تقديرات أكثر رزانة ودقة نوهت بخمسين قتيلاً وبضع مئات من الجرحى والرقم الرسمي الذي نشرته الحكومة في أوائل آذار هو واحد وأربعون قتيلاً [الجرائد المحلية والأجنبية. لاسيما الرزاز المرجع السالف الص ١٩٦–١٩٧].

ووصف انقلابيو شباط ١٩٦٦ انقلابهم «بالحركة التصحيحية» التي استهدفت تقويم الانحراف في الحزب. وسطع في سماء البعث فجأة اسم آخر بديل لاسم عفلق الذي أخلى مكانه كمؤسس الى المَنظِّر الآخر «زكي الارسوزي» فقد جعل منه المنتصرون المفكر البعثي الأول الذي سرق منه عفلق أفكاره ونواميسه. وكان في الصورة أيضاً الخلاف بين الإشتراكيين المعتدلين من السنيين الحضريين الذين يمثلهم (الحافظ) وبين غلاة الإشتراكية من الريف العلوي والقرويين الدروز يمثلهم (جديد) و(حاطوم) و(الجندي) ثم كان هناك الخلاف حول السياسة العربية التي فرقت بين الطرفين. حتى يعد انقلاب ٢٣ شباط انقلاباً على الناصرية المعتدلة التي رسمها نظام أمين الحافظ فكان من عوامل ارتياح الغرب (بريطانيا وفرنسا) من الانقلاب. إلاّ انه لم يضع حداً للخلاف بين القادة العسكريين. إذ مالبثت المنافرة والمنافسة أن أدت الى نزاع بين الضباط الدروز والضباط العلويين ثم بالأخير الى صراع بين القادة العلويين أنفسهم.

أوقف الانقلابيون الجدد العمل بالدستور المؤقت بعد الانقلاب بيومين وعين نورالدين الأتاسي من أعضاء قيادة القطر رئيساً للدولة. وكلف آخر وهو (يوسف زعين) بتشكيل وزارة. وكلا الرجلين في حدود الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين. إلاّ أن الرجل القويّ الجديد (صلاح جديد) البالغ أربعين عاماً من العمر، لم يسع الى منصب حكومي وقنع بأمانة سرّ القيادة القطرية المؤقتة التي تملك مما تملك سلطة تعيين وإقصاء رئيس الدولة ورئيس الوزراء أو الوزارة بالجملة والمفرد وفي الأول من آذار أعلن (زعين) عن وزارة تضم عشرين وزيراً بينهم ولأول مرة في تاريخ سورية عضو اعتيادي من أعضاء الحزب الشيوعي السوري يدعى (سامح عطية) ووزير آخر يدعى (احمد مراد) شديد التعاطف مع الشيوعيين. إن هذا الانعطاف المفاجيء في اتجاه جديد بعثي يستدعي منيّ بعض تفصيل في ايديولوجية البعث الجديدة لاسيما وجهة نظره في العمل القومي العروبي، وهو بيت قصيدنا.

كانت البيانات والأدبيات التي ينشرها العهد الجديد تتحدث كثيراً عن اصطناع جيش عقائدي. مع الهجوم العنيف على الرجعية والرأسمالية والاستعمار والامبريالية في الصحف والراديو، وشرح مخططات الامبرياليين في إعاقة حركات التحرر العربية. والتأكيد على النهج القومي العربي واعتبار «الوحدة». هي الهدف الأوّل. وهاجم الدول العربية لمواقفها من قضية فلسطين. كانت مجهودات قولية كالعادة ليس فيها خطوة عملية واحدة، إلاّ إذا اعتبرنا إقامة المهرجانات والاجتماعات العامة والاستعراضات العسكرية جزءً من المجهودات العملية[٤٧].

(٤٧) من خطبة للرئيس الاتاسي بمناسبة الذكرى الثالثة لإنقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣ ذكر أن العقبات التي تعترض سبيل التطبيق الكامل للإشتراكية في سورية هي مخططات الامبريالية ضدّ الحركات الثورية. =

دعت القيادة القطرية المؤقتة الى مؤتمر قطريّ. وتم عقده في دمشق في العاشر من آذار. وتألفت القيادة الجديدة من ١٦ عضواً ضمت أساساً كل القائمين بالحركة «التصحيحية» والمساندين والمؤيدين من عسكريين ومدنيين، بينهم نورالدين الأتاسي رئيس الدولة الذي أصبح من مدبري الإنقلاب، الضابطان الدرزيان (حمد عبيد) و(سليم حاطوم) كانا أول من خاب امله في النظام الجديد، فانقلبا عليه.

كان (حمد عبيد) يتوقع أن تسند اليه وزارة الدفاع لأنه كان يتولاها في حكومة زعين (١٩٦٥) ومن رصيده أنه عاون في القضاء على تمرد حلب في بداية الإنقلاب قيل أنه غادر دمشق الى حلب منزوياً ومقرراً إلاّ يعود إلاّ وهو وزير دفاع إلاّ انه سرح في آذار. وفي أيار جرى إعتقاله بتهمة التآمر على النظام.

إلاّ أن (حاطوم) قائد الهجوم على منزل أمين الحافظ. بقي في الخدمة الفعلية حتى أيلول ١٩٦٦، رغم شك السلطة فيه ذلك الشك الذي انقلب الى كره شديد أدّى به الى محاولة فاشلة للاطاحة بالحكم كما سيأتي بيانه.

وبخصوص أسلوب الحكم فان القادة الجدد لم يكونوا أفضل ممن سبقهم في التعامل مع الشعب. وكالعادة أقدموا على سلسلة من أعمال التطهير والاعتقالات في صفوف الجيش والحزب. ووصف أحد زعمائهم حكمهم «بالعنف والشدّة غير المسبوقين في تاريخ سورية وهو أشبه بحكم قاسم العراق ليس إلاّ[٤٨] انه جرى فحسب على الخط العام في عمليات التطهير والاعتقالات والتسريح التي تتمّ عادة بعد كلّ انقلاب[٤٩] ومن ذلك إحالة ٩٢ ضابطاً من مختلف الرتب لم يكونوا راضين بالنظام الجديد. وبقي أمين الحافظ ومحمد عمران موقوفين حتى أواخر آذار عندما صدرت الأوامر باخلاء سبيلهما وتم إطلاق سراح المدنيين قبل ذلك.

زادت عزلة سورية عن الدول المجاورة والناطقة بالعربية ووصف المعلقون السياسيون بأن الحكم أقرب الى العالم الإشتراكي منه الى العالم العربي[٥٠].

= وعناد الرأسمالية وإصرارها على الاحتفاظ بامتيازاتها اللامشروعة. [لم يتطرق الى مشاريع البعث في الحقل القومي].

(٤٨) منيف الرزاز: المرجع السالف ص٢٠٤ [يبالغ الكاتب قليلاً بسبب إظهار تفوق له في الشدّة والشراسة على حكم (الحافظ)].

(٤٩) الرزاز: المرجع السالف. ص٢٠١.

(٥٠) هاجم نورالدين الأتاسي مؤتمرات القمة العربية في كلّ من العامين ١٩٦٤ و١٩٦٥ لأنهما تجاهلا مسؤولية العرب في تحرير فلسطين. وفخر بأن سورية نظمت خمس غارات عسكرية داخل العمق الاسرائيلي بتنظيمات الكوماندو العسكرية خلال شهري حزيران وتموز. [ردت اسرائيل بغارة جوية في =

وأعلنت الحكومة بفخر وإعتزاز وبضجّةٍ عظيمة في صحفها لاسيما صحيفة «البعث» وهي لسان الحزب بأنها «حطمت الحصار الاقتصادي الذي ضربته امپريالية الغرب بعد ابرامها الاتفاقية الاقتصادية مع الاتحاد السوڤياتي». في عين الوقت توجّه الاتحاد السوڤياتي باهتمام ورعاية خاصة لنظام الحكم السوري حتى عد نفسه حامياً له ووجه تهديدات للقوى التي يشك في انها تكيد له وتعمل على اسقاطه بقوله أن الاتحاد السوڤياتي لن يقف موقف المتفرج في أية محاولة للمس بالنظام. وأوغلت الموجة البعثية في يساريتها ونظرت الطبقة السورية الواعية بقرف واشمئزاز الى الطرق والمظاهر السخيفة التي يتخذها البعث ليثبت مدى ايغاله في إشتراكيته(٥١).

في مثل هذا الجوّ القلق والإستياء العام حاول بعض القياديين المدنيين من أعضاء القيادة القومية المُقالة بالتعاون مع ضباط ساخطين عملية إنقلابية. وفي السادس من أيلول ١٩٦٦ ادّعت حكومة (زعين) أنها أحبطت محاولة لإسقاط الحكومة عزيت الى مثلث [عفلق – رزاز – بيطار] ونوه البيان بأن العمال والفلاحين المسلحين ورجال الحرس القومي صدعوا بأمر سحق مغامرات أعداء الثورة. ولم يبد شيء أكثر من هذا إلاّ انه وبعد يومين من هذا البيان جرت محاولة أخرى ولعلها جزءٌ من مؤامرة عامة تورط فيها البيطار وعفلق.

= ١٤ من تموز ١٩٦٦ على مواقع المضادات الجوية السورية داخل الأراضي السورية. وأسقطت في معركة جوية طائرة من نوع ميك ٢١. فبادرت الحكومة السورية لتتهم الغارة بأنها جزء من مؤامرات الامپريالية]. وازداد النظام تقرباً من العالم الإشتراكي ووثق علاقته بالحزب الشيوعي السوري ليسمح بعودة سكرتيره العام (خالد بكداش) الى سورية في ١٤ من نيسان. وبادر حال وصوله الى تأييد تحالفٍ مع البعث وفي ١٨ نيسان غادر وفد سوري برئاسة رئيس الوزراء وعضوية وزيري الخارجية والدفاع الى موسكو. وتمّ فيها توقيع إتفاق إنشاء سدّ الفرات مع منح قرض قدره مائة وخمسون مليون دولار للشروع في إنشائه.

(٥١) مثال: منع ٤٠٠ من رجال الأعمال من السفر الى الخارج وجرى تحقيق قضائي معهم. تجار القطعة الصغار كانوا ضحية الروتين البوروقراطي الشنيع وعجزه. لأوّل مرة في تاريخ سورية وجب على المواطن الوقوف في الصف لشراء خبز يومه. وتعجز الحكومة عن تفسير لمناسبات تافهة يخترعها السوريون للتعبير عن سخطهم كانتهازهم الفرصة الصغيرة لعودة (حسن هبنّقه) مفتي سورية من الحج للقيام بتظاهرة سياسية عظمى كانت تسمع فيها هتافات «لا شيوعية، لا بعثية، وحدة وحدة» وفي ٧ أيلول نشرت صحف البعث بياناً أصدره اتحاد نقابات العمال وصف فيه كيف اقتحم جمع من العمال بناية شركة التأمين الحكومية يوم ٦ منه وأمروا سبعة من موظفيها بتقديم إستقالتهم. وعندما رفضوا «ساقهم الكوماندو العمالي» وبندقياتهم مصوبة الى نحورهم الى مقر الاتحاد وحيث أبلغهم (خالد الجندي) وهو علوي. بوجوب استقالتهم لأنهم رجعيون. وبالأخير قدموا استقالاتهم الى وزارة الاقتصاد القومي التي تشرف على إدارة الشركة (التفاصيل في جريدتي البعث والثورة بعين التاريخ. نقلتها نيويورك تايمس بقلم مراسلها توماس بريدي في ٨ أيلول).

وهذه المحاولة الفاشلة قادها (سليم حاطوم) الذي كان يخشى أن يفقد قيادته (فرق الصاعقة) بأمر نقل أو تسريح من الجيش. وأشرك في محاولته هذه ضابط درزياً آخر يدعى (طلال أبو عسلي) كان قد رفض الانصياع الى أمر نقله من قيادته في درعا.

في الثامن من أيلول ترك الضابطان مقر عملهما مع أنصارهما الى السويداء في جبل الدروز. واقتحموا قاعة اجتماع حزبيّ يحضره (الأتاسي) و(جديد) والقوا القبض عليهما وابقوهما محتجزين طوال ليلة ٩/٨ كرهينتين، ونبه وزير الدفاع (حافظ الأسد) فبعث بانذار الى القائد في السويداء يأمره باخلاء سبيل الرهينتين وإلاّ فان القوات السورية ستزحف على جبل الدروز.

أطلق سراح المعتقلين ولم يحل بينهما وبين العودة الى دمشق صباح الجمعة. وما أن بلغاها حتى فرض حظر التجوال بقصد إلقاء القبض على المتآمرين الذين كانوا يستعدون للتحرك في دمشق واستقدمت قوات مدرعة وضربت بها حلقة حماية محكمة لدار الإذاعة وعزز الحرس في وزارة الدفاع وأنذر الجمهور «بالتهيؤ لخوض معركة فاصلة من أجل انتصار الثورة». وفي ضواحي (حرستا) حيث الوحدات الموالية لحاطوم تبودل اطلاق النار برهةً مع قوات الحكومة ثم استسلم المقرّ بعد تطويقه بالدبابات. وتمّ إلقاء القبض على حوالي مائتين من العسكريين والمدنيين. وقيل ان «الكوماندو العمالي» اعتقل من جانبه نحو الثلاثين. ولانّ حاطوم كان يخشى زحف الجيش على جبل الدروز، آثر أن يجنبه المزيد من المتاعب فترك البلاد هو وأتباعه الى الأردن حيث منحوا حقّ اللجوء السياسي. وكالعادة القت الحكومة السورية الذنب على الرجعية والامپريالية والانهزامية وجماعة الانحراف متهمةً اتحاد نقابات العمال الأردني والمملكة العربية السعوديّة بتدبيرها(٥٢).

وبدأت محاكمة المشاركين في المؤامرة الفاشلة وغيرهم في ١٧ من كانون الأول ١٩٦٦ أمام محكمة عسكرية وقدم آخرون بتهمة مقاومتهم انقلاب ٢٣ من شباط. وحكم على سبعة منهم بالموت غياباً بينهم (عفلق وحاطوم)(٥٣).

وحاول حكام سورية في الفترة التي سبقت حرب ١٩٦٧ اقناع العرب من خلال الخطابات

(٥٢) أضاف رئيس تحرير الأهرام (من عنده) الى هذين المصدرين. دائرة المخابرات المركزية الامريكية CIA.

(٥٣) بقي حاطوم في الأردن حتى قيام الحرب مع اسرائيل في أوائل حزيران فعاد الى سورية ووضع نفسه بحماية الزعيم الدرزي (سلطان باشا الأطرش) ثم عرض خدماته على الجيش السوري فاستدعته السلطات الى دمشق فأسرع ظاناً أن طلبه استجيب لكن نفذ حكم الاعدام به شنقاً بعد اعادة محاكمته في ٢٦ حزيران متهماً بجريمة جديدة هي التآمر على اسقاط الحكم بالتعاون مع الولايات المتحدة أثناء حرب اسرائيل!!

الرّنانة والمسيرات والاجتماعات القومية الجماهيرية بأن سورية هي قلعة العروبة وحصنها الحصين في نضالها ضدّ الصهيونية والامبريالية. إلاّ أن السوريين لم يكونوا مقتنعين فكيف بسائر العرب؟ البعثيون لم يكونوا يستندون الى قاعدة شعبيّة ولم يكونوا مستعدين لنزالٍ مع العدو الاسرائيلي إلاّ أنهم أعطوا اسرائيل ذريعةً للهجوم على سورية واحتلال جزءٍ من أراضيها.

***

أكّد الدستور المصري المؤقت وهو السادس من نوعه الصادر في ٢٣ من آذار ١٩٦٤ بأنّ مصر هي جزء من الأمة العربية وهي بالضبط عين المادة التي وردت في دستور ١٩٥٦. ونصت المادة الثانية على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي. ثم وصف الدولة بأنها ديمقراطية إشتراكية تقوم على تحالف قوى الشعب العاملة. وعرفت مادة ثالثة الاتحاد القومي الإشتراكي بانه حصيلة تحالف قوى الشعب المتمثلة في القوى العاملة وهي الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والرأسمال القوميّ. وإن الغاية التي تهدف اليها الإشتراكية هي تحقيق مجتمع الكفاية والعدل. وأمّا عن القوات المسلحة فذهب الدستور الى أن مهمتها حماية المكتبسات الإشتراكية التي حققها النضال الجماهيري فضلاً عن حماية أمن البلاد وصيانة حدودها.

وتألف الدستور من ١٦٩ مادة. وبموجبه حُلّت القيادة الجماعية وانتخب ٣٥٠ نائباً للمجلس الوطني[٥٤] الذي رشح عبدالناصر لرئاسة الجمهورية لفترة ثالثة وكان الحصان الوحيد في السباق كالعادة.

أود أن أسترعي الانتباه الى المادة الرابعة والعشرين من هذا الدستور تنصّ بكلّ صراحة ووضوح على أن المصريين كافةً متساوون امام القانون وأن لهم حقوقاً وواجبات متساوية دون تمييز بفارق الدين أو العقيدة. لكن بدا للمراقبين الأجانب والصحافة الغربيّة – رغم التكتم الشديد على ما يجري في الداخل. بأن هذه المادة يقصد بها المصريون المسلمون فقط.

شعرت الأقليّة القبطية بوطأة التفرقة في الواقع العملي منذ أن ربط عبدالناصر عروبته بالدين الاسلامي – شعروا أولاً بالتمييز الديني ثم بالتمييز العرقي عندما انطلق عبدالناصر يمخر بحر العروبة بالسفينة المصرية. ومنذ ١٩٥٤ ولأول مرّة في تاريخ الاقباط الطويل بدء بعضهم بالهجرة الى البلاد الأوروبية. وقدرت المصادر التي اعتمدناها عدد القبط الذين

(٥٤) كان على الناخبين اختيار مرشحيهم من قائمة حكومية معدّة سلفا. وكلهم كانوا أعضاء في التنظيم القومي القديم.

تحولوا الى الإسلام بعد العام ١٩٥٦ بعشرة آلاف. ولوحظ أن القبط منذ هذا العام بدأوا يتخذون لمواليدهم أسماء إسلامية وعربية تغطيةً الى اخفاء هوياتهم الدينية وليكونوا مقبولين في المجتمع العربي المسلم[٥٥].

ووجه الغرابة هو أن الدساتير المتعاقبة لنظام ناصر وكانت مستوحاة دائماً من عواقب فشل متوال – بقيت تستخدم مصطلحات ديمقراطية أصيلة في تلك الدساتير في حين لم تكن هناك فترة انتقال الى الحياة الديمقراطية بل كان هناك سير دؤوب على الخطّ السلبي اللاديمقراطي وما يتخلله من الممارسات العنيفة التي كثيراً ما لجأوا اليها رغم خضوع الشعب المصري الذي كاد يكون غريزياً لحكامه. القادة الثوريون أصبحوا باشوات العهد الجديد والحكم الجديد يبدو بتجاربه الدستورية المتعددة عاجزاً عن إحلال نظام بديل للنظام الديمقراطي القديم، وظلّ يتخبط ويتنقل بشكل فجائي في لعبة تأسيس المنظمات والأجهزة ليستبدلها بغيرها كلما اتضح فشله في الأولى. والمسألة هي أن عبدالناصر ومعاونيه لم تكن لهم الاعوام ١٩٥٣ حتى ١٩٥٦ فترة تهيئة وتدريب لاحلال حكم ديمقراطي بل بالعكس إذ ركّز عبدالناصر وطبقة الحكام التي خلقها من عسكرييه ومدنييه على شجب وإدانة كلّ النظم الديمقراطية الغربية والديمقراطيات التي نشأت على غرارها في بقية دول العالم وإظهار قصورها وعيوبها ازاء العقيدة السياسية التي بنت نظام «الديمقراطية الشعبية» أو «التوتاليتارية الديمقراطية» التي لاتعترف باحزاب غير الحزب الواحد الحاكم ولا بانتخابات حرّة، بل تقوم على «تنظيم جماهيري واحد» تستحدثه الطبقة الحاكمة وتسيطر عليه. وفيه مجلس وطني لايتمتع بسلطة حقيقية في الاشتراع وسن القوانين والرقابة الدستورية. مجلس يتمّ انتقاء أعضائه وتدقيق صحيفة أعمالهم قبل أن يسمح بادخال اسمائهم ضمن المرشحين ثم هناك استخدام طريقة الاستفتاء بكلمتي «نعم» أو «لا». للحصول على موافقة السكان لبعض الخطوات التي تمّ اتخاذها قبل الاستفتاء. كالقبول بالدستور أو رفضه. أو كانتخاب رئيس الجمهورية أو رفضه.

إن طريقة عبدالناصر في الحكم بغطاء القومية العربية أو دون غطائه تهمنا كثيراً لأن عدداً لايمكن إحصاؤه من زعماء وحكام الدول الناطقة بالعربية في زمانه أو بعده راحوا يقلدونه لينحدروا بالمباديء والقيم الخلقية الى مستنقع عبادة الشخصية إما عن طريق شرائها بالتزلف الى الجمهور أو بفرضها بالقوة وإشاعة الخوف عند اللزوم.

(٥٥) برنار ڤرنييه: تطور النظام العسكري في مصر Bernard Vernier: L`evolution du regime militare en Egypt مقال منشور في العدد (٢). من مجلة: مطالعة فرنسية في حلم السياسة Reviue Franciese de Science Politique كذلك: ديلوك كينيث: «مصر ناصر الجديدة».

التفرد بالزعامة وبشرعيّة النظام الذي ينبثق منها منحا عبدالناصر شخصيّة مهيبة هائلة الجرم شبيهة بشخصية أدولف هتلر أو جوزيف ستالين. إستعان بها لتقوية مركزه وحده دون شريك ولذلك كان في أكثر الأحيان يرى أن كل ما هو جدير بالإهتمام في نظام مصر السياسي هو الرابطة بينه وبين الجماهير المصرية ثمّ العربية فيما بعد. وكان يطلب منهم أكثر من طاقتهم في اجتماعاته الهستيرية بهم وبخطب حماسيّة بلهجتهم وتعابيرهم التي يفهمونها، ومع انه كان مدفوعاً بشدّةٍ وبإخلاص عميقين الى الاهتمام بتقدم ورفاهية الجماهير المصرية والعربيّة إلاّ أنه ارادهم أن يكونوا دعامةً لسياساته السريعة التقلّب وهو أكثر من طاقتهم لا لأنهم عاجزون بل لأنه لم يكن يشجع أصغر مساهمةٍ سياسية لهم. ولم يكن يتحمل أخف إنتقاد له منهم.

نظام كان مقدراً له أن يجتاز أزمات خطيرة انتهت بكبراها وهي الطامة الكبرى: حرب الايام الستة.

ولئلاّ ننسى:

كان عبدالناصر أوّل مصريّ صميم يحكم مصر منذ ٢٥٠٠ عام.

الفصل السابع والثلاثون

وضع الجزائر الخاص في إطار الاستعمار الفرنسي . الاستيطان الأجنبي . وضع الجزائريين البائس بالمقارنة مع المستوطنين الفرنسيين وغيرهم . البرلمان الفرنسي يرفض مقترحات (فرحات عباس) بمنح حكم ذاتي للجزائر . تظاهرات سطيف واشتباكات مع القوات الفرنسية وضحايا . دخول ديغول في الصورة بصورة مفاجئة . جبهة التحرير الوطنية الجزائرية ، بيانها الأول ، تغلغلها بين الجماهير . إجراءات عقابية في الجزائر . مذابح تشرين الثاني ١٩٥٤ . هجمات موضعية لمقاتلي الجبهة . إعتقال خمسة من قياديي الجبهة (أحمد ابن بللا وجماعته) . المعونات المصرية . تدخل عبدالناصر . عمليات فدائية . اشتباكات في كل أنحاء البلاد . فوز الجنرال ديغول . فرض دستور جديد لفرنسا – الجمهورية الخامسة . رحلته الى الجزائر وخطبته واستقباله . قيام المستوطنين المسلحين . مرحلة جديدة من النضال الجزائري . مؤامرات المستوطنين بالاتفاق مع قيادات الجيش الفرنسي المرابط . مكايد ومعارضات الساسة الفرنسيين في باريس . مفاجأة ديغول الكبرى . كانون الثاني ١٩٦٠ . إنقلاب قادة الجيش مع المستوطنين . الجبهة تقف الى جانب ديغول . مفاوضات ايڤيان . المعاهدة . جبهة مضادة رجعية في وجه تحقيق تقرير المصير المقترح . استفتاء عام على مستقبل الجزائر . اتفاق وقف إطلاق النار . إطلاق سراح القادة المعتقلين . التفاوض معهم . إعتصاب المستوطنين في الجزائر . انقلاب عسكري فاشل . موافقة الأغلبية الساحقة الفرنسية على استقلال الجزائر . تقويم موقف ديغول . محاولات اغتياله . معركة تعريب اللسان دون القومية . تأليف الجيش الجزائري .

مؤامرات داخلية على انتزاع السلطة

في مبدأ الأمر ومن خلال بحثي المضني في أزقّة ودروب القومية العربية ومنعطفاتها الحادة ومزالقها لم تكن عندي اية نية في أن أفرد لثورة الجزائر فصلاً أو جزءً من بحث رغم أنها ضمن خارطة الوطن العربي الكبير من المحيط الى الخليج وأنها عضو أصيل في جامعة الدول العربيّة وفيها المظهران الرئيسان اللذان يؤهلانها لدعوة الوحدة أي اللغة – والدين. إلاّ أن هذا كله لم يكن الدافع الحقيقي لي، رغم محاولة كثير من الكتاب العرب تقديم تلك الثورة بمثابة

مظهر رئيس لمظاهر الوعي القومي العربي(*). وتعاظم الشك في هذه الدعوى في نفسي عندما رحت أتابع مراحل هذه الثورة العظيمة والجهات والشخصيات التي ساهمت فعلاً في فوزها، متابعة جديّة بقصد تقدير حجم اسهام الجهات العربية والوحي العربي في اضرام نارها وإدامته بالوقود. لأكتشف بالأخير إن هذه الثورة العظيمة ونجاحها ليسا مدينين في الحقيقة إلاّ لإثنين أولهما الشعب الجزائري المضحيّ. وثانيهما لشخص كاد يفقد حياته في سبيلها. شخص ليس جزائرياً ولا عربيّاً. بل هو فرنسي ويدعى الجنرال شارل ديغول. وقولي هذا لاينفي التشجيع والدعم الكبير الذي لقيته هذه الثورة من تلك الدول الثورية العروبية وفي مقدمتها مصر العربية وزعيمها عبدالناصر الذي لم يبخل عليها بالمال والسلاح، وعبدالكريم قاسم وغيرهما. إلاّ أن عون هؤلاء لايمكن أن يرقى اليه عون الجارتين تونس ومراكش.

مع هذا كله فالبطل الحقيقي في تحرير الجزائر هو شعب الجزائر وشخصية الجنرال ديغول. واليك الأمر كما وقع:

***

منذ أن وضعت فرنسا يدها على الجزائر في العام ١٨٣٠ حصل تغييران جذريان كبيران وضعا هذه البلاد في علاقة استعمارية تختلف عن العلاقات التي ينشئها المستعمر عادة مع البلاد التي يخضعها لحكمه. أراد الفاتح خلق شعبٍ جزائري جديد إلى جانب الشعب الجزائري الأصيل الذي كان يطلق عليه اسم «عرب الجزائر»(١). هذا «الشعب» الجديد أصبح في أواسط القرن العشرين يزيد على مليون ومائتي ألف غربي أوروبي نصفه فرنسي [ونصفه الآخر من أرومة اسپانية وايطالية ومالطية ويونانية] يضاف اليه مائة وخمسون ألف يهوديّ مهاجر منذ قرون ثلاثة تمثلوا في هذا الجزء الأجنبي من سكنة الجزائر وانصهروا في مجتمعهم.

(*) عن دائرة المعارف البريطانية (انسكلوپيديا بريتانيكا): «البربر هو العنصر الغالب في البلاد. متأثر بدرجة متفاوتة بالعنصر العربي وتأثيره وهناك مجتمعات قليلة عربية خالصة. إلاّ أن الفتح العربي لم يكن له تأثير كبير على الأصول العرقية مع انه نشر اللغة والاسلام. وحافظ البربر على طابعهم القومي وتقاليدهم وتمسكوا بها وفي الوقت الذي بقيت الجماعات المتحدرة من أصل عربيّ تعيش في الخيم استقر البربر في القرى والمدن وألفوا الزراعة وتربية الماشية. ومع أن اللهجات من اللغة البربرية مازالت تسمع في المناطق الجبلية والقرى إلاّ أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة والرسميّة. مع هذا فإن كتابهم الكبار وشعراءهم كانوا يكتبون وينظمون بالفرنسية تعبيراً عن شعورهم القومي والوطني ويبرز منهم كاتب ياسين ١٩٢٩–١٩٨٩ ومولود مزاوان ١٩١٣–١٩٦٢ ومولود مامري ١٩١٧–١٩٨٨ وغيرهم كثيرون».

(١) من مخططي هذه السياسة الجنرال برتران كلوزيل Bertrand Clouzel قائد قوة الانزال في ١٨٣٠. وخلفه بوجو Bugeaud (المقيم الفرنسي في ١٨٤١–١٨٤٦). د. ابو القاسم سعدالله. تاريخ الجزائر الحديث. ص٢٢ وما بعدها.

لم يكن عدد الجزائريين المسلمين (العرب والبربر) أثناء الإحتلال يتجاوز ثلاثة ملايين إلاّ أن عددهم قدر بتسعة ملايين عند قيام الثورة في ١٩٥٤.

وبقي سيل المستوطنين الأجانب يتوافد تباعاً وبلا انقطاع طوال عهد الجمهورية الثانية والثالثة والعهد الامبراطوري وبدوا وهم الحكام الفعليون وأصحاب البلاد عندما واجهت البلاد الحدث السياسيّ الثاني. وهي إحباط محاولة ليون بلوم الإشتراكي في العام ١٩٣٦ في منح حق التصويت على أرسال أعضاء الى الجمعية الوطنيّة لواحدٍ وعشرين ألف جزائري مسلم أسوة بالمستوطنين. وبدا من خلال كل التغيرات السياسيّة في فرنسا أن هؤلاء المستوطنين هم سادة[٢] البلاد الحقيقيين وأن باريس تدعمهم وتقف وراءهم دوماً ومادمنا اعتبرنا العام ١٩٣٦ مرحلة البداية فلنمض منها الى ما سيليها دون الرجوع الى الوراء.

في هذه السنة تميز في الجزائر معسكران سياسيّان رئيسان الأول هو معسكر الصيدلي (فرحات عباس) من سطيف وهدفه التمثل التام والانصهار مع المستوطنين الأجانب من خلال التعليم والمشاركة في عمليات الانتخاب.

الحركة الثانية التي تزعمها (مصالي الحاج) عرفت باسم الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية Movement pour le triomphe des libertes democratique وهو زعيم نقابي عماليّ نال درجة ما من الثقافة. وينبغي لنا القول هنا أن كلتا الحركتين تأثرتا كثيراً بحركة النهضة القوميّة العربيّة.

كانت الأقلية المستوطنة المسيحية ذات مستوى معاشي يساوي مستوى معيشة الفرد في أوروبا، في حين تعيش الأغلبية الساحقة من السكان الأصليين في حالٍ لاتوصف من البؤس والفاقة والبطالة الكاسحة. كان هناك مثلاً مليونان ونصف مليون جزائري وصلوا مرحلة تلقي العلم لايجدون لهم حظاً في مدرسةٍ إلاّ لواحدٍ من أصل كلّ ثمانية[٣].

(٢) د. أبو القاسم سعدالله. تاريخ الجزائر الحديث. القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٤ وما بعدها. [الجمهورية الثانية ١٨٤٨–١٨٥٢ على اثر ثورة ١٨٤٨. العهد الامبراطوري ١٨٥٢–١٨٧١ على اثر فوز ناپوليون الثالث بالانتخابات. الجمهورية الثالثة ١٨٧١–١٩١٤ بعد هزيمة فرنسا في ١٨٧٠ وإعلان الجمهورية]. وليون بلوم Leon Blum هو مؤسس الحزب الاشتراكي الفرنسي الحالي وأول اشتراكي ويهودي يعهد اليه برئاسة وزارة فرنسية ١٩٣٦–١٩٣٧ كان زعيم الجبهة الشعبية التي ألّفها ضد الفاشية والنازية. اعتقلته حكومة فيشي في ١٩٤١ وفشلت في تدبير محاكمة له فأبقي رهن الاعتقال حتى حرره الأمريكيون في العام ١٩٤٥ من معسكر اعتقال نازي.

(٣) س. هـ. فاڤرو: الثورة الجزائرية La Revolution Algerienne پاريس ١٩٥٩. ص ١٦: «كانت فرنسا تعتبر الجزائر جزءً منها. تتعامل معها بشكل يختلف تماماً عن تعاملها مع المستعمرات الأخرى وهي من =

في العام ١٩٤٣ أثناء الحرب رفع فرحات عباس للسلطة الفرنسية وللقوات الحليفة مذكرة تتضمن مطالب جزائرية. علق عليها الجنرال ديغول زعيم فرنسا الحرة في كانون الثاني من تلك السنة «إن الحرب العالمية وضعت فرنسا تحت دين وواجبٍ لمستعمراتها» اشارة الى مساهمتهم الصادقة تحت لوائه.

بدء الغليان الثوري أوقدته تظاهرات مايس (أيار) ١٩٤٥ الجزائرية بمناسبة انتهاء الحرب. في سطيف أدت الى اصطدام المتظاهرين الذين كانوا يرفعون العلم الجزائري – برجال الأمن وأدّى هذا الاصطدام الى انتفاضة عفويّة غير مبرمجة فقدت فيها أرواح عديدة[٤] وقوبلت باجراءات عقابيّة في منتهى القسوة وسال الدم في الطرقات لأوّل مرة.

ومهما يكن من أمر فقد رفضت الجمعية العمومية (البرلمان) حتى البحث في اقتراحات فرحات عباس بمنح حكم ذاتي اتحاديّ للجزائر. وبالمقابل فان الاصلاحات التي تقررت في القانون المؤرخ في ٢٠ أيلول ١٩٤٧ رفضها الجزائريون ثم أنّ السلطة لم تكن متحمسة لتطبيقها ففشلت.

وصفت حرب التحرير الجزائرية بالورم السرطاني الذي أسرع باخماد انفاس الجمهورية الرابعة الفرنسية. واعترفت حكومة گي موليه Guy Mollet باستقلال تونس ومراكش. إلاّ أن سياستها البعيدة عن المرونة المستوحاة من رغائب المستوطنين بلغت بفرنسا في الجزائر طريقاً مسدوداً، ليس فيه غير منفذ واحد وهو الحرب.

المستعمرون المتطرفون والطبقة العليا للأقلية الأوروبية في الجزائر والطبقة البرجوازية في الحواضر الفرنسية كانوا بصرون على أن الجزائر هي فرنسا وأن الثورة يجب أن تقمع بايّ ثمنٍ وعندها يصار دمج الجزائر بفرنسا دستورياً ويصبحان بلداً واحداً. إلاّ انه وجد تيار آخر تميل الى تبنيّه شرائح أوسع في المجتمع الفرنسي، يتصور نوعاً من تسوية ترضي الجميع ابتداء من قيادة الثورة التي تدير القتال وانتهاء بأقصى اليمين الكولونيالي. وهناك كان الاتجاه الثالث وهو الأكثر واقعية والأبعد نظراً هو الاعتراف بحق الجزائر في الاستقلال التام. في العام

= بعض الوجوه كانت تعدّها جزءً من الأراضي الفرنسية. ففي العام ١٩٤٦ مثلاً أصدرت الجمعية العمومية قانوناً يضمن للجزائريين ١٥ مقعداً في الجمعية. وسبعة مقاعد في مجلس الشيوخ فرفضت من قبل الهيئتين السياسيتين اللتين نوهنا بهما.

(٤) فقد فيها ٨٨ فرنسياً أرواحهم مقابل ألف وخمسمائة قتيل جزائري بحسب البيان الرسمي الذي أصدرته الحكومة. إلا أن مصادر مطلعة أخرى وضعت عدد القتلى المواطنين بين حديّ العشرة آلاف والخمسة. كانت هذه المذبحة مصدر صدمة عنيفة جداً للجزائريين والفرنسيين على حَدّ سواء. واعتبرها الكثيرون طليعة الثورة الجزائرية الكبرى فيً ١٩٥٤.

١٩٥٤ عند بداية الثورة والحرب لم يكن أحد مستعداً لسماع هذا الرأي بل البحث فيه إلاّ انه بات على مرور الزمن الاتجاة الابرز.

هذه الآراء الثلاثة كانت تناقش بحماسة وحرارة في الشارع الفرنسي وكان أصحاب الرأي الثالث في العام ١٩٥٨ يقولون في الصحف أن هذه الحرب كلفت حتى الآن أربعة أضعاف ما كلفته حرب الهند الصينية ذات النهاية المشؤومة.

في الليلة التي سبقت الأوّل من تشرين الثاني ١٩٥٤ بدأ ثوريون انفصلوا عن حركة «الانتصار للحريات الديمقراطية» ثورة مسلحة في الجبال والحواضر على أثر مؤتمر عقدته الفصائل الوطنية الجزائرية. وقالوا تبريراً لاعلانهم هذا والتجاوب الفوري له. إن الثورة ليست بنت ساعتها لكنها كانت إمتداداً وحصيلة لمذابح ١٩٤٧.

في مجرى أحداث الثورة ومن عقابيلها أقدمت السلطات الفرنسية على مذبحة أخرى بالقرب من فيليبيفيل. تخللتها عمليات اعدام متواصلة في ملعب تلك المدينة طالت مئات عديدة من الأرواح واقترح (جاك سوستيل) المقيم العام الفرنسي اصلاحات معينة على «جبهة التحرير الوطنية» التي أصبحت الآن تقود الثورة وتوجهها فلم تلق ترحيباً. وتواصلت الثورة. وفي العام ١٩٥٦ خيل للحكومة الفرنسيّة أن المشكلة الجزائرية مع المشاكل الداخلية الأخرى ستحلّ بمغامرة السويس التي اعتبرتها بمثابة فتح جبهة ثانية للثورة الجزائرية[٥].

تألفت خطة جبهة التحرير الوطنية من هجمات منسقة على منشآت حكومية منفردة أمثال مخافر الشرطة ومقرات حرس الغابات في جبال الاورس من بلاد القبائل وراحت تصدر بياناتها باللغة الفرنسية تحمل توقيع جبهة التحرير الوطنية. واختصاراً Front de liberation Nationale (FLN) وقالت في بيانها الأولي[٦]:

(٥) إشارةً الى اتفاق باريس السرّي بين موليه وإيدن وبن غوريون على احتلال قناة السويس. أنزلت في ٥ من تشرين الثاني ١٩٥٦ القوات المشتركة إلا أنها أجبرت على الانسحاب بعد أربع وعشرين ساعة. وزاد الوضع في الجزائر سوءً عى أثر ذلك واشتدت المقاومة بدعمٍ من عبدالناصر.

(٦) هذا التنظيم هو الذي باشر حرب التحرر وقادته اناس منٍ أصول شعبية فقيرة. تم تدريبهم عسكرياً وخاضوا غمار الحرب العظمى الثانية في الجيش الفرنسي. الى جانب بعض المثقفين اليساريين الذين درسوا في فرنسا ردحاً من الزمن وكانوا على صلة بالأحزاب الشيوعية والإشتراكية. بالتدريج اجتذب هذا التنظيم كل طبقات المجتمع الجزائري. ولما انتقلت الجبهة من مجموعة قوى ثورية مقاتلة الى حكومة بعد الاستقلال أصبحت زعامتها شركة بين الثوريين العسكريين القدماء وبين المثقفين والتكنوقراط الذينٍ ما كان يمكن تشكيل الحكم الوطني بدونهم. وأصبحت الجبهة حزباً، يستمد قوته من شبكات الفروع الحزبية في طول البلاد وعرضها. يساهم فيها بأدوار فعالة التجار الصغار والكسبة والمعلمون وأصحاب الأراضي الزراعية الصغيرة المساحة.

«هدفنا استعادة سيادة الدولة الجزائرية حيث يمكن أن يكون كل مقيم في الجزائر مواطناً يتمتع بكامل حقوق المواطنة شريطة أن يكون مستعداً لإقتبال الجنسية الجزائرية.»

وهو تعريض بالمستوطنين الأجانب الذين يأبون التخلي عن جنسيتهم الفرنسية.

وأراد المقيم الفرنسي (لاكوست) وقف اطلاق النار باستخدام القوة لا بالمفاوضات. ليقوم بعدها باجراء انتخابات ثم البدء بالمفاوضات مع ممثلي الشعب الجزائري وفي خلال ذلك يتمّ اجراء اصلاحات معينة قدر ما تسمح به ظروف القتال. من مقتضى هذه السياسة فرض وقف إطلاق النار عسكرياً. وإرسال نجدات كبيرة من القوات الفرنسيّة. ومن مقتضى تلك الاصلاحات المقترحة أن تجرى بالتهديد باستعمال القوة[٧] فوسعت جبهة التحرير من أعمالها العسكرية وزودتها تونس ومصر ومراكش بالسلاح والملاذ الآمن. وحين اضطرت القيادة السياسية الى مغادرة البلاد، رحب عبدالناصر بها وأنشأ لها مكتباً رسمياً في القاهرة.

في شهر تشرين الأول ١٩٥٦ اعترض السلاح الجوّي الفرنسي طائرة مراكشية كانت تقلّ خمسة من قادة الجبهة ومنهم «احمد ابن بلاّ» من الرباط حيث كانوا ضيوفاً على الملك وهم في طريقهم للمشاركة في مؤتمر في تونس. على أثر ذلك سادت عمليات إرهابية في الجزائر تمّ قمعها باستخدام فصائل المظليين وبما شاع أمره من استخدامهم أساليب التعذيب بحق الأسرى بغية إنتزاع المعلومات منهم. وبحثت قضية الجزائر في شباط ١٩٥٧ من قبل الهيئة العامة للأمم المتحدة وفي مناسبة أخرى. وكتدابير وقائية أقدم الفرنسيون على بناء حواجز وأسلاك شائكة ومعوقات على الحدود التونسية والمراكشية فأضرّ الى حَدّ كبير بالنشاط الثوري في الجزائر. وتقلص حجم نقل الأسلحة والذخائر والاتصالات الأخرى.

وأدّى اكتشاف حقول نفط كبيرة جنوب الجزائر الى خلق التنظيم الاداري للاقليم الصحراوي في ١١ كانون الثاني ١٩٥٧ Organisation Commune de Region Saharienne (اختصاراً OCRS) يدار مباشرة من باريس بوزارة جديدة مستحدثة باسم وزارة الصحراء، تقطع من الجزائر وتفصل عنها فصلاً تاماً.

(٧) تشكل لهذا الغرض ما دعي بالفروع الادارية المخصوصة Sections Administrative Special (SAS) حيثما كان ذلك ممكناً. وقد حلت محل ما كان يدعى بالأصل المكاتب العربية Bureou Arabes القصد منها «رفع المستوى المعاشي في كل قرية مسلمة يتم تصفية نفوذ الثورة فيها وتم على هذا الأساس وضع مليون وربع مليون قروي تحت نظارة الحكومة. وهجرّ نحو مائة وخمسين ألف جزائري الى تونس ومراكش [راجع: نيكولاي مولخانوف: ديغول: حياته وأعماله. موسكو ١٩٨٨ الطبعة الثانية :Nicolai Molchanov .De Gaulle: His life and work.

وفي أيار ١٩٥٨ دخل الجنرال ديغول الصورة بشكل غير متوقع وكان قبلها يلوذ بالصمت المطبق حين يسأل عن رأيه فيما يجري وقتَ كان الجميع يتوقع منه قولاً. لاسيما وانه وفي مستهل العام ١٩٥٧ باتت دراما لجزائر تحث الخطى نحو الفصل الأخير. كان واضحاً أن مواصلة الحرب دون نهاية كوسيلة للخروج من المأزق – ليس في صالح أحدٍ. وتوالت التظاهرات في باريس وفي الجزائر حين داخل المستوطنين الفرنسيين وأشياعهم في فرنسا بأنّ الحكومة تنتوي فتح باب المفاوضات مع الثوار وانتهت التظاهرات بأزمة سياسيّة أوصلت الجنرال المتقاعد الى الحكم وقد توجهت انظار هؤلاء اليه اعتقاداً منهم بأنه يعتنق وجهة نظرهم في المحافظة على املاك فرنسا ولاسيما الجزائر. لكنه بقي لايتفوه بكلمة عنها. غير أن بعض من كان يزوره تحدثوا همساً عن رأيه في وجوب ترك الجزائر.

في الثاني من أيلول ١٩٥٧ وزّع مكتب الجنرال الخاص على الصحف هذا البيان الغريب:

«الأقوال والتنويهات التي تعزوها الصحافة الى الجنرال أحياناً نقلاً عن زائريه ومن خلال أحاديث شتى غير مترابطة واسعة الأفق، انما تُلزم فحسب أولئك الذين يبلغون عنها أو يعزونها اليه. وعندما يعتقد الجنرال انه من المفيد ابلاغ العموم بما يفكر. فانه سيفعل ذلك بنفسه بصراحة وعلى ملأ كالمعروف عنه جيداً. وهذا ينطبق بنوعٍ خاصّ على مسألة الجزائر.»[٨]

لاشك في أن ديغول انتهز فرصته لتوجيه الانظار اليه دون تمهيد على أثر اكتشاف منابع النفط العظيمة وما سيكون قد اعده المستقبل لفرنسا بها وهي في امسّ الحاجة اليه. أتراه سيقول شيئاً؟ أتراه يحتفظ بخطةٍ؟ «الرجعيون» أعداء ثورة الجزائر من المستوطنين الأجانب كانوا يعتقدون بأن الجنرال ديغول لن يتخلى عنها. لكن لا أحد من هؤلاء كان يستطيع الادعاء بانه يعكس وجهة نظر الجنرال. فهؤلاء سياسيّاً ليسوا ذوي وزنٍ مذكور بدونه. لأن الظلّ العملاق الذي كان ينشره على تلك التجمعات الديغولية هو القادر على تحقيق أي نوع

(٨) لوموند في ١٣ من أيلول. من رجال الفكر الكبار الذين أيدوا عودة ديغول الى الحكم بمعرفةٍ جيدة لما يضمر خلافاً للشائع المقول عنه. وباعتقادهم بانه هو وحده القادر على انهاء الحرب الجزائرية بمنح الجزائر حقها في الاستقلال: اندريه مارلو Andre Marlaux وفرنسوا مورياك Francios Morriac من ممثلي كتلة ديغولية ومن السياسيين الديغوليين الكبار الحاكم (المقيم) العام السابق في الجزائر جاك سوستيل Jacque Soustelle وجاك شابان ديلما Jacque Shaban Delmas وادموند ميشيليه Edmond Michelet الذي كان يتزعم حركة ديغولية ثالثة غير هاتين. ويمكن اعتبار تصريح هذا الأخير في (لوموند) نموذجاً لما كان هؤلاء الفرقاء الثلاثة يعتقدون: «إن مكانة الجنرال وحدها هي القادرة على اقناع البلاد بالموافقة على التخلي عن الجزائر وعدم معارضته لاستقلالها.»

من المستقبل السياسي.

يقول ميشيل دوبريه وهو أحد أصدقاء ديغول ورفاقه في الحرب العظمى الثانية:

«أعلم جيداً بأني أنا وجاك سوستيل لسنا على إتفاق مطلق مع الجنرال في سياسته للجزائر. إلاّ أن المهمة الأكثر أهمية والحاحاً هو وضع نهاية لهذا الأسلوب الذي يؤدي بفرنسا الى الخراب.»[٩]

وتمكن ديغول بالتزامه الصمت المطبق عن شعار «جزائر فرنسية» الذي ينادي به المستوطنون الأجانب الغلاة في التطرف بإيهامهم انه معهم كما كسب الإشتراكيين اليه بعين الوسيلة[١٠].

في مفتتح شهر أيار ١٩٥٨ تفاقمت الأوضاع وبدأت الاحداث تتناجح بسرعة فائقة آخذةً بعضها بحجز بعض وبدأت ساعات احتضار الجمهورية الرابعة وامتدت طوال شهر واحد وكانت ثورة الثالث عشر من أيار ظاهرة إجتماعية – إقتصادية قبل أن تكون ظاهرة سياسية[١١].

(٩) في الواقع أن العلاقات بين ديغول وبين رفاقه وزملائه هؤلاء لم تكن تشبه قط العلاقة المعتادة بين زعيم حزب سياسيّ وبين «دائرته الضيقة». فزعيم مثله كان كقاعدة عامة لايعتمد اعتماداً كلياً على زملائه وانما الى مدى معين. كما كان عليه أن يحسب بدقة حساب مطالب حلفائه. إلاّ أن ديغول كان على خلاف هذا تماماً. كان يتوقع من اتباعه ومواليه اخلاصاً شخصياً له غير محدود. ولم يكن مهتماً بآرائهم لذلك كان وضعه الآن استثنائياً يعمل كما كان في ١٩٤٥ عندما دخل باريس ظافراً كزعيم قوميّ لا كرئيس حزب سياسي لهذا وجب تقدير دوره في حلّ مسألة الجزائر بوصفه جهداً شخصياً كما سنرى (المرجع السالف: ديغول ص ٢٦٢).

(١٠) عندما أشار صديقه الزعيم الإشتراكي أندريه فيليب André Philipi الى التطورات المنذرة بالخطر في الجزائر قال له ديغول: يستطيع المرء أن يسلم من الأزمة من خلال التسليم باستقلال الجزائر على أن يكون بمراحل مع الاحتفاظ إن أمكن بالعلاقة مع فرنسا.

أجاب الزعيم الإشتراكي: بلى، إلاّ اني قلقٌ. هناك ثورة في الجيش يُعد لها ويهيّأ. وهناك تفضيل «جزائر فرنسية» تحت رعاية اسمك. وبالنظر الى ما قلت الآن. فأنت لايسعك أن تفعل أكثر من تحريم استخدام إسمك عليهم.

قال الجنرال: إن كان الجيش في غليان. فإما انه توجد حكومة في باريس وإمّا لاتوجد. إن وجدت فستحكم ويطيعها الجيش. إلاّ أن الجيش لايثور إلاّ اذا أصيبت غريزته الطبيعية بخيبة. إن لايوجد حكومة فالجيش سيمسك بزمام السلطة في الجزائر. وأنا عندما أتأكد من أن لا وجود لحكومة فامسك بعنان السلطة في باريس انقاذاً للجمهورية.

– عند ذاك لن تكون قادراً على اعلان استقلال الجزائر. ستكون رهينةً.

– كلاّ لاتكن ساذجاً يافيليب. أنت عشتَ في الجزائر كما عشتُ وأنت تعرفهم. إنهم صخابون كثيرو الضجيج. ما عليك إلاّ أن تتركهم يضجّون ويصخبون. اما بخصوص العسكريين فسوف أنتظر بهدوءٍ وصبر حتى يقوم قادتهم بابتلاع واحدهم الآخر. وعندئذ سأفعل ما سيطيب لي فعله بالباقين من ترفيعٍ وتقليد أوسمة.

(١١) نشر وألف عدد كبير من الكتب حول هذه الأحداث التي أودت بالجمهورية الرابعة (جمهورية ١٩٤٥) وما يهمنا هنا مقدار تأثير الثورة الجزائرية على ما جرياتها وتأثيرها على مسار الثورة ودور ديغول فيها.

استخدم ديغول الأزمة التي خلقتها حرب الجزائر لتوجيه الأحداث نحو بناء سلطته الشخصية. وبدت الاشارة تعلة لتوجيه العمل الثوري الجزائري الى استحالة تشكيل حكومة تتعهد بتطبيق الغلاة المستوطنين والى الاشاعة بانّ البرلمان يتحرك نحو تأليف حكومة جديدة تميل الى الشروع في مفاوضات مع جبهة التحرير تهدف الى انهاء الحرب أو التخلي عن الجزائر كما صورها المستوطنون الغلاة.

ووقف رينيه كوتي René Coty رئيس الجمهورية حائراً أمام الخصام الشديد الناشب حول الطبخة الوزارية. ثم أوعز لأمين سرّه العسكري بمقابلة أولئك المتعاونين مع ديغول - بغية الاطلاع على شروطهم لعودة الجنرال الى الحكم وأسرع هؤلاء ليبينوا لرئيس الجمهورية أن الجنرال يترفع أولاً عن التقليد المتبع في مسار تشكيل الحكومات عادةً بالزيارة الواجبة لا للرئيس ولا لرئيس مجلسي الشيوخ والنواب. كما أنه يطلب اجراءات غير عادية منها أن لايكون هناك بحث في الجمعية العامة حول تكوين الحكومة التي سيرأسها ديغول ولا عن السياسة التي ستختارها.

رفض رئيس الجمهورية شروط ديغول وكلّف پليڤان Pleven ففشل فعاد يكلّف فلاملان Phlimlin ففعل وكان مقترحه حول حرب الجزائر هو ميلٌ محدودٌ نحو تسويةٍ ما لاتخلّ بسيادة فرنسا ولم يستبعد امكان اجراء مفاوضات سلام، وأشاع هذا موجة غضب وهياج عظيمين عند المنادين بشعار «الجزائر الفرنسية» كما أن تشكيل تلك الوزارة أثار كتلة الجنرالية في الجزائر وحثهم على العمل السريع:

في ليلة ٩/ ١٠ من أيار ١٩٥٨ تسلّم رئيس الجمهورية من جنرالية الجيش الفرنسي المرابط في الجزائر [سالان وجوهو وماسّو] إنذاراً جاء فيه:

«إن الأزمة الحالية تكشف عن الانقسام العميق بين الأحزاب السياسية حول معالجة مسألة الجزائر. والصحافة مجمعة على أمرٍ واحد وهو أن التخلي عن الجزائر سيتم كما تصورته - من خلال عملية دبلوماسية تبدأ بمفاوضات حول وقف اطلاق النار... إن الجيش الفرنسي - يرى بالإجماع بانّ التخلي عن هذا الأرث الوطني انما هو عدوانٌ لا مراء فيه. إن ردّ الفعل اليائس عليه لايمكن التنبؤ بحجمه...»

هذا الانذار هو تهديد بثورة عسكرية وعصيان على الحكومة. وقد بدأ الجيش بتنفيذه: ففي ١٣ أيار أعلنت المنظمات والتكتلات الفرنسية من المستوطنين في الجزائر إضراباً عاماً مع

تظاهرات، مصحوبة بنداء من «لجنة المراقبة» Le Commite Vigilance التي تمثل ١٧ منظمة كولونيالية ومستوطنة معارضة لإستقلال الجزائر. وفي اليوم عينه إلتأمت الجمعية الوطنية بمجلسيها للموافقة على منح رئيس الحكومة المكلف الثقة والاذن بتأليف الوزارة. إلاّ أن منهاجه اصطدم بمعارضة شديدة من اليمين واليسار معاً. وبقي القرار معلقاً.

وفي السادسة مساء نظم الديغوليون والمعارضون الپاريسيون لإستقلال الجزائر مظاهرة اتجهت نحو بناية الجمعية الوطنيّة. كانت مجرد آلاف قليلة تفرقت فور مواجهة الشرطة تاركة خلفها شعارات مكتوبة على الحيطان «انتدبوا ديغول» «فرنسا ستعود كما كانت». وانتقل الإضراب والتظاهر الى مدينة الجزائر. كان الأضراب عاماً وأغلقت الدوائر مع الدكاكين وبدأ مركز المدينة يموج بحشود الغلاة المستوطنين الذين تجمعوا حول نصب ضحايا الحرب بمناسبة قيام الجنرالين (سالان) و(ماسّو) بوضع إكليل عليه[١٢]. وشكلت الجموع ما سمته «لجنة الأمن العام» مستعيرة الاسم من تلك اللجنة المخيفة التي كانت ترسل الناس بالجملة الى المقصلة ايام الثورة الفرنسية الأولى[١٣]. لم يكن بالوسع عمل شيء أمام هذه الحشود المتحمسة من المستوطنين. وكانت فوضى عامة في هذا اليوم الرابع عشر من أيار يوم ميلاد لجنة الأمن العام وقد تألفت من جميع الفئات التي تعارض التعامل مع الجبهة الوطنيّة والثوار الجزائريين وتتبنى شعار «جزائر فرنسية» ولم يكن الجنرال (دلبيك) وهو من أنصار ديغول يستطيع أن يفعل شيئاً لقلة اتباعه وأختير الجنرال (ماسّو) رئيساً للجنة وكان أوّل ما فعله أن

(١٢) زعمت صحفهم أن السبب في التظاهر هو قيام الثوار الجزائريين باعدام ثلاثة جنود فرنسيين رداً على مذبحة أقدم عليها الجيش الفرنسي بعدد من الوطنيين الجزائريين.

(١٣) بعد أن ترك الجنرالان الساحة ارتقى ضابط صغير الرتبة (ملازم) من المستوطنين الغلاة يدعى (پيرلاگيار) درجات النصب وهو ببزة الجنود المظليين وصاح بالمجتمعين بأن يتوجهوا ويحتلوا مقرّ المقيم العام (مقر الحكومة) فأطاعه بضع مئات. كانت في الحقيقة مؤامرة نظمها عدد من المستوطنين غرضها الحيلولة دون تأليف حكومة برئاسة (فلاملان) وانسحبت وحدة الشرطة التي كانت تحرسه بعد اطلاق قنابل دخان ومن دون أن تطلق رصاصة واحدة واستولت الغوغاء على البناية وراحت تعمل تخريباً بكل شيء. صاروا يمزقون الوثائق الحكومية ويحرقونها أو يلقونها الى الشارع من النوافذ. وصف لاگيار الحالة للصحف فيما بعد قال: «الكل كان يصيح وكنا نريد التعبير عن وجهات نظرنا. ودام الحال هكذا مدة ثلاثة ارباع الساعة ولا أحد يريد أن يمسك بزمام الأمور أو يضطلع بالمسؤولية والحشود تصرخ بي واعتبرتني المسؤول الذي شرع بالعملية». أخيراً أقبل الجنرال (ماسّو) مرتدياً بزته العسكرية محاطاً بضباطه. وراح يعنف الجمهور مستخدماً أحط لغة سوقية وأرذل التعابير والتفت الى (لاگيار) صائحاً «اي نوع من بيت العهر هذا؟ وأنت، أنت المتنكر ببزة عسكرية، ماذا تعمل هنا؟ قال لاگيار انه يريد اقامة وحدة بين الجنود والمدنيين بتأليف لجنة الأمن العام وانقاذ الجزائر. وفي تلك الأثناء حضر القائد العام سالان ودلبيك Delbecque وعسكريون آخرون وبدأت نقاشات وجدالات حول تشكيل لجنة الأمن العام بجلبة وضوضاء [ديغول: المرجع السالف ص ٣٠٠-٣٠١].

بعث ببرقية الى باريس يطلب فيها تأليف «حكومة انقاذ وطني».

قليل من الناس في الجزائر كانوا يعلمون أن هذا الجنرال هو ديغولي قلباً وقالباً وبينهم أولئك المتطرفون المستوطنون الذين اختاروه ليقود حرباً على الثورة الجزائرية حتى سحقها. إلاّ أن هؤلاء علموا في فجر اليوم التالي بأن رئيس الحكومة المكلّف (فلاملان) قد فاز بالثقة. ولاح لهم أن مؤامرة ١٤ أيار في مدينة الجزائر قد فشلت وهي كما قلنا الحيلولة دون (فلاملان) وتشكيل الوزارة. ودبّ الخوف في أنفس المؤتمرين. وكانت هناك عبارات في إجتماعاتهم مثل «انتهينا! سنرمى بالرصاص جميعاً» لكن جاءت فرصة غير متوقعة للديغوليين. حين تذكر أحد أعضاء اللجنة بأن هناك سبيلاً رائعة للنجاة وهي المطالبة بمنح الجنرال ديغول السلطة. وراقت الفكرة للجنرال (ماسّو) فبعث في الخامسة صباحاً بالبرقية التالية موقعة منه وموافقة أعضاء لجنة الأمن العام:

«تلتمس اللجنة من الجنرال ديغول بأن يتفضل فيخرج عن صمته ويخاطب الأمة، لينبئها باعتزامه تشكيل حكومة الأمن العام التي يمكنها وحدها لا غيرها إنقاذ الجزائر من الضياع.»

لم يجب الجنرال على البرقية. إلاّ أنه أسرع فانتقل من منزله الخاص في (كولومبي) الى باريس وبدأ يجتمع بأنصاره وقد علم بأن رئيس الجمهورية سيعهد اليه تشكيل الوزارة – بعد أن فشل (فلاملان).

وفي الجزائر لم يكن العسكريون مستعدين للنزول عن سلطتهم الى المدنيين المستوطنين وسرعان ما دبّ الخلاف في هذه اللجنة وصرح العسكريون بأنهم قد يعمدون الى تصفية اللجنة. وفي الخامس عشر من أيار ألقى (سالان) خطبةً قصيرة ختمها بالهتاف بحياة «جزائر فرنسية» فجذبه (دلبيك) وكان يقف وراءه ليهمس له بالهتاف بحياة «ديغول» ففعل بشكل آليّ دون تفكير[١٤].

في مساء ٢٨ من أيار دخل ديغول قصر الاليزيه وبعد بضع ساعات أعلن بأن حكومته ستمنح صلاحيات استثنائية وانها ستقوم بإعداد دستور جديد للبلاد تعرضه للاستفتاء العام. وفي أوائل حزيران ١٩٥٨ قدم ديغول للمجلس مشروع قانون يخوّل حكومته الصلاحيات الاستثنائية المشار اليها فتمت الموافقة عليه وفي اليوم التالي: الرابع من حزيران كان ديغول

(١٤) قوبل هتافه بصمت وبرود من زملائه الذين عتبوا عليه إقحام ديغول بناءً على اقتراح دلبيك. فانكر أولاً ثم أقرّ بعد ذلك (لوموند: ١٦ أيار).

في الجزائر وفيها ألقى خطبة[١٥] ثم طاف المدن الرئيسة: قسطنطينة وبونه ووهران وموستانيم. وفيها أفلتت منه عبارة «الجزائر الفرنسية» مرة واحدة. وفي باريس أجاب حلفاؤه من اليسار المحتار المعاتب استخدامه تلك العبارة فقال:

«أجل انها خرجت دون قصد أو ارادة. ثم وعلى أية حال ترى المرء أحياناً يقول كندا الفرنسية أو سويسرا الفرنسية.»

ويتفق الكتاب والمؤرخون على أية حالٍ بأن مجرد ظهور ديغول في الجزائر وإن لم يفتح باباً بعد يوقف الحرب الدائرة بعنفٍ إلاّ انه حقق حل المطلب الملح آنياً وهو القضاء على ثورة المستوطنين. من دون أن ينضم الى برنامج الغلاة وكانوا يتوقعون ذلك مسبقاً. وبدت خطبة (دلبيك) الديغولي من راديو الجزائر في الخامس من حزيران ما يشبه الانذار:

«نحن سننتظم حول الجنرال ديغول لكن ليس بأي ثمنٍ كان. نحن لم نعبر [الروبيكون] من أجل صيد السمك. إننا سنبلغ بالقضية التي بدأنا في ١٣ أيار الى النهاية.»

لكن في الوقت الحالي كان على قادة العسكر الثائر الذي يقاتل الثوار أن يقنع بالاوسمة. وبالنجوم التي أضيفت الى رتبهم العسكرية بالسخاء الديغولي المعهود[١٦].

بعد أن استتب لديغول الأمر. ووفقاً للخط الذي رسمه عند قبوله رئاسة الحكومة بدأ يبعد نفسه بالتدريج عن المستوطنين الغلاة في الجزائر في الوقت الذي راح يبدي انعطافاً والتفاتاً كبيرين للأحزاب السياسية في فرنسا. ثم أنذر لجنة الأمن العام في الجزائر بعدم التدخل في أي شأن يتعلق بالسياسة وأن تُراجع الجنرال سالان فحسب بما تراه من إقتراحات أو آراء. وهيأ الدستور الجديد بسرعة فائقة وكان قد عهد بفصوله الى لجانٍ عديدة قانونية راح يحتثها للاسراع. فكملت في متنصف شهر آب للاستفتاء الشعبي. وتمت المصادقة عليه بأغلبية

(١٥) من أقوال الصحف حول الاستقبال الذي عمل له. فقد اصطفت الجماهير الغفيرة على جانبي الطريق من المطار. وفي الميدان الكبير اعتلى المنصة والقى خطبة قوطعت بالهتاف والتصفيق. تحدث فيها عن الأخوة وعظمة فرنسا ومستقبلها بكثير من العبارات ولم يكن فيها تلك العبارات التي كان سالان وسوستيل والآخرون ينتظرونها وهم واقفون الى جانبه «خلا عبارات الجزائر الفرنسية – والمعجزة الجزائرية – والاندماج والتآخي الإسلامي الفرنسي الذي أنجزه الجنرال ماسّو ومظليّوه – وانه لم يعد في الجزائر غير صنف واحد من المواطنين». إلا أن الكلمات التي كان ينتظرها كل سامع لم تخرج من فمه.

(١٦) مثلاً كوفيء سالان بوسام الحرب وهو أرفع وسام عسكري. ورفع ماسو درجةً. وعين زيلليه Zeller بمنصب رئيس أركان الجيش. وأسند لسوستيل منصب وزير الاعلام في ٧ حزيران وفي احتفالات ١٤ تموز ١٩٥٨ شُرّفت سرية من المظليين بالمشاركة في الاستعراض السنوي في شارع الشانزيليزيه.

ساحقة[١٧].

وبدأ الجميع يترقبون. وجددت الجبهة الوطنية لتحرير الجزائر مطلبها للحكومة الجديدة بالاستقلال التام وصعدت السلطة العسكرية من هجماتها في منطقة الجبال وارتكب المظليون والفرقة الأجنبية المحرمات والقتول. وشاعت عمليات الاغتيالات بين الطرفين. ولم تجد الصحف والاعلام المصري خبراً صغيراً عن مراكز التعذيب والمقاتل إلاّ ووضعته موضع الصدارة وربما طابت لها المبالغة وأخيراً عثرت على المصطلح الذي لصق بالثورة الى الأخير – وهو «ثورة المليون شهيد» وأول ما قرأته أو سمعته كان في العام ١٩٥٨. وبقي العدد لايزيد ولاينقص والثورة مستعرة وهي تدفع بالأرواح في كل ساعة خلال السنوات الثلاث التالية!

في ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٨ بدأت مرحلة جديدة هامة من مراحل النضال الجزائري عندما عرض الجنرال في مؤتمره الصحفي على جبهة التحرير الجزائرية «سلام صناديد الرجال» وعليهم من أجل الوصول اليه أن يستخدموا «علم الهدنة الأبيض».

قالت قيادة الجبهة أن ديغول يعرض عليها إستسلاماً مجرداً ومن دون أية ضمانات سياسية ورفضت العرض هي والحكومة الجزائرية المؤقتة التي تألفت قبل فترة وجيزة. في عين الوقت بدأت حملة اعلامية واسعة «لمشروع قسطنطينة». وهي خطة وضعت بهدف تطوير الجزائر إقتصادياً. الى جانب ذلك كان ديغول يأمل بأن تأتي انتخابات الجمعية العمومية التي ستجرى في الجزائر بنخبة من الساسة الاسلاميين شريكاً له أقرب الى التفاهم في المسألة الجزائرية ولكن النتيجة كانت عكس ما امل فقد كان المستوطنون الغلاة هم المسيطرون وكلهم يريدون دمج الجزائر بفرنسا وهو ما كان الجنرال يكرهه ويعارض فيه.

(١٧) حوفظ في الدستور على المباديء الديمقراطية الأساسية. حقوق البرلمان طبعاً. والى درجة أقل صلاحيات الحكومة التي اختزلت الى حدّ كبير. في حين أعطي رئيس الجمهورية سلطات غير مسبوقة (بحسب المادة ١٦ منه يمكنه ممارسة سلطات غير محدودة إذا ما تراءى له ذلك). وحزر كلّ شخصٍ بعد ذلك من سيكون رئيس الجمهورية.
وأرغم ديغول بسبب موضوع الجزائر على الاحتفاظ ببعض الصلاحيات البرلمانية، كمبدأ مسؤولية الحكومة امام البرلمان وتلك هي الجمهورية الخامسة في تاريخ فرنسا السياسي بعد ثورة ١٧٨٩. وجاء في أسبابه الموجبة أنه يهدف أيضاً الى تطوير أجهزة الدولة وأساليب الادارة بناء على مقتضيات تطور المجتمع.
في ٢٨ أيلول ١٩٥٨ طرح الدستور الجديد للتصويت العام وقال ديغول قبله أن سبعين بالمائة سيكون نجاحاً. إلاّ أنه فاز بثمانين بالمائة من أصوات الناخبين تقريباً. واعتمد الناخبون في التصويت له على اسم «ديغول» فقد ذكرت الصحف أن نصف الناخبين لم يزعجوا أنفسهم بقراءته. إلاّ أن أهم ما ألجأهم اليه هو أن ديغول لابدّ سيجد لفرنسا مخرجاً من مسألة الجزائر المعقدة. ولم يكن لأحدٍ في حينه فكرة واضحة عن كيفية ذلك.

وفي خلال تلك الفترة بدا العنصر الوحيد في سياسة ديغول الجزائرية ما دعي بسياسة «التهدئة والمهادنة» ومما كانت تقتضيه التوسيع في تجريد الحملات العسكرية باستمرار ومن دون نهاية في منطقة الجبال في الواقع. هذا في الظاهر إلاّ أن سياسته كما تبين فيما بعد كانت خلاف ذلك. كان يخطط لشيء آخر ذي دلالة عظيمة، هو إضعاف موقف المستوطنين الغلاة في الجزائر وأشياعهم في فرنسا بفصلهم عن الجيش، ثم عزل الجيش عن قيادته في النهاية. فأصدر في أوائل شهر تشرين الأول أمراً للعسكريين كافة بالانسحاب الكامل من «لجنة الأمن العام» واحتج المعنيون به باضراب في الجزائر لم يكن واسع النطاق كما خطط له فأصاب المستوطنين بضربةٍ موجعة. ثم بادر في شهر تشرين الثاني الى استقدام الجنرال سالان وأسند اليه منصب «المفتش العام لقوات الدفاع الوطني» وهو منصب تشريفاتي صرف. كما استدعى عدداً كبيراً من القادة والآمرين المشاركين في اعتصاب «أيار» ومعظمهم ممن ساعده وناصره في مراحل تسنمه كرسي الحكم. وقصده الفصل بين الديغوليين الحقيقيين وبين المستوطنين الذين ينادون بالاندماج[١٨].

لم يحصل أي تبدل في الموقف حول الجزائر غير تصاعد حدّة القتال واتساع رقعة الأعمال العسكرية. وأنذر في مؤتمر صحفي بتاريخ ٢٥ من آذار ١٩٥٩ أن «حلاً فورياً لمسألة الجزائر لايتوقع وسيستغرق وقتاً مليّاً في سنة رئاسته الأولى». كان يرى بكل وضوح أن العسكرية الفرنسية في الجزائر ستحبط أي اجراء واقعي وعملي وحتى في داخل الحكومة فقد اعترضه تيار معاكس. وكانت الجزائر عقبة في سبيل أي محاولة لانتهاج سياسة خارجية ثابتة. كان الرأي العام العالمي يقف ضدّه وأنباء المذابح وقصص التعذيب والفظائع التي يرتكبها الجيش الفرنسي تحتلّ المقام الأول في الصحف. وبالنسبة الى ديغول كان الأمر خطيراً بالغ الأهمية وباتت الشؤون الجزائرية بالتدريج تحتل الحيز الأوسع من ذهنه. باتت شغله الشاغل ومصدر قلق لا نهاية له والمسألة لم تكن مسألة التغلب على مقاومة المستوطنين المتطرفين. بل كان

(١٨) قبل الانتخابات النيابية وقبل انتخاب ديغول لرئاسة الجمهورية الخامسة. قام جاك سوستيل بالتعاون مع أقطاب ساسة منظمة التحرير الفرنسية الغابرة RPF بتأليف حزب سياسي جديد بعد أن رفض ديغول إحياء التنظيم القديم – وعرف هذا الحزب الجديد بحزب الاتحاد الوطني من أجل الجمهورية الجديدة UNR. هذا الحزب بعد تحالفه مع أقطاب دعاة الجزائر الفرنسية لم يفز بأكثر من ٢١٢ مقعداً في حين نالت الأحزاب القديمة مجتمعة ٢٥١ مقعداً. وهذا ما أدى الى تباعدٍ بين سوستيل وديغول. الذي كان قد انتخب رئيساً للجمهورية في كانون الأول ١٩٥٨ بحيازته ٧٥,٥٪ من الأصوات وفي كانون الثاني ١٩٥٩ زاول مهام منصبه. وأسند الوزارة بسرعة الى مهندس الجمهورية الخامسة ميشيل دبريه Michel Debre الذي قدم للمجلس بموافقة ديغول – برنامج وزارته فوافق عليها بأغلبية ٤٥٣ من أصل ٥٠٩ نواب وصوّت الشيوعيون والإشتراكيون ضدّها ولم يكن فيها ما يشير الى خطة ديغول بخصوص الجزائر.

عليه أن يتغلب على المقاومة من معسكره ومن الفرنسيين في الداخل. في أحاديثه الخصوصية – ومنذ ١٩٥٨ كان يحبذ أن يجد جزائر مستقلة. إلاّ أن الأحاديث الخاصة شيء والقرار المسؤول شيء. قال لوزرائه:

«ليس من قبيل التسلية العظمى وفي مثل عمري، وبما درجت عليه. إلاّ اني قررتُ مع نفسي... إنها لعبة صعبة تلك اللعبة التي نزمع أن نلعبها. وليس فيها ما يجلب المتعة بالنسبة اليّ.»[١٩]

وهكذا قرر ديغول المباشرة في أوّل تحول سياسيّ كبير لموقف فرنسا في الجزائر. في جلسة خاصة بتاريخ ٢٦ من آب ١٩٥٩ وللمرّة الأولى تناولت الوزارة قضيّة الجزائر عرضا وهي الآن تجتمع برئاسة رئيس الجمهورية تطبيقاً للدستور الجديد لا كما كان الحال في السابق لم يكن ثم ما يمكن أن يوصف بالنقاش الكبير. كان الجنرال يصغي فحسب الى أعضاء الحكومة وكلّ يدلي برأيه واحداً إثر الآخر. كان (ميشيل دوبريه) أول المتكلمين وقال «من المفروغ منه الاّ يكون هناك دولة جزائرية ومن الضروري الابقاء على الوضع الراهن الاقتصادي والسياسي والستراتيجي الفرنسي فيها»[٢٠]. ووافقه جاك سوستيل بحماسةٍ مؤيداً وجهة نظره وساندهما عدد كبير من أعضاء الحكومة وإن بحماسة أقلّ. واتخذت القلة وفي مقدمتها الكاتب الكبير أندريه مارلو André Marleou وإدمون ميشيليه Edmond Michelet موقفاً لايحول دون الجزائر والاستقلال. وبعد أن نفض كلّ ما في جعبته ختم الجنرال الجلسة بقولته الشهيرة:

«شكراً لكم ايّها السادة. في الموقف الحالي لا مفرّ للمرء إمّا أن يسير قدماً وامّا أن يموت وقد أخترت لنفسي السيّر قدماً.»

وعلم الجميع ما يقصد.

ففي ١٦ من أيلول ١٩٥٩ ألقى خطاباً، أكّد فيه بشدّة إقراره بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره قائلاً إن الجزائريين هم أنفسهم الذين يختارون مستقبلهم. إن بوسعهم اختيار واحدٍ من ثلاثة: الانفصال الكامل والاستقلال التام، الأمر الذي يعني قطع كل صلةٍ مع فرنسا

(١٩) ديغول: المرجع السالف ٣١١–٣١٣.

(٢٠) لوموند. ٢٧ آب: الوزراء كانوا هناك من أجل تنفيذ أوامره. أحياناً كانوا يجهلون جدول الأعمال. وأحياناً لم تكن لديهم فكرة عن المواضيع التي ستبحث في الاجتماع ولايعرفون المقررات الهامة إلاّ من الصحف مع أن مسؤوليتهم تضامنية دستورياً بخصوص سياسة البلاد. لم يكن يسمح لهم بمعالجة المشاكل العامة. وعندما كان ينزعج مما يراه أحكاماً سياسية فردية في غير محلها يتوجه الى صاحبها قائلاً «لو شئت أن تأخذ مكاني!».

وهذا برأيه سينتهي بفوضى ومتاعب وستحلّ في الجزائر دكتاتورية عسكرية الطابع شيوعية المظاهر. وعندها ستقوم فرنسا باستخدام كل الوسائل المتاحة للاحتفاظ بنفط الصحراء وإعادة تجميع كلّ السكان الذين يريدون الجنسيّة الفرنسية. اما الطريق الثاني فهو «تفرنس Frenchification» الجزائر أي تمتع كل سكان الجزائر بعين الحقوق والواجبات التي قررها الدستور الفرنسي وهو عين شعار الجزائر الفرنسية الذي لايراه الجنرال واقعياً. أما الطريق الثالث فهو الزمالة ويراه أفضل الطرق. وما يقصده هو حكومة جزائرية خالصة من الجزائريين ترتبط بفرنسا باتحاد وثيق إقتصادياً وثقافياً وعسكرياً وتمثيلاً خارجياً.

لكنه عاد ليقول انه من غير الممكن تطبيق اي وجه من أوجه حق تقرير المصير بشكل فوري. وإن تصويتاً على مصير البلاد يجب أن يحصل بعد مرور أربع سنوات على وقف اطلاق النار.

وترى خطاب الجنرال هذا يحفل بالتحفظات والمتناقضات لأنه بالأصل لم يكن راغباً في الاعتراف بجبهة التحرير الجزائرية وبالحكومة التي بنيت على قاعدتها بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الجزائري. أي برفضه إجراء مفاوضات سياسية معها. موافقاً فحسب على البحث في موضوع هدنة وهو ما لم تكن ترغب فيه الجبهة. إلا أن قادتها مع ذلك رحبوا باعتراف الجنرال بحق تقرير المصير ترحيباً حاراً. واعتبروه فاتحة خير للجمهورية الخامسة. إلاّ أنهم طالبوا بمفاوضات سياسية، وأوكلوا المهمة «باحمد بن بلاّ» ورفاقه من زعماء الجبهة الذين أسرهم الفرنسيون في ١٩٥٦ وأودعوهم قلعةً في فرنسا. إلاّ أن الجنرال رفض التحدث الى هؤلاء قائلاً: «المفاوضات لاتجرى إلاّ مع أولئك الذين يقاتلون».

على أنّ جواً رائعاً يختلف تماماً بدأ ينتشر على الأفق الجزائري بعد الخطاب. واندا الى فرنسا. وساد تفاؤل حقيقي بعد اعتراف ديغول رئيس الجمهورية بحق تقرير المصير. لكن وقفته الشجاعة أغضبت المستوطنين الغلاة. ومنظماتهم شبه الفاشية، وضباط الجيش وقادته الذين ماعادوا منذ زمنٍ يخفون معارضتهم ونفرتهم من سياسة ديغول الجزائرية. الى جانب سخطهم كانوا في حيرة شديدة لايستقرون على رأي. وتقدمهم على خط المواجهة: التجمع من أجل الجزائر الفرنسية Rassemblement pour L`Algere Francoise بزعامة جورج بيدو George Bidault وغيره من المتطرفين اليمينيين الذين هاجموا الجنرال بشدّة إلاّ أن انصارهم منوا بهزيمة شنعاء في الجمعية العمومية عند مناقشة قضية الجزائر فقد وافق ٤٤١ صوتاً على خط ديغول السياسي في حين لم يصوت الى جانب الاندماج غير ٢٣ نائباً[٢١].

(٢١) على أن المعركة خارج الجمعية كانت بالغة الخطورة. وقد بدأ ذلك واضحاً عندما أدلى لوسيان نيوويرث وهو نائب منشق عن (الاتحاد الوطني من أجل الجمهورية UNR) ومن شخصياتها البارزة – بحديث =

وتعاقبت الأحداث في الجزائر بسرعة. وأدرك المستوطنون الأغراب نية الجنرال الحقيقية. ولم يكن لديهم الوقت الكافي للتأمل في الخطأ الذي أقدموا عليه من المطالبة بعودة الجنرال الى الحكم بل أسرعوا بتأليف ما عرف بالمليشيا الأجنبية في الجزائر بلغ تعداد أفرادها عشرين ألف مسلح من المستوطنين المتطرفين. ولم تضع وقتاً باقامة علاقة تعاون وثيقة بالجيش الفرنسي المرابط وبالخصوص بالقوات التي يقودها (الجنرال ماسّو) وبدأ الاستعداد لثورة جديدة في وجه ديغول الذي بات الآن هدفاً للهجوم الذي شارك فيه كل مجموعة من عصابات المستوطنين الغوغائية. وفي شهر كانون الأول عاد من الجزائر إثر زيارة خاطفة (لجورج بيدو) الذي كان يترأس المعارضة. ودعا الى «ثورة» على وجه الاستعجال وكان المتآمرون قد عينوا فصل الربيع للقيام بها إلاّ أن تسارع الأحداث وخوفاً من مفاجآت قد يطلع عليهم بها رئيس الجمهورية[٢٢]. وتوجهت الانظار الى الجنرال (ماسّو) بوصفه قائداً للحركة وتحرك ديغول بسرعة. فاستدعى الجنرال (ماسّو) وما أن احتوته باريس حتى تسلم أمراً بتجريده من كل مناصبه.

وعين الجنرال يوم ٢٢ من كانون الثاني ١٩٦٠ إلتأم مؤتمر في باريس لبحث مسألة الجزائر. ولم يدع اليه ممثلون عن جبهة التحرير واقتصر على الفرنسيين وقدم الجنرال شال Challe القائد العام للقوات المرابطة في الجزائر وفي قصر الاليزيه. قدّم (شال) لديغول شيئاً أشبه بانذار. طلب منه أن يقلع نهائياً عما دعاه (بالتذبذب السياسي) وأن يسمح له بتنفيذ أمر اعتقال زعماء المقاومة الجزائرية التي باتت تسيطر على الحكومة المحلية الجزائرية. كما طلب منه تنفيذ عدد من الاجراءات التأديبية الأخرى. فرفض ديغول ذلك بحدّة. وأصرّ على «شال» بأن يتبع في خطواته بمبدأ حق تقرير المصير. ويتعاون ما أمكن مع جبهة التحرير والحكومة المحلية على هذا الأساس وأن يكون «متحلياً بالواقعية وسعة التفكير». وطلب شال أن يسمح بأخذ الجنرال (ماسو) الى الجزائر معه فقال ديغول: «الجنرال ماسّو لن يعود الى الجزائر».

وعاد (شال) خالي الوفاض وكان ثمّ هياج عظيم بين المستوطنين بسبب الاجراء الحازم المتخذ

= للصحف قال فيه: «من الضروري جداً أن يصحو المرء ويستفيق. الدراما قد تبدأ غداً. إن مجموعة من القتلة عبرت الحدود الاسپانية والشخصيات التي سيتم قتلها قد تعينت» وبدا تصريحه وجيهاً لأول وهلة عندما تعرضت سيارة (فرنسوا ميتران) من زعماء الإشتراكية الى اطلاق نار وسط پاريس – لكن مالبث أن تبين بأن تصريح نيو ويرث لم يكن الاّ صدى لمؤامرة لم تقع.

(٢٢) نشرت صحيفة (دي ڤلت) الالمانية في ١٨ من كانون الثاني تصريحاً للجنرال ماسّو قال فيه «إن الجيش أخطأ بخصوص ديغول. وربما سيرفض في المستقبل الانصياع لأوامره. نحن لم نعد نفهم سياسته، والجيش لايمكن أن يتوقع سلوكاً مثل هذا منه».

بحق الجنرال (ماسو) جنرالهم المفضل وقائدهم الحقيقي الآن.

وفي ٢٤ من كانون الثاني نظم المحتجون تظاهرة ضخمة إحتجاجاً وكان بوسع الجنرال (شال) أن يمنعها فلم يفعل معتقداً بأنها سترغم الجنرال ديغول على تبديل موقفه أو النزول الى بعض المطالب. لكن الأحداث اتخذت طريقاً مختلفاً بعكس ما توقعه المتظاهرون والغوغاء.

أسرع (لاگيار) الذي كان قد انتخبه المستوطنون نائباً لهم في الجمعية العامة – عائداً الى الجزائر واراد إعادة تمثيل ما حصل في الثالث عشر من أيار حين تشكيل «لجنة الأمن العام» (انظر ما سبق). فظهر مع عصبة من أوباش المستوطنين الغلاة مرتدياً بزة وحدة المظليين. وأقيمت المتاريس في شوارع الجزائر وراح المتظاهرون يهددون بهتافات عالية بنقل ثورتهم هذه الى پاريس وتقدم صفّ من الشرطة من المتاريس فأطلق المتحصنون بها النار وردت الشرطة بالمثل وقتل عشرون وجرح مئات. ومعظم الخسائر كانت من الشرطة. وبقيت السلطة. إلاّ أن هؤلاء رفضوا إطلاق النار على المتحصنين، وقاموا بعد هذا بتسهيل انسلال المتظاهرين مع تجهيزاتهم وأسلحتهم عبر خطوطهم.

كان هذا اليوم الأول من الأسبوع الذي اشتهر في الجزائر باسم «أسبوع المتاريس»[٢٣].

في الخامس والعشرين منه عقدت حكومة ديغول جلسةً وبدا رئيس الجمهورية شاحب الوجه لكنه هاديء متمالك أعصابه. وتشير محاضر الجلسة انه أفتتحها بقوله:

«أعيروني انتباهاً: أولئك الذين لايستطيعون تحمل دوار البحر، قد يرغبون في ترك السفينة قبل هبوب العاصفة. لا أحد مرغمٌ على البقاء في هذه الحكومة.»

ثم ترك الوزراء يتكلمون. وبدا (أندريه مالرو) ساخطاً وهو يطالب استخدام الشدّة في قمع الفتنة. اما (سوستيل) فبدا متعاطفاً مع أصحاب المتاريس وعارض في استخدام القوة وبرّر

(٢٣) رأى ديغول خلال أسبوع المتاريس كثيراً من أنصاره مترددين، لايستقرون على رأي ومنهم عدد كبير من ذوي المناصب الكبيرة ذات المسؤولية. بعضهم حاول ممارسة ضغوط عليه. وناشده (المارشال جوان) زميل دراسته في (سان سير) وصديقه ورفيقه منذ أيام الحرب. قائلاً في زيارة له «أنت لاتعرفهم. لاتعط أمراً باطلاق النار فهذا جنون أنت لاتعرف ما هي الجزائر... سيذهبون ويشربون الأنيسون (الكونياك) كالعادة...» قال ديغول «أنا ادافع عن الدولة. أكدتُ دوماً بأن من حق الجزائر أن تقرر مستقبلها بنفسها، ولايمكنني التساهل في هذا. لايمكنني الإغضاء عن المؤامرة وسأسحقها». وتعالى صوتاهما بالتدريج وتحولت لغة التخاطب بينهما الى تلك اللغة السوقية التي تشيع في الثكنات العسكرية بكل ما يرافقها من الشتائم والاقسام الفظيعة التي تجمد الدم في العروق بين هذين الصديقين الحميمين منذ أيام الدراسة والحرب. [أنظر جان ريمون تورنو. دفاتر الملحوظات السياسية السرية. المرجع السالف ص ٢٥٠ وما بعدها. پاريس ١٩٦٦ .Carnet Secrets de la Politique: Jean - Raymont Tournoux

سلوكهم تماماً. وكان ديغول آخر المتكلمين. قال بهدوء ومن دون أن يرفع صوته مشيراً الى سكوت الجيش:

«إن الجيش لايرغب في سياسة ديغول بخصوص الجزائر وبسبب من هذا كان موقفه المتعاطف مع المتمردين ورفض إقتراح التوقف عن «سفك الدماء» بقوله «إن الجيش خلق خصيصاً من أجل سفك الدماء». هذا فضلاً عن أن الدماء قد سفكت فعلاً. إن أولئك الذين رفعوا السلاح ضدّ الدولة لايتوقعون صفحاً والدولة لن تتنازل والسياسة المقررة لن يعتريها تغيير... رئيس الوزراء سوف يقتصر على إقامة الصلات مع الموظفين لوضع نهاية للتردد ليس إلاّ. وإن لم يقرر (الجنرال شال) العمل فسوف يعزل. سيتم القضاء على الفتنة.»

وفي الساعة الثامنة من مساء ٢٩ كانون الثاني شاهد الفرنسيون ديغول في تلفزيوناتهم خطيباً. قال: إنه يرتدي بزته العسكرية للتأكيد بأنه لايتكلم فحسب بوصفه رئيساً للدولة بل بإعتباره الجنرال ديغول. ثم انطلق ليردّ ثانيةً مؤكداً مبدء حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره ونعت المعتصبين بأولئك «الكذابين المتآمرين» وتوجه الى الجيش مذكراً اياه بواجبه. ومنع أيّ جنديّ بالانحياز الى المتآمرين أو حتى «بالجلوس على التل» وإلاّ أنزل به أشد العقاب. وطلب من الجيش أن يعيد الأمن والاستقرار ويشرفوا على سيادة القانون بكلّ الوسائل المتاحة في الجزائر. وراح يثني على الجيش وقال انه يحب جنوده ويحترمهم ويقدر خدماتهم حق تقدير. وختم خطابه بهذا القول:

«بفضل الثقة التي وضعها الشعب الفرنسي بي. وبالشرعية الوطنية التي تجسدت فيّ طوال عشرين عاماً! أطلب من كلّ مواطن مساندتي مهما حصل.»

ووقفت جبهة التحرير الجزائرية الى جانب ديغول ولكنها طالبت بإجراء مفاوضات مباشرة. ووجد المتحصنون وراء المتاريس أنفسهم في عزلة سياسيّة أولاً. اذ لم يساندهم الشارع الپاريسي[٢٤] وعزلة عمليّة ثانياً فقد سحبت فصائل المظليين وحَلّ محلها فصائل من المجندين الجدد. وألفوا أنفسهم في شبه حصار وانتشرت إشاعة بينهم مؤدّاها أن ديغول في

(٢٤) ساند الحزب الشيوعي الفرنسي واليسار كافة خطوة الجنرال ديغول ضد من وصفوه (بالرجعيين الفاشيست) الذي يحولون دون حرية استخدام الجزائريين حقهم في تقرير مصيرهم واقترح المكتب السياسي للحزب عملاً مشتركاً على جميع المنظمات والأحزاب الديمقراطية. وفي الأول من شباط كان هناك اضراب عام لمدة ساعة واحدة دعماً لنضال الجزائر. وقالت الصحف إن أحد عشر مليوناً شارك فيه. (لومانيتيه: عدد ٧ شباط ١٩٦٠).

عجلة من أمره وهو لايميل الى تأخير إصدار الأمر باقتحام المتاريس وسحقها. فأسرعوا يتفرقون بسرعة. إلاّ أن ديغول كان وراء زعمائهم. بعد إزالة المتاريس وتفرق العصاة أصدر ديغول أمراً باقالة الجنرال (شال) من منصب القائد العام. واستبداله بالجنرال «كريپان» الذي لا صلة له بالمستوطنين. وأحيل كلّ من الجنرال (سالان) و(شال) و(جوهو) الى التقاعد. امّا (ماسو) والآخرون فقد اكتفى بنقلهم من الجزائر. كما صدرت مراسيم بحظر نشاط المنظمات المتطرفة ومنعت صحفها من الإصدار. ولم يجد (سوستيل) سبيلاً إلاّ تقديم استقالته من الوزارة (قبلت في ٥ شباط). ثم وبسبب موقفه من أسبوع المتاريس تمّ طرده من الـ UNR.

وعلى ما يبدو كان مستهل العام ١٩٦٠ موعد الجنرال مع التطبيق العملي لمبدء حق تقرير المصير الجزائري، بدعم ٧٤٪ من مجموع الشعب الفرنسي بعد شهر كانون الثاني الحافل بالاضطرابات والمزعجات. وباتت الطريق التي يسلكها الى هذا الهدف أكثر وضوحاً عنده. كما أنه تمكن من وضع حَدٍّ لأعمال تخريب في جهازه السياسيّ حول المشاريع الجزائرية كان يتطوع لها كل شخص متصوّر. ابتداء من الوزير وانتهاء بأصغر موظف. على أن سلطاته الدستورية الواسعة والمطلقة كانت كفيلة دوماً بسحق التآمر والعقبات التي يضعها المستوطنون الغلاة في سبيل حَلّ القضية الوطنية الجزائرية.

وأظنّه كان يدرك بألاّ سبيل له إلاّ ببدء المفاوضات مع جبهة التحرير الجزائرية. إلاّ أن أسلوبه لم يكن حتى ذلك الوقت يتفق مع الجلوس مباشرة الى قيادة وطنيّة ثورية تتمسك بمبدأ غير قابل للتفاوض عليه كما كان عليه والحالة هذه أن يسبر غور المواقف على أساس التفوق العسكري الفرنسي على جيش التحرير الجزائري الذي انتقل خلال سنوات المعارك والقتال الى جيش منظم وافر العدد والعدّة يفوق كثيراً عددياً على عدد المرتزقة من المواطنين الجزائريين المنخرطين في صفوف الخدمة العسكرية الفرنسية وقتذاك[٢٥].

(٢٥) كان ثم تغطية كبيرة في الاعلام العربي – ولاسيما الاعلام المصري على كثير من الحقائق أثناء الثورة الجزائرية كاخفاء حقيقة تعاون أعداد كبيرة من الجزائريين مع المستوطنين الغربيين واستخدام قوات في الجيش الفرنسي وإرسالهم الى الجبهة لقتال جيش التحرير الجزائري. حالةٌ شبيهة تماماً باستخدام الحكومات العراقية مرتزقة العشائر الكردية وتجريدها لقتال جيش الثورة في كردستان العراق. كان هؤلاء يعرفون باسم (الهاركي) وهي الكلمة العربية (حَرَكي). مثلما كنا نطلق على المرتزقة الكرد كلمة جاش وهي مشتقة من الكلمة العربية (جحش)، مؤخراً عثرتُ على تعليق كتبه بروس كرمبلي Bruce Crumbly في عدد ١٧ أيلول ٢٠٠١ عن بقايا لهؤلاء بعنوان [مرتزقة الجزائر] في مجلة نيوزويك الاميركية. ومما جاء فيه: هناك أكثر من ٧٠٠٠٠ جندي جزائري كانوا في الجيش الفرنسي يقاتلون ضدّ الثورة الجزائرية. عرفوا باسم هركي Harki وهي كلمة مشتقة من الأصل العربي (حَرَكي) هذه اللفظة اتسعت رقعتها لتشمل كلّ من تعاون مع السلطات الفرنسية أثناء قيام الثورة، وعلى كل من فضّل التعاون على أعمال القتل =

لم يكن بوسع أحدٍ أن يفعل هذا غير الضباط. لكنهم لم يكونوا يستطيعون قتال الجزائريين بهدف استقلال الجزائر! إذن كان على الجنرال أن يضع هدفاً آخر لهم، هدف فرنسي. ولم يكن يتوقع مؤامرات جديدة أيامذاك ولا ثورات وراء متاريس. فالواجب الآني اذن هو حماية الجيش من نفوذ الغلاة المتعصبين المسعورين. وهذا هو السبب الذي حدا به الى التقرب من الضباط وزيارتهم.

ولم تفت تصريحات ديغول ملاحظة جبهة التحرير في حينه كانت قيادتها تتهم الجنرال باقفال بابه في سبيل المفاوضات. لكن وبتعليمات خاصّة فيه عبر قنوات غير رسمية عرض التفاوض مع التنظيم الظاهري لجبهة التحرير وكانت كما أسلفنا قد قامت بتأليف حكومة جزائرية مؤقتة باسم الحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر Gouvernement de la Republique Algerienne في التاسع من أيلول ١٩٦٠ (بفرحات عباس) رئيساً لحكومتها. وأبلغ أن اتصالاً تمّ مع ضابطين بارزين من جيش التحرير الجزائري وهو الذي كان يدير المفاوضات. وفي العاشر من حزيران ١٩٦٠ جرى استقبال هذين الضابطين سِراً في قصر الاليزيه. هذه المقابلة أحيت بعض الأمل. إلاّ أن هذين المفاوضين توفيا فور عودتهما الى الجزائر في ظروف بالغة الغموض[٢٦].

= والإرهاب والإغتيال بحق المدنيين المتعاونين أو المستوطنين المعادين وهي أساليب مضادة كانت تستخدمها جبهة التحرير وجيش التحرير لتصفية المتعاونين والخونة والجواسيس والخصوم.
بعد التوقيع على معاهدة ايڤيان في ١٩٦٢ (سيأتي ذلك في حينه) وكانت فيها النهاية والاستقلال. أقدم الفرنسيون على نزع سلاح هؤلاء (الهركي) الذي كان عددهم قد تجاوز ٣٥٠٠٠٠ وتخلّوا عنهم. فتعرضوا للملاحقة والسجن والتعذيب أو حتى التشويه بقطع الأوصال والقتل من قبل قوى الثورة الجزائرية، وتخلى عنهم الفرنسيون. والنتيجة أن أكثر من ١٥٠٠٠٠ تعرضوا لهذه المعاملة. ولم يرفع أحدٌ صوتاً لنجدتهم وكتمت الحكومة الجزائرية أنباء هذه الفظائع وتسترت عليها. لكن وبمجيء خريف العام ١٩٦٢، فاحت روائح هذه القتول وامتلأت أعمدة الصحف الأوروپية بأحداث الفظائع. وضجت المحافل الدولية بالاحتجاج إلاّ أن الاعلام العربي الذي كان يشيد ببطولة (جميلة بوحريد) وغيرها – بقي ساكتاً على المذابح التي كانت تجري بحق هؤلاء. الأمر الذي ألجأ السلطات الفرنسية على قبول ٤٥٠٠٠ بصفة لاجئين. وقد وضعوا إثر عودتهم في معسكر تحيط به الاسلاك الشائكة فضلاً عن حرس مدجج بالسلاح. حرموا تماماً من مزايا الامتزاج بالمجتمع الفرنسي ومن الدراسة والمخالطة والبحث عن عمل. يقول كاتب المقال أن أحدهم (عبدالرحيم كليش) قال له «نحن عند العرب والفرنسيين التقدميين الذين يدينون الحرب خونةٌ غير مرغوب فينا. حثالة الاستعمار الفرنسي». والشيء بالشيء يذكر – لايسع المرء هنا إلاّ المقارنة بالمعاملة التي كان يتلقاها أمثال هؤلاء في كردستان.

(٢٦) لم تكن في الواقع حادثة وفاة عرضية. وقيل أنهما وقعا ضحية اغتيال سياسي من قبل المستوطنين المتعصبين لجزائرية فرنسا. كما قيل أيضاً أن جبهة التحرير أمرت بتصفيتهما. وقد حاولنا العثور على اسميهما دون جدوى.

والقى الجنرال في ١٤ من حزيران خطاباً أكّد فيه حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره موجهاً دعوةً صريحة لقيادة الثورة: «أقول لهم اننا ننتظرهم هنا لنبحث معهم عن نهاية مشرّفة للقتال المتواصل... من أجل تحديد أهداف القوات المسلحة ولتأكيد مصير المتحاربين».

وافقت جبهة التحرير وأرسلت وفداً الى فرنسا وجرت اجتماعات بين ٢٥ و٢٩ من حزيران في بلدة ملان Melin التي تبعد حوالي ٤٠ كيلومتراً عن پاريس. واكتشف المفاوضون الجزائريون أنّ الطرف الفرنسي كان مستعداً فحسب للتفاوض حول وقف اطلاق النار ولا أكثر حتى لكأن جيش التحرير قد مني بنكسةٍ كبيرة وانه على وشك الاستسلام! ولم يفد كل المحاولات لجرّ المفاوضات الى حوار سياسيّ وكان إخفاقاً ذريعاً أثار غضب الجنرال على مفاوضيه ومرت أربعة أشهر وفيها اشتد زخم القتال واتسم بالضراوة والقسوة. وانتعشت آمال المستوطنين المتطرفين وشكوا بأنّ الجنرال يفكر بالعدول عن سياسة تقرير المصير وفي (ڤانسين) إحدى ضواحي پاريس اجتمعت وجوه مألوفة: بيدو، دلبيك، لاكوست، دوشيه وآخرون وتمّ الاتفاق على الوقوف في وجه سياسة تقرير المصير وألّفوا عصبة خاصّة اختاروا لرئاستها الجنرال المتقاعد (سالان) وقرروا أن تكون العاصمة الاسپانية مدريد مركزاً لنشاطهم.

وسمع الفرنسيون نغمةً جديدة في خطاب لديغول في تشرين الثاني. لأول مرةٍ تحدث عن «جمهورية الجزائر التي ستوجد يوماً ما». المعلق السياسيّ اتخذ هذا التصريح بمثابة وعدٍ بالاعتراف بحكومة الجزائر المؤقتة مع العلم انه كان يوجد في الجزائر أثناء ذلك حوالي نصف مليون جندي فرنسي.

وأدرك الجنرال بأن عليه اتخاذ خطوات عملية جديدة تتفق وتعهده. فأحدث في تشرين الثاني ١٩٦٠ منصب وزارة دولة لشؤون الجزائر وأسندها الى صديقه رفيق السلاح لوي جوكس Louis Joxe الدبلوماسي المجرب الموثوق. فأخرج الشؤون الجزائرية بهذه الخطوة من إطار سلطة اعضاء الحكومة الذين مازالوا رغم اخلاصهم للجنرال غير قادرين على التخلص من عقدة «الجزائر الفرنسية».

في الرابع عشر من تشرين الثاني أعلن في اجتماع للحكومة عن قراره في اجراء استفتاء على مستقبل الجزائر السياسي ووضع لهذا تاريخ الثامن من كانون الثاني ١٩٦١[٢٧].

(٢٧) في أوائل شهر كانون الأول قام الجنرال بزيارة للجزائر أخذته في جولة واسعة. وكان يعتزم تهيئة الجيش والادارة المدنية نفسيّاً وإعداد الجوّ لمواجهة تطبيق حق تقرير المصير البلاد. وكان الجوّ مكهرباً والاعصاب متوترة وتجلىّ ذلك في كيفية استقباله، فقد اصطف فريقان كلّ على رصيف من الشارع فريق المستوطنين الأوروپيين وقد اندسّ بينهم عملاء (سالان) الذين جاؤا خصيصاً من اسپانيا لتنظيم =

وفي ٢٧ من شهر آب. استقال (فرحات عباس). فألف (بن يوسف بن خدّه) وزارة الجبهة الجديدة. وعهد الى كريم بلقاسم مهمة إجراء المباحثات السريّة مع (لوي جوكسه) وزير شؤون الجزائر. وفي أيار ١٩٦٢ توصل الجانبان في (ايڤيان ليبان) بفرنسا الى اتفاق وقف اطلاق النار وفي عين ذلك اليوم نشرت الصحف تصريحات رسمية تمّ الاتفاق عليها من قبل المفاوضين حول الوضع السياسي المقبل والتهيئة للاستفتاء العام. كان ديغول يريد بالاستفتاء أن يخلق قوةً تشد أزر جبهة التحرير.

في ١٥ من كانون الثاني ١٩٦٢ أعلمت قيادة جبهة التحرير ديغول من خلال الحكومة السويسرية بأن مندوبيها على استعداد لإجراء مقابلة تمهيدية مع ممثلين فرنسيين مخولين من ديغول شخصياً، فعهد برئاسة الوفد الفرنسي الى جورج پومپيدو[٢٨].

وفي ١٨ من آذار أمضيت اتفاقية وقف إطلاق النار وأطلق سراح احمد بن بلا ورفاقه الأربعة ووصلوا (الرباط) بعدها بيومين ولقوا استقبالاً شعبياً حافلاً ثم توجهوا الى الجزائر. وبعدها بيومين فقط استقالت وزارة بن خدّه وتألفت وزارة جديدة ضمت ستة من جبهة التحرير، من أصل تسعة جزائريين. وثلاثة من المستوطنين الأوروپيين. شكلت في السابع من نيسان وزاولت السلطة في اليوم التالي.

في الثلاثين من آذار صدر بلاغ رسميّ مؤداه أن مفاوضات فرنسية – جزائرية ستبدء في (ايڤيان) في القريب العاجل[٢٩] وبذلك خرجت المفاوضات عن اطار السرية لكنها مالبثت أنه

= تظاهرة بل لتمرد جديد وانتشرت الاحاديث بينهم حول اغتيال ديغول وتسليم السلطة للجنرال (سالان). ووزعت نشرات بالمناسبة كتبت عليها شعارات مثل «قولوا لديغول لا!» و«هذه هي اللحظة الحاسمة» و«غداً سيكون الوقت متأخراً». كان ثم حشد عظيم منهم بمظاهر عدائية وهتافات (جزائر فرنسية). لكن كان هناك حشد عظيم آخر على الرصيف المقابل من المواطنين الجزائريين تسمعهم يهتفون بحياة ديغول «عاش ديغول» و«الجزائر جزائرية». هكذا لأول مرة في تاريخهم صاروا يعبرون عن أنفسهم بحرية علناً وبمثل هذه الجرأة وكان (ديغول) يتوقف لمصافحتهم بين آن وآخر. وفي اليوم التالي ملأ الجزائريون الشوارع رافعين العلم الجزائري الأبيض والأخضر هاتفين بحياة جبهة التحرير. فقابل المستوطنون ذلك بأعمال عنف وبدأت اشتباكات وإطلاق النار وهوجم الجزائريون وفتح المظليون النار على الجمهور وسقط مئات من القتلى وآلاف الجرحى (بحسب أقوال الصحافة). كان المستوطنون يريدون إفشال السياسة العقلانية التي اتبعها الجنرال فجاءت النتيجة عكس ذلك اذ صوت ٧٥ بالمائة الى جانبه.

(٢٨) أصبح رئيساً للجمهورية. وكان حينذاك مديراً لبنك روتشيلد. فأخذ اجازة «لقضاء موسم الشتاء الرياضي» تغطية لمهمته وشخص الى سويسرا وقابل الجزائريين في (لوسرن) ثم عاد الى پاريس. ثم قفل راجعاً «للتزلج».

(٢٩) في اليوم التالي على هذا الإعلان اغتيل (كاميل بلان) رئيس بلدية هذا المنتجع الصحي على الحدود بفعل عبوة بلاستيك ناسفة. وبالمناسبة كانت هناك حفلات تفجير عبوات ناسفة في سائر انحاء فرنسا. ومنها واحدة انفجرت في مقرّ مجلس النواب. وقد اتضح فيما بعد أن هذه التفجيرات كانت من عمل وتخطيط =

توقفت لأسباب يضيق المجال عن حصرها لتهتز فرنسا من أقصاها الى أدناها بحدثٍ درامي مثير جداً.

في صباح الثاني والعشرين من نيسان ١٩٦٢ أعلن راديو مدينة الجزائر بأن السلطة في البلاد انتقلت الآن الى يد الجنرالية موريس شال Maurice Challe وأندريه زيلليه André Zeller وأدموند جوهو Edmond Jauhaud ثم التحق بهم في اليوم ذاته (الجنرال سالان) قادماً من اسپانيا. هؤلاء استخدموا «الفرقة الأجنبية» لإحتلال الدوائر والمباني الحكومية وألقوا القبض على أعضاء الحكومة المؤقتة وأعلن (شال) نفسه قائداً أعلى من حقه ممارسة سلطته حتى في فرنسا. وقبض الضباط المتمردون على زمام السلطة بعنجهية وكبرياء وسلاطة لسان[٣٠] وامتدت يدهم الى وهران وقسطنطينة فضلاً عن العاصمة.

لم يتردد ديغول. وهتف عند سماعه النبأ «كيف تجاسروا» ثم ظهر له أن الأوامر التي أصدرها للجيش في الجزائر لم ترسل لأنّ الجنرال (بوفور) رئيس دائرته العسكرية كان شريكاً أصليّاً للمتمردين. إلاّ أن الرئيس الفرنسي لم يكن قط يبالغ في تقدير حظ هؤلاء الجنرالية الأربعة في نجاح مؤامرتهم. كان يعرفهم حق المعرفة. يعرف شجاعتهم وكفاءاتهم وقابلياتهم العملية فرأى أن يستبقهم الى العمل. وفي اليوم التالي ظهر على لوح التلفزيون الساعة الثامنة مساءً، وقف يدين هؤلاء ويصفهم بالخيانة. وقال:

«باسم فرنسا. إني آمر باستخدام كلّ وسيلة... أكرر كل وسيلة لوقف هؤلاء الرجال... في كل مكان. اني أمنع كل الفرنسيين. وفوق كلّ شيء سائر الجنود بان يمتثلوا لأي أمر يصدر منهم. أيها الفرنسيون، ايتها الفرنسيات... كونوا في عوني...»[٣١]

في اليوم التالي عَمّ فرنسا إضرابٌ عام تأييداً لديغول واستجابةً له وشاركت فيه الاحزاب من اليسار ونقابات العمال والطلاب اثنا عشر مليوناً كما قدرته الصحف في حينه. والتفت

= تلك المنظمة السرية التي شكلت مؤخراً وعرفت باسم «منظمة الجيش السريّ»: L`Organisation Armée Secrete (OAS) سعياً وراء احباط اتفاقية ايڤيان – بمبادرة من المستوطنين وقادة الجيش المعزولين وبرئاسة الجنرال المتقاعد (سالان) التي اتخذت مدريد مقراً لها كما أسلفنا. وحصلت قتول واغتيالات في الجزائر من صنع تلك المنظمة.

(٣٠) بعد القبض على ثلاثة وزراء جزائريين. بعث ضابط مظلي برتبة عقيد برقية الى رئيس الوزراء (ميشيل دوبريه) قال فيها «مستعدون لمبادلة ثلاثة وزراء بقردٍ واحدٍ» يقصد ديغول.

(٣١) س. اج فاڤرو: الثورة الجزائرية پاريس ١٩٦٦. ط ٢، ص ٢٠٢ C.H. Favrod: La Revolution Algerienne.

الجنرالية حواليهم فلم يجدوا من ينفذ لهم أمراً وتمّ إلقاء القبض على الجنرالين شال وزيلليه. واختفى كلّ من (جوهو) و(سالان).

إلاّ أن الحرب تواصلت ومفاوضات ايڤيان تعثرت، وكان عليه أن يعمل بسرعة. دبت الحياة في مفاوضات ايڤيان مجدداً. وبدا الفريق الفرنسي يحاول التنازل عن الأقل مما يمكن للحصول على الأكثر مما يمكن وكان يصرّ بنوع خاص على فصل الصحراء الغنية بالنفط عن سائر الجزائر. ولم تسفر ثلاثة أسابيع من المفاوضات عن نتيجة. وفي ١٣ حزيران قطعها ديغول. إلاّ انها تجددت في ٢٠ من تموز وانقطعت في ٢٨ منه.

في صيف هذا العام كان ديغول يعاني متاعب داخلية عظيمة[٣٢] أشغلته حيناً من الزمن عن متابعة المفاوضات. ثم تعرض في الثامن من أيلول لأول محاولة اغتيال من محاولات عدة بسبب موقفه من الجزائر. كان كلّ فرنسي يدري بأن عملية اغتيال مدبرة ستقع في أية لحظة. وقال اليسار أن شخصيته الطاغية وسياسته الصلبة هما اللذان جعلاه هدفاً للفاشيست[٣٣]. وبين بداية العام حتى شهر تشرين الثاني منه وقع ٣٥٠ إنفجاراً في العاصمة الفرنسية وحدها. إلاّ أن أفظع الجرائم وأشدّها وحشية ارتكبتها هذه المنظمة في الجزائر. مئات إثر مئات من القتول والاغتيالات والخطف والتعذيب. وفي نهاية أيلول أوعز ديغول لفريق المفاوضين بالتخلي عن مطلب الرقابة المباشرة على الصحراء. وأعيدت المفاوضات مع جبهة التحرير وعندها صعدت منظمة الجيش السرّي من عملياتها الارهابية الجماعية والفردية في الجزائر. وانتشرت عصابات من الأوباش تقتل وتدمر في انحاء عديدة من الجزائر. ولم يعلم قطّ عدد الضحايا وقدرت بالآلاف وأعطت كلّ مبرر لصك عملة «الثورة ذات المليون شهيد» أعني شخصاً واحداً من أصل تسعة من مجموع السكان الجزائريين[٣٤].

(٣٢) منها: صراعه الشديد مع البرلمان حول السياسة الزراعية. صراع آخر عنيف داخل الوزارة باصرار (دوبريه) على اقالة (ادموند ميشيليه) الذي كان يصفه بانه ممثل جبهة التحرير الجزائرية في الحكومة. ومنها طلب دوبريه المتكرر باعتزاله رئاسة الوزارة ورفض ديغول المتكرر. ومنها اقناع بعض اعضاء حكومته بالتخلي عن تعاطفهم مع فكرة «الجزائر الفرنسية» وكان يريد ابقاء هؤلاء في الحكومة تطميناً للمستوطنين الجزائريين وبخاصة عناصر الجيش المقاتل. ثم ملاحقة الارهابيين والمخربين.

(٣٣) اضطلعت بتنفيذ المؤامرة منظمة الجيش السري. وقد اكتشف بعد عشر سنوات بأنها لم تكن الوحيدة في نية القضاء على حياته. فقد كشفت الصحف عن وجود تنظيم سرّي آخر تألف من كبار القادة العسكريين وذوي المناصب الكبيرة. بينهم جنرالية ونواب وكثير منهم ديغوليون لكنهم قرروا في ١٩٦١ بأنه خطر وينبغي التخلص منه. وهذه المؤامرة هي الأولى من أصل ١٥ محاولة تلتها وبينها المحاولة الشهيرة التي سنتعرض لها بعد قليل.

(٣٤) في الثامن من شباط ١٩٦٢ ونتيجة لنشاط اليسار والديغوليين نظمت تظاهرة احتجاج شعبية كبرى في پاريس. وأظهرت الشرطة في هذه المناسبة خاصةً حماسة فوق العادة في التصدي لها فقتل برصاصهم =

كان بمقتضى اتفاق ايڤيان (١٨ آذار) تثبيت مباديء للتطبيق تلتزم بها الحكومتان ذات طابع اقتصادي واجتماعي تعاوني ونصت على حق فرنسا في اجراء استفتاء في كلّ الاقاليم الجزائرية الخمسة عشر (وبضمنها الاقليمان الصحراويان).

وهكذا وبعد ٢٦٩٥ يوماً من الحرب وأعمال العنف حَلّ السلام في الجزائر[٣٥].

وفي الثامن من نيسان وافق المواطنون الفرنسيون في فرنسا على اتفاقية ايڤيان بنسبة ٩٠,٧ بالمائة من المصوتين[٣٦].

وفي ٢٠ من نيسان ١٩٦٢ تمّ إلقاء القبض على الجنرال سالان في الجزائر. وتجاهل المستوطنون طلب منظمة الجيش السرّي في البقاء وعدم النزوح عن الجزائر. وبدأ النزوح الجماعي عن الجزائر وما جاء أيلول ١٩٦٢ حتى بلغ عدد النازحين الى فرنسا الوطن الأم والى البلاد الأوروپية الأخرى زهاء تسعمائة ألف ولم يبق إلا حوالي ربع مليون في آخر السنة ١٩٦٤.

في ٢٢ نيسان أي بعد اعلان الاستقلال بيومين أعلن «شارل ديغول رئيس جمهورية

= تسعة من المتظاهرين وجرح عشرات. وفي اليوم التالي أضرب مليونا پاريسي. وفي الثالث عشر منه خرج الپاريسيّون في تشييع صامت لقتلى الثامن من شباط تعبيراً بليغاً عن غضبة شعبية. ولم يعد ممكناً بعد الآن أن تمتد المفاوضات الى ما لا نهاية وظلّ ديغول على اتصال متواصل محموم مع (جوكس) كبير المفاوضين في ايڤيان يطلب منه الاسراع في انهاء المفاوضات «اصرارك سيكون على الجوهريات فقط. أنت تفهمني».

(٣٥) نظراً الى المصادر الفرنسية الرسميّة والاحصاءات الحكومية خسرت فرنسا ١٤٥٠٠ جندياً منهم ٩٠٠٠ فرنسي وقتل ١٢٠٠ جندي من الفرقة الأجنبيّة و٤٣٠٠ جزائري مسلم وقدرت خسائر الثوار والمحاربين الآخرين بمائة وخمسين ألفاً وهناك مصادر أخرى مثل (Africa Hand book لندن ١٩٦٩ – پليكان ص٣٣) تقدر عدد القتلى والضحايا من الجزائريين المسلمين بما لايقل عن ربع مليون وعشرات من القرى دمرت. وهجرة ثلاثمائة ألف جزائري الى البلاد المجاورة. ولم تسلم اية عائلة من فرد منها عذّب أو سجن (لم تعط الجهات الرسمية الجزائرية بمدى علمنا ارقاماً رسمية بهذا الخصوص وترك باب التقدير والخيال مفتوحاً).

(٣٦) في اجتماع لاعضاء الحكومة خصص لمناقشة اتفاقات ايڤيان راح (اندريه مارلو) يشيد بها وينعتها بالنصر الحقيقي فردّ عليه (دوبريه) رئيس الحكومة بحدّة «انه على أية حال نصرٌ أجبرنا عليه رغم أنفنا» وذكر ديغول في نهاية ذلك الأسبوع خلال مؤتمر صحفي «حاولنا في الجزائر ما هو ممكن إنسانياً وهذه الإتفاقية هي ختام أزمة حادة طويلة والنتيجة فيها هي النتيجة الوحيدة الممكنة. ومن الواجب قبولها. وقد أصبحت ثابتة لايمكن اجراء أي تغيير فيها إذا ما وضع المرء في حسابه الاتجاه الشعبي العام. انها نتيجة مشرفة وليس ضرورياً أن نذمّ ما تمّ وما لم يتم. والبشر بشرٌ عرضةٌ للخطأ. لكن كان من الضروري جداً أن تخرج فرنسا من وضع لايجرّ عليها غير الكوارث وعلينا الآن أن نتجه الى أوروپا فقد حلّ عهد تنظيم القارات محل عهد الاستعمار». (ديغول: المرجع السالف ٣٤٠).

فرنسا » اعترافه الكامل بالجزائر المستقلة وتلاشت منظمة الجيش السري وهرب أعضاؤها الى البلاد.

في الثالث من تموز انتقل بن خدّة مع حكومته الى الجزائر من تونس واستقبلا بحماسة بالغة. إلاّ أن نائبه (احمد بن بلاّ) بقي في مراكش. ثم وفي الثاني والعشرين منه قدم الى تلمسان وعمد الى اقامة مكتب سياسيّ لجبهة التحرير مؤلف من سبعة أشخاص باعتباره صاحب السلطة العليا في البلاد.

وفي الرابع من آب وصل (بن بلاّ) الجزائر وصرح في مقابلة صحفية بانه يختلف عن (ابن خدّه) وبصورة رئيسة في نظرته المعادية للكولونيالية واعتبر المكتب السياسي بأن الثورة الجزائرية يجب أن تستمر على خطوط إشتراكية. وسرعان ما نشب الخلاف بين القائد المحلي لجيش التحرير وبين المكتب السياسيّ ووضعت القيادة العسكرية المكتب السياسي تحت طائلة الحجر وعزلته.

ولنترك قادة الجزائر الجدد يصطرعون الآن ولنقف عن تعقب نهاية الصراع لنتساءل هنا:

هل كان «ديغول» يضمر للجزائر هذه النهاية السعيدة منذ عودته الى الحكم رئيساً للحكومة ثم رئيساً للدولة أم انه توصل الى الحلّ السليم تدريجاً وبحكم الظروف والمستجدات على الساحة السياسية الدولية؟ هل انه التوى تحت ضغط حركة التحرير الجزائرية وكفاح الشعب الجزائري العنيد واصراره على التحرر باي ثمن؟

في أوائل العام ١٩٦١ قال بصراحته المعهودة «لم أتردد قطّ بخصوص الجزائر. وما قررتُ عمله يتفق والمصلحة الوطنية. ولم أقبل مطلقاً بفكرة الاندماج. وكان هذا واضحاً منذ الأول من أيار ١٩٥٨. لم أنثن ولم أتردد إلاّ اني تقدمّتُ خطوةً خطوة. والسياسة هي فنّ الواقعية».

وقال للعقيد پاسي Passy رفيق السلاح منذ ١٩٣٩ عندما كانا في لندن:

«لم أكن أستطيع أن أعمل خلافاً لما تمّ عمله. عند مجيئي في العام ١٩٥٨ كانت الجزائر قد ضاعت.»

وأصبح طوال سنتين هدفاً انتقاميّاً لأولئك الذين رأوا أن سياسته سلبتهم أراضيهم ومصالحهم في الجزائر تركوا الجزائر بمئات الالوف وسكنوا جنوب فرنسا ليصبحوا مزرعةً خصبة لنسج المؤامرات على حياة الجنرال[٣٧]. وما أظنّه سعد برضى النفس تماماً عندما راقب ما

(٣٧) بات عدد من تلك المؤامرات مادة لعدة أفلام سينمائية. وكلها محاولات جدية خطيرة لاسيما تلك التي نفذت في صيف ١٩٦٢. بقيام جماعة من القناصة باطلاق النار عليه بالقرب من (پتي كلامار). وكان ثمّ =

يجري في الجزائر بعد أن نالت حريتها ونفضت عنها غبار الاستعمار الفرنسي. كان ثمّ الكثير مما يتوجب عمله إلاّ أن قادة جبهة التحرير الذين ملكهم الزهو بأنفسهم. وافتقروا كثيراً الى الحنكة والتجربة مالبثوا أن اختلفوا فيما بينهم وآل الاختلاف الى نزاع داخلي مرير على السلطة داخل الحكومة الجديدة بصورة عامة، وبين الحكومة الموقتة GPRA وبين العقيد بومدين وبن بلاّ ومحمد خيضر الذين كانوا يؤلفون ما يشبه الجبهة. في عين الوقت سادت الجزائر حالة من الفوضى والأعمال اللاقانونية تجلّ عن الوصف. حوادث فردية من إغتيالات وقتول وأعمال خطف وتخريب. تخللها هروب جماعي الى فرنسا وغيرها من البلدان الأوروپية.

وغاب (بن خدّة) عن المرسح السياسيّ هو وأعضاء حكومته التي شكلتها جبهة التحرير. وتشتت انصاره ولم يعد يسمع به أحد.

في المجال السياسيّ تمّ تبنيّ نظام الحزب الواحد في الحكم وعلى رأسه ثلاثيّ بن بلاّ –

= شريك لهم داخل قصر الرئاسة (الاليزيه) هو العقيد باستيين – ثيري Bastien Thiry يعلم بخروج الرئيس وحركة موكبه ووجهته. في هذه المرّة كمن له القتلة وهم داخل سياراتهم على جانب من الطريق. وكان قوامهم: وكيل أمين سابق في الجهاز السرّي الفرنسي. وملازم ساهم في الانقلاب العسكري الأخير ومظليّ مطرود من الخدمة لعمل غير مشرف. وصاحب مزرعة كبيرة سابق في الجزائر. هنغاريون ثلاثة من لاجئي ١٩٥٦ جلس هؤلاء في ٢٢ من آب في سياراتهم عند مفترق طريق (پتي كلامار) بضواحي پاريس وما أن ظهرت سيارة ديغول وهي من نوع (سيتروين) حتى انهال رصاص الرشاشات عليه وعلى زوجته معه وزوج ابنته العقيد (دي پولبيو) الجالس جنب السائق. رصاصة واحدة اخترقت الزجاج الخلفي. وأخرى جسم السيارة من المائة والخمسين إطلاقة التي استهدفت حياته وسقط جزء حشوة المعقد على رأس ديغول. وحاول الجناة تعقيب سيارته ردحاً من الزمن ثم عدلوا. وفي معسكر (فيلا كوپلاى) رؤي الجنرال يخرج ويقول وهو ينفض عن جسمه شظايا الزجاج «حقاً إن هؤلاء السادة ضعيفو التهديف» ثم التفت الى صهره قائلاً: «لن أغفر لهؤلاء الاوغاد اطلاقهم النار على سيدة» يقصد زوجته. (كان سائق السيارة عين السائق الذي قاد سيارته في حادث وضع عبوة ناسفة على طريقه في محاولة إغتيال سابقه). ولقي العقيد (ثيري) ما يستحق فقد أحيل مع الجنرالية الأربعة وبعض المتآمرين الى محكمة عسكرية ونفذ فيه حكم الموت. في حين خرج الجنرالية الذين شاركوا في العملية بأحكام سجن ثقيلة. إلاّ أن المحاولة الأخرى كانت أقل دراميةً. وقد وقعت على بعد حوالي٢٠ كيلومتراً من پاريس بالقرب من بلدة پونت سورسين Pont - Surseine على الطريق الى كولومبي منزل ديغول. كان ثمّ كدس من الرمل على جانب الطريق أخفي فيه ما زنته ٤٥ كيلوغراماً من المتفجرات. وفي حدود العاشرة مساءً ظهرت سيارة الرئيس ووراءها سيارة رجال الأمن ودراجتان بخاريتان بعد مروق سيارة الرئيس مخلفة كدس الرمل وراءها دوى انفجار وتصاعد عمود من اللهب في السماء ولم تقع اصابة (طبعاً). فبعد فترة طويلة من الزمن كشف أن رجال الأمن عرفوا بالمؤامرة مسبقاً بمحض الصدفة وبتفاصيل الخطة. فنزعوا فتيلة القنبلة بعد أن وضعها المتآمرون وتركوا علبة الناپالم تنفجر بعد مرور موكب الرئيس. ما الذي جعلهم يبطلون عملية القدح وتفكيك كل أجزاء القنبلة؟ علل ذلك بأن محاولة إغتيال فاشلة قد تكون مفيدة لأغراض سياسية [ديغول: المرجع السالف الص ٣٢٤–٣٢٥].

بومدين – خيضر سكرتير الحزب العام.

في مبدء الأمر كانت شخصية بن بلاّ الجذابة، وشجاعته، وحياته البسيطة المتقشفة. وقوة ارادةٍ فيه واستعداد للاضطلاع بأيّ مسؤولية تلقى عليه الى جانب شعبيته وسحرها لدى الجمهور عاملاً كبيراً للقضاء على الفوضى والعودة الى الحياة الطبيعية في حين كان إخلاصه الشديد للقضايا الثورية والتحرر الوطنيّ أفسح للجزائر موقع الصدارة في الدوائر التقدمية والمتحررة طبقاً للقواعد التي رسمها عبدالناصر. وكان قد وقع تحت سحر الزعيم المصري وحاول تطبيق سياسته الخارجية وكثرت زياراته وصلاته بالقاهرة وصار لعبدالناصر اطوع من البنان.

إن الإطار الضيق الذي تمّ به تشكيل الحكومة الجزائرية أدّى الى ما ليس في الامكان تحاشيه من خلاف مع بقية قادة جبهة التحرير الجزائرية القدامى. بدأ بأولئك الذين قدحوا شرارة الثورة من الماكي: رجال القبائل الجبليين[٣٨] [Kabyll]. ووجدنا محمد خيضر سكرتير الحزب وواحد من الثلاثي الحاكم يقدم إستقالته في نيسان ١٩٦٣ ويغادر البلاد حاملاً معه أموال الحزب، معلناً بعد بضعة أشهر معارضته للحكم[٣٩]. وانحاز عدد آخر من قادة حرب الجزائر الى صف المعارضة غير المنظمة وتركوا البلاد في يد بن بللا وبومدين دون منافس. لكن وفي ١٩ من حزيران ١٩٦٥ أقدم (بومدين) على انقلاب ضدّ رئيسه (بن بلاّ) عشية انعقاد المؤتمر الآسيوي الأفريقي في مدينة الجزائر وتسلم مقاليد السلطة الكاملة واعتقل (بن بلاّ) ونقله الى جهة مجهولة لم يكشف عنها إلاّ بعد سنوات. مع التأكيد بانه في صحة جيدة.

لم يطرأ تبدل يذكر على سياسة الجزائر بعد الانقلاب وأبقى بومدين علاقات بلاده الحميمة جداً مع مصر وتأثر خطاها في الدفاع عن القيم العربيّة والسياسات العربيّة العامة ووقف الى جانب مصر في علاقاتها الخارجية ومؤتمرات الجامعة العربية. وأرسل في العام ١٩٦٧ (حرب الأيام الستة) قوات عسكرية جزائرية شاركت في قتال الصحراء. لكن لم يؤثر عن نظام بومدين شدّة تعلق بالعروبة وشوق الى الوحدة العربية. وبقيت علاقات الجزائر الوثيقة والحميمة مع فرنسا. بل كانت علاقة الدولة المفضلة والممتازة من أوجه كثيرة. مثلاً ميز المعلمون الفرنسيون باستثناء تشريفاتي عن سائر الأوروبيين بامتيازات تخفيض طيران كما زوّد التعليم في الجزائر بعدد كبير من الأساتذة والمعلمين الفرنسيين ليكونوا قلب السياسة

(٣٨) ر. ميرل: أحمد بن بللاّ R. Merle: Ahmad ben bella باريس ١٩٦٥. ص٣١١. [سيرة حياته].
(٣٩) دي. سي. گوردن: نهاية الجزائر الفرنسية D. C. Gordon: The Passing of French Algeria مطبعة جامعة اكسفورد. انگلترا ١٩٦٦. ص٤١٤ وما بعدها [أغتيل محمد خيضر في مدريد العام ١٩٦٧].

التعليمية فيها. ولم تفتر المساعدة الاقتصادية والتكنولوجيّة الفرنسية وبقيت تحتل المرتبة الأولى من الأهمية رغم أن علاقات مشابهة كانت قائمة مع بعض البلدان الإشتراكية والولايات المتحدة الأمريكية.

وبقي سوق العمل في فرنسا مفتوحاً بوجه الجزائريين وفي بعض الإحصاءات التي وقعتُ عليها أن أكثر من ربع مليون عامل جزائري كان يعمل في فرنسا حتى نهاية العقد السادس من القرن العشرين ليساهموا مساهمةً فعالة بأجورهم في رفع مستوى أقربائهم المعاشي.

يطيب لي أن أختم هذا الفصل بفقرة من مقالٍ للكاتب الجريء منح الصلح عنوانه الوحدة العربية والليبرالية. نشره في العدد ٤٢٦ من مجلة العربي بتاريخ أيار ١٩٩٤. الص ٦٤ وما بعدها: [في عين العدد تحقيق للمجلة بعنوان الجزائر بلدٌ يبحث عن هوية. قال الصلح:

«في طابور ممتد وقفنا ننتظر. وصلنا عند موظف الجوازات. قال كلاماً لم أفهمه فهم هناك يتحدثون اللغة العربية ولكن بطريقتهم الخاصة (يقصد لهجتهم). حاولت أن أشرح له. وحاول أن يفهمني لكن دون جدوى – ثم جاءت النجدة بالذي جاء يستقبلنا. أخذ مستقبلنا يتكلم مع موظف الجوازات ويشرح له باللهجة الجزائرية التي يظهر أن صاحبنا أجادها من كثرة بقائه هناك. والحق إنها طريقة جميلة للحديث ويكثر فيها استخدام الكلمات الفرنسية.»

يقول الدكتور (رابح عمامرة) رئيس جامعة الجزائر الذي قاد حملة قوية منذ الاستقلال لتعريب اللغة الجزائرية المتداولة:

«نحن نعاني صراعاً ثقافياً وحضارياً عنيفاً في الجزائر... اليوم مع الأسف الشديد نجد من يناقش في قضية الهوية. هل نحن عرب أم امازيغ (بربر) أم أوروپيون؟ وأقول مع الأسف وبعد تلك التضحيات الكثيرة نجد اليوم من يقول لنا أننا (امازيغ) ولسنا عرباً. والبعض يقول نحن أوروپيون واتجاهنا أوروپي... بعد الاستقلال ارادت الجزائر أن تعيد وجهها الاسلامي مرة أخرى. فقمنا بثورة أخرى أطلقنا عليها ثورة التعريب أو المعركة من أجل التعريب وكانت بالفعل معركة لاتقل ضراوة وعنفاً عن المعركة المسلحة ضدّ العدو. لكن كان هناك فرق بين المعركة المسلحة ومعركة التعريب ففي المعركة المسلحة العدوّ محدد وكان الجزائريون جميعهم يداً واحدةً في وجه الاستعمار. لكن معركة التعريب، أي تحقيق عروبة للجزائر ميدانياً كان يختلف. فان العدو هنا غير مادّي.

ولقد وجدنا عدداً كبيراً من الجزائريين يفهمون معنى الاستقلال فهما مادياً. والاستقلال في نظرهم هو النشيد الوطني والجيش الوطني والعلم الوطني. لكن اللغة والثقافة والسلوك الإجتماعي والمفاهيم، هذه كلها يريدونها أن تبقى كما هي... فرنسية. »

الفصل الثامن والثلاثون

حرب الأيام الستة ، من البادىء ومن يُلام ؟ الدعاية الهائلة حول قوة الجيش المصري وقوى الدول العربية التقدمية . عود الى العام ١٩٦٦ وإطلاق أبواق الدعاية العربية . هجوم مركز على إسرائيل والتهديد . إطلاق قوى غير نظامية لعمليات تخريب على الحدود . أسلوب الخداع يرتد بسرعة على صاحبه . عبدالناصر يطلب سحب قوات الطوارىء الدولية من مضيق تيران . أهو مقدمة لإعلان حرب ؟ مجلس الدفاع الأعلى العربي ينعقد بسبب توتر الوضع . التحرشات على الحدود تتواصل . الحكومة البريطانية ترسل جورج براون الى موسكو . تأييد موسكو لـ(ج .ع .م) . عبدالناصر يهاجم الولايات المتحدة لموقفها . كريشكو مارشال الاتحاد السوفياتي ووزير الدفاع ينصح شمس بدران نظيره بتخفيف اللهجة وعدم التصعيد دون نتيجة . دعوة عبدالناصر للنزاع العسكري تتواصل . قلق عظيم في إسرائيل وتوالي الرحلات الى واشنطن . دايان يقترح المبادأة بالقتال والحكومة ترفض . الاتحاد السوفياتي يكرر وجوب التخفيف من حملة التصعيد دون جدوى والتهديد السافر بمسح إسرائيل من خارطة العالم متواصل . الخطة الحربية الإسرائيلية . عبدالمنعم رياض في الأردن للتنسيق العسكري . إبادة الطيران المصري . تقدم القوات الإسرائيلية الخاطف في العمق الستراتيجي المصري . التقهقر المأساوي العظيم . عبدالناصر يجهل معظم الأخبار حتى الساعة الأخيرة

بصرف النظر عن العوامل التي دفعت عبدالناصر الى الاشتباك مع إسرائيل في هذه الحرب، وإن شئت إلى اشتباك إسرائيل معه قد رفع جزء من اللوم عنه فيها – فإنّ اغلاقه مضيق (تيران) وطرده قوات الطوارىء الدولية من الحدود الفاصلة والتحشد العظيم الذي شرعت به القوات المصرية ووضع الحشود على خط المعركة المتقدمة في سيناء في نهاية شهر أيار ١٩٦٧، كل ذلك كان يعني حرباً. أو لايفسر إلا بالشروع في شن الحرب إن وجدت اي حرب. وألهب عبدالناصر الخواطر العربية وفهم العرب جميعاً ما يقصد عندما قال عبارته الشهيرة «إن شاء اليهود حرباً فنحن نقول لهم اهلاً وسهلاً ونحن مستعدون». ولعله كان يريد بها المخادعة (بالعامية أن يبلف). إلا ان المخادعة ردت عليه بأن صدقها عدوه.

وانبرت الأقلام العربية تحرض وتحمس. كانت لحظات خبال وجنون اجتاح العالم العربي، من الخليج الى المحيط وبشر أحمد الشقيري الزعيم الفلسطيني العالم العربي بأن أيام الإسرائيليين صارت معدودة وسيتم قذفهم في البحر. إلا أن التعقيب بعد الهزيمة، كان اشد مرارة من حلاوة التوقعات قبلها[1].

وسموها بالنكسة. وسموها أيضاً بالنكبة. وآخرون عدوها كارثة نزلت بالدول العربية والقومية العربية وهي في الواقع اكبر من هذه الاوصاف اذا تأملنا المصائب التي جرت على شعب فلسطين فوق مصائبه الأول. فرحنا نجلس اليوم امام التلفزة ونتابع القتول والتدمير الذي يجري كل ساعة وكل دقيقة على جزء عزيز من «الوطن العربي». كارثة بدأت في ١٩٦٧ ولايعلم أحد متى ستنتهي آثارها.

ونعود الى السنة ١٩٦٦– هذه السنة التي سبقت سنة الكارثة كانت بالنسبة الى القومية الثورية التي تصطبغ بها الزعامات العربية المتحررة – تحتاج الى عبقرية فكهة مثل عبقرية «موليير» ليؤلف منها تمثيليات ذات مشاهد تستدر الدمع من المآقي لما تشيعه من مرح ونشوة. الفصول الأولى فيها تبدأ كالمتوقع من اذاعات القاهرة. ثم تتعاقب الى مشاهد مثيرة في أبهاء أروقة الجامعة العربية وأبهاء اجتماعات القمة. والزيارات المحمومة المتبادلة بين زعماء تلك الدول المسماة بالمتحررة عن طريق المبعوثين الخصوصيين. والنظارة المتشوقون المتابعون في البلاد الناطقة بالعربية لايفوتهم مشهد واحد والجميع يعلم ان الموضوع يتعلق بذلك الجزء الثمين من الوطن العربي السليب. يعلقون ويصفقون ويهتفون ويثنون على هذا الموقف وينتقدون ذاك وبين «يعيش»! «ويسقط» بالنسبة الى أداء الممثلين وسياق الادوار.

(١) يخطر ببالي جزء من قصيدة للشاعر اللبناني «جورج صيدح» قالها بعد انكشاف الحقائق وتبدد غيوم الحجج والاعتذار وتوجيه اللوم الى من لايستحقه. قالها معارضاً قصيدة مشابهة ورؤية مماثلة للشاعر النجفي المعروف الشيخ علي الشرقي. اشتهرت بعنوان «مزرعة البصل» قال صيدح:

إن الكـــلام بلا عـمل ... أحلى مـذاقـاً من عـسل
قـول قـديم سـار في ... أسـمـاعنا سـيـر المثل
أخـذت به دول العـرو ... بـة دون مـخـتلف الدول
فاستكملت عدد الكتا ... بـــــة والخطابة والجدل
حـتى اذا حُمّ الكفـا ... ح نبـا السـلاح المبـتـذل
وتكسرت فوق الصـخو ... ر قرون أكباش الدجـل
لم يبق من حمم البيـا ... ن سوى الدخان على المقل
وكـرامـة اشـلاؤهـا ... درجت يكفنهـا الخـجل
امـا البطولة فـهى في ... افـواهنا لـمّـا تـــزل
«قـومي رؤوس كلهـــا ... أرأيت مـزرعـة البـصل؟»

بدت لنا الثورية القومية. نحن الجالسين في المقاعد الخلفية تمر وكأنها تتابع تنفيذ خطة مدروسة معينة لإحداث نكبة فلسطينية جديدة باسم التحرير.

كان هناك مثلاً (وهذا جزء من مشاهد التمثيلية) ميثاق الدفاع المشترك بين سورية ومصر. إلا ان الغارة الجوية المدمرة التي أقدم عليها سلاح الجو الإسرائيلي في ١٣ من تشرين الثاني ١٩٦٦ – على قرية (سموع) الأردنية لم تلق رداً من القيادة العربية الموحدة. لا من مصر ولا من سورية. هاتان الدولتان كانتا مهتمتين بإسقاط نظام الملك حسين أو قتله أكثر من اهتمامهما بإنقاذ الفلسطينيين وأرضهم، فقد صرّح نورالدين الأتاسي رئيس الجمهورية السورية دون مواربة أو خجل:

«ان نهاية النظام الأردني يجب ان تتم قبل نهاية إسرائيل.»[٢]

وفي اجتماع مجلس الدفاع الأعلى العربي في القاهرة بتاريخ ٧ من كانون الاول. قال المندوب الأردني: إن بلاده ترحب بالقوات العربية وباي اجراءٍ تراه القيادة الموحدة مناسباً عندما يتم وضع خطة محددة للتعبئة «والغطاء الجوي وعندما تنفذ القرارات التي اتخذتها الدول العربية بالكامل في مؤتمرات جامعة الدول العربية»، وذكر فضلاً عن هذا انه يجب حشد قوات في سيناء وغيرها من الحدود المتاخمة لإسرائيل وسحب الخمسين ألف جندي مصري من اليمن لتعزيز القوات الدفاعية[٣].

ثم وفي ١٤ آذار ١٩٦٧ اجتمع «مجلس الدفاع الاعلى» وكانت العلاقات قد ساءت بين الأردن وسورية من جهة وبين المملكة العربية السعودية من جهة أخرى. وبين سورية ومصر ومنظمة التحرير من جهة ثالثة. وقرر الأردن مقاطعة الاجتماع اذا حضره (أحمد الشقيري) رئيس المنظمة. وفي ذلك اللقاء العاصف في القاهرة هاجم المندوب الأردني (الشقيري) ثم انسحب رغم دفاع القاهرة عن وجوب بقائه بتأييد العراق وسورية وليبيا واليمن. وبعد ان اصدر مجلس الدفاع قراراً يدين الأردن لاستئناف علاقاتها الدبلوماسية بألمانيا الغربية انبرى الشقيري مطالباً بطرد الأردن من الجامعة العربية ومعطياً سبعة وثلاثين سبباً لذلك[٤].

(٢) لوريان L Orienrt (اللبنانية. بيروت ٨ كانون الأول ١٩٦٦)

(٣) النهار والنداء. في ٩ كانون الاول ١٩٦٦ وغيرها من الصحف.

(٤) اعطي نص خطاب الشقيري الأردن للاجابة. لكن تأخر الرد باندلاع الحرب. ثم نسيان الأمر بعدها. وليذكر أيضاً انه وفي ٢١ من أيار انفجرت قنبلة في مخفر أردني على الحدود مع سورية فقتلت ١٤ أردنياً وجرحت ٢٨. كانت القنبلة قد وضعتها المخابرات السورية داخل سيارة. فأسرع الأردن الى قطع علاقاته الدبلوماسية مع سورية واغلق الحدود. (مع ذلك بقي الملك حسين في عين الوقت يدعو العرب الى نسيان الخلافات والتعاون).

في ٣ حزيران ١٩٦٧ قال المشير عبدالحكيم عامر لمراسل جريدة لوموند الباريسية من خلال حديث له:

«إن مصر تمتلك اكبر قوة ضاربة في الشرق الاوسط. وتمتلك قوة جوية تهيمن تماماً على سماء كل الوطن العربي.»

لم تدحض حرب الأيام الستة هذا القول. اذا ما عددناه من قبيل الدعاية وإنما هدمت كل دعاية للقومية العربية التي بناها عبدالناصر خلال ثلاثة عشر عاماً وهذا مصدر اعظم الألم.

لم تكمل هذه الحرب أسبوعاً وعادلتها من جانبها الفكه هزيمة العراق وقتاً وقياساً. فقد كان في ميدان القتال ثلاث دول عربية شاركت فعلاً، اصغرها يزيد عدد سكانها ثلاثة اضعاف عدد سكان المنتصر فيها.

واتباعاً للخط الذي رسمته لنفسي في صدر هذا الفصل سيكون اهتمامي جُلّه لا كله. موقوفاً على الجانب السياسي من هذه الكارثة التاريخية العظمى – ومقدار تأثيرها على مسيرة الوحدة العربية والتفكير القومي العروبي ودرجة المتغيرات التي طرأت عليه بسببها. وما احدثته من صدوع وشروخ في بناء التضامن العربي المزعوم.

في ١٩٦٦ وأوائل ١٩٦٧ كان هناك شيء أشبه بسباق تسلح. ووردت وزارة الدفاع السوفياتية قوائم طويلة جداً بأسماء انواع الاسلحة التي تحتاجها القيادة الموحدة المصرية – السورية.

وفي أواخر العام ١٩٦٦ وأوائل الذي تلاه. اتخذ حكام البعث المتطرفون موقفاً عدائياً مطرد الزيادة من الدول العربية غير الاشتراكية وركز الهجوم بنوع خاص على الملكين الأردني والسعودي. وعندما تم عقد الاتفاق الدفاعي وإنشاء قيادة موحدة في الرابع من تشرين الثاين ١٩٦٦. صرح رئيس الوزراء السوري (زعيّن):

«بان هذا الاتفاق العسكري ليس موجهاً ضد الصهيونية وحدها بل ضد الرجعيين العرب.»

ومما نص عليه الاتفاق الجديد تنسيق في الشؤون السياسية فضلاً عن العسكرية. واعادة العلاقات الدبلوماسية التي كانت مقطوعة.

مع هذا كله فقد بقي البعث السوري يشك في نوايا عبدالناصر، ومن مظاهره انه لم يسمح للناصريين السوريين اللاجئين في مصر بالعودة الى سورية. ودأب البعثيون على افتعال المزيد

من الأزمات والتشنج داخل القطر، كلما شعروا بارتخاء قبضاتهم على العنق السوري واختلقوا نزاعاً مع شركة النفط العراقية IPC في أواخر ١٩٦٦ وكانوا يتوقعون من هذا النزاع ارتفاع مكانتهم بانتباه الاوساط الدولية الى حضورهم السياسي في الشرق الاوسط. وإنشاء علاقات خارجية تقضي على العزلة التي يشعرون بها ويعانونها فعلاً[٥].

ولم تعتر حملاتهم وهناً. وصاروا يبعثون بمخربين مدربين لإثارة الاضطرابات وشجعت الكوماندو (فرق الصاعقة) المدربة في سورية على دخول إسرائيل عن طريق الأردن لكسب رد الفعل الإسرائيلي المدمر. كما حصل في قرية (سموع) في تشرين الثاني. ولم تقتصد الجهات الرسمية السورية في مهاجمة الأردن. وكان (الأتاسي) واضحاً في اعتباره النظام الأردني اشد خطراً على النظام السوري من إسرائيل كما رأينا في قوله في أوائل كانون الثاني بأن تحرير الأردن يجب ان يسبق تحرير فلسطين.

في شهر تشرين الثاني عند دخول الكوماندو السوريين أراضي إسرائيل عزي الفضل على ما قيل للاتحاد السوفياتي في منع إسرائيل من الرد على سورية. قالوا للسفير الإسرائيلي في موسكو بأن الاتحاد السوفياتي لن يسكت عن أي تحرك إسرائيلي قد يؤدي الى إلحاق ضرر أو إضعاف النظام السوري[٦].

ويذكر متتبعو الإعلام السوري صحفه واذاعته بان النغمة المحببة للبعثيين آنذاك كان تفسيرهم كل الهجمات الثأرية المقابلة الإسرائيلية، بانها من تحريك القوى الامبريالية. وعلى رأسها الولايات المتحدة التي عقدت العزم لا على تدمير النظام السوري وحده بل على غيره

(٥) قدمت الحكومة السورية في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٦ إنذاراً للشركة طلبت فيه زيادةً في عائدات الترانسيت والنقل البحري للنفط العراقي الذي يمر عبر أراضيها فضلاً عن الديون المستحقة لهذه الزيادة اعتباراً من العام ١٩٥٦. وانطلقت صحفهم تتحدث بحدة وغلظة عن الظلم الامبريالي الذي تستبطنه الاحتكارات النفطية. وفي كانون الثاني عندما لم تتلق الحكومة من الشركة جواباً مقنعاً وضعت يدها على جميع منشآتها في الأراضي السورية وأوقفت ضخ النفط ونقله من ميناء بانياس. ثم توصلت الى اتفاق مرض مع الشركة في الثاني من آذار ١٩٦٧، وعدته نصراً قومياً على الامبريالية يحققه البعث وكانت هناك مهرجانات ومسيرات عمالية كبرى في مدن سورية الكبرى احتفاء بالنصر.

(٦) من مقال للكاتب باتريك سيل Patric Seal في جريدة الاوبزرفر اللندنية بتاريخ ١٤نيسان ١٩٦٧ (نقول ايضاً انه وفي ٢٢ من كانون الثاني ١٩٦٧ وجهت (لصلاح جديد) دعوة رسمية من الحزب الشيوعي السوفياتي للإطلاع على مسيرة الاشتراكية في البلاد السوفيتية. فسافر على رأس وفد قوامه عشرون. وسمي في الاعلام السوفيتي بـ(وفد الشعب السوري). وعند عودته اتهم من الجناح البعثي الآخر بالانحياز الى السوفييت على حساب العلاقة مع بكين. وزاد تخوف زعماء فيه وقلقهم من طموحات الحزب الشيوعي السوري ووزرائه في الحكومة. وكان هذا السبب في طرد ٢٥٠ معلم مدرسة شيوعي من التعليم في أوائل نيسان ١٩٦٧.

من القوى التقدمية في العالم العربي[٧]. ذلكم هو التفسير الذي كانت تقدمه تلك الانظمة للتغطية على المذلة - كمحاولة البعث السوري إزالة تأثير الهجمة الجوية المذلة بالادعاء بالنصر في الغارة على الإسرائيليين وبانها وبهذا النصر المؤزر «حطمت اسطورة التفوق الاسرائيلي».

هذا وغيره كان واحداً من أسباب هزيمة البلاد الناطقة بالعربية في الحرب التي نشبت بعد شهرين وبعد أيام قلائل من الغارة الجوية الإسرائيلية.

ورغم مجهودات النظام السوري لاظهار نفسه زعيماً للمعسكر العربي المتطرف. بقي الشعب في سورية غير مبالٍ أو مهتم بما يجري. بل كان في بعض الاحيان وعندما يتاح له - يعلن عن تبرمه بالحال وبنفاد صبره بأشكال شتى[٨].

★★★

في ٢٣ من أيار. اعلن عبدالناصر بخطاب - عن غلق مضيق (تيران) في خليج العقبة بوجه السفن الإسرائيلية والسفن الأخرى المحملة بالمواد الستراتيجية الى ميناء ايلات

(٧) ذلكم هو التفسير الذي قدم في ٧ نيسان ١٩٦٧ لقيام إسرائيل بتدمير وإسقاط ست طائرات بعضها في معركة فوق دمشق وبعضها وهي جاثمة على الارض. وفي الشكوى التي رفعتها سورية ضد إسرائيل أمام مجلس الأمن قال مندوبها «قامت إسرائيل بتشجيع من الدول الامبريالية والقوى الرجعية التي كانت ترى في عوامل التقدم السوري ما يهدد مصالحها الستراتيجية في الشرق الاوسط (نقلاً عن جريدة الحياة بتاريخ ٥ ايام ١٩٦٧). الا أن هناك حكاية أخرى طالعها القراء العرب في الصحف اللبنانية حول تلك الغارة. قالت تلك الصحف ان الطائرات السورية التي واجهت الطائرات الإسرائيلية لم تكن تملك ذخيرة حية. بل كانت محملة بدل ذلك صواريخ جو - جو غير حقيقية (كاذبة) وان الطيارين السوريين كانوا يستخدمون طائرات تدريب لا طائرات قتال حقيقية. وقد خلصت الصحف الى الاستنتاج بان البعث مدفوعاً بخوفه الدائم من انقلاب عليه. لم يكن واثقاً من طياريه ولم يضع بيديهم طائرات قتال حقيقية!!!

(٨) نشرت مجلة الجيش البعثية مقالةً بقلم (ابراهيم خلاس) جاء فيها ان الطريق الوحيدة لبناء مدنية عربية ومجتمع عربي هو ان نخلق انساناً اشتراكياً يؤمن بان الله والأديان والاقطاع ورأس المال وكل القيم الأخرى التي تسود المجتمع السابق له إنما هي موميات محنطة يجب ان تودع المتاحف التاريخية (نشر هذا المقال في عدد ٢٥ نيسان رقم ٢٩٧٦. نقلته جريدة الحياة في عدد ١٥ أيار ١٩٦٧. واقتبسها صلاح المنجد في كتابه «اعمدة النكبة» طبعة ثانية. بيروت ١٩٦٨- الص ٦٢-٦٣) وبحسب ما جاء في الصحف اللبنانية من تأثير هذا المقال. رد فعل عنيف في الشارع ونعتت الحكومة السورية بالحكومة الكافرة في خطب الجمعة (٥ أيار) وتبع ذلك تظاهرات صاخبة. بعدها بيومين بدأ اضراب عام واشتباكات دموية في كل من حماه ودمشق لاسيما بعد اعتقال (الشيخ حسن هبنّقة) رئيس جمعية العلماء. وفي ٩ أيار كسر الإضراب بمصادرة محتويات دكاكين المضربين وباعمال العنف التي اقدم عليها (العمال المسلحون) وتواصلت حملات الاعتقال حتى الخامس عشر وطالت عدداً من خطباء تلك الجمعة. ثم اذاعت الحكومة انها ليست مسؤولة عن نشر المقال. وانه من قلم عميل لوكالة المخابرات الامريكية والحادث كله مؤامرة صهيونية - إمبريالية.

الإسرائيلي. والمعروف دولياً ان خط انابيب النفط الإسرائيلي يبدء من (ايلات) لينقل حوالى اربعة ملايين طن من النفط الخام الى مصافي حيفا ومصدره إيران.

قالت المصادر الرسمية المصرية ان مضيق تيران يقع داخل المياه الاقليمية المصرية فهو يبعد ميلين فحسب عن الساحل المصري. وان غلقها هذا كان بغرض ازالة آثار العدوان الثلاثي في ١٩٥٦. ولما كانت (ج.ع.م) في حالة حربٍ مع إسرائيل فليس من المنطق والمعقول السماح لسفن العدو المحملة بالمواد الستراتيجية بالمرور من المضيق.

واسرع رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول يرد قائلاً الإجراء المصري في منع السفن من دخول تيران وخروجها يعد عملاً من اعمال الحرب.

وفي اليوم ذاته (٢٣ أيار) وصل أمين الأمم المتحدة (يوثانت) القاهرة، ليسمع عبدالناصر يلقي خطابه الشهير معرضاً بمواقف الامم المتحدة، قال:

«منظمة الأمم المتحدة تبنّت عدة قرارات في صالح الشعب الفلسطيني الا ان إسرائيل لم تنفذ قراراً واحداً منها. وبطبيعة الحال لم يحتج احد في الولايات المتحدة الامريكية ازاء هذه المواقف... ان الحديث عن السلام يدور فحسب عندما تواجه إسرائيل الخطر.»

وفي ٢٤ من أيار صدر تصريح بريطاني أمريكي مشترك يقضي بوجوب فتح خليج العقبة لسائر السفن لأنه ممر دولي – ولم يستثن البيان احتمال استخدام القوة العسكرية في نجوةٍ عن الأمم المتحدة لضمان عملية فتحه.

وبعثت الحكومة البريطانية وزير خارجيتها (جورج براون) الى موسكو لبحث المسألة مع سادة الكرملين الا ان وزارة الخارجية السوفياتية أعلنت على اثر الزيارة «أن الجانب السوفياتي اكد اثناء المحادثات تأييده لموقف (ج.ع.م) وسورية والدول العربية الاخرى التي تقاوم الضغوط الاستعمارية. واتهم البيان الحكومة البريطانية بتأييدها إسرائيل».

وفي القاهرة اعلن ان الرئيس (ليندن جونسون) حذر عبدالناصر من مغبة غلق مضيق تيران ونبّهه بنوع خاص الى انه يعتبر غلق المضيق بوجه الملاحة الإسرائيلية عملاً عدوانياً وقال انه لايستبعد استخدام القوة في فتحه اذا فشلت جهود الأمم المتحدة في هذا المضمار.

وتوالت التصريحات الملتهبة وأضدادها.

فبعدها بيوم واحدٍ اعلن (هارولد ولسن) رئيس الحكومة البريطانية في خطاب له امام مؤتمر

نقابات عمال الكهرباء بان «مضيق تيران هو ممر مائي عالمي يحق لجميع سفن دول العالم استخدامه. وان بريطانيا سوف تمارس هذا الحق وهي مستعدة للتعاون مع الآخرين في تأمين الاعتراف العام بهذا الحق. ثم ذكر انه ارسل (جورج تومسن) الى واشنطن للمداولة مع البيت الابيض حول اتخاذ الخطوات العملية لاثبات شرعية هذا الحق.

في السادس عشر من أيار بعث الفريق الأول محمد فوزي رئيس الاركان المصري ببرقية الى الجنرال (ريخيا) قائد قوات الطوارىء الدولية عطفاً على قرار وزارة الخارجية المصري بوجوب سحب قوات الطوارىء الدولية من الأراضي المصرية خلال مدة اقصاها ٢٢ من الشهر ذاته[٩].

وفي ٢٦ من أيار القى عبدالناصر خطاباً في اجتماع عام لنقابات العمال العرب في القاهرة جاء فيه:

«اذا نشبت الحرب فستكون حرباً عامة وسيكون الهدف تدمير إسرائيل.»

وبعدها بيومين فقط انتقد عبدالناصر موقف الولايات المتحدة بخطاب آخر وقال متظلماً:

«ماذا فعلنا لنستفز الولايات المتحدة؟ لماذا تؤيد الولايات المتحدة إسرائيل؟ نحن فقدنا ثقتنا بحكومتها. ونحن نتوقع عدواناً إسرائيلياً في اي يومٍ ولا امل هناك في اجراء مفاوضات على اساس التعايش مع إسرائيل ونحن لانريد ان تتطور الأمور الى حد المجابهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي... نحن نرفض الادعاء القائل بان مضيق تيران هو ممر مائي عالمي كما تزعم بريطانيا والولايات المتحدة: انه ممر مائي يعود لمصر وان اية محاولة للتدخل في السيادة المصرية ستؤدي الى أوخم العواقب ان من حقنا ان نغلق قناة السويس وسنفعل ذلك اذا تدخلت دول اخرى في النزاع العربي الإسرائيلي.»[١٠]

(٩) كانت قوات الأمم المتحدة متعددة الجنسيات. وقوامها ثلاثة آلاف وخمسمائة وحدة يوغوسلافية وسويدية وكندية وبرازيلية ونرويجية تحت امرة الجنرال (ريخيا). وهي مركزة في قطاع غزة وعلى حدود سيناء. وفي ١٨ منه وصل الطلب الى يوثانت سكرتير الأمم المتحدة بسحب هذه الوحدات جميعها من الأراضي المصرية بالسرعة الممكنة وفي عين اليوم اعلنت مصر ان قواتها قد حلت محل القوات الدولية تلك على طول الحدود. بعد ان اعلن يوثانت في ١٩ منه ان قواته انسحبت من الأراضي المصرية وان إسرائيل من جانبها رفضت ان تنقل هذه القوات الى غزة على طرفها من الحدود. فاضطرت تلك القوات الى ركوب البحر والعودة الى بلادها واصبحت القوات المصرية والإسرائيلية اعتباراً من ١٩ أيار تواجه إحداها الأخرى دون قوات فصل دولية.

(١٠) العدوان الإسرائيلي: حزيران ١٩٦٧. صلاح سعدالله. مطبعة المعارف بغداد ص ٤٧ (لم يذكر تاريخ الطبع).

وصرح المشير عبدالحكيم عامر[١١]:

«... ان مصر ستوجه ضربة قاصمة لأي عدوان إسرائيلي... لقد ثبت بان الحشود العسكرية الإسرائيلية تشكل تهديداً لسورية وان الوقت حان لوضع حد للاستهتار الإسرائيلي»

وأبى النظام العراقي ان يتخلى عن الركب أو يغيب عن حلبة المزايدة فتم في الحادي والثلاثين من أيار التوقيع على إتفاق الدفاع المشترك[١٢]. واعلنت التعبئة في الأردن والعراق والكويت.

من فرض الحرب على من؟

على أي طرف تقع التبعات التاريخية في النتائج؟

في ما سلف شرحنا كيف اقيمت دولة إسرائيل بالقوة، والتآمر البشع على أصحاب البلاد الشرعيين وانسالهم وسيكون من قبيل التكرار البالغ السخف ترديد الاسطوانة تبريراً لقيام هذه الحرب. أو اعتبار الحرب جزءً من محاولة رد الحق الى اهله. وأمام المؤرخ صدام مسلح محتوم لاتقاس نتائجه بعدالة قضيةٍ بل بمقدار الفطنة والبراعة والكفاءة العسكرية التي يبديها المنتصر.

هاهنا هذه الدولة التي اتخذت لها اسماً توراتياً تشغل رقعة ارض صغيرة يبلغ طولها من اقصى الشمال الى نهاية الجنوب حوالي ٥٠٠ كيلومتر. ويتفاوت عرضها من الشرق الى الغرب مابين ١٥ و٦٠ كيلومتراً. وتلتقي بالدول العربية الاربعة (لبنان، سورية، الأردن ومصر) بحدود يبلغ طولها ١٠٨٠ كيلومتراً. فمن الناحية العسكرية (الستراتيجية) كانت حماية هذه الرقعة من الأرض – وادّراء الهجمات التي تتعرض لها من الجبهات كافةً وفي آن واحدٍ أمراً مستحيلاً. والقضية لاتتطلب كثيراً من التفكير فهذه الدولة الصغيرة التي أقيمت

(١١) الاهرام. القاهرة ٢٠ أيار ١٩٦٧

(١٢) تقرر ارسال فرقة كاملة مجحفلة بدأت طلائعها تتحرك الى المفرق على الحدود العراقية الأردنية. كما رابط سرب من الطائرات في موقع H3 بالرطبة. (ذكر مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية ج٣. الص ١٩٣–١٩٤ اربيل ٢٠٠٢) ان وفداً عسكرياً رفيع المستوى جاء ملا مصطفى البارزاني يطلب منه أن لايقدم على اي تحرك عسكري اثناء وجود القوات العسكرية على خط المواجهة وسألوه الارشاد والنصيحة (كانت فترة هدنة أيامذاك) فطمأنهم بان البيشمركه لن يقدموا على عمل ضد الجيش العراقي وقال لهم خير نصيحة اقدمها لكم ان توقفوا القتال فوراً وان يطلب عبدالناصر اعادة القوات الدولية (كان القتال قد بدأ أثناء حضور الوفد) والا فأنا اتصور بانكم ستمنون بخسارة عظيمة وستحل بالجيوش العربية كارثة. الا ان ضابطاً كبيراً من الوفد اعترضه بقوله: «ان الجيش المصري قوي جداً وهو يمتلك سلاحاً عصرياً فتاكاً» فاجابه البارزاني. ان السلاح مجرد قطعة حديد والمعول عليه هو اليد التي تمسك به والانسان هو الذي يستخدمه».

بقوة ظروف سياسية لا نظير لها في التاريخ مهددة الآن بالزوال.

في ١٨ من أيار ظهرت طلائع القوات المصرية في شرم الشيخ وامهلت قائد قوات الطوارىء الدولية مدة خمس عشرة دقيقة بالجلاء عنها قبل احتلال الموقع فعلاً.

الدول العربية التي شاركت القتال لم تكن تعرف واحدتها عن الأخرى قدرات قواتها المسلحة إلا أن إسرائيل كانت تعرف عنها كثيراً واكثر من الكثير وعلى هذا الأساس وضعت خطتها. كانت تعلم جيداً مثلاً ان الزعامات المصرية غارقة في الفساد وهي منقسمة على نفسها. فهناك كتلة متحدة متراصة من المشير عبدالحكيم عامر وشمس بدران وزير الدفاع وصلاح نصر مدير المخابرات العسكرية واللواء عبدالله هلال نائب رئيس الاركان ووزير الداخلية عباس رضوان والفريق الأول صدقي محمود – تسعى الى دفع المشير عامر الى فوق وامام للصعود والتقدم معه.

وهناك كتلة أخرى على الجانب الآخر الفريق اول محمود فوزي رئيس الاركان يتزعم عدداً كبيراً من كبار ضباط الجيش أمثال اللواء سعدالدين متولي واللواء عبدالمنعم رياض واللواء سعد الشاذلي وعلي صبري، يقفون ضد الكتلة الأولى. وقد اختفى غالبية الضباط الذي قاموا بثورة يوليو من المرسح السياسي والبقية كانت النار تأكلهم ببطء تلك النار التي اشعلوها قبل سنوات قلائل في العراق وسورية واليمن وغيرها.

وبصورة خاصة كان يؤمل ان تغدو المجاهل اليمنية ميادين تدريب مؤقتة للجيش المصري وخشبة قَفّاز نحو بحر بترول الجزيرة العربية مالبثت تلك المجاهل أن تحولت الى حيوان مفترس جائع فاتح شدقيه لابتلاع وحداته وامتصاص خيرات البلاد المصرية ومن دون ان يكفي كل هذا لملء معدته. تلك الحرب التي افترض عبدالناصر وقادته ان تنتهي بنصر باهر سريع، تواصلت سنوات دون نتيجة واضحة لتهدم اقتصاديات البلاد وتهدد بالقضاء على المكاسب القليلة التي تمكن ضباط يوليو من تحقيقها بجهود خمس عشرة سنة. تفشى فيها تهريب المخدرات. وكان هناك ثلاث من اصل اربع فرقٍ للمشاة في اليمن كما كان ثم اكثر من نصف القوات المصفحة.

ولم يكن المصريون والسوريون خصوصاً يعلمون الكثير عن القوات المسلحة الإسرائيلية بل ربما لم يكونوا يعرفون الا ما ارادت إسرائيل ان يعرفوه![١٣]

(١٣) في أواخر أيار انبأ السوفييت المصريين ان إسرائيل دعت الى الخدمة الفعلية لوائي مشاة وحشدتهما على الحدود السورية ولم تكن هذه المعلومات صحيحة مطلقاً. ولا علم حتى الآن هل كان ذلك محض خطأ مصدر معلوماتهم أم لغرض آخر كما قدم من تعليل لايخلو من منطق. هو ان جهاز المخابرات =

بعد يوم واحد من صدور الأمرار باغلاق مضيق تيران عقد عبدالناصر اجتماعاً في مقر القيادة العامة وتوجه الى وزير دفاعه (شمس الدين بدران) وقال له – اريد منك أن تذهب الى موسكو غداً وتقابل وزير الدفاع السوفياتي وغيره من القادة. فهذا ما سيعطي انطباعاً بوجود تعاون بين الاتحاد السوفياتي ومصر.

كانت مهمة (بدران) هو الحصول على موافقة السوفييت بقيام مصر بايقاع ضربة بإسرائيل. لأن عبدالناصر كان ككل الناس يعلم ان اغلاق مضائق تيران امام السفن الإسرائيلية هو معادل لاعلان الحرب لا محالة. واراد ان يكون الباديء ولذلك كان بحاجة الى مساندة السوفييت من اجل الوقوف ضد أي تدخل امريكي ولغرض امداده بالمعدات الحربية اثناء القتال.

في اليوم التالي الموافق لـ٢٥ من أيار توجه (بدران) الى موسكو على رأس وفد يضم ممثلين عن وزارة الخارجية والجيش. وفي عين اليوم نزلوا من طائرة بوينگ ٧٠٧ ليؤخذوا رأساً الى احدى القصور الموسكوفية ليجتمعوا بالمارشال اندراي گريشكو وزير الدفاع.

وتحدث المارشال باسهاب عن الصداقة الخاصة التي تربط الاتحاد السوفياتي بمصر. وقال بدران: «منذ ١٤ من أيار والقوات المصرية تتدفق الى سيناء لردع العدو. وفي حالة وقوع هجوم على سورية ستعلن الحرب على إسرائيل»[١٤].

كان السوفييت يخشون ان يفقدوا السيطرة على الموقف فارادوا التخفيف من تصاعد درجة حرارته. اجاب گريشكو بصراحة: «يؤسفنا القول ياسيادة وزير الدفاع: طالما لايوجد ثم حدود مشتركة بين مصر والاتحاد السوفياتي فليس في وسعنا مساعدتكم لو قامت الحرب بينكم وبين إسرائيل».

اللواء (أحمد فاخر) عضو الوفد الذي يتقن اللغة الروسية وكان يجلس جنب (شمس بدران) لم ينتظر ترجمة اقوال المارشال – مال نحو السفير المصري الذي كان يجلس بالقرب منه وهمس في اذنه: «سيدي السفير. لو كانت هناك حرب فانهم لن يمدوا لنا يد المساعدة».

= الإسرائيلية دسها بقصد استفزاز المصريين ودفعهم الى عمل معين عندما سئل عبدالناصر فيما بعد عن مقدار الصحة في هذا التعليل اجاب «لاأدري وربما كان صحيحاً» على ان وثائق الأمم المتحدة تشير بوضوح مابعده وضوح الى ان هذه المنظمة الدولية تلقت رسمياً وكتابياً من عبدالناصر طلباً بسحب قوات الطوارىء كما أن طلب الانسحاب من شرم الشيخ كان شفوياً ثم تكرر عدة مرات كتابياً ونشرته الصحف رغم ادعائه فيما بعد انه لم يفعل.

(١٤) في ٢٣ أيار اعلنت إسرائيل التعبئة الجزئية وبعد ساعات لحقت بها مصر وسورية باعلان التعبئة العامة.

الا ان (شمس بدران) بقي يصر على أخذ الضوء الأخضر من السوفييت بالهجوم على إسرائيل. وطلب مقابلة رئيس الحكومة (ألكساي كوسيگن).

كان (بوريس باتزانوف) رئيس مساعدي كوسيگن حاضراً اثناء المقابلة ويروي ما حصل كالآتي:

«بدأ (بدران) بمقدمة طويلة شارحاً الموقف الخطير في الشرق الاوسط، قائلاً: إسرائيل تهدد العالم كله». وبعد فروعه من ذلك اخبر (كوسيگن) بان مصر تريد ان تشن هجوماً على إسرائيل. الا ان هذا الخبر لم يقع موقع استحسان من الزعيم السوفييتي واعلن عدم تحبيذه هذا المخطط مطلقاً وصارحه برأيه. وكان بين الحاضرين باڤل اكوپوڤ وهو دبلوماسي سوفييتي خبير في الشؤون المصرية يذكر اكوپوڤ هذا ان كوسيگن قال رداً على طلب (بدران) باسلوبه الاعتيادي الغليظ الخالي من اي رقة أو ظرف دبلوماسي: نحن في الاتحاد السوفياتي لايمكن أن نمنحكم رضاءنا بتوجيه حروب وقائية ضد إسرائيل فهذا يناقض سياستنا ومواقفنا. لو كنتم المهاجمين فانتم معتدون ونحن ضد العدوان نحن ضد الحلول العسكرية وليس بوسعنا مساندتكم»

ظل (شمس بدران) يتجاهل رجاءات السوفييت بعدم التصعيد: وبقي طوال ثلاثة أيام يهوي على السندان بمطرقة: «دعونا نوجه ضربةً وقائية». الى ان فقد كوسيگن اتزانه وقال بحدة:

«نحن نساند مصر والشعب العربي في حربهما دفاعاً عن حقوقهما العادلة. الا اننا لا نستطيع مساندة العدوان. لانستطيع تحبيذ استخدام القوة فهي مناقضة لسياستنا.»

ونصح بضبط النفس.

بالاخير بات الوفد المصري مقتنعاً بان السوفييت يريدون منهم عدم التصعيد عندما وقعت حادثة غيرت كل شيء. يذكر (بدران) قائلاً:

«عندما كنت اتوجه الى الطائرة عائدا جرني (گريشكو) الى جانب وقال لي: لاتقلق. لو تدخل الامريكان، فسنكون معكم مائة بالمائة. لو تدخلت الولايات المتحدة فسنأتي الى نجدتكم. سنأتي لانقاذكم.»

ما ان احتوت القاهرة (بدران) حتى هرع الى عبدالناصر وقال له ان السوفييت لايريدون ان يكون هو البادىء بالهجوم. ثم انهى اليه ما اسره به گريشكو في المطار حول الامريكان. أو ربما لم يقل له كل شيء – بل قال فحسب «نحن معكم»؟ ومهما يكن الموقف فالذي يبدو ان عبدالناصر استخلص بان السوفييت لن يسخطوا عليه وينزلوا به عقاباً لو انه شرع باعمال عدوانية فقط لاترتفع الى مستوى حرب. لا ان يهاجم اولاً. الا انه لم يأبه بطلب عدم التصعيد. فظل يطلق تصريحات التحدي والاستفزاز[١٥].

كان طلب عبدالناصر سحب القوات الدولية من (شرم الشيخ) نقطة حاسمة من نقاط الخطوات التي تسبق اعلان الحرب رسمياً.

وقد وُجِّه اللوم ايضاً الى يوثانت. وأنب بشدة لأنه اسرع بسحب قواته وافسح المجال لاغلاق مضيق تيران فاشعل فتيلة الحرب. الا ان يوثانت استنكر هذا الاتهام بشدة وذكر أن عبدالناصر هدد باقتحام الموقع بالقوة ولو ادى ذلك الى الاشتباك مع القوات الدولية فلم يسعه الا الرضوخ للأمر الواقع. إن كان زعم (يوثانت) صحيحاً فمن الصعب الاعتقاد بان عبدالناصر ماكان يتوقع من إسرائيل رد فعل عنيف وإلاّ عُدّ أغبى الأغبياء. والواقع الذي بلغ بي الى هذا الاستنتاج قول انور السادات فيما بعد نقلاً عن عبدالناصر «ان اغلقنا مضيق تيران فالحرب واقعة مائة بالمائة».

قال يوثانت بعد اغلاق المضيق: «انه عمل عدائي ضد إسرائيل».

إلا ان ما عرف بعد الحرب مباشرة ان عبدالناصر قام في الثاني من حزيران خطيباً في مقر القوة الجوية – وقال يرد على (يوثانت):

«اليهود هم الذين هددوا بالحرب. نحن نقول لهم: اهلاً وسهلاً. نحن مستعدون للحرب. قواتنا المسلحة وشعبنا مستعدان لمعركة الحياة والموت هذه».

هذا بعض ما نشرته الصحف في حينه. الا ان مقابلة شمس بدران في ١٩٩٧ تقدم وجهاً جديداً للصورة لم يعرف من قبل. وكان الغرض من اجتماع الثاني من حزيران هو اعلام القيادات بان مصر لاتستطيع استباق إسرائيل بضربة عسكرية لأن موسكو لاتوافق. وان عليهم في الحرب القادمة ان يتخذوا موقفاً دفاعياً. ان يصمدوا ويصدوا الاندفاع الإسرائيلي

(١٥) هذه المقابلة وما سياتي بعدها من مقابلات للذين بقوا في قيد الحياة، تنشر باللغة العربية لأول مرة. مقتبسة من كتاب «حرب الخمسين عاما: إسرائيل والعرب The fifty years war: Israel and the Arabs بقلم كلمن اهرون بروكمان وجيهان الطاهري Ahron Brogman, Jihan Al.Tahery ط. نيويورك ١٩٩٩. (اجريت المقابلة مع شمس بدران في لندن بتاريخ ٥ حزيران ١٩٩٧. (الص ٩٦–٩٨).

الأولي. وهنا قفز قائد القوة الجوية صدقي محمود – من مكانه وقال بالانگليزية «ستكون كاسحة. ستصيبني بالكساح، انها ستصيب الجيش كله بالشلل».

يقول (بدران) وعندها انبرى له المشير عامر موجها اليه القول: «صدقي! أتريد حقاً ان تقاتل الولايات المتحدة؟ لو كنا البادئين فسوف تتدخل الولايات المتحدة وعندها ماذا ستفعل. اسيمكنك تحمل الضربة الأولى؟»

فردّ (صدقي) قائلاً: «طيب، طيب. معلش».

ثم جلس، وعندها توجه عبدالناصر اليه بالسؤال: «لو هاجمت إسرائيل اولاً. كم ستقدر خسارتنا؟»

أجاب (صدقي): «بين خمسة عشر وعشرين بالمائة».

في اليوم التالي دعا عبدالناصر الى اجتماع مماثل آخر يتسم بالخطورة افتتحه بقوله: «اليوم اعلمكم بان إسرائيل ستهاجم مائة بالمائة. ان صحافياً أمريكياً اخبرني قبل برهة بان إسرائيل ستهاجم خلال اثنتين وسبعين ساعة. اي في الخامس من حزيران»[١٦].

لايعلم كيف استطاع الصحافي معرفة ذلك. لكن ظهر فيما بعد ان معلومته هذه صحيحة مائة بالمائة.

رغم ان تعليق عبدالناصر عليها واذاعته لها لم يؤخذا مأخذاً جدياً لاسيما من المشير عامر الذي هو نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة. ويذكر (فوزي) مستشاره السياسي: رأيت عبدالحكيم عامر ينهض ويخرج من الغرفة صحبة قائد القوة الجوية وقصدنا نحن الثلاثة دائرته وسمعت المشير يسخر من عبدالناصر، نافياً بصورة هازلة اعتقاده بوقوع هجوم إسرائيلي في الخامس من حزيران.

كان جمال عبدالناصر في ذلك الحين. قد فرك يده من جدوى البحث عن سلاح جديد فعال يستخدم ضد الماكنة الحربية الإسرائيلية وقد قضى الاشهر الطوال يمنّي النفس بمثل هذا السلاح الفتاك[١٧] دون جدوى وبدأ جدياً يفكر بالسلاح السياسي الذي استخدمه ببراعة ونجاح تامّين

(١٦) المرجع السالف ص ٩٩.

(١٧) منذ أوائل الستينات بدأ عبدالناصر يبحث عن علماء الصواريخ الالمان. وحين كشفت الصحف ذلك تحدثت عن نجاحه في جمع مقدار كبير منهم وعن القيام بإنشاء مدينة (صواريخ) خاصة بهم. ومشاريع بناء طائرات. وقد اتضح بعد سنوات من التجارب وإنفاق الملايين بأن الأمر كله لم يكن غير محاولات فاشلة غطيت بتمويه ودعاية. كان مصنع المحركات النفاثة رقم ١٣٥ جنوب القاهرة يمثل ذروة هوس عبدالناصر. مهندسون يتقاضون رواتب ضخمة يمكن صرفها على اقامة وبناء قرى نموذجية الريف =

في حرب ١٩٥٦.

وفي إسرائيل كان ثَمّ اضطراب. ولم يكن الجو رائقاً في عالم السياسة إذ لم يلق (ابا ايبان) وزير الخارجية ما كان يأمل من الرئيس الامريكي (ليندن جونسون) الا انه قال اثر عودته من واشنطن ان الرئيس الامريكي وعد باتخاذ كل ما يمكن من اجراءات لفتح مضيق تيران في وجه الملاحة الدولية فقام رئيس الحكومة (ليفي اشكول) بارسال رسالة شكر لوعده هذا. إلا ان واشنطن ردت فوراً على الرسالة قائلة ان الرئيس جونسون لم يعد (ابا ايبان) اثناء المقابلة باتخاذ كل الاجراءات لضمان ابقاء مضائق تيران مفتوحة.

في ٣٠ من أيار شخص (مئير آميت) رئيس الاستخبارات الإسرائيلي الى واشنطن للتثبت من واقع الأمر. وفي مقابلة له مع رتشارد هلمز رئيس وكالة المخابرات الاميريكية، علم انه لم يتم اي شيء بخصوص «تشكيل أرمادا دولية تتولى مهمة فتح مضائق تيران بوجه السفن الإسرائيلية. واذذاك اصر على رؤية (ماكنمارا) وزير الدفاع.

يذكر (ماكنمارا) ان (مئير) قال له: سأقوم بنشر تصريحات معينة. سأقول لك اشياء معينة. ولا أتوقع منك اجابة» ثم استطرد يقول «انت تعلم ما نحن فيه. وانا هنا في زيارة غير رسمية. وكل ما نريد ثلاثة: اولها ان تعودوا لملء مستودعات اسلحتنا وعتادنا بعد نهاية الحرب. وثانيها مساندتنا في الامم المتحدة وثالثها ان تضربوا الروس وتزيحوهم من الميدان لكن ماكنمارا أجاب قرأتك عالياً وواضحاً (والعبارة بالاصل I read yau loud and clear) ثم سأل: كم سيقتضي لكم من الوقت (يقصد إلحاق الهزيمة بالمصريين).

أجاب أميت: «بتقديري ان يتم ذلك خلال أسبوع». ثم اضاف يقول: «ساعود الى الوطن وسأوصي بالاقدام على العمل: ما الذي تقترح ان افعل قبل العودة؟»

قال ماكنمارا: «لا عمل لك هنا ومكانك هناك»[١٨]

بعد ذلك قصد روبرت ماكنمارا الرئيس الاميريكي وأنبأه بأن الإسرائيليين قرروا العمل.

ان استجابة ماكنمارا الى رئيس المخابرات الإسرائيلية لم تكن مفاجأة لأحدٍ في واشنطن. اذ كان يحبذ ان لاينتظر الإسرائيليون وقوع ضربة عليهم بل ان يكونوا هم البادئين وكان يدري

= المصري في اشد حاجة اليها. وشق قنوات وترع للري من النيل لاحياء عشرات الالوف من الهكتارات لكن بعد سنتين من الاعمال التمهيدية والتجارب اضطرت مصر الى شراء محركاتها من الخارج للقيام بالتجارب الاولى للنموذج الاول من طائرة نفاثة. وتبين ان صواريخ (الظافر والقاهر) وغيرها لايمكنها اصابة هدف ضمن دائرة قطرها ١٠٠ كيلومتر!

(١٨) المرجع السالف ص ١٠٠. مقابلة مع روبرت ماكنمارا في ٢١ من نيسان ١٩٩٧. جرت في واشنطن.

بان الولايات المتحدة ماكانت تستطيع ارغام إسرائيل على التريث أو الكف إلا اذا وجدت خياراً آخر. كان لماكنمارا على حد قول جريدة نيويورك تايمس مايكفي من المتاعب في فيتنام وكان متردداً في ان يقترح اي خيار آخر قد يؤدي الى تدخل الولايات المتحدة عسكرياً في الشرق الاوسط.

وكتب (آميت) تقريره في طريق العودة. ثم قصد فور نزوله من الطائرة منزل (ليفي اشكول) في القدس. حيث الوزارة مجتمعة بكل هيئاتها، وجلس الى صفه فاتجهت الانظار كلها اليه تبحلق في وجهه ولا تريم وهو يقرأ عليهم تقريره. وبعد ان فرغ منه علق قائلاً: «أيها السادة، انطباعي انه لن يكون ثم أرمادا تفتح لنا مضائق تيران»[١٩].

طلب (موشي دايان) الذي كان قد ضم الى الوزارة قبل أيام أن تقرر الحكومة الحرب. ولم يوافقه الجميع. فبعضهم وبينهم (آميت) نفسه حبذوا ان يعطوا الامريكان فرصة لتغيير رأيهم. واستمرت الجلسة منعقدة حتى ساعات الفجر الأولى.

وفي الخامسة صباحاً صرف (اشكول) وزراءه لينالوا قسطاً من الراحة. ثم استأنفوا الاجتماع بعد ثلاث ساعات وخمس عشر دقيقة. وكان يوم الاحد الموافق للرابع من حزيران وتقرر ان تضرب إسرائيل أولاً. الحرب واقعة لا محالة وعلى إسرائيل ستراتيجياً ان تهاجم اولاً. كان موشي دايان ورئيس اركانه اسحق رابين واثقين من نصر تحرزه إسرائيل ونجح نفوذهما وثقتهما في اتخاذ هذا القرار رغم ان بعضهم كان يقترح فتح باب مفاوضات.

يزعم السادات ان الامريكان حثوا الإسرائيليين على النزال. وانهم زودوهم بمعلومات عن الموقف العسكري المصري الا انه اكد ما اورده كتاب آخرون حول الموقف السوفياتي قائلاً:

«إن السفير السوفياتي أوقظ عبدالناصر في الساعة الثالثة من صباح الرابع من حزيران ليبلغه رسالة من الكرملين ترجوه فيها ايقاف حملة التصعيد.»

ويظهر انه نسي موقفه الهستيري بعد ذلك فقد قام خطيباً في ضحى ذلك اليوم مؤكداً «أن مصر لن تكون البادئة بإطلاق الرصاصة الأولى في اية حرب». وتحدث عن مفاوضات سلام من شروطها السماح للفلسطينيين بالعودة الى ديارهم اثر حرب ١٩٤٨. بل تحدث عن تسوية ممكنة حول مضايق تيران.

على ان قوى أخرى في الوقت عينه كانت تسحب عبدالناصر من الخلف الى الجهة المعاكسة. كانت كما ذكرنا تلك الصيحة الفلسطينية المدوية حول إلقاء الإسرائيليين في البحر يرددها

(١٩) مقابلة لميئر اميت في ٢٠ كانون الثاني ١٩٩٧. المرجع السالف ص ١٠٠.

زعيم منظمة التحرير الشقيري متكهناً «بانه لن يسلم من اليهود غير نفر قليل وهؤلاء سنعيدهم من حيث جاؤا» دون ضجة.

في الثلاثين من أيار وصل الملك حسين القاهرة وتحت ضغط هائل من ضباط الجيش الأردني عقد كارهاً مستعيذاً بالله معاهدة دفاع مشترك مع عبدالناصر.

وفي اليوم الأول من حزيران وصلت الطلائع الاولى للقوات العراقية الى مصر للعمل بجانب القوات العربية الأخرى القادمة من الجزائر ومراكش. كما تحرك لواء مجحفل من القوات العراقية الى الجبهة الأردنية. واشتط الخيال بالأمة العربية. ولم يكن بينها من يجرأ على التلفظ باي عبارة تنم عن بعض التحفظ والا عد مخرباً مُشيعاً روحَ الهزيمة إن لم يعتبر جاسوساً.

وذكر راديو دمشق- كأنه استيقظ من نوم طويل بأن «القضاء على إسرائيل امر حيوي بلا نزاع وان النهاية باتت وشيكة».

وسمعت المعلق العراقي من راديو بغداد يقول: «هدفنا واضح. لانفضح سراً ان قلنا بأننا نعتزم مسح اسم إسرائيل من خارطة العالم» فاسرعت الى تسجيل الكلمة على راحة يدي اذ لم يكن كاغد بمقربة مني.

واعلن الأردن عن قرب حل المشكلة اليهودية حلاً نهائياً وكان الإسرائيليون في قلق عظيم سيما بعد ان اقدم عبدالناصر على استخدام السلاح الكيمائي في اليمن.

***

وأعود لأذكر قارئي بأن تزويده بتفاصيل حول مجرى القتال والمعارك ليس من اغراض هذا الكتاب مطلقاً وقد كتبت فيه عشرات الكتب والمذكرات الهامة الدقيقة من الجانبين وفيها من يعتذر لنفسه من الجانب المغلوب ومن يضخم دوره من الجانب الغالب. الا انها كانت واحدة من الوقائع الفاصلة العجيبة في تاريخ الحروب حقاً. وهو أمر يتعذر انكاره أو التقليل من آثاره المدمرة على اننا لن نحرم القاريء من اية صفحة منها تتصل بسياقنا الفكري والسياسي فنقول:

كانت الخطة الإسرائيلية العامة تقضي بقيام القوة الجوية الإسرائيلية بمفاجأة السلاح الجوي المصري وهو نائم، وتدمير طائراته الجاثمة دون ان يتاح لواحدة منها فرصة التحليق في الجو. بعدها تندفع القوات الإسرائيلية في سيناء تحت غطاء جوي حر لمواجهة القوات البرية المصرية،

وبلوغ شرم الشيخ وفتح مضيق تيران لسفن إسرائيل. وفي حال مشاركة السوريين والأردنيين في الحرب فان القوات الإسرائيلية الجوية ستدقهم دقاً بالغارات التي يعقبها الالتحام الأرضي.

قبل ساعة الصفر بثمان واربعين ساعة بالضبط، جمع الجنرال (مردخاي هود) قائد القوة الجوية أمراء اسرابه وزودهم بالتعليمات. أنبأهم بان التوقيت للهجوم هو الساعة السابعة والخمس والاربعون دقيقة. الا ان بقية الطيارين لم يبلغوا به الا في الساعة الرابعة صباحاً مع تزويدهم بالتعليمات وفي الوقت الذي كان هؤلاء يتهيأون ويقومون باستعدادهم الأخير. كان (موشي دايان) و(اسحق رابين) وغيرهما من رجال الحكومة وقادة الجيش مجتمعين في مقر القوة الجوية في تل أبيب للمتابعة، فهذه اخطر مرحلة من مراحل الحرب لو نجحت لأمنت لإسرائيل السيطرة التامة على اجواء المعارك كلها. وهو ما يؤكد لهم النصر ايضاً في حرب الصحراء.

كان التوتر شديداً. والانظار كلها مصوبة الى قائد القوات الجوية (هود) الذي كان يقف وسط القاعة يعب الماء عباً من دورق إثر دورق وهي عادة له عندما يكون في نهاية توتره العصبي.

في عين الوقت، كان ثم منظر مغاير في القاهرة. كان المشير عامر نائب القائد الاعلى، وشمس الدين بدران وزير الدفاع وصدقي محمود قائد القوة الجوية وعدد من قادة الجيش يصعدون سلم طائرة تقلهم في جولة تفقدية في سيناء. وتوخياً لسلامتهم صدرت اوامر للدفاعات الارضية المضادة بعدم اطلاق البطاريات نارها. وفي حين كان معظم قيادة الجيش المصري وهم هؤلاء في طريقهم الى سيناء ترك اللواء (بهي الدين نوفل) وحده في مقر الجيش العام بالقاهرة - بصفة ضابط خفر.

انطلقت الموجة الأولى من الطائرات الإسرائيلية في السابعة والدقيقة العاشرة. يقول الجنرال هود متذكراً الموقف بدقائقه: «كانت المجندات اللاتي يعملن في غرفة العمليات قد بدأت يحركن التشكيلات على الخارطة الأرضية بحسب الخطة. ها هي طائرة نفاثة تنطلق نحو اهدافنا!» وصمت راديوها صمتاً مطبقاً[٢٠].

(٢٠) من مذكرات قائد السرب (ران رنون) من طراز ميراج «قمت بقيادة الهجوم على مطار (انشاص) وهو مطار واسع تجثم على ارضه اثنتان واربعون طائرة من نوع (ميك ٢١) ويقع شرق القاهرة بمسافة قليلة. كنا نطير على ارتفاع منخفض جداً فوق البحر ونكاد نحتك باعلى موجة فيه. ثم على اليابسة فوق كثبان الرمل كانت المسافة بيننا وبينها تقل عن مائة قدم! طرنا على ارتفاع جد منخفض فوق الدلتا ورأينا الفلاحين المصريين يلوحون لنا مسلمين ظانين بأننا مصريون. وبلغنا المدى الذي وجب علينا ان نرتفع لنبدأ في الهجوم. فرفعنا انفسنا الى ارتفاع ستة آلاف قدم. نظرت الى تحت لارى طائرات الميك وهي =

لم يشعر المصريون بقدوم الطائرات لأنها كانت تطير على ارتفاع واطيء جداً لايستطيع الرادار تسجيله، ولأنها قدمت من جهة غير متوقعة مطلقاً. ورد من جهاز إنذار أردني ان الطائرات الإسرائيلية في طريقها الى مصر. إلا انه لم يكن احد يعرف حل الجفرة التي كتب بها الإنذار واهمل. وحول هذا يقول اللواء (نوفل): ان اللواء عبدالمنعم رياض الذي كان قد ارسل الى الأردن للتنسيق على الجبهتين بعث لنا من مطار عجلون الأردني هذا الإنذار. لكن وبما اننا كنا قد غيرنا جفرتنا في ذلك اليوم فقد تعذر علينا قراءته. كان القادة المصريون لقطعات سيناء قد اجتمعوا في مطار (بير ثماده) في سيناء لحضور مؤتمر المشير عامر الحربي الذي ارتأى عقده وهو في جولته التفقدية. يقول اللواء اركان حرب سعدالدين الشاذلي قائد القوات المتقدمة:

«عندما كنا في انتظار عبدالحكيم عامر في حدود الثامنة صباحاً سمعنا دوي انفجار هائل فخرجنا نستطلع الأمر لندرك فوراً بان الإسرائيليين يهاجمون مطار (فايد)»

وفي الجو كانت طائرة (عامر) قد عبرت القناة لتوها. يقول (شمس بدران):

«تسلم طيارها برقية من المقر تفيد بأن مطارات مصر تستهدف الآن هجوم الطائرات الإسرائيلية. فاستغربنا كثيراً، وبنوع أخص المشير عامر. وفي الوقت الذي كان المشير يأمر الطيار بالدوران والعودة. كان اللواء نوفل يتلقى مكالمة تلفونية من اللواء (محمد بركات) مدير دائرة العمليات للقوة الجوية تقول: المطارات تقصف. فيسأل (نوفل) أية مطارات؟ فيأتيه الجواب: مطاراتنا في سيناء. واصيب نوفل برجة عصبية. قال فيما بعد: كنت وحدي في المقر ولا احد معي وكان قصاراي نقل المعلومات بان الحرب بدأت. واصدرت امراً بوحوب التحاق كل الآمرين بوحداتهم. الطائرات الإسرائيلية تحلق على ارتفاع جد منخفض. جد منخفض، محاذية للأرض تماماً بشكيل يتعذر رصدها بالرادار. الطائرات الإسرائيلية كلها، تأتي من جهة البحر... انها تطير على ارتفاع جد واطيء.»

= مصفوفة تلمع على جانبي المدرج بانعكاس النور ورأيت طياريها جالسين في مقصوراتها. وتطلعت الى اليمين فشاهدت الدخان والنار يتصاعدان من كل القواعد الجوية الأخرى القريبة من (انشاص). عند ذلك تأكد لي بأننا نجحنا في مفاجأتهم». وتقول مصادر اخرى بعضها مصري انتقادي ان التوقيت للهجوم الإسرائيلي على المطارات جرى على أساس ان الطيارين المصريين لايتواجدون في المطارات الا بعد الثامنة صباحاً. بسبب سكناهم في القاهرة. وانهم لم يكونوا يومذاك تحت الإنذار من الدرجة القصوى.

وجب على المشير عامر عند عودته الى القاهرة ان يستوقف تاكسياً ليأخذه الى مقر قيادته... كان أحمد فاخر (وهو آنذاك برتبة عقيد) موجوداً عند وصول المشير وهو في حالة انهيار تام:

دخل البناية متمالكاً على نفسه وحاول تقدير الموقف، وسرعان ما ادرك بان الموقف ميئوس منه. وكان الفريق محمد فوزي رئيس الاركان حاضراً وهو يذكر ان (المشير) كان في غاية الاضطراب. بل كان مضعضع الحواس وفي حالة من الغضب الاعمى الجائح التفت الى قائد القوة الجوية (صدقي) وطلب منه تطبيق خطة (فهد) وهي خطة الهجوم المقابل فاجاب صدقي: هذا غير ممكن لأننا لانملك قوةً جوية. فاصيب المشير بالانهيار التام وتهاوى على مقعده. لم اجده قط بمثل هذه الحالة[٢١] قبلاً.

في غضون ثلاث ساعات تم تدمير كل القوة الجوية المصرية وهي اضخم قوة جوية في كل الشرق الاوسط. فيها أحدث ما توصل اليه التصنيع العسكري السوفياتي من طائرات[٢٢]. وانطلقت القوات الإسرائيلية في عمق سيناء بثلاثة ارتال بقيادة الجنرالية: إسرائيل ثال. وابراهام يوفي وآريل شارون للاشتباك بالقوات المصرية[٢٣].

(٢١) المرجع السالف الص ١٠١-١٠٤. مقابلة مع اللواء نوفل في القاهرة ٢٢ كانون الاول ١٩٩٧.

(٢٢) بحسب احد المصادر تم تدمير ٣٠٠ طائرة حربية عاملة على الاقل من اصل ٤٣٠ طائرة. معظمها على الارض ولم يكن لضباطها وقت للتحليق بها كما ان ما تبقى اصيب بعطب بالغ اخرجه من المعركة فضلاً عن تدمير مدارج الطائرات وهناك احصاءات ادق من هذا تفيد بان ما تم تدميره يبلغ ٤١٩ طائرة وهو يعادل تسعين بالمائة من مجموع طائرات القوة الجوية المصرية. وصمتت إسرائيل تماماً حول ما حصل فلم تذع خبراً عما انجزته قوتها الجوية.

(٢٣) في الثاني من حزيران. وفي اجتماع لمجلس حرب في تل ابيب قال (دايان) للجنرال إيشعيا هو عافيش مدير الخطط والحركات. اني موافق على الخطط. لكني افرض عليك ان تقفوا على بعد عشرة كيلومترات منها. لا اريد ان اراكم على ضفة القنال «فعند (دايان) كان مهما ان يسمح لعبدالناصر باستخدام القناة بعد الحرب، ففي هذه الحالة بتقدير (دايان) لايمكن ان يغري الزعيم المصري بالمخاطرة بحرب ثانية سببه ضياع مورد مالي حيوي، ففي حالة احتلال الضفة اليمنى لن يكون بمقدور اية سفينة بالمرور من خلالها. القيد الثاني الذي وضعه وزير الدفاع. هو تحاشي احتلال (غزة) قال له إياك ان تدخل اي شيء معهم. سنكون في الخارج وسيبقون في الداخل منعزلين، دعهم ياكلون بعضهم بعضاً لاريد ان تكون هناك في الداخل (في الواقع ان دايان كان أقل كرماً كما يبدو. فهناك بضع مئات الآلاف من الفلسطينيين في قطاع غزة. كان دايان يرى انه وبعد ان تقوم قوات (عافيش) باحتلال كل سيناء فإن قطاع غزة سيقع بيد الإسرائيليين تلقائياً وبدون خسارة اطلاقة واحدة). وكما سكتت المصادر الإسرائيلية عما فعلته بالقوة الجوية المصرية كذلك حرصت البلاغات الحربية من الجانبين على ان لاتذكر شيئاً عن التقدم السريع الإسرائيلي والتقهقر المأساوي الذي تحاوله القوات المصرية في سيناء. من الجهة الإسرائيلية كان تاكتيكاً يرمي إلى اشاعة البلبلة والحيرة في السوريين والأردنيين وايقافهم عن اي عمل عسكري بقصد تخفيف الضغط عن المصريين. من جهة عبدالناصر كان خلالها يفكر في كيفية اعطاء المصريين والعرب تفسيراً =

في زخم وسكرة القادة الإسرائيليين بخمرة النصر السهل تجوهلت تعليمات (دايان) وشروطه وواصل (يوفي) و(تال) و(شارون) تقدمهم في العمق. وحاول دايان ايقافهم. لكنه استسلم للأمر الواقع عندما قال له (اسحق رابين) رئيس الاركان بان التوقف هو ضرب من المحال. وتقدمت القوات حتى بلغت القناة ثم اجاز دايان احتلال غزة[٢٤].

= لهذا التقهقر. وفي اليوم الثالث وقع على الحل. في ٦ من حزيران قال للعرب والمصريين ان بريطانيا والولايات المتحدة دخلتا الحرب الى جانب الإسرائيليين. وانهما تؤمنان الغطاء الجوي لإسرائيل وتساندانها عسكرياً. ولعله كان يتوقع من اذاعة هذه الفكرة تدويل الحرب. باحتمال تصديق الاتحاد السوفياتي ذلك وتدخله الى جانبه؟! إلا ان السوفييت كرهوا هذه منه وعدوها وسيلة رخيصة لجرهم الى الصراع غير ان المصريين والعرب كافةً صدقوا مناورة عبدالناصر. وبلغ ايمان بعضهم بقوله أنه اقدم على قطع علاقاته الدلبوماسية مع الدولتين وتبعته دول العراق والسودان وسورية واليمن. في حين لم تصدق لبنان لكنها كرهت الخروج عن الصف العربي وتظاهرت بتصديق التهمة فسحبت سفيرها من انكلترا فترةً. وبعد عدة أشهر حاول المسؤولون المصريون وفيهم عبدالناصر ومحمد حسنين هيكل الناطق باسمه تفسير ما اطلق عليه ثانيهم بـ(نكسة حزيران) حاول هذا بمقالات مسلسلة في الاهرام تجربة تعاليل رائعة. منها ما جاء في الحلقة الأولى لمسلسله قال: الهزيمة البرية حصلت لان الضباط الميدانيين كانوا في غاية البطء في فهم تاكتيك الهجوم الإسرائيلي فاصابهم الذعر وفقدوا السيطرة على ميدان المعركة. واما بخصوص تدمير القوة الجوية المصرية وهي على الأرض فان الاقمار الصناعية الامريكية والبريطانية ودوائر استخباراتهما ساعدت الطيارين الإسرائيليين على تحديد الاهداف بدقة في مطارات مصر و«ان الطيارين الإسرائيليين كانوا على معرفة مسبقة بان الطائرات الحربية المصرية تربض في حظائر ذات ثلاث جوانب ويعرفون اي واجهة مفتوحة من هذه الواجهات الثلاث، بما ساعدهم على توجيه ضربتهم الجوية. (الاهرام بتاريخ ٦ و١٣ و٢٠ من تشرين الاول ١٩٦٧) وعزا هيكل (الاهرام ٢٦ تشرين الاول) الافتقار الى التنسيق في الجيش الى وجود عدة مراكز قوى بسبب ظروف تأليف حركة الضباط الاحرار والحذر الذي يجب ان يلتزم به عبدالناصر للحيلولة دون محاولات انقلاب عسكرية تهدد الثورة.

النجاح الإسرائيلي كما اطبق عليه المؤرخون واجمع الخبراء العسكريون كان بفضل تخطيط متفوق. وجهاز استخبارات دقيق للغاية. واتصالات تشويش وخداع افلحت في تعطيل أو ايقاع البلبلة في اشارات الراديو العسكري المصري باعطاء أوامر مزيفة. ادت الى فقدان الاتصال بين الجيش المصري وقيادته العليا. ثم ان الطائرات الإسرائيلية لم تأت عبر الصحراء كما ارادت السلطة المصرية زرعها في الاذهان. لم تأت من الصحراء الغربية ولا من البحر كما ظن المصريون اولاً وانما جاءت من جهة بورسعيد عبر بحيرة (برنس) من خلال نقطة ضعيفة في الدفاع الجوي المصري.

(٢٤) المرجع السالف. برگمان. مقابلة مع اسحق رابين في ٢١ آذار ١٩٩٧.

مما يذكره كاتب هذه السطور شخصياً أني وبواحدة من الصدف العجيبة لقيت الصديق الصدوق ذا الذكرى العطرة المقدم الركن سليم الفخري في الموقف العام لمديرية شرطة بغداد وهو في طريقه للمثول متهماً بالتآمر امام المجلس العرفي العسكري (وهي قضية معروفة) وانا في طريقي من سجن الحلة الى المحاكمة في مجلس عسكري عرفي مماثل في الموصل. فسهرنا الليل بطوله لم تغمض لنا عين جنباً الى جنب نستدكر أيام الصبا والدراسة والشدائد التي خضناها في بحران النضال الوطني. إلا انه أسرع ونحن نتحدث عن شؤون مصر وعبدالناصر وما فعل في العراق السياسي. فاخرج من حقيبته كتاباً صغيراً بالانگليزية عنوانه «حرب الأيام الستة» وهو على ما اذكر بقلم راندولف تشرشل (حفيد ونستون تشرشل) الذي انتدبته صحيفة انگلزية مراسلاً رافق الزحف الإسرائيلي من بدايته الى نهايته. وألحّ =

وادرك عبدالناصر وعامر أن الموقف ميئوس منه. فمن دون غطاء جوي باتت آلياتهم ودباباتهم وجنودهم فريسةً سهلة للطيران الإسرائيلي. فعقدا مجلساً لقيادة الثورة. عامر والآخرون كانوا جلوساً وعبدالناصر منشغل بنداء تلفوني. سأل (عامر) كل مشارك في المؤتمر بالاسم هل هو الى جانب الانسحاب من سيناء؟ ثم انهى اجاباتهم الى عبدالناصر. وكان الإجماع على الانسحاب. فاصدر عبدالناصر الأمر بسحب القوات أو ما تبقى منها الى الضفة الغربية من القناة. فقام الفريق فوزي باعداد خطة تستغرق ثلاثة أيام أو اربعة لعملية انسحاب عامة. واخذها الى عامر الذي كان جالساً وراء مكتبه وواحدة من رجليه فوق كرسي آخر أمامه. القى (فوزي) بالتحية وقال: «لو سمحت ياسيدي. فهاهو اللواء التهامي يقدم خطة الانسحاب».

ووافق عامر على الخطة وامر فوزي بتطبيقها. لكن وفيما كان فوزي يهم بالقاء التعليمات للقادة حولها. كان عامر يحدث عبدالناصر وقد اخذت العاطفة مأخذها من كليهما. (عامر) يقول وهو يبكي «سأعيد كل اولادنا سالمين ياجمال».

يقول (شمس بدران) الذي كان حاضراً. «في العادة كان المشير يخاطب عبدالناصر بلقب الرئيس» وليس باسمه المجرد إلا ان الموقف خرج عن نطاقه الرسمي فكان يكرر وهو يبكي «جمال ساعيدهم كلهم احياء... جمال».

ثم اتصل تلفونياً بالفريق صالح محسن معطيا أمر سحب القطعات قبل الفجر[٢٥].

لم يكن انسحاباً بل كانت فوضى عارمة. كل وحدة دارت على اعقابها متوجهة نحو مصر وظهرها مشكوف ولم يطبق احد غطاء التراجع الذي اختطه الفريق فوزي وكان الإسرائيليون قد عقدوا العزم على ان لايدعوا فلول الجيش المصري تأخذ قطعة سلاح واحدة معها خارج سيناء. وراحوا يلاحقون تلك الفلول بلا هوادة ويهاجمون بضراوة وقوة.

يتذكر الجنرال (غاڤيش) المنظر المرعب: آلاف من الدبابات والمدرعات والعجلات الحربية والشاحنات تهاجم من الجو ومن البر وتدمر. كانت تحترق ويتصاعد اللهب والدخان منها

= علي الصديق بقراءة ما يمكنني منه قبل الفراق. فتهولت ما قرأت وواصلت حتى اكملته منتهزاً غفوة الصديق وقد كان ثم وقت مليّ بسبب تأخير حصل في التسفير. مما علق بذهني الى يومي هذا قال الكاتب انه شاهد قرابة ٤٥٠ جندياً مصرياً اسيراً يطلقهم الإسرائيليون في الصحراء حفاةً بعد تجريديهم من احذيتهم وأسر ضباطهم. فادركه العجب وسأل آمر الكتيبة الإسرائيلية التفسير فاجاب القائد «من اين لنا ان نطعمهم؟ وما حاجتنا بهم لكن احذيتهم جيدة وجديدة وقد نستفيد منها وهم يعرفون سبيلهم الى بلادهم».

فيحجب اشعة الشمس حتى عنّا. منظر يقشعر له البدن. فشل الجيش المصري في استنقاذ اي قدر من معداته وسحبها عبر القناة الا ان معظم الجنود تمكن من قطع المسافات الطويلة عبر الصحراء وفوق الرمال ثم عبور القناة.

وراقب الفريق (عبد الغني الجمس) التقهقر:

«كان منظراً مريعاً. بالعدد القليل من الطرق في سيناء... وآلاف السيارات والدبابات والمدافع والجنود فرض عليهم استخدام تلك الطرق القليلة لتغدو اهدافاً سهلة للقوة الجوية الإسرائيلية... كان هذا يعني خسائر هائلة... تقهقر الجنود من دون انتظام نحو الضفة الغربية، هو بحد ذاته مأساة!»

قتل ألفان من الجنود المصريين اثناء الاشتباكات. ومات عشرة آلاف اثناء الانسحاب، عطشاً وجوعاً، والقى عشرات الألوف من الجنود باسلحتهم الشخصية اثناء ذلك تخفيفاً لوزنهم فقام الإسرائيليون بجمعها[٢٦].

(٢٥) المرجع السالف (تتمة مقابلة شمس بدران ص ١٠٣).

(٢٦) الاحصاءات العامة تفيد الى مقتل عشرة آلاف جندي، ومقتل أو جرح ألف وخمسمائة ضابط، ومقتل أو جرح خمسة آلاف ضابط صف. ووقع في الأسر خمسمائة ضابط مصري اعتباراً من آمر لواء فما دون تمّ اطلاق سراحهم بعد أيام من مفاوضات الهدنة. على ان انتوني نثينك (المرجع السالف) يقدر الخسائر البشرية بعشرين ألفاً معظمهم لقى حتفه بسبب الجوع والعطش. ويقول:
«لاشك علم الإسرائيليون من وكلائهم بان المصريين يكونون اقل استعداداً للهجوم خلال عودة دوريات الفجر الجوية للتزود بالوقود وبهذه الوسيلة وقعت القوة الجوية فريسة سهلة». المرجع السالف، ص٣٣٤.

الفصل السابع والثلاثون

(تتمة) مكالمة سرية بين عبدالناصر والحسين تلتقطها أجهزة إسرائيل وتعيد إذاعتها مراراً للشعب العربي الذاهل . أكذوبة الطيران المصري الذي لم يبق له أثر . القوات الأردنية تخرج من القتال لفقدان الحماية الجوية . القوات العراقية تنسحب انسحاباً غير مشرّف بعد تلقيها ضربات أولى . السعودية تسحب قواتها من جنوب الأردن . الألوية السورية التسعة تنسحب من الجولان لحماية دمشق . خشية الحسين من إنقلاب داخلي . مؤتمر قمة الخرطوم لجامعة الدول العربية . فقدان المعنويات في الجيش السوري . خروجه سالماً بفضل مجهودات (يوثانت) في مجلس الأمن بإيقاف القتال . معلومات تنشر بالعربية لأول مرة حول استخدام الخط السري بين موسكو وواشنطن بناءً على طلب الوفد المصري من موسكو التدخل لوقف إطلاق النار . الاتفاق على وقف القتال في جميع الجبهات . إحتلال الضفة الغربية بما فيها قطاع أورشليم القدس العربي ، الجولان حتى القنيطرة ، غزة ، كل شبه جزيرة سيناء والجزء الغربي من ضفة القناة المصرية . طريق القاهرة أصبح مفتوحاً . تشرذم القطعات المصرية . تهديد سوفياتي بوجوب وقف القتال . الموقف الدرامي الهزلي المؤلم لأنقاض سياسة عبدالناصر في الداخل والخارج . إقالات واعتقالات للقيادات جماعية . توجيه التهم بالتقصير والجبن والخيانة . المرسحية المعدة سلفاً ، واستقالة عبدالناصر ، ثم قبوله العودة الى الحكم مكرهاً بعد إلحام الشعب العربي في مصر . ضحية الهزيمة : المشير عامر وصحبه

على اثر تحطيم القوة الجوية المصرية الكامل. وببداية التقهقر من سيناء التقطت اجهزة الانصات الإسرائيلية مكالمة تلفونية بين عبدالناصر والملك حسين في مقر قيادته. وسجلتها على شريط ودأبت اذاعة إسرائيل (القسم العربي) على بثها بصوت الزعيمين عدة مرات اثناء الحرب:

عبدالناصر: آلو. صباح الخير يا أخي.

الملك حسين: آلو. انا اسمعك.

عبدالناصر: نحن نحارب. قواتنا على جميع الجبهات. عندنا هنا بعض

المشاكل. الا انها لم تعد مهمة الآن. تغلبنا عليها. سنغلب والله في عوننا. هل تتفضل جلالتك بنشر بيان حول تدخل الانكليز والأمريكان واشتراكهم. سنؤكد على السوريين بنشر ذلك ايضاً.

الملك: طيب. طيب.

عبدالناصر: ألف شكر. وكن قوياً. كل قلوبنا معك. اليوم ارسلنا كل طائراتنا ضد إسرائيل. منذ صباح اليوم الباكر قوتنا الجوية تقصف القوة الجوية الإسرائيلية. حطمنا ثلاثة ارباعها فوق سماء القاهرة.

الملك الحسين: الف مبروك. الله يقويكم[1].

ما اظن عبدالناصر كان بحاجة الى هذه الكذبة من أجل إغراء الحسين في دخول الحلبة. فقوات العاهل الأردني كانت حينذاك في حومة الوغى. وقد اختار ذلك عندما التقى بعبدالناصر قبل خمسة أيام والتزم معه بميثاق الدفاع المشترك.

وقبلها – كما أسلفنا كانت العلاقات بين الاثنين على أسوء حال فعبدالناصر منشغل في البحث عن اقصر السبل لاغتيال العاهل الأردني وراديو الأردن يحمل حملةً نكراء على عبدالناصر لأنه لايقف موقفاً حدياً من إسرائيل على اثر قيام الطائرات الإسرائيلية بقصف قرية (سموعه) الأردنية وتدمير الطائرات السورية وترد اذاعة عبدالناصر بتسمية الملك في نيسان ١٩٦٧ «قزم المخابرات الامريكية من عمان»[2].

لكن وبعد أن انجز عبدالناصر حشد قواته وتلبية القوات العربية دعوة القتال[3]. قرر الملك حسين ان لاتفوته الفرصة في غنم، فكان في الثلاثين من أيار في القاهرة وعبدالناصر ينتظره في المطار فتقدم منه وعانقه وقد ظهرت عليه علائم الارتياح رغم ازعاجه الملك بتعليق قصد منه المزاح. الا انه كان غليظاً:

قال له ممازحاً: «ماذا سيحصل لو أننا القينا القبض عليك. وانكرنا اية معرفة بوصولك الى بلادنا ؟»

(١) ربما كان ثَمّ اختلاف ببضع كلمات عن الاصل. بسبب استعجالي في تدوينها الا انها نشرت في معظم الصحف المحلية والاجنبية ولاسيما اللبنانية. ولم ينكر صدورها اي طرف فالاصوات لاتقلد.

(٢) انظر: والتر لاكيور: الطريق الى الحرب. الأصول وما بعد النزاع العربي الإسرائيلي (١٩٦٧–١٩٦٨). لندن ١٩٩٣. ص١١٣ Walter Laqueur: Road to War: The Origin and Aftermath of Arab-Israeli Conflict 1967-68

(٣) قال عبدالرحمن عارف رئيس الجمهورية العراقية عند توديع القوات العراقية قبل حركتها الى الأردن «ستثأرون لاخوانكم الشهداء الذين سقطوا في ميدان الشرف في ١٩٤٨ وسنلتقي بعون الله مرة أخرى في حيفا ويافا...»

كان مزاحاً ثقيلاً جداً يصدر من رجل كعبدالناصر عرف بالكياسة وباخفاء ما يضمر تحت ستار المجاملة والرقة عند اللزوم. الا انه اظهر الآن فعلاً ما الذي كان يختفي تحت العناق والابتسام والقبلات من عداء مسموم بين هذين العاهلين.

في تلك المقابلة التي شارك فيها المشير عامر وسعد جمعة رئيس الوزراء الأردني، اقترح الحسين ان يتخذ نص المعاهدة السورية – المصرية الدفاعية (ميثاق الدفاع المشترك) أساساً. فيحذف اسم سورية فحسب ويوضع مكانه اسم المملكة الأردنية الهاشمية ويوقع الاتفاق، دون حاجة الى مفاوضات واخذ ورد. فأسرع عبدالناصر بالموافقة بكل سرور ووقع الاتفاق(٤).

على ان الإسرائيليين الذين كانوا يتابعون تلك المشاهد بدقة – بعثوا برسالة للملك حسين عن طريق الجنرال أود بل Gen. Odd Bill رئيس مراقبي الهدنة التابع للأمم المتحدة قالوا له فيها:

«هذه الحرب هي بيننا وبين المصريين وان لم تشارك فيها فلن يصيبك اي مكروه»

لكن الحسين وقد رأى رعاياه الفلسطينين في خط النار شعر عند وصول رسالة الإسرائيليين بأنه غير مخير. واجاب على الرسالة بجفاف – مفضلاً ان يكون الخاسر على ان ينعت بالخائن: « الأردن ليست خارج الاطار. الأردن دخلت الحرب. الأردن تشارك في العمليات الحربية».

كانت غلطة قتالة. ورد عليها الإسرائيليون بغاية العنف. حييم وايزمان، وهو رئيس العمليات، كان مجتمعاً بموشي دايان في المقر العام عندما ابلغا بتجاهل الملك الإنذار الإسرائيلي بعدم التدخل. تبادلا النظر احدهما الى الآخر وعقّب وايزمان «هذا ليس بالشيء الجميل جداً. لو فعلها فسوف نناله».

أما الملك حسين فيذكر قوله «قوتنا الجوية دمرت تماماً وهي على الأرض. تمكنا من إسقاط اربع طائرات إسرائيلية لكن، لما لم نكن نملك اكثر من قاعدتين جويتين قامت الطائرات الإسرائيلية بتدميرهما، فان طائراتنا ما عادت قادرة على التحليق ولهذا ارغمت قواتنا على التقهقر».

كان الملك يقف على ربوة مع هيئة اركانه وما شاهده أصابه بصدمة عنيفة:

«جنودي ينكصون على أعقابهم في مجموعات وزمرٍ صغيرة. وقد اخذ منهم

(٤) نصت المادة السابعة من الإتفاق على انه «في حالة وقوع حرب فان ضابطاً مصرياً برتبة آمر لواء فما فوق سيتولى قيادة القوات الأردنية». وقد تم التوقيع على الاتفاق في قصر القبة. وظهر عبدالناصر والملك حسين في القاعة الكبرى منه في صورة نشرها معظم صحف الأردن والقاهرة.

الإعياء مأخذه. كان بعضهم يمر بي ويقولون: نرجوك ياصاحب الجلالة دبر لنا غطاء جوياً وسنعود الى ساحة القتال فوراً. وبطبيعة الحال كان كل شيء قد انتهى.

وانا اذكر بأنني طلبت من اولادي هؤلاء ان يتوجهوا الى (الزرقا) – شرق عمان لنبدأ في اعادة تنظيم ما تبقى من القوات. كانت هناك ايضاً غارات جوية متواصلة... رأيت كل السنوات التي قضيتها دئباً منذ العام ١٩٥٣ قد قضي عليها وانا محاول بناء البلاد والجيش. كل الكرامة كل الآمال قضي عليها. تلك كانت نقطة التحول في حياتي جسدياً وروحياً وجميع النواحي الاخرى. لم أحسب لضربة صاعقة كهذه التي اصبت بها»(٥)

في ظرف أسبوع خسر الملك الأردني جيشه في ميدان الحرب وبضمنه قوته الجوية ودروعه. وفي السابع من حزيران ارغم على إخلاء القدس والتخلي عن الضفة الغربية ونابلس واريحا.

وفي صبيحة اليوم السادس من حزيران واجهت القطعات العراقية مصيراً مماثلاً، فبعد ان جربوا حظهم في الهجوم على (ناتانيا) اصيبوا بضربة قتالة. ودمرت الطائرات العراقية في H3 ولم تشارك في المعركة.

وسحبت المملكة العربية السعودية جنودها الخمسة والعشرين ألفاً من جنوب الأردن والعقبة لمساندة اللواء الشاذلي في احتلال ايلات، سحبتها في الوقت المناسب ولم يصب جندي واحد فيها بخدش.

ما أن تمت تصفية أمر الأردن ودخل موشي دايان القسم الشرقي من القدس متوجهاً الى حائط المبكى مع جمهرة من الضباط حتى اندفعت القوات الإسرائيلية في الأردن وقطعات من جبهة سيناء بعد سيطرتها التامة عليها الى الجبهة السورية.

حتى الخامس من حزيران لم يفعل الإسرائيليون في سورية إلا الاغارة على القواعد الجوية السورية وتدمير خمسين طائرة وهي على الأرض. والأمر العجيب الذي حير العالم كله ولفت انظار المراقبين السياسيين هو موقف سورية فقد كان عليها ان تخف الى ميدان القتال فور نشوبه تطبيقاً لاتفاقية الدفاع المشترك عندما انحدرت جحافل الجيش الإسرائيلي الى غور الأردن فلم تبد اية مقاومة يمكن وصفها بالجدية. وقيل بان الجيش السوري اساء الى درجة كبيرة استخدام مدفعيته بقي البعثيون اعلى الاصوات واقواها تحريضاً وإلحاحاً على القيام بعمل عسكري ضد إسرائيل قبل العمليات الحربية. الا انهم لم يعمدوا الى بذل اي جهد. فتح

(٥) حسين ابن طلال: المرجع السالف، ص٣١١.

جبهة اخرى من اجل تخفيف الضغط على الأردنيين كأن يحاولوا احتلال اجزاء من إسرائيل والظاهر انهم كانوا يخشون انقلاباً عسكرياً عليهم من الداخل اكثر من خوفهم من هجوم إسرائيلي. وهذا ما فسر وجود اربعة ألوية مشاة على الحدود الإسرائيلية في مرتفعات الجولان فقط في حين كانت هناك تسعة ألوية من الجيش العامل مرابطاً حول دمشق.

وانسحبت هذه الالوية الأربعة بسرعة عندما بدأ الهجوم على مرتفعات الجولان واختُرِقت جبهتهم[٦] كانوا يتحدثون كثيراً عن القتال الا انهم عجزوا عنه. لقد فقد الجيش السوري معنوياته وخصوصيات الضبط والربط فيه منذ ان تسلطت الاعتبارات العقائدية والسياسية وكانت العامل الأساسي لا الكفاءة ولا القدمية في ترفيعات قادته. كانوا يعتقدون انهم بمنجى من الإسرائيليين طالما هم أحجموا عن المشاركة في القتال، وان سكوتهم سيجنبهم آثارها المفجعة ويضحكون في سرهم بهجة وتشفياً لما اصاب غريميهما عبدالناصر والحسين من هوان وذلة. إلا ان ضحكهم هذا كان قصيراً جداً. ففي التاسع من حزيران. في السابعة من مساء اليوم الذي سبقه. بعد اربعة أيام من بداية الحرب. كان الانحدار تاماً والحرب منتهية على سائر الجبهات. سيناء، قطاع غزه، الضفة الغربية بأسرها، القدس الشرقية، هذه كلها اصبحت في حوزة إسرائيل. في ظرف ستة أيام استولى الإسرائيليون على مساحة من الارض تعادل اربعة اضعاف إسرائيل كلها.

الدولة العربية الوحيدة (خلاف لبنان) التي ستخرج من الحرب سالمة على ما يبدو هي سورية. حتى الامريكان انفسهم وجدوا الأمر من الغرابة بمكان[٧] وهكذا كان شعور (ليفي اشكول) عندما اجمع وزراؤه على الأخذ برأي (اسحق رابين) بوجوب احتلال مرتفعات الجولان. الا (موشي دايان) الذي كان معارضاً. وقد عرفه زملاؤه وكثير من الساسة بأنه مصاب بداء الخوف الروسي Russoqho-Bia كان على يقين بشكل ما أن الروس سيأتون إلى نجدة سورية لو تحركت إسرائيل ضدها وانهم قطعاً سيحاربون الى جانبها. إلا ان وزير العمل (ايگال آلون) وهو جنرال سابق وواحد من خصوم دايان كان يفكر خلاف ذلك. قال لهم:

السوريون كانوا السبب الأساس لهذه الحرب. لهذه الازمة الحالية وقد يكونون علة لمشاكل

(٦) وكالات الانباء. نيويورك تايمس في ٢٦ حزيران ١٩٦٧؛ كريستيان ساينس مونيتور: ١٦ تشرين الثاني ١٩٦٧.

(٧) عن مقابلة لـ(ماك جورج بندي) مستشار الأمن القومي للرئيس جونسون. فقد قال الرئيس الامريكي لابا ايبان وزير الخارجية الإسرائيلي الذي كان في امريكا (انظر ما سبق) «أليس من الغرابة بمكان ان البلد الذي كان اكثر اسهاماً في اشعال نار هذه الحرب من سائر البلاد الاخرى يخرج سليماً معافى؟ مقابلة مع ابا ايبان في هرزاليا إسرائيل في ٢٩ كانون الثاني ١٩٩٧ (المرجع السالف ص ١١٠).

أخرى في المستقبل. اما عن الروس فلا اعتقد انهم سيعلنونها حرباً على اسرائيل اذا قمنا باحتلال خمسة كيلومترات. اني لراغب في هذه المغامرة.

بقي (موشي دايان) مع هذا مصراً على رأيه طوال اربع وعشرين ساعة. فهذا (البطل القومي) كان له وزنه حتى داخل الوزارة ونجح في تحويل الحكومة عن عزمها. الا انه اسرع فغير رأيه وانضم الى الاكثرية عندما اعترض جهاز المخابرات الإسرائيلي في الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين من صباح التاسع من حزيران. برقية من عبدالناصر الى نورالدين الأتاسي رئيس الجمهورية السورية جاء فيها «أظن ان إسرائيل منشغلة الآن بحشد قواتها ضد سورية. الهدف هو القضاء على الجيش السوري. أرغب في ان اشير عليكم بالموافقة على انهاء الاعمال العدوانية وإعلام (يوثانت) السكرتير العام بذلك. من اجل ابقاء الجيش السوري سليماً. اننا خسرنا هذه المعركة ندعو من الله ان يكون معنا في المستقبل»[٨].

ما أن قرأ (دايان) البرقية حتى استنتج بان سورية لن تبدي مقاومة جدية. وعندها اتصل بالجنرال داود اليعازر قائد القوات الشمالية وسأله «أنت مستعد للهجوم؟» اجاب (اليعازر) بالايجاب فقال دايان «فاشرع وهاجم ثم اردف وكأنه يريد أن يقدم تفسيراً لتغييره رأيه «سأقول لك لماذا وافقت على العملية: اولاً لأن مصر وافقت على الهدنة، وثانياً لاني املك معلومات تؤكد لي بأن الجبهة السورية ستنهار» اجاب (اليعازر) تنهار او لاتنهار، فأنا لاأهتم. والمهم عندي هو ان نهاجم. اشكرك جزيل الشكر وفي امان الله»[٩].

بعدها وفي الثامنة صباحاً. اتصل موشي دايان برئيس حكومته وقال له «نحن الآن في مرتفعات الجولان». اجابه اشكول «أتمزح؟ قبل بضع ساعات أردنا ذلك فحلتَ دونه ماهذا؟ أهذه لعبة من ألعابك؟» اجاب دايان «كلا فالأمر حقيقي وقد غيرت رأيي».

فتحت أبواب جهنم على هضبة الجولان عندما انطلق الطيران الإسرائيلي حراً لاتعترضه سحابة واحدة «هاجمنا بكل ما لدينا. القينا بصواريخ. القينا بقنابر الناپالم.» دام القتال طوال ليلة الجمعة وفي صباح السبت بدت القوات الإسرائيلية وكأنها تسابق الريح نحو دمشق. بدت العاصمة واضحة امام طلائع القوات الزاحفة وهي على بعد يتراوح بين خمسة وثلاثين كيلومتراً واربعين.

كان هذا اكثر مما يستطيع الروس تحمّله.

(٨) صحيفة ايديعوت احرونوت ٣٠ أيار ١٩٩٧. من مقال بقلم شلومو نكديمون. (المرجع السالف. ص١١٠).
(٩) العميد آري براون كتابه «موشي دايان وحرب الأيام الستة» باللغة العبرية – تل ابيب ص٩. ترجم الى الانگليزية. المرجع السالف ص١١١.

في الكرملين نزل الطابق الأرضي ثلاثة هم رئيس الوزراء الكساي گوسيگن ووزير الخارجية گروميكو ورئيس المخابرات KGB يوري اندروبوڤ، وتوجها الى تيليفاكس كبير الحجم في زاوية – ذلك هو الخط الساخن! بعينه ووجها رسالة للرئيس جونسون[١٠].

ويذكر الجنرال ڤاسيلي ريشيتنكوف Vassily Reshetnikov قائد القوات الجوية الستراتيجية السوڤياتي:

«تلقيت أمراً بتهيئة لواء من الطيران الستراتيجي لغرض التحليق في سماء إسرائيل وقصف عدة أهداف عسكرية. وباشرنا بالاستعداد لذلك. درسنا الخرائط وتفحصنا نظام الدفاعات الإسرائيلية وكنا في غاية من الاستعجال. حمّلنا القنابل وصرنا ننتظر اشارة الانطلاق.»

وفي البيت الابيض قرئت الرسالة بإمعان. سأل ماكنمارا وزير الدفاع، زميله رئيس وكالة المخابرات CIA هلمز. هل نعد الاسطول السادس للابحار الى شرق البحر الابيض المتوسط؟

اجاب (هلمز) لو فعلت هذا فان الغواصات السوڤيتية التي تتابع حركات الاسطول، ستنقل النبأ الى موسكو فوراً لتقول بان القوات المهيأة توقفت عن عملية القيام بعمل دورات. وانها بدأت تتجه شرقاً.

كان جونسون غائباً. وعندما عاد نوه ماكنمارا ثانيةً بامكان ارسال الاسطول السادس الى المنطقة. فسأل جونسون: ما المسافة بين الاسطول والساحل السوري؟ اجاب وزير الدفاع: انها مائة ميل. فقال (جونسون): فاجعلوها خمسين ميلاً فصدع ماكنمارا بالأمر واصدره.

كان يعبق في الجو رائحة أزمة امريكية – سوڤيتية خطيرة. وبدا الجو متوتراً للغاية في

(١٠) النص كالآتي:
السبت. حزيران ١٠ – ١٩٦٧ ترجمة فورية. وصلت الرئيس في التاسعة وخمس دقائق. في البيت الأبيض.
عزيزي السيد الرئيس.
هنا حالة خطيرة جداً الآن. قد ترغمنا في حالة عدم توقف العمليات خلال الساعات القلائل الاخرى على اتخاذ قرار مستقل نحن على استعداد لعمل ما يلزم. ومع هذا فان هذه الاعمال قد تؤدي بنا الى نزاع تنجم عنه كارثة عظيمة. نقترح ان تطلبوا من إسرائيل الموافقة على وقف الاعمال العدوانية من غير شروط مسبقة خلال الساعات القلائل التالية. نقترح توجيه إنذار لإسرائيل: إن لم تتوقف الأعمال الحربية. فسوف تتخذ الاجراءات الضرورية وبضمنها الاجراءات العسكرية. نرجو اعطائي رأيكم (التوقيع: الكساي كوسيگن).
(المرجع السالف ص ١١٣. يعتمد النص على مقابلة للكاتب مع ڤكتور سوخدروڤ. التكنيكي المخصص لتشغيل الخط الساخن عند استخدام الخط ساعتذاك. تمت المقابلة في موسكو ١٩٩٧.

غرفة الرئيس وبعد مرور خمس وعشرين دقيقة من وصول رسالة الخط الساخن اجاب الرئيس جونسون[١١] عليها. في تلك الاثناء كانت ثم احداث ومفاجآت في غاية الطرافة تجري على مرتفعات الجولان. ففي العاشر من حزيران اعلن راديو دمشق في التاسعة والدقيقة الثلاثين بياناً للحكومة ادعت فيه ان الجيش الإسرائيلي احتل بلدة القنيطرة. وكان السوريون يهدفون من هذه الكذبة التي دفعهم اليها موقفهم اليائس الى حمل مجلس الأمن على تبني قرار بوقف اطلاق النار. في الواقع ان الإسرائيليين ماكانوا يفكرون باحتلال القنيطرة. وفي زمن اذاعة هذا النبأ لم يكن يُرى في القنيطرة نفسها أو على مسافة منها جنديٌ إسرائيلي واحد. لكن، وهذا موطن العجب. ما ان سمع الجنود السوريون المرابطون في القنيطرة ذلك حتى بدأوا يفرون زرافات ووحداناً متوهمين بان الجيش الإسرائيلي يحاول احكام تطويقها[١٢] ورغم ضغوط

(١١) النص كالآتي:
السبت ١٠ حزيران ١٩٦٧
صادق عليها الرئيس في الساعة ٩.٣٠
ارسلت عبر الخط السري
الى السيد كوسيگن رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوڤييتي:
من الرئيس جونسون.
عزيزي مستر كوسيگن
تسلمت رسالتك. واعلمك بان وزير خارجيتنا ارسل في ساعات الليل الأخيرة رسالة مستعجلة جداً الى إسرائيل قال فيها اننا نعتبر امراً في منتهى الاهمية ان تبرهن بعمل ارضي ان اوامرها في وقف اطلاق النار قد نفذت فعلاً. سفيرنا (باربور) في إسرائيل بعث لنا الآن برسالة (الوقت ٧.٤٥ بتوقيت واشنطن) في هذا اليوم يقول فيها ان إسرائيل ابلغته بأنهم يعتقدون بان قرار وقف اطلاق النار قد طبق في هذه اللحظة. التوقيع. لندن ب. جونسون
أمر كوسيگن وزير خارجيته بان يتحقق صحة النبأ بوساطة سفيرهم (اناتولي باكوڤسكي) في دمشق يقول هذا: «سألني گروميكو: ما الذي يحصل في دمشق وفيم نحن نتحدث شاهدت طائرتين إسرائيليتين تحلقان في سماء دمشق. فأنهيت الوصف لگروميكو وعندها املى كوسيگن الرسالة الجوابية التالية:
١٠ حزيران ١٩٦٧ – العاشرة صباحاً. ترجمة فورية. وصلت الرئيس الامريكي بعد خمس دقائق. وهذا نصها:
البيت الابيض. رئيس الولايات المتحدة:
عزيزي الرئيس جونسون
قرأت اجابتك على رسالتنا. وعليّ ان اخبرك بان معلوماتك حول وقف العمليات العسكرية في سورية من جانب الإسرائيليين ليست صحيحة. لدينا اتصالات مستمرة غير منقطعة مع دمشق. وإسرائيل تستخدم كل انواع الأسلحة من طيران ومدفعية ودبابات في مسرى هجومها على دمشق. من الواضح ان سفارتكم في سورية تستطيع ان تؤكد لكم ذلك – لو كان عندكم ممثل هناك. العمليات العسكرية تتصاعد. من الضروري جداً اجتناب المزيد من سفك الدماء. التأجيل غير ممكن. مع الاحترام (كوسيگن)
(١٢) يذكر مؤلف [حرب الأعوام الخمسين: المرجع الاسلف] خلاصة لمقابلة جنرال سوريّ لم يشأ أن يذكر اسمه، قال إنه كان في طريقه الى القنيطرة عندما قابل الجنود وهم يتركون البلدة جماعات وأفراداً في =

واشنطن والامم المتحدة لوقف القتال فقد أمر (موشي دايان) بعدم تكذيب البيان الحكومي السوري واستغلال الفرصة والتقدم الى الامام واحتلال القنيطرة وكان احتلالها سيزود الإسرائيليين بسيطرة أفضل على مرتفعات الجولان والوصول بالقتال إلى نصر مذهل على الجيش السوري.

كان (اشكول) في خط النار عندما بدأ وزير خارجيته في نيويورك، يصور له مقدار الضغوط وحراجة موقفه. الا ان رئيس الحكومة فضل ان لايسمع التلفون برهة محتجاً بسوء الاتصال الى ان اكمل الجيش مهمته. ففي الساعة الثانية والدقيقة الاربعين من العاشر لحزيران سقطت القنيطرة فعلاً بعد اعلان السوريين عن سقوطها! بخمس ساعات وبعدها تسلم مندوب إسرائيل للأمم المتحدة امر بلاده بقبول وقف اطلاق النار[١٣].

باتت إسرائيل في حوزتها مساحات عظيمة من البلاد الناطقة بالعربية. وكانت حكومتها تخشى ان يمارس المجتمع الدولي ضغوطاً عليها مثلما جرى في العام ١٩٥٦، بارغامها على ترك كل الأراضي التي احتلتها وبدا من المعقول والحالة هذه ان تأخذ حكومة إسرائيل زمام المبادرة وتتقدم بعرضٍ سياسي يقطع الطريق امام الضغط والفرض الدوليين.

في ١٣ من حزيران ١٩٦٧ بعد اقرار الهدنة بثلاثة أيام تقدمت إسرائيل بعرضها «الأرض مقابل السلم» وهو يفترض ان تتخلى إسرائيل عن كل الأراضي العربية التي احتلتها في الحرب الأخيرة وبدون استثناء، شريطة ان تعترف الدول العربية بإسرائيل وتوقع اتفاقات سلم معها[١٤].

ارسلت الحكومة الإسرائيلية هذا العرض الى كل من وزير خارجيتها ومندوبها الدائم لدى

= فوضى شاملة، وقال إنهم تركوا أسلحتهم وراءهم، بعضهم كان يعدو وكأن الجن تطارده قبل أن يصل أي جندي إسرائيلي أو يصبح ضمن مجال الرؤية (ص١١٣).

(١٣) اتجه المندوب الإسرائيلي فوراً الى (هاڤر ثابور) رئيس مجلس الأمن قائلاً ان لديه تصريحاً عاجلاً. فاعترضه المندوب السوڤياتي (نيكولاي فيدرينكو) بقوله ايها السيد الرئيس لايمكنك ان تسمح بالكلام لمندوب لانه اخلال بالنظام انني لاأقر ذلك. لكن الرئيس سمح للمندوب الإسرائيلي. وفي البيت الابيض كان جونسون يتابع وقائع الجلسة وعندما رآى المندوب الإسرائيلي (جدعون رافائيل) يدلي بتصريحه اسرع يجيب كوسيگن «لدينا تاكيدات لايرقى اليها شبه من إسرائيل، انه لم يعد هناك تقدم لاحتلال دمشق» (وفي السادسة والدقيقة الثلاثين ساد الهدوء الجبهة) ص١١٥.

(١٤) بعد خمسة وثلاثين عاماً. يأبى الامير عبدالله ولي العهد السعودي الا ان يذكرنا بهذا الاقتراح عندما عرض نظيره في مؤتمر القمة العربية الأخير المنعقد ببيروت في ٢٠٠٣ ووافقت عليه الدول العربية المشاركة كافةً. بحماسة ولهفة وهو بالضبط يعرض عودة إسرائيل الى حدود ١٩٦٧ لقاء سلم دائم عادل. فيجيء الآن دور الإسرائيليين لرفض اقتراحهم هذا بكل برود واستخفاف!!

الامم المتحدة برقياً. ولم يخفيا سرورهما به، ووصفه (ايبان) بأنه «اعظم مبادرة درامية اقدمت عليها حكومة إسرائيلية». وقدما العرض (لماكنمارا) الذي قدم المشروع بشكل اغضب الإسرائيليين لأنه تضمن عبارة (سلم دائم عادل) وهي اضافة امريكية. وقدمت على اساس كونها صيغة امريكية – سوڤياتية. وضيع المصريون فرصتهم عندما رفضوها[١٥] ولم يلبث جناح في الحكومة الإسرائيلية كان يعارض صفقة الارض مقابل السلام أن استفاد من الرفض المصري فسحب الاقتراح.

★★★

كان الجيش المصري، بالشكل الذي قدمته الدعاية المصرية للشعوب الناطقة بالعربية. جيشاً لايغلب. كان فخر امة العرب ورمز عزتها وجبروتها وكانت جموعها تشاهد في التلفزة استعراضاته المهيبة بصواريخه الضخمة تجرها شاحنات عملاقة. جيش يمثل القومية العربية خير تمثيل. هذا الجيش العظيم الذي تعب ثوار يوليو في تدريبه وتثقيفه وتجهيزه وتسليحه طوال خمسة عشر عاماً. تم تدميره وسحقه تماماً خلال ثلاثة أيام بقوات دولة صغيرة تقاتل على ثلاث جبهات؟

قبل ان تذهب الهزيمة باولاد هذه الامة شتى المذاهب. ذهب ذلك النصر الخاطف بعقل عبدالناصر وعجز تماماً ولمدة عن هضم حقيقة قيام إسرائيل وحدها بهذا. فراح به الخيال بأن الأمريكان والبريطانيين ساعدوا إسرائيل في احراز هذا النصر وقوي الخيال ليغدو عنده حقيقة. وراحت الاذاعات تتحدث بذلك وتنسج القصص وتأتي بتفاصيل مذهلة مقنعة (لولا افتقارها الى برهان) وحرض هو عليها وشجعها حينا من الزمن. الا ان ذلك لم يمد من عمرها طويلاً وانكشف الزيف. وبدت الحقائق عارية واضحة وكان يحتاج الى بديل، إلى كبش فداء فانثنى ليلقي الذنب كله على عبدالحكيم عامر وزمرته. وينقل لنا مؤرخه (هيكل) عنه قوله «انه كان السبب في هزيمة القوات المصرية التامة في محاولته سحبها عبر القناة بيوم واحد[١٦] وحاول

(١٥) يذكر (صلاح بسيوني) الذي كان عضواً في اللجنة المصرية التي نظرت في هذا العرض، اقتراح (گولدبرغ – دوبرينين): كان من رأينا بان هذا الاقتراح هو افضل ما يمكن الحصول عليه وعلينا القبول به. فقدمنا مطالعتنا لوزير الخارجية الذي اخذها تواً مع اقتراح گولدبرغ – دوبرينين وذهب مع عدد من موظفيه للاجتماع بعبدالناصر. وبعد فترة عاد ووجدنا أن اقتراحنا قد رفض. وان علينا ان نوصي برفضه. لم يكن عبدالناصر في ذلك الحين في حالة عقلية تؤهله للقيام بمساومة معقولة (الكلام لصلاح بسيوني – مقابلة خاصة في القاهرة – المرجع السالف (ص١١٦).

(١٦) نشنگ (المرجع السالف: ناصر) ص١٧١: «كان عبدالناصر في ١٩٦٧ يعيش في جو ١٩٥٦ ورفض ان يصدق بأن تهديداته وتحركاته العسكرية واغلاقه مضيق تيران – مصعدة تهديداً خطيراً بهجوم =

مؤرخو مصر المعاصرون لها ولحق بهم الآخرون في البلاد الناطقة بالعربية ان يجدوا لها نعتاً في اللغة يخفف من وقعها فاطبقوا على اختيار كلمة (النكسة)[١٧] لها، وهو وصف لطيف لاتشم منه رائحة اليأس، بوسعه اخفاء بعض الحقيقة التي لم تنكشف تماماً إلاّ هذه الساعة.

وأخفيت ابعادها عمداً لتندفع الملايين التي تغص بها شوارع القاهرة تهتف باسم عبدالناصر وتنادي بوجوب بقائه وسحب استقالته. وجاء مع النكسة مجموعة عجيبة من الاحداث في مصر. فبعد ان اقنع الرئيس المصري نفسه بوجوب سحب استقالته راح يبحث يمنة ويسرة عن الناصحين في الجيش كعامر وبدران اللذين نصحاه بالاستقالة. ونصحه بعض زعماء الاتحاد العربي الاشتراكي بالبقاء. وفي التاسع من حزيران سُمع من التلفزة يقول انه لم يكن يريد الحرب. إلا ان الاقوال التي نثرها من غير حساب قبيل الحرب كانت تكذب هذا الادعاء. كانت كلها تعبر عن التحدي والاستفزاز، حتى تأكيده عدة مرات بان «مصر لن تطلق الطلقة الأولى».

ترى كم كان يشعر بوخز من ضمير عندما ابلغ الملك حسين بحديثه التلفوني بان قوته الجوية اتمت تدمير ثلاثة ارباع القوة الجوية الإسرائيلية فوق سماء القاهرة؟

اعتذر عنها فيما بعد بأنه قالها استناداً الى تقرير هيئة الاركان التي ايدت له ذلك. ولم يكن هناك من سيناقشه في هذا الادعاء فمعظم جنرالات الاركان هؤلاء كانوا متهمين وطوى الملك حسين حشاشته كمداً وحنقاً وكظم ما اعتمل في نفسه من آلام عندما انكشف له فيما بعد ان عبدالناصر خصه دون غيره بالكذبة في حين انبأ الجزائريين والسوريين بالحقيقة المريعة الكاملة.

يذكر انتوني نثنگ:

«بعد حرب الأيام الستة، القول بان سياسة عبد ناصر العربية في مصر – باتت أنقاضاً متداعية هو قول فيه مجاملة وتخفيف. والحقيقة أنها اصبحت غباراً وقبض ريح تتلاعب به هباباً. فبعد ثلاثة عشر عاماً من محاولة المحافظة على التوازن في علاقاته مع الشرق والغرب. ادار ظهره للغرب في العام ١٩٦٥ نهائياً. وعده خصماً لايمكن التقرب اليه أو الوثوق به. وانحدر بصورة جامحة لا

= إسرائيلي. وفي احاديثي معه خلال تلك الأيام الحرجة الأخيرة وجدته مقتنعاً بقدرته على اعتلاء الموجة والتغلب على العاصفة. ومما شجعه على الاحساس بالامان والقوة الى حد ما تأكيد واشنطن المتكرر بان إسرائيل لن تكون البادئة. فلم يصغ لتحذير زميليه عبداللطيف البغدادي وحسن ابراهيم...»

(١٧) تستغل اللغة العربية لغنائها بالتعابير الفتانه الرائعة لاختيار ما يكون منها اخف وقعاً على الاذن في حالتي الضيق والانفراج كانت لا اكثر من نكسة. ونسي الملايين تصريحاً للمشير عامر قبل يومين (٣ حزيران ١٩٦٧) لجريدة لوموند «ان مصر تمتلك.....»

كابح لها الى الشرق. ليجد نفسه لايخرج من خطأ إلا ليقع في آخر. ليجد نفسه واقعاً في الفخ الذي حاول اجتنابه. ليجد نفسه يعاني هوان الهزيمة ومذلتها بكل ابعادها وقساوتها على يد إسرائيل وسط لوم وسخرية وتشفي اعدائه الكثيرين. وفي مقدمتهم القوميون العرب في العراق وفي سورية والأردن بل في الجزائر ولبنان وعند الفلسطينيين انفسهم. وفي النهاية، وجد هذا الزعيم الذي رفعه القوميون العرب الى مرتبة النبوة والتقديس، وانزله العالم منزلة احترام وحسب له ألف حساب، وجد نفسه يقع تحت رحمة السوڤييت المتعالين المتكبرين المصلحيين الذين تروعهم الحرب البادرة يقف امامهم عارياً ذليلاً بلا سلاح ولا طيران متعلقاً بيأس بدولتين هما فرنسا التي لم يكن يشعر نحوها باي احترام الى وقت قريب جداً بل بعداء وعدم ثقة واحتقار. وثانيتهما الأردن تلك الدولة الصغيرة التي حاول بكل طاقته إسقاط نظامها واغتيال ملكها.»[١٨]

في ٩ حزيران مثلت على مرسح القاهرة دراما هزلية اعدت باتقان لا مزيد عليه هدفها طمس معالم الهزيمة، قبل ان يشعر الشعب المصري بابعادها ووخزاتها وقبل ان تبلغه انباء الهزيمة مفصلاً وقبل ان تبادر الجموع تبحث باكية عن قتلاها، وعمّن عاد ولم يعد من الصحراء. كان الشعب المصري يدري فحسب بان الجيش المصري انسحب من سيناء تحت ضغط قوات الحلف الامريكي – البريطاني – الإسرائيلي وبأقل ما يمكن من الخسائر. والاعلام المصري منشغل ليل نهار لتغطية معالم الفاجعة. ثم واكمالاً للدراما تمت تهيئة الجمهور لمشهد رائع مثير مشهد القائد والزعيم يقبل متنازلاً عند ارادة الشعب البقاء رئيساً للدولة.

في هذا اليوم ظهر عبدالناصر ليلقي كل الذنب على نفسه فيما حصل واعلن انه يتحمل التبعة وحده. وانه تخلى عن منصب رئاسة الدولة لنائبه (زكريا محي الدين).

عندها: وبتدابير اتخذت سابقاً اشرف على اعدادها الاتحاد العربي الاشتراكي بدقة وانتظام، تدفقت الى الشوارع حشود هائلة من القاهريين – من البيوت والمقاهي ومحلات العمل بعضهم سائر على قدميه وبعضهم يمتطي حيوانه أو يخرج رأسه من سيارته وعربة نقله. الجميع يتجه الى حيث يسكن عبدالناصر. جموع هائلة هائجة صائحة صاخبة تسير ينسق وانسجام وانتظام دون اعتراض أو مُدافَعَة ولا تزاحم من قبل رجال الأمن كما هي العادة في كل تظاهرة لاتجيزها الحكومة. كل هذه الحشود كانت مجمعة على طلب واحد. مناشدة الرئيس بالبقاء وسحب

(١٨) انتوني نثنگ. المرجع السالف، ناصر: الفصل التاسع عشر.

الاستقالة.

المثير للدهشة هنا أن عبدالناصر لم يخطر نائبه (زكريا محي الدين) قبل إلقاء الخطاب باعتزامه تسليم شؤون الرئاسة اليه. وان (محي الدين) فوجيء كغيره من الناس بهذا الاعلان ولم يسمعه إلا من الراديو. وكان من الاذكياء البعيدي النظر الذين لايصلون الى قراراتهم فوراً بل بعد فترة تأمل وميزان بعيداً عن الحماسة وفورة دم. وكان فوق ذلك واحداً من الذين نصحوه بأن يتفادى الحرب وأن يتوقف عن قرع طبولها. ولم يكن لديه اية رغبة في المنصب وخصوصاً بعد الهزيمة فركب سيارته وانطلق الى منزل عبدالناصر ليبلغه بحزمٍ وصراحة رفضه التام هذه الخلافة.

وقال له انه لايستطيع التخلي هكذا عن منصبه وعن مسؤولياته والجيش المصري مطوق في سيناء وطال الكلام في العرض والطلب والإباء والرفض – وكان زكرياء يدرك بان الأمر تمثيلية من اولها الى آخرها. فالقى بقنبلته حين قال له: «ليس من صلاحيتك اختيار خليفتك بموجب الدستور. ولمجلس الأمة وحده الحق في ذلك».

وتقاطر رجال الحكم الى منزل عبدالناصر وتمت بالأخير محاولة اقناعه بالعدول عن الاستقالة واقترح (زكريا محي الدين) اذاعة ذلك بالراديو ببيان رسمي يتضمن رفضه هو قبول الرئاسة. إلا ان عبدالناصر فضل اعداد البيان بشريط مسجل ارسل الى دار الاذاعة بسيارة خاصة من دون اعلام نائبه بأنه امر بعدم اذاعة بيان نائبه حول اعتذاره عن تولي المنصب. ولم يكتشف الخدعة الا بعد وقت واحتج بشدة وصرامة، ولم يفد احتجاجه فقد قيل له على سبيل الاعتذار ان عبدالناصر قرر عدم اذاعة اي بيان الا بعد اجتماع مجلس الامة[١٩].

(١٩) ادرك (محي الدين) من غير كثير من التفكير – وبحزن بالغ انه كان ضحية مخطط دقيق أسود يهدف الى إثارة الجماهير ودفعها الى الالتفاف حول عبدالناصر زمن النكسة. وشعر بان اساءة بالغة قد لحقت به عمداً وبشكل مقصود (عند حرمانه من حق اعلان رفضه الرئاسة بصورة علنية وهي لا اقل من مؤامرة على سمعته يقصد بها ان يتخلف عند العموم انطباع كاذب بان سكوته يدل على الرضى وانه كان يطمح حقاً الى رئاسة الجمهورية لكن الجمهور رفضه ويستفاد مما كتبه المصريون وغيرهم بعد وفاة عبدالناصر انه اهتبل فرصته هنا للنيل من وزيره زكريا محي الدين بعد سلسلة طويلة من الخلاف بينهما حول السياسة الواجبة ابتداء من حرب اليمن وانتهاء بحرب الأيام الستة. على انه بقي سنة واحدة أخرى نائباً لرئيس الجمهورية ثم قدم استقالته في ١٩٦٨ وخرج واعتزل ولم يلتق بعبدالناصر – كانت قطيعة نهائية. ولو بقي لما أمن على نفسه فقد كان زميله حساساً جداً للشائعات يصدق دائماً ما تنشره الصحف. ففي أواخر سنة الاستقالة هذه، نوهت صحف لبنانية بان (زكريا محي الدين) يوشك على العودة الى منصبه. فنهش الشك قلب عبدالناصر. وقوي شكه عندما ظهر كتاب (مايلز كوپلاند) الموسوم (لعبة الامم) وكان صاحبه رئيس شعبة CIA في مصر. وفيه زعم انه يكشف عن صلات سرية للضباط الاحرار بوكالته. شك عبدالناصر في ان مصدر هذه الروايات الخيالية هو زكريا محي الدين وانه يتآمر عليه فاعتقله وأبقاه =

واعدت في مجلس الأمة لهذا الغرض تمثيلية أخرى. فقد قرر المجلس بالاجماع:

«ان يبقى عبدالناصر رئيساً للجمهورية حتى ازالة كل آثار العدوان الإسرائيلي . وتحرر الأراضي المصرية من احتلال العدو...»

ولم يرد ذكر لفلسطين في القرار. وخول عبدالناصر سلطات غير محدودة للقيام بعملية «اعادة البناء السياسي والعسكري».

ثم انه بعث مع (أنور السادات) برسالة للمشير عامر يخيره فيها بين مغادرة البلاد فوراً وبين تقديمه للمحاكمة. وقال فيها انه في حالة اختياره النفي فسوف يزوده بما يؤمن له عيشة مرفهة. فرفض المشير العرض بازدراء وقال إنه سيبقى ويواجه اي محكمة.

كان عبدالناصر قد جرد (عامراً) من كل مناصبه وعزل الفريق الاول صدقي محمود قائد سلاح الجو مع تسعة آخرين من قادة الفرق. وقدمهم جميعاً للمحاكمة بتهمة الجبن والتخاذل وعدم القيام بالواجب العسكري. وبعدها بثلاثة اشهر القي القبض على (شمس بدران) وحوالي خمسين ضابطاً آخر بتهمة التآمر للاطاحة به. ثم الحق بهم (صلاح نصر) صفيه وموضع ثقته واصدر عليه حكماً بالسجن المؤبد ورفض عامر العفو الذي أصدره عبدالناصر عنه. ولم يكن لشخص في مثل مركزه، والتهمة التي يواجهها من سبيل للخلاص من عقوبة الموت امام الادلة الوافرة لو مثل امام القضاء العسكري. فأقدم على الانتحار وبعده الغي منصب النائب الأول لرئيس الجمهورية وبادر عبدالناصر الى تعيين نفسه قائداً اعلى للقوات المسلحة خشية انتقاض عسكري عليه – كما حاول المشير عامر ذلك قبل اعتقاله.

بدا عبدالناصر وكأنه يعيش في ظل كابوس مرعب. لم يعد يتحدث عن الوحدة العربية ولا عن القومية العربية بالشكل الصارخ وبالمستقبل العريض الذي ينتظر الامة العربية تحت الزعامة المصرية. وانقلب فجأة يتحدث عن المصريين والشعب المصري وحضارة مصر القديمة.

وكان يعلم ان بوسع الإسرائيليين العبور الى الضفة الغربية من القناة دون ان يعترضهم عائق. وان بوسعهم الوصول الى القاهرة في يوم واحدٍ.

فاستدعى رفيقه (كمال الدين حسين) من ثوار يوليو. وطلب منه تشكيل قوات شعبية على غرار تلك القوات التي أقلقت راحة البريطانيين أيام العدوان الثلاثي في ١٩٥٦. فاشترط عليه هذا الذي كان يرتبط روحياً بالاخوان المسلمين – اشترط عليه اطلاق سراح السجناء منهم

= رهن الإعتقال ثمانين يوماً تعرض خلاله للاستجواب والمعاملة المهينة القاسية (نعت عبدالناصر ما جاء في كتاب لعبة الامم بالخيال المحض).

فاستشاط غضباً وطرده[٢٠].

ثم بدأت المزايدات المخجلة تترى إثر عودة القطعات العراقية والجزائرية من حرب لم تدخلها. وبدأت إذاعتا الجزائر وبغداد تشهّران بعبدالناصر إثر قبوله بالقرار المرقم ٢٤٢ الصادر من مجلس الأمن[٢١] مشيعاً بالتحديات والتعليقات اللاذعة وقبل البعث الحكم بالهدنة في مبدء الأمر – قالوا في دمشق انهم يقبلون بها مرغمين – وسكتوا برهةً ثم صعدوا من الهجوم الذي كانوا يوجهونه قبل الحرب الى مصر والأردن بسبب خيانتهما قضية العرب الرئيسة فلسطين عن طريق الرضا بعقد هدنة وراح يطالب بمواصلة القتال مهما كان الثمن مصراً على ان يوصم بالخيانة اي عربي يفكر في عقد اي صلح مع إسرائيل.

وخفت صيحة الحرب وتلاشى طلب استيناف القتال من قوميي لبنان والدول الناطقة بالعربية البعيدة عن خط المواجهة. أو تلك التي لاتريد لها امثال المصائر التي حلت بسورية والأردن ومصر[٢٢].

(٢٠) بعد ان ترك زكريا محي الدين لم يكن قد بقي من قيادة الضباط الأحرار غير انور السادات الذي استطاع بشكل مدهش وعبقرية يحسد عليها اخفاء ما يشعر به فيؤمن على كل كلمة ينطق بها عبدالناصر الذي كان بدوره يستخف به ويعتبره إمّعة لايستغنى عنه. وبقي معه كذلك حسين الشافعي (البهيمة) كما كان يعرف به على الصعيد الشعبي.

(٢١) نص القرار على وجوب انسحاب إسرائيل الى حدود دائمة آمنة. وشجب حيازة الأرض بالقوة. وحث على ايجاد حل عادل للاجئين الفلسطينيين. وعلى انهاء حالة الحرب بين الدول العربية وإسرائيل. وضمان حرية الملاحة في الممرات المائية. الخ...

(٢٢) خرج مؤتمر القمة المنعقد في ١٩٦٧ بهذا القرار: «اتفق رؤساء الدول العربية على توحيد جهودهم السياسية على المستوى الدولي الدبلوماسي لازالة آثار العدوان وضمان انسحاب القوات الإسرائيلية المعتدية من الأراضي العربية المحتلة منذ عدوان الخامس من حزيران» (اعتبر الشقيري هذا القرار استسلاماً عربياً كاملاً واصر على اضافة هذه العبارة الجوفاء وبتشجيع واصرار من العراقيين والجزائرين) «... على ان يتم ذلك ضمن اطار المباديء الاساسية التي تلتزم بها الدول العربية وهي: لا صلح مع إسرائيل ولا اعتراف بها ولا تفاوض معها. والتمسك بحق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه». كان مؤتمر القمة هذا الذي إنعقد في الخرطوم مؤتمراً عجيباً بين المؤتمرات التي عقدتها جامعة الدول العربية. إنعقد في الثلاثين من شهر آب وبدا العرب فيه لايفكر احد منهم بالقومية العربية والاخوة والوحدة. السوريون اعتبروا المؤتمر وسيلة لتبرير الاستسلام لإسرائيل فقاطعوه بالاخير ولم يحضروا والسعوديون لايريدون الجلوس مع المصريين بسبب اليمن ومع ان مصر جلست مع حليفيها الجزائر والعراق الا انها بدت اقل ثورية في نظر الدول الثورية العربية واكثر رجعية بخطبها ود السعودية. وشارك العراق والجزائر أحمد الشقيري في توجيه الاتهام الى عبدالناصر لتخليه عن القتال وقبوله بوقف اطلاق النار وأبت الجزائر والعراق مبدئياً القبول بزعامة عبدالناصر. وبالأخير قبل التنازل عن هذه الزعامة اسمياً وفعلياً – (نظرياً وعملياً: كما وصفتها صحيفة لبنانية) لقاء ١٣٥ مليون پاون ستراليني تدفع منه الكويت والسعودية مبلغ ١٠٥ مليون پاون مناصفة لكل من الأردن ومصر تعويضاً عن خسائر الحرب شريطة ان تقوم مصر بسحب كل قواتها من اليمن وتقدمت ليبيا بمبلغ الثلاثين مليوناً الأخرى وتمّ =

لم يبق عبدالناصر مصراً لمدة طويلة على الاكذوبة التي اطلقتها اجهزة اعلامه حول المساعدة الامريكية لاسرائيل اثناء الحرب. مع «قرصة طويلة ودقيقة في الرقبة!» وببينات تعاونت على تلفيقها اجهزة الاعلام القاهرية من ألفها الى يائها وصدقتها الشعوب العربية كافة، فقد اضطر بعد فترة قصيرة من الزمن الى نفيها بعد ان وجد كم يلحق به الإصرار عليها من ضرر سياسي. وانتهز الفرصة لذلك في مقابلة صحفية له مع مجلة امريكية[٢٣] ساحباً اتهامه امريكا بهذا الشكل من العلانية على انه بقي مصراً خلال الاشهر القليلة التالية على ان الولايات المتحدة كانت تحمي إسرائيل اثناء الحرب.

كانت الخزينة خاوية. والقناة مغلقة والتهديد بغزو آخر عبر القناة غير مستبعد. اتجه الى الروس مستنجداً لا مشترياً فخفوا الى المساعدة دون تردد وارسلوا معها خبراء ومستشارين ومدربين فاذا بالجيش المصري المعاد تنظيمه يغدو في يد السوفييت مثلما كان في يد البريطانيين أيام العهد الملكي. وتقاطرت طواقم من الضباط والمدربين والخبراء العسكريين مع المعدات وتواجدت في كل وحدة وكتيبة ولواء وبدت كلمتهم مطاعة لا مرد لها. لايجرأ ضابط مصري وطني، أو قومي عربي على تحدي اوامرهم أو توجيه اي نقد اليهم بعكس ما كانوا يعاملون مدربيهم البريطانيين ويجترؤن عليهم في احيان كثيرة.

وبدت القومية العربية في مؤتمر القمة في الخرطوم آخر ما يفكر فيه المجتمعون:

«وولّى جانب كبير مما كان يتسم به عبدالناصر من اعتداد بالنفس كما تلاشت فيه اية مزاعم له بوصفه قائد القومية العربية ورائد النهضة العربية وكما اسر الي وهو يبتسم ابتسامة واهنة. انه عاجز عن الدفاع عن بلاده لانه لايملك جيشاً ولا

= تقسيمها على الشكل الآتي ٩٥ مليوناً لمصر و٤٠ مليوناً للأردن. وفي هذه المرحلة استهدف الشقيري الى حملة انتقاد شنعاء من المقاومة الفلسطينية لتضييعه الوقت في استعراض نفسه مع الزعماء الشيوعيين في موسكو وپكين فكانت مقدمة لاستقالته واعتزاله.

(٢٣) مجلة Look (٩ آذار ١٩٦٨) من تصريحه لها «ان التهمة كانت تستند الى شكوك ومعلومات خاطئة» (وكان قد اوعز لمحمود رياض مندوب مصر الدائم في الامم المتحدة بالاعتذار عن الاتهام والاعتراف بأنها محض اختلاق رسمياً). الا ان الاعتذار لم يلق الصدى المنشود لا عند جونسون ولا نيكسن. وقد قيل ان عبدالناصر ما اقدم على هذا الا كرد فعل لرفض السوفييت تزويده باسلحة هجومية. فرأى ان يحاول اعادة روابطه مع الغرب. وفي حينه وكما اشرنا كان السوفييت قد كرهوا منه هذه الكذبة واعتبروها مناورة لجرهم الى الحرب. (كان عبدالناصر قد قال في خطاب له بتاريخ ٦ تشرين الثاني): «الامريكان يقاتلون وراء القوات الإسرائيلية ويزودونها بالسلاح والطائرات التي تستخدم ضدنا. ولا وسيلة لدينا الا ان نشق طريقنا الى ما نريد فوق بحر من الدماء وتحت سماء من النيران». اما مجمل الكذبة كما نشرت في الصحف فهو ان الاسطول السادس الامريكي اعان الطائرات السرائيلية على الاستهداء إلى مواقعها باجهزة التشويش عندها وان بعض الطائرات الامريكية قامت بمهمة الدليل.

قوة جوية فكيف يتطلع الى زعامة بلاد اخرى؟ وجدته سعيداً مبتهجاً بمساعي الملك حسين في بذله المجهودات لاستعادة الارض المفقودة في نيويورك. فقد قال له: انس خسائري واذهب وقَبِّل يَدَ ليندن جونسون واطلب منه ان يعيد اليك الضفة الغربية والقدس الشرقية. »

وحاول هو من جانبه التقرب دبلوماسياً من الولايات المتحدة ثانية من اجل استعادة سيناء. وبقيت مصر مستهدفة لغارات مدمرة عنيفة على أراضيها ومدنها. وبقيت صفارات الإنذار تدوي ليل نهار في أجوائها. ودمرت مدينة بورسعيد تدميراً كلياً نتيجة لآثار ما سماه الاعلام المصري بـ(حرب الاستنزاف) وهو قيام مصر باطلاق القذائف من المدفعية والصواريخ عبر القنال. وتبادل النيران بكل الخسائر المادية والبشرية التي تمنى بها مصر وحدها في هذه المبارزة إذ لم يكن للإسرائيليين ما يخسرونه على الضفة الشرقية[٢٤].

أقر عبدالناصر بمسؤوليته الخاصة في هذه الكارثة العربية الا ان مسؤوليته بقيت في نظري وحتى يومنا هذا غير محددة وقد منع من تحديدها عباد الشخصية الذين حفّوا بالزعيم المصري واحاطوه بسياجٍ من الحصانة والدفاع عنه وشجعهم على هذا هو نفسه. ففي ٢٣ من شباط ١٩٦٨ وبعد مضي تسعة اشهر على الكارثة. نسي اقراره بها عند عرض استقالته. ملقياً اللوم على الطبقة العسكرية (نصاً دون تقويم لغته):

«ان مراكز القوى القديمة تتمثل في طبقة من العسكريين السياسيين. بعضهم ادى دوره. لكن الثورة تجاوزت مصالحهم وتجاوزت استعدادهم للتطور. وكانوا يريدون السلطة. وقد وجدت فيهم بعض الانحرافات. لكن ذلك كان موضوع لابد من علاجه بأسلوب ياخذ في اعتباره كثير من الملابسات والأنظمة. وكانت هذه الطبقة العسكرية السياسية قد وصلت حيث اعتبرت نفسها وريث شرعي للثورة. وبمعنى ادق وريث للحكم أو بمعنى اكثر تحديداً ان الثورة بالنسبة لهم أصبحت هي الحكم. والحكم بالنسبة لهم اصبح مظاهر ومغانم وبعد النكسة هذه الطبقة ادركت انها تواجه حياة أو موت. فاصدرت قرار بتغيير كل قيادات القوات المسلحة. ان هذه الطبقة وجدت انها تستحق كل شيء، فاستغلت كل مقدس حتى الصداقة بين الاخوة وبكل شيء كنا نعرفه. وبلغ الأمر بالتفكير بالاستيلاء على القوات

(٢٤) بدت مصر مضغة على كل لسان عندما اقدمت إسرائيل على احتلال جزيرة شدوان في كانون الثاني ١٩٧٠. القريبة من الساحل المصري في البحر الأحمر وكانت مصر قد نصبت فيها محطة انصات. فبعد ان قتلت ٨٠ جندياً قامت بتفكيك ونقل كل قطعة من احدث محطة رادار تملكها مصر.

المسلحة. وكان تفكيرهم الكلي بالسلطة ومراكزهم وكانت بالنسبة لي معركة جانبية مرهقة ومقيتة. فتحركت لوضع الأمور في نصابها وكان لا بد لي من اعادة جهاز المخابرات الى وظيفته الطبيعية للعمل ضد اعداء الوطن وليس مجرد السيطرة داخل الوطن. »[٢٥]

ولم يصارح الشعب المصري ولا الامة العربية بمسوولياته هو في خلق هذه «الطبقة العسكرية» ولا كم كان هو بعيداً عنها، ولا من اغرقها بتلك الامتيازات.

تطوع الكثيرون لانتشال سمعة عبدالناصر (رغم أنفه) وإن كان «محمد حسنين هيكل» أول من يتبادر الى ذهن القاريء فهناك عشرات من الكتاب العرب كانوا اكثر غيرةً على صورة الزعيم المصري، وربما اكثر حماسة من ربيبه هيكل[٢٦].

والمصري، هو إمام الفكاهة والنكتة في الشرق الاوسط. وهو تراث تاريخي حصيلة تراكم قرون إثر قرون من القمع والاضطهاد لا سبيل للتفريج عنها إلاّ بالتنكيت والفكاهة على انفسهم وعلى حكامهم سواء بسواء وقد آضت النكتة سلاحهم الوحيد وسبيلهم للتنفيس عما يعتمل في انفسهم وكثيراً ماكان احتمال تسربها وانتشارها يردع الحكام الطغاة عن الإقدام على كثير من الاساءات بحق هذا الشعب. كان عبدالناصر يدرك صولة هذا السلاح واثره، ويحسب له ألف حساب حتى انه انشأ مكتباً خاصاً في جهاز سكرتاريته واجبه الاوحد

(٢٥) عشرون عاماً من حربنا مع إسرائيل (١٩٤٨–١٩٦٧) بقلم العقيد الركن (صلاح الدين عبدالقادر) مطبعة الشعب – بغداد ١٩٧٠ الص ٢٥٦–٢٥٧.

(٢٦) دونك نموذجاً من عشرات من الكتب اختارت لنفسها عين اللهجة: من كتاب «العدوان الإسرائيلي: حزيران ١٩٦٧» من تأليف المهندس العراقي (صلاح سعدالله) اختار هذه الفقرة (ص٧٣): «انتهت المعركة الثانية من الحرب الفلسطينية التي دامت ستة أيام بانسحاب الجيوش العربية من صحراء سيناء وقطاع غزة وغرب الأردن (الضفة الغربية) وهضاب الجولان واحتلال القوات الإسرائيلية تلك المناطق. ولكي لاتخدع الدعاية الصهيونية احداً فان عدد المحاربين في الجيش الإسرائيلي بعد تعبئته كان يزيد على مجموع المحاربين العرب المشاركين في المعركة. كما ان الجيش الإسرائيلي لم يحارب الجيوش العربية دفعةً واحدة، بل حارب الجيش المصري على الجبهة الشمالية. كما كان يجمع قوته عند الهجوم على اية جبهة لتصبح القوة الصهيونية اكبر من القوة المدافعة ولم تنجح القوات الصهيونية إلا نتيجة هجومها المفاجيء الغادر وتفوقها الجوي [مطبعة المعارف – بغداد ١٩٧٠]. وكتب القومي العراقي المعروف محمد صديق شنشل في ٢٩ من ايلول ١٩٦٧ في جريدة (الانوار) البيروتية حول النكسة محاولاً تجنيب الزعيم المصري اللوم «إن النظام الإصلاحي بعد الثورة كان يستند على الجيش والضباط يعرفون ذلك جيداً. وقد شعروا بانهم حماة النظام لذلك طلبوا من المشير عامر الإنعام عليهم بمختلف الانعامات ففعل. وراح الضباط ينشغلون بالتمتع بما حصلوا عليه. وشاع الفساد في الجيش وكنتيجة لذلك. لم يهتم الضباط اهتماماً كافياً بالتدريب والشؤون العسكرية».

تسجيل آخر النكات (القفشات) التي يتداولها الشارع. نقول: بعد ان عادت فلول الجيش المنكهة من الجبهة. وسرح ألوف الجرحى من المستشفيات وادرك الشعب هول الكارثة، بدأت النكات والفكاهات المرة المبتناة على حكايات الجنود العائدين تنصب انصباباً على رؤوس القادة والضباط والجيش عموماً. كانت ساخرة لاذعة اقضت مضاجع عبدالناصر واعوانه. وضاق به الأمر على ما يبدو بحيث خصص للموضوع حيزاً كبيراً في اول خطاب له في مجلس الأمة بعد الهزيمة. راح يتوسل بالشعب المصري ليترفق بالجيش ويمسك عن تأليف النكات ضده:

«إحنا من غير مانعرف، بنسمع الاذاعات ويرددها ونقول مفيش فايده... الشعب المصري يسمع اي حاجة وينكت عليها. تعرفوا موجة النكت اللي طلعت في الأيام اللي فاتت. أنا عارف شعبنا. شعبنا طبيعته كده. وانا لم آخذ الموضوع بطريقة جدية وعارف الشعب المصري كويس ماهو أنا منه وتربيت فيه؟ كل واحد يقابل الواحد ويقول له: سمعت آخر نكتة؟ ويحكي. وممكن يستخدمونا بأن تقال بعض النكت اللي تؤثر على كرامتنا، كرامتنا كشعب له طلائع قاتلت وماتت. برضو اقول إن موجة النكت اللي طلعت، وجرحت كرامة ناس هم ولادنا واخواننا. وانا نفسي كنت بسمع النكت برضو. واحد يقول لي سمعت آخر نكتة زي ما بتقولوا لبعض. وانا ماخذتش من هذه النكت ابداً اي تعبير. لكن انا عارف الشعب المصري. ده شعب عمره سبعة آلاف سنة وقهر الغزاة كلهم وكسرهم، خلص عليهم من (قمبيز) الى نابوليون وقعد ينكت عليهم. شعب له فلسفة وطنية. وشعب صلب قوي. لكنه هو شعب يحب النكتة. وأنا باعتبر ان دي ميزة. لأنه يفلسف فيها الأمور. فاذا وجد اعداؤنا واستغلوا فينا هذه الطبيعة عشان يحققوا اهدافهم. لازم نكون ناصحين كل فرد يكون ناصح.»

واكرر. بقيت مسؤوليته عنها غير محددة لكثرة المعاذير التي تقدم بها القوميون وعشاق الناصرية انقاذاً لسمعته وللابقاء على صورة البطل القومي غير مخروقة أو مثلومة. وهو في نظري مسؤول عن ست اخطاء، بل حماقات سياسية كبرى أو حسابات غبية آلت الى تلك الحرب. وانك لتجدها استنتاجاً في كثير من الكتب التي خصصت للموضوع:

الاول: انه سمح لنفسه ان يكون ألعوبة بيد السوفييت في المرحلة الاولى، بخلقه تحت تشجيعهم ازمة خطيرة دون وجود نية تصعيد فيها الى القتال. ومن دون تصوره ان السوفييت لايريدون ان تبلغ الازمة حد الحرب.

الثانية: انه صعد الازمة الى موقف خطير بإغلاقه خليج العقبة من دون ان يعرف بالضبط مدى المساعدة السوفيتية في حالة أيلولة هذا العمل الى الصدام المسلح.

الثالث: اعتقاده بأن الولايات المتحدة ستقدم في الوقت المناسب على كبح جماح إسرائيل وردها عن اللجوء الى الضربة الوقائية باقناعها بقبول الحصار البحري والسكوت عنه أو تقديم تنازلات بمفاوضات مهينة. دون ادراك منه بان الموقف السياسي في العام ١٩٦٧ يختلف تماماً عن الوضع السياسي في العام ١٩٥٦ عندما اصدر ايزنهاور أمره الحازم بوقف العدوان وعودة إسرائيل الى حدودها الأولى.

الرابع: ظنه بان إسرائيل لن تحارب من غير المساهمة العسكرية الامريكية حتماً. وان الاسهام الامريكي عندئذ سيؤدي تلقائياً الى التدخل السوفييتي الى جانبه فيجر الأمر الى حروب دولية – وهو ما كان يريده ويتمناه طبعاً. فأساء على هذا الأساس تقديراته لقوة إسرائيل اللوجستية. واساء في الوقت عينه الى تقدير مقدار تصميم الولايات المتحدة على انه لايكون لها دور ميداني مهما صغر.

الخامس: إما انه تجاهل الضعف النسبي لقواته المسلحة (وهو أمر غير محتمل نظراً لتصريحاته العديدة السابقة بانه ليس في حاجة الى المزيد من الأهبة والاستعداد وانه قد اكمل عدته) واما انه سمح لنفسه باتخاذ موقف في نهاية التحدي والاستفزاز (وهو الأمر الاسوء) والدعوة الى القتال رغم معرفته بضعف جيشه وجيوش حلفائه.

السادس: اعتماده على قيادات ثورية طائشة اكثر من اعتماده على قيادات عسكرية مهنية. وهو الذي اسند المراكز القيادية للذين اداروا القتال في الجبهة فكشفوا عن قصور واهمال في كل شيء. في هذا المجال يمكن ان نعتبر ادولف هتلر ارجح عقلاً من عبدالناصر بكثير عندما ألقى الجيوش الالمانية في مبدء غزاوته بايدي ضباط محترفين الى ما قبل اشهر قليلة من سقوطه.

الصواريخ الكاذبة التي انفق عليها الملايين وتصيد لاجلها الخبراء الألمان الذين كانت محاكم مجرمي الحرب في اوروبا تطاردهم لم ينطلق منها صاروخ واحد. وآلاف الملايين من الدولارات التي صرفت على شراء أحدث آلات الحرب مع الطائرات النفاثة دمرت دون ان يتاح لها فرصة المشاركة في المعركة. وآلاف من الجنود يهيمون على اوجههم في الصحراء حفاة جوعى عطشى فلايبلغ الضفة غير النزر منهم(٢٧).

(٢٧) في حينه. اخذ بعض الجرائد الغربية والإسرائيلية على سبيل التندر والتهكم يقارن آلاف الجنود =

فضلاً عن قيام إسرائيل ولاول مرة باحتلال أراض عربية خالصة فقد اضيف الى قائمة اللاجئين الفلسطينيين للعام ١٩٤٨ قرابة مائتي ألف اسم جديد. تركوا الضفة الغربية الى الأردن. ولاول مرة منذ الحروب الصليبية أرغم آلاف من السوريين والمصريين على النزوح عن الوطن والرضا بحالة اللجوء لوقوع أراضيهم وممتلكاتهم بأيدي الإسرائيليين[٢٨].

تزعم (هيكل) مدير جريدة الأهرام صديق عبدالناصر حملة الدفاع[٢٩] عن سمعة سيده بالهجوم على قادة الجيش. وقلب ظهر المجن لصديقه الآخر (عامر) الذي اتهم بتدبير مؤامرة لازاحة عبدالناصر. وهي المؤامرة التي عرفت باسم «مؤامرة المشير»[٣٠] وقد ألمعنا اليها.

في أواخر شهر آب ١٩٦٧ اذاع راديو القاهرة وكتبت صحفها بأن المشير عبدالحكيم عامر قام بمحاولة انقلاب تم اجهاضها. وانه تم طرد ثمانمائة من ضباط الجيش طرداً غير مشرف بتهم الخيانة والجبن والتخريب والتعاون مع إسرائيل (كذا). والقصد من المؤامرة إطاحة عبدالناصر وسببها تأخره عن الاقرار بمسؤوليته في جر البلاد الى الحرب ومحاولة القاء كل المسؤولية على عاتق من اختارهم ليكونوا فداءً لاخطائه.

في التاسع من حزيران كان المشير قد استقال من سائر مناصبه وفي الجيش حل محله الفريق

= المصريين الهائمين على اوجههم في الصحراء بخروج اليهود من مصر قبل خمسة وثلاثين قرناً بقيادة موسى النبي.

(٢٨) قدر عدد المصريين الذين تركوا المدن القريبة من مناطق القناة في حرب السويس الى القاهرة وغيرها من المدن بسبب ما عرف بحرب الاستنزاف بثلاثمائة ألف مصري.

(٢٩) يعزون متانة العلاقة بين الاثنين – والله اعلم – ان هيكلاً كان جاسوساً لعبدالناصر يزوده بالمعلومات الصغيرة التي اعتاد عبدالناصر مفاجأة أعوانه بها لترويعهم وإيهامهم بأنه يعرف دخائلهم وكل كبيرة وصغيرة من تصرفاتهم. واثبت المتتبعون بدء تلك العلاقة في مؤتمر باندونغ فقد لاحظ الصحفيون الذين غطوا وقائع المؤتمر ان الاثنين ينفردان كثيراً، فقالوا لعبدالناصر متظلمين ما معنى تخصيصك هيكلاً بالمعلومات فرد عبدالناصر: انه هو الذي يخصني بالمعلومات. وبقي عبدالناصر الى آخر يوم من حياته يرهف اذنيه الى ما ينقله له هذا من احاديث وحكايات ومعلومات ويتلقى (هيكل) بالمقابل المكافأة. فيكون اول من يطلع على الناس بما ستقدم عليه الحكومة.

(٣٠) عبدالحكيم عامر أقرب الضباط الآخرين الى عبدالناصر رفيقه منذ العام ١٩٣٨ وهو الوحيد بين الضباط الانقلابيين الذي رشح لرتبة المشير (فيلدمارشال) من رتبة رائد بعد ٢٣ يوليو. وبينهما مصاهرة. فهو والد زوجة أخ غير شقيق لعبدالناصر. يروى ان (الشيخ علي عامر) والد المشير ورئيس قرية (استطال) من محافظة المنيا توفي في ١٩٦٠ والمشير في سورية يتعذر عليه حضور التشييع لانشغاله في اشتباكات (التوافيق) على الحدود الإسرائيلية مع سورية فناب عنه عبدالناصر ولما اعترض (علي علي عامر) شقيق المشير قائلاً ان قطع ٢٠٠ كيلومتر لحضور جنازة هو كثير على رئيس الجمهورية اجابه «ان والد عبدالحكيم هو والدي». كانت الزيارة الوحيدة لعبدالناصر لأية قرية من قرى مصر وتعد بالآلاف بين ١٩٥٢–١٩٦٧.

محمد فوزي. وقد علم انه وشمس بدران اصرا على فتح تحقيق رسمي وان تنشر محاضره ونتائجه على الجمهور. وان يتناول هذا التحقيق كل المقررات والبيانات والاوامر والاجراءات التي سبقت الحرب وادت اليها. ثم نشب بينهما وبين (صلاح نصر) رئيس المخابرات العسكرية الذي كان مسؤولاً عن الاعتقاد بصحة التقارير المضللة من خلال قنوات دائرة المخابرات العسكرية السوفيتية KGB في حين انهما ماكانا يثقان بها. ومهما يكن من امر فقد اطيح به هو الآخر في السابع من ايلول وتم طرد قادة القوات المسلحة الثلاثة البرية والبحرية والجوية.

ولايعلم كيف جرى ذلك. فقد اعلن عن فشل المؤامرة في أواخر آب. والقي القبض على خمسين ضابطاً واربعة من اعضاء مجلس الأمة ووضع المشير تحت الاقامة الجبرية في منزله. ونشر الادعاء العام في ٢٢ كانون الثاني ١٩٦٨ اتهاماً له اثناء محاكمة اثني عشر متهماً اذيعت وقائعها من التلفزة وترأس المحكمة (حسين الشافعي) البهيمة! وذكر الادعاء العام ان موعد التنفيذ كان ليلة ٢٧/٢٦ من آب الا أنها اكتشفت قبل يومين. وعرضت النيابة العامة المشير عامر متآمراً حقيقياً بل رئيساً للمؤامرة، وقال النائب العام ان الڤيلا التي يسكنها كانت وكراً لاجتماع المتآمرين وقد حولت الى ثكنة ومستودع سلاح. وان حراسها كانوا يطلقون النار على رجال الأمن الذين يهمون بالاقتراب منها. وان المتآمرين اقاموا لهم مقراً محصناً بالقرب من الاهرام وتهيأوا لالقاء القبض على (زكريا محي الدين) و(علي صبري) واحتلال الثكنات العسكرية الأربع. وعين من رؤوس المؤامرة كلاً من شمس بدران وزير الدفاع السابق وعباس رضوان وزير الداخلية السابق. وجلال هويدي قائد قوات الصاعقة وصلاح نصر رئيس المخابرات العسكرية.

في ١٤ ايلول، قبل المحاكمة بيوم واحدٍ قصد ضابطان برتبة لواء (عامراً) لاستجوابه. فقيل لهما أنه تناول سماً فنقل اثر ذلك الى المستشفى وغسلت معدته. وذكروا انه كان يخفي مقداراً آخر منه تحت قطعة پلاستر ألصقها ببدنه فتناولها في غفلة من مراقبيه ولم تنفع معه محاولة. وفي الرسالة التي كتبها لعبدالناصر نفى تهمة التآمر وقال إن زيارات الضباط له لم تكن لها علاقة بالسياسة ولو اراد انتزاع السلطة لفعلها قبل استقالته. وقال «لايكفي ان يقف عبدالناصر ليعلن تحمله الكامل للمسؤولية عن الهزيمة بل وجب عليه ان يشرح للشعب العربي والمصري كيفية اتخاذ القرارات التي ادت الى تدمير جيشنا وانه على استعداد للبرهنة على براءته من كل خطأ أو تقصير في اية محكمة عسكرية. وانه طلب ذلك لكن طلبه رفض وارسل اليه بدل ذلك ضابطان للتحقيق معه سراً بقصد ابقائه ساكتاً حول الوقائع التي جرّت

الى الحرب».

وبحسب هذه الرسالة التي نشرت فيما بعد لم يبد انه كان يفكر في الانتحار مطلقاً. اذ انه ادعى في الرسالة بانه تلقى تهديدات باسكاته الى الأبد لو جرؤ على الكلام. وانهى رسالته بالقاء اللوم على عبدالناصر لاهماله مصر اهمالاً تاماً وكان هذا سبب فشلنا[٣١].

في ٢٠ من شباط ١٩٦٨ اصدرت محكمة الثورة حكماً بالاشغال الشاقة على الفريق اركان حرب محمد صدقي محمد قائد القوة الجوية. وبالسجن لمدة عشر سنوات على اللواء اركان حرب اسماعيل لبيب رئيس اركان السلاح الجوي[٣٢] وصدرت احكام اخرى على ضباط آخرين وتضاعفت النقمة على ضباط الجيش الى الحد الذي كان كثير منهم يخشى ارتداء بزته العسكرية في الاماكن العامة.

اصابت الهزيمة قضية العروبة والوحدة العربية بضربة قتالة على ما بدا فيما بعد لاسيما مستقبل الوحدة. ولو اقتصر الأمر على مجرد عملية احباط لمشروع ذي جذور راسخة، مبني على حساب دقيق لهان الامر فالفكرة الصحيحة والهدف السليم لايموتان بضربة مهما كانت شديدة إلا ان فكرة القومية استقطبت بالاخير حول شخصٍ واحد وحول نجاحاته ومكانته. وفي سورية لم يكن هناك اي أمل في ان ينهض حزب البعث بمفاهيمه وسيطرة الجنون العسكري عليه بهذه المهمة بدلاً عن زعيمها غير المنازع فيه منذ اضطلاعه بهمة العرب الكبرى. هذه الضربة افقدت القومية العربية صوابها وتركتها في اغماءة وتغيرت نظرة العالم العربي الى عبدالناصر وتزعزع مركزه عند النظريين الذين بدأ الشك يتسرب اليهم في صلاح نظامه.

(٣١) هذه مقتطفات من الرسالة التي نشرتها مجلة (تايم) في ١٥ كانون الاول ١٩٦٧ وهي تقع بالاصل في أربع عشرة صحيفة من القطع المتوسط. تقول المجلة الامريكية انها حصلت عليها عن طريق وكيل مخابرات دولة عربية في القاهرة بعد انتحار (عامر) مباشرةً. وقد فحصها خبراء وتمت مضاهاتها بخطوط عامر وفحصت مختبرياً فاعلن عن اصالتها وصحتها من دون اي شك فيها. ويظهر انها كتبت باكثر من نسخة أو لعلها النسخة الوحيدة التي لم تصل عبدالناصر اصلاً. (هناك شك كبير حول انتحاره حتى قبل نشر الوثيقة. فمنها قد يستدل الى انه كان سيرغم على ذلك).

(٣٢) تم احباط محاولتي اغتيال لعبدالناصر بين شهري أيار وحزيران ١٩٦٨. أولاها دبرها ثمانية ضباط وقاضٍ مدني عالي المقام. ألقي القبض على الجميع باستثناء القاضي الذي هرب الى ليبيا. وكان مقرراً لتنفيذها يوم ٢ من أيار عند قيام عبدالناصر بالادلاء بصوته في استفتاء عام بضواحي الاسكندرية. لم يذكر الاعلام المصري عنها شيئاً والثانية التي دبرها خمسة وثلاثون ضابط شرطة ومدنياً تم القاء القبض عليهم جميعاً. كانت خطة المؤتمرين هؤلاء خطف عبدالناصر من منزله في المعمورة بضواحي الاسكندرية الشرقية حيث يقضي عطلته. ثم القضاء عليه رمياً بالرصاص بعد محاكمة سريعة. ثم إسقاط نظامه والاستيلاء على الحكم. (ظهرت تقارير عن هاتين المحاولتين في جريدة نيويورك تايمس في العددين المؤرخين في ٢٠ من أيار و٣ حزيران ١٩٦٨. ولم تنقل عنها الصحف العربية شيئاً).

وراحوا الى حد ما يعلنون وقد زايلهم الوجل خيبة ظنهم. عندما تكشفت عوامل الفساد في نظامه والعجز والحماقات واساليب القمع الوحشية وانقشع الضباب الذي كان يلف اسطورة الزعيم العربي ذكائه وحنكته ودهائه وحكمته التي لاتخطي ومع هذا كله فقد بقيت جهات كثيرة – اخذتها العزة بالاثم تتشبث بحزام نجاة الناصرية وترفعه بمثابة رمز للثورة العربية. الاّ ان الاعجاب المتعصب وتلك الثقة التي تقرب من التأليه اصبحت من ذكريات الماضي. واوقد المثقفون لاسيما اولئك الذين كمّت الناصرية افواههم أو اودعتهم لفترات غياهب السجون.

اقول اوقدوا النار تحت نظامه لاسيما اولئك الذين اغرقتهم لجة العروبة فعادوا ليكتبوا عن مصرية مصر بجرأة، واضطر عبدالناصر الى التنويه القوي بأمجاد مصر الفرعونية واختفت بالتدريج نغمات العروبة وبدت كلمة القومية العربية في قاموس النكات والملح المصرية محور كثير من الفكاهات والنوادر ونما العداء لها ولمروّجيها في الاوساط الشعبية المصرية ودفعت كتابات المؤلفين المصريين الجريئة الى تظاهرات والحاح في طلب التغيير في نظام الحكم واجتريء على شخصية عبدالناصر وانتقد ولم يعد ذلك الرجل الذي لايخطأ بوصفه ستراتيجياً عسكرياً وبطلاً قومياً حين ما لم يعد بوسعه الهجوم على الحكام الذين يعدهم رجعيين ومحافظين وتصويرهم بالخدم والعملاء للامبريالية لأنه الآن بحاجة الى صداقتهم وصدقاتهم.

في يوم ٢٤ من شباط ١٩٦٨. وهو يوم مشهود في تاريخ مصر لانه يعين مناسبة مرور ربع قرن على قيام بريطانيا بفرض ارادتها على (فاروق) انطلقت مظاهرة عنيفة جداً ضد عبدالناصر. بدأت من مصنع حربي في حلوان جنوب القاهرة. فتصدى لها رجال الأمن والپوليس بالسلاح فسقط عدد كبير من القتلى بين المتظاهرين وحمل مئات الجرحى الى المستشفيات.

وانجرت هذه التظاهرة الى تظاهرتين طلابيتين في الاسكندرية والقاهرة معاً. رفع آلاف المتظاهرين خلالها شعارات تطالب بعودة الديمقراطية والتعددية الحزبية وبحكومة من المدنيين فقط. وبحرية الصحافة وحل ما دعي بمجلس الأمة والاتحاد العربي الاشتراكي وتطورت التظاهرات الى اشتباكات عنيفة معادية للحكم وسمعت هتافات بسقوط عبدالناصر. وهتافات أخرى معادية للسوڤييت وانهال المتظاهرون بالحجارة على دوائر جريدة الاهرام وحوصرت وضرب نطاق الساخطين حولها احتجاجاً على الرقابة الصحفية المشددة وعلى رئيس المؤسسة ورئيس تحرير الجريدة (هيكل).

تم قمع هذه التظاهرات بقسوةٍ وصرامة. وحاولت الحكومة في جرائدها المؤممة تصويرها بأنها

احتجاج على الاحكام الخفيفة التي صدرت بحق الضباط[٣٣]. الا انها كانت اكثر بكثير من هذا. كانت تترجم عن الحقد الدفين على الطغمة العسكرية التي حكمت البلاد منذ العام ١٩٥٢.

في ٢٥ من شباط اغلقت الجامعات الى اجل غير مسمى وقامت الحكومة على سبيل الترضية باطلاق سراح مئات المعتقلين. ثم اصدرت الأمر باعادة محاكمة القادة العسكريين.

وفي تشرين الثاني ١٩٦٨ كانت ثم تظاهرات طلابية ذات مطالب طلابية بحتة سرعان ما انقلبت الى انتفاضة سياسية كبيرة، تخللتها حوادث عنفٍ وشغب في كل من القاهرة والاسكندرية واشعلت النار في حافلات الترامواي وباصات نقل الركاب الحكومية واحرقت ودمرت واجهات الدكاكين والمخازن في الشوارع. وهوجمت مخافر الشرطة. وفي ٢٤ من تشرين الثاني اعلنت الحكومة عن اغلاق ست جامعات واربع عشرة مدرسة ثانوية، في المدينتين. وفي الاسكندرية حصلت اشتباكات بين الطلاب ورجال الأمن سقط جراءها ستة عشر قتيلاً من الطلاب. وقدر عدد الجرحى باربعمائة واستخدمت القوة المفرطة في قمع التظاهرات وقيل ان عدد القتلى الاجمالي بلغ العشرين. ولم يظهر عبدالناصر شيئاً من الصبر والاناة التي بدت منه مع متظاهري شباط. وحاول التعتيم الإعلامي ان يلوم «تلك الايدي الخفية، والقوى الخارجية». ووصف في جلسة استثنائية عقدها الاتحاد الاشتراكي تم خلالها دراسة تقارير بالخسائر في الارواح والممتلكات اتخذ قرار فيه نعتت التظاهرات بالاحداث المخجلة والمسيئة في الاسكندرية والمنصورة. وانها كانت «مؤامرة صهيونية – كولونيالية – رجعية». صفات كانت مؤلمة جداً وظالمة بصورة خاصة لان الذين نظموا المظاهرات هم من ذلك الجيل الذي ولد وترعرع أو بلغ اشده في عهد الثورة. وانتشرت نكتة لاذعة في كل قرية وكل حي: «خسرنا الحرب. الا اننا مازلنا نملك عبدالناصر ودولته البوليسية».

وزال تقريباً الايمان بجدوى النظام الناصري. وشعر البعثيون منافسوه وكأن كابوساً عظيما انزاح عنهم وان تهافت شعبية عبدالناصر قد يتيح لهم فرصة الحلول محله.

رغم بقاء مراكز قومية عروبية موالية له مخلصة بوصفه رمز الثورة لا غير. إلا ان ذلك الاعجاب المتعصب والثقة العمياء بقيت من نصيب الحمقى والمغفلين وباتت عند الآخرين من آثار الماضي في الوقت الذي ارتفعت الاصوات بالنقد وكشف التاريخ الملوث لحكمه.

(٣٣) في الواقع كان التنديد بالاحكام الخفيفة الصادرة على الضباط واحداً من الشعارات التي رفعها المتظاهرون.

وميزنا تحولاً خطيراً في سياسته العروبية. ونظرته الى أنظمتها. فقد اصبحت عملية احداث انقلابات فيها أثراً من آثار الماضي ولم يعد يهتم كثيراً بمهاجمة الانظمة الرجعية ويدعو الى الثورة عليها. بل لم يعد في وسع اعلامه شن حملات ضد تلك الانظمة أو ادانة الحكام الرجعيين المحافظين وكفت الصحافة المصرية فجأة عن تسميتهم بالامبرياليين وخدم الاستعمار أو عن تحريض شعوبهم على اسقاطهم.

واظهرت حرب ١٩٦٧ كم كان سخيفاً شعار عبدالناصر المحبوب الذي انتشر على كل الاصعدة في البلاد الناطقة بالعربية: «نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا» المستمد رأساً من سياسة «الحياد الايجابي» و«عدم الانحياز» التي اطلقها مؤتمر باندونغ. ووجدت رسولها به في البلاد الناطقة بالعربية. كم كانت تلك السياسة مرتجلة خالية من أي محتوى ايجابي لأنها سياسة مؤقتة متحركة دائمة التغيير. وكيف كان تحطيمها على يده كاملاً عندما انحاز لفترة قصيرة من الوقت انحيازاً كلياً سياسياً وعسكرياً الى الاتحاد السوفياتي، بل حتى بقبوله نفوذاً عسكرياً سوفييتياً على قواته المسلحة. وبطبيعة الحال كان يرافق هذا الاستسلام أو التقرب من الشرق تباعد وجفاء مع الغرب والولايات المتحدة وكل هذا لايمكن وصفه بالحياد.

الانتقال الكلي والاستناد التام الى المعسكر الاشتراكي ادى الى تقوية وجهة النظر أو تكوين سياسة ثابتة الأبعاد بان أمن إسرائيل هو جزء من أمن الولايات المتحدة. وان التهديد العربي لإسرائيل يعني زيادة التسلل السوفياتي وتغلغله عبر الانظمة الثورية وغير الثورية بدرجة ما. وان اسرائيل تتولى أمر المدافع والحالة هذه – عن مصالح الغرب وامريكا ضد التغلغل السوفييتي في الحرب الباردة. وقد اجمل الرئيس نيكسون تلك الوظيفة في خطبة الثامن من ايلول ١٩٦٨ حين نعتها بالشكل التالي:

Israel was the bulwork of strength in the port of Soviet ambition

(إسرائيل هي الحصن القوي الذي يقف بوجه الأطماع السوفيتية)

رغم هذا كله وبحسب ما ذكرناه وما ظهر من وثائق وشهادات وجب علينا أن ندافع عن موقف السوفييت في حرب ١٩٦٧.

فلم يكن الروس ولا المعسكر الاشتراكي يرغب في هذه الحرب ولم يكن يريدها مطلقاً وحاولوا المستحيل لايقافها.

وبدأ العالم العربي يخوض بحيرة فحص الذات بشكل جدي ابتداء من شمال افريقيا حتى

بعض الدول الثورية كالعراق[٣٤].

وعلى هذا الأساس بدأ القوميون العرب المعقولون في مؤتمراتهم وفي اجتماعاتهم وتصريحاتهم منذ كارثة حزيران يحددون الاهداف العربية ازاء إسرائيل: بتطبيق قرارات مجلس الأمن. والقضاء على آثار العدوان ويعني انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها في ١٩٦٧ انسحاباً كاملاً فقط!

(٣٤) لم يبق (الخواجه) بورقيبه كما يسميه الاعلام المصري وحده في انتقاداته للشعارات القومية العروبية التي تنطلق من مصانع الدعاية الناصرية لاسيما تلك التي تتعلق بإسرائيل فقد قال مثلاً في معرض انتقاده التهديد بمسح إسرائيل من الوجود في خطبة له في (كيف) بتونس بتاريخ ٢٤ من آب ١٩٦٧ اي بعد الهزيمة «إن شعار القضاء على إسرائيل الذي يطلقه العرب وتروج له السياسات العربية. قد جردهم من كل عطف الى الحد الذي لم تعد فيه دولة واحدة في العالم تعتبر إسرائيل دولة معتدية». وكتب الاديب الكاتب (أحمد بهاءالدين) رئيس تحرير مجلة المصور المصرية تحليلاً نقدياً للنكسة بعد أسبوعين فحسب من تطبيق قرار وقف اطلاق النار «إن شعار العرب في القضاء على إسرائيل، سهل على هذه الدولة كسب حرب الدعاية».

الفصل الأربعون

سورية والبعث بعد حرب الأيام الستة . المؤتمر القومي . اتجاه نحو العالم الاشتراكي وإجراءات إشتراكية مجنونة . صراع داخل الحزب والسلطة . تطبيق الاشتراكية بالقوة . قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وأمريكا وألمانيا الغربية . زعين يشكل وزارة إئتلافية . إنقلاب في وزارة الدفاع وسيطرة حافظ الأسد . وزارة أخرى برئاسة الأتاسي . الصراع يزداد حدة . القلق السوري من انقلاب ١٧ تموز البعثي في العراق بمساندة عفلق والبيطار . انقلاب ثان (٣٠ تموز) في العراق وطرد المتعاونين واستقلال البعث بالسلطة . الوعد بإعادة الحياة الدستورية لم ينفذ . سياسة انفتاح أولية في بعث العراق . إطلاق سراح سجنائهم في ١٩٦٣ . الرجل الذي يقف وراء (البكر) رئيس الدولة الجديد . الدستور الموقت الجديد . سياسة التسامح تنقلب الى عمليات تصفية جسدية متواصلة واغتيالات وقتول قضائية جماعية بتهم التآمر والجاسوسية والخروج على مباديء الحزب والاتصال بالبعث السوري . علاقات مع مصر يخيم عليها برود تام . سياسة الحكم الجديد ازاء الثورة في كردستان . مفاوضات سرية تنتهي باتفاقية الحادي عشر من آذار والاعتراف بالحكم الذاتي للكرد في العراق . الوضع الفلسطيني . استقالة أحمد الشقيري . منظمة فتح . المظاهرات تعم معظم العواصم العربية . ثورة مسلحة فلسطينية في الأردن بقصد إسقاط نظام الحسين . الدماء تغطي شوارع عمّان . القتال الضاري وسقوط مئات القتلى . محضر اجتماع طريف للقمة في الجامعة العربية على اثر أحداث الأردن

حكاية البعث العربي الاشتراكي ستبقى حكايةً في غاية الطرافة في استعراض سياسة التطرف الغوغائي بعد الحرب وفي أثنائه. أدى نشوب خلاف وحشيّ الطابع بين زعمائه وانتهى بانقلاب لم ترق فيه قطرة دم واحدة رغم طابعه العسكري بقيادة اللواء الطيّار حافظ الأسد وزير الدفاع الذي بقي يحكم سورية حتى وفاته.

مظاهر الغلو البعثي نظر اليه من موقف الحزب إزاء آثار الهزيمة واستمرارهم في إظهار عدائهم الشديد المشوب بالمباهاة من دون التفكير في عمل عسكري إيجابي. ورفضهم التعاون

مع الدول الناطقة بالعربية للوصول الى تسويةٍ سياسية أو الى تحقيق تنسيق في الخطط العسكرية ضدّ إسرائيل. وفي مقاطعتها التامة للغرب وازدياد اعتماد الحكومة على المعسكر الشيوعي. وقد رأينا كيف قاطعت حكومة (زعين) و(صلاح جديد) مؤتمر القمة في الخرطوم. وعقدت في اليوم التالي في دمشق مؤتمراً للقيادة القومية لحزب البعث بالمقابل. وفيه قررّ أن «حرب التحرير الشعبيّة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن ترغم إسرائيل على رفع يدها عن الأراضي العربية».

وفي العاشر من تشرين الثاني ١٩٦٧. أعلنت سورية استهجانها ورفضها القبول بتصريح الملك حسين في نيويورك وواشنطن الذي شددّ على «قبول إسرائيل كحقيقة واقعة في الحياة». ثم وفي ٢٣ من تشرين الثاني أعلن ناطق باسم الحكومة السورية «أنّ سورية ترفض رفضاً قاطعاً قرار مجلس الأمن الصادر في ٢٢ من تشرين الثاني الذي قبلت به كلّ من مصر والأردن كاساسٍ لتسوية سلمية تتضمن إنسحاباً إسرائيلياً من الأرض العربية المحتلة. الأمر الذي أحنق عبدالناصر واغاظه الى الحدّ الذي أشار في خطابه الذي القاه في عين يوم صدور القرار الى تلك[1] البلاد التي تتكلم عن القتال وبأنها غير عاجزة عن القتال. وهي في الواقع لاتنوي القتال. وظلّ نظام البعث أن يدرك – بكل عنادٍ فيه – إن احتكاره السلطة وتفسيره الماركسي للثورة وفرضه الاشتراكية وغرق ضباط الجيش في بحران السياسة، فرق البلاد وأضعف الجيش وفشل في أن يقدم مقاتلين من جماهير الشعب أفضل مما لديه وأسرع للتعبير عن عدائه للغرب بمظاهر طائشة كمنع دخول الصحف والمجلات والكتب الغربية، والقضاء على الحركة السياحية. واتبعت وزارة الثقافة سياسة «إخلاء وتنظيف المعرفة العربية». والقصد إبعاد التعليم العربي عن التعليم الغربي. كإلغاء ارسال التلاميذ لإكمال الدراسة العالية في الخارج ووضع اليد الكامل على ٩٠٠ مدرسة خصوصية معظمها مدارس طائفية وغربية المناهج. وفي تشرين الأول ١٩٦٧ فُرِضت في التدريس كتبٌ منهجية حكومية تتضمن عقائد وأيديولوجية البعث الاشتراكية مع تفسيرها الخاص للتاريخ والأحداث العالمية. وفي الوقت ذاته اقتصرت على إرسال المقذوفات من الكلام العدائي دون المقذوف من افواه المدافع، حين كانت المدفعية المصرية والأردنية تطلق مقذوفاتها بلا انقطاع فيما عرف بحرب الاستنزاف. ولم يشملها الطيران الإسرائيلي بغارة جدية واحدة، أو بضربةٍ ميدانية من تلك التي كانت تشنها

(١) حلل المؤتمر القومي – بأسلوبه الناري. أسباب النكسة على ضوء أهداف الامبريالية والصهيونية العدوانية وأتى الى شرح وتحليل العوامل وطريقة العمل لإزالة العدوان مقترحاً وحدةً عربيّة للموارد العسكرية والاقتصادية السورية – العراقية – المصرية – الجزائرية.

على مصر والأردن. وبقيت الجبهة السورية هادئة. وندر أن سمحت السلطة للكوماندو الفلسطيني في سورية بالحركة داخل إسرائيل.

وعادت سورية البعثية – المتطرفة الى لعبتها في خلق المشاكل للبلاد الناطقة بالعربية الأخرى المجاورة وزراعة بذور التفرقة لاسيما في لبنان التي ظلّت هدفاً سهلاً للتآمر فحرّم على تلك البلاد النوم وسلب منها راحتها[٢] وأعظم الأذى الذي ألحقته به بعد الحرب. هو تشجيع الكوماندو الفسلطيني على العمل ضدّ إسرائيل من داخل الأراضي اللبنانية. والتحريض بالاذاعة والبيانات والوعود بالغارات على إسرائيل الأمر الذي أدّى الى نشوب صراع داخلي عنيف واحتراب طائفي مسلح مصحوبة بتظاهرات وأزمات وزارية. وكان الانطباع العام الخارجي عن هذه السياسة هو أن النظام السوري يريد أن يخلق في لبنان حالة شبيهة بتلك التي حصلت في العام ١٩٥٨، وبأنها تريد أن تزودّ إسرائيل بحجة القيام باحتلال جنوب لبنان، ليبرر لهم إحتلال ما تبقى منها بالجيش السوري. وهو طبق ما حصل فيما بعد.

واستخدم البعث السوري فرق الصاعقة الفلسطينية التي تدين له بالولاء في عملية إختطاف الزعيم السوري الدرزي «حسن باشا الأطرش» اللاجيء في الأردن. لكن وفي الرابع من شهر تشرين الثاني ١٩٦٨ تمكن الجيش الأردني من إحباط العملية والقاء القبض على «هؤلاء كتائب الصاعقة الذي كان هدفهم الضفة الشرقية من الأردن. وليست الضفة الغربيّة التي يحتلها الإسرائيليون» على حَدّ تصريح أو تعليق للملك حسين.

ولم يعد للبعث السوري بعد قطعهم العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية من يعتمدون عليه غير الاتحاد السوفيتي إقتصادياً وعسكرياً ودبلوماسياً ودعماً سياسياً. وكل هذا لم يقدم البلاد خطوة واحدة في سبيل استعادة أرضهم «المغتصبة». أو في طريق إزالة العدوان. إلاّ أنهم كسبوا مشاريع إقتصادية هامة من الاتحاد السوفياتي والحق يقال[٣].

(٢) على سبيل المثال: زوّدوا شاباً من طرابلس يدعى (محمد نبيل عكاري) بسلاح لغرض اغتيال كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية الأسبق، من أجل ايقاد فتنة دينية خطيرة تؤدي الى نزاع مسلح. قبض على هذا الشاب في ٣١ من أيار وحكم عليه بالموت بعد سنة واحدة من المحاولة [الانوار: الأول من حزيران ١٩٦٩]. بعد وقوع المحاولة بشهرين هاجم رئيس الحكومة السورية (يوسف زعين) لبنان بسبب اكتشاف مؤامرة ضد البعث نظمها اللاجئون السياسيون السوريون في لبنان. ولغرض معاقبة لبنان على ايوائها هؤلاء فرضت الحكومة السورية تعرفة كمركية ثقيلة جداً على تجارة الترانسيت والصادرات اللبنانية المارة عبر سورية.

(٣) في السادس من آذار افتتح (زعين) مشروع سَدّ الفرات الذي موّله السوفييت وأشرفوا على بنائه. وقاموا بتمهيدات لتطوير صناعة استخراج النفط الذي بديء به في ٢٣ من كانون الثاني ١٩٦٩ بعد زيارة قام =

وبدا البعث في غاية الكرم والتسامح مع الحزب الشيوعي السوري وأجازوا نشاطه حين حظروه على بقية الأحزاب[٤] لكن الوقت لم يطل بهم فعادوا يتشاجرون ويكيد بعضهم لبعض.

على أثر نهاية حرب الأيام الستة أعاد (زعين) في ٢٨ أيلول تشكيل حكومته وأدخل فيها وحدويين مستقلين وبعض الاشتراكيين العروبيين من جماعة الحوراني. وفي وزارة الدفاع كان هناك خلاف حاد بين الفريق حافظ الأسد ورئيس أركانه اللواء (أحمد سويداني) ختمه الأسد بإقالة السويداني في ١٥ شباط ١٩٦٨ واحلال (اللواء مصطفى طلاس) احد انصاره محله وقد أصبح هذا في الوقت عينه نائباً لوزارة الدفاع. في حين عين اثنين من حملة رتبة لواء في منصب النائب الثاني والثالث. لتغدو وزارة الدفاع حصنه المنيع فعلاً.

والأحزاب الوحيدة التي كانت قادرة على تحدّي البعث الى درجة ما، هي الأحزاب الاشتراكية فحسب. لأن زعماء الأحزاب التقليدية كانوا جميعاً في المنفى في حين كانت الضربات التي وجهت الى أعضائها ومنتسبيها قتالة. وفي أيار ١٩٦٨ حاولت ثلاثة أحزاب ثورية الاتحاد فيما بينهما لإسقاط حكومة البعث هي حركة القوميين العرب والحزب العربي الاشتراكي والوحدويون الناصريون العرب إلاّ أن المحاولة أجهضت والقت السلطة القبض على عدد من قياداتها[٥].

وساد قلق عظيم بعث سورية عندما نجح بعثٌ ثانٍ (عراقي) في الاستيلاء على مقاليد الحكم في ١٧ و٣٠ من تموز ١٩٦٨ وهو بعث يميل الى قيادة (عفلق) و(البيطار) القومية. ثم كانت ثم محاولة انقلاب خطيرة في أواسط آب يتزعمها رئيس الأركان المعزول (أحمد سويداني)[٦]

= بها وزير صناعة النفط السوفياتي وجأر صوت الحزب الشيوعي السوري بالمديح والثناء على الحكم البعثي. وشرح المكتب السياسي الحاجة الى توطيد العلاقة السورية السوفيتية ووجوب حمايتها «لأن هذه الصداقة وحدها هي القادرة على إزالة آثار العدوان الإسرائيلي والتغلب على كل الصعاب» (نيويورك تايمس الثاني من تموز ١٩٦٨).

(٤) تحدث البيان الختامي للمؤتمر الثالث الذي عقده الحزب في دمشق (حزيران ١٩٦٩) عن حرب ١٩٦٧ فقال أن العدوان الإسرائيلي كان من إعداد القوى الامبريالية يساندها باشكال شتى الرجعية العربية التي تريد توجيه ضربة الى حركة التحرر العربي. على أن البعثيين اختلفوا فيما بينهم على القدر الذي يمكن أن يسمح به لمشاركة الشيوعيين في الحكومة. وفي الحدود التي يجب أن يقف عندها نفوذ الحزب الشيوعي في الحكومة وفي الشارع. هذا الخلاف كان أحد أسباب انقلاب ١٩٦٩.

(٥) استطاع أكرم الحوراني أن يفلت ويهرب الى لبنان.

(٦) عن جريدة النهار البيروتية ٣٠ آب ١٩٦٨. انه وفي ١٥ من آب هربت تسع طائرات ميگ طراز ١٧ بطياريها الى العراق من دمشق. وبعدها بيومين لحق بها ثلاث طائرات من نوع ميگ ٢١. ودب الخوف العظيم في أوصال الحكومة السورية عندما علمت بأن الفريق (أمين الحافظ) الرجل القوي السابق ترك =

مع ضباط بعثيين آخرين. وكان فشل هذه المؤامرة يعني بأن النظامين البعثيين في سورية والعراق لن يلتقيا ولن يتعاونا ولن يقيما نظاماً متماثلاً ولن يخضعا لقيادة واحدة. وهو ما كان يصبو اليه الاتحاد السوفياتي قدر ما كانت تصبو اليه الولايات المتحدة على ما يبدو.

وفي أثناء إنعقاد المؤتمر القطريّ الرابع لبعث سورية في دمشق في ايلول ظهر الخلاف على أشدّه بين الزعماء. بين الجنرال حافظ الأسد وانصاره من جانبٍ وبين الجنرال صلاح جديد ويوسف زعين وأنصارهما من جانب. وقد تمخض هذا النزاع باستقالة حكومة (يوسف زعين) في أواخر شهر تشرين الأول وتأليف حكومة جديدة برئاسة رئيس الدولة (نورالدين الأتاسي). وذكروا أن سبب النزاع كان حول التعاون العسكري مع الدول الناطقة بالعربية الأخرى ومشكلة العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي السوري.

من رأي حافظ الأسد أن تتعاون سورية مع العراق والأردن بترك الاعتبارات الايديولوجية جانباً ولمصلحة المجهود الحربي. كما كان يغلّب حاجات الدفاع على حاجات مشاريع الانماء في الحقلين الزراعي والصناعي. إذ لم يكن سِرّاً أبداً أن ادارة المشاريع الانمائية كسدّ الفرات وانتاج النفط كانت بيد شيوعيين وكان (زعين) يريد أن يرمي بالثقل الأكبر من سياسته وراء هذه المشاريع وأن يزيد من التعاون مع الاتحاد السوفياتي الى حَدّ القبول باعطائهم قاعدة بحرية في (طرطوس) وانفاق مبالغ طائلة على تعميق الميناء، كما كان مستعداً لاعطاء الشيوعيين المزيد من المقاعد في حكومته قدر ما رغبوا[٧].

وأشيع أنه وقبل إستقالة (زعين)، أصدر (الأسد) أمراً بنقل (عزت جديد) قريب (صلاح جديد) من قيادة (الكتيبة السبعين) القوية. إلاّ أن (عزت) لم يعبأ بالأمر وتحصّن في ثكنة كتيبته. والتحق به ابن عمه (صلاح جديد) و(يوسف زعين) وذكروا أيضاً أن سخط (حافظ الأسد) على هذين الاثنين زيّن له مراراً أن يدفع بهما الى الخارج لكن الوسطاء تدخلوا وأقنعوه بالأخير أن يكتفي باستقالة (زعين)[٨].

على أن تأليف الأتاسي الحكومة في ٢٩ تشرين الأول لم يغير من الوضع شيئاً ولم يأت بالتغيير السياسي الذي كان يرنو اليه (الأسد). أجل احتفظ بوزارة الدفاع مع نوابه الثلاثة. ومُثّل الحزب الشيوعي في الحكومة بـ(واصل فيصل) لوزارة المواصلات. وبرئيس انصار

= لبنان الى العراق. فوضعت قوات من الدبابات حول مقر القيادة العام ودار الاذاعة وغيرها من الدوائر الحساسة. [لوس أنجلز تايم، نيويورك ٢٠ من آب].

(٧) جريدة الأنوار: العدوان ٢٦ و٢٩ من تشرين الأول ١٩٦٨.

(٨) المرجع السالف عدد ٢٦ تشرين الأول ١٩٦٨.

السلام لوزارة العدل. ليس هناك ما يشير الى اختمار فكرة انقلاب في رأس (الأسد) لغرض ارغام حزبه على تبديل سياسته. إلاّ أن الانقلاب حصل إثر غارة جوية إسرائيلية على ضواحي دمشق غارة جعلت مركزه قوياً[٩]. وربّما فكر جدياً في عمل الإنقلاب عندما أبى (عزت جديد) الامتثال لامر النقل.

أقدم (الأسد) على انقلابه العسكري في عيد الأضحى الذي وقع في الأول من آذار ١٩٦٨ ضد زعماء البعث الآخرين إلاّ انه لم يذع أمره من الراديو بسلسلة من البيانات كما جرت العادة مصحوبة بمارشات عسكرية. لم يتبع الانقلاب تغيير في بُنية الحكومة واعتقال ومحاكمة القادة المعزولين. لكنه اتخذ شكل نقاش عنيف صاحبه استعراض قوة. ونشبت المعركة بينه وبين صلاح جديد بسبب نقله ضباطاً من منطقة اللاذقية أدت الى قيام القيادة القطرية بتوجيه اللوم اليه. وانتهى النقاش بعقد مؤتمر جديد لقيادة القطر ليتبنى فيه معظم مطالب (الأسد). وكان هذا السبب في اطلاق اسم «الانقلاب المجمد» عليه. واستفاد (الأسد) من التدابير الأمنية التي اتخذت بمناسبة الغارات الإسرائيلية. وأبقى قواته تحرس مقر اذاعة دمشق ومقرّ القيادة العامة. وأبدل حرس الشرطة في البنك المركزي بجنودٍ – لحراسة الودائع النقدية. وذكر معظم التقارير أنّ كلاً من نورالدين الاتاسي وصلاح جديد وضع تحت الاقامة الجبرية المنزلية.

على أن ما حصل هو هذا:

في الاوّل من شهر آذار (السبت) شعر (الأسد) أنه وبعد هذه التدابير بدرجة من القوة بحيث يستطيع مواجهة (الأتاسي) و(جديد) بطلباته. واجتمع قادة البعث تلك الليلة يتبادلون النقاش المتواصل حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي. وفي خلال ذلك قدم (الأسد) والى جانبه رئيس أركانه اللواء مصطفى طلاس[١٠] طلباته وهي كما نوهنا سابقاً تتضمن

(٩) كانت غارة ٢٤ شباط ١٩٦٩ الجوية اولى ضربة شديدة توجه الى سورية منذ حرب الأيام الستة. هاجمت موجات من القاذفات المقاتلة قاعدتين للكوماندو. قاعدة (الحمه) التي تبعد زهاء تسعة كيلومترات غرب دمشق. وقاعدة (ميسلون) التي وصفت بأنها مركز تدريب كوماندو (حركة فتح) وتقع على طريق بيروت. وادعى أن الإسرائيليين أسقطوا في قتال جوي طائرتين سوريتين. هاتان الغارات كانتا بنوع خاص إهانةً وإذلالاً (للاسد) الذي كان قائداً للقوة الجوية أيضاً. وزاد من وقع الأمر معرفته بأن العامة من الناس بدأت تتساءل عن قدرات المنظمة العسكرية البعثية وعن كفاءة التدريب ولاسيما وحدات الدفاع الجوي والطيارين. لابد وأن الأسد كان يتذكر كيف أن قيادة البعث سحبت أفضل كتائبه من الجبهة في حرب ١٩٦٧ من أجل المحافظة على نظامهم في دمشق.

(١٠) كان أيام حكم المشير عبدالحكيم عامر سورية مرافقاً له برتبة نقيب. وأظنه الآن برتبة مشير ووزير للدفاع.

تعاوناً أوثق مع الدول العربية الأخرى بصرف النظر عن الايديولوجيات والانتماءات. وإستعداد أكثر جديّة للحرب. وإسناد الحزب لطلب طائرات (ميك ٢١) من الاتحاد السوفياتي وإنشاء علاقات صداقة أوثق مع العراق. وإقامة حكومة «قيادة شرقية» مقاومة للتدخل السوفييتي في شؤون سورية الداخلية. ومساندة أكثر للكوماندو الفلسطيني وإعادة وحدة الحزب الايديولوجية والتنظيمية...

في مجرى المناقشة الحامية. اتهم (لأسد) مدير الأمن القومي (عبدالكريم الجندي) بأنه جعل من سورية دولة پوليسيّة. وفي صباح اليوم الثاني من آذار أقدم هذا العقيد البالغ من العمر ٣٩ عاماً على الانتحار بوضع رصاصة في رأسه[١١] وكان عضواً في القيادة القطرية وحليفاً (للأتاسي) و(جديد).

والظواهر كلها تشير الى أن (الأسد) لم يكن في حينه مهيئاً لممارسة السلطة أو على الأقل انه لم يكن مستعجلاً للقيام بتغييرات جذريّة. ففي صباح ذلك اليوم الذي أعلن عن انتحار العقيد، توصل الأسد الى نوع من مهادنةٍ مع خصومه وتقرر حَلّ الخلافات من خلال مؤتمر قطري. لابدّ وأن الأسد كان مطمئناً بحوزته القوة الكافية التي تؤهله للرضا بهذه الفترة وقد جاءه وسطاء من مصر والعراق والجزائر وربما كانوا سبباً في تجميد الانقلاب أو ربما جاء الضغط عليه من السفير السوفيتي الذي وجد نفسه غارقاً حتى ذقنه في بحر الأزمة، محاولاً إبقاء الحكومة ضمن حدود الشرعية وتحت سيطرة حزب البعث. بل قيل أيضاً أن الاتحاد السوفياتي هدد يقطع جميع مساعداته لسورية، في سبيل انقاذ البناء السياسي ونفوذ رجليه (الأتاسي وجديد) في القيادة[١٢].

في العشرين من آذار انعقد مؤتمر للقيادة القومية وحضره ١٥٨ مندوباً ودام أحد عشر يوماً. وكانت قراراته طبق ما توخاه (الأسد) وطلبه. وتقرر وضع مسودة لدستور مؤقت خلال شهر واحدٍ إذ لم تكن سورية في حينه تملك قانوناً أساسياً منذ إلغاء دستور شباط ١٩٦٦. كما تقرر انتخاب جمعية وطنية (مجلس نواب) خلال أربعة أشهر من اصدار الدستور. وتجميد الخلافات مع الدول العربية مع قبول المساعدات العسكرية والمالية من أية دولة عربيّة، في سبيل تقوية الجبهة السورية والعربيّة «مع الإقدام على أي خطوة ممكنة في سبيل اقامة

(١١) دانا ادم شمدت: تقرير لنيويورك تايمس نشر في ٣ و٥ من آذار ١٩٦٩. [أنظر كذلك جريدة الأنوار في عدد آذار ١٩٦٩].

(١٢) يونايتد پريس انترناشنال دسپاچ ١ نيسان ١٩٦٩ United Press International Dispatch 1 April 1969

وحدةٍ مع البلدان العربيّة التقدميّة». كما قرر اعادة وحدة الحزب داخل سورية وخارجها واعادة جميع الضباط البعثيين وغير السياسيين الذين طردوا منذ العام ١٩٦٦ الى الخدمة في الجيش. كما تحدث القرار (البيان الختامي) حول فتح قنوات تقرب وتفاهم مع عموم الشعب وانزال العقاب بكل من ألحق به أذىً.

كل هذه القرارات والوعود والعهود لم تخف الحقيقة. إن البعث كان يجاهد ويعمل لنفسه، ولأجل المحافظة على وحدته فحسب. وهو بالتالي غير مستعد للتنازل عن احتكاره السلطة أو منح أيّ قدرٍ من الحرية السياسية أو الاقتصادية[١٣].

ومهما يكن من أمر ففي الأول من أيار ١٩٦٩ نشر دستور جديد يتألف من واحدة وثمانين مادة. مع وعدٍ باجراء انتخابات لـ«مجلس الشعب» انتخاباً حراً مباشراً بعد أربعة أشهر وفي ظلّ حكم الحزب الواحد طبعاً.

في عين الوقت لم تغفل عين (الأسد) عن خصومه ومنافسيه وأشيع انه وفي ١٩ من أيار وضع (صلاح جديد) تحت الإقامة الجبرية في منزله لانه عارض في سفر وفد عسكري برئاسة مصطفى طلاس الى الصين[١٤].

***

في مناسباتٍ عديدة كان الأخوان عارف يعدان بالانتخابات العامة وبإعادة الحياة الدستورية، تماماً مثلما كان عبدالكريم قاسم يعد ويتعهد، ولايقدم على خطوة واحدة. في هذا المضمار. وعندما أقدم قادة الجيش على ازاحة [عبدالرحمن البزاز] وشكل اللواء الركن (ناجي طالب) الوزارة. وجد هذا أمامه كلاماً ووعوداً من سلفه غير منفذة حول صياغة مشروع قانونٍ به. إلاّ أن رئيس الحكومة الجديد فاجأ العراقيين في ٢٨ من كانون الأول ١٩٦٦ بنشر قانون «الانتخابات العامة» أعطى فيه حق التصويت للاناث واشترط أن يكون المرشح ملماً بالقراءة والكتابة وأن «يؤمن بثورة تموز وأهدافها ومبادئها» دون ذكرٍ لما حصل في الثامن من شباط

(١٣) ختم المؤتمر بانتخاب قيادة قومية جديدة. فيها احتفظ معظم الاعضاء القدماء (الأسد، الأتاسي، زعين، جديد، ماخوس...) بعضويتهم وحَلّ ثلاثة جدد محل الخارجين (عشاوي ونعيشه والمنتحر الجندي). وقبل انعقاد المؤتمر لوحظ أن السلطة اعتقلت عدداً من الشيوعيين وحاول الحزب الشيوعي السوري إصدار بيان فضبط وحيل بينه وبين التوزيع. فقد شعر الحزب أن بعض القرارات التي سيتخذها المؤتمر لن تكون في صالح العلاقة السورية السوفيتية إلاّ أن الرأي العام بدا مرتاحاً الى حدّ ما من تلك المقررات وفي تشرين الثاني ١٩٧٠ أحدث حافظ الأسد انقلاباً ضد صلاح جديد وزمرته عرفت حركته بالتصحيحية. ثم وفي ١٢ آذار ١٩٧١ تم اختياره رئيساً للجمهورية باقتراع عام.

(١٤) نيويورك تايمس ٢٠ أيار ١٩٦٩ نقلاً عن جريدة «البيرق» البيروتية.

١٩٦٣ طبعاً.

إلاّ أن المشروع بقي حبراً على ورق[١٥].

ثم جاءت حرب الأيام الستة وذهبت وخلفت وراءها تلك الصفوة القومية المتعلمة والمثقفة وقد فقدت الثقة تماماً بوعود الحكومات. وبدأت ضغوط في المطالبة بتحقيق الديمقراطية البرلمانية والتعددية الحزبيّة ووراءها الى حدّ ما الحزب الشيوعي الذي كان قد نقل مكتبه السياسي الى كردستان في الجزء الواقع تحت سيطرة الحزب الديمقراطي الكردستاني.

وفي ١٢ من كانون الثاني ١٩٦٨ بدأ طلاب جامعة بغداد اضراباً سياسياً حول مطالب ديمقراطية الصبغة. وبعدها في أيار ١٩٦٨ أرسل خمسة وعشرون مدنيّاً وعسكريّاً بارزاً ومن بينهم (البزاز) مذكرةً الى الحكومة مطالبين باشتراع دستور دائم وإجراء انتخابات حرة لمجلس نيابي. وبقي هذا المطلب الرئيس حتى انقلاب السابع عشر من تموز ١٩٦٨.

الأخوان عبدالسلام وعبدالرحمن كمعظم العسكريين سلكا مختلف السبل واستخدما كل الوسائل لتقوية سلطتهما وتمديد فترة حكمهما. فمثلاً قام عبدالسلام عارف في الخامس من ايلول ١٩٦٥ بحل ما دعي بالمجلس الوطني لقيادة الثورة وظنّ في حينه بأن حلّه كان محاولة لإبقاء الجيش بعيداً عن السياسة[١٦] ولما انتهت فترة رئاسة عبدالرحمن عارف (وكانت لمدة سنةٍ واحدةٍ) في نيسان ١٩٦٧. قام عين المجلس الذي انتخبه وكان يتألف من أعضاء الوزراء وضباط الصفوف الكبار ويعرف بمجلس الدفاع الأعلى، قام بتمديد رئاسته لفترة غير محدودة. وفي ٣ من شهر أيار ١٩٦٧ انتهت فترة الانتقال التي حددت بثلاث سنوات في أيار ١٩٦٤ فمددت بسنةٍ واحدة أخرى. بعدها بأسبوع واحد استقال ناجي طالب. فبات عبدالرحمن عارف رئيس الحكومة بدلاً منه. وتمّ بأعظم ما يكون من السهولة تعديل الدستور لمنح هذا الاجراء صفةً قانونية. ثم وبعين السهولة مددت للمرة الثالثة فترة الانتقال في العاشر

(١٥) ميدل ايست جورنال Middle East Journal العدد ٢١ – ٢ ربيع ١٩٦٧ ص٢٣٩.

(١٦) ذكرت المادة السابعة من بيان عبدالسلام عارف المؤرخ في ١٨ من تشرين الثاني ١٩٦٣. اعادة تشكيل المجلس الوطني لقيادة الثورة الذي شكله انقلاب الثامن من شباط. على الشكل الآتي: رئيس الجمهورية رئيساً وأعضاؤه القائد العام للقوات المسلحة الوطنية ونائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ونائب القائد العام للقوات للمسلحة ورئيس أركان الجيش ومعاونو رئيس أركان الجيش وقادة الفرق وقائد القوة الجوية والحاكم العسكري العام والضباط الذين يقرر ضمهم الى المجلس. ونصت الفقرة (ب) من المادة على تعيين سكرتير للمجلس يجوز ان يكون من أعضاء المجلس أو خارجه ويحق للرئيس أن يخوله حق التوقيع على البيانات والأوامر الصادرة من المجلس بعد اطلاع الرئيس. كما نصت الفقرة (ج) على تشكيل المجلس مجلساً استشارياً يختارهم من المواطنين ذوي السمعة الطيبة والسيرة الحسنة والكفاءة وكذا من ذوي الخبرة والفن والاختصاص.

من أيار لمدة سنتين آخريين.

وماذا عن البعث المزاح؟

بقي قادة هذا الحزب موضع شك عظيم عند عبدالسلام عارف وان احتفظ غبّ انقلاب تشرين الثاني ببعضهم اعضاءً في وزارته. إلاّ انه دأب طوال ثلاث سنين على إضعافهم وتقليص نفوذهم أولاً بالضنّ عليهم بمراكز قيادية في الجيش وبالتخلص منهم في الوزارة وإبعادهم الى مناصب ومراكز أقلّ شأناً أو نفيهم باسناد سفارات خارجية اليهم أو احالتهم الى التقاعد أو إعتقالهم عند التآمر وقد مرّ بنا تفصيل ذلك.

لكن وبعد أن حاق الفشل بالاتحاد الثلاثي. وانتهج بعث سورية خطه الذي شرحناه. بقيت العلاقة بين الجارتين متوترة. ولم يدخر البعث في سورية مناسبة إلاّ وحمل على النظام العراقي أو عمد الى إحراجه وتعذيبه بمبتكرات غير متوقعة. فعند فشل مؤامرة ٣٠ حزيران ١٩٦٦. قامت جريدة (الثورة) لسان البعث السوري بشنّ هجوم عنيف على النظام في العراق ووصفته «بذلك النظام الذي لايصلح للبقاء». كما وصفت التسوية التي وصلت اليها حكومة البزاز في ٢٩ حزيران ١٩٦٦ مع الثورة الكردية «باتفاقية خطيرة مع الانفصاليين» ونعتت الزيارة التي يزمع البزاز عليها الى تركيا «بالسفرة المشبوهة» ثم وبالخلاف السوري مع شركة النفط العراقية أوقف السوريون ضخّ النفط العراقي الى البحر المتوسط. فأصيب العراق بضربة مالية عنيفة. وكان البعثيون السوريون فضلاً عن القصد الانتقامي من هذا العمل، يريدون إزعاج العراقيين بالمزيد من الضغط للسماح بالنشاط البعثي[١٧].

والسنة التي تلت حرب الأيام الستة كانت سنة مضطربة بنظام حكم غير مستقرّ. كان هناك انتقاد عنيف حول سلوك القوات التي أرسلت الى الأردن للمشاركة في الحرب. وكان ثم احتجاجات وتظاهرات ساخطة على الموقف العراقي اللامبالي من المجهود الحربي القوميّ.

(١٧) أدى الى حرمان العراق من ٨٠ بالمائة من مصدر دخله القومي وهي العائدات التي تأتيه من النفط المصدر. والواقع لم يكن غرض السوريين من خصومتهم مع شركة النفط مالياً بحتاً أي الهدف زيادة العائدات بل للضغط على حكومة بغداد للتعاون وتعيين وزراء بعثيين ولحمل العراق على اتخاذ موقف عنيف من الشركة قد يؤول بها الى التأميم. ومما يذكر في هذا الصدد أن ابراهيم ماخوس وزير الخارجية السوري صار يبحث بشكل صفيق لايخلو من حماقة حول مسألة ايجاد أسواق نفطية جديدة للعراق كأنّ مسألة التأميم أصبحت أمراً مفروغاً منه. حتى قالت الصحف الحرّة اللبنانية متهكمةً أن سورية كانت مستعدة لخوض معركة خيالية ضد شركة IPC الى آخر فلس من الخزينة العراقية. [من مقال لجبران شامية في جريدة الحياة البيروتية ٧ كانون الثاني ١٩٦٧. وغيرها من الصحف] ورغم النقمة التي اثارها هذا الموقف فقد نجحت الحكومة العراقية في اتخاذ موقف متحفظ من النزاع المالي مع الاحتفاظ بضبط النفس مثلما كان موقف الدول الغربية التي يهمها الأمر اقتصادياً.

والبرود الذي قوبلت به الكارثة رسميّاً. وكان هناك ضغوط من مختلف الجهات حول ضرورة انهاء فترة الانتقال والشروع في الانتخابات. وأصاب الفشل عدداً من المشاريع المؤممة بل وبات بعضها عبئاً على الحكومة وحصل تباطؤ في الانتاج لاسيما في القطاعين الزراعي والصناعي بسبب سوء تطبيق قانون الاصلاح الزراعي وفرض قوانين على هذين القطاعين من شأنها الحدّ من انتاجيتهما واصابة أصحابها بالخيبة والشعور بالإحباط ونعتت صحف الأحزاب اليسارية نظام العارفَيْن بالرجعية والتأخر الإجتماعي والاقتصادي.

عقد النظام العارفي العراقي بين تشرين الثاني ١٩٦٧ ونيسان ١٩٦٨ عدة اتفاقات مع فرنسا لشراء السلاح ولإمتيازات نفطية إلاّ أن اتهامات بالرشوة والفساد لكبار الموظفين كانت تعقب هذه الاتفاقات. وحاول السوفييت تقوية علاقاتهم بالعراق وفي ١١ من أيار ١٩٦٨ زار طرّاد سوڤياتي وسفن أخرى ميناء البصرة ومكث فيها ثمانية أيام وتَمّ تبادل زيارات على مستوى ثانوي وبقي عبدالرحمن عارف رئيساً ضعيفاً سليب الارادة لايستقر على أمر إلاّ لينقلب لضدّه. ولايقدم على خطوةٍ في مضمار الأوضاع الداخلية أو يتصدى لمشاكل البلاد الدستورية والاقتصادية والوطنية ولم يطرء تحسن على العلاقات الخارجيّة المعقدة وبدا مشلولاً لايقوى على القيام باي دور فعّال. عرف بانه رجل أمين مخلص نزيه إلاّ انه عرف ايضاً بالتردد والافتقار الى الحزم. من بين ابرز منتقديه أحمد حسن البكر الذي اتهم نظامه بالفساد وإنه لايريد التغيير خشية أن يخرج الحكم من يده. بالأخير نجح في إسقاطه بانقلاب عسكري.

يُعد انقلاب السابع عشر من تموز ١٩٦٨ الثامن بعد انقلاب الرابع عشر من تموز والثامن عشر بعد نوال العراق استقلاله في ١٩٣٢. وهو الانقلاب الذي مازال يعيشه العراق حتى كتابة هذه السطور (إن لم نعدّ ما حصل في الثلاثين من ذلك الشهر بين الانقلابات العراقية). وقد تمّ تحقيقه بتعاون البعثي (أحمد حسن البكر) مع اثنين من الضباط المستقلين الطموحين في الخدمة الفعلية هما المقدمان (ابراهيم الداود) قائد الحرس الجمهوري. وعبدالرزاق النايف وكيل مديرالاستخبارات العسكرية وضابط الارتباط بين الرئيس عارف والجيش!

أحكم تنفيذ الانقلاب. ودبر بدقة وحذر شديدين مصحوبين بمبادرات لاأخلاقية من جانب المقدمين النايف والداود ونجحت بمجرد التهديد باستخدام القوة تبعها اطلاق قذيفتين من قذائف الهاون فوق سماء القصر الجمهوري فسارع عارف الى الاستسلام ونقل بالطائرة رأساً الى خارج العراق ولم ترق قطرة دمٍ واحدة[١٨].

(١٨) كان عبدالرحمن عارف قد أطلق سراح أحمد حسن البكر بعد مؤامرة حزيران الفاشلة (أنظر ما سبق) وأعلن المفرج عنه بأنه اعتزل السياسة وسيتوفر لتربية البقر. مع هذا فانه وضع توقيعه على مذكرة بين =

في بغداد قالت الصحف أن الأهالي كانوا فعلاً يتوقعون إنقلاباً طوال أسبوع كامل وأن الحكومة كانت عاجزةً عن اتقائه[١٩]. كان منظمو الانقلاب قد أحكموا قبضتهم على الوحدات العاملة في المعسكرات عن طريق الضباط الموالين. ولم يكن فيهم من يخاطر في سبيل ابقاء رئيس كعارف، ويستخلص من كلّ الذي كتب عن الانقلاب أن رئيس الجمهورية أوقظ في الثالثة صباحاً بنداء تلفوني من عبدالرزاق النايف وأحمد حسن البكر. قالا له أن الدبابات في طريقها الى القصر الجمهوري وطلبا منه الاعتزال والاستقالة. وتمّ اطلاق تلك القذائف أثناء المكالمة تأكيداً لهذا الانذاز فلم يحاول المقاومة وقبل بالأمر الموقف. والبس ثيابه على عجل ثم أخذ في سيارة بحراسة (صدام حسين) الى طائرة عراقية خاصة ليلحق بزوجته التي كانت تعالج في لندن. وأعطي (طاهر يحيى) رئيس الوزراء بدوره عين الإنذار التلفوني. قيل له بأن لايحاول مقاومة القادمين لإعتقاله فلم يقاوم وتمّ إعتقال معظم الوزراء وستة وعشرين موظفاً كبيراً ووضع الحجز على أموالهم المنقولة وغير المنقولة ثم اتسع نطاق الاعتقالات وكان الحديث يدور حول قبولهم رشاوى وعمولات من شركة ايراپ ERAP الفرنسية التي أعطيت إمتيازاً للتنقيب عن النفط واستخراجه بتاريخ تشرين الثاني ١٩٦٧ وشباط ١٩٦٨. في مساحة ١٠٨٠٠ كيلومتر مربع وهي جزء من المساحات التي صودرت بموجب القانون[٢٠] القاسمي رقم (٨٠) من شركة النفط العراقية IPC. كان بين المعتقلين قوميون وناصريون بارزون منهم (اديب الجادر رئيس مجلس ادارة الشركة العراقية الوطنية الذي ابرم الاتفاق مع ستة من الناصريين البارزين منهم (محمد صديق شنشل) صديقهم القديم الذي موّل مشروعهم لاغتيال عبدالكريم قاسم، في رأس القرية.

إنقلاب السابع عشر من تموز ١٩٦٨ لم يكن بعثياً ولا قومياً ولا ناصرياً صرفاً فقد شاركت فيه كل هذه الالوان السياسية وغيرها من الرجال الطموحين الذين لاينتمون الى رعيل. كان

= تواقيع ثلاثة عشر ضابطاً عالي الرتبة من المتقاعدين طلبوا فيها تأليف وزارة ائتلافية ومجلس اشتراعي يتألف من ثلاثين عضواً حتى انتخاب مجلس نواب خلال سنتين. إلاّ أن (عارفاً) لم يستجب وأبقى طاهر يحيى رئيساً للوزارة وقد أشيع أن البلاد خلال حكمه كانت تعج بالاشاعات حول الرشاوى التي كان يتقاضاها هو وبعض وزرائه جراء عقود وصفقات خارجية حتى أصبح لايعرف باسمه بل باسم حرامي بغداد [سرح بعد اعتقال طويل الأمد ومعاناة مهينة للغاية دون أن تنشر السلطة شيئاً يدل على صحة ما أشيع عنه].

(١٩) بلغ التأكيد على وقوع الانقلاب حدّاً أننا كُنّا نسمع ذلك من بعثيين سجناء في الموقف يتحدثون عن قرب تحريرهم وهكذا كان.

(٢٠) خلاصة لمجموعة تقارير كتبها الصحافي توماس. ف. برادلي Thomas. F. Bradly لجريدة نيويورك تايمس نشرت في الأعداد المؤرخة ٢١ و٢٢ و٢٦ من تموز ١٩٦٨. فضلاً عن عدد كبير من الجرائد المحليّة.

في الواقع انقلاباً «منزلياً» لأن الأشخاص الثلاثة الذين حققوه فعلاً. عبدالرزاق النايف وابراهيم عبدالرحمن الداود وسعدون غيدان كانوا من ضباط القصر ومن خلصاء رئيس الجمهورية وهو الذي وثق بهم وعينهم في مناصبهم ولولاهم ما كان سيحصل انقلاب ١٧ تموز. ثم ان العميد (سعيد صليبي) الرجل القوي وراء عرش عارف[٢١] كان في لندن إذذاك يجري عملية جراحية. وبغيابه ارتفع آخر عقبة قتالة من امام المتآمرين.

في الساعة الثانية من صباح ١٧ تموز سعدون غيدان قائد كتيبة الدبابات الملحقة بالحرس الجمهوري وأحد رفاق طريق البعث في ظروفٍ سابقة. وكان معه كل من أحمد حسن البكر وحردان عبدالغفار وصالح مهدي عماش وأنور عبدالقادر الحديثي مع ضباط بعثيين صغار واتجه بها الى القصر الجمهوري في عين الوقت قام ابراهيم الداود باحتلال دار الاذاعة والتلفزة بعدد من الدبابات وفوج من الحرس الجمهوري. وحقق عبدالرزاق النايف سيطرته على وزارة الدفاع.

(٢١) كل هؤلاء من الرمادي (كعارف وصُليبي). النايف من الفلوجة والداود من هيت. وغيدان من مدينة الرمادي ولكنه ولد في بغداد اذ كان ابوه ضابط شرطة. النايف هو ابن عم صليبي ومن عشيرة الجميلة وهي عشيرة (عارف) وهو والنايف كانا من ألصق الناس بعبدالرحمن عارف. وفي مقابلة لحنّا بطاطو في استنبول يوم ١٨ شباط ١٩٧٠ [المرجع السالف ص ١٠٧] قال له انهم كانوا معي لاسيما في الامسيات. يؤكدون لي في أكثر من مناسبة «نحن اخوانك ويمكنك الاعتماد علينا نحن مستعدون للتضحية بحياتنا في سبيلك» كانوا باختصار آخر من يشك في خيانتهم. ويتحدث عارف أيضاً عن الأسباب التي دفعت النايف الى التآمر عليه وهو عنده حبّه المال ويذكر له أن شركات النفط الرئيسة في البلاد والدول التي تدعمها بدأت تبحث عن متآمرين بالحكومة منذ ابرام اتفاقية ايراپ النفطية مع فرنسا والعمل على نشدان المزيد من التعاون والتفاهم مع السوڤييت لتطوير حقول شمال الرملية. كذلك بسبب رفض عارف منح امتياز استخراج الكبريت لشركة (پان امريكان). فوجدوا في النايف ضالتهم بالأخير واشتروه من خلال العربية السعودية بتوسط العقيد بشير الطالب الملحق العسكري العراقي في سفارة بيروت. والسفير العراقي فيها (ناصر الحاني). امّا ابراهيم الداود الذي أقنعه النايف بالانضمام الى المؤامرة فهو من طراز آخر لم يكن المال من المغريات بالنسبة اليه وليست الرشوة من طبعه إلاّ انه كان واقعاً تحت تأثير رجال الدين المتشددين يكره اي شيء تشمّ منه رائحة الاشتراكية. إلا أن العامل الرئيس الذي حمله على خيانة (عارف) هو خشيته العظيمة من تغلب القوميين الناصريين. وقد كانت له اليد الطولى في احباط محاولتهم الانقلابية والقبض على رؤوسهم – فأطلق عبدالرحمن عارف سراحهم رغم معارضته الشديدة وأعاد بعضهم الى مناصبه التي كان يحتلها أو الى ما يعادلها، لاسيما زعيم الحركة (عارف عبدالرزاق). قال عبدالرحمن عارف لمستجوبه بطاطو «كثيراً ماكان يذكرني بقوله أنهم يستغلون طيبة قلبك ويتغلغلون أكثر فأكثر في الجيش وسيستولون على الحكم يوماً ما وينصبون لنا المشانق». كان الخوف عينه يعتمل في نفس بشير الطالب والنايف اللذين عاونا على تشتيت شمل الضباط الناصريين وافساد خططهم». آه. كان آخر عهدي ببشير الطالب وأنا على علاقة باسرته. مكالمة تلفونية في أوائل ١٩٧٠ فقد اتصل بي لشأن من الشؤون فسألته اين هو الآن فأجاب بلهجة فيها من الزهو ما فيها الا تعلم اني في مكاني الأول قائد للحرس الجمهوري.

ثمّ وكالعادة اذيع البيان الأول القاه عبدالرزاق النايف رئيس الوزارة الجديد وهو بيان طويل أعلن من خلاله عن تشكيل مجلس قيادة ثورة جديد تسلم اعباء الحكم في العراق. وعن انتخاب المجلس أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية. ووصف الحكام القدماء ومن ضمنهم العارفان وأشياعهما «بالانتهازيين واللصوص والجهلة والعملاء والجواسيس للصهاينة والأميين» ولم ينوه بكلمة واحدة عن ١٤ تموز ولا عن حكم قاسم. وقال انه سيعمد الى حَلّ القضية الكردية حلاً عادلاً. واتاحة الفرص المتكافئة للمواطنين واشاعة الحياة الديمقراطية. واعتبر الانقلاب الذي حققه نصراً لسيادة القانون معلنا مساندته للنضال الفلسطيني والعمل على حصر المسؤولية في النكبة التي حلت بالامة العربية في ١٩٦٧. على أن معظم البيان كان مكرّساً الى الطبقة الحاكمة التي شارك في إسقاطها.

بعد أربعة أيام، قال (البكر) يخطب في لفيف من الجنود الذي استخدموا في الانقلاب «إن الرشوة والفساد قد تفشيا في العراق وأن البلاد شلّت بانتشار الفوضى وشبكات التجسس والتحلل الاقتصادي وارتفاع الاسعار الفاحش» ولم ينوه بشيء عن حزب البعث:

«إن الجنود العراقيين الذين أرسلوا الى الحرب في ١٩٦٧، أرسلوا من دون عتاد أو حتى تجهيزات. وإن ثروات البلاد قد سرقت وانتقلت الى اياد أجنبية لقاء عمولات وأن خزينة الدولة فارغة بسبب النهب والتفسخ الاخلاقي.»

لم يذكر البكر (مصر) أيضاً وانما طالب بتعيين المسؤول عن الهزيمة. واصدار الأمر باقالة قائد القوات العربية في الأردن. إلا انه أكد بقاء القوات العربية مرابطة في الجبهة.

والفت وزارة من ستة وعشرين عضواً في اليوم التالي للانقلاب وكان فيها قيادات بعثية معتدلة أقل تطرفاً بكثير من تلك التي تحكم سورية الى جانب عدد كبير من غير البعثيين ذوي الأفكار المحافظة والميل الى اليمين. ونصب عبدالرزاق النايف البالغ من العمر ٣٤ عاماً رئيساً للوزراء. وابراهيم الداود (٣٩ سنة) وزيراً للدفاع بعد ترفيعه الى رتبة فريق أول. وبالنسبة الى البعثيين خلافاً لرئيس الجمهورية الذي رفع نفسه الى رتبة مشير (فيلدمارشال) كان ثم الفريق (المرفع سابقاً) حردان عبدالغفار رئيساً لأركان الجيش وقائداً للقوة الجوية وأسندت وزارة الداخلية للفريق (المرفع سابقاً) صالح مهدي عماش. وعين سعدون غيدان بعد أن أعطي رتبة آمر لواء – قائداً للحرس الجمهوري. وتحصيل الحاصل: كان هناك ثمانية من البعثيين القدماء وأنصارهم. وكان ثمّ مرشحو «كتلة ضباط القصر» ويحسب معهم (ناصر الحاني) الذي أسندت اليه وزارة الخارجية. واليهم ضم عبدالكريم زيدان رئيس حركة الأخوان

المسلمين. واثنان من خلال الضباط الاحرار القدماء وثلاثة من الاختصاصيين المحافظين وأربعة من الكرد. منهم محسن دزئي الذي أسندت اليه وزارة شؤون الشمال عن الثورة الكردية. والثلاثة الباقون لا علاقة لهم بالثورة الكردية: مصلح الدين النقشبندي وزيراً للعدل، واحسان شيرزاد المهندس وزيراً للاشغال والاسكان وعبدالله النقشبندي وزيراً للاقتصاد.

وأعلنت في ٢٣ من تموز أسماء أعضاء «المجلس الوطني لقيادة الثورة» وكان منهم سبعة عسكريين[٢٢].

مالبث ان دبَّ الخلاف بين المؤتمرين. كان هدف حزب البعث أن يستأثر بالسلطة كاملة وعلى هذا الأساس بنى حساب التعاون مع العناصر الأخرى. بدأ الخلاف واضحاً للجمهور من التناقض بين ما تكتبه جريدة الثورة لسان حال كتلة القصر التي سلمت أمور تحريرها للقوميين وبين ما تكتبه جريدة الجمهورية لسان البعث إلاّ أن التعاطف كان يتجه الى ترجيح كفة محور النايف – الداؤد. وزاد الخرق وضوحاً في التصريحات التي كان يبديها هؤلاء التي لاتتفق وسياسة البعث ومباده لاسيما تلك التي كان يطلقها (النايف).

في عين الوقت كان (البكر) يصرح بأن سياسة العراق سوف تتبع سبيل القومية الاشتراكية العربية ولكن رئيس الحكومة مدعماً بالداؤد كانا من جهة أخرى يثيران الشك في مستقبل الاشتراكية العربيّة وجدوى الاتحاد العربي الاشتراكي الذي بدىء بتنظيمه منذ عهد عبدالسلام عارف. وقال ان «حكومته لن تتبنى اية سياسة برهنت على فشلها – يقصد الاشتراكية – أوَنبني سياستنا على مستقبل الاتحاد الاشتراكي قبل أن نعين موقفاً ثابتاً لنا من الاشتراكية ذاتها[٢٣]. ثم أصدر أمراً باعتقال عدد من القوميين الناصريين وبعث اليسار المتطرف بزعامة (علي صالح السعدي) مشيراً بصراحة الى أن تقويمات هذا ليس مما يستسيغه البعث ولايدخل في سياسته. ودفعاً لتفاقم الخلاف اقترح عبدالستار الجواري وهو وزير بعثي ادماج جريدتي الثورة والجمهورية في صحيفة واحدة وتمّ ذلك في ٢٢ من تموز واستغني عن كادر تحرير الجمهورية. وفي عين الوقت حيل بين حزب البعث وبين راديو بغداد.

ليس بوسعنا أن نصدق ما جاء من تعاليل في خطاب البكر في ٣٠ من تموز بعد إزاحة النايف وجماعته وانفراد البعث بالحكم. فكله ثغرات وأكاذيب حاول خلالها إثبات دور البعث الرئيس في الانقلاب واضطرارهم الى ضم الآخرين خشية فضح خطتهم وساعة الصفر التي

(٢٢) البكر وحردان وعماش بعثيون والاربعة الباقون (غيدان، حماد شهاب قائد موقع بغداد، النايف، الداؤد) غير بعثيين.

(٢٣) برادلي: المرجع السالف نيويورك تايمس في ٢٦ تموز ١٩٦٨.

عينوها للاستيلاء على الحكم، وما يكاد يكون حقيقةً هو أن التخلص من هذين وكتلتهما كان ضمن خطتهم قبل الشروع فيها.

إنهم يستخدمون عين الطريقة التي كان إخوان عقائديون لهم يستخدمونها في ظروف أخرى للتخلص ممن جاء بهم وصمم على أن يكون عقبة في سبيل احتوائهم السلطة كلها وقصة الثلاثين من تموز هنا تعيد الى الأذهان تخلص بعثيي سورية من زياد الحريري في الثامن من آذار ١٩٦٣. على أن بعثيي العراق كانوا أقل صبراً على دخلائهم ولم يسعهم الانتظار مثل السوريين أربعة أشهر. فأقدموا بعملية تشبه واقعة من وقائع حرب العصابات الداخلية في شيكاغو – أي التخلص من شركائهم في ظرف ثلاثة عشر يوماً، بمهارة عظيمة مبتناة على تجارب سابقة[٢٤] وبهدوء ودون ضجة خلا البيان الذي نوهنا به. معلنين في الوقت نفسه عفواً عاماً عن سائر السجناء السياسيين المحكومين في المجالس العرفية العسكرية منذ العام ١٩٦٣. وبينهم عدا الشيوعيين والقاسميين والديمقراطيين، أعداد كبيرة من الضباط وأعضاء حزب البعث الذين سجنوا في أعقاب إنقلاب ١٨ تشرين الثاني وما بعده[٢٥].

وفي ٣١ من تموز نظم البعثيون تظاهرة ترحيب وابتهاج من الفلاحين والعمال والمتعلمين بثورتهم التصحيحية. في ٣٠ من تموز التي أعلنت ثورة بعثية وخرجت جريدة «الجمهورية» التي باتت بعثية خالصة – بافتتاحية هاجمت فيها النايف والداود بوصفهما من المرتزقة الذين وصلوا الى القمّة بأساليب وضيعة. وآووا الجواسيس وتآمروا لحرف ثورة تموز عن مسارها[٢٦] وراحت المجالس الخاصة تتناقل أنباء عن الرجل الذي يقف وراء عرش البكر، عن شاب في

(٢٤) مثلاً حقق حردان عبدالغفار خلال ثلاثة أيام في وزارة الدفاع أثناء غياب الداؤد في الأردن لتفقد القطعات ما جرد وزير الدفاع من كل صوت يرتفع لنصرته. وعين سعدون غيدان قائداً للحرس الجمهوري ورفع ثلاث درجات. كما رفع حماد شهاب ثلاث درجات وهو تكريتي وآمر موقع بغداد. بعثوا باقالة وزير الدفاع وهو في الأردن وأرسلوه سفيراً الى الرباط، بعد رفض القرار وعودته. أما النايف فبحسب رواية موثوقة وطبق ما رواه صدام حسين لكاتب سيرته. انه استدعى للغداء والمداولة مع البكر في القصر الجمهوري. ولفترة صغيرة غيب البكر نفسه من الغرفة فظهرت زبانية البعث برئاسة صدام حسين ووضعت فوهة المسدس على صدغ النايف ونقل تحت التهديد بالقتل الى طائرة خاصة أقلته الى مراكش.

(٢٥) شرح البكر في خطابه هذا كيف اضطروا الى الاتفاق مع هؤلاء قبل الانقلاب قال إن النايف والداؤد علما به وهددا بفضحه إن لم يشركا فيه ووصفهما بالرجعيين اللذين حاولا استبعاد العناصر التقدمية واحلال العناصر الرجعيّة في الحكم وأن ابراهيم الداؤد هو الذي فرض (النايف) رئيساً للحكومة عليهم. وإنهما ماكانا يريدان تشكيل مجلس قيادة ثورة وأن يقتصرا على الوزارة. وإن البعث كان مرغماً على النزول عند طلبه تفادياً لحصول مذبحه واتهمهما بالاتصال بقوى خارجية معادية للثورة.

(٢٦) الخطاب منشور في الصحف العراقية القليلة العدد. إلاّ أننا اعتمدنا على نصّه المترجم في مرآة الشرق الأوسط Middle East Mirror ٣٠ آب ١٩٦٨.

مقتبل العمر يدعى (صدام حسين) ورويت الحكايات عن الدور الفعال الذي أسهم به في انجاح الانقلاب ولم تثر برقيته الى نيابة امانة سرّ القيادة القطرية دهشة. واختار مجلس قيادة الثورة وزارة جديدة تتألف من ٢٦ عضواً أعلنت أسماؤهم في ٣١ من تموز وكانت برئاسة أحمد حسن البكر. كانت وزارة تميل الى اليسار بالمفهوم البعثي وفيها اثنا عشر وزيراً يستوزرون لأول مرة. في حين تمّ الابقاء على أحد عشر وزيراً من الوزارة التي رئسها عبدالرزاق النايف، باستثناء ناصر الحاني صديق النايف. الذي أخرج من التشكيلة[٢٧] وإباء محسن دزئي واحسان شيرزاد المشاركة في الوزارة عن الكرد الثوار.

وأسندت لكلّ من حردان وصالح مهدي عماش منصب نيابة رئاسة الجمهورية. وأسرعت الحكومة الجديدة أيضاً باطلاق سراح الناصريين واليساريين الآخرين الذين اعتقلهم النايف.

حاولت الكتلة البعثية التي استولت على الحكم مجدداً اجراء نوع من المصالحة أو التهادن بين الفئات البعثية المتطرفة التي انسلخت عن القيادة البعثية خلال الأحداث التي أدت الى إقصائهم عن الحكم في ١٨ تشرين الثاني. كتعيينها مثلاً (علي صالح السعدي) عضواً في اللجنة الخماسية لمكتب العلاقات العربي وكان واحداً من المكاتب الاستشارية التي الفتها السلطة الجديدة لمساعدة مجلس قيادة الثورة في ادارة شؤون البلاد. وفي محاولة سقيمة للتقرب من الثورة الكردية أعلنوا عن اعتزامهم تأسيس جامعة في كردستان. والغي بقرار من الحكومة يوم ١٨ تشرين الثاني يوم عطلة. وانطلقت الأقلام حرة في وصف ما حصل في ذلك اليوم [بنكسة تشرين]. ووصفت انقلاب ١٧ تموز بالثورة التي جاءت لتصحيح ومحو آثار تلك النكسة السوداء.

في ٢٢ من أيلول ١٩٦٨ أصدر مجلس قيادة الثورة الجديد دستوراً (مؤقتاً) جديداً ملغياً دستور العام ١٩٦٤. وتألف من ٩٥ مادة. وفي الأسباب الموجبة لاستنانه ذكروا انه سيبقى نافذ المفعول حتى صدور دستور دائمي. أما فترة الانتقال التي مددت منذ ١٩٦٤ مرتين فقد أصبحت الآن غير محدودة بزمن.

صرحت المادة الأولى من هذا الدستور بأن «العراق هو دولة ديمقراطية (!) شعبية تستند الى التراث الثقافي العربي وروح الاسلام». وذكر في المادة الثانية منه «أن الاسلام هو دين الدولة الرسمي وأن النظام الاقتصادي المتبنى يرمي الى تحقيق الاشتراكية. من خلال تطبيق العدالة

(٢٧) وجدت جثته ملقاة في أحد شوارع بغداد في ١١ من تشرين الثاني وقد تعذرت معرفة الشكل الذي قتل به إذ لم يشر الى اجراء أيّ تشريح على جثته.

الاجتماعية بالتعاون بين القطاعين الخاص والعام». وحرم الدستور الاقطاع تحريماً باتاً وحظر على غير العراقي حيازة أو ملكية ارض زراعية. وقال الدستور انه «يعترف بحقوق الكرد ضمن الوحدة العراقية». واعتبر مجلس قيادة الثورة المكوّن من ستة أشخاص أعلى سلطة في الدولة. ورسم أن يكون كلّ عضوٍ فيه نائباً لرئيس الجمهورية. وأعطي صلاحية تنصيب رئيس الجمهورية وتعيين رئيس الوزراء ونوابه وأعضاء الوزارة وخصّ بحقّ سنّ القوانين وممارسة السلطة المطلقة على القوات المسلحة. والاشراف المباشر على شؤون الدولة، ومكن نفسه أيضاً من حق عزل أو اقصاء اي عضو منه بأغلبيّة أصوات الثلثين. واشترط الدستور أيضاً أن يكون الوزير من ابوين عراقيين لعائلة سكنت العراق منذ العام ١٩٠٠.

بعد سياسة التسامح التي طلع بها البعث في ٣٠ تموز واخلاء السجون من المحكومين والمواقف من المعتقلين الذين كانوا ضحايا محاكم شباط ١٩٦٣. وزيادة عليهم ولاسيما المحكومين من أفراد الحرس القومي نقول بعد هذه السياسة بفترةٍ وجيزة جداً بدأت أجهزة القمع التي خلقها النظام الجديد – تلقي القبض على الخصوم الكبار أولاً. بهذه التهمة أو تلك وقلما كان هؤلاء يحالون الى محكمة الثورة وهي المحكمة التي استحدثت بديلاً للمجالس العرفية العسكرية ما وجد البعث الثاني في العراق نفسه إلاّ وهو مجبرٌ للعودة الى عين التاكتيك القمعي البالغ القسوة بهدف خنق المعارضة، وخلق جوّ من الرعب الجماعي بالسماح عمداً بنشر أساليب المعاملة التي يلقاها أسراهم. كانت البيوت تداهم ليلاً قبيل الفجر وتقلب رأساً على عقبٍ والرجال يختفون من منازلهم أو أماكن عملهم أو تدبر لهم حادثة قتلٍ وهم في طريقهم. وهؤلاء الذين يقبض عليهم يستجوبون تحت التعذيب وتنصبّ عليهم الاهانات المقصودة الرامية الى انتزاع الآدمية منهم وأحياناً يموت المعذبون تحت التعذيب. وكثيراً ما تعطى الجثث لأهلها بحالتها[٢٨] ومن دون محاولة إخفاء آثار التعذيب عليها أو أن يسرحوهم ان استوفوا

(٢٨) ألّفت عشرات الكتب بلغات عدة حول سجون البعث المخيفة وآلات التعذيب التي يستخدمونها وقد شاهد الرأي العام العالمي بعضها عندما عجز البعثيون بداعي العجلة عن نقلها معهم عند إجلائهم عن الكويت. وأفضل اختيار الوصف الذي جاء في (حصاد الثورة. مذكرات. تجربة السلطة في العراق بقلم اللواء الركن عبدالكريم فرحان. دمشق ١٩٩٤. الص ٢٣٥–٢٦٣). والكتاب بين تلك العشرات التي نوهت بها – ذو أهمية خاصة. وفيه أمثلة كثيرة وأسماء ضحايا وروايات يقشعرّ منها البدن حول التعذيب والإهانات والأدوات المستخدمة لايقاع أشد الأذى وإحداث الآلام الجسمية التي تفقد معظم البشر قابلية التحكم على الارادة فضلاً عن الوسائل السايكولوجية كالتهديد بالموت أو بهتك اعراض اقرباء الجاني أو الاعتداء عليه جنسياً. وذكر (فرحان) شخصيات تاريخية عسكرية ومدنية هامة أصبحت ألعوبة بيد الاوباش وحثالات المجتمع من الساقطين الذين كان الحزب ينتقيهم لاداء أمثال هذه المهمات ويعطيهم الصلاحيات الكاملة فيما يريدون فعله بأسراهم. وذكر (فرحان) من المعتقلين رئيسي وزارة (عبدالرحمن البزاز وطاهر =

حظهم منهم وهم على آخر رمق وأنشأوا لهذا الغرض سجوناً خاصة. لهؤلاء المعتقلين الخصوصيين، ولوحق كلّ من كان له يد مهما صغرت في انقلاب ١٨ تشرين الثاني وكل من يشتبه به ملاحقة غلبت عليها صفة السادية واللذة الانتقامية. وقد طالت كما قلنا كل القوميين الناصريين تقريباً.

وفي السابع والعشرين من أيلول ١٩٦٨. أقدمت السلطة على أكبر عملية تصفية عسكرية بين ضباط الجيش الكبار وآمري الفرق والوحدات الكبيرة بحجة اكتشافهم حركة عسكرية سرّية ترمي الى عملية انقلابية عليهم والقوا القبض على ثمانين من كبار الضباط وعلى عددٍ من المدنيين القوميين من ذوي المناصب الخطيرة. وكانت خطة ازاحة هؤلاء واعتقالهم قد تمّ إعدادها بشكل متقن، فلم تثر اهتماماً بين الناس ومرت ببعض برقيات معدّة لتأييد الخطوة الوطنية[٢٩]. ووضع النظام يده على «جامعة الحكمة» التي أسسها الجزويت وأداروها طوال ثلاثين عاماً وطردوا من كوادر الاساتذة حوالي ثلاثين امريكياً والمانياً. قالوا تبريراً لهذا: «انه استئصال للنفوذ الأجنبي. وتصفية لجيوب الثورة المضادة».

= يحيى) وعشرة أو أكثر من الوزراء بينهم محمد صديق شنشل وعبدالكريم هاني والعقيلي وهم أصدقاء لهم قدماء. وروى الكاتب كيف كان هؤلاء الحراس الزبانية يفرضون عليهم أعمال نقل الكناسة والأوساخ بعد جمعها وتنظيفهم المراحيض وإرغامهم على أعمال يقصد بها الحط من كرامتهم واذلالهم كالزحف كالكلاب على أربع أو العواء والنباح مثلهم أو الرقص وهز الارداف والإتيان بكل عمل يأباه الشرف والكرامة تحت خطر الضرب والتعذيب عند رفضه ذلك: «بلغ عدد من نفذ فيهم حكم الاعدام بين كانون الثاني ١٩٦٩ وأيار من عين السنة ستة وثلاثين بتهمة التجسس يقابلهم عدد غير معروف قتل تحت التعذيب. وكانت السلطة تعرض الأشخاص البارزين ممن حكموا قبل التنفيذ لترديد اعترافهم بأنهم كانوا يعملون جواسيس لدائرة المخابرات المركزية الامريكية. ففي أوائل حزيران أعدم اللواء مدحت الحاج سري (شقيق العقيد رفعت الحاج سرّي) أمين العاصمة. بعد اعترافه بأنه كان عميلاً لـCIA لمدة تسع سنوات. وكان اللواء رشيد مصلح الحاكم العسكري العام بعد ٨ شباط ١٩٦٣ ووزير داخلية سابق أحد المعترفين بالتجسس لحساب تلك الوكالة أيضاً وتدبير مؤامرة لإسقاط الحكم وقد جيء به الى التلفزيون للاعتراف بذلك ثم أخذ الى ساحة الموت مع آخرين ومعظم هؤلاء الذين اعترفوا بتجسسهم لحساب الوكالة الامريكية وبالتآمر كانوا انصاراً ومساندين عسكريين ومدنيين لثورة ١٤ تموز. وقد احتلوا مناصب هامة جديدة في عهد الأخوين عارف وعندما طرد البعثيون في ١٨ تشرين كان (رشيد مصلح) قد سمح باصدار كتاب (المنحرفون) الذي عدد فيه بعض الجرائم التي ارتكبها الحرس القومي والبعثيون وطبع منه عشرون ألف نسخة» (راجع فرحان المصدر السالف ص ١٦٣).

(٢٩) كان بينهم الصديق العزيز اللواء الركن كمال مصطفى علمدار والمرحوم الصديق العميد الركن طه ياسين. روى لي اللواء كمال أن ذلك تمّ في منزله فقد دعا ابراهيم فيصل الانصاري رئيس أركان الجيش واللواء الركن زكي حسين حلمي والعميد طه ياسين الى غداء وفيم هم فيه سمعوا نبأ إقالتهم من الجيش ووجدوا الدار مطوقة بالدبابات وألقي القبض عليهم وأرسلوا الى قصر النهاية. ثم بدأت البرقيات تنهال على دار الاذاعة مهنئة الحكومة بالقضاء على المؤامرة العسكرية ولم يقدم أحد من هؤلاء الى المحاكمة باستثناء الانصاري.

وفي العام ١٩٦٩ أحيل الى محكمة خاصّة حزبية صحراوية رئسها غانم عبدالجليل عضو القيادة القطرية، تسعة وثمانون شخصاً بتهمة التجسس والتآمر على إسقاط النظام. وكانت أولى المحاكمات الكبرى بعد محاكمات المهداوي في عهد عبدالكريم قاسم. واتهم أربعة عشر منهم بالتجسس لإسرائيل وأدينوا وشنقوا وعلقت جثثهم في ساحة التحرير أكبر ساحات بغداد ببغداد، وبعضهم شنق في البصرة في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٩ منهم تسعةٌ عراقيون يهود[٣٠].

وممن طالتهم المحاكمات عبدالرحمن البزاز. وعبدالعزيز العقيلي الذي تم توقيفه في كانون الثاني ١٩٦٩ وحكم عليه بالموت بعد أن شهد عليه اثنان من العراقيين بأنهما كانا شريكين في مؤامرة معدّة للاطاحة بالنظام تمهيداً لعقد صلح مع إسرائيل واتهم البزاز بأنه تلقى أثناء تهيئته المؤامرة – المساندة والعون من الحكومة الامريكية وحلف السنتو.

وجاءت المنافسة العنيفة على رئاسة الحكومة بين صالح مهدي عماش وبين حردان عبدالغفار وقد حلها أحمد حسن البكر مؤقتاً بتوليه رئاسة الوزارة. إلاّ أن الخلاف استمر ليودي بهما في الأخير.

وفي أيار ١٩٦٩ وضعت السلطة الحجز على أموال ٤٦ شخصاً اضافة الى قائمة سابقة بخمسة وعشرين بينهم رئيس وزارة ووزير وضابط وصحافي ورجل أعمال وبين هؤلاء أولئك الذين سبق اعتقالهم وزجهم في قصر النهاية وبعضهم ممن اتهم بقبض رشاوٍ وعمولات من شركة ايراب الفرنسية[٣١]. وحاول البعث العراقي التقرب من بعث سورية فأنجز تعاوناً عسكرياً على الجبهة لم يدم طويلاً فدب الشقاق إثر ذلك وقطعت الصلات قطعاً نهائياً ووجدت قيادتان قوميتان وقيادتان قطريتان لم تحاول أي منها عملية توحيد أو صلح قطعاً وان ادعيتا بأنهما تتبنيان عين الأهداف وتطبقان عين المنهاج.

البعث العراقي. الذي عرف بالبعث الشرقي واعتبره المحللون والمتتبعون بأنه أكثر اعتدالاً من البعث الغربي (السوري) بدأ بالتدريج يفقد اعتداله ويأخذ بسبيل التطرف وكأنه في حلبة سباق مع صنوه في سورية فصدر في أيار ١٩٦٩ قرار من مجلس قيادة الثورة أمر بايقاف صرف التعويضات المستحقة لأصحاب الأراضي المستملكة بموجب قانون الاصلاح الزراعي[٣٢]. وصدرت عنه قوانين دراكونية صارمة شملت جميع مناحي الحياة وأودت بالبقية

(٣٠) على أثر صدور الأحكام تعرض النظام العراقي ولأوّل مرة الى نقد دولي واستنكار عالمي.
(٣١) جريدة الانوار البيروتية في ٢٩ أيار ١٩٦٩.
(٣٢) دانا ادم شمدث في (نيويورك تايمس) ٢٤ أيار ١٩٦٩.

الباقية من حرّية الفرد كاستبدال «قانون العقوبات البغدادي» المطبق منذ ١٩١٨ بآخر جديد بدا وكأن مواده العقابية خرجت من بطن القرون الوسيطة. وأصدر ذلك المجلس قانوناً يعطي الدولة الحق في تعيين أي شخص في اية وظيفة ترتئيها وفق المصلحة العامة إن شاء المكلف بها أم لم يشأ(٣٣).

وفي الأول من أيار ١٩٦٩ بمناسبة عيد العمال الوطني أعلن راديو بغداد اعتراف حكومة بغداد رسمياً بالمانيا الشرقية لتكون أول دولة تتبادل التمثيل الدبلوماسي معها من بين الدول غير الشيوعية. وفي تموز من عين السنة حصل العراق من هذه الدولة «الفقيرة» على قرض بثمانين مليون دولار لاقامة مشاريع صناعية كبيرة!

وانشغل البعث العراقي الجديد طوال هذه السنة وما بعدها في البحث عن المؤامرات الخارجية والداخلية وتعقيب الخصوم في الزوايا والخبايا. وخصص لأعمال التطهير البشري أجهزة قمعيّة نشرت اسماؤها الرعب في النفوس للشائعات التي تطايرت حول ما يجري للمقبوض عليه فيها والمحاكمات التي تقام وأجهزة التنفيذ(٣٤) واشتهر بينها بالاسم جهاز (حُنين: بفتح النون وسكون الياء وضم الحاء). بأن نائب الرئيس هو المشرف عليه. وعرف الغرض منه وهو استئصال اعداء الحزب والتخلص منهم. وفتحت السجون ثانيةً لاستقبال وجبات من الشيوعيين والمتشددين القوميين والناصريين. والديمقراطيين الكردستانيين ولم يتبع نهج معين في اقتناص الأشخاص حتى ظنّ أن ذلك يجري لمجرد اشاعة الخوف في النفوس. ولفترة من الفترات. وبعد أن اصرت الثورة الكردية على عدم المشاركة في الوزارة التي الفتها. اتهم النظام المقاتلين الكرد بالتعاون مع الأجنبي وأصبحت الولايات المتحدة هي المسؤولة ودأبت أجهزة دعاية تلك الفترة على مناشدة المواطنين بالبحث عن الجواسيس والابلاغ عنهم. وكثرت الوشايات لأغراض انتقامية بحتة وأصبح الأب يخشى من ابنٍ عاق، والأخ يحاذر من الحديث مع اخيه. حتى بدا العراق وكأنه مرتع للجواسيس ودار حضانة لهم وانهم يتخفون تحت كل حجرٍ أو وراء كل شجرة.

وفي حقل الوحدة العربية والعمل القومي. هوجمت سياسات ومجهودات الدول الثورية

(٣٣) عين المرجع.

(٣٤) روى لي الصديق محسن دزئي الذي استوزره الحكم البعثي في البدء انه ولفيف من الاصدقاء كانوا في مجلس، حضر «طه ياسين رمضان» فقص عليهم هذه الحكاية قال حكمنا على ثلاثة احدهما بالاعدم وثانياً بالسجن المؤبد والثالث بالبراءة. وخرجوا وبعد قليل سمعنا صدى اطلاق النار في الخارج. وتبين لنا أن فرقة الاعدام قضت على الثلاثة معاً بعد خروجهم من المحكمة.

(سورية ومصر) في هذا الباب واعتبرت مجرد مجهودات دعائية. وإن مصر تستخدم ذلك تستراً على تقربها من المعسكر الامبريالي واتهمت أعضاء كباراً من الاتحاد العربي الاشتراكي الذي حلّته وأودعت عدداً كبيراً من أصدقاء عبدالناصر والموالين له السجون ولقي عدد منهم تعذيباً. كما أطلقت حملات قاسية جداً على اسلوبه في العمل القومي واعتبرته تزييفاً ونفت بأن يكون عبدالناصر أو نظامه المعبر الحقيقي عن الأهداف العربية لكنّ هناك حزباً هو حزب البعث – الذي يجسد آمال القومية العربية. وشابت العلاقات بين البلدين برودة قاسية وبقي رجال الحكم لايريدون ولايحاولون نسيان الدور الذي أسهم فيه عبدالناصر وأعوانه في العراق – في إسقاط حكمهم الاول وإزاحتهم عن السلطة(٣٥).

وأدى اتساع رقعة البحث عن الجواسيس والمتآمرين على النظام الى اعظم ازمةٍ بين السلطة والشيعة.

ففي أواخر حزيران ١٩٦٩ تفجرت تظاهرات كبيرة في كربلاء والنجف مع انفجار عبوة ناسفة أدى الى وقوع اضرار في سكة حديد بغداد – ديوانية. تعزى أسباب هذه التظاهرات والأزمة التي خلقت الى محاولة القاء القبض على السيد مهدي الحكيم الابن البكر للمجتهد الأكبر الإمام اية الله العظمى السيد محسن الحكيم بتهمة التجسس لحساب الـCIA ولانتهاك حرمة بيت هذه الشخصية الشيعية اثناء التفتيش عن المتهم.

كما أرسلت مفارز عسكرية لالقاء القبض بعين التهمة على الزعيم الروحي والدنيوي لطائفة اليزيدية الكرد لكنهما استطاعا الافلات من قبضة السلطة.

(٣٥) باتت السفارة المصرية في بغداد، مطوقة تماماً برجال الأمن والشرطة. وهم يراقبون الداخل اليها والخارج منها حتى اذا ابتعد قليلاً القي القبض عليه وأخضع لتحقيق غليظ قد يؤدي به أحياناً الى واحدٍ من سجون البعث الخاصة. وأذكر أن السفير المصري الذي جاء لتقديم شكره (للتاخي) حول المقال الذي كتبته في تأبين عبدالناصر. حانت مني إلتفاتة عابرة من خلال النافذة لاجد عدداً من سيارات الأمن تكاد تطوق مبنى الجريدة، الا انها غابت فجأةً بعد انتهاء زيارة القائم بالاعمال (أو السفير؟) بهذه المناسبة ورغم قلة اعتمادي على المراجع العربية فانا أعتقد وبتجربتي الخاصّة بأن كل ما ذكره (عبدالكريم فرحان) هو صحيح وهو المتواتر الذي لم تنفه السلطة. وأظن أن تجربتي هذه كانت جزاء لما كتبته في حينه حول وفاة عبدالناصر. فقد اختطفت من الشارع وأودعت أشهر سجون التعذيب البعثية المعروف بقصر النهاية. وبعد مرور عدة ساعات على محاولة اغتيال ملا مصطفى البارزاني الشهيرة باسم مؤامرة العلماء في ٢٩ من أيلول ١٩٧٢. كان من المفروض أن تنتهي حياتي بنجاح المؤامرة وشاء حظي أن أحيا بنجاته مع هذا ورغم التهديد الذي أطلقه الزعيم الكردي ونجلاه حول وجوب اخلاء سبيلي فقد بقيت أكثر من ثمانين يوماً حبيساً في غرفة انفرادية. أسمع ليلياً دق المسامير في توابيت الموتى من جراء التعذيب على ما يبدو وصرخات المعذبين التي كانت تعلو رغم الموسيقى الصاخبة التي تبثها مكبرات الصوت في أرجاء السجن لاسكاتها. خرجت ناقصاً ١٣ كيلو ولم يجر تعذيب عليّ خلاف حرماني الغذاء الا ما يكفي لسد الرمق.

وفي البدء لم تتغير سياسة البعث الجديد ازاء الثورة الكردية. وقد تواصلت هدنة ١٩٦٦ التي سادت الجبهة على أثر بيان حكومة البزاز في حزيران وكانت تتخلل الهدنة اتصالات جانبيّة تلح على قيادة الثورة بالسماح للوزيرين الكرديين المعينين بالالتحاق بوظيفتهما. لكن في أواسط شهر آب ١٩٦٨ ساءت العلاقات بين الجانبين الى درجة كبيرة وبدأت مناوشات هنا وهناك. وفي ١٩ من تشرين الثاني طلب مندوب لملا مصطفى البارزاني من (يوثانت) السكرتير العام للأمم المتحدة تسمية وسيط لحل النزاع بين الشعب الكردي والحكومة العراقية «بشكل سلمي وعادل». ولم يخلف الطلب أثراً وازدادت التحرشات والمناوشات عنفاً خلال العام ١٩٦٩. ثم حدثت المعجزة التي طال ارتقابها. فقد سكتت فجأةً صحافة البعث واذاعاته عن اتهام الثوار الكرد بالانفصاليين وعملاء الشاه وCIA وسكتت المدافع والرشاشات وساد الهدوء التام الجبهة ثم تبدلت لهجة الاعلام البعثي ودارت بمقدار مائة وثمانين درجة بظهور مقالات مبدئية ايديولوجية بقلم قادة من البعث تتحدث عن ايمان البعث العربي الاشتراكي بحقوق الشعوب الأخرى في تقرير مصيرها. والاعتراف بعدالة نضالها في سبيل الوصول الى أهدافها القومية. ودخلت السنة ١٩٧٠ ومرت الاسابيع الأولى بتبادل رسائل ومفاوضات عسكرية ومدنية. وأعلن في بغداد بأن السلطة تعترف بأن النضال الذي يقوده الحزب الديمقراطي الكردستاني هو نضال مشرّف وعادل وبعدها جاء دور الرسل والمقابلات. الذي انتهى بإقرار البعث بحقّ الكرد في الحكم الذاتي. ببيان أذيع على الشعب تلته مهرجانات وانفراج عاطفي للشعب العراقي. بدأ بالمهرجانات التي أقيمت بمناسبته في كل ارجاء القطر ولاسيما عند استقبال الوفد الكردي في بغداد بمناسبة التوقيع على بيان ١١ آذار ١٩٧٠.

لم يكن البعث مخلصاً في «تنازله» هذا للشعب الكردي بل بدا كما تبين فيما بعد انه دفع الى ذلك بعدة عوامل. منها إحساسه بعودة الداء العضال الذي فرق شمل قياداتهم في الفترة الأولى من حكمهم. مما أدّى الى حدة الصراح على من يكون له السلطة الفعلية. ومنها خوفه من تنامي طلب بعض الكوادر العليا فيه القضاء على نفوذ صدام – البكر وأعوانهما داخل المنظمة الحاكمة[٣٦]. ومنها المنافسة على من تكون له الصدارة عند الاتحاد السوفياتي بين

(٣٦) طرد حردان عبدالغفار بمؤامرة داخلية في ١٥ تشرين الأول ١٩٧٠ من وظائفه كلها. وكان يعدّ الرجل الثاني. وأرسل سفيراً الاّ انه لم يلتحق. وعُقب واغتيل في الكويت في ٣٠ آذار ١٩٧١. ثم ازيح صالح مهدي عماش في ٢٨ من ايلول: جرد من مناصبه ونقل بطائرة خاصة الى مقر عمله الجديد في موسكو سفيراً ليموت فجأة بعلة فجائية سريعة غامضة بقيت موضع تساؤل حادّ. وحول أسباب ازاحته قيل أن لفيفاً من قادة البعث اجتمعوا في غرفة مجاورة لغرفة يحتلها أحمد حسن البكر في المستشفى حيث كان يعاني مرضاً خطيراً وأن (عماشاً) تساءل عمن سيخلف (البكر) في حالة موته وعرض نفسه للمنصب =

سائر الدول الناطقة بالعربية ولذلك أسرعت بغداد للترحيب باقتراح السوفييت حول انهاء حالة القتال في كردستان العراقية بالاستجابة الى المطالب المحلية السياسية الكردية ضمن الوحدة العراقية. كان في الواقع سباقاً محموماً على خطب ودّ السوفييت والحظوة بالمكانة الأولى بين الدول الثورية الثلاث كسبته على ما يبدو بغداد التي أسرعت بالامتثال لأوامره.

وكان واضحاً بأن سياسة الكرملين بخصوص الشرق الأوسط في تلك الفترة لم يكن من برنامجها قطّ تقريب وجهات النظر بين هذه الدول والحث على دفن الخلافات، خشية أن تتخذ موقفاً موحداً من سياسة الاتحاد السوفياتي العامة أثناء الحرب الباردة، لذلك حرص سادة الكرملين على إنشاء علاقات مستقلة خاصّة مع كل دولة على حدة ليسهل عليهم فرض آرائهم ورغباتهم دون تدخل من الخارج. ويغلب على ظنيّ لو أن الأمر كان بيد البعث السوري مثلاً أو أن كليهما كانا يعملان في جبهة موحدة لصعب كثيراً الوصول الى اتفاق الحادي عشر من آذار[٣٧] وكان هناك مشكلة الجيش المرابط في كردستان الذي سيبقى خطراً كامناً دائماً وهو بعيد عن قبضة البعث وجلّ آمري وحداته غير بعثيين. كانت صفقة يتعذر على الكرد رفضها لأنها مثلت أقصى احلام قادة الثورة في ذلك الحين رغم معرفة قائدها وعدد من الموالين له انها لعبة بعثية بارعة تتسم بالدهاء فالبعثيون وان تظاهروا بكل نوع من التساهل والنزول عند رغبات الثورة. إلا ان الوضع بدأ يتغير في السنة التالية وصار النظام يتلكأ في تطبيق الأهداف القومية التي أملها الكرد عندما بدأت قبضته تشتد على خناق الجيش وتعمل على تحويله الى ذراع بعثية ليس فحسب بالتطهير المدروس والتخلص من الضباط المشكوك في انتمائهم السياسي بل بطريقة تغذيته بأعضاء حزبيين مدربين وأنصار من الدرجة الأولى وذوي رتب صغيرة كملازمين ونواب ضباط يمنحونهم سلطات انضباطية وإدارية وشبه عسكرية تفوق امراء الوحدات الذين يعلونهم رتباً بكثير مع صلاحية إبطال أي أمر عسكري صادر من آمر الوحدة لايتفق وخط الحزب. وقد نشروا أيضاً أمثال هؤلاء في قوات الأمن الداخلي والشرطة وخيروا غير البعثيين في هذين المسلكين بين البقاء أو التقاعد طبقاً لما قال أحد

= بوصفه نائباً أول لرئيس الجمهورية. حدثني صديق يسكن داراً له مجاورة لمنزل (عماش) قال استيقظنا صباح اليوم على جلبة مجنزرات دبابات كانت تحيط بمنزله. وفصائل من الجيش تسدّ المداخل. ثم انتهى كلّ شيء بعد خروج القوات ظافرةً بغنيمتها. كان الثاني الذي يزاح من أمام صدام حسين.

(٣٧) في زيارة قام بها صدام حسين (السيد النائب كما كان يخاطب به) لملا مصطفى البارزاني عقب التوقيع على بيان آذار ونحن قلائل في غرفة. قال متفكهاً ساخراً هذه العبارة باللهجة الدارجة البغدادية «هسه هم اخواننا السوريون يگولون اننا بعنا جزءً من الوطن العربي (مشيراً الى اتفاق آذار). مع هذا لم يلحظ المتتبعون من بعث العراق تحركاً حول الأهداف القومية العروبية فالناصريون زجوا في السجون أو هربوا. وتمّ قتل قائدهم فؤاد الركابي بيد أحد السجناء (قبل خروجه واتمام مدة محكوميته بيومٍ واحد).

قادتهم:

«اللي ما يمشي بسچتنا، يروح يگعد ويه مرته»

«من لايسير في خطنّا فليذهب ويجالس امرأته»

وأصدر مجلس قيادة الثورة قانوناً يمنع فيه مزاولة نشاط اي حزب باستثناء حزب البعث – داخل القوات المسلحة وقوات الأمن تحت خطر فرض عقوبة الاعدام(٣٨).

في باديء الأمر انشغل الحزب الحاكم بملاحقة القوميين غير المؤمنين برسالة البعث. إلا انه مالبث أن عدل عن هذه الخطة وآثر أن ينشيء ما دعي «بالجبهة التقدمية القومية» تحت رعايته وبوصفه الحزب الطليعي. رغم انه لم يكن كثير الاهتمام بهم لاسيما اذا مامنحوه طوعاً مرتبة الرئاسة(٣٩).

ولم يعان البعث الشرقي ما عاناه بعث الغرب من خلافات في تشكيلة القيادتين بعد التخلص من حردان عبدالغفار وعماش فقد أمّن بعث العراق لنفسه قيادة قومية مدجنة كانت حصته فيها كبيرة. تألفت من كل أولئك الذين لاحقهم بعث الغرب أو طردهم أو نفاهم من قياداته مثل عفلق والبيطار وأمين الحافظ ومنيف الرزاز. وبدت هذه القيادة القومية لا أكثر من واجهة قد تصدر بين اونة وأخرى بيانات ودراسات «فكرية» لاتمت الى السياسة المحلية بسبب. وقد تصدر حول السياسة القومية والعربية بوحي وتوجيه من القيادة القطرية. وقنع اعضاؤها بالحياة المرفهة الرتيبة التي يؤمنها لهم الحكم الجديد. إلاّ أن أحدهم (الرزاز) لم ينج من العقاب الدموي الذي نزل به عندما اجترأ على استخدام حقه في النقد والتوجيه كما نص عليه منهاج البعث.

ولم تنته متاعب السلطة البعثية الجديدة على ما يبدو في انتوائها نفض يدها من الحرب في كردستان ففي كانون الثاني ١٩٧٠ أرسلت محاكم الحزب الثورية اثني عشر مدنيّاً و٢٩ ضابطاً ونائب ضابط الى المشانق وساحة الرمي لمشاركتهم حسب التعبير الرسمي في «حركة يمينية ترمي الى الاطاحة بنظام الحكم التقدمي».

وفي شهر نيسان أعلنت حكومة ايران في خطوةٍ غير متوقعة. بأن اتفاقية العام ١٩٣٧ التي

(٣٨) نفذ حكم الاعدام فعلاً بتسعة من الشيوعيين بتهمة قيامهم بنشاط داخل الجيش وضاعت محاولات قيادة الحزب الشيوعي في انقاذهم رغم وجود الحزب داخل الجبهة.

(٣٩) عرف من المجموعات والشرائم القومية التي قبلت الدخول في الجبهة الحركة العربية الاشتراكية وتتألف من كتلتي الناصريين والحركيين. وكان هناك أيضاً ما عرف بمؤتمر القوميين الاشتراكيين وحزب الكادحين العرب وحزب العمال الثوري. وحزب الوحدة الاشتراكي والحزب العربي الاشتراكي.

أعطت العراق حق السيطرة على سائر شط العرب الحدودي – باتت ملغاة. وحشدت قواتٍ على الجانب الأيسر، وتحدت ادلة البواخر العراقيين بالاستغناء عن خدماتهم كما كان يجري في السابق.

***

استقال أحمد الشقيري من رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية وحَلّ رئيس منظمة فتح ياسر عرفات محله قبيل انعقاد مؤتمر الخرطوم. والقائد الفلسطيني الجديد شاب تلقى دراسته في معاهد القاهرة وتخرج مهندساً وعمل في الكويت ردحاً من الزمن. كيف أختير؟ كيف تولى القيادة؟ أمران لايدخلان في صلب موضوعنا هنا، على أن حكم الموقف الفلسطيني بعد الحرب الذهول؟ الحيرة والخيبة العظمى بعد التفاؤل الاعظم ودبيب اليأس في النفوس بعد الحرب؟ الخاطفة ووقوع بقية فلسطين في الأسر؟ كل هذه اجتمعت لتحمل الفلسطينيين على قبول اية زعامة جريئة الكلام تعد بالكثير والمنشود دون ان تبحث في امكانية تحقيق الوعود.

وفي مؤتمر الخرطوم دبّ الخلاف بين رؤساء الدول الناطقة بالعربية حول القبول بمشروع الولايات المتحدة لحل القضية الفلسطينية الذي عرف بمشروع روجرز. وهو نسخة معدلة قليلاً من الاقتراح الإسرائيلي الذي عرض بعد حرب الأيام الستة مباشرة. وافق عليه عبدالناصر مبدئياً وانضم اليه الملك حسين والسعودية إلا ان السوريين والعراقيين أعلنا رفضهما البات للمشروع ونظمت المقاومة الفلسطينية سلسلة من التظاهرات العنيفة في كل من بيروت وعمان ومدن أخرى حيث تتواجد المخيمات الفلسطينية. متهمة عبدالناصر بالخيانة والتخلي عن قضية العرب الكبرى ومنددة بمشروع روجرز بوصفه مؤامرة امريكية ترمي الى مصادرة الحق العربي في فلسطين. وكان وراء هذا التظاهر وأعمال العنف جماعة منظمة فتح الفدائية برئاسة (عرفات) الجديدة.

رفض عرفات فكرة اقامة حكومة فلسطينية في المنفى وراح بدل ذلك يحاول خلق جيش فلسطيني يتألف من زمر وعصابات مسلحة في معسكرات اللاجئين في كلّ من الأردن وسورية ولبنان معلناً بان رجاله هؤلاء سيخوضون من الآن فصاعداً معاركهم الخاصة في ما سماه بحرب التحرير. وعارضوا التسوية التي أقرها مجلس الأمن في القرار المرقم ٢٤٢. وبدأت فعلاً منذ سريان الهدنة ووقف اطلاق النار عمليات تخريبٍ واشتباكات داخل الأراضي المحتلة منطلقةً من مخيمات اللاجئين في لبنان والأردن. ولم تكن هاتان الدولتان سعيدتين برفض الفلسطينيين القرار رقم ٢٤٢ لأن العمليات العسكرية والاغتيالات داخل الأراضي

المحتلة كانت تنطلق من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فيهما. وكان الخوف يملك على كل حكومة منهما مذاهبهما اثر كل عملية تخريب تصدر منهما لما يعقبها من ردّ فعل عنيف إسرائيلي على أراضيها ومواطنيها. مع تصاعد إصرار الإسرائيليين وتصميمهم على البقاء في الأراضي المحتلة. وكانت مأساة حقيقية لاتسلم إسرائيل قطّ من مسؤوليتها التاريخية والانسانية فيها.

حاولت الدولتان منع تسرب الفدائيين الى الأراضي المحتلة وإسرائيل باستخدام قواتهما المسلحة. وعند ذلك بدأت معارك دموية جانبية تنشب بين الفدائيين وبين قوات الجيش الأردني واللبناني.

ضاق صدر الحكام الأردنيين ذرعاً لا بأعمال الفدائيين الفلسطينيين وحدهم بل بغطرستهم وتعاليهم ومحاولتهم التصرف كدولة داخل دولة دون التقيد بقوانين البلاد مطلقاً. وضاعت محاولات الملك حسين في تطويعهم. وتقليص سلطانهم وقد يتمّ نوع من اتفاق حيناً لكن سرعان ما تنقضه منظمة التحرير بإقدامها على عملٍ تخريبي يتبعه غارة تأديبية إسرائيلية. لاسيما من جانب منظمة «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» الماركسية الاتجاه التي يترأسها القومي العربي السابق (حركة القوميين العرب في بيروت) الدكتور الطبيب جورج حبش الذي كان يرى أن النظام الأردني الرجعي لايقل عداء للقضية الفلسطينية عن الإسرائيليين. في حين كان الملك حسين يخشى أن تتسع العمليات الإسرائيلية الثأرية بسبب عمليات الفدائيين في الضفة الغربية – لتلحق اضراراً كبيرة بالأردن. والمثل عينه ينطبق على كلّ من لبنان وسورية. ففي الأولى مركز حركة فتح. وفي الثانية مركز حركة الصاعقة. وقاعدة حركة فتح في الجنوب على الحدود الإسرائيلية. كلتا هاتين المنظمتين قوية جيدة التسليح والمعنويات لاتعوزهما القوى البشرية المتحمسة. وكلتاهما تثيران الهلع في نفوس المسيحيين اللبنانيين الذين كانوا منذ زمنٍ بعيدٍ يتطيرون من الهيمنة الاسلامية على البلاد بدعمٍ سوريّ.

ولم تفلح الاتفاقية التي توسط عبدالناصر بعقدها. ولا محاولة أقدم عليها الجيش اللبناني في ١٩٦٨ للسيطرة على قواعد الفدائيين فوق الأرض اللبنانية وواصلت طلعاتها على الأرض المحتلة وإسرائيل فكان الردّ الإسرائيلي إلقاء قنابل الناپالم على القرى اللبنانية التي تنطلق منها الجماعات الفدائية بحسب زعمهم.

وتوتر الوضع في العام ١٩٦٩ الى أقصى حدٍّ. ونشأت حالة حرب أهلية فعلية في لبنان جراء ذلك عندما هاجمت وحدات من الجيش اللبناني القواعد الفلسطينية فانبرت قوات

الصاعقة وفتح للدفاع ووقع عدد كبير من الضحايا.

والسوريون الذين دأبوا في العامين ١٩٦٨ و١٩٦٩ على التفاخر بتشددهم ازاء العدوان الإسرائيلي واتخاذهم المواقف العربية الجريئة المشرّفة، أظهروا من المواقف العملية في تلك الفترة ما ناقض ادعاءاتهم وعلاقاتهم بالمقاومة الفلسطينية. تراهم من جهةٍ يؤيدون منظمة التحرير في رفضها اي وساطة أو حل وسط. وتراهم من جهةٍ أخرى لايسمحون بانطلاق النشاط الفدائي من داخل أراضيهم. والعراقيون في موقفهم من الفلسطينيين يتفقون تمام اتفاق مع السوريين.

والخلاصة أن السوريين لايريدون أن يحلّ بأرضهم ومواطنيهم ما يحلّ باللبنانيين والأردنيين. ولايسمحون للفلسطينيين بالانتقاص من سلطتهم داخل سورية. والقضية لم تعد عندهم قضية «أمة عربيّة واحدة» ولا أن يكون تشجيع الفلسطينين على استرداد حقوقهم ضمن «رسالتهم الخالدة». ذلكم هو السبب الذي أدّى بحافظ الأسد الى توجيه الضربة العنيفة للمقاومة الفلسطينية عندما بلغ التدخل في شؤون سورية خطراً يهدد كيانها. على أن السوريين من جهة أخرى بذلوا للمقاومة الفلسطينية مساعدات لا غنى عنها ولاتقل أهمية عن السماح بالانطلاق من الأراضي السورية. مساعدتهم في التدريب، توفير مراكز لاصلاح أسلحتهم العتيقة أو إبدالهم اياها بأخرى حديثة سوفيتية تردهم من الدول الاشتراكية. واحتفظت منظمة التحرير ببعض مظاهر اللياقة والاعتراف بالجميل فلم تطلب من عبدالناصر شيئاً أكثر من حرب الاستنزاف والتراشق بالمدفعية والصواريخ عبر القناة وقد كانوا السبب المباشر في تلك الكارثة العظمى التي حلت بمصر وإن كانت بالأصل تدخل في مجال محاولة عبدالناصر اثبات لياقته في زعامة الشعوب العربية بعدم تفويت فرصة لتحرير أرضهم.

مع ذلك بقي عبدالناصر يحتفظ بنوع من التجلة والاحترام في أوساط عربية هامة بعد زوال شبه الاجماع عليه الأمر الذي جعله يقدم على مزاولة عملية الوسيط المهديء والناصح في ميدان الخلافات التي كانت تعصف بالدول الناطقة بالعربية لاسيما حول القضيّة الفلسطينية. كانت تتناهبه عواطف متضاربة كتلك العواطف التي تعصف بعقول المثقفين المحايدين المتابعين لمأساة الدول الناطقة بالعربية – التي تمثل على مراسحها. لاسيما – وبصرف النظر عن القضية الفلسطينية – بسبب الفشل المتواصل الذريع الذي يلاقيه القوميون العروبيون على الصعيد السياسي الخارجي والمحلي. مشاعر متناقضة نتيجة تجارب صبيانية من عمل ايديهم حول حلول خيالية على أكثر تقدير. نقمة عامة وتراشق بالملام ونسيان من بعض الاوجه

ما لقيته مصر بسبب دفاعها عن عروبة فلسطين المهددة. تعاطف عبدالناصر مع أهداف منظمة التحرير من جهة. وغضبه الشديد من رفضها اية تسوية أو مفاوضات تؤدي الى حل وسط. انتهازية القوميين العرب المتمثلة في عدائهم الشديد للشيوعية ولدولها والتمسح باذيالها واستجداؤهم العون منها على الصعيدين السياسي والعسكري بل وعلى الصعيد الاقتصادي!

في الأردن – كان الأمر مستعجلاً والنظام مهدداً تهديداً حقيقياً. حاول الجيش الأردني ضبط الحالة باصدار القيادة العامة أمراً يحظر حمل السلاح على أي فرد خلا أفراد القوات المسلحة الأردنية. فأعلنت المنظمات الفلسطينية هناك في حزيران ١٩٧٠ ان القرار لايشمل افرادها، فتراجعت السلطة. لكن القتال مالبث أن نشب بين الجيش الأردني والفصائل الفلسطينية بعدها بأيام، وتدخلت جهات عديدة وفي مقدمتها عبدالناصر فتوقف القتال.

خلال هذه الأزمة، خطر ببال ياسر عرفات أن يقصد أحمد حسن البكر ليسأله عما اذا كان الجيش العراقي المرابط في الأردن سيخفّ الى نجدتهم ويقف الى جانبهم اذا ما هاجم الجيش الأردني منظمة التحرير؟

كانت ضربة عاطفية غبية سقطت على رأس عبدالناصر ووجد من الضروري أن يفعل شيئاً لعقاب الفلسطينيين على هذه الصفاقة. فأصدر أمراً باغلاق محطتي الاذاعة الخاصتين بمنظمة التحرير – وكانتا تذيعان من أجهزة الارسال القاهرية[٤٠].

وفي العام ١٩٦٨ لمعت فكرة اختطاف الطائرات المدنية في رأس المقاومة الفلسطينية، فضلاً عن الحوادث الانتحارية العنيفة. وهذه الممارسة التي نقلتها عنهم أعداد من المنظمات الارهابية في العالم فضلاً عن الأشخاص القانطين اليائسين من الحياة أو المرضى عصبياً. وارتقت العمليات الى درجة امكان نسف الطائرات من الجوّ بأحدث آلات التحكم البعيدة كما أدت بالأخير الى استنان تشريعات مضادة – من شأنها تحديد الحريات الديمقراطية والفردية. وكانت هناك وقائع اختطاف وحوادث انتحارية هزّت العالم فعلاً[٤١].

(٤٠) بعد هذا بزمن التقى عبدالناصر بياسر عرفات في الأسكندرية فلم يبد منه انه سيرحب بعناق وقبلات. ولم يفتح عرفات هذه المرّة ذراعيه لعبدالناصر أو يمطر وجهه بالقبلات كعادته. وانما صافحه بفتور فلم يخف ذلك عن عبدالناصر فقال له باسماً «لاشك انك تدخر عناقك لتخص به البكر».

(٤١) مثل حادث قتل الرياضيين الإسرائيليين في دورة ميونخ للالعاب الاولمپية [في زيارة حزبية قام بها الدكتور جورج حبش لدار التآخي في العام ١٩٧٠ أنيط بي استقباله ومن معه والمحادثة معه حزبيا. سألته خلال حديثنا عما يمكن ان تجنيه القضية الفلسطينية سياسياً من عمليات اختطاف الطائرات. الا يرى أن تشجيع ذلك يعقّد المشكلة الفلسطينية بدل إعطائها فرصاً سياسية؟ قال لي وأنا أنقل كلامه بالحرف الواحد. انه يتفق معي مائة بالمائة «لكنها أعمال ذات طابع فردي تلقائي لاتعرف المنظمات بها إلاّ بعد وقوعها وتضعنا في مركز بالغ الحراجة. لو نحن ادنّا اصحابها وتخلينا عنهم ادبياً لفقدنا رصيدنا =

على أثر تكرار حوادث التسلل والتخريب. وقيام إسرائيل بغارات تخريبية في عمق الأردن، نفد صبر الحكومة وقرر الجيش في السادس عشر من أيلول تأكيد سلطته مهما بلغ الثمن المدفوع لا بالنسبة للفلسطينيين المسلحين وحدهم ككلٍ بل وبالنسبة الى المختطفين والرهائن الذين يحتجزونهم في سجونهم الخاصة. وأعلنت الأحكام العرفية وألّفت وزارة عسكرية مهمتها «سحق المقاومة الفلسطينية، مرةً واحدة والى الأبد».

في اليوم التالي (١٧ ايلول) تحركت كتائب المدفعية ووحدات مدرعة من القوات البدوية الموالية للملك. متجهة صوب مخيمات اللاجئين التي كانت تحيط بالعاصمة. تحركت لكي «تشفي غليلها» كما وصفت ذلك جريدةٌ، بعملية انتقام رهيبة مالبثت العاصمة عمان إلاّ وأن أصبحت ميدان قتال شوارع يستخدم فيه كل انواع الأسلحة والمقذوفات حربٌ ضروس شاملة بين الفلسطينيين العرب والأردنيين العرب.

وفي الوقت الذي كان القتال على اشده. ومئات الجثث تتساقط والدماء تسفك لتسيل سواقي أو لتعمل بركاً في أرصفة الشوارع والجرحى بالمئات ينقلون الى المستشفيات على ظهور المتبرعين والأصدقاء والحيوانات بسبب عجز سيارات الاسعاف عن نقل الكل. في هذا الوقت بالذات تمكن عبدالناصر من جمع مؤتمر قمة لجامعة الدول العربية لمعالجة الموقف فكان متسرّعاً وارتكب خطأ كبيراً فقد بدا الاجتماع فصلاً هزلياً لرواية ممتعة. لا نظير لها ولا منافس. وهذا جانبٌ مما رواه هيكل وغيره[٤٢] فيما بعد ولم يكذبه أيّ من الحاضرين فيه:

العقيد القذافي (بهياج شديد) لابُدّ من رمي الملك حسين بالرصاص واردائه قتيلاً في الحال [كان في أول الأول قد عارض حضوره في المؤتمر ثم أقنعه الجميع بضرورة

= الشعبي ولايمكن بطبيعة الحال أن ندعيها لأنفسنا فنحن ايضاً حريصون على رصيدنا الدولي». هذا ما سمعته من الدكتور جورج حبش ودونته في حينه في دفتر مذكراتي]. وفي حزيران ١٩٧٠ أصدرت منظمة التحرير بياناً تنصلت فيه من تبعه الهجمات المسلحة على الطائرات قالت فيه إن أمثال هذه الهجمات تلحق ضرراً بالقضية الفلسطينية وتتعارض مع سياسة منظمة التحرير. إلاّ أن عمليات الخطف والهجوم المسلح لم تقف بالبيان. ففي ٦ من أيلول قامت جماعة تنتسب الى الجبهة الشعبية باختطاف طائرة ضخمة (٧٤٧) بهدف الاحتفاظ بركابها رهائن ليتمّ تبادل برفاقهم المحكومين في سجون إسرائيل وسويسرا والمانيا الغربية. واستولي على طائرة تعود لـ(پان امريكان) وهي تحلق فوق البحر الأبيض المتوسط ووجهت نحو القاهرة حيث نسفت بالقنابر بعد اخراج ركابها وطاقمها وأرغمت طائرة امريكية أخرى على النزول في الأردن ونسفت ولقيت طائرة سويسرية أنزلت في مطار أردني مهجور عين المصير. واختطفت طائرة إسرائيلية من نوع (بوينگ) وهي تحلق في سماء أوروپا الغربية إلاّ أن قائدها هبط بها في مطار لندن وقبض على المختطفين. وكان الجواب اختطاف طائرة انگليزية قويض بها على اطلاق سراح (ليلى خالد) مختطفة الطائرة.

(٤٢) هيكل: بالانگليزية: Nasser: The Cairo Documents لندن ١٩٧٣. الص ١٦–١٧ [نقلناها باختصار].

حضوره واستمالته. بدلاً من الاستغناء عنه لأنه مفتاح الحلّ. وأوكل للقذافي مهمة إقناعه بالحضور. فاذا به يدور على عقبيه ١٨٠ درجة ويمسك التلفون ليخاطب الملك حسين هكذا].

القذافي: بالتلفون يا أخ حسين. نحن نكن لك ولشجاعتك أعظم الاحترام. ان أخي صباح السالم (أمير الكويت) الذي يجلس الى جواري الآن يشاركني الرجاء اليك بالحضور.

وافق الملك حسين وطار الى القاهرة. وفي اليوم التالي ظهر ياسر عرفات في قاعة المؤتمر[٤٣] وظهر الملك وكلاهما مسلح.. وهجم عرفات على الملك حسين محاولاً الامساك به والاعتداء عليه وهو يسمعه أبشع العبارات وأحط الشتائم وأقذرها "نذل ساقط مجرم سفاك خائن العروبة والاسلام.." وشتائم مماثلة أخرى.

الملك فيصل (ابن عبدالعزيز الذي خشي أن يؤدي الاشتباك فعلاً الى تبادل إطلاق النار قال مقترحاً بلهجة ساخرة) أرى أولاً وجود ضرورة للتوصل الى اتفاق نزع السلاح ووضعه الآن في جدول الأعمال.

القذافي: إن القتال الذي يدور الآن في الأردن، يبرهن بانّ العرب بلغوا درجة من الجنون مما يجعل الأنسب استدعاء فريق من الأطباء النفسيين هنا لإجراء الفحص بدلاً من عقد مؤتمر قمة.

الملك فيصل (باسماً): أتطوع لأكون أول المفحوصين. [بلغ الانزعاج بعبدالناصر بسبب هذه المهارة الى الحدّ الذي الجأه الى التدخل بقوة.

عبدالناصر: القذافي هو أحوج حالة يتعين فحصها. لو تدخل الامريكان أو السوريون في الأردن فاني لن أرسل جندياً مصرياً واحداً تعلمت درسي في سورية واليمن ولن أقع في خطأ مماثل.

وفد اليمن: (الحديث العهد بالاستقلال) نقترح توجيه اللوم الى الملك حسين.

عبدالناصر: وأي فائدة من هذا؟ كل ما سيفعله الحسين هو أن يضع القرار في درج مكتبه وينساه. [عندما اصرّ الوفد اليمني على مطلبه صاح به عبدالناصر:]

عبدالناصر: أي حقّ لكم في التقدم بهذا المطلب. ما هي مساهمتكم ضد العدو الإسرائيلي في المعركة؟ لا شيء لا شيء. إن الكويتيين الذين وافقوا على الكف

(٤٣) تمّ تهريبه من الأردن بطائرة مصرية متنكراً بالنعال والعقال والكوفية والدشداشة وهو الزي الكويتي .

عن التراشق بالاتهام يساهمون اليوم بكتيبة ترابط الآن في جبهة قتال السويس وقد قدموا الملايين للمقاومة الفلسطينية ولمصر وللأردن.

الملك فيصل: (يوجه الحديث الى عبدالناصر - صديقه الجديد منذ مؤتمر الخرطوم). صحيح يا سيادة الرئيس. انهم مع أولئك الذين يتحدثون مثلهم عن رغبتهم في محاربة إسرائيل الى آخر جندي مصري[٤٤].

بالأخير وافق المؤتمر على صرف النظر عن اللوم أو التنديد، ومن دون أي شروط على إرسال وفد برئاسة جعفر النميري الى عمان لإجراء مفاوضات حول وقف إطلاق النار.

لاشك أنها - وعلى حَدّ قول النميري - كانت واحدة من أصعب المهمات. فالجيش الأردني كان مصمماً على مواصلة القتال حتى النهاية. كما استاءت الحكومة الأردنية كثيراً من قرار ارسال (وفد السلام) لأمر داخلي صرف. فرغم سرعة ابرام اتفاق وقف اطلاق النار بين عرفات والملك حسين ورغم قيام هذا الأخير باصدار أوامر عاجلة لقواته بالكفّ عن الاشتباكات فقد استمرت المعارك يومين آخرين حتى أفرغت القوات البدوية جام حقدها على المخيمات متجاهلة أوامر رئيسها. وبلغ الأمر حَدّاً بضباط الجيش الأردني أن همّوا بطرد (النميري) والوفد المرافق له بعد قصف المكان الذي أنزلوا فيه «بطريق الخطأ»!

واضطر عبدالناصر الى إنذار الحكومة الأردنية بالتدخل عسكرياً الى جانب الفلسطينيين إن لم يتوقف الجيش فوراً.

شبّه مراسل مجلة (نيوزويك) مظاهر الخراب والتقتيل والدمار في شوارع عمان بما لحق بمدينة (بوداپست) إثر التدخل العسكري السوفيتي وسحق الثورة الهنغارية في ١٩٥٦[٤٥].

(٤٤) أنطوني نتنگ: المرجع السالف ص ١٧٣.
(٤٥) مجلة نيوزويك: العدد المؤرخ ٢٠ ايلول ١٩٧٠.

الفصل الحادي والأربعون

دعوة الاتحاد الوطني الافريقي للسودان . إجراءات صارمة في الجنوب . تظاهرات واعمال عنف . ثورة شعبية ضد الحكم العسكري . ازاحة دكتاتورية عبود وإرغامه على الاستقالة . وزارة انتقالية . الشيوعيون في الوزارة لأول مرة . مجلس رئاسي . محاولة شيوعية فاشلة للاستيلاء على الحكم . الانتخابات العامة . اهدار الحزب الشيوعي ومطاردة فلوله . محجوب وحكومة الائتلاف الوطني . انقلاب جعفر النميري وتشكيل مجلس قيادة الثورة وإذاعة البيان الأول . الاتجاه نحو (ج .ع .م) . حكومة برئاسة النميري . دكتاتورية عسكرية سافرة . تمخضات واضطراب في اليمن الجنوبي . عبدالناصر يقوم بزيارة لصنعاء . استمرار الحرب الاهلية . عبدالناصر يعد بإخراج البريطانيين من اليمن الجنوبي بعد تصريم بريطانيا بنيتها في ترك البلاد . اتفاق تنسيق مع مصر كخطوة أولى نحو الوحدة الكاملة . قيام «الاتحاد العربي اليمني» تقليداً للاتحاد الاشتراكي المصري . حل الحزب الجمهوري . بقاء القوات المصرية . التعزيزات العسكرية السوفياتية للرئيس السلاّل . تقديم السعودية دلائل تشير الى استخدام القوات المصرية الغاز السام أثناء قتالها القوات الملكية . مؤتمر القمة . ليبيا تعوض مصر والأردن عن خسائرهما في حرب الأيام الستة . التفوق العسكري الجمهوري والمساعدات السوفياتية . مصر تنظم وتنشط الأعمال الارهابية في الجنوب اليمني . حزبان ثوريان متنافسان على السلطة بعد خروج بريطانيا . نزاع على السلطة (قحطان الشعبي) رئيساً لجبهة التحرير الوطني . الاستقلال . تسليم السلطة . ولادة جمهورية اليمن الجنوبي الشعبية . معونة بريطانيا المالية لليمن الجنوبي . الشعبي رئيساً للجمهورية الجديدة

لقيت دعوة «الاتحاد الوطني الأفريقي للسوادن» تجاوباً وترحيباً بخصوص اقامة اتحاد فدرالي بين العرب الشماليين والجنوب الزنجي. الا ان حكومة ابراهيم عبود الحريصة على وحدة السودان رغم التمايز العرقي واللغوي والديني راحت تتخذ الاجراءات الصارمة المضادة. وفي آذار ١٩٦٤ اقدمت على طرد البعثات التبشيرية المسيحية للاشتباه في كونها تشجع الجنوبيين على الانفصال.

كانت ثورة الجنوب قد بدأت في العام ١٩٦٣ بعمليات تخريب ضد الاجهزة الحكومية. وفي أيلول ١٩٦٤ أعلن الفريق عبود عن تأليف لجنة خاصة للتحقيق في احوال الجنوب ودعا الجمهور الى الادلاء بآرائهم في جلسة مفتوحة في جامعة الخرطوم. الا ان المجتمعين في اول جلسة لهم رأوا وجوب استقالة الحكومة قبل البحث في اساس الموضوع فغضب (عبود) وشتت شمل المجتمعين واغلق باب المناقشة حتى جاءت الثورة الشعبية في تشرين الأول لتطيح الحكم العسكري.

كانت في الواقع ثورة حقيقية بكل ابعادها ومضامينها ثورة شعبية صحيحة تختلف عن كل الانقلابات التي وقعت في البلاد الناطقة بالعربية وسميت ثورات زوراً وعلى سبيل الفخر والمباهاة. ولاول مرة ينهض الشعب للتخلص من حكم عسكري ويقتلعه من جذوره. ثورة من الاسفل لا من الاعلى. اول ثورة نجحت في ازاحة حكم عسكري دكتاتوري وربما آخرها في البلاد الناطقة بالعربية. كانت ثورة عفوية شبيهة بتلك التي اودت بنظام چاوچسكو في رومانيا بعدها باكثر من ربع قرن. لم يخطط لها ولم تعين لها ساعة صفر أو تحدد لها فترة رغم تزايد النقمة وتصاعد الاحتجاج. ثورة شارك فيها الاخوان المسلمون الى جانب نقابات العمال التي تغلغل فيها الشيوعيون الى جانب المنظمات الفلاحية الى جانب طلاب جامعة الخرطوم مع اليسار والاحزاب ورأس الحربة بل الدافع الآني، تلك الوحشية التي مارستها الحكومة في قمع انتفاضات الجنوب وهي التي انضجت وطورت الاحتجاجات والتجمعات الغاضبة فنقلتها الى ثورة كاسحة.

ففي ٢٢ تشرين الاول ١٩٦٤ عقد طلاب الجامعة اجتماعاً غير مجاز لمناقشة مشكلة الجنوب فتصدى لها رجال الامن وحاولوا تفريق المجتمعين فحصل اشتباك جرح خلاله وبسببه تسعة من الطلاب وستة وثلاثون رجل امن واستخدم الطلاب العصي والقناني والاحجار في حين استخدمت الشرطة قنابل الغاز المسيل للدموع ثم جاءت نجدة من رجال الشرطة وفتحت النار وفي اليوم التالي تجدد الاجتماع وتجدد الاشتباك فقتل طالب واحد وكان لقتله ردة فعل عنيفة وصدى جماهيري استنكاري رفض معه الاطباء معالجة جرحى رجال الامن. وخرج الطلاب الى الشارع فاذا بها تظاهرة شعبية هائلة هائجة خلال العاصمة يهاجم المتظاهرون المخازن ودوائر الحكومة ومراكز الشرطة ومحطات البنزين ملحقين بها ما استطاعوا من تلف ودمار.

واتخذت سبيلاً غير معهود فرقها تماماً عن الانقلابات فهذه الثورة التي شملت البلاد كلها

طولاً وعرضاً خلال يومين او ثلاثة لم تبادر الى الاعلان عن سقوط النظام القائم وقيام حكومة جديدة مع «بيان اول يذاع من الراديو فوراً». بل ارغم الفريق (عبود) قبل كل شيء على حل المجلس الاعلى للقوات المسلحة. ثم اقالة الوزارة في ٢٦ من تشرين الاول وتأليف وزارة مدنية صرفة في الثلاثين منه. ولم تجر استقالة ابراهيم عبود آخر رموز الحكم العسكري الا في ١٥ تشرين الثاني اي بعد ثلاثة اسابيع من قيام الثورة. ففي خلال هذه الفترة عمت التظاهرات والاشتباكات الدموية البلاد وتواصلت وسقط عدد من القتلى. الشعب كله كان في الشارع والمشاعر ضد الجيش والقوات المسلحة بلغت حداً اشاعت معه الخوف العظيم في نفوس اعضاء المجلس الاعلى للقوات المسلحة ولم يتفقوا على استخدام الجيش خشية انقلابه عليهم وانضمامه الى الثوار ودعمهم وكانوا يعلمون جيداً ان عدداً كبيراً من ضباط الجيش ناقم عليهم وان هناك احتمالاً كبيراً جداً من فقدان السيطرة على الجنود او ضمان تنفيذ اوامرهم.

ماذا لو رفض الجنود اطلاق النار على المتظاهرين ووجهوها الى الحكام!

علينا هنا أن نميّز فارقاً بين عسكرية بلاد الشرق الادنى وعسكرية السودان فقد كانت العسكرية السودانية كما ظهر من الانقلابات السابقة واللاحقة. اكثر استجابة واحساساً بمشاعر الرأي العام. ولم تعهد قط الى تشتيت وتدمير طبقة السياسيين البارزين او القضاء التام على المنظمات الشعبية التي تتحداها. وسبب ذلك في رأيي هو الاحتراف العسكري. فالضباط السودانيون اذاك لم يكونوا ضباطاً سياسيين. وانما كانوا ضباطاً محترفين لايملكون ايديولوجية خاصة او يتبنون عقيدة قومية او سياسية معينة تتطلب لفرضها قوة وعنفاً. على ان النظام العسكري مع هذا اقدم في الايام الثلاثة الاولى على محاولة القضاء على الثورة – بإلقاء القبض على مئات. الاّ ان التظاهرات مع هذا كانت تزداد عنفاً ويتضاعف حجمها حتى اضطرت المحاكم والمدارس والدوائر الحكومية الى اغلاق ابوابها عندما كمل اضراب عمال السكك الحديد وموظفو المطار ورجال الاذاعة وفنيّوها.

كان (عبود) اول من ادرك عقم محاولة قمع الثورة على ما يبدو فاوعز الى وزير الداخلية العميد (محمد احمد عروه) الى إلقاء بيان انذر فيه المتظاهرين وخارقي أمر منع التجوال باطلاق الرصاص مع الاعلان من دار الاذاعة في الوقت عينه عن تأليف حكومة جديدة اعضاؤها مقبولون من المتظاهرين وجاء في بيان عبود هذه العبارة: «في مناسبات عديدة قلت لكم ان جيشكم المقدام عندما تسلم السلطة لم تكن في نيته ابداً الاحتفاظ بها وممارستها دائماً»[١]

(١) نيويورك تايمس ٣٠ تشرين الاول. الصحف اللبنانية ذكرت انه في مساء الاثنين ٢٦ تشرين الاول بين =

على ان المفاوضات حول تأليف وزارة انتقالية تواصلت ثلاثة ايام. وعيل صبر الثائرين وشككوا في نوايا المفاوضين العسكريين. وفي ٢٨ من تشرين الاول انطلقت مسيرة طلابية الى القصر. وما ان بلغت مدخله حتى سمع دوي اطلاق النار. واعطى احدهم أمراً للحرس باعتراض سبيلهم ففتحت نيرانها على الجموع الحاشدة وقتل اربعة عشر وجرح كثيرون. وعلى اثر ذلك صدر مرسومٌ باقالة اللواء (حسن البشير) من منصب القائد العام للقوات المسلحة وكان يعتبر الرجل القوي وراء كرسي (عبود)، وعين في مكانه اللواء (الظاهر المقبول) على ان (حسن البشير) بقي على رأس القسم الاكبر الموالي لعبود من وحدات الجيش بمواجهة كتلة قليلة العدد من الضباط الذين خلعت عليهم جريدة الاهرام القاهرية مصطلح «الضباط الأحرار». وفي وسط هذه الجلبة شكل الثوار «جبهة الاتحاد الوطني» التي تولت مهمة المفاوضات مع العسكريين.

ولدت جبهة الاتحاد الوطني هذه نتيجة مفاوضات سياسية ومن بطون جبهات سياسية مختلفة. منها ما عرف بجبهة المنظمات الحرفية وتضمّ نقابات العُمال ونقابة المحامين ونقابة المهندسين ونقابة الاطباء ومندوبين عن مستأجري الجزيرة. والمنظمات الطلابية الجامعية والثانوية. وقد سيطر عليها اليسار بسبب المركز الشيوعي القيادي الغالب عليها. الا ان نقابات عدة خرجت عن هذا الاتحاد بسبب سيطرة اليسار وتحكمه.

ثم كان هناك جبهة ثانية اسمها «الجبهة المتحدة للاحزاب السياسية» تضمّ اربعة أحزاب هي: حزب الامة، وحزب الاتحاد الوطني، وحزب الشعب الديمقراطي[٢] والاخوان المسلمون.

ثم انجز ائتلاف بين هاتين الجبهتين. بانتخاب ما عرف بـ(لجنة التعاون) من اثني عشر عضواً غالبيتهم من المنظمات والنقابات ومثلت الاحزاب منها بعضو واحد لكلّ منها. لكن وبسبب سيطرة اليسار وقوة الحزب الشيوعي التي يمارسها على كثير من المنظمات الطلابية والنقابات بدا اليسار وكأنه يمتلك اكثر من عضو واحد فيها[٣].

وفي ٣٠ من تشرين الأول ١٩٦٤ تمّ تأليف الوزارة التي عرفت بالوزارة الانتقالية – من

= السابعة والتاسعة عندما كان (عبود) مجتمعاً مع اعضاء وزارته. كان القصر مطوقاً بجنود يقودهم اثنان من الضباط عالي الرتبة انضما الى الثوار اطلقت عليهم الصحافة اسم الضباط الاحرار. وذكرت الصحف انهما وجها انذاراً لعبود وهددا بنسف القصر وتدميره على رؤوس المجتمعين ان لم يبادروا بحلّ الحكومة.

(٢) انفصل هذا الحزب عن الجبهة فيما بعد وشكل ائتلافاً مع الحزب الشيوعي.

(٣) ك.د.د هاندرسن: جمهورية السودان K.D.D Handerson: The Sudan Republic لندن ١٩٦٥، ص١٤٤، يذكر ان لجنة المفاوضات الشعبية كانت تطلق على نفسها اسم «لجنة الأمن العام».

اربعة عشر مدنياً برئاسة (سرّ الختم خليفة)[٤] وبقي عبود رئيساً للدولة واحتفظ بمنصب القائد العام للقوات المسلحة. ومُثل حزب الأمّة بوزير واحد اسندت له وزارة الخارجية. وحزب الاتحاد الوطني مُثل بوزير واحد (للمالية) الاّ ان الحزب الشيوعي السوداني الصغير الحجم الجيدّ التنظيم مُثل بأربع وزارات عملاً: وزير واحدٌ يمثل الحزب رسمياً والثلاثة الباقون يمثلون النقابات والمنظمات المهنية وكلهم شيوعيون.

تلك هي اول فرصة للشيوعيين في اي بلد عربي لمشاركة (حقيقية غير صورية) في الحكم. بل هي أول ظاهرة شيوعية للوصول الى الحكم باسلوبٍ ديمقراطي كما سنرى – لغرض القضاء على الديمقراطية.

الوزارة كانت وزارة انتقالية. قالت ان مهمتها قاصرة على التهيئة للانتخابات العامة، وعقد مجلس تأسيسيّ لسنّ دستور جديد يخلف دستور ١٩٥٦، ومن مهماتها ازالة آثار الحكم العسكري ورفع القيود عن الحريات العامة واطلاق حرية الصحافة وإلغاء حالة الطوارىء واطلاق سراح النشاط الحزبي.

وقد بقيت الثورة والمنظمات التي اوقدت شعلتها والوزارة التي جاءت بأثرها. ثورة وطنية سودانية خالصة لم ترفع شعاراً عربياً قومياً واحداً. ولم تشجع او تساعد أية حركة او تنظيم سياسي يمت الى التنظيمات القومية العربية في مصر او سورية او العراق بصلة وألّفت الحكومة لجنة خاصة لتطهير الجهاز الحكومي من العناصر الفاسدة والضعيفة والمتعاونة مع الحكم العسكري عهدت برئاستها الى (احمد سليمان) وزير الزراعة ممثل الحزب الشيوعي في الحكومة. فراح هذا يطرد ويفصل ويحيل الى التقاعد. بالجملة والمفرد. كل من عرف بعدائه للشيوعيين وكل من يوصي الحزب الشيوعي باقصائه، بحجة «التعاون مع النظام العسكري» وبين المستغنى عنهم عدد كبير من ذوي الكفاءات والمواهب والنزاهة. فخلق بذلك فوضى هائلة ادارية. واحدث خللاً عظيماً في الماكنة الاقتصادية بسبب اقصاء الخبراء والتكنيين الاوروبيين المستخدمين في مختلف المشاريع الاقتصادية والانشائية.

وكان اولّ خطأ عظيم ترتكبه الثورة بطابعها اليساري الغلاّب واتجاهاتها الاشتراكية الواضحة التي لم تحاول اخفاءها فضلاً عن الموقف العدائي من (ج.ع.م) أو بالاحرى موقف الاخيرة منها اذ كان النظام السوداني الجديد يُمثل عنصرَ خطرٍ ويثير القلق. وقد انتهزت (ج.ع.م) فرصة انشغال الحكومة بمسألة الانتخابات وغيرها من المتاعب لتثير مشكلة تسوية

(٤) كان يشغل منصب نائب وكيل وزارة التعليم في الحكومة السابقة.

مياه النيل والاتفاق على تحديد المنطقة التي ستغمرها المياه بعد اقامة سدّ أسوان[٥].

على أنّ اليسار كان يعمل للتخلص من (عبود) بوصفه رمزاً للسلطة العسكرية وعامل تهديد دائم بعودة الجيش الى الحكم في اية لحظة. واعطاه (عبود) الفرصة في الثامن من تشرين الثاني عندما أصدر امراً بوصفه القائد العام – باعتقال سبعة من الضباط السياسيين الذين نجح النظام المصري في تطويعهم وكانوا يخططون لانقلاب موال لمصر، تسانده (ج.ع.م) فور وقوعه كان عمل (عبود) يتفق تماماً وسياسة الحكومة. لكن الحكومة امتعضت لاقدامه على ذلك من دون مشاورة مسبقة واشاع اعضاء اليسار في الحكومة – كذباً ان الضباط المقالين هم من مؤيدي الثورة. رغم انهم كانوا يعرفون الحقيقة، غير أنهم قصدوا استغلال ذلك لاقصاء (عبود). فأعلنوا في اليوم التالي من راديو (امّ درمان) بوجود محاولة انقلاب عسكري وناشدت الإذاعة الجماهير «بالتزام اليقظة والحذر» وباقامة المتاريس في الشوارع والتظاهر. في التاسع من تشرين الثاني سارت الجماهير في تظاهرات حاملة شعار اسقاط (ابراهيم عبود). كانت تمثيلية غير متقنة للخلاص من الرمز العسكري لم يشعر بها الجمهور فالفوضى والاضطراب الذي نجم عن المسيرات الصاخبة وعجز المحرضين عليها عن كبحها واحتوائها ادت الى شلل تام في الحياة العامة. واغلق المطار وتوقفت حركة السفر وهوجمت السيارات الخاصة وعطبت. وقطعت الاشجار التي كانت تحفّ بارصفة الشوارع ليعمل منها متاريس وحواجز فضلاً عن هدم بعض المنشآت لاستخدام انقاضها موانع عند تقاطع الطرق والجسور. وانزل الشيوعيون في المظاهرات شعار اسقاط «المجلس الأعلى والموت لاعضائه». الاّ ان (سرالختم خليفة) رئيس الحكومة أدرك أن زملاءه الشيوعيين ينتهزون الفرصة لتحويل الثورة الى انقلاب شيوعي فلم يهتم بثورة الشارع ولم يتعجّل رغم الضغط وبقي اياماً عدّة

(٥) يعود الخلاف الى ما قبل ست سنوات. في شباط ١٩٥٨ جرّد عبدالناصر حملتين عسكريتين على منطقتين ادعى بأنهما اراضٍ مصرية. واحدة على ساحل البحر الاحمر والثانية على احدى الضفاف الشرقية لنهر النيل. ونزلت القوة في المنطقة المقصودة دون ان تلقى مقاومة وفي عين الوقت زحف من (اسوان) رتلان اتجه احدهما الى وادي حلفا فضل سبيله ومات عدد كبيرٌ من افراده بسبب العطش. واتجه الرتل الثاني نحو (ابو رمده). وعندها رفع السودان شكوى الى مجلس الأمن في العشرين من شباط ١٩٥٨. وقبل ان يبت المجلس في الشكوى بادرت مصر الى سحب قواتها. ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ فقد اتهمت صحافة (ج.ع.م) السودان بكل شيء لاسيما بأنها كانت تحت تأثير الامبرياليين عند تقديمها الشكوى وبقي العداء مستحكماً لترثه الحكومة الانتقالية. يراجع كتاب غريغوري بلاكسلاند: مصر وسيناء: Gregory Blaxland Egypt and Sinai نيويورك ١٩٦٦، ص٢٩٢ ارسل العقيد (علي خشبة) السيّء السمعة في البلاد العربيّة – بوظيفة مستشار لسفارة (ج.ع.م) في الخرطوم في يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ فلم يمكث غير ثلاثة ايام. حتى طلب منه بعدها مغادرة السودان لاثارته القلاقل واعمال التآمر.

يبحث مع (عبود) والضباط الاقدمين عن مخرجٍ وفي الخامس عشر من تشرين الثاني توصلا الى اتفاقٍ يقضي باستقالة (عبود) بشكل يحفظ كرامته ويشرفه وبالمناسبة أشاد رئيس الوزراء بالقوات المسلحة لأنها استجابت لرغبة الشعب وعبرت عن مشاعره بالعودة الى ثكناتها وتسليمها أعنة الحكم للمدنيين. وسجل (عبود) خطاباً بمناسبة الاستقالة تلي في اجتماع لمجلس الوزراء ثم اذيع من الراديو.

قال انه ينزل عن سلطاته التي منحته ايّاها جبهة الاتحاد الوطني لا تلك التي منحه اياها المجلس الاعلى بنتيجة انقلاب ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٨، كما انه تنحى عن القيادة العامة للقوات المسلحة وعين في مكانه اللواء (محمد الخوَدَ).

ثم بادرت الحكومة الى تعيين (مجلس رئاسي) يقوم بوظيفة رئاسة الدولة مؤلف من خمسة اعضاء شبيه بذلك الذي حُلّ في ١٩٥٨.

احبطت المحاولة الشيوعية للاستيلاء على الحكم[٦] وبدت الثورة السودانية لوهلة من الزمن وكأنها ترسم نقطة تحوّل عظيمة في البلاد الناطقة بالعربية. بين انهيار النظم البرلمانية بانقلابات عسكرية وشبه عسكرية وعودتها منتصرةً. شوهدت اجراءات الثورة وكأنها شعاع وضاء وبصيص أمل في ان تعود البلاد الناطقة بالعربية الى حالة استقرار مبتنى على الحكمة والتعقل والاخلاقية لا على منطق السلاح والتعصب القومي. واعتماد الثورة القومية اساساً لنظام الحكم وعدت الحكومة الانتقالية بحلّ عادل لقضية الجنوب عن طريق المفاوضات بعد ان عجز الحكم العسكري عن اخضاعه باستخدامه الوسائل القمعية اللاإنسانية، ومرابطة ثلثي الجيش فيه.

وأعلن وزير الداخلية (كليمنت موبورو) وهو من الجنوب هدنة من خلال جولة تفقد في أقاليم الجنوب. وعند عودته في السادس من كانون الثاني ١٩٦٥ قام بضعة آلاف من الجنوبيين القاطنين في الخرطوم بمظاهرة ترحيب به مالبثت أن انقلبت الى حوادث شغب ثم اشتباكات دموية بين الجنوبيين والشماليين قتل فيها عدد من الجانبين لم يكشف عنه.

ادى ذلك الى ازمة تدخل فيها عدد من الدول الأفريقية وأقدمت الحكومة على بعض التنازلات الا ان الجنوب كان يفضل قيام استفتاء حول القبول بعروض الحكومة. او انه يرغب في الانفصال والاستقلال او في نظام فدرالي؟ الا ان المسألة بقيت معلقة بسبب الانتخابات

(٦) تنفي المصادر الشيوعية (لاسيما الصحف السودانية الموالية) اي نية للحزب الشيوعي في إحداث انقلاب على الثورة باستغلال ذلك الحدث.

العامة واجتماع المجلس التأسيسي في نيسان. لكن الجنوب قاطع الانتخابات ولم يشارك فيها، فضلاً عن النزاعات والمشاحنات التي رافقتها بين الاحزاب اليسارية وجبهاتها وبين الاحزاب المعتدلة[٧] فألّفت الحكومة تحت ضغط اليسار لجنة حول الظروف التي ادت الى انقلاب ١٩٥٨ بهدف تشويه سمعة حزب الامة عن طريق تعيين دور (عبدالله خليل) فيه. وكانت ردة فعل قوية جداً ضد الشيوعيين. فقد انبرى حزب الامة وأنصاره ومساندوه من حزب الاتحاد الوطني بمئات الالوف من الاعضاء والموالين وارغموا الحكومة في ١٨ من شباط ١٩٦٥ على الاستقالة.

وأعاد سرالختم خليفة تشكيل وزارة جديدة لم يعد للشيوعيين فيها اليد العليا. فقد ضمت ثلاثة من الجنوب وممثلاً واحداً لحزب جديد عرف باسم «الحزب الاسلامي» وهو حليف للاخوان المسلمين. وتركت للشيوعيين وزارة واحدة وخصت حزب الشعب الديمقراطي بثلاثة مقاعد ولم تخص جمعية الفلاحين المستأجرين ولا المنظمات العمالية بأيّ ممثل.

وجرت الانتخابات العامة في الحادي والعشرين من نيسان ١٩٦٥، وشارك فيها الجميع باستثناء حزب الشعب الديمقراطي الذي لم يكتف بمقاطعتها بل بمقاومتها. وحجته ان اقتصارها على الشمال قد يؤدي الى انفصال الجنوب.

في حين ان محاولة اجرائها هناك كان من الصعوبة بمكان[٨] بصورة عامة. وبصرف النظر

(٧) بدء الأمل في قيام نظام برلماني تعددي في السودان يتضاءل بعد ان استبشر المعسكر الديمقرطي في العالم بالثورة بسبب ما حصل قبيل الانتخابات واثناءها. ويمكن تلخيص ما حصل بهذا:
في مبدء الأمر اتفق اليسار مع حزب الشعب الديمقرطي الذي يتعاطف مع (ج.ع.م) على تأجيل الموعد المقرر لاجراء الانتخابات من آذار الى نيسان. وقبلت الحكومة مطلب التلاميذ باضافة ١٥ مقعداً للخريجين على اساس تخفيض سن الناخب القانونية من الحادية والعشرين الى الثامنة عشرة. وبدفع من الشيوعيين طلب اتحاد نقابات العمال وجمعية الفلاحين المستأجرين ان يخصص لهما نصف المقاعد. والهدف واضح هو انتقال الحكم الى نظام اشتراكي (بروليتاري) صرف نتيجة (اتحاد العمال والفلاحين) وادركت الاحزاب المعتدلة التقليدية ما يدبر وبدء صراع حقيقي. معركة حقيقية على السلطة. أديمقراطية برلمانية صحيحة؟ او نظام الحزب الواحد؟ اقترحت جمعية المستأجرين الفلاحين في بيانها الانتخابي تأميم كل مشاريع القطن وتحويلها الى جمعيات تعاونية كسائر المشاريع الانمائية والاقتصادية. واراد الحزب الشيوعي التمهيد للانتخابات بالقيام بعمليات تطهير للتخلص من «الرجعيين والبورقراطيين» في دوائر الحكومة واقامة دوائر انتخابية خاصة للعمال والفلاحين والمثقفين الوطنيين. رغم ان الحكومة كانت في مطلع العام ١٩٦٥ قد اقدمت على عمليات تطهير في الجيش والشرطة والدوائر الحكومية وألغت امتياز ست صحف كانت تتلقى المساعدة من الحكم العسكري.

(٨) وقد قرنوا قولهم هذا بالفعل. ومن بين الحوادث التي افتعلوها انهم وفي (خشم الحربه) على حدود الحبشة هوجمت الشرطة بالسيوف والهراوات. ولم تفتح الشرطة النار على المهاجمين الا بعد سقوط اربعة قتلى منهم كما ادى ذلك الى مقتل عشرة واضعافهم من الجرحى واقتضى ارسال النجدات. والقي =

عن الجنوب الزنجي وبشهادة المراقبين والصحافيين اظهر السودانيون تعقلاً ورجاحة وهدوءً في عملية الانتخاب. تعبوا كما يبدو من الفوضى والشغب والشعارات والتظاهرات التي يدفع بها اليسار وجاؤا ببرلمان لم تكن تركيبته مفاجأة للمراقبين. فمن اصل ١٧٣ مقعداً من الشمال نال حزب الامة ٧٥ ونال الخريجون مقعدين وظفر الشيوعيون باسم الخريجين بـ١١ مقعداً. وحاز الحزب الاسلامي ٣ مقاعد اثنان منها للخريجين.

واستقال (سرالختم خليفة) في الثاني من حزيران وألف الحزبان اللذان نالا معظم المقاعد وزارة ائتلافية برئاسة احمد محجوب رئيس حزب الامة. في حين انتخب (أسماعيل الازهري) رئيسا للمجلس الخماسي الاعلى[٩] الذي يقوم مقام رئيس الدولة في العاشر من حزيران.

اتسمت العودة الى النظام البرلماني بصراع بين الجبهتين الجبهة التي تتألف من حزب الامة والاتحاد والاخوان المسلمين والجبهة التي تتألف من الشيوعيين واليسار بصورة عامة، طوال اجتماعات المجلس التأسيسي. كان صراعاً خفياً خرج الى العلن عندما وجه طالب شيوعي عبارات قذف بالرسول وبزوجه الفضلى عائشة وصعد العلماء والاوساط الدينية ذلك الصراع وزادوه وقيداً الى الحد الذي أصدر المجلس الرئاسي في ٢٢ من تشرين الثاني أمراً للحكومة بوضع لائحة قانون تقضي بوقف نشاط الحزب الشيوعي وتحريمه وصرّح (احمد محجوب) رئيس الحكومة في مثار النقع والمعركة على اشدها بقوله «ديمقراطيتنا مستمدة من الاسلام» وقدم مشروع قانون في كانون الثاني الى المجلس التأسيسي يقضي باهدار الحزب الشيوعي وحاز الأغلبية وتم طرد أعضاء المجلس الشيوعيين وابطلت نيابتهم بحكم القانون الجديد. فاندلعت تظاهرات واسعة نشأت عنها اعمال شغب وفوضى كادت تشل الحياة اليومية.

الاخوان المسلمون يقودون تظاهرات تشفٍّ وابتهاج، والشيوعيون يقودون تظاهرات سخط وشجب وتهديد ووعيد. وتقدم النواب الشيوعيون الذين طردوا باعتراض الى المحكمة العليا فقضت بعدم شرعية اخراجهم. لان القانون الجديد لاينسحب على أفعال لم تكن ممنوعة قبل سنه الا ان المجلس لم يعبأ بقرار المحكمة. وأصر على عدم دخولهم قاعة المجلس باعتبارهم «اعداء الاسلام وعملاء الاتحاد السوفياتي» طبق ما جاء في بيان رسمي اعدته رئاسة المجلس.

ولم يستسلم الشيوعيون بسهولة.

= القبض على رئيس الحزب (علي عبدالرحمن).

(٩) كان يطلق عليه احياناً اسم مجلس الدولة او مجلس السيادة.

ففي ٢٤ من كانون الاول ١٩٦٥ حصلت في الخرطوم اشتباكات مسلحة بين جماعات اسلامية وجماعات يسارية أثناء قيام نقابة المحامين بمسيرة احتجاج نظمها الشيوعيون دعماً لقرار المحكمة العليا. وشجباً لقرار المجلس التأسيسي باخراجهم. مطالبة رئاسته بالاعتذار عنه وعودة النواب الشيوعيين.

تواصلت الاشتباكات بعد المسيرة عندما رفض طلب المحتجين لتؤدي بعد يومين فقط الى محاولة انقلاب عسكرية قادها ضباط يساريون صغار الرتبة بدفع وتشجيع من الحزب الشيوعي في ذلك الحين كان (الصادق المهدي) قد حل محل احمد محجوب في رئاسة الحكومة. ويظهر ان المحاولة لم تكن جدية او في نهاية الضعف اذ تم القضاء عليها بمنتهى السهولة وأعلن الصادق المهدي من دار الاذاعة عن ذلك بقوله:

«حاول بعض المجرمين القضاء على نظامنا الديمقراطي في السودان باغتصاب السلطة بمساعدة وحدات مجندة حديثاً (مستجدة) من الجيش فتم القضاء عليها.»[١٠]

أجل، ساهم الشيوعيون مساهمة كبيرة في ثورة ١٩٦٤ التي اطاحت النظام العسكري الاّ انهم ارادوا احتكار السلطة ولعبوا باوراق تزيد عما في يدهم في ظل الديمقراطية ولم يتفهموا طبيعة مجتمعهم ولا القوى التي تواجههم وطبعت العجلة والاعتداد بالنفس محاولتهم فرض نظام الحزب الواحد بالطابع الاشتراكي على انقاض ديمقراطية ساعدوا كثيراً في بنائها. فاتحدت كلمة الاحزاب الأخرى واتفقت على ازاحتهم من الحياة السياسية وادى الامر الى ان يفقدوا شرعيتهم وحزبهم وارغموا على العودة الى العمل السري لغرض الاستيلاء على الحكم بالقوة والعون العسكري مثلما باشروها قبل سنوات وظهروا قوةً يعتد بها[١١] لاتفتقر الى انصار وموالين متحمسين. كان لدى الحزب الشيوعي السوداني ضباط في الجيش يحملون

(١٠) ترأس محاولة الانقلاب ملازم يدعى (خليل حسين عثمان) الذي كان مسؤولاً عن الجنود المستجدين. فأمر سريتين (حوالي مائتي جندي) بالاحاطة بالقصر الجمهوري والاذاعة واحتلال نهايات الجسور. ثم عاد الى منزله ليغفو غفوةً وهو بثيابه العسكرية. عندما ادرك الصادق المهدي بما يجري قصد دار الاذاعة فمنع من دخولها حتى اقبل ضباط آخرون امروا المجندين بتسليم اسلحتهم. والقي القبض على الملازم الاول عثمان وملازمين اثنين آخرين وعدد من اعضاء الحزب الشيوعي وقائد قطاع المدينة الشرقي في تلك الليلة. ثم اعتقل ستة ضباط آخرون في اليوم التالي. وذكرت الصحف ان قائد المحاولة كان يحتفظ في جيبه باسماء ضابط سبعة سيتألف منهم مجلس قيادة ثورة عند نجاح الانقلاب كما ضبط معه نص خطاب كان سيذيعه باعتباره ناطقاً رسمياً باسم المجلس المنتوى واحيل هو وجماعته الى محكمة عسكرية في شباط ١٩٦٧ فحكم عليه بالسجن عشر سنوات وعلى ثلاثة من ضباط الصف بخمس لكل منهم وبرّيء الباقون.

(١١) الاولى حصلت في ١٩٥٩ وتزعمها عبدالله وشنان.

بطاقة الحزب. لكن الوقائع والاحداث اثبتت انهم اضعف من القيام وحدهم بانقلاب ناجح.

من جهة أخرى لم تكن الحكومات التالية تدرك مقدار الخطر الكبير من ارغام الحزب الشيوعي وحلفه اليساري على العمل السري الذي يجرد السلطة من كثير من قدرتها على الرقابة. كما انها قللت من مقدار تأثيرهم على الشارع وانشغلت الاحزاب التقليدية عن الخطر الشيوعي بالصراع العنيف داخل الحكومة وخارجها طوال السنوات الخمس التالية واشغلها عن اصلاحات ضرورية في اجهزة الحكم والاوضاع المعاشية.

في ٢٧ من تموز ١٩٦٦ استدعى (محمد احمد محجوب) السيد الصادق المهدي وكلفه بتأليف حكومة ائتلافية لغرض حلّ مشكلة الجنوب الاّ ان الوزارة لم تستطع التقدم خطوة واحدة لوقف حوادث العنف ولا في طريق المصالحة الوطنية. على ان حكومته التي كانت حكومة ائتلاف بين حزب الامة الذي يترأسه وبين الاتحاد الوطني، ظل جوّها متوتراً وبقيت تفتقر الى الانسجام.

وفي النصف الثاني من هذا العام حصلت مواجهة داخل حزب الأمة وانشق على نفسه فكان ثم جناح محافظ وجناح تقدمي، تزعمه الصادق المهدي نفسه. الاّ انه لم يصمد امام حلف واسع من الجماعات الاسلامية والجناح المحافظ من حزبه وعناصر من المحافظين والمعتدلين وعناصر اقل تقدمية فارغم على الاستقالة ولم يدم حكمه اكثر من عشرة اشهر. والف (محجوب) وزارة عرفت باسم «حكومة الائتلاف الوطني» من الجناح المحافظ من حزب الأمة والمعتدلين وغالبية حزب الاتحاد الوطني وحزب الشعب الديمقراطي، وحلف احزاب الجنوب الثلاثة.

شرعت الحكومة الجديدة بانتهاج سياسة جديدة، بدأتها ولاول مرة بعد الثورة بالتقرب الى الانظمة الثورية فارسلت ضباطاً الى (ج.ع.م) لغرض التدريب والدراسة. وبمناسبة حرب الايام الستة بادرت الى قطع علاقتها الدبلوماسية مع بريطانيا والولايات المتحدة وسحبت بعثاتها العسكرية من الدولة الأخيرة التي ارسلت في السابق لغرض الدراسة والتدريب. ثم ارسلت بالمقابل بعثات عسكرية الى الاتحاد السوفياتي وجيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وبلغاريا للاطلاع ولعقد صفقات سلاح وتبع ذلك وفود تجارية تم خلالها عقد اتفاقات مع الاتحاد السوفياتي بقيمة ١١ مليون پاون ستريليني ومع جيكوسلوفاكيا بقيمة ٣٠ مليون دولار. وكان ثم عقود مماثلة مع المانيا الشرقية ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا.

وفي حقول التعليم والتكنولوجيا كسبت السودان لنفسها ٤٠٠ زمالة دراسية لطلابها في اوروپا الشرقية فضلاً عن مبادلة الخبراء والتكنيين.

فتحت ازمة (تيران) وحرب الايام الستة الباب للسودان للمساهمة في الحقل العربي بشكل ظاهر فعال وكان كما رأينا ضيفاً لمؤتمر قمة الجامعة العربية الرابع[١٢].

ومع هذا النشاط السياسي والاتجاه الواضح نحو الشرق جرى انفراج مؤقت في التوتر الداخلي. وكسبت الحكومة عطف اليسار وأمنت صولات الحزب الشيوعي السري، رغم حصول تأخير في اصدار الدستور الدائم فكان من المفروض ان تجري الموافقة عليه من قبل المجلس التأسيسي على اثر ظهور نتائج الانتخابات العامة التي عين لها شهر شباط ١٩٦٨ وعلى اثر حرب الايام الستة. اتخذت حكومة محجوب خطوات أخرى قربتها من مصر والبلدان الناطقة بالعربية ففضلاً عن قطع علاقاتها ببريطانيا والولايات. قامت بسحب ودائعها من العملة الاجنبية من بريطانيا واودعتها المصارف السويسرية. كما انها طردت التكنيين والخبراء الامريكيين من البلاد فأجابت الولايات المتحدة بقطع عونها من الحبوب عنها وإلغاء جميع زمالاتها الدراسية. الاّ ان الخرطوم مالبث ان اعادت علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا في كانون الاول ١٩٦٨، ثم اعادتها في مطلع السنة التالية مع الولايات المتحدة.

ثم حصل انقلاب النميري العسكري.

كان ذلك في نهار الأحد الموافق للخامس والعشرين من ايار ١٩٦٩.

هيّأ الانقلاب ضباط تسعة من اليساريين صغار الرتبة اعلاهم رتبةً العقيد (جعفر النميري) البالغ من العمر ٣٩ عاماً (رفعّ نفسه فوراً الى رتبة لواء) بالتعاون مع ضباط شيوعيين ويساريين وعدد من المدنيين.

في فجر ذلك اليوم أمرت القطعات التي كان المؤتمرون قد أمّنوا ابقاءها خارج العاصمة بحجة التدريب – امرت باقتحام المدينة وكان مجموعها الكلي بتعداد فوج وهي مؤلفة من وحدتي مظليين ووحدة مشاة ووحدة مدرعات، قد لايبلغ تعدادها ٤٥٠ نفراً. وقامت هده القوة بقطع اسلاك التلفون واحتلت دار الاذاعة وقصر الرئاسة. وتم إلقاء القبض على القادة العسكريين الكبار والزعماء السياسيين واعضاء الحكومة.

أعلن عن تشكيل مجلس قيادة الثورة برئاسة جعفر النميري الذي عينه المجلس في عين الوقت قائداً عاماً للقوات المسلحة. وتم يتعين (ابوبكر عوض الله)[١٣] رئيساً لمجلس

(١٢) كان محمد احمد محجوب صاحب الدور الرئيس والفعال في التقريب بين عبدالناصر والملك فيصل السعودي وتسوية الخلاف بينهما كما رأينا.

(١٣) كانت محكمته التي افتت بعدم قانونية طرد النواب الشيوعيين من المجلس التأسيسي كما مرّ. وعندما تجوهل قرار محكمته قدم استقالته.

الوزراء. وهو رئيس المحكمة العليا السابق المعروف بتطرفه اليساري فالف وزارة معظم اعضائها من المدنيين. بينهم ثلاثة من الحزب الشيوعي وسبعة او اكثر من رفاق الطريق لذلك الحزب.

أعلن النميري في (البيان الأول) الذي اذيع من محطة (ام درمان) ان مجلس قيادة الثورة قد تسلم السلطة بموجب احكام الدستور الذي سيعلن فيما بعد! ثم تعاقبت البيانات معلنةً حل المجلس الرئاسي الخماسي وحل مجلس النواب. ولحق بهذا بيانات تتضمن إلغاء الاحزاب السياسية وفرض الاحكام العرفية. وصدر بيان يفرض عقوبة الموت على كلّ متظاهر او مضرب.

في البيان الأول. علل النميري اسباب قيامه بالانقلاب باضطراب حبل الأمن وشيوع الفوضى في البلاد. وانتشار الرشوة والفساد في اجهزة الدولة وقال ان البلاد لم تنعم منذ العام ١٩٥٦ بأي درجة من الاستقرار وان ثلاثة عشر عاماً من الحكم كان سلسلة من صراع على السلطة بين الاحزاب التي استخدمت الحكومة والسلطة وسيلة للاثراء والارتزاق وجرّ المغانم والمكاسب الحزبية والشخصية وان الجماهير فقدت ثقتها بالحكومات المتعاقبة التي فتحت ابواب البلاد للاجنبي ونفوذه وان الاحزاب الحاكمة عرضت خدماتها على الامبريالية وخدمت مصالحها وان ثورته هذه هي ثورة الشعب انما جاءت تلبية لأمانيه وتحقيقاً لمطلبه في ان تتبوء السودان مكانتها الجديرة بها في سوح النضال العربي وفي سبيل الحقوق العربية في فلسطين. كما انها عازمة عزماً اكيداً على ايجاد حَلّ عادل لمشكلة الجنوب.

وكان الاتفاق قد تّم بين مجلس قيادة الثورة الذي شكله النميري وبين شركائه في الانقلاب من الشيوعيين والاخوان المسلمين وعدد آخر من المدنيين والى جانب ترفيع نفسه الى رتبة امير لواء واحتفاظه في الوزارة الجديدة بمنصب وزير الدفاع عين النقيب (فاروق عبدالله) بعد ترفيعه الى رتبة عميد. وزيراً للداخلية وتألف مجلس قيادة الثورة من عشرة، سبعة برتبة رائد وواحد برتبة نقيب والنميري الوحيد الذي كان برتبة عقيد ثم الحق به رئيس الوزراء.

كان رئيس الوزراء في الواقع واحداً من تلامذة عبدالناصر لذلك لم يكن بغريب عليه ان يقبل بازالة كل معالم الديمقراطية بالموافقة على إلغاء الأحزاب وتحديد الحريات بالقيود التي فرضها الحكم العسكري الجديد. «الذي سيقوم في الوقت المناسب ببناء ديمقراطية حقيقية» لا كتلك الديمقراطية المزيفة التي حكمت البلاد.

ضمت الوزارة جوزيف گرانگ وهو شيوعي واسندت اليه وزارة التموين والدكتور طلعت

جعفر للعمل ومحجوب عثمان للاعلام وكلاهما شيوعي. الاّ ان عبدالخالق محجوب السكرتير العام للحزب الشيوعي لم يستوزر. وعين (أمين الشبلي) وهو ماركسي مستقل وزيراً للعدل.

وأعلنت الحكومة بشكل غريب غير متوقع انها تتبنى القضايا العربية. وقضية القومية العربية وقضية فلسطين. والتضامن العربي كما انها تتطلع الى اقامة صلات اوثق مع البلدان الاشتراكية. وتحدثت الحكومة عن نفسها بوصفها حكومة اشتراكية المنحى والمنهج وانها ستتبنى نظاماً اشتراكيا ونوهت بتأميم وسائل الانتاج والرأسمال المحلي ذي العلاقة بالامبريالية. وصرح ابوبكر عوض:

«ان النظام الجديد رغم غلبة الطابع العسكري عليه لايشبه نظام ابراهيم عبود »

لكن الواقع كان غير ذلك. فقد بدأ مجلس قيادة يتخذ قرارات تزداد شراسة ودكتاتورية باطّراد ولم يعد يقيم للوزارة وزناً بل بدأ باحالة اثنين وعشرين ضابطاً الى التقاعد وكلهم اقدم واعلى رتبةً من النميري[١٤] ومنهم رئيس الاركان (حمد النيل ضيف الله) الذي تم اعتقاله. واللواء (محمد الخود) القائد العام، وستة عشر برتبة عميد، واربعة عقداء واحل محلهم ١٤ ضابطاً «ثورياً» ووضع (محمد أحمد محجوب) ومعظم اعضاء الحكومة السابقة تحت الاقامة الجبرية في منازلهم. وقبض على الصادق المهدي رئيس حزب الامة ونقل الى جهة بعيدة مجهولة ووضع تحت حراسة مشددة. ثم هدّد النميري بمحاكمتهم ومحاكمة كل من يتآمر او يحاول التآمر على الثورة واعدامهم جميعاً.

ثم وفي التاسع من حزيران أعلن مجلس قيادة الثورة منح المديريات الثلاث الجنوبية حكماً ذاتياً في اطار «دولة السودان الاشتراكية الموحدة الجديدة». وتحدث الناطق الرسمي حول فسح المجال للجنوبيين لادارة شؤونهم المحلية بانفسهم دون مداخلة الحكومة المركزية. الا ان الاعلان اراد ان تكون تلك الوحدة اشتراكية حقيقية ولم تتخذ بعد ذلك خطوة واحدة عملية. كان هذا الاعلان لمجرد الدعاية ولم يزاول الشك نفوس الجنوب في مصداقية الدكتاتورية العسكرية الجديدة. فمثلاً بقي (روبرت مبورد) الزعيم الجنوبي الذي يحظى باحترام كبير رهين السجن ولم يطلق سراحه حتى شهر أيلول ثم وبسبب عدم الاقدام على اية خطوة عملية لتطبيق الحكم الذاتي المعلن أعلنت الحركة المسلحة الجنوبية المعروفة باسم (آني آنايا Any a Naya) عن تأليف حكومة مؤقتة اشهرت حكومة الانقلاب عليها الحرب. وفي اواسط أيلول أعلنت

(١٤) لوس انجلس تايم (٦ حزيران ١٩٦٩) قالت عن النميري انه خريج كلية الاركان العامة من (فورت ووُرث في كنساس). ووصفه رفيق له في الكلية لم يفصح عن اسمه بانه شخص بليد لا ابالي يمضي معظم وقته في تبادل الآراء مع ضباط عرب آخرين يدرسون هناك.

الحكومة أن ٧٩ من الثوار في اعالي النيل قد قتلوا اثر اصطدامات مع قوات الحكومة.

وراح الحكام الجدد يجدّون في البحث عن حلفاء، عند الثوريين القوميين العرب وكانت وجهتم الأولى (ج.ع.م) بطبيعة الحال. ففي غضون ثلاثة اشهر زار الخرطوم ثلاثة وفود رسمية منها وصعّدت الحكومة من تصريحاتها العدائية للغرب لاسيما الولايات المتحدة. وزاد هجوم الاعلام السوداني على اسرائيل وعلى خطط الاستعمار التآمرية. وقد وجدنا رئيس الوزراء يصرح في القاهرة للصحفيين بأن حكومته "تملك معلومات ثابتة بان الولايات المتحدة تحاول القيام باعمال تخريبية ضد ثورتنا".

ثم سرعان ما نشب خلاف عظيم بين جناحي الحكومة الماركسي والاسلامي وفريق القوميين الناصريين بين الاتجاه الاسلامي من الشمال وبين الاتجاه اليساري من الوسط. وكان على النميري ان يختار.

بدأ يميل الى الاتجاه الاسلامي. ففي ٢٨ من تشرين الأول ١٩٧٠ أعلن مجلس قيادة الثورة عن اقالة الحكومة وتأليف حكومة جديدة برئاسة (النميري) وكان من الطبيعي ان تخلو من الشيوعيين واليسار وقد جرى ذلك بعد ايام من تصريح لرئيس الحكومة المقال ابوبكر عوض الله ايام كان في زيارة لبرلين الشرقية بدعوة من المانيا الديمقراطية:

«ان النظام الثوري في السودان لايستطيع النهوض باعباء الحكم من دون الشيوعيين الذين هم طليعته»

هذا التصريح نقله احد مرافقيه الى الخرطوم واذيع من الراديو فاحدث ردة فعل قوية وفورية. اذ أسرع النميري الى الاذاعة بعد ساعة واحدة وأعلن بنفسه ان تصريح (عوض الله) انما يعكس وجهة نظره الخاصة وان الثورة السودانية هي للشعب كله وليس لحزب او فريق[١٥].

★★★

وعن اليمن الجنوبي:

في ٢٣ من نيسان ١٩٦٤، حظيت صنعاء بزيارة لعبدالناصر وقال الزعيم المصري يخاطب الجماهير التي احتشدت للقائه وسماعه:

«بريطانيا يجب ان تخرج من عدن في هذه الأرض المباركة نحن نقسم بالله اننا

(١٥) في ٢٤ من كانون الأول ١٩٦٩ أعلنت الحكومة بانها اجهضت محاولة انقلابية اسلامية وإلقاء القبض على ٥٦ متهماً واحالتهم الى التحقيق. الاّ ان محاكمة لهؤلاء لم تجر وذكر ان وزارة النميري اطلقت سراحهم.

سنطرد البريطانيين من كل جزء من اجزاء البلاد العربية»

وعقّب احد الحاضرين بقوله: لم تكن غالبية الجماهير تفهم لهجة عبدالناصر ولا موضوع حديثه!

وفي ٢٦ من شباط ١٩٦٥ اكدّ المشير عامر في المجلس النيابي بخطبة، الرد السريع للجمهورية العربية المتحدة في اليمن وبأنها قاعدة الثورة العربية وحصنها المنيع لا بالاقوال بل بالأفعال. وان حتمية الثورة اكدت بأنها الحل لمشاكل التأخر العربي الذي فرضته الامبريالية والرجعية وحلفاؤهما. وفي استعراض عسكريّ في صنعاء "للجيش القومي" اليمني بتاريخ ٢٧ شباط من السنة عينها قال عبدالله السلاّل «ان الجيش القومي اليمني سيحرّر كلّ الجزيرة العربية».

لم يقم دليل او شاهدٌ ولم يثبت بأي مصدرٍ جدير بالثقة قيام قوات اردنية او سعودية بمشاركة الملكيين في الحرب اليمنية. إلاّ ان المساعدة المعنوية والمادية السعودية ليست بحاجة الى برهان. فهذه المملكة وعلى ضوء التصريحات التي كان يطلقها عبدالناصر والثوريون العرب اليمنيّون دلت على ان التدخل العسكري المصري لم يكن قاصراً على الدفاع عن كيان النظام الجديد بل كان يرمي وعلى الزمن البعيد الى السيطرة على جزيرة العرب باسرها وازاحة أمراء آل سعود بطريق نشر العقائد الثورية في البلاد كافةً.

وعلى هذا تواصلت الحرب الاهلية تطحن اليمنيين والمصريين وبدا واضحاً مبلغ الخطأ في التقدير، في تقدير حجم المساندة الفكرية والاقتصادية والسياسية التي كان على عبدالناصر ان يدفعها، دون ان يدخل في حسابه تلك المقاومة العنيدة التي واجهته. الاّ انه كان في تلك الفترة يتمتع بمنزلةٍ في البيت الأبيض ورئيسه كندي. فلم يبق الاعتراف بالوضع الجديد في اليمن قاصراً على (ج.ع.م) والكتلة الشرقية اكثر من سنة حتى أقدمت الولايات المتحدة[١٦]

(١٦) فسّر الاعتراف الامريكي بأن الغرض منه نسف النفوذ البريطاني وازالته من شبه الجزيرة العربية. بعد ان تمت ازالته عن الهلال الخصيب (سورية ولبنان والاردن) بأثر عدوان ١٩٥٦. كان من سياسة (جون كينيدي) الاعتماد على زعامة عبدالناصر في المنطقة العربية. وقتما كان البرود يسري بسرعة في علاقة الزعيم المصري بدول الكتلة الشرقية، وبدت سياسةً على غاية من الاهمية للولايات المتحدة في معارك الحرب الباردة، تستحق الدعم الكامل والتقرب بالقروض والمنح والمساعدات الغذائية. كان (كينيدي) يعتقد بان البلاد الناطقة بالعربية ستقع حتماً تحت تاثير الاشتراكية واليسار او ربما الشيوعية ذات الاتجاه القومي في اسوء الاحوال وستقف في وجه شيوعية الدولة السوفياتية او الشيوعية الدولية. كما كان يرى من المفيد إشغال الماكنة الحربية المصرية في منطقة كاليمن بعيدة عن اسرائيل أمراً مستحباً ومريحاً للبال. من كل هذه التصورات (الكيندية) تحقق التصور الأخير فقط اما الاجزاء الأخرى من المخطط ذي الطابع الميكافيلي فقد فشلت لان الحملة المصرية عجزت عن القضاء على مقاومة الملكيين. كما كان =

وبريطانيا وغيرها من دول الغرب على الاعتراف بالحكم الجديد في حين بقيت نار الحرب الاهلية مشتعلة والإمداد العسكري من مصر يتزايد والصراع بين الزعماء الثوريين اليمنيين على السلطة يتفاقم وكثيراً ما كان الصراع على السلطة الذي ينتهي بالفوز بها او بخسارتها يتم بموافقة المصريين أو مساندتهم. اي ان التغيير السياسي في الداخل كان في احيان كثيرة يتم بموافقة مصرية[١٧].

في ١٣ من تموز ١٩٦٤ وقعت اتفاقية تنسيق بين مصر واليمن في المجال العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي والإعلامي واعتبرت بمثابة «الخطوة الأولى للوحدة الكاملة» وهي شبيهة باتفاق عبدالناصر وعبدالسلام عارف في ٢٤ من أيار ١٩٦٤ وفيهما ذلك النص الناصري المحبب الذي كان سيستخدم في اتفاقيتي الدفاع المشترك مع سورية والأردن قبيل حرب الأيام الستة:

«ان أي هجوم أو أي تهديد بالهجوم يقع على أي من البلدين المتعاقدين يعتبر موجهاً الى البلد الآخر»

وتألّف ما دعي بمجلس تنسيق برئاسة عبدالناصر والسلاّل المتناوبة مع ثلاثة وزراء من كل طرف على أن يكون مركزه في القاهرة.

وفي ١٢ من كانون الأول ١٩٦٤ قدم كل من (الإرياني ونعمان) استقالتيهما وأدانا السلاّل بالتفسخ والفساد والعقم والإفلاس السياسي ووصل بيروت وفد يعبر عن وجهة نظرهما هذه برئاسة (إبراهيم علي الوزير) الذي عقد في ٢٨ من كانون الاول ١٩٦٤ مؤتمراً صحفياً شرح فيه وجهة نظر من يمثل مركّزاً على وجوب انسحاب المصريين من اليمن وترك اليمنيين لشأنهم ينظمون بيتهم ويختارون حكامهم ونظامهم وفي عين الوقت هرب الى عدن (اليمن الجنوبي) حوالي ستين شخصاً من الشخصيات الجمهورية البارزة يتقدمهم العقيد (طه مصطفى) سكرتير (السلاّل) السابق. وكان سبب هروبهم الاحتجاج على النفوذ المصري،

= اغتيال الرئيس الامريكي عاملاً آخر لفشل المخطط لان خلفه لم يكن يرى رأيه في القضاء على النفوذ البريطاني في جزيرة العرب. وبطبيعة الحال لم يكن يؤمن بان الاشتراكية العربية ستكون الحصن الذي يقف بوجه الشيوعية الصينية والسوفيتية وهو بالأصل تفسير خاطيء.

(١٧) بعد اشهر قلائل من اعلان عبدالله السلال نفسه رئيساً للجمهورية. سادت الاوساط السياسية والشعبية انه نجح في احباط محاولة انقلابية بزعامة البيضاني (العميل المصري) لاسقاطه والاستيلاء على الحكم. وحاولت مصر ان تبدي انتصاراً للسلال فاستدعي البيضاني الى القاهرة. ثم القي القبض عليه إثر عودته للشك في ان له ارتباطاً بالبريطانيين. اخيراً تم اطلاق سراحه واسندت اليه وزارة في حكومة السلال الثالثة – ثم طرد منها في ١٨ نيسان.

وتحكمه في اوضاع البلاد بسبب مساندته السلاّل وإجازة اعماله.

وفي السادس من كانون الثاني ١٩٦٥ قدم معظم الوزراء استقالاتهم وارغموا (الجايفي) على التنحي. فاسند تأليف الحكومة الى اللواء (العَمْري) وهو الرجل الذي طلب الثلاثة الكبار (الايرياني ونعمان وابراهيم) ازاحته مع السلاّل. وفي ٢٥ منه صدق (السلاّل) قانوناً يقضي بتأسيس «الاتحاد العربي اليمني» وكان يرمي به الى توحيد قوى الشعب العاملة في البلاد على غرار الاتحاد الاشتراكي في مصر. الا أنه كان يخشى كلمة «اشتراكية» فاسقطها ربما بمواجهة قيام رجل من علماء الدين يدعى (الزبيري) بتأسيس حزب جديد اطلق عليه اسم «حزب الله». داعياً به الى قيام «حكم جمهوري اسلامي ثوري لا إمامي ولا عسكري» الا انه اغتيل بيد مجهول في شهر نيسان واتهمت المباحث المصرية باغتياله.

وتواصلت تجارب الحكم والمستحدثات فيه. وسنذكر منها ما له علاقة بموضوعنا فحسب.

في آذار ١٩٦٥ أعلن السلاّل عن تشكيل لجنة تتألف من ٢٥ عضواً واسند اليها مهمة وضع مسودة «ميثاق قومي» وربما كان اقدامه هذا رجع صدى او جواباً على الميثاق الوطني الذي أعلنه الملكيون في شهر شباط المنصرم وقد جاء فيه ان «الامام البدر» سيخضع لسلطة مجلس تشريعي في حال انسحاب الجيش المصري من اليمن وعودته.

وظهرت بوادر نشاط حزب البعث في مفاجأة تشبه مفاجاءات الأفلام السينمائية البوليسية.

في ٢٢ نيسان ١٩٦٥ سقطت وزارة (اللواء العمري) وكلف (نعمان) بتشكيل الحكومة الجديدة وهو عين ذلك الذي رأينا وفده في بيروت قبل اشهر قليلة يهاجم السلاّل ويصف حكمه بالتفسخ والفساد والعقم السياسي ويطالب بانسحاب المصريين.

ويظهر ان القيادة المصرية لم تكن طرفاً هذه المرة. فقد كان بين اعضاء الحكومة اثنان من الضباط فحسب واثنان من حزب البعث!

وأعلن العمري بعد بضعة أسابيع من تأليف وزارته عن تشكيل ما أسماه بـ(مجلس الرئاسة) مؤلف من ستة اعضاء «للتخطيط والادارة والاشراف على سياسة الدولة». وفي شهر أيار دعت هذه الحكومة «كل حلقات الشعب» الى مؤتمر في (خمر) التي تبعد عن صنعاء بحوالي ثلاثين كيلومتراً للنظر في وضع دستور جديد وانيطت رئاسة المؤتمر بالايرياني فدعا اليه الملكيين ولكنهم لم يحضروا. وفي الثامن منه ولم يمر اسبوع على انعقاده خرج بدستور سمى فيه اليمن بـ«جمهورية اليمن العربية الاسلامية». وقد قصد به الحد من صلاحيات السلاّل إذ قضى بتشكيل «مجلس جمهوري» من ثلاثة اعضاء. ومجلس استشاري من ٩٩

عضواً.

ولم تعش حكومة (حسن العمري) طويلاً فقد راح بعض اعضائها يتقدمهم الوزيران البعثيان يمعنون في انتقاد المصريين وينعون عليهم تحكمهم في شؤون البلاد. في حين بدأ انصار عبدالناصر والوجود المصري نفسه ينشران كراريس وبيانات تتضمن هجوماً على حكومة (العمري) مسندة اليها التهم الثورية المعتلاة «التعاون مع الامبريالية. الارتباط بالامبرياليين. عملاء الامبريالية» وما شابهها من النعوت. فاضطرت الى الاستقالة وعهد (السلاّل) الى (النعمان) بتأليف الوزراة ثم تفجرت براكين النزاع مجدداً بين (السلاّل) وبين الجمهوريين المستقلين. الى جانب الخلاف الذي استحكم بينه وبين الايرياني على اثر قيام السلاّل بتأليف ما عرف بالمجلس الاعلى للقوات المسلحة في حزيران ١٩٦٥ ونعته بعمل مخالف للدستور. واشتد الضغط على حكومة النعمان وعيب عليها تعاونها المفرط مع المصريين فاستقال في اليوم الاول من تموز وهرب الى القاهرة خشية بطش السلاّل الذي قام بإلقاء القبض على عدد من وزارئه. كما القى القبض على بضعة اشخاص بارزين من «حزب الله» الذي تقدم ذكره.

وحاول تأليف حكومة جديدة الا ان القاهرة أمرته بالتريث وعدم المحاولة وطلب منه المجيء الى مصر للتباحث فوصلها وهنا أمر بالبقاء وعدم العودة فبقي في القاهرة شبه حبيس.

وفي صنعاء ألّف اللواء حسن العمري الموالي للمصريين حكومة جديدة. وفي عين الوقت اقدم الجمهوريون المعارضون على تشكيل ما عرف بـ«جبهة القوى الشعبية» وقطعوا علاقاتهم بالسلاّل. وشخص الى (بيحان) ثلاثة من كبارهم. واقدم وزير الداخلية (النعمان) على مناشدة الامم المتحدة العمل لتأمين انسحاب القوات المصرية من اليمن.

في الرابع والعشرين من آب ١٩٦٥. وقعت مصر والسعودية اتفاق (جدة) بقصد انهاء الحرب الاهلية. ثم جرت مصالحة بين الزعماء الجمهوريين اليمنيين وتم بنتيجتها تأليف مجلس جمهوري جديد من ستة اعضاء برئاسة السلاّل وضم كلاً من النعمان والايرياني والعمري والجايفي. وفي ٢٣ من تشرين الثاني عقد موتمر (هراد) لغرض تأليف حكومة انتقالية من الجمهوريين والملكيين بناء على اتصالات سبقته. الا ان المؤتمر فشل عندما تبين ان المصريين لاينوون الانسحاب من اليمن وعندها بدأت «جبهة القوى الشعبية» تدرس امكانية الوصول الى تسوية يمنية صرفة مع الملكيين لا دخل فيها للمصريين، بمباحثات مباشرة مع (الامام البدر) وكان رد فعل عبدالناصر انه امر باطلاق سراح (السلاّل) المحتجز في القاهرة طوال عشرة اشهر وعودته الى اليمن للقضاء على مشروع الجمهوريين والابقاء على النفوذ المصري.

واشتدت النقمة على المصريين في حين راحت القبضة المصرية تضيق على عنق اليمنيين باطراد. وترجمت المقاومة بأفعال وسرت النقمة لتشمل كل اولئك الذين تحمسوا للتدخل المصري في الاول وعلى رأسهم (حسن العمري) الذي لم يؤخذ رأيه في عودة السلاّل اساساً، فحاول احباطها بارسال قوات مسلحة الى مطار صنعاء بقصد منع طائرة السلاّل من الهبوط. وقام باحتلال دار الاذاعة قبل هبوطه في ١٥ آب. الا ان القوات المصرية التي حشدها (احمد شكري) السفير المصري في صنعاء ارغمت قوات العمري على الانسحاب ونزل السلاّل بحراسة القوات المصرية التي قامت ايضاً بحراسة منزله تعززها كتيبة من الدبابات.

واشتد الصراع بين السلاّل والعمري. وزادت نقمة العمري على المصريين وارتأى ان تنقلب الجبهة الى حزب سياسي مناهض للحكومة سمي بحزب اليمن الجمهوري ومن اول نشاطه تأليف وفد من اربعين شخصية بارزة لمقابلة عبدالناصر في القاهرة والطلب منه سحب (السلاّل) من اليمن. وقالوا انهم مستعدون للعمل بالخطة التي اقترحتها الكويت، وتقضي باستبدال القوات المصرية في اليمن بقوات مختلطة من الدول العربية.

الا ان المشير عامر قائد القوات المصرية في اليمن رفض مقابلتهم. وفي مساء يوم الجمعة الموافق للسادس عشر من أيلول اقدم ضباط المخابرات المصرية على اعتقالهم جميعاً اثناء ما كانوا مجتمعين في دار (نعمان) وكان بينهم الايرياني والجايفي والعمري. ومن جانبه القى السلاّل القبض على بقية اعضاء الحكومة وألّف حكومة جديدة برئاسته.

أصر عبدالناصر على التوحيد العسكري في اليمن[١٨] وحَلّ الحزب الجمهوري ولوحق اعضاؤه حتى قضي على هذا التنظيم الذي كان يرمي الى تحقيق الوحدة الوطنية واحلال السلام باجراء تسوية سياسية محليّة خالصة لا دخل لطرف اجنبي فيها.

وعمت الفوضى اليمن من اقصاها الى ادناها وكان ازيز الرصاص وانفلاق القنابل والمتفجرات يُسمع في كل مدنها وبلداتها وقصباتها ليل نهار. وقام السلاّل بطرد ثلاثين ضابطاً من الخدمة واقال عدداً مماثلاً من الموظفين الكبار، والقى القبض على عدد كبير من انصار (العمري) و(نعمان) ومن بينهم (العيني) الذي كان قد ترك الأمم المتحدة واستقر في بيروت معتزماً تأليف حزبٍ مناويء لمصر.

في الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٩٦٦ أحال السلاّل عدداً من هؤلاء المعتقلين الى

(١٨) بقي من الجيش المصري اثناء حرب الايام الستة. وظل حتى قيام بريطانيا بانسحابها من اليمن الجنوبي في كانون الثاني ١٩٦٨ ما قدر عدده بخمسة عشر ألفاً.

المحاكمة بتهمة محاولة قلب نظام الحكم. وبعد محاكمات سريعة تمّ اعدام سبعة من كبار الموظفين بينهم وزير سابق رمياً بالرصاص. وهدد بارسال الباقين منهم الى مصر لمحاكمتهم هناك بتهمة الخيانة العظمى وقامت اجهزة المخابرات في القيادة العسكرية المصرية بحملات اعتقال شملت قرابة ألفين في صنعاء وألف واحدة في تعز. وعلى اثر هذا الجوّ الارهابي. صرح ابراهيم الوزير زعيم جبهة القوى الشعبية في بيروت بما يأتي:

«القضية في اليمن هي قضية مصريين ويمنيين ولم تعد قضية نظام ملكي ونظام جمهوري»

وتواصلت الاعدامات والملاحقات وبقي السلاّل باسناد المصريين مجرد واجهة او صورة اذ لاتجد مصر بديلاً له. التدخّل المصري في اليمن فسّر بانه دليل الدلائل على تصدير الثورة. وقد ملك السعودية الخوف من التعزيزات التي كان يدفع بها عبدالناصر لجيشه في اليوم لاسيما بعد فشل اتفاقية جدة[١٩]. كان على السعودية ان تستعد لمفاجآت سيئة. ولم تكتف بإيواء البدر ومدّه بالمساعدات بل بادرت باعادة النظر في نظام الحكم لديها وانجزت اصلاحات داخلية هامة كإلغاء تجارة الرفيق وتحرير العبيد[٢٠] وكان ثم حربٌ باردة بين الدولتين ووجهت الدعاية المصرية إمكاناتها العظيمة ضد السعودية فوصفت بقواعد العدوان وموطن الرجعية العربية. وقصفت نجران وغيرها من القصبات بغارات جوية وازدادت الاعتداءات على الحدود وبالأخير قطعت العلاقات الدبلوماسية.

في آذار ١٩٦٧ قدم المندوب السعودي لدى الأمم المتحدة رسالة من الملك السعودي موثقة بدلائل تؤيد استخدام الجيش المصري الغاز السام في الخامس من كانون الثاني ضد قرية

(١٩) بقي البدر المريض في الحجاز بغرض المعالجة.

(٢٠) في تشرين الثاني ١٩٦٤. تمّ عزل الملك سعود ابن عبدالعزيز بفتوى العلماء وانتقل الملك الى فيصل ابن عبدالعزيز. بالنسبة الى التدخل المصري في اليمن كان على ادارة البيت الابيض أن توازن سياستها بين الدولتين الصديقتين من دون ان تشعر احداهما بالغبن على حساب تفضيل الأخرى. لذلك بديء بارسال مساعد سكرتير الأمم المتحدة (رالف پانش) لدرس الحالة ورفض مقابلة الملكيين الا انه التقى بالجمهوريين وفي اثناء وجوده صبت مدفعية السفن الحربية المصرية قنابلها على خيزان. وفي تموز ١٩٦٣ بعد أربعة أشهر من رحلة (پانش) الاستطلاعية تدخلت الأمم المتحدة رسمياً بطلب الولايات المتحدة وارسلت بعثة برئاسة الجنرال كارل ڤان هورن للعمل على عقد هدنة. وكان عبدالناصر عند مجيء (رالف پانش) قد قال في خطاب بتأريخ ٢١ آذار ١٩٦٣ في ميدان الجمهورية بالقاهرة ان القوات المصرية ستبقى في اليمن حتى يصبح من المؤكد الذي لا ريبة فيه بان الرجيعة الحاقدة على الثورة اليمنية سترغم على جرّ اذيال الهزيمة ويتم احتواء حقدها. [لم تنجح بعثة الولايات المتحدة العسكرية في الفصل بين المتحاربين وادانت القصف المصري للاراضي السعودية الاّ انها بقيت تزود مصر بما قيمته ٢٣٢ مليون دولار من الاغذية].

(كتاف) القريبة من مدينة (صعدة) مع تفاصيل لاستخدام هذا السلاح على نطاق واسع بغرض إلقاء الفزع والرعب في نفوس معارضي حكم السلاّل. ثم توالت التقارير حول استخدام هذا السلاح المحرّم دولياً حتى اضطرت الولايات المتحدة في أيار ١٩٦٧ وقت أن تجمعت غيوم الحرب في سيناء الى إصدار التصريح التالي:

«إن وزارة الخارجية الأمريكية بناءً على تقارير ودلائل ثابتة حول استخدام الغاز السام ضد السكان المدنيين، تعرب عن قلقها العميق بخصوص استخدامه ضد السكان المدنيين في اليمن وتساند أي عمل دولي من شأنه التصدي لهذا الأمر.»

وكان بياناً تعوزه الشدّة والصرامة. ثم ان حرب الايام الستة حالت دون تعقيب الأمر وصرفت الجهات المختصة عن الاهتمام بالموضوع حيث طبعت احداث تلك الحرب وتتابعها عليه كما وقفت الانظمة الثورية العربية والقومية موقف اللامبالي من هذا، ومما يجري من فظائع لاانسانية في اليمن. ووقف بعضها وقفة من لايعنيه الأمر خشية الإخلال بعلاقته مع مصر.

من ناحية ثانية بدت قضية اليمن وهي في يد خصوم عبدالناصر اشبه بقميص عثمان في يد معاوية واحيانا اشبه بخنجر مسموم مسددٍ الى قلبه عندما كان يتخذ من هزيمته في سيناء مادة للفكاهة كتلك الرسائل التي كان يوجهها (البدر) اليه بقوله «ان الطريق الى اسرائيل هو سيناء وليس اليمن»[٢١].

وفشل جميع الاتفاقيات حول حل النزاع سلمياً وايقاف القتال وبقي عبدالناصر يصرح بانّ القوات المصرية لن تجلو مطلقاً عن اليمن وانها حاضرة للبقاء عدة سنين وبقي الخوف يعمل في نفوس السعوديين. فلا هم قادرون على إخراج (البدر) من اراضيهم ولا هم على استعداد لحرب مع الجيوش المصرية. ورأوا ان يزيدوا في قوتهم الدفاعية وسارعوا بجنون الى عقد عدة صفقات سلاح مع الولايات المتحدة بضمنها طائرات حربية ودبابات. وباشروا في انشاء مطار عسكري بالقرب من الحدود اليمنية.

اجاب عبدالناصر على هذه الاستعدادات في خطاب له بتاريخ الاول من ايار ١٩٦٦ بمناسبة يوم العمال الدولي بالمحلة الكبرى:

(٢١) وجّه اليمنيون الساكنون في عدن رسالة الى الحبيب بورقيبه اثناء زيارته السعودية في شباط ١٩٦٥ قالوا فيها: «اعملوا على انقاذ اليمن من عمليات سفك الدماء والبؤس والشقاء اللذين تعانيهما مما لم يعان مثيلهما اي شعب من قبل وان الحرب الشرعية والعادلة يجب ان تجري في فلسطين وليس في اليمن» [مرآة الشرق الاوسط. ومدل ايست ميرر. في ٦ نيسان ١٩٦٦].

«نحن نقول له (يقصد الملك فيصل) اننا قادرون على تحطيم طائراته الاثنتي عشرة مع مطاره في خمس دقائق»[٢٢]

وبلغ الحنق به اقصاه عند قيام (فيصل) بزيارة للدول الاسلامية. بدأت في أواخر ١٩٦٥ وتواصلت حتى الاشهر الاربعة الاولى من العام ١٩٦٦، لتتوج بما عرف في حينه بالميثاق الاسلامي الذي وصفته الصحف والراديو المصريين بانه مؤامرة امبريالية تتزيا بحلف رجعي ضد الثورة العربية الاشتراكية.

وفي ايار ١٩٦٦ وعلى اثر قيام (كوسيگن) بزيارة لدمشق ساعدت على رأب الصدع بين مصر وسورية سارع الاعلام السوري لدعم حملة القاهرة على الميثاق الاسلامي وأبقت السعودية من جهتها على علاقتها المتينة بالإخوان المسلمين وضاعفت في المبالغ الوفيرة التي كانت قد خصصتها لهم. وفي هذا الميدان لم يكن الاعلام المصري يبالغ او يكذب في وصف مقدار ما يحظى به «الاخوان» في السعودية من رعاية في حملاتهم على عبدالناصر والتآمر عليه. وأعلنت الصحف المصرية ان المخابرات المصرية وفّقت الى كشف مؤامرة آب ١٩٦٥ وإلقاء القبض على قادة الحركة وبينهم عشرون ضابطاً إخوانياً مصرياً وإحالتهم الى محكمة الثورة.

قدم النائب العام المتهمين بقوله «هذه القضية هي واحدة من المعارك التي تخوضها مصر ضد الرجعية والامبريالية انها مؤامرة حيكت في العربية السعودية بالتعاون مع المصريين الذي شاركوا فيها»[٢٣].

(٢٢) الاهرام ٢ ايار ١٩٦٦ النيويورك تايمس ٢ ايار.

(٢٣) بالمقابل ارسلت مصر الى السعودية مخربين يمنيين قاموا بعدة عمليات تفجير في الرياض وجدة. وعدد من الاغتيالات والقي القبض على بعضهم وقطعت رؤوس ١٧ منهم بعد خمسة ايام من صدور الحكم عليهم في آذار ١٩٦٧. تلك العملية التي وصفها الاعلام المصري بمذبحة الريا. وفي ١٩ آذار فجرت عبوة ناسفة في سفارة السعودية ببيروت [النهار. والانوار ٢١ آذار ١٩٦٧]. واستأنف الاعلام المصري حملاته على الملك فيصل (أبو الدّقن) لخرقه معاهدة (جدة) وراح اعلام عبدالناصر وخطبه تطلق النكات الحاذقة المتقنة على محاولات العاهل السعودي تقوية سلاحه الجوي وكثرة زياراته للدول الاسلامية في سبيل عقد تضامن اسلامي بدلاً من تضامن عربي. كان (فيصل) قد عقد العزم على اقامة جبهة دينية اسلامية ضد الاشتراكية العربية وعبدالناصر الذي ظل يؤكد بان الاشتراكيين وحدهم هم القوميون العرب الجيدون، بدا الآن يؤكد لسامعيه بان العرب الذين ليسوا اشتراكيين هم ليسوا مسلمين جيدين وان الدول اللاإشتراكية الاسلامية هي دول رجعية وهي خدم للامپريالية. ثم وعلى اثر ذلك شنت حرب اعلامية واسعة النطاق في مصر وغيرها من الدول العربية التقدمية والسائرة في ركاب مصر ضد ما سمي بالحلف الاسلامي والميثاق الاسلامي. وفي ذكرى ثورة يوليو الرابعة عشرة (١٩٦٦) أعلن انه لن يحضر اجتماعات القمة المقرر عقدها في الجزائر في تلك السنة بسبب حضور بعض من تنكّر لعروبته واسلامه. (قاصداً السعودية).

واستخدم عبدالناصر الملك السعودي المخلوع (سعود بن عبدالعزيز) الذي كان يقيم في القاهرة منذ خلعه فبعث به الى اليمن صحبة المشير وانور السادات في ٢٣ من نيسان ١٩٦٧ وهيئت له خطبةٌ ألقاها في صنعاء معلناً فيها اعترافه بالنظام الجمهوري في اليمن وبأخيه عبدالله السلاّل رئيساً للجمهورية. ثم اعيد الى القاهرة ليؤتى به في ٢٧ نيسان الى راديو صوت العرب. كي يلقي خطبةً أخرى موجهة الى السعوديين ملفتاً نظرهم بان حكامهم هم حلفاء الامپريالية. ومناشداً الجيش السعودي على الحدود بالكف عن قتال اليمنيين[٢٤]. لكن الامور مالبثت ان اتخذت موقفاً روائياً.

في مؤتمر القمة في الخرطوم الذي انقعد بعد «الكارثة». وربما بسببها كان ثم جو غريب يختلف عن الاجواء التي كانت تسود مؤتمرات عربية مماثلة سابقة.

كان للموقف الكريم الذي وقفه الملك فيصل ازاء الكارثة العربية الكبرى اثره العميق في عبدالناصر. وكان الجميع يحاول ان يكون مع الزعيم المصري المهزوم لطيفاً مجاملاً حريصاً على ارضائه. ووجد رئيس وزراء السودان محمد احمد محجوب الموقف ملائماً لمحاولة تسوية النزاع في اليمن بين عبدالناصر والملك فيصل وتكلل سعيه بالنجاح عندما خرج الغريمان بما عرف باتفاق الخرطوم الذي انضم اليه الملك حسين ايضاً. وهو يقضي بانسحاب القوات المصرية كافة من اليمن مقابل ايقاف الملك السعودي مساعداته للملكيين. وتعيين لجنة ثلاثية برئاسة (محجوب) وعضوية عراقي الجنسية يختاره المصريون ومراكشي الجنسية يختاره السعوديون للاشراف على تطبيق الاتفاق والعمل على اجراء مصالحة وطنية في اليمن بين الجمهوريين المصطرعين. وتبرعت ليبيا والسعودية (كما مر بيانه) بمبلغ ١٣٥ مليوناً لمصر والاردن تعويضاً لما خربته الحرب[٢٥].

(٢٤) راجع ما ورد في هذا الكتاب حول محاولة الملك سعود في ١٩٦١ اغتيال عبدالناصر باستخدام العقيد السراج لهذا الغرض.

(٢٥) مائة وخمسة وثلاثون مليوناً بالعملة الانگليزية والامريكية وهو مبلغ ضخم جداً في ذلك الحين. بقوته الشرائية التي تعادل عشرة اضعافها على الاقل في يومنا هذا. وعلى اثر الاتفاق اقدم عبدالناصر على سحب عشرين ألف ضابط وجندي من اليمن. وابقى عشرين ألفاً لمساندة السلاّل الذي لم يكن سعيداً باتفاق الخرطوم. الا ان الجمهوريين بقوا يعجزون عن اقامة حكم وادارة خاصة بدون السلال وبقي القتال مستمراً بين الفصائل الموالية للسلال والخصوم. الى حد التشابك بالايدي وتبادل اللكمات والصفعات سيما بين السلال ورئيس الوزارة العمري. فلم ير عبدالناصر مناصاً من استدعاء السلال الى القاهرة واحتجازه طوال تسعة اشهر لاتاحة الفرصة للعمري – اقامة ادارة حكومية. لكن العمري مالبث ان اختلف مع القيادة المصرية الى الحد الذي الجأ عبدالناصر الى اعادة السلال. الذي ما استقر به المقام حتى بادر الى اقالة (حسن العمري) واعتقال مائة وخمسين شخصاً بتهمة التعاون مع السعودية. ونجح العمري في الهروب الى القاهرة. [عندما انسحبت بريطانيا من عدن في نهاية العام ١٩٦٧ سحب عبدالناصر =

هذا الاتفاق عقد من وراء ظهر السلاّل. ولم يدع للمشاركة فيه فكان سخطه عظيماً وادانه بقوله «انه تجاوز مهين لسيادة اليمن واحتقار لشعبها» وكان قلقه وسخطه مشروعين من وجهة نظره الخاصة فهو يخشى على مستقبله ومركزه لو خرجت القوات المصرية. بغلبة الملكيين على الجمهوريين وصيرورتهم سادة الموقف. فرفض الاتفاق ومنع اللجنة الثلاثية من دخول الاراضي اليمنية وقال انه سيطلب من الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية المساعدة لحماية حدود بلاده لو نفذت مصر تعهدها بسحب قواتها.

مع هذا شقت اللجنة الثلاثية طريقها الى صنعاء في الثالث من تشرين الاول فوجدت نفسها امام تظاهرات صاخبة ساخطة ضدها وحاولت القوات المصرية التصدي لها وتفريقها ووقعت حوادث شغب وعنف واشتباكات قتل خلالها تسعة جنود مصريين في حين مزقت جثث سبعة آخرين وقطعت اشلاء وهربت اللجنة وبقيت ساعات في مقر الجيش المصري ثم غادرت ظهر اليوم التالي بعد ان رفض السلاّل مقابلتها ولسورة من الغضب الاعمى أمر باعتقال (الخيري) وزير داخليته واحالته الى المحاكمة لان شرطته اطلقت النار على المتظاهرين خارج مقر الجيش المصري في اثناء مهاجمتها مقر القيادة. وادين ونفذ فيه حكم الموت.

وضع السلاّل بالاخير، ثقته في الجيش واعتبره ملجأه الاخير بعد ان تخلى المصريون عنه. ثم الف وزارة شبه عسكرية جديدة في ١٢ تشرين الاول. مع احتفاظه طبعاً برئاسة الدولة وامانة السر العامة للاتحاد الثوري الشعبي العربي. واحتفظ لنفسه فيها بوزارة الخارجية.

وادخل فيها ثلاثة ضباط. ثم أمر باعتقال مئات من انصاره القدماء الذين ابدوا تحمساً لاتفاق الخرطوم. وانقلب غرامه بعبدالناصر الى كره واضطغان عظيمين[٢٦] ولم يكن كما يبدو قادراً على المخاطرة بقطع صلاته به. وبدا عبدالناصر حدياً عندما فرض عليه اعطاء اجازة بعودة ثلاثة من ابرز الجمهوريين الى اليمن واكثرهم احتراماً. ولم يسعه إلا الرضوخ. وفي ٣٠ من شهر تشرين الاول ١٩٦٧ غادر القاهرة مجموعة من الجمهوريين الذين كانو شبه محتجزين. وعلى رأسهم (الارياني). والهدف كما اوردته الصحف في حينه «تنظيم مؤتمر مصالحة وطني» بين شيوخ القبائل المتنازعة.

في الاول من تشرين الثاني توجه السلاّل الى موسكو بناءً على دعوة رسمية من حكومتها لحضور احتفالات اليوبيل الذهبي لقيام ثورة اكتوبر. ولقي استقبالاً بارداً عند توقفه في

= الثلاثين الفاً الأخرى الباقية].

(٢٦) الانوار ٦تشرين الاول ١٩٦٧. مجلة التايم الامريكية في ٢٠ تشرين الاول ١٩٦٧.

القاهرة حيث نصحه عبدالناصر بالاستقالة وترك اليمن نهائيا.

وكانت بغداد محطته الثانية بأمل توثيق صلاته بالاتحاد العربي الاشتراكي. وهناك وردته الأنباء بالانقلاب "الابيض" الذي حققه الضباط الجمهوريون. وتم به تجريد السلاّل في بيانهم الاول من كل مناصبه:

«ان طليعة الشعب والقوات المسلحة ومعها الحرس الجمهوري قد تسلمت السلطة، وان عبدالله السلاّل لم يعد الآن رئيساً للجمهورية وقد جرد من مناصبه الأخرى لقد احتلت طلائع الثورة قصر الرئاسة من دون اية مقاومة...»

وصف البيان ايضاً ان ثورتهم هي امتداد لثورة العام ١٩٦٢ التي ازالت حكم الامامية. ونوه باقامة مجلس رئاسي من ثلاثة اعضاء برئاسة «الشيخ عبدالرحمن الايرياني» وعضوية نعمان والعمري. وأعلن عن تشكيل وزارة برئاسة (محسن الايرياني). وهذا مع عبدالرحمن الارياني ونعمان والمقدميْن محمد الايرياني واحمد رحوي وضابطين برتبة نقيب كانوا يعتبرون «القوة الثالثة» التي عملت على اخراج الجيش المصري والاستغناء عن السلاّل.

ووقفت مصر موقفاً حيادياً من التغيير. وصف الاعلام المصري الانقلاب بانه حدث داخلي صرف ولم تقف منه موقفاً عدائياً رغم أن أقطابه كانوا يريدون جلاء القوات المصرية. في تلك الفترة كانت السلطات المصرية توشك على اركاب سبعة آلاف جندي البواخر لغرض اجلائهم وقد تجمعوا كلهم في (الحديدة) ولو شاءت مصر التدخل لتمكنت من استخدامهم والقضاء على الانقلاب بسهولة[٢٧].

(٢٧) تّم الانقلاب في اعقاب زيارة قام بها حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية للسعودية دامت اربعة ايام ومن المحتمل جداً على رأي بعض الصحف الاوروبية (نيويورك تايمس. كريستيان ساينس مونيتور) أن يكون المصريون والسعوديون على اطلاع بما سيحدث او ربما هم الذين اعطوا الضوء الاخضر للانقلابيين. بقي السلاّل يحتفظ بمنصبه طوال رضا مصر عنه. وازيح عندما رفعوا حمايتهم له. وقد يمكن ان يعتبر سقوطه واحدة من النتائج غير المباشرة لهزيمة حزيران ١٩٦٧ التي ادت الى اتفاقية الخرطوم. في نظر الكثيرين من الساسة والكتاب لم يكن السلال في قسوته وكذبه اكثر من صورة لعبدالسلام عارف طبق الاصل وصفه الايرياني بقوله: «انه رجل لايهتم بغير الاحتفاظ بمنصبه والتشبث بكرسيه ولعبته المفضلة هو مهاجمة العسكريين وانتقادهم عند المدنيين ومهاجمة المدنيين امام العسكريين. وعندما يلتقي العسكريين نراه يهاجم المحافظين ارضاء للمثقفين من الجيل الجديد حين يلتقيهم ويحرضهم على المحافظين ويثير النزاعات بين الزيدية والشافعية كلما سنحت له الفرصة. نهب اموال الدولة وتصرف بالخزينة تصرف المالك وسحب نصف مليون ريال ووضعها في جيبه قبل تركه البلاد». (طلب السلال اللجوء في مصر فأباه عليه عبدالناصر. وبقي في بغداد) من مقابلة للإيرياني نشرتها له جريدة الانوار البيروتية في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٧.

في ١٩ من كانون الثاني ١٩٦٨ أعلنت لجنة المصالحة الثلاثية التي تألفت اثر اتفاق الخرطوم في آخر اجتماع لها ببيروت انها فشلت في مهمتها، اجراء مصالحة بين الملكيين والجمهوريين بل فشلت حتى في الجمع بينها. وانحلت اللجنة وعاد كل الى بلده.

وفي تلك الايام كان الملكيون قد نجحوا في احتلال كل شمال اليمن مع الاقاليم الشرقية والوسطى وتهيأوا للهجوم على صنعاء ايام كان السلاّل موجوداً. وأعلنوا في ١٧ من تشرين الاول ١٩٦٨ من اذاعتهم الخاصة بان جيشهم الذي عقد لواؤه لمحمد ابن الحسن، وهو من ابناء عمومة (البدر) ونائب رئيس مجلس الامامة قد بدأ هجومه على صنعاء وقطع الطريق المؤدية منها الى ميناء الحديدة. ثم أعلن عفواً عاماً عن معارضي الامام مؤكداً لسائر المواطنين بان القصد ليس العودة الى نظام الامامة فهذا الطراز من الحكم بات في ذمة التاريخ وكان اقتراحه إقامة حكومة انتقالية واجراء استفتاء عام على دستور جديد للبلاد. ثم اعطى انذاراً امده اربعون ساعة للهجوم. الا ان الجمهوريين لم يستجيبوا وفي الثاني من كانون الثاني كان الطوق قد احكم على المدينة وتحرج موقف الجمهوريين بغياب الحماية المصرية. وتسلل الايرياني ونجح في الوصول الى القاهرة بحجة المرض ودخل مستشفى عبدالناصر ومنه كان يقوم باتصالاته.

وغادر اعضاء البعثة الدبلوماسية السوفيتية والخبراء السوفييت العاصمة. وخسروا المعركة بسبب من ذلك. وجه الجمهوريون نداء استغاثة بالسوفيت. فجاءتهم الامدادات وتوجهت سفنهم نحو الحديدة ثم استحدث جسرٌ جوي بين موسكو وصنعاء عبر سورية وراحت طائرات ميك من طراز (٢١) تصب نيرانها على الملكيين وتقصفهم بلا رحمة او هوادة. ونقلت صواريخ ومدافع على ناقلات بمعونة خبراء سوفييت وسوريين[٢٨]. وبفضل هذه الغارات الجوية المدمرة على التجمعات المللكية نجح الجمهوريون في صد ثمانية عشر هجوماً بقصد اقتحام المدينة. وتحدثت الصحافة العالمية والعربية عن آلاف القتلى واضعافهم من الجرحى بين المدنيين والعسكريين على حد سواء. ودبّ الوهن في طاقة الملكيين تدريجياً وضعفت قواهم وزال الخطر عن العاصمة وراحت وسائل الاعلام السعودية تندد بالتدخل الروسي السوري، ووقف النظام المصري موقف المتفرج[٢٩] ولم يطل الوقت كثيراً بالجمهوريين اليمنيين. فبعد ان حقق لهم

(٢٨) تقرير لهنري سمث Henry Smith نشر في نيويورك تايمس في تشرين الثاني ١٩٦٧ وتقرير آخر لتوماس رادلي (المرجع السابق) في عين الصحيفة. [اخرج هذان الصحفيان من البلد مع مراسل رويترز لارسالهم معلومات حول التدخل السوفيتي].

(٢٩) كان زعماء «القوة الثالثة» في اليمن التي فضلت الوصول الى تسوية سلمية من دون التدخل المصري. مضطرة «حرصاً على مكاسب الثورة» الى طلب معاونة السوفييت بعد انسحاب المصريين وبهذا الشكل =

السوفييت نصراً بإبعاد خطر الملكيين وجدوا ان حماتهم الجدد مثل المصريين حماتهم القدماء – لايؤمَن جانبهم وانهم يريدون التدخل في شؤون البلاد وان تكون لهم الكلمة العليا.

واتهم السوفييت بإثارة اليسار المتطرف. عن طريق الحركة الثورية الشعبية التي تأسست في الثاني والعشرين من آذار ١٩٦٨.

كان قوام هذه الحركة الانقلابية الطلاب والعمال الذين ساهموا مساهمة فعالة في الدفاع عن صنعاء عندما هددها الملكيون. ويبدو ان السوفييت احتضنوا الحركة واخذوا يمدونها بالمال والسلاح، فضلاً عن العون الذي كانت تتلقاه من الجناح اليساري «جبهة التحرير الوطني في عدن[٣٠].

شرع الانقلابيون بمحاولتهم في الحديدة بوضع اليد على شحنة سلاح كبيرة من الاسلحة السوفيتية القادمة عن طريق البحر ومن ضمنها خمسون دبابة، إلا أن العمري عاجلهم وجرت معركة قصيرة وتم إلقاء القبض على اربعين من قادتهم. لكنه أطلقهم قبيل سوقهم الى ساحة الاعدام بعد تهديد جاءه من الحركة الثورية الشعبية بإضراب عام[٣١].

لم يكن هذا من قبيل المفاجآت او الاحداث غير المتوقعة. انظمة ثورية كثيراً ما ساعدت على خلق قوى متطرفة تغدو بمرور الزمن خطراً على الخالق عندما تحاول ازاحته والحلول محله ما ان يزول الخطر عن النظام الثوري حتى تحاول بدورها القضاء على تلك القوى المتطرفة وقد مثلت هذه الرواية مرات عديدة في كل مكان وعلى كل ارض وبعد كل تغيير عنيف.

اعتزل الامام البدر وترك الساحة وقنع باللجوء في السعودية منذ العام ١٩٦٦. بعد ان قاد المعارك في الكهوف والجبال حوالي اربع سنوات. على انه بقي الرئيس الاسمي والرسمي. لكن حصل في ايار ١٩٦٨ تغيير سياسي في الحركة الملكية شبيه بالانقلاب. كان ذلك في أثناء اجتماع حضره شيوخ وامراء – في مدينة (صعدة) شمال اليمن وهي مدينة كانت أيدي المتحاربين تتداولها مرات الا انها تبقى في يد الملكيين اغلب الأحيان. في ذلك الاجتماع تقرر تسليم (محمد ابن الحسين) ابن عم (البدر) جميع السلطات والصلاحيات لادارة الحرب وبقيت الحرب سجالاً. وفي أيلول ١٩٦٨ شخص (العمري) الى موسكو لتأمين مزيد من السلاح

= حل السوفييت بالتدريج محل المصريين كحماة للنظام الجمهوري. ولم يكن السوفييت يخشون انذاك تدخلاً امريكيا في ذلك الموقف من الحرب الباردة بسبب انشغالهم في ڤيتنام ولانهم لم يكونوا يعتبرون هذا الجزء من الجزيرة العربية خطراً على نفوذهم.

(٣٠) نيويورك تايمس ٢٤ شباط. من تقرير لدانا ادم شميدت حول الانقلاب الفاشل.

(٣١) شمدت: المرجع السابق ٢٤ شباط.

والعون المالي توقعاً لهجوم جديد. فزود باكثر من مائة دبابة ومنظومة صواريخ وطائرات قاذفة مقاتلة من نوع ميك وتوبوليف. ولم يكن الملكيون يملكون مثل هذه الانواع من الاسلحة، ولا هم قادرون على اتقاء القصف الجوي والمدفعي. وكان على الملك فيصل أن يحاول عدم الإخلال باتفاقية الخرطوم بعدم تقديم سلاح مماثل للملكيين. وفي اواخر ١٩٦٨ اصيبوا بنكسة عظيمة عندما اقدم احد قادتهم الكبار (قاسم منتصر) على الانضمام الى الجمهوريين آخذاً معه عدداً كبيراً من الشاحنات المحملة بالعتاد والسلاح وآلافاً من المحاربين القبائليين. وادعى انه لم يقاتل الجمهوريين حباً بالإمامة أو مفضلاً نظامها على النظام الجمهوري، بل كان ضدهم لأنهم كانوا صنائع المصريين والروس يأتمرون بامرهما. ثم ان المقاومة التي ابدوها في صنعاء اثرت فيه تأثيراً قوياً بحيث بات واثقاً بان النظام الجمهوري باق. وانه النظام الامثل الوطني لليمن(٣٢).

وكانت هناك محاولة انقلاب ثانية.

في الثلاثين من شهر آب ١٩٦٨ أعلن راديو صنعاء عن اكتشاف واحباط مؤامرة لانقلاب عسكري لفريق من ضباط الجيش. كما أعلن عن تشكيل «محكمة خاصة» سميت محكمة أمن الدولة، لمحاكمة ومعاقبة العناصر المخربة الدخيلة التي تهدد الأمن العام. وكشفت عن ان الضابط الذي تزعم الحركة هو يساري متطرف يدعى المقدّم (عبدالوهاب الرقيب).

في السابع والعشرين والثامن والعشرين من آب تمكن الانقلابيون مبدئياً من احتلال عدد من المباني الحكومية واعتقال عدد من الوزراء. الاّ ان القطعات العسكرية الموالية للايرياني تغلبت على الانقلابيين وقيل انهم ذبحوا (المقدم الرقيب) حال وقوعه بايديهم.

وفي كانون الثاني ١٩٦٩ اكتشفت مؤامرة أخرى كان من برنامجها قتل الايرياني وحمود الجايفي القائد العام للقوات المسلحة.

وحوكم الفريقان من الانقلابيين وأعدم عدد منهم وسجن البقية.

***

خلال فترة الحرب الاهلية في اليمن الشمالي اثناء وجود القوات المصرية. دأبت مصر على مساندة وتنظيم الاعمال الارهابية ضدّ الحكم البرطاني في اليمن الجنوبية (اتحاد جنوب الجزيرة).

(٣٢) خلاصة للمقابلة التي اجراها له دانا آدم شمدت. ونشرت في جريدة نيويورك تايمس في ١١ من كانون الثاني ١٩٦٩.

في اوائل شهر تشرين الثاني ١٩٦٧ أعلنت الحكومة البريطانية عن نيتها النهائية في منح الاستقلال للاتحاد والانسحاب من (عدن) في اواخر هذا الشهر عينه الاّ انهم أعلنوا قبل ان يأزف الموعد تأجيل تاريخ الجلاء الى التاسع من شهر كانون الثاني ١٩٦٨.

(عدن) وضواحيها كانت مستعمرة بريطانية الاّ ان الامارات التي تليها من جهة الشرق كانت مرتبطة منذ القرن التاسع عشر بمعاهدات حماية من هجمات خارجية ونيابة عن علاقاتهم الخارجية. كما كان على الامارات ان «يقبلوا نصائح حاكم عدن البريطاني».

في شباط ١٩٥٩ تألف اتحاد فدرالي من بعض هذه الامارات وتم ضم الجميع الى الاتحاد بعد بضع سنوات الاّ ان الامارات الثلاث التي تمتد حتى تخوم سلطنة مسقط لم تنضم ولم تجد فيها وسيلة اقناع غير ان (عدن) انضمت الى الاتحاد في العام ١٩٦٢ بعد اجراء تصويت أمرت به الحكومة. وفي العام نفسه أعلنت الحكومة البريطانية بان الجيش البريطاني سيبقى في عدن بصورة دائمية وبعد اجراء الاستفتاء بيوم واحد حصل الانقلاب في اليمن الشمالي وطلب الانقلابيون العون من مصر.

لم تعترف بريطانيا بنظام السلاّل الجديد. وبقيت القوات المصرية لايقتصر عملها على قتال الملكيين بل اضطلعت الى جانب ذلك بتنظيم حملات إرهابية ضد الحكم البريطاني في الوقت الذي ادى تأخير موعد الجلاء الى استئناف القتال فوراً بين المجموعتين القوميتين اللتين كانتا ناشطتين في عدن «جبهة تحرير اليمن المحتل» و«جبهة التحرير الوطني» وزاد ميل البريطانيين ازاء هذا الوضع الى ابقاء قواتهم في اليمن لحمايته من القوميين الناصريين في منطقة عدن الستراتيجية وكان ثمّ خوفٌ من دخول الجيش المصري اتحاد الامارات العربية لمساندة أنصار مصر هناك. فتألف وفد منها في حزيران ١٩٦٦ شخص الى لندن للمطالبة بابقاء قوة عسكرية في الجنوب. ثم وفي ايار ١٩٦٧ رحل وفد آخر الى لندن مكرراً طلبه وضع (عدن) تحت الحماية البريطانية لمدة اربع سنوات بعد اعلان الاستقلال إلاّ ان البريطانيين وعدوا بتسعة اشهر فقط(٣٣).

تلك ظاهرة تقتضي التأمل في تاريخ العرب الحديث. ان لطلب ممثلي حكومة وطنية عربية نالت استقلالها بسط الحماية «الامبريالية»، حماية الدولة التي استعمرتها من عدوان عربي؟ او خشية التهديد بثورة او انقلاب او تدخل دول عربية فيه؟ أمر يدعو الى الرثاء حقاً.

(٣٣) الديلي تلغراف ١٧ ايار ١٩٦٧، (في العام ١٩٦٣ اصيب المندوب السامي البريطاني (حاكم عدن) بجراح في حين قتل نائبه بقنبلة. ونشر الارهابيون الذعر في عدن بتفجير القنابل واطلاق الرصاص واغتيال الجنود البريطانيين. سيأتي تفصيل ذلك في الصحائف التالية.

مما لاشكّ فيه ان التواجد المصري في اليمن الشمالي ادى الى تقوية التيار القومي وتشجيعه ضدّ الحكم البريطاني، وانعاش حركة الاستقلال والعمل الجدّي لذلك. وهو الذي حمل الحكومة البريطانية على الجلاء ومنح الاستقلال. ان الانسحاب المصري من اليمن وخلو الساحة من القوات العسكرية لم يجعل الانتقال السياسي من نظام الحماية الى الاستقلال هادئاً وسلمياً. صحيح انه تم دون تدخل خارجي - لكن النزاع الشرس على السلطة كان في الداخل. وعلى اغلب تقدير لاي مؤرخ متابع، ان الحرب الاهلية كانت ستنشب لا محالة بين الجبهتين او المجموعتين اللتين نوهنا بهما. ومما لاشك فيه ان هزيمة مصر في سيناء كانت سبباً في فشل خطط عبدالناصر في جنوب اليمن. فبعد الهزيمة النكراء ما عاد يكترث بالأمر.

كان القرار ان لايتأخر استقلال اليمن عن العام ١٩٦٨ على ان تبقى القاعدة العسكرية البريطانية هناك لمدة غير محدودة. لكن وفي شهر شباط ١٩٦٦ اوضحت «ورقة بيضاء» جديدة صادرة من وزارة الدفاع البريطانية بان سحب كلّ القوات البريطانية سيتّم في ٣١ من كانون الأول ١٩٦٨. ويرجع سبب هذا أن عبدالناصر كان قد تعهّد للملك فيصل في (ميثاق جدّة) على اجلاء قواته عن اليمن. الاّ انه وعلى اثر اعلان الحكومة البريطانية عن تاريخ ١٩٦٨ لانسحابها من عدن صرح بأنه سيبقي قواته في اليمن حتى العام ١٩٦٨، وبهذا:

«طرأ على مشلكة شبه الجزيرة الجنوبي تغيير بقرار الانسحاب البريطاني. وبات الأمر الان هكذا: كيف نخلف وراءنا شيئاً سيبقى قائماً من دون وجود القوات البريطانية سنداً له؟»(٣٤)

وهكذا بقيت عدن (اليمن الجنوبي) مستعمرة يرفرف عليها العلم البريطاني حتى استقلالها.

قلنا: في العام ١٩٦٦ كان في (عدن) حزبان ثوريان متنافسان «الجبهة لأجل تحرير اليمن الجنوبي» «وجبهة التحرير الوطنية» وكان الحزب الاول يضم على أغلب تقدير نصف العدنيين وبضمنهم معظم الطبقة الحرفية. وقائداها (مكاوي) و(الأصبخ) كانا في نزاع دائم على السلطة العليا فيه. وهما يحاولان قيادة جبهتيهما هاتين من الخارج، وقد وقعا في أسر المصريين واتخذا اليمن الشمالي مقراً لنشاطهم وكان (مكاوي) يعاني صدمة نفسية فظيعة جراء مقتل ولديه بعبوة ناسفة في عدن دبّرت لهما. وكاد كل قوات الجبهة المسلحة يكون

(٣٤) الشرق الاوسط في ثورة: سر همفري تريفيليان (المرجع السالف) لندن ص٢١ (نقل تريفيليان من السفارة البريطانية في مصر الى السفارة البريطانية في بغداد ايام عبدالكريم قاسم. وفي ٢٠ ايار ١٩٦٧ أرسل بوظيفة حاكم عام ومندوبٍ سامٍ الى عدن.

قوات مصريّة، دربت وسلّحت وارسلتها خفية الى جنوب الجزيرة المخابرات المصرية في اليمن. يقول تريفيليان ان عبدالناصر تتبأ لأحد زائريه انه وبعد استقلال اليمن الجنوبي سيكون هناك قتال دموي تعقبه حكومة ثورية(٣٥).

الحزب الثاني الكبير «جبهة التحرر الوطنية» الخصم والعدو اللدود للحزب الأول والجماعات الأخرى. لم تنجح مصر في توحيدهما رغم جهود كبيرة بذلتها. وليس لهذا الحزب قائد معترف به اذ ما ان ينبه ذكر واحدٍ حتى يقبض عليه ويبقى معظم الوقت محتجزاً في القاهرة لمصلحة الحزب الأول. وغالبية اعضاء هذا الحزب من الشباب ومن القبائليين. وعرف بميول شيوعية او هكذا أشيع عند الاّ انه لم تتوفر دلائل قوية. لكن كان يوجد دلائل على صلات لزعماء الاول بدول اوروبا الشرقية وتلقيه العون منها.

الى جانب هذين كان ثمّ «الحزب الوطني» و«عصبة الجنوب العربي» وهما في دور احتضار، وكلاهما يدين بالولاء للسعوديين وزعماؤهما يسكنون في السعودية وينتظرون من احدٍ ما ان يقدّم لهم اتحاد الجنوب في طبقٍ من ذهب!

وكانت خطّة معارضي الاتحاد هي اقامة حكومة ثورية جديدة فور خروج البريطانيين - تطلب فوراً من المصريين ارسال قوات مساندة وبالاسلوب الذي جرى في اليمن الشمالي. الاّ ان الحاكم العام البريطاني الذي لم يكن غافلاً وضماناً لعدم اقحام القوات البريطانية في القتال - اتخذ بعض التدابير والاجراءات الحازمة. فاصدر قراراً بإلغاء جبهة التحرر الوطني باعتبارها حزباً غير قانوني وابقى الجبهة من اجل تحرير اليمن الجنوبي ناشطة. رغم ان كلتيهما كانت تشن حرب الانصار على التواجد البريطاني:

«كنا في سبيلنا الى مغادرة البلاد والوقت متأخر للقضاء عليهما معاً وأعلنا غايتنا وهي المفاوضة معهما من اجل تشكيل حكومة انتقالية تتمثل فيها الاحزاب والفئات كافة فاعترضت جبهة التحرير الوطني بانها لاتستطيع التفاوض

(٣٥) المرجع السالف ص٢١٧، يذكر تريفيليان أنّ جورج تومسن وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية اقترح على اتحاد الجنوب ان يكون الاستقلال في شهر تشرين الثاني ١٩٦٧ وان هذا الاستقلال سيكون بحماية حاملة طائرات من التدخل المصري واليمني قادرة على الردع والردّ بشدةٍ الاّ ان رئيس وزراء الاتحاد الجنوبي ومعه وزارؤه رفضوا هذا العرض ورجوا ان يبقى البريطانيون اطولً فترة ممكنة وان يؤجل اعلان استقلال البلاد الى ربيع العام ١٩٦٨ وابقاء القوات البرّية البريطانية في عدن لمدة معينة اسناداً لقواتهم المسلحة. الاّ ان اللورد ثاكلتون اعلمهم بان حكومته قررت ابعاد يوم الاستقلال حتى كانون الثاني ١٩٦٨. اما موضوع الدفاع عن بلادهم بعد الاستقلال فان موقفها لايتغير. فسكتوا: لم يرفضوا ولم يقبلوا (ص٢٢٠).

لأنها اصبحت غير قانونية»

لم يكن لدى السلطة البريطانية وقتٌ كاف لإحالة الحزبين الى القضاء بوصفهما منظمتين غير شرعيتين. لذلك:

«اتخذنا خطوات منطقية معينة. واوصينا بإلغاء الاجراءات القضائية واقترحنا اطلاق سراح ثلاثين من أهون الموقوفين شراً.»

في ١٩ حزيران ١٩٦٦ أعلن رسمياً موعد الجلاء والاستقلال كما أعلن عن تعزيز جيش الامارات براً وجواً. واعرب الحاكم العام رسمياً للمرة الثانية عن رغبته في الاتصال بزعماء الجماعات المعارضة لغرض تأليف حكومة انتقالية. وفي هذه الفترة انتقلت ازمة مضيق تيران الى حرب الايام الستة.

خمدت نار هذه الحرب بسرعة لاتصدق الاّ انها عملتْ على زيادة التوتر في عدن والمحمية وانتشرت اعمال عنف وحوادث شغب واعتداءات. وساءت الحال وكثرت الاعتداءات واعمال الشغب لاسيما في مركز مدينة عدن. وعهد الى الجيش البريطاني بمهمة تفريق التظاهرات وتشتيت شمل التجمعات لأن الشرطة المحلية كانت عاجزة عن هذا وعن وقف عمليات الاغتيال والإرهاب الذي ساد البلاد اثر الهزيمة في سيناء، وبدأت العناصر المخربة التي كانت تجتاز الحدود الى اليوم باسم القومية والعداء للاجنبي والبريطانيين الذين اسندوا اسرائيل وكانوا السبب في النصر الذي حازته – وقد أكسبتهم الكذبة جراءة اعظم – راحت تنهب وتحرق املاك اليهود والاجانب بدون رادع. وتواصلت في عدن الاضرابات السياسية من جانب العمالّ في اكثر الاحيان من دون سبب واضح او مطاليب معينة وفي الخامس من أيلول:

«أصدرتُ بياناً قلتُ فيه: ان الحكومة الاتحادية ماعادت قائمة ونحن نعترف بالتنظيمات السياسية باعتبارها تمثل الأهالي ونحن على استعداد للتفاوض معها. واكّدنا بأننا لانميز بين تلك التنظيمات ولانعطي الأفضلية لمجموعة على أخرى. مادام الجيش منقسم الولاء بين الجماعات السياسية. ومازالت الجبهة لأجل تحرير جنوب الجريرة قائمة ناشطة.»

وفي تلك الاثناء[٣٦] برز [قحطان الشعبي] زعيماً لجبهة التحرير الوطني. وصرح لأحد مراسلي الصحف بانه على استعداد للحديث مع الحكومة البريطانية. وعلى اثر ذلك انتهز الحاكم العام الفرصة وقد سره هذا العرض فاصدر بياناً في الخامس من أيلول مرحباً، فأقبل من

(٣٦) المرجع السالف ص٢٤٦.

شقي الجيش العائدين للحزبين ضباطه الأقدمون واتهم الحاكم العام بالانحياز الى جماعة جبهة التحرير الوطني[٣٧].

اخيراً اتفق الحزبان الكبيران المتنازعان على اللقاء في القاهرة في ٨ من تشرين الاول ١٩٦٧. وراحوا يتفاوضون على هَوْن وعلى مهل في النوادي الليلية والمقاهي والحانات بجلسات ليلية وكانت العقبة الكبرى هي انّ كل حزب كان يريد ان يستأثر بثلثي الوظائف الحكومية.

وشك المواطنون كلهم في عدن بان يصلا الى اتفاق وكان هناك ضغط سعودي على مصر لاتستطيع تجاهله او الاستخفاف به. فالسعودية تدفع الآن خسارة مصر جراء غلق القناة. وقبل ذلك كانت الدعاية المصرية تعلق بشكل ممجوج على كيفية ترك البريطانيين جنوب الجزيرة واهمالهم شؤونها لكن ماكان على عبدالناصر الا ان يخضع للسعودية حين اقترحت الجامعة العربية تشكيل حكومة عربية، لكل من الجبهتين فيها خمسةُ ممثلين. ولكل من الاتحاد الجنوبي والسلاطين ثلاثة.

كان السعوديون يريدون ان ينفضوا ايديهم من هؤلاء على اية حال. الا ان هذا الاقتراح لم يؤخذ به لان جبهة التحرير لم تجد موجباً لمثل هذه التنازلات لاي كان مادام زعماؤها لايشعرون بالامن الا عندما يكون لهم مركز رسمي في الحكومة. وشاركت بريطانيا خلال شهر تشرين الاول بمواصلة الضغوط من اجل الوصول الى تسوية في القاهرة وحاولت جر عبدالناصر للتدخل وارغام المتفاوضين هناك على عقد اتفاق بالقوة او على الاقل اقناعهما بارسال وفد مختلط من الحزبين الى عدن لوقف القتال الحزبي.

وبدا وكأن عبدالناصر إما لايملك نفوذاً على المصطرعين وإما انه لايريد التدخل. وكل ما تم الحصول عليه هو تصريح رسمي من راديو القاهرة بان اتفاقاً تم الوصل اليه بين الجبهتين، سيعلن عن تفاصيله في الايام القلائل القادمة. تصريح لم يصدقه احدٌ. اذ كان القتال بين الجبهتين يزداد حدة كلما اقترب موعد اعلان الاستقلال والانسحاب البريطاني. جبهة الجنوب

(٣٧) كان سبب الاتهام بالإنحياز هو استخدام الحاكم العام في بيانه العربي اللغة كلمة «قومي» مقابل كلمة national الانكليزية، ولم يستخدم كلمة «وطني». ويقول ترفيليان تعقيباً إن كلمة قومي تستخدم عادة مرادفاً أو بديلاً لكلمة وطني في اللغة العربية في حين انهما واحدة في اللغة الانكليزية، إلا أنها في الجنوب كانت تستخدم لجبهة التحرير الوطني عادة «وأجبتهم بمهاجمتهم وانتقادهم بشدة وقلت إنهم بسبب تفرق كلمتهم وعدم اتحادهم والعمل على إنقاذ بلادهم إنما يسوقونها الى الفوضى. ورفضت تغيير الكلمة إلا أني وافقت على الإيضاح بأني على استعداد للمفاوضة مع كل المجموعات السياسية دون تفضيل» ص٢٤٧.

كان تتمتع بشعبية ومساندة قوية في عدن وكانوا على علم بأن تاريخ الجلاء يمثل آخر فرصة لهم وان جيشهم الخاص لن يتلقى بعد الآن اي كمية من السلاح المصري بعد الجلاء عن اليمن. وان جبهة التحرير تجبي الآن الضرائب وتمارس سلطة متزايدة.

وفي الوقت الذي كانت الجبهتان مشتبكتين في قتالهما. كانتا في عين الوقت تهاجمان البريطانيين للتدليل على رصيدهما الشعبي والقومي. فحصلت قتول فردية في قلب (عدن)[٣٨] الى جانب قتول اعتباطية وصدفية.

في ٧ من تشرين الثاني أعلن الجيش العربي الجنوبي انضمامه الى جبهة التحرير وقد قدر قوامه بتسعة آلاف ضابط وجندي وكان بامرة البريطانيين وقضي على كل انقسام في الجيش بعد ان استقال عدد قليل من الضباط الموالين لجبهة الجنوب.

وفي جنيف التقى في ٢٢ من تشرين الثاني اللوردثاكلتون بالمفاوض العدني عن جبهة التحرير لوضع الخطوط الاخيرة على الانسحاب البريطاني بسلام. ولم تكن مفاوضات سهلة الا انها انتهت بالاخير بتعهد من الحكومة البريطانية بدفع اثني عشر مليوناً من الپاونات على سبيل المعونة للحكومة العدنية للاشهر الستة الاولى بعد الاستقلال[٣٩]. وكان الموضوع الملتهب – موضوع الساعة هو مصير الموقوفين. ماذا تفعل بهم السلطة البريطانية؟ لم يكن تسليمهم الى السلطة الجديدة معقولاً او ممكنا فبعضهم اعداء وسيذبحون ذبحاً حال تركهم في ايديهم. اخيراً تم اطلاق سراحهم بوجبات صغيرة. خلا بؤرة ارهابيي جبهة الجنوب فقد تم شحنهم الى القاهرة عن طريق الصليب الاحمر الدولي. لئلا تفتك بهم جبهة التحرير[٤٠].

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، غادر آخر جندي بريطاني عدن والمستعمرة. غادروها بهدوء واطمئنان تامين وفي اليوم التالي عاد الى عدن من جنيف الرئيس قحطان الشعبي ووفده. ولم تقف طائرتهم في مصر لأنهم كانوا يوجسون خيفةً ويتوقعون شراً وقد انعدمت الثقة بالحكومة المصرية.

هكذا ولدت جمهورية اليمن الجنوبي الشعبية من دون صديق او مساند او رفيق. الا ذلك الذي وعدها ودفع لها المعونة المالية الضرورية... المستعمر الامپريالي!!

(٣٨) حصل قتال شوارع في مركز مدينة عدن. وانسحبت قوات جبهة الجنوب بعد ان منيت بخسائر جسيمة. لكن حوادث الاغتيال تجددت قبل النهاية. مما ادى الى جلاء المراسلين والصحفيين عن الفندق الذي كانوا يشغلونه.

(٣٩) المرجع السالف، ص٢٦٢.

(٤٠) كذا ص٢٦٣.

يثبت كتاب «الشرق الاوسط في ثورة» عدد الخسائر البشرية خلال المدة المنحصرة بين اعلان الجلاء عن عدن والامارات وبين تنفيذ ذلك وهي أحد عشر شهراً.

خلال هذه المدة اغتيل وقتل ٤٤ جندياً بريطانياً و٩ مدنيين بريطانيين وجرح ٣٣٧ جندياً بريطانياً واربعة وثلاثون مدنياً. وقتلت القوات البريطانية خلال هذه المدة ١١٩ عربياً وجرحت ١٢٣. أما العرب الذين اغتيلوا او قتلوا بيد العرب، فقد يتعذر تقديم عدد تقريبي عنهم لان القتلى والجرحى كانوا أثناء القتال بين الاحزاب يؤخذون الى المستشفيات بسرعة. وفي اكثر الاحيان لايؤخذون وبكثير من التحفظ يمكن تقدير ضحايا القتال الداخلي بمائتين وخمسين قتيلاً وثمانمائة جريح الا ان العدد الحقيقي هو اكثر من هذا بكثير.

كان الحكام الثوريون الجدد للجمهورية الجديدة ثوريين جداً ميالين الى اليسار بشكل واضح. وحاولوا نشر مفاهيم حركتهم الثورية في سائر جنوب الجزيرة وحققوا نجاحاً جزئياً.

ولم تعد (عدن) عاصمة للجمهورية الجديدة، بل بعاصمة جديدة (الاتحاد) القريبة من عدن وأبدل اسمها لـ(مدينة الشعب). وفي الثلاثين من تشرين الثاني نودي (بقحطان الشعبي) رئيساً للجمهورية. وأعلن عن ١٣ اسماً ليكونوا اعضاءً في «مجلس القيادة الاعلى» من اعضاء الحزب الحاكم بمثابة مجلس اشتراعي لغرض سن القوانين.

الفصل الثاني والأربعون

استقلال ليبيا في ١٩٥١ وإعلانها ملكية دستورية . المؤتمر الوطني وشعارات عربية موالية لمصر . معاهدتان مع بريطانيا والولايات المتحدة تضمنان قواعد عسكرية لهما مبعث قلق لمصر . موقف الملك السنوسي العصيب . مؤامرة لإزاحته طبخت في السفارة المصرية . مظاهرات طلابية عنيفة في ١٩٦٤ بشعارات عربية . وجوب اتباع سياسة عبدالناصر . التدخل الناصري السافر . القوات الليبية المسلحة . قوام الجيش وتدريبه . مفهوم القومية العربية وتحريم عقد أي رابطة صداقة مع دول الغرب مهما كانت ضرورية . الضباط الصغار يحتمون وراء أمثلة هذه الشعارات . القيام بالانقلاب . ليس بين القائمين به من يحمل رتبة نقيب ، كلهم ملازمون أطلقوا على أنفسهم اسم «الضباط الوحدويون الاحرار» . علاقتهم مع مصر . البيان الأول في الأول من أيلول ١٩٦٩ . مجلس قيادة الثورة . الملازم الأول معمر القذافي يرفع الى رتبة عقيد . إلقاء القبض على رجال الحكومة . إعلان قيام «الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية» . بيانات متلاحقة بتوقيع مجلس قيادة الثورة . تأليف الحكومة يعهد بها الى سليمان المغربي أحد اللاجئين الليبيين الى مصر . إحالات على التقاعد . اعتقالات بالجملة . توثيق الصلة بـ(ج .ع .م) التي كانت أول من اعترف بالنظام الجديد . بيانات بوجوب قلب عناوين اللافتات فوق الدكاكين الى العربية . تحريم دراسة الانكليزية في المدارس الابتدائية . نزهات عديدة خطابية لقائد الثورة . الحديث حول الوحدة العربية . معركة المصير . توحيد زي المسلمين . صفقات أسلحة خيالية . إلغاء القواعد الاجنبية . تخبط في تطبيق الاشتراكية . مزاج القذافي الزئبقي وتأميم المصارف . ليبيا دولة بوليسية بمزاج القذافي . تطبيق الشريعة الاسلامية . تحريم الخمر والميسر وغلق البارات والنوادي وغيرها من أماكن تعاطي المحرمات الاسلامية

مقاومة الحكم الايطالي منذ بدايته في ١٩١٢ لم تتخذ طابعاً عربياً أو قومياً عروبياً بل كانت مصطبغة بالصبغة الدينية وظل يتزعمها «الإخوان السنوسيون» وتركزت في مدينة (طبرق) وحواليها.

والسنوسية طريقة صوفية تدعو الى نقاوة الدين بقي شيخها (السيد إدريس السنوسي) زعيم المقاومة حتى نهاية الحرب العظمى الأولى. وكانت هناك ثورة على الحكم الايطالي بزعامة عمر المختار لم تدم كثيراً. وفي العام ١٩٤٩ قررت الجمعيّة العامة للأمم المتحدة أن تغدو (ليبيا) دولة مستقلة في موعد لايتأخر عن العام ١٩٥٢. وتمّ بمساعدة لجنة حقوقية تابعة للأمم المتحدة وضع مسودة دستورٍ أقرّ في العام ١٩٥١ معلناً قيام «المملكة الليبية الاتحادية» ذات النظام الفدرالي، نتيجة اتحاد الأقاليم الثلاثة: طرابلس وقرنقة في الشرق. وفزان في الجنوب الغربي. وأن تكون لها عاصمتان بعين المقام والمستوى: طرابلس وبنغازي. ونودي بادريس السنوسي[١] ملكاً وزعيماً روحياً في الوقت عينه.

كان «اقليم طرابلس» أقرب الى مصر من «اقليم قرنقة» الذي يميل الى البريطانيين. وفي انتخابات شباط ١٩٥٢ أعلن حزب «المؤتمر الوطني» المعارض المتمركز في ولاية (اقليم) طرابلس عن شعارات عربيّة موالية لمصر - وتحبيذه قيام دولة مركزية بدلاً من الفيدرالية وراقت دعوة المؤتمر هذه للشيوعيين والنقابيين وبعض العناصر المعادية للغرب وراحوا يروجون لها. لكنهم لم يحرزوا في الانتخابات إلاّ على بضعة مقاعد في حين كانت الأغلبية الساحقة الى جانب الحكومة. وحصلت بعد الإنتخابات أعمال تخريب وعنف وشغب كثيرة ألجأت الحكومة الى حَلّ حزب المؤتمر. وإبعاد زعيمه «بشير السعداوي» الى خارج البلاد فاتخذ مصر ملجأ[٢] وموطن سكنى دائمياً.

وبقيت البلاد تحكم فدرالياً حتى العام ١٩٦٣ عندما استن دستور جديد، الغي فيه النظام الاتحادي وأصبح مركزيا.

ولم تكن ليبيا تتمتع بأهمية دولية خلاف موقعها الجغرافي الستراتيجي بساحلها الطويل الذي يواجه أوروبا حتى اكتشاف النفط فيها وتدفقه. وكانت قبل ذاك تعاني فقراً عظيماً لبلدٍ

(١) ولد ادريس السنوسي في العام ١٨٩٠، وهو حفيد السيد محمد علي السنوسي الذي أحيا الطريقة في العام ١٨٤٠. وشنّ ادريس حرب مقاومة على الغزو الايطالي في ١٩١٢. بالتعاون مع الدولة العثمانية وفي ١٩٢٢ سحقت ايطاليا مقاومة له واضطر الى الهروب الى مصر حيث اتخذها مقر اقامة إلا انه تعاون مع الحلفاء أثناء الحرب العظمى الثانية وتولى الحكم في ليبيا بعد أن دخلها البريطانيون والفرنسيون خلال الحرب الى أن تمّ تحريرها في أواخر ١٩٤٣.

(٢) ينبغي مراجعة ي. وليم زارتمان في (الحكم والسياسة في شمال افريقيا. نيويورك. ص ٩٦ I. William Zartman: Government and Politics in Northern Africa.) وكذلك الدكتور مجيد خدوري: ليبيا الحديثة: دراسة في تطورها السياسي: مطبعة جون هوبكنز ١٩٦٣. ص٩. Dr. M. Khadduri: Modern Libya: A Study in Political Development.).

صحراوي تبلغ مساحته ٦٨٠٠٠٠ ميل مربع بسكان لايزيدون كثيراً عن مليون ونصف مليون[٣] خمسة عشر بالمائة منهم بدو رحالة[٤].

في العام ١٩٥١ عقد النظام الملكي معاهدة مع بريطانيا أمدُها عشرون عاماً. أعطاها الحقّ في انشاء مطارات وقواعد عسكرية. كما ابرم معاهدة مماثلة مع الولايات المتحدة في السنة التالية سمحت لهذه الدولة طوال مدة الاتفاقية (سبع عشرة سنة) بتسهيلات عسكرية منها انشاء قاعدة جوية عدت في حينه أكبر قاعدة جوية عسكرية خارج الولايات المتحدة.

وحصل إنعطاف كبير مع مصر بعد ازاحة النظام الملكي ومالت ليبيا بثقلها الثقافي الى مصر فأنشئت الجامعة الليبية بسائر كلياتها في طرابلس وبنغازي واستخدمت مئات من المدرسين والأساتذة المصريين.

إن قصر مدة الاستعمار الايطالي للبلاد (١٩١٣-١٩٤٣) لم يتح للطليان فرض لغتهم أو عاداتهم أو ثقافتهم على السكان مثلما نجح الاستعمار الفرنسي تونس مثلاً، فقد كادت معالم اللغة العربية وتراثها الأدبي والفكري يطمسان في تونس والجزائر ومراكش في حين بقيت العربية في ليبيا هي اللغة السائدة. واستطاع المصريون بسنوات قلائل أن يمنحوا ليبيا قوانينها المدنية والتجارية والعقابية والادارية وغيرها[٥].

اكتشف النفط بكميات تجارية كبيرة جداً. وبدئ باستخراجه منذ حزيران ١٩٥٩. ومنح ٨٤ امتيازاً نفطياً فارتفعت عوائد الخزينة من ٤٠ مليون دولار في ١٩٦٢ الى ٨٠٠ مليون في ١٩٦٨. واستغنت ليبيا عن المعونات الخارجية وباتت في عداد الدول الغنية. وقدمت مساعدات مالية لمصر وللأردن[٦].

بهذه الثروة الهائلة المفاجئة التي هبطت على ليبيا، كان ثم سؤال يخفي تحته قضية سياسيّة مصيرية: أيبقى نظام الحكم الليبي موالياً للغرب؟ أم يبدء يتبع سياسة عربيّة قومية؟

كان القلق الفكري يبدو واضحاً في الجيل الناشيء الذي حظي بقسط أكبر وأفضل من

(٣) هذا تقدير ما قبل انقلاب القذافي.

(٤) قبل ظهور النفط كانت ميزانية ليبيا تعتمد على منحة سنوية تدفعها بريطانيا والولايات المتحدة. وبدلات ايجار قواعد عسكرية بناء على اتفاقات خاصة. وكان متوسط دخل الفرد السنوي لايزيد عن ٤٠ دولاراً في السنة ١٩٦٣ إلاّ انه قفز عند اكتشاف النفط ليبلغ ١٠١٨ في السنة. ثم أنه ومنذ اعلان الاستقلال نشطت بعثات للامم المتحدة وبريطانيا وأمريكا من مدرسين وخبراء وشهدت البلاد حملة تثقيف واسعة.

(٥) لم يستقر في المدن الليبية خلال فترة الاحتلال الايطالي عدد كبير من الطليان. وقد عاد معظم الاربعين ألفاً أو الخمسين من النازحين اليها – الى وطنهم بعد نهاية الحرب.

(٦) قبل تدفق النفط كانت المعونات الأجنبية تسد ستين بالمائة من دخل الدولة وميزانيتها السنوية.

التعليم خلال السنوات العشر التي عقبت الاستقلال. وبدا مشوقاً الى أن يرى بلاده تأخذ مكاناً لها في المجتمع العربي القومي الذي كان يؤمن به ويدعو له الوسط الشعبيّ لتتكرر هنا أيضاً الحكاية القديمة. حكاية مصر والسودان والجزائر والعراق وسورية وغيرها من البلاد الناطقة بالعربيّة. فأولئك الذين أرسلوا الى الغرب الأوروبي والى مصر لتلقي تعليمهم العالي في مختلف ضروب المعرفة والعلم والتكنولوجيا عادوا بأفكار جديدة ورفضوا أن يكونوا من جملة الساكتين كلّ في مجتمعه. وقد أتينا الى بحث هذه المشكلة في الفصول السابقة بإسهاب ولاداعي للخوض فيها مجدداً هنا.

وكان للإعلام المصري بشقيه المقروء والمسموع تأثيره الطاغي على العقول. الملك ادريس السنوسي بمعيار ذلك الزمن كان ملكاً قديراً كفوءً مجرباً. ومع انه ملك مقيد بدستور إلاّ انه تمتع بصلاحيات واسعة استخدمها بنهايةٍ من الحكمة والبراعة. وقد وجدناه دوماً يقوم بدور الحكم أو الوسيط المهاب الجانب بين الاطراف السياسية المتنازعة أو المتنافسة. لكن البلاد مع هذا وكغيرها من البلاد الناطقة بالعربية ظلت تعاني أزمات وزارية حادة، ففي غضون ثلاث عشرة سنة من اعلان الاستقلال. تولى الحكم أكثر من ٢١ وزارة بأكثر من ٦٥ شخصاً أسندت اليهم مناصب وزارية[٧].

وفي العام ١٩٦٣ منحت المرأة حق الانتخاب وأدّى التقدم الفكري والرفاء الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة الهائل، الى تحلل الروابط القبائلية وضعف نفوذ المشايخ وزعماء العشائر، إلاّ أن الملك بقي موضع تجلة واحترام من العموم، لايداخل أحداً الشك في عدالته ونزاهته[٨] لكنه يشعر بالضغط العظيم جراء التحول الاجتماعي المفاجيء فيتعامل بلطف وحذر مع الأفكار السياسية الجديدة. إلاّ أن القيم التي فرضتها ثورة يوليو المصرية أحدثت في ليبيا آثارها مثلما أحدثته في مجرى السياسات العربية في الداخل وفي الخارج. ففي العام ١٩٥٦ رفضت الحكومة الليبية استخدام بريطانيا قواعدها في معركة السويس رغم وجود الاتفاقية وصراحتها. كما أعلنت ليبيا بصراحة موقفها الى جانب الجزائر وفتحت حدودها لثوارهم وأصبحت جسراً تمرّ منه الامدادات الحربية والبشرية الى الثوار هناك. وراحت تزود الفلسطينيين بمساعدات مالية كبيرة. مع هذا كلّه فان الشعبية التي نالها عبدالناصر في أوساط الجيش الليبي، كادت تطمس معالم الاحترام الشعبي للملك، وبات هذا يعيش في ظلّ

(٧) ي. وليم زارتمان (المرجع السالف) ص ٩٥ وما بعدها.

(٨) كان في حدود السبعين دون أن يرزق بولي عهد رغم زيجاته الخمس. وولي عهده شقيقه (محمد الرضا) توفي في العام ١٩٥٦. فبات ابن اخيه هذا (حسن) المولود في ١٩٢٨ ولياً لعهده.

خوف عظيم مما يمكن أن تحدثه ثورة مصر في بلاده.

في هذا العام ١٩٥٦ – عندما كان لمصر في ليبيا أكثر من ستمائة أستاذ ومدرس ومعلم يعملون في المعاهد التربوية هناك – وهم في الواقع اداة سياسية قوية بيد مصر، تمّ اكتشاف مؤامرة مصرية ترمي الى اطاحة الملك. وجرى على أثرها طرد الملحق العسكري المصري «لثبوت قيامه بتوزيع السلاح على المتآمرين»[٩].

وبقيت اليد المصرية تتحرك في الخفاء وخلال ميادين واسعة. ففي ٢٢ من كانون الثاني ١٩٦٤ اجتاحت مدينتي طرابلس وبنغازي تظاهرات طلابية دامت اسبوعاً احتجاجاً على سياسة النظام الملكي المحافظة لعدم اتباع سياسية عربيّة مساندة لعبدالناصر. وأرغم الدكتور (محي الدين مكيني) رئيس الحكومة على الاستقالة. وبعد شهر واحدٍ بالضبط في ٢٢ من شباط القى عبدالناصر خطبة سمح لنفسه فيها بالتدخل في شؤون ليبيا الداخلية كشأنه مع الدول الناطقة بالعربية الأخرى إذ دعا ليبيا هذه المرّة الى تصفية القواعد العسكرية البريطانية والامريكية لأنها «مصدر تهديد لمصر».

وفي اليوم التالي (٢٣ شباط) أسرع رئيس الحكومة الليبية (محمود منتصر) رداً على هذا – الى اصدار بيان أعلن فيه أن حكومته لاتعتزم تجديد تلك المعاهدات التي سمحت بانشاء قواعد عسكرية في ليبيا. وإنها تساند الحكومات العربية الأخرى في مقاومة الامبريالية والاستعمار. وبدا وكأن الرعب يمسك بخناق الحكومة إثر خطاب عبدالناصر. فبعدها بيوم واحدٍ فقط (٢٤ شباط) قدم السفير الليبي في مصر مذكرة لعبدالناصر تتضمن نصاً لقرار اتخذته الحكومة بإنهاء اتفاقياتها مع بريطانيا وأمريكا.

وفي السادس عشر من آذار للسنة عينها وفي أعقاب مسيرة تأييد نظمها بضع مئات من الطلاب في شوارع طرابلس حول الاسراع في إلغاء هذه القواعد وإزالتها. خطا البرلمان الليبي خطوة لا سابقة قانونية لها. بإصداره قراراً يطلب فيه من الحكومة الشروع في مفاوضات فورية بقصد تصفية القواعد الأجنبية وجلاء القوات الامريكية والبريطانية.

وبدأت المفاوضات في شهر نيسان. لكن القواعد العسكرية ظلّت ولم تتم تصفيتها. وبقيت ليبيا في نظر مصر والجزائر وغيرها من الدول التقدمية الثوريّة، دولةً رجعية شاذة عن الخط العروبي والتيار التقدمي الذي يقف بمواجهة الاستعمار والامبريالية والتبعية. وبقيت نار السخط على سياسة ليبيا الخارجية حيّة متقدة تحت الرماد تحفر مكامنها خفية في النفوس

(٩) المرجع السالف ص١٥٥.

وفي أوساط محدودة. بسبب الجهل المستحوذ على معظم سكان البلاد وخلوّ البلاد من الأحزاب السياسية. إلاّ أن المتعاطفين مع التيارات والنظريات السياسية والأحزاب الثورية ظلوا يعملون في الخفاء سِراً. فكانت ثم قيادة لحزب شيوعي صغير منذ ما قبل الاستقلال تمّ طردها من البلاد في العام ١٩٥١. وحظر على حزب البعث العربي الاشتراكي اي نشاط تنظيمي أو سياسي أو إعلامي[١٠].

ومع أن العناصر التي محضت عبدالناصر ولاءها لم يجمعها جامع تنظيمي معين. إلا أن تأييد خطه والانتصار له والاعجاب بما حققه لاسيما بثورته التي قضت على نظام ملكي بغيض مشابه، كانت كلها رصيداً عظيماً للزعيم المصري بين أوسع الجماهير والطبقة المتعلمة والطلاب والنقابات والجيش.

وفي العام ١٩٥٣ كان ثم تنظيم لاتحاد نقابات العمال. أحيل رئيسه (سليم شطّه) في العام ١٩٦١ الى المحاكمة فحكم عليه بالسجن ستة أشهر فقط بتهمة قيامه بتنظيم إضراب[١١].

وبدا النظام الملكي الليبي شديد الليونة مع أولئك الذين يأتمرون به، بعيداً جداً عن القسوة التي كانت تمارسها الأنظمة الثورية العربيّة بحق خصومها أو الخارجين عليها سواءً بسواء على أن الطرفين الحكومة والمعارضة، كانا يحترمان الدستور ويحترمان رئيسه وممثله الملك ولم يكن هناك مطعن أو مثلب تستطيع عناصر المعارضة أن تنفذ منه الى الشك في وطنيته ونزاهته. لكنهما من جهة أخرى لم يكُنا يحفظان لوليّ عهده أي احترام، أو يكنّان له ذرة من العطف وكان الخوف من موت الملك واستخلاف ولي العهد هذا يشيع نوعاً من الانقباض في النفوس للاعتقاد السائد بأنه لايصلح لحكم البلاد. من جهة أخرى ورغم الليونة والرخاوة – كانت المعارضة تشعر بأن الحكومة تضيّق عليها الخناق من غير داع وتخيب آمال الشعب فيها بملاحقة أقطاب المعارضة بالمحاكمات والاعتقالات. من ذلك احالة ١٠٦ من أقطاب المعارضة الى المحاكم في طرابلس في ١٩٦٨ بتهمة القيام بنشاط ارهابي وتخريبي ضدّ الدولة.

وقبيل انقلاب أيلول ١٩٦٩ لم يلاحظ بين ضباط الجيش الليبي الصغير أي نشاط سياسي سري أو علني وكان الاعتقاد السائد أن ضباط هذا الجيش هم غير مجربين وغير ناضجين أو

(١٠) في شهر شباط ١٩٦٢ سيق عدد كبير من هؤلاء الى المحاكمة في طرابلس بتهمة القيام بنشاط هدام يرمي الى قلب نظام الحكم سياسياً واقتصادياً فحكم على ٨٧ منهم بأحكام سجن تتراوح بين السنة الواحدة والخمس. وأبعد غير الليبيين من البلاد. [تراجع تفاصيل ذلك في «العوامل التي تملي سياسة ليبيا الخارجية» لمؤلفه چارلس و. سيسل Determinations of Lybian Foreign Policy: Charles O. Cecil في ميدل ايست جورنال: المرجع السالف ص٣١.

(١١) أنتخب بعد ثلاث سنوات نائباً في مجلس الشعب.

مهيأين لمغامرة سياسية وان قادتهم يدينون بالولاء للملك بل حتى أولئك الذين دربّوا ودرسوا في الخارج وهم في تزايد مطرد، لم يبد منهم سلوك معين يوجب الشك في ولائهم. لكن كان هناك – كما اتضح فيما بعد وفي حالات معينة أن انتظم في سلك الجيش شبان نشطون سياسياً للغرض الوحيد وهو إحداث انقلاب. وكان ثمّ تقارير حول وجود علاقات سرّية بين لفيف منهم وبين جهات مصرية معينة كما كان الاعلام الصحافي ينشر بين آنٍ وآخر تقارير حول تململ وعلائم استياء في صفوف الجيش وفي حزيران ١٩٦٢ وبناءً على هذه الظواهر صدر مرسوم ملكي باحالة سبعة ضباط الى التقاعد. وبالاستغناء عن رئيس اركان الجيش واحلال آخر محله.

كان تشكيل القوات المسلحة الليبية يتسمّ بالبطء. بديء به من الصفر يوم الاستقلال مباشرةً وفي أواخر الخمسينات لم يكن قوامه ضباطاً وجنوداً يتجاوز ثلاثة آلاف. إلاّ أن العدد ارتفع ليبلغ ٦٥٠٠ ضابط وجندي في العام ١٩٦٥. وقد قضت الاتفاقية العسكرية البريطانية باشراف البريطانيين على تدريبه لكن وفي العام ١٩٥٧ بديء بتطبيق برنامج تدريب أمريكي لوحدات من الجيش والقوة الجوية.

وحتى العام ١٩٥٨ كان رئيس اركان الجيش ضابطاً عراقياً تمّ الاستغناء عن خدماته بعد ١٤ تموز في العراق. إلا أنه استبدل بضابط ليبي فيما بعد.

وكما ذكرت لم يكن لليبيا جيش يوم الاستقلال. كانت هناك وحدات قليلة من الشرطة ورجال الأمن يشرف البريطانيون على قيادتها وتدريبها في مركزين بطرابلس والقيروان. وفي هذه الأخيرة تكونت نواة الجيش. تألفت أولاً من وحدات وفصائل ليبية صغيرة العدد قاتلت الى جانب الجيش البريطاني أثناء الحرب. وبعدها حولها البريطانيون الى (درك) و(شرطة) وزوّدوا بالتجهيزات والأسلحة العصرية وزادوا في عددهم ليبلغ ستة آلاف ونيفاً وتلقوا تدريباً عسكرياً حديثاً. وعرفوا باسم «القوات القيروانية». وهو في الواقع أشبه بالليڤي العشائري تدين للملك بولاء خاص وكانت أقوى عدداً وعدة ونفوذاً من الجيش. يحفها الملك بالعناية والرعاية ويتفقدها دائماً.

بقيت هناك تزاول مهمتها في المحافظة على الأمن والنظام، مثلما كانت قوات الجيش تقوم بعين الواجب في طرابلس. وبدا فصل هاتين القوتين بعضهما عن بعض مقصوداً، ليبقى عامل الموازنة بينهما قائماً.

بالثروة المفاجئة ضوعفت ميزانية الجيش مرات عدة. وفي العام ١٩٦٨ أقتني منظومة

صواريخ ورادار من لوازم الدفاع الجويّ، فضلاً عن مهمات عسكرية حديثة بينها عدد من الدبابات والآليات والمدفعية.

وفي شهر آب ١٩٦٩ صرح رئيس الحكومة (دَنيس القذافي) متباهياً بأن «الحكومة خصصت ميزانية كافية جداً ليغدو جيشنا في عداد أفضل جيوش العالم من ناحية المعدات والتدريب».

على أن التوتر السياسي كاد يكون باعثه الأوحد القواعد الأجنبية، ومنحصراً بها وهذا لم يكن سراً بعد أن تخلصت دول شمال افريقيا كلها (تونس، الجزائر، مراكش، موريتانيا) من هذه القواعد وصفّتها عن طريق التفاهم أو التهديد أو الضغط.

لكن كان بإمكان أولئك الثوريين، والعناصر المتطرفة المعادية للملكية، مع تلاميذهم من صغار الضباط في الجيش أن ينتقدوا التوزيع غير العادل للثروة الوطنية المفاجئة واستغلال بل استئثار طبقة معينة من المجتمع دون طبقة بمعظم الفوائد من عائدات النفط. والمثقفون هم أسر شيوخ القبائل العظيمة كأسرة (الشلحي) في منطقة البيضا في بنغازي ذات الحظوة والنفوذ الكبيرين عند الملك.

كان بوسع المعارضة هذه توجيه سياسة التأليب ضد الملك والملكية من هذه الناحية. إلاّ أن عناصر تلك المعارضة لم تكن من ذلك النوع الذي يهدف فحسب الى اقامة نظام حكم ديمقراطي سليم. بل من ذلك الصنف الذي يعمل على هدم الحكم. فاتخذت هدفاً سهلاً لايقتضيها مجهود بناء اسس الديمقراطية الحقيقية. هذا الهدف هو تمسك الملك بمصداقية علاقته بالامريكان والبريطانيين وحرصه على ابقاء قواعدهما. أي التركيز على السياسة الخارجيّة السيئة ووجوب تغييرها. وهو في نظري الغلط الذي كان القوميون العروبيون يقعون فيه كلما التمسوا العذر في احداث إنقلاب عنيف. إن أبسط المباديء العلمية تؤيد لك بأن السياستين الداخلية والخارجية في الدولة تمثلان واقعاً واحداً، قد يمكن تشبيهه بالورقة المالية ذات الوجهين. وانه لمن الخطأ الكبير اعتبار السياسة الداخلية ثمرة انعكاس عن السياسة الخارجية. والأمر بالعكس تماماً. ومن الواضح أن السياسة الخارجية هي التي تعكس السياسة الداخلية والمقياس الحقيقي لمصداقية وطنية أي حكم أو لاوطنيته هو سياسته الداخلية. أعني ما يتعلق بمصالح الشعب، اكتراثه بها أو عدم مبالاته. لذلك كان مكتوباً لاي انقلاب عسكري أو شبه عسكري أو أي إنقلاب ان ينحو منحى ديمقراطياً.

وفي إنجيل القومية العربية أن العلاقات الوثيقة والصداقات الحميمة مع حكومات غربيّة

معينة مهما كانت الدوافع اليها، ومهما كانت ضرورية للمصلحة الوطنية، ومهما كانت الدولة القومية ستكسب منها هي من الجرائم والمحرمات، وهي الخيانة بعينها بحق الشعب. لايمكن أن يتسامح بها النوع الجديد الخاص من الأنظمة العربية المتطرفة.

والسبب لايقتصر طبعاً على موضوع النزاع العربي في فلسطين وموقف الكيانات السياسية منه. بل بالتزام المتطرفين القوميين بتحقيق الثورة الاجتماعية. ومن هنا يصدر مظاهر العداء للغرب الرأسمالي الامبريالي الذي كان يؤدي عادة الى انشاء علاقات وثيقة مع العالم الاشتراكي.

ولذلك بدا الملك ادريس السنوسي في نظر القوميين العروبيين عاجزاً أو غير راغبٍ في اتخاذ قرارات أو عقد معاهدات يراها القوميون العرب متفقةً والمصلحة القوميّة. كما نعوا على حكومات ليبيا ذات الدستور الديمقراطي الحديث اختلاف قراراتها ومخططاتها السياسية عن قرارات ومخططات الثوريين العرب، ووصفوها بالحكومات الرجعية. لم يكن أي قدر من التقدم والاصلاح يرضي هذه العناصر لأن هدفها هو التغيير التام في الأساليب والأشخاص ومن ضمن ذلك ازاحة الملك وبطانته.

لم يكن ينتظر من هؤلاء الثوريين غير هذا والا حكموا على أنفسهم إمّا باخلاء الساحة أو الانتحار. ولذلك وعلى أية حال بات في ايدي صغار الضباط - كما اتضح فيما بعد - القرارُ في ما هو مفيد للشعب «العربي الليبي». أعني استخدام وسائل العنف التي يملكونها لفرض ارادتهم بالقوة. وعندما قرروا القيام بالانقلاب لم يكن حجم الجيش يزيد عن ثمانية آلاف ضابط وجندي إلاّ أن الانقلاب لم يقم به غير خمسمائة منه.

جرى ذلك نهار الاثنين الموافق للأول من أيلول ١٩٦٩ حين كان الملك البالغ من العمر ٧٩ عاماً يعالج في (بورسه) بتركيا من مرض مزمن.

كان انقلاباً غير متوقع لم تسبقه اشارات ولا تمهيد ولا اجتماعات تآمرية سابقة ولا...[١٢].

كان معدّل أعمار الضباط الذين قاموا بالانقلاب سبعة وعشرين عاماً. وليس بينهم من

(١٢) في حين وقوع الانقلاب كان في السجون الليبية نفر ضئيل من «حركة القوميين العرب» الذين تآمروا على الملك في ١٩٦٧. والى جانبهم عشرات قليلة من بقايا الاضراب الذي وقع في ١٩٦٨. وهو الاضراب الذي قاده (محمود المغربي) المحامي الليبي المولود في سورية ونجم عنه القبض على عدد من المضربين بينهم (المغربي) بالذات. ثم كان في عام الانقلاب وقبله بقليل نشاط معادٍ للملكية تزعمه العقيد (سعدالدين أبو شويرب) الذي تلقى دراسته في القاهرة وكلية ساند هرست الحربيةً ببريطانيا فأحيل على التقاعد. وقدر له وللمغربي أن يشغلا مناصب هامة بعد الانقلاب.

يحمل رتبة نقيب وأنشطهم ورأس حربة الانقلاب (معمر القذافي) كان برتبة ملازم اول. هؤلاء أطلقوا على أنفسهم اسم «الضباط الوحدويون الأحرار» وادعوا بأن هيئهم هذه كانت قد تألفت سراً منذ العام ١٩٦٦[١٣].

تمّ الانقلاب بأقصى السرية والإحكام الأمر الذي حمل على الاعتقاد بأنهم تلقوا عوناً من أياد متمرسة خبيرة خارجية ولم تكن علاقاتهم بالمبعدين في مصر سِراً. لاسيما بأحدهم (صالح بويسر) نائب رئيس مجلس النواب سابقاً وكان قد أبعد عندما اختلف مع الملك.

في الساعة الثانية من صباح ١ أيلول انطلق الضباط على رأس وحداتهم تحت حماية الدبابات - من ثكنات طرابلس - وطوقت الدوائر والمنشآت المدنية والعسكرية والقصر الملكي. ومقرّ رئاسة اركان الجيش ودار الاذاعة. والقي القبض في الوقت عينه على وليّ العهد وأعضاء الحكومة. وتمّ كلّ شيء بساعات معدودات وبمهارة[١٤] فائقة لم تمرّ ثلاث ساعات حتى كانت العاصمة في قبضتهم والظاهر أن زعماء الانقلاب كانوا صادقين في بيانهم الأول عندما ادعوا «بأن الانقلاب لم يلق مقاومةً وبضربة واحدة من جيشكم البطل».

على أن مدة فرض منع التجوال المتشدد ولمدة أربع وعشرين ساعة واغلاق الموانيء والحدود والمطارات لمدة عشرة أيام، كان دليلاً على أحد امرين إما وجود مقاومة أو وجود خوف حقيقي من توقع مقاومة.

وفي اليوم التالي سمح بثلاث ساعات من التجوال وفي اليوم الثالث مدّد الى خمس وبقي لأكثر من شهرين يبدأ منع التجوال من الثانية عشرة ليلاً حتى الخامسة صباحاً وتحدث المراسلون والصحافيون عن أدلة تشير الى وقوع اشتباكات في (قرنقة) وإن دبابات وقطعات عسكرية نقلت الى بنغازي شرقاً.

كان انهيار مقاومة قوات (قرنقة) الموالية للسنوسي وهي أكثر عدداً وأقوى عدة. من الجيش أمراً يدعو الى الحيرة والعجب.

أذيع البيان الأول معلناً عن تشكيل مجلس قيادة الثورة وقيام «الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية». ومبرراً ومعطياً أسباب قيام الثورة والقضاء على النظام الملكي والغاء الدستور. بلغة تغلب عليها الركاكة الشبيهة بأسلوب الطلبة المبتدئين بكتابة التمارين الدراسية:

(١٣) المرجع السالف ص٢٥٣.

(١٤) اعتقل (دنيس القذافي) رئيس الوزراء وأعضاء وزارته وهم في بيوتهم. ومأأتى ضحى ذلك اليوم حتى كان رهن الاعتقال ما يزيد عن ألف من الموظفين المدنيين والعسكريين والزعماء السياسيين.

«الثورة قامت تنفيذاً لارادتكم الحرّة، وتحقيق امانيكم الغالية الحقيقية... نتيجة لدعوتكم المتكررة بطلب التغيير والتطهير... لذلك فان القوات المسلحة واستجابة لمطالب الشعب... قامت بالقضاء على الرجعية المتخلفة... والنظام الفاسد الذي زكمت رائحته النتنة الأنوف... الاصنام انهارت... الاصنام المنحوتة تحطمت. ظلام العصور الطويلة من حكم الاتراك واستبداد الطغيان وعهد الرجعية والوساطات والمحسوبية والخيانات... كلها أصبحت في ذمة التاريخ...»

وبعدها صدرت البيانات تحمل توقيع مجلس قيادة الثورة وصدر بيان يعهد فيه الى محمد سليمان المغربي المحامي[١٥] بتأليف حكومة. وبيان آخر بنصب (معمر القذافي) رئيساً لمجلس قيادة الثورة وترفيعه من رتبة ملازم أول الى رتبة عقيد[١٦]. وصدرت قرارات باحالة عدد كبير من ضباط الجيش الى التقاعد والقي القبض على رئيس الأركان اللواء (حميدالدين السنوسي) وعلى عدد يقارب ٢٥٠ ضابطاً برتبة عقيد ومقدم ورائد وعدد من رؤساء البعثات الدبلوماسية الليبية المتواجدين في ليبيا وأكثر من مائتين من رجال الأعمال. وبعد رفع حظر التجوال استقبل الانقلاب بتظاهرات تأييد وترحيب في جميع أنحاء البلاد.

وأرغم وليّ العهد على كتابة صكّ تنازل عن منصبه الملوكي بل أرغم حتى على اعلان مساندته للثورة!! ولم يكن ادريس السنوسي قادراً على فهم ما حصل ولم يصدق عندما وردته أنباء الانقلاب في الثالث من أيلول وهو في اليونان وصرّح بانه «سيعود قريباً الى طرابلس» ثم بعث بمستشاره الى لندن بطلب التدخل العسكري[١٧].

وكانت الحكومة المصرية اول المعترفين بالنظام الجديد. وكالعادة أصدرت تحذيراً لأي قوى خارجية بالتدخل ضد الانقلاب وباعتباره كأنه موجه ضدها، تحذير شبيه بذلك الذي أصدره عبدالناصر يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ بمناسبة الانقلاب العراقي.

ولحق بها الاتحاد السوفياتي فكان ثاني المعترفين. واضطر الملك الشيخ الى العدول عن طرابلس وغير اتجاهه في نهاية تشرين الأول الى الاسكندرية والعيش فيها منفياً.

وبعد أيام قلائل اعترفت الدول الناطقة بالعربية والعالم الاشتراكي بالنظام الجديد ولحقت

(١٥) هو عين ذاك (المغربي) الذي كان سجينا.

(١٦) كان عمره ٢٧ عاماً عندما صدر قرار بتعيينه قائداً عاماً للقوات المسلحة في اليوم التالي.

(١٧) ابى البريطانيون التدخل. وكان لديهم في قواعدهم الليبية إذذاك قوة تقدر بحوالي ٢٥٠٠ ضابط وجندي في طبرق فضلاً عن تجهيزات ومعدات حربية وأسلحة حديثة وعتاد كان كافياً لقلب الأمور وإعادة الأمور الى نصابها الطبيعي وكانت الحجة البريطانية في الاعتذار عن التدخل أن معاهدة ١٩٥٣ لاتملي عليها التدخل العسكري إلاّ في حالة تعرض ليبيا الى هجوم خارجي.

بها دول الغرب لاسيما تلك التي كانت تملك مصالح نفطية وشركات عاملة في ليبيا. وكان النظام الجديد قد أشاع فيها الاطمئنان عند تأكيده بأن ثورته ليست ضدها وأنه لن يعمد الى تأميم صناعة النفط.

في مبدأ الأمر لم تكن للانقلابيين سياسة واضحة أو ذات معالم ثابتة كانوا كالحاطب بليل أسكرتهم خمرة النصر فراحوا يترنحون ويتعثرون وفقدوا التمييز بين الكليات والجزئيات. أصدروا قراراً يقضي بتعريب لافتات ورقاع اسماء الدكاكين والمحال التجارية. ومسح العناوين ومُعْلمات الطرق وأسماء الأحياء المدوّنة باللغات الأوروبية أو بايّ لغة تستخدم الأحرف اللاتينية. وتلا ذلك قرار بمنع تدريس اللغة الانكليزية لطلاب المدارس الابتدائية. وقرار آخر منع فيه الأجانب من امتلاك مصالح تجارية وقصرها على الليبيين «مائة بالمائة!». لكن أعطيت كما ذكرت تأكيدات لشركات النفط والمصارف الأجنبية بأنها لن تكون مشمولة بهذا القرار.

وصدر قرارٌ يعلن بأن حكومة الجمهورية ستقوم من الآن فصاعداً بتوزيع عوائد النفط[١٨] بعدالة أكثر وعبرت القيادة عن اعتزامها التحلي بالهوية العربيّة واعتناق المبدأ القومي في الوحدة. وبادرت تأكيداً لهذا بمنح منظمة «فتح» الفلسطينية مبلغ ٨٠٠٠٠٠ دولار[١٩] وأعلن مجلس قيادة الثورة بأن الاتفاقيات العسكرية الامريكية والبريطانية لن تمدد عند انتهائها. ثم أعلن بعد فترة وجيزة انه شرع في محادثات لالغائها قبل انقضاء مددها. وتمّ له ما أراد في العام نفسه.

(١٨) في ١٩٦٩ بلغت عوائد النفط التي دخلت ليبيا بليون دولار تقريباً.

(١٩) في اليوم الأول من اعلان الانقلاب ألحق مجلس القيادة بيانه الأول ببيان آخر في نقاط خمس هذه هي:

(١) الغاء الادارات والاجهزة الدستورية للنظام القديم بما في ذلك الوزارة والمجالس الاشتراعية. والتهديد بالعقاب الصارم الساسة القدماء إن حاولوا اظهار أي عداء للثورة باي شكل كان.

(٢) وضع شؤون «الجمهورية العربية الليبية الشعبية» بشكل شامل تحت سلطة مجلس قيادة الثورة باعتباره السلطة العليا الوحيدة في البلاد.

(٣) اعتزام القيادة الجديدة بناء ليبيا الثورة، ليبيا الاشتراكية التي تنبع من قلب شعبنا والمؤمنة بحتمية التطور التاريخي واستحالة تغييره، واعتزامها نقل ليبيا من بلد التخلف الى بلد التقدمية. وإن مجلس قيادة الثورة سيعمل على رفع ليبيا الى مصاف البلاد التقدمية. الى بلد معاد للكولونيالية والعنصرية والجهاد في تحرير الشعوب المضطهدة التي تعاني من مشاكل التخلف والظلم الاجتماعي.

(٤) الايمان بوحدة أهداف العالم الثالث ودول عدم الانحياز وبصدق جهود هذا العالم في القضاء على التخلف الاقتصادي والاجتماعي.

(٥) يطمئن مجلس قيادة الثورة المجتمع الليبي حول أصالة موقفه من الدين في عالم الثورة الاشتراكية وبايمانه بقدسية الدين الاسلامي ويقيم تعاليم القرآن ومساندته واتباعه تلك القيم.

وبقيت أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة مجهولةً. حتى أن صلة المجلس بالحكومة الجديدة التي أقامها فضلاً عن الأجهزة الادارية الأخرى كانت تتم عبر بيانات ترسل الى الاذاعة لتذاع – من تعيينات واقالات واعتقالات فتقوم الجهات والاشخاص المعنيون بهذه البلاغات بالتنفيذ دون أن يعطى تفسير أو تبرير ودون أن يفهم المقصودون بتلك الأوامر أسباب اعتقالهم أو عزلهم أو طردهم أو تعيينهم أو ترفيعهم أو نقلهم، فتطاع تلك الأوامر دون تلكؤ اذ لايوجد ثمة جهة اعتراض يلجأون اليها. وهذا من أعجب العجاب!

من سائر الضباط الذين حققوا الانقلاب تداولت الاسماع اسم واحد فقط في الأيام القلائل الأولى. حتى راح الظنّ بانه هو الذي تزعم الانقلاب عندما نوه باسم العقيد (سعدالدين ابو شويريب) وقال بعضهم عندما اكتشفت اسماء أخرى ربما استخدم الانقلابيون هذا الضابط كواجهة مثلما استخدم (اللواء محمد نجيب) في ثورة يوليو بمصر بل ربما لكونه أعلى رتبةً من سائر القائمين بالانقلاب وبقي الأمر كذلك طوال شهرين ثم وفي ١٨ من تشرين الثاني أعلن راديو طرابلس نبأ تعيينه سفيراً في مصر فزاد في الأمر غموضاً وتضاعفت التكهنات.

على أن الليبيين عرفوا عضواً رئيساً في مجلس قيادة الثورة عندما أعلن «العقيد معمر القذافي» باعتباره قائداً عاماً للقوات المسلحة عن شكره لتلك القوات التي ساندت الانقلاب. هكذا وبشكل روائي مدهش حقاً[٢٠] وبعد ذلك لم يعد هناك شيء مجهول عن أعضاء مجلس قيادة الثورة.

وانطلق (معمر القذافي) اثر ذلك في نزهة خطابية في طول البلاد وعرضها (مثلما كان عبدالسلام عارف في العراق يفعل بعد ١٤ تموز) محاولاً أصلاً تقليد عبدالناصر. حتى بمضامين مايتحدث به، كان مثله يؤكد بأن الشعب هو المعلم وهو الطليعة ومصدر وحي القوات المسلحة. وإن الجيش والقوات المسلحة هما جزءٌ لايتجزأ منه وهما الطليعة ليس إلاّ.

إلاّ أنه حاد عن النهج الذي اتبعه أضرابه من الضباط الانقلابيين في الدول الأخرى عندما أشار الى أن الضباط الثوريين الذين قاموا بالانقلاب في ليبيا ليسوا مجرد «ضباط أحرار» بل هم «ضباط وحدويون أحرار» شارحاً بأنّ ذلك كان مقرراً منذ البداية وهو الثالوث المقدس

(٢٠) «الفيگارو» ١٨ أيلول ١٩٦٩. تحدث القذافي لمراسلها عن نفسه ونشأته. قال إن والديه يعيشان الآن في خيمة في منطقة سرت. وأنّ آباء زملائه في مجلس قيادة الثورة يعيشون في أكواخ. سأله المراسل حول عدم إشراك المدنيين في التهيئة والتنفيذ. فانكر أن يكون للمدنيين الحق في هذا، فالضباط وحدهم هم الذين يملكون الامتياز بفضل صدق الحوافز والمشاعر المؤهلة وصلاحيتهم لتمثيل مطالب الشعب أكثر من أية جهة أخرى بسبب أصولهم الفقيرة الوضيعة وقال إنه دخل الكلية العسكرية في ١٩٦٣ وتخرج فيها في ١٩٦٥. بعد تخرجه في الجامعة الليبية. وما انضم الى الجيش إلا بقصد القيام بثورة.

كما جاء في بيانهم «حرية اشتراكية وحدة». وهذا هو الترتيب الناصري الذي يخالف الترتيب البعثي كما ورد ذكره الذي يبدأ «بالوحدة» وينتهي «بالاشتراكية». وذكر القذافي وفلاسفته الذين جمعهم فيما بعد ان فلسفته في الحكم غير مستوردة. وانكر ان يكون للبعث اي نفوذ في النشاط السرّي الذي سبق الانقلاب.

وحمّل القذافي في خطبه الحكم السنوسي كل جريرة وسوء وعزا اليه كل نقيصة ولجأ الى (الكليشة) المعروفة في البلاد الناطقة بالعربية بتجريدهم الانظمة التي سبقتهم كل فضيلة أو معروف أو عمل حسن، عندما خطب في ٢٢ من أيلول مطلقاً على الحكام السابقين أوصافاً مبتذلة. ووصفهم باعداء الشعب الفاسدين. والملك بالرجعي المتخلف والتابع الذليل الأعمى للقوات الامريكية والبريطانية و... نظامه الذي عزل ليبيا عزلاً تاماً عن القضايا المصيرية للأمة العربيّة منوّهاً بالموقف الليبي من نكسة ١٩٦٧ وكيف أن حكومتها أبت القيام بعمل ايجابي ولهذا كان على «الضباط الوحدويين الأحرار أن ينهجوا نهج سياسة داخلية وخارجيّة مختلفة تتفق ومصلحة ليبيا ومصالح الأمة العربيّة».

وبدأ هؤلاء «الضباط الوحدويون الأحرار» بعد انكشاف هوياتهم بالتدريج يتحدثون عن الوحدة العربية. وعن ضرورة مساندة النضال الفلسطيني بإسهاب وتكرار وإطالة، وهاجموا ما دعوه «بالاقليمية» وكيف كانت عامل الفشل في حماية فلسطين أو في العثور على حَلّ ايجابي لمشاكل الأمة العربية. وفي دوام الضرب على هذا الوتر الحماسي أعلن مجلس قيادة الثورة تبديل اسم وزارة الخارجية باسم «وزارة الوحدة». وصرح العقيد (فواز) وزير الداخلية في ١٥ تشرين الثاني أثناء زيارته القاهرة: بلزوم توحيد الجيوش العربية[٢١] ومما ذكرته «الأهرام» قوله أنهم ألغوا صفقة سلاح مع بريطانيا بقيمة ٣١٢ مليون دولار لأنها كانت تهدف الى تقوية دفاعات ضد تهديد مصريّ محتمل في حين تنوى ليبيا الآن استخدام هذا

(٢١) الاهرام ١٦ تشرين الثاني ١٩٦٩. لم يكن في هذا الاقتراح موفقاً مثلما وفق ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا قبله بقرنٍ وربع قرن على توحيد لباس الرأس في سورية ايام كان حاكماً لها. فقد أباح للمسيحيين توحيد اللباس مع المسلمين (الاعتمار بالعمامة البيضاء وارتداء الجبة والقفطان) سعياً وراء زيّ وطني موحد. ولم يكن يحق للمسيحيين ذلك الزي، بل كان مقصوراً على المسلمين. فتقدم علماء دمشق وفقهاؤها بالاعتراض على القرار والسؤال من ابراهيم پاشا: كيف يمكن والحالة هذه التمييز بين المسلم والكافر كي لايرتكب المسلم إثماً عند إلقاء «تحية السلام عليكم ورحمة الله» وهي في عرفهم لاتجوز لغير المسلم؟ والظاهر أن ابراهيم پاشا كان يعرف تاريخ الاسلام الأوّل معرفة تفضل معرفتهم فقال مجيباً: إن الخلفاء الاوائل كانوا يعتمرون بعمائم بسيطة لاتشبه قط هذه العمائم الضخمة التي أراها الآن على رؤوسكم ومعرفة المسلم تجب عندما يؤم المسجد. ومعرفه المسيحي تنجلي عندما يؤم البيعة. أما في الخارج فليس هناك فرق.

المبلغ لبناء جيش حديث استعداداً لمعركة المصير الفاصلة. على أن المسألة التي غابت عن ذهن وزير الداخلية الليبي الجديد هو أنه غدا لكل جيش من الجيوش العربيّة حروبه الخاصة ومهامّه الخاصّة ومصادر تجهيزاته الخاصّة. وانه لايمكن توحيدها توحيداً حقيقياً حتى بالمظاهر مثل توحيد الايعازات والمصطلحات العسكرية وتوحيد الشارات والرتب وقد فشلت المحاولات كلها في هذا السبيل.

وأعلن القذافي في أواسط تشرين الأول أن نظامه الثوري لايفكر في بناء جيش قطري من أجل ليبيا فحسب لكن القوات المسلحة يجري بناؤها على أساس التوحيد والاندماج مع بقية قوات بلاد الأمة العربية ولاسيما البلاد المتحررة منها[٢٢].

ومال الثوار العسكريون الليبيون الى القاهرة بكل ثقلهم وطاقتهم وساندوا (ج.ع.م) واستلهموا سياستها العربيّة كما حللوها لأنفسهم وكانت علاقة النظام بعبدالناصر قويّة ذات طابع خاص كالعلاقة بين المعلم والتلاميذ. بل راحوا يتحدثون معه حول اقامة وحدة ثنائية.

وفي ٢٥ كانون الاول ١٩٦٩ شاهد العالم العربي والغرب كيف دخل مؤتمر القمة العربي في الرباط، الثوريون الثلاثة عبدالناصر وجعفر النميري ومعمر القذافي كتفاً بكتفٍ ويداً بيد. وكيف وقّع الثلاثة بعد يومين من المحادثات اتفاق التنسيق في الأمور العسكرية والاقتصادية والثقافية ومن نصوصه عقد اجتماعات دورية ثلاثية للدخول في التفاصيل ورسم الخطوط وطرق التعاون[٢٣].

وبدا الثوار الليبيون فخورين بهذا الاتفاق. واعتبروه فضلاً من عبدالناصر مَنَّ به عليهم. فهو وجه من أوجه الدعم السياسيّ. ومما لاشك فيه أن عبدالناصر بدا في غاية السعادة لذلك الاستقبال الحماسي الذي نظمته له طرابلس مثلما جرى له في الخرطوم بعدها. وبدت الهتافات بحياته وحياة الأمة العربية كما وصفتها الصحافة تشق عنان السماء قبل أن تشق طبلات الآذان. وفسرتها باستمرارية زعامته كما فسرها هو بأنها مظهر من مظاهر الاعتراف بها في كل صقع من الاصقاع العربية. وما من شك في انه كان يأمل في الانتفاع من موارد ليبيا العظيمة[٢٤].

(٢٢) نيويورك تايمس ٨ تشرين الثاني و٢٢ أيلول. مجموعة خطب القذافي وتصريحاته، ط. طرابلس كانون الثاني ١٩٧٠.

(٢٣) لم يتم غير اجتماع واحدٍ، ولم تنشر مقررات له. وقد طوي هذا الاتفاق مثل مئات من اتفاقات عربية شبيهة ولم يعرف عنه شيء بعدها.

(٢٤) في كانون الأول ١٩٦٩ أعلن الليبيون أنهم قدموا اعانة لجبهة التحرير الفلسطينية مقدارها ربع مليون دولار.

وابرم الانقلابيون فوراً صفقة طويلة الأمد مع فرنسا لشراء مائة طائرة حربيّة من نوع ميراج[٢٥].

والتغيير السياسي الدولي الذي أحدثه الانقلاب هو اخراج ليبيا من دائرة الولاء التام للغرب وتبني سياسة الحياد الايجابي والانضمام الى كتلة عدم الانحياز (العالم الثالث) وقد قضى هذا التحول بتصفية الوجود البريطاني والامريكي في شمال افريقيا وازالة قواعدهما العسكرية. ففي اليوم الثالث من الانقلاب أصدر مجلس قيادة الثورة واحداً من مقرراته عن (طريق الراديو) يأمر فيها القيادة البريطانية بالتوقف التام عن القيام بأيّ تدريبات عسكرية بريّة أو جوية وفي ١٨ من أيلول صرح القذافي بأن الحكم الجديد لن يتسامح أو يقبل بوجود قواعد عسكرية، ولا أجنبي ولا إمبريالي ولا متدخل. وصرح بمثل هذا في ١٦ تشرين الأول – رئيس الحكومة (المغربي).

على أنهم بقوا قرابة شهرين من الانقلاب دون أن يتخذوا قراراً باتاً. بل كانوا يتشاورون خلال ذلك مع مصر. ثم وفي ٢٩ تشرين الاول طلبت ليبيا رسمياً من بريطانيا سحب قواتها وتصفية قاعدتها «بالسرعة الممكنة». وفي اليوم التالي (٣٠ تشرين الاول) تسلمت الولايات المتحدة طلباً مماثلاً. وفي طرابلس ألقى معمر القذافي الذي بات معروفاً بانه رئيس مجلس قيادة الثورة خطبتين جماهيريتين واحدة في طرابلس بتاريخ ٩ من تشرين الثاني. والأخرى في طبرق في ٢٨ منه. حول هذه القواعد. وأظهر مقدار حماسته وإلحاحه في تلقي إجابة قاطعة عن موعد إخلاء القواعد. وأشار الى الامبريالية التي خلقت العروش وساندتها ونصبت حكاماً رجعيين مؤكداً بان الشعب الليبي لم يكن راضياً وليس هو الآن براض في العيش بوجود القواعد الأجنبية على أرضه وانه لايقبل بتسوية أو تأجيل أو تسويف وأن الشعب الليبي مستعد لقبول الشهادة في سبيل تحرير بلاده من هذه القواعد.

في الواقع كانوا كلهم يتحدثون في مجلس قيادة الثورة والحكومة، يتحدثون بحماسة جنونية وإلحاح شديد حول وجوب تصفية تلك القواعد باسرع ما يمكن. ومما لاشك فيه أن مبعث هذا التخوف والتوتر العصبي هو احتمال قيام تلك القوات المرابطة فيها بحركة عسكرية قد تطيح بهم، أكثر من اعتبارات تتعلق بالسيادة الوطنية والعزة والكرامة كما كانوا يدعون. في

(٢٥) رأت اسرائيل في هذا الاتفاق إخلالاً بالموازنة العسكرية وتهديداً للسلام في الشرق الأوسط لأنها ستكون في كفّة مصر ضد كفة اسرائيل. ووافقت حكومة بومپيدو على الصفقة يومذاك بقولها إن أول عدد منها لن يصل ليبيا قبل ١٩٧٢–١٩٧٣ وستمر سنوات عديدة قبل أن يتمكن الليبيون من تسلمها واستخدامها وصيانتها والتدرب عليها وتأمين طيارين لها. ولو رفضت فرنسا لاتجهت ليبيا الى الاتحاد السوفياتي الذي سيسارع الى تجهيزهم بما يحتاجون اليه.

الواقع كانت مصدر تهديد للانقلابيين لكنّ خوفهم لم يطل وتبين أن لا أساس لهذا الإفتراض عندما أعلنت بريطانيا والولايات المتحدة في ١٩ من كانون الأول ١٩٦٩ عن موافقتهما على الجلاء بعد المفاوضات المقتضاة مع الحكومة الليبية وبدأ الانسحاب البريطاني في كانون الثاني ١٩٧٠ وانتهى في شهر آذار من السنة عينها وأتمت الولايات المتحدة سحب آخر جنديّ لها في ١١ حزيران ١٩٧٠ وكان القذافي قد وصف هذه القاعدة في خطاب آنذاك «بالحنجر المسموم المغمد في ظهر العرب»[٢٦].

والظاهر أن عقلية القذافي ومزاجه الزئبقي الذي اتضح للعالم أجمع – لم يجدا أيّ تناقض في الاعلان هو وصحبه عن انضمام بلادهم الى كتلة دول عدم الانحياز وبين إعلانهم في كل مناسبة ومناسبة بأن علاقات بلادهم مع الدول الأخرى ستكون مبنية على أساس مواقف تلك الدول من قضية فلسطين. فوصفوا الاتحاد السوڤياتي على أساس هذه القاعدة بأنه «أصدق أصدقاء العرب» ووصف القذافي مساعدة تلك الدولة لمصر بأنها مساوية لمساعداته لليبيا. ثم عاد ليثني على الموقف الفرنسي المشرف من القضايا العربية، مشيراً الى علاقات التعاون الاقتصادي والعسكري الذي تلقاه بلاده من حكومتها. في كل هذا لم يجد الزعيم العربي الجديد تناقضاً وانحرافاً عن خط عدم الانحياز والحياد الذي رسمه لبلاده. واستبدت به الحماسة ولعبت برأسه النخوة العربية ذات يوم وكان السادس عشر من تشرين الأول ١٩٦٩. فأكد في خطاب له:

«إن حريّة العرب في ليبيا ستبقى غير كاملة مادام كل عربي في أي مكان من وطن الشعب العربي الواسع – غير متحرر.»

وبرغم الترتيب «الوحدوي» الذي استعاره القذافي «طبق الأصل» من الخطّ المصري. فقد تبيّن انه نسي أمراً جوهرياً أثناء التطبيق بتبنيه الخط الاشتراكي قبل الوحدة. إذ سرعان ما امتدت سيطرة الدولة على سائر القطاعات والأنشطة الاقتصادية في البلاد، مستعينة بخبراء مصريين محترفين وتكنولوجيين بالمئات. كما استدانوا من مصر ومن النظم الثورية المماثلة ما احتاجوه، وبينها تلك الشعارات والنظريات التي تقول «بحتميّة الثورة» وبالعمل على تحقيق

(٢٦) احتفلت بهذه المناسبتين إحتفالاً عظيماً باستعراضات عسكرية ومهرجانات دامت أياماً. ودعي اليها رؤساء الدول العربية، فشاركت مصر وسورية واليمن ولبنان والعراق والأردن بملكها فضلاً عن ستة مندوبين عن ملوك ورؤساء جمهوريات عربية أخرى. وانقلب الاجتماع الى مؤتمر عربي بحثت فيه قضية فلسطين وكيفية تحريرها وتمّ الاتفاق التام على خطة مشتركة: عسكرية ودبلوماسية معاً «لتحرير الأرض العربية المحتلة منذ ١٩٦٧». ومما جرى بالمناسبة هو اطلاق اسم جديد على اسم القاعدة الامريكية ويلرز Whalers وأختير لها اسم «عقبة ابن نافع» وهو القائد الأموي الذي فتح المغرب الافريقي وأسپانيا.

«مجتمع الكفاية والعدل» من خلال الاشتراكية وباتحاد قوى الشعب العاملة: أي العمال والفلاحين والمثقفين والجنود وأصحاب رؤوس الأموال غير المستغلين الى آخر الاسطوانة وقد رددناها أكثر من مرة لنفوز بسخط الكثير من القراء.

وكانت هناك مواعظ حول ضرورة تطبيق الاشتراكية اقتصادياً من أجل تحرير الفرد من العوز والفاقة والتخلف. واعتبار الرأسمال الكبير والدخول غير المحدودة المتحصلة من امتلاك الفرد وسائل الانتاج هي من وسائل السيطرة على الحكم والتحكم ونسخوا مقولة عبدالناصر «إن اشتراكيتنا هي اشتراكية الاسلام». كرروا عين المغالطة التي أثارت عليهم الفقهاء وكبار علماء الدين ومفكريه تلك المغالطة التي تصور الاسلام بأنه دين اشتراكي «وانه دين الاشتراكية الحقيقية باعتبار الزكاة في الاسلام الأداة الأكيدة التي تزيل الفروق بين الطبقات»[٢٧] وكان هناك تناقض واضح هنا أيضاً بله ما يشبه الحمّى الفكرية. فبعد اسبوعين من الانقلاب أدلى المغربي بتصريح في جريدة لوفيگارو مؤيداً قول القذافي:

«لن نقلد أي نظام أجنبي. التأميم ليس من شأننا لدينا الكثير من الأرض والقليل من الفلاحين... لن يكون هناك تغيير في سياستنا النفطية ولا نية لنا في تأميم صناعة النفط.»

اذن كان حلم ضباط الثورة الليبيّة من تبني النظام الاشتراكي النية في النهوض بالبلاد الى مرحلة العدالة الاجتماعية باشراك سائر المواطنين في ادارة البلاد وازالة الفروق الطبقية تماماً فلايبقى من يمكن تسميته بالغني أو بالفقير. كما أعربوا عن نيتهم في تخصيص نسبة كبيرة من مداخيل النفط لخلق قطاع عام في الاقتصاد الوطني بتمويل وتطوير تلك المشاريع التي تؤدي الى مضاعفة الدخل القومي. إلاّ أن ما فعلوه على الأرض وفي مجال التطبيق – وما أدركوا مقدار الخطأ فيه فيما بعد. انهم أوقفوا برنامج التطوير الاقتصادي الوطني الذي بوشر به في العهد الملكي. مثلما أوقفوا النشاط التجاري والاقتصادي للقطاع الخاص (اصحاب المشاريع الخاصة) مما أدّى الى ركود اقتصادي وزيادة في نسبة المتبطلين والعاطلين.

وكانت ثم عوامل أخرى عديدة لهذا الركود. فها أن الانقلابيين الضباط سرّحوا مئات الموظفين واعتقلوا أعداداً كبيرة وهددوا باحالتهم الى المحاكم الثورية بتهم الفساد والخيانة فضلاً عن عدد كبير من التجار ورجال الاعمال الذين وضع الحجز على أموالهم في المصارف مثلما وضع الحجز على غير المعتقلين منهم. ومنع الجميع من القيام بمعاملات مصرفية أو

(٢٧) من تصريح للقذافي. مدل ايست جورنال ١٥ أيلول و١٥ تشرين الأول الص ٢٠٧–٢٠٩.

حددت لهم. كان الضباط الوحدويون الأحرار الذين أصابوا النشاط المالي بالشلل التام – بحاجةٍ الى وقتٍ للغربلة والكنس وفحص العقود والسجلات سعياً وراء الدلائل المثبتة للجرائم المالية المفترضة، ولم تكن لديهم وهم في مقتبل العمر أي تجربة أو خبرة سابقة ولم يكونوا مهيأين لادارة الاقتصاد الوطني بماكنته المعقدة. أضف الى هذا الشك الذي يساورهم في سوء نية من يعاونهم وخشيتهم من إناطة أي مسؤولية بشخصٍ ما ومن خلال هذا الاضطراب والشلل والشك كانت أموال النفط الغزيرة تتدفق من دون انقطاعٍ وبشكل تيارٍ عاتٍ ولا أحد يدري ما هو مصيرها والى أين تذهب. كانت هناك عقدة مثبطة أخرى عند الضباط الوحدويين الأحرار الذين آلت مصائر البلاد في أيديهم. استولت عليهم فكرة كفاءة «السيد» وهو الأجنبي المستخدم في أجهزة الحكم والاقتصاد والصناعة. كانوا يشعرون أزاءهم بعقدة نقصٍ كبيرة، باعتقادهم انهم بالنسبة الى هؤلاء ليسوا ذوي مؤهلات ولا كفاءات في أبسط الأعمال وغير لائقين بالمناصب المسؤوليات الملقاة على عواتقهم. فبدافع من هذا ومن الحقد عليهم والشكّ فيهم طلبوا من عدد كبير منهم مغادرة البلاد فوراً. في حين فتحوا تحقيقاً دقيقاً مع الآخرين بهدف الاستغناء عنهم والجأ القلق والفوضى كثيراً من الموظفين الأجانب الى ترك البلاد بمحض اختيارهم. بعد أن قُلبت ليبيا الى دولة پوليسية جوّها يخنق الأنفاس. إذ سرعان ما تشكلت دوائر الأمن السرية الجديدة على غرار جهازي الأمن والمخابرات المصريين. وأنيطت بها مراقبة النشاط الخارجي والنشاط المعادي للسلطة مع صلاحية إلقاء القبض وإجراء التحقيق مع المشتبه به. فكانت ثمّ هجرة شبه جماعيّة[٢٨].

وأممت المصارف الاجنبية بقرار من مجلس قيادة الثورة صادر في ١٤ من تشرين الثاني[٢٩]. وتم اعادة تنظيم اتحاد النقابات واتحاد الطلبة ووضعا تحت سيطرة الدولة «كيلا يسيطر عليهما الطفيليون وعشاق السلطة» بتعبير القذافي، وتحدث أيضاً عن تنظيم شعبي سيجري تشكيله «ليضمّ جميع قوى الشعب العاملة» وقيام اتحادات تمثل المعلمين والشغيلة ولكن القذافي وصحبه الضباط الوحدويون لم يكونوا هنا مستعجلين في اقامة مثل هذا التنظيم الشبيه بالاتحاد الاشتراكي في مصر. ولا كان أحدٌ منهم يفكر في إشاعة نوع ما من الديمقراطية في البلاد ولا بحياة پرلمانية. كانوا يريدون شيئاً نسجه لهم خيالهم «شيء شبيه

(٢٨) أسرع اليهود القليلو العدد بترك البلاد فور الانقلاب. كما أرغم حوالي ٣٥ ألف ايطالي أمّنوا لليبيا الخبرة والكفاءة وحسن ادارة المشاريع الاقتصادية والصناعية على ترك أعمالهم ومشاريعهم وأملاكهم والعودة الى بلادهم.

(٢٩) بدلت أسماؤها باسماء عربية بعد التأميم. كما أممت مدرستان كاثوليكيتان ومستشفى أمريكي خاص لطائفة السبتيين (الادفنتست) الدينية في بنغازي.

بتنظيم» من خلال إختيار (لا انتخاب) ممثلين حقيقيين عن الشعب. وليذكر ان القذافي كان قد صرح في تشرين الأول، ثم في الشهر الذي تلاه «بأن كل من يمارس نشاطاً حزبيّاً يرتكب جريمة الخيانة».

يصعب جداً علينا إحصاء الاجراءات والاوامر والنواهي والتغييرات التي تفتقت عنها عبقرية هذا الضابط الذي لم تتجاوز سنه السابعة والعشرين، مثلما يصعب وصف تأثيرها على حياة الليبيين اليوميّة. ومن نافلة القول أن كلّ تصريح له أو رأي يبديه كان يعدّ قانوناً حال خروجه من فمه[٣٠].

وراح الركب القومي العروبي يغذ الخطى في البلد المتحرر، ليغطي مختلف مظاهر الحياة العامة. وانتشرت تلك الشعارات الديماگوگية المعتادة. وثبتت بآلاف الملصقات في الشوارع. كما صدرت الأوامر الجازمة بتعريب سائر المصطلحات الاجنبية اينما وجدت بعد تبديل عناوين الحوانيت والدكاكين باسماء عربية كما ذكرنا.

وعندما ألغيت دروس الانگليزية في المدارس الابتدائية سئل رئيس الوزراء (المغربي) عن الحكمة في هذا فأجاب: «إن دراستها تجري على حساب اللغة العربية وتأخذ من وقتها».

فأجيب: «لكن هذه اللغة ضرورية لأنها لغة التقدم التكنولوجي».

فأجاب: «إن الصينيين توصلوا الى صنع القنبلة الذرية بلغةٍ واحدة»[٣١].

(٣٠) في عالم الصحافة مثلاً: فرضت رقابة مشددة على الصحف وعطل منها تعطيلاً نهائياً خمسٌ بأمر من المجلس مذاع بالراديو فور الانقلاب. وفي ١٥ تشرين الأول أصدر المجلس جريدة رسمية خاصّة باسم (الثورة). ومن الناحية الادارية القى الضباط باعباء انقلابهم على المصريين لتنظيم مختلف الأجهزة الادارية والخدمات العامة. وملء الفراغ الذي أحدثه الاستغناء عن الأجانب. كما أنهم أعادوا المصريين الذين استخدمهم النظام الملكي أيام الملكية المصرية لتحل محلهم طواقم (ثورية) أخرى وهم يعدون بمئات من الأطباء والممرضات والاساتذة والمربين والتكنيين في الصناعات الحرة. والخبراء الزراعيين في استصلاح الأراضي والخبراء الماليين. وعُين مصريّ لرئاسة المحكمة العليا وأرسل الطلاب الليبيون الى المعاهد المصرية. على أن التواجد المصري بدا ملحوظاً بصورة خاصّة في أجهزة الأمن والمخابرات والشرطة في سائر المدن الليبية. بل جيء بقوات من الجيش المصري للمرابطة في مواقع معينة خارج العاصمتين طرابلس وبنغازي. للمساعدة في إحباط أي نشاط معادٍ للثورة [الايكونومست: كايكر ٦ كانون الأول ١٩٦٩. و١٧ كانون الثاني ١٩٧٠ قدرت هذه القوات بألفين. كما قدرت عدد الموظفين والخبراء المدنيين بأربعة آلاف].

(٣١) مقابلة للمغربي في ١٨ أيلول [نشرتها لوس أنجلس تايم في ٣ من تشرين الأول ١٩٦٩. لاحظ مراسلها بعض الملصقات والكتابات الساخرة على الجدران تلفت النظر مثل «الا مرحباً بالفاتحين» كان رجال الأمن يسرعون بمسحها. وهذا هو نص قرار مجلس قيادة الثورة الصادر في ١٩ من أيلول وقد تحدثنا عن بعض ما جاء فيه: «رسمنا بما هو آت: اعتباراً من هذا اليوم تلغى كلّ العلامات والبطاقات واللوحات والطوابع والاعلانات واشارات الطرق والاعلانات التجارية وتحل محلها مثيلاتها باللغة العربية. إن =

كان هذا التحريم البات سبباً في مضايقات ومفارقات وعوامل احراج ومواقف شاذة مضحكة في أحيان كثيرة. اجراءات كهذه كثيراً ما تحصل تلقائياً أو بأوامر موقتة على أثر نيل شعب من الشعوب استقلاله أو حصول ثورة أو إنقلاب بدافع من الحماسة وتغلب العاطفة والشعور المفاجيء بالحرية أو الحمية الوطنية وربما كان بعضها ضرورياً او منسجماً وطبيعة الأمور مثل اسماء الشركات التجارية الكبرى والعلامات الفارقة والاسم التجاري ذي الصبغة الدولية. إلاّ أن الليبيين نالوا استقلالهم منذ ١٨ سنة وهي فترة طويلة مناسبة جداً لانخفاض درجة حرارة الهياج الشعبي في النفوس ولذلك اعتبرت تلك الأوامر مظهراً طفولياً يقصد منه التأكيد على وطنية القائمين بالثورة ودليلاً على تصميم فيهم بازالة النفوذ الأجنبي من ليبيا ازالة تامة بل كانوا يريدون أن يظهروا لهذا الشعب كم كان الملكيون أقل قومية وأقل تمسكاً بالدين وكم هم يتفوقون على حكام الدول الأخرى العربية بالغيرة على القومية والاسلام.

مع هذا، وفي السابع من شهر كانون الأول ١٩٦٩ أحبط الضباط الوحدويون محاولة إنقلاب مضاد تمّ على أثرها اعتقال ثلاثين ضابطاً في مقدمتهم العقيد (آدم هواز) وزير الدفاع والعقيد موسى أحمد (وزير الداخلية) وعلم أن أولهما نقل الى المستشفى للعلاج على أثر محاولة انتحار.

وأعلن مجلس قيادة الثورة فوراً عن تشكيل «محكمة الثورة» من بين أعضائه وانيطت رئاستها بضابط برتبة نقيب مع عضوين برتبة ملازم. وسيرت تظاهرات تأييد في المدن مطالبة

= القطع واشارات المرور المكتوبة بإحدى اللغتين الايطالية أو الانكليزية وأسماء البنوك والفنادق وكلمة Stop، وغيرها من الكلمات المستخدمة كهداية لمواقف السيارات في الشوارع والتنبيهات والتعليمات في دوائر البريد، وكلمتي فوق up وتحت down في المصاعد. وكلمة إدفع أو إسحب Pull - Push على الأبواب إمّا ترفع وإما تمسح وإمّا تغطى بالشريط اللاصق. وكل قوائم الطعام في الفنادق والمطاعم يجب أن تكتب بالعربية فقط. إنّ أولئك الذين لايرون في هذا عدلاً وإنصافاً من الأجانب نقول لهم: هذه الارشادات والعلامات لم تكتب في مدينة نيويورك باللغة العربية لنستفيد منها» [المرجع نفسه ٣ تشرين الأول كايكر]. وأظهر الضباط الوحدويون الأحرار شدّة تمسك بالاسلام بإصدار مرسوم يمنع فيه تعاطي المسكرات، وغلق الحانات والبارات وسائر دكاكين بيع المشروبات الروحية والعاب القمار المختلفة [سمح للأجانب باقتناء المشروبات وتعاطيها]. وكان نتيجة ذلك أن كثر تهريب المشروبات الى درجة لاتصدق. وقد ذاعت حكاية طريفة تناقلتها الأوساط الدولية لعلاقتها بالشخصية الثانية التي تلي القذافي. ذلك أن سكان قرية تونسية على الحدود اتفقوا مع أهل قرية ليبية قريبة على ارسال البضاعة المهربة على ظهر حمار يعرف طريقه ولايحتاج الى من يقوده أتقن طريق الرواح والعودة من ذات نفسه. تشاء الصدف أن يقع الحمار وهو يحمل البضاعة بيد دورية ليبية. وحملت غرابة الحادث قائد الدورية الى أخذ الحمار مع البضاعة الى معمر القذافي، وكان يعلم أن رفيقه «عبدالسلام جلود» من المدمنين فقال: خذوا ما يحمله الى عبدالسلام جلود. وأطلقوه لأنه يعرف طريقه الى أهله.

باعدام الخونة المارقين وتحدثت صحيفة (الثورة) الرسمية عن أياد خفية أجنبية تعمل للتطويح بمكتسبات الثورة[٣٢]. وازدادت الإجراءات الأمنية بعد فشل المؤامرة شدةً وصرح القذافي بأنهم سيكونون أكثر حذراً في المستقبل ولن يضعوا ثقتهم إلاّ بأولئك الذين يستحقونها.

لم تعمر حكومة «محمد المغربي» طويلاً فقد استغني عن خدماته بعد أربعة أشهر مع كثير من وزرائه وأسندت وزارات الداخلية والدفاع والتعليم والارشاد والإقتصاد والإسكان لضباط هم أعضاء في مجلس قيادة الثورة لايتجاوز عمر أكبرهم عن الثلاثين عاماً. وترأس القذافي الحكومة.

استقبل انقلاب القذافي في مصر ببهجة تجلّت في ما كتبه رئيس تحرير الأهرام في اليوم التالي للانقلاب قال: «انه أهم حدث في العالم العربي خلال السنوات القلائل الأخيرة» كم عدد هذه السنين؟ الا يدخل فيها حرب الأيام الستة... مثلاً؟ ثم استدار نحو الليبيين فقال «إنّ لهم ملء الحق في الفخر. فهذا عرش رجعيّ آخر (طبعاً كانت عروش مراكش والأردن والسعودية إذذاك عروشاً تقدميّة) هوى تحت أقدام قبضة من الضباط الصغار الرتب. والأصل المتواضع».

لكن سرعان ما أخذت حماسة القطاع الأعلامي والحكومة المصرية تتضاءل بالاجراءات الغريبة والمفارقات التي كانت تصدر من زعماء الانقلاب ولم يعودوا يستطيعون الدفاع عنها. ولم يتبرعوا بشيء يعوض عن خسارة عائدات القناة. كما لم تكن مساندتهم المالية لجبهة التحرير الفلسطينية كبيرةً باي حال كما رأينا ولم يقوموا بتوسيع ملاكات الجيش الليبي و«إعداده لمعركة المصير العربي» بتزويده بالسلاح الحديث وتوسيع ملاكه بل بدوا غير مستعجلين في عقد صفقات سلاح جديدة ولا متلهفين اليها ثمّ أن مساعداتهم المالية لمصر لم تزد جنيهاً واحداً عن المساعدة التي كان يقدمها لها الملك السنوسي رغم الدعم الأدبي الكبير الذي جاءهم من عبدالناصر وكانوا الى حين من الزمن بأمسّ الحاجة اليه وبقي دعماً متواصلاً في حين كان عبدالناصر يجتاز أخطر مرحلة في حياته السياسية بل بدا بعد هزيمة سيناء رمزاً للإخفاق الدبلوماسي والعسكري.

من جهة أخرى وجب على الشعب الليبي الذي أصبح (القذافي) زعيمه الذي لاينازع زعامته منازع أسير نوبات زعيمه الفكرية الشاذة والعجيبة وأن يصبر على مخترعاته وتحولاته

(٣٢) لم تتسم الأحكام الصادرة بالقسوة فقد فرضت عليهم في ١٥ آذار ١٩٧٠ أحكام سجن مختلفة فحسب. والظاهر من وقائع المحاكمة والتعليقات الصحفية ان السبب في تآمر هؤلاء المدانين من الضباط يعود الى نفاد صبرهم من التدخل المصري في شؤون ليبيا الى هذا الحدّ.

الفجائية ومنها تغيير التقويم الهجري. وتدريب أطفال المدارس وطلابها على وطء أعلام الدول التي يعاديها ومنها أعلام الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا مع اعلام أخرى قد يكون صاحب خصومة موسمية معها.

ذكروا في ليبيا أن ثورتهم كانت ضدّ «البرجوازية العليا والساسة المخضرمين المحترمين. ووصفوا ما حصل بأنه ثورة الضباط النحاف على الضباط أصحاب البطون وثورة أصحاب المثل العليا على عشاق المادة والدنيويين وثورة النزاهة على الفساد... انها ثورة الملازمين على العقداء.

هؤلاء الملازمون لم يخيبوا ظن القومية العربية ودعاتها عندما أسرعوا فوراً بتأكيد اهتمامهم بقضايا التضامن العربي والتحرر والوحدة. وتبنوا من دون تأخير طريق الاشتراكية وهو الطريق الذي بدأت القومية العربية تدبّ في مسالكه المظلمة منذ الستينات.

وبالتأمل وجدنا ضباط الانقلاب الليبي خلال السنة الأولى المنتهية بوفاة عبدالناصر وهو خاتمه كتابنا هذا – وجدناهم يفكرون في أنفسهم فقط، يفكرون في بقاء حكمهم أكثر من تفكيرهم في القضية العربية رغم التصريحات العاطفية التي كانت تصدر حولها بين آونة وأخرى. والواقع هو أن مظاهر ايمانهم بقضية التحرير الفلسطيني، ومشاركتهم السريعة والكثيرة في اجتماعات ومؤتمرات القادة العرب وسبقهم الآخرين بتبنيهم الحماسي شعارات القومية العربية الرائجة في تلك الفترة ثم افتعالهم المشاحنات داخل جامعة الدول العربية وغيرها من اجتماعات انما كانت ترمي الى تبرير إنقلابهم ومن أجل اثبات شرعية حكمهم. فهم مثلاً لم يضعوا ولو جزءً من ثروتهم النفطية الهائلة في خدمة معسكر العرب المجاهدين في حرب الاستنزاف التي باشرها عبدالناصر. ولم يرسلوا جندياً واحداً الى تلك الحرب[٣٣].

(٣٣) في كتاب معمر القذافي «الكتاب الأخضر» الذي تحدث عن نظريته العالمية الأولى، قال إن ليبيا سوف تستخدم ثروتها النفطية الجديدة لخلق مجتمع عربي مثالي فيه يلغى التعامل بالنقود. ولايبقى للسجون أثر، ولا للدكاكين ومخازن البيع الخاصة مكان وهو لهذا يرى أن ليبيا سوف تقود العالم الى المرحلة المنشودة من المساواة الاجتماعية والعدالة...

الفصل الثالث والأربعون

مؤامرة الحركيين العرب على نظام الحكم السعودي تخنق في مهدها . مجموعة من ضباط القوة الجوية والمدنيين تم اكتشافها قبل التنفيذ ، وقطع أربعين رأساً من المتآمرين . مراكش ، التركيب السكاني . سلالة (الفلالي العلوية) الحاكمة . اتفاق آذار ١٩١٢ الذي وضع السلطان مراكش تحت الحماية الفرنسية . محاولات التخلص من الحكم الأجنبي بعد نهاية الحرب العظمى الأولى . ظهور حزب الاستقلال . تشجيع السلطان (الملك فيما بعد) حركات الاستقلال وإنهاء الحماية . عزل السلطان محمد الخامس ونفيه ثم إعادته . تصريح (لاسل دي سان كلود) . تشكيل الحكومة الوطنية الأولى . دستور ١٩٦٣ . معارضة الأحزاب وفرض حكم قمعي . اغتيال الزعيم الوطني بن بركة . ضعف دعوى العروبة . مساندة القضية الفلسطينية . الابتعاد عن مشاكل العروبة . صدود مراكش عن محاولة تحقيق أي تقارب فكري عربي . مساندة لسانية . التخوف من الانقلابات العسكرية . فترات انتقالية فكرية وسياسية في البلاد الناطقة بالعربية . فشل الحركات العروبية في تحقيق تقارب في ايديولوجياتها . نكسة مسيرة القومية الكبرى في حرب الأيام الستة . نكستها الثانية في محاولة تطبيق الاشتراكية . انحسار المدّ القومي ، وإخلاؤه الميدان للأصوليين الاسلاميين . احتكارات القومية تؤدي الى تفسخها وانحلالها . التراشق بالتهم بين الصيغ القومية المختلفة . إفادة إسرائيل كثيراً من عداء القومية العربية للغرب . مشروع جامعة الدول العربية كان فاشلاً منذ ولادته . الجامعة يستخدمها زعماء الانقلاب للسيطرة على بقية الأعضاء ، أو يتجاهلونها ويزدرون بها عندما لاتلقى سياستهم ترحيباً وتصطدم بمعارضة . محاولة تحليلية ختامية للقومية العربية في الشرق وفي الغرب

ما مَرّ على إنقلاب ليبيا أسبوع، حتى كشفت الصحافة والاعلام العالمي عن فشل محاولة مماثلة سابقة أعدت لأسقاط الأسرة المالكة في العربية السعودية بقيادة الحركيين (حركة القوميين العرب) التي راجت شعاراتها عند الانقلابيين الليبيين على حَدّ قول بعضهم. هذه الحركة كما أسلفنا كانت ترتبط بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ذات الاتجاه الماركسي. وهي تؤمن فحسب بالتغيير الثوري للنظام السياسي والاجتماعي في البلاد الناطقة بالعربية.

تم اكتشاف المؤامرة في الوقت المناسب وقبل أن تخرج للعلن بسبب قوة جهاز الأمن السعودي المحكم والمهيمن على جو البلاد السياسي الداخلي.

في الخامس من حزيران ١٩٦٩ نظمت مجموعة كبيرة من الضباط السعوديين معظمهم من القوة الجوية محاولة إنقلاب. وكانوا يعتزمون كمرحلة أولى قتل الملك فيصل وأخيه الأمير سلطان وزير الدفاع والطيران ثم الاستيلاء على العاصمة الرياض وملاحقة أعضاء الأسرة المالكة وتصفيتهم جميعاً ويستفاد من مصادر عدة أن وكالة المخابرات الامريكية CIA ساهمت في الكشف عن تنظيم هؤلاء الضباط. واعتقلت السلطات بضع مئات من الضباط لاتزيد رتبهم العسكرية عن رائد. وذكر بيان صادر عن «اتحاد شعب الجزيرة» أن آمر قاعدة الظهران العميد (داود الرومي) والعميد (سعيد العمري) قائد حامية الظهران كانا بين المعتقلين وانهما قتلا تحت التعذيب. كما اعتقل عدد من عمال النفط والمستخدمين وعدد من موظفي المصارف الذين يرتبطون بعلاقة مع الضباط الانقلابيين وذكرت «جبهة التحرير الوطني» اليمنية في إحدى نشراتها أن أربعين من المتهمين بالمحاولة قطعت رؤوسهم في شهر آب ١٩٦٩[١].

خلال الأشهر التي عقبت الكشف عن هذه المحاولة راحت تتسرب أخبار خارج المملكة باستمرار حول حملات اعتقالات عدة في الرياض وجدّة وعمليات تعذيب وحفلات قطع الرؤوس بالجملة[٢].

وأثارت حركة أيلول الليبية الانقلابية مخاوف الأسرة السعودية الحاكمة وزاد قلقها من عملية مماثلة، وربما لتشابه الظروف الاجتماعية والسياسية في البلدين. فزاد اهتمام الأسرة الملكية بتعزيز القوات المسلحة واعتمدت خطة الاشراف المباشر عليها لاسيما سلاح الطيران والحرس الملكي وجهاز الأمن الذي أشرف عليه (فهد) الملك الحالي. وانتقي ضباط الطيران من ابناء الأسرة المالكة أو اصهارها.

★★★

(١) ڤاسيليڤ: تاريخ العربية السعودية. موسكو. دار التقدم ١٩٨٦. الص ٤٦١–٤٦٢. أنظر كذلك: ميدل ايست ريكورد. هوليدي. ف. الجزيرة العربية Holliday F. VOL 5-3. Arabia. ص ١٠٣٠.

(٢) ذكرت الصحف الأجنبية أن عدة محاولات انقلابية قومية جرت في أيلول وتشرين الثاني ١٩٦٩، وفي شهري نيسان وأيار من ١٩٧٠. والمعتقد أن هذه الأنباء كانت تدسها الجهات السعودية عمداً، أو بمعرفتها وتشجيعها لتبرير أعمال القتل والتنكيل المتواصلة. وقد أعطت الأوساط السعودية المعارضة في الخارج في العام ١٩٧٣ رقم ٢١٠٠ سجين سياسيّ فيها.

لم يكن من منهج هذا الكتاب التطرق الى حركة الاستقلال والتحرر المغربية (المراكشية) لأنه على كل حال ليس كتاباً يؤرخ حقبةً أو عصراً بالمعنى المفهوم بل هو تاريخ فكرة. إن أمكن خلع هذه الصفة عليه. لا مكان له لأحداث لاتمت الى النشاط القومي العروبي والأحداث السياسية التي تخللته. وهذا هو الذي يحدو بنا الى مراجعة قصيرة لمراحل النضال السياسي المغربي للتخلص من الحماية الأجنبية.

سكان مراكش الأصليون هم «البربر» ويتكلمون اللغة (الامازيغية) بلهجاتها المتعددة ولم يفلح الفتح العربي للبلاد في القرنين السابع والثامن الميلاديين إلا بتعريب المدن. إلا ان النفوذ العربي نجم بالأساس عن الهجرات البدوية المتعددة العربية خلال الفترة المنحصرة بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر. وكانت نتيجته استعراب السهل والهضبة من البلاد بالتدريج وبقاء منطقة الجبال والريف بربرية صرفة حيناً ثم تسلل اليها النفوذ العربي ببطء. ولما لم يكن هناك ابجدية بربرية. فقد أصبحت اللغة العربية لغة الإدارة والثقافة وراحت تنتشر ببطءٍ في أنحاء البلاد بعامل التطور الثقافي. ووجدت في ما بعد اللغتان الفرنسية والاسبانية الى جانبها.

بدأ التدخل الأجنبي في مراكش المستقلة التي كان يحكمها سلالة الفلالي العلوية في العقد الثالث من القرن التاسع عشر وفي آذار ١٩١٢ وبعد حروب ومؤتمرات دولية دامت أكثر من نصف قرن. عقد السلطان «مولاي عبدالحفيظ» في مدينة فاس اتفاقية تمّ بموجبها وضع البلاد كلها تحت الحماية الفرنسية[٣] إلاّ أن الشعب المراكشي لم يستكن قطّ لحكم الأجنبي الذي حرص أن يحتفظ السلطان بمظاهر الحاكم الأصيل. في حين مارس الفرنسيون والاسبان كلّ في منطقة نفوذه الحكم الفعلي وكان من مقتضى المعاهدة تمثيل فرنسا للبلاد في الشؤون الخارجية.

ظروف مراكش النضالية كانت تختلف عن ظروف الجزائر وتونس وليبيا، ولذلك اختلفت وسائلها النضالية للتخلص من الحماية الأجنبية واعتمدت على امكاناتها الخاصة ومواردها

(٣) نصت الاتفاقية على أن فرنسا ستحترم المصالح الاسپانية على الساحل المراكشي. وبدا عملاً أن حماية فرنسية – إسپانية بسطت على مراكش. وكان على فرنسا أن تخوض وقائع حربية من خلال ثورات. منها ثورة عبدالكريم الريفي البربري في العام ١٩٢١ التي نشبت في (العجير) جنوباً وحملت أعباءها القبيلة البربرية (بنو ارياغيل). هذه الثورة التي اتسع حجمها وعظم خطرها لتشمل قبائل البربر الجنوبية كلها بعد أن ألحقت هزيمة بالجنرال الإسپاني (م. ف. سلفستري) في (أنوال) غرب مليلة. وبقيت سلطتها التامة مبسوطة على كل الريف والبلاد الممتدة حتى أسوار مدينة (تطوان) تحت حكم عبدالكريم وادارته المستقلة. إلاّ أن الثورة سحقت بتعاون فرنسي إسپاني [تقرأ في كتب التاريخ العربية بأنها ثورة عربية وأن زعيمها عربي]. على ان الحماية الفرنسية مع هذا بقيت محافظة على مظاهر الاستقلال المراكشي. فكانت القرارات والأوامر تصدر بتوقيع الملك (السلطان) الذي ترك ليحتفظ بجميع مظاهر العاهل المطلق السلطة.

الروحية والمادية. بقيت تلك الظروف تؤدي الى ظهور حركات سياسية وطنية صرفة بدعم شعبي واسع النطاق وبتنظيم أدق وأذكى من تلك التي ظهرت في الجزء الشرقي من شمال افريقيا.

لم يكن الفرنسيون والأسپان وحدهم، بل تواجد في مراكش مجموعات مستقرة في البلاد قبل التدخل الأوروپي احتكرت الامتياز الاقتصادي وسيطرت على منابع الثروة ووسائل الانتاج بحلفٍ مع الفرنسيين والأسپان. ولم يكن هناك من وسيلة لكسر هذا الحلف غير قيام حركة شعبية حديثة التنظيم لاتقتصر على مدينة دون غيرها. بل تتسع لتشمل البلاد كلها متعدية الاطار الحضري (المدينة) الى الوسط البدوي.

وكان هناك ائتلاف وانسجام مصلحي بين الملك وبين الحركات الوطنية الرامية الى التخلص من حكم الأجنبي. كحزب الاستقلال الناشيء والنقابات العمالية وهذا الحلف هو الذي حقق الجلاء والاستقلال الفعلي كما سنرى[٤].

ومما لاشك فيه أنّ الحرب العالمية الثانية أنمت الشعور الوطني، وفي العام ١٩٤٤ ونتيجة الظروف التي خلقتها تلك الحرب وتواجد قوات الحلفاء. تألف تنظيم سياسي أطلق على نفسه اسم (حزب الاستقلال) من أهدافه استعادة السيادة المراكشية. وكان من حظّ هذا الحزب أن السلطان (سيدي محمد الخامس) الذي خلف أباه في العام ١٩٢٧ وعمره لايتجاوز الثامنة عشرة، لم يكن يخفي عطفه على الحركات الوطنية. وفي العام ١٩٤٧ أثناء زيارته (طنجة) شدد على إظهار علاقات بلاده المتينة مع العالم العربي وتجاهل فرنسا. ردّت الحكومة الفرنسية بتعيين المقيم العسكري العام الجنرال «الفونس جوان» في كانون الأول ١٩٥٢. وفي ١٩٥٣ حاولت خلق حركة مناوئة للسلطان بزعامة (الگلاوي) كان نصيبها الفشل. فعمدت الى عزل السلطان ونفيه ونصب سلطان جديد من الأسرة الحاكمة مغمور الاسم متقدم في السن. ولم تقدم على الإصلاح الذي كانت البلاد بحاجة اليه. وانقلب التذمر والسخط الى حوادث عنفٍ واغتيالات وأعمال ارهاب[٥] وانتهى أخيراً بانتفاضة مسلحة في الريف (١٩٥٥).

(٤) لم يبق حزب الاستقلال وحده في الساحة الى آخر سنوات الحماية إلا انه كان أهمها وأنشطها. وكان الى جانبه مثلاً حزب أصغر منه باسم الحزب الديمقراطي من أجل الاستقلال Parti Democratique de d`Independance – كما انشطرت عن حزب الاستقلال أجنحة بعد الاستقلال والفت أحزاباً كما سيأتي بيانه. وكان ثم نقابات العمال أيضاً واتحادها بدوره الفعال بعد الاستقلال.

(٥) بعد أن تعرض السلطان الجديد لمحاولتي اغتيال لازم القصر ولم يبارحه حتى عزله.

بهذا الوضع الفرنسي في الجزائر، وبغية الوصول الى سلام داخل مراكش قبل اتساع الخرق. قرر الفرنسيون اعادة السلطان محمد الخامس من منفاه في مدغشقر الى فرنسا وتشكيل مجلس وصاية بدلاً من (مولاي عرفه) كل هذا لم يخفف من وقع الأحداث عندما قصد «الگلاوي» السلطان، وبحركة درامية اعترف وهو راكع على قدميه بخطائه طالباً المغفرة.

وأرغمت فرنسا على الإقرار بالواقع. وفي التصريح المعروف بإعلان (لاسل دي سان كلود La Celle de St Claud) في تشرين الثاني ١٩٥٥، أقرّت الحكومة الفرنسية كمبدأ باستقلال مراكش. وبموجب اتفاق آذار ١٩٥٦ الذي أنهى اتفاقية فاس في ١٩١٢ (معاهدة الحماية) وتبعتها إسپانيا في نيسان ١٩٥٦[٦].

الوزارة الأولى رئسها (سي مبارك بكّاي) وهو ضابط برتبة عقيد في الجيش المراكشي المحلي لاينتمى الى حزب. امّا بقية الوزراء فكانوا من حزب الاستقلال ومن الحزب الديمقراطي لأجل الاستقلال مع عدد من المستقلين.

واجهت الحكومة مشاكل كبيرة لدولة مستقلّة حديثاً. إلاّ أنها ورثت نظاماً ادارياً دقيقاً اعتمده الفرنسيون والأسپان لضمان جمع السلطة الحقيقية في ايديهما مع ابقاء القشرة أي سلطة السلطان كما قدمنا ظاهرة بصدور الأوامر والقوانين بتوقيعه. وأكثرية الموظفين من الفرنسيين والاسپان، وبما حققه هؤلاء من مشاريع وأسلوب عمل أصبح بالامكان القول انهم وخلال نصف قرن أخرجوا مراكش من ظلام القرون الوسيطة وحولوه من بلدٍ شرقي متأخر الى مملكة مستعدة لاستقبال منجزات العصر وحضارته.

خلقت تلك الحماية الأجنبية منظومة طرق معبدة رائعة وموانيء حديثة ومدت سكة حديد بآلاف الكيلومترات وسكنها سكنى قرار أكثر من نصف مليون أوروپي في المناطق الشمالية والجنوبية وأدخلت على الزراعة الوسائل الحديثة واستحدثت (الرباط) لتكون عاصمة جديدة. في حين أصبحت (تطوان) مدينة صناعية. وكازابلانكا (الدار البيضاء) ميناءً عصرياً. وراحت دفعات جديدة من الطلاب تتخرج في ثانويات وكليات أسستها السلطات الأجنبية. أقبلوا حال تخرجهم بل وقبل استسلام عبدالكريم على تأليف اتحادات ومنظمات طلابيّة تشارك في صنع القرارات بتشجيع من الفرنسيين والأسپان وتزوّد الدوائر الحكومية بموظفين كفوئين.

(٦) بالأصل لم تكن إسپانيا راضية عن قيام الفرنسيين بعزل محمد الخامس وكان القلق قد لازمها زمناً إثر نفيه ولم تعترف بعزله.

وتألف الجيش الجديد المراكشي من الفرق والفصائل التي كانت في الجيش المراكشي والإسپاني وانفصلت عنه عند الاستقلال[٧] لم يكن يطوي ضباطه على مشاعر عربيّة ولا اتجاهات قومية وقد سمي (بجيش التحرير) وبعكس ما فعلته الدول الناطقة بالعربية الى الشرق كليبيا مثلاً لم تتجه مراكش الى الشرق بل القت بكل ثقلها على الغرب لسد النقص التنكولوجي والثقافي والتعليمي فاستدعت ما ناهز عدده عشرة آلاف موظف ومعلم إسپاني[٨].

قلنا إن حزب الاستقلال لم يكن الوحيد في الميدان الى آخر سنوات الحماية. إلاّ أن انشقاقاً حصل فيه ليتألف منه ما دعي بالاتحاد الوطني للقوى الشعبية الذي عرف بالاسم الفرنسي Union Nationale des Forces Populaires (واختصاراً UNFP) تزعمه مهدي بن بركة في أيلول ١٩٥٩.

من بين سائر الأحزاب والتنظيمات التي تألفت قبل الاستقلال وبعده لم يكن هناك حزب قومي عربيّ. أو أي حزب أو منظمة تدعو الى شعارات عربية تمسّ الوحدة مثلاً.

وبات الملك الزعيم الدنيوي والروحي في الوقت عينه وكان يرى تجسيداً لآمال المجتمع الوطنية كثيراً ما تستمد الأحزاب القوة من التقرب اليه. والادعاء بأنه يدعمها ويقف وراءها.

وأعلن الملك اعتزامه على تغيير نظام الدولة الى «ملكية دستورية» وعين مجلساً استشارياً لهذا الغرض تمثلت فيه الاتجاهات الفكرية كلها. ثم أعلن عن رغبته في التخليّ عن لقب السلطان واستبداله بلقب «ملك» وفي العام ١٩٦٠ خرجت منطقة طنجة عن وضعها الدولي وضمت رسمياً الى مراكش.

ولم يعش الملك محمد الخامس ليشهد التغيير الدستوري في نظام الحكم الذي اقترحه فقد توفي في العام ١٩٦١. وفي العام ١٩٦٣ نشر الدستور بعد طرحه للاستفتاء العام وقبل بأغلبية ساحقة. وكان قد أعده لفيف من مشاوري الملك وفيه حصرت السلطة الاشتراعية بمجلسين أعلى وأدنى. إلاّ أن السلطة والصلاحيات والكلمة النهائية في شؤون الدولة بقيت للملك. على أن الأحزاب السياسية وفي مقدمتها الاتحاد الوطني للقوى الشعبية UNFP

(٧) يذكر في هذا الصدد انه في شهر تموز ١٩٣٦ ومن منطقة (مليله) الإسپانية في المغرب. كانت المدينة أول من رفعت السلاح ضدّ الجمهوريين الأسپان وان اشتراك الجنود المراكشيين بقيادة (الجنرال فرانكو) كان العامل الاساسي الذي أدى الى الحرب الأهلية والقضاء على الجمهورية ومجيء فرانكو. وهو السبب في السياسة السخية التي اتبعها نظامه فيما بعد على الجزء الخاضع لهم في مراكش.

(٨) دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦٦. ج٥ الص ٨٥٠–٨٥١.

عدت الدستور رجعةً الى حكم دكتاتوري[٩] فعلي بمظهر ديمقراطي شفاف وهاجمت الدولة والنظام وقبل اجراء انتخابات عامة ثانية أعلنت الحكومة نبأ إلقاء القبض على عدد من زعماء حزب الاتحاد واحالتهم الى المحاكمة بتهمة قيامهم بمؤامرة لقتل الملك وقلب نظام الحكم بالقوة. فقاطع الحزب الانتخابات كما قاطعها حزب الاستقلال وهرب عدد كبير من الشخصيات الحزبيّة الى الخارج. وفي العشرين من آذار ١٩٦٤ صدر الحكم (غيابياً) على ثمانية منهم بالاعدام وعلى البقية باحكام سجن مختلفة.

هذه المحاكمة كانت موضع انتقاد دوليّ ومحلي كبيرين، لاسيما بعد حادث اختطاف زعيم المعارضه (مهدي بن بركة) في باريس واتهام السلطات الفرنسية وزير الداخلية الجنرال بوفقير ورئيس الأمن العقيد حلمي بتدبير عملية اختطافه وتصفيته[١٠].

واستغلت حرب الايام الستة – أحزاب المعارضة للملك المطالبة بتغيير الدستور. وساد النزاع العربي الاسرائيلي الحياة السياسية والدبلوماسية ليترك قضية (المهدي بن بركة) في الخلفية. ومع أن الملك حاول استغلال هذا النزاع لصالحه أيضاً بارساله الى الجبهة ثلاث كتائب من خيرة قطعات الجيش المراكشي للقتال في صف (ج.ع.م) إلاّ ان معارضيه في الداخل وهم الجناح اليميني من حزب الاستقلال والاتحاد الوطني واتحاد نقابات العمال المراكشي UMT (الجناح اليساري) أقدموا على تنظيم حملة عنيفة ضد «الصهيونية المراكشية» التي يحميها القصر والحكومة واتخاذهما منها موقفاً فاتراً. وكانت هناك تظاهرات صاخبة عنيفة ضدّ اليهود قتل على أثرها اثنان في مدينة (مكناس) ودعا حزب الاستقلال الى قطع صلة الحكومة برجال الأعمال اليهود. كما طالب اتحاد النقابات اجراء تطهير لكل العناصر الصهيونية في جهاز الدولة. أدت هذه الاضطرابات الى هجرة أكثر من سبعين ألف يهودي الى اسرائيل. ونجم عن

(٩) في أواسط الستينات انقلب الحزبان الكبيران الرئيسان الى حزبي معارضة حال نشر الدستور بسبب احتكار الحسن الثاني السلطة تشريعاً وتنفيذاً وتفجرت تظاهرات طلابية من اليسار بدت الى حين تهدد النظام الملكي تهديداً جدياً. وكانت هناك إضرابات عامة تم قمعها بالقوة. وقد تولى الحسن الثاني الى حين (في ١٩٦٧) رئاسة الوزارة بحكم الدستور وكانت مراكش قد انضمت فور استقلالها الى جامعة الدول العربية وأطلق الملك في مناسبات كثيرة تصريحات حول مساندة بلاده لمنظمة التحرير الفلسطينية ليس من منطلق قومي بل من منطلق ديني بالأحرى.

(١٠) في ٢٠ من كانون الثاني ١٩٦٧ رفضت الحكومة المراكشية مذكرة دولية باعتقال الجنرال بوفقير واثنين من كبار رجال الشرطة بتهمة ضلوعهم في عملية خطف واغتيال (بن بركة) من فوق أرض فرنسية، وتسليمهم للمحاكمة مع آخرين. فقابل ديغول هذا الرفض باستدعاء سفيره من الرباط وفعل المراكشيون المثل، وكانت هناك أزمة كبيرة بين الدولتين وفضيحة دولية كبيرة أساءت الى سمعة الحكم كثيراً. وإن كان رئيس الأمن قد بريء بعد أن سلّم نفسه طوعاً للسلطة الفرنسية، لكن سير المحاكمات اثبت ضلوع محمد بوفقير الذي حكم غيابياً بالحبس المؤبد.

رحيلهم أزمة اقتصادية كما كان بداية سيئة جداً لموسم السياحة.

وهكذا بدا أن الانتصار لقضية العرب المركزية – فلسطين لم يكن بدافع قومي من الجهتين الحكومية والمعارضة. وربما أسهم الدافع الدينيّ الصرف في الخطّ الذي انتهجته الجهتان. فالأسرة المالكة التي تصلها ببيت النبوة صلة رحم ما كانت لتفوت أية فرصة تعنّ لها لإظهار مقدار اهتمامها بقضايا العالم الاسلامي. بدليل استضافة الملك (١٩٦٨) مؤتمر القمة الاسلامي الذي حضره زعماء ٢٥ دولة اسلامية من أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط.

أكدّ هذا المؤتمر مساندته لحركة التحرير الفلسطينية واستنكاره الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية. والطلب بعودة أورشليم القدس الى وضعها السابق قبل الحرب. إلاّ أن مؤتمر القمة العربي الخامس المنعقد في الرباط نجح فحسب في إظهار قصور الدول العربيّة في الوصول الى قرار موحدٍ. بله في نجاحها في تعميق خلافاتها وعجزها عن دفن الأحقاد. وفي ظني أن المغرب كان أول دول شمال أفريقيا الناطقة بالعربية من بدأ يبعد نفسه عن مشاكل القومية العربية بل عن الوسط العربيّ القومي بكل أشكاله متأثراً خطى تونس في سياستها بهذا الاتجاه.

★★★

ها أنا أشرف بالقاريء على ختام هذه السياحة في أبهاء التطورات الفكرية والسياسيّة والعسكرية التي عانتها الدعوة القومية العربيّة. ومن حقه والحالة هذه أن يتساءل عن بعض الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من هذه السياحة، في أخطر مرحلة مرت بها وهي مرحلة حرب الايام الستة وما خلفته من آثار على الحركة القومية وارهاصات زعمائها.

أول ما يدعو الى التفكير والتأمل هو أن القوميين الثوريين العرب لم يكونوا يهتمون بعمل انقلاب ضدّ أولئك الحكام والقادة من الاشتراكيين العرب الذين عرّتهم حرب ١٩٦٧ وكشفت عن قصورهم الفاضح وقلة كفاءة لكنهم اهتموا بالتخطيط للانقلاب على أقل الحكام إسهاماً في هذه المعركة (كالسعودية وليبيا والسودان والعراق) بحجة أنهم لم يسهموا فيها، أو بالأحرى باتهامهم بالرجعيّة أو الاعتدال أو المحافظة على القديم. فالمهم في نظرهم هو التغيير الثوري بحدّ ذاته ولأجل التغيير الثوري فحسب تغيير في النظامين الاجتماعي والاقتصادي وفي اعادة تركيب الطبقة المختارة (النخبة) للحكم وتولي السلطة. وارى ان العنصر الاناني يسهم هنا بالدور الأكبر. ولا اظن الغرض من المحاولة هو المساهمة المجردة الفعالة لدفع النظم الثورية الناجحة في انتزاع السلطة الى طريق النضال العربي العام بمختلف اتجاهاته واهدافه.

وعلى هذا الأساس تغدو (الثورة) او (الانقلاب) في البلاد الناطقة بالعربية نهايةً بحد ذاتها لا بداية، تهيء لقيام نظام حكم عسكري الطابع فردي السلطة يقوم مقام نظام مبتنى على نظرية الكفاح الطبقي او يفي بمتطلباته، برفع «ابناء الشعب البسطاء» الى مرتبة السلطة وبعضهم في مكان البرجوازية او الرجعية الحاكمة من ابناء الطبقة الوسطى المرفهة ولا بأس من دوام إلقاء بعض الخطب النارية ضد الصهيونية والامبريالية واخطار الاستعمار الجديد. وبهذا يتم الغرض الذي استهدفته الثورة.

هذا هو سبب هام واحد من اسباب أخرى يفسر عجز النظم العربية الثورية عن الوقوف في وجه الصهيونية مثلاً. او تعبئة اي قوة فاعلة لمواجهتها او احراز اي تقدم في معركة وحدة المصير. وفشل كل محاولات الاتحاد بين الدول الناطقة بالعربية أو تقارب او تهادن بين ايديولوجياتها القومية باي درجة من الدرجات.

كل تلك الانقلابات التي نجحت او فشلت كانت توضع في كتب التاريخ العروبي في مقام الثورات الشعبية السامية القصد أو عند طائفة من النظريين والكتاب على الأقل. وقد احصينا منذ العام ١٩٣٦ الى آخر ايام العام ١٩٧٠ وهو النهاية التي وضعناها لكتابنا ٨١ انقلاباً عسكرياً نجح منها ٦٩ لايصلح أي واحد منها بمقاييسنا التي اصبحت الآن مفهومة – ان يطلق عليه اسم ثورة غير اثنين اولهما الثورة اللبنانية في العام ١٩٥٢ ضد حكم بشارة الخوري. وثانيهما ثورة ١٩٦٤ في السودان التي نزعت الحكم من يد العسكريين وأعلنت حكماً ديمقراطياً.

ومن المستحسن ان الفت نظر قارئي الى ملحوظةٍ هامة: انه وفي كل تدخل عسكري ثوري لقلب نظام حكم مدني تجد الضباط الانقلابيين في العادة يبررون قيامهم بمقولة واحدةٍ أو عذر لايتغير قط وهي انهم ماتدخلوا الا لأنهم لايملكون خياراً آخر. وانهم يلبون مطلباً شعبياً لايستطيع الشعب تحقيقه وان عملهم هذا يهدف الى انقاذ البلاد من انانية واستبداد الحكومات الفاسدة.

في اول انقلاب حصل للعالم الناطق بالعربية وكان في العراق أعلن مدبره «الفريق بكر صدقي» نفسه قائداً للقوات الاصلاحية وقال «للشعب العراقي النبيل، ان الجيش العراقي الذي هو من ابنائكم قد فرغ صبره بسبب الحالة...» وفي ٣١ اذار ١٩٤٩ نوّه البيان الذي برر به حسني الزعيم انقلابه في سورية «بالفساد المستفحل بين القياديين السياسيين وعبثهم بالدستور» كواحدٍ من الاسباب التي حملته على إحداث التغيير. وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بمصر

كان بيان الضباط الختامي قبيل الانقلاب يظهر قلق الضباط من الحالة المتردية في الجيش ويتحدث عن الفساد والرشوة وعدم الاستقرار، وتغلب النفوذ الاجنبي على الحكم مما كان له الأثر الكبير على هزيمة الجيش المصري في فلسطين. وزعم قادة الانقلاب العسكري السوداني في ١٩٥٨ بان البلاد كانت في حالة تمزق وفوضى وعدم استقرار بسبب التناحر الحزبي والاوضاع تزداد سوءً وترديا باطراد بحيث لم يجد الجيش خياراً الا بانتراع السلطة بالقوة من اجل القضاء على الفوضى.

وفي ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق قال البيان الأول «إن الجيش قام بحركته هذه ضد الطغمة الفاسدة التي وضعت نفسها في خدمة الامبريالية. ووعد باقامة حكومة تنبثق من الشعب...»

وهكذا تجد الانقلابيين العسكريين منذ البدء يقصرون الاشارة فحسب الى ضرورة استئصال الفساد وعوامله. والاصلاح الاجتماعي والاهتمام برفاه الشعب ولايتحدثون عن الرباط القومي بوصفه حجر الزاوية في انقلابهم الا لماماً أو عندما يريدون اتهام النظام الذي اسقطوه بالتنكر للقضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين فكل الانقلابات كانت ذات طابع محلي صميم تتحدث بياناتها عن اوضاع سيئة معينة. علماً ان التيار العروبي كما رأينا – بات يظهر عادة بعد ان يوطد الانقلابيون حكمهم ومعه يبدر الخلاف في وجهات النظر القومية والتيارات الفكرية. وقد رأينا كيف كان هذا عاملاً على الانشقاق والنزاع الذي يؤدي الى تآمرٍ جديدٍ وهكذا. وفي غضون المزايدات على القومية، وهي سوق ظلت رائجة طوال العقدين السادس والسابع من القرن العشرين لاسيما تلك التي تتعلق بالوحدة، والاتحاد والتضامن والتحرر رأينا كيف تنسحب هذه القضايا «المصيرية» الى الخلفية لتحتل المركز الاول عنها مشاكل فرعية أخرى ذات علاقة بها. وفي مقدمتها مشكلة من يحكم؟

رأينا في احيان كثيرة مشاركة وتعاوناً تتبرع به للضباط الانقلابيين مجموعاتٌ وقطاعاتٌ مدنية من احزاب وكتل معارضة إلا ان اياً من هذه الفصائل والاحزاب لم ينجح في ان يكون صاحب اليد العليا في الحكم ويبقى الحكم الفعلي للضباط. وسيبقى الضباط ضباطاً ولو خلعوا البزات العسكرية واستبدلوها بثياب مدنية. كما سيضطر المدنيون الذين افلحوا في مقاسمة الحكم إلى ارتداء الزي العسكري ومنح انفسهم رتباً عالية.

وبالتأمل ودوام التفكير في مشاهد وفصول الانقلابات ترد تساؤلات دائمة عن ضرورتها؟ أو حتميتها؟ هل تقدمت بقضية التحرر العربي خطوة ايجابية واحدة؟ هل استطاعت ان تبني علاقات صميمة وتفاهماً عميقاً مع القوميات الأخرى التي تعيش معها والى جوارها؟ هل

انها نفعت قضايا العرب كأمةٍ؟ هل استطاعت حل مشاكلها الخارجية؟ ثم ذلك السؤال الكبير: هل ان الاوضاع الخاصة التي اتخذها الانقلابيون مبرراً لإحداث انقلابهم كانت تستلزم انقلاباً عسكرياً. أو تجعل تغييراً عنيفاً مشابهاً امراً لا مناص منه؟

قد يكون في الأجوبة المتصورة اختلاف قليل بالنسبة الى حالة دون أخرى مع الأخذ بنظر الاعتبار الفروق الظرفية. الا ان جامعاً واحداً يبدو وهو يجمعها طراً. هو القاسم المشترك الاعظم بينها كافة: ما اعقبه كل انقلاب وما جره من عواقب. ما هدر من الاموال وضحى به من انفس. ما ضاع من جهود وخسار في الممتلكات والعواطف والمشاعر. ما حققه من تقدم واصلاح اجتماعي ورفاء اقتصادي وتحرر قومي.

ليس في وسعي بعد تحليل لتلك الاسئلة – التفريق بين انقلابٍ وانقلابٍ على اساس المباديء والعقائد ولا تقويم كل واحد منها بسحب درجة جدية وتفاني القائمين بها ولا تقدير درجة تأزم الاوضاع التي كانت تحمل اولئك الضباط على انقلابهم. رغم ارتدائهم أحياناً ثوب العقائدية.

لا ادري كيف غاب عن الكتاب والمؤرخين محاولات تبرير الضباط انقلاباتهم بتعاليل ترمي الى اعطاء صور مزيفة او صور مبالغ فيها عن الاوضاع التي سبقت الانقلاب بغية كساء عملهم رداء الشرعية وانهم قاموا بما ليس منه بد ولا سبيل الى تفاديه.

مهما اكثر الضباط الثوريون ومشايعوهم من تقليد حركتهم آيات ثناء ومديح، فستبقى انقلاباتهم غير ضرورية قط في مسيرة التقدم الحضاري لشعب او امة. وانها ماكانت قط نتيجة حاجة وطنية ملحة. ولا بسبب وجود خطر خارجي ولا ازمة داخلية في الحكم تعذر حلها ولا نتيجة انحلال عام في السلطة. ولا تهديد لاستقلال البلاد او الإخلال بوحدتها. ولا بهدف وقف فوضى داخلية عامة عارمة ادت الى غياب فعلي للسلطة[١١].

في الواقع انه من الصعوبة بمكان اتهام الملك فاروق ومصطفى النحاس وشكري القوتلي وهاشم الاتاسي والقدسي ونوري السعيد وعبدالإله والملك عبدالله والملك حسين ابن طلال والملك ادريس السنوسي وغيرهم من الحكام الذين وصفوا بالفساد والاستهانة بالشعب باكثر

(١١) في لبنان. عندما غاب كل اثر للسلطة في أيلول ١٩٥٢. وباتت لبنان اشبه بمقاطعات متحاربة. ثم وفي ١٩٥٨ عندما بدت لبنان بعين الحالة. لم ينتهز ضباط الجيش الفرصة لاغتصاب السلطة. وبقي النظام البرلماني قائماً. في حين بدا الأمر معكوساً في سورية العام ١٩٤٨. فعندما انفرط حبل الأمن واستدعي الجيش في كانون الأول لاعادة النظام – لم تدر الحكومة انها مهدت السبيل لحسني الزعيم بعدها ببضعة اشهر ليقوم بانقلابه بحجة الاهتمام بقضية فلسطين.

من اتهامنا اولئك الذين نزعوا السلطة منهم بانقلاب عسكري او حاولوا ذلك. ليس بوسعنا ان نعزو اليهم هزائم اعظم من تلك التي لحقت بالانقلابيين ونظمهم التقدمية او العسكرية الثورية ومبادئهم الاشتراكية بتطبيقاتها الفاشلة ذات الضرر العظيم بالاقتصاد الوطني وباسلحتهم العصرية المتطورة وبكل ضجيجهم الحماسي وحميتهم العربية وتثقيفهم العقائدي للطبقات الكادحة عمالاً وفلاحين ولا باستعداداتهم لخوض معركة المصير. اولئك الحكام «الطغاة» حافظوا على الاقل على سلامة حدود بلادهم الدولية زائداً ذلك الجزء الذي ابقاء الغزاة الاسرائيليون لأهلها الفلسطينيين في حين باتت حدود لبنان وسورية والاردن ومصر والعراق في عهد الحكام الثوريين نهباً لاسرائيل تصول فيه قواتها البرية والجوية وتجول.

واولئك الذين وصفوا بالحكام الرجعيين المستبدين المتخلفين عقلياً عبيد المستعمر، لم يكونوا في اي وقتٍ من الاوقات يمارسون حكماً فردياً مطلقاً مستبداً يسمو الى الدرجة التي بلغها الحكام الثوريون التقدميون الاذكياء الامناء على المصلحة العامة من التحكم والاستبداد والعبث بالقيم الانسانية. بل كانوا الى حد ما وبالمقارنة يتسامحون مع المعارضة في احيان كثارٍ. ورغم ضيقهم بالانتقاد وعدم تحملهم له الا انهم ما كانوا يحاولون قط فتح جبهات متعددة للمنتقدين، ولا ان يحاولوا أن يضعوا أصابعهم في آذانهم عندما يشتد الضغط عليهم بوجوب الإصلاح. الا ان الانتقاد لحكم الضباط الثوريين والانقلابيين كان يعد عملاً تآمرياً وجريمة ضد أمن الدولة. يتعذر على صاحبه أن يسلم من عواقبه او ان يبقى حراً طليقاً.

كم استطاعت الانظمة الثورية التقدمية الانقلابية تحقيقه في مضمار التقدم الاجتماعي والاقتصادي؟

في معظم الأحيان كان الحكام الجدد يقدمون على اجراءاتهم التعسفية بتهور تصحبه ثقة واعتزاز بالنفس. لم يكن بوسعهم مهما انكروا – إلا ان ينظروا الى البلاد نظرتهم الى معسكر كبير او ثكنة ضخمة للجنود يديرونها بعين العقلية التي اعتادوها في حكم جنودهم ومرؤوسيهم. في احيان كثيرة كانوا يستخدمون لفترات قصيرة ساسة مخضرمين وقادة من المعارضة للنظام القديم بمثابة واجهة وستر يحمي تصرفاتهم أو لأجل التدريب والتعلم منهم ثم نبذهم والاستغناء عنهم. يقذفون بهم خارجاً بعد ان ينتفي الغرض منهم كما تقذف ثفالة الشاي لكن بعضهم ينحرف وينساق وتتبلد حواسه بالتدريج ليفقد إحساسه بالكرامة الضائعة وبعواقب مشايعته وآثارها على اسمه وشعبيته تاركاً عبادته لرموز الحرية ليصفق ويهتف لصنم الزعيم الجديد مع الجماهير الهاتفة المصفقة التي يستطيع هذا الزعيم جمعها في كل

وقت وحين لتهتف له وتسير خلفه.

سئل گزينوفان وهو من فلاسفة القرن السادس قبل الميلاد: «كيف سيكون البشر، وماذا سيكون موقعهم عندما تبدأ العقيدة تتزامن مع المثل الخلقية؟ وبعبارة أخرى: عندما تغدو الآلهة قوى خلقية أيضاً وليس فحسب قوى طبيعية واجتماعية وسايكولوجية؟ ماذا سيكون من البشر ما هو موقعهم عندما يغدو العنصر البليد في الاسطورة سداً وعقبة؟» اجاب الفيلسوف: «لو كان الحمير اصحاب ديانة فانها ستتصور آلهتها على شكل حمير!»

فبعد نجاح الانقلاب ترى الانقلابيين عادة يعدون بل يقسمون يميناً على اعادة الحياة الديمقراطية، على اقامة حكم ديمقراطي. إذن فهم يعرفون ان الحكم الديمقراطي هو خير من حكمهم وإلا ما وعدوا به.

ثم تأتي قضية فلسطين في الوسط لتقف عقبة او لتكون حجة يتعلل بها الانقلابيون لعدم الوفاء بوعودهم بهذه القضية. قضية العرب الكبرى تحتاج قبل كل شيء الى تقوية المؤسسات العسكرية وتحديث الجيش وبنائه ليكون قادراً على طرد العدو اليهودي وعودة الارض المغتصبة الى اصحابها الشرعيين. وهذا يقتضي بناء صرح اقتصاد وطني حديث وتطويره ليكون قادراً على طرد العدو الاسرائيلي من الاراضي المحتلة وهذا بدوره لايتحقق إلا بتطهير الجهاز الحكومي من العناصر الفاسدة (رجال العهد البائد) وتغذيته بالعناصر الكفوءة النزيهة (الموظفون الموالون) والمنتفعون من التغيير السياسي. وبكل ما يتبع ذلك من تدابير الدفاع عن المصلحة القومية وكرامة الفرد ثم العمل على تحقيق الوحدة العربية من المحيط الى الخليج او بالعكس. وهذه كلها يجب ان تنجز خلال الفترة الانتقالية.

ويبقى تحديد الفترة الانتقالية أمراً غير مرغوب فيه في اعظم الاحيان. ويظل مجهولاً أو مقطوعاً اذا جرى تحديده بسبب حصول انقلاب جديد على القديم لتبدأ معه فترة انتقال جديدة.

قلنا: ينزع الانقلابيون العسكريون في احيان كثيرة بزاتهم العسكرية ورتبهم لكن بعضهم يصر على الاحتفاظ بها فهي في البلاد الناطقة بالعربية مظهر مهيب يفرض الاحترام والطاعة. وقدر رأينا بعض الانقلابيين المدنيين يطاول الزملاء العسكريين ليخلع على نفسه رتبة عسكرية كبيرة.

هؤلاء الانقلابيون لايدعون فرصة تعنّ لهم لتوجيه الحملات على النظم الديمقراطية البرلمانية باعتبارها نظماً رجعية تخدم مصالح طبقة معينة. ومهاجمة التقاليد الليبرالية، فالديمقراطية البرلمانية والتعددية الحزبية كانت دائماً عامل تفرقة فضلاً عن انها تؤدي بله تمثل احتكاراً

للسلطة. وانها كانت مسؤولية عن الضعف الذي تشكو منه العروبة المحاطة بالاعداء. وكان ثم عدد كبير من الكتاب المهيأين لترديد صدى هذه الادعاءات وكسائها نظريات واستنتاجات «علمية» بعض هؤلاء ارادوا ان يظهروا للناس مقدار حيادهم في تفاسيرهم وتعاليلهم – لم يكونوا يمتدحون الانقلابات بشكل مباشر بل رأوا في ظاهرة تعاقب الانقلابات في البلاد العربية دليلاً على ضعف الحكومات المدالة وفساد ساستها. ويبرر الآخرون التغيير الانقلابي تبريراً ذكياً بانه ليس عملية انتقال من الديمقراطية الى الدكتاتورية. بل هو حكم لايمقراطي تلا حكماً لادیمقراطيٍّ. ولست ادري كيف ملك هذا الصنف من المؤرخين والكتاب القدر من الشجاعة والجسارة بإغفال الحرية النسبية في ظل النظام القديم. واغفال المعارضة التي كان معترفاً بها الى حدٍ ما[١٢] في حين يعتبر الحكم الجديد تلك الحرية والمعارضة خيانةً عظمى وتآمراً على حكم وطنيّ.

كان الجمهور يمارس حق الاقتراع بحرية تزيد كثيراً على الحرية التي يمنحها الحكم العسكري إن سلم بهذا الحق لاسيما عند اقامة الحكم العسكري في ظل نظام الحزب الواحد. وهؤلاء العسكريون القوميون العقائديون وهو الطرز الجديد الحزبي منهم، لايلجأون الى الانقلاب وايصال حزبهم الى السلطة، لا لأن حزبهم أو أحزاباً أخرى كانت تعاني اضطهاداً أو عمليات قمع وتحريم نشاطها او مطاردة اعضائها. بل كثيراً ما كان اللجوء الى الانقلاب يعود الى عجز ذلك الحزب وضعفه جماهيرياً وتعذر وصوله الى الحكم بالاساليب الديمقراطية. انه بعبارة أخرى يرجع اصلاً الى خيبة أمل زعمائه ونفاد صبرهم في محاولة الوصول الى الحكم دون مناشدة الجيش للتدخل.

علينا مع ذلك ان نتأمل الوجه الآخر من العملة لإجراء تصحيح معين في وجهة النظر التي عرضناها. علينا ان لانتخذ من تعاقب الانقلابات العسكرية دليلاً على فشل الديمقراطية في البلاد الناطقة بالعربية كنظام حكم بل يجب ان ينظر الى الانقلاب كسبب من اسباب ضعف رسوخ المفاهيم والمباديء الديمقراطية لا كدليل على عدم صلاحها فالتدخل العسكري فضلاً عن مسخ النظم الديمقراطية لايتيحان مجالاً للنمو الطبيعي الصحي للنظم الديمقراطية ولا وقتاً لممارسة عملية التجربة والخطأ او الصمود امام الضغوط التي يقصد بها الاساءة الى سمعة النظام الديمقراطي واصابته بالهزال. وقد كان ابداً وفي الجوهر على طرفي نقيض من المفاهيم الفاشية التي غزت فكرة القومية العربية واعتنقها الضباط الانقلابيون بشعاراتها الخلابة

(١٢) كانت الصحف في العراق ومصر وسورية وليبيا تنشر خطب النواب المعارضين في المجالس الاشتراعية او تقدم خلاصات لها.

لاسيما العمل للوحدة العربية الشاملة.

مع ذلك بقي لكلمة «الديمقراطية» هيبتها وتأثيرها المعنوي حتى في اسوء النظم الدكتاتورية. انك لترى هؤلاء الانقلابيين يفضلون في بعض الاحيان الدفاع عن نظامهم باعتباره لوناً من ألوان الديمقراطية المستحدثة. يقلدون بذلك النظم الشيوعية بادعائها انها صاحبة الديمقراطية الحقيقية غير المزيفة التي يدعمها الغرب. تراهم يفضلون الابقاء على النعت «الديمقراطي» لنظامهم الجديد، ويقولون إنهم يبنون الديمقراطية على مفاهيم حديثة لاتمت بصلة الى الانظمة البائدة المتفسخة، ان كانوا دعاة ديمقراطية صحيحة اليس أقرب السبل اليها العمل على تقوية الاسس الاجتماعية والاقتصادية وصيانة الحريات العامة والحقوق في النظام الديمقراطي القديم بدلاً من القضاء عليه؟

يتحدث الانقلابيون المنتصرون في بياناتهم الأولى عن ارادة الشعب وعن حقوق الشعب المستردة. وهم منشغلون في عين الوقت بتقويض آخر المؤسسات الديمقراطية ومحاربة المدافعين عنها حرب ابادة. كالمناظرة والفكر والتعبير الحر وتوفير الفرص المتكافئة وتشجيع المبادرات التلقائية فتسيطر على مرافق الحياة كافةً لأنها تجد تشكيلتها الحاكمة وحزبها الذي تنتمي اليه هي الأداة الصالحة لقيادة الشعب.

وفي حزب البعث العربي الاشتراكي امثولة. الضباط البعثيون يتظاهرون بانهم يعملون باسناد من الحزب لكنهم يسيطرون عليه في الواقع إن استطاعوا الى ذلك سبيلاً والا نشبت – وكثيراً ما نشبت تلك المعركة الدموية في الداخل على السلطة. في شعار هذا الحزب المثلث تجد (الحرية) كما يعتبرها البعث مرحلة تأتي بعد الوحدة. فكيف يمكن اتمام الوحدة في حين لايوجد شعب حر؟

«ان القدر الذي عهد الى حزب البعث بمهمة حمل رسالة البعث العربي، أعطاه الحق في ان يقوده بقوة وبقسوة لان البعث هو الطليعة وعلى الجماهير ان تسير وراءه»[١٣]

هكذا تتقرر الارادة الشعبية من وراء قيادة معينة وبتبرير طغيان فئة صغيرة تتولى تقرير مصيره ومستقبله فئة لاتمثله باية حال ولايعرف بها حتى الاعلان عن نفسها.

ويشرح «جلال السيد» وهو من مؤسسي الحزب والخارجين عليه في وقت مبكر معنى الحرية في نظر رفاقه القدامى فيقول:

(١٣) اديب نصور: النكسة والخطأ، بيروت ١٩٦٨ ص٤٥.

«يتبع البعث مبدءً معيناً وهو ان الحرية لايمكن ان يتمتع بها غير اعضائه الحزبيين. ولذلك فستبقى الديمقراطية دائماً افضل نظام لأنها تملك القول الفصل في الخلاف بين المواطنين حول تفاسيرهم المختلفة لها. فهي افضل من حكم الفرد الواحد او حكم طبقة معينة.»[١٤]

ان حكم الفرد النابع من حكم الحزب الواحد لايتسامح قط مع معارضيه ويحرمهم حق المناقشة وحرية التعبير ورغم ما يتمتع به من سلطة غير محدودة إلا انه يخشى حرية الفكر والانتقاد ويظل خائفاً مرتعباً من دعاته، ذلك الرعب الذي تفصح عنه القوة الشرسة والمعاملة الوحشية والتدابير الوقائية والقيود القانونية المريعة[١٥].

واصيبت مسيرة القومية العربية بنكسة كادت تكون القاصمة. فبالرغم من اوجه منافع معينة في الاشتراكية إلا ان طريقة القوميين العرب في تقديمها وهي عين الطريقة التي اتبعها «لنين» وسار عليها «ستالين» ومن اتبع نهجهما في ظروف زمانية ومكانية خاطئة وفرضها بالقوة وبشكل انتقامي احياناً بعيداً عن الحكمة وباسلوب مشوب بالتسرع الأهوج – افقدها كل فائدة ترجى منها وجعلها مكروهة حتى من قبل كثيرين روجوا لها وتحمسوا ودعوا اليها في الماضي وزينوها للحكام في مناسبات كثيرة. كانت هفوة لايمكن اخفاؤها او اغفالها يرتكبها الانقلابيون بحق القومية والوحدة العربية. يفوق تأثيرها ذلك الاسلوب الاناني الشبيه بالانتقامي الذي اتبعه القوميون العروبيون مع الشعوب والاقليات العنصرية التي تعيش بين ظهرانيهم، الكرد في العراق وسورية، البربر في شمال افريقيا، الزنج في السودان، الآشوريون والتركمان في العراق.

(١٤) النص مقتبس من رسالة «جلال السيد» المفتوحة المؤرخة في ١١ حزيران ١٩٦٤ الى اللواء أمين الحافظ «رئيس المجلس الرئاسي السوري» (نشرت في: آراء ودراسات حول المشاكل الاقتصادية والاجتماعية. بيروت ١٩٦٤ ص٤٤). كان جلال السيد واحداً من البعثيين القلة الاعضاء في مجلس النواب السوري الذين دافعوا عن المباديء الديمقراطية. وطلب إحلال نظام ديمقراطي ليبرالي وقتما وجد حزب البعث ينزع الى ممارسة حكم الحزب الواحد بسيطرة الجناح العسكري فيه.

(١٥) كالقانون رقم ١٠٧ المعدل لقانون العقوبات العراقي الذي يفرض حكم الموت على كل من ينتمي الى حزب البعث مخفياً عن عمد ارتباطاته الحزبية والسياسية السابقة. كما يقضي بعقوبة الموت على كل عضو في حزب البعث ارتبط اثناء التزامه الحزبي باية جهة حزبية او سياسية أخرى او يعمل لحسابها ولمصلحتها (تم اعدام عدد كبير من الابرياء بهذه التهمة) وهناك القانون رقم ٨٤٠ المعدل لقانون العقوبات العراقي واليك نصه: «يعاقب بالسجن المؤبد ومصادرة الاموال المنقولة وغير المنقولة من اهان باحدى طرق العلانية رئيس الجمهورية او من يقوم مقامه او مجلس قيادة الثورة او حزب البعث العربي الاشتراكي او المجلس الوطني او الحكومة. وتكون العقوبة الاعدام اذا كانت الاهانة والتهجم بشكل سافر وبقصد اثارة الرأي العام ضد السلطة.

لايمكن لأبرع قلم ن يعطي صورة صادقة لحجم ما خلفته الاجراءات والقوانين الاشتراكية من كره وفوضى وبؤس تعدى حدود البلد العربي الواحد لينشر المزيد من الشقاق ويثير عداءً غير مسبوق بين الشعوب الناطقة بالعربية في الوقت الذي يفترض أن تتحلى بالمزيد من التعاطف والتكاتف على الاقل لاعطاء دعوى الوحدة العربية ورص الصفوف حيال العدو الاسرائيلي شيئاً من الجدية والمصداقية.

لأول مرة في تاريخ هذه البلاد التي نزعت عنها قيود الاستعمار وتخلصت من النفوذ الأجنبي، لأول مرة تقوم سلطاتها الحاكمة بمصادرة اموال المواطنين تحت شعار العدالة والمساواة وبحجة استعادة كرامة وعزة الأمة العربية ولمد العرب بمزيد من القوة الاقتصادية في حين يمنع الاسلام بنصوص قرآنية واضحة ذلك منعاً باتاً.

وفي الوقت الذي يصر الحكام الاشتراكيون الجدد من غلاة القوميين العرب على شدة تمسكهم بتعاليم الدين الاسلامي وبأنه جزء لايتجزء من عقيدتهم القومية وركن من اركان حكمهم لايسعهم اغفاله مؤكدين ذلك في دساتيرهم المؤقتة وغير المؤقتة. وينقشون على الاعلام الوطنية عبارة «الله اكبر» ويطلقون المغنية الشهيرة ام كلثوم لتغني قصيدة في مدح الرسول فيها هذا الصدر من بيت: «الاشتراكيون انت إمامهم» يقصد الناظم به الرسول الأعظم. كل هذا يحصل في مجتمع يفترض فيه أن «لايكون للانسان فيه الإ ما سعى» مجتمع اسلامي حقيقي لا وجود فيه لفروق طبقية أو دينية أو عرقية أو عرفية وحيث افسح الاسلام لكل مواطن الحرية في تطوير نفسه وترقية مستواه المالي والاقتصادي.

الا ان النظام الاشتراكي الذي فرضه عبدالناصر في مصر لأول مرة فأخذه عنه ثوريو العراق وسورية وليبيا واليمن رغم كونه في مرحلة التجربة والطفولة بات الأساس الذي يجب ان تقام عليه الوحدة العربية. واصبح القبلة التي يتوجه اليها الجهاد القومي والميزان الذي توزن به قيمة الدولة من هذه الناحية اي للتحقق في هل انها «دولة متحررة» مهيأة للوحدة ام انها «دولة رجعية» ينبغي العمل على استبدالها. هل انها دولة ذات طابع قومي. ام هي مجرد حليف للصهيونية والامبريالية وستبقى الحقيقة هي هي.

فلاسفة الاشتراكية العرب مدنيوهم وضباطهم في هذه الأقطار يعيشون تحت غيمة طخياء من خوف قيام هجمة دينية عليهم، ماكان بمقدورهم التصريح بأن اشتراكيتهم التي اطلقوا عليها صفة «الاشتراكية العربية» إنما هي في الواقع شكل من اشتراكية «ماركس وانگلز» التي حاول لنين وخلفاؤه تطبيقها بالحديد والنار. وقد وجدناهم وهم في حالة الخوف والحذر هذه

يعملون جاهدين للبرهان على العلاقة الوثيقة بين اشتراكيتهم وفلسفة الرسالة المحمدية والتعاليم الاسلامية الصحيحة، بتسخير بعض الجهلة والإمّعات من العلماء الأدعياء للعثور لهم على نصوص من الأحاديث النبوية لاثبات اسلامية اشتراكيتهم، فأهانوا أئمة الشرع الاوائل والاواخر وهؤلاء الأخيرون آثروا الانزواء خوفاً وفقدوا تلك الجراة التي كان يتحلى بها اسلافهم في الايام العصيبة كابن تيمية وابن حزم وآخرهم الامام محمد عبده.

هذا الاحجام عن بطلان دعوى القوميين خشية المس بالشريعة. ادى مما ادى الى ظهور المتشددين الاسلاميين عند خلو الساحة من الدعوات القومية والانقلابات القومية، وصفة «المتشددين الاسلاميين» هي في الحقيقة مصطلح مهذب جداً يغطي الصفة الحقيقية للقتلة باسم الدين الحنيف من الارهابيين قاطعي الرؤوس البريئة ومفجري أنفسهم المنتحرين. قالوا:

«ان البرجوازية التي تمثلها الطبقة الوسطى ماعادت قادرة على اداء دور إيجابي في المجال الاقتصادي وان معارضتها للاشتراكية جعلها خليفةً للامپريالية.»[١٦]

ترى كم اصابت الاشتراكية العربية من نجاح وهي في طريقها الى تحقيق مجتمع العدل والمساواة. وكم قطعت من اشواط في سبيلها الى الوحدة؟

قبل ان يقدمها عبدالناصر عملياً للمجتمع العربي كانت مجرد شعار مدوّن في منهج حزب او حزبين لايسترعي اقل انتباه. ولذلك لم تكن محاولة هذا التغيير الاجتماعي الجوهري (الانقلاب) معروفة لدى القوميين العرب قبله. بعبارة أخرى لم يكن معروفاً عند دول شرقي البحر الابيض المتوسط. ولايمكن ان تخترعه عقلية عربية بمثل هذه السرعة الخاطفة الا اذا افترضنا بان المجتمع المصري ليس عربياً ولا ثورياً مغامراً كبقية العرب وهو صحيح الى حد ما. ولا جدوى من الانكار بان التغييرات العميقة التأثير في ايديولوجية القوميين العرب وشعاراتهم هي نتيجة عملية استيراد واستعارة من العالم الاشتراكي كما بيننا والفارق الضئيل هو محاولة الاشتراكية العربية المحافظة على القشرة الاسلامية أو الحرص على ابقاء الحبل الذي يربط النظام الجديد بالاسلام بقدر ما حشدته الثورية القومية من تفسيرات معينة توطيء لاستقبال الايديولوجية. وقد اتضح فيما بعد انه أضيق من سُمّ الابرة[١٧]. هذه

(١٦) من نصوص مقررات المؤتمر القومي لحزب البعث العربي الاشتراكي المنعقد في دمشق في الثالث عشر من تشرين الثاني ١٩٦٣. وهو تعليل ماركسي صرف لا علاقة له بالاسلام وتنكره التعاليم الاسلامية.

(١٧) مع هذا يرى جلال السيد «المرجع السالف الص ٤٠-٤١» ان الاشتراكية التي ذكرت في منهاج حزب البعث العربي الاشتراكي ليست اشتراكية ماركسية. بل كانت نوعاً من اشتراكية الدولة. لان الاشتراكية الماركسية هي الشيوعية في الواقع.

الايديولوجية العربية الجديدة لم تنجح في معالجة الفقر قدر ما نجحت في ارسال عدد متزايد من المصلين الى الجوامع. انها قضت او كادت على الطبقة المتوسطة بقوانين التأميم القتالة وازاحت الطبقة الحاكمة المنتفعة القديمة لتحل السلطة الانقلابية محلها بصلاحيات اوسع بكثير. فاغلقت مشاريع مزدهرة بعد أن أصابها الخسار بسبب سوء الادارة والسرقات. واحجم رجال الأعمال عن مباشرة أية مشاريع انتاجية.

واقتضت الاشتراكية اجراء عمليات التطبيع والتلقين وغسل الادمغة وتطويعها لخدمة سياسة الدولة وكانت نتيجة ذلك تدنياً في المستويات الاكاديمية. واخضاع الأفكار والحريات لتوجيهات الدولة.

بالقوانين الاشتراكية التي صاغها اناس اختارتهم الدولة ولم ينتخبهم الشعب ديمقراطيا. كانت القوة لتطبيقها واجبة وعنصر الإرغام فيها واضحاً، تدل عليه قسوة العقوبات التي تفرضها تلك القوانين على معارضيها. ليس هذا وحده، فهناك تلك الحرب بين «الاشتراكيات» العربية نفسها عندما يسود جفاء بين نظامين ثوريين فيشرع احدهما باتهام الآخر بتشويه الاشتراكية عن طريق فرضها بالقوة وليس بالموافقة الشعبية:

«عندما يهاجم النظامُ الناصري حكمَ الملك السابق فاروق الاستبدادي، ويرفع شعار الحرية من طرفٍ ويقضي على الحريات من طرفٍ آخر ويفرض نظاماً عسكرياً وحشياً نصف الشعب فيه جواسيس على النصف الآخر – نجد عندنا هنا ازمة اخلاقٍ. وعندما يعلن الحكم بان النظام الاشتراكي هو ضروري لاستعادة حرية الفلاح والعامل، ويقيم الدنيا ويقعدها ضد الاقطاعي والرأسمالي لأنهما جردا العمال والفلاحين من حرياتهما، ثم يعود هو ليسلب من الجميع حرياتهم، فهاهنا ازمة اخلاق ايضاً»[١٨]

وبتغيير بسيط في الاسماء المصرية الى أسماء سورية. نجد الأمر عينه يصح قوله على اشتراكية البعث.

ان الطبقة المتوسطة المقصودة هنا التي كادت الاشتراكية العربية تقضي عليها. بل كان برنامجها القضاء عليها هي باعتراف الماركسيين اللنينيين انفسهم طبقة حققت انجازات عظمى في تاريخ التقدم البشري ولولاها ماكان يمكن أن تحصل البروليتاريا (الطبقة الكادحة) هذه الطبقة احدثت خلال الخمسينات والاربعينات في العراق وسورية وفي مصر خلال الثلاثينات

(١٨) من مقال «لحافظ جمالي» عنوانه «ازمة اخلاق» نشر في جريدة النصر الدمشقية بتاريخ ٤ تموز ١٩٦٢.

ما يمكن اعتباره ثورة عظيمة سلمية في الاقتصاد والصناعة. ولم تقف بل ظلت تمد جذورها في البنية التحتية بعد الحرب العالمية. يكذب عملاً دعوى القوميين الاشتراكيين فضلاً عن الدمار الواضح الذي احدثته قوانينهم عند اول تطبيق لها. دمار اصاب كل الطبقات الاجتماعية بدءً بالفلاح الأجير الكادح وانتهاء بالاقطاعي الكبير. ناهيك بالحرفيين والتجار صغارهم وكبارهم، وكالت للاقتصاد الوطني ضربات أليمة.

ومثلما حصل في مصر ادرك مهندسو الاشتراكية في العراق وسورية بان التغيير والاتجاه نحو الاشتراكية سيواجه مقاومة قوية. فأقدموا على استثناءات وحاولوا التخفيف من القيود واخراج عدد من المشاريع من التأميم وناوروا وخاتلوا ووعدوا وفسروا وجاهدوا للبرهنة بان «اشتراكيتنا اصلاً تنبع من تقاليدنا الاسلامية» ولم يقفوا دقيقة واحدة ليفكروا وليدركوا بأنهم انما ضحوا بقضية العروبة على مذبح الاشتراكية.

واظهر وجه لهشاشة ذلك المجتمع العربي الاشتراكي هي هزيمة حرب الايام الستة. وهي هزيمة فاقت هزيمة العام ١٩٤٨ العسكرية والسياسية حين لم يكن وقتذاك دولة عربية واحدة تدين بالاشتراكية[١٩].

الوجه المظلم الآخر للاشتراكية العربية، هو تدمير القدرات المادية لعمليات التأميم والمصادرة. والروتين (البوروقراطي) القتّال الحكومي المصحوب في اغلب الاحيان بالديون والنقص في المواد الأولية وحالة الكآبة التي تخيم على النفوس لأناس وجب عليهم مكافحة

(١٩) قضت الاشتراكية على القدرة العسكرية او أصابتها بضعف شديد بوضع أمن ومصالح النظام فوق مصلحة البلاد وانها بطرد القادة والعسكريين المحترفين غير الموالين بالجملة واسناد مناصب قيادية هامة لحزبيين لا مؤهلات لهم. او باخضاعهم أو إذلالهم بإناطة المسؤوليات الكبرى لا بهم بل بضباط حزبيين صغار. ولعبت المذاهب الدينية لعبتها هي الأخرى كما حدث في سورية العام ١٩٦٣ عندما اقدم حزب البعث الحاكم الذي غلبت عليه اكثرية شيعية بإحالة مئات من الضباط السنيين الى التقاعد. وهو تطهير شمل ضباط البحرية والقوتين الجوية والبرية، حتى ان بعض الوحدات تركت من غير ضابط (مطاع الصفدي: حزب البعث، بيروت ١٩٦٤، ص٣٣٩). والقوات العراقية التي حركت الى الاردن في حزيران ١٩٦٧ لم يعط لها عتاد حتى عبورها الحدود الاردنية. لذلك لم يكن بوسعها الدفاع عن نفسها ضد الغارات الجوية الاسرائيلية. وبمقابل ذلك وجدنا القوات الاردنية الصغيرة الحجم تصمد وتخرج من المعركة رافعة الرأس رغم قلتها وفقر عتادها. وفيها يقول الملك حسين: «كانت الفصائل المتراجعة تمر بي وهي تناشدني متوسلة اعطنا غطاءً جوياً وسنعود الى القتال». هذه قوات قبائلية بسيطة التسليح اشرف على تدريبها البريطانيون وسلحت باسلحة عتيقة لفترة الحرب العامة الاولى. حاربت بصدقٍ وادت واجبها حتى بدا الولاء للملكية الرجعية اشد واقوى من الولاء للانظمة الثورية الاشتراكية في كلٍ من مصر والعراق وسورية (يستحسن مراجعة آراء مماثلة في كتابيْ المذكرات لعبدالكريم زهرالدين، والتجربة المرة لمنيف الرزاز. وهما من المراجع السالفة).

هذه المعوقات في ظل نظام لايكنون له عطفاً او وداً لأنه صادر مُلْكَهم الذي هو جزء من حياتهم وكيانهم. بالنتيجة أصابت الاشتراكية تلك القوى الروحية العربية الخالصة وهي القيم المعنوية التقليدية مفخرة الطباع والخلق العربي اللتين عرفناهما واكبرناهما في هذا الشعب النبيل، وخلق مدرسة قوامها الكذب والنفاق والابتزاز والشك والغدر والخيانة.

وقد نضيف وجهاً آخر لمظهر ثوري عربي يمكن ان ندعوه «بالاحتكار القومي» لأنه لم يخضع مطلقاً لعملية التأميم الاشتراكية. من مظاهره الشك المتبادل بين القوميين والعداء الكبير بين فصائلهم. فمن عادة المستأثر بالحكم من احدهم، الشروع اولاً بمهاجمة القوميين الآخرين الذين يرفضون السير في خطهم، يقتلونهم بمحاكمة أو بدونها أو يودعونهم السجن ويُشهّر بهم. والمسألة لاتتعلق بمن يكون رفيقك يوم أمس في الحزب وعدوك اللدود في هذا اليوم فميدان الكر والفر على السلطة والزعامة داخلي قدر ما هو خارجي. والنتيجة ان قاموس الشتائم وحده كان الغالب، لكثرة ما اخترع من الأوصاف والنعوت التي تتعلق بالخيانة والعمالة للاجنبي والتآمر.

بهذه الوسيلة فقد سواد الشعب القوة على الايمان باي شيء. لاسيما ايمانهم باقوال الحكام. ولم يعد بعض الزعماء القوميين بالمقابل يقيمون وزناً لكرامتهم أو يحرصون على سمعاتهم. ولا يأبهون بالنزول بانفسهم الى ادنى المستوى الخلقي لاي انانى او انتهازي[٢٠].

واختار المثقفون والكتاب العرب عموماً عدم المخاطرة بحرياتهم وارواحهم – في الخوض بتفاصيل الآثار السيئة التي نجمت عن محاولة تطبيق الاشتراكية. وبعضهم كان يخشى ان يوصم بالرجعية او يصنف في عداد القوى المضادة للثورة او الاتهام بالعمالة إما للاجنبي وإما لاسرائيل بنوع خاص. في الوقت الذي كان أعلام الدعاة للاشتراكية العربية وكتابها يصمون المعتدلين والليبراليين والديمقراطيين بالرجعية وأفن الرأي. وخوفاً من هذا وما يجره عليهم من متاعب كان هؤلاء يؤثرون أن لايظهروا او ان يحاولوا الإبقاء على صلة جيدة بتلك الانظمة لاسيما اولئك الذين اسهموا بدور فعال في محاربتهم الفساد والتفسخ السياسي في الانظمة

(٢٠) انتقد حزب البعث دكتاتورية حسني الزعيم (١٩٤٩) فقبض على رئيسه ميشيل غفلق واودع السجن اياماً قلائل لم يطق خلالها البقاء بسبب تعرضه لمضايقات قليلة فجحد عقيدته برسالته السيئة الصيت للدكتاتور وتنصل منها وقال انه وحزبه مخطئون في انتقادهم له وبذلك اشترى حريته. ووجه اليه قادة البعث الجدد في تشرين الأول ١٩٦٥ على عهد حكومة زعين – تهمة «استخدام الضباط لتهديد البرلمان في ١٩٥٤ واستغلاله الاشتراكية سلاحاً لمحاربة معارضي سياسته» (كما جاء في التصريح الرسمي لحزب البعث في حينه) وقتل البعثيون القياديون زملاءهم في كثير من الاحيان في معارك الفوز بالزعامة لا لأسباب تتعلق بالتفسير العقائدي.

المبادة.

وهذا هو نوع جديد من «التقية» انها التقية السياسية.

★★★

القضية العربية والدعوة اليها والعمل لها باعتبارها قضية تحرر بالشكل والاسلوب الذي شرحناه، خدمت السياسة السوفياتية والسياسة الاسرائيلية. ففي غضون السنوات العشرين أو الخمس والعشرين التي تلت الحرب العظمى الثانية اصدرت مدارس الفكر القومي العربي عدة دورات من الضباط والحكام الانقلابيين والثوريين العسكريين، معادية للغرب اشد عداء، دفعات متعصبة لاتجد اي شيء حسن في الغرب وتتصوره غولاً همه ابتلاع الامة العربية واستنزاف مواردها الاقتصادية الى آخر قطرة وكان الاتحاد السوفياتي واسرائيل ترقبان بعين الرضاء الارتياح كل بتقويمه الخاص – الانظمة الديمقراطية الضعيفة الحديثة التكوين المتهمة في ولائها وهي تتهاوى تحت مطارق الجيش.

الاتحاد السوفياتي كان يتمنى مزيداً من اعتماد القوميين العرب عليه وعلى العالم الشيوعي حتى ولو من الصين. كان ينفخ في كير القومية لغرض ابقاء مشاعر الكره للغرب في مسبك البلاد الناطقة بالعربية وهدفه ازالة كل مراكز النفوذ والقواعد الغربية والاميريكية في العالم العربي.

واسرائيل كانت وستبقى دائماً تهتم اهتماماً بان يبدو العرب كأنهم اعداء للغرب ولكل ما يمثله من حضارة ورقي. تريد ان تبدو إسرائيل للغرب وكأنها محاطة باعداء يريدون القضاء عليها – لتبرير طلبها وحاجتها الى الدعم العسكري والمالي باستمرار، لتكون مستعدة لمواجهة حلفاء الاتحاد السوفياتي الجدد الذين يحيطون بها في غمار الحرب الباردة. ولانها تريد ان تثبت بانها صاحبة الدور الرئيس المدافع عن مصالح الغرب في هذا الجزء من العالم.

وسيكون من قلة الفطنة ان ننسى كم حصل الضباط الثوريون والقوميون والدول العربية التقدمية من اسلحة وقروض سهلة طويلة الأمد ومن كثير من الهدايا والمنح والتدخل الجدي المساند في عالم الدبلوماسية من قبل الاتحاد السوفياتي وغيره من الدول الاشتراكية. إلا ان كل ذلك لم يزد من قواهم ومعنوياتهم ووحدة كلمتهم. فهذه البضاعة المستوردة من الخارج كانت دائماً تهدف الى تشجيع الحلول المختلفة والتفاسير عند الاجنحة القومية فتعمل على بذر الخلاف بدل الاتحاد.

وتدور حجج اولئك الذين يدافعون عن ضرورة الحكم العسكري وحكم الحزب الواحد او الحاكم المطلق الواحد او كل نظام استبدادي تحكمي بانه النمط الذي اعتاده الشرق الاوسط وانه هو وحده القادر على تحقيق الوحدة العربية. قالوا ان الديمقراطية هي حصيلة تقاليد معينة وتواتر ظروف زمانية ومكانية ذات اوصافٍ خصوصية جداً وبعبارة اوضح: انها شجرة لايمكن ان تنمو وتورق وتثمر اذا ما اعيد زرعها في تربة غريبة وفي البلاد الناطقة بالعربية جرت محاولات عدة لغرسها وتعهدها بالعناية الا انها زرعت حيث تنبت اشواك الطغاة والمستبدين التي تعلوها فتخنقها.

هذه مبالغة مفرطة في القسوة على عقلية المواطن العربي بطبقته المتعلمة الواعية. ليست مبالغة بالاحرى بل ما هو اشبه بالشتيمة تفصح من عدة اوجه عن التحامل المقصود والتجاهل الاحمق للعمق الثقافي العربي بله النضوج السياسي للطبقة المثقفة. والتجارب الديمقراطية فيها لم تبخل بالضحايا التي عملت بانكار ذات على نشر مفاهيمها بالكتابة وتأليف الاحزاب والمعاهد شبه السياسية كالنوادي والجمعيات بما فيها الخيرية منها والثقافية فهذه كلها مظاهر ديمقراطية وسبب وجودها هو تطبيقات الديمقراطية الوليدة التي جرت محاولات التآمر القومي العروبي عليها.

قد يبدو لبنان بمجتمعه المعقد خير مثل يضرب لحيوية النظام الديمقراطي وصلاحه في كل الظروف. فقد أصر هذا المجتمع على نظامه الذي فضله لنفسه عشية الاستقلال وتمسك به رغم كل الحروب الاهلية الدموية الطويلة والزلازل السياسية التي عاناها. عاش النظام الديمقراطي ولم يحاول أحد استبداله بنظام عسكري دكتاتوري.

الانظمة الانقلابية العسكرية. بضباطها الحزبيين والعقائديين واللاحزبيين كانوا يتبنون في بياناتهم وتصريحاتهم صدقاً او تمويهاً – قضية العرب والوحدة العربية وتخليص المجتمع العربي من النفوذ الاجنبي (الاستعمار: حديثه وقديمه) لكنها – وقد وجد منها خمسة او ستة في وقت واحدٍ – جعلت بعلاقاتها الزئبقية السريعة التحول وانانياتها – اي شكل من اشكال الوحدة ضرباً من الخيال حتى بدت تلك الحدود التي رسمها الاستعمار والامبريالية لتلك البلاد الناطقة بالعربية وكأنها حدود مثالية طبيعية رغم أن الأجنبي رسمها لمصلحته وحده وبناء على مساومات وتسويات دولية حرص عليها الانقلابيون بعد مجيئهم بوصفها حدوداً شرعية يقف على حراستها الجيش. فمن هذا الطرف وذاك. يتكلم افرادهما لغة واحدة ويتجهون نحو قبلة واحدة في صلاتهم ولكن لايسمح لمواطن من هذا البلد بزيارة «شقيقه العربي» في البلد

الآخر من دون الجواز والاجازة التي تسمح له بزيارة اي بلد امبريالي او استعماري. وما من شك في ان نوعاً قوياً من الوحدة او الاتحاد كان سيتحقق من تبني نظم ديمقراطية متشابهة في البلاد الناطقة بالعربية تخرج عن اطار التعايش بسلام ومحبة الى نطاق اوسع من التعاون والاحترام المتبادل وتوحيد السياسات الخارجية والتبادل التجاري والاقتصادي والثقافي، بعيداً عن المناورات اللاخلقية، والمؤامرة المتبادلة.

ولكن جرى الأمر خلاف ذلك تماماً. وقد غلب الطبع على التطبع لنجد طائفة كبيرة من رواد الديمقراطية في سورية والعراق يعجزون بعد فترة قصيرة عن وضع الحكم في بلادهم على خط المسار الديمقراطي السليم فيصيبهم اليأس من قدرتهم على القيام باي عمل مثمر ويتجهون بانظارهم وهذا موطن العجب الى الجيش ليقوم عنهم بالمهمة باعتباره جزءً من الشعب وبان ضباطه مع جنوده يدركون جيداً المهمة الملقاة على عاتقهم وهو التغيير السياسي[٢١].

لكن الضباط السياسيين الثوريين خيبوا ظن اولئك الذين كانوا بطيبة قلب، بل بسذاجة وقصر نظر ينتظرون قيام هؤلاء الضباط المنتصرين باعادة الجيش الى «ثكناته» كما كانوا يدعون وتسليم الحكم للمدنيين. وكانت النتيجة ان يزج هؤلاء الضباط بلادهم في بحران التجربة الاشتراكية بمثابة بديلٍ للديمقراطية ومبادئها ومثلها، وكضمان لبقائهم في الحكم.

كم خدمت الاشتراكية فكرة القومية والوحدة عند القوميين العرب؟ وكم امدّتها بقوةٍ؟

لا أظن اشتراكيا عربياً واحداً يجرؤ على البحث في هذا المضمار، لان كثيراً من الزعماء القوميين العرب سيخيبون ظنه.

في ١٣ تموز ١٩٦٧ تحدث الدكتور صلاح البيطار أحد مؤسسي حزب البعث عن الارهاب والديماگوگية – لمراسل جريدة الحياة[٢٢] فقال :

«النظم الاشتراكية العربية بجمودها العقائدي وتبنيها مباديء وايديولوجيات اجنبية كان لها رد فعلها السيء. وهزيمة العرب في حزيران ١٩٦٧ كانت العقوبة العادلة لأخطاء العرب في الفكر والعمل»[٢٣]

(٢١) هذا ما كان يظنه الديمقراطيون العراقيون عندما وضع الجادرجي وصحبه املهم في التغيير العسكري بقيادة الفريق بكر صدقي. فقد اضطروا إلى ترك الساحة لحكمه والتواري خوفاً من بطشه بعد اسابيع قلائل.

(٢٢) نشر الحديث في ١٤ تموز في جريدة الحياة البيروتية. بتوقيع مراسلها زهير الشلق.

(٢٣) وهذا نموذج من تصريحات لابنة ستالين (الوليڤا ستالينا) في برنامج "قابل الصحافة" (نشر في جريدة لوس انجلز تايم) ٢٢ أيلول ١٩٦٩: «ان اولئك الذين يريدون ان يجعلوا الاشتراكية بديلاً عن الديمقراطية هم عميان... الحياة الاشتراكية في روسيا هي كابوس مرعب سيقضى عليها يوما ما».

أخيراً علينا أن نذكر القاريء بما اوردناه في الفصول الاولى من كتابنا بان فكرة القومية العربية المؤدية الى وحدة اقطار الناطقين بالعربية. انما كانت بدعة وتطويراً اقدم عليه عرب او مستعربون ليبراليون من مثقفي الطبقة المتوسطة لاتشوبها نعرة عنصرية ولا تعصب. وأنها لم تكن قط من اختراع مفكري البعث أو عقلية عبدالناصر أو القوميين الحركيين او الضباط الأحرار وغير الأحرار او العناصر الوحدوية وغير الوحدوية. كما علينا ان نذكر ايضاً بان رجال الحكم الذين وجدناهم على رأس الدول التي حررها الاستعمار من الحكم العثماني. كانوا مجاهدين قوميين طبعوا قوميتهم بمسحة من الليبرالية واتسعت أفكارهم الى حد كبير لتفهم مطالب القوميات الأخرى التي تعايشها في الوطن الواحد. في حين جرفت بعضهم الأفكار النازية ونظريات التفوق العنصري. وحاول بعضهم جر انظمتهم الديمقراطية لخدمة مصالحهم ومصالح الحاشية والبطانة. كانت هناك مشاريع جدية في سبيل نوع من الوحدة كمشروع الهلال الخصيب ومشروع سورية الكبرى. إلا ان التيارات القومية الجديدة التي غزت الساحة بنهاية الحرب العظمى الثانية تحاشت امثال هذه المشاريع وشجبتها بوصفها مشاريع امپريالية استعمارية. الا ان هذه التيارات القومية المتعصبة لم تشجب مشروع اقامة جامعة الدول العربية رغم انه بالاصل مشروع بريطاني مشروع اقامته دولة امپريالية استعمارية، مشروع فاشل منذ تكوينه حتى ساعة كتابة هذا الفصل.

ويبدأ الصراع بين الاتجاهات القومية، نتيجة التخبط والعداوات والصدامات الموسمية – ليؤدي الى تعاون جميع رسل القومية العربية وزعمائها الجدد الى العمل على استخدام المجارف والمعاول لحفر قبرٍ لأسمى هدف لها وهو «الوحدة الشاملة».

رسول القومية العربية الاعظم يتدخل تدخلاً سافراً في قلب الانظمة والتآمر عليها. البعث يعمل حثيثاً على نسف الحكومات في سورية. المتطرفون العسكريون العروبيون يقلبون العروش في اليمن وليبيا ويحاولون ذلك في مراكش والسعودية والاردن. الجزائر تتخلى عن الديمقراطية وتتبنى نظام الحزب الواحد – الفاشي الاشتراكي ولتنأى شيئاً فشيئا عن دعوى القومية العربية ازاء الضغط الديني الذي استغله الثوار – لتهوي في وهدة الإرهاب والقتل المنظم الجماعي.

ان الدعوة الى وحدة القصد او الوحدة الشاملة، او العمل لتحقيق التضامن العربي كل هذه دعوات شريفة نبيلة مفيدة. انها لم تكن قط مثلبة او عيباً يرمى بهما دعاتها او اي من العرب الذي يعتزون بارومتهم ويفخرون بتقاليد امتهم واخلاقها وايامها الغر وتاريخها. عقيدة

لو تولاها الليراليون وأحرار الفكر العرب، لافسحت لأفضل السبل مجالاً للوصول بالشعوب الناطقة بالعربية الى المجد والعز والاهداف الضافية لحياة افضل. أما ان تستخدم تلك العقيدة بمثابة اداة دعائية وديماگوگية من اجل الوصول الى السلطة بالنار والحديد وسوطاً يلفح ظهور القوميات الأخرى وأقفيتها، واداة لارتكاب جرائم جماعية بحق الأخوة الاشقاء في الوطن الواحد او الاوطان الأخرى. فهو ليس من دواعي الفخر والاعتزاز وقد كانت قبلها عاملاً لايمكن اغفال تأثيره لوصول الكثير من البلاد الناطقة بالعربية الى مرحلة الاستقلال. إلا انها ماعادت بذات فائدة للعرب ولا مصدر وحي لهم ينير ظلمات السبيل الى المستقبل الزاهر عندما تدخل الضباط «الأحرار» مباشرة او عن طريق احزاب متعصبة. فأفسدوا مسيرتها بجعلها مرقاة تبلغ بهم الى السلطة لتخدم أنانيتهم فحسب.

اقف في هذا الفصل بالقاريء لإكمال ما بدأته في الفصل الختامي من هذا الكتاب حول مصير الحلم العربي بالوحدة بعد وفاة أكبر قادتها على الاطلاق. جمال عبدالناصر.

ملحق

حول التكوين العرقي لشمال أفريقيا

لايُعرف للفظ «بربر» أصول محددة، وهو يطلق حالياً على الأقوام التي تسكن شمال افريقيا ولعلّ الاسم جاء من الكلمة الاغريقية القديمة بربروي (البرابرة) والكتابات المصرية للقرنين السابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد تتحدث عن قبائل البرابرة (بيراباراتا) والمصريون يطلقون على فروع البرابرة من القبائل أسماء معينة مثل (ليبو، ومشواشة، وتماهو، وتيهنّو، وكاهاكا) وفي أيامنا هذه هناك عدة قبائل من البربر تطلق على نفسها هذه الأسماء. وللقبائل الكبيرة منهم فروع كفرعي زواوا وجَبَاليا في طرابلس وتونس، وكالشداوية وقبيلي وبني مَزب في الجزائر، والشلوه وأمازيغ وبربر في مراكش والطوارق ولوشاغ وسرگو في الصحراء تجوبها طولاً وعرضاً. ويطلقون على أنفسهم عادة أوصافاً ونعوتاً مشتقة من كلمة (أمازيغ) ولغتهم الأمازيغية هي واحدة من اللغات الحاميّة لها جذورها كما يرجح علماء اللغة، في الفرعونية. والبربر الخلّص عنصرياً من أيّ شائبة قومية أخرى، هم الأكثرية المطلقة في مساحة من افريقيا تمتد من واحة سيوه في مصر حتى سواحل المحيط الأطلسي. ومن نهر النيجر جنوباً حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط. وهم في كل من ليبيا وتونس والجزائر (خصوصاً) ومراكش وموريتانيا – الأغلبية المطلقة من السكان وقد يربو عددهم على ثلاثين مليوناً. وكلهم مسلمون على المذهب المالكي إلا أقلية ضئيلة مسيحية ويهودية. وهم اليوم يفخرون بقوميتهم وليس بين أظهرهم من يستطيع أن يدعي بعروبة خالصة إلا الأقل من القليل الذي امتزج في وقت متأخر مع هجرة عربية كبيرة ثانية متأخرة في القرن الثاني عشر الميلادي.

ويتفق علماء الأنثروپولجي واللغة بأن البرابرة هم من الشعوب القوقاسية Caucasoid مع أن اللغوي گرينبرغ J.H. Greenberg يرى ان لغتهم تمتّ بالقرابة الى اللغات التي يتخاطب بها الأفارقة المجاورون في بحيرة تشاد. ويصنّف لهجاتها المحلية الى: مصمودة وصنهاجة وزناته، وهذه بدورها تنشعب الى لهجات عدة محلية. تتضمن قاموسياً عدداً قليلاً من الكلمات العربية وما يرجع منها الى أصل للغات البحر الابيض المتوسط وعناصر لاتينية ومفردات فرنسية واسپانية. ويلاحظ أن قبائل (الطوارق) وهم البدو منهم ينظمون أشعار حب ويكتبونها بالطقناجية وهي ألف باء بربرية قديمة. وبخلاف ذلك فالمتعلمون منهم يكتبون العربية، أو يكتبون العربية بقلم بربري، وأهل المدن والمتعلمون منهم يعرفون الفرنسية والاسپانية أو كلتيهما.

يزاول البربر في هذه البلاد التي ذكرناها – الزراعة بأشكالها البدائية. وبعضهم كما تدعي دائرة المعارف البريطانية يستخدمون كأدواتٍ الحجارةَ المهندمة. ومن هذا العصر وصلت الينا أخبار وتقاليد متناقلة واسعة الانتشار عن غارات أسلاف أو أجداد للبربر من الصحراء الغربية طردوا أو استأصلوا الأقوام التي سبقتهم بحروب قبل بدء التاريخ. وروي عن حروب بين (الغمارة: مصمودة) وبين الصنهاجة الذين استظهروا على الأولين. وأسس اليونان والفينيقيون مدينة قرطاجة التي دمرها الرومان في القرن الثالث قبل الميلاد، وأسسوا لهم مستعمرات في تونس وشرق الجزائر وغرب مراكش. كان تأثير هذا الاستعمار بدرجة من القوة بحيث تنصّر الكثير من البربر وتكلموا اللاتينية. وليس من قبيل الخروج عن الصدد القول بأن واحداً من أعظم فلاسفة ومفكري المسيحية القديس أوغسطين الجزائري (٣٥٤-٤٣٠م) كان بربرياً كتب مؤلفاته باللاتينية.

في عين الوقت تمكن اليهود من التوغل في مجاهل الصحراء وسكنوا بين ظهراني البربر وزاولوا الصناعات المعدنية والتجارة حين نشط المبشرون المسلمون بعد الغزو العربي الأول في القرن السابع وصار يحل محل المسيحية بالتدريج وتأسست مدن جديدة كالقيروان وفاس.

في القرن الثاني عشر الميلادي – وكما ذكرنا في محل من هذا الكتاب – غزت موجة عربية جديدة الساحل الافريقي الشمالي، كانت مجموعة من القبائل البدوية التي أضر بها المحل والقحط في الجزيرة، هؤلاء تركّزوا في الساحل وتهيّبوا الأراضي المرتفعة، وحولوا الرياض والبساتين العامرة بالأشجار المثمرة والحدائق الى مراعٍ وبدأ منذ ذلك الحين التزاوج بين العنصرين بشكل واسع وتبادلوا النطق باللغتين عند بعض القبائل ومنهم انحدر الجنس الخلاسي الذي يدعي بأنهم عرب خلّص – رغم ان الدم العربي لايجري كثيراً في العروق ومع ان غالبية البربر تعيش في الجبال والأراضي المرتفعة، فإن الآخرين يتقاسمون السهول والصحارى مع الأقليتين الأوروپية والعربية والمستعربة.

وأكثر من نصف سكان مراكش اليوم يتكلمون اللغة البربرية ولهم كتبهم وصحفهم ومطبوعاتهم. إلا أن هذه النسبة تقل كلما ابتعدنا شرقاً الى الجزائر وتونس وليبيا وواحة سيوه في مصر.

والقسم البربري الأكبر في مراكش الذي يتكلم البربرية هم الريف ومنهم عبدالكريم الريفي الوطني الثائر (١٨٨٢-١٩٦٣)، وسكان أواسط جبال أطلس وشلوه في الأطلس الكبير، وفي وادي سوس وزناته في السهول الشرقية. وأما في الجزائر فهناك قبليو جبال جرجوره والشاويه

في جبال أورويس وفي عدد كبير من الواحات. وفي الصحراء هناك تجمعات منهم يعرف منها المزابيت الغرارئية والطوارق. أما في تونس فهناك الجربان (سكان جزيرة جربه) وفي ليبيا هناك قرويو جبال نفوسة وواحة سيوه في مصر يسكنها البرابرة.

سحناتهم وقسمات وجوههم بصورة عامة ومهما تناجحت عليها الهجنية تختلف اختلافاً بيّناً عن العرب. وإنك لتجد بينهم البشرة البيضاء والشقرة والعيون الزرق بكثرة، إلا أن العيون البنية والشعر الكستنائي هو اللون الغالب. وبتركنا اللغة والأوصاف الجسدية ورغم انهم مسلمون إلا انهم يختلفون عن العرب المسلمين بأربعة مسائل يسهل تمييزها والتسليم بوجودها وتحصرها دائرة المعارف البريطانية بأمور مركزية أربعة: (١) في الوقت الذي تحكم الشريعة الاسلامية سلوك وحياة العربي فإن للبربر قانونهم الخاص الذي يعود الى تاريخ لايعلم مبدؤه وهم يتبعونه ولايتبعون الشريعة المحمدية وهو يختلف عنها قدر ما يختلف قانون ناپوليون عن القانون الانگليزي. (٢) في حين يفضل العرب الزواج بين ولدي الأخوين مثلاً ترى البربر لايجيزون ذلك ويحظرونه في حين يجيزون الزواج بين أولاد أبناء العمومة والعمات والخال والخالات. (٣) المرأة البربرية تمارس حرية أكبر بكثير من المرأة العربية ولها مركزها الاجتماعي الملحوظ فهنّ سافرات ولايستخدمن حجاباً من أي شكل ويستقبلن الضيوف ويشرفن على الصفقات التجارية ويحتفظن بمالهنّ ويبعن بضائعهن في السوق ويشرفن على مراسيم الخطوبة وعقد الزيجات وتجد عدداً كبيراً من المثقفات بينهن ولاتقف الأسرة مانعاً لثقافة الأنثى. (٤) تميل السلطة العربية الى الانحياز والحكم الى الدكتاتورية في حين تنحو السلطة البربرية الى الديمقراطية والحكم الى الشورى ويتخذ طابع تمثيل لا انتقاء.

وأبسط بناء سياسي بربري تجده في القرى فهي تتمتع بحكم ذاتي في الجزائر وفي جبال الأطلس الكبرى. حيث يوجد في القرية الواحدة ما يدعى (بالجماعة) وهو التئام البالغين الرشيدين المعروفين بحسن السمعة في ميدان القرية لتقرير الأمور التي تخص حياتهم. وفي القرية طبعاً أحزاب متنافسة تؤمّن إبقاء الصلات مع القرى الأخرى التي توجد فيها عين الأحزاب، وقد دعتهم الحاجة الاجتماعية الى ظهور الزعامة مع مجالس استشارية. ونظامهم الطبقي يشوبه تعقيد كبير، فهناك طبقة النبلاء المنحدرين من المقاتلين وهناك الفلاحون العبيد، والعبيد، والمزارعون الخ...

وللبربر طبقة دينية مقدسة هي طبقة الروحانيين ذوي القداسة والقول الشائع هو انهم من صلب النبي، أو انهم من الرجال الصالحين، تراهم يتجولون بدون خوف كالحدادين الذين هم في

النهاية الثانية من التصنيف الطبقي، يدين لهم الآخرون بالاحترام وهم مصونون لا أحد يجرؤ على الاعتداء عليهم بسبب منزلتهم المقدسة وتجدهم وسطاء في مفاوضات بين الجماعات وهدفهم إحلال السلام والوئام وإطفاء النزاعات القبلية، كما يعهد اليهم تعليم الصغار واستجداء الأدعية لشفاء المرضى، وهم يدفنون في أضرحة أحياناً بالقرب من صخرة كبيرة أو شجرة وتزار لطلب مراد أو لأغراض الشفاء من العقم أو غير ذلك من الأمراض.

معظم البربر يعتبرون أنفسهم من أهل السنة على المذهب المالكي ببعض استثناءات تجلب الانتباه في أقاليم جبال أطلس الوسطى. وهم يراعون الصلاة والختان والحج وسائر الفرائض الاسلامية بدقة. على ان طوائف معينة في المجتمع البربري تمارس مراسم سنوية لا علاقة لها بالإسلام. وتأثر البربر بالعرب يأتي على درجات متفاوتة لقلة قليلة جداً ممن يدعي بالقومية العربية الخالصة (كالسادة مثلاً). ويجمع الباحثون والاجتماعيون على ان العرب لم يمارسوا نفوذاً حقيقياً على البربر في أي وقت من الأوقات رغم نشر الاسلام وسيادة اللغة، فقد حافظوا على أصالتهم القومية وتقاليدهم.

★★★

هذا جزء كبير من مقال كتبه لجريدة الأوبزيرڤر البريطانية مبعوثها سيام باهيا الى الجزائر عند بدء حملة الاغتيالات وقطع الرقاب التي مارستها الجماعات المتشددة الغلاة من الاسلامية في ١٢ من حزيران ١٩٩٤ مع موقف البربر منها: كان ذلك في أوائلها وقبل اشتداد الحملة.

القتل يتم في الجزائر باشكال شتى، منها حز الرقاب من الوريد الى الوريد، ومنها تفجير سيارات مفخخة، او الرمي بالرصاص وهو اكثر الوسائل شيوعاً. كلها تكفي لتبرير السمعة التي كسبتها تلك البلاد باعتبارها ردهة عرض للموت الفجائي.

جماعة الاغتيال ينتظرون بصبر وأناة رئيس التحرير (عبدالرحمن محمود) الذي كانوا يملكون معلومات سرية عن تحركاته، ولم تكتب له النجاة الا لانه كان بعيدا عن الموضع الذي اختير لقتله مشاركاً في تشييع جنازة صديق. ففي يوم من ايام آخر الشهر تنكر القتلة ببزات الشرطة واقتحموا مكتبه. والذي دفع الثمن سكرتيره وعدد من موظفي جريدته.

«كل عملية قتل يتم تخطيطها بدقة. وقد اتقن بعض فرق الموت الاسلامية التنفيذ بقطع الرقاب بدقة متناهية كسبتها بطول المران ضربة خفيفة واحدة لا غير. والخطة هو أنهم يضعون منفذي حكم الموت في غرفة اخرى بعيدة عن مصدر

الصوت او النداء الى ان يتم اتهام الضحية ويصدر الحكم. والفكرة هي ان قاطع الرقبة لايسمع ما يجري. ويجب ان يُختار من بين جلادين مجردين من المشاعر الانسانية قبل انجاز العمل»

هذا ما حدثني به احد المدافعين النشطين عن حقوق الانسان يفضل ان لاتعرف هويته خوفاً على حياته.

نوع آخر من القتلة احتذوا حذو كارتيلات الكوكايين في امريكا اللاتينية. ففي اوائل هذه السنة ١٩٩٤ عندما عثر على مهناد لارابي وقد احتزت رقبته وقطع لسانه وعلق بمشبك على كتفه. فسر اصدقاؤه العارفون بانه آخر ضحية من ضحايا ما عرف محلياً برباط العنق الكولومبي.

والذي من يجعل هذه الجنايات الشنعاء اعظم هولاً واشد بشاعة هو عدم امكان تشخيص المسؤول عنها بصورة مؤكدة. ها هنا اصدقاء تلميذ بربري في مقتبل المعمر فقد لسانه، وهو يتهم بذلك الحكومة لأنها تبرر كثيراً من افعال حركة المتشددين الاسلاميين FIS الذين هم من قبائلهم نفسها. فهناك اثنان (محمد ومحمدي سعيد) مختفون في الجبال حيث يقودون معركتهم ضد الحكومة.

في ضواحي مدينة (يبزي اوازوا) اكبر المدن البربرية وضواحيها اللازوردية حيث البارات المفتوحة الصديقة مكتظة والفتيات ذوات الفساتين القصيرة (ميني جوب) السوداء يسرن دون كلفة او مبالاة في الشارع العام يداً بيد مع اصدقائهن.

حرية كهذه لايمكن التفكير فيها في العاصمة الجزائرية حيث تقتل الفتيات البالغات السادسة عشرة لرفضهن الحجاب. ووضع اسم رئيس معهد اللغات الاجنبية الجزائري في قائمة المحكومين بالموت «لانه اجترأ على تلقين لغات الشيطان».

من النادر أن يسمع المرء لساناً اجنبياً في شوارع الجزائر والسفارات قلصت عدد موظفيها وبعد موجة كاسحة من الاغتيالات ومنها مقتل كاهن وراهبة فرنسيين، كرهت الشركات الاجنبية المغامرة بحياة موظفيها في المدينة، فاسرعت لتحذو حذو اجتناب نقاط خطرة اخرى كبيروت عندما كان حزب الله يستهدف الاجانب الغربيين. هؤلاء الغلاة يريدون تطهير بلادهم من النفوذ الغربي ومعه ذلك الشكل من الاستثمارات الدولية التي كانت حكومة الجزائر في حاجة اليها لتضمن لدولة (ليامين زروال) البقاء والدوام.

يقول رئيس تحرير جريدة البلاد Le Pays وهي جريدة تيزي اوازو المحلية التي تطبع

بالفرنسية وباللغة البربرية تمازيرت Tamazerte:

«الاسلاميون هؤلاء جهلة واميون، وبالنسبة اليهم يعتبر تدخين السيگارة إثما في حين لايعدون تدخين الكوكايين خطأ. كذلك يتسامحون في تعاطي الفحش المجاز. باي منطق هذا؟»

جريدة «البلاد» هذه تأسست قبل ثلاث سنوات (١٩٩١) وتبلغ مبيعاتها الاسبوعية ٥٠٠٠٠ نسخة. ومحرروها يتسلمون يومياً تهديدات بريدية اوتلفونية. وتوزيعها محظور في المناطق السكنية المجاورة الاسلامية: (سيدي غاني، تزگربيته، دليس) والوطنيون البربر مثل صاحب الجريدة (علي) هم على ثقة بان حكومة (زروال) العسكرية قادرة وبكل سهولة القضاء على هؤلاء الغلاة. الاّ انها تجد فائدة سياسية في الابقاء عليهم. يقول (علي):

«الحكومة و(المجاهدون) المسلحون هم حلفاء طبيعيون وكل ضربة تنزلها الحكومة بهم تزيد في عدد المتشددين الاصوليين النشطين. وكل عملية تأديبية ثأرية يقدم عليها هؤلاء تعطي الحكومة مبرراً آخر لممارسة سياستها الدكتاتورية»

والبربر في هذا الوضع الدقيق ضحية. هذا الشعب الخالص الدم عنصرياً الذي يستوطن شمال غرب افريقيا، يدعي المنتسبون اليه بأنهم اقرب عرقيا للمصريين القدماء من العرب الفاتحين الذين هاجروا في القرنين السابع والثامن والمثل الشائع عند البربر هناك «كونك مسلماً لايقتضي منك ان تكون عربياً». هكذا يحدد البربر مصادر تقاليدهم وحضارتهم.

في العام ١٩٨٠ تفجرت كوامن احداث شغب عندما رفض ستة ملايين من البربر عرض حكومة (هواري بومدين) فرض اللغة العربية والثقافة العربية على الاقاليم البربرية. وفي بلدة (تيزي اوزوه) اقتضى لسحق تلك الحركة بالوحشية المأثورة على بومدين مقتل عشرات من التلاميذ المحتجين. ومنذ ذلك الوقت شهدت الجزائر نشاطاً بربرياً متصاعداً فجائياً بمصاحبة التظاهرات والمسيرات والاحتجاجات العامة، والاضرابات والاعتصابات والمؤتمرات الهادفة الى تأكيد هويتهم القومية وتراثهم الحضاري. وتجتذب ذكرى انتفاضة ١٩٨٠ في الربيع مئات الالوف من المساندين والنشطاء في الحقل القومي، وترفع في اوائل تلك السنة لافتات تتضمن ادانة للحكومة والاصوليين بشعارات ملتهبة نارية كهذا:

«سحقاً للاصوليين، فلتسقط السلطة. اعيدوا لنا حضارتنا ولغتنا وهويتنا»!

قال احد قادة البربر في (تيزي اوزوه):

«ان مسيرتنا وتظاهراتنا تهدف الى جمع وتوجيه الرأي العام في الاقليم ضد الحكومة المسؤولة عن تردي الموقف السياسي بسبب رفضها الاعتراف بثقافتنا وهويتنا القومية ولمشاركتها في جرائم الاصوليين الوحشية.»

يمثل الصراع الدموي بين الحكومة الجزائرية وبين الاصوليين مأزقاً خطيراً للوطنيين البربر. وخوفاً من ان ينجروا الى هذا الصراع انقسموا الى معسكرين:

«حسين آيت أحمد» احد الآباء المؤسسين للجزائر المستقلة ورئيس جبهة القوى الاشتراكية، يساند فكرة اجراء انتخابات جديدة ومشاركة السلطة الحكم مع الحركة الاصولية الاسلامية التي فازت في انتخابات ١٩٩١، وخرج منها حزب (حسين آيت) بخمسة وعشرين معقداً. وخصومه من الحزب العلماني الفرانكوفوني «التجمع للثقافة والديمقراطية» الذي يرئسه الدكتور (سعيد سعادي) قصر في الحصول على مقعد واحد في البرلمان المنحل. وسعادي يظهر للملأ مناضلاً بربرياً معارضاً بشدة وصراحة اي حوار مع الجماعات الاسلامية. ويدافع عن فكرة حل عسكري بهدف وقف تفشي حركة الاصوليين وتصاعدها. يقول (سعادي) في مقابلة:

«واقع كوننا حزباً ديمقراطياً لايمنعنا من حمل السلاح. ان البربر يدركون اليوم بان واجبهم الدفاع عن انفسهم بايديهم وبأساليبهم وبامكاناتهم. وانا اعرف شخصياً سياسيين كباراً وضباطاً عسكريين يشاركونني في هذا الرأي.»

دعا (سعادي) الى حمل السلاح بعد قيام المتشددين بغارة على قرية (تيروده) البربرية في الشهر الماضي تحت ستار الليل بمساعدة بعض المحليين المتعاطفين. وفي هذه الغارة انهض السكان النائمون وامروا بتسليم اسلحتهم الشخصية. ولم تقع جريمة قتل لكن المغيرين انذروهم بأنهم سيأتون اليهم «ان واصلتم اظهار تعاطفكم مع الحكومة».

وكمثل الكثير من ابناء قومه بدا (سعادي) مشمئزاً وحائراً في عين الوقت من ستراتيجية التقارب والاعتماد على التفاوض وهي السياسة التي اعلنتها الحكومة تجاه الاصوليين الاسلاميين الذين يشجبون العنف. انه يجد من العسير ان يقبل ذلك جلا بعد سنوات من الحرب الاهلية. والضباط الكبار وبينهم بربر، مازالوا يتشوقون للوصول الى نوع من التسوية... وهناك أنباء من الاستخبارات حول قيام (سعادة) وعدد من الضباط البربر بمعارضة اي تقارب او محادثات بين الحكومة وبين الاصوليين، وهذا ما يزيد في القضية القومية البربرية تعقيداً جديداً.

(SHYAM BHATIA الاحد في ١٢ حزيران ١٩٩٤ جريدة الاوبزرفر. لندن).

الفصل الرابع والأربعون

الخاتمة

نهاية الكتاب الأول بوفاة عبدالناصر . حلم الوحدة العربية . المرض الذي ابتليت به الدول الناطقة بالعربية . عرض تاريخي موجز . تجربة الوحدة بين مصر وسورية . تجربتها بين مصر والسودان . متاهات الفكر القومي على ضوء التجارب والأيديولوجيات . عبدالناصر ودّع حلم الوحدة قبل وفاته . تفاصيل عن الأسباب التي عجّلت بوفاته ومرضه . انطباعات شخصية لكاتب هذه السطور ، مقالة جرّت على المؤلف متاعب . النظام العراقي يتجاهل نبأ الوفاة وما عقّب ذلك . استعراض وجيز لمداخلته في إطاحة الأنظمة العربية . قيادته المصريين الى مشاريعه الاقتصادية والسياسية وأزمات النظام بسبب ذلك . محاكمة تعقيب . تعليق لمنيف الرزاز بالمناسبة . نسبة النجام في تطبيق اشتراكية لم تقم موقعاً حسناً عند العالم الشيوعي والسوفييت بصورة خاصة . مجازفة فاشلة أكسبته عداءً وأضعفت من مركز الزعامة التي ادعاها لنفسه . الصحف المؤممة والصحافيون المؤممون ، فشل تام في تحقيق نوع من التفاهم أو وحدة التيارات السياسية لدى الشعب المصري على الأقل . آراؤه في الميزان . كتابه في فلسفة الثورة . أجهزة الأمن والمخابرات ، البدعة الناصرية والوسيلة الفعالة للقضاء على المعارضة باستعمال أسلوب التعذيب البدني والنفسي . قسوته ضد معارضيه . موقفه من الاخوان المسلمين بنوع خاص . محاولته إنشاء صناعة عسكرية متقدمة بجمع العلماء والخبراء النازيين السابقين . الثمن الذي كان يتقاضاه من الولايات المتحدة لقاء سكوته عن إسرائيل . الأحزاب القومية بصورة عامة . افتقارها الدائم الى الجماهيرية والشعبية والى زعيم لايمكن توجيه طعن بخلقه . تعدد القيادات . الخلافات الايديولوجية الخاطئة والمحاولات اليائسة . الغول الذي خلقته تلك المحاولات قبل أن تلفظ دعوة الوحدة آخر أنفاسها . الإرهاب في البلاد الناطقة بالعربية

أصيبت الدول العربية على حدّ قول الكاتب المصري (أحمد أبو الفتح) بمرض اسمه الوحدة العربية وأنمى هذا الهدف المرض كتابات وأفكار وخطب لاهبة تحدثت عن المجد العربي المؤثل

الذي ستعيده الوحدة. اندفعت غوغائية نحو هذه الدعوة عندما اطلقت مع الطلقة الأولى في التاسع من شعبان في مكة. وارتحلت لتغدو حجر الزاوية في حزب أسسه شبهُ مهووس حالم. واندفعت وراء الزعيم الذي اشعل الحماسة بخطبه ونحن في الشرق الأوسط يسحرنا الكلام الذي يشبع عواطفنا وامانينا وننقاد بها بدل استشارة عقولنا وعوضاً عن الدرس والبحث لنجد بالأخير ان وحدة يسعى اليها رئيس حزب حاكم او رئيس دولة ليضم الى حكمه دولةً او دولاً أخرى لايمكن أن يكون مصيرها غير الفشل.

لم نفكر بان الخير كل الخير ان تظل كل دولة مهما كانت ظروف تأسيسها باستقلالها وسيادتها على ارضها رغم كل شيء.

رأينا كيف سعت سورية الى طلب الانضمام الى مصر ليحكمها عبدالناصر. ومن عاش ايام تلك الوحدة مازال يذكر كيف استقبل الشعب السوري زيارة الزعيم المصري الاولى. وكيف حملوا سيارته وهو داخلها على اكتافهم وساروا بها في شوارع دمشق تعبيراً عن غبطتهم بتحقيق حلم الوحدة. ما من شك ان معاصري تلك الفترة يذكرون ايضاً كيف تمزقت تلك الوحدة وكيف ثار الجيش والشعب معاً وكيف تم إلقاء القبض على الضباط المصريين وكيف خرجت المظاهرات في الشوارع تهتف بشعارات الحرية والاستقلال.

في ظرف اقل من ثلاث سنين أدرك السوريون ان الوحدة هي مظهر من مظاهر الاستعمار بل هو الاستعمار بعينه وان الخلاص من الوحدة القومية هو الحرية والاستقلال.

وما حصل في اليمن شبيه بهذا عندما شاركت القاهرة في انقلاب على الوحدة التي عقدت قبلها مع نظام الامامة. بل حتى الى وقت قريب وبخروج مصر من دائرة الوحدة عندما قرر رئيس اليمن الجنوبي ورئيس اليمن الشمالي في سبيل تحقيق حلم الوحدة، تدمير البلدين في حروب همجية طاحنة.

أريد هنا أن أقتبس من مقال كتبه أحمد أبو الفتح في جريدة الشرق الاوسط[1]:

«اذكر عن احلام الوحدة ان الزعيم سعد زغلول باشا تبنى في حركته الوطنية مبدأ وحدة مصر والسودان وبعده تمسك مصطفى النحاس باشا بذلك الهدف وحدث في السنة ١٩٥١ ان دب خلاف بين زعيمي الحزب السوداني الذي ينادي بالوحدة مع مصر وانتدبني الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية المصرية في حكومة حزب الوفد مع بعض الزملاء اعضاء مجلس النواب والشيوخ لنسافر الى الخرطوم

(١) بقي المقال ضمن محفوظاتي. الا انه كان غفلاً عن تاريخ ورقم الجريدة التي نشر فيها.

لازالة الخلاف بين الزعيمين السودانيين اسماعيل الازهري ووكيل الحزب محمد نورالدين وقضينا خمسة ايام نصل الى الصلح مساء وفي الصباح يتجدد الخلاف بينهما. والى جوار جهود المصالحة انتهزت الفرصة لدراسة ما يمكن ان تسفر عنه إقامة وحدة بين مصر والسودان تكون عاصتها القاهرة واقتنعت ان مصيرها سيكون كارثة. لان حزب الامة الذي ينتسب الى الزعامة الدينية للسيد عبدالرحمن المهدي وهو حزب يضم طائفة من المثقفين وعلى رأسهم السيد محمد احمد محجوب كان يعارض الوحدة: ولما عدت الى القاهرة قدمت لوزير الخاجية دراسة ضمنتها ما توصلت اليه وختمتها باقتراح ان تتحول سياسة الوفد من وحدة مصر والسودان الى اقامة أوثق العلاقات بين الدولتين. وطبعاً لم يأخذ الوزير باقتراحي ولا الحزب معتبراً اياها تدميراً لاهم مبادئه. بعد انقلاب الضباط في مصر دارت المفاوضات مع الانكليز وتقرر ان يترك للشعب السوداني اختيار المستقبل السياسي الذي يريده وسافر الصاغ (الرائد) صلاح سالم الى السودان. وذهب (اللواء) محمد نجيب وكان السودانيون يحبونه ومع ذلك تم الاستفتاء في السودان واختار الشعب الاستقلال ورأس اسماعيل الازهري السودان المستقل.»

هذه التجارب القاسية في محاولات فرض هدف القومية العربية الأسمى – الوحدة العربية الشاملة او غير الشاملة – من قبل أقلية ضئيلة متآمرة او بالقوة المجردة كما حصل في استخدام القوة العسكرية لضم الكويت، تدفعنا للتساؤل عما بقي من هذا الشعار اليوم – لاسيما في بلد يحكمه حزب يبدأ شعاره المثلث بكلمة «وحدة».

لقد جعل الفكر القومي من مقولة الوحدة صراعاً ومعارك وسجوناً ومعتقلاتٍ ومنافيَ ومصادرات ونصب مشانق ووطّأ ساحات اعدام. والوحدة التي يطمح اليها الانسان العصري الحر هو النقل الحضاري النوعي والعقلي من الدولة التي تخضع الى سلطة الفرد المطلقة الى القانون والدستور والمؤسسات التي تنظم عمل الحكومة متناغماً مع الرأي العام.

ودّع عبدالناصر هذه الدنيا وكان قد ودع حلم الوحدة العربية الشاملة قبلها بزمن بعيد وصار يهزأ في تصريحاته وخطبه باولئك الذين يريدون الاستمرار بالخديعة سعياً وراء السلطة لا غير.

توفي فجأة بسكتة قلبية في ٢٨ من أيلول الموافق لنهار الاثنين ١٩٧٠ وكان يعاني من مرض السكر واضطراب الدورة الدموية في ساقيه لعدة سنين.

قال (هيكل) موضع سره وثقته انه فكر في الاستقالة عدة مرات بسبب الآلام المبرحة التي كان يعانيها. الا انه كان يخشى ان يعد ذلك دليلاً على الهزيمة. وقال أيضاً انه وفي الحادي عشر من أيلول ١٩٦٩ عانى نوبةً قلبية ألزمته الفراش شهراً كاملاً الا ان خبر مرضه هذا لم يذع على الناس فقد كان المقربون يخشون تأثيره على الجيش والجماهير(٢).

ولكاتب هذه السطور ذكريات خاصة بالمناسبة المأساوية وانفعالات زالت حدّتها بتعاقب السنين ولم تعد تخلّف اسىً وألماً.

كان الوقت مساء عندما نُعي لي الزعيم المصري وانا رئيس تحرير صحيفة التآخي لسان الحزب الديمقراطي الكردستاني التي تصدر في بغداد. كان من رأي قيادة الحزب ضرورة التعليق وعدم المرور بالوفاة مروراً عابراً بسبب المواقف المحمودة التي كان عبدالناصر يقفها احياناً ازاء المسألة الكردية في العراق، بأن لانساير قطّ موقف الحكومة العراقية من الحدث. إذ كان ثم برودٌ عظيم يسود العلاقات بين الدولتين.

ما امسكت بالقلم حتى وجدتني اعاني ازمةً كادت تسد علي مذاهب التفكير. اذ تمثلت امامي الاثنان والاربعون شهراً التي قضيتها وانا في غرفة الاعدام بسبب المحاولة الانقلابية التي رعاها وايدها وزودها بالمال والسلاح في الموصل تلك المحاولة المعروفة بحركة العقيد الشواف، التي كانت حصيلتها مقتل نخبة عطرة من ضباط الجيش العراقي والشباب الابرياء. ومن المتفرجين الذين نالهم رشاشها لم اكن الوحيد وربما كنت اسعد حظاً من الكثيرين الذين لم تنفعهم وقفتهم على الرصيف، فقد بقيت حياً وهم ماتوا.

من جهة أخرى شخصت امامي صورة أخرى لرجل تمكّن ببعد نظر وجراءة وبغض النظر عن الاخطاء العظمى والجرائم الكبرى التي ارتكبها بحق القومية العربية وإساءته في احيان كثيرة تقدير المواقف السياسية – تمكن من تأليف القلوب حوله بصبر وجلد وألمعية لاريب فيهما

(٢) ذكر غيره ان حرب الايام الستة بعواقبها وبلياليها الحافلة بالأرق والقلق نالت منه كثيراً وحتى ان وزنه نقص خمسة عشر كيلو. وان مرض السكر سبب له مضاعفات واضطرابات كثيرة كالتهاب الاعصاب واضطرابات في القلب ولوحظ انه كان يجرّ ساقه اثناء سيره وانه كان يعرض نفسه على اطباء اجانب في السرّ نتيجة تخوفه من انتشار انباء مرضه. وانه في العام ١٩٦٨ استدعي له طبيب خاص بريطاني. كما انه قضى قبلها ثلاثة اسابيع في احدى المصحات الروسية. وبسبب مرض القلب كانت ترافقه دائما وحدة اوكسجين في رحلاته. عرض جثمانه في قصر القبة ثلاثة ايام. ومرت امام نعشه ملايين. وسار في نعشه ثلاثة رؤساء جمهوريات سابقين للولايات المتحدة فضلاً عن زعماء دول أخرى. ودفن في الأول من شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٠ في الجامع الذي سمي باسمه. قالت الصحف المصرية ان اربعة ملايين انسان ساروا في موكب التشييع. وهذه الصورة تعدّ اعظم تشييع يحفظه التاريخ والذاكرة لايّ زعيم في الشرق الأوسط.

والايمان به الى حد اغتفار كثير من زلاته وأخطائه الكبرى وبعضها لم يكن معروفاً او واضحاً بحجمه الحقيقي قبل وفاته. اذ كانت الغشاوة التي تنشرها ديانة عبادة الشخصية على الاذهان والابصار، لاتتيح مجالاً للتحدث بها او استقصائها. ولم تفقدني العاطفة شعوري بالواجب الملقى عليَّ اعلامياً بتنفيذ ارادة الحزب بخير ما يمكن تنفيذها.

وخَرَجْتُ بعد لأي بمقال اخترت له عنوان "عبدالناصر: حياً ومميتاً" لا املك نصه الآن اذ جعلته مقالاً رئيساً في صدر الصحيفة. وبدا لي الأمر وكأني اقوم من خلال مادته بمساومة فكرية بين مشاعري الشخصية وبين المطلب والواجب السياسي. فشرحت فكرتي فيه بقولي ان مقاييس الشهرة والرجال العظام من صانعي التاريخ يجب ان لاتتخذ على ضوء ما نجحوا في تحقيقه او قصروا دونه. وقمت بايراد اسماء عظماء من رجال السيف والسياسة افسح لهم التاريخ مواضع ارحب واكبر بكثير من اولئك الذين قهروهم وتغلبوا عليهم وانهيت المقال بابيات قليلة من شاعر انكليزي شهير غاب عني اسمه ومطلعها «حياة العظماء من الرجال تذكرنا دوماً بالارتفاع والتسامي بحياتنا ...Lives of great men always remind us وكانت السفارة المصرية عند ظهور المقال تعاني حصاراً تاماً واعضاؤها تحت تعقيب رجال الأمن المتواصل ولذلك لم تعترني الدهشة عندما وجدت سيارات الأمن تضرب نطاقاً حول دار التآخي حال دخول القائم بالاعمال المصري غرفتي مع اعضاء سفارته ليبلغ شكر حكومته وتقديرها بسبب الجراءة والتحدي اللذين اظهرهما الحزب وجريدته بالمناسبة وبرغم الجفاء الذي كان يسود البلدين ويباعد ما بين النظامين الثوريين التقدميين في القاهرة وبغداد حينذاك.

كان المقال بين القليل مما ندمتُ على عمله[٣] لا اذكره الاّ ومعه في خيالي صورة ذلك الذي حاول التوفيق بين عمله السياسي وبين ضميره واضطر بالأخير الى التضحية بالاخير منهما.

هذه شخصية اشغلت الناس وملأت الدنيا في حين من الزمن. ثم مرّت كما يمّر الشهاب الساطع بذيله الناري في كبد السماء يخطف الابصار وليضمحل بعد قليل فلا يعود له اثر.

(٣) لم انج من تبعات المقال ومتاعبه فقد اعتبرته السلطة تحدياً لها. وكان واحداً من اسباب اختطافي وانا سائر الى مكتبي في ١٩٧١ وزجي في قصر النهاية زهاء سبعين يوماً في حبس انفرادي. لم يكن بيني وبين الموت خلاله قيد شعرة والإفراج عني كان شبه معجزة. وكل ذلك من غرائب الاتفاق ان تتهدد حياتي مرتين بسبب عبدالناصر، اولاهما لأني اعتبرت واحداً ممن وقف في وجه محاولة الشواف الانقلابية التي دعمها الزعيم المصري. وثانيتهما عندما لم احسن الظرف فقمت بتأبينه. بعد فترة انبأني السيد مسعود البارزاني بان الإفتتاحية التي كتبتها عن عبدالناصر لقيت ثناءً حاراً بصورة خاصة من رئيس تحرير الاهرام محمد حسنين هيكل الذي وصفها بأنها «اصدق وافضل ما قيل بحق الراحل» ولله في خلقه شؤون!

لن احاول مطلقاً هنا تقديم صورة لعبدالناصر كما أراه وهذا بالتالي ليس من اغراض الكتاب. فكل ما يهمني منها هو اطلاع القاريء على علاقة هذا الزعيم المصري بالقومية العربية ونشاطه في حقلها. وماذا كان مصيرها ومصير اهدافها بعد وفاته.

خلال الفترة المنحصرة بين وفاته وبين كتابة هذه السطور وهي عمر جيل كامل. صدر من الكتب ونشر من الابحاث عنه ما يتسع لمكتبة كبيرة كاملة. الا انك لا تجد اليوم في مصر وطنه خصوصاً من يذكره. وتحاول ان تجد شيئاً عنه يذكرك به مما يبثه اكثر من عشرين محطة تلفزيونية مصرية ومثلها عربية فلا تجد من يذكرك به غير حزبٍ قومي اطلق على نفسه الحزب الناصري لااعرف له مقراً ولا نشاطاً محسوساً لصغره.

ويهمنا قبل كلّ شيء هنا طريقة الحكم او النظام الذي ابتدعه لنفسه لان كثيراً من زعماء العرب في زمانه وفي اعقابه عمدوا الى تقليده. واسلوبه هو التفرد بالزعامة كأي دكتاتور. وبناء سلطته المطلقة والانطلاق من شرعية النظام الذي خلقه. ولم يعتم الا واذا به شخصية هائلة ذات سلطان غير محدود، تستطيع بكل سهولة ان تقف بوجه الكوارث والخطوب والاخطاء في كثير من الاحيان. كان يرى بان كلّ ما هو جدير بالاهتمام في نظام مصر السياسي هو تنمية الرابطة بينه وبين الجماهير المصرية اولاً، ثم العربية بعد اعلانه عن تبني قضايا تلك الأمة، ومع انه كان مدفوعاً بشدة واخلاص لا شائبة فيهما الى الاهتمام باحوال تلك الجماهير ومحاولة انتشالها من الخصاصة والفقر والجوع والارتفاع بها الى مستوى معاشيّ كريم، الا انه كان يريد في عين الوقت ان لا يكونوا اكثر من دعائم لسياسته دون اشراكهم في هندستها او تطبيقها. ولم يدر انه كان يطلب منهم اكثر من طاقتهم: الوفاء والولاء الاعمى. فانه لم يشجع مساهمة سياسية فعلية تعادل الايمان الاعمى. كما لم يكن مستعداً قط لسماع انتقادٍ شديد منهم.

كان على نظامه ان يجتاز ازمات في غاية الخطورة ألجأته بالتدريج الى الاستغناء عن كل الطاقم الذي حقق ثورته في ١٩٥٢. وفي تلك الظروف كان يستخدم التاكتيك العتيق المعروف وهو صرف اهتمام الجماهير الى أمور أخرى، بخطب مباشرة «من القلب الى القلب» وقد ادى هذا به الى الاغراق في التوجه الى العامة. بهدف تخويف الخاصة والمحافظة على الرابطة المباشرة والاستمتاع بنفوذه على مجموعة هائلة من النظارة والسامعين الذين يشعرون عادة بأنهم موضع ثقة اذ ينيلهم شرف مخاطبتهم رأساً ومسارّتهم بآرائه ومشاعره الخاصة. هذا الاسلوب المباشر في مخاطبة العموم الذي سماه احد الكتاب بـ«حكومة المونولوج» كان

مقدراً له ان ينتهي بعواقب غير محمودة.

قبيل وفاته لم يكن يملك من الاصدقاء بين العرب غير انقلابيي السودان وليبيا ففي العام ١٩٦٩ وقع انقلابان عسكريان فيهما كما رأينا. وهذه الصداقة كانت ذات طابع حماسي متقلب مبعثها حداثة عهد الزعيمين بالسياسة ولجاذبية دعوى الوحدة العربية والعروة الوثقى التي تشد العرب كما كانا منذ عهد بعيد يتخذانه قدوة وبطلاً قومياً لا نزاع عليه. وكانا سعيدين بتلقي النصح والارشاد من قائد القومية العربية الاّ انه لم يعش كثيراً ليعاني من هذين مثلما عانى من زعماء اليمن وسورية والعراق.

لم يكن مثل هذا النوع من الرابطة مصدر عجب. ففي اوقات كثيرة سلم له زعماء البعث اللجوجين المعاندين بالزعامة واضطر كثير من اعدائه الانقلابيين وغير الانقلابيين الى الاشتباك في حرب سمعةٍ معه في بلادهم نفسها قال منيف الرزاز في شخصيته:

«ما حققه عبدالناصر في العهد الثوري، هو وضعه مصر في مجرى التيار القومي العربي الرئيس. وتزعمه الحركة القومية العربية. وفَتَحَ قلبه لسائر الحركات العربية التقدمية التحررية وسانَدَها.»(٤)

علينا ان نقف هنا لنتأمل في صحة استنتاج هذا المفكر البعثي الذي اغتاله بعث العراق. ربما كان من القسوة وقلة الانصاف محاسبة صاحب هذا القول بمعايير زمننا هذا، وبناء على الظروف التي جعلته يصل الى هذا الرأي، قبل انكشاف امور كثيرة بعد رحيله لم تكن معروفة اثناء حياته. ربما كان الرزاز يريد ان يفضح بصورة غير مباشرة وعلى سبيل المقارنة، قلة اسهام حزبه في ميدان العمل القومي العربي بعد انفصاله عنه وخيبة امله فيه حين لم يعد لعبدالناصر فُسحة لحمل راية الوحدة العربية غير ثلاث سنوات. حتى بحساب ظروف ذلك الزمن يصعب علينا ان نجد لقول الرزاز ومؤيديه في هذا الرأي مسوّغا معقولاً. ففي العام ١٩٦٨ كانت حركة الوحدة العربية قد افلست لأن الجهود التي اوقفت على هذا المسعى وعلى مسعى تحقيق التضامن العربي وهو المرحلة التي تتقدم الوحدة. كانت قد تحولت تماماً الى جهود نشر الاشتراكية العربية والثورة التي هي عند عبدالناصر والناصريين اساس لبناء الوحدة ومساندة

(٤) التجربة المرّة. المرجع السالف ص٥١ (هذا المثل البسيط يصلح ليكون دليلاً على الهيبة التي كان يتمتع بها اسمه) ففي العام ١٩٦٧ بعد حرب الايام الستة مثل كاتب هذه السطور وهو مازال سجيناً، امام المحكمة العسكرية العرفية في الموصل. بتهمة اطلاق عبارات قذف وتشهير بعبدالناصر في غرفة المحامين بالموصل على اثر فشل محاولة انقلاب الشواف في ١٩٥٩ وحكم بالسجن ثلاث سنين بناء على شهادات تطوع بها زملاؤه المحامون القوميون. الا ان محكمة الاستيناف الخاصة بتدقيق الحكم نقضت الحكم وبرأته اذ ليس في قانون العقوبات العراقي المعمول به آنذاك ما ينص على عقاب إهانة رجل دولة غير عراقي!!

عبدالناصر ما اعتبره انظمة تقدمية وبلاداً متحررة، مالثبت ان اتخذت شكل حرب طاحنة هادفة الى إسقاط النظم التي أبت الاعتراف بزعامته وخالفته، تدحرجت فيها رؤوس غالية وسالت فيها دماء غزيرة وفتحت السجون والمعتقلات ابوابها للمعارضين ولأحرار الفكر وروّاد الديمقراطية الأصائل الذين ابوا مشاركة الآخرين في تمجيد الثورة وصانعها.

نحن عشنا تلك الفترة وحاولنا ان نقف من احداثها موقف المتفرج على الرصيف عبثاً. فترة اجتمعت في اجواء الدول الناطقة بالعربية غيوم حرب باردة ذات صلة بالحرب الباردة التي كانت تعصف بالعالم على رحبه. رحلة حفلت بالمكائد والدسائس ونصب الفخاخ وشراء الذمم والقسوة المتناهية. مرحلة استخدمت لها ماكنة الدعاية الناصرية احدث ما توصل اليه البشر من وسائل علمية ونقلت لنا وللعالم العربي صور الالوف المؤلفة وقد اجتمعت او قل جمعت في دمشق والقاهرة والاسكندرية لتصغي الى خطبه. ولتهتف بشكل هستيري «ناصر، ناصر ناصر» ثم قرأنا في الصحف اوصاف تلك الاجتماعات الجماهيرية التي كانت في اكثر الاحيان تؤخذ مأخذ الموافقة الجماهيرية الجماعية على سياسته لتسحر المستمعين سحراً وتجعلهم مستعدين للايمان بكل ما يقول وفعل كل ما يريدهم ان يفعلوا.

قال عمر الورّاق: رأيت كلثوم ابن عمرو العتابي الشاعر يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام فقلت له: «ويحكَ اما تستحي من الناس؟» فقال: «ارايت لو كنا في دارٍ فيها بَقَر، أكنت تحتشم ان تأكل والبقر يراك؟» فقلتُ: «لا» فقال: «فاصبر حتى اريك هؤلاء الناس بقر.» ثم قام فوعظ، وقص، ودعا حتى كثر الزحام عليه فقال لهم: «رويَ لنا من غير وجه أنه من بلغ لسانهُ ارنبةَ أنفه لم يدخل النار.» قال (الوراق): «فما بقي احدٌ منهم، الاّ أخرج لسانه نحو ارنبة انفه محاولاً هل يبلغها أم لا.» فلما تفرقوا قال العتابي: «ألمْ اعلمك انهم بقر؟»(٥)

من المقولات التي جرت مجرى الأمثال في مصر بله العظات الخطيرة قولٌ للذي ينشد الرِفعة والتقدم في الحياة. ان كنتَ انتَ وانا امير، فمن يسوق الحمير؟ وهذا وكثيرٌ من اشباهه كان عبدالناصر به عليماً ولذلك ظل يضرب على وتر "العزة والكرامة" الأ انه لم يحاول تعليم هؤلاء البسطاء كيف يفكرون لأنفسهم – أي ان «سياقة الحمير» ليست المهنة الوحيدة التي عرفوها وكتبت عليهم – كيف يستخدمون حريتهم في التعبير عما يريدون، وهو مما يقتضيه اتخاذ خطوات عملية الى الديمقراطية السبيل الوحيدة الى ذلك وهم في هذه الدرجة من

(٥) العتابي شاعر شهير اختص بالخليفتين هرون الرشيد والمأمون وبالبرامكة. (هذه الحكاية تجدها في فوات الوفيات للكتبي). والبقر كما هو معروف يخرج لسانه دائما ليمسح انفه به.

الضعف وقلة الحيلة. بل اقتصرت جهوده على تذكيرهم بأنه انما يدافع عن كرامتهم ويعمل على ازالة ما لحقهم من ظلم. وبقي كذلك ولم يرتفع الى مستوى التوقعات المطلوبة من زعيم وطني حقيقي يتعذر علينا ان ننسى دوره العظيم في انقلاب (يوليو) وانتصارات الناصرية الأولى في المجال الوطني (المصري) والقومي (العربي). وعلينا ان نعزوها الى حذقه التاكتيكي البارز، الى شجاعة فيه، الى ثقة مطلقة بالنفس، الى سعة حيلة ومكر، الى بعد نظر مشوب بحذر، ثم الى قسوة. وكل هذه جعلت منه متآمراً ذكياً ومغامراً سياسياً بارعاً. بدأ حياته متآمراً وانتهى بها متآمراً. وعرف جيداً كيف ينتقي زملاءه الضباط المتآمرين معه وكيف يقودهم ويسيرهم بحسب ما يهوى في مجلس قيادة الثورة وفي الحكومة. ثم كيف يستغني عنهم واحداً بعد آخر عندما لايعود منهم نفع له[٦] او عندما يرى انهم صاروا يرتابون في اصالة سياسته، ويثبتون عناصر الخطأ والخطر منها. على انه كان قديراً في إعداد خططه سراً، ثم يبسطها بالتدريج لزملائه واعوانه المقربين بشكل يشعرهم بأنهم مشاركون في إعدادها، يفاجيء العالم بها من دون توقع. بدا في معظم الاحيان مرناً ليناً كيساً في علاقاته مع خصومه الواقفين في طريقه، الى حد الظهور بمظهر المهادن بل الصديق. لكنه كان يخفي وراء هذا قسوة لا تخالطها رحمة وصلابة عود تتحدى المنطق بحيث كان يبدو مجرداً للمباديء الخلقية او الرقة البشرية تبعاً لما تتطلبه الظروف[٧] وكثيراً ما كان يحاذر من مبادأة الآخرين ويفسح المجال لهم لأول رمية. على انه نال في الواقع سمعة دولية لردود فعله السريعة. اننا نجده في العادة يتخذ مواقف دفاعية عندما يكون هو المعتدي او المتجاوز محاولاً عادة ان يخلف انطباعاً بأنه مستهدفٌ لمؤامرة. والمتآمرون هم ابداً دائماً إمبرياليون، رجعيون، عملاء للغرب والصهونية.

وبرّأ دعاة الوحدة العربية من خصومة عامة. فقد خاطب القوميين العرب بما يحبون سماعه ويطربون له او بالاحرى بما يودون ان يصدقوا دعوته دائماً باي مقدار من الحقيقة مهما ضؤل. انه يثير عواطفهم ويثير حقدهم وحسدهم ونقمتهم بقوة شخصيته وباسلوب الاخلاص والبراءة التي يظهر بها للناس ليقوي ايمانهم به. وقد قالوا:

(٦) يذكر اللواء محمد نجيب في مذكراته ان حفيده جاء اليه يوماً من المدرسة رأساً وبادره قائلاً بلهجة عتاب: جدّاه كيف تقول انت اول رئيس جمهورية في مصر حين يقول لنا معلم التاريخ ان جمال عبدالناصر هو اول رئيس للجمهورية؟

(٧) قارن تعامله مع اللواء محمد نجيب ومع الملك حسين ابن طلال ومع عبدالكريم قاسم ومع عفلق والبعث بصورة عامة ومع الامام احمد في اليمن ومع الملك السعودي فيصل ومع انطوني ايدن، ومع خرشجوف والزعماء الروس ومع تيتو، ومع جواهر لال نهرو وغيرهم وغيرهم.

إن السبل ضاقت عليه في معالجة مشاكل المجتمع المصري. كما لم تكن مصر واسعةً بالقدر الذي يرضي طموحه السياسي. فوجدت فيه، فرصتها العظيمة لينقل إليها مركز الثقل في سياسته الى توحيد العالم الناطق بالعربية تحت لوائه. ثم الانتقال بما كسبه في هذا المجال – الى العالم الأفرو–آسيوي. ومنه الانطلاق الى عالم عدم الانحياز او ما دعي بالعالم الثالث. ولهذا وجدنا سياساته الدولية (الخارجية) تسبق دائماً برامج الاصلاح والتطور الوطني.

ولم يكن لديه برنامج محدد واضح المعالم يقدمه للمناقشة العربية بخصوص الوحدة العربية حتى وقع على الاشتراكية فجعلها على رأس الضغوط التي كان يمارسها في البلاد الناطقة بالعربية لتدمير خصومه[٨]، وقد تحدثنا في الفصل السابق بما لا مزيد عليه في هذا الباب ولكن لا بأس من اضافة قولنا هذا: ان تلك الضغوط لم تكن تتبع نظاماً معيناً واحداً. لكنها كانت في معظم الأحيان تنحو منحى إحداث خندق بين الشعب وحكامه فتراه يخاطبها من فوق رؤوس الحكام وزعماء القوم ولايقتصد في وصفهم بالخيانة والأُجراء وخدم الاستعمار مقابل التقرب من الجمهور بالمديح والثناء وباعتباره المرجع الوحيد في تقرير المصير العربي:

«إن مصير الأمة العربية لم يعد يتقرر في السفارات الأجنبية ولا الدول الأجنبية أو الدولة الواحدة بالاتفاق مع عملاء الامبريالية، بل يتقرر بجماهير الشعب وأفراده العاديين.»

كانت الصحافة المؤممة بحاجة الى كتاب مؤممين أيضاً. وهؤلاء الكتاب المؤممون كانوا

(٨) يراجع: موقفه من حلف بغداد والطريق الذي سلكه لمهاجمته في ١٩٥٥. موقفه من الملك فيصل آل سعود عند عقده الميثاق الاسلامي ١٩٦٦، ومهاجمته بورقيبه بسبب اتفاقه مع الفرنسيين على قواعد عسكرية لهم. كان بالفعل ناجحاً في اغلب الاحيان في ايجاد كبش فداء للفشل والكوارث التي تحل بمشاريعه العسكرية والاقتصادية. تراه في امثال هذه المواقف الحرجة يتخذ هيئة ذلك البطل الذي يأبى ان يخضع للتهديد او الابتزاز او الضغوط. قال في خطاب ٢٢ حزيران ١٩٦٦ للمصريين: «ان امريكا تؤخر ارسال فائض الاغذية التي طلبها بسبب سياسته المتعارضة مع سياسة الولايات المتحدة حول اسرائيل وبسبب خصومته مع السعودية» فتراه يتوجه الى الشعب المصري قائلاً «قالوا لنا اننا لانسلك طريقاً صحيحاً. ولاننا لانسلك طريقاً صحيحاً فقد قطعوا عنا المساعدة. ولهذا فاننا لن نحصل على مساعدة... اننا لن نستسلم ولن نتنازل... ان الحرية التي اشتريناها بدمائنا لن نبيعها بالقمح او بالارز او بأي شيء آخر» (من خطبه له في ١٩٦٥). في الوقع لم يكن النمط الناصري للاشتراكية موضع رضى لا من اصدقائه السوفييت وقتذاك ولا من خصومه العروبيين وفي مقدمتهم حزب البعث الذي بقي الى الاخير يعتبر نفسه قائد الامة العربية الى اهدافها النهائية وفق الترتيب المتدرج «الوحدة والحرية والاشتراكية». وذكروا الى جانب النقد السوفيتي الشديد ان برجنيف والنظريين السوفيت قالوا «ان عبدالناصر تختلط عليه الامور في الايديولوجي. وعندما تدرك الجماهير العربية مصالحها الحقيقية فانها لاتعود بحاجة الى عبدالناصر». [حداد، المرجع السالف، ج٢، ص١١٢].

يتسابقون فعلاً الى تقديم افضل الشروح للاشتراكية العربية التي تبناها عبدالناصر وعرفها بعضهم بانها نظام وسط بين الماركسية التي تؤمن بالكفاح الطبقي وامتلاك الدولة كل وسائل الانتاج، وبين الرأسمالية التي تقدم مصالح الفرد وتحكم الطبقة التي تمتلك وسائل الانتاج وهي الطبقة البورجوازية.

ورأى آخرون إنها تجعل من الدولة وسيطاً عادلاً يحول دون تضارب المصالح ويتحتم الاتفاق حولها لأنها تحقق مصالح الطبقات الاجتماعية كافة. ومثلما فصلت في الميثاق القومي[٩].

وذكروا أيضاً ان (الناصرية) ترى الديمقراطية السياسية مستحيلة من دون «ديمقراطية اشتراكية» ويقصدون بذلك ملكية الدولة جميع الخدمات العامة والمواصلات والبنوك وشركات التأمين والصناعات الثقيلة والمتوسطة. ثم واهم من كل هذا احتكارها التجارة الخارجية.

الى جانب هذا يجب ان يكون هناك مساواة في الفرص والخدمات الصحية والثقافية للجميع ومن دون تمييز الى جانب تشجيع التخطيط العائلي، وحل الفروق الطبقية يجب ان يتم ضمن الوحدة القومية العربية. ومادام واجب مصر العمل لها والدعوة اليها دائماً وبشكل مطلق، فانّ الحجة بان هذا يؤدي الى التدخل في شؤون البلاد والعربية الأخرى هي حجة مرفوضة[١٠].

لم يفلح نظام عبدالناصر وهو في اعلى مراحل قوته في تحقيق وحدة التيارات السياسية وقواها لدى الشعب المصري. فحركته بل قل تجربته الاخيرة «الاتحاد العربي الاشتراكي» لم تكن تزيد عن مجرد قناة تمر عبرها نوايا الحكومة ووسيلة لاحداث نوع من صلة مع الاهلين، ذات طرف واحد لاينقل من خلاله مطالب الشعب ورغباته او مقترحاته الى الحكومة.

واتهمه الاخوان المسلمون باستخدام لغة الاسلام لتغطية سياسته العلمانية. وانتقده

(٩) الثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن الامة العربية من التحرر والتخلص من التراث المظلم الذي اثقلت به والوسيلة الوحيدة للتغلب على التخلف الذي فرضه عليها القمع والاستغلال وهي التي تساعد الأمة على مواجهة التحدي المتوقع من العرب وغيرهم من الأمم المختلفة. الاخذ بالمكتشفات العلمية الباهرة والعمل على ازالة الفروق بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة. ان عصوراً من البؤس والآمال قد احدثت اخيراً اهدافاً واضحة للكفاح العربي وهي التعبير الحقيقي للوعي العربي في (الحرية والاشتراكية والوحدة) الحرية تعني حرية البلاد والمواطن. الاشتراكية هي وسيلة وغاية للوصول الى مجتمع الكفاية والعدل. الوحدة: هي نداء شعبي لاعادة النظام الطبيعي لأمة واحدة هي الآن مجزأة. وبالنظر الى الناصرية فان العمل للوحدة هو واجب محتوم على مصر في كل وقت وحين وبصورة مطلقة مع رفض الحجة في ان ذلك قد يؤدي الى تدخل في شؤون البلاد العربية الداخلية.

(١٠) في السنوات الثلاث او الاثنتين الاولى. جرى فعلاً تحديد ساعات العمل ووضع حدّ ادنى للاجور وجرى توسع كبير في نطاق الخدمات الصحية العامة وفتحت مدرسة في كل قرية ووزعت حصص من ارباح الصناعات على العمال. وكان ذلك ممكنا بسبب النمو السريع في الدخل القومي الا انه توقف. ولم يحصل للاستهلاك السلعي الخاص بالفرد ارتفاعاً بل اشار الى انخفاض عاد به الى ما قبل ١٩٥٢.

الماركسيون والشيوعيون لتشويهه الماركسية. الا ان القوميين العرب تلقوا الناصرية بالاحضان واشادوا وبالغوا في انجازاته الجبارة ونشاطه السياسي وتبنيه الحركات الثورية. وكلها بدت حيناً من الزمن توطئة لمجيء عالم جديد مختلف لامة عربية واحدة، وتنذر بالويل حكومات عربية رجعية محافظة:

«يجب ان يكون للحج قوة سياسية ضخمة، ويجب ان تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف، وانما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأي فيها وعلماؤها من كافة انحاء المعرفة وكتابها وملوك الصناعة فيها وتجارها وشبانها ليضعوا في هذا البرلمان الاسلامي العالمي خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام.»[١١]

ويقول ايضاً:

«ما من شك في ان الدائرة العربية اهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطها بنا. فقد امتزجت معنا بالتدريج وعانينا معها نفس المحن وعشنا نفس الازمات وامتزجت هذه الدائرة بالدين فنقلت مركز الاشعاع الديني من مكة الى الكوفة الى القاهرة»[١٢]

وبقيت «الناصرية العربية» واحدة من مجاري الفكر القومي العربي مشددة على الهوية العربية وعاملة على البلوغ بها الى مقام الكرامة معززةً بتجارب النصف الثاني من القرن العشرين الدموية التي عكرتها رياح الخوف وعواصف الطموح الشخصي ومشاعر الكره للاجنبي والشك الدائم في نوايا الاقليات العنصرية والدينية والطائفية.

واعتمد عبدالناصر في ثورته السياسية -القومية- الاجتماعية على اجهزة الامن. قيادة ما انشاتْ بعد ١٩٥٢ جهازاً واسعاً للامن والاستخبارات بهدف ضمان استقرار سياسي فبالاضافة الى الجهود التي بذلها القادة من اجل السيطرة على مفاتيح القوة في النظام عن طريق سياسة المشايعة في المؤسسة العسكرية وتضخيم دروها، استخدموا شبكة من اجهزة

(١١) عبدالناصر: فلسفة الثورة. مكتبة العرفان، بيروت بدون تاريخ، ص١١٠.

(١٢) المرجع نفسه، ص٨٦.

(١٣) تكونت شبكة الاستخبارات والامن من خمس دوائر رئيسة هي: الجهاز الخاص، هيئة الاستخبارات العامة، الاستخبارات العسكرية، المباحث الجنائية العسكرية، هيئة المباحث العامة (راجع: الدكتور اسعد عبدالرحمن: الناصرية ثورة بيروقراطية ام بيروقراطية ثورة؟) جامعة الكويت ١٩٧٧ الص ٩٧-١٠٠.

الامن والاستخبارات[١٣] اجهزة تتعلق بتنظيم حريات الفرد الخاصة والحريات العامة او اي شيء يتعلق بالنشاط الحزبي. وهي اجهزة مستنسخة من النظم الشيوعية للأغراض عينها.

وحصل ضباط الجيش على ترفيعات وتسهيلات معاشية كفلت لهم شرف العيش. رفعت رواتبهم اكثر من مرة الى حد الضعف وشرعت لهم قوانين كفلت لهم السبق والامتياز في الحصول على مساكن بايجار زهيد والحصول على سيارات خصوصية باثمان مخفضة كان بعضهم يعود لبيع السيارة في السوق السوداء للإفادة من فرق السعر وكان النقل او العزل الذي تهب اعاصيره بين الفينة والفينة لايتمّ بناءً على اعتبارات ادراية لاتتعلق بالكفاءة بل باعتبارات سياسية او ولاء لشخصه فاهتمام عبدالناصر بالبقاء في السلطة كان يفوق اهتمامه بالكفاءة والقدرة العسكرية وحسن التدريب والتهيئة لاداء الواجب ولذلك كثرت المصانعة والرياء بهدف الحصول على مركز قيادي رفيع، وكثرت ازاء ذلك التحديات والتمرد على القرارات لينتهي بهم التحدي الى ضياع مستقبلهم العسكري والسياسي ان لم يكن فيه ضياع حرياتهم[١٤] الشخصية.

اما رفاق السلاح الذين قاموا بالثورة، فبعد العام ١٩٥٦ لم يعد في مجلس قيادة الثورة اكثر من ستة او سبعة من اصل اربعة عشر او خمسة عشر. هؤلاء كثيراً ما نازعوه الرأي حول الخطوط السياسية والتعيينات. وفي العام ١٩٦٤ اختفى كل من (كمال الدين حسين وعبداللطيف البغدادي) واعتزلا الحياة العامة بالاستقالة. وفي ١٩٦٥ القي القبض على اولهما بزعم محاولته الاتصال بالعسكريين[١٥].

واهتم بالمظاهر اهتماماً عظيماً لانه كان يدرك مقدار تأثيرها الإعلامي. ونجح نظامه في اقامة جهاز دعاية معقد ودقيق الى درجة عالية حاولت دول عربية أخرى تقليده فيه

(١٤) بعد الانفصال مباشرة نشرت جريدة (النصر) الدمشقية تقارير عديدة مفصلة عن تحرك ضباط تجرأوا على انتقاد حكم عبدالناصر بتشجيع من ضباط سوريين فألقي القبض عليهم وبينهم العقيد (داود اويس) سكرتير المشير عامر ولم يعلم شيء بعده عن مصيرهم فقد اختفوا او ضاع اثرهم وكان هناك الخلاف حول التورط في حرب اليمن الذي انتهى بالاعداد لمؤامرة عسكرية ترمي الى الاطاحة بعبدالناصر في العام ١٩٦٦. والقي على عشرين ضابطاً بينهم من هو برتبة عقيد وكانوا يريدون سحب الجيش المصري من اليمن. انباء هذه المؤامرة تسربت الى الخارج ووصفت بأنها اخطر مؤامرة عسكرية على النظام واضطرت السلطة الى اجراء محاكمات سرية. ولم يعدم احد الا ان الاحكام ظلت سرا مغلقاً لان عبدالناصر كان يكره الاقرار علنا بوجود معارضة له في الجيش (نيويورك تايمز ١٧ نيسان ١٩٦٦).

(١٥) يجب الاقرار هنا بأنه لم يحاول الاعتداء على حياة احد من رفاقه الذين ناصبوه العداء واختلفوا معه. وانه ظل أميناً على القسم الذي اعتمدوه بينهم بان لايعتقل احدهم او يسجن او يقتل اذا اختلف رأيه عن البقية (انظر ما سبق حول تعامله مع محمد نجيب وخالد محي الدين).

لاستخدامه ضده فلم تصب النجاح الذي اصابه هو بفضله. وقد ادى هذا الجهاز دوره في تطوير عبادة الشخصية التي انتشرت في بلاد عربية أخرى في زمنه وبعده اكثر من انتشارها في مصر[١٦].

في مصر كانت زياراته للاماكن العامة، والمهرجانات الشعبية التي يؤمها وحركته مع رؤساء الدول الاجنبية تحف بها المظاهر المهيبة غير التلقائية. اذ يتم اعدادها وتلقن هتافات منتظمة كما يجري استعداد عسكري وپوليسي وتقف صفوفاً في الشوارع التي يمر بها موكبه في ساعات متأخرة من الليل وتنقل آلافاً من المصريين الذين يقطنون في احياء بعيدة من القاهرة للهتاف له في اثناء الاجتماعات الكبرى.

وكانت زياراته للدول تتمّ باستعداد ضخم فيها يرافقه عدد كبير من رجال الدولة باعتبارهم مستشارين ومعاونين وخبراء في مباحثات جانبية تافهة يختلقها هو، وتنفق عليها مبالغ طائلة وتغطيها الصحافة واجهزة الاعلام بشكل يثير الاشمئزاز مع صور ولمحات كابتسامة معبرة أو جملة مثيرة او التفاتة رشيقة يتعقبها جهاز كامل مرافق له وبشكل فاق اعظم مظاهر الابهة التي كانت تحف بملك مصر بمراحل. اتت جريدة نيويورك تايمس[١٧] الى وصف زيارته الجزائر في ١٩٦٣ بعد الاستقلال قالت:

«غادر الاسكندرية على ظهر يخت ابيض فخم، بحاشية كبيرة تخفره بارجتان حربيتان. في حين جند مئات من رجال الامن لمراقبته وحمايته في الجزائر، اقبل ومعه باخرة محملة بالاسلحة والعتاد هدية منه للجيش الجزائري الجديد»

مع كُلّ الاساليب التي اعتمدها لتطويع الشعب المصري المسالم بطبعه فقد كان ثم انفجارات. وفشل في قمع المعارضة لاسيما ولاؤها لبعض الزعماء الوطنيين القدماء. فقد بهت العالم في ٢٣ من حزيران ١٩٦٥ عندما انقلب تشييع جنازة (مصطفى النحاس پاشا) زعيم الوفد – الى تظاهرة هائلة فجرت ما اعتمل في نفوس الشعب من استياء كانت مظاهرة كبيرة تلقائية استدعى تفريقها الاستعانة برجال الامن.

(١٦) جلب انتباهي كتاب عنوانه (جمال عبدالناصر: الرجل الذي غير وجه التاريخ) لمؤلفه (طه عبدالباقي سرور) طبع في القاهرة ١٩٥٨ واعاد القوميون العراقيون طبعه ونشره في العراق بعد ١٤ تموز. فيه مجد المؤلف ثورة يوليو لأنها من صنع عبدالناصر. وحاول ان يثبت بصحائف عديدة كيف ان الله حمّل عبدالناصر رسالة انقاذ واحياء شعبه العربي الاسلامي فهو اكثر من قائد اسلامي ورجل دولة وبطل قومي. انه مبعوث العناية الالهية...»

(١٧) العدد المؤرخ في ٦ ايار ١٩٦٣.

ولا بأس من الاشارة هنا الى القسوة الشديدة التي استخدمها ضد الاخوان المسلمين بعد اكتشاف مؤامرتهم الواسعة في الثاني من تموز ١٩٦٥. وادت الى صدامات دموية مع قوات الحكومة في دمياط وضاحية الكردسة في القاهرة. فسيق ٤٣ من قادتهم الى محكمة الثورة. وتم تنفيذ حكم الاعدام بسبعة منهم. منهم الفقيه والاديب الكبير «سيد قطب» بتهمة التآمر على حياة عبدالناصر وقلب نظام الحكم.

في العام ١٩٦٣ خطر بباله ان انشاء صناعة عسكرية متقدمة تتمشى وسياسة الوحدة العربية بل تكون واحدة من دعاماتها فالسلاح المتقدم سيكون وسيلة تهديد من جهة ومصدراً يغني العرب عن استيراد سلاحهم من الخارج بكل القيود التي تفرضها الدول المنتجة. والفكرة كانت سليمة من اساسها الاّ انها فشلت فشلاً مزرياً عند محاولة التطبيق. فقد بدأ يقتنص العلماء والخبراء العسكريين النازيين من بقايا صناع الماكنة الحربية الالمانية في الحرب العالمية الأخيرة، والبحث عنهم في اماكن اختفائهم ومنهم عدد كبير من مجرمي الحرب الذين تتعقبهم محاكم البلدان الأوروبية. فاسكنهم القصور واغدق عليهم الاموال، واشاعت اجهزة الاعلام القاهرية ان بين ما كلف به هؤلاء العلماء بناء منظومة صواريخ بعيدة المدى. في الواقع لم يكن بين من جمعه منهم عالم حقيقي واحد، فهذا الصنف الثمين سبق للاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ان اخلتا السوق العالمي منه[١٨].

موقف عبدالناصر من حلف بغداد (المعاهدة المركزية) جدير بالتأمل انه يتصل اتصالاً مباشراً بادعائه بعروبة مصر وبزعامته العربية مثلما يربط الحبل السرّي الجنين بأمه.

وجد فيه اول الأمر تهديداً للزعامة المصرية في الشرق الاوسط وهي الزعامة التي اقرت بها البلاد الناطقة بالعربية منذ تأسيس جامعة الدول العربية. فقد وجد ان حلف بغداد سيجعل من العراق قاعدة للصولة عليه. وان المجهودات التي بذلها نوري السعيد بضمه الى الحلف كانت ترمي بالاصل الى القضاء على زعامته ونقلها من القاهرة الى بغداد. فالحلف عنده هو مجرد مؤامرة عربية المظهر ضده، اذن ما الذي يمنعه من اتخاذ القومية سلاحاً ضدّ الحلف. كان بوسعه ان ينفخ في فكرة الوحدة حياة جديدة.

وتطور الامر بعد القضاء على حلف بغداد[١٩] ولم يعد له من سبيل الى التراجع وكان عليه

(١٨) اذكر اني تابعت عرض تلك الصواريخ في العام ١٩٦٤ او ١٩٦٥ يوم ذكرى ثورة يوليو تحملها شاحنات ضخمة. نقش عليها بالخط العربي اسماؤها «القاهر» و«الناصر» ولم تكن في الحقيقة غير اسطوانات جوفاء.

(١٩) القضاء على هذا الحلف كان من آثار انقلاب ١٤ من تموز ١٩٥٨ عندما قرر الانقلابيون الخروج منه.

قبل كل شيء ان يقنع العالم الغربي ولاسيما الولايات المتحدة بان هذه الدعوة لا تؤثر في شيء على سير الحرب الباردة، بل ربما ستكون في صالح الغرب وامريكا (كان ذلك قبل تبني الاشتراكية). في ذلك الحين لم يكن عبدالناصر يعتبر الولايات المتحدة دولة امپريالية. والولايات المتحدة بدورها لم تكن تجد له ثقلاً او تأثيراً ايجابياً او سلبياً في الحرب الباردة حتى العام ١٩٦٤ مادامت دعوة الوحدة العربية الصادرة منه على ضعفها وفشلها المبدئي – ستظل تبقي العالم الاشتراكي على طول باع منه. ومادام يرضي امريكا بحربه على الشيوعية والشيوعيين في البلدان الثورية التقدمية العربية ولذلك لم تجد خيراً من مد يد المعونة له بالقروض السهلة الشروط والمنح – من اجل الاعمار والتطوير والانعاش الاقتصاديين[٢٠].

كشفت الصحافة القومية العدوة في لبنان وسورية الى جانب الاوساط القومية السياسية لاسيما الحركات الفلسطينية ان الولايات المتحدة انما كانت تدفع ثمناً للسكوت الناصري عن اسرائيل وعدم تحرشه بها. في مبدء الامر وصفت سياسته بالاعتدال نحو اسرائيل. الا انها مالبثت ان راحت تهاجمه بعنف شديد لاسيما الصحافة التي يشرف عليها البعث او يمتلكها عندما بدأ يهاجم نظام لبنان وعندئذ وجد ان زعامته العربية بل ومكانته العالمية في خطر شديد. وكان عليه ان يعلن نفسه لاحدهما[٢١] لم يكن بسبب من هذا التحدي – عندما أوقف الكونگرس الامريكي العمل باتفاق ارسال الطعام الى مصر، بل بحجة ان هذه المحنة ستحرر المال الذي يقوم عبدالناصر بانفاقه على شراء اسلحة للثوار الكونغوليين وغيرهم في البلدان المعادية. الا ان الكونگرس وبخطوة غير مسبوقة عاد فالغى قراره واستؤنف ارسال المساعدة الغذائية لمصر. ثم مالبثت الصحافة الامريكية ان كشفت بان اسرائيل نفسها هي التي تشفعت لمصر والحت في نصح الامريكان بخطأ سياسة وقف المساعدات!! وان (همفري) نائب رئيس الولايات المتحدة قام بدور الوسيط واعلم اعضاء الكونگرس سراً بان اسرائيل تعارض في

(٢٠) زاد حجمها في عهد رئاسة (كندي). كاتفاقية الطعام من اجل السلام التي زودت مصر بما قيمته ٤٥٠ مليون دولار من القمح وغيره خلال ثلاث سنوات.

(٢١) ذكر بانه قبل أكثر (٢٠٠) مليون دولار من المساعدة الامريكية لاطعام شعبه الجائع. ولضمان عدم مهاجمة اسرائيل بالقول او الفعل. ولاجل حماية مصالح امريكا النفطية والكف عن التآمر ضد الانظمة لها. فاسرع عبدالناصر ليبرهن على خطأ هذه التعليلات بخطاب القاه في كانون الثاني ١٩٦٥ رافضاً طلب البيت الابيض وقف مساعداته لثوار الكونغو وفيها هذه العبارة التي نالت شهرةً عالمية. قوله يخاطب الامريكان «ان لم يرضوا فليذهبوا يشربوا ماء البحر». ترجمت الصحف الامريكية كالنيويورك تايمس الخطبة ونشرتها ولم تترجم العبارة حرفياً وانما استبدلتها بما يقال عادة في هذه المناسبة باللغة الانكليزية – وهو مرادف يعطي عين المعنى والمقصود .Let them jump in to the lake «فليرموا أنفسهم في البحيرة».

(٢٢) توفيق موسى: الاشتراكية المصرية والقضية المصرية، ١٩٦٦ ص٧٢– محل الطبع غير معروف. =

ايقاف شحنات الغذاء[٢٢].

واستغل مفهومه للوحدة العربية وفسره بأنه بمثابة اجازة له للهجوم على البلاد الناطقة بالعربية بكل الاسلحة – على لبنان على سورية على العراق على الاردن على السعودية، على اية دولة منها او من غيرها تأبى السير في خطه وهو خط متعثر دائماً. وخطبه الجماهيرية التي تعبر عن سياساته او المناهج التي رسمها، كانت دوماً سخية في التحذير من اخطار الامبريالية والرجعية المحلية. ويلتبس الامر على متابعي اقواله فلا يدرون ايا من الانظمة او الرجعيين يقصد وهم يتغيرون باستمرار تبعاً لمواقفه منهم.

بقيت الاحزاب القومية العربية الى الاخير – احزاباً تفتقر الى الجماهيرية ولاتتمتع بشعبية حقيقية في البلاد العربية بدليل فقر النتائج التي تحصل عليها كلما جرت انتخابات عامة. ولانها دائماً تلجأ الى الانقلابات العسكرية لتأمين وصولها الى الحكم. وكان على عبدالناصر الاعتماد عليها وعلى طائفة من ادعيائها الانتهازيين النفعيين الذين يعلمون سراً وعلانية ويجاهرون بالتطرف القومي. وكل من لا أمل له في الوصول الى السلطة بالطرق الديمقراطية.

واستخدم عبدالناصرالشيوعية الدولية خارج مصر والدول الناطقة بالعربية، في حين شن على الشيوعيين في الداخل حرباً عنيفة. وافسح للضباط القوميين الثوريين عندما كان يخطط لتدمير سلطة الدولة. الا انه كان يحاربهم ويطاردهم عندما يرفضون الاذعان له او يأبون تسليم السلطة اليه او يعارضون سياسته.

★★★

حاولنا في هذا الجزء من الكتاب تقديم صورة واضحة الى حد ما لاسلوب تعامل عبدالناصر مع الدول الناطقة بالعربية ولو تعوض القاريء عن هذه الصورة – باستعراضه احداث العالم العربي خلال فترة تزعمه الحركة القومية – كما يستعرض الفلم السينمائي فسيجده لايقل امبريالية عن اولئك الامبرياليين الذين انتصر عليهم في ١٩٥٦. بل اعنفهم وابعدهم غلاظة في احداث الشقاق والعداوات والتآمر بدلاً من توحيد العالم العربي وراء شعارات التضامن والتنسيق واحلال الصفاء والوئام.

= [يضيف المؤلف الص ٧٢–٧٤ قوله: ان فلسطين والحالة هذه بقيت اداة هامة يستخدمها عبدالناصر للظفر برضا الامريكان وصداقتهم وعونهم عندما يشاء! وبرضا ودعم الاتحاد السوفياتي عند الضرورة. وهذا الموقف في عالم السياسة ينم عن حذق وبراعة متناهية. الا انه مبدأ وخُلُقاً ما هو إلاّ عملية خداع شائنة لصاحب قضية، عملية قد لاتكون ذات نفع للقضايا العربية ايضاً.

في هذا العالم الخيالي الذي اقترحته للقاريء لابد سيجد كيف ان سياسته العربية عملت فعلاً على شق الحركة القومية بدلا من اقامتها على المسار الصحيح وباقالتها من الوهدة التي اوقعتها فيها النظم الفاشية. وبدلاً من ان يعمل على ازالة فكرة التفوق العنصري من مفاهيم القومية، وماجلب في الثلاثينات والاربعينات من كوارث على الشعوب الناطقة بالعربية، شجع هذا الخط بصورة غير محدودة الى حد التزوير في تأريخ العرب.

أعلن في اوائل العام ١٩٦٢ ان مصر لن تواصل اتباع سياسة التضامن العربي مع الدول العربية غير الثورية وغير المتحررة. وتبنّى كما رأينا شعاراً جديداً بديلاً عن شعار [وحدة الصف] هو وحدة القصد. بهذا كتب حسنين هيكل الناطق الرسمي بلسانه في التاسع من آذار ١٩٦٢ بعنوان «لانريد تضامناً» قال فيه: ان عدم وجود تضامن بين سائر الدول العربية رجعيتها وتقدميتها يجب ان لايبقى فحسب بل يجب ان يزداد عمقاً ويجب ان تزداد الفرقة تباعداً. وليس هناك من سبيل الى تحاشي الاصطدام بين الجهتين والا اعترى الثورة العربية جمود.

وحذر المقال من مساومات وتسويات معينة ستأتي حتما وستكون عقبة في وجه المتغيرات الثورية الا انه – وكما راينا مالبث ان تحول عن شعار وحدة القصد، وعاد الى سياسة وحدة الصف بعد اجتماعات القمة، عندما التأم في الدار البيضاء. وتم التوقيع على اتفاق التضامن العربي. من اجل تنقية الاجواء بين الدول العربية (١٩٦٥) ومن بنوده ايقاف الحملات الاعلامية بين الدول العربية. وكان اول من نقض هذا الاتفاق بعد خمسة اشهر فقط.

لم تكن زعامة العرب تكفي فيما يبدو لارضاء طموحه. ولذلك كان يسعى الى الجمع بينها وبين زعامة افريقيا وقد فعل الكثير، لم تبق حركة استقلال واحدة فيها الا وتبناها بالمال والسلاح وقد ادى به في الزمن الطويل الى الاعتماد على الاسلام والاستعانة به بصورة اكبر من استعانته به قومياً. وقد ادى هذا الى نمو حركة «جهاد إسلامي» تزعمها متشددون اسلاميون. انقلبت في اكثر الامصار ومنها مصر نفسها الى اعمال ارهاب دموية – بعد الإفلاس السياسي لدعوى القومية[٢٣] والعقم الابدي الذي فرضته مفاهيم القومية الخاطئة

(٢٣) بعد انفصام الوحدة مع سورية. حمل عبدالناصر على عاتقه مهمة مقاومة افريقيا للغرب. تزعم المعركة فعلاً. وصورتها اجهزة اعلامه بأنها «دفاع عن الشعوب السوداء ضد الاستعمار الغربي» واعتبرت وسائل الاعلام المصري القاهرة عاصمة للثقافة الأفريقية وصدرت اوامر قاطعة لجامعة الازهر بتهيئة معلمين دينيين بغية ارسالهم الى البلاد الأفريقية المسلمة لاقامة مراكز اسلامية مرتبطة بالقاهرة. بلغ عدد هؤلاء المعلمين في العام ١٩٦٣ حوالي ٧٨٠ عالماً دينيا. كان عبدالناصر في الواقع يريد من انعاش الروح الديني والسياسي مقاومة النشاط الاسرائيلي السياسي والاقتصادي الفعالين في القارة الأفريقية.

على اقامة اية وحدة باي درجة ومهما كان شكلها بين الدول الناطقة بالعربية. الا اذا اتحدت انظمتها تحت لواء الديمقراطية وطورت انظمة متشابهة الى الحد الذي يمكن اقامة شيء شبيه بالاتحاد الاوروبي مثلاً.

عقّد جمال عبدالناصر المشكلة بفرضه نظاماً دكتاتورياً جديداً على انقاض نظام ديمقراطي متفسخ في مصر لم يبق فيه غير مظاهره فقاده فيه الانقلابيون العسكريون والثوريون والقوميون في بلاد عربية اللسان أخرى واقاموا انظمة دكتاتورية شبيهة بما اقامه، سرعان ما دب التناحر بينها. وتكالبت المؤامرات الداخلية عليها فسفكت الدماء واهدرت الاموال. وعانت الشعوب التي تحكمها تلك الانظمة من البؤس الاخلاقي ما ذكّرنا بالعهد الذي سماه مؤرخو الحضارة العربية بالفترة المظلمة.

استعرضنا في هذا الجزء من كتابنا مصائر تلك الانظمة ومقدار ما ساهمت في افساد دعوى القومية التي اقامها ابناؤها ودعاتها الاولون على دعائم شريفة نبيلة القصد وجرها خلفاؤهم الى مزالق ومتاهات خطيرة عصفت باهدافها النبيلة وحولتها الى اداة قمع وارهاب بحق الاقليات العرقية والقومية والطائفية التي تجاورها او تسكن بين ظهرانيها.

وعندما لفظت هذه الدعوى المنحرفة آخر انفاسها لم تنس ان تطلق احط الغرائز البشرية من عقالها بسبب اتخاذها الاسلام وتعاليمه ركيزةً كأن الاسلام ما جاء الا لخدمة القومية العربية ولم يجيء للانسانية جميعا وتكررت المأساة فافسح موت الدعوة او قل تشرذمها المجال واخلى الميدان الى طبقة المتشددين الاسلاميين الذين اتخذوا القتل صناعة لاتفرق في اختيار ضحاياها بين المسلم وغير المسلم فكلهم كفار لانهم يقفون في وجه الدعوة الى اقامة حكم اسلامي صرف مبني على الشريعة في سائر الدول الناطقة بالعربية.

ذلكم هو المسخ او الغول الذي قذفت به رحم الوحدة العربية قبل ان تخرج آخر انفاسها.

GEORGIS FAT-hulla

AN OUTLOOK
ON
THE FLOW AND EBB
OF THE ARAB NATIONALISM
UP TO 1970
(HISTORY AND ANALIZATION)

WITH
LIGHTS ON THE ASSYRIAN QUESTION
(THE AUGUST 1933 MASSACRES)

TOM. III: COUPS AND MILITARY DICTORSHIPS

تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع